تفسير القرآن الكريم

وإعرابه وبيانه

تأليف

الشيخ محمد علي طه الدرة

(رحمه الله)

دار ابن كثير

تفسير القرآن الكريم

وإعرابه وبيانه

تأليف

الشيخ محمد علي طه الدرة

(رحمه الله)

المجلد الأول

سورة الفاتحة وسورة البقرة

دار ابن كثير

كلمة الناشر

الحمد لله والصلاة والسلام على محمد رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه واتبع هداه.

وبعدُ؛ فإنَّ إعراب القرآن مفتاحٌ لفهمه وتفسيره، وهذا ما دعا العلماءَ للاهتمام بإعرابه في كتب التفسير، بل أفردوه بالتصنيف، فكثرت كتب الأعاريب ما بين قديم وحديث، ومطوّل ومختصر، لكن القديم منها يحتاج قارئها لقدر كبير من العلم بالأساليب والمصطلحات ليفيدَ منها.

أما الكتب الحديثة في إعراب القرآن فاشتهرَ منها اثنان:

الأول: «**إعراب القرآن وبيانه**» للعلَّامة اللغوي محيي الدين الدرويش، وقد نشرته الدار قبل سنوات (بالمشاركة مع دار اليمامة ودار الإرشاد) في طبعةٍ متميزة أنيقة.

والثاني: «**تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه**» للعلَّامة المفسّر النحوي الشيخ محمد علي طه الدُّرة رحمه الله، وقد امتاز هذان الكتابان بسهولة الأسلوب، واستيعاب المادّة، ويُسر المراجعة فكان عليهما معوّلُ طلاب العلم في هذا العصر.

وها هي الدار تقدّم لقرائها الأعزاء كتاب الشيخ الدرة ضمن إصداراتها لهذا العام وقد تميّزت هذا الطبعة بما يلي:

١- تصحيح النصّ مما عرض له من سهو قلم، أو خطأ في أثناء الطباعة، وذلك بدفعه إلى أساتذة من أهل الاختصاص (أحمد السيد، أكرم البوشي، يوسف بديوي) فعُنوا به أيّما عناية. فلهم الشكر الكبير على الجهود التي بذلوها.

٢- ضبط النص، ووضع علامات الترقيم التي تسهل فهمه.

٣- توثيق النقول بالرجوع إلى مصادرها.

٤- إثبات الآيات من المصحف الشريف، وضبط الأحاديث بالشكل وتمييزها بوضعها بين هلالين.

٥- ضبْط الشعر، وتسمية بحره، وقد قام بذلك الأستاذ الشاعر معاذ زغبيّة. فجزاه الله خيراً، ونفع به.

ولم تقتصر عناية الدار بالمادة العلمية وحدها،بل تعدَّتها إلى جودة الطباعة والتجليد بحيث يجتمع جمال المبنى مع جلال المعنى، فخرج هذا الكتاب بهذه الحلَّة الفاخرة.

إنَّ الدار لترجو بعد رضا الله سبحانه وتعالى أن تحافظ على ثقة قرّائها الكرام، بما تقدّمه لهم من مطبوعاتها في مختلف العلوم والفنون، سائلة الله تعالى التوفيق لذلك فهو الولي وهو المعين، والحمد لله رب العالمين.

دمشق ١٧ ربيع الأول ١٤٢٨هـ

٢٤ آذار ٢٠٠٨م

تفسير القرآن الكريم

وإعرابه وبيانه

المجلد الأول

سورة الفاتحة وسورة البقرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

1430 هـ ـ 2009 م

دار ابن كثير

للطباعة و النشر و التوزيع

دمشق ـ بيروت

ردمك : 978-9953-520-23-0

الموضوع : تفسير - علوم القرآن

العنوان : تفسير القرآن الكريم و إعرابه و بيانه 10/1

التأليف : الشيخ محمد علي طه الدرة

الورق : كريم

ألوان الطباعة : لونان

عدد الصفحات : 7520

القياس : 17×24

التجليد : فني - كعب لوحة

الوزن : 13 كغ

التنفيذ الطباعي : 53dots - بيروت

التجليد : مؤسسة فؤاد البعينو للتجليد - بيروت

دمشـــق ـ حلبـــوني ـ جـادة ابن ســـينا ـ بناء الجـابي

ص.ب : 311 ـ صالة المبيعات تلفاكس: 2225877 - 2228450

مكتب تلفاكس: 2243502 - 2458541

بـيروت ـ بـرج أبي حيـدر ـ خـلف دبـوس الأصلي ـ بناء الحديقة

ص.ب : 113/6318 ـ تلفاكس : 01/817857 - جوال : 03/204459

www.ibn-katheer.com - info@ibn-katheer.com

9789953520230

دار ابن كثير



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي أرسل محمداً ﷺ بالحق بشيراً، ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه، وسراجاً منيراً، مبشراً من آمن، وعمل الصَّالِحات بجنةٍ عرضها السموات والأرض، ومنذراً من كفر، وعاند، واقترف السيئات ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ وأنزل عليه كتاباً كريماً حوى علوم الأولين، والآخرين، ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ كتاباً عظيماً لا ريب فيه، لا يتطرق لساحته تحريف، ولا يشوبه تبديل، ولا تزييف ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾. كتاباً حفظه الله الذي أنزلَهُ، ولم يكِلْ حفظه إلى وليٍّ، ولا إلى صفيٍّ، بل تولاه برعايته، وعنايته إلى يوم يبعثون ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ كتاباً فتح الله به أعيناً عمياً، وآذاناً صمَّاً، وقلوباً غلفاً، كتاباً أسكت الفصحاء بفصاحته، وأخرس البلغاء ببلاغته، كتاباً آمنت الجن بآياته، وأذعنت لتعاليمه ﴿۞ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، لا ربَّ غيره، ولا معبود سواه، ولا طاعةَ، ولا تقديسَ إلا لشرعه وهداه، وأشهد أنَّ محمداً عبدُهُ ورسولُهُ، وحبيبه، وخليلُه، وصفيُّه، ومصطفاه، صلَّى الله عليه، وعلى آله، وأصحابه، ومن والاه، واغفر يا رب لمن نهج نهجهم، وسلك طريقهم إلى يوم الدين.

وبعد: فإن علوم القرآن الكريم كثيرةٌ، ومتنوعةٌ، فهو منهل عذبٌ لا ينضب ماؤه، ولا يُصدُّ وارده، وإنَّ علماء المسلمين من يوم أنزله الله على قلب محمد ﷺ، وهم يبحثون في علومه، ويتدارسون آياته للاطلاع على أسراره وكنوزه، كلٌّ يأخذ، ويغرف ما يقسمه الله له من تلك الأسرار والكنوز، فهناك علم الفقه، وهناك علم التفسير، وهناك علم المواريث، وهناك علم

القراءات، وأحكام التجويد، وهناك، وهناك، وهناك. . . إلخ، وهناك من اهتم بإعراب آياته وكلماته، ولا أقول شططاً، إن قلت: إنَّ الإعراب هو الوسيلة الوحيدة لفهم أسرار ذلك الكتاب، والإطلاع على كنوزه؛ لأن الإعراب هو الذي يبيِّن المحذوف، ويقدِّره، أو يشير إليه من قريب، أو بعيد، ولكن لم يصنف أحد منهم كتاباً يتضمن الإعراب الكافي الوافي، وإنما اقتصروا على إعراب بعض الصَّعب، أو حلِّ بعض المعقَّد، أو توضيح بعض المشكل، كما في إعراب أبي البقاء العكبري، وكما في إعراب مكي بن أبي طالب القيسي، وغيرهما، رحم الله الجميع رحمة واسعة، ولكنهما، وأمثالهما لم يشفوا الغليل فيما وصل إلينا من إعرابهم.

ومِنْ يوم منَّ الله علي بالجلوس على مائدة التأليف فكرت بإعرابٍ كافٍ وافٍ لكتاب الله تعالى، يجد فيه المبتدئ بغيته، والمنتهي أمنيته، ولا سيما بعد أن طلب ذلك منِّي الكثير ممَّن قرؤوا كتبي في الإعراب، أخصُّ بالذكر منهم المرحوم: محمد محيي الدين عبد الحميد المصري، جعل الله الجنة مأواه، فإنَّه التمس منِّي بواسطة من كان يوصل إليه كتبي، ويزوره في بيته أن أعرب الآيات التي استشهد بها ابن هشام ـ رحمه الله ـ في مغنيه بالإضافة لما قمت به من إعراب شواهده، فأيقنت بقرارة نفسي: أن إعراب تلك الآيات المستشهد بها معناه إعراب القرآن الكريم بكامله، فقمت بإعراب شواهد جامع الدروس العربية، وشرحها بعد إعراب شواهد المغني، وتيسَّر طبعه، ونشره، وهو متداول بأيدي الناس، وقمت بشرح كتاب قواعد اللغة العربية، وإعراب أمثلته، وشواهده، وتهيَّأ طبعه، ونشره، ثم قمت بإعراب المعلقات العشر، وشرحها، وأيضاً قمت بإعراب شواهد همع الهوامع، وشرحها، وهما لا يزالان مخطوطين عندي،لم يتيسر طبعهما، وبعد الانتهاء منهما طبعت رسالةً صغيرة، سمَّيتها: «**الحجُّ والحجَّاج في هذا الزمن**» بيَّنت فيها مفاسد بعض الحجَّاج، وكذبهم، وخداعهم، وما انطووا عليه من شرٍّ أكثر ممَّا اتصفوا به من خير.

وفي كلِّ هذه المدة الطويلة لم يغب عن خاطري إخراج مؤلف يضم بين دفتيه إعراباً وافياً كافياً لكتاب الله تعالى، وفي المدة الأخيرة قوي هذا الدافع، وصرت كالمتردد، أقدِّم رجلاً، وأؤخر أخرى؛ حتى استخرتُ الله تعالى ـ كعادتي في جميع أموري وشؤوني ـ فشرح الله صدري لهذا العمل، وأخذت أخط مبيضة بدون تسويد حتى خرج هذا الذي بين يديك أيها القارئ الكريم، وينبغي أن تتنبَّه للأمور التالية:

١ـ إنَّ المعلم المبتدئ يستفيد من شرح وتفسير كلام الله تعالى: إفراداً، وجملاً.

٢ـ بالنسبة للإعراب لا يستفيد من هذا الكتاب إلا الملمُّ بقواعد النحو، أعني به: معرفة الأفعال الخمسة، وأحوال إعرابها، وأحوال إعراب المثنى، والجمعين السالمين، وأسماء الإشارة، والموصولة، وإعراب المقصور، والمنقوص، ونحو ذلك.

٣- سلكت في هذا الإعراب طريق الاختصار، والإيجاز خوفاً من الإطالة، وما يتسبب عنها من ضخامة حجم الكتاب، بينما تجدني أحياناً توسعت في الشرح، والتفسير، والغاية من ذلك نفع العامة، والخاصَّة.

٤- من الإيجاز الذي سلكته في الإعراب والإعلال: الإحالة على آية سلفت في سورة سبقت، وقد يقع مثل ذلك في التفسير أيضاً، وقد تكون الإحالة على آية في سورة تأتي بعد، كما في قصَّة أصحاب السبت المذكورة في سورة الأعراف بالتفصيل، والمومأ إليها في سورة البقرة، وسورة النساء، وسورة المائدة إيماء.

٥- شرحت، وأعربت الاستعاذة، والبسملة مرَّةً واحدة في أول هذا الكتاب.

٦- لم أضع لسورة الفاتحة رقماً خاصّاً بها، وإنما أحيل عليها باسمها، وذلك لقصرها.

٧- وضعت لسورة البقرة [٢] ولسورة آل عمران رقم [٣] وهكذا، فعندما أحيل على رقم مؤلَّفٍ من رقمين؛ فالرقم الأول يشير للآية، والثاني يشير للسورة، فمثلاً الرقم [٢٠/ ٥] يعني: أنه من سورة المائدة، والرقم [١٧/ ٧] يعني: أنه من سورة الأعراف، وهكذا. أما الرقم الواحد، فإنه يعني نفس السورة.

٨ - اعتبرت في إعرابي لكتاب الله تعالى الضمير (إيَّاك إيَّاكم. . .) إلخ ونحو ذلك مبنيّاً على ما ينتهي به آخر اللفظ، وقد شرحت هذا، وبينت أسبابه في صفحات ملحقة بكتاب القواعد الطبعة الثالثة، انظره فإنَّه جيد.

٩- بعد هذا ينبغي أن تعلم: أني ذكرت أوجه القراءات، وما ينتج عنها من وجوه الإعراب، وهذا لا يتنافى مع الإيجاز الذي ذكرته، فإن غايتي أن يكون القارئ على علم بجميع وجوه الإعراب، وهو ممَّا يساعد على فهم كتاب الله تعالى، والاطلاع على أسراره.

١٠- المراجع التي اعتمدتها في تصنيف هذا الكتاب هي: تفسير الخازن، وتفسير الكشاف للزمخشري، وتفسير البيضاوي، وتفسير النَّسفي، وتفسير الجلالين، وحاشية الجمل عليهما، وإعراب القرآن لأبي البقاء العكبري، وإعراب مشكل القرآن لمكي بن أبي طالب القيسي، وكتبي [فتح القريب المجيب، إعراب شواهد مغني اللبيب] و[فتح رب البرية إعراب شواهد جامع الدروس العربية] وكتاب [قواعد اللغة العربية] وما صنعته فيه من شرح وإعراب بالإضافة إلى المصادر التي اعتمدتها في إخراج هذه الكتب، وقد ذكرتها في أواخرها.

وعملي هذا ليس بالهيِّن كما هو ظاهر، ولم يأتِ عفواً، وإنما هو عمل شاقٌّ، وصعب، ركبت كلَّ ذلول في سبيله، وتجشَّمت متاعب، ومشاقَّ؛ كلَّ بصري، وجفَّ عَرَقي في تحصيله، وعملي هذا مغامرة قمتُ بها؛ لأني لست من أهل ذلك، كما هو تطفل على مائدة التأليف، إن كان هذا من اختصاص حملة الشهادات العالية، لذا فإني أتمثل بقول القائل: [الوافر]

إِذَا قَصَّرْتُ رِفْقاً بِالْمَلَام أرومُ وَذَاكَ مِنْ قَوْمٍ كِرَامِ
لَقَدْ صَوَّبْتُ فِي التَّأْلِيفِ سَهْمَاً وَتِلْكَ رَمِيَّةٌ مِنْ غَيْرِ رَامِ

ثم ما أجدرني بقول ابن هشام ـ طيَّب الله ثراه ـ: إني سائل من حسن خِيْمُهُ، وسلم من دار الحسد أديمُهُ، إذا عثر على شيء طغى به القلم، أو زلت به القدم؛ أن يغتفر ذلك في جنب ما قرَّبت إليه من البعيد، ورددت عليه من الشَّريد، وأرحته من التعب، وصيَّرت القاصي يناديه مِنْ كثب، وأن يحضر قلبه؛ أنَّ الجواد قد يكبو، وأنَّ الصَّارم قد ينبو، وأنا النَّار قد تخبو، وأنَّ الإنسان محل النسيان، وأن الحسنات يذهبن السيئات: [الطويل]

وَمَنْ ذَا الَّذِي تُرْضَى سَجَايَاهُ كُلُّها؟ كفى المرءَ نُبْلاً أَنْ تُعَدَّ معايِبُهْ

بعد هذا ألفتُ الأنظار إلى قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ وإلى قول الرسول الأعظم ﷺ: **«وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبدُ فِي عَونِ أَخِيهِ»**، وفي رواية: **«مَا دَامَ العَبدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ»** راجياً ممَّن عثر على هفوةٍ في هذا الجزء، وغيره مما سيصدر ـ إن شاء الله تعالى ـ أن ينبِّهني، ويرشدني إليها؛ لأتدارك ذلك، وأشير إليه فيما يصدر تباعاً من أجزاء بعونه تعالى، فنكون قد أرضينا ربنا، ونفعنا مجتمعنا، وأرضينا ضمائرنا، مع العلم أنَّني أتقبل ـ كعادتي ـ بصدرٍ رحب، ونفسٍ ـ كلها رضا وشكر ـ كلَّ إشارة إلى خطأٍ يأتيني من قريب، أو بعيد، من عدوٍّ، أو صديق، من صالح، أو من طالح عملاً بقول سيِّدنا الأعظم ﷺ: **«خُذِ الْحِكْمَةَ، وَلَا يَضُرُّكَ مِنْ أَيِّ وعَاءٍ خَرَجَتْ»، «الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ يَلْتَقِطُهَا حَيْثُ وَجَدَها»**

وما أجدرني أن أتمثل بقول الجلال السيوطي ـ عليه سحائب الرحمة والرضوان ـ : فرحم الله امرءاً نظر بعين الإنصاف إليه، ووقف فيه على خطأ فأطلعني عليه، وأنشد: [الوافر]

حَمِدتُ اللهَ رَبِّي إِذْ هَدَانِي لِمَا أَبدَيْتُ مَعْ عَجْزِي وَضَعْفِي
فَمَنْ لِي بِالخَطا فَأُردَّ عنه وَمَنْ لِي بِالقَبولِ وَلَوْ بِحرفِ

ومن أراد غير ذلك فحسبي الله ونعم الوكيل، نعم المولى، ونعم النصير، عليه توكلت، وهو رب العرش العظيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلِّ يا ربِّ، وسلم على من أرسلْتَه رحمة للعالمين، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين، واغفر اللهم لي، ولوالديَّ، ولجميع المسلمين! والحمد للهِ ربِّ العالمين، آمين!.

الفقير لعفوه تعالى

الشيخ محمد علي طه الدُّرَّة

سورية ـ حمص

الاستعاذة

أَعُوذُ بِاللهِ من الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ

الشرح: (أعوذ): أتحصَّن، وأعتصم، وأستجير، وألتجئ؛ إذ معنى الاستعاذة في كلام العرب: الاستجارة والتحيُّز إلى الشيء، على معنى الامتناع به من المكروه، يقال: عذت بفلان، واستعذت به، أي: لجأت إليه، وهو عياذي، أي: هو ملجئي، وأصل الفعل: (أَعْوُذُ) على وزن (أنصر) فقل في إعلاله: اجتمع معنا حرف صحيح ساكن، وحرف علة متحرك، والحرف الصحيح أولى بالحركة من حرف العلة، فنقلت حركة الواو إلى العين بعد سلب سكونها، فصار: (أعُوذُ).

(الله): علم على الذات الواجب الوجود، المستحق لجميع المحامد، وهو اسم الله الأعظم؛ الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى، وإنما تخلفت الإجابة في بعض الأحيان عند الدعاء به لتخلُّف شروط الإجابة؛ التي أعظمها أكل الحلال، ولم يسمَّ به أحد سواه، قال تعالى في سورة (مريم) رقم [٦٥]: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ أي هل تسمى أحد الله غير الله؟! وقد ذكر في القرآن الكريم في ألفين وثلاثمئة وستين موضعاً، علماً بأنه لم يذكر في سورتي الرَّحمن، والواقعة أبداً.

(الشيطان): اسم يطلق على عدو الله إبليس، وقد يطلق على كل نفس عاتيةٍ خبيثةٍ، خارجة عن الصراط المستقيم من الإنس، والجنِّ، والحيوان، وما أكثر الشياطين بهذا المعنى من بني آدم! قال تعالى في سورة (الأنعام) رقم [١١٢] انظر شرحها هناك، ونصُّها: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾، وقال الرسول ﷺ لأبي ذرٍّ الغفاريِّ ـ رضي الله عنه ـ: «**يا أبا ذَرٍّ! تَعَوَّذْ باللهِ مِنْ شياطينِ الإنْسِ والجنِّ**». قال: أوَ للإنسِ شياطينُ؟ قال: «**نَعَمْ**»، ولا تنس أنَّ لكل واحدٍ من بني آدم شَيطاناً بدليل قول النبي ﷺ لعائشة ـ رضي الله عنها ـ: «**أَجَاءكِ شَيْطَانُكِ؟**» قالت: أَوَ لِي شيطانٌ؟ قال: «**مَا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَلَهُ شَيْطَانٌ**» قالت: وأنتَ يا رسولَ الله؟ قال: «**وأنا إِلَّا أَنَّني أَعَانني اللهُ عَلَيْهِ، فأسْلم، فَلا يَأْمُرُ إِلَّا بِخَيْرٍ**» يروى بضم الميم وفتحها.

هذا و(الشيطان) واحد الشياطين مأخوذ من شطَن: إذا بَعُدَ، والنون أصلية، فهو مصروف على هذا، وسمِّي الشيطان شيطاناً لبعده عن الحقِّ، وتمرده، قال جرير: [البسيط]

أَيَّـامَ يَـدْعُـونَـنـي الـشَّـيْـطَـانُ مِـنْ غَـزَلٍ   وَهُـنَّ يَـهْـوِيـنَـنـي إذْ كُـنْـتُ شَـيْـطَـانـا

وقيل: مِنْ: شاط: إذا احترق، وشاط: بطل، فالنون زائدة، وعليه: فهو غير مصروف. وشطن من باب قعد. وشاط من باب ضرب. هذا واشتاط الرَّجل: إذا احتدَّ غضباً، واشتاط: إذا هلك. قال الأعشى في معلقته رقم [٦٨]: [البسيط]

قد نَـخْـضِـبُ الـعَـيْـرَ فـي مَـكْـنـونِ فـائِـلِـهِ   وَقَـدْ يـشـيـطُ عـلـى أرْمَـاحِـنَـا الـبَـطَـلُ

ويقوِّي الاعتبار الأول، ويضعف الثاني: أن سيبويه حكى: أن العرب تقول: تشيْطن فلان: إذا فعل أفعال الشياطين، فهذا بيِّن أنه تفَيْعَل من شطن، ولو كان من شاط لقالوا: تَشَيَّطَ.

(الرجيم): فعيل بمعنى مفعول؛ أي أنَّه مرجوم باللعن والطَّرد عن الخير، وعن رحمة الله تعالى، وقيل: هو فعيل بمعنى فاعل. أي: يرجم غيره بالإغواء، والوسوسة. وأصل الرجم: الرَّمي بالحجارة، والرَّجم: القتل، واللعن، والطرد، والشَّتم. وقد قيل: هذا كله في قوله تعالى حكايَةَ عن قول قوم نوح له: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ رقم [١١٦] من سورة (الشعراء) وأيضاً قوله تعالى حكاية عن قول قوم شعيب له: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ﴾ رقم [٩١] من سورة (هود)، وقول أبي إبراهيم له: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ رقم [٤٦] من سورة (مريم)، والرجم: القول بالظنِّ، كما في قوله تعالى: ﴿خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ﴾ رقم [٢٢] من سورة (الكهف) قال زهير بن أبي سلمى في معلَّقته رقم [٣٠]: [الطويل]

وَمَـا الـحَـرْبُ إلا مَـا عَـلِـمْـتُـمْ وَذُقْـتُـمُـو   وَمَـا هُـوَ عَـنْـهَـا بِـالـحَـدِيـثِ الـمُـرَجَّـمِ

بعد هذا لا يخفى عليك المعنى لهذه الجملة، وقد يعبر عن الجملة بكاملها بكلمة: (الاستعاذة) على طريقة النَّحت، والنَّحت في الكلام: تركيب كلمة من كلمتين، فأكثر، نحو: البسملة، والحوقلة مِنْ: (لا حَوْلَ ولا قوَّةَ إلا بالله العَلي العَظيم) والاسترجاع مِنْ: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ والفذلكة من: (فذلك كذا، وكذا) وهلُمَّ جرًّا، وخذ قول الشاعر عبد يغوث بن الحارث بن وقاص الحارثي شاعر جاهلي، وهو الشاهد رقم [٥٠٣] من كتابنا فتح القريب المجيب: [الطويل]

وَتَـضْـحَـكُ مِـنِّـي شَـيْـخَـةٌ عَـبْـشَـمِـيَّـةٌ   كَـأَنْ لَـمْ تَـرَ قَـبْـلـي أَسِـيـراً يَـمَـانِـيـا

حيث نحت (عبشمية) من عبد شمس، وتفصيل ذلك تجده في الشاهد رقم [٣٠٥] من كتابنا المذكور، وهو لسويد بن أبي كاهل اليشكري: [الطويل]

هُـمُ صَـلَـبُـوا الـعَـبْـدِيَّ فـي جِـذعِ نَـخْـلَـةٍ   فـلا عَـطَـسـتْ شَـيْـبَـانُ إلا بـأَجْـدَعَـا

قال الخازن رحمه الله تعالى: ومن لطائف الاستعاذة: أن قوله: (أعوذ بالله. . .) إلخ إقرارٌ من العبد بالعجز، والضعف، واعترافٌ من العبد بقدرة الله عزَّ وجلَّ، وأنَّه الغنيُّ القادر على دفع

جميع المضرات، والآفات، واعترافٌ من العبد أيضاً بأنَّ الشيطان عدوٌّ مبين، ففي الاستعاذة لجوءٌ إلى الله تعالى القادر على دفع وسوسة الشيطان الغويِّ الفاجر، وأنَّه لا يقدر على دفعه عن العبد إلا الله تعالى. انتهى.

تنبيه: أجمع العلماء على أن الاستعاذة ليست من القرآن، ولا آيةً منه، وقد أجمعوا على الجهر بها في أوَّل القراءة في غير الصلاة، وفي الصلاة يسرُّها في أول كلِّ ركعة قبل الفاتحة عند الشَّافعيِّ، وعند أبي حنيفة يسرُّها في أول الركعة الأولى فقط، وقد روى أبو سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ النبيَّ ﷺ كان يتعوذ في صلاته قبل القراءة. وخذ في فضل الاستعاذة ما يلي:

عن سليمان بن صُرَد ـ رضي الله عنه ـ قال: استبَّ رجلان عند النبيِّ ﷺ، فجعل أحدهما يغضب، ويَحْمَرُّ وجهُهُ، وتنتفخ أوداجه، فنظر إليه النبي ﷺ فقال: «**إنِّي لأعْلَمُ كلمةً لوْ قالَهَا؛ لَذَهَبَ ذا عنه: أعوذ بالله مِنَ الشَّيطانِ الرَّجيم**» فقام إلى الرجل رجل ممن سمع النبي ﷺ فقال: أتدري ما قال رسول الله ﷺ آنفاً؟ قال: «**إنِّي لأَعْلَمُ كلمةً لوْ قالَهَا لَذَهَبَ ذا عنهَ: أعوذ باللهِ مِنَ الشَّيطان الرجيم**» فقال له الرجل: أمجنوناً تراني؟! رواه البخاريُّ، ومسلم. وروى مسلم أيضاً عن عثمان بن أبي العاص الثقفي ـ رضي الله عنه ـ: أنه أتى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله! إنَّ الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي، وقراءتي يَلْبِسُها عليَّ! فقال رسول الله ﷺ: «**ذَاكَ شَيْطانٌ يقال له: خِنْزَبُ، فإذا أحْسَسْتَهُ؛ فتعوذْ بالله منهُ، واتْفُلْ عن يساركَ ثلاثاً**». قال: ففعلت ذلك فأذهبه الله عني. هذا وقد قال تعالى في سورة (الأعراف) رقم [٢٠٠]: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ وقال تعالى في سورة (المؤمنون) رقم [٩٧ و٩٨]: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ وقال تعالى في سورة (فصِّلت) رقم [٣٦]: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

هذا وقالت طائفة من القرَّاء: إن التعوّذ بعد القراءة، وأخذوا بظاهر النَّص: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ رقم [٩٨] من سورة (النحل). والذي عليه الجمهور: أنَّ الاستعاذة قبلَ التلاوة لدفع الموسوس عنها، ومعنى الآية: إذا أردت القراءة، كقوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟﴾... إلخ؛ أي: إذا أردتم القيام، الآية رقم [٧] من سورة (المائدة).

وعن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: كان رسول الله ﷺ إذا سافر، فأقبل عليه الليل؛ قال: «**يا أرْضُ رَبِّي وَرَبُّكِ اللهُ، أعوذُ باللهِ من شَرِّكِ، ومن شرِّ ما خَلَقَ فيكِ، وَمِنْ شَرِّ مَا يَدبُّ عَليكِ، وَمِنْ أسدٍ، ومِنْ أسودٍ، ومن الحيَّةِ، والعقرب، ومن ساكِنِ البَلَدِ، ووالدٍ ومَا ولَدَ!**» رواه أبو داود.

الإعراب: (أعوذ): فعل مضارع، والفاعل مستتر فيه وجوباً تقديره: «أنا» (بالله) متعلقان بالفعل قبلهما، هذا وإن علقتهما بمحذوف حال من الفاعل المستتر؛ فلا بأس به، ويكون

التقدير: أعوذ مستجيراً بالله. (من الشيطان): متعلقان بالفعل قبلهما. (الرَّجيم): صفة الشيطان مجرور مثله، هذا ويجوز رفعه على أنَّه خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: هو الرَّجيم، ويجوز نصبه على أنَّه مفعول به لفعل محذوف، التقدير: أذم الرَّجيم، وهذان الوجهان على القطع عن الإتباع، قال ابن مالك رحمه الله في ألفيته: [الرجز]

واقْطَعْ أو اتْبِعْ إنْ يَكُنْ مُعَيَّنا بدُونِها أو بَعْضِهَا اقطَعْ مُعْلِنَا
وارفَعْ أو انْصِبْ إنْ قَطَعْتَ مُضْمِرا مُبَتَدأً أو نَاصِباً لنْ يَظْهَرَا

وجملة: (أعوذ بالله...) إلخ مبتدأةٌ لا محل لها من الإعراب.

سورة الفاتحة

هي مكية، وقيل: مدنية، والأصح أنها مكية، نزلت بمكة حين فرضت الصلاة، ثم نزلت بالمدينة حين حولت القبلة إلى الكعبة المشرفة، وسبب ذلك التنبيه على فضلها وشرفها، وارتفاع مكانتها عند الله وعند رسوله، وتسمَّى أمَّ القرآن لقول النبي ﷺ" «**لا صلاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرأْ بأمِّ القرآنِ**». رواه البخاريُّ، ومسلمٌ عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن النبي ﷺ: قال: «**مَنْ صَلَّى صَلاةً لَمْ يَقْرأ فيها بِأُمِّ القُرآنِ، فَهِيَ خِداجٌ ـ يقولها ثلاثاً ـ**». أي غير تمام، وسميت أمَّ القرآن لاشتمالها على المعاني التي في القرآن، كما ذكرته لك سابقاً.

وتسمَّى سورة الوافية، قاله سفيان بن عُيينة؛ لأنها لا تنتصف، ولا تحتمل الاختزال، ولو قرأ من سائر السور نصفها في ركعة، ونصفها الآخر في ركعة، أي بعد الفاتحة لأجزأ. وتسمَّى الكافية، قال يحيى بن أبي كثير: لأنها تكفي عن سواها، ولا يكفي سواها عنها. وتسمَّى سورة الكنز، لقوله ﷺ حاكياً عن قول الله عز وجل: «**فاتِحَةُ الكِتَابِ كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ عَرشِي**». وسورة الشِّفاء، والشَّافية لقول الرسول ﷺ: «**فاتِحَةُ الكِتَابِ شِفَاءٌ مِنْ كُلِّ دَاءٍ إلّا السَّام**» وفي روايةٍ آخرى: «**فَاتِحَةُ الكِتَابِ شِفَاءٌ مِنْ كُلِّ سُمٍّ**». أخرجه الدارمي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. وسورة المثاني، سميت بذلك؛ لأنها تثنَّى في كلِّ ركعةٍ، قال تعالى في سورة (الحجر) رقم [٨٧] ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾. وتسمى سورة الصَّلاة؛ لقول أبي هريرة رضي الله عنه: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**قال الله عز وجل: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال الله: حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قال الله: أثنى عليَّ عبدي، فإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ قال الله تعالى: مجَّدني عبدي، فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قال الله: هذا بني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ...﴾ إلخ؛ قال الله: هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل**». رواه مسلم.

وتسمَّى سورة الحمد؛ لأنَّ فيها ذكر الحمد، كما يقال: سورة الأعراف، والأنفال، ونحوها. وتسمَّى سورة الأساس، فإنها أساس القرآن، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «إذا اعتللت، أو اشتكيتَ؛ فعليك بالأساس». وشكا رجل إلى الشعبي وجع الخاصرة، فقال: عليك بأساس القرآن؛ فاتحة الكتاب. وتسمَّى سورة الرُّقية، ثبت ذلك في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: وفيه: أن رسول الله ﷺ قال لرجل الذي رقى سيِّد الحي: «**وما أدْرَاكَ أنَّها رُقْيَةٌ؟**» فقال: يا رسول الله! شيء ألقي في رُوعي. الحديث مشهور، خرَّجه الأئمة.

وسمِّيت فاتحة الكتاب؛ لأنها تفتتح قراءة القرآن بها لفظاً، وتفتتح بها الكتابة في المصحف خطّاً وتفتتح بها الصلوات، والمرجَّح: أنها أوَّل سورة كاملة نزلت، وأمر النبي ﷺ بجعلها أول القرآن، وانعقد الإجماع على ذلك، وهي سبع آيات بالاتفاق، فمن عدَّ البسملة آيةً منها لا يقف على: ﴿ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ ومن لم يعدَّها آيةً منها يقف على ﴿ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾وهي سبع وعشرون كلمةً، ومئة وأربعون حرفاً.

حكمها في الصَّلاة: هي ركن في كلِّ ركعةٍ من ركعات الصلاة: الفرض، والنفل عند الشافعي، وأحمد، وعند مالك في القول الثاني له، وهو المعتمد في مذهبه لقوله ﷺ: «**لا صَلاةَ لِمَنْ لَمْ يقرأ فيها بفَاتِحةِ الكِتَابِ**»، وقوله ﷺ: «**مَنْ صلَّى صلاةً لَمْ يقرأْ فيها بِأمِّ القرآنِ، فهي خِدَاج ـ ثلاثاً ـ**» وقد تقدَّمالحديثان قريباً. ولا تعدُّ ركناً في ركعات الصلاة عند أبي حنيفة، بل تعدُّ واجباً، الواجب عنده دون الفرض والرُّكن، وهو: ما ثبت بدليل ظنِّي، واستدل بقول الله تعالى: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ وبقول الرسول ﷺ لمسيء الصلاة: «**ثمَّ اقرأْ ما تيَسَّرَ معكَ من القرآن**»، فتصح الصلاة إذا قرأ في صلاته غير الفاتحة، ولكن فيها نقص، فيجب إعادتها، وقد روى أبو داود عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: أمرنا أن نقرأ بفاتحة الكتاب وما تيسر. فدل هذا الحديث على أنَّ قول النبي ﷺ للأعرابي: «**اقْرَأْ ما تَيَسَّرَ معكَ مِنَ القُرآنِ**» ما زاد على الفاتحة، وهو تفسير قوله تعالى: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾.

حكم الفاتحة بالنسبة للمأموم: يقرؤها خلف الإمام في كلِّ ركعة عند الشافعي، وأحمد، ومالك في المشهور عنه في السِّرية، والجهرية، إلا المسبوق إذا أدرك الإمام راكعاً، فإن الإمام يحمل عنه القراءة لإجماعهم على أنه أدركه راكعاً: وإنه يكبر تكبيرة الإحرام قائماً منتصباً، ولا يقرأ شيئاً بشرط أن لا يشتغل بسنةٍ مِنْ تعوُّذٍ، وتوجُّهٍ.

وعند أبي حنيفة: لا يقرأ المأموم خلف الإمام في السِّرية، ولا في الجهرية؛ لعموم قوله تعالى في سورة (الأعراف) رقم [٢٠٤]: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ انظر شرحها هناك، فإنَّه جيِّدٌ، والحمد لله.

تنبيه بل فائدة: من تعذَّر عليه بذل جهده، فلم يقدر على تعلم الفاتحة، أو شيءٍ من القرآن، ولا علق منه بشيءٍ لزمه أن يذكر الله في موضع القراءة بما أمكنه، من تكبيرٍ، أو تهليل، أو تحميدٍ، أو تسبيحٍ، أو تمجيدٍ، أو لا حول ولا قوة إلا بالله؛ إذا صلى وحده، أو مع إمام فيما أسرَّ به الإمام، فقد روى أبو داود، وغيره عن عبد الله بن أبي أوفى، قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: إني لا أستطيع أن آخذ من القرآن شيئاً،فعلمني ما يجزئني منه، قال: «**قل: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله**». قال: يا رسول الله! هذا لله؛ فما لي؟ قال: «**قل: اللهم ارحمني، وعافني، واهدني، وارزقني**».

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾

الشرح: قال القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ قال العلماء: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قسم من ربنا، أنزله عند رأس كل سورة، يقسم لعباده: إنَّ هذا الذي وضعت لكم يا عبادي في هذه السورة حقٌّ، وإني أوفي لكم بجميع ما ضمنت هذه السورة من وعدي، ولطفي، وبرِّي. ولم أره لغيره، وليس فيها معنى القسم، والبسملة مما أنزله الله تعالى في كتابنا خصوصاً بعد سليمان، على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام، وقد تضمَّنت جميع الشرع؛ لأنَّها تدل على الذَّات وعلى الصِّفات، لذا فالقول: إن القرآن تضمَّن كل ما في الكتب السابقة من أمور الدنيا والآخرة، والفاتحة تضمَّنت كل ما في القرآن الكريم، والبسملة تضمَّنت كل ما في الفاتحة، وجميع ذلك في الباء من البسملة، وكأنَّ الله عز وجل يقول: بي كان، وما يكون، وما سيكون في الدنيا والآخرة. والله أعلم بمراده، وأسرار كلامه.

قال سعيد بن أبي سكينة: بلغني أنَّ عليَّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ، نظر إلى رجل يكتب: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فقال له: جوِّدها، فإن رجلاً جوَّدها، فغُفِرَ له، وقال سعيد أيضاً: وبلغني أنَّ رجلاً نظر إلى قرطاس فيه: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فقبَّله، ووضعه على عينيه، فغُفِرَ له. ومن هذا المعنى قصة بشر الحافي، فإنَّه لمَّا رفع الرقعة التي فيها اسم الله من مكان ممتهن، وطيَّبها بمسك بعد أن نظَّفها، وأزال عنها الأقذار؛ طيَّب الله اسمه؛ أي: رفع ذكره بين الناس، ويحكى: أنه قيل له في المنام: كما طيبت اسمنا لنطيبنَّ اسمك.

وروى النَّسائيُّ عن أبي المليح عن ردف رسول الله ﷺ، قال: إن رسول الله ﷺ قال: «**إذا عَثَرَتْ بكَ الدابَّةُ؛ فلا تقلْ: تَعِسَ الشَّيطَانُ، فإنهُ يتَعَاظَمُ حتى يصيرَ مثلَ البَيْتِ، ويقولُ: بقوتي صنعتُه، ولكنْ قلْ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، فإنه يَتَصَاغرُ حتَّى يصيرَ مِثْلَ الذُّبابِ**».

وروى وكيع بن الأعمش، عن أبي وائل: عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: من أراد أن ينجيه الله من الزبانية التسعة عشر، فليقرأ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فيجعل الله تعالى له بكل حرف منها جُنَّةً من كل واحد، فالبسملة تسعة عشر حرفاً على عدد ملائكة أهل النار الذين قال الله فيهم ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ وهم يقولون في كل أفعالهم: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فمن هنالك هي قوتهم، وببسم الله استضلعوا. هذا وكسرت الباء الجارة في البسملة وغيرها، لتكون حركتها مشبهة لعملها، وقيل: كسرت ليفرق بين ما يخفض، ولا يكون إلا حرفاً، نحو الباء، واللام الجارة، وبين ما يخفض، وقد يكون اسماً، نحو الكاف في قول العجاج: [الرجز]

بِيضٌ ثَلاثٌ كَنِعَاجٍ جُمِّ ... يَضْحَكْنَ عَنْ كَالبَرَدِ المُنْهَمِّ

وهذا هو الشاهد رقم [٣٢٦] من كتابنا فتح القريب المُجيب فانظره، وما ألحقته به، فإنه جيد، والحمد لله ربِّ العالمين.

هذا وقد ندبنا الرسول ﷺ إلى افتتاح جميع أمورنا بالبسملة تيمُّناً، وتبرُّكاً، كالأكل، والشرب، والنَّحر، والجماع، والطَّهارة، وركوب الدابة، والسيارة، والطيَّارة، وغير ذلك من الأفعال، فقد روى الخطيب في كتاب الجامع عن النبيِّ ﷺ، قال: «**كُلُّ أمرٍ ذي بالٍ، لا يُبْدَأُ فيهِ ببسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ، فهو أَبْتَرُ**» وفي روايةٍ: «**فهوَ أَقْطَعُ**» والمعنى: قليل البركة، أو معدومها، لذا سمِّيت الخطبة التي ألقاها زياد ابن أبيه في العراق: البتراء؛ لأنه لم يبدأها بالبسملة.

بعد هذا ينبغي أن تعلم: أنَّ البسملة آيةٌ من سورة الفاتحة، وآيةٌ من كلِّ سورة ما عدا براءة عند الشَّافعي، ولا تعدُّ آيةً في كلِّ ذلك عند مالك، وأبي حنيفة، وإنَّما هي للفصل بين كلِّ سورتين، وأحمد بن حنبل يعدُّها آية من أول سورة الفاتحة، وليست آية في غيرها، ـ رضي الله عنهم ـ أجمعين، واحتجَّ الشافعي ـ رضي الله عنه ـ بما رواه الدَّارقطني من حديث أبي بكر عبد الحميد بن جعفر الحنفي عن نوح بن أبي بلال، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**إذا قرأتمُ الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ فاقرؤوا:** ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ **إنَّها أمُّ القرآنِ، وأُمُّ الكتابِ، والسَّبعُ المثاني**». قال: بينما رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا؛ إذ أغفَى إغفاءة، ثم رفع رأسه متبسِّماً، فقلنا: ما أضحككَ يا رسولَ اللهِ؟! قال: «**نزلتْ عليَّ آنِفاً سورةٌ**». فقرأ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ...﴾ إلخ، وذكر الحديث، وذكرته بكماله في سورة الكوثر، والحمد لله.

(اسم): اختلفوا في اشتقاقه، فقال البصريُّون: أصله: سُمُو، بضم السين وكسرها، من السُّمو، وهو العلوُّ، والارتفاع، فاسم الشيء ما علاه؛ حتى ظهر به، وعلا عليه، فكأنه علا على معناه، وصار علماً له، فحذفت لامه، وعوض عنها همزة الوصل في أوله، وقال الكوفيون: أصله: وَسْم من السِّمة، وهي العلامة، فكأنه علامة لمسمَّاه، حذفت فاؤه، وعوض عنها همزة الوصل. وحجَّة البصريين: أنه لو كان اشتقاقه من السِّمة، لكان تصغيره: وُسَيْم، وجمعه: أوسام؛ لأن التصغير والتكسير يردَّان الأشياء إلى أصولها، وقد أجمعوا على أن تصغيره: سُمَيٌّ، وجمعه: أسماء، وجمع الجمع: أسام، وقد حذفت الألف من ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ...﴾ إلخ للخفَّة، ولكثرة الاستعمال، وأُثبتت في قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ لقلَّة الاستعمال، هذا و(اسم) أحد الأسماء العشرة التي بنوا أوائلها على السُّكون، فإذا نطقوا بها مبتدئين، زادوا همزة الوصل في أولها توصلاً للابتداء بالسَّاكن، علماً بأن هذه الهمزة تسقط في وصل الكلام؛ وإن كتبت، وربما جعلها الشاعر ألفَ قطعٍ للضَّرورة، كقول الأحوص: [الطويل]

وَمَا أنا بالمخسوسِ في جِذم مالكٍ ... ولا مَنْ تَسَمَّى، ثمَّ يَلْتَزِمُ الإسْمَا

انظر مبحثها في كتاب قواعد اللغة العربية بشرحنا، هذا وذهب أبو عبيدة معمر بن المثنى إلى أن لفظة: (اسم) صلة، أي: زائدة، واستشهد على ذلك بقول لبيد بن ربيعة الصَّحابي - رضي الله عنه - انظره تبعاً ملحقاً للشاهد [٩٧٦] من كتابنا فتح القريب المجيب، ونصُّه: [الطويل]

إلى الحَوْلِ ثَمَّ اسمُ السَّلامِ عليكُمَا وَمَنْ يَبْكِ حَوْلاً كَامِلاً فَقَدِ اعْتَذَرْ

واختلفوا في معنى زيادته، فقال قطرب: زيدت؛ لإجلال ذكره تعالى، وتعظيمه.

وقال الأخفش: زيدت؛ ليخرج بذكرها مِنْ حكم القسم إلى قصد التبرك؛ لأن أصل الكلام: بالله.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾: اسمان من أسماء الله الحسنى، وقيل: صفتان مأخوذتان من الرحمة، وهما في حقه سبحانه وتعالى بمعنى: المحسن، أو: مريد الإحسان، لكن الأول بمعنى المحسن بجلائل النعم، والثاني بمعنى المحسن بدقائق النِّعم، وإنما جمع بينهما في البسملة، إشارة إلى أنه ينبغي أن يطلب منه تعالى النعم الحقيرة، كما ينبغي أن يطلب منه النعم العظيمة، وقد يوصف بـ ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ المخلوقون، وأما ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ فلا يوصف به إلا الله تعالى، ومَنْ وصف مسيلمة الكذاب، فقد تعنت حيث قال فيه: [البسيط]

أَسَمَوْتَ بالمَجْدِ يَا بْنَ الأكْرمين أَبَاً وأنتَ غَيْثُ الوَرَى لا زِلْتَ رَحْمَانَا

هذا واشتقاق ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ من الرحمة لا خلاف فيه، وفي اشتقاق ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ خلاف، والجمهور من الناس ذهبوا إلى أنه مشتق من الرَّحمة أيضاً، مبني على المبالغة، ومعناه: ذو الرحمة، الذي لا نظير له فيها، فلذلك لا يثنى، ولا يجمع، كما يثنى ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ ويجمع، قال ابن الحصار: ومما يدلُّ على الاشتقاق ما خرَّجه الترمذيُّ، وصحَّحه عن عبد الرحمن بن عوف - رضي الله عنه -: أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**قَالَ اللهُ عزَّ وَجَلَّ: أنا اللهُ، وأَنَا الرحمنُ، خَلَقْتُ الرَّحِمَ، وشَقَقْتُ لها اسماً من اسمي، فمَنْ وَصَلَهَا وَصَلْتُهُ، وَمَن قَطَعَهَا قَطَعْتُهُ**»: أو قال: «**بَتَتُّهُ**» وهذا نصٌّ في الاشتقاق، فلا معنى للمخالفة والشقاق، وإنكار العرب له لجهلهم بالله وما وجب له، وقد قال الله في سورة (الفرقان) رقم [٦٠]: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ...﴾ إلخ، وقال تعالى في سورة (الزخرف) رقم [٤٥]: ﴿أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ﴾، ولما تجرأ مسيلمة الكذاب وتسمى بـ «**رحمان اليمامة**» كساه الله جلباب الكذاب، وشُهِر به، فلا يقال إلا: مسيلمة الكذاب، فصار يضرب به المثل في الكذب بين أهل الحضر، والمدر.

فائدة: قال سعيد بن جبير - رضي الله عنه -: كان المشركون يحضرون المسجد، فإذا قرأ رسول الله ﷺ: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قالوا: هذا محمَّد يذكر «رحمان اليمامة» يعنون: مسيلمة الكذاب، فأمر أن يخافت بـ ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ونزل: ﴿وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا﴾ الآية رقم [١١٠] من سورة (الإسراء)، فبقي ذلك إلى يومنا

هذا؛ وإن زالت العلة، كما بقي الرمل في الطواف؛ وإن زالت العلة، وبقيت المخافتة في صلاة النَّهار، وإن زالت العلَّة، وهذا جواب لمن يسأل: لماذا الإسرار بالنَّهار، والجهر في الليل في الصلوات الخمس؟ والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف، تقديره: أقرأ، أو أتلو؛ إذا أراد الشخص القراءة، وقس على ذلك جميع الأعمال التي يقوم بها المسلم، ويسمِّي الله عليها، فمثلاً: الآكل، والشارب، والقائم، والقاعد، تقدير المحذوف عنده: آكل، أو أشرب... إلخ، وتقدير المحذوف فعلاً مذهب الكوفيين، وهم يقدِّرونه مؤخراً، ليفيد الاختصاص، وأما البصريُّون؛ فيقدرون المحذوف اسماً، والتقدير عندهم: ابتدائي، أو أكلي، أو قراءتي بسم الله... إلخ، وعليه فالجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: أكلي، أو شربي كائنٌ بسم الله، ويشهد لقول الكوفيين قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ويشهد لقول البصريين قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ الآية رقم [٤١] من سورة (هود) على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام. وقال المرحوم سليمان الجمل: والأحسن أن يقدر متعلق الجار هنا: قولوا؛ لأن المقام مقام تعليم، وهذا الكلام صادر عن حضرة الربِّ تعالى. انتهى. و(اسم) مضاف و﴿اللَّهِ﴾ مضاف إليه، وعلى اعتبار لفظ: (اسم) صلة، فيكون مقحماً بين الجار والمجرور، ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾: بدلان من لفظ الجلالة، وهذا على اعتبارهما اسمين من أسماء الله الحسنى، وهو المعتمد، وقيل: هما صفتان للفظ الجلالة، هذا ويجوز في العربية رفعهما على أنهما خبران لمبتدأ محذوف، التقدير: هو الرَّحمن الرحيم، كما يجوز نصبهما على أنهما مفعول لفعل محذوف، التقدير: أمدح، ونحوه، وهذان الوجهان على القطع، أعني به قطع النَّعت عن المنعوت، انظر ما ذكرته في الاستعاذة، وجملة البسملة على الوجهين مبتدأةٌ، لا محلَّ لها.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾﴾

الشرح: ﴿الْحَمْدُ﴾: هو في اللغة: الثناء بالكلام الجميل الاختياري على جهة التبجيل، والتعظيم، سواءٌ أكان في مقابلة نعمةٍ، أم لا. فالأول كمن يحسن إليك، والثاني كمن يجيد صلاته، وهو في اصطلاح علماء التوحيد: فعلٌ ينبئ عن تعظيم المنعم من حيث كونه منعماً على الحامد، أو غيره، سواءٌ أكان ذلك قولاً باللِّسان، أو اعتقاداً بالجنان، أو عملاً بالأركان؛ التي هي الأعضاء، كما قال الأخطل التغلبي، وبعضهم يعتبر ما في البيت تفسيراً للشُّكر: [الطويل]

أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءَ مِنِّي ثَلاثَةٌ ... يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرُ المُحَجَّبا

وممَّا هو جدير بالذكر: أنَّ معنى الشكر في اللغة هو معنى الحمد في الاصطلاح، وأما معنى الشكر في الاصطلاح فهو: صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه فيما خُلق لأجله. هذا؛ والحمد أربعة أقسام: حمد قديم لقديم، كحمد الله لذاته، وحمد قديم لحادثٍ، كحمد الله لأنبيائه، والصَّالحين من عباده، وحمد حادث لقديم، كحمدنا الله عز وجل، وحمد حادث لحادث، كحمد بعضنا بعضاً، ولا تنس: أنَّ المدح أعمُّ من الحمد؛ لأنَّه يكون للحيِّ والميت، وللجماد، كما يمدح الطعام، والمكان، ونحو ذلك، ويكون قبل الإحسان، وبعده على الصفات المتعدِّية، واللازمة أيضاً فهو أعمُّ، والألف واللام في ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ لاستغراق جميع أنواع الحمد، وصنوفه، كما جاء في الحديث الشريف من قول النبي ﷺ: «**اللهم لكَ الحمدُ كُلُّهُ، وبيدكَ الخيرُ كُلُّهُ، وإليكَ يَرْجِعُ الأمرُ كلُّهُ**»، فهذا الحديث من كلام جبريل عليه السلام بيَّنه النبيُّ ﷺ، وهو بروايات مختلفة: عن أنس بن مالك، وعن مصعب بن سعد عن أبيه، وعن أبي سعيدٍ الخدري، منها مطوَّل، ومنها مختصر بتخريج البيهقيِّ، وابن أبي الدنيا، انظر: الترغيب والترهيب للحافظ المنذري، رحمه الله تعالى!.

وعن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ عن رسول الله ﷺ: أنَّه قال: «**أفْضَلُ الذكرِ: لا إله إلَّا الله، وأفضلُ الدعاءِ: الحمدُ لله**». رواه الترمذيُّ، وقال: حسنٌ غريب. وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ: أنه قالَ: «**ما أنعمَ اللهُ على عبدٍ نِعْمَةً، فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إلا كان الَّذي أعطَى أفضل ممَّا أخَذَ**». رواه ابن ماجه.

وعن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: أنَّ رسول الله ﷺ حدَّثهم: «**أن عبداً من عباد الله قال: يا ربِّ لكَ الحمدُ، كما ينبغي لجلالِ وَجْهِكَ، ولِعَظِيم سلطانِكَ، فعضَّلت بالملكيْنِ، فلمْ يَدْريا كيف يكتبانها؟! صَعِدا إلى السماءِ، فقالا: يا ربَّنا! إنَّ عبدَكَ قد قالَ مقالةً، لا ندري كيف نكتبها؟! قال الله ـ وهو أعلمُ بما قال عبده ـ: ماذا قال عبدي؟ قالا: يا رب! إنه قد قال: يا ربِّ لكَ الحمدُ، كما ينبغي لِجلالِ وَجْهِكَ، ولِعَظِيم سلطانِكَ، فقال الله لهما: اكْتُبَاهَا كما قال عبدي؛ حتَّى يلقاني، فأَجْزِيَهُ بها**». رواه أحمد، وابن ماجه.

وعن أبي أيوب الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رجل عند رسول الله ﷺ: «**الحَمْدُ للهِ حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيهِ**» فقال رسول الله ﷺ: «**مَنْ صَاحِبُ الكلمةِ؟**» فسكت الرجل، ورأى أنه قد هجم من رسول الله ﷺ على شيء يكرهه. فقال رسول الله ﷺ: «**مَنْ هُوَ؟ فإنه لم يَقُلْ إلَّا صواباً!**». فقال الرجل: أنا قلتها يا رسول الله، أرجو بها الخير! فقال: «**والَّذي نَفْسِي بيدِهِ لَقَدْ رَأيتُ ثَلاثةَ عَشَرَ مَلَكاً يبتدرونَ كلِمَتَكَ؛ أيُّهُم يَرْفَعُهَا إلى اللهِ تعالى**». رواه ابن أبي الدنيا، والطَّبراني بإسنادٍ حسن، والبيهقيُّ.

﴿رَبِّ﴾ يطلق، ويراد به: المالك، والسَّيد، ومنه قوله تعالى حكاية عن قول يوسف، على نبينا وعليه ألف صلاة، وألف سلام: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ وقوله أيضاً: ﴿أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا﴾، وقال الأعشى: [الكامل]

رَبِّــي كــريــمٌ، لا يُــكَــدِّرُ نــعــمــةً وإذَا تُــنُــوشِــدَ فــي الــمَــهَــارِقِ أَنْــشَــدَا

كما يقال: ربُّ الدار، وربُّ الأسرة، أي: مالكها، ومتولي شؤونها، كما يراد به المربِّي، والمصلح، يقال: ربَّ فلانٌ الضيعةَ، يربُّها: إذا أصلحها، والله ربُّ العالمين: مالكهم، ومربِّيهم، وموصلهم إلى كمالهم شيئاً فشيئاً، بجعل النطفة علقةً، ثم بجعل العلقة مضغةً، ثم بجعل المضغة عظاماً، ثم يكسو العظام لحماً، ثم يصوره، ويجعل فيه الروح، ثم يخرجه خلقاً، وهو صغير ضعيف، فلا يزال ينميه، وينشيه حتى يجعله رجلاً أو امرأة كاملين. هذا ولا يطلق لفظ الرَّبِّ على غير الله تعالى إلا مقيداً بالإضافة، مثل قولك: رب الدار، ورب الناقة، ونحو ذلك، وقد قالوه في الجاهلية للملك، قال الحارث بن حِلِّزة في معلَّقته رقم [٣٩]: [الخفيف]

وهــو الــربُّ والــشَّــهــيــد عــلــى يَــوْ مِ الــحِــيَــارَيْــنِ والــبَــلاءُ بَــلاءُ

والربُّ: المعبود بحق، وهو المراد منه عند الإطلاق، ومنه قول راشد بن عبد ربه السُّلمي الصَّحابي ـ رضي الله عنه ـ وهو الشاهد رقم [١٥٧] من كتابنا فتح القريب: [الطويل]

أربٌّ يَــبُــولُ الــثُّــعْــلَــبَــانُ بِــرأسِــهِ؟! لَــقَــدْ ذَلَّ مَــنْ بَــالَــتْ عَــلَــيْــهِ الــثَّــعَــالِــبُ

ولا يجمع إذا كان بهذا المعنى، ويجمع إذا كان معبوداً بالباطل، قال تعالى حكاية عن قول يوسف عليه السلام لصاحبي السِّجن: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ كما يجمع إذا كان بأحد المعاني السَّابقة قال الشاعر: [الطويل]

هــنــيــئــاً لأربــابِ الــبــيــوتِ بُــيُــوتــهــمْ وَلــلآكــلــيــن الــتَّــمْــرَ مــخــمَــسَ مَــخْــمَــسَــا

وهو اسم فاعل بجميع معانيه السَّابقة، أصله: رابب، ثم خفف بحذف الألف، وإدخال أحد المثلين في الآخر.

﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: جمع عالَم بفتح اللام، وجمع لاختلاف أنواعه، وهو جواب عمَّا يقال: إنَّه اسم جنس يصدق على كل ما سوى الله، والجمع لا بد أن يكون له أفراد ثلاثة، فأكثر، وجمع بالياء والنون تغليباً للعقلاء على غيرهم، وهو يقال لكل ما سوى الله، ويدلُّ له قوله تعالى حكاية عن قول موسى ـ على نبينا وعليه أفضل الصَّلاة، وأتم التسليم ـ لمَّا قال له فرعون: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾، هــذا والــعــوالــم كــثــيــرة لا تحصيها الأرقام، وهي منتشرة في هذا الكون المترامي الأطراف في البرِّ، والبحر؛ إذ كل جنس من المخلوقات يقال له: عالم، ولا واحد له من لفظه، مثل: رهط، وقوم.

وقال مقاتل: العالمون ثمانون ألف عالم، أربعون ألف عالم في البر، وأربعون ألف عالم في البحر، انتهى. وجُمِع جمع المذكر السالم، وذلك بتغليب مَنْ يعقل على ما لا يعقل، والعالَم مشتق من العلامة؛ لأنه دالٌّ على وجود خالقه، وصانعه، وعلى وحدانيته جلَّ، وعلا، كما قال ابن المعتز: [المتقارب]

فيا عجباً كيف يعصى الإله أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

الإعراب: ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾: مبتدأ، ﴿لِلَّهِ﴾: متعلقان بمحذوف خبره، التقدير: واجبٌ، أو مستحقٌّ لله، والجملة الاسمية لا محل لها؛ لأنها ابتدائية. ﴿رَبِّ﴾: صفة لفظ الجلالة، أو بدل منه، و﴿رَبِّ﴾ مضاف و﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ مضاف إليه، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه، هذا ويجوز في العربية الرفع والنصب في ﴿رَبِّ﴾ فالرفع على إضمار مبتدأ، التقدير: هو ربُّ، والنصب على المدح بفعل محذوف، قال الزمخشري: وقرأ زيد بن عليٍّ ـ رضي الله عنهما ـ: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ بالنصب على المدح، أو على النداء.

قاله مكيٌّ، وهذان الوجهان على القطع، انظر ما ذكرته في الاستعاذة.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾

الشرح: وصف الله تعالى نفسه بعد ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ بأنَّه ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ لأنه لما كان في اتصافه بـ ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ ترهيب؛ قرنه بـ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ لما تضمنه من الترغيب؛ ليجمع في صفاته بين الرهبة منه، والرغبة إليه، فيكون أعون على طاعته، وأمتع، كما قال عز وجل في سورة (الحجر) رقم [٤٩ و ٥٠]: ﴿۞نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ﴾ وقال جل ذكره في أول سورة (غافر): ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ﴾، وفي صحيح مسلم، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لوْ يعلمُ المؤمنُ ما عندَ اللهِ من العقوبةِ؛ ما طمِعَ بِجَنَّتِهِ أحدٌ، ولو يعلمُ الكافِرُ ما عندَ اللهِ مِنَ الرَّحمةِ؛ ما قنِطَ مِنْ جَنَّتِهِ أحَدٌ**».

وقد شرحت الاسمين الكريمين في البسملة، فلا معنى لإعادته، هذا؛ وذكرت لك فيما تقدم: أنَّ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ أبلغ من ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾، وذكر ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ بعده، فهو من ذكر الخاص بعد العام، لتخصيص المؤمنين به في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾ رقم [٤٣] من سورة (الأحزاب).

الإعراب: يجوز فيهما ما جاز في البسملة من أوجه الإعراب.

﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾

الشرح: ﴿مَٰلِكِ﴾ قرئ: (ملك) من غير مد، وبكسر الكاف فيهما، وقرأ محمد بن السَّميقع بنصب (مالكَ)، والمالك: هو المتصرِّف في الأعيان المملوكة كيف شاء، من: المِلْك. والمَلِكُ هو المتصرف بالأمر، والنهي في المأمورين، من: المُلك. انتهى. بيضاوي.

وجمع مالك: مُلَّاك، ومُلَّك، وجمع مَلِك: أَمْلاك، وملُوك، هذا وفيه لغتان أخريان مَلْك بسكون اللام، وجمعه على هذا: أمْلُك، وملوك. ومَلِيك. فمن الأول قول عمرو بن كلثوم في معلَّقته رقم [٣٠]: [الوافر]

وأيَّامٍ لنا غُرٌّ طِوالٍ عَصَيْنَا المَلْكَ فيها أنْ نَدِينَا

ومن الثاني قول لبيد بن ربيعة الصحابي ـ رضي الله عنه ـ في ملعقته، رقم [٨٤] [الكامل]

فاقْنَعْ بِمَا قَسَمَ المليكُ فَإنَّما قَسَمَ الخلائقَ بيْنَنَا عَلَّامُهَا

هذا وذكر ﴿مَـٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ بعد ذكر: ﴿رَبِّ ٱلۡعَـٰلَمِينَ﴾ هو من ذكر الخاص بعد ذكر العام، وفيه ما فيه من التهويل، ورفعة الشأن، والتنبيه على مكانته، وعلوِّ قدره. هذا وقيل: ﴿مَـٰلِكِ﴾ أبلغ من (مَلِك) لأن فيه زيادة حرف، فلقارئه عشر حسنات زيادة عمَّن يقرأ: (ملِك). قال القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ: هذا نظر إلى الصيغة لا إلى المعنى، وقد ثبتت القراءة بـ (ملِك) وفيه من المعنى ما ليس في ﴿مَـٰلِكِ﴾ لأن المالك من المخلوقين قد يكون غير مَلِك، وإذا كان الله تعالى مَلِكاً كان ملكاً ومالِكاً بلا ريب. قال ابن الحصار: إنما كان ذلك؛ لأن المراد من (مالك) الدلالة على المِلْك بكسر الميم، وهو لا يتضمَّن المُلك بضم الميم، و(مَلِك) يضمن الأمرين جميعاً، فهو أولى بالمبالغة، ويتضمَّن أيضاً الكمال، لذا استحق الملك على من دونه.

﴿يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾: يوم الجزاء، ومنه: كما تدين تدان، أي كما تفعل تجازى. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: ﴿يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ يوم حساب الخلائق، يدينهم بأعمالهم، إن خيراً فخيرٌ، وإن شرّاً فشرٌّ، إلا من عفا الله عنه، والأمر أمره، ثم قال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ هذا و﴿ٱلدِّينِ﴾ أيضاً: الملَّة، والشريعة، ومنه قوله تعالى في سورة (يوسف) رقم [٧٦]: ﴿مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾، و﴿ٱلدِّينِ﴾ اسم لجميع ما يعبد به الله تعالى. هذا ويطلق ﴿ٱلدِّينِ﴾ على العادة، والشأن، والحال، كما في قول امرئ القيس في معلقته رقم [١٠]: [الطويل]

كَدِينِكَ مِنْ أُمِّ الحُوَيْرِثِ قَبْلَهَا وَجَارَتِهَا أُمِّ الرَّبَابِ بِمَأسَلِ

هذا والدَّين ـ بفتح الدال ـ: القرض المؤجَّل، وجمع الأول: أديان، وجمع الثاني: ديون، وأدْيُن. هذا؛ والدينونة: القضاء، والحساب، والدِّيانة: اسم لجميع ما يُتعبَّد به الله. هذا وتخصيص ﴿يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ بالإضافة له سبحانه، مع أنه مالكٌ لجميع الأشياء في جميع الأوقات، والأيام؛ لأنه في ذلك اليوم ينسلخ عن ملوك الدنيا ما كان لهم من الملك الظاهر، وينفرد الجبَّار فيه بالملك، ونفوذ الأمر، كما يقول الله تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ الآية رقم [١٦] من سورة (غافر)، وكما قال الله تعالى في وصف ذلك اليوم في آخر سورة الانفطار: ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٌ لِّنَفۡسٍ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾، وانظر شرح ﴿يَوۡمٗا﴾ في الآية رقم [٤٨] من سورة (البقرة).

الإعراب: ﴿مَٰلِكِ﴾: يجوز فيه الجر، والرفع، والنصب كما في البسملة، فالنصب على الحال، أو على النداء، وعلى المدح بفعل محذوف، وعلى النعت لـ ﴿رَبِّ﴾ على قول مَنْ نصبه، قاله مكي. كما في الأسماء السابقة، و﴿مَٰلِكِ﴾ مضاف و﴿يَوۡمِ﴾ مضاف إليه، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه، و﴿يَوۡمِ﴾ مضاف و﴿ٱلدِّينِ﴾ مضاف إليه، هذا وقيل: إنَّ إضافة ﴿مَٰلِكِ﴾ لـ ﴿يَوۡمِ﴾ من إضافة اسم الفاعل للظرف، ومفعوله محذوف، التقدير: مالك الأمر كله يوم الدين.

﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾

الشرح: ﴿نَعۡبُدُ﴾: العبادة: غاية التذلل، ولا يستحقُّها إلا من له غاية الإفضال، وهو الله تعالى، ولذلك يحرم السجود لغير الله تعالى، وقيل: العبودية أربعة: الوفاء بالعهود، والرضا بالموجود، والحفظ للحدود، والصبر على المفقود. والاستعانة: طلب المعونة من الله تعالى على أمور الدنيا، والآخرة، وإنَّما قدم: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ على (إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) لأن العبادة لله هي المقصودة، والاستعانة وسيلة إليها، والأصل أن يقدم ما هو الأهم، فالأهم، وقدم المفعول في الجملتين للاهتمام والحصر؛ إذ المعنى: لا نعبد إلا إيَّاك، ولا نستعين إلا بك، وهذا هو كمال الطاعة، والدِّين يرجع كلُّه إلى هذين المعنيين، فالأول: تبرؤ من الشرك، والثاني: تبرؤ من الحول، والقوة، وتفويض إلى الله عز وجل، هذا وأصل ﴿نَسۡتَعِينُ﴾: نَسْتَعْوِن، وإعلاله مثل إعلال ﴿ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ في الآية التالية، ومصدره: استعانة، والأصل: اسْتِعْوَان، فقل في إعلاله: اجتمع معنا حرف صحيح ساكن، وحرف علَّة متحرك، والحرف الصحيح أولى بالحركة من حرف العلة، فنقلت حركة الواو إلى العين، وتحركت الواو بحسب الأصل، وانفتح ما قبلها بحسب الحال، فقلبت ألفاً، فاجتمع ألفان: الألف المنقلبة، وألف الاستفعال، فحذفت ألف الاستفعال لالتقاء الساكنين، وعوض عنها التاء في الآخر، وقد يستغنى عن هذه التاء في حال الإضافة، منه قوله تعالى: ﴿رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: إقامتها. والإعلال المتقدم إنما هو إعلال بالنقل، والقلب، والحذف معاً، ومثل هذا المصدر قولك: استعاذ استعاذةً، واستقام استقامةً.

والضمير بالفعلين إنما هو لجماعة المتكلِّمين، والمراد: جميع الموحِّدين المصلِّين، ففيه إيحاء إلى أداء الصلاة في الجماعة، يدرج المصلي عبادته في تضاعيف صلاة إخوانه المؤمنين لعلَّها تقبل ببركتهم، فكأنَّ المصلِّي يقول: إلٰهي! عبادتي مشوبة بأنواع التقصير، لكنها مخلوطة بعبادة جميع العابدين، فاقبلها مني ببركة خُلَّص عبادك المؤمنين، فيا خسارة المهملين لصلاة الجماعة، كيف لا والرسول ﷺ يقول: «**صلاةُ الرجلِ في الجماعةِ تُضَعَّفُ على صلاتِهِ في بيتِهِ**

وفي سوقِهِ خمساً وعشرينَ ضِعْفاً، وذَلكَ: أنه إذا توضَّأ، فأحسنَ الوضوءَ، ثم خرجَ إلى المسجدِ ـ لا يُخْرِجُهُ إلّا الصَّلاةُ ـ لم يَخْطُ خطوةً إلّا رُفِعَتْ لهُ بها درجةٌ، وحُطَّ عَنْهُ بها خطيئةٌ، فإذا صَلّى؛ لم تزل الملائكةُ تُصَلِّي عليهِ مَا لَمْ يُحْدِثْ: اللهمَّ صلِّ عليه، اللهمَّ ارْحمْهُ! ولا يزالُ في صلاةٍ ما انتظرَ الصَّلاةَ». رواه الستة ما عدا النَّسائي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ والمشهور، والمأمول بعون الله: أنَّ صلاة الجماعة بسبع وعشرين صلاة، لقول النبي ﷺ: **«صلاةُ الجماعةِ أفضلُ مِنْ صلاةِ الفذِّ بسبعٍ وعشرينَ دَرَجةً»**. رواه البخاريُّ، ومسلمٌ، ومالكٌ، والترمذيُّ، والنَّسائيُّ عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ.

وهناك أحاديث ترغب في صلاتي الفجر، والعشاء في جماعة؛ مثل قول الرسول ﷺ: **«مَنْ صَلَّى العشاءَ في جماعة فكأنما قامَ نصفَ اللَّيلِ، ومَنْ صلَّى الصبحَ في جماعةٍ فكأنَّما صلَّى اللَّيلَ كلَّهُ»**. رواه مالكٌ، ومسلمٌ، وأبو داود عن عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ.

وشدَّد النبي ﷺ النكير على المتخلفين عن الجماعة، وخذ ما يأتي:

فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنَّ أثقلَ صلاةٍ على المنافقينَ صلاةُ العشاءِ، وصلاةُ الفجرِ ـ أي: في الجماعة ـ ولوْ يَعْلَمونَ ما فيهما؛ لأتوْهمَا ولو حَبْواً، ولقدْ هممتُ أنْ آمرَ بالصَّلاةِ، فتقامَ، ثمَّ آمرَ رجلاً، فيصليَ بالناسِ، ثم أنطلقَ معي برجالٍ معهم حُزَمٌ من حَطبٍ إلى قومٍ، لا يشهدون الصلاةَ، فأُحرِّقَ عليهمْ بُيُوتهمْ بالنارِ»** رواه البخاريُّ، ومسلمٌ، وانظر ما ذكرته في الآية رقم [٤٣] من سورة (البقرة).

تنبيه: ينبغي أن تعلم: أنَّ الكلام في الآيات السابقة، إنما هو للغيبة، وفي هذه الآيات للخطاب، وهذا يسمَّى في فنِّ البلاغة: التفاتاً التفات من أسلوب لآخر، وهذا جيد؛ لأنه لمَّا ذكر: أنَّ الله جدير بالحمد، وبأنَّه ربُّ العالمين، وأنَّه مالك الناس أجمعين يوم لا ينفع مال ولا بنون، والكلام كلُّه في الغيبة؛ حسن التوجه بالخطاب إليه سبحانه وتعالى، وتخصيصه بالعبادة، والاستعانة.

الإعراب: ﴿إِيَّاكَ﴾: ضمير نصب منفصل، مبني على الفتح في محل نصب مفعول به مقدم. ﴿نَعۡبُدُ﴾: فعل مضارع، والفاعل مستتر فيه وجوباً، تقديره: «نحن»، والجملة الفعلية مستأنفة لا محل لها، وإعراب الجملة الثانية مثلها بلا فارق، وتقديم المفعول في الجملتين يفيد الاختصاص.

﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾

الشرح: ﴿ٱهۡدِنَا﴾: ثبتنا. وقيل: أرشدنا، وأرنا طريق هدايتك الموصلة إلى أنسك، وقربك، ووفقنا لطاعتك، وعبادتك، والفعل قد يُعدَّى بنفسه كما في هذه الآية، وقد يعدى بـ

«إلى» كما في قوله تعالى في سورة (الصَّافات) رقم [٢٣] ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ وقد يُعدَّى باللام، كما في قوله تعالى في سورة (الأعراف) رقم [٤٣] ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا﴾.
﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ هو في لغة العرب: الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه، قال جرير في مدح عبد الملك بن مروان: [الوافر]

أميرُ المُؤمنينَ على صِرَاطٍ ... إذَا اعْوَجَّ الموارِدُ مُسْتَقيمِ

وقال عامر بن الطفيل: [الوافر]

شَحَنَّا أرضَهُمْ بالخَيْلِ حتَّى ... تَركنَاهُمْ أذَلَّ مِنَ الصِّرَاطِ

ثمَّ إن العرب تستعير (الصِّراط) في كلِّ قولٍ، وعملٍ وصف باستقامة، أو اعوجاج، واختلفت عبارات المفسرين من السَّلف والخلف في تفسيره هنا، وإن كان يرجع حاصلها إلى شيءٍ واحد، وهو امتثال أمر الله فيما أمر، وفيما نهى، والأخذ بقول رسول الله ﷺ وعمله، فقيل: هو كتاب الله، وقيل: إنَّه الإسلام، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هو دين الله الذي لا اعوجاج فيه. قال ابن الحنفية: هو دين الله الذي لا يقبل من العباد غيره. وانظر ما ذكرته في قوله تعالى في الآية رقم [١٥٣] من سورة (الأنعام): ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾... إلخ و﴿الصِّرَاطَ﴾ يقرأ بالصاد، والسين، والزاي، وهو يذكَّر، ويؤنث، والأول أكثر.

﴿الْمُسْتَقِيمَ﴾: هو الذي لا اعوجاج فيه، والأصل فيه: «مُسْتَقْوِم» لأنَّه من استقام، وهو أجوف واوي، فقل في إعلاله: اجتمع معنا حرف صحيح ساكن، وحرف علة متحرك، والحرف الصحيح أولى بالحركة من حرف العلة، فنقلت حركة الواو إلى القاف بعد سلب سكونها، فصار: «مُسْتَقوم» ثم قلبت الواو ياءً لمناسبة الكسرة.

﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾: اختلف الناس في المُنعم عليهم، فقال الجمهور من المفسرين: إنَّه صراط النبيين، والصديقين، والشهداء، والصَّالحين، وقوله تعالى في سورة (النساء) رقم [٦٩]: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ يعمُّ، ويشمل جميع ما قيل، فلا معنى لتعدد الأقوال، والله المستعان، وهو وليُّ التوفيق.

قال القرطبي رحمه الله تعالى: في هذه الآية ردٌّ على القدرية، والمعتزلة، والإمامية؛ لأنهم يعتقدون: أنَّ إرادة الإنسان كافية في صدور أفعالٍ منه، طاعة كانت، أو معصية؛ لأن الإنسان عندهم خالقٌ لأفعاله، فهو غير محتاج في صدورها عنه إلى ربِّه، وقد أكذبهم الله في هذه الآية؛ إذ سألوه الهداية إلى الصراط المستقيم، فلو كان الأمر إليهم، والاختيار بيدهم دون ربهم؛ لما سألوه الهداية، ولا كرَّروا السؤال في كلِّ صلاة، وكذلك تضرعهم إليه في دفع المكروه، وهو ما

يناقض الهداية، حيث قالوا: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فكما سألوه أن يهديهم؛ سألوه أن لا يضلَّهم، وكذلك يدعون، فيقولون: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا...﴾ إلخ رقم [٨] من سورة (آل عمران)، انتهى.

﴿غَيۡرِ﴾: اسم شديد الإبهام، كـ «مثل» لا يتعرف بالإضافة لمعرفةٍ، وغيرها، وهو ملازم للإضافة، ويجوز أن يقطع عنها إن فهم المعنى، أو تقدمت عليها كلمة ليس، يقال: قبضت عشرة ليس غيرُ، وهو مبني على الضم، أو على الفتح، خلافٌ، وإن أردت الزيادة؛ فانظر مبحثها في كتابنا: «فتح القريب المجيب».

﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾: اختُلفت في المغضوب عليهم، والضَّالين من هم؟ وجاء ذلك مفسراً عن النبي ﷺ في حديث عبيد بن حاتم الطائي، وقصَّة إسلامه حيث قال: هم اليهود، وعن قوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قال: هم النصارى، أخرجه أبو داود، والتِّرمذيُّ، وأحمد، ويشهد لهذا التَّفسير أيضاً قوله تعالى في اليهود: ﴿وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ الآية رقم [٦١] من سورة (البقرة)، وقوله تعالى في سورة المائدة رقم [٦٠]: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ﴾. وقال جل ذكره في النصارى: ﴿قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ هذا وفي الآية الكريمة تحذير للمؤمن من مسالك أهل الباطل؛ لئلا يحشر مع سالكيه يوم القيامة، ومَنْ تشبَّه بقومٍ فهو منهم.

هذا والأصل في ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾: (الضَّاللين) حذفت حركة اللام الأولى، ثمَّ سكنت، ثم أدغمت اللام في اللام، فاجتمع ساكنان: مدَّة الضاد بالألف، واللام المدغمة، وقرأ أيوب السختياني: (ولا الضألين) بهمزة غير ممدودة كأنه فر من التقاء الساكنين، وهي لغة، حكاها أبو زيد، قال: سمعت عمرو بن عبيد يقرأ قوله تعالى في سورة (الرحمن): (فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنسٌ ولا جأن) فظننته قد لحن حتى سمعت من العرب دأبة وشأبة، قال أبو الفتح: وعلى هذه اللغة قول كثير عزَّة: [الطويل]

.... إذا ما العوالي بالعَبِيطِ احمَأَرَّتِ

انتهى قرطبي. هذا وقد راجعت قصيدة كثير عزة التائية في شرحي شواهد المغني للسيوطي والبغدادي، فلم أجد هذه الشطرة فيها، ومن أبياتها الشواهد رقم [٧٢٨ و٧٧٣ و٨٥٢] من كتابنا فتح القريب المجيب.

تنبيه: يسن للقارئ أن يقول بعد الفراغ من الفاتحة في الصلاة وخارجها بعد سكتة على نون (ولا الضالين): آمين؛ ليتميز ما هو قرآن مما ليس بقرآن، وقد أطال القرطبي رحمه الله تعالى الكلام في فضله وفضائله، آخذاً من أحاديث الرسول ﷺ وأقوال السلف الصالح، والصحيح:

أن معناه: استجب، فهو اسم فعل أمر، وهو مبني على السكون، وحُرِّك بالفتح لأجل الياء قبل آخره، كما فتحت (أين) والفتح فيها أقوى؛ لأن ما قبل الياء كسرة، فلو كسرت النون على أصل التقاء الساكنين؛ لوقعت الياء بين كسرتين.

ويجهرها الإمام والمأموم في الجهرية. وفي الموطأ، والصحيحين: قال ابن شهاب: وكان رسول الله ﷺ يقول: آمين. وفي سنن ابن ماجه عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: ترك الناس آمين. وكان رسول الله ﷺ إذا قرأ: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قال: آمين، حتى يسمعها أهل الصف الأول ليرتج بها المسجد. ويسن ختم الفاتحة به، وكل دعاء. وفيه لغتان: المدُّ على وزن: «فاعيل» كـ «ياسين» كقول قيس المجنون: [البسيط]

يا ربِّ لا تسلبني حُبَّها أبداً ... ويرحمُ اللهُ عبداً قالَ: آمينَا

ولهذا البيت حكاية مذكورة في شرح شواهد الكشاف للمرحوم محب الدين الخطيب، ولولا الإطالة عليك لذكرتها، وقال آخر: [البسيط]

آمينَ آمينَ لا أرضى بواحدةٍ ... حتَّى أبلِّغَها ألفين آمينَا

والقصر، قال الشاعر في القصر: [الطويل]

تَبَاعَدَ مني فَطْحَلٌ إذ سألتهُ ... أَمينَ فزادَ اللهُ ما بَيْنَنا بُعْدَا

فطحل: اسم رجل استمنحه القائل فما منحه، فدعا عليه بالبعد. وتشديد الميم قاله الجوهري. وقد روي عن الحسن، وجعفر الصادق ـ رضي الله عنهما ـ التشديد، وهو قول الحسين بن الفضل، من: أَمَّ: إذا قصد، أي: نحن قاصدون نحوك، ومنه قوله تعالى في سورة (المائدة) رقم [٣]: ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾.

الإعراب: ﴿ٱهْدِنَا﴾ فعل دعاء مبني على حذف حرف العلة من آخره، وهو الياء، والكسرة قبلها دليل عليها، والفاعل مستتر فيه وجوباً تقديره: «أنت» و(نا): مفعول به أول. ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾: مفعول به ثان، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ وقيل: هو منصوب على نزع الخافض، وانظر الشرح، والجملة الفعلية مبتدأة، أو مستأنفة لا محل لها على الاعتبارين. ﴿ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾: صفة ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾. ﴿صِرَٰطَ﴾: بدل مما قبله، بدل كل من كل، أو هو عطف بيان، ومثله قوله تعالى حكاية عن قول الطاغية فرعون في سورة (غافر) رقم [٣٦ ـ ٣٧]: ﴿لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ...﴾ إلخ. ﴿صِرَٰطَ﴾ مضاف و﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول مبني على الفتح في محل جر بالإضافة.

﴿أَنْعَمْتَ﴾: فعل وفاعل. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، والجملة الفعلية صلة الموصول لا محل لها، والعائد الضمير المجرور محلّاً بـ (على).

﴿غَيْرِ﴾: بالجر صفة ﴿ٱلَّذِينَ﴾ أو هو بدل منه، وقيل: بدل من الهاء، والميم. ويقرأ بالنصب، وخُرِّج على ثلاثة أوجه: أحدها: النَّصب على الحال من الهاء، الثاني: النصب على الاستثناء، الثالث: النصب على إضمار فعل، التقدير: «أعني غير» وحكي عن الخليل. وقال القرطبي - رحمه الله تعالى -: وإذا رأيت «غير» يصلح في موضعها «لا» فهي حال.. وإذا صلح في موضعها «إلا» فهي استثناء، فقس عليه. و﴿غَيْرِ﴾ مضاف، و﴿ٱلْمَغْضُوبِ﴾ مضاف إليه. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بالمغضوب، وهما في محل رفع نائب فاعله. ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): صلة للتوكيد عند البصريين، وظهر إعرابها على ما بعدها بطريق العارية. ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾: معطوف على المغضوب على قول البصريين، ومضاف إليه على قول الكوفيين، وعلى الاعتبارين فهو مجرور، وعلامة جره الياء نيابة عن الكسرة؛ لأنه جمع مذكر سالم، والنون عوض عن التنوين في الاسم المفرد. تأمل، وتدبر؛ وربك أعلم، وأجلُّ، وأكرم، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله، وصحبه وسلم.

انتهت سورة الفاتحة شرحاً وإعراباً

بحمد الله وتوفيقه، والحمد لله ربِّ العالمين.

سورة البقرة

مدنية

سورة البقرة مدنية، نزلت في مُدَدٍ شَتَّى: من أول الهجرة إلى قبيل وفاة الرسول ﷺ، وهي مئتان وست، أو سبع وثمانون آية، وستة آلاف، ومئة وإحدى وعشرون كلمة، وخمسة وعشرون ألف حرف، وخمسمئة حرف، انتهى. خازن.

وقد ورد في بيان فضلها وثواب قراءتها أحاديث كثيرة مشهورة، أذكر منها ما يلي: عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لا تجعلُوا بُيُوتكم مقابر، إنَّ الشيطانَ يفرُّ من البيتِ الذي تُقرأُ فيه سورة البقرة**». أخرجه مسلم، والنسائيُّ، والترمذيُّ، وعنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «**لكلِّ شيءٍ سنامٌ، وإن سنامَ القُرآنِ سورةُ البقرة، وفيها آيةٌ هي سيِّدةُ القرآنِ**». رواه الترمذيُّ، وقال: حديث غريب، ومن حديث أبي أمامة الطويل الذي خرَّجه مسلم، قال رسول الله ﷺ: «**اقرؤوا سورة البقرة، فإنَّ أخذها بركةٌ، وترْكَهَا حسرةٌ، ولا تَسْتَطِيعُها البطلةُ**». قال معاوية بن سلام: بلغني: أنَّ البطلة: السحرة، سمُّوا بذلك لمجيئهم بالباطل.

وعن سهل بن سعد ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ لكل شيء سناماً، وإن سنام القرآن سورة البقرة، وإنَّ من قرأها في بيته ليلاً، لم يدخله الشيطان ثلاث ليالٍ، ومَنْ قَرأها نهاراً لم يدخل الشيطان بيتهُ ثلاثةَ أيامٍ**». رواه الطبرانيُّ، وابن حبَّان، وابن مردويه.

قال ابن العربي: سمعت بعض أشياخي يقول: فيها ألف أمر، وألف نهي، وألف حكم، وألف خبر! انتهى. وهذا وسميت سورة البقرة لذكر بقرة بني إسرائيل؛ التي كانت معجزة باهرة لموسى ـ على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ كما ستقف عليها مفصَّلاً إن شاء الله تعالى.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾

الشرح: ﴿الٓمٓ﴾: ألف لام ميم. اعلم: أنَّ مجموع الأحرف المقطعة المنزلة في أوائل السور أربعة عشر حرفاً، وهي نصف حروف الهجاء، وقد تفرَّقت في تسع وعشرين سورة، ولم يثبت عن النبي ﷺ في هذه الفواتح شيءٌ يصلح للتمسُّك به، لذا كان بعده فيها مذهبان: مذهب

السَّلف التفويض، ومذهب الخلف التأويل، فالصَّحابة، والتابعون لهم بإحسان لم يخوضوا في تفسيرها، ويكلون العلم بها إلى الله تعالى، فعن أبي بكرٍ الصدِّيق ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: في كتاب الله سرٌّ، وسر الله في القرآن أوائل السور. وعن عمر، وعثمان، وابن مسعود ـ رضي الله عنهم ـ: أنهم قالوا: الحروف المقطعة من السرِّ المكتوم؛ الذي لا يُفَسَّر، وعن عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ وكرَّم وجهه: أنَّه قال: إنَّ لكلِّ كتابٍ صفوة، وصفوة هذا الكتاب حروف التهجِّي. وعن ابن عباس، وعليٍّ أيضاً ـ رضي الله عنهما ـ: إنَّ الحروف المقطعة في القرآن اسم الله الأعظم، إلا أنَّا لا نعرف تأليفه منها.

ولكن بعد أن اتسعت رقعة البلاد الإسلامية، ودخل أكثر أهل البلاد المفتوحة في الدين الإسلامي الحنيف، وظهرت الملل، والنحل، خصوصاً في العصر العباسيِّ اضطر علماء المسلمين للخوض في تفسير هذه الحروف، وأعني بهؤلاء: الخلف، وبمذهبهم: مذهب الخلف، وكثرت الأقوال، والتفاسير في ذلك، فقيل: هي أسماء للسُّور؛ الَّتي بدئت بها. وقيل: كل حرف مفتاح اسم من أسماء الله تعالى، فالألف مفتاح اسم الله، واللام مفتاح اسمه اللطيف، والميم مفتاح اسمه مجيد، ومعين، ومتين، وقيل: الألف آلاء الله، واللام لطفه، والميم ملكه. وقيل: هي أسماء مقطعة لو علم الناس تأليفها لعلموا اسم الله الأعظم، ألا ترى أنك تقول: (الر، وحم، ون) فيكون مجموعها الرحمن، وكذلك سائرها، ولكن لم يتهيأ تأليفها جميعاً، وروى أبو الضحى عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ﴾ قال: أنا الله أعلم، وفي: ﴿الٓر﴾ أنا الله أرى، وفي: ﴿الٓمٓصٓ﴾ أنا الله أفصل، فالألف تؤدي معنى: «أنا» واللام تؤدي عن معنى: «اسم الله» والميم تؤدي عن معنى: «أعلم» واختار هذا القول الزجاج، قال: أذهب إلى أنَّ كل حرف منها، يؤدِّي عن معنى، وقد تكلمت العرب بالحروف المقطعة نظماً لها، ووضعاً بدل الكلمات التي الحروف منها، كقول زهير، قاله القرطبي، وقال المرحوم محمد محيي الدين عبد الحميد: من ذلك قول لقيم بن أوس أحد بني ربيعة بن مالك يخاطب امرأته: [الرجز]

إنْ شِئْتِ أَشْرَفْنَا كِلَانَا فَدَعَا ... اللهَ جَهْداً رَبَّهُ فَأسْمَعَا

بِالخَيْرِ خَيْرَاتٍ وَإنْ شَرّاً فَا ... وَلَا أُرِيدُ الشَّرَّ إلَّا أَنْ تَا

أراد: وإن شرّاً فشرٌّ، إلا أن تشائي، وقول الآخر: [الرجز]

نَادُوْهُمُ ألا ٱلْجِمُوا أَلَا تَا ... قَالُوا جَمِيعاً كُلُّهُم أَلَا فَا

أراد: ألا تركبون، قالوا: ألا فاركبوا. ومن ذلك قول حكيم بن معية التميمي: [الرجز]

قَدْ وَعَدَتْنِي أُمُّ عمرٍو أنْ تَا ... تَدْهُنُ رَأسِي وتُفَلِّينِي

وتَمْسَحَ القَنْفَاءَ حتَّى تنتا

المعنى: قد وعدتني أن تدهن رأسي، وأن تخرج القمل منه، وأن تسرح لحيتي حتى تصبح جيدة. ومثل ذلك كثير في الكلام العربي شعراً، ونثراً، هذا ويرى كثيرون من أهل العلم: أنَّ هذه الحروف، إنما ذكرت في أوائل السور التي ذكرت فيها بياناً لإعجاز القرآن، وأنَّ الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، مع أنه مركب من هذه الحروف المقطَّعة؛ التي يتخاطبون بها. حكاه الرازي عن المبرد، وجمع من المحققين، وحكاه القرطبي عن الفراء، وقرّره الزمخشري، ونصره أتمَّ نصرٍ، وإليه ذهب الإمام ابن تيمية، وشيخنا الحافظ أبو الحجَّاج المزي. انتهى مختصر ابن كثير.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي الذي وعد به على لسان موسى، وعيسى - على نبينا، وعليهما ألفُ صلاةٍ، وألف سلام - وإنما أدخل اللام على اسم الإشارة، وهي للبعد، والقرآن الكريم في متناول اليد، وذلك للإيذان بعلوِّ شأنه، ورفعة قدره، وكونه في الغاية القصوى من الفضل، والشرف، وعلوِّ المكانة، فكأنَّه بسبب ذلك بعيد كل البعد، فنزل بعد المرتبة منزلة البعد الحسي.

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾: فقد نفى الله عنه الريب، أي: الشك على سبيل الاستغراق، وقد ارتاب فيه كثيرون؛ لأن المنفي كونه متعلقاً للريب، ومظنَّةً له؛ لأنه من وضوح الدلالة، وسطوع البرهان بحيث لا ينبغي لمرتاب أن يقع فيه، لا أن أحداً لا يرتاب، ومن ارتاب فيه، أو في بعضه، فالريب حصل له من فهمه السَّقيم، وعقله العقيم، وخذ قول المتنبي: [الوافر]

وَكَمْ مِنْ عائِبٍ قَوْلاً صَحِيحاً ... وآفَتُهُ مِنَ الفَهْمِ السَّقِيمِ
وَلَكِنْ تأخذُ الآذانُ مِنْهُ ... على قَدَرِ القَرِيحَةِ والفُهُومِ

ورحم الله البوصيري إذ يقول: [البسيط]

قَدْ تُنْكِرُ العَيْنُ ضَوءَ الشمسِ مِنْ رَمَدٍ ... ويُنْكِرُ الفَمُ طعمَ الماءِ مِنْ سَقَمِ

ورحم الله أحمد شوقي إذ يقول: [الوافر]

وَمَا ضَرَّ الورودَ وَمَا عَلَيْهَا ... إذا المَزْكُومُ لَمْ يَطْعَمْ شَذَاهَا

وما أحسن قول بعضهم: [البسيط]

عَابَ الكلامَ أناسٌ لا خَلاقَ لَهُمْ ... وَمَا عَلَيهِ إذا عَابُوهُ مِنْ ضَرَرِ
مَا ضَرَّ شمسَ الضحى في الأفقِ طَالعةً ... ألَّا يرى ضوءها مَنْ ليسَ ذا بَصَرِ

وخذ قول أبي الطيب المتنبي أيضاً: [الوافر]

وَمَنْ يَكُ ذا فمٍ مُرٍّ مَرِيضٍ ... يَجِدْ مُرّاً بهِ الماءَ الزُّلالا

هذا وتقول: رابني هذا الأمر، أي: أوقعني في ريبة، أي في شك، وحقيقة الريبة: قلق النفس، وإضطرابها، قال الرسول ﷺ: «**دَعْ ما يريبُكَ إلى مَا لا يريبُكَ**». أخرجه الترمذيُّ،

والنَّسائيُّ عن الحسن بن عليٍّ سبط رسول الله ﷺ وريحانته ـ رضي الله عنه ـ وقد يستعمل الرَّيب في التهمة، قال جميل بن معمر العذريُّ: [الطويل]

بثينةُ قالت يا جميلُ أربتَني فقلتُ كلانا يا بُثينُ مُريبُ

واستعمل أيضاً في الحاجة كما قال كعب بن مالك الصَّحابيُّ الأنصاريُّ رضي الله عنه: [الوافر]

قَضَيْنَا مِنْ تِهَامَةَ كُلَّ رَيْبٍ وَخَيْبَرَ ثُمَّ أجْمَمْنَا السُّيوفا

﴿هُدًى﴾: أصله: هُدَياً، أو هُدَيٌ، بضم الهاء وفتح الدال، وتحريك الياء منونةً، قلبت الياء ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها، فاجتمع ساكنان: الألف، والتنوين الذي يرسم ألفاً في حالة النصب بحسب الأصل، فحذفت الألف لالتقاء الساكنين، فصار ﴿هُدًى﴾ وإنما أتوا بياء أخرى لتدل على الياء الأصلية المحذوفة، بخلاف ما إذا لم يأتوا بها، وقالوا: «هداً»، فلا يوجد ما يدلُّ عليها، وهذا الإعلال يجري في كل اسم مقصور مجرد من أل، والإضافة.

﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾: جمع متق، فهو مأخوذ من التقوى، وهي: حفظ النفس من العذاب الأخرويِّ بامتثال أوامر الله، واجتناب نواهيه؛ لأن أصل المادة من الوقاية، وهي الحفظ، والتحرز من المهالك دنيا، وأخرى، وفيه تغليب الرِّجال على النساء؛ إذ ما من شك: أنَّ في النساء متَّقيات مهتديات بالقرآن الكريم، هذا شيء معلوم لا ينكره مسلم عاقل. هذا؛ وخصَّ الله تعالى المتقين بهدايته، وإن كان هدىً للخلق أجمعين تشريفاً لهم؛ لأنهم آمنوا، وصدَّقوا بما فيه، وإسناد الهداية للقرآن من الإسناد للسبب، والهادي في الحقيقة هو الله، ففيه مجاز عقليٌّ.

الإعراب: ﴿الٓمٓ﴾: في إعراب هذا اللفظ وجوه، الأول: أنَّ محله الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: هذه الم، أو هو مبتدأ خبره ما بعده، والثاني: أنَّ محله النصب على أنه مفعول به لفعل محذوف، التقدير: اقرأ، أو اتل الم، قاله ابن كيسان النحوي. أو هو منصوب على تقدير حذف حرف القسم، كما تقول: اللهَ لأفعلنَّ، والناصب فعل محذوف أيضاً، التقدير: التزمت الله، أو اليمين به، والثالث: أنَّ محله الجر على القسم، وحرف الجر محذوف، وبقي عمله بعد الحذف؛ لأنه مرادٌ، فهو كالملفوظ به، وتقدير الكلام على هذا: أقسم، أو أحلف بـ **«الم»**؛ لقول ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: إنها أقسام أقسم الله بها، وضعَّف هذا سليمان الجمل، فقال: وهذا ضعيف؛ لأن ذلك ـ أي: حذف الجار وإبقاء عمله ـ من خصائص الجلالة المعظمة، لا يشركها فيه غيرها، ولا محل لها من الإعراب على اعتبارها، وأمثالها حروفاً مقطعة، أو مختصرة من أسماء.

﴿ذَٰلِكَ﴾: اسم إشارة مبني على السكون في محل رفع مبتدأ، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب لا محل له، ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية هنا في محل رفع خبر المبتدأ، الذي هو: ﴿الٓمٓ﴾ على الوجه الثاني من وجهي الرفع، كما رأيت، والرابط اسم الإشارة على

اعتبار الإشارة عائدة على: ﴿الٓمٓ﴾ ويجوز أن يكون ﴿ذَٰلِكَ﴾ خبر: ﴿الٓمٓ﴾ و﴿ٱلۡكِتَٰبُ﴾ بدلاً منه، أو عطف بيان عليه، والصفة هنا لا تجوز؛ لأنه اسم جامد.

﴿لَا﴾: نافية للجنس تعمل عمل «**إنَّ**»، ﴿رَيۡبَۛ﴾ اسم ﴿لَا﴾: مبني على الفتح في محل نصب. ﴿فِيهِۛ﴾ جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر ﴿لَا﴾ والجملة الاسمية في محل نصب حال من ﴿ٱلۡكِتَٰبُ﴾ على اعتباره خبر المبتدأ: ﴿ذَٰلِكَ﴾، والعامل في الحال اسم الإشارة، مثل قوله تعالى: ﴿هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ﴾ أو هي في محل رفع خبر المبتدأ، الذي هو ذلك، على اعتبار الكتاب بدلاً منه، والرابط على الوجهين الضمير المجرور في ﴿فِيهِۛ﴾، كما جوز أن تكون الجملة في محل رفع خبر ثان للمبتدأ ﴿ذَٰلِكَ﴾.

﴿هُدٗى﴾: يجوز فيه وجهان: الرفع، والنصب، أما الرفع؛ فعلى اعتبارين: الأول: اعتباره مبتدأ، و﴿فِيهِۛ﴾ متعلقان بمحذوف خبر مقدم، وعليه فالجملة اسمية، وهي مستأنفة، ويكون الوقف على ﴿لَا رَيۡبَۛ﴾ ولم يرتضه ابن هشام، واستشهد بأول سورة السجدة على خلافه. والثاني: على اعتباره خبراً لمبتدأ محذوف، التقدير: هو هدىً، وعليه فالجملة اسمية، وهي في محل نصب حال من الضمير المجرور في ﴿فِيهِۛ﴾ كما جوز أن يكون خبراً للمبتدأ ﴿ذَٰلِكَ﴾ أو خبراً ثانياً له، وأما النصب فعلى الحال من الضمير المجرور، ويجب تأويله باسم الفاعل «**هادياً**» والرفع، أو النصب مقدَّر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين، والألف الثابتة دليل عليها، وليست عينها.

﴿لِّلۡمُتَّقِينَ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ ﴿هُدٗى﴾ أو بمحذوف صفة له على الاعتبارين فيه، التقدير: كائن، أو: كائناً، أو هما متعلقان بـ ﴿هُدٗى﴾ نفسه؛ لأنه مصدر. وعلامة الجر الياء نيابة عن الكسرة؛ لأنه جمع مذكر سالم، والنون عوض عن التنوين في الاسم المفرد، و﴿لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ في الحقيقة صفة لموصوف محذوف كما هو واضح.

تنبيه: من الإعراب المتقدم يتبين لك: أنَّ ما تقدَّم يمكن عدُّه أربع جمل متناسقة، يقرر اللاحقة منها السابقة، ولذلك لم يدخل العاطف بينها، فـ ﴿الٓمٓ﴾ مع المبتدأ المحذوف، أو مع الفعل المحذوف جملة، و﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ جملة، و﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ جملة: ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ جملة، أو تستتبع كل واحدة منها ما تليها استتباع الدليل للمدلول. انتهى. بيضاوي.

﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣﴾

الشرح: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ﴾: يصدِّقون. ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾: كل ما غاب عنَّا من أمر البعث يوم القيامة، والحساب، والصراط، والجنَّة، والنَّار. هذا والغيب: ما غاب عن الإنسان، ولم تدركه حواسُّه، قال الشاعر المسلم: [الطويل]

وبِـالـغَـيْـبِ آمـنَّـا وقـدْ كـانَ قـومُـنَـا ... يُـصَـلُّـونَ لـلأوثـانِ قَـبْـلَ مُـحَـمَّـدِ

ورحم الله من قال: [الطويل]

إذَا مَـا خَـلَـوْتَ الـدَّهْـرَ يَـومَـاً فـلا تَـقُـلْ ... خَـلَـوْتُ ولَـكِـنْ عَـلَـيَّ رَقِـيـبُ

ولا تَـحْـسَـبَـنَّ اللهَ يَـغْـفُـلُ سَـاعَـةً ... ولا أنَّ مَـا يَـخْـفَـى عَـلـيـهِ يَـغِـيـبُ

هذا؛ وإيماننا بمحمد ﷺ إيمان بالغيب، كما بينت ذلك الأحاديث الشريفة، هذا والإيمان الصحيح هو: الإقرار باللِّسان، والتصديق بالجنان، والعمل بالأركان، ولمَّا سئل رسول الله ﷺ عن الإيمان؛ قال: «**الإيمانُ: أن تؤمنَ باللهِ، وملائكتِهِ، وكُتبِهِ، ورسلِهِ، واليومِ الآخرِ، والقضاءِ والقدرِ، خيرِهِ وشرِّهِ من الله تعالى**». والإيمان يزيد، وينقص على المعتمد، كما بينته في الآية رقم [٢] من سورة الأنفال، وله شعب كثيرة، وفروع عديدة، وهي سبع وسبعون، أعلاها: لا إلٰه إلا الله، وأدناها: إماطة الأذى عن الطريق، وهو بفتح الهمزة: جمع يمين بمعنى الحلف بالله، أو بصفة من صفاته، أو باسم من أسمائه، وقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ الآية رقم [٢٢٤] الآتية، واليمين أيضاً: اليد اليمنى، وتجمع أيضاً على: أيمان، كما في قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ وهو كثير في القرآن الكريم، ولا يجمع بالمعنى الأول؛ لأنه مصدر، والمصدر لا يثنَّى، ولا يجمع.

﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: يؤدُّونها في أوقاتها، ويحافظون على طهارتها، وركوعها، وسجودها، وخشوعها، ومن لم يؤدِّها على الوجه الأكمل، يقال عنه: صلَّى، ولا يقال: أقام الصلاة، وأصل «يقيمون» يُؤَقْوِمون، حذفت الهمزة للتخفيف حملاً على المبدوء بهمزة المضارعة، مثل: «أأَقْوِمُ» الذي حذفت همزته الثانية للتخلص من ثقل الهمزتين، فصار: «يُقْوِمُون»، ثم يقال في إعلاله: اجتمع معنا حرف صحيح ساكن، وحرف علة متحرك، والحرف الصحيح أولى بالحركة من حرف العلة، فنقلت حركة الواو، وهي الكسرة إلى القاف، فصار (يُقِوْمُونَ) ثم قلبت الواو ياءً لانكسار ما قبلها، وهذا الإعلال يجري في كل فعل ثلاثي مزيدة الهمزة في أوله، مثل: أجاب يجيب، وأكرم يكرم... إلخ، كما حذفت الهمزة الثانية من ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ لأنَّ ماضيه: آمن، وأصله أَأْمن، والمضارع يُؤَأْمِن، أُؤْمِن، فتحذف من الأول، وتسهل في الثاني، وقد يجيء على القياس، وهو الأصل المهجور، كما في قول أبي حيان الفقعسي: [الرجز]

فـإنَّـهُ أهـلٌ لأنْ يُـؤَكْـرَمَـا

ولا تنس أنَّ هذه الهمزة تحذف من اسمي الفاعل والمفعول المأخوذين من الفعل الثلاثي المزيدة فيه الهمزة، وذلك مثل: مكرم، ومكرَم، والقياس مؤكْرِم ومؤكْرَم، وقس على ذلك، وانظر شرح ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ في الآية [٤٣].

﴿رَزَقْنَاهُمْ﴾: أعطيناهم، وملكناهم.

﴿يُنفِقُونَ﴾: يتصدَّقون على الفقراء، والمساكين، ويكون الإنفاق فرضاً كالزكاة الواجبة، والكفارات على أنواعها، ويكون تطوعاً وتقرباً إلى الله تعالى، وانظر شرح الآيات [٢٦١] وما بعدها، إن شاء الله تعالى، هذا والفعل الماضي «أنفق» وهو رباعي الحروف، مضارعه: يؤنفق، حذفت الهمزة على مثال ما قبله، ويكون ثلاثياً: «نفق». قال الزمخشري رحمه الله تعالى: إنَّ كلَّ ما فاؤه نون، وعينه فاء، يدل على معنى الخروج، والذَّهاب، مثل: نفق، ونفخ، ونفد، ونفش... إلخ.

الإعراب: ﴿الَّذِينَ﴾: فيه وجوه: الأول: الإتباع لـ: (المتقين) على البدلية، أو على النعت، الثاني: في محل نصب على المدح بفعل محذوف. الثالث: في محل رفع على اعتباره خبر مبتدأ محذوف، أو هو مبتدأ خبره ما يأتي بعده، وهو مبني على الفتح في محل جر على الأول، أو في محل نصب على الثاني، أو في محل رفع على الثالث. ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع... إلخ، والواو فاعله. ﴿بِالْغَيْبِ﴾: متعلقان به، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها، وجملة: (يقيمون الصلاة) معطوفة عليها، لا محل لها مثلها. ﴿وَمِمَّا﴾: الواو: حرف عطف. (مما): جار ومجرور متعلقان بما بعدهما، و(ما) تحتمل الموصولة والموصوفة، والمصدرية ضعيفة، ﴿رَزَقْنَاهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة الفعلية صلة (ما) أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوفٌ، وهو المفعول الثاني، التقدير: ومن الذي، أو من شيء رزقناهم إيَّاه؛ لأن الفعل: «رزق» ينصب مفعولين، كالفعل الذي هو بمعناه، وهو: أعطى، ومنح، وعلى اعتبار (ما) مصدرية تؤول مع الفعل بعدها بمصدر في محل جر بـ (مِنْ)، التقدير: مِنْ رزقنا إيَّاهم المال، وهو ركيك معنىً، كما ترى. ﴿يُنفِقُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله، والجار والمجرور (مِمَّا) في محل المفعول به، وتقديمه للاهتمام به، وللمحافظة على رؤوس الآي.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾

الشرح: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾: المراد به القرآن الكريم. ﴿وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾: يعني: الكتب السابقة، والمراد: المؤمنون الصادقون من المسلمين، ومن آمن من أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام، وأمثاله، بخلاف اليهود والنصارى الذين بقوا على أديانهم، ولم يؤمنوا بمحمد ﷺ، كما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ الآية رقم [٩١] الآتية: وفي حديث أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ، قال: قلت: يا رسول الله! كم كتاباً أنزل الله؟ قال: «**أنزل مئة كتاب وأربعة كتب: أنزل الله على شيث خمسين صحيفة، وعلى إدريس ثلاثين صحيفة، وعلى إبراهيم عشر صحائف، وأنزل على موسى قبل التوراة عشر صحائف، وأنزل التوراة، والإنجيل، والزَّبور، والفرقان**». ويقال: لما

نزلت هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ قالت اليهود، والنصارى: نحن نؤمن بالغيب، فلمَّا قال الله تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ قالوا: نحن نقيم الصلاة، فلما قال الله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ قالوا: نحن ننفق، ونتصدَّق، فلما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ نفروا من ذلك، ومثل ذلك في الآيتين رقم [١٥٥ و١٥٦] من سورة (الأعراف).

﴿وَبِٱلْءَاخِرَةِ﴾: المراد بالآخرة: الحياة التي تكون بعد الموت، وما فيها من نعيمٍ مقيم، أو عذابٍ اليم، وهي الحياة الثانية الأبدية؛ التي تكون بعد البعث، والنشور، وبعد الحساب، والجزاء، وهي في الجنة لمن آمن، وعمل صالحاً، وفي النَّار لمن كفر، وعمل سيئاً، ورحم الله مَنْ يقول: [البسيط]

الـمُـوتُ بـابٌ وكـلُّ الـنَّـاسِ دَاخِـلُـهُ فَـلَـيْـتَ شِـعْـرِي بَـعْـدَ الـبـابِ مَـا الـدَّارُ؟

ورحم الله من أجابه بقوله: [البسيط]

الـدَّارُ جَـنَّـةُ عَـدْنٍ إنْ عَـمِـلْـتَ بـمَـا يُـرضـي الإلٰـهَ وإنْ خـالـفْـتَ فـالـنَّـارُ
هُـمَـا مَـحَـلَّانِ مَـا لـلـنَّـاسِ غـيـرُهُـمَـا فـانـظـرْ لـنـفـسِـكَ مَـاذَا أَنْـتَ مُـخْـتَـارُ؟

و(الآخرة): مشتقة من التأخُّر، لتأخرها عنَّا، وتأخُّرنا عنها، كما أنَّ الدنيا مشتقة من الدُّنو، كما ستعرفه. ﴿يُوقِنُونَ﴾: أي: بما بعد الموت، عالمون علماً ثابتاً دون شك؛ إذ الإيقان: العلم بنفي الشك والشبهة عند الاستدلال. وأصل الفعل: «يُؤَيْقِنُونَ» فحذفت الهمزة على مثال ما سبق، فصار الفعل «يُويْقِنون» ثم حذفت الياء الساكنة لالتقائها ساكنة مع الواو، فصار الفعل ﴿يُوقِنُونَ﴾.

الإعراب: (الذين) معطوف على ما قبله في الآية السابقة على جميع الوجوه المعتبرة فيه. ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها. ﴿بِمَآ﴾ جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، و(ما): اسم موصول، وضعف أبو البقاء الموصوفة، قال: لأنه لا عموم فيه على هذا، فهي مبنية على السكون في محل جر بالباء. ﴿أُنزِلَ﴾: فعل ماض مبني للمجهول، ونائب الفاعل يعود إلى (ما) وهو العائد، والجملة الفعلية صلتها، ﴿إِلَيْكَ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ معطوف على ما قبله، وإعرابه مثله، والجار والمجرور متعلقان بما قبلهما، وأجيز تعليقهما بمحذوف حال من نائب الفاعل المستتر، وعليه فـ ﴿مِن﴾ بيان لما أبهم في (ما) والكاف في محل جر بالإضافة. (بالآخرة): متعلقان بالفعل بعدهما. ﴿هُمْ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿يُوقِنُونَ﴾ في محل رفع خبره، والجملة الاسمية معطوفة على جملة: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾... إلخ، لا محل لها مثلها، وهو أقوى من اعتبارها حالاً.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥﴾

الشرح: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: الإشارة إلى الذين وصفوا بالآيتين السَّابقتين بالصفات الحميدة، والأعمال المجيدة، هذا؛ و﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ جمع: ذلك، وقد يجمع على أُولالك، وأنشد ابن السكيت: [الطويل]

أُولالكَ قومي لم يكونوا أُشابةً ... وهل يعظُ الضِّلِّيلَ إلا أُولالِكَا؟!

و﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ لجماعة العقلاء، وربما جاء في غير العقلاء، قال جرير من قصيدة يهجو بها الفرزدق وهو الشاهد رقم [٨٠] من كتابنا: «فتح رب البرية»: [الكامل]

ذُمَّ المنازلَ بعدمَنْزلَةِ اللِّوىٰ ... والعَيْشَ بعدَ أُولئكَ الأيَّامِ

وقال تعالى في سورة (الإسراء) رقم [٣٦]: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾. هذا؛ وقد قال العلماء: إنَّ في قوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾ ردّاً على القدرية، والمعتزلة، والإمامية في قولهم: إن الإنسان يخلق أفعال نفسه ـ تعالى الله عن قولهم ـ ولو كان كما قالوا؛ لقال: «من أنفسهم» وقد تقدم الكلام فيه، وفي الهدى. انتهى القرطبي. هذا وفي قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ هُدٗى﴾ استعارةٌ تبعية بالحرف، أي: تمكَّنوا من الهداية التامة، ويقال في إجرائها: شبَّه مطلق ارتباط بين مهدي وهدًى، بمطلق ارتباط بين مستعلٍ ومستعلًى عليه بجامع التمكُّن في كلٍّ، فسرى التشبيه من الكليين للجزئيات، ثم استعيرت «على» مِنْ جزئي من جزئيات المشبَّه به لجزئي من جزئيات المشبَّه على طريق الاستعارة التَّصريحية التَّبعيَّة.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾: الفائزون برضا الله، الناجون من غضبه، وعقابه، فهو جمع اسم فاعل، من: أفلح الرجل: فاز ببغيته، ومراده، وأصله، «مؤفلح» فعل فيه ما فعل بما قبله، وتكرَّر اسم الإشارة لإظهار مزيد العناية بشأن المشار إليهم، وأنهم جديرون بذلك الفضل الذي خصَّهم الله به، ومنحهم إياه، هذا و«الفلح» أصله في اللغة: الشقُّ، والقطع، ومنه فلاحة الأرضين؛ أي: شقها للحرث، ولذلك سمي الأكَّار فلاحاً، ويقال للذي شُقَّت شفتُه السفلي، أو العليا: أفلح، والفلاح: البقاء، والدوام، قال الأضبط بن قريع السَّعدي في الجاهلية الجهلاء: [الرجز]

لِكُلِّ هَمٍّ مِنَ الهُمُومِ سَعَهْ ... والمُسْيُ والصُّبْحُ لا فلاحَ مَعَهْ

يقول: ليس مع كر اللَّيل والنهار بقاءٌ، وقال آخر: [الطويل]

نَحُلُّ بلاداً كُلُّها حلَّ قَبْلَنا ... وَنَرْجُو الفَلاحَ بَعْدَ عَادٍ وَحِمْيَرِ

الإعراب: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ، والكاف حرف خطاب لا محل له. ﴿عَلَىٰ هُدًى﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ، وعلامة الجر كسرة مقدرة على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين، والثابتة دليل عليها، وليست عينها. ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾: متعلقان بمحذوف صفة: ﴿هُدًى﴾ والهاء في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه، والجملة الاسمية: ﴿أُولَٰئِكَ﴾... إلخ: مستأنفة لا محل لها، أو هي في محل رفع خبر المبتدأ: (الذين يؤمنون...) إلخ، وما عطف عليه، على وجهٍ مرَّ ذكره، (أولئك): مبتدأ مثل سابقه، ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل لا محل له. ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾: خبر المبتدأ مرفوع... إلخ، هذا ويجوز اعتبار الضمير مبتدأً ثانياً و﴿الْمُفْلِحُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية هذه في محل رفع خبر المبتدأ الأول، وعلى الوجهين فالجملة الاسمية: ﴿أُولَٰئِكَ﴾... إلخ: معطوفة على سابقتها على الوجهين المعتبرين فيها.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾

الشرح: لمَّا ذكر الله المؤمنين، وأحوالهم؛ ذكر الكافرين، ومآلهم، وتلك سُنَّةٌ اقتضتها حكمة العليم الحكيم، ورحمتُه في كتابه الكريم؛ بأن لا يذكر التكذيب، والكافرين، والمنافقين؛ إلا ويذكر التصديق من المؤمنين، ولا يذكر الإيمان إلا ويذكر الكفر، ولا يذكر الجنَّة، ونعيمها إلا ويذكر النَّار وجحيمها، ولا يذكر الرحمة إلا ويذكر الغضب، والسخط؛ ليكون المؤمن راغباً راهباً، راجياً خائفاً، وهذا ما يسمَّى بالمقابلة، والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

هذا والكفر: ضدُّ الإيمان، وهو المراد في الآية، وقد يكون بمعنى: جحود النعمة، والإحسان، ومنه قول النبي ﷺ في النساء في حديث الكسوف: «**ورأيتُ النارَ، فلمْ أر منظراً كاليوم قطُّ أفظعَ! ورأيتُ أكثر أهلها النِّساء**» قيل: بمَ يا رسول الله؟! قال: «**بكفرهنَّ**» قيلَ: أيكفرنَ بالله؟! قال: «**يكفرنَ العشيرَ، ويكفُرْنَ الإحسانَ، لو أحسنتَ إلى إحداهنَّ الدَّهرَ كُلَّه، ثم رأتْ منكَ شيئاً، قالت: ما رأيتُ منكَ خيراً قطُّ!**». أخرجه البخاري، وغيره. ويروى بأطول من هذا من رواية أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ، وأصل الكفر في كلام العرب: الستر، والتغطية، قال لبيد ـ رضي الله عنه ـ في معلَّقته رقم [٤٢] في وصف بقرةٍ وحشية: [الكامل]

يعلُو طَريقةَ مَتْنِهَا مُتَواتِرٌ ... في ليلةٍ كَفَرَ النُّجومَ غَمامُهَا

وسمِّي الزَّارع: كافراً؛ لأنه يلقي البذر في الأرض، ويغطيه، ويستره بالتُّراب، قال تعالى في تشبيه حال الدنيا في سورة (الحديد) رقم [٢٠] ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾. ويسمَّى الليل: كافراً؛ لأنه يستر كلَّ شيءٍ بظلمته. قال لبيد في معلقته رقم [٦٥]: [الطويل]

حتى إذا ألقت يداً في كافرٍ ... وأجنَّ عورات الثغور ظلامها

ويطلق لفظ الكافر على النَّهر، قال المتلمس حين ألقى الصحيفة في النَّهر: [الطويل]

وألقيتُها بالثِّنْي مِنْ جَنْبِ كافرٍ ... كذلك أُلقي كلَّ رأسٍ مُضَلَّلِ

رضيتُ لها بالماءِ لمَّا رأيتُها ... يجولُ بها التيَّارُ في كلِّ جَدْوَلِ

هذا وكفر فلان النعمة، يكفرها كفراً، وكفوراً، وكفراناً: إذا جحدها، وأسرَّها، وأخفاها. قال تعالى في سورة إبراهيم ـ على نبينا، وحبيبنا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ الآية رقم [٧]: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ وقال القطامي، وهو الشاهد رقم [٥٣١] من كتابنا فتح رب البريَّة: [الوافر]

أكُفْراً بَعْدَ رَدِّ الموتِ عَنِّي ... وبعدَ عطائِكَ المِئَةَ الرِّتاعا

﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ﴾: ﴿سَوَآءٌ﴾ مصدر بمعنى الاستواء، فلذا صح الإخبار به عن متعدد.

وقيل: بمعنى: مستوٍ، وهو لا يثنى، ولا يجمع، قالوا: هما، وهم سواءٌ، فإذا أرادوا لفظ المثنى، قالوا: سيَّان، وإن شئت قلت: سواءان، وفي الجمع: هم أسواء، وهذا كله ضعيف، ونادرٌ، وأيضاً على غير القياس: هم سواس، وسواسية، أي: متساويان، ومتساوون. هذا ويأتي بمعنى: الوسط، كما في قوله تعالى: ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَآءِ الْجَحِيمِ﴾ رقم [٥٥] من سورة (الصافات) ويأتي بمعنى: العدل، كما في قوله تعالى: ﴿فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَآءٍ﴾ الآية رقم [٥٨] من سورة (الأنفال) وسواء السبيل: ما استقام منه، كما في الآية رقم [١٠٨] الآتية: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ السَّبِيلِ﴾ وسواء الجبل: ذروته، وسواء الشيء: غيره، قال الأعشى: [الطويل]

تجانَفُ عَنْ جَوِّ اليمامةِ ناقتي ... وما عَدَلَتْ عَنْ أهْلِها لِسَوائِها

﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: الإنذار: الإبلاغ والإعلام، ولا يكاد يكون إلا في التخويف من عذاب الله، وتناذر القوم لأمر: إذا خوفه بعضهم بعضاً، ففي الآية الكريمة تيئيس من إيمان الكفار، سبقت للتنبيه، على غلوِّهم في الكفر، والطغيان، وعدم استعدادهم للإيمان، والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل نصب اسم ﴿إِنَّ﴾. ﴿كَفَرُوا﴾: ماض وفاعله، والجملة الفعلية مع المتعلق المحذوف صلة الموصول، لا محل لها. ﴿سَوَآءٌ﴾: خبر مقدم. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ (سواء أأنذرتهم). ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾: الهمزة: حرف استفهام وتسوية. (أنذرتهم): فعل، وفاعل، ومفعول به، والجملة الفعلية، وهمزة التسوية في تأويل مصدر في محل رفع مبتدأ مؤخر. ﴿أَمْ﴾: حرف

عطف معادل لهمزة التسوية. ﴿لَمْ﴾: حرف نفي، وقلب، وجزم. ﴿تُنذِرْهُمْ﴾: مضارع مجزوم بـ ﴿لَمْ﴾، والفاعل مستتر تقديره: «أنت»، والهاء مفعول به، والجملة الفعلية هذه مؤوَّلة بمصدر معطوف على سابقه، وتقدير الكلام: إنذارك وعدمه سواء، وقال محمد بن يزيد: ﴿سَوَآءٌ﴾: يرفع بالابتداء، والمصدر المؤول خبر عنه. وقال أبو البقاء: ﴿سَوَآءٌ﴾: مبتدأ، والمصدر المؤوَّل في محل رفع فاعل بـ ﴿سَوَآءٌ﴾ سد مسدَّ خبره، والتقدير: يستوي عندهم الإنذار، وتركه. والأول أقوى؛ لأن ﴿سَوَآءٌ﴾ نكرة كما ترى، ولا مسوغ لوقوعه مبتدأ، وعلى كلٍّ فالجملة الاسمية في محل رفع فاعل به. ﴿لَا﴾: نافية، ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: فعل مضارع، وفاعله، والجملة الفعلية في محل نصب حال مؤكدة لمضمون ما قبلها، أو هي مستأنفة لا محل لها، ورجَّحه ابن هشام في المغني على غيره، أو هي في محل رفع خبر (إنَّ) فتكون الجملة الاسمية: ﴿سَوَآءٌ﴾... إلخ المعترضة لا محل لها، أو هي في محل رفع خبر ثان لـ ﴿إِنَّ﴾ أقوال، وأرجح الأول، وهو الحالية، هذا ومثل هذه الآية قوله تعالى في سورة (إبراهيم) رقم [٢١]: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾، وقوله تعالى في سورة (المنافقون) الآية رقم [٦]: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ وقوله تعالى في سورة (الشعراء) رقم [١٣٦]: ﴿قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾ ولا تنس الآية رقم [١٠] من سورة (ياسين). و(أَمْ) في هذه الآيات، وأمثالها تسمى: متصلة؛ لأن ما قبلها وما بعدها لا يستغنى بأحدهما عن الآخر، وتسمى أيضاً معادلة لمعادلتها للهمزة في إفادة التسوية، والمنقطعة بخلاف ذلك، انظر مبحث «أم» في كتابنا فتح القريب المجيب، تجد ما يسرُّك، ويثلج صدرك؛ فإنه جيد، والحمد لله.

﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾

الشرح: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ﴾ قال الزجَّاج: الختم: التغطية؛ لأن في الاستيثاق من الشيء يضرب الخاتم عليه تغطيةً له؛ لئلا يطَّلع عليه أحد. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ : طبع الله على قلوبهم، فلا يعقلون الخير. وقال النسفي: وحاصل الختم والطَّبع خلق الظلمة، والضيق في صدر العبد عندنا، فلا يؤمن ما دامت تلك الظلمة في قلبه. انتهى.

أقول: ولعل هذه الظلمة حاصلة من الرَّان الذي ذكره الله بقوله: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ سورة (المطففين) رقم [١٤]، وخذ ما يلي: عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ المؤمنَ إذا أذنبَ ذنباً؛ كانَتْ نُكْتَةٌ سَوداءُ في قَلبِهِ، فإن تابَ، ونزعَ، واستغفرَ؛ صُقِلَ منها، وإنْ زَادَ؛ زَادَتْ حتَّى يُغَلَّفَ بها قلبُهُ، فذلكَ الرَّان الَّذي ذكرَ الله في كتابه: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾**». رواه الترمذيُّ، والنَّسائي، وابن ماجه، وابن حبَّان.

هذا وفي هذه الآية دليل واضح على أنَّ الله سبحانه خالق الهدى، والضلال، والكفر، والإيمان، فاعتبروا أيها السَّامعون، وتعجَّبوا أيها المفكرون من عقول القدرية والمعتزلة القائلين بخلق إيمانهم، وهداهم، فإنَّ الختم هو الطَّبع، فمن أين لهم الإيمان ولو جهدوا؛ وقد طبع على قلوبهم، وعلى سمعهم، وجعل على أبصارهم غشاوة، فمتى يهتدون؟! أو من يهديهم مِنْ بعد الله إذا أضلهم، وأصمهم، وأعمى أبصارهم ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ وكان فعل الله ذلك عدلاً فيمن أضلَّه، وخذله؛ إذ لم يمنعه حقّاً وجبَ له، فتزول صفة العدل، وإنَّما منعهم ما كان له أن يتفضل به عليهم، لا ما وجب لهم. انتهى. قرطبي.

أقول: ولو تركهم وشأنهم؛ لما اختاروا غير الكفر قطعاً، هذا وقد شبه قلوبهم لتأبِّيها الحق، وأسماعهم وأبصارهم لارتفاعها عن تقبل نور الهداية بالوعاء المختوم عليه، المسدود منافذه، المغشى بغشاء يمنع أن يصله ما يصلحه، واستعار لفظ الختم، والغشاوة لذلك بطريق الاستعارة التصريحية؛ لأنه ليس تغشية على الحقيقة، وإنما المراد بها أن يحدث في نفوسهم هيئة تمرنهم على استحباب الكفر، والمعاصي، واستقباح الإيمان، والطاعات. قال سليمان الجمل ـ رحمه الله تعالى ـ: وحيث أُطلق القلب في لسان الشرع؛ فليس المراد به الجسم الصنوبري الشَّكل؛ فإنه للبهائم، والأموات، بل المراد به معنىً آخر، سمِّي بالقلب أيضاً، وهو جسم لطيف قائم بالقلب اللحماني، قيام العرض بمحله، أو قيام الحرارة بالفحم، وهذا القلب هو الذي يحصل منه الإدراك، وترتسم فيه العلوم والمعارف. انتهى.

تنبيه: وحَّد السمع دون القلوب والأبصار لأمن اللَّبس، ولأنه في الأصل مصدر، يقال: سمعت الشيء سمعاً، وسماعاً، والمصدر لا يثنى، ولا يجمع؛ لأنه اسم جنس، يقع على القليل، والكثير، فلا يحتاج فيه إلى تثنيةٍ، أو جمعٍ، انتهى. نسفي. وقيل: وحَّد السَّمع؛ لأن مدركاته نوعٌ واحد، وهو الصَّوت، ومدركات القلبِ والبصر مختلفة، وإنَّما خصَّ الله تعالى هذه الأعضاء بالذكر؛ لأنها طرق العلم، فالقلب محل العلم، وطريقه إما السَّماع وإما الرؤية. انظر سورة (المُلك) جيداً.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ قوي مستمرٌّ، فهو وعيدٌ، وبيان لما يستحقُّونه، والعذاب: كالنكال وزناً ومعنىً، تقول: عذب عن الشيء، ونكل عنه: إذا أمسك، ومنه: الماء العذب؛ لأنه يقمع العطش، ويردعه، ولذلك سمي نقاحاً، وفراتاً.

الإعراب: ﴿خَتَمَ﴾: فعل ماض. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله. ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، والجملة الفعلية مستأنفة، وفيها معنى التعليل لعدم قبولهم الإيمان. ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾: معطوفان على ما قبلهما. ﴿وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف في محل رفع خبر مقدم. ﴿غِشَـٰوَةٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة الفعلية قبلها، أو هي مستأنفة، ولا محل لها على الاعتبارين، هذا وقال الأخفش: ﴿غِشَـٰوَةٌ﴾ فاعل بالجار والمجرور، وهذا يوجب تقدير

فعل، فيكون التقدير: ووُضِعَ أو: وثبت على أبصارهم غشاوة، فتكون الجملة فعلية على هذا التقدير، هذا ويقرأ ﴿غِشَٰوَةٌ﴾ بالنصب على تقدير: وجعل على أبصارهم غشاوةً، قال القرطبي: فيكون من باب قوله، وهو الشاهد رقم [١٠٧٤] من كتابنا فتح القريب المجيب: [الكامل]

عَلَفْتُها تِبْناً وماءً بارداً حتَّى بدَتْ هَمَّالةً عَيْناهَا

وانظر ما ذكرته في تفسير قوله تعالى في سورة (الحشر) رقم [٩]: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾... إلخ، وانظر سورة (الحج) رقم [٢٠]، وسورة (الفرقان) رقم [١٢]، والهاء في الكلِّ ضمير متصل في محل جر بالإضافة. (لهم): جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم. ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿عَظِيمٌ﴾: صفة عذاب، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها، أو هي مستأنفة، فلا محل لها على الاعتبارين. هذا والحالية ممكنة من الضمير المجرور محلاً بالإضافة، وساغ مجيء الحال من المضاف إليه؛ لأن المضاف جزؤه. هذا وإن اعتبرت ﴿عَذَابٌ﴾ فاعلاً بالجار والمجرور على قول الأخفش، فتكون الجملة فعلية، ومعطوفة على ما قبلها.

تنبيه استدل بالآية الكريمة من فضَّل السَّمع على البصر لتقدمه عليه باللفظ، ومثلها كثير. وقال لتبرير قوله: والسَّمع يدرك به الجهات السِّت، وفي النور، والظلمة، ولا يدرك بالبصر إلا من الجهة المقابلة، وبواسطة من ضياءٍ، وشعاع. وقال أكثر المتكلمين بتفضيل البصر على السَّمع؛ لأن السمع لا يدرك إلا الأصوات، والكلام.

والبصر يدرك به الأجسام، والألوان، والهيئات كلِّها، قالوا: فلما كانت تعلقاته أكثر؛ كان أفضل، وأجازوا الإدراك بالبصر من الجهات السِّت. انتهى قرطبي بتصرف.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨﴾

الشرح: لمَّا تقدم وصف المؤمنين في صدر السُّورة بأربع آيات، ثم عرف حال الكافرين بآيتين شرع الله تعالى في بيان حال المنافقين؛ الَّذين يظهرون الإيمان، ويبطنون الكفر. ولما كان أمرهم يشتبه على كثيرٍ من الناس؛ أطنب بذكرهم في ثلاث عشرة آية؛ لينبِّه إلى عظيم خطرهم، وكبير ضررهم، ووصفهم بصفات متعدِّدة، كلٌّ منها نفاق، كما أنزل سورة (براءة) وسورة (المنافقين) فيهم، وذكرهم في سورة (النُّور) وغيرها من السور تعريفاً بأحوالهم لتجتنب، ويجتنب مَنْ تلبَّس بها أيضاً.

والنِّفاق: هو إظهار الخير، وإسرار الشرِّ، إظهار الإيمان، وإخفاء الكفر، وهو نوع اعتقاديٌّ، وهو الذي يخلد صاحبه في النَّار، وعمليٌّ بأن يتصف إنسان بصفاتهم، ويعمل بأعمالهم من الكذب، والخيانة، والفجور، وخلف الوعد، وغير ذلك.

عن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ النبي ﷺ قال: «**أربعٌ مَنْ كُنَّ فيهِ كانَ منافقاً خَالصاً، ومَنْ كانتْ فيه خصلةٌ مِنْهُنَّ، كانتْ فيه خصلةٌ من النِّفَاقِ حتَّى يَدَعَهَا: إذا اؤْتُمِنَ خَانَ، وإذا حدَّثَ كَذَبَ، وإذا عاهَدَ غَدَرَ، وإذا خاصَمَ فَجَرَ**». رواه البخاريُّ، ومسلم.

﴿ٱلنَّاسِ﴾: اسم جمع لا واحد له من لفظه، مثل: قوم، ورهط... إلخ، واحده: إنسان، وإنسانة من غير لفظه، وتصغيره: نُوَيْس، وناس، وإنسان، وأناسيّ، وإنس من مادَّةٍ واحدة. وهو يطلق على الإنس، والجن، لكن غلب استعماله في الإنس، قال تعالى: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ وأصله: الأناس: حذفت منه الهمزة تخفيفاً على غير قياس، وحذفها مع لام التعريف كاللازم، ولا يكاد يقال: الأناس، وقد نطق القرآن الكريم بهذا الأصل، ولكن بدون لام التعريف، قال تعالى في سورة (الإسراء) رقم [٧١]: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ﴾، وقوله تعالى في الآية رقم [٦٠] الآتية: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ وقيل: إن أصله النوس، ولم يحذف منه شيء، وإنَّما قلبت الواو ألفاً لتحرُّكها، وانفتاح ما قبلها.

هذا وقيل: «النَّاس» مأخوذ من النَّوس، وهو الحركة، يقال: ناس، ينوس: إذا تحرك، وقيل: أصله من: نسِيَ، فأصل ناس: نَسِيَ، قُلب، فصار: نَيِسَ، تحركت الياء، وانفتح ما قبلها، فقلبت ألفاً، ثم دخلت الألف واللام، فقيل: النَّاس، وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: نسي آدم عهد الله فَسُمِّي إنساناً. وقال النبي ﷺ: «**نَسِيَ آدَمُ فَنَسِيتْ ذُرِّيَّتُهُ**» وقال تعالى في سورة (طه) رقم [١١٥]: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾، وعلى هذا فالهمزة زائدة. قال الشاعر: [الكامل]

لا تَنْسَيَنْ تلكَ العُهودَ فإنَّما ... سُمِّيتَ إنساناً لأنكَ ناسي

وقال آخر: [البسيط]

فإنْ نَسِيت عهوداً منكَ سَالِفَةً ... فاغْفِرْ فأوَّل ناسٍ أوَّلُ النَّاسِ

وقيل: سمي: إنساناً؛ لأنسه بحواء، وقيل: لأنسه بربِّه، قال الشاعر: [الطويل]

ومَا سُمِّيَ الإنسانُ إلا لأُنْسِهِ ... ولا القلبُ إلَّا أنَّهُ يَتَقَلَّبُ

وَأضيف: إن اللهَ أطلق لفظ الناس على شخصٍ واحدٍ، وهو نُعيم بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ، وذلك بقوله تعالى في سورة آل عمران رقم [١٧٣] ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾... إلخ.

(اليوم الآخر): هو آخر أيَّام الدنيا، فيه الحشر، والنشر، والحساب، والجزاء، ودخول أهل الجنَّة الجنَّةَ بالفضل الإلٰهي، ودخول أهل النَّارِ النَّارَ بالعدل الرَّباني.

﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾: هذا ردٌّ لما ادَّعوه من الإيمان على أكمل وجهٍ. هذا؛ وما قاله

الزمخشري عن المنافقين: كانوا يهوداً؛ غير مسلَّم له، بل إنَّ المنافقين كانوا من العرب سكان المدينة المنورة، ورئيسُهم عبد الله بنُ أُبَيٍّ خزرجيُّ الأصل.

الإعراب: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾: الواو حرف عطف عطفت قصَّة المنافقين على ما قبلها. (من الناس): جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم. ﴿مَن﴾: اسم موصول، أو نكرة موصوفة مبنية على السكون في محل رفع مبتدأ مؤخر، هذا هو المتعارف عليه في هذه الجملة، وقيل: إن الجار والمجرور متعلقان بمحذوف صفة لمبتدأ محذوف، التقدير: وفريق كائن من الناس، على حد قوله تعالى في سورة (الجنِّ) رقم [١١]: ﴿وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ والأصح: أنَّ مضمون الجار والمجرور مبتدأ. و(مَنْ) هي الخبر؛ لأنَّ (مِنْ) الجارة دالة على التبعيض، أي: وبعض الناس، وجمع الضمير يؤيد ذلك، ويؤيده قوله تعالى في سورة (آل عمران) رقم [١١٠]: ﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ فـ (أكثرهم) معطوف على مضمون ﴿مِّنْهُمُ﴾، وقوله تعالى في سورة (المائدة) رقم [٦٩]: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ فـ(كثير) معطوف على مضمون ﴿مِّنْهُمْ﴾، وخذ قول الحماسيِّ: [الكامل]

مِنْهُمْ لُيُوثٌ لا تُرامُ وبَعْضُهُمْ ... مِمَّا قَمِشْتَ وَضَمَّ حَبْلُ الحَاطِبِ

حيث قابل لفظ: «منهم» بما هو مبتدأ، أعني لفظة: «بعضهم» وهذا مما يدلُّ على أنَّ مضمون «منهم» مبتدأ، هذا و«ليوث» جمع: ليث، وهو السّبعُ، لا ترام: لا تقصد. قَمِشْتَ: جمعت مِنْ هنا، وهناك، والمراد: رذالة الناس، والقمش: الرديء من كل شيء.

﴿يَقُولُ﴾: فعل مضارع، والفاعل مستتر تقديره: «هو» يعود إلى مَنْ، والجملة الفعلية صلتها، أو صفتها، والعائد، أو الرابط رجوع الفاعل إليها. ﴿ءَامَنَّا﴾: فعل، وفاعل. ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلقان بما قبلهما، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول ﴿وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ معطوفان على ما قبلهما. ﴿وَمَا﴾: الواو: واو الحال. (ما): نافية حجازية تعمل عمل: «ليس». ﴿هُم﴾: ضمير منفصل مبني على السكون في محل رفع اسمها. ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾: الباء: حرف جر صلة. (مؤمنين): خبر (ما) منصوب وعلامة نصبه الياء المقدرة على آخره، منع من ظهورها اشتغال المحل بالياء التي جيء بها لمناسبة حرف الجر الزائد، ويقال: مجرور لفظاً منصوب محلاًّ، والجملة الاسمية في محل نصب حال من البعض المفهوم ممَّا سبق، والضمير في الفعل: ﴿يَقُولُ﴾ والرابط الواو، والضمير. هذا وبنو تميم يهملون (ما) فتكون الباء زائدة في خبر المبتدأ، ولكن جاء القرآن بلغة الحجازيِّين.

تنبيه: الباء حرف جر زائد، ويقال في القرآن: حرف صلة تأدُّباً؛ لأنه لا زيادة في القرآن الكريم، ولا نقص، وهو وأمثاله يفيد التوكيد، ولكن يقول النَّحويُّون: زائد من حيث الاصطلاح، وهو ضروري عند علماء البلاغة لتوكيد الكلام، وتقويته.

﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ۝٩﴾

الشرح: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾: الخداع، والمخادعة: أن يوهم المرء صاحبه خلاف ما يريد به من المكروه؛ ليوقعه فيه من حيث لا يشعر، أو: يوهمه المساعدة على ما يريد هو به ليغترَّ بذلك، وكلا المعنيين مناسب للمقام، فإنَّهم كانوا يريدون بما صنعوا أن يطَّلعوا على أسرار المؤمنين، فيذيعوها إلى المنابذين، وأن يدفعوا عن أنفسهم ما يصيب سائر الكفرة.

قال العلماء: معنى ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ أي: يخادعونه عند أنفسهم، وعلى ظنِّهم.

وقيل: في الكلام حذف، تقديره: يخادعون رسول الله ﷺ قاله الحسن، وغيره؛ لأنَّ خداع رسول الله خداعٌ لله. أو المعنى: إن معاملة رسول الله معاملة الله؛ من حيث إنَّه خليفته في تشريع الأحكام، وتنفيذ الحدود، قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ الآية رقم [٨٠] من سورة (النِّساء)، وقال تعالى في سورة (الفتح) رقم [١٠]: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾، وكذلك إذا خادعوا المؤمنين؛ فقد خادعوا الله. هذا؛ ومن قولهم: خدع الضب، إذا توارى في جحره، والأخدعان: عرقان خفيَّان في العنق، وقال أهل اللغة: أصل الخدع في كلام العرب: الفساد، حكاه ثعلب عن ابن الأعرابي، وأنشد قول سويد بن كاهل: [الرمل]

أبيضُ اللَّونِ لذيذٌ طعمُهُ ... طيِّبُ الرِّيقِ إذا الرِّيقُ خدَعْ

﴿وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ﴾: أي: إن دائرة الخداع راجعةٌ إليهم، وضررها يحيق بهم، أو أنهم في ذلك خدعوا أنفسهم لمَّا غروها بذلك، وخدعتهم أنفسهم حيث حدَّثتهم بالأماني الفارغة، وحملتهم على مخادعة مَنْ لا تخفى عليه خافية في الأرض، ولا في السماء، وقد قال الرسول ﷺ: **«لا تخادعِ اللهَ، فإنَّ مَنْ يُخادِعُ اللهَ يخدعهُ، ونفسَه يخدعُ؛ لو يَشْعُرُ»** قالوا: يا رسول الله! وكيف يخادع الله؟ قال: **«تعملُ بما أمركَ اللهُ بِهِ، وتَطلبُ بِهِ غَيْرَهُ»**، أي: تُرائي به النَّاس، هذا؛ وقرئ: ﴿يُخَٰدِعُونَ﴾ في الموضعين.

﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾: الشُّعور: إدراك الشيء من وجه يدقُّ، ويخفى، مشتقٌّ من الشعر لدقته، وسمِّي الشاعر: شاعراً لفطنته، ورقَّة معرفته، والمعنى: وما يشعرون أنَّ وبال خداعهم راجعٌ على أنفسهم، وأنَّهم سيحاسبون حساباً عسيراً، وسيعاقبون عقاباً شديداً. ومحصَّل ما ذكر: أنَّ الآية من قبيل الاستعارة التمثيلية حيث شبه حالهم في معاملتهم لله بحال المُخادع مع صاحبه من حيث القبح، أو من باب المجاز العقلي في النسبة الإيقاعية. انتهى. جمل.

هذا وأما (النَّفس) فإنها تُجمع في القلة: أنفس، وفي الكثرة: نفوس. والنفس: مؤنث باعتبار الرُّوح، وتذكر باعتبار الشخص؛ أي: فإنها تطلق على الذات أيضاً، سواء أكان ذكراً أم

أنثى، فعلى الأول قيل: هي جسم لطيف مشتبك بالجسم اشتباك الماء بالعود الأخضر الرَّطب. فتكون سارية في جميع البدن، قال الجنيد ـ رحمه الله ـ: الرُّوح: شيء استأثر الله بعلمه، ولم يطلع عليه أحداً من خلقه، فلا يجوز البحث عنه بأكثر من أنَّه موجود، قال تعالى في سورة (الإسراء) رقم [٨٥]: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وقال بعضهم: إنَّ هناك لطيفة ربَّانيَّة لا يعلمها إلا الله تعالى، فمن حيث تفكُّرها تسمى: عقلاً، ومن حيث حياة الجسد بها تسمَّى: روحاً، ومن حيث شهوتها: تسمَّى نفساً، فالثلاثة متَّحدة بالذات، مختلفةٌ بالاعتبار، وهذا ما تدل عليه الآثار الصِّحاح. هذا؛ ومن الدليل على أن النفس هي الروح قوله تعالى في سورة (الزُّمر) رقم [٤٢]: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ يريد الأرواح، وذلك بين في قول بلال ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ في حديث ابن شهاب: «أخذ بنفسي يا رسول الله الَّذي أخذ بنفسك». وهذا كان في الوادي الَّذي ناموا فيه عن صلاة الصُّبح حتى طلعت الشمس، وهم قافلون من غزوة تبوك. والنَّفس أيضاً: الدم، يقال: سالت نفسُه، قال الشاعر: [الطويل]

تَسِيلُ على حدِّ الظُّباتِ نُفوسُنَا ... ولَيْسَتْ على غيرِ الظُّباتِ تَسِيلُ

وقال إبراهيم النَّخعي، وهو المقرَّر في الفقه: (ما ليسَ لهُ نفس سائلة فإنه لا ينجِّس الماء إذا مات فيه)، والنَّفس أيضاً: الجسد، قال شاعر: [الكامل]

نُبِّئتَ أنَّ بني سُحيْمٍ أدخلُوا ... أبياتَهُمْ تامورَ نَفسِ المُنْذِرِ

والتَّامور أيضاً: الدم. وانظر الآية رقم [١٤٤] الآتية.

هذا وقد ذكر القرآن الكريم للنفس خمس مراتب: الأمارة بالسُّوء، واللَّوامة، والمُطمئنَّة، والراضية، والمرضية، ويزاد: الملهمة، والكاملة، فالأمارة بالسوء هي التي تأمر صاحبها بالسُّوء، ولا تأمر بالخير إلا نادراً، وهي مقهورة، ومحكومة للشَّهوات. وإن سكنت لأداء الواجبات الإلهية، وأذعنت لاتباع الحق؛ لكن بقي فيها ميلٌ للشَّهوات؛ سمِّيت: لوَّامة، وإن زال هذا الميل، وقويت على معارضة الشَّهوات، وزاد ميلها إلى عالم القدس، وتلقَّت الإلهامات؛ سمِّيت: ملهمة. فإن سكن اضطرابها، ولم يبق للنفس الشَّهوانية حكم أصلاً؛ سميت: مطمئنَّة، فإن ترقَّت من هذا، وأسقطت المقامات من عينها، وفنيت على جميع مراداتها؛ سميت: راضية، فإن زاد هذا الحال عليها؛ صارت مرضية عند الحقِّ، وعند الخلق، فإن أمرت بالرُّجوع إلى العباد لإرشادهم، وتكميلهم؛ سمِّيت كاملةً، فالنفس سبع طبقات، ولها سبع درجات، كما ذكرتُ، وقدمتُ.

وأخيراً خذ ما ذكره القرطبيُّ ـ رحمه الله تعالى ـ: وفي الخبر عن النبي ﷺ: أنه قال: **«ما تَقُولونَ في صَاحبٍ لَكُمْ، إنْ أكْرَمتُموهُ، وأطعَمْتُمُوهُ، وكسَوتمُوهُ؛ أفضَى بكم إلى شَرِّ غَايةٍ، وإنْ أَهَنتُموه، وأَعْرَيْتُموهُ، وأَجَعْتُمُوهُ أفضى بكم إلى خيرِ غايةٍ؟»**.

قالوا: يا رسول الله هذا شرٌّ صاحبٍ! قال: «**فوَ الَّذي نفسِي بيدِهِ إنَّهَا لَنُفوسُكم التي بينَ جُنُوبِكم!**». انتهى.

الإعراب: ﴿يُخَٰدِعُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع... إلخ، والواو فاعله. ﴿ٱللَّهَ﴾: منصوب على التعظيم. (الذين): اسم موصول مبني على الفتح في محل نصب معطوف على لفظ الجلالة. ﴿ءَامَنُواْ﴾: فعل ماض مبني على الضم، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية مع المتعلق المحذوف صلة الموصول، لا محل لها، وجملة: ﴿يُخَٰدِعُونَ﴾... إلخ: بدل اشتمال من جملة: ﴿يَقُولُ﴾... إلخ؛ لأنَّ قولهم كذا مشتمل على الخداع، وتحتمل أن تكون مستأنفة جواباً لسؤال مقدَّر، وهو: ما بالهم قالوا: آمنا، وما هم بمؤمنين؟ فقيل: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾. وجوز أبو البقاء اعتبارها حالاً من فاعل: ﴿يَقُولُ﴾ المستتر، أو من الضمير المستتر بـ(مؤمنين) ﴿وَمَا﴾: الواو واو الحال. (ما) نافية. ﴿يَخْدَعُونَ﴾: فعل مضارع، والواو فاعله. ﴿إِلَّآ﴾ حرف حصر لا محل له. ﴿أَنفُسَهُمْ﴾: مفعول به، والهاء في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية في محل نصب حال من واو الجماعة، والرابط الواو، والضمير، فتكون حالاً متداخلة على قول أبي البقاء، وغير متداخلة على الوجهين المعتبرين في الجملة السابقة، ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ إعرابها كإعراب ما قبلها، وهي معطوفة عليها، فهي في محل نصب حال مثلها، وقيل: مستأنفة لا محل لها، ولا وجه له، وحذف مفعول الفعل للعلم به، التقدير: وما يشعرون: أن وبال خداعهم راجع على أنفسهم. هذا؛ ولا تنس: أنَّه روعي لفظ (مَنْ) بإرجاع فاعل يقول إليها، وروعي معناها بإرجاع الضَّمير بقوله: (وهم لا يشعرون).

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾

الشرح: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾: أي: شكٌّ، ونفاق، فهو يمرض قلوبهم، أي: يضعفها، وذلك بضعف الإيمان فيها، والمرض: حقيقة فيما يعرض للبدن، فيخرجه عن الاعتدال اللائق به، ويوجب الخلل في أفعاله، وقد يؤدِّي إلى الموت، والمرض هنا: عبارةٌ مستعارة للفساد الذي في عقائدهم، وذلك إما أن يكون شكّاً، ونفاقاً، وإما جحداً، وتكذيباً، والمعنى: قلوبهم مرضى لخلوِّها من الإيمان، والعصمة، والتوفيق، والرِّعاية، والتأييد من الله.

﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾: قيل: هو دعاء عليهم، ويكون معنى الكلام: زادهم الله شكّاً، ونفاقاً جزاءً على كفرهم، وخبثهم. وعلى هذا يكون في الآية دليل على جواز الدُّعاء على المنافقين، والطرد لهم من رحمة الله؛ لأنهم شر خلق الله، وقيل: هو إخبار من الله تعالى عن زيادة مرضهم، أي: فزادهم الله مرضاً إلى مرضهم، كما قال في سورة (التوبة) رقم [١٢٥]: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ وقال سليمان الجمل ـ رحمه الله تعالى ـ: بأن طبع الله على قلوبهم لعلمه

تعالى بأنه لا يؤثر فيها التذكير، والإنذار، وقيل: زادهم كفراً بزيادة التكاليف الشَّرعية؛ لأنهم كانوا كلما ازدادت التكاليف بنزول الوحي؛ يزدادون كفراً. انتهى نقلاً من أبي السعود.

هذا وزاد، يزيد: ضد نقص، ينقص، يكون لازماً، كقولك: زاد المال درهماً، ويكون متعدياً لمفعولين، كما في الآية الكريمة، وقولك: زاد الله خالداً خيراً؛ بمعنى: جزاه الله خيراً، وأما قولك: زاد المال درهماً، والبر مدّاً، فدرهماً، ومدّاً تمييز، ومثله قل في: نقص، فمن المتعدِّي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا﴾ الآية رقم [٤] من سورة (التوبة)، ومن اللازم قوله تعالى في سورة ق رقم [٤]: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: أي: موجع، مثل السَّميع، بمعنى: المُسمع، وآلم: إذا أوجع.

والإيلام: الإيجاع، والألم: الوجع، والتألُّم: التوجُّع. هذا وقال المرحوم سليمان الجمل: مؤلَم بفتح اللام على طريق الإسناد المجازي، حيث أسند الألم للعذاب، وهو في الحقيقة إنما يسند إلى الشخص المعذَّب، يقال: أَلِم، من باب: طرِب، فهو أليم: كوجع، فهو وجيع، أي: متألِّم ومتوجِّع، ولا يقال: إنَّه بكسر اللام اسم فاعل على طريق الإسناد الحقيقي، كسميع بمعنى: مُسمِع لخلوِّه من دعوى المبالغة الحاصلة على كونه بفتح اللام؛ حيث يقتضي: أن العذاب لشدَّة إيلامه للمعذبين، صار هو كأنه مؤلم، أي: معذب، فهو على حد: جدَّ جدُّه. انتهى. هذا؛ وعذاب: اسم مصدر لا مصدر؛ لأن المصدر: تعذيب؛ لأنه مِنْ: عذَّب، يعذِّب بتشديد الذال فيهما، وقيل: هو مصدر على حذف الزوائد، ومثله عطاء، وسلام، وثبات؛ لأعطى، وسلم، وأثبت، هذا والعذاب كل ما شقَّ على الإنسان، ومنعه عن مراده، وهو كالنَّكال وزناً ومعنىً.

تنبيه: وحكمة كفِّه ﷺ عن قتل المنافقين مع علمه بأعيان بعضهم ما ثبت في الصحيحين: أنه ﷺ قال لعمر ـ رضي الله عنه ـ: **«أكرهُ أن يَتَحدَّثَ العَرَبُ: أنَّ مُحمداً يقتلُ أصحابَهُ»**.

وفي روايةٍ ثانية: **«معاذَ اللهِ أنْ يتحدثَ الناسُ أنِّي أقتُلُ أصحَابي!»**. والنبي ﷺ لم يقتلهم لمصلحة، وهي تأليف القلوب عليه لئلا تنفر منه، علماً بأن أقرباء بعض المنافقين جاؤوا للنَّبيِّ ﷺ يستأذنونه بقتل ذويهم، الذين ظهر منهم إيذاء له ﷺ، وذلك مثل عبد الله ـ رضي الله عنه ـ ابن عبد الله بن أُبيّ ابن سلول، الذي جاءه يستأذنه في قتل أبيه حينما تكلَّم كلاماً مسيئاً للنبيِّ ﷺ، وقد كان ﷺ يعطي المال من أسلم حديثاً تألُّفاً لهم مع علمه بضعف إيمانهم، ولكن جاء التَّهديد، والوعيد من الله لهم على العموم، مثل قوله تعالى في سورة (الأحزاب) رقم [٦٠]: ﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قال قتادة: معناه: إذا هم أعلنوا النفاق.

هذا وزيادة النفاق في قلوبهم كانت تحصل من نزول القرآن آيةً بعد آيةٍ، فكانوا كلَّما كفروا بآياته؛ ازدادوا كفراً، ونفاقاً، والمؤمنون بعكس ذلك، كانوا كلما تُليت عليهم آيات القرآن؛ ازدادوا إيماناً، ويقيناً. انظر الآية رقم [٢] من سورة (الأنفال).

الإعراب: ﴿فِي قُلُوبِهِم﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف في محل رفع خبر مقدم، والهاء في محل جر بالإضافة، ﴿مَّرَضٌ﴾: مبتدأ مؤخَّر، هذا؛ ويجيز الأخفش اعتباره فاعلاً بالجار والمجرور من غير اعتماد على نفي، أو استفهام، وهو ممَّا ينفرد به، والتقدير عنده: ثبت، أو استقر في قلوبهم مرض، فهو في الحقيقة فاعل بمتعلق الجار والمجرور. والجملة على الاعتبارين بمنزلة التوكيد لقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ أو هي تعليل لعدم إيمانهم. (زادهم): فعل ماض، والهاء مفعول به أول. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله. ﴿مَرَضًا﴾: مفعول به ثان، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها بالفاء العاطفة على الوجهين المعتبرين فيها. (لهم): جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم، والميم في الجميع حرف دال على جماعة الذكور. ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ مؤخر، وقيل فيه ما رأيته في سابقه عن الأخفش. ﴿أَلِيمٌ﴾: صفة عذاب، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها أيضاً. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلقان بـ ﴿أَلِيمٌ﴾ أو بمحذوف صفة ثانية لـ ﴿عَذَابٌ﴾ وقال أبو البقاء: صفة: ﴿أَلِيمٌ﴾. و(ما) تحتمل الموصولة، والمصدرية، فعلى الأول مبنية على السكون في محل جر بالباء، ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ماض ناقص مبني على الضم، والواو اسمه، والألف للتفريق، ﴿يَكْذِبُونَ﴾: فعل مضارع وفاعله، والجملة الفعلية في محل نصب خبر (كان) وجملة: ﴿كَانُوا۟﴾... إلخ: صلة الموصول لا محل لها، والعائد محذوف؛ إذ التقدير بسبب الذي كانوا يكذبونه، وعلى اعتبار (ما) مصدرية تؤول مع الفعل بعدها بمصدر في محل جر بالباء، التقدير: بكونهم يكذبون، وعلى هذا القول بأن لـ (كان) مصدراً، وهو الصحيح عند بعضهم للتَّصريح به في قول الشاعر، وهو الشاهد رقم [٢٢٣] من كتابنا فتح رب البرية: [الطويل]

بِبَذْلٍ وَحِلْمٍ سَادَ فِي قَوْمِهِ الفَتَى وكَوْنُكَ إِيَّاهُ عَلَيْكَ يَسِيرُ

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾﴾

الشرح: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾: لهؤلاء المنافقين، والقائل هو الله، عزَّ وجلَّ، أو الرسول ﷺ، أو بعض المؤمنين، وهذا شروعٌ في تعديد بعض قبائحهم. ﴿لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قال ابن جرير ـ رحمه الله تعالى ـ: أهل النفاق مفسدون في الأرض بمعصيتهم ربهم، وركوبهم ما نهاهم عن ركوبه، وتضييعهم فرائضه، وشكِّهم في دينه، وكذبهم المؤمنين بدعواهم غير ما هم مقيمون عليه من الشَّكِّ، والرَّيب، ومظاهرتهم أهل التكذيب بالله، وكتبه، ورسله على أولياء الله إذا وجدوا إلى ذلك سبيلاً، كالذي حصل منهم، كمودتهم لقريش، ومصافاتهم لقبائل اليهود؛ الذين كانوا يسكنون المدينة: بني قينقاع، وبني النضير، وبني قريظة، فذلك إفساد المنافقين في الأرض.

وهم يحسبون أنهم بفعلهم ذلك مصلحون في الأرض، قال تعالى في سورة (فاطر) رقم [٨]: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾، وقال تعالى في سورة (الكهف) رقم [١٠٣ ـ ١٠٤]: ﴿قُلْ

هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾، فالمنافق لمَّا كان ظاهره الإيمان اشتبه أمره على المؤمنين، وغرَّهم بقوله الذي لا حقيقة له، ووالى الكافرين على المؤمنين، ولو أنه استمرَّ على حاله الأول؛ لكان شرُّه أخفَّ، وخذ ما يلي:

فقد قال رسول الله ﷺ: «**إنِّي لا أخافُ على أمَّتي مؤمناً، ولا كافراً، أمَّا المؤمنُ فيَحْجُزُهُ إيمانُهُ، وأمَّا الكافرُ فيَقْمَعُهُ كُفْرُهُ، ولكنْ أخافُ على أمَّتي كلَّ مُنافِقٍ عليمِ اللِّسانِ**». أخرجه الطَّبرانيُّ عن عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ، وكرم الله وجهه.

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ أي: نريد أن نداري الفريقين من المؤمنين، والكافرين، ونصطلح مع هؤلاء، وهؤلاء. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أي نريد الإصلاح بين الفريقين من المؤمنين وأهل الكتاب. انتهى. وخذ قوله تعالى في بيان حقيقتهم: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ رقم [١٤٣] من سورة (النساء).

هذا و(الأرض) مؤنثة، وهي اسم جنس، وكان حق الواحدة أن يقال: أرْضةٌ، ولكنهم لم يقولوا، والجمع: أرْضات لأنهم قد يجمعون المؤنث الذي ليس فيه هاء التأنيث بالألف، والتاء، لقولهم: عُرُسَات، ثم قالوا: أرَضون، فجمعوا بالواو والنون، والمؤنث لا يجمع بالواو، والنون إلا أن يكون منقوصاً كَثُبَة، وظُبَة، ولكنهم جعلوا الواو والنون عوضاً عن حذفهم الألف، والتاء، وتركوا فتحة الراء على حالها، وربما سكنت، وقد تجمع على أُرُوض.

وزعم أبو الخطاب: أنَّهم يقولون: أرْض، وأراضٍ، مثل: أهل، وأهالٍ، والأراضي أيضاً على غير قياس، كأنهم جمعوا أرْضاً، وكل ما سفل فهو أرْض، وأرض أريضة؛ أي: زكية بينة الأراضة، وقد أرُضت بالضم؛ أي: زكت، قال أبو عمرو: نزلنا أرضاً أريضةً، أي: معجبة للعين. ويقال: لا أرض لك! كما يقال: لا أمَّ لك! والأرض أسفل قوائم الدَّابة، قال حميد بن ثور الهلالي يصف فرساً: [الرجز]

وَلَمْ يُقَلِّبْ أرْضَهَا البَيْطَارُ ... ولا لِحَبْلَيْهِ بِهَا حَبَارُ

والأرض: النَّفْضة، والرِّعدة، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وقد زلزلت الأرض: زُلْزِلَتِ الأرضُ أمْ بي أرْضٌ؟ أي: نَفْضَةٌ، ورِعدة. وقال ذو الرُّمَّة يصف صائداً: [البسيط]

إذا تَوجَّسَ رِكْزاً مِنْ سَنَابِكِهَا ... أَوْ كَانَ صَاحِبَ أرْضٍ أو بِهِ الْمُوَمُ

والأرض: الزُّكام. وقد أرضه الله إيراضاً؛ أي: أزكمه، فهو مزكوم. والأَرَضَةُ بالتَّحريك: دويبة تأكل الخشب، يقال: أُرِضَتِ الخَشبةُ، تُؤْرَضُ أرْضاً ـ بالتسكين ـ فهي مأروضة: إذا أكلتها. انتهى صحاح الجوهري بحروفه.

الإعراب: ﴿وَإِذَا﴾: الواو: حرف استئناف. (إذا): ظرف لما يستقبل من الزمان، خافض لشرطه، منصوب بجوابه، صالح لغير ذلك، مبني على السكون في محل نصب. ﴿قِيلَ﴾: فعل

ماض مبني للمجهول، ونائب الفاعل ضمير مستتر، تقديره: «هو»، يعود إلى المصدر المفهوم من الفعل، أو هو محذوف يدل عليه المقام، التقدير: وإذا قيل قول، وقيل: الجار والمجرور ﴿لَهُمْ﴾ في محل رفع نائب فاعل، وقيل: جملة: ﴿لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾: هي في محل رفع نائب فاعل، وهذا على قول مَنْ يجيز وقوع الجملة فاعلاً، أو نائباً عنه، ويكون جارياً على القاعدة في بناء الفعل للمجهول: (يحذف الفاعل، ويقام المفعول به مقامه). وهذا لا غبار عليه، وقال ابن هشام في المغني: فليس هذا من باب الإسناد إلى الجملة لما بينا، أي: مِنْ أنَّ الجملة إذا قصد لفظها؛ يحكم لها بحكم المفرد؛ ليجوز حينئذٍ وقوعها مبتدأ، أو فاعلاً، أو نائباً عنه، وانظر الشاهد [٧٩٣] من كتابنا فتح القريب المجيب، ومُثِّل لذلك في شذور الذهب بقول النبي ﷺ: **«أفضلُ ما قلتهُ أنا، والنبيُّون مِنْ قبلي: لا إلَهَ إلّا اللهُ»**. ﴿لَا﴾: ناهية جازمة. ﴿تُفْسِدُوا﴾: فعل مضارع مجزوم بـ (لا) الناهية، وعلامة جزمه حذف النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿فِي الْأَرْضِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، والجملة الفعلية مفسرة لنائب الفاعل على اعتباره ضميراً، أو هي في محل نصب مقول القول، أو هي في محل رفع نائب فاعل، كما رأيت، فتكون على الحكاية، وهو المعتمد، وجملة: ﴿قِيلَ...﴾ إلخ في محل جر بإضافة (إذا) إليها، على القول المرجوح، وهو المشهور، أقول هذا دائماً؛ لأن ابن هشام رجح تعليق **«إذا»** بفعل شرطها، وأكد ذلك إذا اقترن جوابها بالفاء، فإنه لا يعمل ما بعد الفاء بما قبلها، وهو كثير؛ مثل قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ١ ـ ٣]، انظر مبحث **«إذا»** في مغني اللبيب، وقد خطَّأ أبو البقاء من يرجِّح ذلك، وهو المُخطئ بلا ريب.

﴿قَالُوا﴾: ماض، وفاعله، والألف للتَّفريق. ﴿إِنَّمَا﴾: كافة ومكفوفة، ﴿نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قَالُوا...﴾ إلخ: جواب (إذا) لا محل لها، و(إذا) ومدخولها كلامٌ مستأنف، لا محلَّ له، وقيل: معطوف على جملة: ﴿يَكْذِبُونَ﴾ الواقعة خبراً لـ (كان)، وقيل: معطوف على جملة: ﴿يَقُولُ...﴾ إلخ الواقعة صلة لـ (مَنْ)، وأرجِّح الأوَّل من هذه الأقوال.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ۝١٢﴾

الشرح: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾: هذا ردٌّ عليهم، وتكذيبٌ لقولهم، وانظر شرح إفسادهم في الآية السابقة، ولا تنس تأكيد هذا الردِّ بـ (إنَّ) وبضمير الفصل، وتعريف الخبر، بـ ﴿أَلَا﴾ الاستفتاحية في الردِّ عليهم لما ادعوه من قولهم: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ فإنهم أخرجوا الجواب جملة اسمية مؤكَّدةً بـ ﴿إِنَّمَا﴾ ليدلوا بذلك على ثبوت الوصف لهم، فردَّ الله عليهم بأبلغ، وأوكد ممَّا ادَّعوه.

﴿وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ﴾: قال ابن كيسان رحمه الله تعالى: يقال: ما على مَنْ لم يعلم أنَّه مفسد من الذَّم، إنَّما يُذمُّ إذا علم: أنَّه مفسد، ثم أفسد على علم. قال: ففيه جوابان: أحدهما أنهم كانوا يعملون الفساد سرّاً، ويظهرون الصَّلاح، وهم لا يشعرون أنَّ أمرهم يظهر عند النَّبيِّ ﷺ، والوجه الآخر أن يكون فسادهم عندهم صلاحاً، وهم لا يشعرون: أنَّ ذلك فسادٌ، وقد عصوا الله ورسوله في تركهم تبيين الحقِّ واتِّباعه، والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿أَلَآ﴾: حرف تنبيه، واستفتاح يسترعى به انتباه المخاطب لما يأتي بعده من كلام، ﴿إِنَّهُمۡ﴾: حرف مشبه بالفعل، والهاء ضمير متصل في محل نصب اسمها. ﴿هُمُ﴾: ضمير منفصل مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿ٱلۡمُفۡسِدُونَ﴾ خبر المبتدأ مرفوع، وعلامة رفعه الواو نيابة عن الضمَّة؛ لأنَّه جمع مذكر سالم، والنون عوض عن التنوين في الاسم المفرد، والجملة الاسمية في محل رفع خبر (إنَّ)، هذا ويجوز اعتبار: ﴿هُمُ﴾ ضمير فصل لا محل له من الإعراب، كما يجوز اعتباره توكيداً لاسم (إنَّ) على المحل. فيكون ﴿ٱلۡمُفۡسِدُونَ﴾ على هذين الاعتبارين خبر (إنَّ)، والجملة الاسمية: ﴿إِنَّهُمۡ...﴾ إلخ لا محل لها؛ لأنها ابتدائية. ﴿وَلَٰكِن﴾: الواو: حرف عطف. (لكن): حرف استدراك مهمل لا عمل له. ﴿لَّا﴾: نافية. ﴿يَشۡعُرُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية معطوفة على الجملة الاسمية قبلها، فهي في محل رفع مثلها، وقيل: بل معطوفة على جملة ﴿إِنَّهُمۡ...﴾ إلخ، والتقدير: ولكنهم لا يشعرون.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ ١٣﴾

الشرح: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ...﴾ إلخ: القائل لهم هم المؤمنون: ﴿ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ أي كإيمان الناس بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والبعث بعد الموت، والجنَّة، والنار، وغير ذلك مما أخبر المؤمنين به. وأطيعوا الله ورسوله في امتثال الأوامر، وترك الزواجر.

﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ﴾: يعنون ـ لعنهم الله ـ أصحاب رسول الله ﷺ، مثل: عمَّار، وبلال، وصهيب، يقولون: أنصير نحن وهؤلاء بمنزلة واحدة، وعلى طريقة واحدة؟! قال البيضاوي: وإنما سفَّهوهم لاعتقادهم فساد رأيهم، أو لتحقير شأنهم، فإنَّ أكثر المؤمنين كانوا فقراء، ومنهم موالٍ، كصهيب، وبلال، أو للتجلُّد، وعدم المبالاة بمن آمن منهم؛ إن فسر (الناس) بعبد الله بن سلام، وأشياعه، وهذا القول من المنافقين إنَّما كانوا يقولونه في خفاء، واستهزاء، فأطلع الله نبيه والمؤمنين على ذلك.

وقيل: إنَّ السفه، و رِقَّة الحلوم، وفساد البصائر إنَّما هي في حيزهم، وصفة لهم، وأخبر: أنهم هم السُّفهاء، ولكن لا يعلمون للرَّين الَّذي على قلوبهم.

هذا و﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾: جمع: سفيه، وهو الجاهل. والسّفه: سخافة العقل، ومن ركب متن الباطل كان سفيهاً، فكل هذه المعاني يجوز إطلاقها على السَّفه، والسَّفيه. انظر: ﴿سَفِهَ﴾ في الآية رقم [١٣٠] الآتية، وانظر ﴿سَفِيهًا﴾ في الآية رقم [٢٨١]، ولا تنس: أن الاستفهام في هذه الآية، إنَّما هو بمعنى النفي؛ إذ المعنى: لا نؤمن... إلخ، هذا وإنما سمَّى الله المنافقين سفهاء؛ لأنهم كانوا عند أنفسهم عقلاء رؤساء، فقلب ذلك عليهم، وسمَّاهم: سفهاء؛ لأنهم يجهلون حقيقة أنفسهم.

وينبغي أن تعلم: أنَّ الله ـ جلَّت قدرته ـ قد ذكر هنا: ﴿لَّا يَعۡلَمُونَ﴾، وقال فيما تقدم: ﴿لَّا يَشۡعُرُونَ﴾ لأنه قد ذكر هنا السَّفه، وهو جهل محض كما رأيت، فكان ذكر العلم به أحسن به طباقاً، ولأن الإيمان يحتاج فيه إلى نظرٍ، واستدلال حتى يكتسب الناظر المعرفة، أمَّا الفساد في الأرض؛ فأمرٌ مبني على العادات، فهو كالمحسوس، ولكن المنافقين لشدة جهلهم، وغباوتهم لا يشعرون به، أي: لا يحسُّون، فَهُم كالبهائم. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ﴾: إعراب هذه الكلمات مثل إعراب الكلمات الموجودة في الآية رقم [١١] بلا فارق. هذا و﴿قِيلَ﴾ أصله: (قُوِل) بضم القاف وكسر الواو، فنقلت حركة الواو إلى القاف قبلها بعد سلب حركتها، فصار: (قِوْل) بكسر القاف وسكون الواو، ثم قلبت الواو ياءً لوقوعها ساكنة بعد كسرةٍ، فصار: قيل. ﴿ءَامِنُواْ﴾: فعل أمر مبني على حذف النون؛ لأن مضارعه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿كَمَآ﴾: الكاف حرف تشبيه وجر. (ما): مصدرية. ﴿ءَامَنَ﴾: فعل ماض. ﴿ٱلنَّاسُ﴾: فاعله. و(ما) المصدرية، والفعل في تأويل مصدر في محل جرٍّ بالكاف، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف صفة لمصدر محذوف واقع مفعولاً مطلقاً، التقدير: آمنوا إيماناً مثل إيمان الناس المؤمنين الصادقين، وهذا ليس مذهب سيبويه، وإنما مذهبه في مثل هذا التركيب أن يكون منصوباً على الحال من المصدر المضمر المفهوم من الفعل المتقدِّم، وإنَّما أحوج سيبويه إلى هذا؛ لأنَّ حذف الموصوف وإقامة الصِّفة مقامه لا يجوز إلا في مواضع محصورة، وليس هذا منها. انتهى. جمل نقلاً عن السَّمين، ومثله في إعرابه، واعتباره قوله تعالى: ﴿كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾.

﴿قَالُوٓاْ﴾: فعل ماض وفاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية مع مقولها جواب (إذا) لا محل لها. ﴿أَنُؤۡمِنُ﴾: الهمزة: حرف استفهام وإنكار معناه النفي، (نؤمن): فعل مضارع، وفاعله مستتر تقديره: «نحن» والجملة الفعلية وما يتعلق بها كل ذلك في محل نصب مقول القول، و(إذا) ومدخولها كلامٌ مستأنف لا محل له، أو هو معطوف على مثله في الآية رقم [١١]. ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ﴾ انظر إعراب مثل هذا الكلام في الآية السابقة، فهو مثله بلا فارق. هذا؛ ونقل أبو حيَّان عن الزَّمخشري، وأبي البقاء، أنَّهما قالا: إنَّ (ما) كافة للكاف عن العمل،

مثلها في: (رُبَّمَا قامَ زيدٌ). ويرد أبو حيَّان ذلك، ويقول: ينبغي ألا تجعل كافة إلا في المكان الذي لا تتقدر فيه مصدرية.

﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾

الشرح: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: ويقرأ: (لاقوا) فأصل ﴿لَقُوا۟﴾: لَقِيُوا بوزن: شَرِبوا، فحذفت الضمَّة التي على الياء لثقلها، فالتقى ساكنان، الياء، والواو، فحذفت الياء لعلة الالتقاء؛ لأنها حرف علة، ثم أبدلت كسرة القاف ضمة لمناسبة الواو. هذا؛ ومعنى لقي: صادف، وله مصادر كثيرة، منها: اللُّقِيُّ بضم اللام وكسر القاف، واللُّقى بضم اللام مقصوراً، واللِّقاء بكسرها ممدوداً ومقصوراً، وأصل: لاقُوا، لاقَيُوا، تحركت الياء وانفتح ما قبلها، فقلبت ألفاً، فصار: لاقَاوْا، فاجتمع ساكنان: الألف، والواو، فحذفت الألف لالتقاء الساكنين، فصار: لاقَوْا، وبقيت الفتحة على القاف دليلاً على الألف المحذوفة. ويقال في إعلاله أيضاً: استثقلت الضمة على الياء، فحذفت، فالتقى ساكنان: ياء العلة وواو الجماعة، فحذفت الياء، وبقيت واو الجماعة. وما ذكرته يجري في إعلال كلِّ ناقص، مثل: نجا، ورمى، وسعى، ودعا، وغزا. هذا وتحرك واو الجماعة في (لاقوا) بالضمة إذا لقيها ساكن، كما في قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ ولم تحرك بالكسرة؛ لأن الكسرة لا تناسبها، وقيل: حركت بالضم دون غيره؛ ليفرق بين الواو الأصلية وبين واو الجماعة في نحو قولك: (لوِ اجتهدتَ لنجوتَ). وقيل: حركت بحركة الياء المحذوفة، وقيل: ضُمت لأن الضمة هنا أخف من الكسرة؛ لأنها من جنس الواو، وقيل غير لك، فإن قيل: لم ضمت الواو في: لاقوُا إذا لقيها ساكن، ولا تضم في: لقُوا؟ فالجواب: أن قبل الواو التي في لقوا ضمة، فلو حركت بالضم، لثقل على اللسان النطق بها، فحذفت لثقلها، وحركت في: لاقَوُا؛ لأن قبلها فتحة فلم تثقل مثل تلك. ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾: أي بالله، ورسوله، واليوم الآخر... إلخ. ﴿وَإِذَا خَلَوْا۟﴾: رجعوا. وخلوْت بفلان، وإليه: إذا انصرفت إليه، ولذا صح وصل الفعل بإلى، وكان حقه أن يوصل بالباء، فيقال: خلوا بشياطينهم، ومنه قول الفرزدق، وهو الشاهد رقم [١١٦٦] من كتابنا فتح القريب المجيب: [الرجز]

كَيْفَ تَرَانِي قَالِباً مِجَنِّي؟ قَدْ قَتَلَ اللهُ زياداً عَنِّي

إذ المعنى: صرف الله زياداً عنِّي. هذا؛ وإعلال ﴿خَلَوْا۟﴾ مثل إعلال (لاقَوْا). ﴿إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾: جمع شيطان على التكسير، وقد تقدم القول في اشتقاقه ومعناه في الاستعاذة. والمراد بـ ﴿شَيَٰطِينِهِمْ﴾: رؤساء الكفر، والنفاق؛ الذين ماثلوا الشيطان في الإفساد، والفساد،

والمكر، والخداع، لذا يصح القول: إنَّ من البشر شياطين بثياب البشر، قال تعالى في سورة (الأنعام) رقم [١١٢]: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ...﴾ إلخ. ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ﴾: أي: في الدِّين، والاعتقاد، خاطبوا المؤمنين بالجملة الفعلية، والشياطين بالجملة الاسمية المؤكَّدة بـ (إنَّ) لأنهم قصدوا بالأول دعوى إحداث الإيمان، وبالثانية تحقيق ثباتهم على ما كانوا عليه من الفساد، والضلال. ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾: أي بهؤلاء الذين تبعوا محمداً، وصدقوه، ويصدِّقونه بكلِّ ما يقوله لهم، ويأمرهم به.

تنبيه: قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ : نزلت هذه الآية في عبد الله بن أُبَيٍّ، وأصحابه، وذلك لأنَّهم خرجوا ذات يوم، فاستقبلهم نفرٌ من أصحاب رسول الله ﷺ، فقال عبد الله بن أُبَيٍّ لأصحابه: انظروا كيف أردُّ هؤلاء السُّفهاء عنكم! فأخذ بيد أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ فقال: مرحباً بالصديق، سيد بني تميم، وشيخ الإسلام، وثاني رسول الله في الغار، الباذل نفسه، وماله لرسول الله ﷺ! ثم أخذ بيد عمر ـ رضي الله عنه ـ فقال: مرحباً بسيد بني عدي ابن كعب، الفاروق القوي في دين الله، الباذل نفسه وماله لرسول الله ﷺ! ثم أخذ بيد عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ فقال: مرحباً بابن عمِّ رسول الله ﷺ، وختنه، وسيد بني هاشم، ما خلا رسول الله! فقال له عليٌّ ـ كرَّم الله وجهه ـ: اتق الله يا عبد الله، ولا تنافق، فإن المنافقين شرُّ خليقة الله تعالى! فقال: مهلاً يا أبا الحسن! إني لا أقول هذا نفاقاً، والله إن إيماننا كإيمانكم، وتصديقنا كتصديقكم! ثم تفرقوا، فقال عبد الله لأصحابه: كيف رأيتموني فعلت، فأثنوا عليه خيراً. انتهى. خازن.

أقول وبالله التوفيق: في زمننا هذا كثير من الناس يهزؤون بالإسلام، وبتعاليمه، وبالمسلمين الصَّادقين، ولا يقيمون لله فرضاً، ولرسول الله ﷺ سنَّةً، ثم يدَّعون الإسلام، والإيمان، ويقولون لمن ينتقدهم: أنتم لستم أحسنَ منَّا، نحن مسلمون مثلكم، وإسلامنا مثل إسلامكم.

الإعراب: (إذا): انظر الآية رقم [١١]، هذا و(إذا): ظرف لما يستقبل من الزمان، وفيه معنى الشرط، واختلف في ناصبها، بالجواب، واعترض بأنَّ الجواب قد يقترن بالفاء، وما بعد الفاء لا يعمل فيما قبلها، وقيل: بالشرط، واعترض أيضاً بأنها مضافة للشرط، والمضاف إليه لا يعمل في المضاف، وأجيب عن هذا الاعتراض بأن القائلين: إنَّ الناصب هو الشَّرط، لا يقولون بإضافة «**إذا**» إليه، فلذا كان الثاني أرجح من الأول، وإن كان الأول أشهر، فقول المعربين: خافضٌ لشرطه، منصوب بجوابه، جرى على غير الرَّاجح، ولذا كانت عبارة سيبويه محتملة لما تريد من احتمالات.

﴿لَقُواْ﴾: فعل ماض مبني على الضم لاتصاله بواو الجماعة، والواو ضمير متصل في محل رفع فاعل، والألف للتفريق، هذا هو الإعراب المتعارف عليه في مثل هذه الكلمة، والإعراب

الحقيقي أن تقول: فعل ماض مبني على فتح مقدر على آخره، منع من ظهوره اشتغال المحل بالضمِّ الذي جيء به لمناسبة واو الجماعة، ويقال اختصاراً: فعل وفاعل. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل نصب مفعول به، وجملة: ﴿ءَامَنُواْ﴾ مع المتعلق المحذوف صلة الموصول لا محل لها. وجملة: ﴿لَقُواْ...﴾ إلخ: في محل جر بإضافة (إذا) إليها على المشهور المرجوح. ﴿قَالُوٓاْ﴾: فعل وفاعل والألف للتفريق. ﴿ءَامَنَّا﴾: فعل ماض مبني على السكون لاتصاله بـ: (نا)، و(نا): ضمير متصل في محل رفع فاعل، وهذا الإعراب هو المتعارف عليه في مثل هذه الكلمة، والإعراب الحقيقي أن تقول: فعل ماض مبني على فتح مقدر على آخره، منع من ظهوره اشتغال المحل بالسكون العارض، كراهة توالي أربع متحركات فيما هو كالكلمة الواحدة.

وهكذا قل في إعراب كلِّ فعل ماض اتصل به ضمير رفع متحرك، مثل: حفظْت حفظْنا، حفظْن... إلخ، ويقال اختصاراً: فعل وفاعل، وجملة: ﴿ءَامَنَّا﴾ مع المتعلق المحذوف في محل نصب مقول القول، والجملة الفعلية: ﴿قَالُوٓاْ...﴾ إلخ: جواب (إذا) لا محل لها من الإعراب، و(إذا) ومدخولها كلام معطوف على مثله في الآية السابقة.

﴿وَإِذَا﴾: الواو: حرف عطف، و(إذا): مثل ما قبلها. ﴿خَلَوۡاْ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدَّر على الألف المحذوفة لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة مثل ما قبلها. ﴿إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿قَالُوٓاْ﴾: فعل، وفاعل، والجملة الفعلية مع مقولها جواب (إذا) لا محل لها. ﴿إِنَّا﴾ حرف مشبه بالفعل، و(نا) ضمير متصل في محل نصب اسمها، حذفت نونها، وبقيت الألف دليلاً عليها. ﴿مَعَكُمۡ﴾: ظرف مكان متعلق بمحذوف في محل رفع خبر: (إنَّ) والكاف في محل جر بالإضافة، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول. ﴿إِنَّمَا﴾: كافة ومكفوفة مفيدة للحصر. ﴿نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة الاسمية مؤكدة لقولهم: ﴿إِنَّا مَعَكُمۡ﴾ أو هي بدل منه، أو هي مستأنفة مبنية على سؤال مقدر نشأ من دعاء التبعية. انتهى. جمل، ونسفي بتصرف.

﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١٥﴾

الشرح: ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ﴾ أي: ينتقم منهم، ويعاقبهم، ويسخر بهم، ويجازيهم على استهزائهم، فسمَّى العقوبة باسم الذَّنب، هذا قول الجمهور من العلماء، والعرب تستعمل ذلك كثيراً في كلامهم، من ذلك قول عمرو بن كلثوم التغلبي في معلَّقته رقم [١١٤]: [الوافر]

ألا لَا يَجْهَلَنْ أَحَدٌ علَيْنَا فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَا

فسمَّى انتصاره جهلاً، والجهل لا يفخر به ذو عقل، وإنما قاله ليزدوج الكلام، فيكون ذلك أخفَّ على اللسان من المخالفة بينهما، وكانت العرب إذا وضعوا لفظاً بإزاء لفظ جواباً له،

وجزاءً؛ ذكروه بمثل لفظه؛ وإن كان مخالفاً له في معناه، وعلى ذلك جاء القرآن، والسنة، قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ الآية رقم [١٩٤] الآتية، انظر ما ذكرته فيها، وقال تعالى في سورة (الشورى) رقم [٤٠]: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ﴾ والجزاء لا يكون سيئة، والقصاص لا يكون اعتداء؛ لأنه وجب بحقٍّ، وهو كثير في كتاب الله، قد شرحته في محالِّه، والحمد لله! وتختلف في المعنى كقول ابن الشَّمقمق في المشاكلة: [الكامل]

أَصْحَابُنَا قَصَدُوا الصَّبُوحَ بِسُحْرَةٍ ... وَأَتَى رَسُولُهُمُ إِلَيَّ خَصِيصَا

قَالُوا اقْتَرِحْ شَيْئاً نُجِدْ لَكَ طَبْخَهُ ... قُلْتُ اطْبُخُوا لِي جُبَّةً وَقَمِيصَا

هذا والاستهزاء بالناس حرامٌ، فقد نهى الله ورسولُه عنه، قال تعالى في سورة الحجرات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ...﴾ إلخ. وقال الرسول ﷺ في بيان مصير المستهزئين بالناس ومآلهم يوم القيامة: «**إنَّ المُسْتَهْزِئينَ بالناسِ يُفْتَحُ لأَحَدِهِمْ فِي الآخرة بابٌ من الجَنّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: هَلُمَّ! فَيجيءُ بِكَرْبِهِ، وغمِّهِ، فإذا جاءهُ؛ أُغْلِقَ دونَهُ، ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بابٌ آخرُ، فَيُقَالُ لَهُ: هَلُمَّ! هَلُمَّ! فيجيءُ بِكَرْبِهِ، وغمِّهِ، فإذا جاءهُ؛ أُغْلِقَ دونَهُ، فَمَا يَزَالُ كَذلك؛ حتَّى إنَّ أَحَدَهُمْ ليفتح لهُ البابُ من أبوابِ الجنَّةِ، فيقالُ لهُ: هَلُمَّ! فما يأتيهِ مِنَ الإياس**». رواه البيهقيُّ مرسلاً من رواية الحسن البصريِّ ـ رضي الله عنه ـ، وانظر ما ذكرته في سورة (المطففين) رقم [٣٤] فإنَّه جيد، والحمد لله! وانظر الآية رقم [٢١١] الآتية.

﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾: أي يطيل لهم المدَّة، ويمهلهم، ويملي لهم، كما قال تعالى في سورة (آل عمران) رقم [١٧٨]: ﴿إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾، وقال تعالى في سورة (ن) رقم [٤٤] وفي سورة (الأعراف) أيضاً برقم [١٨٢] و[١٨٣] ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ قال بعض العلماء في هذه الآية: كلَّما أحدثوا ذنباً؛ أحدث لهم نعمةً، وهم لا يعلمون: أنه استدراجٌ. وعن عقبة بن عامر ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**إذا رَأَيْتُمُ اللهَ يُعْطِي العَبْدَ ما يُحِبُّ، وهو مقيمٌ على معصيتهِ؛ فذلكَ مِنْهُ تعالى استدراجٌ**»، ثم تلا قوله تعالى في سورة (الأنعام) رقم [٤٤]: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾. ذكره البغوي بغير سند، وأسنده الطَّبري، ولا تنس قوله تعالى في سورة (مريم) رقم [٧٥]: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾.

﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾: كفرهم، وضلالهم، وأصل الطُّغيان: مجاوزة الحد، يقال: طغى، يطغى، ويطغو طغياناً، وطغواناً: جاوز الحد، وكلُّ مجاوز حدَّه في العصيان طاغٍ، قال تعالى في حق فرعون: ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ أي: أسرف في الدعوى؛ حيث قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ والمعنى في الآية: يمدُّهم بطول العمر؛ حتى يزيدوا في الطُّغيان، فيزيدهم في عذابهم. هذا؛ وطغى البحر: هاجت

أمواجه. وطغى السيل: جاء بماءٍ كثير، قال تعالى في سورة الحاقة رقم [١١]: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾.

﴿يَعْمَهُونَ﴾: يتردَّدون متحيِّرين في الكفر، لا يعرفون ما يلحقهم من ضرٍّ، أو نفع.

وحكى أهل اللغة: عَمِهَ الرجل، يَعْمَهُ عُمُوهاً، وعمهاً، فهو عَمِهٌ، وعامِهٌ: إذا حار، وجمعه: عُمْهٌ، وذهبت إبله العمهى: إذا لم يدر أين ذهبت، وعن بعض الأعراب: أنه دخل السُّوق، وما أبصرها قطُّ، فقال: رأيت الناس عمهين، أراد: مترددين في أشغالهم، وأعمالهم، قال رؤبة بن العجاج: [الرجز]

ومَهْمَهٍ أَطْرافُهُ في مَهْمَهِ أعمَى الهُدى بالحائرينَ العُمَّهِ

هذا والعمه قريب من العمى، لكنَّ العمى يطلق على ذهاب نور العين وعلى الخطأ في الرأي، والعمه لا يطلق إلا على الثاني، وهو ما يعبَّر عنه بعمى القلب، قال تعالى في سورة (الحج) رقم [٤٦]: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾. وفي المصباح: عمِهَ، يعمَهُ، عَمَهاً، من باب تعب: إذا تردد متحيِّراً، وتَعَامَهَ مأخوذ من قولهم: أرض عمهاء، إذا لم يكن فيها أمارات تدل على النَّجاة، فهو عمِهٌ، وأعْمَهُ، وهذا الفعل لم أر له ماضياً، ولا أمراً، فيظهر: أنَّه فعل جامد، لا يأتي منه غير المضارع، وإن ذُكر في كتب اللغة ماضٍ له، لكنَّه لا يستعمل، ولم يتداول، وهو بلفظ المضارع كثير في القرآن الكريم.

قال القاضي البيضاوي ـ رحمه الله تعالى ـ: والمعتزلة لمَّا تعذر عليهم إجراء الكلام على ظاهره؛ قالوا: لمَّا منعهم الله تعالى ألطافه التي يمنحها المؤمنين، وخذلهم بسبب كفرهم، وإصرارهم، وسدِّهم طريق التوفيق على أنفسهم، فتزايدت بسببه قلوبهم رَيْناً، وظلمةً؛ تزايد قلوب المؤمنين انشراحاً ونوراً، أو مكَّن الشيطان من إغوائهم، فزادهم طغياناً، أُسند ذلك كلُّه إلى الله تعالى إسناد الفعل إلى المسبب مجازاً، وأضاف الطغيان إليهم لئلا يتوهم: أنَّ إسناد الفعل إليه على الحقيقة، ومصداق ذلك: أنه لما أسند إلى الشَّياطين، أطلق الغيَّ، قال: ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ﴾. انتهى. وهذا على اعتقاد المعتزلة بأنَّ العبد يخلق أفعال نفسه، وقد فنَّدت رأيهم في سورة النَّحل، وسورة الصَّافات، والحمد لله!.

الإعراب: ﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ، ﴿يَسْتَهْزِئُ﴾: فعل مضارع، والفاعل مستتر تقديره: «هو»، يعود إلى الله، ﴿بِهِمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها. (يمدُّهم): فعل مضارع، والفاعل يعود إلى ﴿ٱللَّهُ﴾ والهاء في محل نصب مفعول به، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، فهي في محل

رفع مثلها. ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، أو هما متعلقان بما بعدهما، والهاء في محل جر بالإضافة، من إضافة المصدر لفاعله.

﴿يَعْمَهُونَ﴾: فعل مضارع، والواو فاعله، والجملة الفعلية في محل نصب حال من الضمير المنصوب، أو من الضمير المجرور محلاً بالإضافة، والرابط واو الجماعة فقط.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾

الشرح: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: أي: الموصوفون بالصفات السابقة مِنْ قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ﴾ إلى هنا. ﴿ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾: الشِّراء هنا مستعارٌ، والمعنى: استحبُّوا الكفر على الإيمان، كما قال الله تعالى في سورة (فصلت) رقم [١٧]: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ فعبَّر عنه بالشراء؛ لأن الشراء إنَّما يكون فيما يحبه مشتريه، فأما أن يكون بمعنى شراء المعاوضة فلا؛ لأن المنافقين لم يكونوا مؤمنين، فيبيعون إيمانهم. وقال ابن عباس - رضي الله عنهما -: أخذوا الضلالة، وتركوا الهدى، ومعناه: استبدلوا، واختاروا الكفر على الإيمان، وإنما أخرجه بلفظ الشراء توسعاً؛ لأنَّ الشراء والتجارة راجعان إلى الاستبدال، والعرب تستعمل ذلك في كلِّ من استبدل شيئاً بشيءٍ، قال أبو ذؤيب الهُذلي، وهو الشاهد رقم [٧٧١] من كتابنا فتح القريب المجيب: [الطويل]

فإنْ تَزعُمِيني كُنْتُ أَجْهَلُ فِيكُمُو ... فَإنِّي شَرَيْتُ الحِلْمَ بَعْدَكِ بالجَهْلِ

هذا والباء بمعنى: «بدل» وقد دخلت على المتروك.

﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾: أسند الله تعالى الربح إلى التجارة على عادة العرب في قولهم: ربح بيعك، وخسرت صفقتك، وقولهم: ليلٌ قائم، ونهارٌ صائم، والمعنى: ربحت، وخسرت في بيعك، وقمت في ليلك، وصمت في نهارك، أي: فما ربحوا في تجارتهم، قال الشاعر: [الطويل]

نَهَارُكَ هَائِمٌ ولَيْلُكَ نَائِمُ ... كَذلِكَ فِي الدُّنْيَا تَعِيشُ البَهَائِمُ

و(الهدى) المراد به الإيمان، وإنَّما أخرج الاستبدال بلفظ الشِّراء والتجارة توسعاً على سبيل الاستعارة؛ لأن الشراء فيه إعطاء بدل وأخذ آخر، فقد جعلوا لتمكنهم من الإيمان، كأنَّه في أيديهم، فإذا تركوه إلى الضلالة؛ فقد عطَّلوه، واستبدلوه بها. انتهى. خازن بتصرف، وقال النسفي: وإنَّما قال: ﴿ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ ولم يكونوا على هُدىً؛ لأنَّها في قوم آمنوا، ثمَّ كفروا، أو في اليهود الذين كانوا مؤمنين بمحمَّد ﷺ قبل مبعثه: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ

بِهِۦ﴾ انتهى. ﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ أي لم يكونوا موفَّقين في هذه التجارة، والباء في هذه الآية للعوض والمقابلة، وهي تدخل على المتروك كما هنا، وخذ قول الشاعر: [الرجز]

أَخَذْتُ بِالجُمَّةِ رأساً أَزْعرا ... وبالثَّنايا الواضحاتِ الدَّرْدَرَا

وبالطَّويلِ العُمْرِ عُمْراً حَيْدَرَا ... كما اشترى المُسْلِمُ إذْ تَنَصَّرَا

والمراد بالمُسلم الذي تنصَّر: جبلة بن الأيهم أمير بني غسان، وكان على دين النَّصرانية، وقد أسلم، فقدم مكَّة في أحسن زيٍّ، وبينما هو يطوف بالكعبة، وطئ رجلٌ من قبيلة فزارة إزاره، فلطمه جبلة على عينه، فشكاه إلى عمر ـ رضي الله عنه ـ فحكم عليه أن يقتصَّ منه باللَّطمة، فقال له: تأخذ الملوك بالسُّوقة؟! فقال له الفاروق: إن الإسلام قد سوَّى بينكما، فسأله جبلة أن يؤخره إلى الغد، فسار ليلاً، ولحق بالرُّوم، وتنصَّر، ثم ندم على ما فعل، وقال قبل موته: [الطويل]

تَنَصَّرتُ بَعْدَ الحَقِّ عَاراً لِلَطْمَةٍ ... ولَمْ يَكُ فِيهَا لَوْ صَبَرْتُ لَهَا ضَرَرْ

وَيا لَيْتَنِي أرْعَى المَخَاضَ بِقَفْرَةٍ ... وكُنْتُ أَسِيراً في ربيعةَ أو مُضَرْ

وَأَدْرَكَنِي فِيْهَا لَجَاجٌ حميةً ... وَبِعْتُ لَهَا العَيْنَ الصَّحِيحةَ بِالعَوَرْ

وَيا لَيتَ لِي بالشَّامِ أدْنَى مَعِيْشَةٍ ... أُجَالِسُ قَوْمِي ذَاهِبَ السَّمْعِ والبَصَرْ

فَيَا لَيتَ أمِّي لَمْ تَلِدْني وَلَيْتَنِي ... صَبَرْتُ على القَوْلِ الَّذِي قَالَهُ عُمَرْ

ومُلخص الكلام في الآية الكريمة: أنَّ مطلوب التُّجار سلامة رأس المال والرِّبح، وهؤلاء قد أضاعوهما، فرأس مالهم الهدى، ولم يبق مع الضلالة، وإذا لم يبق لهم إلا الضلالة، لم يوصفوا بإصابة الربح؛ وإن ظفروا بالأغراض الدنيوية؛ لأن الضال خاسرٌ، ولأنه لا يقال لمن لم يسلم له رأس ماله: قد ربح. انتهى. نسفي.

هذا واستبدالهم الغيَّ بالرشاد، والكفر بالإيمان استعارةٌ تصريحيَّة، وذكر ربح التجارة هو التَّرشيح؛ الذي يبلغ بالاستعارة الذروة العليا. قال الزمخشري: وهذا من الصنعة البديعية التي تبلغ بالمجاز الذروة العليا. انتهى. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ، والكاف حرف خطاب لا محل له. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع خبر المبتدأ. ﴿ٱشْتَرَوُاْ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف المحذوفة لالتقائها ساكنةً مع واو الجماعة؛ التي هي فاعله، وحرِّكت بالضم لالتقاء الساكنين. ﴿ٱلضَّلَٰلَةَ﴾: مفعول به، والجملة

الفعلية صلة الموصول، لا محلَّ لها. ﴿بِٱلۡهُدَىٰ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، أو هما متعلقان بمحذوف حال من الضَّلالة، التقدير: مستبدلة بالهدى، وعلامة الجر كسرة مقدَّرة على الألف للتعذُّر، والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها.

﴿فَمَا﴾: الفاء: حرف عطف، (ما): نافية. ﴿رَبِحَت﴾: فعل ماض، والتاء للتأنيث، حرف لا محل له. ﴿تِّجَٰرَتُهُمۡ﴾: فاعله، والهاء في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية معطوفة على الجملة الاسمية السابقة لا محل لها مثلها، وقال الجمل: معطوفة على جملة الصلة لا محل لها مثلها. هذا؛ وقال النَّسفي: وقيل: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ صفة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، والجملة الفعلية: ﴿فَمَا رَبِحَت...﴾ إلخ: في محل رفع خبر ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾. وعليه: فالفاء زائدة. وقيل: الجملة الفعلية في محل رفع خبر ثان للمبتدأ، وتكون الفاء زائدة أيضاً. ومثل هذه الآية في إعرابها الآية رقم [٨٦] الآتية. (ما): نافية. ﴿كَانُواْ﴾: ماض ناقص مبني على الضم، والواو اسمه، والألف للتفريق. ﴿مُهۡتَدِينَ﴾: خبره منصوب، وعلامة نصبه الياء نيابة عن الفتحة؛ لأنه جمع مذكر سالم، والنون عوضٌ عن التنوين في الاسم المفرد، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها على جميع الوجوه المعتبرة فيها، وهو أقوى من اعتبار الحالية فيها.

﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ ١٧﴾

الشرح: ﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا﴾: قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ نزلت في المنافقين، يقول: مثلهم في نفاقهم كمثل رجل أوقد ناراً في ليلة مظلمة في مفازة، فاستدفأ، ورأى ما حوله، فاتَّقى ممَّا يخاف، فبينما هو كذلك؛ إذ طفئت ناره، فبقي في ظلمة حائراً متخوِّفاً، فكذلك حال المنافقين أظهروا كلمة الإيمان، فأمنوا بها على أنفسهم، وأموالهم، وأولادهم، وناكحوا المسلمين، وقاسموهم في الغنائم، فذلك نورهم، فلمَّا ماتوا عادوا إلى الظُّلمة، الخوف. انتهى. خازن بحروفه.

هذا وربنا ذكر لنا في سورة (الحديد) رقم [١٣] حال المنافقين يوم القيامة حينما يطفأ نورهم، وينادون المؤمنين: ﴿ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗا فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ﴾، انظر شرح هذه الآية فإنَّه جيد، والحمد لله! هذا؛ وقال البيضاوي ـ رحمه الله تعالى ـ: لما جاء بحقيقة حالهم؛ عقَّبها بضرب المثل زيادة في التوضيح، والتقرير، فإنه أوقع في القلب، وأقمع للخصم الألد، لأنه يريك المتخيَّل محققاً، والمعقول محسوساً، ولأمر ما أكثر الله في كتبه الأمثال، وفشت في كلام الأنبياء، والحكماء.

هذا ولفظ ﴿ٱلَّذِي﴾ مفرد، ومراد به الجمع، قيل: المعنى: كمثل الذين استوقدوا، ولذلك قال: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ...﴾ إلخ، فحمل أول الكلام على الواحد، وآخره على الجمع، ومثل

هذه الآية قوله تعالى في سورة (التوبة) رقم [٦٩]: ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِى خَاضُوٓاْ﴾ وبه قيل في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِى جَآءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ الآية رقم [٣٣] من سورة (الزمر)، ومثل هذه الآيات قول الأشهب بن زميلة النهشلي، وهو الشاهد رقم [٣٤٦] من كتابنا فتح القريب المجيب: [الطويل]

وإنَّ الَّــذي حــانَــتْ بِــفَــلْــجٍ دِمَــاؤُهُــمْ هُــمُ الــقــومُ كــلُّ الــقــوْمِ يــا أُمَّ خَــالِــدِ

هذا؛ و﴿اسْتَوْقَدَ﴾ بمعنى: أوقد، مثل: استجاب بمعنى: أجاب، فالسين والتاء زائدتان، قاله الأخفش، ومنه قول كعب بن سعد الغنوي من قصيدة يرثي فيها أخاه شبيباً، ومن أبياتها، وهو الشاهد رقم [٧٢٧] من كتابنا فتح القريب المجيب: [الطويل]

وداعٍ دعَــا يــا مَــنْ يُــجِــيــبُ إلــى الــنِّــدا فــلَــمْ يَــسْــتَــجِــبْــهُ عــنــدَ ذَاكَ مُــجِــيْــبُ

أي: يجبه عند ذاك مجيب، هذا والمَثَل ـ بفتح الميم، والثاء ـ بمعنى: مِثْل، ومَثيل، وشبْه، وشَبيه. ومِثْل: اسم متوغل في الإبهام لا يتعرف بإضافته إلى الضمير وغيره من المعارف، ولذلك نعتت به النكرة في قوله تعالى حكاية عن قول فرعون وقومه: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ الآية رقم [٤٧] من سورة المؤمنون. ويوصف به المفرد، والمثنى، والجمع تذكيراً وتأنيثاً، كما في الآية الكريمة. وتستعمل على ثلاثة أوجه: الأول: بمعنى الشبيه، كما في الآية الكريمة، والثاني: بمعنى نفس الشيء، وذاته، كما في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ رقم [١١] من سورة (الشورى)، والثالث: زائدة، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ اهْتَدَواْ﴾ الآية رقم [١٣٧] من سورة (البقرة) أي: بما آمنتم.

وأما المَثَل في مثل قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ الآية رقم [٢٤] من سورة (إبراهيم) على نبينا وعليه ألف صلاة وألف سلام؛ فهو القول السائر بين الناس، والذي فيه غرابة من بعض الوجوه. والمَثَل بمضربه؛ أي: هو الحالة الأصلية التي ورد الكلام فيها، وما أكثر الأمثال في اللغة العربية، علماً بأن الأمثال لا تغيَّر، تذكيراً، وتأنيثاً، إفراداً، وتثنية، وجمعاً، بل ينظر فيها دائماً إلى مورد المثل، أي: أصله، مثل (الصَّيفَ ضَيَّعْتِ اللَّبَنَ) فإنه يضرب لكل من أفرط في تحصيل شيء في أوانه، ثم طلبه بعد فواته.

﴿نَارًا﴾: أصله: نَوَر، تحركت الواو وانفتح ما قبلها، فقلبت ألفاً، وهي من المؤنث المجازي، وقد تذكر، وتصغيرها: نويرة، والجمع: أنوُر، ونيران، ونيرة، ويكنى بها عن جهنم، التي سيعذب الله بها الكافرين والفاسقين، كما أنَّها تستعار للشدَّة، والضيق، والبلاء، قال الشاعر: [الطويل]

وَأَلْــقَــى عَــلَــى قَــيْــسٍ مِــنَ الــنَّــارِ جَــذْوَةً شَــدِيــداً عَــلَــيْــهَــا حَــرُّهَــا وتــلــهــابُــهــا

فهي مستعارة في هذا البيت لشدة النكاية التي أذاقها قبيلة قيس. والفعل: نار، ينور، يستعمل لازماً ومتعدياً إذا بدئ بهمزة التعدية، كما في قولك: أنارت الشمس الكون.

﴿أَضَآءَتۡ﴾: أنارت، وأشرقت، كذلك يستعمل متعدياً كما في هذه الآية، ولازماً كما في الآية رقم [٢٠] الآتية. وأصل الفعل: «أَضْوَأ» يقال في إعلاله: اجتمع معنا حرف صحيح ساكن، وحرف علَّةٍ متحرك، والحرف الصحيح أولى بالحركة من حرف العلة، فنقلت حركة الواو إلى الضاد، ثم يقال: تحركت الواو بحسب الأصل، وانفتح ما قبلها الآن، فقلبت ألفاً، والمصدر: «الضوء» بفتح الضَّاد وضمِّها، وكذا الاسم منه، كما يأتي المصدر، والاسم أيضاً: «ضياء».

﴿حَوۡلَهُۥ﴾: ظرف مكان، وهو لا يتصرف، فهو ملازم للظرفية أبداً، يقال: قعد حوله وحَواله، وحَوْلَيْه، وحَوَالَيْه، ولا تقل: حوالِيه بكسر اللام، وقعد بحيالِه، وحيالَهُ؛ أي: بإزائه، وإزاءه، وقيل للعام: حَوْل؛ لأنه يدور، ثم يرجع كما بدأ.

﴿ظُلُمَٰتٖ﴾: جمع: ظلمة، وقد جمعت باعتبار تعدد معانيها؛ إذ المراد: ظلمة الكفر، وظلمة النِّفاق، وظلمة يوم القيامة. أو المراد: ظلمة شديدة، كأنها ظلمات متراكمة. انتهى بيضاوي بتصرف. هذا؛ والظلمات تستعار من ظلمة الليل الحقيقية لكل ما ذكر، والجامع بينهما عدم الاهتداء في كلٍّ منهما، كما أنَّ النور يستعار من نور النَّهار، أو من نور المصباح المضيء للإيمان، والإسلام، والجامع بينهما الاهتداء في كلٍّ منهما.

الإعراب: ﴿مَثَلُهُمۡ﴾: مبتدأ، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿كَمَثَلِ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف في محل رفع خبر المبتدأ، وجوز أبو البقاء اعتبار الكاف اسماً على أنها خبر المبتدأ، وأرى: أنه لا وجه له هنا على اعتبار المَثَل بمعنى القصَّة، والحكاية، وهذا يناقض ما ذكرته في الشرح، وتكون الكاف مضافاً، و(مثل) مضافاً إليه، هذا واعتبار الكاف اسماً واقع في العربية كثيراً، انظر الشاهد رقم [٣٢٦] من كتابنا فتح القريب المجيب تجد ما يسرك، ويثلج صدرك، و(مثل) مضاف، و﴿ٱلَّذِي﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل جر بالإضافة. ﴿ٱسۡتَوۡقَدَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود على ﴿ٱلَّذِي﴾ وهو العائد. ﴿نَارٗا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها، والجملة الاسمية: ﴿مَثَلُهُمۡ...﴾ إلخ: في محل نصب حال من واو الجماعة في الآية السابقة، والرابط الضمير فقط، هذا؛ إن أردت اتصال الكلام بسابقه، أو هي مستأنفة لا محل لها؛ إن أردت انقطاع الكلام من سابقة، ﴿فَلَمَّآ﴾: الفاء: حرف استئناف. (لمَّا): حرف وجود لوجود عند سيبويه، وبعضهم يقول: حرف وجوب لوجوب، وهي ظرف بمعنى: «حين» عند ابن السراج، والفارسي، وابن جني، وجماعة، تتطلب جملتين مرتبطتين ببعضهما ارتباط فعل الشرط بجوابه، وصوب ابن هشام الأول، والمشهور الثاني. ﴿أَضَآءَتۡ﴾: فعل ماض، والتاء للتأنيث حرف لا محل له، والفاعل يعود إلى ﴿نَارٗا﴾ تقديره:

هي. ﴿مَا حَوْلَهُۥ﴾: ﴿مَا﴾: اسم موصول أو نكرة موصوفة، مبنية على السكون في محل نصب مفعول به، وهذا على اعتبار الفعل قبلها متعدياً، وأما على اعتباره لازماً؛ فهي زائدة، والمعتمد الأول، قال الشاعر: [الطويل]

أَضَاءَتْ لَهُمْ أَحْسَابُهُمْ ووجُوهُهُمْ دُجَى اللَّيْلِ حَتَّى نَظَّمَ الْجِزْعَ ثَاقِبُهْ

﴿حَوْلَهُۥ﴾: ظرف مكان متعلق بمحذوف صلة (ما) على اعتبارها موصولة، أو بمحذوف صفتها على اعتبارها نكرة موصوفة، أي: مكاناً حوله، ومتعلق بالفعل قبله على اعتبار (ما) زائدة، وجملة: ﴿أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ﴾: ابتدائية لا محل لها على اعتبار (لمَّا) حرفاً، وهي في محل جر بإضافة (لمَّا) إليها على اعتبارها ظرفاً، وعلى اعتبارها متعلقة بالجواب. ﴿ذَهَبَ﴾: فعل ماض. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله. ﴿بِنُورِهِمْ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، والهاء ضمير متصل في محل جر بالإضافة، وجملة: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ جواب (لمَّا) لا محل لها، هذا وقيل: الجواب محذوف، التقدير: فلما أضاءت ما حوله؛ خمدت، فبقوا خابطين في ظلام متحيِّرين. وعليه فجملة: ﴿ذَهَبَ...﴾ إلخ: مستأنفة لا محل لها، أو هي بدل من جملة التمثيل على سبيل البيان. انتهى كشاف. و(لمَّا) ومدخولها كلام مستأنف، لا محل له.

﴿وَتَرَكَهُمْ﴾: الواو: حرف عطف. (تركهم): فعل ماض، والفاعل يعود إلى (الله) تقديره: هو، والهاء مفعول به أول، والميم في كلِّ ما تقدم حرفٌ دالٌّ على جماعة الذكور. ﴿فِى ظُلُمَٰتٍ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، وجملة: ﴿لَّا يُبْصِرُونَ﴾ في محل نصب مفعول به ثان؛ لأن (تركهم) بمعنى: صيَّرهم، هذا ويجوز أن يكون الجار والمجرور متعلقين بمحذوف مفعول به ثان، التقدير: وتركهم متحيرين في ظلمات، وتكون الجملة الفعلية في محل نصب حال من الضمير الواقع مفعولاً به، وأرى جواز اعتبارها من تعدد المفعول الثاني لـ: (ترك). ومثل الآية الكريمة قول الشاعر، وهو الشاهد رقم [٢١] من كتابنا فتح القريب المجيب: [الرجز]

لَاتَتْرُكَنِّي فِيْهِمُو شَطِيرا إِنِّي إِذَنْ أَهْلِكَ أَوْ أَطِيرَا

وجملة: (تركهم...) الخ: معطوفة على جملة: ﴿ذَهَبَ...﴾ إلخ على الوجهين المعتبرين فيها، ومفعول (يبصرون) محذوف للتعميم، أو للاختصار.

﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾

الشرح: ﴿صُمٌّ﴾: جمع أصم، هو فاقد السَّمع، والصَّمم في كلام العرب: الانسداد، يقال: قناة صماء: إذا لم تكن مجوَّفةً، وصممت القارورة: إذا سددتها. فالأصم من انسدت خروق مسامعه. ﴿بُكْمٌ﴾ جمع: أبكم، وهو الذي لا ينطق، ولا يفهم، فإذا فهم؛ فهو الأخرس، وقيل: الأخرس والأبكم واحد، وهو الذي لا يقدر على النطق لعاهة في لسانه. ﴿عُمْىٌ﴾:

جمع: أعمى، وهو فاقد البصر، وتعامى الرَّجل: أرى ذلك من نفسه، وعمي عليه الأمر: إذا التبس، ومنه قوله تعالى في سورة (القصص) رقم [٦٦]: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ هذا ولم يكن المنافقون والكافرون صمَّاً، ولا بكماً، ولا عمياً، وإنَّما المراد أنَّهم صمٌّ عن الحقِّ، فلا يسمعونه سماع قبول، وأنَّهم بكم؛ أي: خرس عن الحقِّ، والهدى، فلا ينطقون به، وأنَّهم عميٌ عن طريق الهدى، والنور، فلا يبصرونه. وقال الزمخشري، وتبعه النَّسفي، والبيضاويُّ: كانت حواسُّهم سليمةً، ولكن لمَّا سدُّوا عن الإصاخة إلى الحق مسامعهم، وأبوا أن ينطقوا به ألسنتهم، وأن ينظروا، ويتبصَّروا بعيونهم؛ جُعلوا كأنما ماتت مشاعرهم، وانتفت قواهم، كقول قعنب ابن أمِّ صاحب، وهو الشاهد رقم [١١٧٦] من كتابنا فتح القريب، والشاهد رقم [١٦٤] من كتابنا فتح رب البرية: [البسيط]

إنْ يَسْمَعُوا رِيبةً طَارُوا بِها فَرَحَاً ... مِنِّي وَمَا يسمَعُوا مِنْ صالحٍ دَفَنوا

صُمٌّ إذا سَمِعُوا خَيراً ذكرتُ بِهِ ... وإنْ ذُكِرْتُ بِسُوءٍ عِنْدَهم أذَّنوا

وقال آخر: [الطويل]

أَصَمُّ عَنِ الشّيءِ الَّذِي لَا أُرِيدُهُ ... وَأَسْمَعُ خَلْقِ اللهِ حِينَ أُرِيْدُ

هذا وفي قوله تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ تشبيهٌ بليغ؛ لأنه حذف منه وجه الشبه، وأداة التشبيه، فأصبح بليغاً.

﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ أي: عن غيِّهم، وضلالهم إلى الحقِّ الذي باعوه، وإلى الهدى الَّذي ضيَّعوه، وعن الضلالة التي استبدلوها بالهدى، والنُّور. هذا؛ والفعل: رجع، يرجع يستعمل لازماً، وهو كثير كما في هذه الآية، ومتعدِّياً، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ الآية رقم [٨٣] من سورة (التوبة)، وقوله تعالى في سورة (سبأ) رقم [٣١]: ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ معناه: يتلاومون فيما بينهم.

الإعراب: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ يجوز أن تكون هذه الأسماء أخباراً متعددة لمبتدأ محذوف، وأن تكون أخباراً لمبتدآت محذوفة، والجملة الاسمية الواحدة، أو الجمل المتعددة في محل نصب حال من واو الجماعة في الآية السابقة، والرابط: الضمير فقط، وهو المبتدأ المقدَّر بـ «هو» والاستئناف ممكن، فلا يكون لها محلٌّ من الإعراب.

﴿فَهُمْ﴾: الفاء: حرف عطف، وسبب. (هم): ضمير منفصل مبني على السُّكون في محل رفع مبتدأ، والجملة الفعلية المنفية: ﴿لَا يَرْجِعُونَ﴾ في محل رفع خبره، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها على الاعتبارين فيها.

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾

الشرح: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ...﴾ إلخ: المعنى: ومثلهم في نفاقهم كمثل مطر نزل من السَّماء... إلخ، ففيه، وفي قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى...﴾ إلخ: تشبيه تمثيلي، شبه في الآية السابقة المنافق بالمستوقد للنَّار، وإظهاره الإيمان بالإضاءة، وانقطاع انتفاعه بانطفاء النَّار، وفي هذه الآية شبه الإسلام بالمطر؛ لأن القلوب تحيا به كحياة الأرض بالماء، وشبه شبهات المنافقين، والكافرين بالظُّلمات، وما في القرآن من الوعد، والوعيد بالرَّعد، والبرق... إلخ.

هذا و(الصَّيِّبُ): المطر، وأصله: صَيْوِب من صاب، يصوب؛ أي: نزل، ينزل، فقل في إعلاله: اجتمعت الياء، والواو، وسبقت إحداهما بالسُّكون، فقلبت الواو ياءً، وأدغمت الياء في الياء. وقل مثله في إعلال: ميِّت، وسيِّد، وهيِّن... إلخ، وهو على حذف مضاف؛ أي: مثلهم في نفاقهم كمثل أصحاب صيِّبٍ.

و﴿ٱلسَّمَآءِ﴾: يذكر، ويؤنث، وهو كل ما علاك، فأظلَّك، ومنه قيل لسقف البيت: سماء، والسماء يطلق على المطر، يقال: ما زلنا نطأ السماء حتى أتيناكم. قال معاوية بن مالك: [الوافر]

إِذَا نَزَلَ السَّمَاءُ بِأَرْضِ قَوْمٍ رَعَيْنَاهُ وَإِنْ كَانُوا غِضَابَا

أراد بالسَّماء: المطر، ثمَّ أعاد الضمير عليه في رعيناه بمعنى النَّبات، وهذا يسمَّى في فن البديع بالاستخدام. وأصل «سماء»: سَمَاو، فيقال في إعلاله: تحركت الواو وانفتح ما قبلها، فقلبت ألفاً، ولم يعتد بالألف الزائدة لأنَّها حاجز غير حصين، فالتقى ساكنان: الألف الزائدة، والألف المنقلبة، فأبدلت الثانية همزة. ﴿ظُلُمَٰتٌ﴾: المراد هنا: ظلمة السَّحاب، وظلمة المطر، وظلمة اللَّيل مجتمعة، وانظر تفسيرها بغير هذا في الآية رقم [١٧].

(رعد وبرق): مصدران لا يجمعان، فالأول: مصدر: رعد، يرعد، والثاني: مصدر: برق يبرق. و(الرَّعد): اسم ملك يسوق السَّحاب، و(البرق): لمعان سوط من نور يزجر به السَّحاب، قاله ابن عباس، رضي الله عنهما. وفي العلم الحديث: الرَّعد: صوت احتكاك أجرام السَّحاب، والبرق: مما ينقدح من احتكاكها. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: من سمع صوت الرعد، فقال: سبحان من يسبح الرَّعد بحمده، والملائكة من خيفته، وهو على كل شيء قدير، فإن أصابته صاعقةٌ؛ فعليَّ دِيَتُه، وكان يقول: إنَّ الوعيد لأهل الأرض شديدٌ، انظر قوله تعالى في سورة (الرَّعد) رقم [١٣]: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾ تجدْ ما يسرك، ويثلج صدرك، وعن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ:

أن النبي ﷺ كان إذا سمع الرَّعد، والصَّواعق، قال: «**اللهمَّ لا تقتلْنَا بِغَضَبِكَ، ولا تُهْلِكْنَا بِعَذَابِكَ، وَعَافِنَا قبْلَ ذَلِكَ**». أخرجه الترمذيُّ، وقال: حديثٌ غريب.

﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ﴾ أي: من أجل الصواعق، والمراد: رؤوس الأصابع، وهي الأنامل، لأن دخول الأصابع كلها في الآذان لا يمكن، فهو من إطلاق الكل وإرادة الجزء، وهذا ما يُسمَّى المجاز المرسل، و﴿ٱلصَّوَٰعِقِ﴾: جمع: صاعقة. قال ابن عباس، ومجاهد، وغيرهما: إذا اشتدَّ غضب الرَّعد الذي هو الملك، طار النَّار من فيه، وهي الصَّواعق. وكذا قال الخليل: هي الواقعة الشَّديدة من صوت الرَّعد، يكون معها أحياناً قطعة نار تحرق ما أتت عليه. وقرأ الحسن البصري: (من الصَّواقع) بتقديم القاف، ومنه قول أبي النَّجم العجلي: [الرجز]

يَحْكُونَ بِالصَّوَاقِعِ القَوَاطِعِ تَشَقُّقَ البَرْقِ عَنِ الصَّوَاقِعِ

قال النحاس: وهي لغة تميم، وبني ربيعة، ويقال: صعقتهم السَّماء: إذا ألقت عليهم الصَّاعقة، والصاعقة أيضاً: صيحة العذاب، قال الله تعالى في كثير من الآيات: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ والمراد: صيحة العذاب، والهلاك. هذا و(الأصابع): جمع: إصبع، فلم تُذكر بلفظ المفرد أبداً في القرآن الكريم، وقد ذكرت بلفظ الجمع هنا، وفي سورة (نوح) على نبينا وعليه ألف صلاة، وألف سلام، والأنامل: ذكرت بلفظ الجمع في سورة (آل عمران) رقم [١١٩] فقط، ولم تذكر في غيرها، والأنملة: رأس الإصبع، ففيها وفي إصبع تسع لغات: تثليث همزتها، وتثليث ميم أنملة، وتثليث بإصبع، وتزيد أصبوعاً، وقد نظم ذلك بعضهم، فقال: [البسيط]

بِإصبعٍ ثَلِّثَنْ مَعْ مِيمِ أَنْمُلَةٍ وثَلِّثِ الهَمْزَ أيضاً وَارْوِ أصْبُوعَا

﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾: خوف الموت، و(حَذَرَ) (حَذَارِ) قراءتان، وهما بمعنى واحد. هذا؛ و﴿ٱلْمَوْتِ﴾: هو انتهاء الحياة بخمود حرارة البدن، وبطلان حركته، وموت القلب: قسوته، فلا يتأثر بالمواعظ، ولا ينتفع بالنَّصائح. ﴿مُحِيطٌ﴾: أي عليم علماً دقيقاً بالكافرين، فلا يفوتونه، ولا يعجزونه، يقال: أحاط السلطان بفلان: إذا أخذه أخذاً حاصراً من كلِّ جهة، فهو من باب المجاز، بل هي استعارة تبعيَّةٌ في الصِّفة ساريةٌ إليها من صدرها، انتهى جمل نقلاً من كرخي. قال الشاعر: [الطويل]

أحَطْنَا بِهِمْ حتَّى إذَا مَا تَيَقَّنُوا بِمَا قَدْ رَأوْا مَالُوا جَمِيعاً إلى السِّلْمِ

ومنه قوله تعالى في سورة (الكهف) رقم [٤٣]: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾، وقال تعالى في آخر سورة (الطلاق): ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمَۢا﴾. هذا؛ و﴿مُحِيطٌ﴾ أصله: (مُحِوط) لأنه مِنْ: أحاط، يحيط، أو مِنْ: حاط، يحوط، وهو أولى، فهو من الباب الأول، فقل في إعلاله: اجتمع معنا حرف صحيح ساكن وحرف علة متحرك، والحرف الصحيح

أولى بالحركة من حرف العلة، فنقلت حركة الواو إلى الحاء، فصار: (مُحِوط) ثم قلبت الواو ياءً لمناسبة الكسرة قبلها.

الإعراب: ﴿أَوْ﴾: حرف عطف، قال القرطبي: قال الطبري: ﴿أَوْ﴾ بمعنى الواو، وقاله الفراء، وأنشد قول توبة بن الحمير صاحب ليلى الأخيلية، وهو الشاهد رقم [٩٥] من كتابنا فتح القريب المجيب: [الطويل]

وقَـدْ زَعَـمَـتْ لَـيْـلَـى بِـأَنِّـي فـاجِـرٌ ... لِـنَـفْـسِـي تُـقَـاهَـا أَوْ عَـلَـيْـهـا فُـجُـورُهَـا

وقول جرير في مدح الخليفة الصَّالح عمر بن عبد العزيز ـ رضي الله عنه ـ وهو الشاهد رقم [٩٦] من كتابنا المذكور: [البسيط]

نَـالَ الـخِـلافَـةَ أَوْ كَـانَـتْ لَـهُ قَـدَراً ... كَـمَـا أَتَـى رَبَّـهُ مُـوسَـى عَـلَـى قَـدَرِ

أي: وكانت له قدراً. وقيل: ﴿أَوْ﴾ للتخيير، أي: مثِّلوهم بهذا، أو بهذا لا على الاقتصار على أحد الأمرين. انتهى. القرطبي بتصرف كبير. ﴿كَصَيِّبٍ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: أو حالهم وشأنهم كحال أصحاب صيِّبٍ، وإن اعتبرت الكاف اسماً، فلها المحل كما رأيت في الآية رقم [١٧] والجملة الاسمية معطوفة عليها، وعليه فالآية السابقة معترضة بين الجملتين المتعاطفتين. ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: متعلقان بمحذوف صفة (صَيِّبٍ) أو هما متعلقان به. ﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم. ﴿ظُلُمَٰتٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل جر صفة ثانية لـ (صيب) أو في محل نصب حال منه وصفه بما تقدم، وجوز الزمخشري أن يكون ﴿فِيهِ﴾ متعلقين بـ (صيِّب) أو بمحذوف صفة له. و﴿ظُلُمَٰتٌ﴾ فاعل فيه، أي: بالجار والمجرور، لاعتمادِهِ على الموصوف، وهو: (صيِّب) ورجَّحه ابن هشام في المغني. (رعد وبرق): معطوفان على ﴿ظُلُمَٰتٌ﴾ بالواو العاطفة على الوجهين المعتبرين فيه. ﴿يَجْعَلُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله. ﴿أَصَٰبِعَهُمْ﴾: مفعول به، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿فِىٓ ءَاذَانِهِم﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، أو هما متعلقان بمحذوف في محل نصب حال من ﴿أَصَٰبِعَهُمْ﴾.

﴿مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ﴾: متعلقان بالفعل: ﴿يَجْعَلُونَ﴾، و﴿مِّنَ﴾ بمعنى: مِنْ أجل، وقيل: سببية. ﴿حَذَرَ﴾: مفعول لأجله، وهو مضاف و﴿ٱلْمَوْتِ﴾ مضاف إليه، من إضافة المصدر لمفعوله، وفاعله محذوف، وجملة: ﴿يَجْعَلُونَ...﴾ إلخ: مستأنفة لا محل لها من الإعراب؛ لأنها بمنزلة جواب لسؤالٍ مقدَّر، فكأن قائلاً قال: فكيف حالهم مع مثل ذلك الرعد والبرق؟ فقيل: ﴿يَجْعَلُونَ...﴾ إلخ.

وجوز مكي اعتبارها حالاً من الضمير المنصوب، وجوز أبو البقاء اعتبارها صفة: «أصحاب صيب» والواو عائدة عليهم، على الاعتبارين فالرابط الواو. ﴿وَٱللَّهُ﴾ الواو: حرف استئناف.

(الله): مبتدأ. ﴿مُحِيطُۢ﴾: خبره. ﴿بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾: متعلقان بـ ﴿مُحِيطُۢ﴾، والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها، وقال الزمخشري: معترضة، وكأنه يعني بذلك: أنَّ جملة: ﴿يَجْعَلُونَ...﴾ إلخ، وجملة: (يكاد...) الخ شيءٌ واحد؛ لأنهما من قصَّةٍ واحدةٍ. انتهى. جمل.

﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٢٠)﴾

الشرح: ﴿يَكَادُ...﴾ إلخ: أي: يقرب، يقال: كاد الفعل، ولم يفعل، فهو يدل على وقوع مقاربة الفعل بعدها، ولذا لم تدخل عليه «أنْ» لأنها تخلص الفعل للاستقبال، وإذا دخل عليها حرف نفي دل على أن الفعل بعدها وقع، كما في قوله تعالى في الآية رقم [٧١] الآتية: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾، وإذا لم يدخل عليها حرف النفي، لم يكن الفعل بعدها واقعاً، ولكنه قارب الوقوع، والفعل منها واوي العين، فـ (كاد) أصله: كَوِدَ بكسر الواو كخوِف، فتحركت الواو، وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً، فصار: يكاد بوزن: يخاف، ومصدره: الكَوْد، وهذا في «كاد» الناقصة، وأما «كاد» التامة، فهي يائية العين المفتوحة في الماضي، كباع، المكسورة العين في المضارع كـ «يَبيع»، ومصدره: الكيْد، كـ «البَيْع»، فهو من الباب الثاني، بخلاف الناقص فإنه من الباب الرابع، ولذا جاء المضارع في القرآن مختلفاً، فمن الأول قوله تعالى في سورة (النُّور) رقم [٣٥]: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ﴾، ومن الثاني قوله تعالى في آخر سورة (الطَّارق): ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ ومعنى الأول: المقاربة، ومعنى الثاني: المكر، والأول ناقص التصرف، ويحتاج إلى مرفوع، ومنصوب، والثاني تامُّ التصرف، ويكتفي بالفاعل، وينصب المفعول به.

فائدة: قد تأتي «كاد» بمعنى: أراد، قاله محبُّ الدين الخطيب، شارح شواهد الكشاف، وجعل منه قول الراقدة الأودي، والبيت: [البسيط]

فـإن تَـجـمَّـعَ أَسْـبَـابٌ وأَعْـمِـدَةٌ ... وسَـاكِـنٌ بـلَـغُـوا الأمْـرَ الَّـذِي كَـادُوا

أي: الَّذي أرادوا، ومنه قول الآخر: [الكامل]

كِـدْنَـا وَكِـدْتِ، وتِـلْـكَ خَـيْـرُ إرَادَةٍ ... لَـوْ عَـادَ مِـنْ زَمَـنِ الـصَّـبَـابَـةِ مَـا مَـضَـى

أي: أردنا، وأردت، دليله: «تِلْكَ خَيْرُ إرَادَةٍ». هذا وقد شاع على الألسن أنَّ نفي كاد إثباتٌ، وإثباتها نفيٌ، ولذا ألغز المعريُّ بقوله: [الطويل]

أنـحـويَّ هـذا الـعَـصْـرِ مَـا هـي لَـفْـظَـةٌ ... جَـرَتْ فـي لِـسَـانَـيْ جُـرْهُـمٍ وثَـمُـودِ

إذا اسْتُعْمِلَتْ في صورةِ الجحْدِ أثْبَتَتْ ... وإنْ أثْـبِـتَـتْ قـامَـتْ مَـقَـامَ جُـحُـودِ

فأجابه الشَّيخ جمال الدين محمد بن مالك صاحب الألفية بقوله: [الطويل]

نَعَمْ هيَ كادَ المرءُ أنْ يَرِدَ الحِمَى فَتَأْتي لإثْبَاتٍ بِنَفْيِ وُرُودِ
وفي عَكْسِهَا ما كادَ أنْ يرِدَ الحِمَى فَخُذْ نَمَهَا فالعِلْمُ غَيْرُ بَعِيدِ

وقد اتفقت كلمة النحاة على أن (كاد) كسائر الأفعال، وكلامهم متقارب المعنى في هذا الشأن، ومتشابه، انظر الشاهد رقم [١١٢٧] من كتابنا فتح القريب المجيب، والأشموني، وغيرهما، وها أنذا أسوق لك ما ذكره السُّيوطي رحمه الله تعالى في كتابه: (همع الهوامع) لتكون على بصيرة من أمرك، قال رحمه الله تعالى: والتحقيق: أنها كسائر الأفعال نفيها نفي، وإثباتها إثبات، إلا أن معناها المقاربة لا وقوع الفعل، فنفيها نفي لمقاربة الفعل، ويلزم منع نفي الفعل ضرورة أن من لم يقارب الفعل لم يقع منه الفعل، وإثباتها إثبات لمقاربة الفعل، ولا يلزم من مقاربته وقوعه، فقولك: «كادَ زيدٌ يقُومُ» معناه: قارب القيام، ولم يقم، ومنه قوله تعالى في سورة (النور) رقم [٣٥] ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ أي: يقارب الإضاءة إلا أنه لم يضئ، وقولك: «لَمْ يَكَدْ زَيْدٌ يَقُومُ» معناه لم يقارب القيام، فضلاً عن أن يصدر منه، ومنه قوله تعالى في سورة (النُّور) رقم [٤٠]: ﴿إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ أي: لم يقارب أن يراها، فضلاً عن أن يرى، وقوله تعالى في سورة إبراهيم، على نبينا وعليه ألف صلاة، وألف سلام رقم [١٧]: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ أي: لا يقارب إساغته، فضلاً عن أن يسيغه، وعلى هذا الزجاجي. وغيره، وذهب قوم، منهم ابن جني إلى أنَّ نفيها يدلُّ على وقوع الفعل ببطء كما في الآية: ﴿وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾ رقم [٧١] من سورة (البقرة)، فإنَّهم فعلوا بعد بطء، والجواب: أنَّها محمولة على وقتين؛ أي: فذبحوها بعد تكرار الأمر عليهم بذبحها، وما كادوا يذبحونها قبل ذلك، ولا قاربوا الذَّبح، بل أنكروا أشدَّ الإنكار، بدليل ما حكى الله عنهم: ﴿قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾.

وقال ابن هشام في مغنيه: فالجواب: أنه إخبار عن حالهم في أول الأمر، فإنهم كانوا أولاً بُعداء عن ذبحها بدليل ما يُتلى علينا من تعنُّتهم، وتكرار سؤالهم. انتهى.

وقوله مشابه لقول السُّيوطي المتقدِّم.

﴿يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾: يأخذها بسرعة، وخطف، يخطف من باب: فهم، وعلم. قال تعالى في سورة (الصافات) رقم [١٠]: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾، ومجيئه من باب: ضرب، يضرب لغة، وقد قرئ بها. و﴿كُلَّمَآ﴾، (كلَّ) هي هنا ظرف، وكذلك في كلِّ موضعٍ كان لها جواب، وهذا يعني: أنها متضمنة معنى الشرط، وهذا هو المشهور، و(ما) مصدرية، والزمان محذوف. وقيل: هي هنا نكرة موصوفة ومعناها الوقت ﴿أَضَآءَ لَهُم﴾: انظر الآية رقم [١٧]. ﴿مَّشَوْاْ﴾: انظر إعلال مثله في الآية رقم [١٤]. ﴿قَامُواْ﴾: وقفوا عن المشي بسبب الظلمة التي

تحيط بهم. ﴿شَآءَ﴾: أصله: شَيِئَ على فَعِل بكسر العين بدليل قولك: شئت شيئاً، وقد قُلبت الياء ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها، ومفعوله محذوف، التقدير: ولو شاء الله إذهاب سمعهم، وأبصارهم، وكثر حذف مفعوله، ومفعول «أراد» حتى كاد لا ينطق به إلا في الشيء المستغرب، مثل قوله تعالى في سورة الأنبياء رقم [١٧] ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ وقال الشاعر الخُزيمي: [الطويل]

فَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَبْكِي دَمَاً لَبَكَيْتُهُ عَلَيْهِ ولَكِنْ سَاحَةُ الصَّبْرِ أَوْسَعُ

وينبغي أن تعلم: أنَّه يكثر حذف مفعول هذين الفعلين بعد «لو». (سمعهم): بمعنى: أسماعهم بقرينة: (أبصارهم) وانظر الآية رقم [٧] ﴿شَيْءٍ﴾: هو في اللغة عبارة عن كل موجود، إمَّا حسَّاً كالأجسام، وإمَّا حكماً كالأقوال، نحو قلت شيئاً، وجمع الشيء: أشياء، غير منصرف، واختلف في علته اختلافاً كثيراً، والأقرب ما حُكي عن الخليل ـ رحمه الله تعالى ـ: إنَّ وزنه: شيأء، وزان: حمراء، فاستثقل وجود همزتين في تقدير الاجتماع، فنقلت الأولى إلى أول الكلمة، فبقيت وزن: لفعاء، كما قلبوا أدْؤُراً، فقالوا: أدر وشبهه، وجمع الأشياء: أشايا.

هذا وقال الخازن ـ رحمه الله تعالى ـ: وهذا مثل آخر ضربه الله للمنافقين، ووجه التمثيل: أنَّ الله ـ عز وجل ـ شبههم في كفرهم ونفاقهم بقومٍ كانوا في مفازةٍ في ليلة مظلمةٍ، أصابهم مطر فيه ظلمات، وهي: ظلمة الليل، وظلمة المطر، وظلمة السَّحاب، من صفة تلك الظلمات: أنَّ الساري لا يمكنه المشي فيها، ورعدٌ من صفته أن يضم سامعوه أصابعهم إلى آذانهم مِنْ هوله، وبرق من صفته أن يخطف أبصارهم، ويعميها من شدته، فهذا مثل ضربه الله تعالى للقرآن، وصنيع الكافرين، والمنافقين معه.

فالمطر هو القرآن؛ لأنه حياة القلوب، كما أن المطر حياة الأرض، والظلمات في القرآن مِنْ ذكر الكفر، والشرك، والنفاق. والرَّعد ما خوفوا به من الوعيد، وذكر النار، والبرق ما فيه من الهدى، والبيان، والوعد، وذكر الجنة، فالكافرون والمنافقون يسدون آذانهم عند قراءة القرآن، وسماعه مخافة أن تميل قلوبهم إليه؛ لأن الإيمان به عندهم كفر، والكفر موت، وقيل غير ذلك. انتهى. وفي البيضاوي، والقرطبي ما يشبهه.

الإعراب: يكاد فعل مضارع ناقص. البرق: اسمه. يخطف: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى البرق. أبصارهم: مفعول به، والهاء في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية في محل نصب خبر يكاد، والجملة الفعلية مستأنفة لا محل لها، وهي عند الزمخشري بمنزلة البدل من جملة (يجعلون...) إلخ.

﴿كُلَّمَآ﴾: (كُلَّ): ظرفية متعلقة بجوابها؛ إذ هي تحتاج إلى جملتين مرتبطتين ببعضهما ارتباط فعل الشرط بجوابه. (ما): مصدرية توقيتية. ﴿أَضَآءَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى

﴿ٱلْبَرْقُ﴾والفعل إما متعدٍّ، والمفعول محذوف، بمعنى: كلّما نوّر لهم طريقهم، وإمَّا لازم بمعنى: كلَّما لمع لهم مشوا في موضع نوره. ﴿لَهُم﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، و(ما) والفعل ﴿أَضَآءَ﴾ في تأويل مصدر في محل جر بإضافة (كلَّ) إليه، التقدير: كلَّ وقت إضاءة الطريق لهم، وهذا التقدير، وهذه الإضافة هما اللذان سببا الظرفية لـ (كلَّ)، انظر مبحث: «كلَّما» في كتابنا فتح القريب المجيب، وقيل: (ما) نكرة موصوفة، والجملة الفعلية بعدها صفة لها، وهي بمعنى: وقت أيضاً، والمدرسون يقولون: أداة شرط غير جازمة، ولا يعرفون هذا الإعراب والتفصيل. ﴿مَّشَوْا۟﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف المحذوفة لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة التي هي فاعله، والألف للتفريق. ﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، والجملة الفعلية جواب ﴿كُلَّمَآ﴾ لا محل لها، و﴿كُلَّمَآ﴾ ومدخولها كلام مستأنف لا محل له.

﴿وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟﴾: انظر إعراب مثل هذا الكلام في الآية رقم [١١]، و(إذا) ومدخولها كلام معطوف على ما قبله لا محل له مثله، هذا وذكر مع ﴿أَضَآءَ﴾ ﴿كُلَّمَآ﴾ وهي مفيدة للتكرار، ومع ﴿أَظْلَمَ﴾ (إذا) لشدَّة حرصهم على وجود ما همهم به معقود من إمكان المشي، فكلما صادفوا منه فرصة انتهزوها، ولا كذلك التوقف في الظلمة. ﴿وَلَوْ﴾: الواو: حرف عطف. (لو): حرف لما كان سيقع لوقوع غيره. ﴿شَآءَ﴾: فعل ماض. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله، ومفعوله محذوف، انظر الشرح، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها ابتدائية، ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفي. ﴿لَذَهَبَ﴾: اللام: واقعة في جواب (لو)، (ذهب): فعل ماض. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعل. ﴿بِسَمْعِهِمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، (أبصارهم): معطوف على ما قبله، والهاء في محل جر بالإضافة، والميم في الكل حرف دال على جماعة الذكور، وجملة: ﴿لَذَهَبَ...﴾ إلخ جواب (لو) لا محل لها، و(لو) ومدخولها كلام معطوف على ما قبله، وقيل: مستأنف، ولا محل له على الاعتبارين.

﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿عَلَىٰ كُلِّ﴾: متعلقان بـ ﴿قَدِيرٌ﴾ بعدهما، لأنه اسم فاعل بمعنى قادر، فهو صيغة مبالغة، و﴿كُلِّ﴾ مضاف و﴿شَيْءٍ﴾ مضاف إليه. ﴿قَدِيرٌ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾ والجملة الاسمية تعليلية، أو مستأنفة، ولا محل لها على الاعتبارين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾

الشرح: لما ذكر الله تعالى الأصناف الثلاثة: المؤمنين، والكافرين، والمنافقين، وذكر ما تميَّزوا به من سعادةٍ، أو شقاوة، أو إيمان، أو نفاقٍ، وضرب الأمثال، ووضح طرق الضَّلال؛ أعقبه هنا بذكر الأدلة والبراهين على وحدانية ربِّ العالمين، وعرَّف الناس بنعمه؛ ليشكروه عليها، وأقبل عليهم بالخطاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ وهو خطاب لجميع الفئات ممتنّاً عليهم بما خلق، ورزق. انتهى صفوة التفاسير.

هذا؛ ونُقِل عن علقمة بن قيس ـ رضي الله عنه ـ قوله: ما في القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ فهو خطاب لأهل مكة، وما فيه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فهو خطاب لأهل المدينة. انتهى.

ولكن إذا علمت أنَّ تعاليم القرآن وأحكامه صالحةٌ لكلِّ زمانٍ ومكان إلى يوم القيامة؛ علمت أنَّ النِّداءين لا يتقيَّدان بزمانٍ، ولا بمكان. كيف لا وقد علمت: أن سورة (البقرة) مدنيَّةٌ، وأيضاً سورة (النِّساء) وسورة (المائدة) وفيهنَّ من لفظ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ الكثير؟!.

فائدة: النداء على سبع مراتب: نداء مدح، ونداء ذمٍّ، ونداء تنبيه، ونداء إضافة، ونداء نسبة، ونداء تسمية، ونداء تضيُّف، فالأول كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، والثاني كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، والثالث كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، والرابع كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ﴾، والخامس كقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾، ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، والسادس كقوله تعالى: ﴿يَٰنُوحُ﴾، ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾، والسَّابع كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

فائدة: وفي السمين ما نصُّه: وإذا ورد «لعلَّ» في كلام الله تعالى، فللناس فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن «لعلَّ» على بابها من الترجي، والإطماع، ولكن بالنسبة إلى المخاطبين، أي: لعلكم تتقون على رجائكم، وطمعكم. وكذلك قال سيبويه في قوله تعالى: ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ﴾ أي: اذهبا على رجائكما. والثاني: أنَّها للتقليل؛ أي: اعبدوا ربكم لكي تتقوا، وبه قال قطرب، والطَّبريُّ، وغيرهما. والثالث: أنَّها للتعرُّض للشيء، كأنه قيل: افعلوا ذلك متعرِّضين لأن تتقوا. انتهى. جمل. وقريب منه في القرطبيِّ.

هذا ولا تنس ما ذكرته من القول: والترجِّي في هذه الآية وأمثالها إنما هو بحسب عقول البشر؛ لأنَّ الله تعالى لا يحصل منه ترجٍّ ورجاء لعباده، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، ذكرت هذا فيما صدر لنا كثيراً، وهذا أشمل، وأخصر، والله ولي التوفيق. والترجِّي في هذه الآية، ونحوها إطماعٌ من ربٍّ كريم، فيجري مجرى وعده المحتوم وفاؤه، وأصل ﴿تَتَّقُونَ﴾: تَوْتَقيون، فأبدل من الواو تاء، ثم أدغمت التاء في التاء، وسكنت الياء بعد حذف ضمَّتها، ثم حذفت لالتقاء الساكنين، فصار: «تَتَّقِوْن»، ثم قلبت الكسرة ضمة لمناسبة الواو.

الإعراب: (يا): حرف نداء ينوب مناب: أدعو، أو أنادي. (أيها): نكرة مقصودة مبنية على الضم في محل نصب بـ (يا) و«ها»: حرف تنبيه لا محل له من الإعراب، وأقحم للتوكيد، وهو عوض من المضاف إليه، ولا يقال: ضمير في محل جر بالإضافة، لأنه يجب حينئذ نصب المنادى. ﴿ٱلنَّاسُ﴾: بعضهم يعرب هذا وأمثاله: نعتاً، وبعضهم يعربه بدلاً، والقول الفصل: أنَّ الاسم الواقع بعد أي، واسم الإشارة، إن كان مشتقاً؛ فهو نعت، وإن كان جامداً كما هنا؛ فهو بدل، أو عطف بيان، والمتبوع، أعني: (أيُّ) منصوبٌ محلّاً، وكذا التابع، أعني: ﴿ٱلنَّاسُ﴾ فهو

منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على آخره، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة الإتباع اللفظية، وإنما أتبعت ضمة البناء مع أنَّها لا تتبع؛ لأنها وإن كانت ضمة بناء، لكنها عارضة، فأشبهت ضمة الإعراب، فلذا جاز إتباعها. أفاده العلامة الصبَّان؛ لأنه قال: والمتَّجه وفاقاً لبعضهم أن ضمة التابع إتباع لا إعراب، ولا بناء، وقيل: إن رفع التابع المذكور إعراب، واستشكل بعدم المقتضي للرفع، وأجيب بأنَّ العامل يقدر من لفظ عامل المتبوع مبنيّاً للمجهول، نحو يُدعى. وهو مع ما فيه من التكلف يؤدي إلى قطع المتبوع، وقيل: إنَّ رفع التابع المذكور بناء؛ لأن المنادى في الحقيقة هو المحلَّى بأل، ولكن لمَّا لم يمكن إدخال حرف النداء عليه؛ توصلوا إلى ندائه بـ «أيُّ» أي مع قرنها بحرف التنبيه، وردَّه بعضهم بأنَّ المراعى في الإعراب اللفظ، وأن الأول منادى، والثاني تابع، والإعراب الشائع الآن أن تقول: مرفوع تبعاً للفظ.

﴿ٱعۡبُدُواْ﴾: فعل أمر مبني على حذف النون؛ لأن مضارعه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والألف هي الفارقة بين واو العلَّة، وواو الضمير، هذا هو الإعراب المتعارف عليه، والمشهور بين الناس، والأصل أن يقال في مثل ذلك: فعل أمر مبني على سكونٍ مقدَّر على آخره، منع من ظهوره إرادة التخلص من التقاء الساكنين، وحرِّك بالضمة لمناسبة واو الجماعة، وما أجدرك أن تلاحظ هذا في كل فعل أمر مسندٍ إلى واو الجماعة، أو إلى الألف الاثنين، مثل: اعبدا، قد حرك بالفتحة لمناسبة ألف الاثنين، أو إلى ياء المخاطبة مثل: اعبدي، وقد حرِّك بالكسرة لمناسبة ياء المخاطبة.

﴿رَبَّكُمُ﴾: مفعول به، والكاف في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿ٱلَّذِى﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل نصب صفة أو بدل من ﴿رَبَّكُمُ﴾، أو هو منصوب على المدح بفعل محذوف؛ التقدير: أمدح الذي، أو هو في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: هو الذي، وهذان الوجهان على القطع. والإتباع هنا أقوى، بخلافه في الآية رقم [٣]، وفي الآية التالية.

﴿خَلَقَكُمۡ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى ﴿ٱلَّذِى﴾ وهو العائد، والكاف مفعول به، والجملة الفعلية صلة الموصول لا محل لها.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾: الواو: حرف عطف. (الذين): اسم موصول مبني على الفتح في محل نصب معطوف على الكاف، التقدير: وخلق الذين. ﴿مِن قَبۡلِكُمۡ﴾: متعلقان بمحذوف صلة الموصول، أي: الذين وجدوا من قبلكم. ﴿لَعَلَّكُمۡ﴾: حرف مشبه بالفعل، والكاف اسمه، والميم في كل ما تقدم حرف دال على جماعة الذكور. ﴿تَتَّقُونَ﴾: فعل مضارع، والواو فاعله، والمفعول محذوف، التقدير: لعلكم تتقون الكفر، أو المعاصي، أو تتقون الله. وهو الأولى، والجملة الفعلية في محل رفع خبر: (لعلَّ) والجملة الاسمية محتملة للتعليل، والحالية؛ أي: لتتقوا الله، وتخافوا عقابه، أو حال كونكم متقين الله، أو متعرضين للتقوى، وفي المغني لابن هشام: هي

مفيدة للتَّحقيق؛ أي أنتم أحقُّ بتقوى الله من جميع المخلوقات، أقول: والتعليل أقوى لعطف مثلها على التعليل في الآيتين رقم [١٥٠] و[١٨٤]:

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

الشرح: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ ﴿جَعَلَ﴾ من الأفعال العامة، يجيء على ثلاثة أوجه: يأتي بمعنى: أخذ، طفق، فيكون من أفعال الشُّروع، فلا يتعدى، كقول الشاعر: [الطويل]

وَقَدْ جَعَلَتْ نَفْسِي تَطِيبُ لِضَغْمَةٍ   لِضَغْمِهِما هَا يَقْرَعُ العَظْمَ نابُهَا

وأيضاً قول رجل من بني بحتر بن عتود، وهو الشاهد رقم [٤٢٥] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»: [الوافر]

وَقَدْ جَعَلَتْ قَلُوصُ بَني سُهَيْلٍ   مِنَ الأكوارِ مَرْتَعُهَا قَرِيبُ

ويأتي بمعنى: أوجد، وخلق، فيتعدَّى لواحد، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ ويأتي بمعنى: صير، كما في الآية، فيتعدَّى لمفعولين، ويأتي بمعنى: سمَّى، فيتعدَّى لمفعولين أيضاً، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ أي: سمَّوهم إناثاً، وقال القرطبي: وقد تأتي زائدة، كما في قول الآخر: [البسيط]

وقَدْ جَعَلْتُ أَرَى الاثْنَينِ أَرْبَعَةً   والواحد اثْنَينِ لمَّا هَدَّنِي الكِبَرُ

وعند التأمُّل يتبيَّن لك: أنَّ المعنى: «قد صرت أرى... إلخ».

﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾

الشرح: ﴿كُنتُمْ﴾: أصله كَوَنْتم، فقل في إعلاله: تحركت الواو وانفتح ما قبلها، فقلبت ألفاً، فالتقى ساكنان: الألف وسكون النون، فحذفت الألف فصار (كَنتم) بفتح الكاف، ثم أبدلت الفتحة ضمة لتدل على الواو المحذوفة، فصار (كنتم)، وهناك إعلال آخر، وهو أن تقول: أصل الفعل كون، فلما اتصل بضمير رفع متحرك نقل إلى باب فُعل، فصار «كونْتُ» ثم نقلت حركة الواو إلى الكاف قبله، صار «كُونْتُ» فالتقى ساكنان: العين المعتلة ولام الفعل، فحذفت العين، وهي الواو لالتقائهما فصار «كنت» وهكذا قل في إعلال كل فعل أجوف واوي. مسنداً إلى ضمير رفع متحرك، مثل: قال وقام وغيرهما. ﴿رَيْبٍ﴾: انظر الآية رقم [٢]. ﴿عَبْدِنَا﴾: المراد به: سيد الرسل محمد ﷺ، فكنى عنه بالعبودية، وهي مقام عظيم، والإضافة للتشريف،

«وتنويه بذكره، وتنبيه على أنه مختص به، منقاد لحكمه تعالى»، ولم يذكر عليه الصلاة والسلام باسمه الصريح في القرآن إلا قليلاً؛ ذكر باسم محمد في سورة آل عمران، وسورة الأحزاب، وسورة محمد، وسورة الفتح، وذكر باسم أحمد في سورة الصف، وذكر باسم طه في سورة طه، وذكر باسم ياسين في سورة (يسٓ)، وانظر «نا» في الآية [٥٢]. ﴿فَأْتُوا۟﴾: فعل أمر ماضيه أتى يأتي، وهذا الفعل يستعمل لازماً إن كان بمعنى حضر وأقبل، ومتعدياً إن كان بمعنى وصل وبلغ، فمن الأول قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ ومن الثاني قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾. وأصل الأمر «اِأْتيوا» بهمزتين، الأولى للوصل، وهي مكسورة، فإذا انفتح ما قبلها قلبت ألفاً كما في هذه الآية، فإذا بدأت بها قلبت الثانية ياءً، فتقول: إيتيوا، ثم حذفت لام الفعل على نحو ما رأيت في «لقوا» في الآية رقم [١٤]. ﴿بِسُورَةٍ﴾: هي الطائفة من القرآن، محتوية على أنواع من العلم، احتواء سور المدينة على ما فيها، أو من السُّوْرَة، وهي الرتبة، لأن السور كالمراتب والمنازل، يرتقي فيها القارئ، ولها مراتب في الطول، والقصر، والفضل، والشرف، وثواب القراءة. قال النابغة: [الطويل]

ألم تر أن الله أعطاك سورة ... ترى كل ملك دونها يتذبذبُ

والحكمة في تفصيل القرآن، وتقطيعه سوراً كثيرة، منها: أن الجنس إذا انطوت تحته أنواع، واشتمل على أصناف؛ كان أحسن من أن يكون بياناً واحداً، ومنها أن القارئ إذا ختم سورة، ثم أخذ في أخرى؛ كان أنشط له وأبعث على القراءة منه لو استمر على القرآن بطوله، ومن ثم جزأ القراء القرآن أسباعاً، وأجزاءً، وعشوراً، وأخماساً، ومنها أن الحافظ إذا حفظ سورة؛ اعتقد: أنه أخذ من كتاب الله طائفة مستقلة بنفسها، لها فاتحة وخاتمة، فيعظم عنده ما حفظه، ويجل في نفسه، ومنه حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ: «كانَ الرجلُ إذا قرأَالبقرةَ وآلَ عمرانَ جلّ فينَا» أي عظم، ولذا أنزل الله تعالى التوراة، والإنجيل، والزبور، وسائر ما أوحاه على أنبيائه مسورة مترجمة السور، وبوب المصنفون في كل فن من كتبهم أبواباًموشحةً الصدور بالتراجم. انتهى. نسفي بتصرف. ﴿مِّثْلِهِۦ﴾: انظر الآية رقم [١٧]. ﴿شُهَدَآءَكُم﴾: جمع شهيد، وهو بمعنى الحاضر، أو القائم بالشهادة، أو الناصر والمعين. ﴿دُونِ﴾: من الدنو، وهو القرب، ومثله أدنى وانظر الآية [١٦] ومنه: تدوين الكتب لأنه إدناء، أي تقريب البعض من البعض، ثم استعير للترب، فيقال: زيد دون عمرو، أي في الشرف والسيادة، ثم اتسع فيهما فاستعملا في كل تجاوز حد، إلى حد، هذا ويأتي دون بمعنى قدام، قال الشاعر: [الطويل]

تريك الْقَذَى مِنْ دُونِهَا وهْيَ دُونَهُ ... إِذَا ذَاقَها مَن ذَاقَها يتمطّقُ

تنبيه: قال تعالى في هذه الآية: ﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا﴾ وقال في كثير من الآيات: ﴿أَنزَلْنَآ﴾؛ لأن الأول يفيد: أن القرآن نزل مفرقاً في ثلاث وعشرين سنة على حسب الوقائع، ومقتضيات

الأحوال، على ما نرى عليه أهل الشعر والخطابة، وهذا مما يريبهم، كما حكى سبحانه وتعالى ذلك عنهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ فبين سبحانه الحكمة من ذلك بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾.

الإعراب: ﴿وَإِن﴾: الواو: حرف عطف، (إن): حرف شرط جازم. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ماض ناقص مبني على السكون في محل جزم فعل الشرط، والتاء اسمه. ﴿فِى رَيْبٍ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف في محل نصب خبر كان. ﴿مِّمَّا﴾: أصله «من ما» جار ومجرور متعلقان بريب لأنه مصدر، أو بمحذوف صفة له، و(ما) تحتمل أن تكون موصولة، ونكرةو موصوفة. ﴿نَزَّلْنَا﴾: فعل وفاعل، وانظر ﴿ءَامَنَّا﴾ في الآية [١٤]، والجملة الفعلية صلة (ما)، أو صفتها، والعائد أو الرابط، محذوف، التقدير: نزلناه، وجملة ﴿كُنتُمْ...﴾ إلخ لا محل لها لأنها ابتدائية، ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفي. على عبدنا: متعلقان بالفعل قبلهما، و«نا» في محل جر بالإضافة. ﴿فَأْتُوا۟﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (أتوا): إعرابه مثل إعراب ﴿ٱعْبُدُوا۟﴾ في الآية رقم [٢١]، والجملة الفعلية في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور، والدسوقي يقول: لا محل لها لأنها لم تحل محل المفرد، و(إن) ومدخولها معطوف على قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ في الآية السابقة. وقيل: مستأنف. ﴿بِسُورَةٍ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿مِّن مِّثْلِهِۦ﴾: متعلقان بمحذوف صفة سورة، وقيل: متعلقان بالفعل قبلهما، والهاء في مجل جر بالإضافة. والواو: حرف عطف. (ادعوا): إعرابه مثل إعراب ﴿ٱعْبُدُوا۟﴾، ﴿شُهَدَآءَكُم﴾: مفعول به. والكاف في محل جر بالإضافة. ﴿مِّن دُونِ﴾: متعلقان بالفعل ادعو، أو بـ ﴿شُهَدَآءَكُم﴾، لأنه جمع شاهد كما رأيت، أو هما متعلقان بمحذوف في محل نصب حال من: ﴿شُهَدَآءَكُم﴾، التقدير: منفردين عن الله. ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ إعراب هذا مثل إعراب سابقه، وجواب الشرط محذوف لدلالة جواب الشرط الأول عليه، وهو قولُهُ: ﴿فَأْتُوا۟﴾، والشرط، ومدخوله بمنزلة التوكيد للشرط الأول، ومدخوله.

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾

الشرح: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟﴾: أي: فإن لم تأتوا بسورة لعجزكم، ثم أكد هذا العجز بالجملة المعترضة بين فعل الشرط وجوابه، وصدَّر سبحانه الجملة الشرطية بـ (إن) التي للشك، والحال يقتضي (إذا) التي للجزم والتحقق، لأنه سبحانه لم يكن شاكّاً في عجزهم، ولذلك نفى إتيانهم بالجملة المعترضة تهكماً بهم، أو خطاباً معهم على حسب ظنهم أنهم يقدرون. (اتقوا): انظر التقوى في الآية رقم [٢]، وأصله «اتقِيُوا» فُعل به ما فُعل بـ: ﴿فَأْتُوا۟﴾ حيث حذفت الضمة على

الياء للثقل، ثم حذفت الياء لالتقاء الساكنين، ثم قلبت كسرة القاف ضمة لمناسبة واو الجماعة. ﴿ٱلنَّارَ﴾: انظر الآية رقم [١٧]. ﴿وَقُودُهَا﴾: بفتح الواو، أي ما توقد به النار، وأما بضمها فهو المصدر، وكذلك الاسم منه، وبعضهم قال: كلٌّ من الفتح والضم يجري في الآلة والمصدر، وكذا يقال في الوضوء والسحور والطهور ونحو ذلك، ولكن المشهور الأول، وقرئ بفتح الواو وضمها أيضاً. ﴿ٱلنَّاسُ﴾: انظر الآية رقم [٨]. ﴿وَٱلْحِجَارَةُ﴾: المراد به الأصنام التي عبدوها في الدنيا، وأمَّلوا نفعها وشفاعتها، قال تعالى مخاطباً الكافرين في الدنيا: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنها حجارة الكبريت، فهي أشد توقداً، وأبطأ خموداً، وأنتن رائحةً، وألصق بالبدن. والحجارة جمع حجر، كجمالة جمع جمل، وهو قليل غير منقاس. ﴿أُعِدَّتْ﴾: هيئت، وفيه دليل على أن النار مخلوقة، موجودة، وكذا الجنة. (الكافرين): انظر الآية رقم [٦].

الإعراب: ﴿فَإِن﴾: الفاء: حرف استئناف. (إن): حرف شرط جازم. ﴿لَّمْ﴾: حرف نفي، وقلب، وجزم. ﴿تَفْعَلُواْ﴾: فعل مضارع مجزوم بلم، وعلامة جزمه حذف النون لأنه من الأفعال الخمسة، وهي في محل جزم فعل الشرط، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية لا محل لأنها ابتدائية... إلخ. الواو: واو الاعتراض. ﴿وَلَن﴾: حرف ناصب. ﴿تَفْعَلُواْ﴾: فعل مضارع منصوب بلن... إلخ. والجملة الفعلية معترضة لا محل لها من الإعراب. ﴿فَٱتَّقُواْ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (اتقوا): فعل أمر مبني على حذف النون، وانظر ﴿ٱعْبُدُواْ﴾ في الآية رقم [٢١]. ﴿ٱلنَّارَ﴾: مفعول به. ﴿ٱلَّتِى﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل نصب صفة النار. ﴿وَقُودُهَا﴾: مبتدأ، وها: في محل جر بالإضافة. ﴿ٱلنَّاسُ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية صلة الموصول لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿فَٱتَّقُواْ...﴾ إلخ في محل جزم جواب الشرط، وانظر الآية السابقة. ﴿أُعِدَّتْ﴾: فعل ماض مبني للمجهول، ونائب الفاعل يعود إلى النار، والتاء للتأنيث. ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، وجملة ﴿أُعِدَّتْ...﴾ إلخ في محل نصب حال من النار، والرابط الضمير فقط، وهي على تقدير «قد» وقيل: مستأنفة، والأول أقوى.

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾

الشرح: ﴿وَبَشِّرِ﴾: أمر من البشارة، وهي الإخبار بما يسر المخبر به، وقد تستعمل بالشر وبما يسوء على سبيل التهكم والاستهزاء، كما في قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. ﴿ءَامَنُواْ﴾: صدقوا، وانظر الإيمان في الآية رقم [٣]. ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: الأعمال الصالحات على

اختلاف مراتبها ودرجاتها، من فعل مأمورات، واجتناب منهيات. ﴿جَنَّٰتٍ﴾: جمع جنة، وهي البستان من النخل والشجر الكثير المتكاثف الذي يجن، أي: يستر ما يكون متداخلاً فيه، وسميت دار الثواب جنة لما فيها من النعيم الذي لا ينفد، وجمع الجنة على جنات يدل على جنان كثيرة مرتبة مراتب بحسب أعمال العاملين، لكل طبقة منهم جنة من تلك الجنان، واللام في ﴿لَهُمْ﴾: للملك وهي تدل على أنهم استحقوا الجنات بسبب أعمالهم الصالحة. ﴿مِن تَحْتِهَا﴾: أي من تحت قصورها و أشجارها. ﴿الْأَنْهَارُ﴾: جمع نهر، وهو معروف في الدنيا، ولكن شتان ما بين أنهار الجنة وأنهار الدنيا، هذا ويجمع النهر على أنهُر ونُهُر ونُهور، وهاء النهر تسكن وتفتح. ﴿وَأُتُوا بِهِ﴾: جيئوا به. ﴿مُتَشَابِهًا﴾: أي يشبه بعضه بعضاً في اللون، ويختلف في الطعم. ﴿أَزْوَاجٌ﴾: جمع زوج، وهو يطلق على الذكر والأنثى، وقد يقال للأنثى: زوجة. ﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾: من الحيض وكل قذر يكون في الدنيا. «وكذلك مطهرة من دنس الطبع، وسوء الخلق، وغير ذلك، سواء كن من نساء الدنيا أم من الحور العين». وينبغي أن يلاحظ أن ذلك للذكور والإناث الصالحات، وإن كان الكلام بصيغة جمع الذكور، فيمكن أن يكون من باب تغليب الذكور على المؤمنات الصالحات، وتبشرهن بجنة عرضها الأرض والسموات. ﴿خَالِدُونَ﴾: ماكثون أبداً لا يفنون، ولا يخرجون، روى مسلم عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أهْلُ الجنةِ يأكلونَ ويشربون، ولا يبولونَ ولا يتغوطون، ولا يمتخطون، ولا يبزقونَ، يُلهَمونَ الحمدَ والتسبيح كَما يُلْهَمونَ النفسَ، ولكن طعامُهُمْ ذلك جشاءٌ، ورشحُهمْ كرشْحِ المسْكِ**».

الإعراب: ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل نصب مفعول به، وجملة: ﴿آمَنُوا﴾ مع المتعلق المحذوف صلة الموصول، لا محل لها. (عملوا): فعل ماض، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿الصَّالِحَاتِ﴾: صفة لمفعول به محذوف، التقدير: الأعمال الصالحات، فهو منصوب وعلامة نصبه الكسرة نيابة عن الفتحة لأنه جمع مؤنث سالم، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها، وجملة: (بَشِّر . . .) إلخ: معطوفة على جملة: ﴿فَاتَّقُوا...﴾ إلخ، كما تقول: يا بني تميم احذروا عقوبة ما جنيتم، وبشر يا فلان بني أسد بإحساني إليهم. أو جملة وصف بها ثواب المؤمنين معطوفة على جملة وصف بها عقاب الكافرين، كقولك: زيد يعاقب بالقيد والإرهاق، وبشر عمراً بالعفو والإطلاق. ﴿أَنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿لَهُمْ﴾ جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر ﴿أَنَّ﴾ تقدم على اسمها. ﴿جَنَّاتٍ﴾: اسمها مؤخر منصوب، وعلامة نصبه مثل ﴿الصَّالِحَاتِ﴾، ﴿تَجْرِي﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء. ﴿مِن تَحْتِهَا﴾: متعلقان بما قبلهما، و«ها» في محل جر بالإضافة. ﴿الْأَنْهَارُ﴾: فاعل: ﴿تَجْرِي﴾ والجملة الفعلية في محل نصب صفة ﴿جَنَّاتٍ﴾، و﴿أَنَّ﴾ واسمها وخبرها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به، وقيل: في محل جر بحرف جر محذوف،

التقدير: بأن، والجار والمجرور متعلقان بالفعل (بشر). هذا وقرئ: (بُشِّرَ) بصيغة الماضي المبني للمجهول، على اعتباره معطوفاً على: ﴿أُعِدَّتْ﴾.

﴿كُلَّمَا﴾: انظر إعرابها مفصلاً في الآية رقم [٢٠]. ﴿رُزِقُوا﴾: فعل ماض مبني للمجهول مبني على الضم، والواو نائب فاعله، وهو المفعول الأول، والألف للتفريق. ﴿مِنْهَا﴾: جار مجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿مِن ثَمَرَةٍ﴾: بدل مِنْ ﴿مِنْهَا﴾ بدل اشتمال. ﴿رِزْقًا﴾: مفعول به ثان، وهو بمعنى: مرزوقاً، وليس مصدراً؛ لأن المصدر لا يؤتى به متشابهاً، إنما يؤتى بالمرزوق كذلك، و(ما) والفعل ﴿رُزِقُوا﴾ في تأويل مصدر في محل جر بإضافة (كُلَّ) إليه. ﴿قَالُوا﴾: ماض وفاعله. ﴿هَٰذَا﴾ الهاء: حرف تنبيه لا محل له. (ذا): اسم إشارة مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿الَّذِي﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول. ﴿رُزِقْنَا﴾: فعل ماض مبني للمجهول مبني على السكون، و«**نا**»: نائب فاعل، وهو المفعول الأول، والمفعول الثاني، وهو العائد محذوف، التقدير: الذي رزقناه. ﴿مِن﴾: حرف جر. ﴿قَبْلُ﴾: اسم مبني على الضم، لقطعه عن الإضافة لفظاً، لا معنىً في محل جرٍّ بـ ﴿مِن﴾ والجار والمجرور متعلقان بالفعل قبلهما، أو هما متعلقان بمحذوف حال من الضمير المنصوب المحذوف، وجملة: ﴿قَالُوا﴾ إلخ: جواب ﴿كُلَّمَا﴾ لا محل لها، و﴿كُلَّمَا﴾ ومدخولها في محل نصب صفة ثانية لـ ﴿جَنَّٰتٍ﴾ أو هي في محل نصب حال منه بعد وصفه بما تقدَّم، أو هي مستأنفة لا محل لها. وقيل: في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، ولا وجه له. تأمل.

﴿وَأُتُوا﴾: الواو: واو الحال. (أُتُوا): فعل ماض مبني للمجهول مبني على الضم، والواو نائب فاعله، والألف للتفريق. ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿مُتَشَٰبِهًا﴾: حال من الضمير المجرور بالباء، وجملة: (أتوا...) إلخ: في محل نصب حال من مفعول ﴿رُزِقْنَا﴾ المحذوف، والرابط الواو والضمير المجرور في (به) و«قد» مقدرة قبل الفعل، ويكون ﴿مُتَشَٰبِهًا﴾ حالاً متعددة، أو متداخلة، وقيل: يجوز أن تكون مستأنفة، وقال الجمل: جملة: ﴿وَأُتُوا...﴾ إلخ: معترضة مقررة لما قبلها، ولا وجه له. ﴿وَلَهُمْ﴾: الواو: واو الاستئناف. (لهم): جار ومجرور متعلقان بمحذوف في محل رفع خبر مقدم. ﴿فِيهَآ﴾: متعلقان بالخبر المحذوف، أو بمحذوف خبر ثان، أو بمحذوف حال من الضمير المستتر في الخبر المحذوف، وبعضهم يعتبرهما متعلقين بمحذوف حال من: ﴿أَزْوَٰجٌ﴾، وكثير لا يجيزون مجيء الحال من المبتدأ، ﴿أَزْوَٰجٌ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾: صفة له، والجملة الاسمية هذه مستأنفة لا محل لها، وقال الجمل: الجملة صفة لـ ﴿جَنَّٰتٍ﴾ والواو مانعة من الوصفية، ولو قال: إنها في محل نصب حال من ﴿جَنَّٰتٍ﴾ لكان وجهاً مقبولاً. ﴿وَهُمْ﴾: الواو: حرف عطف. (هم): مبتدأ. ﴿فِيهَا﴾: متعلقان بما بعدهما. ﴿خَٰلِدُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها على جميع الوجوه المعتبرة فيها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ (٢٦)﴾

الشرح: قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في رواية أبي صالح عنه: لمَّا ضرب الله هذين المثلين للمنافقين، يعني: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا...﴾ الآية رقم [١٧]، وقوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ...﴾ إلخ الآية رقم [١٩]، وفي رواية عطاء عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أيضاً، قال: لما ذكر الله آلهة المشركين، فقال: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ رقم [٧٣] من سورة (الحج) وذكر كَيْدَ الآلهة، فجعله كبيت العنكبوت؛ أي: في الضعف، والمهانة، وذلك في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ الآية رقم [٤١] من سورة (العنكبوت)؛ قالوا: أرأيت حيث ذكر الله الذباب والعنكبوت فيما أنزل من القرآن على محمد، أي شيء يصنع؟ فأنزل الله الآية، وقال الحسن، وقتادة ـ رضي الله عنهما ـ: لمَّا ذكر الله الذباب، والعنكبوت في كتابه، وضرب للمشركين به المثل؛ ضحكت اليهود، وقالوا: ما يشبه هذا كلام الله! فأنزل الله الآية الكريمة. انتهى قرطبي بتصرف.

هذا؛ والأمثال من هذا القبيل كثيرة، مثل الآيتين رقم [٧٥] و[٧٦] من سورة (النحل)؛ ففيهما بحث جيد انظرهما. ﴿لَا يَسْتَحْيِۦٓ﴾: أصله يستحييُ، عينه، ولامه حرفا علة، أعلت اللام منه بأن استثقلت الضمة على الياء، فسكنت، واسم الفاعل على هذا مستحييٌ، والجمع: مُسْتَحْيُون، ومُسْتَحْيِين. وقرأ ابن محيصن: (يَسْتَحِي) بكسر الحاء وياء واحدة ساكنة، ورويت عن ابن كثير، وهي لغة تميم وبكر وائل، وهي قراءة شاذة، نقلت فيها حركة الياء الأولى إلى الحاء فسكنت، ثم استثقلت الضمة على الثانية فسكنت، فحذفت إحداهما للالتقاء، واسم الفاعل مستحٍ، والجمع مستحون ومستحين. انتهى قرطبي، وقاله الجوهري.

هذا؛ والحياء بالنسبة للإنسان هو: انقباض النفس من الشيء، وتركه خوفاً من اللوم، وهو ملكة تمنع الإنسان من ارتكاب الرذائل، والحياء خير ما يتحلَّى به إنسان، فإذا ذهب الحياء من الإنسان، فقد ذهب منه كلُّ خير، كما قال الشاعر الحكيم: [الوافر]

إِذَا لَـمْ تَـخْـشَ عَـاقِـبَـةَ الـلَّـيَـالـي ... وَلَـمْ تَـسْـتَـحـي فَـاصْـنَـعْ مَـا تَـشَـاءُ

فَـلا وَأَبِـيـكِ مـا فـي الـعَـيْـشِ خَـيْـرٌ ... وَلَا الـدُّنْـيَـا إِذَا ذَهَـبَ الْـحَـيَـاءُ

والحياء بالمعنى المتقدم مستحيل في حقِّ الله تعالى، بل المراد منه في حقه تعالى: التَّرك اللازم للانقباض، كما ورد في قول النبي ﷺ: **«إنَّ اللهَ حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحيي مِنَ العَبْدِ إِذَا رَفعَ إليهِ يَدِيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْراً خَائِبَتينِ»**. أخرجه أبو داود، والترمذي، وحسنه عن سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ، وقال الزمخشري: أي: لا يترك ضرب المثل بالبعوضة ترك من يستحيي أن يتمثل بها لحقارتها. وقول له آخر: هو من باب المشاكلة.

﴿أَن يَضْرِبَ مَثَلًا﴾: معناه: يبيِّن، فيتعدَّى لواحد، وقيل: معناه: التصيير، فيتعدَّى لاثنين، نحو: ضربت الطين لبناً، وقال بعضهم: لا يتعدَّى لاثنين إلا مع المثل خاصَّةً.

﴿بَعُوضَةً﴾: واحدة البعوض، وهو صغار البق، واشتقاقه من البعض، وهو القطع، ومنه بعض الشيء؛ لأنه قطعة منه، وقد بعضته تبعيضاً، أي: جزأته، فتبعّض، وسميت البعوضة بذلك لصغرها. ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾. والبعوض من عجيب خلق الله تعالى فإنه في غاية الصِّغر، وله ستة أرجل، وأربعة أجنحة، وذنب، وله خرطوم مجوف، وهو مع صغره يغوص خرطومه في جلد الفيل، والجاموس، والجمل، فيبلغ منه الغاية؛ حتى إنَّ الجمل ليموت من قرصه. انتهى. خازن. قال القرطبي: والفاء بمعنى «إلى» أي: إلى ما فوقها، وهذا قول الكسائي، والفراء أيضاً. وهذا قاله ابن هشام في مغني اللبيب في الآية نفسها، واستأنس بهذه الآية، ليثبت: أنَّ الفاء وقعت بمعنى «إلى» في قول امرئ القيس في أول معلقته، وهو الشاهد رقم [٢٩٣] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»: [الطويل]

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ بِسِقْطِ اللِّوى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

انظر الكلام عليه إن كنت من أهل مغني اللبيب تجد الكلام عليه طويلاً وعريضاً، واعتبر من العكس، أي: مجيء «إلى» بمعنى الفاء في قول كثير عزَّة، وهو الشاهد رقم [٢٩٥] من كتابنا المذكور: [الطويل]

وَأَنتِ الَّتي حَبَّبْتِ شَغْباً إلى بَدَا إِلَيَّ وأَوْطَانِي بِلادٌ سِوَاهُمَا

هذا وفي الفوقية قولان: أحدهما: فما دونها في الصِّغر، والحقارة، كما إذا وصف رجل باللؤم والشُّحِّ، فيقول السامع: نعم هو فوق ذلك، يعني: فيما وصفت، وهذا قول أكثر المحققين، قال الرسول ﷺ: **«لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللهِ جناحَ بَعُوضةٍ مَا سَقَى كافِراً مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ»**. رواه ابن ماجه، والترمذي، وقال: حديث حسن صحيح عن أبي سهل بن سعد ـ رضي الله عنه ـ. والثاني: ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ لما هو أكبر منها؛ لأنه ليس شيء أحقر، ولا أصغر من البعوضة. وهذا قول قتادة بن دعامة، واختيار ابن جرير، فإنه يؤيد ما رواه مسلم عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: أن رسول الله ﷺ قال: **«مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُشَاكُ شَوْكَةً فما فَوْقَهَا إلا كُتِبَ لَهُ بِهَا دَرَجَةٌ، وَمُحِيَتْ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ»**.

فأخبر الله: أنه لا يستصغر شيئاً يضرب به مَثَلاً، ولو كان في الحقارة والصغر كالبعوضة. فكما لا يستنكف عن خلقها، كذلك لا يستنكف من ضرب المثل بها، كما ضرب المثل بالذباب، والعنكبوت. انتهى مختصر ابن كثير بتصرف.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: أي: بالله، ورسوله. ﴿فَيَعْلَمُونَ﴾: فيعتقدون، ويوقنون: ﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ الحق: خلاف الباطل وضده، قال الراغب ـ رحمه الله تعالى ـ: أصل الحق: المطابقة، والموافقة، كمطابقة رِجْل الباب في حقِّه لدورانه على الاستقامة، والحقُّ يقال لموجد الشيء بحسب ما تقتضيه الحكمة، ولذلك قيل في الله تعالى: هو الحق، وللموجود بحسب مقتضى الحكمة: حقٌّ، ولذلك يقال الشيء نفسه، نحو اعتقاد زيد في الجنة حقٌّ، وللفعل، والقول الواقعين بحسب ما يجب؛ أي أثبته حقّاً، أو حكمت بكونه حقّاً. بغدادي.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: قال القرطبي رحمه الله تعالى: لغة تميم وبني عامر في «أمَّا»: «أيْمَا» يبدلون من إحدى الميمين ياء كراهية التضعيف، وعلى هذا ينشد بيت عمر بن أبي ربيعة، وهو الشاهد رقم [٨٤] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»: [الطويل]

رَأَتْ رَجُلاً أَيْمَا إِذَا الشَّمْسُ عَارَضَتْ فَيَضْحى وَأَمَّا بِالعَشِيِّ فَيَخْصَرُ

وانظر الشاهد رقم [٨٩] منه أيضاً فإنه جيد، والكلام عليه أجود.

﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًاۘ﴾ أي: وأما الذين كفروا؛ فيتعجبون، ويقولون: ما الذي أراده الله من ضرب الأمثال بهذه الأمور الحقيرة، وإنما سمَّوه مثلاً؛ لأنه استعارة من المثل المضروب؛ لأنه ما غرب من الكلام وبدع استغراباً منهم لهذا المثل، واستبعاداً له، وتحقيراً له أيضاً.

﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِۦ كَثِيرًاۚ﴾: أي يضل بهذا المثل كثيراً من الكافرين لكفرهم به، ويهدي به كثيراً من المؤمنين لتصديقهم به، فيزيد أولئك ضلالة، وهؤلاء هدىً. هذا؛ ومثل هذه الآية الآية رقم [٣١] من سورة المدثر. ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي: وما يضل بهذا المثل أو بهذا القرآن إلا الخارجين عن طاعة الله الجاحدين بآياته.

هذا؛ وقال علماء التوحيد: ليس معنى إضلال الله لفريق، وهدايته لفريق آخر: أنه تعالى يجبر كُلاً منهما على الضلالة، والهدى، ولا أنه سبحانه يكرههم على سلوك سبيلي الخير والشر، كلَّا، فإن هذا الإكراه مناف للعدل الإلٰهي، بل منافٍ لحكمة التشريع السَّماوي، ولا يتفق مع نصوص الشريعة المتواترة، القاطعة الدالة على أن العبد له إرادة، واختيار، هما مناط التكليف، والمؤاخذة، وكذلك فهم الصحابة والسلف الصالح، سأل رجل عليّاً ـ رضي الله عنه ـ فقال: أكان مسيرك إلى الشام يعني: «لقتال أهلها» بقضاء الله، وقدره، فقال له: ويحك! لعلَّك ظننت قضاءً لازماً، وقدراً حاتماً! ولو كان كذلك؛ لبطل الثواب، والعقاب، وسقط الوعد، والوعيد، إنَّ الله سبحانه أمر عباده تخييراً، ونهاهم تحذيراً، وكلَّف يسيراً، ولم يكلف عسيراً،

ولم ينزل الكتاب عبثاً، ولا خلق السموات والأرض وما بينهما باطلاً ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾. وعلى ضوء هذا يفهم معنى الهداية، والإضلال. انتهى. صابوني.

ولا تنس المقابلة بين: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًاۚ﴾ وهو من المحسنات البديعية. هذا؛ وقدم الإضلال على الهداية؛ ليكون أول ما يقرع أسماعهم من الجواب أمراً فظيعاً يسوءهم، ويفتُّ أعضادهم، وأوثرت صيغة الاستقبال إيذاناً بالتجدد، والاستمرار.

هذا و(القول) يطلق على خمسة معانٍ: **أحدها**: اللفظ الدَّال على معنى. **الثاني**: حديث النفس، ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ﴾ الآية رقم [٨] من سورة (المجادلة). **الثالث**: الحركة، والإمالة، يقال: قالت النَّخلة؛ أي: مالت. **الرابع**: ما يشهد به الحال، كما في قوله تعالى في سورة (فصلت) رقم [١١]: ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾. **الخامس**: الاعتقاد. كما تقول: هذا قول الأشاعرة، وهذه مقالة المعتزلة؛ أي: ما يعتقدونه. وانظر شرح الكلام في الآية رقم [٧٥].

أمَّا الإرادة فهي: نزوع النفس، وميلها إلى الفعل؛ بحيث يحملها عليه، ويقال للقوة الَّتي هي مبدأ النزوع، والأول مع الفعل، والثاني قبله، وكلا المعنيين غير متصور اتصاف الباري تعالى به، ولذا اختلف في معنى إرادته، فقيل: إرادته لأفعاله: أنَّه غير ساهٍ، ولا مكره، ولأفعال غيره: أمره بها، فعلى هذا لم تكن المعاصي بإرادته.

وقيل: علمه باشتمال الأمر على النظام الأكمل، والوجه الأصلح. انتهى بيضاوي بتصرف. وانظر الآية رقم [١٨٤] الآتية تجد ما يسرك. هذا؛ و(الإضلال): خلق فعل الضلال في العبد، و(الهداية) خلق فعل الاهتداء فيه، هذا هو الحقيقة عند أهل السنة. انتهى نسفي.

قال تعالى في سورة الأعراف رقم [٢٩]: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۗ﴾ وعن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ اللهَ خَلَقَ الخَلْقَ في ظُلْمَةٍ، فألقَى عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ، فَمَنْ أَصَابَهُ من ذَلِكَ النورِ اهْتَدى، وَمَنْ أخطَأَهُ ضَلَّ**». أخرجه الترمذيُّ. وقد يعترض بعض الناس على خلق فعل الضلال في العبد، فيقول: إذاً لا مؤاخذة على العبد، والجواب: أن معنى خلق... إلخ، تقدير ضلاله، وهذا التقدير مبني على علم الله الأزلي بأن هذا العبد لو ترك وشأنه لم يختر سوى الكفر والضلال، ولذا قدره الله عليه، هذا بالإضافة إلى اختياره الضَّلال بعد أن بين الله الخير، والشر، والحسن، والقبيح، كما قال تعالى في سورة (البلد): ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾؛ أي: بينا له طريق الخير والشر. وأخيراً خذ قوله تعالى في سورة (الأنبياء) رقم [٢٣]: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾. ومذهب المعتزلة بخلاف هذا؛ لأنهم يقولون: إن العبد يخلق أفعال نفسه بقدرة خلقها الله فيه.

وأخيراً: فـ﴿ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ جمع: فاسق، وهو الخارج عن حدِّ الإيمان، وأصل الفسق: الخروج عن حد القصد، والفاسق في الشرع: الخارج عن أمر الله بارتكاب المعاصي، وله ثلاث

درجات: **الأولى**: التغابي، وهو أن يرتكب الكبيرة أحياناً مستقبحاً إيَّاها. **والثانية**: الانهماك، وهو أن يعتاد ارتكابها غير مبالٍ بها. **والثالثة**: الجحود، وهو أن يرتكبها مستصوباً إياها، فإذا شارف هذا المقام، وتخطى خططه؛ خلع ربقة الإيمان من عنقه، ولابس الكفر، وما دام في درجة التغابي، أو الانهماك فلا يسلب عنه اسم المؤمن، لاتصافه بالتصديق الذي هو مسمى الإيمان. انتهى بيضاوي.

وخذ ما قاله الزمخشري رحمه الله تعالى، وهو من نظمه: [الكامل]

يا مَنْ يرى مدَّ البَعُوضِ جَنَاحَهَا في ظلمةِ اللَّيلِ البهيمِ الأَلْيَلِ
ويَرَى عُروقَ نِياطِهَا في نَحْرِهَا والمخَّ في تلك العظامِ النُّحَّلِ
اِغْفِرْ لعبدٍ تابَ مِنْ فَرَطَاتِهِ ما كانَ منهُ في الزَّمَانِ الأوَّلِ

ولعلَّها توبته من الاعتزال، والله أعلم بحقيقة الحال، وإليه المرجع والمآل.

الإعراب: ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَسْتَحْيِۦٓ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء للثقل، والفاعل مستتر يعود إلى الله، تقديره هو، والجملة الفعلية في محل رفع خبر (إنَّ)، والجملة الاسمية مبتدأة، أو مستأنفة لا محل لها. (أَنْ): حرف ناصب. ﴿يَضْرِبَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ ﴿أَن﴾، والفاعل يعود إلى ﴿ٱللَّهَ﴾ أيضاً، و﴿أَن﴾ والفعل والمضارع في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر محذوف، التقدير: من ضرب، والجار والمجرور متعلقان بالفعل قبلهما، وهذا عند الخليل، وأما سيبويه فيعتبر المصدر في محل نصب بنزع الخافض، وبعضهم يعتبره مفعولاً به بإجراء اللازم مجرى المتعدي. ﴿مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً﴾ في هاتين الكلمتين أعاريب واعتبارات: **الأول**: اعتبار الفعل ﴿يَضْرِبَ﴾ بمعنى «يجعل» نصب ﴿مَثَلًا﴾ و﴿بَعُوضَةً﴾ مفعولين، و﴿مَّا﴾ صفة: ﴿مَثَلًا﴾، أو زائدة. **والثاني**: اعتبار ﴿بَعُوضَةً﴾ عطف بيان مِنْ ﴿مَثَلًا﴾ و﴿مَّا﴾ صفة، أو زائدة. **والثالث**: اعتبار (بعوضةً) بدلاً من ﴿مَثَلًا﴾ و﴿مَثَلًا﴾ مفعول به، و﴿مَّا﴾ صفة أو زائدة للتأكيد. **والرابع**: اعتبار ﴿بَعُوضَةً﴾ مفعولاً به و﴿مَثَلًا﴾ حال منها؛ لتقدُّمه عليها. **والخامس**: اعتبار ﴿مَّا﴾ نكرة صفة ﴿مَثَلًا﴾ أو بدل منها، و﴿بَعُوضَةً﴾ عطف بيان على ﴿مَّا﴾. هذا؛ وقال القرطبي، وهو في مغني اللبيب أيضاً: نصبت ﴿بَعُوضَةً﴾ على تقدير إسقاط الجار، المعنى: أن يضرب مثلاً ما بين بعوضةٍ، فحذفت «بين» وأعربت بعوضة بإعرابها، والفاء بمعنى «إلى» أي: إلى ما فوقها، وهذا قول الكسائي، والفراء أيضاً، وأنشد أبو العباس لمجهول لم يسمَّ، وهو الشاهد رقم [٢٩٤] من كتابنا فتح القريب المجيب: [البسيط]

يا أَحْسَنَ النَّاسِ مَا قَرْنَاً إلى قَدَمٍ وَلَا حِبَالَ مُحِبٌّ واصلٍ تَصِلُ

أراد ما بين قرن، فلمَّا أسقط «بين» نصب. انتهى قرطبي. وعليه فالتقدير في الآية: «ما بين بعوضةٍ» فحذفت «بين» وانتصب ﴿بَعُوضَةً﴾ مكانها، وذكرت لك في الشرح أن القرطبي قال: والفاء بمعنى «إلى»، وهو في مغني اللبيب أيضاً، وانظر الشواهد رقم [٢٩٣ و٢٩٤ و٢٩٥] من كتابنا فتح القريب المجيب إن كنت من أهل النَّحو، والإعراب.

هذا وقرئ شاذّاً: (بعوضةٌ) بالرفع، قال أبو الفتح ابن جني: ووجه ذلك: أن ﴿مَّا﴾ اسم بمنزلة: «الذي» و(بعوضةٌ) رفع على إضمار مبتدأ. التقدير: لا يستحيي أن يضرب الذي هو بعوضةٌ مثلاً، فحذف العائد على الموصول، وهو مبتدأ، ومثله قراءة بعضهم في قوله تعالى في سورة (الأنعام) رقم [١٥٤]: (ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذي أَحْسَنُ) أي: هُوَ أَحْسَنُ، وعليه فـ (ما) موصولة حذف صدر صلتها، أو هي موصوفة بالجملة كذلك، ومحلُّها النصب بالبدلية من ﴿مَثَلًا﴾ على الوجهين، أو هي استفهامية على أنها مبتدأ و(بعوضةٌ) خبرها، والمعنى: أي شيء البعوضة فما فوقها في الحقارة، وعليه فالجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها.

﴿فَمَا﴾: الفاء: حرف عطف. (ما): اسم موصول مبني على السكون، أو هي نكرة موصوفة معطوفة على ﴿بَعُوضَةً﴾. ﴿فَوْقَهَا﴾ ظرف مكان متعلق بمحذوف صلة (ما) أو صفة لها. (أمَّا) أداة شرط، وتفصيل، وتوكيد، أما كونها أداة شرط؛ لأنها قائمة مقام أداة الشرط وفعله بدليل لزوم الفاء بعدها؛ إذ الأصل: مهما يك من شيء؛ فالذين آمنوا فيعلمون... إلخ، فأنيبت (أمَّا) مناب: مهما يك من شيء، فصار: (أما الذين آمنوا فيعلمون). وأما كونها أداة تفصيل؛ لأنها في الغالب تكون مسبوقة بكلام مجمل، وهي تفصله، ويعلم ذلك من تتبع مواقعها. وأما كونها أداة توكيد؛ لأنها تحقق الجواب، وتفيد أنه واقع لا محالة لكونها علقته على أمر متيقن.

﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ. ﴿ءَامَنُواْ﴾: فعل وفاعل، والألف للتفريق، والجملة الفعلية صلة الموصول لا محل لها. ﴿فَيَعْلَمُونَ﴾: الفاء: واقعة في جواب (أما)، (يعلمون): فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله. ﴿أَنَّهُ﴾: حرف مشبه بالفعل، والهاء اسمه. ﴿ٱلْحَقُّ﴾: خبره. ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾: متعلقان بمحذوف حال من ﴿ٱلْحَقُّ﴾ التقدير: ثابتاً، أو كائناً، والهاء في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه، و(أن) واسمها، وخبرها في تأويل مصدر في محل نصب سدَّ مسد مفعولي (يعلمون)، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، وهي في الوقت نفسه جواب (أمَّا) والجملة الاسمية: (أما الذين...) إلخ، لا محل لها من الإعراب؛ لأنها مفرعة عما قبلها، وهي بمنزلة الاستئناف. ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ﴾: إعراب هذه الجملة كإعراب سابقتها، وهي معطوفة عليها لا محل لها مثلها.

﴿مَاذَآ﴾: (ما): اسم استفهام مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. (ذا): اسم موصول مبني على السكون في محل رفع خبر المبتدأ. هذا؛ ويجوز أن يكون: ﴿مَاذَآ﴾ اسماً مركباً مبنيّاً على السكون في محل رفع مبتدأ، أو هو في محل نصب مفعول به مقدَّم، والأول أقوى؛ لأن مفعول ﴿أَرَادَ﴾ يحذف كما رأيت في الآية رقم [٢٠].

﴿أَرَادَ﴾: فعل ماض. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله. ﴿بِهَٰذَا﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، والهاء حرف تنبيه لا محل له، مقحم بين الجار والمجرور، وجملة: ﴿أَرَادَ...﴾ إلخ: صلة الموصول لا محل لها، وهذا على الوجه الأول في إعراب ﴿مَاذَآ﴾، أو في محل رفع خبره على الوجه الثاني فيه، أو هي جملة فعلية على الوجه الثالث في إعرابه، وعلى جميع الوجوه؛ فجملة: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا﴾: في محل نصب مقول القول. ﴿مَثَلًاۘ﴾: تمييز لاسم الإشارة، أو حال. ﴿يُضِلُّ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى ﴿ٱللَّهُ﴾، ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿كَثِيرًا﴾: مفعول به، وهو صفة لموصوف محذوف، التقدير: خلقاً، أو ناساً كثيراً، والجملة الفعلية مستأنفة لا محل لها، وجوز أبو البقاء اعتبارها صفة مثلاً، أو حالاً من لفظ الجلالة، كما جوز الاستئناف، وصوَّبه ابن هشام في المغني وجملة: (يهدي به كثيراً): معطوفة على ما قبلها لا محل لها مثلها. ﴿وَمَا﴾: الواو: واو الحال. (ما): نافية. ﴿يُضِلُّ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى ﴿ٱللَّهُ﴾ ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿إِلَّا﴾ حرف حصر. ﴿ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ مفعول به منصوب... إلخ. والجملة الفعلية في محل نصب حال من فاعل ﴿يُضِلُّ﴾ و(يهدي) المستتر، والرابط: الواو، والضمير. تأمل، وتدبر، وربك أعلم.

﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾

الشرح: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ﴾: النقض: فك التركيب، وأصله: فك طاقات الحبل، واستعماله في إبطال العهد استعارة، حيث شبه العهد بالحبل، وحذف المشبه به، ورمز له بشيء من لوازمه وهو النقض على سبيل الاستعارة المكنية. ﴿عَهْدَ ٱللَّهِ﴾: قيل: عهد الله إلى خلقه ثلاثة عهود: **الأول**: العهد الذي أخذه على جميع ذرية آدم عليه السلام بأن يقرُّوا بربوبيته، وهو قوله تعالى: في سورة (الأعراف) رقم [١٧١]: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ﴾. والعهد **الثاني**: خصَّ به النبيين أن يبلغوا الرسالة، ويتمُّوا الدين، وهو قوله تعالى في سورة (الأحزاب) رقم [٧]: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ﴾. والعهد **الثالث**: خصَّ به العلماء من كل أُمَّة وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾.

﴿مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾: الميثاق: العهد المؤكد باليمين، والجمع: مواثيق على الأصل؛ لأنَّ أصل ميثاق: مِوْثاق، قلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها، ومثله: ميزان، وميعاد، ونحوهما. ﴿وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ من الإيمان بالرَّسول ﷺ وصلة الأرحام، وموالاة المؤمنين، وعدم التفرقة بين الرسل، والكتب في التصديق، فهي عامة في كل ما أمر الله تعالى به أن يوصل، والرحم جزء من هذا. ﴿وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ بالكفر، والمعاصي، والظُّلم، وإثارة الفتن، والتعويق عن الإيمان، والصدِّ عن سبيل الله بالتَّرغيب أحياناً، وبالتَّرهيب أحياناً أخرى. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ حيث استبدلوا المعصية بالطاعة، والفساد بالصلاح، والعقاب بالثواب. هذا وقال القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ: في هذه الآية دليل على أنَّ الوفاء بالعهد، والتزامه، وكل عهد جائزٍ ألزمه المرء نفسه، فلا يحل له نقضه سواءٌ أكان بين مسلم أم غيره، لذمِّ الله تعالى مَنْ نقض عهده، وقد قال تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ﴾ [الإسراء: ٣٤]. انتهى.

هذا وقيل في تفسير الخازن: إنَّه جُعل لكلِّ واحد من بني آدم منزلٌ في الجنة، ومنزلٌ في النار، فإذا كان يوم القيامة جعل الله للمؤمنين منازل الكفار التي في الجنة، وجعل للكفار منازل المؤمنين التي في النار، فذلك هو الخسران، وأيُّ خسران أعظم من هذا الخسران؟! وفي سنن ابن ماجه عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال رسول الله ﷺ: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا لَهُ مَنْزِلَان: مَنْزِلٌ في الْجَنَّةِ، وَمَنْزِلٌ في النار، فإذا ماتَ فدخَلَ النارَ ورِثَ أهلُ الجنةِ مَنْزِلَهُ**» فذلك قوله تعالى في سورة (المؤمنون)، الآية رقم [١٠]: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ﴾. هذا؛ والآية الكريمة مذكورة في سورة (الرَّعد) رقم [٢٥].

الإعراب: ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل نصب بدلاً من ﴿ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ أو في محل نصب مفعول به لفعل محذوف تقديره: أذم، أو هو في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: هم الذين، أو هو مبتدأ خبره ما يأتي بعده.

﴿يَنقُضُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله. ﴿عَهۡدَ﴾: مفعول به، وهو مضاف و﴿ٱللَّهِ﴾ مضاف إليه، من إضافة المصدر لمفعوله، وفاعله محذوف، التقدير: عهدهم الله، أي معاهدتهم الله. ﴿مِنۢ بَعۡدِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، وقيل: ﴿مِنۢ﴾ زائدة. وليس بشيء. ﴿بَعۡدِ﴾ مضاف و﴿مِيثَٰقِهِۦ﴾: مضاف إليه. والهاء في محل جر بالإضافة من إضافة المصدر لمفعوله على اعتباره عائداً على «العهد» وفاعله مستتر فيه، أو من إضافة المصدر لفاعله على اعتباره عائداً على ﴿ٱللَّهِ﴾، وجملة: ﴿يَنقُضُونَ...﴾ إلخ: صلة الموصول لا محل لها. ﴿وَيَقۡطَعُونَ﴾: الواو: حرف عطف. (يقطعون): فعل مضارع مرفوع وفاعل. ﴿مَآ﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل نصب مفعول به، وجملة: ﴿أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ﴾: صلته.

﴿أَن﴾: حرف ناصب. ﴿يُوصَلَ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول منصوب بـ ﴿أَن﴾ ونائب الفاعل يعود إلى الموصول، وهو العائد: و﴿أَن﴾ والفعل المضارع في تأويل مصدر في محل جر بدل من

الضمير بدل ظاهر من مضمر، وقيل: في محل نصب بدل من ﴿مَآ﴾ والأول أولى لقربه، وجوز أن يكون المصدر في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: هو الوصل: وقيل: مفعول لأجله على حذف المضاف، التقدير: كراهة أن يوصل، أو التقدير: لئلا يوصل: ومثل ذلك قول عمرو بن كلثوم في معلقته المشهورة رقم [٩٧] وهو الشاهد رقم [٤٨] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»: [الوافر]

نَزَلْتُمْ مَنْزِلَ الأَضْيَافِ مِنَّا فَعَجَّلْنَا الْقِرى أَنْ تَشْتِمُونَا

وجملة: (يقطعون...) إلخ معطوفة على ما قبلها لا محل لها مثلها، وجملة: (يفسدون في الأرض): معطوفة أيضاً. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ، والكاف حرف خطاب لا محل له. ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل لا محل له. ﴿ٱلْخَٰسِرُونَ﴾: خبر المبتدأ مرفوع... إلخ، هذا ويجوز اعتبار الضمير مبتدأ ثانياً، و﴿ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية هذه في محل رفع المبتدأ الأول، وعلى الوجهين فالجملة مستأنفة لا محل لها.

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾

الشرح: ﴿كَيْفَ﴾: اسم استفهام المراد به التعجب من كفرهم، وذلك من قبل العباد، والمراد به التوبيخ والتقريع من جهة الله تعالى، ولذلك أتبعه بالبرهان القاطع على سفاهتهم؛ حيث كفروا به، وعبدوا مَنْ لا يستحق العبادة ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا...﴾ إلخ: قال القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ: واختلف أهل التأويل في ترتيب هاتين الموتتين، والحياتين، وكم من موتة وحياة للإنسان؟

فقال ابن عباس، وابن مسعود ـ رضي الله عنهم ـ: أي: كنتم أمواتاً معدومين قبل أن تخلقوا، فأحياكم؛ أي: خلقكم، ثم يميتكم عند انقضاء آجالكم، ثم يحييكم يوم القيامة. قال ابن عطية: وهذا القول هو المراد بالآية، وهو الذي لا محيد للكفار عنه لإقرارهم بهما، وإذا أذعنت نفوس الكفار لكونهم أمواتاً معدومين، ثمَّ للإحياء في الدنيا، ثم للإماتة فيها؛ قوي عليهم لزوم الإحياء الآخر، وجاء جحدهم له لا حجَّة عليها.

وقيل: كنتم أمواتاً؛ أي نطفاً في أصلاب الرجال، وأرحام النِّساء، ثم نقلكم من الأرحام، فأحياكم، ثم يميتكم من هذه الحياة، ثمَّ يحييكم في القبر للمسألة، ثم يميتكم في القبر، ثم يحييكم حياة النشر إلى الحشر، وهي الحياة التي ليس بعدها موت، فعلى هذا التأويل هي ثلاث موتات، وثلاث إحياءات، انتهى. هذا؛ وقال تعالى في سورة (غافر) رقم [١١]: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ...﴾ إلخ، انظر شرحها هناك، وقال تعالى في سورة الجاثية رقم [٢٦]: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ فيحاسبكم على ما تعملون، من صغير، وكبير، وانظر الآية رقم [١٨]. هذا؛ وقد عطف سبحانه الإحياء الأول بالفاء على «الموت» وعطف البواقي بـ ﴿ثُمَّ﴾ لأن الإحياء الأول قد تعقب الموت بلا تراخ، وأما الموت فقد تراخى عن الحياة، والحياة الثانية كذلك تتراخى عن الموت، وكذلك الرُّجوع إليه سبحانه يتراخى عن الإحياء بسبب طول يوم القيامة.

تنبيه: جاء في مغني اللَّبيب ما نصُّه: وتستعمل «كيف» على وجهين: **أحدهما**: أن تكون شرطاً، فيقتضي فعلين متفقي اللفظ والمعنى غير مجزومين، نحو كيف تصنعُ أصنعُ، ولا يجوز: كيف تجلسْ أذهبْ، باتِّفاق، ولا: كيف تجلسْ أجلسْ بالجزم عند البصريين إلا قطرباً لمخالفتها لأدوات الشرط بوجوب موافقة جوابها لشرطها كما مرَّ، وقيل: يجوز مطلقاً، وإليه ذهب قطرب، والكوفيون، وقيل: يجوز بشرط اقترانها بـ «ما» قالوا: ومن ورودها شرطاً قوله تعالى: ﴿يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُ﴾، وقوله تعالى: ﴿يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُ﴾، وقوله: ﴿فَيَبۡسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ يَشَآءُ﴾، وجوابها في ذلك كله محذوف لدلالة ما قبله عليه، وهذا يشكل على إطلاقهم أنَّ جوابها يجب مماثلته لشرطها.

وقد استدرك بعض المعلِّقين على المغني، فقال: أجاب بعضهم بأنَّه يمكن أن يقدر الجواب موافقاً للشرط بأن يقدر الجواب فعل مشيئة متعلق بالفعل السابق، وهو دال عليه؛ لأن الفعل الاختياري يستلزم المشيئة، والأصل: كيف يشاء أمراً يشاء التصوير في الأرحام، كيف يشاء أمراً يشاء الإنفاق. كيف يشاء أمراً يشاء بسطه، غاية الأمر: أنَّ متعلق الفعلين مختلف، وهذا جواب بعيدٌ؛ لأنهم قالوا: لدلالة ما قبله عليه؛ لأن المتبادر: أنه دال على الجواب، وعلى دفع الإشكال، فيكون ما قبلها دالاً على متعلق جوابها، لا على نفس جوابها، وقد علمت دفع هذا بأن الفعل الاختياري وهو الفعل الواقع قبلها يستلزم المشيئة، وهو الجواب المحذوف. انتهى.

الإعراب: ﴿كَيۡفَ﴾: اسم استفهام مبني على الفتح في محل نصب حال، عامله الفعل بعده، وصاحبه: واو الجماعة. ﴿تَكۡفُرُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله. ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلقان به، والجملة الفعلية مستأنفة لا محل لها، وجملة: (كنتم أمواتاً) في محل نصب حال من واو الجماعة، والرابط الواو، والضمير، و«قد» مقدَّرة قبل الفعل الماضي الناقص لتقربه من الحال. (أحياكم): فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف للتعذر، والفاعل يعود إلى الله، والكاف مفعول به، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، وجملة: ﴿يُمِيتُكُمۡ﴾: معطوفة أيضاً. ﴿يُحۡيِيكُمۡ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء للثقل، والفاعل يعود إلى (الله) والكاف مفعول به، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها أيضاً، فهي في محل نصب حال أيضاً. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿إِلَيۡهِ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل بعدهما. ﴿تُرۡجَعُونَ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول مرفوع... إلخ، والواو نائب فاعله، والجملة معطوفة على ما قبلها.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾

الشرح: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾: معناه: اخترع، وأوجد بعد العدم، وقد يقال في الإنسان: «خلق» عند إنشائه شيئاً، ومنه قول الشاعر: [مجزوء الكامل]

مَـــنْ كَـــانَ يَـــخْـــلُـــقُ مَـــا يَـــقُـــو لُ فـــحـــيـــلـــتـــي فـــيـــهِ قَـــلِـــيـــلَـــهْ

هذا وقال البيضاوي ـ رحمه الله تعالى ـ: الفرق بين خلق، وجعل الذي له مفعول واحد: أن الخلق فيه معنى التقدير، والجعل فيه معنى التضمين. هذا؛ وقال القرطبي ـ رحمه الله ـ: وفي أصل الخلق وجهان: **الأول**: الإنشاء، والاختراع، والإبداع، قال الله تعالى: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ الآية رقم [١٧] من سورة (العنكبوت). **والثاني**: التقدير، يقال: خلقت الأديم للسِّقاء: إذا قَدَّرته، قبل القطع، قال الشاعر: [الكامل]

وَلأَنْـــتَ تَـــفْـــرِي مَـــا خَـــلَـــقْـــتَ، وبـــعْــــ ـــضُ الـــقَـــوْمِ يَـــخْـــلُـــقُ ثـــمَّ ولا يَـــفْـــري

ومعنى ﴿لَكُم﴾: لأجلكم، ولانتفاعكم به في دنياكم، ودينكم، أما الانتفاع الدُّنيوي، فظاهر، وأما الانتفاع الدِّيني؛ فالنظر فيه، وما فيه من عجائب الصُّنع الدَّالة على الصانع القادر الحكيم، وما فيه من التذكير بالآخرة، وبثوابها، وعقابها... إلخ، ولذا أوجز بعضهم القول فيه، فقال: إنه دليل على التوحيد، والاعتبار، يدلُّ عليه ما قبله، وما بعده من نصب العبر: الإحياء، والإماتة، والخلق، والاستواء إلى السماء، وتسويتها. وقد استدل بهذه الآية، وما كان مثلها، كقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ الآية رقم [١٣] من سورة الجاثية ومثلها كثير: أنَّ أصل الأشياء الَّتي ينتفع بها الإباحة؛ حتى يقوم الدَّليل على الحظر، والمنع.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾: الاستواء في اللغة: الارتفاع، والعلوُّ على الشَّيء، قال تعالى في سورة (المؤمنون) رقم [٢٨]: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾، وقال جل ذكره في سورة (الزخرف) رقم [١٣]: ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾، ويقال: استوت الشمس على رأسي، واستوت الطَّير على قمة رأسي، بمعنى: علا. وهذه الآية من المشكلات، والناس فيها وفيما شاكلها على ثلاثة أوجه: قال بعضهم: نقرؤها ونؤمن بها، ولا نفسِّرها، وذهب إليه كثيرٌ من الأئمَّة، وهذا كما روي عن مالك ـ رحمه الله ـ: أنَّ رجلاً سأله عن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ قال مالك: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وأراك رجل سوء، أخرجوه! وقال بعضهم: نقرؤها، ونفسِّرها على ما يحتمل ظاهر اللُّغة، وهذا

قول المشبِّهة، وقال بعضهم: نقرؤها، ونتأوَّلها، ونجعل حملها على ظاهرها. انتهى قرطبي بحروفه.

أقول: وهذا الأخير هو الذي يفسر بقصد إرادته ومشيئته، وهذا مذهب التأويل، والأوَّل مذهب التفويض، والثاني مذهب التشبيه، ويقول أهل مذهب التأويل أيضاً: استوى: استولى، كما قال الشاعر: [الرجز]

قَـدِ اسـتـوَى بِـشْـرٌ عـلَـى الـعِـرَاقِ ... مِـنْ غَـيْـرِ سَـيْـفٍ ودَمٍ مُـهْـرَاقِ

هذا وتفيد هذه الآية: أنَّ الله تعالى خلق الأرض قبل السَّماء، كذلك قوله تعالى في سورة (فصلت) رقم [١١]: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ...﴾ إلخ. انظر شرحها هناك، فإنه جيد، والحمد لله! وقال في سورة (النازعات) رقم [٢٧]: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا﴾ فوصف خلقها، ثم قال: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ فكأنَّ السماء على هذا خلقت قبل الأرض، وهذا قول قتادة ـ رضي الله عنه ـ: إنَّ السَّماء خلقت أولاً.

وقال مجاهد، وغيره من المفسِّرين: إن الله تعالى أيبس الماء الذي كان عرشه عليه، فجعله أرضاً، وثار منه دخان فارتفع، فجعله سماءً، فصار خلق الأرض قبل خلق السماء، ثم قصد أمره إلى السَّماء، فسواهنَّ سبع سموات، ثم دحا الأرض بعد ذلك، وكانت إذ خلقها غير مدحوَّةٍ.

قال القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ: وقول قتادة يُخرَّج على وجهٍ صحيح إن شاء الله تعالى، وهو: أنَّ الله تعالى خلق أولاً دخان السماء، ثم خلق الأرض، ثم استوى إلى السماء وهي دخان، فسوَّاها، ثم دحا الأرض بعد ذلك، وقد شرحت ذلك، وفصلته في سورة (فصلت) والحمد لله!.

قال القرطبي: ذكر الله تعالى: أنَّ السموات سبعٌ، ولم يأت للأرض في التنزيل عدد صريح لا يحتمل التأويل إلا قوله تعالى في آخر سورة الطلاق: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾، وقد اختلف فيه، فقيل: ومن الأرض مثلهنَّ في العدد؛ لأن الكيفية والصفة مختلفةٌ بالمشاهدة والأخبار، فتعيَّن العدد، وقيل: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ أي: في غلظهنَّ وما بينهنَّ. وقيل: هي سبع إلا أنه لم يفتق بعضها من بعضٍ، قال الداودي: والصَّحيح الأول، وأنها سبعٌ كالسَّموات. روى مسلم عن سعيد ابن زيد ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ أَخَذَ شِبْرَاً مِنَ الأَرْضِ ظُلْماً طوقه إلى سبع أرضين**». ومن حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ: «**لا يأخذ أحدٌ شبراً من الأرض بغيرِ حَقِّهِ إلَّا طَوَّقَهُ اللهُ إلى سبْعِ أرْضينَ يَوْمَ القِيامَةِ**». رواه مسلم أيضاً. ومعنى: (سواهنَّ): سوى سطوحهن بالإملاس، وقيل: جعلهنَّ سواء، وقيل: خلقهن مستويات لا عوج فيهنَّ، ولا شقوق.

﴿عَلِيمٌ﴾: من صيغ المبالغة، ومعناه: الواسع العلم؛ الذي أحاط علمه بجميع الأشياء، قال أبو حيان: وصف تعالى نفسه بـ (عالم، وعليم، وعلام) وهذان للمبالغة، وقد أدخلت العرب

الهاء لتأكيد المبالغة في: (علّامة) لا يجوز وصفه به تعالى، فالله هو العالم، والعليم بجميع المعلومات بعلمٍ قديمٍ، أزليٍّ، واحدٍ، قائمٍ بذاته، ووافقنا المعتزلةُ على العالِمية دون العِلميَّة، وقالت الجهميَّة: عالمٌ بعلم قائم لا في محلٍ، تعالى الله عن قول أهل الزيغ، والضلالات، وقد وصف الله نفسه بالعلم، فقال: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ﴾ وقال: ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ وقال جلَّ ذكره: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ﴾ وقال تعالت قدرته: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ﴾. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿هُوَ﴾: ضمير منفصل مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ. ﴿ٱلَّذِى﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها. ﴿خَلَقَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى ﴿ٱلَّذِى﴾ وهو العائد، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها. ﴿لَكُم﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿مَّا﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل نصب مفعول به. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: متعلقان بمحذوف صلة الموصول، لا محل لها، التقدير: يوجد في الأرض. ﴿جَمِيعًا﴾: حال من ﴿مَّا﴾. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿ٱسْتَوَىٰٓ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف للتعذر، والفاعل يعود إلى (الَّذي) أيضاً، والجملة الفعلية لا محل لها معطوفة على ما قبلها، ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾: متعلقان بما قبلهما. (سوّاهن): فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف، والفاعل يعود إلى ﴿ٱلَّذِى﴾ أيضاً، والهاء مفعول به، والنون حرف دال على جماعة الإناث، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها. ﴿سَبْعَ﴾: مفعول به ثان على اعتبار: (سوّى) بمعنى: صيَّر، قيل: بدل من الضمير المنصوب، وقيل: تمييز، وقيل: تفسير للضمير. وقال الأخفش: انتصب على الحال، وأقواها الأوَّل. (هو): ضمير منفصل مبتدأ. ﴿بِكُلِّ﴾: متعلقان بـ ﴿عَلِيمٌ﴾ بعدهما، و(كُلِّ): مضاف، و﴿شَىْءٍ﴾: مضاف إليه. ﴿عَلِيمٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة الاسمية السابقة، أو هي مستأنفة، ولا محل لها على الاعتبارين، إن اعتبرتها في محل نصب حال من الفاعل المستتر؛ فلست مفنداً، ويكون الرابط: الواو، والضمير.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾

الشرح: لمَّا امتن الله تعالى على العباد بنعمة الخلق، والإيجاد، وأنَّه سخَّر لهم ما في الأرض جميعاً، وأخرجهم من العدم إلى الوجود؛ أتبع ذلك ببدء خلقهم، وامتنَّ عليهم بتشريف

أبيهم، وتكريمه، بجعله خليفة، وإسكانه دار الكرامة، وإسجاد الملائكة تعظيماً لشأنه، ولا شك: أنَّ الإحسان بذلك؛ لأنه من وجوه النِّعم الَّتي أنعم بها عليهم. انتهى. صفوة التفاسير.

﴿وَإِذْ قَالَ﴾: «إذْ» و«إذا» حرفا توقيت، فـ «إِذْ» للماضي، و«إذا» للمستقبل، وقد توضع إحداهما موضع الأخرى، وقال المبرِّد: إذا جاء «إذ» مع مستقبل، كان معناه ماضياً، نحو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ﴾ وقوله جلَّ ذكره: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ معناه: إذ مكروا، وإذ قلت، وإذا جاء «إذا» مع الماضي؛ كان معناه مستقبلاً، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ﴾، ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ معناه: يجيء، ويجب إضافتهما إلى الجمل كـ «حيث» في المكان، وبُنِيتا تشبيهاً لهما بالموصولات، واستعملتا للتعليل، والمجازاة، ومحلهما النصب أبداً بالظرفية، فإنهما من الظروف الغير متصرفة.

﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾: جمع: ملك. والهاء في الملائكة تأكيد لتأنيث الجمع، ومثله: الصَّلادمة، والصَّلادم: الخيل الشداد، واحدها: صلدم، وقيل: هي للمبالغة كعلَّامة، ونسابة. وقال أرباب المعاني: خاطب الله الملائكة لا للمشورة، لكن لاستخراج ما فيهم من رؤية الحركات، والعبادة، والتسبيح، والتقديس، ثم ردهم إلى قيمتهم، فقال عز وجل: ﴿ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ﴾.

هذا؛ والملائكة: أجسام نورانية لطيفة، قادرة على التشكُّل، والتمثُّل بأيَّة صورةٍ أرادوا، لا يأكلون، ولا يشربون، لا يبولون، ولا يتغوطون، لا ينامون، ولا يموتون، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، لا يتناسلون، ولا يتناكحون، يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس، لا يوصفون بذكورة، ولا بأنوثة، فمن وصفهم بذكورة فسق، ومن وصفهم بأنوثة كفر، ولهم قدرة خارقة، ولا تحكم عليهم الصُّورة، وهم كثيرون لا يعلم عددهم إلا الله تعالى، قال تعالى في سورة المدثر الآية رقم [٣١]: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ يقومون بأعمالٍ مختلفة، كلٌّ فيما وكل إليه من أعمال. ورؤساؤهم عشرة: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وعزرائيل، ورقيب، وعتيد، ومنكر، ونكير، ورضوان خازن الجنة، ومالك خازن النار. ويتشكَّلون بأشكالٍ حسنةٍ. ومعنى لا تحكم عليهم الصورة: أنَّ الملك إذا تصور بصورة ما، وسدَّد إنسان سهماً نحوه، أو جُنِيَ عليه بجناية؛ فلا يناله شيء من الأذى، بخلاف الجنِّي إذا تصور بصورة ما؛ فيجري عليه حكم الصورة بلحوق الأذى إليه. وانظر ما ذكرته في سورة (الجنِّ) تجد ما يسرك، ويثلج صدرك.

﴿خَلِيفَةً﴾: يخلفني في تنفيذ أحكامي في الأرض. وأفاد كلام ابن عباس، وابن مسعود ـ رضي الله عنهما ـ وجميع أهل التأويل: أن المراد آدم، عليه الصلاة والسلام، وهو خليفة الله في إمضاء أحكامه، وأوامره، لأنه أول رسول إلى الأرض، كما في حديث أبي ذرٍّ ـ رضي الله عنه ـ قال: قلت: يا رسول الله! أنبيّاً كان مرسلاً؟ قال: «**نعم**». وقد كان آدم رسولاً إلى ولده، وكانوا أربعين ولداً في عشرين بطناً، في كل بطن ذكر، وأنثى، وتوالدوا حتى كثروا، كما قال

تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ رقم [١] من سورة (النساء). وأنزل عليه تحريم الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وعاش ألف سنة، والله أعلم.

﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾: أي بالمعاصي، والمنكرات. ﴿وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾: السَّفك: الصَّبُّ، والإراقة، ولا يستعمل إلا في الدم، قال في المصباح: وسَفَكَ الدم: أراقه، وبابه ضرب، والمراد: يقتل، ويستحلُّ. وهذا السؤال ليس اعتراضاً على الله، وإنما هو على سبيل التعجب، لا على سبيل الإنكار، والاعتراض، فإن قيل: من أين عرفوا: أن هذا الخليفة، وذرِّيته يفسدون في الأرض، ويسفكون الدماء؟ فالجواب: إنما عرفوا ذلك بإخبار الله تعالى، أو من جهة اللَّوح المحفوظ، أو قاسوا أحد الثقلين، أي: الإنس على الآخر، وهم الجنُّ، فإن الله تعالى لما خلق الأرض أسكن فيها الجنَّ، وأسكن في السماء الملائكة، فأفسدت الجنُّ في الأرض، فبعث إليهم طائفة من الملائكة، فطردتهم إلى جزائر البحار، ورؤوس الجبال، وأقاموا مكانهم.

﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ أي: نقول: سبحان الله، وبحمده، وهي صلاة الخلق، وبهما يرزقون، فعن أبي ذرٍّ ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ رسول الله ﷺ سئل: أي الكلام أفضل؟ قال: «**مَا اصْطَفَى اللهُ لملائكتهِ، أو لعبادِهِ: سبحانَ اللهِ وبحمدِهِ**». رواه الإمام مسلم. والتسبيح لله أينما كان؛ فمعناه تنزيه الله، وتبرئته عن السُّوء. روى طلحة بن عبيد الله ـ رضي الله عنه، أحد العشرة المبشرين بالجنة ـ، قال: سألت رسول الله ﷺ عن تفسير «**سبحان الله**» فقال: «**هو تنزيه الله عزَّ وجلَّ عن كل سوء**». وخذ ما يلي: فعن سليمان بن يسار عن رجل من الأنصار: أنَّ النَّبي ﷺ قال: «**قَالَ نوحٌ لابنِهِ: إنِّي موصِيكَ بِوَصِيَّةٍ، وقاصِرُهَا؛ لكي لا تَنْسَاهَا، أوصيك باثْنَتَيْنِ، وأنهَاكَ عن اثْنَتَيْنِ، أمَّا اللتانِ أوصيكَ بهمَا؛ فيستبشرُ اللهُ بِهما وصالحُ خَلْقِهِ، وهَمَا يُكْثِرَانِ الولوجَ عَلَى اللهِ، أوصِيكَ: بلا إلَهَ إلا اللهُ، فإنَّ السمواتِ والأرضَ لو كانَتَا حَلقةً قصَمَتهُمَا، ولوْ كَانَتَا في كِفَّةٍ وَزَنَتْهُمَا، وأُوصِيكَ: بِسُبْحَانَ اللهِ وبحمدهِ، فإنَّهما صلاةُ الخلقِ، وبهما يُرْزَقُ الخلقُ** ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾. **وأمَّا اللتان أنهاكَ عنهما، فيحتجبُ اللهُ منهما وصالِحُ خَلقِهِ: أنهاكَ عنِ الشِّركِ والكِبْرِ**». رواه النسائي.

﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ التقديس: التعظيم، والتطهير، والمعنى: نطهرك عن النقائص وعن كل سوء، ونصفك بما يليق بعزك، وجلالك من العلوِّ، والعظمة، ونطهِّر ذكرك مما نسبه إليك الملحدون. ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: إني أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هذا الصنف على المفاسد؛ التي ذكرتموها ما لا تعلمون أنتم، فإني أجعل فيهم الأنبياء، وأرسل فيهم الرسل، ويوجد منهم الصدِّيقون، والشهداء، والصَّالحون، والعبَّاد، والزهَّاد، والأولياء، والأبرار، والمقرَّبون، والعلماء العاملون، والخاشعون، والمحبُّون له تبارك وتعالى، المتَّبعون رسله، صلوات الله وسلامه عليهم.

وقد استدل القرطبيُّ وغيره بهذه الآية على وجوب نصب الخليفة ليفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه، ويقطع تنازعهم، وينتصر لمظلومهم من ظالمهم، ويقيم الحدود، ويزجر عن ارتكاب الفواحش... إلى غير ذلك من الأمور المهمة، التي لا تمكن إقامتها إلا بالإمام، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، ويجب أن يكون الخليفة ذكراً، حرّاً، بالغاً، عاقلاً، مسلماً، عدلاً، مجتهداً، بصيراً، سليم الأعضاء، خبيراً بالحروب والآراء، قرشيّاً على الصَّحيح، ولا يشترط الهاشمي، ولا المعصوم من الخطأ، خلافاً للغلاة، والروافض. مختصر ابن كثير.

﴿ٱلدِّمَآءَ﴾: أصله: الدماي، لأنه جمع دم الذي أصله: دمي، فقلبت الياء همزة كما رأيت في (بناء) في الآية رقم [٢٢]، والأصح: أن أصل المفرد دمَوٌ، فيكون الجمع: الدِّماء، وقلبت الواو همزة، كما رأيت في سماء في الآية رقم [١٩]، وفي الصحاح: الدم أصله دَمَوٌ بالتحريك. وإنما قالوا: دمي يدمى لحال الكسرة التي قبل الياء، كما قالوا: رضي يرضى، وهو من الرضوان، قال الشاعر: [الوافر]

فَلَوْ أنّا عَلَى حَجَرٍ ذُبِحْنَا جَرَى الدَّمَيَانِ بالخَبَرِ اليَقِينِ

وبعض العرب يقول في تثنيته: دموان.

الإعراب: ﴿وَإِذۡ﴾: الواو: حرف استئناف. (إذ): ظرف لما مضى من الزمان، مبني على السكون في محل نصب متعلق بفعل محذوف، التقدير: اذكر، أو هو مفعول به للفعل المحذوف، وقيل: هو خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: ابتداء خلقي إذ قال، وقيل: زائدة، وهذان الوجهان ضعيفان، وقال الجمل: والأحسن جعله منصوباً بـ ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ﴾ أي: قالوا ذلك القول وقت قول الله عز وجل لهم: ﴿إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ﴾ لأنه أسهل الأوجه. انتهى. نقلاً عن كرخي. وهو تكلف لا داعي له، وابن هشام ـ رحمه الله تعالى ـ لم يذكر في مغني اللبيب سوى كونها ظرفاً، أو كونها مفعولاً به.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض. ﴿رَبُّكَ﴾: فاعله، والكاف في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿خَلِيفَةٗۖ﴾ مفعول به، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة (إذ) إليها. ﴿إِنِّي﴾: حرف مشبه بالفعل، وياء المتكلم اسمها. ﴿جَاعِلٞ﴾: خبرها، وفاعله مستتر فيه وجوباً، تقديره: «أنا» والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول.

﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ ﴿جَاعِلٞ﴾ على أنهما مفعول به ثان له تقدَّم على الأول وهو ﴿خَلِيفَةٗۖ﴾.

﴿قَالُوٓاْ﴾: فعل ماض مبني على الضم، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿أَتَجۡعَلُ﴾: الهمزة: حرف استفهام وتعجب. (تَجْعَلُ): فعل مضارع، والفاعل تقديره: أنت. ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور

متعلقان بالفعل قبلهما، وهما في محل نصب مفعول به ثان، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول، وجملة ﴿قَالُوٓاْ...﴾ إلخ: مستأنفة لا محل لها؛ لأنها بمنزلة جواب عن سؤال مقدر، فكأن قائلاً قال: ماذا قالت الملائكة؟ قيل: ﴿قَالُوٓاْ...﴾ إلخ، ﴿يُفْسِدُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى ﴿مَن﴾ وهو العائد. ﴿فِيهَا﴾ متعلقان بما قبلهما، والجملة الفعلية صلة الموصول لا محل لها، وجملة: (يسفك الدماء): معطوفة عليها لا محل لها مثلها. ﴿وَنَحْنُ﴾: الواو: واو الحال. (نحن): ضمير منفصل مبني على الضم في محل رفع مبتدأ. ﴿نُسَبِّحُ﴾ فعل مضارع، والفاعل مستتر تقديره: نحن، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل نصب حال من واو الجماعة، والرابط الواو فقط، وإن اعتبرتها حالاً من فاعل (تجعل) فالرابط: الواو، والضمير، والمعنى عليه أقوى. ﴿بِحَمْدِكَ﴾: متعلقان بمحذوف حال من فاعل ﴿نُسَبِّحُ﴾ أي: متلبسين بحمدك، فهي حال متداخلة.

وجملة: (نُقَدس لك): معطوفة على ما قبلها، فهي في محل نصب حال مثلها، واللام زائدة، وعليه فالكاف في محل نصب مفعول به، والأصل: «نقدسك» وقيل: ليست زائدة، فهي جارة للكاف، والجار والمجرور متعلقان بالفعل (نُقدِّس) على أنَّهما في محل نصب مفعول به. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى ﴿رَبُّكَ﴾. ﴿إِنِّي﴾: حرف مشبه بالفعل، وياء المتكلم اسمها. ﴿أَعْلَمُ﴾: خبر (إنَّ)، واعتبره أبو البقاء اسماً بمعنى: عالم، كما جوز اعتباره فعلاً مضارعاً، فاعله مستتر تقديره: أنا، والجملة الفعلية خبر (إنَّ)، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قَالَ...﴾ إلخ: لا محل لها مثل جملة: ﴿قَالُوٓاْ...﴾ إلخ، ﴿مَا﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل نصب مفعول به لـ ﴿أَعْلَمُ﴾ على الاعتبارين المذكورين فيه. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿تَعْلَمُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله، والجملة الفعلية صلة الموصول، أو صفة ﴿مَا﴾ إن كانت نكرة موصوفة، والعائد أو الرابط محذوف؛ إذ التقدير: الذي، أو شيئاً لا تعلمونه.

﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾

الشرح: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾: تعليم الله لآدم ذلك بإلهام علمه ضرورة، ويحتمل أن يكون ذلك بواسطة جبريل عليه السلام، قال ابن عطاء: لو لم يكشف لآدم علم تلك الأسماء؛ لكان أعجز من الملائكة في الإخبار عنها، وهذا واضحٌ. وكنيته في الجنَّة أبو محمد، وفي الأرض أبو البشر. و﴿ءَادَمَ﴾ اسم علم أعجمي مشتق من الأدمة بمعنى السُّمْرة، أو من أديم الأرض، أي: من وجهها وترابها، أو من الأدمة بمعنى الألفة، قال سعيد بن جبير ـ رضي الله عنه ـ: إنما سمي آدم لأنه خلق من أديم الأرض، وإنما سمي إنساناً لأنه نسي، وأصله «أأدم»

بهمزتين، قلبت الثانية مدّاً، مجانساً لحركة الأولى، كما قلبت في إيمان، فإنَّ أصله بـ: «إِئْمان» وكما قلبت في أومن، فإنَّ أصله: «أُؤْمِن»، ﴿ٱلۡأَسۡمَآءَ﴾: جمع: اسم، انظر اشتقاقه في البسملة.

هذا واختلف أهل التأويل في معنى الأسماء التي علمها الله لآدم عليه السلام، فقال ابن عباس، وعكرمة، وقتادة، ومجاهد، وابن جبير ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ: علمه أسماء الأشياء كلها: جليلها، وحقيرها، لذا قيل: والمراد بالأسماء أسماء الأشياء، والأجناس التي خلقها، مثل: هذا فرس، وهذا بعير، وهذا باب، وهذا ثوب. وقيل: المراد بالأسماء: اللغات، مثل العربية، والتركية، أقول: وكل ذلك صحيح، علَّمه كل شيء حتى القصعة، والقصيعة، والمغرفة... إلخ، وبالجملة فقد علمه أسماء الأجناس، وعرَّفه منافعها، هذا كذا، وهو يصلح لكذا، وعلمه جميع اللغات، ولقَّنها بنيه؛ لكنهم تفرقوا، فحفظ بعضهم العربيَّة ونسي غيرها، وبعضهم التركية ونسي غيرها... إلخ.

﴿ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾: عرض الأسماء، ومعلوم: أنَّ من الأسماء أسماء من يعقل، وأسماء من لا يعقل، فغلب العقلاء على غيرهم، وجمعهم هذا الجمع، هذا وقرئ: (عرضهنَّ) و(عرضها) فيكون من تغليب غير العقلاء على العقلاء. ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ أي: إني لم أخلق خلقاً إلا كنتم أفضل منه، وأعلم. ﴿فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: أخبروني. هذا؛ والنبأ: الخبر وزناً ومعنى، ويقال: النبأ أخصُّ من الخبر؛ لأنَّ النبأ لا يطلق إلا على كلِّ ما له شأن وخطر من الأخبار، وقال الراغب: النبأ: خبر ذو فائدة، يحصل به علم، أو غلبة ظن، لا يقال للخبر في الأصل نبأ حتى يتضمَّن هذه الأشياء الثلاثة، وحقه أن يتعرَّى عن الكذب، كالمتواتر، وخبر الله تعالى، وخبر الرسول ﷺ. هذا؛ وقد يجيء الفعل من نبأ غير مضمن معنى أعلم، فلذلك يعدى لواحد بنفسه، وللآخر بحرف الجر، وانظر الآية [٣] من سورة التحريم.

أما صفة خلق آدم عليه السلام، فقد قال وهب بن منبه: لمَّا أراد الله أن يخلق آدم؛ أوحى الله إلى الأرض: إني خالق منك خليقةً، منهم مَنْ يطيعني، ومنهم من يعصيني، فمن أطاعني؛ أدخلته الجنة، ومن عصاني؛ أدخلته النار، قالت الأرض: أتخلق مني خلقاً يكون للنار فيه نصيب؟ قال: نعم. فبكت الأرض، فانفجرت منها العيون إلى يوم القيامة، فبعث الله إليها جبريل عليه السلام ليأتيه بقبضة منها، من أحمرها، وأسودها، وأبيضها، وطيِّبها، وخبيثها، فلما أتاها ليقبض منها؛ قالت: أعوذ بعزة الله الذي أرسلك إليَّ أن لا تأخذ مني شيئاً يكون للنار فيه نصيب، فرجع جبريل عليه السلام إلى ربِّه، وقال: يا رب استعاذت بك منِّي، فكرهت أن أقدم عليها. فقال الله لميكائيل عليه السلام: انطلق، فائتني بقبضة من الأرض، فلما أتاها ليقبض منها؛ قالت له مثل ما قالت لجبريل، فرجع إلى ربه، فقال له ما قالت له، فقال لعزرائيل عليه السلام: انطلق فائتني بقبضة من الأرض، فلما أتاها؛ قالت له الأرض: أعوذ بعزة الله الذي

أرسلك أن لا تأخذ مني شيئاً، يكون للنار فيه نصيب. فقال: وأنا أعوذ بعزَّته أن أعصي له أمراً، وقبض منها قبضة من جميع بقاعها: من عذبها، ومالحها، وحلوها، ومرِّها، وطيِّبها، وخبيثها، وصعد بها إلى السماء، فسأله ربُّه، عزَّ وجل، وهو أعلم بما صنع، فأخبره بما قالت، وبما ردَّ عليها، فقال الله ـ عز وجل ـ: وعزَّتي، وجلالي لأخلقنَّ ممَّا جئت به خلقاً، ولأسلطنَّك على قبض أرواحهم لقلَّة رحمتك، ثمَّ جعل الله تلك القبضة، نصفها في الجنَّة، ونصفها في النَّار، ثم تركها ما شاء الله، ثمَّ أخرجها، فعجنها بيده لكيلا يتكبَّر إبليس عنه، فعجنها طيناً لازباً، قال تعالى في سورة الصافات رقم [١١]: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ﴾، وقال تعالى في سورة المؤمنون رقم [١٢]: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ فكان جسداً من طين أربعين سنة، ثمَّ كان حمأً مسنوناً مدَّةً؛ أي: طيناً منتناً، قال تعالى في سورة الرحمن رقم [١٤]: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾. ثم كان جسداً ملقىً على باب الجنة مدَّةً، فكانت الملائكة يعجبون من صفة صورته، لأنَّهم لم يكونوا رأوا مثله.

وكان إبليس يمرُّ عليه، ويقول: لأمر ما خُلق هذا، ونظر إليه؛ فإذا هو أجوف. فقال: هذا خلق لا يتمالك، ودخل من فمه، وخرج من دبره، وقال للملائكة: إنْ فُضِّل هذا عليكم ماذا تصنعون؟ فقالوا: نطيع الله، ولا نعصيه، فقال إبليس في نفسه: لئن فُضِّل عليَّ؛ لأعصينَّه، ولئن فضِّلت عليه؛ لأهلكنَّه.

فلما أراد الله تعالى أن ينفخ فيه الروح؛ أمرها أن تدخل في جسده، فنظرت فرأت مدخلاً ضيقاً، فقالت: يا ربِّ! كيف أدخل هذا الجسد، قال الله عز وجل: ادخليه كرهاً، وستخرجين منه كرهاً، فدخلت في يافوخه، فوصلت إلى عينيه، فجعل ينظر إلى سائر جسده طيناً، فسارت إلى أن وصلت إلى منخريه، فعطس، فلما بلغت لسانه: قال: الحمد لله ربِّ العالمين، وهي أول كلمة قالها، فناداه الله تعالى: رحمك الله يا أبا محمد! ولهذا خلقتك، ولما بلغت جوفه؛ اشتهى الطَّعام، ولما بلغت الركبتين همَّ ليقوم، فلم يقدر، كما قال تعالى في سورة الأنبياء رقم [٣٧]: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ فلما بلغت الساقين، والقدمين، استوى قائماً بشراً سويّاً، لحماً، ودماً، وعظماً، وعروقاً، وعصباً، وأحشاءً، وكسي لباساً مِنْ ظفر، يزداد جسده جمالاً وحسناً كل يوم، وجعل في جسده تسعة أبواب: سبعة في رأسه، وهي الأذنان يسمع بهما، والعينان يبصر بهما، والمنخران يشم بهما، والفم فيه اللسان يتكلم به، والأسنان يطحن بها ما يأكله، ويجد لذة المطعومات بها، وبابين في أسفله، وهما القبل، والدبر، يخرج منهما ثفل طعامه، وشرابه، وجعل عقله في دماغه، وفكره، وصرامته في قلبه، وشرهه في كليته، وغضبه في كبده، ورغبته في رئته، وضحكه في طحاله، وفرحه، وحزنه في وجهه.

فسبحان من جعله يسمع بعظم، ويبصر بشحم، وينطق بلحم، ويعرف بدم، وركب فيه الشهوة، وحجزه بالحياء.

فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**خلَقَ اللهُ آدمَ عليه السلام على صورته، وطُولُهُ ستونَ ذِراعاً، ثمَّ قالَ: اِذْهَبْ، فسَلِّمْ على أولئكَ ـ نفَرٍ مِنَ المَلائكةِ ـ فاسْمَعْ مَا يُحَيُّونَكَ بِهِ، فإنَّها تَحيَّتُكَ، وتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ، فقالَ: السَّلامُ عَلَيْكُمْ! فقَالوا: السَّلامُ علَيْكَ، ورَحْمَةُ اللهِ! فزادُوهُ: ورَحْمَةُ اللهِ، قال: فكلُّ من يدخلُ الجنةَ على صورةِ آدم، وطوله ستون ذراعاً فلَمْ يَزَلِ الخَلْقُ يَنْقُصُ بعده حتى الآن**». متفق عليه، قال الإمام النووي ـ رحمه الله تعالى ـ: هذه الرواية ظاهرة في أنَّ الضمير في صورته عائد إلى آدم، وأنَّ المراد: أنَّه خلق في أول نشأته على صورته التي كان عليها في الأرض، وتوفي عليها. انتهى. وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَمَّا صَوَّرَ اللهُ آدمَ تركَهُ ما شاءَ اللهُ أنْ يتركَهُ، فجعلَ إبليسُ يَطُوفُ بهِ ينظرُ ما هو، فلما رآه أجوفَ عرفَ أنَّهُ لا يَتَمالكُ**». أخرجه مسلم. وعن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ اللهَ تبارَكَ وتعالى خلقَ آدمَ مِنْ قبضَةٍ قبَضها مِنْ جميع الأرضِ، فجاءَ بَنُو آدمَ على قدر الأرضِ، منهم الأحمرُ، والأبيضُ، والأسودُ، وبين ذلكَ، والسَّهْلُ، والحَزَنُ، والطَّيبُ، والخبيثُ**» أخرجه الترمذيُّ، وأبو داود.

الإعراب: ﴿وَعَلَّمَ﴾: الواو: حرف عطف، أو حرف استئناف. (علم): فعل ماض، والفاعل يعود إلى ﴿رَبُّكَ﴾ المذكور في الآية السابقة. ﴿ءَادَمَ﴾: مفعول به أول. ﴿ٱلْأَسْمَآءَ﴾ مفعول به ثان. ﴿كُلَّهَا﴾: توكيد للأسماء، و«ها» في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية معطوفة على جملة: ﴿قَالَ...﴾ إلخ، فهي في محل جر مثلها، وقيل: مستأنفة لا محل لها، والعطف أقوى. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿عَرَضَهُمْ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى ﴿رَبُّكَ﴾، والهاء مفعول به. ﴿عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾: متعلقان بما قبلهما، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، و﴿ثُمَّ﴾ للتراخي. ﴿فَقَالَ﴾: الفاء: حرف عطف وتعقيب. (قال): فعل ماض، والفاعل يعود إلى ﴿رَبُّكَ﴾ أيضاً. ﴿أَنۢبِـُٔونِى﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والنون للوقاية، وياء المتكلم مفعول به، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول. ﴿بِأَسْمَآءِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾: الهاء: حرف تنبيه لا محل له، و(أسماء): مضاف، و(أولاء): اسم إشارة مبني على الكسر في محل جر بالإضافة، وجملة: (قال...) إلخ معطوفة على ما قبلها، فهي في محل جر أيضاً. ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾: انظر إعراب هذه الجملة في الآية رقم [٢٣]، وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه، التقدير: إن كنتم صادقين فيما تقولون؛ فأنبئوني... إلخ.

﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾

الشرح: ﴿قَالُوا۟﴾: أي: قال الملائكة. ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾: تنزيهاً لك عن جميع المعايب، والنقائص، وانظر الآية رقم [٣٠]، و(سبحان): اسم مصدر، وقيل: مصدر، مثل: غفران، وليس بشيء؛ لأن الفعل: سبَّح بتشديد الباء، والمصدر: تسبيح، ولا يكاد يستعمل إلا مضافاً

منصوباً بإضمار فعله، مثل: معاذ الله، وقد أُجري علماً على التَّسبيح بمعنى التنزيه على الشُّذوذ في قول الأعشى: [السريع]

قَدْ قُلْتُ لَمَّا جَاءَنِي فَخْرُهُ: سُبْحَانَ مَنْ عَلْقَمَةَ الفَاخِرُ

وتصدير الكلام به اعتذار عن الاستفسار، والجهل بحقيقة الحال، لذلك جعل مفتاح التوبة بقوله تعالى حكاية عن قول يونس ـ على نبينا وعليه ألف صلاة وألف سلام ـ: ﴿سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّالِمِينَ﴾ وقد نزَّه الله ذاته في كثير من الآيات تنزيهاً يليق بجلاله، وعظمته. وجملة القول فيه: هو اسم موضوع موضع المصدر، وهو غير متمكِّن؛ لأنه لا يجري بوجوه الإعراب، من رفع، وجرٍّ، ولا تدخل عليه الألف واللام، ولم يجئ من لفظه فعل، وذلك مثل: قعد القرفصاء، ولم ينصرف؛ لأن في آخره زائدتين: الألف، والنون، ومعناه: التنزيه، والبراءة لله ـ عزَّ وجلَّ من كل نقص ـ فهو ذكر لله تعالى، لا يصلح لغيره، وانظر ما ذكرته في الآية رقم [٣٠].

والعامل فيه على مذهب سيبويه الفعل الذي مِنْ معناه لا من لفظه؛ إذ لم يجر له فعل من لفظه، وذلك مثل: قعد القرفصاء، فالتقدير عنده: أنزه الله تنزيهاً، فوقع سبحان الله مكان قولك: تنزيهاً لله، وانظر الإعراب.

﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ أي: إنك أجلُّ من أن نحيط بشيءٍ من علمك إلا ما علَّمتنا، فهو اعتراف بالعجز، والقصور، وإشعارٌ بأنَّ سؤالهم كان استفساراً، ولم يكن اعتراضاً، وأنَّه قد بان لهم ما قد خفي عليهم من فضل الإنسان، والحكمة في خلقه، وإظهارٌ لشكر نعمته بما عرفهم، وكشفٌ لهم ما اعتقل عليهم، ومراعاةٌ للأدب بتفويض العلم كلِّه إليه. انتهى. بيضاوي.

﴿ٱلْعَلِيمُ﴾: الذي لا يخفى عليه خافية في الأرض، ولا في السماء، فهو: «فعيل» للمبالغة والتكثير في المعلومات في خلق الله تعالى. ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ معناه: الحاكم، وبينهما مزيد المبالغة، وقال قوم: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: المانع من الفساد، ومنه سُمِّيت حَكَمَة اللجام؛ لأنها تمنع الفرس من الجري، والذهاب في غير قصدٍ، قال جرير: [الكامل]

أَبَنِي حَنِيفَةَ أحكِموا سُفَهَاءَكُمْ إِنِّي أخافُ عَلَيْكُمُ أَنْ أَغْضَبَا

أي: امنعوهم من الفساد، هذا؛ و﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ هو الذي لا يفعل إلا ما فيه حكمة، وقدم ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ على ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ لأنه هو المفضل به في قوله: ﴿وَعَلَّمَ﴾ وقوله: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ فناسب اتصاله به، ولأن الحكمة ناشئة عن العلم، وأثر له، ولا تنس: أنهما من صيغ المبالغة.

فائدة: قال القرطبيُّ ـ رحمه الله تعالى ـ: الواجب على من سئل عن علم أن يقول إن لم يعلم: «الله أعلم، ولا أدري» اقتداءً بالملائكة، والأنبياء، والفضلاء من العلماء، ولكن قد أخبر الصَّادق المصدوق: أنَّ بموت العلماء يقبض العلم، فيبقى ناسٌ جُهَّال يستفتون، فيفتون في رأيهم، فيَضلُّون، ويُضِلُّون.

فعن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء؛ حتَّى إذا لم يُبقِ عالماً؛ اتَّخذ الناس رؤوساً جهَّالاً، فَسُئِلوا، فأفتوا بغير علمٍ، فضَلُّوا، وأضلُّوا**». أخرجه البخاري. فهذا الذي عناه القرطبي، ولم يذكره، ثم ذكر ما يلي، فقال: روى النَّسائيُّ في المسند الصَّحيح له عن ابن عمر: أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ: أيُّ البقاع خَيْرٌ؟ قال: «**لا أدري حتَّى أسأل جبريل، فسأل جبريل، فقال: لا أدري حتَّى أسأل ميكائيل. فجاء، فقال: خير البقاع المساجد، وشرُّها الأسواق**». وقال الحافظ المنذريُّ: رواه الطبرانيُّ في الكبير، وابن حبَّان في صحيحه.

هذا وقد كان الكثير من العلماء يعتذرون عن الإجابة، ويقول أحدهم: لا أدري، فقد روي عن ابن عبَّاس ـ رضي الله عنهما ـ: أنه قال: أتريدون أن تجعلوا رقابنا جسوراً تعبرون عليها إلى جهنَّم؟! وقال الإمام مالك ـ رحمه الله تعالى ـ: سمعت أبا هريرة يقول: ينبغي للعالم أن يورث جلساءه من بعده: لا أدري؛ حتى يكون أصلاً في أيديهم، فإذا سئل أحدهم عمَّا لا يدري؛ قال: لا أدري. وذكر ابن الهيثم بن جميل قال: شهدت مالك بن أنس سئل عن ثمانٍ وأربعين مسألة، فقال في اثنتين وثلاثين منها: لا أدري. انتهى قرطبي.

أقول: في هذه الأيام كثرت الفتاوى بعلم، أو بغير علم، والرَّسول ﷺ يقول: «**أجرؤكم على الفتوى أجرؤكم على النَّار**»، فترى بعض الجهال ينصب نفسه مفتياً، وقاضياً؛ ليضلَّ الناس، ويقطع من مال هذا، ويعطي ذاك، والطَّامَّة الكبرى عندما ينصب نفسه مفتياً للطَّلاق، ويسلب أموال الناس بفتاواه الضَّالة المضلَّة، والرسول ﷺ يقول: «**القضاة ثلاثة: قاضيان في النار، وقاض في الجنَّة، رَجُلٌ قضى بغير الحقِّ فعلم ذاكَ، فذاك في النَّار، وقاضٍ لا يعلم، فأهلك حقوق الناس، فهو في النَّار، وقاضٍ قضى بالحقِّ، فذلك في الجنة**». رواه أبو داود، والترمذيُّ وابن ماجه عن أبي بريدة، عن أبيه ـ رضي الله عنه ـ وهذا لفظ التِّرمذيِّ.

الإعراب: ﴿قَالُوا۟﴾: ماض، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿سُبْحَـٰنَكَ﴾: مفعول مطلق، فعله محذوف، كما رأيت، والكاف في محل جر بالإضافة، من إضافة المصدر، أو اسم المصدر لفاعله، فيكون المفعول محذوفاً، أو لمفعوله، فيكون الفاعل محذوفاً، والجملة الحاصلة منه ومن فعله المحذوف في محل نصب مقول القول، وهذا عند الخليل، وسيبويه، وقال الكسائي: هو منصوب على أنه نداء مضاف، وهو ضعيفٌ لا يعتدُّ به. ﴿لَا﴾: نافية للجنس تعمل عمل «إنَّ»، ﴿عِلْمَ﴾: اسمها مبني على الفتح في محل نصب. ﴿لَنَآ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر ﴿لَا﴾، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قَالُوا۟...﴾ إلخ: مستأنفة لا محل لها. ﴿إِلَّا﴾: حرف حصر لا محل له. ﴿مَا﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل رفع بدل من اسم ﴿لَا﴾ على المحل؛ إذ محله الرفع على الابتداء، أو هو في محل رفع بدل من ﴿لَا﴾ وما عملت فيه؛

لأنها وما بعدها في محل رفع بالابتداء، كما يجوز أن يكون بدلاً من الضمير المستكنّ في الخبر المحذوف، وهو الأقوى. ﴿عَلَّمْتَنَآ﴾: فعل وفاعل ومفعول به أول، والجملة الفعلية صلة الموصول لا محل لها، والعائد محذوف، وهو المفعول الثاني؛ إذ التقدير: الذي علمتنا إيَّاه. هذا ويجوز اعتبار: ﴿مَا﴾ مصدرية، فتؤوَّل مع الفعل بعدها بمصدر، ويجوز بالمصدر الأوجه الثلاثة المذكورة آنفاً. ﴿إِنَّكَ﴾: حرف مشبه بالفعل، والكاف اسمها. ﴿أَنتَ﴾: ضمير منفصل مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ. ﴿ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾: خبران للمبتدأ، والجملة الاسمية في محل رفع خبر (إنَّ). هذا ويجوز اعتبار الضمير توكيداً لاسم (إنَّ) على المحل كما يجوز اعتباره ضمير فصل لا محل له، وعليهما ف: ﴿ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ خبران لـ (إنَّ) وقيل: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ صفة ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ ولا وجه له ألبتَّة.

والجملة الاسمية: ﴿إِنَّكَ...﴾ إلخ: في محل نصب مقول القول، والاستئناف ممكنٌ بالإعراض عمَّا قبلها.

﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

الشرح: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾: وذلك لمَّا ظهر عجز الملائكة. فسمَّى كلَّ شيءٍ باسمه، وذكر وجه الحكمة التي خلق لأجلها، وذلك ليعلموا: أنَّه أعلم بما سألهم عنه تنبيهاً على فضله، وعلوِّ شأنه، فكان أفضل منهم بأن قدَّمه عليهم، وأسجدهم له، وجعلهم تلامذته، وأمرهم بأن يتعلموا منه، فحصلت له رتبة الجلال والعظمة، وفي هذا دليل على فضل العلم وأهله.

هذا؛ ولقد اختلف العلماء في هذا الباب: أيّهما أفضل: الملائكة، أم بنو آدم؟ على قولين: فذهب قوم إلى أنَّ الرسل من البشر أفضل من الرُّسل من الملائكة، والأولياء من البشر أفضل من الأولياء من الملائكة، والعوام من البشر أفضل من عوام الملائكة. وذهب آخرون إلى أنَّ الملأ الأعلى أفضل.

احتج مَنْ فضل الملائكة بقوله تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ الآيتان رقم [٢٦ ـ ٢٧] من سورة (الأنبياء)، وقوله تعالى في سورة (التحريم) الآية رقم [٦]: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾، وفي الحديث القدسيِّ: يقول الله عز وجل: «**وإن ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ خير منهم**». رواه البخاريُّ، ومسلمٌ، وغيرهما عن أبي هريرة، عن الرسول ﷺ، واحتجَّ من فضل بني آدم بقوله تعالى في سورة البينة الآية رقم [٧]: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾، وقوله ﷺ: «**من سلك طريقاً يلتمس به علماً؛ سهَّل الله له طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع. . . إلخ**» الحديث. رواه أبو داود، والترمذيُّ، وغيرهما، عن أبي الدرداء ـ رضي الله

عنه ـ، وبما جاء في أحاديث من أنَّ الله تعالى يباهي بأهل عرفات الملائكة، ولا يباهي إلا بالأفضل، والله أعلم. انتهى قرطبي بتصرف.

﴿فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: فيه دليل على أنَّ أحداً لا يعلم الغيب؛ إلا ما أعلمه الله تعالى، كالأنبياء، والأولياء، والصدِّيقين، فالمنجِّمون والكهَّان، وغيرهم كذبة، قال تعالى في سورة (الأنعام) رقم [٥٩]: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ...﴾ إلخ، وقال تعالى في آخر سورة (لقمان): ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ...﴾ إلخ. انظر شرحهما هناك؛ تجد ما يسرك، ويثلج صدرك. هذا ودخول الاستفهام على النفي في ﴿أَلَمْ﴾ يفيد التوبيخ، والتأنيب، والتقرير.

﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ أي: ما تظهرون من قولكم؛ أي: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا...﴾ إلخ. ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾: تخفون، وتسرُّون من قولكم: لا يخلق ربنا خلقاً أكرم عليه منَّا.

وقال ابن عباسٍ، وابن مسعودٍ، وسعيد بن جبير ـ رضي الله عنه ـ: المراد ما كتمه إبليس في نفسه من الكِبْر، والمعصية، قال ابن عطية: وجاء ﴿تَكْتُمُونَ﴾ للجماعة، والكاتم واحد في هذا القول دليلٌ على تجوُّز العرب، واتساعها، كما يقول لقوم قد جنى سفيه منهم: أنتم فعلتم كذا؛ أي: منكم فاعله، وهذا مع قصد تعنيف. هذا و«كتم» من باب نصر، وربما عُدِّي «كتم» على مفعولين، فيقال: كتمت زيداً الحديثَ، وقال تعالى في سورة (النساء) رقم [٤٢]: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾، والأكثر أن يتعدَّى إلى الثاني بحرف الجر، قال تعالى في الآية رقم [١٥٩] الآتية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ...﴾ إلخ، وتُزاد «من» جوازاً في المفعول الأول، فيقال: كتمت من زيد الحديث، وكتم الشيء: بالغ في كتمانه، أي في إخفائه، قال الرسول ﷺ: **«استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان»**. قال صاحب القاموس: والكتم محركة والكتمان بالضم: نبت يخلط بالحنَّاء، ويخضَّب به الشعر، ويصنع منه مداد الكتابة. انتهى. ورحم البوصيري إذ يقول: [البسيط]

فَإِنَّ أَمَّارَتِي بِالسُّوءِ مَا اتَّعَظَتْ مِنْ جَهْلِهَا بِنَذِيرِ الشَّيْبِ وَالْهَرَمِ
ولَا أَعَدَّتْ مِنَ الْفِعْلِ الْجَمِيلِ قِرَى ضَيْفٍ أَلَمَّ بِرَأْسِي غَيْرَ مُحْتَشِمِ
لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنِّي مَا أُوَقِّرُهُ كَتَمْتُ سِرّاً بَدَا لِي مِنْهُ بِالْكَتَمِ

الإعراب: ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله يعود إلى ﴿رَبُّكَ﴾، والجملة الفعلية مع مقولها مستأنفة لا محل لها، وهي بمنزلة جواب لسؤال مقدر كالتي قبلها. (يا): أداة نداء تنوب مناب: أدعو، أو أنادي. (آدم): مفرد علم مبني على الضم في محل نصب بـ (يا)، والجملة الندائية في محل نصب مقول القول. ﴿أَنۢبِئْهُم﴾: فعل أمر، وفاعله تقديره: أنت، والهاء مفعول به. ﴿بِأَسْمَآئِهِمْ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، وهما في محل نصب مفعوله الثاني، والهاء في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية

في محل نصب مقول القول أيضاً. ﴿فَلَمَّآ﴾: الفاء: حرف استئناف. (لمَّا): انظر الآية رقم [١٧]. ﴿أَنۢبَأَهُم﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى (آدم)، والهاء مفعول به. ﴿بِأَسْمَآئِهِمْ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، وهما في محل نصب مفعوله الثاني، والهاء في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها ابتدائية على اعتبار (لمَّا) حرفاً، وهي في محل جر بإضافة (لمَّا) إليها على اعتبارها ظرفاً، وعلى اعتبارها متعلقة بجوابها. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى (ربُّك). ﴿أَلَمْ﴾: الهمزة: حرف استفهام وتقرير. (لم): حرف نفي، وقلب، وجزم. ﴿أَقُل﴾: فعل مضارع مجزوم بـ (لم) والفاعل تقديره: أنا. ﴿لَّكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول. ﴿إِنِّيٓ﴾: حرف مشبه بالفعل، وياء المتكلم اسمها.

﴿أَعْلَمُ﴾: فعل مضارع، والفاعل تقديره: أنا. ﴿غَيْبَ﴾ مفعولاً به وهو مضاف، و﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: مضاف إليه. ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف عليه، والجملة الفعلية في محل رفع خبر (إنَّ)، هذا ويجوز اعتبار ﴿أَعْلَمُ﴾ اسماً بمعنى عالم، فيكون خبراً مفرداً لـ (إنَّ)، ويبقى ﴿غَيْبَ﴾ مفعولاً به له، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول أيضاً. ﴿وَأَعْلَمُ﴾ معطوف على ما قبله على الوجهين المعتبرين فيه، وعليه فالإضافة من إضافة «عالم» لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿تُبْدُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله، ومفعوله محذوف، وهو العائد، أو الرابط على اعتبار. ﴿مَا﴾ نكرة موصوفة؛ إذ التقدير: أعلم الذي تبدونه. ﴿وَمَا﴾ معطوفة على ما قبلها على الاعتبارين فيها. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ماض ناقص مبني على السكون، والتاء اسمه، وجملة: ﴿تَكْتُمُونَ﴾ في محل نصب خبره، والجملة: ﴿كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ صلة (ما) أو صفتها، والعائد والرابط محذوف؛ إذ التقدير: وما كنتم تكتمونه. هذا؛ واعتبار: (أعلم) بالجملتين بمعنى: عالم، فيكون ليس على بابه من التفضيل، ومثل ذلك قول الفرزدق، وهو الشاهد رقم [١١٢] من كتابنا فتح ربِّ البريَّة: [الكامل]

إنَّ الَّذِي سَمَكَ السَّمَاءَ بَنَى لَنَا ... بَيْتاً دَعَائِمُهُ أَعَزُّ وَأَطْوَلُ

أي: عزيزةٌ وطويلةٌ، وأيضاً قول الشَّنْفَرَى، وهو الشاهد رقم [٩٦٥] من كتابنا فتح القريب المجيب: [الطويل]

وَإنْ مُدَّتِ الأَيْدِي إِلَى الزَّادِ لَمْ أَكُنْ ... بِأَعْجَلِهِمْ إِذْ أَجْشَعُ الْقَومِ أَعْجَلُ

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾

الشرح: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾: السجود في الأصل تذلُّلٌ مع تطامن، وفي الشرع: وضع الجبهة [على الأرض] على قصد العبادة، والمأمور به إمَّا المعنى الشَّرعي؛

فالمسجود له في الحقيقة هو الله تعالى، وجعل آدم قبلة سجودهم تعظيماً لشأنه، أو سبباً لوجوبه، كما جعلت الكعبة قبلةً للصَّلاة، والصَّلاة لِلَّه، فمعنى «اسجدوا له» أي: إليه. وإمَّا المعنى اللّغوي، وهو التواضع لآدم تحيةً، وتعظيماً له، كسجود إخوة يوسف له في قوله تعالى: ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًاۖ﴾ فلم يكن فيه وضع الجبهة بالأرض، إنَّما كان الانحناء، فلمَّا جاء الإسلام؛ أبطل ذلك بالسَّلام. انتهى جمل نقلاً من تفسير الخطيب.

قال القرطبي رحمه الله تعالى: وهذا السجود المنهيُّ عنه قد اتخذه جهال المتصوِّفة عادةً في سماعهم، وعند دخولهم على مشايخهم، واستغفارهم، فَيُرى الواحد منهم إذا أخذه الحال ـ بزعمه ـ يسجد للأقدام لجهله سواء أكان للقبلة أم غيرها جهالة منه. ضلَّ سعيهم، وخاب عملهم! انتهى بحروفه.

﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾ مأخوذ من: أبلس، يبلس، إبلاساً بمعنى سكت غمَّاً، وأيس من رحمة الله، وخاب، وخسر، وهو من الملائكة، كذا قال عليٌّ، وابن مسعود، وابن عباس، ـ رضي الله عنهم ـ وهو اختيار أبي الحسن، وقال ابن عباس: وكان اسمه عزازيل، وكان من أشرف الملائكة، وكان من أولي الأجنحة الأربعة، ثم أبلس بعدُ، فلمَّا عصى الله؛ غضب الله عليه، فلعنه: فصار شيطاناً، ولأن الأصل في الاستثناء أن يكون من جنس المستثنى منه، ولهذا قال تعالى له: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ﴾ الآية رقم [١٢] من سورة (الأعراف)، وقوله تعالى في سورة (الكهف) رقم [٥٠] : ﴿كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ﴾ معناه: صار من الجانّ، كقوله تعالى في سورة (هود) رقم [٤٣]: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ﴾.

وقيل: الاستثناء منقطع؛ لأنه لم يكن من الملائكة، بل كان من الجنِّ بالنَّصِّ، قال سعيد بن جبير رحمه الله تعالى: إنَّ الجنَّ سبطٌ من الملائكة، خلقوا من نارٍ، وإبليس منهم، وخلق سائر الملائكة من نور. وقال ابن زيد، والحسن، وقتادة أيضاً: إبليس أبو الجن، كما أنَّ آدم أبو البشر، ولم يكن ملكاً، واستدلوا بقوله تعالى في سورة (الكهف): ﴿فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ﴾ رقم [٥١] أي: عصى الله، واستكبر عن أمره تعالى، والملائكة ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ سورة (التحريم) الآية [٦]، واستدلوا بأنَّه كان له ذريةٌ بنصِّ القرآن: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي﴾.

ولا نسلَ للملائكة قطعاً، وعن الجاحظ: إن الجنَّ والملائكة جنسٌ واحدٌ، فمن طهر منهم؛ فهو مَلَكٌ، ومن خبث منهم؛ فهو شيطانٌ، ومن كان بين بين فهو جنٌّ. وهو غير مسلَّم له.

﴿أَبَىٰ﴾: ماض من الإباء، وهو الامتناع، وأشدُّه. وإباء الله: قضاؤه ألا يكون الأمر، أو عدم قضائه أن يكون، قال تعالى في صيغة المضارع: ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ الآية رقم [٣٢] من سورة (التوبة)، ويكون متعدياً إذا كان بمعنى: كره، ولازماً إذا كان بمعنى: امتنع، وهذا الفعل يتضمن النفي، والإيجاب؛ لأنه بمعنى: لا يقبل إلا . . . إلخ،

هذا: وأبى، يأبى من الباب الثَّالث شاذٌّ؛ لأنه لم يكن عينه أو لامه حرفاً من حروف الحلق، ولم يجئ منه إلَّا قَلَى، يقْلَى، وَغَسَى، يَغْسَى، وَجَبَى، يجبَى، وعَسَى، يَعْسَى. والَّذي حمل إبليس على عدم السجود لآدم هو الكبر، والحسد، فدليل كبره قوله تعالى حكاية عن قوله في سورة (الأعراف) رقم [١٢]: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾، وحسده لـمَّا رأى الملائكة سجدت لآدم تعظيماً، وإكراماً؛ حسده على هذه المنزلة الرفيعة، والمكانة العالية؛ لذا كان مبدأ العصيان هو الكِبْرُ، والحسد، فليحذر المسلم من هاتين الخِصْلتين الذَّميمتين اللَّتين سببتا لإبليس الطرد من رحمة الله! وخذ ما يلي:

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**إِذَا قَرَأَ ابنُ آدمَ السجدةَ، فَسَجَدَ؛ اعْتَزَلَ الشَّيْطَانُ يَبْكِي، وَيَقولُ: يَا وَيْلَتِي أُمِرَ ابنُ آدَمَ بِالسُّجُودِ، فَسَجَدَ، فَلَهُ الجَنَّةُ، وَأُمِرْتُ بِالسُّجُودِ، فَأَبَيْتُ، فَلِيَ النَّارُ**». أخرجه مسلم.

هذا وقد قال عبد الوهاب النَّجار ـ رحمه الله تعالى ـ في كتابه (قصص الأنبياء): هل آدم هذا هو أبو البشر ولم يكن أحد مِنْ قبله مِنْ جنسه؟ والجواب: أن العقل لا يجعل من المحال أن يكون الله خلق آدم غير آدم هذا، ولكن الله تعالى لم يذكر سوى آدم الَّذي نعرفه أبا البشر، فالقول بوجود غيره مجازفةٌ بلا برهان، وقد وجد من البشر في الأزمان الغابرة والحاضرة مَنْ يدَّعون: أن عمران بلادهم أقدم من خلق آدم، كأهل الهند، وقد كانوا في الزمان السابق يدّعون أنَّ آدم كان عبداً من عبيدهم هرب إلى الغرب، وجاء بأولاده، وإلى هذا يشير المعرِّي بقوله: [الوافر]

تَقُولُ الهِنْدُ آدمُ كَانَ قِنّاً ... لَنَا فَسَعَى إِلَيْهِ مُخَبِّبُوهُ

وإلى القول بوجود أوادم سوى آدم يشير بقوله: [الخفيف]

جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ آدمُ هَذَا ... قَبْلَهُ آدمٌ عَلَى إِثْرِ آدمْ

وقوله: [الطويل]

ومَا آدَمٌ فِي مَذْهَبِ العَقْلِ واحداً ... وَلَكِنَّهُ عِنْدَ القِيَاسِ أَوَادِمُ

وهناك فريقٌ من الناس يرجِّح: أنه ليس أوَّل نوعه، ويستأنسون لذلك بقول الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾، ويقول: إنَّ الملائكة لم يقولوا ذلك إلا لرؤيتهم مَنْ تقدَّموا قبل آدم من الخلق الذين على صورته قد فعلوا ذلك، وأنَّ آدم عليه السلام إنما كان خليفة عن بشرٍ كانوا من جنسه، وبادوا. وكل هذه الأقوال لا تستند إلى نصٍّ قطعي الثبوت والدلالة. انتهى بحروفه.

بعد هذا لقد علمت نقلاً، وعقلاً، وواقعيّاً: أن الله خلق كلَّ مخلوق من أبوين بطريق التزاوج، إلا آدم ـ على نبينا وحبيبنا وعليه ألف صلاةٍ وسلام ـ فقد خلقه الله بيده من طين، ثم

نفخ فيه من روحه، فآدم لم يخلق من أبوين، إنَّما نموذجاً فرداً، كما صرَّحت الآيات القرآنية بذلك، وقد صرحت أيضاً أنَّه أبو البشر. قال تعالى في أول سورة (النِّساء): ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ...﴾ إلخ، وقال تعالى في سورة (الأعراف) رقم [١٨٩]: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا...﴾ إلخ، وقال في ثلاث آيات من سورة (الأعراف) أيضاً: ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾، وفي حديث الشَّفاعة المرويِّ في الصَّحيحين: «**أن الناس يأتون لآدم فيقولون له: يا آدم أنت أبو البشر...**».

هذا وما قاله داروين من أنَّ أصل البشر بدأ بجرثومة صغيرة ظهرت على سطح الماء، ثم تحولت إلى حيوان صغيرٍ، ثم تدرَّج هذا الحيوان فأصبح ضفدعاً، فسمكةً، فقرداً، ثمَّ ترقى هذا القرد، وتمدَّن، فصار إنساناً، فالإنسان بنظره قردٌ متمدِّن. وهذه النَّظرية تناقض المنقول، والمعقول، والواقع، فليكن داروين وأتباعه المقتنعون بنظريته المتحمِّسون لها القردةَ، وأولاد القردة، أما نحن المؤمنون بالقرآن، والمصدِّقون بما جاءت به الرُّسل الكرام؛ فلا نرضى إلا أن نكون من نسل آدم عليه السلام، قال تعالى في سورة (الإسراء) رقم [٧٠]: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ...﴾ إلخ، وقال تعالى في سورة (التِّين) رقم [٤]: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾، وإذا كانت نظرية داروين صحيحةً؛ فلماذا لم يتطوَّر سائر القردة، ويتمدَّنوا، ونحن نعيش في عصر التطوُّر، والتمدُّن؟!.

هذا وإذا عرفنا أن داروين يهوديُّ الأصل، وأنه دهريٌّ ملحدٌ، يعتقد بألا خالق لهذا الوجود، ولا صانع لهذا العالم، فهو كافر بكلِّ القيم الرُّوحية؛ الَّتي جاءت بها الشرائع السَّماوية؛ إذا عرفنا هذا؛ نضرب به، وبنظريته، وبأتباعه عرض الحائط، هذا؛ وقال المرحوم عبد الوهاب النَّجار بعد أن ناقش النظرية في كتابه (قصص الأنبياء): أقول: كلَّما فكرت في ذلك جزمت بأنَّ ذلك محال، وقطعت بأن القرد لا بدَّ أن يبقى قرداً مدى الدَّهر، وأنَّ القردة لا تلد إلا قردة. انتهى.

الإعراب: ﴿وَإِذْ﴾: الواو: حرف عطف، (إذ): معطوفة على مثلها في الآية رقم [٣٠]. ﴿قُلْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿لِلْمَلَائِكَةِ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿اسْجُدُوا﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول.

﴿لِآدَمَ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، وعلامة الجر الفتحة نيابةً عن الكسرة؛ لأنه ممنوع من الصَّرف للعلمية، والعجمة، وجملة: ﴿قُلْنَا...﴾ إلخ: في محل جر بإضافة (إذ) إليها. ﴿فَسَجَدُوا﴾: الفاء: حرف عطف. (سجدوا): فعل ماض مبني على الضم، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿قُلْنَا﴾ فهي في محل جرٍّ مثلها.

﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿إِبْلِيسَ﴾: مستثنى متَّصل، أو منقطع، انظر شرح المفردات. ﴿أَبَىٰ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدَّر على الألف للتعذُّر، والفاعل يعود إلى ﴿إِبْلِيسَ﴾،

والجملة الفعلية في محل نصب حال من ﴿إِبْلِيسَ﴾ والرابط الضمير فقط، وهي على تقدير «قد» قبلها، وجملة: (استكبر) معطوفة عليها، وهي في محل نصب مثلها. (كان): فعل ماض ناقص، واسمه يعود إلى ﴿إِبْلِيسَ﴾ أيضاً. ﴿مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: متعلقان بمحذوف خبر كان، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، فهي في محل نصب حال أيضاً.

﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾

الشرح: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ أي: اتخذها مأوى، ومنزلاً، وليس معناه الاستقرار، والثبوت؛ لأنه لم يقل: أسكنتك الجنَّة؛ لأنه خُلِق لعمارة الأرض، ولمَّا أسكن الله آدم في الجنَّة؛ بقي وحده، وليس معه مَنْ يستأنس به، ويجالسه، فألقى الله عليه النوم، ثم أخذ ضلعاً من أضلاع جنبه الأيسر، وهو الأقصر، فخلق منه زوجته حوَّاء، ووضع مكان الضِّلَع لحماً من غير أن يحسَّ بذلك، ولم يجد ألماً، ولو وجد؛ لما عطف رجل على امرأة قطُّ. وسمِّيت: حواء؛ لأنها خلقت من حيٍّ، فلمَّا استيقظ من نومه، ورآها جالسةً كأحسن ما خلق الله تعالى، فقال لها: من أنتِ؟ قالت: أنا زوجتُك حوَّاء، قال: ولماذا خُلِقْتِ؟ قالت: لتسكن إليَّ، وأسكنَ إليك.

وفي القرطبيِّ: أنَّ الملائكة قالوا له: أتحبُّها يا آدم؟! قال: نعم! فقالوا لحواء: أتحبينه؟ قالت: لا! وفي قلبها أضعاف ما في قلبه من حبِّه لها. قالوا: فلو صدقت المرأة في حبِّها لزوجها؛ لصدقت حوَّاء، وقال العلماء: ولهذا كانت المرأة عوجاء مهما تعلَّمت، وتثقَّفت؛ لأنها خُلِقت من أعوج وهو الضِّلَع، وخذ ما يلي:

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «**اسْتوصُوا بالنِّسَاءِ، فَإِنَّ الْمَرأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ، وَإِنَّ أعْوَج شيءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلَاهُ، فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ؛ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَركتَهُ؛ لَمْ يَزلْ أَعْوَج، فَاسْتَوصُوا بِالنِّسَاءِ**». رواه البخاريُّ، ومسلمٌ، وغيرهما، وفي رواية لمسلم وحده: «**إنَّ المرأة خلقَتْ مِنْ ضِلَع، لن تستقيم لك على طريقة، فإن استمتعت بها استمعت بِهَا؛ وفيها عوج، وإن ذهبت تُقيمها؛ كسرتها، وكسرها طلاقها**». ورحم الله مَنْ قال: [الطويل]

هِيَ الضِّلَعُ الْعَوْجَاءُ لَسْت تُقِيْمُهَا ... أَلا إِنَّ تَقْوِيْمَ الضُّلوعِ انْكِسَارُهَا

أَتجْمَعُ ضَعْفاً وَاقتداراً عَلَى الْفَتَى ... أَلَيْس عَجِيباً ضَعْفُهَا واقْتِدَارُهَا

هذا وهناك مَنْ يتبجَّح، ويقول: إنَّ الله خلق حواء بدون واسطة، وهذا يعني: أنَّ الله خلقها من ترابٍ، كما خلق آدم، ولذا فهم يقدِّرون مضافاً محذوفاً، فيقولون: الأصل: منها أي: مِنَ البشر، وذلك في قوله تعالى في كثيرٍ من الآيات: (خلق منها زوجها).

﴿وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا﴾: الرَّغد: العيش الدَّارُّ الهنيُّ؛ الَّذي لا عناء فيه.

قال الشاعر: [الرمل]

بَـيْـنَـمَـا الْـمَـرءُ تَـرَاهُ نَـاعِـمـاً ... يَـأْمَـنُ الأَحْـدَاثَ فِـي عَـيْـشٍ رَغِـدْ

وَرَغُد العيش: من باب: ظَرُف، فهو راغد، وهو في رَغَدٍ من العيش، أي: في رزقٍ واسع، وأرغَد القوم: أخصبوا. و(حَيْثُ) ظرف مكان اتفاقاً، وقد ترد للزَّمان، قال الأخفش: وبه قيل في قول طرفة بن العبد: [المديد]

لِـلْـفَـتَـى عَـقْـلٌ يَـعِـيْـشُ بِـهِ ... حَـيْـثُ تَـهْـدِي سَـاقَـهُ قَـدَمُـهْ

أي: في زمن هدايته، وتحتمل المكان أيضاً، وفيها ستُّ لغاتٍ، بالياء مع الضم والفتح والكسر، وبالواو مع الضم، والفتح، والكسر، وهي: حيثُ، وحيثَ، وحيثِ، وحُوثُ، وحُوثَ، وحوثِ، وانظر مبحثها وشواهدها في كتابنا فتح القريب المجيب.

﴿وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾: لقد اختُلف في تعيين هذه الشجرة اختلافاً كبيراً، قال العلامة أبو جعفر بن جرير ـ رحمه الله تعالى ـ: والصَّواب في ذلك أن يقال: إنَّ الله تعالى نهى آدم وزوجته عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنَّة، دون سائر أشجارها، فأكلوا منها، ولا علم عندنا بأيِّ شجرة كانت تدل على التَّعيين؛ لأنَّ الله تعالى لم يضع دليلاً على ذلك في القرآن، ولا ورد في السنة الصَّحيحة بيان له، وقد قيل: كانت شجرة البُرِّ. وقيل: كانت شجرة العنب، وقيل: كانت شجرة التِّين، وجائز أن تكون واحدةً منها، وذلك علم ـ إذا علم ـ لم ينفع العالم به علمه، وإن جهله جاهل؛ لم يضره جهله، والله أعلم. مختصر ابن كثير. هذا ولقد نهى الله عن قرب هذه الشجرة؛ لأنه أبلغ في النهي عن الأكل، كما في قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ﴾ الآية رقم [١٨٦] الآتية، انظر شرحها هناك؛ فإنه جيد، والحمد لله!.

هذا ويقال: إنَّ أول مَنْ أكل من الشجرة حوَّاء بإغواء إبليس إيَّاها، وإن أول كلامه كان معها؛ لأنَّها وسواس المخدَّة، وهي أول فتنة دخلت على الرجال من النساء، فقال: ما مُنِعْتما من هذه الشجرة إلا أنها شجرة الخلد، لأنَّه علم منهما: أنهما كانا يحبان الخلد، فأتاهما من حيث أحبَّا، فلما قالت حواء لآدم؛ أنكر عليها، وذكر العهد، فألحَّ على حواء، وألحَّت حواء على آدم إلى أن قالت: أنا آكل قبلك حتى إذا أصابني شيءٌ؛ سلمت أنت، فأكلت، فلم يضرَّها، فأتت آدم، فقالت: كُلْ فإني أكلت فلم يضرَّني، فأكل، فبدت لهما سوآتهما، وحصلا في حكم الذنب لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ فجمعهما في النَّهي، فلذلك لم تنزل بها العقوبة حتَّى وجد المنهي عنه منهما جميعاً، هذا وقد قال الرسول ﷺ: «**لَوْ وُزِنَتْ أَحْلامُ بَنِي آدَمَ بحِلْمِ آدَمَ؛ لَرَجَحَ حِلْمُهُ**». وقد قال الله تعالى: ﴿فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا﴾ سورة (طه) رقم [١١٥].

الإعراب: (قلنا): فعل، وفاعل. (يا): أداة نداء. (آدم): منادى مفرد علم مبني على الضم في محل نصب بأداة النداء. ﴿ٱسْكُنْ﴾: فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: أنت. ﴿أَنتَ﴾: ضمير منفصل في محل رفع توكيد للضمير المستتر بـ ﴿ٱسْكُنْ﴾، ﴿وَزَوْجُكَ﴾: معطوف على الضمير المستتر، والكاف في محل جر بالإضافة. ﴿ٱلْجَنَّةَ﴾: مفعول به، وانظر إعراب ﴿هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ في الآية رقم [٥٨] الآتية. (كُلَا): فعل أمر مبني على حذف النون، والألف فاعله. ﴿مِنْهَا﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، وهما في محل نصب مفعول به، وهناك محذوف؛ إذ التقدير: كلا من ثمرها، فحذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه. ﴿رَغَدًا﴾: صفة مفعول مطلق؛ إذ التقدير: كلوا أكلاً رغداً، ويمكن اعتباره نائب مفعول مطلق، وقال أبو البقاء: ويجوز أن يكون مصدراً في موضع الحال، تقديره: كلا مستطيبين، متهنئين. ﴿حَيْثُ﴾: ظرف مكان مبني على الضم في محل نصب متعلق بالفعل (كُلَا)، وقال أبو البقاء: ويجوز أن يكون بدلاً من ﴿ٱلْجَنَّةَ﴾ فيكون ﴿حَيْثُ﴾ مفعولاً به؛ لأن ﴿ٱلْجَنَّةَ﴾ مفعول به وليس بظرف. ﴿شِئْتُمَا﴾: فعل، وفاعل، والميم والألف حرفان دالان على التثنية، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة ﴿حَيْثُ﴾ إليها. ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): ناهية جازمة. ﴿تَقْرَبَا﴾: فعل مضارع مجزوم بـ (لا) الناهية، وعلامة جزمه حذف النون لأنه من الأفعال الخمسة، وألف الاثنين فاعله. ﴿هَٰذِهِ﴾: اسم إشارة مبني على الكسر في محل نصب مفعول به، والهاء حرف تنبيه لا محل له. ﴿ٱلشَّجَرَةَ﴾: بدل من اسم الإشارة، أو عطف بيان عليه. ﴿فَتَكُونَا﴾: الفاء: للسببية، (تكونا): فعل مضارع ناقص منصوب بأن مضمرة بعد الفاء السببية، وعلامة نصبه حذف النون، وألف الاثنين اسمه. ﴿مِنَ ٱلظَّالِمِينَ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر (تكونا)، و«أن» المضمرة بعد الفاء، والفعل (تكونا) في تأويل مصدر معطوف بالفاء على مصدر متصيد من الفعل السابق؛ إذ التقدير: لا يكن منكما قرب من الشجرة، فظلم لنفسيكما. هذا؛ وجوز أن تكون الفاء عاطفة، وأنَّ الفعل مجزوم بسبب العطف على النَّهي، والأول أقوى معنىً، وأتمُّ سبكاً. بعد هذا فالآية كلها في محل نصب مقول القول، وجملة: (قلنا...) إلخ: معطوفة على ما قبلها في الآية السابقة. هذا؛ والآية مذكورة برقم [١٩] من سورة (الأعراف) انظر شرحها هناك، ففيه كبير فائدة.

﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾

الشرح: ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ ويقرأ: (أزالهما) وهما بمعنى: أذهبهما، وأبعدهما، وصرفهما عمَّا كانا عليه من الطاعة إلى المعصية، يقال منه: أزللته، فزلَّ، قال تعالى في سورة (آل عمران) رقم [١٥٥]: ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟﴾ وقيل: إن معنى أزلهما مِنْ: زلَّ عن المكان: إذا تنحَّى، قال امرؤ القيس في معلقته رقم [٦٥]: [الطويل]

كُمَيْتٍ يَزِلُّ اللِّبْدُ عَنْ حَالِ مَتْنِهِ كَمَا زَلَّتِ الصَّفْواءُ بِالْمُتَنَزِّلِ
يَزِلُّ الغُلامُ الْخِفُّ عَنْ صَهَوَاتِهِ وَيُلْوِي بِأَثْوابِ الْعَنِيفِ الْمُثَقَّلِ

﴿عَنۡهَا﴾ عن الجنَّة. ﴿فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ﴾ أي: من نعيم الجنة، وسرورها، ولم يقصد إبليس لعنه الله إخراجه من الجنة فقط، وإنما أراد إسقاطه من مرتبته، وإبعاده من رحمة الله تعالى، كما أُبعد هو، وطُرد، فلم يدرك طرده، بل ازداد سُخْنَةَ عينٍ، وغَيظ نفس، وخيبة ظنٍّ، قال الله تعالى في سورة (طه) رقم [١٢٢]: ﴿ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ﴾ فصار عليه السلام خليفة الله في أرضه بعد أن كان جاراً له في داره، وكم بين الخليفة والجار من فَرْقٍ! ونسب الإخراج إلى إبليس؛ لأنه كان بسببه وإغوائه.

واختلف في كيفية دخول إبليس الجنَّة، ووسوسته لآدم وحواء، فقال ابن مسعود، وابن عباسٍ ـ رضي الله عنهم ـ وجمهور العلماء: أغواهما مشافهةً، ودليل ذلك قوله تعالى في سورة (الأعراف) رقم [٢١]: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾، وكان قد رآهما على باب الجنَّة؛ لأنَّهما كانا يخرجان منها، وكان إبليس بقرب الباب، فوسوس لهما. والمقاسمة: ظاهر المشافهة، وقال بعضهم، وذكر عبد الرزاق عن وهب بن منبه: إنه دخل الجنة في فم الحيَّة، وذلك أنَّ إبليس لعنه الله تعالى. أراد أن يدخل الجنَّة، فمنعه الخزنة، فأتى الحيَّة وكانت صديقةً لإبليس، وكانت من أحسن الدوابِّ، لها أربع قوائم كقوائم البعير، فسألها أن تدخله في فمها، فأدخلته، ومرَّت به على الخزنة، وهم لا يعلمون، وكان ذلك لأنه طرد من الجنَّة حينما عصى الله، وأبى أن يسجد لآدم، فقال الله له: ﴿ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ﴾ الآية رقم [١٨] من سورة (الأعراف).

فلما دخل؛ أخذ يوسوس لهما وذلك: أنَّ آدم لمَّا دخل الجنة، ورأى ما فيها من النعيم؛ قال: لو أن خلداً!، فاغتنم إبليس ذلك منه، وأتاه من قبل الخلد، وقال لهما: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ﴾ رقم [٢٠] من سورة (الأعراف). وقيلَ: لما دخل الجنَّة، وقف على آدم، وحواء، وهما لا يعلمان: أنَّه إبليس، فبكى، وناح نياحةً أحزنهما، وهو أوَّل نائحٍ، فقالا: ما يبكيك؟ قال: أبكي عليكما؛ لأنكما تموتان، فتفارقان ما أنتما فيه من النِّعمة، فوقعَ ذلك في أنفسهما، واغتمَّا، ومضى إبليس، ثمَّ أتاهما بعد ذلك. وقال: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ﴾ سورة (طه) رقم [١٢٠]، فأبى أن يقبل منه، فـ ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ فاغترَّا، وما ظنَّا: أنَّ أحداً يحلف بالله كذباً، فبادرت حواء إلى الشَّجرة، فأكلت منها، ثم ناولت آدم، فأكل منها، قال إبراهيم بن أدهم ـ رحمه الله تعالى ـ: «**أَوْرَثَتْنا تِلْكَ الأكلةُ حزناً طَويلاً**».

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «قال الله تعالى: يا آدم! ألم يكن فيما أبحتك من الجنة مندوحةٌ عن الشَّجرة؟ قال: بلى وعزَّتك! ولكن ما ظننت أنَّ أحداً يحلف بك كذباً، قال: فبعزتي

لأهبطنَّك إلى الأرض، ثم لا تنال العيش فيها إلا نكداً! فأُهبِط من الجنَّة، وعُلِّم صنعة الحديد، وخلق الله ثوراً، وبقرةً، وقال له: احرث، فحرث، وزرع، وسقى؛ حتَّى إذا بلغ، واشتدَّ؛ حصَدَه، ثم دَرَسه، ثم ذَرَّاه، ثم طحنه، ثمَّ عجنه، وخبزه، ثمَّ أكله، فلم يصل إلى حلقه حتَّى بلغ منه الجهد».

وفي رواية أخرى عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أنَّ الله تعالى قال: يا آدم! ما حملك على ما صنعت؟ قال: يا رب زينته لي حواء، قال: فإنِّي قد أعقبتها ألا تحمل إلا كرهاً، ولا تضع إلا كرهاً، ودميتها في الشهر مرَّتين، فرنت حواء عند ذلك، فقيل: عليك الرنَّة، وعلى بناتك. والرنَّة: الصَّوت، فلما أكلا من الشجرة؛ تساقطت عنهما ثيابهما، وبدت لهما سوآتهما، وهو صريح قوله تعالى في سورة (الأعراف) رقم [٢٢]، وفي سورة (طه) [١٢١]: ﴿فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾.

﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا﴾: الهبوط: النزول من أعلى إلى أسفل، والخطاب لآدم، وحواء، والحيَّة، وإبليس، وفي سورة (الأعراف) رقم [٢٤] مثله، وفيها رقم [١٣]: ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾ على أنه خطاب لإبليس وحده، وفي سورة (طه) رقم [١٢٣]: ﴿اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ على أنه خطاب لآدم وحواء، أو لآدم وإبليس، فأُهبط آدم بسرنديب من الهند بجبل يقال له: بوذ، ومعه ريح الجنَّة، فعلق بشجرها، وأوديتها، فامتلأ ما هنالك طيباً، فمن ثم يؤتى بالطِّيب من هناك، وهو من ريح آدم عليه السلام، وفي البخاريِّ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، عن النبي ﷺ قال: «**خلق الله آدم وطوله ستون ذراعاً**». وأهبطت حواء بِجُدَّة، وإبليس بالأُبُلَّة، والحيَّة سجستان وهي أكثر بلاد الله حيَّات، ولولا العربدُ الذي يأكلها ويُفني كثيراً منها، لأُخْلِيَتْ سجستان من أجل الحيَّات، ذكره أبو الحسن المسعودي. انتهى قرطبي. قال الجوهري: والعِرْبَدُّ: حية تنفخ، ولا تؤذي، وزاد صاحب القاموس: أو حية حمراء خبيثة.

﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾: ﴿عَدُوٌّ﴾ ضدُّ صديق، وهو على وزن فعول بمعنى فاعل، مثل: صبور، وشكور، وما كان على هذا الوزن يستوي فيه المذكر، والمؤنث، والمفرد، والمثنَّى، والجمع؛ إلا لفظاً واحداً جاء نادراً، قالوا: هذه عدوة الله. قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ الآية رقم [٦] من سورة (فاطر)، فقد عبَّر عنه به عن مفرد، وقال تعالى حكاية عن قول إبراهيم ـ على نبينا وعليه ألف صلاة وألف سلام ـ: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ الآية رقم [٧٧] من سورة (الشعراء)، فقد عبَّر به عن جمع، ومثل ذلك: صديق، أي في إتيانه بلفظ واحد للمفرد، والمثنَّى، والجمع، والمذكر، والمؤنث، وجمع عدو: أعداء، وأعادٍ، وعداة، وعدى، وقيل: جمع أعداء، فيكون جمع الجمع، وفي القاموس المحيط: والعدا بالضم، والكسر: اسم الجمع. هذا وسمي العدو: عدوّاً؛ لعدوه عليك عند أول فرصة تسنح له للإيقاع

بك، والقضاء عليك كما يسمَّى الصديق صديقاً؛ لصدقه فيما يدعيه لك من الألفة، والمودة، والمحبَّة.

هذا؛ والحكمة من إهباط آدم عليه السلام إلى الأرض ما كان قدَّره في الأزل، وهي نشر نسله فيها؛ ليكلفهم، ويمتحنهم، ويرتِّب على ذلك ثوابهم، وعقابهم الأخرويّ؛ إذ الجنَّة ليست بدار تكليف، وكانت تلك الأكلة سبب إهباطه من الجنَّة، ولله أن يفعل ما يشاء، وقد قال الله للملائكة حين توجهت إرادته لخلق آدم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ وهذه منقبة عظيمةٌ، وفضيلةٌ كريمةٌ شريفة. هذا فقد روي: أنَّ روح موسى التقت مع روح آدم عليهما السلام، فقال موسى: يا آدم! أكلت من الشجرة حتَّى سبَّبت لذريتك العناء، والشقاء! فقال آدم: يا موسى! أنت رسول الله، وكليمه، تلومني على أمر قدَّره الله عليَّ قبل أن يخلقني بآلاف السِّنين؟ فحجَّ آدم موسى؛ أي: غلبه بالحجَّة.

هذا ويسأل: آدم معصومٌ، فكيف يخالف النَّهي؟! وأجيب بوجوه، منها: أنه اعتقد أن النَّهي للتنزيه، لا للتَّحريم، ومنها: أنَّه نسي النَّهي، وهو صريح قوله تعالى في سورة (طه) رقم [١١٥]: ﴿فَنَسِيَ﴾ ومنها: أنه ظنَّ نسخه بسبب مقاسمة إبليس له: أنه من النَّاصحين، وهو صريح قوله تعالى في سورة (الأعراف) رقم [٢١]: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ فاعتقد: أنه لا يحلف أحدٌ بالله كذباً. وقد اختلف: هل كان ذلك من آدم قبل النبوة، أو بعدها؟ والظاهر: أنه أعطي النبوة في الأرض. وإلى الذين يكدسون الذنوب والمعاصي، ويؤملون الآمال العراض في دخول جنَّةٍ عرضها الأرض والسموات، أذكر قول القائل: [الكامل]

تَضَعُ الذُّنُوبَ عَلَى الذُّنُوبِ وَتَرْتَجِي ... دَرَجَ الجِنَانِ وَطِيبَ عَيْشِ العَابِدِ

وَنَسِيْتَ أَنَّ اللهَ أَخْرَجَ آدَمَاً ... مِنْهَا إِلَى الدُّنْيَا بِذَنْبٍ واحِدِ

هذا؛ وقال ابن المنير ـ رحمه الله تعالى ـ: مقتضاه تأويل الآي. ومشعر ظاهرها بعدم وقوع الصَّغائر من الأنبياء، تنزيهاً لهم عنها. وعلى أن تجويز الصغائر عليهم قد قال به طوائف من أهل السنة، وفي طيِّ وقوعها ألطافٌ، وزيادةٌ في الالتجاء إلى الله تعالى، والتواضع له، والإشفاق إلى الخطَّائين، والدعاء لهم بالتوبة والمغفرة، كما نقل عن داود ـ على نبينا وعليه ألف صلاة، وألف سلام: أنه كان بعد ابتلاء الله له يدعو للخطَّائين كثيراً، وانظر ما ذكرته في الآية رقم [١٠٦] من سورة (النساء)، وفي الآية رقم [٤٣] من سورة (التوبة)، والآية رقم [٦٨] من سورة (الأنفال).

﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾: موضع استقرار، وقال السدي: مستقر يعني: القبور، وقوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ يحتمل المعنيين، والله أعلم، ومنه سمِّيت متعة النكاح؛

لأنها تمتُّعٌ به، انظر الآية رقم [٢٣٥] الآتية، وأنشد سليمان بن عبد الملك حين وقف على قبر ابنه أيوب إثر دفنه: [الطويل]

وَقَفْتُ عَلَى قَبْرٍ غَرِيبٍ بِقَفْرَةٍ   مَتَاعٌ قَلِيلٌ مِنْ حَبِيبٍ مُفَارِقِ

هذا واختلف في الحين، فقال قوم: إلى الموت، هذا قول من يقول: المستقر: هو المقام في الدنيا. وقيل: إلى قيام السَّاعة، وهذا قول من يقول: المستقر هو في القبور. وقال الربيع: (إلى حين): إلى أجل، والحين: الوقت البعيد، وربما أدخلوا عليه التاء، قال أبو وجرة: [الكامل]

الْعَاطِفُونَ تَحِينَ مَا مِنْ عَاطِفٍ   وَالْمُطْعِمُونَ زَمَانَ أَيْنَ الْمُطْعِمُ؟

والحين: المدَّة، ومنه قوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ﴾ والحين: الساعة. قال تعالى في سورة (الزمر) رقم [٥٨]: ﴿أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ﴾، وقال ابن عرفة: الحين: القطعة من الدَّهر، كالساعة، فما فوقها، وقوله تعالى في سورة (المؤمنون) رقم [٥٤]: ﴿فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: حتى تفنى آجالهم. وقوله تعالى في سورة (إبراهيم) ـ على نبينا وعليه ألف صلاة وألف سلام ـ رقم [٢٥]: ﴿تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ﴾؛ أي: كل سنة، وقيل: بل كل ستة أشهر، وقيل: بل غدوةً وعشيّاً، وقال الأزهريُّ: الحين: اسم كالوقت يصلح لجميع الأزمان كلها، طالت، أو قصرت، والمعنى: أنه ينتفع بها في كلِّ وقت، ولا ينقطع نفعها ألبتة. قال: والحين: يوم القيامة، والحين: الغدوة، والعشية، قال الله تعالى في سورة (الروم) رقم [١٧]: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ﴾، ويقال: عاملته محاينةً من الحين، وأحينت بالمكان. إذا أقمت فيه حيناً، وحان حين كذا؛ أي: قرب، قالت بثينة: [الطويل]

وَإِنَّ سُلُوِّي عَنْ جَمِيلٍ لَسَاعَةٌ   مِنَ الدَّهْرِ مَا حَانَتْ وَلَا حَانَ حِينُهَا

وقال ابن العربي، والفراء: الحين حينان: مجهول، ومعلوم، فالحين المجهول لا يتعلق به حكم، والحين المعلوم هو الذي تتعلق به الأحكام، ويرتبط به التكليف، وأكثر المعلوم سنة. انتهى قرطبي بتصرف. هذا وجمع الحين: أحيان، وجمع الجمع: أحايين، والحَيْن بفتح الحاء: الهلاك، والموت.

وأخيراً أفاد قوله تعالى: ﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ﴾ وقوع العداوة بين آدم وذريته، وبين إبليس والحية، أما عداوة إبليس فقد ذكرها الله تعالى في كثير من الآيات القرآنية؛ ولم يذكر عداوة الحية لذريَّة آدم، والثابت: أنها لُعِنت كما لُعِن إبليس، ورُدَّت قوائمها في جوفها، وجعلت العداوة بينها وبين آدم وذريته إلى يوم القيامة، وقد بيَّن الرسول ﷺ عداوتها في أحاديثه الشريفة الصحيحة؛ لذا أمر بقتلها. وخذ ما يلي: فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أن النبي ﷺ قال: «**ما سالمناهنَّ منذ حاربناهنَّ ـ يعني: الحيَّات ـ ومن ترك قتل شيء منهن خيفةً؛ فليس منا**»، رواه

أبو داود، وابن حبَّان. وعن ابن عبَّاس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من ترك الحيات مخافة ظلمهن؛ فليس منا، ما سالمناهنَّ منذ حاربناهنَّ**». رواه أبو داود. وعن أبي ليلى ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ رسول الله ﷺ سئل عن جنان البيوت، فقال: «**إذا رأيتم منهنَّ شيئاً في مساكِنكُم، فقولوا: أنشدكم العهد الذي أخذ عليكم نوح، أنشدكم العهد الذي أخذ عليكم سليمان أن لا تؤذونا، فإنْ عدن؛ فاقتلوهنَّ**» رواه أبو داود، والترمذي، والنَّسائيُّ.

وعن أبي لبابة ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ قد نهى عن قتل الجِنّان التي تكون في البيوت إلا الأبتر وذا الطفيتين، فإنهما اللّذان يخطفان البصر، ويتبعان ما في بطون النساء. رواه أبو داود. الأبتر: جنس من الحيات كأنه مقطوع الذنب، وقيل: هو صنف من الحيَّات أزرق مقطوع الذنب، إذا نظرت إليه الحامل؛ ألقت حملها، قاله النضر بن شميل، والطفيتان هما: الخطَّان الأسودان في ظهر الحيَّة، وقد يكون الخطَّان أبيضَيْن.

وقال الربيع بن بدر رحمه الله تعالى: الجانُّ من الحيات التي نهى الرسول ﷺ عن قتلها. هي التي تمشي مستقيمة ولا تلتوي. وعن علقمة بن قيس نحوه. بعد هذا خذ الإعراب، والله الموفق للحقِّ والصَّواب.

الإعراب: ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾: الفاء: حرف عطف. (أزلَّهما): فعل ماض. والهاء: مفعول به، والميم والألف حرفان دالان على التثنية. ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: فاعله. ﴿عَنْهَا﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، والجملة الفعلية معطوفة على جملة: (قلنا...) إلخ في الآية السابقة، فهي في محل جر مثلها، وإن اعتبرتها مستأنفة فلا محل لها. ﴿فَأَخْرَجَهُمَا﴾: الفاء: حرف عطف، (أخرجهما): فعل ماض، والهاء مفعول به، والميم والألف حرفان دالان على التثنية، والفاعل يعود إلى الشيطان، تقديره هو، والجملة الفعلية معطوفة على جملة محذوفة؛ إذ التقدير: فأكلا منها، فأخرجهما، فتكون الفاء في الجملة المحذوفة مفيدة للسبب.

﴿مِمَّا﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، و(ما) تحتمل الموصولة، والموصوفة، فهي مبنية على السكون في محل جرٍّ بـ (مِنْ). ﴿كَانَا﴾: فعل ماض ناقص، وألف الاثنين اسمه. ﴿فِيهِۖ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر (كان)، والجملة الفعلية صلة (ما) أو صفتها، والعائد أو الرابط الضمير المجرور محلاً بـ (في).

(قلنا): فعل وفاعل. ﴿ٱهْبِطُواْ﴾: فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول، وجملة: (قلنا...) إلخ معطوفة على جملة: (أزلهما). ﴿بَعْضُكُمْ﴾: مبتدأ، والكاف: في محل جر بالإضافة. ﴿لِبَعْضٍ﴾: متعلقان بما بعدهما. ﴿عَدُوٌّۖ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل نصب حال من واو الجماعة، والرابط الضمير فقط. (لكم): جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: متعلقان

بـ ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ بعدهما الذي هو مبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها، فهي في محل نصب حال مثلها، وقيل: مستأنفة، والعطف أقوى. ﴿وَمَتَٰعٌ﴾: معطوف على ما قبله عطف مفرد على مفرد ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾: متعلقان بـ (متاع)، أو صفة له، التقدير: ممتدٌّ إلى حين.

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾

الشرح: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ...﴾ إلخ، استقبلها بالأخذ، والقبول، والعمل بها، وكان الرسول ﷺ يتلقى الوحي؛ أي: يستقبله، ويأخذه، ويعمل به. هذا؛ وقرئ بنصب (آدم) ورفع (كلمات) والمعنى لا يتغير؛ لأنَّ ما تلقيته فقد تلقَّاك، وما تلقَّاك فقد تلقَّيته، ومثل هذه الآية بالقراءتين قوله تعالى في الآية رقم [١٢٤] الآتية: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ حيث يقرأ بالواو أيضاً، والمعنى واحد؛ لأنَّ ما نلته فقد نالك، وما نالك فقد نلته. واختلف في الكلمات التي تلقاها آدم، فقال ابن عباس، والحسن البصريُّ، وسعيد بن جُبير، والضّحاك، ومجاهدٌ ـ رضي الله عنهم ـ: هي قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ الآية رقم [٢٣] من سورة (الأعراف)، وقيل غير ذلك.

﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ أي: قبل توبته، ووفَّقه للتوبة، وكان ذلك في يوم عاشوراء في يوم الجمعة، فعن أبي لبابة بن عبد المنذر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن يوم الجمعة سيِّد الأيام، وأعظمها عند الله، وهو أعظم عند الله من يوم الأضحى، ويوم الفطر، وفيه خمس خلال: خلق الله فيه آدم، وأهبط الله فيه آدم إلى الأرض، وفيه توفى آدم، وفيه ساعة لا يسأل الله فيها العبد شيئاً إلا أعطاه؛ ما لم يسأل حراماً، وفيه تقوم الساعة، وما من ملك مقرَّب، ولا سماءٍ، ولا أرضٍ، ولا رياحٍ، ولا جبالٍ، ولا بحرٍ، إلا وهنَّ يُشفقن من يوم الجمعة**»، رواه الإمام أحمد، وغيره.

قال القرطبيُّ رحمه الله تعالى: إن قيل: لم قال: ﴿عَلَيْهِ﴾ ولم يقل: عليهما، وحواء مشاركة في الذنب بإجماع، وقد قال: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ و﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾؟ فالجواب: أن آدم عليه السلام لمَّا خوطب في أول القصّة بقوله تعالى: ﴿ٱسْكُنْ﴾ خصَّه بالذكر في التلقِّي، فلذلك كملت القصَّة بذكره وحده، وأيضاً: فلأن المرأة حرمةٌ مستورةٌ، فأراد الله الستر لها، ولذلك لم يذكرها في المعصية في قوله تعالى في سورة (طه) رقم [١٢١]: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ وأيضاً: لما كانت المرأة تابعةً للرَّجل في غالب الأمر لم تذكر، ولذا طوى ذكر النِّساء في كثير من الآيات القرآنية، وأحاديث الرسول ﷺ، بينما ذكر مشاركة حواء لآدم في الدعاء والتوبة في سورة (الأعراف)، وغيرها.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وصف الله نفسه بأنه التَّواب، وتكرَّر هذا اللفظ في القرآن معرَّفاً، ومنكراً، واسماً، وفعلاً، وقد يطلق على العبد أيضاً: تواب، قال تعالى في الآية الآتية رقم

[٢٢٢]: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ وقال ابن عربي: ولعلمائنا في وصف الربِّ بأنه توَّاب ثلاثة أقوال: أحدها: أنه يجوز في حق الربِّ سبحانه وتعالى، فيدعى به كما في الكتاب، والسنة، ولا يتأول. وقال آخرون: هو وصف حقيقي لله سبحانه وتعالى. وتوبة الله على العبد: رجوعه من حال المعصية إلى حال الطاعة، وقال آخرون: توبة الله على العبد: قبوله توبته، وذلك يحتمل أن يرجع قوله سبحانه وتعالى: قبلت توبتك، وأن يرجع إلى خلقه الإنابة، والرجوع في قلب المسيء وإجراء الطاعات على جوارحه الظاهرة. وإنما قيل لله عز وجل: تواب لمبالغة الفعل وكثرة قبوله توبة عباده لكثرة من يتوب إليه، هذا ويقرأ بكسر همزة ﴿إِنَّهُۥ﴾ وفتحها.

تنبيه: اعلم: أنه ليس لأحد قدرة على خلق التوبة؛ لأن الله تعالى هو المنفرد بخلق الأعمال، خلافاً للمعتزلة، ومن قال بقولهم، وكذلك ليس لأحد أن يقبل توبة من أسرف على نفسه، ولا أن يعفو عنه، قال العلماء: وقد كفرت اليهود والنَّصارى بهذا الأصل العظيم في الدين، اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله عز وجلَّ، وجعلوا لمن أذنب أن يأتي الحبر، أو الراهب، فيعطيه شيئاً، ويحط عنه ذنوبه: ﴿ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ سورة (الأنعام) رقم [١٤٠].

وقال سعيد بن جبير ـ رضي الله عنه ـ: لما أهبط الله آدم إلى الأرض لم يكن فيها شيء غير النسر في البرِّ، والحوت في البحر، فكان النسر يأوي إلى الحوت، فيبيت عنده، فلما رأى النسر آدم، قال: يا حوت أُهْبِط إلى الأرض اليوم شيءٌ يمشي على رجليه، ويبطش بيديه، فقال الحوت: لئن كنت صادقاً ما لي منه في البحر منجى، ولا لك في البر منه مخلص. انتهى كلُّه من القرطبي بتصرف مني.

هذا و﴿كَلِمَٰتٍ﴾ جمع: كلمة، وفيها ثلاث لغات: الأولى: كَلِمَة على وزن: نَبِقَة، وهي الفصحى، ولغة أهل الحجاز، وبها نطق القرآن الكريم في آيات كثيرة، وجمعها: كَلِم كَنبق، والثانية: كِلْمَة على وزن سِدْرة، والثالثة: كَلْمَة على وزن: تمرة، وهما لغتا تميم، وجمع الأولى: كِلْم، كسدر، والثانية: كَلْم، كتمر، وكذلك كل ما كان على وزن فِعْل، وفَعِل، كـ: كبد، وكتف، فإنه يجوز فيه اللغات الثلاث، فإن كان الوسط حرف حلق، جاز فيه لغة رابعة وهي: إتباع الأول للثاني في الكسر، نحو: فخذ، وشهد، وهي في الأصل: قول مفرد، مثل: محمد، وقام، وقعد، وفي، ولن، وقد تطلق على الجمل المفيدة، كما في قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ إشارة إلى قوله: ﴿ٱرْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ وقال النبي ﷺ: «**أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد**»: [الطويل]

أَلَا كُــلُّ شَــيءٍ مَـا خَــلَا اللهَ بَــاطِـلُ وكُـلُّ نَـعِـيـم لَا مَـحَـالَـةَ زَائِـلُ

المراد بكلمة لبيد: الشَّطر الأول بكامله، وتقول: قال فلان كلمةً، والمراد بها كلام كثير، وهو شائع، ومستعمل عربيَّةً في القديم، والحديث، وفي القرآن، وأحاديث الرَّسول ﷺ.

الإعراب: (تلقى): فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف للتعذر. ﴿ءَادَمُ﴾: فاعله. ﴿مِن رَّبِّهِۦ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، ويجوز تعلقهما بمحذوف حال من ﴿كَلِمَٰتٖ﴾؛ كان صفة له، فلما قدم عليه صار حالاً... إلخ، والهاء في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿كَلِمَٰتٖ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه الكسرة نيابة عن الفتحة لأنه جمع مؤنث سالم، وجملة: (تلقى) مستأنفة لا محل لها. (تاب): فعل ماض، والفاعل يعود إلى ﴿رَبِّهِۦ﴾، ﴿عَلَيۡهِۚ﴾ متعلقان به، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها. ﴿إِنَّهُۥ﴾: حرف مشبه بالفعل والهاء اسمها، ﴿هُوَ﴾: ضمير فصلٍ لا محل له، أو هو توكيد لاسم (إنَّ)، ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾: خبر أول لـ (إنَّ). ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾: خبر ثان، هذا وإن اعتبرت الضمير مبتدأ؛ فـ ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾ و﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ يكونان خبرين له، والجملة الاسمية في محل رفع خبر (إن)، والجملة الاسمية مفيدة للتعليل، مستأنفة لا محل لها. هذا؛ ويقرأ بفتح همزة (إنَّ) وعليه فهي تؤول مع اسمها، وخبرها بمصدر في محل جر بلام محذوفة، التقدير: لأنه... إلخ، والجار والمجرور متعلقان بالفعل (تاب). تأمل، وتدبر، وربك أعلم، وأجل، وأكرم.

﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٨﴾

الشرح: ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ...﴾ إلخ: كرر الأمر على جهة التغليظ، وتأكيده. وقيل: كرر الأمر لما علَّق بكل أمر منهما حكماً غير حكم الآخر، فعلق بالأول العداوة، وبالثاني إتيان الهدى. وقيل: الهبوط الأول من الجنَّة إلى السماء، والثاني من السماء إلى الأرض، وعلى هذا يكون فيه دليل على أنَّ الجنة في السماء السابعة. ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم﴾: الخطاب لآدم، وحواء، وذريتهما. ﴿مِّنِّي هُدٗى﴾: المراد به هنا: الرسول ﷺ، أو القرآن الكريم، أو المراد جميع الرسل، والكتب التي تنزل عليهم، وهو أليق بالمقام، وفي قوله تعالى: ﴿مِّنِّي﴾ إشارة إلى أنَّ أفعال العباد خلق الله تعالى خلافاً للقدرية، والمعتزلة، وغيرهم. ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾: قرئ: (هُديَّ) وهي لغة هذيل، يقولون: هُديَّ، وعَصيَّ، ومحَييَّ، وأنشد النَّحويون لأبي ذؤيب يرثي بنيه: [الكامل]

سَبَقُوا هَوَيَّ وَأَعْنَقُوا لِهَوَا هُمُو … فَتُخِرِّمُوا وَلِكُلِّ جَنْبٍ مَصْرَعُ

قال النَّحاس: وعلَّة هذه اللغة عند الخليل وسيبويه: أنَّ سبيل ياء الإضافة أن يكسر ما قبلها، فلما لم يجز أن تتحرك الألف، أبدلت ياء وأدغمت، ومعنى: تبع الهدى: آمن بي، وعمل بطاعتي. ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ أي: فلا خوف عليهم فيما بين أيديهم من الآخرة، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من الدنيا، وليس فيه دليل على نفي أهوال يوم القيامة وخوفها على المطيعين، لما وصفه الله تعالى ورسوله من شدائد القيامة، إلا أنه يخفِّف عن

المطيعين، وإذا صاروا إلى رحمته؛ فكأنهم لم يخافوا، قال بعض العارفين بالله: سابق العناية لا يؤثر فيه حدوث الجناية، ولا يُحَطُّ عن رتبة الولاية، فمخالفة آدم التي أوجبت له الإخراج من دار الكرامة لم تخرجه عن دار حظيرة القدس، ولم تسلبه رتبة الخلافة، بل أجزل الله له في العطية، فقال تعالى في سورة (طه): ﴿ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ﴾ رقم [١٢٢] وقال الشاعر: [الكامل]

وإِذَا الْـحَـبِـيـبُ أَتَـى بِـذَنْـبٍ وَاحِـدٍ جَـاءَتْ مَـحَـاسِـنُـهُ بِـأَلْـف شَـفِـيـعِ

وقد قيل: إنَّ آدم لما نزل على الأرض؛ مكث ثلاثمئة سنة، لا يرفع رأسه إلى السماء حياءً من الله تعالى، وقيل: لو أنَّ دموع أهل الأرض جُمِعت؛ لكانت دموع داود أكثر، ولو أنَّ دموع داود ودموع أهل الأرض جمعت؛ لكانت دموع آدم أكثر. انتهى خازن.

هذا وأما ثيابه التي نزعت عنه، فإنها تجمعت على رؤوس أصابع يديه ورجليه، فلذا كان إذا نظر إلى أظافره؛ بكى؛ لأنها من آثار الجنَّة، وصارت طبيعة في بني آدم، كلٌّ واحدٍ إذا استغرق في الضحك؛ فلينظر إلى أظافره؛ فيذهب ضحكه.

هذا؛ والحزن: ضد السرور، ولا يكون إلا على ماضٍ. وحزن الرجل، وأحزنه غيره، وحزَّنه أيضاً، مثل سلَّكه، وأسلكه، قال اليزيديُّ: حزنه لغة قريش، وأحزنه لغة تميم، وقد قرئ بها.

الإعراب: ﴿قُلۡنَا﴾: فعل ماض، وفاعله. ﴿ٱهۡبِطُواْ﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿مِنۡهَا﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿جَمِيعٗا﴾: حال من واو الجماعة، وهي حال مؤكدة، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول.

وجملة: ﴿قُلۡنَا﴾: مستأنفة لا محل لها. ﴿فَإِمَّا﴾: الفاء: حرف استئناف وتفريع. (إما): أصلها: (إن ما) إن: حرف شرط جازم، وما: صلة للتأكيد؛ لأنَّ معنى (إن) في الأصل الشك، فزال هذا المعنى بسبب (ما) ولذا أكد الفعل بعدها بنون التوكيد. ﴿يَأۡتِيَنَّكُم﴾: فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة في محل جزم فعل الشرط، والنون حرف لا محل له، والكاف مفعول به. ﴿مِّنِّي﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، ويجوز أن يكونا متعلِّقين بمحذوف حال من ﴿هُدٗى﴾ كان صفة له ﴿هُدٗى﴾: فاعل مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين، والألف الثانية دليل عليها، وليست عينها، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها ابتدائية، ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفي. ﴿فَمَن﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (مَنْ): اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿تَبِعَ﴾: فعل ماض مبني على الفتح في محل جزم فعل الشرط، والفاعل يعود إلى (مَنْ) تقديره هو. ﴿هُدَايَ﴾: مفعول به منصوب وعلامة نصبه فتحة مقدرة على الألف للتعذر، وياء المتكلم في محل جر بالإضافة. ﴿فَلَا﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (لا): نافية مهملة، ولا يجوز إعمالها

إعمال «ليس» لأنها تكررت. ﴿خَوْفٌ﴾: مبتدأ. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف في محل خبر المبتدأ. ويجوز تعليقهما بـ (خوف) لأنه مصدر، أو بمحذوف صفة له، وعليهما فالخبر محذوف، تقديره: حاصل، أو موجود. ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): نافية مهملة، أو هي صلة لتأكيد النفي. ﴿هُمْ﴾: ضمير منفصل مبني على السكون في محل رفع مبتدأ.

﴿يَحْزَنُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على سابقتها؛ التي هي في محل جزم جواب الشرط، وقد اختلف في خبر (مَنْ) الواقعة مبتدأ، فابن هشام يرجِّح: أن الخبر جملة الشرط. وبعضهم يقول: هو جملة الجواب. ويرجح المعاصرون: أن الخبر إنما هو جملتا الشرط، والجواب. والجملة الاسمية: (من تبع) في محل جزم جواب (إن) الشرطية، وهو قول سيبويه، وقال الكسائي: جملة: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ جواب الشرطين جميعاً.

هذا وقرأ جماعة: (فَلا خوفَ) بفتح الفاء على اعتبار (لا) عاملة عمل «إنَّ» لنفي الجنس، والاختيار عند النحويين الرفع والتنوين على الابتداء؛ لأنَّ الثاني معرفة لا يكون فيه إلا الرفع؛ لأن (لا) لا تعمل في معرفة، فاختاروا في الأول الرفع أيضاً؛ ليكون الكلام من وجهٍ واحد، ويجوز أن تكون (لا) في قولك: ﴿فَلَا خَوْفٌ﴾ بمعنى ليس. انتهى قرطبي. أقول: وذكرت لك: أنها إذا تكررت؛ أهملت، أي: لا تعمل عمل ليس، و(إمَّا) ومدخولها كلامٌ مستأنف لا محل له من الإعراب.

تنبيه: أفرد الفاعل في الفعل ﴿تَبِعَ﴾ وجمع الضمير في قوله: ﴿عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ مع كونهما عائدين على (مَنْ) التي هي اسم شرط جازم، ومبتدأ، لأن الفاعل عائد على لفظه، والضمير عائد على معناه، أو تقول: إن (مَنْ) تدل على العموم، أي: أيُّ شخصٍ تبع الهدى؛ فلا خوفٌ عليهم.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٩)﴾

الشرح: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾: أي: بقلوبهم. ﴿وَكَذَّبُوا﴾: أي: بألسنتهم، والمراد: الكافرون، ويشمل المنافقين. ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾: جعل الكفار أصحاب النار بمعنى مالكيها بملازمتهم لها، وعدم انفكاكهم عنها، وقل مثله في أصحاب الجنة. ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾: مقيمون ماكثون لا محيد لهم عنها، ولا محيص، قال رسول الله ﷺ: «**أما أهل النار الذين هم أهلها؛ فإنَّهم يموتون فيها، ولا يحيون، ولكن ناسٌ أصابتهم النار بخطاياهم، فأماتتهم إماتةً؛ حتى إذا صاروا فحماً؛ أُذِن بالشَّفاعة**». رواه مسلم في كتاب الإيمان من حديث شعبة عن أبي مسلمة ـ رضي الله عنه ـ، والمذكورون في آخر الحديث عصاةُ المسلمين، يدخلون النار، ويعذَّبون على حسب

جرائمهم، ثم يخرجون منها حمماً، ثم يدخلون الجنَّة، ويكتب بين عيونهم: هؤلاء عتقاء الله من النار، بعد أن يغتسلوا بعين على باب الجنة تدعى عين الحياة وتعود إليهم أبشارهم، وجمالهم.

هذا و﴿أَصْحَٰبُ﴾ جمع: صاحب، ويكون بمعنى: المالك، كما هنا، ويكون بمعنى: الصديق، ويجمع أيضاً على: صحب، وصحاب، وصحابة، وصحبة، وصحبان، ثم يجمع أصحاب على أصاحيب أيضاً، ثم يُخَفَّف، فيقال: أصاحب. هذا؛ والصَّحابي: هو من جالس النبي ﷺ في حياته، ولو ساعة بشرط أن يكون مسلماً موحِّداً، فإن اجتمع بالنبي ﷺ، وجالسه في حياته وهو غير مسلم، ثمَّ أسلم بعد وفاته مثل: «كعب الأحبار» فيقال عنه: تابعي، والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: الواو: حرف عطف. (الذين): اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ. ﴿كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ﴾: فعلا ماضٍ مبنيان على الضم، والواو فاعلهما، والألف للتفريق، ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾: متعلقان بأحد الفعلين السابقين على التنازع فيهما، والجملة الأولى صلة الموصول والثانية معطوفة عليها لا محل لها مثلها. و(نا) في محل جر بالإضافة. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ، والكاف حرف خطاب لا محل له. ﴿أَصْحَٰبُ﴾: خبر المبتدأ، وهو مضاف. و﴿ٱلنَّارِ﴾: مضاف إليه من إضافة جمع اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه، والجملة الاسمية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: (الذين...) إلخ: معطوفة على جملة: (من تبع الهدى) في الآية السابقة، فهي في محل جزم مثلها؛ لأنها قسيمة لها، أي: مقابلة لها في المعنى، ودخلت الفاء في الخبر الأول دون الثاني للمبالغة في الوعد، والمسامحة في الوعيد، وهذا يؤكِّد اعتبار (مَنْ) اسماً موصولاً. ﴿هُمْ﴾: ضمير منفصل مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿فِيهَا﴾: متعلقان بما بعدهما. ﴿خَٰلِدُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل نصب حال من ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾، والعامل في الحال اسم الإشارة؛ لما فيه من معنى التشبيه، والرابط الضمير فقط، وفيها معنى التأكيد للكلام السابق، وجوز اعتبارها خبراً ثانياً لـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ والأول أقوى؛ لأن لها نظائر مثل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا﴾.

﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾

الشرح: ﴿يَٰبَنِيٓ﴾: أصله: بنين، حذفت النون للإضافة، وهو جمع: ابن، مأخوذ من البناء؛ لأن الابن مبني أبيه، لذلك ينسب المصنوع إلى الصانع. ﴿إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: هو نبيُّ الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، على نبينا، وعليهم جميعاً ألف صلاة وألف سلام، ومعناه في اللغة العربية: صفوة الله، أو عبد الله، فـ «إسرا» هو العبد، أو الصفوة، و«إيل» هو الله، وفيه سبع

لغات قرئ بها كلها. وتميم يقولون: إسرائين. قال الشاعر، انظر الشاهد رقم [٣٣٢] من كتابنا: «فتح ربِّ البرية» وما يتعلَّق به: [الوافر]

قَـالَـتْ وَكُـنْـتَ رَجُـلاً فَـطِـيْـنَـا هَـذَا ـ لَـعَـمْـرُ اللهِ ـ إِسْـرَائِـيـنَـا

فعلى ما تقدم يكون ليعقوب اسمان، وممَّن له اسمان: يونس، ويسمَّى: ذا النون، وإلياس، ويسمى: ذا الكفل في بعض الأقوال، وعيسى عليه السلام، يقال له: المسيح، وقد سمَّاه الله: روحاً، وكلمةً، وكانوا يسمُّونه: أَبيل الأَبيلين، ذكره الجوهري في صحاحه، ونبينا ﷺ له أسماءٌ كثيرةٌ تزيد عن المئتين، وهي مذكورة بجدران مسجده الشَّريف، وبنو إسرائيل هم المنتسبون لأولاد يعقوب الاثني عشر، ويطلق عليهم الأسباط، كما في الآية [١٣٦] الآتية.

﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾: المراد جميع النعم التي أنعم الله بها على آبائهم، ممَّا عدد عليهم في هذه السورة الكريمة: من الإنجاء من فرعون وعذابه، ومن الغرق في البحر، ومن العفو عن اتخاذ العجل، والتوبة عليهم، وتظليل الغمام في التيه، وإنزال المن والسلوى لهم فيه أيضاً، وهذا من تذكير الأبناء بما أنعم الله به على الآباء، ويضاف إلى ذلك ما أنعم الله به عليهم من إدراك زمن محمد ﷺ المبشَّر به في التوراة والإنجيل، وقد هاجر آباؤهم من بلاد الشَّام إلى الحجاز ليسبقوا الناس إلى الإيمان به، كما ستعرفه فيما يأتي إن شاء الله تعالى.

﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيٓ﴾ انظر ما ذكرته في الآية رقم [٢٧]، والوفاء بعهده: القيام بطاعته، وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، ولا يتم هذا إلا بالإيمان بمحمد ﷺ، وبالقرآن المنزل عليه، والعمل بما فيه، لذا قال الله لهم: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ رقم [٦٣] الآتية، وقال تعالى في سورة (المائدة) رقم [١٢]: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ وقال تعالى في الآية رقم [١٨٧] من سورة (آل عمران): ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾. وقيل: هو عام في جميع أوامر الله، ونواهيه، ووصاياه، فيدخل في ذلك ذكر محمد ﷺ الذي في التوراة، وغيره، وهذا قول الجمهور من العلماء وهو الصحيح، وعهده سبحانه وتعالى الذي عهده لهم هو أن يدخلهم الجنة، ويرحمهم برحمته الواسعة. وانظر الآية رقم [٥١] الآتية.

تنبيه: وما طلب من هؤلاء من الوفاء بالعهد مطلوب منَّا، قال تعالى في سورة (المائدة): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾، وقال تعالى في سورة (النحل) رقم [٩١]: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾.

﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ﴾ أي: خافوني دون غيري، وَالرَّهْب، والرَّهبة: الخوف. قال تعالى في سورة (القصص) رقم [٣٢] لموسى ـ عليه السلام ـ: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ...﴾ إلخ. هذا وقد خرج الأمر في الآية إلى معنى التَّهديد. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

تنبيه: قال ابن جزي الكلبي في تفسيره: لمَّا قدم الله تعالى دعوة الناس عموماً، وذكر مبدأهم؛ دعا بني إسرائيل خصوصاً، وهم اليهود، وجرى الكلام معهم من هنا إلى حزب: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ الآية رقم [١٤٢] الآتية، فتارة دعاهم بالملاطفة، وذكر الإنعام عليهم وعلى آبائهم، وتارة بالتَّخويف، وتارة بإقامة الحجَّة عليهم، وتوبيخهم على سوء أعمالهم، وذكر عقوبتهم، التي عاقبهم بها، فذكر من النِّعم عشرة أشياء:

وهي: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾، ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾، ﴿بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾، ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ﴾، ﴿عَفَوْنَا عَنكُم﴾، ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾، ﴿ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾، ﴿فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾، ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ﴾، ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾.

وذكر من سوء أعمالهم عشرة، وهي قوله:

﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾، و﴿ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ﴾، وقولهم: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾، و﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾، و﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾، و﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ﴾، و﴿تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾، و﴿قَسَتْ قُلُوبُكُم﴾ و﴿وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾.

وذكر من عقوبتهم عشرة أشياء، وهي:

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، و﴿يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ﴾، و﴿فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾، و﴿كُونُوا۟ قِرَدَةً﴾، و﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، و﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾، و﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾، و﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾.

وهذا كله جرى لآبائهم المتقدِّمين، وخوطب به المعاصرون لمحمد ﷺ؛ لأنهم متَّبعون لهم، راضون بأحوالهم، وقد وبَّخ الله المعاصرين لمحمد ﷺ بتوبيخات، وهي عشرة أيضاً: كتمانهم أمر محمد ﷺ مع معرفتهم به، و﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ﴾، و﴿يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، و﴿تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾، و﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ﴾ و(حرصهم على الحياة)، وعداوتهم لجبريل عليه السلام، واتباعهم السِّحر، وقولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾، وقولهم: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾. انتهى بتصرُّف من حاشية الجمل.

الإعراب: (يا): أداة نداء تنوب مناب: أدعو، (بني): منادى منصوب، وعلامة نصبه الياء، نيابة عن الفتحة؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم، وحذفت النون للإضافة. و(بني) مضاف و﴿إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ مضاف إليه مجرور، وعلامة جره الفتحة نيابة عن الكسرة؛ لأنه ممنوع من الصرف للعلمية، والعجمة، ويقال: للعلمية، والتركيب المزجي.

﴿ٱذْكُرُوا۟﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها ابتدائية، كالجملة الندائية قبلها. ﴿نِعْمَتِيَ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم، منع من ظهورها اشتغال المحل بالحركة المناسبة، والياء

ضمير متصل في محل جر بالإضافة. ﴿ٱلَّتِىٓ﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل نصب صفة ﴿نِعْمَتِىَ﴾. ﴿أَنْعَمْتُ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية صلة الموصول لا محل لها. والعائد محذوف، التقدير: التي أنعمتها. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: متعلقان بما قبلهما. (أوفوا): فعل أمر، مثل: ﴿ٱذْكُرُوا۟﴾ في إعرابه. ﴿بِعَهْدِىٓ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، وعلامة الجر كسرة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم... إلخ. ﴿أُوفِ﴾: فعل مضارع مجزوم لوقوعه في جواب الأمر، وعلامة جزمه حذف حرف العلة من آخره، وهو الياء. والكسرة قبلها دليل عليها، والفاعل مستتر وجوباً تقديره: أنا، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها جواب شرط مقدر عند الجمهور، التقدير: إنْ توفوا بعهدي أوفِ بعهدكم. ﴿بِعَهْدِكُمْ﴾: متعلقان بما قبلهما. والكاف في محل جر بالإضافة.

﴿وَإِيَّٰىَ﴾: الواو: حرف عطف، (إياي): ضمير منفصل مبني على الفتح في محل نصب مفعول به مقدم لفعل محذوف، التقدير: وإياي ارهبوا. والجملة الفعلية هذه معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها. ﴿فَٱرْهَبُونِ﴾: الفاء: قيل: إنها عاطفة على محذوف، التقدير: تنبهوا، فارهبوا. وقيل: هي زائدة. وأفاد البيضاوي: أنَّها الفصيحة دالة على شرط مقدر، كأنه قيل: إن كنتم راهبين شيئاً؛ فارهبون، وإعراب (ارهبون) مثل إعراب: اذكروا، والنون للوقاية، وياء المتكلم المحذوفة المدلول عليها بالكسرة في محل نصب مفعول به. والجملة الفعلية هذه مؤكدة للجملة المقدرة قبلها. وقال القرطبي: ويجوز في الكلام: «وأنا فارهبون» على الابتداء، والخبر، ويكون ﴿فَٱرْهَبُونِ﴾ الخبر على تقدير الحذف، المعنى: وأنا ربكم فارهبون. انتهى. وبقوله قال مكي.

﴿وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾﴾

الشرح: ﴿وَءَامِنُوا۟﴾: أمر لبني إسرائيل الممثلين باليهود في كل مكان، وزمان. ﴿بِمَآ أَنزَلْتُ﴾: على محمد ﷺ. والمراد: القرآن الكريم. ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ أي: من التوراة، والإنجيل، والقرآن مصدِّقٌ؛ أي: موافق التوراة في التوحيد، وفي كثير من الأحكام، ﴿وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾: الضمير في ﴿بِهِۦ﴾ هو عائد على محمد ﷺ. قاله أبو العالية، وقال ابن جريج: هو عائد على القرآن؛ إذ تضمَّنه قوله: ﴿بِمَآ أَنزَلْتُ﴾، وقيل: هو عائد على التوراة؛ إذ تضمَّنها قوله: ﴿لِّمَا مَعَكُمْ﴾. ﴿وَلَا تَكُونُوٓا۟...﴾ إلخ. والمراد أول فريق كافر، وقال: ﴿أَوَّلَ﴾ وقد كفر قبلهم كفار قريش الذين أنزل في بلدهم، وسمعوه قبل غيرهم، فإنما معناه: من أهل الكتاب؛ إذ هم منظور إليهم في مثل هذا؛ لأنهم حجَّة مظنونٌ بهم علم، وكذلك يراد بالأولية في حقِّهم بالنسبة لِمَن بعدهم من ذرِّيتهم وغيرهم، فيحملون وزرهم، ووزر أتباعهم.

﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ نهاهم الله عن أن يكونوا أول من كفر، وألا يأخذوا على آيات الله ثمناً؛ أي على تغيير صفة محمد ﷺ الموجودة في التوراة شيء، وكان الأحبار يفعلون ذلك، فنهوا عنه. وقيل: المعنى: ولا تشتروا بتغيير أوامري، ونواهي، وآياتي ثمناً قليلاً، والمراد: الدنيا، والعيش الَّذي هو منها، فإنه نزر لا خطر له، ولا شأن بجانب الجنة، ونعيمها الدائم؛ الذي أعدَّه الله للعاملين بما يعلمون.

قال القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ: وهذه الآية وإن كانت نزلت ببني إسرائيل، فهي تتناول مَنْ فعل فعلهم، فمن أخذ رشوة على تغيير حقٍّ، أو إبطاله، أو امتنع من تعليم ما وجب عليه، أو أداء ما علمه ـ وقد تعيَّن عليه ـ حتى يأخذ عليه أجراً؛ فقد دخل في مقتضى هذه الآية. وقد روى أبو داود ـ رحمه الله ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من تعلم علماً ممَّا يُبْتَغى به وجه الله، لا يتعلَّمه إلا لِيُصيب به عرضاً من الدُّنيا؛ لم يجد عَرْفَ الجنَّة يوم القيامة**». عَرْفُ الجنَّة: ريحها. وهو بفتح العين.

هذا واختلف العلماء في أخذ الأجرة على تعليم القرآن، والعلم لهذه الآية، وما كان في معناها، فمنع ذلك الزُّهري، وأصحاب الرأي، وقالوا: لا يجوز أخذ الأجرة على تعليم القرآن الكريم؛ لأنَّ تعليمه واجبٌ من الواجبات؛ التي يحتاج فيها إلى نية التقرُّب، والإخلاص، فلا يؤخذ عليها أجرة، كالصَّلاة، والصيام، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾. وروى أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قلت: يا رسول الله! ما تقول في المعلمين؟ قال: «**درهمهم حرام، وثوبهم سُحْتٌ، وكلامهم رياء**». وروى عبادة بن الصَّامت ـ رضي الله عنه ـ قال: علَّمت ناساً من أهل الصُّفَّة القرآن، والكتابة، فأهدى إليَّ رجلٌ منهم قوساً، فقلت: ليست بمال، وأرمي عنها في سبيل الله! فسألت عنها رسول الله ﷺ فقال: «**إن سرَّك أن تُطوَّق بها طوقاً من نارٍ؛ فاقبلها**». وأجاز أخذ الأجرة على تعليم القرآن: مالكٌ، والشَّافعيُّ، وأحمد، وأبو ثور، وأكثر العلماء؛ لقوله ﷺ في حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في حديث الرُّقية: «**إنَّ أحق ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله**». أخرجه البخاريُّ، وهو نصٌّ يرفع الخلاف، فينبغي أن يعوَّل عليه. قال ابن المنذر: وأبو حنيفة يكره تعليم القرآن بأجرةٍ، ويُجوِّز أن يَستأجِرَ الرَّجلَ يكتبُ له لوحاً، أو شعراً، أو غناءً معلوماً بأجر معلوم، فيجوِّز الإجارة فيما هو معصيةٌ، ويبطلها فيما هو طاعةٌ. ولا بد من القول: إنَّ المعلم إذا لم يكن له دخل يكفيه لمعيشته، ومعيشة مَنْ يعول: فكيف يستطيع التَّعليم، بل والتفرُّغ للقيام بالشَّعائر الدِّينيَّة، وهو بحاجة إلى لقمة العيش؟!

وروي عن النَّبيِّ ﷺ: أنه قال: «**خير الناس، وخير من يمشي على جديد الأرض المعلِّمون، كلَّما خَلَقَ الدِّينُ جدَّدوه. أعطوهم، ولا تستأجروهم، فتحرجوهم، فإنَّ المُعَلِّم إذا قال للصبي: قل: بسم الله الرحمن الرحيم، فقال الصَّبيُّ: بسم الله الرحمن الرحيم، كتب الله براءةً للصَّبيِّ، وبراءةً للمعلم، وبراءة لأبويه من النَّار**».

هذا و﴿أَوَّلَ﴾ فيه مسائل:

الأولى: الصَّحيح: أنَّ أصله «أوأل» بوزن: أفعل، قلبت الهمزة الثانية، واواً، ثم أدغمت بما قبلها فصار أوَّل، بدليل قولهم في الجمع أوائل، وقيل: أصله: وَوَّل بوزن فوعل، قلبت الأولى همزة، وإنما لم يجمع على أواول لاستثقالهم اجتماع الواوين بينهما ألف الجمع.

الثانية: الصحيح: أن أوَّل لا يستلزم ثانياً، وإنَّما معناه: ابتداءُ الشيء، ثمَّ قد يكون له ثانٍ، وقد لا يكون، تقول: هذا أول مالٍ اكتسبته، وقد تكتسب بعده شيئاً، وقد لا تكتسب. وقيل: إنَّه يستلزم ثانياً كما أنَّ الآخر يقتضي أولاً، فلو قال: إن كان أوَّل ولد تلدينه ذكراً؛ فأنت طالق، فولدت ذكراً ولم تلد غيره، وقع الطلاق على الأول دون الثاني.

الثالثة: لـ: (أول) استعمالان: أحدهما: أن يكون صفة؛ أي: أفعل تفضيل بمعنى: الأسبق، فيعطى هذا حكم أفعل التفضيل، مِنْ منع الصرف، وعدم تأنيثه بالتاء، ودخول من عليه، نحو: هذا أوَّلُ هذين، ولقيته عاماً أوَّل. والثاني: أن يكون اسماً مصروفاً نحو لقيته عاماً أولاً، ومنه قولهم: ما له أوَّلٌ ولا آخر، قال أبو حيان رحمه الله تعالى في محفوظي: إن هذا يؤنَّث بالتاء، ويصرف أيضاً، فيقال: أوَّلَةٌ، وآخرةٌ بالتنوين. انتهى جمع الجوامع شرح همع الهوامع للسُّيوطي، رحمه الله تعالى.

الإعراب: (آمنوا): فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق، ﴿بِمَآ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، و(ما) تحتمل الموصولة، والموصوفة، فهي مبنية على السكون في محل جر بالباء. ﴿أَنزَلْتُ﴾: فعل وفاعل. والجملة الفعلية صلة (ما) أو صفتها، والعائد أو الرابط محذوف، التقدير: بالذي، أو بشيء أنزلته. ﴿مُصَدِّقًا﴾ حال من (ما) أو من الضمير العائد عليها، وأجيز اعتبار (ما) مصدرية، وهو ضعيف معنىً. ﴿لِّمَا﴾: جار ومجرور متعلقان بـ﴿مُصَدِّقًا﴾ و(ما) تحتمل الموصولة، والموصوفة أيضاً. ﴿مَعَكُمْ﴾: ظرف مكان متعلق بمحذوف صلة (ما) أو بمحذوف صفتها، التقدير: للذي يوجد معكم، أو لشيء كائن معكم. والكاف في محل جر بالإضافة. هذا؛ وابن هشام رحمه الله تعالى يعتبر اللام في مغنيه زائدة، وسمَّاها لام التقوية، فإذاً (ما) مجرورة لفظاً، منصوبة محلاً مثل قوله: ﴿لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ وقوله تعالى في كثير من الآيات: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾، ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾، ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾ وأورد قول حاتم الطائي، وقيل: هو من قول قيس بن عاصم المنقري ـ رضي الله عنه ـ وهذا هو الشاهد رقم [٣٩٨] من كتابنا فتح القريب المجيب: [الطويل]

إِذَا مَا صَنَعْتِ الزَّادَ فَالْتَمِسِي لَهُ ... أَكِيلاً فَإِنِّي لَسْتُ آكِلَهُ وَحْدِي

وجملة: (آمنوا...) إلخ: معطوفة على جملة: ﴿اذْكُرُوا...﴾ إلخ لا محل لها. ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): ناهية جازمة. ﴿تَكُونُوا﴾: فعل مضارع مجزوم بـ (لا) وعلامة جزمه

حذف النون لأنه من الأفعال الخمسة، وهو ناقص، والواو اسمه، والألف للتفريق. ﴿أَوَّلَ﴾: خبر: ﴿تَكُونُوٓاْ﴾ وهو مضاف و﴿كَافِرِۭ﴾: مضاف إليه، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، وجملة: (لا تشتروا) معطوفة أيضاً، وإعرابها مثلها. ﴿بِـَٔايَٰتِي﴾: متعلقان بما قبلهما، وعلامة الجر كسرة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم، منع من ظهورها اشتغال المحل بالحركة المناسبة. ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ﴾: إعراب هذا التركيب مثل إعراب: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ في الآية السابقة بلا فارق.

﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾

الشرح: ﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾: اللبس: الخلط، يقال: لبست عليه الأمر ألبسه: إذا مزجت بيِّنَه بمشكله، وحقَّه بباطله، قال تعالى في سورة (الأنعام) رقم [٩]: ﴿وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ﴾ ومن هذا المعنى قول عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ للحارث بن حوط: يا حارِ إنَّه ملبوس عليك، إنَّ الحق لا يُعرف بالرِّجال، اعرف الحق تعرف أهله. وقالت الخنساء ـ رضي الله عنها ـ: [البسيط]

تَرَى الْجَلِيْسَ يَقُولُ الْحَقَّ تَحْسَبُهُ ... رُشْداً وَهيهَاتَ فَانظُرْ مَا بِهِ الْتَبَسَا

صَدِّقْ مَقَالَتَهُ وَاحْذَرْ عَدَاوَتَهُ ... وَالبِسْ عَلَيْهِ أُمُوراً مِثْلَ مَا لَبَسَا

وروى سعيد بن جبير عن قتادة، يقول: لا تلبسوا اليهودية والنَّصرانية بالإسلام، وقد علمتم: أنَّ دين الله؛ الذي لا يقبل غيره، ولا يجزي إلا به الإسلامُ، وأنَّ اليهودية والنَّصرانية بدعة، وليست من الله. وعن ابن عباسٍ ـ رضي الله عنهما ـ، وغيره: لا تخلطوا ما عندكم من الحق في الكتاب بالباطل، وهو التغيير، والتبديل. وقال أبو العالية: قالت اليهود: محمد مبعوثٌ، ولكن إلى غيرنا، فإقرارهم ببعثه حقٌّ، وجحدهم أنه بعث إليهم باطلٌ. ﴿وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ﴾: قال ابن عباس: يعني: كتمانهم أمر النبي ﷺ، وهم يعرفونه.

﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾: أنَّ محمداً ﷺ حقٌّ، فكفرهم به كان كفر عناد، ولم يشهد لهم الله بعلم، وإنما نهاهم عن كتمان ما علموا، ودلَّ هذا على تغليظ الذنب على من واقعه على علمٍ؛ وأنَّه أعصى من الجاهل. انتهى. قرطبي. والآية المذكورة بحروفها ومعناها في الآية رقم [٧١] من (آل عمران).

هذا؛ وانظر شرح الحق في الآية رقم [٢٦]، والكتمان في الآية رقم [٣٣]. هذا؛ و(الباطل) ضد الحق، و(الباطل) بمعنى الفاسد، والبطلان: عبارة عن عدم الشيء، إما بعدم ذاته، أو بعدم فائدته، ونفعه. هذا و«بَطَل» من باب دخل، والبَطَل بفتحتين: الشجاع، والبُطْل بضم فسكون: الباطل، والكذب، والزور، والبهتان. والبَطَالة: التعطُّل، والتفرُّغ من العمل، ويجمع باطل على أباطيل شذوذاً، كما شذ: أحاديث، وأعاريض، وأفاظيع في جمع: حديث، وعريض، وفظيع.

هذا؛ و«مبطل» اسم فاعل من أبطل الرباعي. هذا؛ و(الباطل) في قوله تعالى في سورة (فصلت) رقم [٤٢]: ﴿لَا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾، قال السدي، وقتادة: الباطل: الشيطان، لا يستطيع أن يغير في القرآن شيئاً، ولا يزيد، ولا ينقص منه. وقوله تعالى في سورة (الشورى) رقم [٢٤]: ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾ الباطل: الشرك، والبَطَلة في قول الرسول ﷺ: «**لا تستطيعها البطلة**» أي: لا تستطيع قراءةَ سورة البقرة السَّحرةُ. وانظر الآية رقم [١٨٧].

هذا والفعل ﴿تَعْلَمُونَ﴾ من المعرفة، لا من العلم اليقيني، والفرق بينهما: أن المعرفة تكتفي بمفعول واحد، قال ابن مالك رحمه الله تعالى في ألفيته: [الرجز]

لِعِلْمِ عِرْفَانٍ وَظَنٍّ تُهَمَهْ   تَعْدِيَةٌ لِوَاحِدٍ مُلْتَزَمَهْ

بخلافه من العلم اليقيني، فإنه ينصب مفعولين، أصلهما مبتدأ وخبر. وأيضاً فالمعرفة تستدعي سبق جهل، وأن متعلقها الذوات دون النسب، بخلاف العلم فإن متعلقه المعاني، والنسب. وتفصيل ذلك بأنك إذا قلت: عرفت زيداً، فالمعنى أنك عرفت ذاته، ولم ترد أنك عرفت وصفاً من أوصافه، فإذا أردت هذا المعنى؛ لم يتجاوز مفعولاً؛ لأنَّ العلم والمعرفة تناول الشيء نفسه، ولم يقصد إلى غير ذلك، وإذا قلت: علمت زيداً عالماً، أو قائماً، لم يكن المقصود: أن العلم تناول نفس زيد فحسب، وإنَّما المعنى: أن العلم تناول كون زيد موصوفاً بهذه الصفة.

الإعراب: ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): ناهية جازمة. ﴿تَلْبِسُوا۟﴾: فعل مضارع مجزوم بـ(لا) وعلامة جزمه حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾ متعلقان بالفعل قبلهما، أو هما متعلقان بمحذوف حال من ﴿ٱلْحَقَّ﴾ أي: ملتبساً بالحق. ﴿وَتَكْتُمُوا۟﴾: معطوف على سابقه، فهو مجزوم مثله، ويحتمل أن يكون منصوباً بـ«أن» مضمرة بعد واو المعية، وعلامة الجزم أو النصب حذف النون... إلخ، والواو فاعله. ﴿ٱلْحَقَّ﴾: مفعول به، وعلى نصبه؛ ف: «أن» المضمرة والفعل في تأويل مصدر معطوف على مصدر متصيد من الفعل السابق. التقدير: لا يكن منكم لبس للحق بالباطل، وكتمان الحق. ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: انظر إعراب هذه الجملة في الآية رقم [٢٢]، ومفعول ﴿تَعْلَمُونَ﴾ محذوف، التقدير: تعلمون أنه الحق. والجملة الاسمية في محل نصب حال من واو الجماعة، والرابط: الواو، والضمير.

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾

الشرح: ﴿وَأَقِيمُوا۟﴾ أمرٌ معناه الوجوب، وأصله: «أَقْوِموا»، فقل في إعلاله: اجتمع معنا حرف صحيح ساكن، وحرف علَّة متحرك، والحرف الصحيح أولى بالحركة من حرف العلة، فنقلت حركة الواو إلى القاف قبلها، فصار: (أَقِوْموا) ثم قلبت الواو ياء لمناسبة الكسرة قبلها، ومعنى: (أقيموا الصلاة): أدوها في أوقاتها، وحافظوا على طهارتها، وأتمُّوا لها ركوعها،

وخشوعها، ومن لم يؤدِّها على الوجه الأكمل، يقال عنه: صلى، ولا يقال: أقام الصلاة. هذا؛ والصَّلاة في اللُّغة: الدعاء، والتَّضرُّع، وهي في الشرع: أقوال وأفعال مخصوصة، مبتدأة بالتكبير، مختتمة بالتَّسليم، ولها شروط، وأركان، ومبطلات، ومكروهات، ومندوبات مذكورة في الفقه الإسلامي. والصَّلاة من العبد معناها: التَّضرُّع، والدُّعاء، ومن الملائكة على العبد معناها: الاستغفار، وطلب الرَّحمة له، ومن الله على عباده معناها: الرحمة، وإنزال البركات، وقد جمعت الأنواع الثلاثة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ الآية رقم [٥٦] من سورة (الأحزاب)، وانظر الآية رقم [١٥٣] الآتية.

﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: أمر يقتضي الوجوب أيضاً، والإيتاء: الإعطاء. يقال: آتيته: أعطيته، قال الله تعالى حكاية عن قول المنافق في سورة (التوبة) رقم [٧٥]: ﴿لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ وأتيته بالقصر من غير مدٍّ: جئته، فإذا كان المجيء بمعنى الاستقبال مُدَّ، ومنه الحديث: ولآتين رسول الله ﷺ فلأخبرنه هذا. وأصل (آتوا): «آتِيُوا» فاستثقلت الضمة على الياء، فحذفت، فالتقى ساكنان: الياء والواو، فحذفت الياء لعلة الالتقاء، فصار: (آتِوا) ثم قلبت الكسرة ضمة لمناسبة الواو. هذا والزكاة في اللغة: التَّطهير، والإصلاح، والنَّماء، والمدح. يقال: زكا الزرع، والمال، يزكو: إذا كثر، وزاد، وسمِّي الإخراج من المال: زكاةً، وهو نقص منه من حيث ينمو بالبركة، قال تعالى في سورة (سبأ): ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ رقم [٣٩]، كما يقال: زكا فلان؛ أي: طهر من دنس الجَرْحَة، والإغفال، فكأن الخارج من المال يطهره من تبعة الحق الذي جعل الله فيه للمساكين، ألا ترى: أنَّ النبي ﷺ سمى ما يخرج من الزكاة: أوساخ الناس، وقد قال الله تعالى في سورة (التوبة) رقم [١٠٣]: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾.

والزكاة في الشرع: اسم لما يخرج عن مال، أو بدن على وجه مخصوص، وهي أحد أركان الإسلام الخمسة؛ التي بني عليها الإسلام، ومن ثم يكفر جاحدها على الإطلاق، وفي القدر المجمع عليه، ويقاتل الممتنع من أدائها، وتؤخذ منه قهراً، كما فعل الصدِّيق، رضي الله عنه. وتدفع الزكاة لأشخاصٍ معلومين، مذكورين في الآية رقم [٦٠] من سورة (التوبة). وزكاة الفطر لا نصَّ صريحاً في القرآن عليها إلا ما تأوله بعض المفسرين في قوله تعالى في سورة الأعلى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ وسأتحدث عنها إن شاء الله عند الكلام على الصيام، لأن رسول الله ﷺ فرض زكاة الفطر في رمضان.

هذا وخصَّ الله تبارك وتعالى الصَّلاة والزَّكاة بالذِّكر؛ لأنَّ الصلاة أفضل العبادات البدنية، وشرعت لذكر الله، والزكاة أفضل العبادات المالية، وشرعت للعطف على الفقراء، والمساكين، ومجموعهما التعظيم لأمر الله تعالى، والشَّفقة على خلق الله. هذا؛ وأضيف: أنَّ الزكاة قرينة

الصَّلاة، فقد روي: أن أعرابيّاً جاء إلى ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ فقال له: يا بن عباس أنت حبر الأمة، وترجمان القرآن، قد علَّمك الله أسرار الكتاب، وفقَّهك في الدين، فقل لي بربِّك: لماذا قرن الله الصلاة إلى الزكاة في القرآن في أكثر من ثلاثين آية؟ فقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ذلك لتعلم: أن الصلاة، والزكاة توءمان، لا يقبل الله إحداهما بدون الأخرى، تلك حقُّ الله، وهذه حقُّ الناس. رضي الله عن الصدِّيق الَّذي سوَّى بين المرتدين، ومانعي الزكاة في القتال، والمحاربة، كما هو معلوم، ومشهور. وخذ قول أحمد شوقي رحمه الله تعالى: [الوافر]

وَلَمْ أَرَ مِثْلَ جَمْعِ الْمَالِ دَاءً ... وَلَا مِثْلَ الْبَخِيلِ بِهِ مُصَابَا

عَجِبْتُ لِمَعْشَرٍ صَلَّوْا وَصَامُوا ... ظَوَاهِرَ خَشْيَةٍ وَتُقىً كِذابا

وَتُلْفِيهِمْ حِيَالَ الْمَالِ صُمّاً ... إِذَا دَاعِي الزَّكَاةِ بِهِمْ أَهَابَا

لَقَدْ كَتَمُوا نَصِيبَ اللهِ مِنْهُ ... كَأَنَّ اللهَ لَمْ يُحْصِ النِّصَابَا

وَمَنْ يَعْدِلْ بِحُبِّ اللهِ شَيْئاً ... كَحُبِّ الْمَالِ ضَلَّ هَوىً وَخَابَا

وخذ قول أبي العتاهية الصُّوفي رحمه الله تعالى: [الكامل]

أَقِمِ الصَّلَاة لِوَقْتِهَا بِشُرُوطِهَا ... فَمِنَ الضَّلَالِ تَفَاوُتُ الْمِيقَاتِ

وَإِذَا اتَّسَعْتَ بِرزقِ رَبِّكَ فَاجْعَلَنْ ... مِنْهُ الأجلَّ لأوْجُهِ الصَّدَقَاتِ

فِي الأَقْرِبِينَ وَفِي الأَبَاعِدِ تَارَةً ... إِنَّ الزَّكَاةَ قَرِينَةُ الصَّلَوَاتِ

هذا؛ وقال القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ في غير هذا الموضع: وفي حديث: أنَّ النبي ﷺ قال: «**مَنْ فرَّق بين ثلاث؛ فرق الله بينه وبين رحمته يوم القيامة: من قال: أطيع الله، وَلَا أُطيع الرسول، والله يقول:** ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾. **ومن قال: أقيم الصلاة ولا أوتي الزكاة، والله تعالى يقول:** ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾. **ومن فرَّق بين شكر الله، وشكر والديه، والله عز وجل يقول:** ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾».

أمَّا (الركوع) فهو في اللغة الانحناء في الشخص، وكلُّ منحنٍ راكع، قال لبيد ـ رضي الله عنه ـ: [الطويل]

أَخَبِّرُ أَخبَارَ الْقُرونِ الَّتِي مَضَت ... أَدُبُّ كَأَنِّي كُلَّمَا قُمْتُ رَاكِعُ

وقيل: الانحناء يعمُّ الركوع والسجود، ويستعار أيضاً للانحطاط في المنزلة، كما في قول الأضبط بن قريع السعدي، وهو الشاهد رقم [٧٠] من كتابنا: «فتح ربِّ البرية». والشاهد [١٠٩٩] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»: [الخفيف]

لَا تُـهِـنِ الْـفَـقِـيـرَ عَـلَّـكَ أَنْ تَـرْ كَـعَ يَـوْمَـاً وَالْـدَّهْـرُ قَـدْ رَفَـعَـهْ

هذا؛ واختلف الناس في تخصيص الركوع بالذِّكر دون ذكر بقية الأركان، فقال قوم: جعل الركوع عبارة عن الصلاة كلها. وقيل: عبر عن الصَّلاة بالركوع ردّاً على اليهود، والنصارى؛ لأن صلاتهم لا ركوع فيها. فكأنَّ الله تعالى قال لهم: صلوا الصَّلاة ذات الركوع في جماعة المسلمين.

هذا وفي قوله تعالى: ﴿وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ أمرٌ صريحٌ بالصَّلاة جماعة مع المصلين. وقد اختلف العلماء في حكم الصلاة في الجماعة، فالذي عليه الجمهور: أن الصلاة في الجماعة من السنن المؤكدة، وقد أوجبها بعض أهل العلم فرضاً على الكفاية.

وفي بيان ثوابها يقول الرسول ﷺ: «**صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة**». أخرجه مسلم ـ رحمه الله تعالى ـ من حديث ابن عمر، رضي الله عنهما. وقال الإمام أحمد، وداود الظاهري: الصَّلاة في الجماعة فرضٌ على كلِّ أحدٍ لقول النبي ﷺ: «**لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد**». أخرجه أبو داود، وصحَّحه أبو محمد عبد الحق، وهو قول عطاء، وأبي ثور، وغيرهما. وقال الشافعي ـ رحمه الله تعالى ـ: لا أرخص لمن قدر على الجماعة في ترك إتيانها إلا من عذرٍ، حكاه ابن المنذر. أقول: والقول بالوجوب هو الحقُّ للأحاديث الصَّحيحة. وخذ ما يلي:

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من سمع المنادي، فلم يمنعه من اتِّباعه عُذْرٌ** ـ قالوا: وما العذر؟ قال: «**خوف، أو مرض ـ لم تقبل منه الصَّلاة التي صلَّى**». رواه أبو داود، وابن حبَّان في صحيحه، وابن ماجه بنحوه.

وعن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما مِنْ ثلاثةٍ في قريةٍ، ولا بدوٍ، لا تقام فيهم الصَّلاة إلا استحوذَ عليهمُ الشَّيطان. فعليكم بالجماعة، فإنَّما يأكل الذئبُ من الغنم القاصِية**». رواه أحمد، وأبو داود، والنَّسائي، والحاكم، وابن خزيمة، وابن حبَّان.

وعن معاذ بن أنس ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ: أنه قال: «**الْجَفَاءُ كُلَّ الْجَفَاءِ وَالْكفرُ وَالنِّفَاقُ مَنْ سَمِعَ مُنَادِيَ اللهِ يُنَادِي إِلَى الصَّلَاةِ، فَلَا يُجِيبُه**». رواه الإمام أحمد، والطَّبراني. وعن عمرو بن أم مكتوم ـ رضي الله عنه ـ قال: «**قلت: يا رسول الله! أنا ضرير شاسعُ الدار، ولي قائد لا يلايمني، فهل تجد لي رخصة أن أصلي في بيتي، قال: أتسمع النِّداء؟ قال: نعم، قال: ما أجد لك رخصة**». رواه أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، وابن خزيمة، وانظر ما ذكرته في تفسير قوله تعالى في سورة الفاتحة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. هذا وفي هذه الأيام كثر الهراء بمنع المرأة من الحضور إلى المساجد، واستدلُّوا بأحاديث لم يفهموا مغزاها، ولم يدركوا معناها، ولم يعرفوا أسبابها، ومرماها، وقد ثبت: أنَّ النِّساء دخلن

المسجد، وصلَّيْنَ مع النبي ﷺ فيه الجمعة، والعيدين، بل والصلوات الخمس، وصلَّين مع الخلفاء الرَّاشدين الجماعة، والجمعة، والعيدين، والأدلَّة كثيرة لا أطيل الكلام بذكرها هنا، والذي يفهم قول الفاروق ـ رضي الله عنه ـ وسببه: أخطأ رجلٌ، وأصابت امرأة؛ يفهم ما يفهم.

الإعراب: ﴿وَأَقِيمُواْ﴾: الواو: حرف عطف. (أقيموا): فعل أمر مبني على حذف النون لاتصاله بواو الجماعة؛ التي هي فاعله، والألف للتفريق. ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها. لا محل لها أيضاً، والتي بعدها معطوفة عليها. ﴿مَعَ﴾: ظرف مكان متعلق بالفعل قبله، وهو مضاف، و﴿ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ مضاف إليه مجرور، وعلامة جره الياء نيابة عن الكسرة؛ لأنه جمع مذكر سالم، والنون عوض عن التنوين في الاسم المفرد.

﴿۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٤٤﴾

الشرح: ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ...﴾ إلخ: هذا استفهام معناه: التوبيخ، والتأنيب، والتقريع. والمراد: علماء اليهود بالإجماع، ومثلهم علماء المسلمين المنافقين في كلِّ زمانٍ، ومكان، كما ستقف عليه. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كان يهود المدينة يقول الرَّجل منهم لقريبه، ولصديقه من المسلمين: اثبت على ما أنت عليه، وما يأمرك به هذا الرَّجل؛ فإن أمره حقٌّ. يريدون النبيَّ ﷺ، فكانوا يأمرون غيرهم بذلك، ولا يفعلونه.

وعنه أيضاً كان الأحبار من اليهود يأمرون مقلِّديهم، وأتباعهم باتِّباع التوراة، وكانوا يخالفونها في جحدهم صفة محمد ﷺ. وقال ابن جريج: كان الأحبار يحضُّون على طاعة الله، وكانوا هم يواقعون المعاصي. وقال النَّسفي، وغيره: نزلت الآية الكريمة في ذمِّ أحبار اليهود، فقد كانوا يأمرون النَّاس بالصَّدقة، ولا يتصدَّقون، وإذا أتوا بالصدقة ليفرِّقوها؛ خانوا فيها.

هذا وقد جاء التَّحذير، بل والنَّكير، والوعيد الشَّديد، والتَّهديد لمن يخالف فعله قوله، وينهى غيره، وينسى نفسه في أحاديث النبي ﷺ، وخذ من ذلك ما يلي: فعن أسامة بن زيد ـ رضي الله عنهما ـ: أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**يجاء بالرَّجل يوم القيامة، فيلقى في النار، فتندلق أقتابه، فيدور بها، كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار عليه، فيقولون: يا فلان! ما شأنك؟ ألست كنت تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر؟! فيقول: كنت آمركم بالمعروف، ولا آتيه، وأنهاكم عن الشرِّ، وآتيه**». قال: وإني سمعتُه يقول: «**مررت ليلة أُسري بي بأقوامٍ تقرض شفاههم بمقاريض من نار، قلت: مَنْ هؤلاء يا جبريل؟! قال: هؤلاء خطباء أمَّتِك الَّذين يقولون ما لا يفعلون**». رواه البخاريُّ، ومسلم.

وعن أبي برزة الأسلميِّ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مثل الَّذي يُعلِّم الناس الخير، وينسى نفسه، مثل الفتيلة، تضيء للنَّاس، وتحرق نفسها**». رواه البزَّار. وعن أبي هريرة

ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أشدُّ النَّاس عذاباً يوم القيامة عالمٌ لم ينفعه علمه**». رواه الطَّبرانيُّ في الصغير، والبيهقيُّ. والأحاديث في ذلك كثيرةٌ. وقد قال تعالى في سورة الجمعة رقم [٥] في حقِّ علماء اليهود، وينطبق على علماء السُّوء المسلمين: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًاۢ﴾. وخذ نبذة من شعر الشُّعراء في هذا الباب؛ من ذلك قول منصور الفقيه: [مجزوء الكامل]

إنَّ قَـوْمـاً يَـأْمُـرونَـا بِـالَّـذِي لَا يَـفْـعَـلُـونَـا
لَـمَـجَـانِـيـنُ وَإنْ هُـمْ لَـمْ يَـكُـونُـوا يُـصْـرَعُـونَـا

وقال أبو العتاهية الصُّوفي ـ رحمه الله تعالى ـ: [الطويل]

وَصَفْتَ الْتُّقَى حَتَّى كأنك ذُو تُقَى وَرِيحُ الْخَطَايَا مِنْ ثِيَابِكَ تَسطع

وقيل: مَنْ وَعَظَ بقوله؛ ضاع كلامه، ومَنْ وَعَظَ بفعله؛ نفذت سهامه.

وقال أبو الأسود الدؤلي من قصيدته المشهورة، ومنها الشاهدان رقم [٣٨٦] و[٦٧٤] من كتابنا فتح القريب المجيب: [الكامل]

يَا أَيُّهَا الْرَّجُلُ المعلِّمُ غَيْرَهُ هَلَّا لِنَفْسِكَ كَانَ ذَا التَّعلِيمُ
تَصِفُ الْدَّواءَ لِذِي السِّقَامِ وَذِي الضَّنَى كَيْمَا يَصحُّ بِهِ وَأَنْتَ سَقِيمُ
وَأَرَاكَ تُصلح بِالرَّشَادِ عُقُولَنَا أَبَداً وَأَنْتَ مِنَ الرَّشَادِ عَدِيمُ
اِبْدَأْ بِنَفسِكَ فَانْهَهَا عَنْ غَيِّهَا فَإِذَا انْتَهَتْ عَنْهُ فَأَنْتَ حَكيْمُ
فَهُنَاكَ يُسْمَعُ مَا تَقُولُ ويُشتَفَى بِالْقَوْلِ مِنْكَ وَيَنْفعُ التَّعْلِيمُ
لَا تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِي مِثْلَهُ عَارٌ عَلَيْكَ إذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ

وقال أبو عثمان الحيري الزَّاهد ـ رحمه الله تعالى ـ: [الطويل]

وَغَيْرُ تَقيٍّ يَأمرُ الْنَّاسَ بِالتُّقَى طَبِيبٌ يُدَاوِي وَالطَّبِيبُ مَرِيضُ

وقال إبراهيم النَّخعيُّ ـ رحمه الله تعالى ـ: إني لأكره القصص (الوعظ، والإرشاد) لثلاث آيات: قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ...﴾ إلخ. وقوله تعالى: في سورة (الصَّف) رقم [٢]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾. وقوله تعالى في سورة (هود) رقم [٨٨] حكاية عن قول شعيب ـ على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُۚ﴾. وقال الجماز ابن أخت سلم بن عمرو الخاسر: [السريع]

مَا أَقْبَحَ التَّزْهِيدَ مِنْ وَاعِظٍ يُزَهِّدُ النَّاسَ وَلَا يَزْهَدُ

لَـوْ كَـانَ فِـي تَـزهِـيـدِهِ صَـادِقـاً أَضْـحَـى وَأَمْـسَـى بَـيْـتَـه الْـمَـسْـجِـدُ
إنْ رَفَـضَ الْـدُّنْـيَـا فَـمَـا بَـالُـهُ يَـسْـتَـمْـنِـحُ الْـنَّـاسَ وَيَـسْـتَـرْفِـدُ
وَالْـرِّزْقُ مَـقْـسُـومٌ عَـلَـى مَـنْ تَـرَى يَـنَـالُـهُ الأَبْـيَـضُ وَالأَسْـوَدُ

أما (البِرُّ) بكسر الباء: فهو كلمة جامعةٌ لخصال الخير الدنيويَّة، والأخرويَّة، وانظر أعمال البر التي ذكرها الله تعالى في الآية رقم [١٧٦] الآتية، و«البُرُّ» بضم الباء: القمح، وبفتحها: الإجلال والتعظيم، ومنه ولد بار، وبرٌّ؛ أي: يعظم والديه، ويكرمهما ومن أسماء الله تعالى (البَرُّ). هذا؛ والبَرُّ: الأرض الفلاة، والأرض اليابسة ما عدا البحر.

(تنسون): أصله «تَنْسَيُون» فيقال في إعلاله: تحركت الياء، وانفتح ما قبلها، فقلبت ألفاً، فصار: «**تَنْسَاون**» ثم حذفت الألف لالتقاء الساكنين، فصار: (تَنْسَوْنَ) ويقال أيضاً: استثقلت الضمة على الياء، فحذفت، ثم حذفت الياء لالتقاء الساكنين. هذا والنسيان: مصدر: نسيت الشيء، أنساه. وهو مشترك بين معنيين: أحدهما: ترك الشيء عن ذهولٍ، وغفلةٍ. ومنه قول الرسول ﷺ: «**نسي آدم، فنسيت ذريَّته**». ومنه أيضاً قوله تعالى حكاية عن قول فتى موسى ـ على نبينا وعليه ألف صلاةٍ، وألف سلام ـ: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾. والثاني: الترك عن تعمُّد، وقصد، وهو المراد في الآية، وفي قوله تعالى في سورة (التَّوبة) رقم [٦٧]: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾، وقوله تعالى في سورة (الأنعام) رقم [٤٤]، وفي سورة (الأعراف) رقم [١٦٥]: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾، وقوله تعالى في الآية رقم [٢٣٧] الآتية: ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾.

﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾: تقرؤون التوراة. وفيه الوعيد الشديد، والتوبيخ العظيم على مخالفة القول العمل لعلماء اليهود، ومن فعل فعلهم كان مثلهم بلا ريب. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾: أفلا تمنعون أنفسكم من مواقعة هذه الحال المردية لكم؟ ولا ينبغي أن ينتفي عنكم العقل، وما ينتج عنه من ثمرات. هذا؛ والعقل: المنع، ومنه عقال البعير؛ الذي تشدُّ به ركبته؛ لأنه يمنع من الحركة، وقد سمِّي العقل عقلاً؛ لأنه يعقل صاحبه: أي: يمنعه من فعل الرذائل، لذا فإنَّ كل شخص لا يسير على الجادة المستقيمة لا يكون عاقلاً بالمعنى الصحيح، فقد ورد: أنه مرَّ رجل معتوهٌ على مجلس النَّبيِّ ﷺ فقال الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ: هذا رجل مجنون، فقال ﷺ: «**هذا مصاب، إنما المجنون مَنْ أصر على معصية الله**». والعقل: الدِّية، سميت بذلك؛ لأن الإبل المؤداة، تعقل بباب وليِّ المقتول. والعقال أيضاً: صدقة عام، قال الشاعر يهجو عاملاً على الصَّدقات: [البسيط]

سَـعَـى عِـقَـالاً فَـلَـمْ يَـتْـرُكْ لَـنَـا سَـبَـداً فَـكَـيْـفَ لَـوْ قَـدْ سَـعَـى عَـمْـرٌو عِـقَـالَـيْـنِ؟
لأَصْـبَـحَ الـنَّـاسُ أَوْبَـاداً وَلَـمْ يَـجِـدُوا عِـنْـدَ الـتَّـفَـرُّقِ فِـي الْـهَـيْـجَـا جِـمَـالَـيْـنِ

هذا؛ والعقل: ثوب أحمر، تتخذه نساء العرب تغشي به الهوادج، قال علقمة: [البسيط]

عَقْلاً وَرَقْماً تَكَادُ الطَّيْرُ تَخْطَفُهُ كَأَنَّهُ مِنْ دَمِ الأَجْوَافِ مَدْمُومُ

هذا والعقل: جوهر لطيف في البدن ينبت شعاعه منه بمنزلة السِّراج في البيت، يفصل به بين حقائق المعلومات، ثم اختلفوا في محلِّه. فقالت طائفة منهم: محلُّه الدِّماغ؛ لأنَّ الدِّماغ محل الحسِّ. وقالت طائفة أخرى: محلُّه القلب؛ لأنَّ القلب معدن الحياة، ومادة الحواس، ويردُّ هذين القولين: أنَّ فاقد العقل لم يفقد دماغه، ولا قلبه، بل هما موجودان فيه. بل القول الصَّحيح: إنَّ هناك لطيفةٌ ربانيَّة لا يعلمها إلا الله تعالى: فمن حيث تفكُّرها تسمى: عقلاً، ومن حيث حياة الجسد بها تسمَّى: روحاً، ومن حيث شهوتها تسمَّى: نفساً. انظر الآية رقم [٩]. وقال الخازن رحمه الله تعالى: والعقل قوَّةٌ تهيئ قبول العلم، ويقال للعلم الذي يستفيد منه الإنسان بتلك القوَّة: عقل، ومنه قول عليِّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: [الهزج]

وَإِنَّ الْعَقْلَ عَقْلاَنِ فَمَطْبُوعٌ وَمَسْمُوعُ

وَلَا يَنْفَعُ مَطْبُوعٌ إِذَا لَمْ يَكُ مَسْمُوعُ

كَمَا لَا تَنْفَعُ الشَّمْسُ وَضَوْءُ الْعَيْنِ مَمْنُوعُ

هذا؛ والهمزة في قوله: ﴿أَفَلَا﴾ للإنكار كما رأيت، وهي في نية التأخير عن الفاء؛ لأنها حرف عطف، وكذا تُقدَّم على الواو، وثُمَّ، تنبيهاً على أصالتها في التصدير، نحو قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ...﴾ إلخ، ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ...﴾ إلخ، ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾. وأخواتها تتأخر عن حروف العطف، كما هو قياس جميع أجزاء الجملة المعطوفة، نحو قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ﴾، ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ...﴾ إلخ. هذا مذهب سيبويه والجمهور، وخالف في ذلك جماعةٌ، أوَّلهم الزمخشري، فزعموا: أنَّ الهمزة في الآيات المتقدمة في محلها الأصلي، وأنَّ العطف على جملة مقدرة بينها وبين العاطف، فيقولون: التقدير في: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ...﴾ إلخ، ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا﴾ ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ﴾ أمكثوا في الأرض فلم يسيروا؟ أنهملكم، فنضرب عنكم؟ أتؤمنون في حياته، فإن مات، أو قتل... إلخ. ويضعف قولهم ما فيه من التكلُّف، وأنه غير مطَّرد في جميع المواضع. انتهى مغني اللبيب بتصرف. وانظر الآية رقم [١٠٠].

الإعراب: ﴿أَتَأْمُرُونَ﴾: الهمزة: حرف استفهام وتوبيخ. (تأمرون): فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله. ﴿ٱلنَّاسَ﴾: مفعول به. ﴿بِٱلْبِرِّ﴾ متعلقان بالفعل قبلهما، والجملة الفعلية مستأنفة لا محل لها، وجملة: (تنسون أنفسكم): معطوفة عليها، لا محل لها مثلها.

﴿وَأَنتُمْ﴾: الواو: واو الحال. (أنتم) ضمير منفصل مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿تَتْلُونَ﴾: فعل مضارع وفاعله. الكتاب: مفعول به، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل نصب حال من واو الجماعة، والرابط الواو، والضمير.

﴿أَفَلَا﴾: الهمزة: حرف استفهام، وتقريع، وتأنيب. الفاء: حرف استئناف، أو حرف عطف. ﴿تَعۡقِلُونَ﴾: فعل مضارع وفاعله، والجملة الفعلية معطوفة على جملة مقدرة، التقدير: أطبع على قلوبكم، فلا تعقلون؟! والكلام كلُّه معطوف على ما قبله، أو هو مستأنف، ولا محل له على الاعتبارين.

﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ٤٥﴾

الشرح: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ﴾: اطلبوا، والتمسوا المعونة على أموركم الدِّينية، والدنيويَّة.

وانظر الاستعانة في سورة الفاتحة، هذا وقيل: إنَّ المخاطبين بهذا هم المؤمنون؛ لأن مَنْ ينكر الصلاة، والصبر على دين محمد ﷺ لا يقال له: استعن بالصَّبر، والصلاة، فلا جرم وجب صرفه إلى مَنْ صدَّق محمداً ﷺ وآمن به. وقيل: يحتمل الخطاب لبني إسرائيل؛ لأن صرف الخطاب إلى غيرهم يوجب تفكيك نظم القرآن، ولأنَّ اليهود لم ينكروا أصل الصَّلاة، والصبر، لكنَّ صلاتهم غير صلاة المؤمنين، فعلى هذا القول: إن الله تعالى لمَّا أمرهم بالإيمان بمحمد ﷺ والتزام شريعته، وترك الرياسة، وحبِّ الجاه، والمال؛ قال لهم: (استعينوا بالصبر والصلاة). انتهى. وقيل: إنَّ المراد بالصَّبر: الصوم.

هذا و(الصبر): حبس النفس عن الجزع عند المصيبة، وحبس اللِّسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن التَّشويش، وهو مرُّ المذاق يكاد لا يطاق، إلا أنه حلو العواقب، يفوز صاحبه بأسنى المطالب، كما قال القائل: [البسيط]

الصَّبْرُ مِثْلُ اسْمِهِ مُرٌّ مَذَاقَتُهُ ... لَكِنْ عَوَاقِبُهُ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ

وبالجملة: فنفع الصبر مشهورٌ، والحضُّ عليه في الكتاب والسنَّة مقررٌ مسطورٌ، وهو على ثلاثة أنواع: صبرٌ على الطاعة، وصبرٌ عن المعصية، وصبرٌ على البلاء. ولا تنس أنَّ من أسماء الله تعالى (الصَّبور)؛ وفُسِّر بالذي لا يعجل بالعقوبة على من عصاه. هذا؛ وقد قال تعالى في سورة (الرَّعد) رقم [٢٢]: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ﴾ أي: طلباً لمرضاته، وهذا الصبر المحمود، وهو أن يكون الإنسان صابراً لوجه الله تعالى، محتسباً أجره على الله، فهذا هو الصبر الذي يُدخل صاحبه رضوان الله، وأما صبر العبد؛ ليقال: ما أعظم صبره، وما أشد قوته على تحمل النوائب! أو يصبر؛ لئلا يعاب على الجزع، أو يصبر؛ لئلا تشمت به الأعداء، فهذا كلُّه مذموم، لا يُنيل صاحبه الدَّرجات العلى، والمقام الرفيع عند الله، وقد يعرضه لشديد غضب الله، ونقمته.

هذا؛ والصبر على أنواع: الصَّبر عن المعصية، فله ثلاثمئة درجة، والصبر على الطاعة، فله ستمئة درجة، والصبر على البلاء، فله تسعمئة درجة، لكن ذلك لا يكون إلا بالصبر عند الصدمة

الأولى، كما روى البخاري عن أنسٍ ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ بأنه قال: «**إنَّما الصَّبر عند الصَّدمة الأولى**». أخرجه مسلم بأتم منه، وقال الأستاذ أبو علي: الصَّبر حدُّه: ألا تعترض على التقدير، فأما إظهار البلوى على غير وجه الشَّكوى؛ فلا ينافي الصبر، قال تعالى في قصة أيوب ـ على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ وبعدُ أخبر عنه: أنه قال: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾.

ثمَّ اعلم: أن الصبر ذكر في القرآن الكريم في خمسة وتسعين موضعاً، ومن أجمعها الآية رقم [١٥٥] الآتية، وما بعدها: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ﴾، ومن آنفها قوله تعالى في سورة (صَ) في حقِّ أيوب ـ على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ﴾ حيث قرن هاء الصبر بنون العظمة، ومن أبهجها قوله تعالى في سورة (الرَّعد) في الآيتين [٢٣ و٢٤]: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْۚ﴾ ومن أعظمها بشارة قوله تعالى في سورة (الزُّمر) رقم [١٠] ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

فائدة: قال الله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾، وقال جل ذكره: ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾، وقال تعالى جل شأنه: ﴿وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾. قالوا: الصبر الجميل هو الذي لا شكاية معه، والصفح الجميل هو الذي لا عقاب معه، والهجر الجميل هو الذي لا أذية معه.

﴿وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾: أفردها الله بالذكر من بين العبادات تعظيماً لشأنها؛ لأنها جامعة لأنواع العبادات النَّفسانية، والبدنيَّة، من الطهارة، وستر العورة، وصرف المال فيها، والتوجُّه إلى الكعبة، والعكوف للعبادة، وإظهار الخشوع بالجوارح، وإخلاص النية بالقلب، ومجاهدة الشيطان، ومناجاة الحق، وقراءة القرآن، والتكلُّم بالشهادتين، وكف النفس عن شهوتي الفرج، والبطن. انتهى. جمل نقلاً من كرخي.

وكان النبي ﷺ إذا حزبه أمر؛ فزع إلى الصلاة، وكان إذا سمع بلالاً ينادي: إلى الصَّلاة؛ نهض مسرعاً، وسعى متشوقاً، وهو يقول: «**أرحنا بها يا بلال**». قالت السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ: كان رسول الله ﷺ يحدِّثنا، ونحدِّثه حتى إذا جاء وقت الصلاة؛ قام كأنه لا يعرفنا، ولا نعرفه؛ لأنَّه ﷺ أحبَّ الصلاة من كلِّ قلبه؛ حتى استولت على لبِّه، فكان دائماً مشغولاً بها، كلما فرغ منها؛ عاد إليها، لم ينسها في جهاده، ولم يتركها في مرضه، فلمَّا جاء الأجل؛ أخذ يذكرها، ويحثُّ أصحابه على فعلها، وسُمِع في حالة الغرغرة يقول: «**أوصيكم بالصَّلاة، أوصيكم بالصَّلاة، أوصيكم بالصَّلاة**». حتى خرجت روحه إلى مولاه، فكان آخر كلامه في الدُّنيا الوصية بالصَّلاة.

وعن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: ذكر رسول الله ﷺ الصلاة يوماً، فقال: «**مَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا؛ كَانَتْ لَهُ نُوراً، وَنَجَاةً يَوْمَ الْقِيَامة، وَمَنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَيْها؛ لَمْ يَكُنْ لَهُ نُورٌ، وَلَا بُرْهَانٌ، وَلَا نَجَاةٌ، وَحُشِرَ يومَ الْقِيَامةِ مَعْ فِرْعَونَ، وَهَامانَ، وَقَارُونَ، وأُبيِّ بن خلف**».

قال العلماء: وسبب ذكر هؤلاء: أن مَنْ ترك الصلاة بسبب الملك والسلطان حشر مع فرعون، ومن تركها بسبب السياسة والرياسة حشر مع هامان، ومن تركها بسبب جمع المال حشر مع قارون، ومن تركها بسبب الخصام والجدال حشر مع أبيٍّ بن خلف.

وعن عبادة بن الصَّامت ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**خمس صلوات كتبهنَّ الله على العباد، فمن جاء بهنَّ، ولم يضيع منهنَّ شيئاً استخفافاً بحقِّهنَّ؛ كان له عند الله عهدٌ أن يدخله الجنَّة، ومن لم يأت بهنَّ؛ فليس له عند الله عهد، إن شاء عذبه، وإن شاء أدخله الجنَّة**». رواه مالك، وأبو داود، والنَّسائيُّ.

وكان السَّلف يرون في الصلاة أيضاً تفريج همومهم، والتنفيس عن كروبهم، فقد روي: أن عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ نُعي له أخوه: قُثَم، وقيل: بنت له، وهو في سفر، فاسترجع. وقال: عورة سترها الله، ومؤونة كفاها الله، وأجرٌ ساقه الله، ثم تنحَّى عن الطَّريق، وصلَّى، ثم انصرف إلى راحلته، وهو يقرأ: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ وانظر الآية رقم [٤٣].

﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾: قال القرطبي رحمه الله تعالى: اختلف المتأولون في عود الضمير؛ فقيل: على الصَّلاة وحدها خاصَّةً؛ لأنها تشقُّ على النفوسِ ما لا يشق الصوم، فالصلاة فيها سجن النفوس، والصَّوم إنَّما فيه منع الشهوة، فليس من منع شهوة واحدة، أو شهوتين كمن منع جميع الشهوات، فالصَّائم إنَّما منع شهوة النساء والطَّعام، والشراب، ثم ينبسط في سائر الشَّهوات من الكلام، والمشي، والنَّظر إلى غير ذلك من ملاقاة الخلق، فيتسلَّى بتلك الأشياء عمَّا منع، والمصلِّي يمنع مِنْ جميع ذلك، فجوارحه كلُّها مقيَّدةٌ بالصَّلاة عن جميع الشَّهوات، وإذا كان ذلك؛ كانت الصلاة أصعبَ على النفس، ومكابدتها أشقَّ، فلذلك قال تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾.

وقيل: يعود الضمير عليهما، ولكنَّه كنى عن الأغلب، وهو الصَّلاة، كقوله تعالى في سورة (التوبة) رقم [٣٤]: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وقوله تعالى في سورة (الجمعة): ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا﴾، فرد الكناية إلى الفضَّة؛ لأنها الأغلب والأعم، وإلى التجارة؛ لأنها الأفضل والأهم. وقيل: إنَّ الصبر لمَّا كان داخلاً في الصَّلاة؛ أعاد عليها الضمير وحدها كما قال تعالى في سورة (التَّوبة) رقم [٦٢]: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ فلم يقل: يرضوهما؛ لأنَّ رضا الرَّسول داخل في رضا الله، عز وجل. انتهى.

﴿إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾: جمع خاشع، وهو المتواضع، والخشوع هيئةٌ في النفس يظهر منها في الجوارح سكونٌ، وتواضع. وقال قتادة رحمه الله تعالى: الخشوع في القلب، وهو الخوف، وغضُّ البصر في الصَّلاة. وقال الزجَّاج: الخاشع الذي يرى أثر الذلِّ، والخشوع عليه كخشوع الدَّار بعد الإقواء.

قال سفيان الثَّوري ـ رحمه الله تعالى ـ: سألت الأعمش عن الخشوع، فقال: يا ثوري! أنت تريد أن تكون إماماً للناس، ولا تعرف الخشوع؟! سألت إبراهيم النخعي عن الخشوع، فقال:

أعيمش تريد أن تكون إماماً للناس، ولا تعرف الخشوع؟! ليس الخشوع بأكل الخشن، ولبس الخشن، وتطأطؤ الرأس، ولكنَّ الخشوع أن ترى الشريف، والدنيء في الحقِّ سواء، وتخشع لله في كل فرضٍ افترض عليك. ونظر عمر ـ رضي الله عنه ـ إلى شابٍّ؛ قد نكَّس رأسه، فقال: يا هذا! ارفع رأسك، فإنَّ الخشوع لا يزيد على ما في القلب. وقال عليٌّ كرم الله وجهه: الخشوع في القلب، وأن تلين كَفَّيْكَ للمرء المسلم، وأن لا تلتفت في صلاتك. انتهى قرطبي. وانظر ما ذكرته في مطلع سورة (المؤمنون).

الإعراب: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ﴾: الواو: حرف عطف. (استعينوا): فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله والألف للتفريق، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها من جمل. ﴿بِٱلصَّبْرِ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ﴾: معطوف على ما قبلها. ﴿وَإِنَّهَا﴾: الواو: واو الحال. (إنها): حرف مشبه بالفعل، والهاء اسمها. ﴿لَكَبِيرَةٌ﴾: اللام هي المزحلقة. (كبيرة): خبر (إنَّ) والجملة الاسمية في محل نصب حال من (الصلاة)، والرابط الواو والضمير، أو هي معترضة في آخر الكلام على رأي من يجوِّزه. ﴿إِلَّا﴾: حرف حصر. ﴿عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾: متعلقان بـ (كبيرة)، أو بمحذوف صفة لها.

﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾

الشرح: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾: يوقنون. هذا؛ والظن في الأصل: الاعتقاد الرَّاجح مع احتمال النقيض، والظنُّ في الشريعة قسمان: محمودٌ، ومذموم، فالمحمود منه: ما سلم معه دين الظانِّ، ودين المظنون عند بلوغه، والمذموم ضدُّه، بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ الآية رقم [١٢] من سورة (الحجرات)، وقوله تعالى في سورة (النُّور) رقم [١٢]: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾، وقوله تعالى في سورة (الفتح) رقم [١٢] أيضاً: ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾. هذا؛ وينبغي للإنسان أن يحسن ظنَّه بالنَّاس، ولا يسيء ظنَّه بهم، استجابةً لأمر الله تعالى في آية (الحجرات): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ إلا إذا ظهر مِنْ أحدهم ما يخالف الشَّرع الشَّريف، ولا يسيء بهم الظنَّ إلا الذي أعماله سيئة، قال الشاعر: [الطويل]

إِذَا سَاءَ فِعْلُ الْمَرْءِ سَاءَتْ ظُنُونُهُ وَصَدَّقَ مَا يَعْتَادُهُ مِنْ تَوَهُّمِ

وكذلك ينبغي للمسلم أن يحسن ظنَّه بالله تعالى بأنَّ الله يرحمُه، ويعفو عنه، ففي الحديث القدسي يقول الله تعالى: «**أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بي. . .**» إلخ، ولكن ينبغي أن يقرن حسن ظنه بالله بحسن العمل، وإلا؛ فهو ظنٌّ خاطئ، وزعمٌ فاسد، ففي الحديث الشَّريف، يقول الرسول ﷺ: «**ليس الإيمان بالتمنِّي، ولا بالتحلِّي، ولكن ما ورد في القلب، وصدَّقه العمل، إن قوماً ألهتهم**

الأماني حتَّى خرجوا من الدُّنيا؛ ولا حسنة لهم، وقالوا: نحسن الظنَّ بالله، كذبوا. . لو أحسنوا الظنَّ؛ لأحسنوا العمل». وخذ قول الرسول ﷺ: **«إيَّاكم والظنَّ، فإنَّ الظنَّ أكذبُ الحديث»**. وهذا إذا كان ظنَّ سوءٍ، وأما الظنُّ الحسن؛ فلا بأس به، بل هو ممدوح، كما قرَّرته لك، وانظر الآية رقم [٧٨] الآتية.

﴿مُلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾: أصله: ملاقِيُو، استثقلت الضمة على الياء، فحذفت، ثم حذفت الياء لالتقاء الساكنين، ثم قلبت كسرة القاف ضمة لمناسبة الواو. وفسر اللقاء بالرؤية، وملاقو ربهم بما عاينوه بلا كيفٍ. والمانعون للرؤية يفسِّرونها بما يناسب المقام، كلقاء ثوابه، أو الجزاء مطلقاً، وترد الملاقاة بمعنى الاجتماع، والمصير، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ رقم [٧] من سورة (يونس) على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام. أي: لا يخافون المصير إلينا. ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾: لا تكرار بين هذا، وما قبله؛ لأن المراد بالأول: أنهم ملاقو ثواب ربهم على الصبر، والصَّلاة، والمراد بالثاني: أنهم يوقنون بالبعث، وبحصول الثَّواب على ما ذكر.

الإعراب: ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل جر بدل من ﴿ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ أو هو في محل نصب مفعول به لفعلٍ محذوف. التقدير: أعني، وأمدح، أو هو في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: هم الذين. ﴿يَظُنُّونَ﴾: فعل مضارع مرفوع. . . إلخ، والواو فاعله. ﴿أَنَّهُم﴾ حرف مشبه بالفعل، والهاء اسمها. ﴿مُّلَٰقُواْ﴾ خبرها مرفوع وعلامة رفعه الواو نيابة عن الضمة؛ لأنه جمع مذكر سالم، وحذفت النون للإضافة. و﴿مُّلَٰقُواْ﴾ مضاف، و ﴿رَبِّهِمْ﴾ مضاف إليه من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. والهاء في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه، و(أنَّ) واسمها وخبرها في تأويل مصدر في محل نصب سدَّ مسد مفعولي: ﴿يَظُنُّونَ﴾ والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها. ﴿أَنَّهُم﴾ حرف مشبه بالفعل والهاء اسمها. ﴿إِلَيْهِ﴾: جار ومجرور متعلقان بما بعدهما. ﴿رَٰجِعُونَ﴾ خبر (أنَّ) مرفوع. . . إلخ، والمصدر المؤول من (أنَّ) واسمها، وخبرها معطوف على ما قبله، فهو في محل نصب مثله.

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾

الشرح: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ...﴾ إلخ: انظر الآية رقم [٤٠]. ﴿فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: أي عالمي زمانهم، يريد الله به تفضيل آبائهم الذين كانوا في عصر موسى ـ عليه، وعلى نبينا ألف صلاة، وألف سلام ـ وبعد موسى قبل أن يغيروا ما منحهم الله تعالى من العلم، والإيمان، والعمل الصالح، وجعلهم أنبياء، وملوكاً مقسطين. هذا؛ ولقد كرر هذا الكلام ثانيةً للتأكيد، وتذكيراً للتفضيل الذي هو من أجلِّ النِّعم، خصوصاً. وقد ربطه بالوعيد الشَّديد الآتي تخويفاً لمن غفل عنها، وأخلَّ بحقوقها. والكلام من تذكير اليهود الموجودين في عهد محمَّدٍ ﷺ بما أنعم الله على آبائهم الأولين.

هذا؛ ولقد قال أرباب المعاني: ربط الله سبحانه وتعالى بني إسرائيل بذكر النِّعمة، وأسقطه على أمَّة محمد ﷺ، ودعاهم إلى ذكره، فقال عزَّ وجل: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ الآية رقم [١٥٢] الآتية، ليكون نظر الأمم من النِّعمة إلى المنعم، ونظر أمة محمد ﷺ من المنعم إلى النِّعمة. قرطبي.

الإعراب: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ...﴾ إلخ: انظر مثله في الآية رقم [٤٠]. ﴿فَضَّلْتُكُمْ﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به، والجملة الفعلية في محل رفع خبر (أن)، و(أنَّ) واسمها وخبرها في تأويل مصدر في محل نصب معطوف على ﴿نِعْمَتِىَ﴾. ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، وعلامة الجر الياء نيابة عن الكسرة؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم، والنون بدل من التنوين في الاسم المفرد.

﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

الشرح: ﴿وَٱتَّقُوا۟﴾: أصله: اتقيوا، وانظر إعلال مثله فيما تقدَّم، وانظر شرح التقوى أيضاً فيما تقدَّم، والأمر معناه التهديد، والوعيد. ﴿يَوْمًا﴾: المراد به يوم القيامة، وما فيه من الحساب، والعذاب، والأهوال، وقد ذكر الله تعالى طوله في سورة (الحج) بقوله: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ رقم [٤٧]، هذا واليوم في الدنيا هو الوقت من طلوع الشَّمس إلى غروبها، وهذا في العُرف، وأما اليوم الشرعي فهو من طلوع الفجر إلى غروب الشَّمس، كما يطلق اليوم على اللَّيل، والنهار معاً، وقد يراد به الوقت مطلقاً، تقول: ذخرتك لهذا اليوم، أي: لهذا الوقت، والجمع: أيام، وأصله: أيْوَام، فقلبت الواو ياء، وأدغمت الياء في الياء، وجمع الجمع: أياويم. وأيام العرب: وقائعها، وحروبها، وأيَّام الله: نعمه، ونقمه، قال تعالى في سورة (يونس) رقم [١٠٢]: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾، وقال تعالى في سورة (إبراهيم) على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ ويقال: فلان ابن الأيام، أي: العارف بأحوالها، ويقال: أنا ابن اليوم، أي: أعتبر حالي فيما أنا فيه. وخذ قوله تعالى في سورة (آل عمران) رقم [١٤٠]: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ وانظر شرح اللَّيل والنَّهار في الآية رقم [٥١] الآتية.

﴿لَّا تَجْزِى نَفْسٌ...﴾ إلخ: لا تؤاخذ نفس بذنب أخرى، ولا تدفع عنها شيئاً. تقول: جزى عنِّي هذا الأمر، يجزي، كما تقول: قضى عنِّي. وقرئ بضم التاء. قيل: هما بمعنى واحد، وقد فرق بينهما قوم. فقالوا: «جزى» بمعنى: قضى، وكافأ. و«أجزأ»: بمعنى: أغنى، وكفى. وأجزأني الشيء، يجزئني، أي: كفاني. قال الشاعر: [الطويل]

وَأَجْزَأْتَ أَمْرَ الْعَالَمِينَ وَلَمْ يَكُنْ ... لِيَجْزِيَ إِلَّا كَامِلٌ وابنُ كَامِلِ

﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ﴾: الشَّفاعة: التوسل، وابتغاء الخير، والذي يكون منه التوسُّل يسمَّى: الشفيع، والشَّفاعة في الدُّنيا تكون حسنةً، وتكون سيِّئةً، فالأولى هي الَّتي روعي فيها حقُّ مسلم، ودفع بها عنه شرٌّ، أو جلب إليه الخير، وابتغي به وجه الله، ولم تؤخذ عليها رشوةٌ، وكانت في أمر جائزٍ، لا في حد من حدود الله، ولا في حقٍّ من حقوق العباد. والسَّيئة ما كانت بخلاف ذلك. وقيل: الشفاعة الحسنة: هي الدعوة للمسلم؛ لأنَّها بمعنى الشفاعة إلى الله تعالى، فعن النبي ﷺ قال: «**من دعا لأخيه بظهر الغيب؛ استجيب له، وقال له المَلَكُ: ولك مثل ذلك**». فذلك النصيب الذي ذكر بقوله تعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ﴾ رقم [٨٥] من سورة (النساء).

وروى مسلم عن أمِّ الدرداء ـ رضي الله عنها ـ قالت: حدَّثني سيِّدي: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**إذا دعا الرجل لأخيه بظهر الغيب؛ قالت الملائكة: ولك بمثله**».

ولا ريب: أنَّ المراد بالشَّفاعة في هذه الآية: الشفاعة يوم القيامة. والشَّفاعة العظمى مختصَّةٌ بنبينا ﷺ، ثمَّ يتلوها شفاعاتٌ أخرى، كما هو معلوم من الدِّين، وأحكامه، وهو مذهب أهل الحقِّ، والسُّنَّة، والجماعة.

وأنكر المعتزلة الشَّفاعة، وخلَّدوا المذنبين من المؤمنين الذين دخلوا النَّار في العذاب، والأخبار متظاهرة بأنَّ من كان من العصاة المذنبين الموحِّدين من أمم النبيِّين هم الذين تنالهم شفاعة الشَّافعين من الملائكة، والنَّبيين، والشُّهداء، والصالحين. قال ابن المنير المعلِّق على الكشاف: أمَّا مَنْ جحد الشفاعة؛ فهو جدير بأن لا ينالها، وأما من آمن بها، وصدَّقها ـ وهم أهل السُّنَّة والجماعة ـ فأولئك يرجون رحمة الله. ومعتقدهم: أنها تنال العُصاة من المؤمنين، وإنَّما ادخرت لهم في الآخرة. انتهى. أقول: والأحاديث في الشفاعة كثيرةٌ مشهورةٌ، وفي كتب الأحاديث مسطورةٌ.

قال القرطبيُّ ـ رحمه الله تعالى ـ: فإن قالوا: قد وردت نصوصٌ من الكتاب بما يوجب ردَّ هذه الأخبار، مثل قوله تعالى في سورة (غافر): ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ قالوا: وأصحاب الكبائر ظالمون. وقال تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ وفي هذه الآية: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ﴾. قلنا: ليست هذه الآيات عامَّة في كلِّ ظالم، والعموم لا صيغة له، فلا تعمُّ هذه الآيات كلَّ مَنْ يعمل سوءاً وكلَّ نفس، وإنما المراد بها: الكافرون دون المؤمنين بدليل الأخبار الواردة في ذلك.

وانظر قوله تعالى في سورة (الإسراء) رقم [٧٩]: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ تجدْ ما يسرُّك، وقد أجمع المفسرون على أنَّ المراد بـ (نفس) في هذه الآية النَّفس الكافرة، لا كلَّ نفسٍ. انتهى بتصرف.

﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾: العَدل هو بفتح العين: هو الفداء، وهو بكسرها: المِثْل. يقال: عِدْل وعَدِيل للذي يماثلك في الوزن، والقدر. ويقال: عِدْل الشيء هو الذي يساويه قيمةً وقدراً، وإن لم

يكن من جنسه. هذا؛ وقد قال تعالى في سورة (آل عمران) رقم [٩١]: ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ وقال في سورة (يونس) رقم [٥٤]: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ وقال تعالى في سورة (الرَّعد) رقم [١٨]: ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ﴾ ومثلها في سورة (الزمر) رقم [٤٧] وقال تعالى في سورة (المائدة) رقم [٣٦]: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ﴾، وقال تعالى في سورة (الحديد) رقم [١٥]: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، وقال تعالى في سورة (الأنعام) رقم [٧٠]: ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ﴾.

﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي: يعانون، والنَّصر: العون، والأنصار: الأعوان، ومنه قوله تعالى حكاية عن قول عيسى ـ على نبيِّنا وعليه ألف صلاة وألف سلام ـ: ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: مَنْ يعينني، ومَنْ يضمُّ نصرته إلى نُصرتي؟.

وكان سبب نزول هذه الآية فيما ذكروا: أن بني إسرائيل قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه، وأبناء أنبيائه، وسيشفع لنا آباؤنا، فأعلمهم الله تعالى: أنَّ يوم القيامة لا تقبل فيه شفاعات، ولا يؤخذ فيه فديه. وإنَّما خص الشفاعة، والفدية، والنصر بالذِّكر؛ لأنها هي المعاني التي اعتادها بنو آدم في الدنيا، فإن الواقع في الشدَّة لا يتخلص من شدته إلا بأن يُشفع له، أو يُنصر، أو يُفتدى. انتهى قرطبي. هذا؛ وجمع الضمير في آخر الآية، وهو يعود على النفس؛ لأنَّ المراد بها جنس الأنفس، وإنما عاد الضمير مذكراً، وإن كانت النَّفس مؤنثةً؛ لأن المراد بها العباد، والأناسيُّ. انتهى جمل نقلاً من السَّمين.

الإعراب: (اتقوا): فعل أمر مبني عل حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿يَوْمًا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها في الآية السابقة، لا محل لها مثلها. ﴿لَّا﴾: نافية. ﴿تَجْزِى﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمَّة مقدَّرة على الياء للثقل. ﴿نَفْسٌ﴾: فاعله. ﴿عَن نَّفْسٍ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما. وقيل: متعلقان بمحذوف حال من ﴿شَيْـًٔا﴾ ولا وجه له. ﴿شَيْـًٔا﴾ مفعول به، وجملة: ﴿لَّا تَجْزِى﴾: في محل نصب صفة ﴿يَوْمًا﴾ ورابط الصفة محذوف، التقدير: لا تجزي فيه... إلخ. ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): نافية. ﴿يُقْبَلُ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول. ﴿مِنْهَا﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، أو هما متعلقان بمحذوف حال مِنْ: ﴿شَفَٰعَةٌ﴾ كان نعتاً له، فلما قدم عليه صار حالاً، على القاعدة: «**نعت النكرة إذا تقدم عليها يعرب حالاً**». ﴿شَفَٰعَةٌ﴾: نائب فاعل ﴿يُقْبَلُ﴾، والجملة الفعلية معطوفة على جملة: ﴿لَّا تَجْزِى...﴾ إلخ، فهي في محل نصب مثلها، والتي بعدها معطوفة عليها، وهي مثلها إعراباً، ومحلّاً. ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): نافية. ﴿هُمْ﴾: ضمير منفصل مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿يُنصَرُونَ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول مرفوع،

والواو نائب فاعله، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾: معطوفة على ما قبلها فهي في محل نصب حال مثلها.

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾

الشرح: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم﴾: نجا، ينجو: فعل لازم، وتعديته تكون بتضعيف ثانيه كما هنا، أو بزيادة الهمزة في أوّله، كما ستراه في آيات كثيرة، ومعنى ﴿نَجَّيْنَٰكُم﴾: ألقيناكم على نجوةٍ من الأرض، وهي ما ارتفع منها، هذا هو الأصل، ثمَّ سُمِّي كلُّ فائز ناجياً، فالنَّاجي مَنْ خرج من ضيقٍ إلى سَعةٍ، أو من شدَّةٍ إلى فُرجةٍ. هذا؛ والخطاب به، وبما بعده للموجودين في زمن نبينا ﷺ بما أنعم على آبائهم، فهو تذكير لهم بنعمة الله تعالى؛ ليؤمنوا، وأيضاً نجاة آبائهم سببٌ في وجود الأبناء.

﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾: ﴿ءَالِ﴾ أصله: أَهْل، فأبدلت الهاء همزة ساكنة، فصار: «أأْل» ثم أبدلت الهمزة الثانية الساكنة، على القاعدة: إذا اجتمع همزتان: الأولى متحركة، والثانية ساكنة قلبت الثانية مدّاً مجانساً لحركة الهمزة الأولى، وذلك: مثل آدم، وإيمان، وأومن، وقلب الهاء همزة سائغٌ مستعملٌ لغةً كما في: أراق، فإن أصله: هراق، وهو كثيرٌ مستعملٌ في الشعر العربيِّ، وغيره، وهذا مذهب سيبويه. وقال الكسائي: أصله: «أَوَلْ» كـ «جَمَل» من: آل، يؤول، تحرَّكت الواو، وانفتح ما قبلها، فقلبت ألفاً، وقد صغروه على أُهَيْل، وهو يشهد للأوَّل، وعلى «أويل» وهو يشهد للثاني، ولا يستعمل (آل) إلا فيما له خطرٌ، وشأنٌ بخلاف «أهل» يقال: آل النبي، وآل الملك، ولا يقال: آل الحجَّام، ولكن: أهله، ولا ينتقض بآل فرعون، فإنَّ له شرفاً باعتبار الدُّنيا. واختلف في جواز إضافته إلى المضمر، فمنعه الكسائي، والنَّحاس، وزعم أبو بكر الزبيدي: أنَّه من لحن العوام، والصحيح جوازه، كما في قول عبد المطلب بن هاشم جدِّ النبيِّ ﷺ: [مجزوء الكامل]

لَا هُمَّ إِنَّ الْمَرْءَ يَمْـ ... ـنَعُ رَحْلَهُ فَامْنَعْ رِحَالَكْ

وَانْصُرْ عَلَى آلِ الصَّلِيـ ... ـبِ وَعَابِدِيهِ الْيَوْمَ آلَكْ

وفي الحديث الصحيح من قول النبي ﷺ: **«اللهم صل على محمد وعلى آله»**. و﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾: قومه، وأتباعه، وأهل دينه، وكذلك آل الرسول ﷺ مَنْ هم على دينه، وملَّته في عصره وسائر الأعصار سواء كان نسيباً له، أو لم يكن، ومن لم يكن على دينه وملَّته، فليس من آله، ولا أهله وإن كان نسيبه، وقريبه، خلافاً للرَّافضة، حيث قالت: إن آل الرسول ﷺ فاطمة،

والحسن، والحسين وذريَّتهما فقط، دليلنا الآية الكريمة، وقوله تعالى: ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ الآية التالية، وقوله تعالى في سورة (غافر) رقم [٤٦]: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: آل دينه وملته؛ إذ لم يكن له ذرية، ولا أب، ولا عم، ولا أخ، ولا عصبة، ولأنه لا خلاف: أنَّ من ليس بمؤمن ولا موحِّد فإنَّه ليس من آل محمد، وإن كان قريباً له، ولأجل هذا يقال: إنَّ أبا لهب، وأبا جهل ليسا من أهله، ولا من أهل ملَّته، وإن كان بينهما، وبين النَّبيِّ قرابةٌ، ولأجل هذا قال تعالى في ابن نوح: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ وفي صحيح مسلم عن عمرو بن العاص، قال: سمعت رسول الله ﷺ جهاراً غير سرٍّ يقول: «**ألا إن آل أبِيْ ـ يعني: فلاناً ـ ليسوا منِّي**».

هذا و ﴿فِرْعَوْنَ﴾ قال الجمل: قال المسعودي: ولا يعرف لفرعون تفسير في العربيَّة، وظاهر كلام الجوهري: أنه مشتقٌّ من معنى «العتوِّ» فإنه قال: والفراعنة: العتاة، وقد تَفَرْعَنَ، وهو ذو فرعنةٍ؛ أي: دهاءٍ، ومكرٍ.

قال الزمخشري في الكشاف: وفرعون علمٌ لمن ملك العمالقة في مصر، كقيصر لملك الروم، وكسرى لملك الفرس، وَلِعُتُوِّ الفراعنة اشتقوا: تفرعن فلان إذا عتا، وتجبَّر، وفي مُلح بعضهم: [الكامل]

قَدْ جَاءَهُ الْمُوسَى الكَلُومُ فَزَادَ فِي أَقْصَى تَفَرْعُنِهِ وَفَرْطِ عُرَامِهِ

هذا، والموسى: ما يحلق به شعر الرأس، والكلوم: فعول مِنْ: الكَلْم، وهو الجرح، والعرام: الشر، والخبث. وضمير (جاءه) راجع إلى ذَكَرِ الصَّبيِّ، وهذا كناية عن الختان، وبه النمو، والفتوة، لا كناية عن حلق العانة، كما قيل. قال المولى سعد الدين: وهذا مع وضوحه، وشهرته فقد خفي؛ حتى قيل: إنَّه كناية عن حلق العانة.

وكان فرعون موسى مصعب بن الرَّيان. وقيل: ابنه الوليد من بقايا قوم عاد، وفرعون يوسف ـ على نبينا، وعليهم جميعاً ألف صلاة، وألف سلام ـ ريان بن الوليد، وبينهما أكثر من أربعمئة سنة، وكان فرعون موسى قد عاش ستمئة وعشرين سنة، ولم ير مكروهاً قط، ولو حصل له في تلك المدَّة جوع يومٍ، أو وجع يومٍ، أو حمَّى يومٍ؛ لما ادَّعى الرُّبوبية. وقال الرسول ﷺ: «**فرعوني أشدُّ من فرعون موسى**». يريد: أبا جهل. ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾: يذيقونكم، من: سامه خسفاً: إذا أولاه ظلماً، أو أذاقه قهراً، قال عمرو بن كلثوم في معلَّقته رقم [١٠٨]: [الوافر]

إِذَا مَا الْمَلْكُ سَامَ النَّاسَ خَسْفاً أَبَيْنَا أَنْ نُقِرَّ الْخَسْفَ فِينَا

وقيل: معناه: يديمون تعذيبكم. والسُّوء: كل ما يغمُّ الإنسان من أمرٍ دنيويٍّ، أو أخرويٍّ، وهو في الأصل مصدر، ويؤنث بالألف كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن

﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الآية رقم [١٠] من سورة (الروم). وقيل: إنَّ ﴿السُّوأَىٰ﴾ تأنيث الأسوأ، كما أنَّ الحسنىٰ تأنيث الأحسن.

﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾: المراد به: الصِّبيان. (يستحيون نساءكم): يتركون بناتكم أحياءً.

وسبب ذلك: أن فرعون ـ لعنه الله تعالى ـ رأى في نومه: أنَّ ناراً أقبلت من بيت المقدس، فأحاطت بمصر، وأحرقت كلَّ قبطيٍّ بها، ولم تتعرَّض لبني إسرائيل، فشقَّ ذلك عليه، وسأل الكهنة عن هذه الرؤيا، فقالوا له: إنَّ مولوداً يولد في بني إسرائيل، يكون سبباً لذهاب مُلكك، فأمر فرعون بقتل كلِّ غلامٍ يولد في بني إسرائيل، حتَّى قتل من أولادهم اثني عشر ألفاً، وأسرع الموت في شيوخهم، فجاء رؤساء القبط إلى فرعون، وقالوا له: إن الموت قد وقع في بني إسرائيل، فتذبح صغارهم، ويموت كبارهم، فيوشك أن يقع العمل علينا، فأمر فرعون أن يذبحوا سنةً، ويتركوا سنة، فولد هارون في السَّنة التي لا يُذبح فيها، وولد موسى في السنة التي يُذبح فيها، انظر تفصيل ذلك في أول سورة (القصص). والله وليُّ التوفيق. هذا؛ ويقرأ: ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ بتخفيف الباء، وتشديدها.

هذا وقال وهب بن منبه: كان بنو إسرائيل أصنافاً في أعمال فرعون: فالقوي يقطع الحجر من الجبال، (هذا صنف) وصنف ينقل الحجارة، والطِّين لبناء قصوره، وصنف يضرب اللَّبِن، ويطبخ الآجرَّ، وصنف نجَّار، وآخر حداد، والضعفاء منهم يضرب عليهم الجزية، والنِّساء يغزلن الكتان، وينسجنه. هذا؛ وأصل (يستحيون): «يَستَحْيِيُون» بياءين: الأولى عين الكلمة مكسورة، والثانية لامها مضمومة. فقيل: حُذفت الأولى، فصار وزنه: يَسْتَفاون. وقيل: حذفت الثانية، فصار وزنه: يستفعون، وطريق الحذف على الأول أن يقال: استثقلت الكسرة على الياء الأولى، فحذفت فالتقى ساكنان: (الياء الأولى مع الحاء) فحذفت الياء لعلَّة الالتقاء، فصار: (يستحيون) وطريق الحذف على الثاني أن يقال: حذفت الثانية اعتباطاً، وتخفيفاً، فصار: «يَسْتَحْيِوْنَ» ثمَّ ضُمَّت الأولى لمناسبة الواو. والمراد بالنساء: الأطفال، وإنَّما عبر عنهنَّ بالنِّساء؛ لمآلهن إلى ذلك، وعكسه قوله تعالى في سورة (النساء) رقم [٢]: ﴿وَءَاتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ﴾ فهو باعتبار ما كان؛ لأنَّهم بلغوا الرُّشد، ولم يبقوا يتامى.

هذا؛ و(نساء): اسم جمع لا واحد له من لفظه؛ لأن مفرده: امرأة، وجمعها في القلَّة: نسوة. وفي الكثرة: نساء، وتُجمع أيضاً على: نسوان، ونسون، ونَسْنِين، وهذه الجموع كلُّها مأخوذة من النِّسيان؛ الذي رأيت شرحه في الآية رقم [٤٤] فهي مطبوعةٌ عليه، إما إهمالاً، وإما كذباً. ويقال لكلِّ واحد من هذه الجموع: اسم جمع لا واحد له من لفظه. أما المرأة: فهي مأخوذة من المرء. وهو الرَّجل، فلذا سمِّيت بذلك، والأمُّ الأولى: حواء ـ عليها ألف سلام ـ سميت بذلك، لأنها مأخوذة من حي، وهو آدم، على نبيِّنا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام.

انظر ما ذكرته في الآية رقم [٣٥]. هذا؛ و(أبناءكم): جمع: ابن، وأصله: أبناوكم، وأصل ابن: بَنَوٌ، ونساء أصله: نساو، وأيضاً: آباء أصله أباو؛ لأنه جمع أب، وأصله أَبَوٌ، فقل في الثلاثة: تحركت الواو وانفتح ما قبلهما، فقلبت ألفاً، ولم يعتد بالألف الزائدة؛ لأنها حاجز غير حصين. فالتقى ساكنان: الألف الزائدة، والألف المنقلبة، فأبدلت الثانية همزة، ولقد سئلت عمّا يلي: همزة المصدر «استغفار» ونحوه همزة وصل، فإذا جمع: استغفارات، ونحوه؛ تبقى الهمزة همزة وصل، وهمزة «ابن» همزة وصل، فلمّا جمع: أبناء، صارت الهمزة همزة قطع، فما الفرق بينهما؟ فالجواب: إنَّ همزة المصدر أصليَّة، وأما همزة (ابن) فليست أصلية؛ إذ أصله: (بَنَوٌ) كما رأيت، فالهمزة فيه بدل من حرف علَّة أصلي. فلما جمع على (أبناء) فهذه الهمزة همزة أفعال، وليست همزة ابن، كما قد يُتوهم.

﴿وَفِي ذَٰلِكُم﴾: الإشارة إلى جملة الأمر؛ إذ هو خبر، فهو كمفرد حاضر؛ أي: وفي فعل الفراعنة بكم ذلك ﴿بَلَآءٌ﴾ أي: امتحان، واختبار، و﴿بَلَآءٌ﴾ أيضاً: نعمةٌ، ومنه قوله تعالى في سورة (الأنفال) رقم [١٧]: ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾. قال أبو الهيثم: البلاء يكون حسناً، ويكون سيئاً، وأصله: المحنة، والله عزَّ وجلَّ يبلو عبده بالصنع الجميل؛ ليمتحن شكره، ويبلوه بالبلوى التي يكرهها؛ ليمتحن صبره، فقيل للحسن: بلاء. وللسيِّئ: بلاء. حكاه الهروي، والقرطبي. وخذ قوله تعالى في سورة (الأعراف) رقم [١٦٨]: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، وقال تعالى في سورة (الأنبياء) رقم [٣٥]: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ وقال ابن كيسان: ويقال: أبلاه، وبلاه في الخير، والشرِّ. وأنشد قول زهير في ممدوحيه: هرم بن سنان والحارث بن عوف المُرِّيَّيْن: [الطويل]

جَزَى اللهُ بِالإحسَانِ مَا فَعَلَا بِكُمْ ... وَأَبْلَاهُمَا خيْرَ البَلاءِ الَّذِي يَبْلُو

فجمع بين اللغتين. وقيل: الأكثر في الخير: أبليته، وفي الشر: بلوته، وفي الاختبار: ابتليته، وبلوته. قاله النحاس. هذا؛ وقد قال تعالى في سورة (الفجر) في الخير، وفي الشرِّ: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ...﴾ إلخ، وقال تعالى في الاختبار، والامتحان: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ...﴾ إلخ رقم [١٢٤] الآتية، وبلاء أصله: بلاو، فإعلاله مثل إعلال أبناء... إلخ.

الإعراب: ﴿وَإِذْ﴾: الواو حرف عطف. (إذ): ظرف لما مضى من الزمان مبني على السكون في محل نصب متعلق بمحذوف معطوف على اذكر في الآية رقم [٤٧] وقال مكيٌّ، والقرطبيُّ، وغيرهما: معطوف على نعمتي، وهو يفيد: أنه مفعول به للفعل المقدَّر، والمعنى واحد، والنَّتيجة واحدةٌ. ﴿نَجَّيْنَٰكُم﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به، والجملة الفعلية في محل جرٍّ بإضافة (إذ) إليها، و﴿مِّنْ ءَالِ﴾ متعلقان بما قبلهما، و﴿ءَالِ﴾ مضاف و﴿فِرْعَوْنَ﴾ مضاف إليه مجرور، وعلامة جره الفتحة نيابة عن الكسرة؛ لأنه ممنوع من الصرف للعلميَّة، والعجمة. ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾:

فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ثبوت النون، والواو فاعله، والكاف مفعول به أول. ﴿سُوٓءَ﴾ مفعول به ثان، و﴿سُوٓءَ﴾ مضاف، و﴿ٱلۡعَذَابِ﴾ مضاف إليه، والجملة الفعلية في محل نصب حال من ﴿ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ والرابط: الضمير فقط، وجملة: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ﴾ مفسرة لمضمون الجملة قبلها، فهي في محل نصب مثلها، وهو المعتمد؛ وإن قال الكثيرون: لا محل لها، وجوز أن تكون حالاً من واو الجماعة والمعنى يؤيده، فتكون حالاً متداخلة، كما جوز أن تكون بدلاً مما قبلها، وجوز فيها الاستئناف، وهذا وجه ضعيف. هذا؛ والبدلية واضحة في قوله تعالى في سورة (الفرقان) رقم [٦٨ و٦٩]: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ۝٦٨ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ﴾ انظرها هناك، تجدْ ما يسرك، ويثلج صدرك. هذا؛ وفي سورة (إبراهيم) على نبيِّنا وعليه ألف صلاة، وألف سلام، رقم [٦]: ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾ بالواو؛ لأن المعنى يعذبونكم بالذَّبح، وبغيره، فالذبح جنس آخر من العذاب، لا تفسير لما قبله. ويحتمل أن تكون الواو زائدة، انظر ما ذكرته هناك، وفي سورة (الأعراف) رقم [١٤١] بدون واو كما هنا، وذلك قوله تعالى: ﴿يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ﴾ وجملة: ﴿وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡ﴾: معطوفة على ما قبلها على جميع الوجوه المعتبرة فيها.

﴿وَفِي﴾: الواو: حرف عطف. (في): حرف جرٍّ. ﴿ذَٰلِكُم﴾: اسم إشارة مبني على السكون في محل جر بـ (في) والجار والمجرور متعلقان بمحذوف في محل رفع خبر مقدم، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب لا محل له. ﴿بَلَآءٞ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها، وإن اعتبرتها حالاً؛ فلست مفنّداً، والاستئناف ممكنٌ بلا ضعف. ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾: متعلقان ببلاء، لأنه مصدر، أو بمحذوف صفة له، والكاف في محل جرٍّ بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿عَظِيمٞ﴾: صفة ﴿بَلَآءٞ﴾.

﴿وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ۝٥٠﴾

الشرح: ﴿وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ﴾: فصلنا بين أجزائه، وأصل الفرق: الفصل، ومنه: فرق الشعر، ومنه: الفرقان؛ لأنه يفرق بين الحق والباطل؛ أي: يفصل، ومنه قوله تعالى في سورة (الأنفال) رقم [٤١]: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ﴾ يعني: يوم بدر، كان فيه فرق بين الحق والباطل. هذا؛ ويقرأ بتشديد الرَّاء. هذا؛ و﴿ٱلۡبَحۡرَ﴾ معروف، سمي بذلك لاتساعه. ويقال: فرس بحر: إذا كان كثير الجري، ومن ذلك قول رسول الله ﷺ في «مندوب» فرس أبي طلحة: «**وإن وجدناه لبحراً**». والبحر: الملح، والماء الكثير، والجمع: بحور، وبحار، وأبحر. انتهى قاموس. ﴿فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ﴾ أي: أخرجناكم من البحر سالمين.

﴿وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ﴾: أي في البحر. ﴿وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾ إلى ما حلَّ بهم من الغرق. وهذا من تذكير الله لليهود الموجودين في عهد رسول الله ﷺ بما أنعم على آبائهم الأولين، وكذلك

التوبيخ، والتقريع الموجَّه إليهم بما فعل آباؤهم من عبادة العجل، ونقض العهود، وخلف الوعود، وغير ذلك من سَيِّئ الأعمال، وفاحش الفعال، والأقوال.

هذا وذكر الطَّبريُّ: أنَّ موسى ـ على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ أوحي إليه أن يسري من مصر ببني إسرائيل، كما قال تعالى في سورة طه: ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى﴾ فأمرهم موسى أن يستعيروا الحلي، والمتاع من نساء القبط، ـ وأحل الله لهم ذلك؛ لأنهم حربيُّون، ويجوز أخذ مال الحربي بأية طريقة كانت ـ فسرى بهم موسى من أول الليل، فأعلم فرعون بذلك. فقال: لا يتبعهم أحد حتى تصيح الدِّيكة، فلم يصح تلك الليلة ديكٌ، وأمات الله تلك الليلة كثيراً من أبناء القبط، فاشتغلوا في الدَّفن، وخرجوا في صباح تلك الليلة مشرقين، كما قال تعالى في سورة الشعراء: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾ وذهب موسى إلى ناحية البحر حتى بلغه، وكانت عدَّة بني إسرائيل نيفاً على ستمئة ألف، وكانت عدَّة قوم فرعون ألف ألف ومئتي ألف.

هذا وقال الخازن ـ رحمه الله تعالى ـ: فلمَّا أرادوا السير؛ ضُرِب عليهم التيه، فلم يدروا أين يذهبون، فدعا موسى مشيخة بني إسرائيل، وسألهم عن ذلك، فقالوا: إن يوسف عليه السلام لمَّا حضره الموت أخذ عهداً على إخوته، وعلى بنيهم أن لا يخرجوا من مصر حتى يخرجوه معهم، فلذلك انسدَّ عليهم الطريق، فسألهم عن موضع قبره، فلم يعلموه، فجعل ينادي: أنشد الله كلَّ مَنْ يعلم أين قبر يوسف إلا أخبرني، فسمعته عجوز منهم. فقالت له: أرأيتك إن دللتك على قبره، أتعطيني كل ما أسألك؟ فأبى عليها. وقال: حتى أسأل ربي، فأمره الله أن يعطيها سؤالها. فقالت: إني عجوز لا أستطيع المشي، فاحملني معك، وأخرجني من مصر في هذه الدنيا، وأما في الآخرة، فأسألك أن لا تنزل غرفةً من غرف الجنة إلا أنزلتني معك! قال: نعم. قالت: إنَّه في النيل في جوف الماء، فادع الله أن يحسر عنه الماء، فدعا الله، فحسر عنه الماء، ودعا الله أن يؤخِّر عنه طلوع الفجر؛ حتى يفرغ من أمر يوسف، ثم حفر موسى ذلك الموقع، فاستخرجه وهو في صندوقٍ من مرمر، وحمله حتى دفنه بفلسطين، بجوار أبيه يعقوب، وجدِّه إسحاق، وإبراهيم، على نبينا، وعليهم ألف صلاة وألف سلام. انتهى خازن بتصرف.

والمحفوظ: أنَّ النبيَّ ﷺ كان جالساً يقسِّم غنائم هوازن في وادي حنين، فوقف عليه رجلٌ من الناس، فقال: إنَّ لي عندك موعداً يا رسول الله! قال: «**صدقت، فاحتكم ما شئت**». فقال: أحتكم ثمانين ضائنةً وراعيها. قال: «**هي لك، وقد احتكمت يسيراً، ولصاحبة موسى الَّتي دلَّته على عظام يوسف؛ كانت أحزم منك، وأجزل حكماً منك حين حكمها موسى. فقالت: حكمي أن تردني شابة، وأن أدخل معك الجنَّة، فقال لها: لك ذلك**». وانظر ما ذكرته في الآية رقم [١٠١] من سورة (يوسف) عليه السلام.

والمعروف: أنَّ يعقوب دخل مصر في ستَّةٍ وسبعين نفساً من ولده، وولد ولده، فأنمى عددهم وبارك في ذرِّيته؛ حتى خرجوا إلى البحر هرباً من فرعون، وهم ستمئة ألف. فانطلق موسى بقومه؛ حتى انتهى إلى البحر فقال له: افرق، فقال له البحر: لقد استكبرت يا موسى! وهل فرقت لأحدٍ من ولد آدم فأفرق لك؟! وقال بنو إسرائيل لموسى لمَّا أدركهم فرعون بجنوده: أين المخرج، والمخلص، والبحر أمامنا، وفرعون وراءنا، وقد كنا نلقى من فرعون البلاء العظيم. فأوحى الله إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر، فضربه، فانفلق، فكان كل فرق كالطود العظيم، وكشف الله عن وجه الأرض، وأيبس لهم البحر، فلحق فرعون وكان على حصان أدهم، وخلفه عسكره، وصار في البحر اثنا عشر طريقاً، لكل سبط طريق يتراءون وذلك أن أطواد الماء صار فيها طيقانٌ وشبابيك، يرى منها بعضهم بعضاً، فلمَّا خرج قوم موسى من البحر، وصار قوم فرعون كلُّهم داخل البحر؛ التطم عليهم البحر، فأغرقهم، وألجم فرعون الغرق، فقال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾، فدسَّ جبريل عليه السلام في فمه طين البحر. فقد روى الترمذيُّ عن ابن عباسٍ - رضي الله عنهما -: أنَّ النبي ﷺ قال: «**لمَّا أغرق الله فرعون، قال: آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل، فقال جبريل عليه السلام: يا محمد! لو رأيتني، وأنا آخذ من أوحال البحر، وَأَدُسُّهُ في فِيهِ مَخَافَةَ أن تُدْرِكَهُ الرحمةُ**». قال أبو عيسى: هذا حديث حسن، وانظر ما ذكرته في سورة (طه) و(الشعراء) وغيرهما.

قال القرطبيُّ - رحمه الله تعالى -: ذكر الله الإنجاء، والإغراق، ولم يذكر اليوم الذي كان ذلك فيه، فقد روى مسلمٌ - رحمه الله تعالى - عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: أن رسول الله ﷺ قدم المدينة، فوجد اليهود صياماً يوم عاشوراء، فقال لهم الرسول ﷺ: «**ما هَذا اليومُ الذي تصومونه؟**» فقالوا: هذا يوم عظيم، أنجى الله فيه موسى، وقومه، وأغرق فرعون، وقومه، فصامه موسى شكراً، فنحن نصومه. فقال رسول الله ﷺ: «**نحنُ أحقُّ، وأولَى بموسى منكم**» فصامَهُ، وأمرَ بصيامِهِ. وصيامه ﷺ ليوم عاشوراء ليس اقتداء بموسى عليه السلام، لِمَا روته السيدة عائشة - رضي الله عنها - قالت: كان يوم عاشوراء تصومه قريش في الجاهلية، وكان رسول الله ﷺ يصومه في الجاهلية، فلما قدم إلى المدينة صامه، وأمر بصيامه، فلما فرض رمضان؛ ترك صيام يوم عاشوراء، فمن شاء صامه ومن شاء تركه. أخرجه البخاريُّ، ومسلم.

ولا يقال: إنَّ قريشاً صامته بإخبار اليهود لها؛ لأنَّ اليهود كانوا أهل علم. وصامه رسول الله ﷺ بمكَّة قبل النبوة، وبعدها، ولمَّا هاجر إلى المدينة، ووجد اليهود يصومونه، قال: «**نحن أحقُّ، وأولى بموسى منكم**». فصامه اتباعاً لموسى عليه الصلاة والسلام، لأن النبيَّ ﷺ أُمر بالاقتداء بمن قبله من الرُّسل بالتَّوحيد، وبأصول الدِّين، التي لا تختلف من شريعة إلى شريعة، وأما فروع الشرائع فالاختلاف واقع فيها، باختلاف الأزمنة.

وهذا واضح لا خفاء فيه، انظر ما ذكرته في سورة (الأنعام) رقم [٩٠] تجدْ ما يسرك.

ويوم عاشوراء هو اليوم العاشر من شهر المحرم، وندب رسول الله ﷺ إلى صوم اليوم التاسع، ولكنَّه لم يصمه، فقد روى مسلم في صحيحه عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لئن بقيت إلى قابل لأصومن اليومَ التاسعَ**»، ولكنَّه ﷺ توفي، وانتقل إلى الله قبل مجيء العام القابل، والغرض من صوم التاسع مخالفة اليهود في صومهم، فقد روي عن ابن عباسٍ ـ رضي الله عنهما ـ قال: «**صوموا التاسع مع العاشر، وخالفوا اليهود**». وخذ ما يلي:

عن أبي قتادة ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**صيامُ يوم عاشوراء أحتسبُ على اللهِ أن يكفِّرَ السَّنة التي قبله**». أخرجه مسلم، والترمذيُّ. ولكن أيُّ ذنوب يكفرها صوم يوم عاشوراء وغيره من المعاصي؟ إنَّما يكفر الصَّغائر فقط، أما الكبائر؛ فلا يكفرها صومٌ، ولا صلاةٌ، ولا حجٌّ، ولا زكاةٌ، وأكبر الكبائر، وأعظم الجرائم أكل حقوق العباد، والاعتداء على حرمات الناس. هذا؛ وانظر شرح قوله تعالى في سورة (يونس) رقم [٩٢]: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ فإنه جيِّدٌ. والحمد لله!.

الإعراب: ﴿وَإِذْ﴾: الواو: حرف عطف. (إذ): معطوفة على ما قبلها. ﴿فَرَقْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة (إذ) إليها. ﴿بِكُمُ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما. وقيل: متعلقان بمحذوف حال، أي: ملتبساً بكم، والأول أقوى. ﴿ٱلْبَحْرَ﴾: مفعول به، وجملتا: (أنجيناكم، وأغرقنا آل فرعون) معطوفتان على ما قبلهما فهما في محل جر مثلهما. ﴿وَأَنتُمْ﴾: الواو: واو الحال. (أنتم): ضمير منفصل مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿تَنظُرُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله، والجملة الفعلية في محل رفع مبتدأ، والجملة الاسمية في محل نصب حال من: ﴿ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ والرابط: الواو فقط، وإن قدَّرت مفعولاً محذوفاً وأنتم تنظرون أغرقهم، أو إغراقهم، فالرابط يكون الواو، والضمير، وهو كلام جيد لا غبار عليه.

﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾﴾

الشرح: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا﴾: ويقرأ: (وَعَدْنا) بدون ألف. هذا والوعد يستعمل في الخير، وفي الشرِّ. فإذا قلت: وعدت فلاناً من غير أن تتعرض لذكر الموعود به؛ كان ذلك خيراً. وإذا قلت: أوعدت فلاناً من غير ذكر الموعود به؛ كان شرّاً، وهو ما في بيت طرفة بن العبد من معلقته رقم [١٢٠]: [الطويل]

وَإِنِّـــيَ وَإِنْ أَوْعَـــدْتُـــهُ أَوْ وَعَـــدْتُـــهُ لَـمُـخْـلِـفُ إِيـعَـادِي ومُـنْـجِـزُ مَـوْعِـدِي

وهذا هو قول الجوهري، وقول كثير من أئمة اللغة، وأما عند ذكر الموعود به، أو المُوعد به؛ فيجوز أن يستعمل (وعد) في الخير وفي الشر، فمن الأول قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ الآية رقم [٢٩] من سورة (الفتح)، ومن الثاني قوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ الآية رقم [٧٢] من سورة (الحج) وأنشدوا قول الشاعر: [الطويل]

إذَا وَعَدْتَ شَرّاً أَتى قَبْلَ وقْتِهِ ... وإِنْ وَعَدَتْ خَيْراً أَرَاثَ وَعَتَّمَا

كما يستعمل أوعَد فيهما أيضاً. كقولك: أوعدت الرجل خَيْراً، وأوعدته شرّاً. هذا والمركز في الطبائع: أن من مكارم الأخلاق، وجميل العادات: أنك إذا وعدت غيرك أن تُنزل به شرّاً؛ كان الخُلف محمدةً، وإذا وعدته خيراً كان الخُلف منقصةً، وهذا ما أراده طرفة بن العبد في بيته المتقدِّم.

هذا؛ والثابت عند الأشاعرة: أنه يجوز إخلاف الوعيد في حقِّه تعالى كرماً، وعند الماتريدية لا يجوز، وأما الوعد فلا يجوز الخلف في حقِّه تعالى اتفاقاً، ودليل الأشاعرة قول النَّبيِّ ﷺ: «**مَنْ وعَدهُ اللهُ على عملٍ ثواباً، فهو منجزٌ لهُ، ومَنْ أوعدهُ على عملٍ عقاباً، فَهُوَ بِالخيار، إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ، وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ**». هذا والوفاء بالوعد حلية الأنبياء، وشعار ذوي التقى، والفضل من الأصفياء، ورمز الثقة، والاحترام من ذوي الرأي، والحكمة من العقلاء، وقد أكَّد رسول الله ﷺ أمر العهد، وشدَّد في طلب الوفاء بالوعد، وبيَّن: أنَّ مَنْ أخلف الوعد، ونكث العهد؛ فقد خان الله ورسوله، وباع آخرته بدنياه، وخرج من دينه، ودخل في النِّفاق، فعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: ما خطبنا رسول الله ﷺ إلا قال: «**لَا إيمانَ لِمَنْ لَا أمانَةَ لَهُ، ولَا دينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ**». رواه الإمام أحمد، والطَّبراني. وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاث: إذا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ**». رواه البخاريُّ، ومسلم، وزاد مسلم في رواية له: «**وَإِنْ صَلَّى، وَصَامَ، وَزَعَمَ أنه مسلمٌ**». وزاد أبو يعلى من رواية أنس بن مالك: «**وَإِنْ صَامَ، وَصَلَّى، وَحَجَّ، واعْتَمَرَ، وَقَالَ: إنّي مُسلِمٌ**». وقال الشاعر: [الطويل]

فإن تجمَع الآفاتِ فَالبُخْلُ شَرُّهَا ... وشَرٌّ مِنَ الْبُخْلِ المواعيدُ والمُطْلُ

وَلَا خَيْرَ في وَعْدٍ إذَا كانَ كاذباً ... ولَا خَيْرَ في قوْلٍ إذا لمْ يَكُنْ فعلُ

ومن أحسن ما قيل في تشبيه من يخلف الوعيد بمسيلمة الكذاب قول بعضهم: [الكامل]

وَوَعدتني وَعداً حَسِبْتُكَ صَادِقاً ... فَبَقِيتُ مِنْ طَمَعِي أَجِيءُ وَأذهَبُ

فَإِذَا جَلَسْتُ أَنَا وَأَنْتَ بِمَجْلِسٍ ... قَالُوا مُسَيلَمَةُ وَهَذَا أَشْعَبُ

﴿مُوسَىٰٓ﴾: هو ابن عمران، بن يصهر، بن قاهث، بن لاوي، بن يعقوب، إسرائيل الله، ابن إسحاق، بن إبراهيم، على نبينا، وعليهم جميعاً ألفُ صلاةٍ، وألف سلام.

و«موسى»: هو في الأصل: «موشى» بالشين، وهو اسم أعجمي، لا ينصرف للعلمية، والعجمة: مركب من اسمين: الماء، والشجر، فالماء يقال له في العبرانية: «مو» والشجر يقال له: «شا» فعرَّبته العرب، وقالوا: «**موسى**» بالسين، وسبب تسميته بذلك: أنَّ امرأة فرعون التقطته من نهر النيل بين الماء، والشجر لما ألقته أمُّه فيه، كما هو مذكور في سورة (طه) و(القصص). وانظر ما ذكرته في الآية رقم [٤٠].

﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾: خص الليالي بالذكر دون الأيام؛ لأن الليل أسبق من النَّهار، فهي قبله في المرتبة، ولذلك وقع بها التاريخ، فالليالي أول الشهور، والأيام تبعٌ لها. وقال النقاش: في هذه الآية إشارة إلى صلة الصَّوم؛ لأنه لو ذكر الأيام؛ لأمكن أن يعتقد أنه كان يُفطر باللَّيل، فلما نصَّ على الليالي اقتضت قوة الكلام: أنه عليه السلام واصل أربعين يوماً بلياليها، قال ابن عطية: سمعت أبي يقول: سمعت الزاهد الإمام الواعظ أبا الفضل الجوهري ـ رحمه الله ـ يعظ الناس في الخلوة بالله، والدنوِّ منه في الصَّلاة ونحوها، وأنَّ ذلك يشغل عن كلِّ طعام، وشرابٍ، ويقول: أين حال موسى في القرب منه، ووصل ثمانين من الدَّهر من قوله حين سار للخضر لفتاه في بعض يوم: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ رقم [٦٢] من سورة (الكهف).

﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: اتخذتموه من بعد ذهابه إلى جبل الطور إلٰهاً من بعد موسى، وأصل الفعل: «ائتخذتم» من: الأخذ، ووزنه افتعلتم، سهِّلت الهمزة الثانية لامتناع همزتين، فصار (إيتخذتم) فاضطربت الياء في التَّصريف، جاءت ألفاً في (ياتخذ) وواواً في (موتخذ) فبدلت بحرف ثابت من جنس ما بعدها، وهي التاء، ثمَّ أدغمت التاء في التاء، ثم اجتلبت ألف الوصل للنطق بها، وقد يستغنى عنها إذا كان معنى الكلام التَّقرير كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا﴾ الآية رقم [٨٠] الآتية، فاستغنى عن ألف الوصل بألف التقرير، ومنه قول ذي الرّمَّة: [البسيط]

أَستحْدَثَ الرَّكْبُ عَنْ أشْيَاعِهِم خَبَراً أَمْ رَاجَعَ الْقَلْبَ مِنْ أَطْرابِهِ طَرَبُ

ومثله قوله تعالى في سورة (مريم) رقم [٧٨]: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ وقوله تعالى في سورة (الصافات) رقم [١٥٣]: ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ﴾ وقوله تعالى في سورة (صٓ) رقم [٧٥]: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ وقوله تعالى في سورة (المنافقون) رقم [٦]: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ انظر شرح هذه الآيات في محالِّها.

﴿ٱلْعِجْلَ﴾ المراد به: الذي صنعه لهم السامريُّ من ذهب، كما سترى تفصيله في سورة طه. هذا والأربعون ليلة في قول المفسرين هي: ذو القعدة، وعشر من ذي الحجة، وكان ذلك بعد أن أنجاهم الله من كيد فرعون، وغرقه في البحر، وسأله قومه أن يأتيهم بكتاب من عند الله، فذهب موسى لمناجاة ربه على جبل الطور، وليطلب منه الكتاب الذي وعد قومه به، فصنع لهم السامريُّ العجل، قال تعالى في سورة (الأعراف) رقم [١٤٨]: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ

حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ وقال جلَّ ذكره في سورة (طه) رقم [٨٨] في حق السامري: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾. هذا؛ وسُمِّي العجل عجلاً، لاستعجالهم عبادته، والعجل: ولد البقرة، والعجُّول مثله، والجمع: العجاجيل، والأنثى عجلة، وبنو عجل قبيلة من ربيعة.

هذا؛ وقد قال تعالى في سورة (الأعراف) رقم [١٤٢]: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ انظر شرحها هناك فإنه جيد والحمد لله. وقد قال القرطبي رحمه الله تعالى في سبب فتنتهم زيادة العشر فوق الثلاثين، وزلق رحمه الله تعالى. فقال: فخرج إلى الطُّور في سبعين من خيار بني إسرائيل، يعني: ليسأل الكتاب، والمعتمد: أن خروجه في السَّبعين لطلب التوبة من عبادة العجل، خذ قوله تعالى في سورة (الأعراف) رقم [١٥٥]: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا﴾ انظر شرحها هناك يتبيَّن لك وجه الحقيقة.

هذا والليلة: واحدة مفردة، أما الليل فهو واحد، بمعنى الجمع، واحدته ليلة، مثل تمر، وتمرة، وقد يجمع على ليالي، فزادوا فيه الياء على غير قياس، ونظيره: أهل، وأهال، وشبه، ومشابه، وحاجة، وحوائج، وذكر، ومذاكر، وكأن ليالي في القياس جمع: ليلاه. وقد استعملوا ذلك في الشعر، وأنشد ابن الأعرابي، وهو الشاهد رقم [٦٦] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»: [الرجز]

يَا لَكَ مِنْ ذِي جَمَلٍ مَا أَشْقَاهْ ... فِي كُلِّ مَا يَومٍ وكُلِّ لَيْلَاهْ

هذا واللَّيل الشَّرعي من غروب الشمس إلى طلوع الفَجْر، وهو أحد قولين في اللُّغة، والقول الآخر: هو من غروب الشمس إلى طلوعها. هذا؛ والنَّهار ضدُّ الليل، وهو لا يجمع كما لا يجمع العذاب، والسراب فإن جمعته قلت في الكثير: نُهُر بضمتين كسحاب، وسُحُب، وفي القليل: أنهُر وقال ابن فارس: النهر معروف، والجمع أنهر، وأنهار. ويقال: إن النَّهار يجمع على نهر، قال الشاعر: [الرجز]

لَولَا الثَّرِيدانِ لَمِتنَا بِالضُّمُرْ ... ثَرِيدُ لَيْلٍ وثَرِيدٌ بِالنُّهُرْ

والنَّهار من طلوع الفجر، أو من طلوع الشمس على ما تقدَّم في نهاية الليل إلى غروب الشمس، وقد يطلق عليهما اسم اليوم، كما رأيت في الآية رقم [٤٨]، هذا والليل يطلق على الحبارى، أو فرخها، وفرخ الكروان، والنَّهار يطلق على فرخ القطا، انتهى. قاموس، وقد ألغز بعضهم بقوله: [الوافر]

إذَا شَهْرُ الصِّيَامِ إلَيكَ وَافَى ... فَكُل ما شِئْتَ لَيْلاً أوْ نَهَارَا

الإعراب: (إذ): معطوف على مثله في الآيتين السابقتين. ﴿وَٰعَدْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة (إذ) إليها. ﴿مُوسَىٰٓ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة

على الألف للتعذُّر. ﴿أَرْبَعِينَ﴾: مفعول به ثان منصوب، وعلامة نصبه الياء نيابة عن الفتحة؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم، والنون عوض من التنوين في الاسم المفرد، وهو على حذف مضاف؛ إذ الأصل: تمام أربعين. ﴿لَيْلَةً﴾: تمييز. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿اتَّخَذْتُمُ﴾: فعل وفاعل. ﴿الْعِجْلَ﴾: مفعول به أول، والمفعول الثاني محذوف، التقدير: ثم اتخذتم العجل إلهاً. ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما. وقيل: متعلقان بمحذوف حال، وليس بشيء. ولو قيل: متعلقان بمحذوف صفة إلهاً المحذوف؛ لكان وجهاً مقبولاً، وجملة: ﴿اتَّخَذْتُمُ...﴾ إلخ: معطوفة على ما قبلها، فهي في محل جر مثلها. ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾: مبتدأ، وخبر، والجملة الاسمية في محل نصب حال من تاء الفاعل، والرابط: الواو، والضمير، وقال الزَّمخشري، وتبعه البيضاويُّ، والنَّسفيُّ: معترضة في آخر الكلام. وقيل: مستأنفة.

﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٢)﴾

الشرح: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ﴾: صفحنا عنكم، فالعفو: محو الذنب، أي: محونا ذنوبكم، وتجاوزنا عنكم، وهو بهذا المعنى كثيرٌ في القرآن كثرة لا تعدُّ، ولا تحصى، كما يأتي «عفا» بمعنى الكثرة، قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا﴾ الآية رقم [٩٥] من سورة (الأعراف) أي: حتى كثُروا، ونموا في أنفسهم، وأموالهم. من قولهم: عفا النبات، وعفا الشَّحم، والوبر: إذا كثر، قال الحُطَيئة: [الطويل]

بِمُسْتَأسِدِ الغِرْبَانِ عَافٍ نَبَاتُهُ بِأَسْؤُقٍ عَافِيَاتِ الشَّحْمِ أكوُمِ

وعفا المنزل، يعفو عفاءً: إذا انمحت آثاره، وذهبت معالمه، قال الأخطل التَّغلبيُّ، وهو الشاهد رقم [٤٩٨] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»: [البسيط]

وَبِالصَّرِيمَةِ مِنْهُمْ مَنْزِلٌ خَلَقٌ عَافٍ تَغَيَّرَ إِلَّا النُّؤْيُ وَالْوَتِدُ

وعفو المال: ما يفضل عن النفقة، قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ رقم [٢١٩] الآتية، والعافي: طالب المعروف، والإحسان، قال عروة بن الورد العبسيُّ المعروف بعروة الصَّعاليك: [الطويل]

وَإِنِّي امرؤٌ عافي إِنَائِيَ شِرْكَةٌ وَأَنْتَ امْرُؤٌ عَافِي إِنَائِكَ وَاحِدُ

وجمع العافي: عفاة، قال الأعشى في مدح ممدوحه: [المتقارب]

تَطُوفُ العُفَاةُ بِأَبْوَابِهِ كَطَوْفِ النَّصَارَى بِبَيْتِ الْوَثَنْ

وانظر إعلال (عفوا) فيما تقدَّم.

﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾: من بعد عبادة العجل. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. هذا؛ والفعل «شكر» يتعدَّى بنفسه،

وبحرف الجر، تقول: شكرته، وشكرت له. كما تقول: نصحتُه، ونصحت له، وباللام أفصح. هذا؛ ومن أسماء الله تعالى (الشَّكور) ومعناه: هو الذي يجازي على يسير الطاعات كثيرَ الدرجات، ويعطي بالعمل في أيام معدودة نعماً في الآخرة غير محدودة. وخذ ما قيل في معنى الشُّكر لله:

فقال سهل بن عبد الله: الشُّكر: الاجتهاد في بذل الطاعة مع الاجتناب للمعصية في السرِّ، والعلانية. وقالت فرقة أخرى: الشُّكر: هو الاعتراف في تقصير الشُّكر للمنعم، ولذلك قال تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ سورة (سبأ) رقم [١٣] فقال داود ـ على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ: يا رب! كيف أشكرك يا رب؛ والشُّكر نعمة منك عليَّ؟ قال: الآن عرفتني، وشكرتني؛ إذ قد عرفت أن الشكر منِّي نعمةٌ عليك. وقال موسى عليه السلام: كيف أشكرك وأصغر نعمةٍ وضعتها بيدي من نعمك، لا يُجازى بها عملي كلُّه، فأوحى الله إليه: يا موسى الآن شكرتني. وقال ذو النون المصري رحمه الله تعالى: الشُّكر لمن فوقك بالطاعة، ولنظيرك بالمكافأة، ولمن دونك بالإحسان، والإفضال. انتهى قرطبي بتصرف.

هذا؛ وشكر الله يستوجب المزيد من النعم، قال تعالى في سورة (إبراهيم) على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ﴾ وجحدها يستوجب سلبها، وردها بها. قال تعالى في الآية نفسها رقم [٧]: ﴿وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ﴾. لذا قيل: الشكر قيد النِّعمة الموجودة، وبه تنال النعمة المفقودة، وينبغي أن تعلم: أن فائدة الشكر تعود على الشاكر نفسه، قال تعالى في سورة (النَّمل) رقم [٤٠]: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ﴾ وقال جل ذكره في سورة (لقمان) رقم [١٢]: ﴿وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ﴾. هذا؛ والشكر مطلوب لكل منعم، ومحسن، ولو كان من البشر؛ لذا فقد ندبنا الرسول المعظم ﷺ قال: «**مَنْ أُعْطِيَ عطاءً، فَوَجَدَ؛ فَلْيَجْزِ به، فإنْ لَمْ يَجدْ فليُثْنِ، فإنَّ من أثنى؛ فقدْ شكر، ومَنْ كتَم؛ فقدْ كَفر، ومنْ تحلَّى بما لَمْ يُعْطَ؛ كان كَلَابسِ ثَوبَي زورٍ**». الترمذي. وعن أسامة بن زيد ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**منْ صُنِعَ إليهِ معروفٌ، فقالَ لفاعلِهِ: جَزَاكَ اللهُ خيراً؛ فقد أبْلَغَ في الثَّنَاءِ**».

وعن النُّعمان بن بشير ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**منْ لَمْ يشكُرِ القليلَ؛ لَمْ يَشْكُر الكثيرَ، ومنْ لمْ يَشْكُر الناس؛ لم يَشْكُرِ اللهَ، والتَّحدُّث بنعمةِ اللهِ شكرٌ، وتركها كفرٌ، والجماعة رحمةٌ، والفرقةُ عذابٌ**». وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**لا يَشكُرُ اللهَ مَنْ لا يشكُرُ النَّاسَ**». قال الخطابي ـ رحمه الله تعالى: هذا الكلام يتأوَّل على معنيين: أحدهما: أنَّ من كان طبعه كفران نعمة الناس، وترك الشكر لمعروفهم؛ كان من عادته كفران نعم الله عز وجل، وترك الشكر له. والوجه الآخر: أنَّ الله تعالى لا يقبل شكر العبد على إحسانه إليه، إذا كان العبد لا يشكر إحسان الناس إليه، ويكفر معروفهم؛ لاتصال الأمرين بالآخر، ورحم الله من قال: [الطويل]

وَمَنْ لَمْ يُؤَدِّ الشُّكرَ للناسِ لَمْ يكُنْ ... لإحْسَانِ ربِّ النَّاسِ يَوْماً بِشَاكِرِ

الإعراب: ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿عَفَوْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿عَنكُم﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، وهما في محل نصب مفعول به، والجملة الفعلية معطوفة على جملة: ﴿وَعَدْنَا...﴾ إلخ؛ فهي في محل جرٍّ مثلها. ﴿مِّنْ بَعْدِ﴾: متعلقان بالفعل ﴿عَفَوْنَا﴾ أيضاً، و﴿بَعْدِ﴾ مضاف و﴿ذَالِكَ﴾ اسم إشارة مبني على السكون في محل جر بالإضافة، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب لا محل له. ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ حرف مشبه بالفعل والكاف اسمه. ﴿تَشْكُرُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع... والواو فاعله، والجملة الفعلية في محل رفع خبر (لعلَّ) والجملة الاسمية مفيدة للتعليل المفهوم من التَّرجِّي.

﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾﴾

الشرح: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا﴾: أعطينا. ﴿ٱلْكِتَـٰبَ﴾: التوراة، وانظر الآية رقم [٢]. ﴿وَٱلْفُرْقَانَ﴾: اختلف فيه. فقيل: الواو صلة، والمعنى: آتينا موسى الكتاب الفرقان، والواو قد تزاد في النُّعوت. كقولهم: فلان حسنٌ وطويل، وأنشدوا: [المتقارب]

إِلَـى الـمَـلِـكِ الـقَـرْمِ وابْـنِ الـهُـمَـامِ ... وَلَـيـثِ الـكَـتِـيـبَـةِ فـي الْـمُـزْدَحَـمْ

أراد إلى الملك القرم بن الهمام ليث الكتيبة، ودليل هذا التأويل قوله ـ عزَّ وجل ـ في سورة (الأنعام) رقم [١٥٤]: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ أي: بيَّن الحلال والحرام، والكفر والإيمان، والوعد والوعيد، وغير ذلك. وقيل: الفرقان: الفرق بينهم وبين قوم فرعون، أنجى هؤلاء، وغرَّق أولئك، ونظيره قوله تعالى: ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ في سورة (الأنفال) رقم [٤١] فهو يوم بدر بلا شك، نصر الله محمداً ﷺ وأصحابه، وأهلك أبا جهل وأصحابه، وقال ابن زيد: الفرقان: انفراق البحر له حتى صار فرقاً، فعبروا. وقيل: الفرقان: الفرج من الكرب، لأنهم كانوا مستعبدين مع القبط، ومنه قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ أي: فرجاً، ومخرجاً الآية رقم [٢٩] من سورة (الأنفال)، وقيل: الفرقان: هو الكتاب أعيد ذكره باسمين مترادفين تأكيداً، وحكي هذا عن الفرَّاء، ومنه قول عديٍّ بن زيد: [الوافر]

فَـقَـدَّمَـتِ الأدِيـمَ لِـرَاهِـشَـيْـهِ ... وَأَلْـفَـى قَـوْلَـهَـا كَـذِبـاً ومَـيْـنَـا

وقال الحطيئة، وهو الشاهد رقم [٤٣] من كتابنا فتح ربِّ البريَّة: [الطويل]

ألا حَـبَّـذا هِـنْـدٌ وَأَرْضٌ بِـهَـا هِـنْـدُ ... وَهِـنْـدٌ أَتـى مِـنْ دُونِـهـا الـنـأيُ والـبُـعْـدُ

فنسق البعد على النأي والمَيْن على الكذب، لاختلاف اللفظين، ومنه قول عنترة في معلَّقته رقم [١٠]: [الكامل]

حُـيِّـيـتَ مِـنْ طَـلَـلٍ تَـقَـادَمَ عَـهْـدُهُ ... أَقْـوَى وَأَقْـفَـرَ بَـعْـدَ أُمِّ الْـهَـيْـثَـمِ

قال النحاس: وهذا إنَّما يجيء في الشِّعر، وأحسن ما قيل في هذا قول مجاهد: فرقاً بين الحق والباطل، أي الذي علَّمه إيَّاه. وقيل: المراد بالفرقان: المعجزات التي أجراها الله تعالى على يد موسى مثل: العصا، واليد، وغير ذلك. وفي الكشاف يعني: الجامع بين كونه كتاباً منزلاً، وفرقاناً بين الحقِّ، والباطل. كقولك: رأيت الغيث، واللَّيث. تريد الرَّجل الجامع بين الجود، والجرأة، ونحوه قوله تعالى في سورة (الأنبياء) رقم [٤٨]: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ يعني: الكتاب الجامع بين كونه فرقاناً، وضياءً، وذكراً. ﴿تَهْتَدُونَ﴾: أي إلى طريق الحق، والخير، والتَّقوى.

هذا والترجي في هذه الآية، وغيرها إنما هو بحسب عقول البشر؛ لأن الله تعالى لا يحصل منه ترج، ورجاء لعباده، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً، ولقد أحسن ابن المنير في الردِّ على الزمخشري القائل: إرادة أن تشكروا النِّعمة في العفو عنكم، فقال: التفسير الصحيح في: (لعلَّ) هو الذي حرَّره سيبويه ـ رحمه الله تعالى ـ في قوله: ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ من سورة عبس. قال: الرجاء منصرف إلى المُخاطب، كأنه قال: كونا على رجائكما في تذكُّره، وخشيته، وكذلك هذه الآية معناها: لتكونوا على رجاء الشُّكر لله ـ عزَّ وجل ـ ونعمه، فينصرف الرَّجاء إليهم، ويُنَزَّهُ الله تعالى.

الإعراب: ﴿وَإِذْ﴾: الواو: حرف عطف. (إذ): معطوفة على مثلها في الآيات السابقة. ﴿ءَاتَيْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿مُوسَى﴾: مفعول به أول. ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: مفعول به ثان، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة (إذ) إليها. (الفرقان): معطوف على ما قبله، أو هو صفة له، أو هو بدل منه، انظر الشرح. ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ مثل إعراب: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ مفردات، ومحلاًّ.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾

الشرح: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾: قوم: اسم جمع لا واحد له من لفظه، مثل: رهط، ومعشر، فإن المفرد لهذه الأسماء إنَّما هو رجل، وجمعها: أقوام، وأراهط، ومعاشر. هذا و«قوم» يطلق على الرجال دون النساء بدليل قوله تعالى في سورة (الحجرات) رقم [١١]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾.

وقال زهير بن أبي سلمى: [الوافر]

وَمَا أَدْرِي وَسَوْفَ إخَالُ أَدْرِي ... أَقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أَمْ نِسَاءُ؟

وهذا هو الشاهد رقم [٥٥] من كتابنا: «فتح القريب المجيب». وربما دخل فيه النِّساء على سبيل التبع للرِّجال، كما في إرسال الرسل لأقوامهم؛ إذ إن كل لفظ ﴿يَـٰقَوْمِ﴾ في القرآن الكريم، إنما يراد به الرجال، والنِّساء جميعاً، كما هنا، وهو يذكر، ويؤنث، قال تعالى في غير ما آية: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وتأنيثه باعتبار المعنى، وهو أنَّهم أمَّةٌ، وطائفة، وجماعةٌ، وسمُّوا قوماً؛ لأنهم يقومون مع داعيهم بالشَّدائد، والمتاعب، إمَّا بالمعاونة على كشفها، وإما بالمُضايقة، والإيذاء إن عارضوا، وهذا حال أعداء الخير، والإصلاح في كلِّ زمانٍ ومكان.

﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم﴾: استغنى بالجمع القليل عن الكثير، والكثير: «نفوس»، كما رأيت في الآية رقم [٩] وقد يوضع الجمع الكثير موضع جمع القلَّة، والقليل موضع الكثرة، ويقال لكلِّ مَنْ فعل فعلاً قبيحاً: إنما أسأت إلى نفسك. ﴿بِٱتِّخَاذِكُمُ﴾: أصله: باوْتِخاذكم، فقلبت الواو تاءً، وأدغمت في التاء، فهو مصدر: اتَّخذ، يتَّخذ. الأصل: اوتخذ، يوتخذ، قلبت الواو فيها تاء، وأدغمت في التاء. ﴿فَتُوبُوٓاْ﴾: ارجعوا. وقيل: اعزموا على التوبة. قال سفيان بن عيينة ـ رضي الله عنه ـ: التوبة نعمة من الله أنعم بها على هذه الأمة دون غيرها من الأمم، وكانت توبة بني إسرائيل القتل.

﴿بَارِئِكُمْ﴾: خالقكم، وبينهما فرق، وذلك: أن البارئ هو المبدع المحدث، والخالق هو المقدِّر، الناقل من حال إلى حال. ﴿فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: ليقتل بعضكم بعضاً، فقاموا صفين، وبيدهم الخناجر، والسيوف، فقتل بعضهم بعضاً، لا يسأل والد عن ولده، ولا ولد عن والده، و لا أخ عن أخيه، كلٌّ من استقبله ضربه بالسيف، وضربه الآخر بمثله. وقيل: أمر من لم يعبد العجل أن يقتل العبدة. روي: أنَّ الرجل منهم كان يلقى ابنه، أو أخاه، فلم يقدر على المضي لأمر الله، فأرسل الله عليهم ضبابة، أو سحابة، فجعلوا لا يعرف بعضهم بعضاً، فأخذوا يقتلون من الغداة إلى العشي، حتى دعا موسى، وهارون، فانكشفت السَّحابة، ووضع موسى التوراة التي أتى بها من جبل الطور، ونزلت توبتهم من السَّماء، وكان القتلى سبعين ألفاً، فكان ذلك شهادة للمقتول، وتوبة للحيِّ.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾: أي: القتل، والخضوع لأمر الله، والانقياد لما يريد. ﴿خَيْرٌ﴾: أفضل، وهو أفعل تفضيل، أصله: أخير، نقلت حركة الياء إلى الخاء؛ لأن الحرف الصحيح أولى بالحركة من حرف العلة، ثم حذفت الهمزة استغناءً عنها بحركة الخاء، ومثله قل في: حبٌّ، وشرٌّ اسمي تفضيل، إذ أصلهما أحبب، وأشرر، فنقلت حركة الباء الأولى، والراء الأولى إلى ما قبلهما، ثم أدغم الحرفان المتماثلان في بعضهما، ثم حذفت الهمزة من أولهما استغناءً عنها بحركة الحاء، والشِّين، وقد يستعمل خير، وشر على الأصل، كقراءة بعضهم قول الله تعالى في سورة (القمر): (سيعلمون غداً من الكذاب الأشَرُّ) بفتح الشين، ونحو قول رؤبة بن العجاج: [الرجز]

يَا قَاسِمَ الْخَيْرَاتِ وَابْنَ الأَخْيَرِ ... مَا سَاسَنَا مِثْلُكَ مِنْ مُؤَمَّرِ

وخير، وحبُّ يستعملن بصيغة واحدة للمذكر والمؤنث، والمفرد والمثنى والجمع؛ لأنهنَّ بمعنى «أفعل» كما رأيت. ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ قبل توبتكم، قال الزمخشري، وتبعه البيضاوي، والنَّسفي: الفاء الأولى للتَّسبيب؛ لأنَّ الظلم سبب التوبة، والثانية للتعقيب، لأن المعنى فاعزموا على التوبة، فاقتلوا أنفسكم؛ إذ إنَّ الله تعالى جعل توبتهم قتل أنفسهم، والثالثة متعلقة بشرط محذوف. كأنه قال: فإن فعلتم القتل؛ فقد تاب الله عليكم. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ انظر الآية رقم [٣٧].

الإعراب: (إذ): معطوفة على مثلها في الآيات السابقة. ﴿قَالَ مُوسَىٰ﴾: ماض، وفاعله، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة (إذ) إليها. ﴿لِقَوْمِهِۦ﴾: متعلقان بما قبلهما، والهاء ضمير في محل جر بالإضافة. (يا): أداة نداء تنوب مناب: «أدعو». (قوم): منادى منصوب وعلامة نصبه فتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة للتخفيف، والياء المحذوفة في محل جر بالإضافة، وحذف الياء هذه إنما هو بالنداء خاصَّةً؛ لأنه لا لبس فيه، ومنهم من يثبت الياء الساكنة، فيقول: (يا قومي) ومنهم من يثبتها ويحركها بالفتحة. فيقول: (يا قوميَ) ومنهم مَنْ يقلبها ألفاً بعد فتح ما قبلها، فيقول: (يا قوما)، ومنهم من يحذف الياء بعد قلبها ألفاً، وإبقاء الفتحة على الميم دليلاً عليها فيقول: (يا قومَ)، قال ابن مالك رحمه الله تعالى في ألفيته: [الرجز]

وَاجْعَلْ مُنَادىً صَحَّ إِنْ يُضَفْ لـ «يا» كَعَبْدِ عَبْدِي عَبْدَ عَبْدَا عَبْدِيَا

ويزاد سادسة وهي لغة القطع: (يا قومُ) بضم الميم، ففي الحديث الشريف، يقول: **(يا ربُّ، يا ربُّ)**. وقرئ في سورة (يوسف) الآية رقم [٣٣]: (قَالَ رَبُّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ). والجملة الندائية في محل نصب مقول القول. ﴿إِنَّكُمْ﴾: حرف مشبه بالفعل، والكاف اسمه. ﴿ظَلَمْتُمْ﴾: فعل وفاعل. ﴿أَنفُسَكُم﴾: مفعول به، والكاف في محل جر بالإضافة. ﴿بِٱتِّخَاذِكُمُ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، والكاف في محل جر بالإضافة من إضافة المصدر لفاعله. ﴿ٱلْعِجْلَ﴾: مفعول به أول للمصدر، والمفعول الثاني محذوف؛ إذ التقدير: باتخاذكم العجل إلٰهاً، وجملة: ﴿ظَلَمْتُمْ...﴾ إلخ: في محل رفع خبر (إنَّ) وجملة: ﴿إِنَّكُمْ...﴾ إلخ: في محل نصب مقول القول.

﴿فَتُوبُوٓاْ﴾: الفاء: حرف عطف على قول من يجيز عطف الإنشاء على الخبر، وابن هشام يعتبرها في مثل ذلك للسَّببية المحضة، وأراها الفاء الفصيحة؛ لأنها تفصح عن شرط مقدر، التَّقدير: وإذا كان ذلك قد حصل منكم؛ فتوبوا... (توبوا): فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية معطوفة على جملة: ﴿ظَلَمْتُمْ﴾ على الوجهين الأولين المعتبرين في الفاء، ولا محل لها على اعتبار الفاء الفصيحة، وعليه فالجملة الشرطية معطوفة برمَّتها. ﴿إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، والكاف في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله أو مِنْ إضافة الصِّفة المشبهة، وفاعله مستتر فيه. ﴿فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾: هذه الجملة معطوفة على ما قبلها على جميع الوجوه المعتبرة فيها، وإعرابها لا خفاء فيه.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾: اسم إشارة مبني على السكون في محل رفع مبتدأ، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب لا محل له. ﴿خَيْرٌ﴾: خبره. ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ ﴿خَيْرٌ﴾. ﴿عِندَ﴾: ظرف مكان متعلق بـ﴿خَيْرٌ﴾ أيضاً، و ﴿عِندَ﴾ مضاف، والكاف في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه، والجملة الاسمية: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ...﴾ إلخ: مستأنفة لا محل لها. ﴿فَتَابَ﴾: الفاء: واقعة في جواب شرط مقدر محذوف، التقدير: إن فعلتم ما أمرتم به؛ فقد تاب، وهذا إن كان من كلام موسى لهم. أو الفاء: حرف عطف، تعطف الجملة على كلام محذوف؛ إن جعلته من كلام الله تعالى على طريق الالتفات. كأنه قال لهم: فعلتم ما أمرتم به، فتاب عليكم بارئكم. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾: انظر إعراب مثل هذه الجملة في الآية رقم [٣٢] و[٣٧] والجملة الاسمية مفيدة للتعليل لا محل لها.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾

الشرح: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ﴾: هذا من خطاب الأبناء بما فعل الآباء. ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ أي: لن نصدقك حتى نرى الله عياناً، وسبب ذلك: أنَّ الله تعالى أمر موسى ـ على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ أن يأتيه بأناس من بني إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل، فاختار سبعين رجلاً من صلحائهم. وقال لهم: صوموا، وتطهَّروا. ففعلوا، وخرج بهم إلى طور سيناء. فقالوا لموسى: اطلب لنا أن نسمع كلام ربِّنا. فأسمعهم الله قوله: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ أَخْرجْتُكُمْ مِنْ أَرْضِ مصرَ بيدٍ شَدِيدةٍ فَاعبُدُونِي، وَلَا تَعْبُدُوا غَيْرِي. فلمَّا سمعوا كلام ربِّ العزة؛ استحلوا كلامه، فطلبوا رؤيته، وهذه طبيعة البشر، فكل من استحلى صوتاً يحبُّ أن يرى صاحبه. انظر الآية رقم [١٥٥] من سورة (الأعراف). ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾: الصيحة، وهي صوت هائل سمعوه من جهة السماء. وقيل: هي نار، وفي سورة (الأعراف): ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ وهي الزلزلة، ويمكن الجمع بأنهم حصل لهم الجميع. انتهى. جمل. فقام موسى يبكي، ويدعو الله ويقول: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ﴾ فناشد به حتَّى أحياهم رجلاً رجلاً بعد أن مكثوا ميتين يوماً وليلة. ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ أي: إلى حالكم، وما نزل بكم من الموت، وآثار الصعقة.

هذا وقال الزمخشري: وفي هذا الكلام دليلٌ على أنَّ موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ رادَّهم القول، وعرَّفهم: أن رؤية ما لا يجوز عليه... إلخ: قال أحمد بن المنير رحمه الله تعالى: لقد انتهز الزمخشري ما اعتقده فرصة من هذه الآية التي لا مطمع له عند التحقيق في التشبث بها، فبنى الأمر على أنَّ العقوبة سببها طلب ما لا يجوز على الله تعالى من الرؤية على ظنِّه، وأنَّى له ذلك؟! وثمَّ سبب ظاهر في العقوبة سوى ما ادَّعاه هو كل السبب، وذلك: أنَّ موسى عليه السلام لمَّا علم جواز رؤيته تعالى طلبها في آية (الأعراف) رقم [١٤٣] فأخبره الله تعالى: أنه لا يراه في الدنيا،

وصار في ذلك عنده، وعند بني إسرائيل أصلاً مقرراً، كما هو عندنا الآن معاشر أهل السنة: أن الله لا يُرى في الدنيا، لأنه أخبر: أنَّه لا يرى، والخبر واجب الصدق، وكما أنه أخبره أنه لا يرى في دار الدنيا، فقد وعد الوعد الصادق عز وجل برؤيته في الدار الآخرة، وتخصيص ذلك بالمؤمنين، وبعد استقرار هذا المعتقد طلب بنو إسرائيل الرؤية تعنُّتاً، أو شكّاً في الخبر، فأنزل الله تعالى بهم العقوبة. وكيف تخيَّل الزمخشري وشيعتُه: أن موسى عليه السلام طلب من الله ما لا يجوز عليه، وهل هو لو كان الأمر على ما تخيَّله إلا كبني إسرائيل؟! ومعاذ الله لقد برأه الله من ذلك، وكان عند الله وجيهاً! هذا وطلب رؤية الله في الدنيا ليست أول مفاسد بني إسرائيل، وجرائمهم، فقد ذكر أبو بكر بن أبي شيبة، عن قيس بن عُباد: أنَّ بني إسرائيل قالت: ما مات فرعون، وما كان ليموت أبداً! قال: فلم يَعْدُ أن سمَّع الله تكذيبهم نبيَّه عليه السلام، فرمى به على ساحل البحر، كأنه ثور أحمر يتراءاه بنو إسرائيل، قال تعالى في سورة (يونس) على نبينا وعليه ألف صلاة وألف سلام: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ رقم [٩٢] فلمَّا اطمأنوا، وبعثوا من طريق البر إلى مدائن فرعون، حتى نقلوا كنوزه، وغرقوا في النِّعمة؛ رأوا قوماً يعكفون على أصنام لهم ﴿قَالُواْ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ فزجرهم موسى، وقال: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَـٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ الآيتان من سورة (الأعراف) رقم [١٣٨، ١٤٠].

ثمَّ أمرهم أن يسيروا إلى الأرض المقدَّسة، التي كانت مساكن آبائهم، ويتطهروا من أرض فرعون، وكانت الأرض المقدَّسة في أيدي الجبَّارين، قد غلبوا عليها، فاحتاجوا إلى دفعهم عنها بالقتال. فقالوا: أتريد أن تجعلنا لقمةً للجبَّارين، فلو أنك تركتنا في يد فرعون كان خيراً لنا؟! قال الله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿يَـٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾ إلى قوله: ﴿قَـٰعِدُونَ﴾ سورة (المائدة) رقم [٢١] وما بعدها؛ حتى دعا الله عليهم، وسمَّاهم فاسقين فبقوا في التيه أربعين سنة عقوبةً لهم، قال تعالى في سورة (المائدة) رقم [٢٦]: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾.

ثمَّ رحمهم الله، فمنَّ عليهم بالمَنِّ، والسَّلوى، والغمام، انظر الآية رقم [٥٧] الآتية، ثمَّ سار موسى إلى طور سيناء ليجيئهم بالتَّوراة، فاتَّخذوا العجل، كما رأيت في الآية رقم [٥١] ثم قيل لهم: قد وصلتم إلى بيت المقدس، فادخلوا الباب سجَّداً، وقولوا: حطَّة، الآية رقم [٥٨] الآتية، وكان موسى ـ على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ شديد الحياء ستِّيْراً، فقالوا: إنه آدر، فلما اغتسل وضع على الحجر ثوبَه، فعدا به الحجر إلى مجالس بني إسرائيل، وموسى على أثره عريان؛ وهو يقول: يا حجر ثوبي، فذلك قوله تعالى في سورة (الأحزاب) رقم [٦٩]: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ﴾.

ثمَّ لما مات هارون في التيه. قالوا له: أنت قتلت هارون، وحسدته، حتى نزلت الملائكة بسريره وهارون ميِّتٌ عليه. انظر ما ذكرته في آية المائدة رقم [٢٦]. ثمَّ سألوه أن يعلموا آية في

قبول قربانهم، فجعلت نار تجيء من السماء، فتقبل قربانهم. ثمَّ سألوه أن يُبَيِّن لهم كفارات ذنوبهم في الدُّنيا، فكان مَنْ أذنب منهم ذنباً أصبح على بابه مكتوب، عملتَ كذا، وكفارته قطع عضو من أعضائك يسمِّيه له، ومن أصابه بول لم يطهر حتَّى يقرضه، ويزيل جلدته، ثمَّ بدلوا التوراة، وافتروا على الله، وكتبوا بأيديهم، واشتروا به عرضاً. الآية رقم [٧٩] الآتية، ثم صار أمرهم إلى أن قتلوا أنبياءهم، ورسلهم، فهذه معاملتهم مع ربِّهم، وسيرتهم في دينهم، وسوء أخلاقهم، وانظر ذلك في مواضعه التي ذكرتها لك. انتهى. قرطبي بتصرف كبيرٍ مني.

هذا و﴿نَرَى﴾: مضارع، ماضيه: رأى، فالقياس نَرْأى، وقد تركت العرب الهمزة في مضارعه لكثرته في كلامهم، وربما احتاجت إلى همزة، فهمزته، كما في قول سراقة بن مرداس البارقي، وهو الشاهد رقم [٥٠٤] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»: [الوافر]

أُرِي عَيْنَيَّ مَا لَمْ تَرْأَيَاهُ كِلانَا عَالِمٌ بِالتُّرَّهَاتِ

وربما جاء ماضيه بغير همزة، وبه قرأ نافع في: (أرأيتكم) و(أرأيت): (أريتكم) و(أريت) بدون همزة، قال الشاعر: [الخفيف]

صَاحِ هَلْ رَيتَ، أَوْ سَمِعتَ بِرَاعٍ رَدَّ فِي الضَّرْعِ مَا قَرَى فِي الحِلَابِ

وإذا أمرت منه على الأصل قلت: «ارء»: وعلى الحذف: «رَهْ» بهاء السكت، وقل في إعلال ﴿نَرَى﴾ أصله: «نرأيُ» قلبت الياء ألفاً لتحركها، وانفتاح ما قبلها، ثمَّ حذفت الهمزة بعد إلقاء حركتها على الراء للتخفيف.

الإعراب: (إذ): معطوفة على ما قبلها في الآيات السابقة. ﴿قُلْتُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة (إذ) إليها. (يا) أداة تنوب مناب: «أدعو». (موسى): منادى مفرد علم مبني على الضم المقدر على الألف المقصورة في محل نصب بـ (يا) النائبة مناب أدعو، والجملة الندائية مع ما بعدها في محل نصب مقول القول. ﴿لَن﴾: حرف نفي، ونصب، واستقبال. ﴿نُّؤْمِنَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ ﴿لَن﴾ والفاعل ضمير مستتر فيه وجوباً تقديره: نحن. ﴿لَكَ﴾ جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف غاية وجر بعدها «أن» مضمرة، وهي بمعنى «إلى» هنا. ﴿نَرَى﴾ فعل مضارع منصوب بـ «أن» مضمرة بعد حتى، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على الألف، والفاعل تقديره: نحن. ﴿ٱللَّهَ﴾: منصوب على التعظيم. ﴿جَهْرَةً﴾: مفعول مطلق نوعي؛ لأن الجهر بعض الرؤية. وقيل: هو حال من الفاعل المستتر، أو من لفظ الجلالة. وقيل: مفعول مطلق لفعل محذوف. التقدير: جهرتم جهرةً، وتعود الجملة هذه فتكون في محل نصب حال، و«أن» المضمرة والفعل ﴿نَرَى﴾ في تأويل مصدر في محل جر بـ «حتى» والجار والمجرور متعلقان بالفعل ﴿نُّؤْمِنَ﴾. ﴿فَأَخَذَتْكُمُ﴾: الفاء: حرف عطف. (أخذتكم): فعل ماض، والتاء للتأنيث،

والكاف مفعول به. ﴿ٱلصَّٰعِقَةُ﴾: فاعله، والجملة الفعلية معطوفة على جملة: ﴿قُلْتُمْ﴾ فهي في محل جرٍّ مثلها. ﴿وَأَنتُمْ﴾: الواو: واو الحال. (أنتم): ضمير منفصل مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿تَنظُرُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل نصب حال من الكاف الواقعة مفعولاً به، والرابط: الواو، والضمير، وجوز اعتبارها معترضة في آخر الكلام، ومستأنفة.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾

الشرح: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم﴾ أي: أحييناكم من بعد موتكم. قال قتادة: ماتوا، وذهبت أرواحهم، ثم ردُّوا لاستيفاء آجالهم، وأرزاقهم، ولإظهار آثار قدرة الله، ولو ماتوا بآجالهم؛ لم يحيوا إلى يوم القيامة. وكان موتهم عقوبة، ومنه قوله في الآية رقم [٢٤٣]: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ﴾. هذا؛ وبقي تكليفهم على الأصحِّ، لئلا يخلو عاقل من تعبُّد، وانظر إحياء الموتى في الآية رقم [٧٣] الآتية.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف يقتضي ثلاثة أمور: التشريك في الحكم، والتَّرتيب، والمهلة؛ وفي كلٍّ منها خلاف مذكور في مغني اللبيب، وقد تلحقها تاء التأنيث السَّاكنة، كما تلحق «رُبَّ» و«لا» العاملة عمل ليس، فيقال: «ثُمَّت، وربَّت، وَلَاتَ»، والأكثر تحريك التاء معهنَّ بالفتح، هذا و﴿ثُمَّ﴾ هذه غير «ثَمَّ» بفتح الثاء، فإنها اسمٌ يُشار به إلى المكان البعيد، كما في قوله تعالى في سورة (الشعراء) رقم [٦٤] وهي ظرف لا يتصرف، ولا يتقدَّمه حرف التنبيه، ولا يتَّصل به كاف الخطاب، وقد تتصل به التاء المربوطة، فيقال: (ثَمَّةَ).

الإعراب: ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿بَعَثْنَٰكُم﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به، والجملة الفعلية، معطوفة على جملة: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ في الآية السابقة. ﴿مِّنۢ بَعْدِ﴾ متعلقان بالفعل قبلهما، و﴿بَعْدِ﴾ مضاف، و﴿مَوْتِكُمْ﴾ مضاف إليه، والكاف في محل جر بالإضافة، من إضافة المصدر الميمي لمفعوله، وفاعله محذوف، التقدير: من بعد إماتتنا إيَّاكم. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: انظر إعراب هذه الجملة في الآية رقم [٥٢].

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾

الشرح: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ﴾: سترناكم بالسَّحاب الرَّقيق من حرِّ الشمس، وكان هذا في التِّيه. و﴿ٱلْغَمَامَ﴾: جمع: غمامة، كسحابة، وسحاب. وقال الفرَّاء: ويجوز: غمائم، وهي السَّحاب؛ لأنها تغمُّ السماء، أي: تسترها، وكل مغطَّىً مغموم، ومنه المغمى على عقله. روي:

أنهم لبثوا أربعين سنةً في تسعة فراسخ[١] من أرض فلسطين يسيرون من الصَّباح إلى المساء، فإذا هم في المكان الذي ارتحلوا عنه، ويسيرون من المساء إلى الصباح، فإذا هم في المكان نفسه، وكان ذلك في التيه عقوبةً لبني إسرائيل، ما خلا موسى، وهارون، ويوشع، وكالب، فإنَّ الله سهَّله عليهم، وأعانهم عليه، كما سهَّل النار على إبراهيم، وجعلها برداً وسلاماً، وكانوا أكثر من ستمئة ألف، وبقاء هذا الجمع العظيم في هذه المساحة من الأرض مدَّة أربعين سنة، بحيث لم يخرج منه أحدٌ إنَّما هذا من باب خرق العادة، وهو في زمن الأنبياء غير مستبعد، ولمَّا آذاهم حرُّ الشمس؛ أرسل عليهم الغمام يظلُّهم في النَّهار، وأرسل عليهم عموداً من نور يطلع عليهم في اللَّيل، فيضيء لهم طريقهم، ويسهِّل عليهم تحرُّكاتهم، وكان طعامهم المنُّ والسَّلوى. هذا؛ والآية مذكورة بحروفها في سورة الأعراف رقم [١٥٩]. (وكان ماؤهم من الحجر الذي يحملونه معهم، فيضربه موسى بعصاه، فينفجر منه اثنتا عشرة عيناً)، كما ستعرفه في الآية رقم [٦٠] الآتية، وأيضاً في سورة الأعراف رقم [١٦٠] وكانت ثيابهم لم تبل في هذه المدَّة، ولا تتَّسخ وكانت تطول معهم، كما تطول الصِّبيان، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «**خُلِقَ لهم في التيه ثيابٌ لا تَخْلق، ولا تدْرَن**»، أي: لا يصيبها وساخةٌ، ولا قذارة.

هذا واختلف في المنِّ ما هو؟ فقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كان المنُّ ينزل على الأشجار، فيغدون إليه، فيأكلون ما شاؤوا. وقال قتادة: كان المنُّ ينزل عليهم في محلهم سقوط الثلج، أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل، يسقط عليهم من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، يأخذ الرجل منهم قدر ما يكفيه يومه ذلك، فإن ادَّخر منه شيئاً؛ فسد عليه إلا يوم الجمعة، فإنَّهم كانوا يدَّخرون فيه ليوم السبت، فلا يفسد عليهم؛ لأن يوم السبت يوم عبادة، وما كان ينزل عليهم فيه شيءٌ. وقال عبد الرحمن بن أسلم: إنَّه العسل. وليس بشيءٍ.

هذا؛ وقيل: المنُّ مصدر، يعم جميع ما منَّ الله به على عباده من غير تعبٍ، ولا زرعٍ، ومنه قول رسول الله ﷺ في حديث سعيد بن عمرو بن نفيل (أحد العشرة المبشرين بالجنة ـ رضي الله عنه ـ): «**الْكَمْأَةُ مِنَ المنِّ الَّذِي أَنزلَ اللهُ عَلَى بَنِي إِسرَائِيلَ، وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْن**». رواه مسلم. قال أبو عبيد رحمه الله تعالى: إنَّما شبهها بالمنِّ؛ لأنه لا مؤونة فيها ببذر، ولا سقي، ولا علاجٍ، فهي منه، أي من جنسِ مَنِّ بني إسرائيل في أنَّه كان دون تكلُّف. قال بعض أهل العلم بالطِّبِّ: الكمأة شفاءٌ للعين، إما لتبريد العين من بعض ما يكون فيها من الحرارة، فتستعمل بنفسها مفردةً، وإما لغير ذلك، فمركبة مع غيرها. وذهب أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ إلى استعمالها بحتاً في جميع أمراض العين، وهذا كما استعمل أبو وجزة العسل في جميع الأمراض

(١) الفرسخ: مسافة تبلغ ثلاثة أميال هاشمية، والميل الهاشمي (٥٧٦٠) متراً (المعجم المدرسي).

كلِّها حتى في الكحل. (السَّلوى): قال ابن عطية: طير بإجماع المفسرين. وقيل: هو السُّمَانى بعينه، وقد غلط خالد بن زهير الهُذليُّ، فظنَّه العسل، فقال: [الطويل]

وقاسَمَها بالله جَهْداً لأَنتمُ أَلَذُّ مِنَ السَّلْوَى إذَا مَا نَشُوْرُها

وقال المؤرج أحد علماء اللغة والتفسير، وهو ابن عمر السَّدوسي: إنَّه العسل، واستدل ببيت الهذلي، وذكر: أنه كذلك بلغة كنانة، سمِّي به؛ لأنه يسلى به، ومنه عين السُّلوان، وأنشد قول الشاعر: [الرجز]

لَوْ أَشْرَبُ السُّلْوَانَ مَا سَلِيْتُ مَا بِي غِنىً عنْكَ وَإِنْ غَنِيتُ

وقال الجوهريُّ: والسَّلوى: العسل، وذكر بيت الهذلي، لذا ما ادَّعاه ابن عطية من الإجماع من أنه طير لا يصحُّ، ويمكن القول: أنه يطلق على الطير المذكور وعلى العسل، والسُّلوانة بالضم: خرزة كانوا يقولون: إذا صُبَّ عليها ماء المطر، فشربه العاشق سلا، قال الشَّاعر: [الطويل]

شَرِبْتُ علَى سُلْوَانةٍ ماءَ مُزْنَةٍ فَلا وَجَدِيْدِ الْعَيْشِ يا مَيُّ مَا أَسْلُو

واسم ذلك الماء: السُّلوان، وقال بعضهم: السُّلوان: دواء يسقاه الحزين، فيسلو، والأطباء يسمُّونه المُفَرِّح. ويقال: سليت، وسلوت لغتان، هذا وقال الأخفش: السَّلوى: جمع لا واحد له من لفظه، مثل: الخير، والشر. وقال الخليل: واحده: سَلْواة، وأنشد قول الشاعر: [الطويل]

وَإِنِّي لَتَعرونِي لِذِكْرَاكِ سُلْوَةٌ كَمَا انْتَفَضَ السَّلْوَاةُ مِنْ بَلَلِ الْقَطْر

﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۖ﴾: هو على تقدير: وقلنا لهم: كلوا من حلالات ما رزقناكم، ولا تدَّخروا لغد. فخالفوا، وادخروا، فدوَّد، وفسد: فقطع الله عنهم ذلك، فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَوْلا بَنُو إِسْرَائِيلَ لَمْ يَخبثِ الطَّعام، وَلَمْ يَخْنَزِ اللَّحم، وَلَوْلا حَوَّاءُ لَمْ تَخُنْ أُنْثَى زَوْجَهَا الدَّهْرَ**». متَّفق عليه، لم يخنز اللَّحم: لم ينتن، ولم يتغيَّر. هذا والأمر أمر إباحة، وإرشاد، وامتنان. ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ أي: بكفرهم، وجحودهم هذه النِّعم. ويقدَّر قبله: فعصوا، ولم يقابلوا هذه النعم بالشُّكر. ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ لمقابلتهم النعم بالمعاصي. وكلُّ من خالف أوامر الله فإنما يظلم نفسه؛ لأن وبال ذلك يعود عليه. وهذه الجملة تكرر ذكرها في عشر آيات، وخذ قوله تعالى في سورة (فصلت) رقم [٤٦]: ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾. هذا والجمع بين صيغتي الماضي، والمضارع: ﴿ظَلَمُونَا﴾ و﴿يَظۡلِمُونَ﴾ للدلالة على تماديهم في الظلم، واستمرارهم على الكفر.

الإعراب: (ظلَّلنا): فعل وفاعل. ﴿عَلَيۡكُمُ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿ٱلۡغَمَامَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها في الآية السابقة. (أنزلنا): فعل وفاعل. ﴿عَلَيۡكُمُ﴾: متعلقان به. ﴿ٱلۡمَنَّ﴾: مفعول به. (السَّلوى): معطوف على ما قبله منصوب مثله،

وعلامة نصبه فتحة مقدرة على الألف للتعذر، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها. ﴿كُلُواْ﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول لقولٍ محذوف. التَّقدير: وقلنا: كلوا.. والجملة الفعلية على هذا التقدير معطوفة على ما قبلها. ﴿مِن طَيِّبَٰتِ﴾: متعلقان بما قبلهما، وهما في محل نصب مفعول به، و﴿طَيِّبَٰتِ﴾: مضاف. و﴿مَا﴾: اسم موصول، أو نكرة موصوفة مبنية على السكون في محل جر بالإضافة. ﴿رَزَقْنَٰكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به أول، والجملة الفعلية صلة ﴿مَا﴾ أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف، وهو المفعول الثاني؛ إذ التقدير: من طيبات الذي، أو شيء رزقناكموه. ﴿وَمَا﴾: الواو: واو الحال. (ما): نافية. ﴿ظَلَمُونَا﴾: ماض، وفاعله، ومفعوله، والمتعلق محذوف، انظر تقديره في الشرح، والجملة الفعلية في محل نصب حال من واو الجماعة المحذوفة مع الفعل، انظر تقديره في الشرح، والرابط الواو والضمير، والكلام المقدر مستأنف؛ لأنه بمنزلة جواب لسؤال مقدَّر، فكأن قائلاً قال: ما فعلوا بهذه النِّعم؟ قيل: فكفروا هذه النعم... إلخ. ﴿وَلَٰكِن﴾: الواو: حرف عطف. (لكن): حرف استدراك مهمل لا عمل له. ﴿كَانُوٓاْ﴾: فعل ماض ناقص مبني على الضم، والواو اسمه، والألف للتفريق. ﴿أَنفُسَهُمْ﴾: مفعول به مقدم، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿يَظْلِمُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله، والجملة الفعلية في محل نصب خبر: (كان) وجملة: ﴿كَانُوٓاْ...﴾ إلخ: معطوفة على ما قبلها، فهي في محل نصب حال مثلها.

﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾

الشرح: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ القائل هو الله، والتعبير بمثل هذا كثير في القرآن الكريم، قال ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى في كتابه: (الجواب الصَّحيح لمن بدل دين المسيح): وقوله تعالى: (كتبنا)، (جعلنا)، (إنَّا)، (نحن نقصُّ)، (نسأل): لفظٌ يقع في جميع اللغات على من كان له شركاء، وعلى الواحد العظيم المُطاع؛ الذي له أعوان يطيعونه، وإن لم يكونوا له شركاء ولا نظراء، والله تعالى خلق ما سواه فيمتنع أن يكون له شريك، أو مثل، والملائكة وسائر العالمين جنودُه، فإذا كان الواحد من الملوك يقول: إنا، نحن، وكتبنا، وفعلنا... إلخ، ولا يريدون: أنَّهم ثلاثة ملوك، فما بالك المَلِكُ ربُّ العالمين، وربُّ كل شيء، ومليكه هو أحقُّ بأن يقول: (إنا) و(نحن)... إلخ مع أنه ليس له شريكٌ ولا مثلٌ، بل له جنود السموات والأرض. انتهى.

أقول: و(نا) هذه تسمى نون العظمة، وليست دالة على الجماعة، فالله تعالى لا شريك له في ذاته، ولا صفاته، ولا في أفعاله، وكثيراً ما يتكلم بها العبد، فيقول: أخذنا، وأعطينا، وليس معه أحد، وهذا واقع ومستعملٌ في اللغة العربيَّة كثيراً.

هذا وفي سورة (الأعراف): ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ والقائل لهم موسى قبل أن يموت في التيه، أي: قال لهم: إذا خرجتم من التيه. أو القائل لهم هو يوشع، وهذا كان لما خرجوا من التيه، وقد أكد ابن كثير: أنَّ القائل لهم هو موسى، على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام، وأنَّ القرية إنَّما هي بيت المقدس. وقال آخرون: هي أريحا، وأن القائل هو يوشع، هذا وإذا تأملنا قوله تعالى في سورة (المائدة) رقم [٢١]: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾، وعرفنا عنادهم، وعصيانهم، وأنَّ ذلك كان سبباً لتيههم أربعين سنة، وهذا كان في حياة موسى، وبعد نجاة بني إسرائيل قطعاً؛ تبيَّن لنا: أنَّ القائل لهم إنَّما هو يوشع بلا شكٍّ، ودليل ذلك: أنهم لم يدخلوا القرية في عهد موسى، ولم يقولوا غير الذي قيل لهم. وهذا الذي أرتئيه، والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه! يبقى الاختلاف في القرية التي قال لهم يوشع: ادخلوا أو اسكنوا؛ هل هي بيت المقدس أو أريحاء؟.

هذا و﴿ٱلْقَرْيَةَ﴾ اسم للمكان الذي يجتمع فيه القوم، وهو يطلق على المدينة الكبيرة، وغيرها، كيف لا؟ وقد جعل الله مكة المكرمة أم القرى في قوله تعالى في الآية رقم [٩٢] من سورة (الأنعام): ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ كما تطلق على الضَّيعة الصغيرة، وهي مأخوذة من: قريت الماء في المكان: جمعته، وفي القاموس المحيط: القرْية بكسر القاف، وفتحها، والنسبة إليها قروي، وقريي. والفتح أقوى.

﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾: الأمر للإباحة مثل الآية السابقة. ﴿رَغَدًا﴾: انظر الآية رقم [٣٥] فالبحث فيها وافٍ كافٍ. ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾: منحنين متواضعين: كالراكع، ولم يرد به السُّجود الشَّرعي بوضع الجبهة على الأرض، هذا وجمع ﴿ٱلْبَابَ﴾: أبواب، وقد يجمع على أبوبة للازدواج، قال الشاعر: [البسيط]

هَتَّاكُ أَخْبِيَةٍ، وَلَّاجُ أَبْوِبَةٍ ... يَخْلِطُ بِالْبِرِّ مِنْهُ الجِدَّ وَاللِّينَا

﴿وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾ أي: حطَّ عنا ذنوبنا. قال سعيد بن جبير ـ رحمه الله ـ: معناه الاستغفار. وقال أبان بن تغلب: معناه التوبة. قال الشاعر: [الخفيف]

فَازَ بِالْحِطَّةِ الَّتي جَعَلَ اللـ ... ـهُ بِهَا ذَنْبَ عَبْدِهِ مَغْفُورَا

وقال ابن فارس في المجمل: ﴿حِطَّةٌ﴾: كلمة أمر بها بنو إسرائيل، لو قالوها؛ لحطَّ أوزارهم. وقاله الجوهري في الصِّحاح. وانظر الحديث في الآية التالية. ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾: قال الفرَّاء: جمع خطيَّة بلا همز، كما تقول: هديَّة، وهدايا، فهو جمع تكسير، وأصل خطية: خطيئة، فقلبت الهمزة ياء، وأدغمت الياء في الياء، فصار: خطيَّة. هذا؛ وقرئ بسورة (الأعراف): ﴿خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ﴾ وقرئ بسورة (نوح) على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام: ﴿خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ﴾ على أنها جمع خطيئة، فهما جمع تصحيح مثل: صحائف، وصحيفة، وأصله:

خطايئ مثل: صحايف، فقل في إعلاله: تحركت الياء فيهما، وانفتح ما قبلها، فقلبت ألفاً، ولم يعتد بالألف الزائدة لأنها حاجز غير حصين، فالتقى ساكنان: الألف الأصلية والألف المنقلبة عن الياء، فقلبت هذه همزة فصار (خطائِئ) على وزن فعالل، فلما اجتمعت الهمزتان، قلبت الثانية ياء لأن قبلها كسرة، ثم استثقلت، والجمع ثقيل، وهو معتل مع ذلك، فقلبت الياء ألفا، ثم قلبت الأولى ياءً لخفائها بين الألفين.

وقال القرطبيُّ، ومكي، وغيرهما: واختلف في أصل خطايا جمع خطيئة بالهمزة، فقال الخليل: الأصل في خطايا أن يقول: خطايئ، ثم قلب، فقيل: خطائي بهمزة بعدها ياء ثم تبدل من الياء ألفاً بدلاً لازماً. فتقول: خطاءا، فلما اجتمعت ألفان بينهما همزة والهمزة من جنس الألف صرت كأنك جمعت بين ثلاث ألفات، فأبدلت من الهمزة ياء فقلت: خطايا. وأما سيبويه فمذهبه: أن الأصل خطايئ، ثم وجب بهذه أن تهمز الياء كما همزتها في مدائن، فتقول: خطائئ، ولا تجتمع همزتان في كلمة فأبدلت من الثانية ياءً، فقلت خطائى، ثم عملت كما عملت في الأول، ففيه خمسة أعمال: قلب الياء التي قبل الهمزة همزة، ثم قلبت الثانية ياءً، ثم قلبت كسرة الأولى فتحة، ثم قلب الثانية ألفاً، ثم قلبت الأولى ياءً، وقول الفراء المتقدِّم أسهل، وأخصر.

﴿وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: أي نزيدهم إحساناً على الإحسان المتقدِّم عندهم، والمحسن من صحَّح عقد توحيده، وأحسن سياسة نفسه، وأقبل على فرائضه، وكفى المسلمين شرَّه. وفي حديث جبريل عليه السلام، الَّذي أخرجه مسلم: «**ما الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه؛ فإنه يراك. قال: صدقت**». هذا؛ وفي سورة (الأعراف) رقم [١٦١]: ﴿سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ بدون واو، قال الزمخشري: موعد بشيئين: بالغفران، وبالزيادة، وطرح الواو لا يخلُّ بذلك؛ لأنه استئناف مرتَّبٌ على تقدير قول القائل: وماذا بعد الغفران؟ فقيل له: سنزيد المحسنين. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿وَإِذْ﴾: الواو حرف عطف. (إذ) ظرف متعلق بفعل محذوف مبني على السكون في محل نصب، التقدير: اذكروا، أو مفعول به لهذا المقدَّر، وهذه الجملة معطوفة على جمل مقدَّرة قبلها في الآيات السابقة. ﴿قُلْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة (إذ) إليها. ﴿ٱدْخُلُواْ﴾: فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿هَٰذِهِ﴾: اسم إشارة مبني على الكسر في محل نصب على الظرفية المكانية عند بعض النحاة، وفي مقدمتهم سيبويه، والمحقِّقون وعلى رأسهم الأخفش ينصبونه على التوسع في الكلام بإسقاط الخافض، لا على الظرفية، فهو منتصب عندهم انتصاب المفعول به على السَّعة بإجراء اللازم مجرى المتعدِّي، ومثل ذلك قل في: «دخلت المدينة»، «ونزلت البلد». «وسكنت الشام». وأيضاً قوله في الآية رقم [٦١] ﴿ٱهْبِطُواْ مِصْرًا﴾ وهذا إذا كان الفعل ثلاثيّاً، وأما إذا كان رباعيّاً بأن دخلت عليه همزة التعدية،

ونصب مفعولين، فالمفعول الثاني يقال فيه ما ذكر في مفعول الثلاثي، والمفعول الأول يكون صريحاً مثل: «أدخلت خالداً البيت». ﴿ٱلْقَرْيَةَ﴾: بدل من اسم الإشارة أو عطف بيان عليه، وبعضهم يعربه صفة، ولا وجه له؛ لأنه غير مشتق، وجملة (ادخلوا): في محل نصب مقول القول.

﴿فَكُلُوا﴾: الفاء: حرف عطف. (كلوا): فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله. ﴿مِنْهَا﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، والتقدير: من ثمرها. ﴿حَيْثُ﴾: ظرف مكان مبني على الضم في محل نصب متعلق بالفعل قبله، وقيل: متعلق بمحذوف حال، أي: منتقلين، ومتقلبين. ﴿شِئْتُمْ﴾: فعل وفاعل، والمفعول محذوف، كما رأيت فيما تقدَّم، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة ﴿حَيْثُ﴾ إليها. ﴿رَغَدًا﴾: حال من واو الجماعة. قاله أبو البقاء. التقدير: كلوا مستطيبين، متهنئين. ويمكن اعتباره نائب مفعول مطلق، أو هو صفة لمفعول مطلق محذوف، التقدير: كلوا أكلاً رغداً. وجملة: (كلوا) معطوفة على ما قبلها، فهي في محل نصب مقول القول مثلها، وأيضاً جملة: ﴿وَٱدْخُلُوا ٱلْبَابَ﴾: معطوفة على ما قبلها، وإعرابها مثل إعراب سابقتها بلا فارق. ﴿سُجَّدًا﴾: حال من واو الجماعة. (قولوا): أمر، وفاعله. ﴿حِطَّةٌ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: مسألتنا حطة، وقرئ بالنصب على أنه مفعول مطلق محذوف، التقدير: أن تحطَّ عنا ذنوبنا حطة، أي: حطّاً. وقيل: هو منصوب بـ (قولوا) وعلى هذا فـ «أنْ» والفعل في تأويل مصدر في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: مسألتنا الحط من ذنوبنا. والجملة على الاعتبارين في محل نصب مقول القول، وجملة: (قولوا) في محل نصب مقول القول لـ ﴿قُلْنَا﴾.

﴿نَّغْفِرْ﴾: فعل مضارع مجزوم لوقوعه في جواب الأمر، وهو عند الجمهور مجزوم بشرط محذوف، التقدير: إن تقولوا نغفر، والفاعل مستتر تقديره: نحن، وقرئ بالتاء على أنه مبني للمجهول. ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿خَطَٰيَٰكُمْ﴾: مفعول به، أو هو نائب فاعل، فهو منصوب، أو مرفوع، والنصب، أو الرفع مقدر على الألف المقصورة للتعذُّر، وجملة: ﴿نَّغْفِرْ﴾ لا محل لها على اعتبارها جواباً للأمر، أو جواباً لشرط مقدَّر، وتعود لتكون في محل نصب مقول القول. ﴿وَسَنَزِيدُ﴾: الواو: واو الاعتراض. السين: حرف استقبال. (نزيد): فعل مضارع والفاعل تقديره: نحن. ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: مفعول به أول، والمفعول الثاني محذوف، التقدير: ثواباً، أو خيراً. والجملة الفعلية معترضة بين المتعاطفتين، مفيدة للتأكيد، وتقوية المغفرة.

﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾

الشرح: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ...﴾ إلخ فيه حذف، وتقديره: فبدل الذين ظلموا بالَّذي قيل قولاً غير الَّذي قيل لهم. و(بدَّل) يتعدَّى إلى مفعول واحد بنفسه، وإلى آخر بالباء، فالذي مع الباء

متروك والذي بغير باء موجود، ومثل الآية قول أبي النَّجم العجلي، وهو الشاهد رقم [٧١٩] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»: [الرجز]

وَبُدِّلْتُ والدَّهْرُ ذو تَبَدُّلِ هَيْفاً دَبُوراً بِالصَّبا وَالشَّمْأَلِ

فالذي انقطع عنها: الصَّبا، والذي صار لها: الهَيْف. وقال أحمد بن يحيى: يقال: بدَّلته، أي: غيرته، ولم أُزِل عينه، وأبدلته: أزلت عينه، وشخصه، فقد روى مسلم عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**قيل لبني إسرائيل: ادخلوا الباب سجداً وقولوا: حطَّةٌ نغفر لكم خطاياكم، فبدلوا، فدخلوا الباب يزحفون على أستاههم، وقالوا: حبَّةٌ في شعرةٍ**». وأخرجه البخاريُّ: «**وقالوا: حطَّةٌ حبَّة في شَعْرَةٍ**». وفي غير الصحيحين: «**حِنْطَةٌ في شَعْرٍ**». وقيل: قالوا: هِطَّاً سُمْهَاثَا، وهي لفظة عبرانيَّة، تفسيرها: حنطةٌ حمراء. حكاها ابن قتيبة. وكان قصدهم خلاف ما أمرهم الله به، فعصوا، وتمرَّدوا، واستهزؤوا، فعصوا بالقول، والفعل، فعاقبهم الله بالرِّجز، وهو العذاب؛ قال ابن زيد ـ رحمه الله تعالى ـ: كان طاعوناً أهلك منهم سبعين ألفاً.

﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾: وضع الله الظاهر مكان الضَّمير؛ فلم يقل: فأنزلنا عليهم؛ لزيادة التقبيح، والمبالغة في زيادة التَّوبيخ، والمبالغة في الذَّمِّ، والتَّقريع. هذا؛ والرِّجز: العذاب، والمراد: الطاعون، كما تقدَّم، وقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ تنبيه على أنه لا يمكن ردُّه، ودفعه، بخلاف عذابٍ، وبلاءٍ في الأرض يقع من يد آدمي، فهذا يمكن ردّه، ودفعه، كالهدم، والغرق، ونحوهما. ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ أي: بفسقهم، وعصيانهم، وتمرُّدهم على الله تعالى. وانظر الآية رقم [٢٦] لشرح الفسق، وفي آية الأعراف: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾.

تنبيه: الآية الكريمة، وسابقتها كلتاهما موجودتان بسورة الأعراف رقم [١٦٠ و١٦١] بمعنى واحدٍ تنصَّان على حادثة واحدة مع اختلاف في بعض الكلمات، وإبدال حرف بحرف، وهذا لا يغيِّر المعنى، وإن تغيَّر الإعراب من بعض الوجوه. وذكرت لك فيما تقدَّم: أن الحادثة جرت في عهد يوشع بن نون بعد خروج بني إسرائيل من التِّيه، ووفاة موسى، وهارون، على نبينا وعليهم جميعاً ألف صلاة وألف سلام، مع وجود الاختلاف في القرية الَّتي أمروا بدخولها، هل هي بيت المقدس، أو أريحاء؟.

الإعراب: (بَدّلَ): فعل ماض. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع فاعل، والجملة الفعلية معطوفة على جملة: ﴿قُلْنَا...﴾ إلخ، فهي في محل جرٍّ مثلها. ﴿ظَلَمُوا۟﴾: فعل ماض، وفاعله، والألف للتفريق، ومفعوله محذوف، والجملة الفعلية صلة الموصول لا محل لها. ﴿قَوْلًا﴾: مفعول به لـ(بدَّل). ﴿غَيْرَ﴾: صفة: ﴿قَوْلًا﴾ و﴿غَيْرَ﴾: مضاف، و﴿ٱلَّذِى﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل جر بالإضافة. ﴿قِيلَ﴾: ماض مبني

للمجهول، ونائب الفاعل يعود إلى ﴿ٱلَّذِي﴾ تقديره: هو، وهو العائد. (لهم): جار ومجرور متعلقان به، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها. (أنزلنا): فعل، وفاعل. ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ﴾: متعلقان بما قبلهما، وجملة: ﴿ظَلَمُواْ﴾ مع المفعول المحذوف صلة الموصول لا محل لها، وجملة: (أنزلنا): معطوفة على جملة: (بدَّل) فهي في محل جر أيضاً. ﴿رِجۡزٗا﴾: مفعول به. ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: جار، ومجرور، متعلقان بمحذوف صفة ﴿رِجۡزٗا﴾. ﴿بِمَا﴾: الباء: حرف جر (ما): مصدرية، ﴿كَانُواْ﴾: ماض ناقص، والواو اسمه، والألف للتفريق. ﴿يَفۡسُقُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله، والجملة الفعلية في محل نصب خبر ﴿كَانُواْ﴾، و(ما) والفعل (كان) في تأويل مصدر في محل جر بالباء، والجار والمجرور متعلقان بالفعل (أنزلنا)، واعتبار (ما) موصولة أو موصوفة فيه ضعف ظاهر؛ لأن المعنى بسبب فسقهم.

تنبيه: استدل بعض العلماء بهذه الآية على أن تبديل الأقوال المنصوص عليها في الشريعة لا يخلو أن يقع التعبُّد بلفظها، أو بمعناها، فإن كان التعبُّد بلفظها؛ فلا يجوز تبديلها؛ لذمِّ الله تعالى مَنْ بدَّل ما أمره بقوله. وإن كان التعبد بمعناها؛ جاز تبديلها بما يؤدي إلى ذلك المعنى، ولا يجوز تبديلها بما يخرج عنه.

وقد اختلف العلماء في هذا المعنى، فحكي عن الشافعي، ومالك، وأبي حنيفة، وأصحابهم: أنه يجوز للعالم بمواقع الخطاب البصير بآحاد كلماته نقل الحديث بالمعنى، لكن بشرط المطابقة للمعنى بكماله، وهو قول الجمهور، ومنع ذلك جمع كثير من العلماء، منهم: ابن سيرين، والقاسم بن محمد، ورجاء بن حيوة، وقال مجاهد: أنقص من الحديث، ولا تزد فيه إن شئت، وكان مالك بن أنس يشدِّد في حديث رسول الله ﷺ في التاء، والياء، ونحو هذا. وعلى هذا جماعة من أئمَّة الحديث؛ لا يرون إبدال اللفظ، ولا تغييره حتَّى إنهم يسمُّونه: ملحوناً، ويعلمون ذلك، ولا يغيِّرونه، وروى أبو مِجلز عن قيس بن عباد، قال: قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: من سمع حديثاً، فحدَّث به، كما سمع؛ فقد سلم، وكذا الخلاف في التقديم، والتأخير، والزيادة، والنقصان، فإن منهم من يعتد بالمعنى، ولا يعتد باللفظ ولكن أكثر العلماء على خلافه، والقول بالجواز هو الصَّحيح، إن شاء الله تعالى.

وذلك: أنَّ المعلوم من سيرة الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ، هو أنهم كانوا يروون الوقائع المتَّحدة بألفاظٍ مختلفةٍ، وما ذاك إلا أنهم كانوا يصرفون عنايتهم للمعاني، ولم يلتزموا التكرار على الأحاديث، ولا كتبها. وروي عن واثلة بن الأسقع ـ رضي الله عنه ـ: أنَّه قال: ليس كل ما أخبرنا به رسول الله ﷺ نقلناه إليكم، حسبكم المعنى. وقال قتادة عن زرارة بن أوفى: لقيت عدَّةً من أصحاب النَّبيِّ ﷺ فاختلفوا علي باللفظ، واجتمعوا في المعنى.

وكان النَّخعي، والحسن، والشعبي ـ رحمهم الله ـ يأتون بالحديث على المعاني. وقال الحسن: إذا أصبت المعنى؛ أجزأك. وقال الثوريُّ ـ رحمه الله تعالى ـ: إن لم يكن المعنى واسعاً فقد هلك الناس. واتَّفق العلماء على جواز نقل الشرع للعجم بلسانهم وترجمته لهم، وذلك هو النقل بالمعنى، وقد فعل الله ذلك في كتابه فيما قص علينا من أنباء ما قد سلف، فقص قصصاً ذكر بعضها في مواضع بألفاظ مختلفة، والمعنى واحد، ونقلها من ألسنتهم إلى اللسان العربيِّ، وهو مخالفٌ لها في التقديم، والتأخير، والحذف، والإلغاء، والزيادة، والنقصان، وإذا جاز إبدال العربية بالعجمية؛ فلأن يجوز بالعربية أولى. احتجَّ بهذا المعنى الشافعي، والحسن. وهو الصَّحيح في الباب. انتهى قرطبي رحمه الله تعالى.

﴿۞وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ فَقُلۡنَا ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۖ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٦٠﴾

الشرح: ﴿وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ﴾: طلب لهم السُّقيا، فالسين، والتاء للطَّلب. وكان ذلك لمَّا عطشوا في التيه. والاستسقاء إنَّما يكون عند عدم الماء، وحبس المطر، وإذا كان ذلك فالغاية منه إظهار العبوديَّة، والتذلُّل، والمسكنة، والفقر مع التَّوبة النَّصوح، وقد استسقى نبيُّنا، وحبيبنا ﷺ، فخرج إلى المصلَّى متواضعاً، متذلِّلاً، متخشِّعاً، متوسِّلاً، متضرعاً، وحسبك به، وكيف بنا ولا توبة معنا إلا العناد، ومخالفة ربِّ العباد؟! فَأَنَّى نُسْقَى؟! لكن قال ﷺ في حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: «**ولم يَمْنَعُوا زَكاةَ أَمْوالِهِمْ؛ إِلَّا مُنِعُوا الْقَطرَ مِنَ السَّمَاءِ، وَلَوْلَا البَهَائِمُ؛ لَمْ يُمْطَرُوا**».

﴿فَقُلۡنَا ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ﴾: العصا معروف، وهو اسم مقصور مؤنث، ألفه منقلبة عن واو، وأصله: عصو، وتثنيته: عصوان، وعصوين، ومقتضى القياس في جمعها عُصوٌّ، فأبدل من الواو الثانية ياءً؛ لأنها طرف ليس بينها وبين الضمة إلا حرف ساكن، فصار، عُصُوْيٌ، فقل في إعلاله: اجتمعت الواو والياء، والأول ساكن، فقلبت الواو ياءً فصار: (عُصِيٌّ) ثم قلبت ضمة العين كسرة لمناسبة الياء، قال تعالى في سورة (طه) رقم [٦٦]: ﴿قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ﴾ وفي المثل: (العصا من العُصَيَّة) وقولهم: ألقى عصاه؛ أي: أقام، وترك الأسفار، وهو مثلٌ، قال معتمر بن حمار البارقي: [الطويل]

فَأَلْقَتْ عَصَاهَا وَاسْتَقَرَّ بِهَا النَّوَى كَمَا قَرَّ عَيْناً بالإِيَابِ الْمُسَافِرُ

وقد يعبر بالعصا عن الاجتماع، والافتراق، ومنه يقال في الخوارج: شقُّوا عصا المسلمين؛ أي: اجتماعهم، وائتلافهم. وانشقت العصا؛ أي: وقع الخلاف. قال الشاعر ـ وهو الشاهد رقم [٩٦٧] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»، ونسب لجرير ـ: [الطويل]

إِذَا كَانَتِ الْهَيْجَاءُ وَانْشَقَّتِ الْعَصَا　　فَحَسْبُكَ والضَّحَّاك سَيفٌ مُهَنَّدُ

وقولهم: لا ترفع عصاك عن أهلك، يراد به الأدب. هذا؛ وكانت من آس الجنَّة، طولها عشرة أذرع على طول موسى، ولها شعبتان تَتَّقدان في الظُّلمة نوراً، حملها آدم معه من الجنة، فتوارثها الأنبياء؛ حتى وصلت إلى شعيب، وأعطاها لموسى ـ على نَبِيِّنا، وعليهم جميعاً ألف صلاة، وألف سلام ـ لما استأجره لرعاية الغنم. ﴿ٱلۡحَجَرَۖ﴾: «الحجر» معروفٌ، وقياس جمعه في القلَّة: أحجار، وفي الكثرة: حِجَار، وحجارة نادرٌ، وهو كقولنا: جمل، وجِمالة، وذكر، وذكارة. كذا قال ابن فارس، والجوهري. قال القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ: وفي القرآن: ﴿فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ﴾، ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ﴾، ﴿قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً﴾، ﴿تَرۡمِيهِم بِحِجَارَةٍ﴾، ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةً﴾ فكيف يكون نادراً؟! إلا أن يُراد: أنه نادر في القياس، كثيرٌ في الاستعمال فصيحٌ، والله أعلم.

قال وهب بن منبه ـ رحمه الله تعالى ـ: لم يكن حجراً معيَّناً، بل كان موسى يضرب أي حجر كان، فينفجر عيوناً، وهذا أعظم في الآية، والإعجاز. وقيل كان حجراً معيَّنا، كان موسى يضعه في مِخلاته، فإذا احتاجوا إلى الماء؛ وضعه، وضربه بعصاه، فيتفجَّر الماء، فأخذوا كفايتهم منه، فإذا ضربه ثانيةً؛ فيمسك الماء. قال سعيد بن جبير ـ رحمه الله تعالى ـ: وهو الذي فرَّ بثوبه حين اغتسل في النَّهر، فأتاه جبريل عليه السلام حين فرَّ بثوبه. وقال: إنَّ الله يأمرك أن ترفع هذا الحجر معك، فوضعه في مِخلاته، وحفظه، وكان من رخام كرأس الرَّجل مربَّع، وكان إذا ضربه تتفجَّر منه اثنتا عشرة عيناً بعدد القبائل المتفرعة عن أولاد يعقوب عليه السلام، من كل وجه ثلاث عيون، وكلُّ قبيلة تعرف عينها، لا يشركها فيها غيرها.

والحكمة من ذلك: أنَّ قوم موسى عليه السلام كانوا كثيرين، وكانوا في الصحراء، والناس إذا اشتدت الحاجة إلى الماء، أو إلى أي شيءٍ من ضرورات الحياة، ثم وجدوه، فإنَّه يقع بينهم تشاجر، وتنازع، فأكمل الله هذه النعمة عليهم بأن عيَّن لكلِّ سبط منهم ماءً معيناً على عددهم؛ لأنهم كانوا اثني عشر سبطاً، وهم ذرية أبناء يعقوب الاثني عشر، وهو فحوى قوله تعالى: ﴿فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۖ﴾. هذا؛ وفي سورة الأعراف رقم [١٦٠]: ﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ...﴾ إلخ. قال المفسرون: انفجرت، وانبجست بمعنى واحد. وقيل: انبجست؛ أي: عرقت، وانفجرت؛ أي: سالت.

قال القرطبي وغيره: ما أوتي نَبِيُّنا، وحبيبنا محمد ﷺ من نبع الماء، وانفجاره من يده، ومن بين أصابعه أعظم في المعجزة، فإنا نشاهد الماء يتفجَّر من الأحجار آناء اللَّيل، والنَّهار، ومعجزة نبينا ﷺ، لم تكن لنبيٍّ قبله، يخرج الماء من بين لحم ودم، روى الأئمة الثقات، والفقهاء الأثبات عن جمع من الصحابة، قالوا: كنَّا مع النبي ﷺ، فعطش الناس؛ حتَّى كادوا يهلكون، فطلب الرسول ﷺ شيئاً من الماء، فأتي بوعاءٍ صغير، كالإجَّانة، فأدخل يده فيه، فأخذ

الماء يتفجَّر، ويفور من بين أصابعه الشريفة، ويقول: «**حيَّ على الطَّهور**». قال الأعمش: فحدَّثني سالم بن أبي الجعد، قال: قلت لجابر: كم كنتم يومئذٍ؟ قال: ألفاً وخمسمئة. انتهى قرطبي بتصرف. أقول: هذا العدد كان في الحديبية، وأما في غزوة تبوك فقد كان العدد أكثر من ذلك بكثير. انظر كتب السيرة.

هذا ولفظ «عشرة» على عكس المعدود في التَّذكير والتأنيث، إن كان مفرداً، وعلى وفقه إن كان مركباً، تقول: جاء عشرة رجال، وعشر نسوة، وخمسة عشر رجلاً، وخمس عشرة امرأة. وَشِيْنُه تسكن مع المؤنث، وهي لغة أهل الحجاز، وقد تكسر، وهي لغة أهل نجد، وقرئ بها بالفتح أيضاً، وهي لغة ثالثة.

﴿كُلُواْ وَاشْرَبُواْ...﴾ إلخ: الأمر للإباحة، ورزق الله الذي أمروا أن يأكلوا منه هو المنُّ، والسَّلوى، والماء الذي أمروا أن يشربوا منه هو الماء المتفجِّر من الحجر، ومعنى ﴿رِّزْقِ ٱللَّهِ﴾ أي: من غير كدٍّ منكم، ولا تعب بل هو من خالص إنعام الله، وإفضاله. هذا؛ وقد حذف مفعول الفعلين. هذا؛ وقال ابن هشام ـ رحمه الله تعالى ـ في المغني: إذا تعلق الإعلام بمجرد إيقاع الفاعل للفعل، فيقتصر عليهما، ولا يذكر المفعول، ولا ينوى؛ إذ المنويُّ كالثَّابت، ولا يُسمَّى محذوفاً؛ لأنَّ الفعل ينزل لهذا القصد منزلة ما لا مفعول له، ومنه قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الآية رقم [٩] من سورة (الزمر)، وفي سورة (البقرة) رقم [٢٥٨]: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾، و﴿كُلُواْ وَاشْرَبُواْ﴾ في هذه الآية، وفي سورة (الأعراف) رقم [٣١]، وقوله تعالى في سورة (الدَّهر): ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ...﴾ إلخ؛ إذ المعنى: ربي الذي يفعل الإحياء والإماتة. وهل يستوي مَنْ يتصف بالعلم، ومن ينتفي عنه العلم. وأوقعوا الأكل والشرب، وذروا الإسراف. وإذا حصلت منك رؤية هنالك. ومنه على الأصح قوله تعالى في سورة (القصص) رقم [٢٣]: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ...﴾ إلخ. ألا ترى أنه عليه الصَّلاة والسلام إنَّما رحمهما، إذ كانتا على صفة الذياد، وقومهما على السَّقي، لا لكون مزودهما غنماً، ومسقيهم إبلاً. وكذلك المقصود من قولها: ﴿نَسْقِى﴾ السَّقي لا المَسْقي، ومن لم يتأمل؛ قدَّر: يسقون إبلهم، وتذودان غنمها، ولا نسقي غنمنا.

﴿وَلَا تَعْثَوْاْ﴾: ولا تفسدوا، ولا تبالغوا فيها بالإفساد، نحو قطع الطريق، والغارة، وإهلاك الزروع، وكانوا يفعلون ذلك. هذا وفي مختار الصِّحاح: عثا في الأرض: أفسد، وبابه سما، وعَثِيَ بالكسر عثياً أيضاً، وعَثَى بفتحتين بوزن فتى، قال الأزهري: القراء كلهم متفقون على فتح الثاء، فدل على أنَّ القرآن نزل باللغة الثانية، واسم الفاعل منه عاثٍ، والأول من الباب الأول، والثاني من الباب الرَّابع، والثالث من الباب الثالث. وعاث، يعيث، عيثاً، وعيوثاً، ومعاثاً.

بعد هذا: للعصا فوائد ذكر موسى ـ على نبينا، وعليه ألف صلاةٍ، وألف سلام ـ لمَّا سئل عما يحمله في يده من فوائدها فائدتين، وذلك في قوله تعالى في سورة (طه): ﴿وَمَا تِلْكَ

بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾، وذكر كثيرون للعصا منافع كثيرة، منهم ابن عباس - رضي الله عنهما -، فقال: إذا انتهيتُ إلى رأس بئر، فقصر الرِّشاء؛ وصلته بالعصا. وإذا أصابني حرُّ الشمس غرزتها في الأرض، وألقيت عليها ما يظلُّني. وإذا خفت شيئاً من هوامِّ الأرض قتلته بها. وإذا مشيت؛ ألقيتها على عاتقي، وعلَّقت عليها القوس، والكنانة، والمخلاة، وأقاتل بها السِّباع عن الغنم. هذا ومن فوائد العصا: أنَّ الرَّجل إذا كبر، وشاخ يعتمد عليها في مشيته، قال عمرو بن أحمد الباهليُّ، وهو الشاهد رقم [٩٨٨] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»: [البسيط]

وَقَدْ جَعَلْتُ إِذَا مَا قُمْتُ يُثْقِلُنِي ... ثَوْبِي فَأَنْهَضُ نَهْضَ الشَّارِبِ السَّكِرِ

وَكُنْتُ أَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ مُعْتَدِلاً ... فَصِرْتُ أَمْشِي عَلَى أُخْرَى مِنَ الشَّجَرِ

ومن فوائدها: التنبيه على الانتقال من هذه الدَّار، كما قيل لبعض الزُّهاد: مالك تمشي على العصا، ولست بكبير، ولا مريض؟ قال: إنِّي أعلم أنِّي مسافر، وأنَّها دار قلعة، وأنَّ العصا آلة السَّفر، فأخذه بعض الشُّعراء، فقال: [الطويل]

حَمَلْتُ الْعَصَا لَا الضَّعفُ أَوْجَبَ حَمْلَهَا ... عَلَيَّ ولَا أَنِي تَحَنيتُ مِنْ كِبَرْ

وَلَكِنَّنِي أَلْزَمْتُ نَفْسِي حَمْلَهَا ... لأُعْلِمَهَا أَنَّ الْمُقِيمَ عَلَى سَفَرْ

هذا وأما العين؛ فإنها تطلقُ على الماء الجاري، والنابع من الأرض، وجمعها في القلَّة: أعين، وفي الكثرة: عيون، قال تعالى في سورة (الذاريات) وغيرها: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ وتجمع أيضاً على: أعيان، وهذا غير مشهور، وقليل الاستعمال، كما تطلق على الجاسوس، كما في قولك: بث الأمير عيونه في المدينة، أي: جواسيسه، كما تطلق على ذات الشخص، كما في قولك: جاء خالد عينُه، وتطلق على الشَّمس. وعين الشيء: خياره. وتطلق على النَّقد من ذهب، وغيره، وإليك قول الشاعر: [البسيط]

وَاسْتَخْدَمُوا الْعَيْنَ مِنِّي وَهْيَ جَارِيَةٌ ... وَقَدْ سَمَحْتُ بِهَا أَيَامَ وَصْلِهِمُو

فالمراد بالعين: نفسه وذاته، والمراد بجارية: عينه الباصرة، التي تجري بالدمع، والمراد بقوله (بها) نقد الذهب، وهذا يسمى في فن البديع استخداماً، وتطلق العين على أشياء كثيرة أيضاً، وعلى المطر الهاطل من السحاب، قال عنترة في معلقته رقم [٢٩] وهو الشاهد رقم [٣٥٩] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»: [الكامل]

جَادَتْ عَلَيْهِ كُلُّ عَيْنٍ ثَرَّةٍ ... فَتَرَكْنَ كُلَّ حَدِيقَةٍ كَالدِّرْهَمِ

هذا؛ وأعيان القوم: أشرافهم، وبنو الأعيان: الإخوة من الأبوين. تأمل، وتدبر، وربك أعلم.

الإعراب: ﴿وَإِذِ﴾: (إذ): ظرف لما مضى من الزمان مبني على السكون في محل نصب متعلق بمحذوف، تقديره: اذكروا، أو هو مفعول به لهذا المقدَّر، وهو معطوف على مثله في الآيات السَّابقة. ﴿ٱسْتَسْقَىٰ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف للتعذر. ﴿مُوسَىٰ﴾: فاعله، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة (إذ) إليها. ﴿لِقَوْمِهِۦ﴾: متعلقان بما قبلهما، والهاء في محل جر بالإضافة. (قلنا): فعل وفاعل، والجملة مع مقولها معطوفة على ما قبلها، فهي في محل جرٍّ مثلها. ﴿ٱضْرِب﴾ فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت. بعصاك: متعلقان بما قبلهما، وعلامة الجر كسرة مقدرة على الألف للتعذر، والكاف في محل جر بالإضافة، وجملة: ﴿ٱضْرِب...﴾ إلخ: في محل نصب مقول القول. ﴿فَٱنفَجَرَتْ﴾: الفاء: حرف عطف. (انفجرت): فعل ماض، والتاء للتأنيث. ﴿مِنْهُ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿ٱثْنَتَا﴾: فاعل مرفوع، وعلامة رفعه الألف نيابةً عن الضمَّة؛ لأنَّه ملحق بالمثنَّى، وحذفت النون لما يشبه الإضافة. ﴿عَشْرَةَ﴾: لفظ مبني على الفتح لا محل له من الإعراب، لوقوعه موقع نون المثنَّى، ولا يصح أن يقال: إنه مضاف إليه لتضمنه معنى العطف. ﴿عَيْنًا﴾: تمييز، وجملة: (انفجرت): معطوفة على جملة محذوفة، التقدير: فضرب الحجر، فانفجرت، والجملتان معطوفتان على جملة: ﴿ٱسْتَسْقَىٰ﴾، وجملة: (قلنا) فهما في محل جرٍّ مثلهما. هذا؛ وقد قيل: إنَّ الفاء هي الفصيحة، التقدير: فإن ضربت؛ فقد انفجرت. ولا وجه له فيما أرى، ومثل ذلك في سورة (الأعراف) رقم [١٦٠].

﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق يقرب الماضي من الحال. ﴿عَلِمَ﴾: فعل ماض. ﴿كُلُّ﴾: فاعله، وهو مضاف و﴿أُنَاسٍ﴾: مضاف إليه. ﴿مَّشْرَبَهُمْ﴾: مفعول به، وهو اسم مكان، والهاء في محل جر بالإضافة، وجملة: ﴿قَدْ عَلِمَ﴾ في محل نصب حال من (قومه) والرابط محذوف. التقدير: قد علم كلُّ أناسٍ منهم، والاستئناف ممكنٌ. ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾: فعلا أمر مبنيان على حذف النون، والواو فاعلهما، والألف للتفريق، وانظر الشرح لحذف المفعول. ﴿مِن رِّزْقِ﴾: متعلقان بأحد الفعلين السابقين على التنازع، و﴿رِّزْقِ﴾ مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾: مضاف إليه، من إضافة المصدر لفاعله. والجملتان في محل نصب مقول القول لقول محذوف، التقدير: وقلنا لهم: كلوا...، ومقوله معطوف على جملة: ﴿قَدْ عَلِمَ﴾ على الوجهين المعتبرين فيها، وهذا مما يقوِّي الاستئناف. ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا) ناهية جازمة. ﴿تَعْثَوْا۟﴾: فعل مضارع مجزوم بـ (لا) الناهية، وعلامة جزمه حذف النون، لأنه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿مُفْسِدِينَ﴾: حال من واو الجماعة مؤكدة للفعل؛ لأنها من معناه، منصوب وعلامة نصبه الياء نيابة عن الفتحة؛ لأنه جمع مذكر سالم، والنون عوض من التنوين في الاسم المفرد، وجملة: (لا تعثوا): معطوفة على ما قبلها، فهي في محل نصب مقول القول أيضاً.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾

الشرح: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ﴾: هذا خطاب للأبناء بما فعل الآباء، والغرض من ذلك توجيه التوبيخ، والتقريع إليهم؛ لما بينهم وبين أصولهم من الخبث، والمكر، والخداع، ومخالفة الرُّسل. ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾ قال الحسن البصري ـ رحمه الله تعالى ـ: كانوا نتانى؛ أهل كرّاثٍ، وأبصالٍ، وأعداسٍ، فنزعوا إلى عِكْرهم عِكْر السوء ـ والعِكْر بكسر الكاف: العادة، والديدن، وبالفتح دردي كل شيء ـ واشتاقت طباعهم إلى ما جرت عليه عادتهم. فقالوا: لن نصبر على طعامٍ واحد، وكنوا عن المنِّ، والسَّلوى بطعامٍ واحد، وهما اثنان لأنهم كانوا يأكلون أحدهما بالآخر. فلذلك قالوا: طعام واحد. وقيل: لتكرارهما في كل يوم غذاء، كما تقول لمن يداوم على الصَّلاة، والصوم، والقراءة: هو على أمر واحد؛ لملازمته لذلك، انتهى. قرطبي بتصرف.

هذا؛ والطعام يطلق على ما يطعم، ويشرب، قال تعالى في الآية رقم [٢٤٩] الآتية: ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ﴾ والمراد ماء النهر، وقال تعالى في سورة (المائدة) رقم [٩٣]: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟﴾ أي: ما شربوه من الخمر. هذا؛ والطُّعم بالضم: الطعام، قال أبو خِراش: [الطويل]

أردُّ شُجاعَ البَطْنِ لَوْ تعلمينَهُ وأُوثِرُ غيري مِنْ عِيالِكَ بالطُّعْمِ
وأَغْتَبِقُ الماءَ القَراحَ فَأنتَهي إذا الزادُ أَمْسى لِلْمُزَلَّجِ ذا طَعْمِ

أراد بالأول الطَّعام، وبالثاني ما يُشتهى منه. ﴿مِنۢ بَقْلِهَا﴾: البقل معروف، وهو: كلُّ نباتٍ ليس له ساق مثل الخضر من السلق وغير ذلك، والشَّجر: ما له ساق. ﴿وَقِثَّآئِهَا﴾ بكسر القاف، وقد تضم، وهو أيضاً معروف، ويطلق على الخيار، وقيل في جمعه: قِثَّائِيّ، مثل: عِلْبَاء، وعَلَابِيّ، إلا أن قثاء من ذوات الواو. هذا؛ وإسناد الإنبات إلى الأرض مجازٌ عقليٌّ؛ لأن المُنْبِت في الحقيقة هو الله تعالى.

فائدة: روى ابن ماجه: قال: حدَّثنا محمد بن عبد الله بن نمير، حدثنا يونس بن بُكير، حدثنا هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: كانت أمي تعالجني للسُّمْنَة،

تريد أن تدخلني على رسول الله ﷺ، فما استقامَ لها ذلك حتَّى أكلتُ القِثَّاء بالرُّطب، فَسَمِنْتُ كأحسن سِمْنة. وهذا إسنادٌ صحيحٌ، وتريد بالدُّخول على رسول الله ﷺ زفها له عروساً. والله أعلم. ﴿وَفُومِهَا﴾: اختلف في الفوم، فقيل: هو الثُّوم؛ لأنه المشاكل للبصل، والثاء تبدل من الفاء، كما قالوا: مغافير، ومغاثير لصمغ يسيل من شجر العرفط رائحته ليست طيبة، وجَدث وجَدْف للقبر، وقرأ ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: (ثومها) بالثاء، وروي ذلك عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ. وقال أميَّة بن أبي الصَّلت، الذي آمن شعره، ولم يؤمن قلبه: [البسيط]

كَانَتْ مَنَازِلُهُمْ إذ ذَاكَ ظَاهِرَةً ... فِيهَا الفَرَادِيسُ والفُومَانُ والبَصَلُ

وقال حسَّان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ: [المتقارب]

وَأَنْتُمْ أُنَاسٌ لِئَامُ الأُصُولِ ... طَعَامُكُمُ الْفُومُ والْحَوْقَلِ

يعني: الثوم، والبصل، وهو قول الكسائي، والنضر بن شُمَيل. وقيل: الفوم: الحنطة، روي عن ابن عباسٍ أيضاً، وأكثر المفسرين، واختاره النحَّاس، وقال: وهو أولى، ومن قال به أعلى، وأسانيده صحاح، وإن كان الكسائيُّ، والفرَّاء، قد اختارا القول الأول لإبدال العرب الفاء من الثاء، والإبدال لا يقاس عليه، وليس ذلك بكثير في كلام العرب، وأنشد ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ لما سأله عن الفوم، وأنَّه الحنطة قول أحيحة بن الجلاح: [الكامل]

قَدْ كُنْتُ أَغْنَى النَّاسِ شَخْصاً وَاحِداً ... وَرَدَ المَدِينَةَ عَنْ زِرَاعَةِ فُومِ

وقال أبو إسحاق الزجَّاج: وكيف يطلب القوم طعاماً لا بُرَّ فيه؟ والبرُّ أصل الغذاء، وقال الجوهري أبو نصر: الفوم: الحنطة، وأنشد الأخفش: [الوافر]

وقَالَ رَبِيئُهُمْ لَمَّا أَتَانَا ... بِكَفِّهِ فُومَةٌ أَوْ فُومَتَانِ

تنبيه: الثُّوم، والبصل، والفجل، والكرَّاث من الخضراوات ذات الرَّائحة المكروهة، فالرَّسول ﷺ كان لا يأكل شيئاً من هذه الخضراوات، وعلَّل كراهته لأكلها لأحد أصحابه: «**كُلْ فَإِنِّي أُناجي مَنْ لَا تُنَاجِي**». أخرجه مسلم. فهذا بيِّنٌ في الخصوص له، والإباحة لغيره، وفي صحيح مسلم أيضاً عن أبي أيوب ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ النبيَّ ﷺ نزل عنده، في أول مقدمه المدينة مهاجراً، فصنع له طعاماً فيه ثوم، فلمَّا رُدَّ إليه سأل عن موضع أصابع النَّبيِّ ﷺ فقيل له: لم يأكل، ففزع، وصعد إليه، فقال: أحرام هو؟ قال: «**لا؛ ولكنِّي أكرهه**» قال: فإني أكره ما تكره، أو ما كرهت. فالنَّبيُّ ﷺ لم يحرم هذه الخضراوات على أمَّته، وخذ ما يلي:

فعن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال النبي ﷺ: «**مَنْ أَكَلَ الْبَصلَ، وَالثُّومَ، وَالكُرَّاثَ، فَلَا يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا، فَإِنَّ الملائِكَة تَتَأَذَّى مِمَّا يتأَذَّى مِنهُ بَنُو آدم**».

أخرجه مسلم، ورواه الطَّبراني، في الأوسط، والصَّغير، ولفظه: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ أَكَلَ مِنْ هَذِهِ الخُضْرَاوَاتِ: الثُّومَ، والبصلَ، والكُرَّاثَ، والفِجلَ، فَلَا يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا، فَإِنَّ**

المَلَائِكَةَ تَتَأَذَّى مِمَّا يتَأَذَّى مِنْهُ بَنُو آدَمَ». وعن أبي سعيدٍ الخدري ـ رضي الله عنه ـ: أنه ذَكر عند رسول الله ﷺ الثُّوم، والبصل، وقيل: يا رسول الله! وأشد ذلك الثُّوم، أفتحرمه؟ فقال رسول الله ﷺ: «**كُلُوهُ فَمَنْ أكلهُ مِنكُمْ فلَا يَقرب المسجد حتّى يذهب ريحُه منه**». رواه ابن خزيمة في صحيحه.

وعن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: أنَّه خطب يوم الجمعة، فقال في خطبته: «**ثم إنكم يا أيها الناس تأكلون شجرتين، لَا أراهما إلا خبيثتين: البصل، والثوم، لقد رأيت رسول الله ﷺ إذا وجد ريحهما من الرَّجل في المسجد أمر به فأخرج إلى البقيع، فمن أكلهما؛ فليمتهما طبخاً**». رواه مسلم، والنسائي.

﴿وَعَدَسِهَا﴾ العدس: معروف، والعدسة بُثْرةٌ تخرج بالإنسان، وربما قتلت و«عَدَسْ» زجر للبغال، قال يزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميري، وهو الشَّاهد رقم [٨٣٧] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»: [الطويل]

عَدَسْ مَا لِعبَّادٍ عليْكِ إمَارةٌ ... نَجَوْتِ وَهذَا تَحْمِلينَ طَلِيْقُ

والعدس: شدَّة الوطء والكدح أيضاً، وعدست المنية إليه، أي: سارت، قال الكميت: [الطويل]

أُكَلِّفُهَا هَوْلَ الظَّلَامِ، ولَمْ أَزَلْ ... أَخَا اللَّيلِ مَعْدُوساً إلَيَّ وعَادِسَا

أي: يُسار إليَّ بالليلِ. وعَدَس: لغةٌ في حَدَس. قاله الجوهري. ويؤثر عن النبي ﷺ من حديث عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ: أنه قال: «**عليكمْ بالعدس: فإنه مبارك مُقَدَّسٌ، وإنه يرقُّ القلبَ وَيُكثرُ الدَّمعَةَ، فإنَّه بَارَكَ فيهِ سبعونَ نبيّاً، آخرهم عيسى ابن مريمَ**». ذكره الثعلبي وغيره، قال الحليمي: والعدس، والزيت طعام الصَّالحين، لو لم يكن له فضيلة: إلا أنه ضيافة إبراهيم عليه السلام في مدينته، لا تخلو منه؛ لكان فيه كفاية، وهو يخفف البدن، فيجفُّ للعبادة، ولا تثور منه الشَّهوات كما تثور من اللَّحم.

﴿قَالَ أَتَسۡتَبۡدِلُونَ﴾ الاستبدال: وضع الشيء موضع الآخر، ومنه البدل، أي: تطلبون إبداله، والسين والتاء للطلب. ﴿أَدۡنَىٰ﴾ ألفه منقلبة عن واو؛ لأنه من: دنا، يدنو: إذا قرب، وله معنيان: أحدهما أن يكون المعنى ما تقرب قيمته بخساسته، ويسهل تحصيله، والثاني: أن يكون بمعنى القريب منكم؛ لكونه في الدنيا، والذي هو خير ما كان من امتثال أوامر الله؛ لأن نفعه متأخر إلى الآخرة. وقيل: الألف مبدلة من همزة؛ لأنه مأخوذ من دنؤ، يدنؤ، فهو دنيء، والمصدر: الدناءة، وهو من الشيء الخسيس، فأبدلت الهمزة ألفاً. وقيل: أصله: أدون، من الشيء الدون فأخِّرت الواو، فانقلبت ألفاً، فوزنه الآن أفلع ومعنى الجملة: أتستبدلون البقل، والقثاء، والفوم، والبصل الذي هو أدنى بالمنِّ، والسَّلوى الذي هو خير؟! والخيرية بسبب: أنَّ المن، والسَّلوى ألذُّ، وأطيب ممَّا طلبوه، وأنهما لا كلفة فيهما، ولا تعب، والذي طلبوه لا

يجيء إلا بالحرث، والزِّراعة، والتعب، وأنَّهما لا مرية في حِلِّهما، وخلوصهما؛ لنزولهما من عند الله، وما يخرج من الأرض يتخلَّله البيع، والغشُّ، واللَّفُّ، والدَّوران، فكان أدنى من هذه الوجوه.

﴿ٱهۡبِطُواْ مِصۡرًا﴾ أي: انزلوا، وأصل النزول من أعلى إلى أسفل، وانظر الآية رقم [٣٦]، وصرف ﴿مِصۡرًا﴾ لأن المراد به مصر من الأمصار، فهو نكرة بسبب تنوينه، وهو قول ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، رضي الله عنه. وقيل: بل المراد مصر فرعون؛ التي كانوا فيها في عهده، واستدل القائلون بهذا بما في القرآن من أنَّ الله أورث بني إسرائيل ديار آل فرعون، وآثارهم. وأجازوا صرفها، قال الأخفش، والكسائيُّ: لخفتها، وشبهها بـ «هِنْد»، و«دعد» يعني بسكون الوَسْط، قال الشاعر: [المنسرح]

لَمْ تَتَلَفَّعْ بِفَضْلِ مِئْزَرِهَا دَعْدٌ وَلَمْ تُسْقَ دَعْدُ في العُلَبِ

وقال الحطيئة وهو الشاهد رقم [٤٣] من كتابنا: «فتح رب البرية»: [الطويل]

أَلَا حَبَّذَا هِنْدٌ وَأَرضٌ بِهَا هِنْدُ وَهِنْدٌ أَتى مِنْ دُونِهَا النَّأْيُ وَالبُعْدُ

﴿فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ﴾ أي: ما طلبتم من البقول، والنباتات المذكورة: ﴿وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ﴾ أي: ألزموها، وقضي عليهم بها، كناية عن إحاطتها بهم، كما تحيط القبة بمن ضربت عليه. وهذا كان على قبائل اليهود، وعلى نسلهم إلى زمن قريبٍ، ويُسَمَّى ذلك استعارةً بالكناية، قال الشاعر في مدح ابن الحشرج أمير خراسان: [الكامل]

إنَّ السَّمَاحَةَ والمُروءةَ وَالنَّدَى في قُبَّةٍ ضُرِبَتْ على ابْنِ الحَشْرَجِ

هذا؛ و﴿ٱلذِّلَّةُ﴾ الذلُّ، والصَّغار، والمسكنة، والفقر، فلا يوجد يهوديٌّ ـ وإن كان غنيّاً ـ خالياً من زي الفقر، وخضوعه، ومهانته، ولقد أذلَّهم الله كلَّ حياتهم، فبختنصَّر المجوسي أذلَّهم، وامتهنهم، كما سترى في أول سورة الإسراء، ثمَّ النصارى ساموهم العذاب، ولمَّا جاء الإسلام؛ طردهم الرسول ﷺ من المدينة، ثم طهَّر الفاروق بلاد الحجاز من رجسهم، ثمَّ لما فتح بيت المقدس؛ فرض عليهم الجزية، ولكن في هذه الأيام صار لهم صولةٌ، ودولةٌ بسبب تفرُّق المسلمين، وإهمالهم لتعاليم دينهم، وتركهم لسنة نبيِّهم، وتركهم الجهاد في سبيل الله، وإقبالهم على الدُّنيا، وكأنَّ الله نزع الذلَّة، والمسكنة من رقاب اليهود، وألبسها أعناق المسلمين بسبب ذلك. وخذ ما يلي:

فعن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: أقبل علينا رسول الله ﷺ، فقال: «**يَا مَعْشَرَ المُهَاجِرين! خَمْسُ خِصَالٍ إِذَا ابْتلِيْتُمْ بِهِنَّ، وَأَعُوذُ بِاللهِ أَنْ تُدْرِكُوهنَّ: لم تظهر الفاحشة في قوم قطُّ حتى يُعلنوا بها؛ إلَّا فشا فيهم الطاعون، والأوجاع؛ التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين**

مضوا. ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسِّنين وشدَّة المؤونة، وجور السَّلطان عليهم. ولم يمنعوا زكاة أموالهم؛ إلا مُنعوا القطر من السماء، ولولا البهائم؛ لم يمطروا. ولم يَنْقُضوا عهد الله، وعهد رسوله؛ إلا سلَّط عليهم عدوّاً من غيرهم، فأخذوا بعضَ ما في أيديهم. وما لم تحكم أئمَّتهم بكتاب الله تعالى، وَيَتَخيَّروا مِمَّا أنزلَ الله إلَّا جَعَلَ الله بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ». رواه ابن ماجه، وغيره.

وعن ثوبان ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «يُوْشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَداعى عَلَيْكُم كما تداعى الأكلةُ إلى قصعتها» فقال قائل: وَمِنْ قلَّةٍ نحن يومئذٍ؟ قال: «بل أنتم يومئذٍ كثيرٌ، ولكنَّكم غثاءٌ كغُثاء السَّيل، وَلَيَنْزِعنَّ اللهُ مِنْ صُدورِ عدوِّكُمْ المَهابةَ منكم، وَلَيَقْذِفَنَّ في قلوبكم الوَهَن». فقال قائل: يا رسول الله! وما الوهن؟ قال: «حبُّ الدنيا، وكراهِيَةُ المَوْت». أخرجه أبو داود، وأحمد، وغيرهما.

وعن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا تبايعتم بالعِيْنَة، وأخذتم أَذْنَابَ البقر، ورَضِيتُم بالزَّرْع، وتركتُمُ الجِهَاد في سبيل الله؛ سلَّط الله عليكم ذلاً لا يَنْزِعُه حتَّى ترجعوا إلى دينكم». أخرجه أبو داود. ومن قول عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: نحن قومٌ أعزَّنا الله بالإسلام، إذا طلبنا العزَّة بغيره؛ أذلَّنا الله.

﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: انقلبوا، ورجعوا بغضبٍ من الله؛ أي: لزمهم ذلك، وصاروا أحقاء به، ومنه قوله ﷺ في حديث سيد الاستغفار: «أبوء لك بنعمتك عليَّ وأبوء بذنبي» أي: أعترف بنعمتك عليَّ، وأرجع بذنبي إليك، لتغفره لي. وقال تعالى في سورة (المائدة) حكايةً عن قول هابيل لأخيه قابيل: ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ﴾ رقم [٢٩]، وأصله في اللغة الرُّجوع، ومثله «آب» بتقديم الهمزة على الباء، وقال عمرو بن كلثوم التغلبي في معلقته رقم [٧٧]: [الوافر]

فَـآبُـوا بِـالـنِّـهَـابِ وَبِـالـسَّـبَـايَـا وَأُبْـنَـا بِـالـمُـلـوكِ مُـصَـفَّـدِيـنَـا

أي: رجعوا، ورجعنا. وقد تقدَّم معنى «الغضب» في سورة الفاتحة. ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الذلَّة، والمسكنة، والغضب. ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: بسبب كفرهم بآيات الله، أي: بالتوراة، أو بالمعجزات التي أجراها الله على يد موسى تأييداً لنبوَّته، وتقويةً لحجَّته ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ مثل: يحيى، وزكريا، وشعياء. فعن عبد الله بن مسعودٍ ـ رضي الله عنه ـ، قال: كانت بنو إسرائيل في اليوم تقتل ثلاثمئة نبي، ثم يقيمون سوق بقلهم في آخر النَّهار. رواه أبو داود الطيالسي، بمعنى: لا يهمهم ذلك، ولا يكترثون به، ولا يحسبون له حساباً، وكلمة «في اليوم» لا تعني كلَّ يوم، ولكن في بعض الأيام، وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَاباً يومَ الْقِيَامَةِ رَجلٌ قَتَلَهُ نَبي، أَوْ قَتل نَبِيَّاً، وَإِمَامُ ضَلَالَةٍ، وَمُمَثِّل مِنَ الممثِّلين» أخرجه الإمام أحمد في مسنده. وهذا الحديث قاله رسول الله ﷺ حين طَعَن أُبيَّ ابن خلف في غزوة أحد، وكان ذلك سبباً لموته.

﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ﴾: معلوم: أنَّه لا يقتل نبيٌّ بحقٍّ، ولكن يقتل بالدِّفاع عن الحقِّ، فصرح بقوله: ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ﴾ للتشنيع عليهم، فلم يأت نبيٌّ قط بشيءٍ يوجب قتله. فإن قيل: كيف جاز أن يُخَلَّى بين الكافرين، وقتل الأنبياء؟! قيل: ذلك كرامة لهم، وزيادةٌ في علوِّ مقاماتهم، كمثل مَنْ يُقتل في سبيل الله من المؤمنين، وليس ذلك خذلاناً لهم. قال ابن عباس، والحسن ـ رضي الله عنهم ـ: لم يُقتل نبيٌّ قط من الأنبياء إلا مَنْ لم يؤمر بقتال، وكلُّ من أمر بقتال؛ نصره. ومعلوم: أنَّ نبينا ﷺ أُمِرَ بقتال، فنصر بذلك.

﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ﴾: الإشارة إلى ما تقدَّم، والعصيان: خلاف الطاعة. ﴿وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾ يتجاوزون حدود الله، فينتهكونها. ويؤخذ من هذا: أن صغار الذنوب يجرُّ إلى كبارها، كما أنَّ صغار الطَّاعات يجرُّ إلى كبارها، فاليهود جرَّهم ارتكاب معصية الله إلى عظائم الأمور؛ حيث قتلوا الأنبياء، واستحلوا المحرَّمات، وجرَّهم ذلك أيضاً إلى الكفر بمحمد ﷺ وتحريف التوراة، وغير ذلك ممَّا ذكره القرآن الكريم عنهم.

هذا؛ و(نبيُّون) جمع نبي، يقرأ بالهمز، وبدونه، وهو مأخوذ من النبأ، وهو الخبر؛ لأنَّ النبيَّ يخبر عن ربه. وقيل: بل مأخوذ من النَّبوة، وهو الارتفاع؛ لأنَّ رتبة النبيِّ ارتفعت عن رتب الخلق. هذا؛ والنبيُّ غير الرسول، بدليل عطفه عليه في قوله تعالى في سورة الحجِّ رقم [٥٢]: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ...﴾ إلخ. وقيل: هو أعم منه؛ لأنَّ كل رسول نبيٌّ، وليس كلُّ نبيٍّ رسولاً، أمَّا تعريفهما؛ فالرَّسول: ذكرٌ، حرٌّ، مِنْ بني آدم، سليم عن منفِّرٍ طَبْعاً، أوحي إليه بشرعٍ يعملُ به، ويُؤمر بتبليغه، فإن لم يُؤمر بالتبليغ؛ فهو نبيٌّ، وليس رسولاً، فنبيُّنا ﷺ صار نبيّاً بنزول سورة (اقرأ) عليه، وبعد ستة أشهر من نزولها صار رسولاً، بنزول صدر سورة (المدثر) عليه.

هذا؛ ويروى: أنَّ أبا ذرٍّ ـ رضي الله عنه ـ سأل رسول الله ﷺ عن عدد الأنبياء، فقال: «**مئة ألف، وأربعة وعشرون ألفاً**» قال: كم عدد الرسل منهم؟ قال: «**ثلاثمئة وثلاثة عشر، أولهم آدم، وآخرهم نبيكم**». أخرجه الإمام أحمد، وفي بعض ألفاظه اختلاف بسيطٌ، هذا: وأربعة منهم من العرب، هم: هود، وصالح، وشعيب، ومحمد ﷺ. وإسماعيل بن إبراهيم مستعربٌ لسكناه مكة مع قبيلة جرهم، وتزوُّجِه بامرأتين منهم. والمذكور من الرُّسل في القرآن بأسمائهم خمسةٌ وعشرون، ومعرفتهم بأسمائهم واجبةٌ على كلِّ مسلمٍ، ومسلمة من المكلَّفين، وأعني بمعرفتهم: أنه لو عرض اسم رسول منهم على مسلم، فيجب عليه أن يعرف أهو من المرسلين، أم لا؟ هذا وقال الله تعالى لنبيه ﷺ في سورة (النساء) رقم [١٦٤]: ﴿وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ﴾، وقال تعالى في سورة (غافر) رقم [٧٨]: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَۗ﴾.

هذا؛ وقد روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أنه قال: كلُّ الرُّسل من بني إسرائيل إلا عشرة: نوحاً، وشعيباً، وهوداً، وصالحاً، ولوطاً، وإبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، وإسماعيل، ومحمداً، صلى الله عليهم جميعاً، وسلَّم تسليماً كثيراً. هذا؛ وذكروا من أنبياء العرب حنظلة بن صفوان بعث لأصحاب الرَّس، وخالد بن سنان العبسي، انظر أصحاب الرَّس في الآية رقم [٣٨] من سورة (الفرقان) فإنَّه جيد. والحمد لله!.

هذا؛ وقد ذكر الله في آيات (الأنعام) رقم [٣٨] وما بعدها ثمانية عشر رسولاً بأسمائهم من غير ترتيب، لا بحسب الزَّمان، ولا بحسب الفضل؛ لأنَّ الواو العاطفة لا تقتضي الترتيب، وبقي سبعة منهم لم يذكروا في سورة (الأنعام) وقد ذكروا في غيرها، هم: إدريس، وشعيب، وصالح، وهود، وذو الكفل، وهو ابن أيوب الذي ذكر في سورة (الأنبياء)، وآدم، ومحمد، صلى الله عليهم جميعاً، وسلَّم تسليماً كثيراً. فهؤلاء الخمسة والعشرون رسولاً الذين يجب الإيمان بهم، ومعرفتهم، وقد نُظِموا في قول بعضهم: [البسيط]

حَتْمٌ عَلَى كُلِّ ذِي التَّكْلِيفِ مَعْرِفَةٌ ... بِأَنْبِياءٍ عَلَى التَّفصيلِ قَدْ عُلِمُوا

في تِلْكَ حُجَّتُنا مِنْهُمْ ثَمَانِيَةٌ ... مِنْ بَعْدِ عَشْرٍ وَيَبْقَى سَبْعَةٌ وَهُمو

إدريسُ هُودٌ شُعَيبٌ صَالِح وكذا ... ذُو الْكِفْلِ آدَمُ بِالمُخْتَارِ قَدْ خُتِمُوا

ويعني قوله في (تِلْكَ حُجَّتُنَا) آيات (الأنعام) المذكورة، وينبغي أن تعلم أن هؤلاء الرُّسل ليسوا بدرجةٍ واحدة من الفضل، بل أرفعهم درجةً، وأعلاهم منزلةً أولو العزم منهم، وهم خمسة: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، وسيِّد الجميع، وأفضل الخلق قاطبةً محمَّدٌ صلى الله عليهم جميعاً، وسلَّم تسليماً.

والأنبياء ـ صلوات الله، وسلامه عليهم أجمعين ـ يجوز عليهم الأعراض البشرية، فهم يأكلون، ويشربون، ويصحُّون، ويمرضون، وينكحون النِّساء، ويمشون في الأسواق، وتعتريهم الأعراض البشرية من ضعفٍ، وشيخوخةٍ، إلا أنَّهم يمتازون بخصائص كريمةٍ عاليةٍ، ويتَّصفون بصفاتٍ عظيمةٍ جليلةٍ، هي بالنسبة لهم من ألزم اللوازم، وهي ما يلي: «**الصدقُ، والأمانة، وَالتَّبْلِيغُ، وَالفَطَانَةُ، وَالْعِصْمَةُ مِنَ الْمَعَاصِي قَبْلَ النُّبوَّة، وَبَعْدَهَا، وَالسَّلَامَة مِنَ الْعيوبِ الْمُنَفِّرَة، ويستحيل عليهم ضدُّها**».

الإعراب: ﴿وَإِذْ﴾: (إذ): معطوف على مثله في الآية السابقة. ﴿قُلْتُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل جرٍّ بإضافة (إذ) إليها. (يا): أداة نداء تنوب مناب: «أدعو». (موسى): مفرد علم مبني على ضم مقدر على الألف للتعذر في محل نصب بـ (يا) النداء، والجملة الندائية في محل نصب مقول القول ﴿لَن﴾ حرف ناصب. ﴿نَّصْبِرَ﴾: فعل مضارع منصوب، والفاعل

مستتر تقديره: نحن. ﴿عَلَىٰ طَعَامٍ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿وَاحِدٍ﴾: صفة ﴿طَعَامٍ﴾ والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول. ﴿فَٱدْعُ﴾: الفاء هي الفصيحة؛ لأنها تفصح عن شرط مقدرٍ؛ إذ التقدير: وإذا كان ذلك واقعاً، وصحيحاً؛ فادع... إلخ. (ادع): فعل أمر، وطلب، والتماس، مبني على حذف حرف العلّة من آخره، وهو الواو، والضمة قبلها دليل عليها، والفاعل مستتر تقديره: أنت. ﴿لَنَا﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿رَبَّكَ﴾: مفعول به، والكاف في محل جرٍّ بالإضافة. من: إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها جواب للشرط المقدر بـ «إذا» والجملة الشرطية في محل نصب مقول القول. ﴿يُخْرِجْ﴾: فعل مضارع مجزوم بجواب الطلب المقدر، أو هو مجزوم بشرط محذوف، التقدير: إن تدع يخرج، والفاعل يعود إلى ﴿رَبَّكَ﴾ والجملة الفعلية لا محل لها على الوجهين المعتبرين في الجازم. ﴿لَنَا﴾ جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، ومفعوله محذوف، التقدير: يخرج لنا شيئاً، أو مأكولاً. ﴿مِمَّا﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، وتعليقهما بمحذوف صفة المفعول المحذوف يؤيده المعنى. هذا؛ وقال الأخفش: (من) زائدة في الإيجاب و(ما) هي المفعول به. ﴿تُنۢبِتُ﴾: فعل مضارع. ﴿ٱلْأَرْضُ﴾: فاعله، والجملة الفعلية صلة (ما)، أو صفتها، والعائد أو الرابط محذوف، التقدير: يخرج لنا من الذي، أو من شيء تنبته الأرض. ﴿مِنۢ بَقْلِهَا﴾ متعلقان بما قبلهما، أو هما متعلقان بمحذوف حال من الضمير المحذوف، الواقع مفعولاً به. وقيل: هما بدل من ﴿مِمَّا﴾ بدل بعض من كل. ﴿وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾: معطوفات على ﴿بَقْلِهَا﴾ بالواو العاطفة، و(ها) في محل جر بالإضافة.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى موسى. وقيل: بل الفاعل هو الله، والأوَّل أقوى، والجملة الفعلية مع مقولها الآتي كلام مستأنف لا محل له من الإعراب؛ إذ هو بمنزلة جواب لسؤال مقدر. ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ﴾: الهمزة: حرف استفهام، وإنكار، وتوبيخ. (تستبدلون): فعل مضارع مرفوع... إلخ، والواو فاعله. ﴿ٱلَّذِى﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل نصب مفعول به. ﴿هُوَ﴾: ضمير منفصل مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ. ﴿أَدْنَىٰ﴾: خبره مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف للتعذر، والجملة الاسمية صلة الموصول لا محل لها. ﴿بِٱلَّذِى﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، وصلة الموصول الجملة الاسمية: ﴿هُوَ خَيْرٌ﴾. والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول.

﴿ٱهْبِطُوا۟﴾ فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿مِصْرًا﴾: مفعول به، وقل فيه مثل ما رأيت في الجملة: ﴿ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ في الآية رقم [٥٨] فهي مثلها بلا فارق؛ لأن هبط بمعنى نزل، ودخل، وسكن، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول محذوف، وتقدير الكلام: فأبوا أن يرجعوا عن طلبهم، فدعا موسى ربه، فقال الله تعالى:

﴿ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا...﴾ إلخ، ويبعد أن يكون من كلام موسى عليه السلام. ﴿فَإِنَّ﴾: الفاء: حرف تعليل. (إنَّ): حرف مشبه بالفعل. ﴿لَكُم﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف في محل رفع خبر (إنَّ) تقدَّم على اسمها. ﴿مَّا﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل نصب اسمها مؤخراً. ﴿سَأَلۡتُمۡۗ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها، والعائد محذوف؛ إذ التقدير: الذي سألتمونا إيَّاه، وجملة: (إنَّ...) تعليل للأمر لا محل لها.

﴿وَضُرِبَتۡ﴾: الواو: واو الاعتراض. (ضربت): فعل ماض مبني للمجهول، والتاء تاء التأنيث. ﴿عَلَيۡهِمُ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿ٱلذِّلَّةُ﴾: نائب فاعله. ﴿وَٱلۡمَسۡكَنَةُ﴾: الواو: حرف عطف. (المسكنة): معطوف عليه، والجملة الفعلية معترضة بين قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ﴾ وبين قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ﴾ الآتي، والغرض من هذا الاعتراض بيان ما حلَّ باليهود من الصَّغار، والهوان في الدنيا، ولعذاب الآخرة أنكى، وأخزى. (باؤوا): فعل ماض، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿بِغَضَبٖ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، وقال أبو البقاء: متعلقان بمحذوف حال من واو الجماعة؛ أي: رجعوا مغضوباً عليهم، وهو جيد، معنىً. ﴿مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾: متعلقان بمحذوف صفة غضب، أو هما متعلقان به؛ لأنَّه مصدر، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محلَّ لها مثلها.

﴿ذَٰلِكَ﴾ اسم إشارة مبني على السكون في محل رفع مبتدأ، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب لا محل له. ﴿بِأَنَّهُمۡ﴾: الباء: حرف جر. (أنهم): حرف مشبه بالفعل، والهاء اسمها. ﴿كَانُواْ﴾: فعل ماض ناقص مبني على الضم، والواو اسمه، والألف للتفريق. ﴿يَكۡفُرُونَ﴾: فعل مضارع، والواو فاعله. ﴿بِـَٔايَٰتِ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، و(آيات) مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾: مضاف إليه، والجملة الفعلية في محل نصب خبر ﴿كَانُواْ﴾، وهذه الجملة في رفع خبر (أنَّ)، و(أنَّ) واسمها، وخبرها في تأويل مصدر في محل جر بالباء، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ. والجملة الاسمية: ﴿ذَٰلِكَ﴾ مستأنفة لا محل لها. (يقتلون): فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله. ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه الياء نيابة عن الفتحة؛ لأنه جمع مذكر سالم، والنون عوض عن التنوين في الاسم المفرد. ﴿بِغَيۡرِ﴾: متعلقان بمحذوف حال من واو الجماعة، التقدير: مبطلين بغير، و(غير) مضاف، و﴿ٱلۡحَقِّۗ﴾ مضاف إليه، وجملة: ﴿وَيَقۡتُلُونَ...﴾ إلخ معطوفة على ما قبلها، فهي في محل نصب مثلها.

﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ مثل سابقه. ﴿بِمَا﴾: الباء: حرف جر. (ما): مصدرية. ﴿عَصَواْ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف المحذوفة، لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة التي هي فاعله، والألف للتفريق، و(ما) والفعل في تأويل مصدر في محل جر بالباء، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ، التقدير: ذلك بسبب عصيانهم، والجملة الاسمية هذه مستأنفة، وهي

مؤكِّدة لسابقتها. (كانوا يعتدون): إعرابها مثل إعراب: (كانوا يكفرون) وهي معطوفة على سابقتها، تؤول مثلها بمصدر بسبب العطف، التقدير: ذلك بسبب عصيانهم، وبسبب اعتدائهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾

الشرح: لمَّا بين الله تعالى حال من خالف أوامره، وارتكب زواجره، وتعدَّى في فعل ما لا إذن فيه، وانتهك المحارم، وما أحلَّ به من النَّكال؛ فبيَّن تعالى على أن من أحسن من الأمم السَّالفة، وأطاع فإنَّ له جزاء الحسنى، وكذلك الأمر إلى قيام الساعة، كلُّ من اتَّبع الرسول النبيَّ الأميَّ؛ فله السَّعادة الأبديَّة، ولا خوف عليهم فيما يستقبلونه، ولا هم يحزنون على ما يتركونه ويخلِّفونه، كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ الآية رقم [٦٢] من سورة (يونس) على نبيِّنا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام.

وعن مجاهدٍ قال: قال سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ: سألت النبي ﷺ عن أهل دين كنت معهم، فذكرت من صلاتهم، وعبادتهم، فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾. وقال السُّدي: نزلت في أصحاب سلمان الفارسي، بينما هو يحدث النّبيَّ ﷺ إذ ذكر أصحابه: فأخبره خبرهم، فقال: كانوا يصلُّون، ويصومون، ويؤمنون بكَ، ويشهدون: أنَّك ستبعث نبيّاً. فلما فرغ سلمان الفارسي من ثنائه عليهم؛ قال له النَّبيُّ ﷺ: «**يا سلمان! هم من أهل النار**». فاشتد ذلك على سلمان، فأنزل الله هذه الآية. فكان إيمان اليهود: أنَّه مَنْ تمسك بالتوراة، وسنَّة موسى ـ عليه السلام ـ حتى جاء عيسى، فلمَّا جاء عيسى كان من تمسَّك بالتوراة وأخذ بسنة موسى، فلم يدعها، ولم يتبع عيسى؛ كان هالكاً. وإيمان النصارى: أنَّ من تمسك بالإنجيل منهم، وشرائع عيسى كان مؤمناً مقبولاً منه حتى جاء محمد ﷺ، فمن لم يتَّبع محمداً ﷺ منهم، ويدع ما كان عليه من سنَّة عيسى، والإنجيل، كان هالكاً. انتهى. ابن كثير. وما يشبهه في أسباب النُّزول للسُّيوطي.

ثمَّ قال ابن كثير: وهذا لا ينافي ما روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ الآية، قال: فأنزل الله تعالى بعد ذلك ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ الآية رقم [٨٥] من سورة (آل عمران)، فإنَّ هذا الذي قاله ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ إخبار عن أنه لا يقبل من أحدٍ طريقةً، ولا عملاً إلا ما كان موافقاً لشريعة محمد ﷺ بعد أن بعثه به، فأمَّا قبل ذلك، فكلُّ من اتَّبع الرَّسول في زمانه، فهو على هدىً، وسبيلٍ، ونجاةٍ. وهذا هو الحق.

هذا؛ والمراد بـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الَّذين آمنوا بمحمد ﷺ، وقيل: هم الذين آمنوا بالأنبياء السابقين قبل بعثته. وقال سفيان الثَّوري: المراد: المنافقون، كأنَّه قال: الذين آمنوا في ظاهرهم، فلذلك قرنهم باليهود، والنصارى، والصابئين، ثم بيَّن حكم من آمن بالله واليوم الآخر مِنْ جميعهم.

﴿وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾: هم اليهود سمُّوا بذلك لمَّا تابوا من عبادة العجل، من: «هاد» بمعنى: تاب، ورجع، ومنه قوله تعالى حكاية عن قولهم: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ الآية رقم [١٥٦] من سورة (الأعراف)، أو سمُّوا بذلك نسبة إلى يهودا بن يعقوب، وهو أكبر أولاده. (النصارى) جمع نصراني، سمُّوا بذلك لأنَّهم نصروا عيسى عليه السلام، أو لأنهم كانوا معه في قرية يقال لها: نصران، أو ناصرة، فسمُّوا باسمها، أو باسم من أسَّسها، والأنثى نصرانة، كندمانة، قال أبو الأخزر الحماني في وصف ناقتين: [الطويل]

فَكِلْتاهُما خَرَّتْ وَأَسْجَدَ رَأْسُهَا كَمَا أَسْجَدَتْ نَصْرَانَةٌ لَمْ تَحَنَّفِ

قال سيبويه: لا يستعمل نصران، ونصرانة إلا مع ياء النَّسب، فيقال: نصراني، ونصرانيَّة. وقيل: سموا بذلك لقوله تعالى حكاية عن قول عيسى في آخر سورة (الصَّف): ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، وأيضاً في (آل عمران) رقم [٥٢]. (الصابئين) وقرأ نافع: (الصابين) بدون همز، جمع صابئ، واختلف فيهم، وأظهر الأقوال قول مجاهد، ومتابعيه، ووهب بن منبه: إنَّهم قومٌ ليسوا على دين اليهود، ولا النَّصارى، ولا المجوس، ولا المُشركين، إنَّما هم قوم باقون على فطرتهم، ولا دين لهم مقرَّرٌ يتَّبعونه، ويقتفونه، ولهذا كان المشركون ينبذون مَنْ أسلم بالصَّابئ؛ أي: أنه قد خرج عن سائر أديان أهل الأرض إذ ذاك. وقال عبد الرحمن بن زيد ـ رحمه الله تعالى ـ: الصابئون: أهل دين من الأديان، كانوا بجزيرة الموصل، يقولون: لا إله إلا الله، وليس لهم عملٌ، ولا كتابٌ، ولا نبيٌّ، إلا قول: لا إله إلا الله. انتهى. مختصر ابن كثير بتصرف.

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهم ـ: لا تحلُّ ذبائحهم، ولا مناكحتهم. وقيل: هم قوم بين اليهود والمجوس، لا تحل ذبائحهم ولا مناكحتهم. وقيل: هم قوم بين اليهود، والنصارى يحلقون أوساط رؤوسهم، وهم الذين أمر أبو بكر الصدِّيق ـ رضي الله عنه ـ جيشه بقتلهم أينما وجدوا، وذلك في وصيته المعروفة المسطورة.

﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾: قال الخازن رحمه الله تعالى: فإن قلت: كيف قال في أول الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وقال في آخرها: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ فما فائدة التعميم أولاً، ثمَّ التخصيص آخراً؟ قلت: اختلف العلماء في حكم الآية، فلهم فيه طريقان: أحدهما: أنه أراد: إنَّ الذين آمنوا على التَّحقيق. ثمَّ اختلفوا فيهم. فقيل: هم الذين آمنوا في زمن الفترة، وهم طلاب الدِّين، مثل: حبيب النَّجار، وقس بن ساعدة، وورقة بن نوفل، وبحيرا الرَّاهب، وأبي ذرٍّ الغفاري،

وسلمان الفارسي، فمنهم من أدرك النبيَّ ﷺ، ومنهم من لم يدركه، فكأنه تعالى قال: إنَّ الذين آمنوا قبل مبعث النبي ﷺ، والذين كانوا على الدِّين الباطل المبدل من اليهود، والنصارى، والصابئين من آمن منهم بالله واليوم الآخر، وبمحمَّدٍ ﷺ فلهم أجرهم عند ربهم.

وأمَّا الطريقة الثانية: فقالوا: إنَّ المذكورين بالإيمان في أوَّل الآية إنَّما هو على طريقة المجاز دون الحقيقة، وهم الذين آمنوا بالأنبياء الماضين، ولم يؤمنوا بك. وقيل: هم المنافقون الذين آمنوا بألسنتهم، ولم يؤمنوا بقلوبهم، واليهود، والنصارى، والصابئين، فكأنه تعالى قال: هؤلاء المطلوبون كلٌّ من آمن منهم الإيمان الحقيقي صار مؤمناً عند الله. انتهى. خازن.

هذا وفي عطف العمل الصالح على الإيمان في الآية الكريمة وغيرها إيحاء بأنَّ العمل الصالح قرين الإيمان، وقد لا يجدي الإيمان بلا عمل، وهو ما أفاده قول الرسول ﷺ: «**الإيمان والعمل قرينان، لا يقبل الله أحدهما بدون صاحبه**». كما أنَّ الإيمان مشروط لقبول العمل الصالح، وهذا يُسمَّى في فن البديع احتراساً. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل نصب اسمها. ﴿ءَامَنُواْ﴾: فعل ماض مبني على الضم، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية صلة الموصول لا محل لها. ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾: معطوف على ما قبله، وهو مثله في إعرابه. ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾: معطوف على اسم ﴿إِنَّ﴾ منصوب مثله، وعلامة نصبه فتحة مقدَّرة على الألف للتعذر. ﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾: معطوف على اسم ﴿إِنَّ﴾ أيضاً منصوب، وعلامة نصبه الياء... إلخ. ﴿مَنْ﴾: اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿ءَامَنَ﴾ فعل ماض مبني على الفتح في محل جزم فعل الشرط، والفاعل يعود إلى ﴿مَنْ﴾ تقديره: هو، وهناك محذوف تقديره: منهم. ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿وَٱلْيَوْمِ﴾: معطوف على لفظ الجلالة. ﴿ٱلْأٓخِرِ﴾ صفته. ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾: هذه الجملة معطوفة على ما قبلها. ﴿فَلَهُمْ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (لهم): جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم. ﴿أَجْرُهُمْ﴾: مبتدأ مؤخر، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿عِندَ﴾: ظرف مكان متعلق بـ ﴿أَجْرُهُمْ﴾ لأنه مصدر. وقال أبو البقاء: ويجوز أن يكون في موضع الحال من المبتدأ، والتقدير: فلهم أجرهم ثابتاً عند ربهم. وهو غير مسلَّم له؛ لأن مجيء الحال من المبتدأ لا يجيزه كثير من النُّحاة، وعلى رأسهم سيبويه؛ لأن الحال تبين هيئة الفاعل، أو المفعول، و﴿عِندَ﴾ مضاف، و﴿رَبِّهِمْ﴾ مضاف إليه، والهاء في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه، والجملة الاسمية: (لهم أجرهم) في محل جزم جواب الشرط. وخبر المبتدأ الذي هو ﴿مَنْ﴾ مختلفٌ فيه. فقيل: هو جملة الشرط، وقيل: هو جملة الجواب. وقيل: هو الجملتان، وهو المرجَّح لدى المعاصرين.

هذا؛ وإن اعتبرت ﴿مَنْ﴾ اسماً موصولاً، فهي مبتدأ، وجملة: ﴿ءَامَنَ﴾ صلته، والعائد محذوف، التقدير: من آمن منهم... إلخ، والجملة الاسمية: (لهم أجرهم) في محل رفع خبره،

ودخلت الفاء في الخبر؛ لأن الموصول يشبه الشرط في العموم، فهي زائدة، والجملة الاسمية على هذين الوجهين في محل رفع خبر (إنَّ). هذا؛ ويجوز أن يكون (مَنْ) بمعنى الَّذي مبنيّاً على السكون في محل نصب بدلاً من اسم (إنَّ) والعائد محذوف أيضاً.

والجملة الاسمية: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ في رفع خبر ﴿إِنَّ﴾. هذا؛ وقد حمل على لفظ ﴿مَنْ﴾ ﴿ءَامَنَ﴾ و(عمل) فوحَّد الضمير، وحمل على معناها قوله: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ فجمع الضمير. وهذا واقع في الآيات القرآنية؛ لأنَّ ﴿مَنْ﴾ تصلح للمفرد والمثنى، والجمع. ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): نافية مهملة، ولا يجوز إعمالها إعمال «ليس» لأنها تكررت. ﴿خَوْفٌ﴾: مبتدأ. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ، ويجوز تعليقهما بـ ﴿خَوْفٌ﴾ لأنَّه مصدر، أو بمحذوف صفة له، وعليهما فالخبر محذوف، تقديره: حاصلٌ، وموجود، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها على الوجهين المعتبرين فيها. ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): نافية مهملة. ﴿هُمْ﴾: ضمير منفصل مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿يَحْزَنُونَ﴾: فعل مضارع، وفاعله، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها. هذا وقرأ جماعة: (فلا خوفَ) بفتح الفاء على اعتبار (لا) عاملة عمل «إنَّ» لنفي الجنس، والاختيار عند النحويين الرفع والتنوين على الابتداء؛ لأنَّ الثاني معرفة، لا يكون فيه إلا الرَّفع؛ لأن (لا) لا تعمل في معرفة، فاختاروا في الأول الرَّفع أيضاً. ليكون الكلام من وجهٍ واحد، ويجوز أن تكون (لا) في قولك: (فلا خوف) بمعنى: ليس. انتهى قرطبي. وقد ذكرت لك: أنَّها إذا تكررت؛ أُهملت؛ أي: لا تعمل عمل ليس.

تنبيه: الآية مذكورة بحروفها في سورة (المائدة) برقم [٦٩]، والقراءة هناك (والصَّابئون) انظر إعرابها وما ذكرته تبعاً لها، فإنه جيد، والحمد لله!.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾

الشرح: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾: بهذه الآية تفسر معنى قوله تعالى في سورة (الأعراف) رقم [١٧١]: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ الميثاق: العهد، وأصله: الموثاق، قلبت الواو ياءً لمناسبة الكسرة قبلها، والجمع: المواثيق، فهو من: وثق، يثق، وإسناد أخذ الميثاق إليه تعالى من حيث: أنه أمر موسى بذلك؛ لأنه غير ممكن أن يحصل ذلك مباشرةً بين الله وبينهم. هذا؛ و﴿ٱلطُّورَ﴾ يطلق في الأصل على جبلٍ مخصوص في فلسطين كان موسى ـ على نبينا وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ يناجي ربه عليه، كلَّما أراد مناجاته، ومخاطبته.

ومناسبة الآيات لما قبلها: أنه لما ذكَّرهم الله بالنِّعم الجليلة؛ الَّتي أنعمها عليهم؛ أردف

ذلك ببيان ما حل بهم من نقم جزاء كفرهم، وعصيانهم، وتمرُّدهم على الله، فقد كفروا النعمة، ونقضوا الميثاق، واعتدوا في السَّبت، فمسخهم الله إلى قردة.

وهكذا شأن كلِّ أمَّةٍ عتت عن أمر ربها، وعصت رسله. وإنما قال: ﴿مِيثَٰقَكُمْ﴾ ولم يقل: مواثيقكم؛ لأن المراد ميثاق كل واحد منكم، كقوله تعالى في سورة (الحج) رقم [٥]: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ أي: يخرج كلَّ واحدٍ منكم طفلاً. وقال بعض أهل اللَّطائف: كانت نفوس بني إسرائيل خبيثةً من ظلمات عصيانها، تخبط في عشواء حالكة الجلباب، وتخطر في غلوائها، وعلوِّها في حلَّتي كِبْرٍ، وإعجاب، فلما أمروا بأخذ التوراة، ورأوا ما فيها من أثقال؛ ثارت نفوسُهم، فرفع الله عليهم الجبل، فوجدوه أثقل ممَّا كلفوه، فهان عليهم حمل التوراة، قال الشاعر: [الطويل]

إِلَى الله يُدْعَى بِالْبَرَاهِينِ مَنْ أَبَى ... فَإِنْ لَمْ يُجِبْ نَادَتْهُ بِيْضُ الصَّوارِمِ

هذا كلُّه من صفوة التَّفاسير بتصرُّفٍ بسيط.

كان سبب رفع الجبل فوقهم: أنَّ بني إسرائيل سألوا موسى أن يأتيهم بكتاب من عند ربه؛ ليحكم بينهم فيه، فسأل ربَّه، فأعطاه التَّوراة، فلما رأوا ما فيها من التكاليف الشاقَّة؛ كبرت عليهم، فأَبوْا قبولها، فأمر الله تعالى جبريل عليه السلام، فقلع جبل الطُّور من مكانه، وكان على قدر عسكرهم، وفوق رؤوسهم قدر قامتهم كالظلة، وقيل لهم: إن لم تقبلوا التَّوراة؛ وإلا أنزلته عليكم، فقبلوها مكرهين، وسجدوا على أنصاف وجوههم اليسرى، وجعلوا يلاحظون الجبل بأعينهم اليُمنى، وهم سجود، فصار ذلك سنَّةً في سجود اليهود، لا يسجدون إلا على أنصاف وجوههم، وقالوا: لا سجدة أفضل من سجدة تقبَّلها الله، ورحم بها عباده، فلما رفع عنهم الجبل رجعوا إلى الامتناع. وهو ما تفيده الآية التالية.

﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم﴾: اقبلوا التوراة، والتعاليم الإلٰهيَّة. ﴿بِقُوَّةٍ﴾ بجدٍّ، واجتهاد، وكثرة درس، ونيَّةٍ، وإخلاصٍ، واذكروا ما فيه، أي: تدبَّروه، واحفظوا أوامره، ووعيده، ولا تنسوه، ولا تضيعوه. هذا؛ والمقصود من الكتب التي يقرؤها كلُّ واحد أن يعمل بمقتضاها، ولا يكتفي بتلاوتها باللِّسان، فإنَّ ذلك نبذ لها على ما قاله الشَّعبيُّ، وابن عيينة. وقد روى النَّسائي عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إن من شرِّ النَّاس رجلاً فاسقاً يقرأ القرآن، لا يرعوي إلى شيءٍ منه**»، وقال الإمام مالك: قد يقرأ القرآن مَنْ لا خير فيه. فما لزم إذاً مَنْ قبلنا، وأُخِذ عليهم؛ فهو لازم لنا، وواجبٌ علينا، قال الله تعالى في سورة (الزمر) رقم [٥٥]: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ فأمرنا باتباع كتابه، والعمل بمقتضاه، لكن تركنا ذلك كما تركت اليهود، والنصارى، وبقيت أشخاص الكتب، والمصاحف لا تفيد شيئاً لغلبة الجهل، وطلب الرئاسة، واتِّباع الأهواء. وروى الترمذي عن جبير بن نفير عن أبي الدَّرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: كنَّا مع رسول الله ﷺ، فشخص ببصره إلى السَّماء، ثم قال: «**هذا أوان**

يُختلس فيه العلم من النَّاس؛ حتَّى لا يقدروا منه على شيء». فقال زياد بن لبيد الأنصاريُّ: كيف يُختلس منا؛ وقد قرأنا القرآن؟! فو الله لنقرأنَّه، ولنقرئنَّه نساءنا، وأبناءنا!.

فقال: «**ثكلتك أمك يا زياد! وإن كنت لأعدُّك من فقهاء المدينة، هذه التوراة، والإنجيل عند اليهود، والنصارى، فماذا تُغني عنهم؟** أي: **لم ينتفعوا بهما؛ لأنهم لم يعملوا بهما**». وانظر الترجِّي في الآية رقم [٢١].

الإعراب: ﴿وَإِذۡ﴾: الواو: حرف عطف. (إذ): معطوف على مثله في الآية رقم [٦١] ولذا كانت الآية السابقة، وما ذكرته من قوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ﴾ في الآية قبلها اعتراضاً بين المتعاطفين. ﴿أَخَذۡنَا﴾: فعل، وفاعل. ﴿مِيثَٰقَكُمۡ﴾: مفعول به، والكاف: في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة (إذ) إليها. (رفعنا): فعل وفاعل. ﴿فَوۡقَكُمُ﴾: ظرف مكان متعلق بما قبله، والكاف في محل جر بالإضافة. ﴿ٱلطُّورَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها فهي في محل جر مثلها، وإن اعتبرتها في محل نصب حال من (نا) فلست مفنداً، ويكون الرابط الضمير فقط، وهي على تقدير «قد» قبلها. ﴿خُذُواْ﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿مَآ﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل نصب مفعول به. ﴿ءَاتَيۡنَٰكُم﴾: فعل وفاعل ومفعول به أول، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها، والعائد محذوف، وهو المفعول الثاني، التقدير: خذوا الذي أتيناكموه، وجملة: ﴿خُذُواْ﴾: في محل نصب مقول القول لقول محذوف يقع حالاً، التقدير: ورفعنا حال كوننا قائلين... إلخ. ﴿بِقُوَّةٖ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل ﴿خُذُواْ﴾ وهما في محل نصب مفعوله الثاني، أو هما متعلقان بمحذوف حال من واو الجماعة، أو بمحذوف حال من الضمير المنصوب المحذوف، العائد إلى (ما) وهو الأولى.

(اذكروا): فعل أمر وفاعله، والألف للتفريق. ﴿مَا﴾ مفعول به. ﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف صلة الموصول، التقدير: الذي يوجد فيه، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، فهي من مقول القول المحذوف. لعلَّكم: حرف مشبه بالفعل، والكاف اسمه. ﴿تَتَّقُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله، ومفعوله محذوف للتعميم، والجملة الفعلية في محل رفع خبر (لعلَّ) والجملة الاسمية مفيدة للترجي، والتعليل، انظر هذا الترجي في الآية رقم [٢١].

﴿ثُمَّ تَوَلَّيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۖ فَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٦٤﴾

الشرح: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيۡتُم﴾: تولَّى: تَفَعَّل، وأصله: الإعراض، والإدبار عن الشيء بالجسم، ثم استعمل في الإعراض عن الأوامر، والأديان، والمعتقدات اتِّساعا، ومجازاً.

﴿مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۖ﴾ أي: من بعد البرهان، وهو أخذ الميثاق، ورفع الجبل. ﴿فَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ...﴾ إلخ: فضله: قبول التَّوبة، و(رحمته): عفوه. والأصل في الفضل: الزيادة على ما وجب، والزيادة في الخير، والإفضال: الإحسان. ﴿لَكُنتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ في الدُّنيا، والآخرة. وانظر «الخسران» فيما تقدَّم.

الإعراب: ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿تَوَلَّيۡتُم﴾: فعل، وفاعل، والجملة الفعلية معطوفة على جملة: (أخذنا...) إلخ، فهي في محل جر مثلها. ﴿مِّنۢ بَعۡدِ﴾: متعلقان بما قبلهما، و﴿بَعۡدِ﴾ مضاف، و﴿ذَٰلِكَۖ﴾ اسم إشارة مبني على السكون في محل جرٍّ بالإضافة، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب، لا محل له. ﴿فَلَوۡلَا﴾: الفاء: حرف استئناف. (لولا): حرف امتناع لوجود. ﴿فَضۡلُ﴾: مبتدأ، وهو مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾: مضاف إليه، من إضافة المصدر لفاعله.

﴿عَلَيۡكُمۡ﴾: جار ومجرور متعلقان بالمصدر ﴿فَضۡلُ﴾، وخبر المبتدأ محذوف، تقديره: موجود. (رحمته): معطوفة على ما قبله، والهاء في محل جر بالإضافة، من إضافة المصدر لفاعله. ﴿لَكُنتُم﴾: اللام: واقعة في جواب (لولا). (كنتم): فعل ماض ناقص مبني على السكون، والتاء اسمه. ﴿مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾: متعلقان بمحذوف خبر (كنتم) والجملة الفعلية جواب (لولا) لا محل لها، و(لولا) ومدخولها كلام مستأنف لا محل له.

تنبيه: قال ابن مالك ـ رحمه الله تعالى في ألفيته ـ: [الرجز]

وَبَـعْـدَ لَـوْلا غـالـبـاً حـذف الـخـبـر

وقد بينت متى يكون الحذف واجباً، وجائزاً، إذا كان كوناً عامّاً، أو خاصّاً، وذلك في قول أبي العلاء المعري، وهو الشاهد رقم [٤٩٥] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»، فانظره هناك، وانظر موجز القول في لولا أيضاً إن كنت من أهل الشهادات العالية، وهو ما يلي: [الوافر]

يُـذِيـبُ الـرُّعـبُ مِـنْـهُ كُـلَّ عَـضْـبٍ فَـلَـولَا الـغِـمْـدُ يُـمْـسِـكُـهُ لَـسَـالَا

﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعۡتَدَوۡاْ مِنكُمۡ فِي ٱلسَّبۡتِ فَقُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ٦٥﴾

الشرح: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ﴾: أي عرفتم، فيتعدَّى لواحدٍ فقط إذا كان من المعرفة، بخلافه من العلم اليقيني، فإنَّه يتعدَّى لمفعولين، أصلهما مبتدأ، وخبر، قال ابن مالك رحمه الله تعالى في ألفيته: [الرجز]

لِـعِـلْـمِ عِـرْفَـانٍ وظَـنٍّ تُـهْـمَـهْ تَـعْـدِيَـةٌ لِـوَاحِـدٍ مُـلْـتَـزَمَـهْ

والفرق بينهما: أن المعرفة تستدعي سبق جهل، وأنَّ متعلقها الذوات دون النِّسب، بخلاف العلم؛ فإنَّ متعلقه المعاني، والنِّسب، وتفصيل ذلك: أنك إذا قلت: عرفت زيداً، فالمعنى: أنك

عرفت ذاته، ولم ترد أنك عرفت وصفاً من أوصافه، فإذا أردت هذا المعنى، لم يتجاوز مفعولاً؛ لأنَّ المعرفة تناول الشيء نفسه، ولم يقصد إلى غير ذلك، وإذا قلت: علمت زيداً قائماً، لم يكن المقصود: أنَّ العلم تناول نفس زيد فحسب، وإنَّما المعنى: أن العلم تناول كون زيد موصوفاً بهذه الصِّفة.

﴿ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ﴾: تجاوزوا الحدَّ الذي حدَّه الله لهم في يوم السبت، وهو أحد أيام الأسبوع المعروفة. قال ابن عطية: والسبت إما مأخوذ من السبوت الذي هو الرَّاحة، والدَّعة، وإما من السبت وهو القطع؛ لأن الأشياء سبتت، وتمَّ خلقها في أيام الأسبوع الستَّة قبله. انتهى بتصرف. هذا والسِّبت بكسر السين: الجلد المدبوغ بالقرظ، ولم ينجرد من شعره. وقال أبو زيد: السِّبت جلود البقر خاصَّة مدبوغة، قال عنترة في معلَّقته، وهو الشاهد رقم [٣٠٦] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»: [الكامل]

بَطَلٌ كَأَنَّ ثِيَابَهُ فِي سَرْحَةٍ ... يُحْذَى نِعَالَ السِّبْتِ لَيْسَ بِتَوْءَمِ

﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟...﴾ إلخ: هذا الأمر معناه: الإهانة، والتَّحقير، وقال بعضهم: هذا أمر تسخير، وتكوين، فهو عبارة عن تعلق القدرة بنقلهم من حقيقة البشرية إلى حقيقة القردة. ﴿خَـٰسِـِٔينَ﴾: صاغرين، ذليلين، حقيرين، مُبْعَدين من رحمة الله. هذا؛ وقرئ: (قَرِدَةً) بفتح القاف، وكسر الراء، و(خَاسين) بدون همز.

تنبيه: ما ذكر في هذه الآية كان في زمن داود ـ على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ بقرية يقال لها: أيلة على شاطئ البحر الأحمر، وتدعى اليوم: «إيلات» وهي مرفأ هام لليهود على البحر الأحمر، يروى: أنَّ الله تعالى اختار لهم يوم الجمعة، ليكون يوم راحة، وعبادة، ونظافة، وغير ذلك، فأبوا، وقالوا: فرغ ربُّنا من خلق السموات والأرض يوم الجمعة، واستراح يوم السبت، فنحن نختاره لذلك، فشدَّد الله عليهم بأن حرَّم عليهم أي عمل دنيوي ما عدا العبادة، والنظافة، وأمثالها، وكانت معيشة أهل تلك البلدة من صيد الأسماك، لا مورد لهم غيره، فابتلاهم الله، أي: اختبرهم، فما كان يبقى حوت في البحر إلا أخرج خرطومه يوم السَّبت، وأقبل نحوهم، فإذا مضى يوم السبت؛ ذهبت الحيتان في أعماق البحر، فلم يتمكَّنوا من الصيد طوال أيام الأسبوع، كما قال تعالى في سورة (الأعراف) رقم [١٦٣]: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾.

فظهر لهم الشَّيطان، وقال لهم: احفروا حياضاً قرب البحر، وافتحوا جداول بينها وبين البحر، وكانت الحيتان تدخل الحياض يوم السبت، ويصطادونها يوم الأحد، فنهاهم نبيهم عن فعلهم هذا، فصاروا ثلاث فرق، وكانوا سبعين ألفاً، فرقة أمسكت، ونهت، وفرقة أمسكت، ولم

تنه، وفرقة اصطادت، واعتدت، فهذه هي التي مُسخت قردة لهم أذناب يتعاوون. وقيل: مُسِخَ الشبَّان قردةً، والشيوخ خنازير، فمكثوا ثلاثة أيام فقط، ثم هلكوا، ولم يأكلوا، ولم يشربوا، ولم يتوالدوا، ونجت الفرقتان الأخريان: الناهية، والساكتة عن النَّهي، وقيل: هلكت أيضاً.

ويقال: إنَّ الناهين قالوا: لا نساكنكم، فقسموا القرية بجدار، فأصبح الناهون ذات يوم في مجالسهم، ولم يخرج من المعتدين أحدٌ. فقالوا: إن للناس لشأناً، فعَلُوا الجدار، فنظروا فإذا هم قردة، ففتحوا الأبواب، ودخلوا عليهم، فعرفت القردة أنسابهم من الإنس، ولا يعرف الإنس أنسابهم من القردة، فجعلت القردة تأتي أنسابهم من الإنس، فتشم ثيابه، وتبكي، فيقول لهم: ألم ننهكم؟! فتقول القردة برأسها: نعم! وانظر تفصيلهم في سورة (الأعراف).

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لم يعش مسخٌ قطُّ فوق ثلاثة أيام، ولم يأكل، ولم يشرب، ولم ينسل. قال ابن عطية: وروي عن النَّبيِّ ﷺ، وثبت: أنَّ الممسوخ لا ينسل، ولا يأكل، ولا يشرب، ولا يعيش أكثر من ثلاثة أيام، أما قول النبي ﷺ لبني قريظة، ولبني النَّضير: «**يا أحفاد القردة!**» لم يُرِدْ به إلا التَّقريع، والتوبيخ، والله أعلم.

الإعراب: ﴿وَلَقَدْ﴾: الواو: حرف قسم وجر، والمقسم به محذوف، تقديره: والله. والجار والمجرور متعلقان بفعل محذوف، تقديره: أقسم. هذا؛ وبعضهم يعتبر الواو عاطفة، وبعضهم يعتبرها حرف استئناف، ويعتبرون الجملة الآتية جواباً لقسم محذوف، ولا أسلمه أبداً؛ لأنه على هذا يكون قد حذف واو القسم، والمقسم به، ويصير التقدير: والله أقسم، أو: وأقسم والله. واللام واقعة في جواب القسم المحذوف، وبعضهم يقول: اللام موطئة للقسم، والموطئة معناها: المؤذنة، وهذه اللام إنما تدخل على «إنْ» الشرطية؛ لتدلَّ على القسم المتقدم على الشرط، وتكون الجملة الآتية جواباً للقسم المدلول عليه باللام، والمتقدم على الشَّرط حكماً، كما في قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ...﴾ إلخ الآية رقم [١٢] من سورة (الحشر)، افهم هذا، واحفظه فإنَّه جيِّد، والله ولي التَّوفيق!.

فإن قيل: ما ذكرته من إعراب يؤدي إلى حذف المقسم به، وبقاء حرف القسم؛ فالجواب: أنه قد حذف المقسم به حذفاً مطرداً في أوائل السُّور. مثل قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ﴾، ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ فإن التقدير: ورب النجم، ورب الشمس... إلخ، الدليل على ذلك التَّصريح به في قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية رقم [٢٣] من سورة (الذاريات)، وحذف المقسم به ظاهر في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا...﴾ إلخ الآية رقم [٧١] من سورة (مريم)، وأظهر منه في قوله تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ الآية رقم [٧٣] من سورة (المائدة) قالوا: في الآيتين حرف قسم وجر. والمقسم به محذوف بلا ريب.

(قد): حرف تحقيق يقرب الماضي من الحال. ﴿عَلِمْتُمُ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها، والقسم وجوابه كلام مستأنف لا محل له. ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على

الفتح في محل نصب مفعول به. ﴿ٱعْتَدَوْا۟﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف المحذوفة لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة، التي هي فاعله، والألف للتَّفريق، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها. ﴿فِى ٱلسَّبْتِ﴾: متعلقان بما قبلهما. (قلنا): فعل، وفاعل. ﴿كُونُوا۟﴾: فعل أمر ناقص مبني على حذف النون، والواو اسمه، والألف للتفريق. ﴿قِرَدَةً﴾ خبر: ﴿كُونُوا۟﴾. ﴿خَٰسِـِٔينَ﴾ خبر ثان. وقيل: صفة ﴿قِرَدَةً﴾ وهو ضعيف؛ لأن جمع المذكر السالم لا يكون صفةً لما لا يعقل، وقيل: حال من واو الجماعة، والأول أرجح وأقوى، فهو منصوب وعلامة نصبه الياء نيابة عن الفتحة؛ لأنه جمع مذكر سالم، والنون عوض عن التنوين في الاسم المفرد، وجملة: ﴿كُونُوا۟...﴾ إلخ: في محل نصب مقول القول، وجملة: (قلنا...) إلخ: معطوفة على جملة: (اعتدوا...) إلخ: لا محل لها مثلها، وهو أقوى من العطف على جملة: (قد علمتم...) إلخ.

روى النَّسائيُّ عن صفوان بن عَسَّال ـ رضي الله عنه ـ قال: قال يهوديٌّ لصاحبه: اذْهَبْ بنا إلى هذا النَّبيِّ، قال له صاحبه: لا تقل: نبيٌّ، لو سمعك؛ كانَ له أربعة أَعْيُنٍ. فأتيا رسول الله ﷺ، وسألاه عن تسع آياتٍ بَيِّنات، فقال لهم: «**لَا تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئاً، وَلَا تَسْرِقُوا، وَلَا تَزْنُوا، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَلَا تَمْشُوا ببريءٍ إلى سُلْطَانٍ، وَلَا تَسْحَرُوا، وَلَا تَأْكُلُوا الرِّبَا، وَلَا تَقْذِفُوا الْمُحْصَنَةَ وَلَا تَوَلَّوا يَوْمَ الزَّحْفِ، وعَلَيْكُم خَاصَّةً يَهُودُ أَلَّا تَعدُوا في السَّبْتِ**» فقبَّلوا يديه، ورجليه، وقالوا: نشهد: أنَّك نبي! قال: «**فَمَا يَمْنَعُكُمْ أَنْ تَتَّبِعُونِي؟**». قالوا: إن داود دعا بأن لا يزال مِنْ ذرِّيته نبيٌّ، وإنَّا نخاف إن اتَّبعناك أَنْ تقتلنَا يهودُ. أخرجه الترمذي، وقال: حديثٌ صحيح.

﴿فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾

الشرح: ﴿فَجَعَلْنَٰهَا﴾: الضمير عائد إلى العقوبة التي ذكرها الله تعالى في الآية السابقة، وهي مسخهم قردة. وقيل: عائد إلى القرية؛ إذ معنى الكلام يقتضيها. ﴿نَكَٰلًا﴾: عبرةً تنكل مَنِ اعتبر بها: أي تمنعه من فعل المحرَّمات، وتجاوز حدود الله، والنَّكال: الزَّجْرُ، والعقاب، والنِّكل، والأنكال: القيد، وسمِّيت القيود: أنكالاً؛ لأنَّها يُنْكَلُ بها؛ أي: يمنع. والتنكيل: إصابة الأعداء بعقوبة تنكل مَنْ وراءهم، أي: تخوفهم، وتردعهم، وقال تعالى في سورة (النَّازعات) في حقِّ فرعون اللَّعين: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ وقال في سورة (المائدة) رقم [٣٨]: ﴿فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾. ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾: قال ابن عباس، والسُّدي: لما بين يدي المسخة: ما قبلها من ذنوب القوم. ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ لمن يعمل بعدها مثل تلك الذنوب، قال ابن عطيَّة: وهذا قولٌ جيد، والضَّميران للعقوبة. وروى الحاكم عن مجاهد، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لمن حضر معهم، ولمن يأتي بعدهم، واختاره النَّحاس. قال: وهو أشبه بالمعنى. هذا؛

والتعبير (ما بين يديها وما خلفها) كناية عمَّن أتى قبلها، وأتى بعدها من الأمم، والخلائق، أو عبرة لمن تقدَّم، ومن تأخر. والتَّعبير بمثل هذا كثير في القرآن الكريم، وإن اختص كلٌّ موضع بمعنى حسب مقتضيات الأحوال، واختلافها، فمثلاً قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ في الآية رقم [٢٥٥]، ومثلها في الآية رقم [٩] من سورة (سبأ) يفسر ما في هذه الآية، وكذلك رقم [١١٠] من سورة (طه) تخالف معنى قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾ الآية رقم [٦٤] من سورة (مريم) على نبينا، وحبيبنا وعليها ألف صلاة، وألف سلام. والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾: الوعظ: التخويف، وقال الخليل: الوعظ: التذكير بالخير مما يرقُّ له القلب، قال الماورديُّ: وخصَّ المتقين بالذكر، وإن كانت موعظة للعالمين؛ لتفردهم بها عن الكافرين المعاندين؛ أي: لأنهم هم المنتفعون بها بخلاف غيرهم من المنافقين، والفاسقين، والكافرين. وقال الزجَّاج: ﴿وَمَوْعِظَةً﴾ لأمة محمَّد ﷺ أن ينتهكوا من حرم الله ما نهاهم عنه، فيصيبهم ما أصاب أصحاب السَّبت؛ إذ انتهكوا حرم الله في سبتهم. انتهى. ولا تنس قوله تعالى في سورة (الذَّاريات): ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. هذا؛ وأصل المتقين: الموتقيين بياءين مخففتين، حذفت الكسرة من الياء الأولى لثقلها، ثمَّ حذفت الياء لالتقاء الساكنين، وأبدلت الواو على أصلهم في اجتماع الواو، والتاء، مثل: اتصل، أصله: اوتصل، وأدغمت التاء في التَّاء، فصار: للمتَّقين. هذا؛ والتقوى: طاعةٌ من غير عِصيان، وذكرٌ من غير نِسيان، وشكرٌ من غير كُفران.

الإعراب: ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾: فعل وفاعل، ومفعول به أوَّل، والجملة الفعلية مستأنفة لا محل لها، وهو أقوى من العطف على ما قبلها. ﴿نَكَالًا﴾: مفعول به ثان. ﴿لِّمَا﴾: جار ومجرور متعلقان بـ ﴿نَكَالًا﴾؛ لأنه مصدر، أو بمحذوف صفة له. ﴿بَيْنَ﴾: ظرف مكان متعلق بمحذوف صلة الموصول، و﴿بَيْنَ﴾ مضاف، و﴿يَدَيْهَا﴾: مضاف إليه مجرور، وعلامة جره الياء نيابة عن الكسرة؛ لأنه مثنّى لفظاً، وحذفت النون للإضافة، و«ها» في محل جر بالإضافة. (ما): معطوفة على ما قبلها بالواو العاطفة، فهي في محل جر مثلها. ﴿خَلْفَهَا﴾: ظرف مكان متعلق بمحذوف صلة الموصول، و«ها»: في محل جر بالإضافة. (موعظةً) معطوف على ﴿نَكَالًا﴾. ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾: متعلقان بـ (موعظة) أو بمحذوف صفة لها.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾

الشرح: لمَّا ذكر الله تعالى بعض قبائح اليهود، وجرائمهم، من نقض المواثيق، والعهود، واعتدائهم في السَّبت، وتمرُّدهم على الله عز وجل في تطبيق شريعته المنزلة على موسى؛ أعقبه بذكر نوعٍ آخر من مساوئهم، ألا وهو مخالفتهم للأنبياء، وتكذيبهم لهم، وعدم مسارعتهم لأوامر

الله الَّتي يوحيها الله إليهم، ثمَّ كثرة اللَّجاج، والعناد للرُّسل، صلوات الله، وسلامه عليهم، وجفاؤهم في مخاطبة نبيِّهم الكريم موسى عليه السلام... إلى آخر ما هنالك من قبائح، ومساوئ. انتهى. صفوة التفاسير.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً﴾: هي واحدة البقر، تقع على الذكر والأنثى، نحو حمامة، والصِّفة تميِّز الذكر من الأنثى، تقول: بقرة ذكر، وبقرة أنثى، وقيل: بقرة اسم للأنثى خاصَّةً من هذا الجنس، والذكر: الثَّور، نحو ناقة، وجمل، وأتان، وحمار، وسمِّي هذا الجنس بذلك؛ لأنه يبقر الأرض، أي: يشقها بالحرث. هذا؛ وأهل اليمن يسمُّون البقرة: باقورة، وكتب النبي ﷺ في كتاب الصَّدقة لأهل اليمن: في ثلاثين باقورة بقرة. مختار الصِّحاح. والباقر: جماعة البقر مع رعاتها، والتبقُّر: التوسع في العلم، ومنه محمَّد الباقر لأبي جعفر محمَّد بن علي زين العابدين ـ رضي الله عنهم ـ أجمعين، لتبقُّره في العلم؛ أي: لتبحره، وتعمُّقه فيه، قال الأزهري: البقر: اسم للجنس، وجمعه: باقر، وفي لسان العرب: فأمَّا بقر، وباقر، وبيقور، وباقور، وماقور، وباقورة؛ فأسماءٌ للجمع. هذا؛ وقال أميَّة بن أبي الصَّلت، وهو الشَّاهد رقم [٥٩٥] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»: [الخفيف]

سَلَعٌ مَا وَمِثْلُهُ عُشَرٌ مَا عَائِلٌ مَا وَعَالَتِ البَيْقُورَا

وقال وداك بن ثميل المازني الطَّائي وهو الشَّاهد رقم [٥٩٦] من كتابنا المذكور: [البسيط]

أَجَاعِلٌ أَنْتَ بَيْقُوراً مُسَلَّعَةً ذَرِيعَةً لَكَ بَيْنَ اللهِ وَالْمَطَرِ

هذا؛ وقال الماوردي ـ رحمه الله تعالى ـ: وإنَّما أمروا ـ والله أعلم ـ بذبح بقرة دون غيرها من الحيوانات؛ لأنها من جنس ما عبدوه من العجل ليهون عندهم ما كانوا يرونه من تعظيمه، وليعلم بإجابتهم ما كان في نفوسهم من عبادته، وهذا المعنى علَّةٌ في ذبح البقرة، وليس بعلَّةٍ في جواب السائل، ولكنَّ المعنى فيه أن يحيا القتيل بقتل حيٍّ، فيكون أظهر لقدرة الله في اختراع الأشياء من أضدادها. ﴿قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ هذا جواب منهم لموسى عليه السلام لمَّا قال لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً﴾ وذلك: أنهم وجدوا قتيلاً بين أظهرهم. قيل: اسمه عاميل، واشتبه أمر قاتله عليهم، ووقع بينهم خلاف. فقالوا: نقتتل؛ ورسول الله بين أظهرنا؟! فأتوه، فسألوه البيان، وذلك قبل نزول القسامة في التَّوراة، فسألوا موسى أن يدعو الله، فسأل موسى عليه السلام ربَّه، فأمرهم بذبح بقرةٍ، فلمَّا سمعوا ذلك من موسى، وليس في ظاهره جواب عمَّا سألوه، واحتكموا فيه عنده؛ قالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾؟.

هذا؛ و﴿هُزُوًا﴾ يقرأ بسكون الزاي، والهمز، وبضم الزاي بلا همز، وهو بجميع قراءاته مصدر هزأ، يهزأ هزأً من باب: فتح، ويأتي من باب: تعب. هذا؛ والاستهزاء بالناس حرامٌ قطعاً، وآية (الحجرات) النَّاهية عن السُّخرية، والاستهزاء بالنَّاس معروفةٌ، وأحاديث الرسول ﷺ الناهية عن ذلك كثيرةٌ.

﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ﴾: أستعيذ، وأستجير، وأتحصَّن بالله. ﴿ٱلْجَٰهِلِينَ﴾: جمع: جاهل، والجهل هو السَّفه والطيش، والحمق، والجاهل هو الذي يجهل ما يتعلق به من المكروه، والمضرة، ومن حقِّ الحكيم العاقل ألا يقدم على شيء حتَّى يعلم كيفيته، وحاله، ولا يشتري الحلم بالجهل، ولا الأناة بالطيش ولا الرفق بالخرق، كما قال أبو ذؤيب الهُذليُّ، وهو الشاهد رقم [٧٧١] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»: [الطويل]

فَإِنْ تَزْعُمِينِي كُنْتُ أَجْهَلُ فِيكُمُ ... فَإِنِّي شَرَيْتُ الْحِلْمَ بَعْدَكِ بِالْجَهْلِ

وإن لم يكن كذلك يصدق عليه أنَّه من أكبر الجهَّال، والحمار أفضل منه، كما قال الشاعر الحكيم: [الكامل]

فَضْلُ الْحِمَارِ عَلَى الجَهُولِ بِحركَةٍ ... مَعْرُوفَةٍ عِنْدَ الَّذِي يَدْرِيهَا

إنَّ الْحِمَار إذَا تَوَهَّمَ لَمْ يَسِرْ ... وتُعَاوِدُ الْجُهَّالُ مَا يُؤْذِيهَا

تنبيه: قال القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ مقدَّم في التلاوة، وقوله: ﴿قَتَلْتُمْ نَفْسًا...﴾ إلخ الآية رقم [٧٢] الآتية مقدَّم في المعنى على جميع ما ابتدأ به من شأن البقرة، ويجوز أن يكون ترتيب نزولها على حسب تلاوتها، وكأنَّ الله أمرهم بذبح البقرة حتَّى ذبحوها، ثم وقع ما وقع من أمر القتيل، فأمروا أن يضربوه ببعضها، ويكون ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ﴾ (مقدماً) في المعنى على القول الأول حسب ما ذكرنا؛ لأنَّ الواو لا توجب الترتيب، ونظيره في التنزيل في قصَّة نوح بعد ذكر الطوفان وانقضائه في قوله جلَّ ذكره في سورة هود: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾ فذكر إهلاك من هلك منهم، ثم عطف عليه قوله: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ فذكر الركوب متأخراً في الخطاب، ومعلوم: أنَّ ركوبهم كان قبل الهلاك، وكذلك قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا﴾ وتقديره: أنزل على عبده الكتاب قيماً، ولم يجعل له عوجاً، ومثله في القرآن كثير، انتهى. والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿وَإِذْ﴾: الواو: حرف عطف. (إذ): ظرف لما مضى من الزمان مبني على السكون في محل نصب مفعول به لفعل محذوف، التقدير: واذكروا إذ، وهو متعلق بهذا المحذوف، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، أو هي مستأنفة لا محل لها.

وقال النسفي: وهو معطوف على ﴿نِعْمَتِيَ﴾ في قوله: ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ كأنه قال: اذكروا ذاك، واذكروا إذ قال موسى، وكذلك في الظروف التي مضت. ﴿قَالَ مُوسَىٰ﴾: فعل ماض وفاعله، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة (إذ) إليها.

﴿لِقَوْمِهِۦٓ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، والهاء: في محل جر بالإضافة. ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿يَأْمُرُكُمْ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى ﴿ٱللَّهَ﴾، والكاف مفعول

به. ﴿أَن﴾: حرف مصدري ونصب. ﴿تَذْبَحُواْ﴾: فعل مضارع منصوب بأن، وعلامة نصبه حذف النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والألف للتفريق، و﴿أَن تَذْبَحُواْ﴾ في تأويل مصدر في محل جر بحرف جرٍّ محذوف، التقدير: بذبح البقرة، والجار والمجرور متعلقان بالفعل قبلهما، أو هو منصوب بنزع الخافض، وبعضهم يعتبره مفعولاً ثانياً لفعل أمر على حدِّ قول عمرو بن معد يكرب الزبيدي، وهو الشاهد رقم [٥٩٧] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»: [البسيط]

أَمَرْتُكَ الْخَيْرَ فَافْعَلْ مَا أُمِرْتَ بِهِ ... فَقَدْ تَرَكْتُكَ ذَا مَالٍ وَذَا نَشَبِ

﴿بَقَرَةً﴾: مفعول به، وجملة: ﴿يَأْمُرُكُمْ﴾ في محل رفع خبر: ﴿أَنَّ﴾، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول، ﴿قَالُواْ﴾: ماض وفاعله، والألف للتفريق، ﴿أَتَتَّخِذُنَا﴾: الهمزة: حرف استفهام إنكاري. (تتخذنا): فعل مضارع، وفاعله مستتر تقديره: أنت، و(نا) مفعوله الأول. ﴿هُزُوًا﴾: مفعوله الثاني، وهو مؤول باسم المفعول، أو هو على حذف مضاف، أي: ذوي هزؤ، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قَالُوا﴾: مستأنفة لا محل لها؛ لأنها بمنزلة جواب عن سؤال مقدر، فكأنَّ قائلاً سأل: ماذا قالوا؟ ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى ﴿مُوسَىٰ﴾. ﴿أَعُوذُ﴾: فعل مضارع، والفاعل مستتر تقديره: «أنا». ﴿بِاللَّهِ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿أَنْ﴾: حرف مصدري ونصب. ﴿أَكُونَ﴾: مضارع ناقص منصوب بـ ﴿أَنْ﴾، واسمه تقديره: أنا. ﴿مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾: متعلقان بمحذوف خبر ﴿أَكُونَ﴾ و﴿أَنْ﴾، والفعل ﴿أَكُونَ﴾ في تأويل مصدر في محل جر بحرف جرٍّ محذوف، التقدير: من كوني جاهلاً، والجار والمجرور متعلقان بالفعل ﴿أَعُوذُ﴾، وجملة: ﴿أَعُوذُ﴾ في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قَالَ...﴾ إلخ: مستأنفة لا محل لها.

﴿قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾﴾

الشرح: ﴿قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ...﴾ إلخ: هذا تعنيتٌ منهم، وقلَّة طواعية، ولو امتثلوا الأمر، وذبحوا أيَّ بقرة كانت؛ لحصل المقصود، لكنَّهم شدَّدوا على أنفسهم، فشدّد الله عليهم. قاله ابن عباس، رضي الله عنهما، وغيرهما. ﴿يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ أي: ما سنُّها، وما حالُها، وما شكلها؟ وليس المراد السؤال عن حقيقتها، فحقيقة البقرة معروفة.

﴿لَّا فَارِضٌ﴾ مسنَّةٌ كبيرةٌ جدّاً بحيث لا تلد، وقد فرضت، تفرض فروضاً، أي: سنَّت، ويقال للشيء القديم: فارضٌ، قال الشاعر: [الرجز]

شَيَّبَ أَصْدَاغِي فَرَأْسِي أَبْيَضُ ... مَحَامِلُ فِيهَا رِجَالٌ فُرَّضُ

يعني: رجال هرماء. وقال خفاف بن ندبة مخاطباً العباس بن مرداس السلمي ـ وكان بينهما مهاجاة، ومعارضة رضي الله عنهم ـ: [الطويل]

لَعَمْرِي لَقَدْ أَعْطَيْتَ ضَيْفَكَ فَارِضاً ... تُسَاقُ إِلَيْهِ مَا تَقُومُ عَلَى رِجْلِ
وَلَمْ تُعْطِهِ بِكْراً فَيَرْضَى سَمِينَةً ... فَكَيْفَ تُجَازِي بِالْمَودَّةِ وَالْفَضْلِ؟

أي: قديمة. وقال آخر: [الرجز]

يَا رَبَّ ذِي ضِغْنٍ عَلَيَّ فَارِضٌ ... لَهُ قُروءٌ كَقُرُوءِ الْحَائِضِ

أي: ضغن قديم. ﴿وَلَا بِكْرٌ﴾: البكر الصغيرة التي لم تحمل. وحكى العتبي: أنها التي ولدت، والبكر الأول من الأولاد قال الشاعر: [الرجز]

يَا بِكْرَ بِكْرَيْنِ وَيَا خِلْبَ الْكَبِدْ ... أَصْبَحْتَ مِنِّي كَذِراعٍ مِنْ عَضُدْ

والبِكر أيضاً في إناث البهائم وبني آدم ما لم يفتحله الفحل، وهي مكسورة الباء، والجمع: أبكار، والمصدر: البكارة، وبفتحها: الفتي من الإبل، والأنثى بكرة. ﴿عَوَانٌ﴾: بين ذلك. والعوان: النَّصَف قد ولدت بطناً، أو بطنين، وهي أقوى ما تكون من البقر، وأحسنه بخلاف الخَيْل، قال الشاعر يصف فرساً: [الطويل]

كُمَيْتٍ بَهِيمِ اللَّونِ لَيْسَ بِفَارِضٍ ... وَلَا بِعَوَانٍ ذَاتِ لَوْنٍ مُخَصَّفِ

فرس أخصف: إذا ارتفع البلق من بطنه إلى جنبه. وقال مجاهد: العوان من البقر: هي التي قد ولدت مرةً بعد مرَّةٍ، ويقال: إنَّ العوان: النخلة الطويلة، وهي فيما زعموا لغة يمانية. وحربٌ عوان: إذا كان قبلها حربٌ بِكْرٌ، قال زهير: [الطويل]

إِذَا لَقِحَتْ حربٌ عَوَانٌ مُضِرَّةٌ ... ضَروسٌ تهِرُّ النَّاسَ أنيابهَا عُضْلُ

أي: لا هي صغيرةٌ، ولا هي مسنَّةٌ، وجمعها: عون بضم، وسكون، وسمع: عُوُن بضمتين، كرسل، وقال أبو جهل الخبيث في غزوة بدر، وهو من شواهد مغني اللبيب رقم [٦٣]: [الرجز]

مَا تَنْقِمُ الحربُ الْعَوانُ مِنِّي ... بَازِلُ عَامَيْنِ حَدِيثٌ سِنِّي

لِمِثْلِ هَذَا وَلَدَتْنِي أُمِّي

﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾: تجديد للأمر، وتأكيد وتنبيه على ترك التعنُّت. فما تركوه، بل زادوا منه، ودليله ما يأتي.

الإعراب: ﴿قَالُوا﴾: فعل ماض، وفاعله، والألف للتفريق. ﴿ادْعُ﴾: فعل أمر والْتِمَاسٍ مبني على حذف حرف العلَّة من آخره، وهو الواو، والضمَّة قبلها دليلٌ عليها، والفاعل مستتر، تقديره: أنت. ﴿لَنَا﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿رَبَّكَ﴾: مفعول به، والكاف في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قَالُوا...﴾ إلخ: مستأنفة لا محل لها. ﴿يُبَيِّن﴾: فعل مضارع مجزوم

لوقوعه في جواب الأمر، والفاعل يعود إلى ﴿رَبَّكَ﴾. ﴿لَنَا﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿مَا﴾: اسم استفهام، مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿هِيَ﴾: ضمير منفصل مبني على الفتح في محل رفع خبره، ويجوز اعتباره مبتدأ مؤخراً و﴿مَا﴾: خبراً مقدماً، وعلى الوجهين فالجملة اسمية في محل نصب مفعول به، وجملة: ﴿يُبَيِّن﴾ لا محل لها؛ لأنها جواب الطلب، والأمر، وجوابه في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قَالُوا﴾: كلام مستأنف لا محل له.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى (موسى). ﴿إِنَّهُ﴾: حرف مشبه بالفعل، والهاء اسمه. ﴿يَقُولُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى ﴿رَبَّكَ﴾. ﴿إِنَّهَا﴾: حرف مشبه بالفعل، و(ها): اسمها، ﴿بَقَرَةٌ﴾: خبر (إنَّ)، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿يَقُولُ﴾ في محل رفع خبر (إنَّ) والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قَالَ...﴾ إلخ: مستأنفة لا محل لها. ﴿لَّا﴾: نافية. ﴿فَارِضٌ﴾: صفة ﴿بَقَرَةٌ﴾: وهي صفة منفية. ﴿وَلَا بِكْرٌ﴾: معطوف على سابقه وهو صفة منفية أيضاً، وجوز أبو البقاء وغيره اعتبار الصفتين خبراً لمبتدأ محذوف، التقدير: لا هي فارضٌ، ولا هي بكرٌ، وتكون الجملتان في محل رفع صفة (بقرةٌ). ﴿عَوَانٌ﴾: صفة ﴿بَقَرَةٌ﴾ أيضاً، أو هي خبر لمبتدأ محذوف، والجملة الاسمية في محل رفع صفة ﴿بَقَرَةٌ﴾ أو هي في محل نصب حال منها بعد وصفها بما تقدم. ﴿بَيْنَ﴾: ظرف مكان متعلق بمحذوف صفة: ﴿عَوَانٌ﴾ أو هو متعلق به نفسه. و﴿بَيْنَ﴾ مضاف، و﴿ذَٰلِكَ﴾ اسم إشارة مبني على السكون في محل جر بالإضافة، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب لا محل له، وانظر دلالة: ﴿ذَٰلِكَ﴾ على المثنى في الآية رقم [١٥٠] من سورة (النساء). ﴿فَافْعَلُوا﴾: الفاء: هي الفصيحة؛ لأنها تفصح عن شرط مقدر، التقدير: إذا وجدتم البقرة الموصوفة بما ذكر (فافعلوا) وهذا فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتَّفريق. ﴿مَا﴾: اسم موصول، أو نكرة موصوفة مبنية على السكون في محل نصب مفعول به. ﴿تُؤْمَرُونَ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو نائب فاعله، والجملة الفعلية صلة (ما) أو صفتها، والعائد أو الرابط محذوف، التقدير: فافعلوا الذي، أو شيئاً تؤمرون به، وجملة: ﴿فَافْعَلُوا...﴾ إلخ: لا محل لها؛ لأنها جواب للشَّرط المقدر بـ «إذا»، والشرط المقدر، وجوابه في محل نصب مقول القول أيضاً.

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾﴾

الشرح: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ﴾ اللَّون: واحد الألوان، وهو هيئة كالسواد، والبياض، والحمرة، والزرقة . . . إلخ، واللون: النوع، وفلان متلوِّن: إذا كان لا يثبت على خلقٍ واحدٍ، وحالٍ واحدة، قال الشاعر في هجاء متلوِّن: [مجزوء الكامل]

كُلَّ يَوْمٍ تَتَلَوَّنْ ... غَيْرُ هَذَا بِكَ أَجْمَلْ

﴿صَفۡرَآءُ﴾: لونها أصفر. ﴿فَاقِعٌ لَّوۡنُهَا﴾: شديد الصفرة، وجمهور المفسِّرين: أنها صفراء اللون من الصُّفرة المعروفة، قال مكي عن بعضهم: حتَّى القرن، والظِّلف. وروي عن الزمخشري: ولعلَّه مستعار من صفة الإبل؛ لأن سوادها تعلوه صفرةٌ، وبه فسر قوله تعالى في سورة (المرسلات): ﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفۡرٌ﴾، وقال الأعشى: [الخفيف]

تِلْكَ خَيْلِي مِنْهُ وَتِلْكَ رِكَابِي ... هُنَّ صُفْرٌ أَوْلَادُهَا كَالزَّبِيبِ

وردَّ هذا التفسير بأنَّ الفقوع خاص بالصُّفرة، وهو تأكيدٌ لها، كما يؤكد غيرها، فيقال: أبيض ناصع، وأحمر قانٍ، وأسود حالك، وأخضر ناضر، والمراد: تأكيد الصفات بما بعدها بمعنى شديدها. ﴿تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾: تعجبهم لحسنها، وجمالها. والسُّرور: لذَّةٌ في القلب عند حصول نفعٍ، أو توقُّعه، ومنه السرير ذو النعمة لإتمام سرورهم بالنِّعمة، وسرير الميِّت تشبيهاً له بذلك في الصُّورة، وتفاؤلاً بذلك. جمل.

روي عن الإمام عليٍّ كرَّم الله وجهه: أنه قال: من لبس نعلاً صفراء قلَّ همُّه، وكثر سروره، لقوله تعالى: ﴿صَفۡرَآءُ فَاقِعٌ لَّوۡنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوۡنُهَاۚ﴾: انظر الآية السابقة فهو مثله في إعرابه. ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفۡرَآءُ﴾: انظر الآية السابقة أيضاً. ﴿فَاقِعٌ﴾: صفة ثانية لـ ﴿بَقَرَةٌ﴾. ﴿لَّوۡنُهَا﴾: فاعل بـ﴿فَاقِعٌ﴾؛ لأنه صفة مشبهة، وليس اسم فاعل؛ لأنه صفة ثابتة، وليست متجدِّدة، و«ها» في محل جر بالإضافة. هذا؛ ويجوز أن يكون ﴿فَاقِعٌ﴾ خبراً مقدماً، وفاعله مستتر فيه. و(لونها): مبتدأ مؤخراً، والجملة الاسمية صفة ثانية لـ ﴿بَقَرَةٌ﴾. ﴿تَسُرُّ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى ﴿بَقَرَةٌ﴾. ﴿ٱلنَّٰظِرِينَ﴾: مفعول به منصوب . . . إلخ، والجملة الفعلية في محل رفع صفة ثالثة لـ﴿بَقَرَةٌ﴾ أو هي في محل نصب حال من ﴿بَقَرَةٌ﴾ بعد وصفها بما تقدم. هذا؛ وجوز أن يكون ﴿لَّوۡنُهَا﴾ مبتدأ، وجملة: ﴿تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾ في محل رفع خبره، والجملة الاسمية على هذا صفة ﴿بَقَرَةٌ﴾ وأنَّث الفعل ﴿تَسُرُّ﴾ لأن المبتدأ ﴿لَّوۡنُهَا﴾ اكتسب التأنيث من الضمير المؤنث: (ها) كما في قولهم: قطعت بعض أصابعه، وهذا يعني: أنَّ فاعل ﴿تَسُرُّ﴾ يعود إلى ﴿لَّوۡنُهَا﴾ وأراه تكلفاً لا داعي له، ولو قرئ: «يَسُرُّ» بياء المضارعة؛ لكان وجهاً صحيحاً، ولكن لم أطلع على قراءةٍ بذلك.

﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ ٧٠﴾

الشرح: ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ أي: أهي مذلَّلة بالعمل، أم هي متروكة بدون عمل، ودلَّ على ذلك تفسيره بالآية الآتية. ﴿ٱلۡبَقَرَ﴾ جماعة البقر، وانظر الآية رقم [٦٧]. ﴿تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا﴾

لكثرته، وكثرة ما يتَّصف بالصِّفتين المذكورتين في الآيتين السابقتين، وقرئ: (تشابهُ) بضم الهاء وتخفيف الشين، كما قرئ بضم الهاء وتشديد الشين، وأصله: تتشابه، فأبدلت التاء الثانية شيناً، وأدغمت في مثلها. هذا؛ ووجوه البقر تتشابه، ومنه حديث حذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنه ـ عن النبيِّ ﷺ: أنه ذكر فتناً كقطع الليل، تأتي كوجوه البقر، يريد أنها يشبه بعضها بعضاً.

﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ﴾ أي: إلى البقرة المطلوبة. وقوله تعالى حكايةً عن قولهم: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ تعليق بمشيئة الله، وهذا يُسمَّى في الشرع استثناء، قال الرسول ﷺ: «**لو لَمْ يَسْتَثْنُوا؛ لَمَا بُيِّنَتْ لَهُمْ آخِرَ الأَبَدِ**»، وفي روايةٍ: «**لو مَا اسْتَثْنَواْ؛ مَا اهْتَدَوا إِلَيْها أَبَداً**».

الإعراب: ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ انظر الإعراب في الآية رقم [٦٨]. ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱلۡبَقَرَ﴾: اسمها. ﴿تَشَٰبَهَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى ﴿ٱلۡبَقَرَ﴾. ﴿عَلَيۡنَا﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، والجملة الفعلية في محل رفع خبر ﴿إِنَّ﴾، والجملة الاسمية: ﴿إِنَّ ٱلۡبَقَرَ﴾ تعليل للأمر، لا محل لها. (إنا): حرف مشبه بالفعل، و(نا) في محل نصب اسمها، حذفت نونها، وبقيت الألف دليلاً عليها. ﴿إِن﴾ حرف شرط جازم. ﴿شَآءَ﴾: فعل ماض مبني على الفتح في محل جزم فعل الشرط. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله، ومفعوله محذوف، كما رأيت فيما سبق، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها ابتدائية، ويقال: لأنَّها جملة شرط غير ظرفي، وجواب الشرط عند سيبويه: جملة: ﴿إِن﴾ وما عملت فيه. وعند أبي العباس المبرد: محذوف، و﴿إِن﴾ ومدخولها كلام معترض بين اسم (إنَّ) وخبرها. (مهتدون): خبر (إنَّ) مرفوع، وعلامة رفعه الواو؛ لأنه جمع مذكر سالم، والنون عوض عن التنوين في الاسم المفرد، والجملة الاسمية: (إنا لمهتدون) معطوفة على الجملة قبلها، فهي داخلة في التعليل، أو هي مستأنفة، لا محل لها على الاعتبارين.

﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا ذَلُولٞ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ مُسَلَّمَةٞ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ قَالُواْ ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ ٧١﴾

الشرح: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا ذَلُولٞ﴾ أي: غير مذلَّلة بالعمل، أي: هي بقرة صعبة غير ريِّضة. ولم يؤنث: ﴿ذَلُولٞ﴾ لأن فعول يستوي فيه المذكر، والمؤنث. تقول: رجل صبور، وامرأة صبور، فهو صيغة مبالغة. ﴿تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ﴾: تقلِّبها، وتحرِّكها بالحراثة للزراعة، قال تعالى في سورة (الروم) رقم [٩]: ﴿وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾. ومنه الحديث: «**أثيروا القرآن: فإنه علم الأولين والآخرين**». ﴿وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ﴾: غير مستعملة في سقي الأرض المهيَّأة للزراعة، والمزروعة. ﴿مُسَلَّمَةٞ﴾: خالية من العيوب، وآثار العمل. ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ﴾ أي: لا لون فيها غير لونها الأصفر؛ حتى ظفرها، وقرنها، فهي صفراء كلُّها، والشِّية في الأصل مصدر:

وَشَى من باب: وعد، والمصدر: «وشياً» إذا خلط بلون آخر، فحذفت الواو من المصدر، وعوِّض عنها التاء في الآخر، مثل: عِدَة، و زنة، والشِّية مأخوذة مَنْ: وشْي الثوب: إذا نُسج على لونين مختلفين، وثورٌ مُوَشَّى: في وجهه، وقوائمه سواد. ويقال: فرس أبلق، وكبش أخرج، وتيس أبرق، وغراب أبقع، وثور أَشْيَهُ. كلُّ ذلك بمعنى البُلْقَة. هكذا نصَّ أهل اللغة.

﴿ٱلْـَٔـٰنَ﴾: هذه الكلمة في هذه الآية وأمثالها ملازمة للظرفية الزمانية غالباً، مبنية على الفتح دائماً لتضمُّنها معنى الإشارة، وألفها منقلبة عن واو؛ لقولهم في معناها: الأوان، وقيل: عن ياء لأنه مِنْ: آن، يئين: إذا قرب، وقيل: أصله: أوان؛ قلبت الواو ألفاً، ثمَّ حذفت لالتقاء الساكنين. وردَّ بأنَّ الواو قبل الألف لا تقلب، كالجواد، والسواد. وقيل: حذفت الألف، وغيِّرت الواو إلى الألف، كما قالوا: راح، ورواح، استعملوه مرة على فَعَل، ومرة على فَعَال كزمن وزمان. هذا؛ وقال ابن هشام رحمه الله تعالى في كتابه شذور الذَّهب، والآن: اسم لزمن حضر جميعه، أو بعضه: فالأول: نحو قوله تعالى في سورة (البقرة): ﴿قَالُوا۟ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾. والثَّاني: نحو قوله تعالى في سورة (الجن) رقم [٩]: ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾. وقد تعرب كقول أبي صخر الهذبي: [الطويل]

لِسَلْمَى بِذَاتِ الْخَالِ دَارٌ عَرَفْتُهَا ... وَأُخْرَى بِذَاتِ الْجِزْعِ آيَاتُهَا سَطْرُ

كَأَنَّهُمَا مِلآنِ لَمْ يَتَغَيَّرَا ... وَقَدْ مَرَّ لِلدَّارَيْنِ مِنْ بَعْدِنَا عَصْرُ

أصله: كأنهما من الآن فحذف نون (مِنْ) لالتقائها ساكنةً مع لام الآن، ولم يحركها لالتقاء الساكنين كما هو الغالب، وأعرب «الآن» فخفضه بالكسرة. وقد اختلف في علَّة بنائه على الفتح اختلافاً كثيراً.

قال الزجَّاج: «الآن» مبني على الفتح لمخالفته سائر ما فيه الألف واللام؛ لأن الألف واللام دخلتا لغير عهد. تقول: أنت إلى الآن هنا، فالمعنى إلى هذا الوقت، فبنيت، كما بُني «هذا» وفتحت النون لالتقاء الساكنين، وهو عبارةٌ عمَّا بين الماضي، والمستقبل. وفحوى هذا: أن الألف واللام لم تُعَرِّفه، ولا هو علم، ولا مضمر، ولا شيء من أقسام المعارف، فيلزم أن يكون تعريفه باللام المقدرة، واللام زائدة زيادةً لازمة، كما لزمت في «الذي» ونحوه. قال ابن مالك رحمه الله تعالى في ألفيته: [الرجز]

وَقَدْ تُزَادُ لَازِمَاً كَاللَّاتِ ... وَالآنَ وَالَّذِينَ ثُمَّ اللَّاتِ

﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: الواضح، فتقدير هذه الصفة واجبٌ، وإلا كان كفراً. ﴿فَذَبَحُوهَا﴾ بعد أن طلبوها بالصفات المذكورة: فوجدوها عند الولد البار بأمِّه، فاشتروها بملء جلدها ذهباً. ﴿وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ أي: ما قاربوا الذَّبح لغلاء ثمنها. وقيل: خوفاً من الفضيحة على أنفسهم في معرفة القاتل منهم. قاله وهب بن منبِّه، وكلُّه يدلُّ على تثبيطهم في ذبحها وقلَّة مبادرتهم إلى أمر الله.

هذا؛ وسقى، يسقي من الثلاثي، كما يأتي هذا الفعل من الرباعي: أسقى، والعرب تقول: سقيته، وأسقيته لغتان بمعنىً واحد. وتقول: سقى الله هذه البلاد الغيث، وأسقاها الغيث، فيكون بالهمزة تارةً، وبدونها أخرى، وشاهد المهموز قوله تعالى: ﴿وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾، وشاهد غير المهموز قوله تعالى: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾، ويحتملهما قوله تعالى: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا﴾، وقوله جل ذكره: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝٢٥ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾، وقد وردت اللغتان في قول لبيد ـ رضي الله عنه ـ: [الوافر]

سَقَى قومِي بنِي مَجْدٍ وَأَسْقَى ... نُمَيْراً وَالقَبائِلَ مِنْ هِلَالِ

ولكنَّه حذف المفعول الثاني من كليهما، كما حُذف المفعولان مِنْ الأفعال المذكورة في سورة القصص: ﴿يَسْقُونَ﴾، ﴿لَا نَسْقِى﴾، ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾، ﴿مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾. هذا وفرق الأعلم بين المهموز، وغيره. فقال: تقول: سقيتك ماءً: إذا ناولته إياه يشربه، وتقول: أسقيتك: إذا حصَّلت له سقياً. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى موسى، والجملة الفعلية مستأنفة لا محل لها، وجملة: ﴿إِنَّهُۥ يَقُولُ﴾: في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ﴾: في محل نصب مقول القول لـ﴿يَقُولُ﴾. ﴿لَّا﴾: نافية. ﴿ذَلُولٌ﴾: صفة منفية لـ﴿بَقَرَةٌ﴾، وقيل: إنَّ ﴿لَّا﴾ اسم بمعنى غير، فهي صفة، ظهر إعرابها على ما بعدها بطريق العارية، لكونها على صورة الحرف، وعليه فهي مضاف، و﴿ذَلُولٌ﴾: مضاف إليه مجرور، وعلامة جره كسرة مقدرة على آخره، منع من ظهورها اشتغال المحل بالحركة المنقولة إليه مِنْ ﴿لَّا﴾ بطريق العارية. هذا ويجوز اعتبار ﴿ذَلُولٌ﴾ خبراً لمبتدأ محذوف، التقدير: لا هي ذلول، وتكون الجملة الاسمية في محل رفع صفة ﴿بَقَرَةٌ﴾.

وقرأ عبد الرحمن السلمي: (لا ذلولَ) بالنصب على اعتبار ﴿لَّا﴾ نافية للجنس، والخبر محذوف، وتبقى الجملة الاسمية صفة ﴿بَقَرَةٌ﴾ وهي قراءة غير سبعية. ﴿تُثِيرُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى ﴿بَقَرَةٌ﴾. ﴿ٱلْأَرْضَ﴾: مفعول به والجملة الفعلية في محل رفع صفة ﴿ذَلُولٌ﴾. وهذا على أنَّ الصِّفة توصف، وهي صفة كاشفة. وقال أبو البقاء: هي في محل نصب حال من الضمير المستتر في ﴿ذَلُولٌ﴾، التقدير: لا تذل في حال إثارتها. وهذا أقوى من الأول. وقيل: صفة ثانية لـ﴿بَقَرَةٌ﴾، وجملة: (لا تسقي الحرث) معطوفة عليها، و(لا) زائدة لتأكيد النفي؛ لأنها منفية بسبب العطف، ويجوز أن تكون خبراً لمبتدأ محذوف أيضاً. ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾: صفة ثانية لـ﴿بَقَرَةٌ﴾. وأجيز اعتبارها خبراً لمبتدأ محذوف، وتعود الجملة، فتكون صفة: ﴿بَقَرَةٌ﴾ ومتعلقه محذوف، كما رأيت في الشرح.

﴿لَّا﴾ نافية للجنس تعمل عمل «إنَّ» ﴿شِيَةَ﴾: اسم ﴿لَّا﴾ مبني على الفتح في محل نصب. ﴿فِيهَا﴾ جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر ﴿لَّا﴾، والجملة الاسمية في محل رفع صفة ثالثة

لـ ﴿بَقَرَةٌ﴾، أو في محل نصب حال منها بعد وصفها بما تقدَّم. ﴿قَالُواْ﴾: ماض مبني على الضم، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿ٱلْـَٔـٰنَ﴾: ظرف زمان مبني على الفتح في محل نصب متعلق بالفعل بعده. ﴿جِئْتَ﴾: فعل وفاعل. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ جار مجرور متعلقان بالفعل قبلهما، وجوز تعليقهما بمحذوف حال من تاء الفاعل؛ أي: جئت ملتبساً بالحق، أو معك الحق، وحذفت صفة الحق، كما رأيت في الشرح، وجملة: ﴿جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾ في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قَالُواْ﴾ مستأنفة لا محل لها؛ لأنها بمنزلة جواب لسؤالٍ مقدَّر. ﴿فَذَبَحُوهَا﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به، والجملة الفعلية معطوفة على كلام محذوف، انظر الشرح. ﴿وَمَا﴾: الواو واو الحال. (ما): نافية. ﴿كَادُواْ﴾: فعل ماض ناقص من أفعال المقاربة، مبني على الضم، والواو اسمه، والألف للتفريق. ﴿يَفْعَلُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع . . . إلخ، والواو فاعله، ومفعوله محذوف، تقديره: الذَّبحَ، والجملة الفعلية في محل نصب خبر: (كاد)، وجملة: (ما كادوا. . .) إلخ: في محل نصب حال من واو الجماعة، والرابط الواو، والضمير.

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾﴾

الشرح: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ أي: واذكروا يا بني إسرائيل وقت قتل هذه النفس، وما وقع فيه من القصَّة. والخطاب لليهود المعاصرين للنبيِّ ﷺ، وإسناد القتل، والتدارؤ إليهم؛ لأنَّ ما يصدر من الأسلاف ينسب إلى الأخلاف توبيخاً، وتقريعاً.

﴿فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا﴾: تدافعتم، وتخاصمتم. وأصله: تدارأتم، فاجتمعت التاء مع الدال، وهما متقاربان في المخرج، فقلبت التاء دالاً، وسكنت لأجل الإدغام، ولا يمكن الابتداء بساكن، فاجتلبت همزة الوصل ليبتدأ بها، فصار: ادْدَارأتم ثم أدغم، ولهذه الكلمة نظائر مثل قوله تعالى في سورة (الأعراف) رقم [٣٨]: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا﴾ وقوله تعالى في سورة (النَّمل) رقم [٦٦]: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ وأيضاً: اذَّكر، واطَّلع، واطَّير، وازيَّن، فإن الأصل: تذكر، وتطلع، وتطير، وتزين. وأيضاً قوله تعالى في سورة (التوبة) رقم [٣٨]: ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾.

﴿وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ﴾: مظهر، فهو اسم فاعل، من أخرج الرباعي. ﴿مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾: تخفون في صدوركم من أمر القتيل. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

وعن المسيب بن رافع: ما عمل رجل حسنةً في سبعة أبيات إلا أظهرها الله، وما عمل رجلٌ سيئةً في سبعة أبيات إلا أظهرها الله، وتصديق ذلك في كتاب الله: ﴿وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾. هذا؛ وفي الحديث: «**لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ يَعْمَلُ فِي صَخْرَةٍ صَمَّاء، لا بَابَ لَهَا، وَلَا كُوَّة؛ لَخَرَجَ مَا غَيَّبَه للنَّاس كائِنَاً مَا كَان**». أخرجه ابن ماجه، وابن حبَّان عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ من حديثٍ طويل. وخذ قوله تعالى حكايةً عن وصية لقمان لابنه، وهو يعظه: ﴿يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ...﴾ إلخ.

الإعراب: ﴿وَإِذْ﴾: الواو: حرف عطف. (إذ): ظرف مبني على السكون في محل نصب متعلق بفعلٍ محذوف، أو هو مفعول به لهذا المقدَّر. انظر الشرح. والجملة المقدرة معطوفة على مثلها فيما سبق.

﴿قَتَلْتُمْ﴾: فعل وفاعل. ﴿نَفْسًا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في مجل جرٍّ بإضافة (إذ) إليها. (ادارأتم): فعل وفاعل. والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، فهي في محل جر مثلها. ﴿فِيهَا﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿وَاللَّهُ﴾: الواو: واو الحال. (الله): مبتدأ، ﴿مُخْرِجٌ﴾ خبره، وفاعله مستتر فيه، والجملة الاسمية في محل نصب حال من تاء الفاعل، والرابط: الواو، والضمير. وقال أبو البقاء: معترضة بين ما قبلها، وبين ما بعدها. ﴿مَا﴾: اسم موصول، أو نكرة موصوفة مبنية على السكون في محل نصب مفعول به لـ ﴿مُخْرِجٌ﴾. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ماض ناقص مبني على السكون، والتاء اسمه. ﴿تَكْتُمُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع ...إلخ، والواو فاعله، ومفعوله محذوف، وهو العائد، أو الرابط لـ ﴿مَا﴾ والجملة الفعلية في محل نصب خبر: ﴿كُنتُمْ﴾ وهذه الجملة صلة ﴿مَا﴾أو صفتها. هذا؛ واعتبار ﴿مَا﴾ مصدرية فيه ضعف. تأمل، وتدبَّر، وربك أعلم، وصلَّى الله على سيدنا محمدٍ، وعلى آله، وصحبه، وسلَّم.

﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾

الشرح: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ﴾ أي: القتيل: ببعضها: ببعض لحم البقرة بعد ذبحها، لا على تعيين شيء منها، فيحيا، ويخبركم عن قاتله. فضربوه، فحيي، وقال: قتلني فلان ابن أخي. ﴿كَذَٰلِكَ...﴾ إلخ. أي: إحياء الناس بعد موتهم، وبعثهم للحساب شبيه بإحياء تلك النفس التي ضُربت ببعض البقرة، و﴿الْمَوْتَىٰ﴾ جمع: ميت، ويجمع أيضاً على «أموات» وعلى «ميتون» قال تعالى لنبيه ﷺ في سورة (الزمر) رقم [٣٠]: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾. ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي: يريكم دلائل قدرته؛ لتتدبروا، ولتفكروا، وتعلموا: أنَّ الله على كل شيءٍ قدير. ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: تفهمون، فتمتنعون عن عصيانه، ومخالفة أمره. وعقلتُ نفسي عن كذا، أي: منعتها منه.

تنبيه: ذكر الله تعالى إحياء الموتى في هذه السورة الكريمة في خمسة مواضع: **الأول**: في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ الآية رقم [٥٦]. **الثاني**: في هذه القصة: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾. **الثالث**: في قصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف؛ فقال لهم الله: ﴿مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ الآية رقم [٢٤٣] الآتية. **الرابع**: في قصة عزيز في قوله تعالى: ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ الآية رقم [٢٥٩] الآتية. **الخامس**: في قصة إبراهيم على نبينا وعليه ألف صلاة وألف سلام في قوله تعالى: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ الآية رقم [٢٦٠] الآتية.

الإعراب: ﴿فَقُلْنَا﴾: الفاء: حرف عطف. (قلنا): فعل وفاعل، والجملة الفعلية معطوفة على جملة: ﴿قَتَلْتُمْ﴾ فهي في محل جر مثلها. ﴿اضْرِبُوهُ﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والهاء مفعوله، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول. ﴿بِبَعْضِهَا﴾: متعلقان بما قبلهما. وها: في محل جر بالإضافة. ﴿كَذَلِكَ﴾: الكاف: حرف تشبيه وجر. (ذا): اسم إشارة مبني على السكون في محل جر بالكاف، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب لا محل له، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف صفة لمفعول مطلق محذوف، عامله الفعل الذي بعده، التقدير: يحيي الله الموتى إحياءً مثل ذلك الإحياء الذي أحيا به القتيل. ﴿يُحْيِ﴾: فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء للثقل. ﴿اللَّهُ﴾: فاعله، ﴿الْمَوْتَى﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على الألف للتعذر، وجملة: ﴿كَذَلِكَ يُحْيِ...﴾ إلخ: مستأنفة لا محل لها، وقبلها كلام محذوف، تقديره: فضربوه ببعضها، فحيي، وقال . . . إلخ. ﴿وَيُرِيكُمْ﴾: الواو حرف عطف. (يريكم): فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء للثقل، والفاعل يعود إلى ﴿اللَّهُ﴾ والكاف مفعوله الأول. ﴿آيَاتِهِ﴾: مفعول به ثان منصوب، وعلامة نصبه الكسرة نيابة عن الفتحة؛ لأنه جمع مؤنث سالم، والهاء في محل جر بالإضافة. هذا والفعل: (يري) بصري ينصب مفعولاً واحداً، وقد تعدَّى هنا إلى الثاني بالهمزة، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها لا محل لها مثلها، وجملة: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فيها معنى التعليل.

تنبيه: بالإضافة لما ذكرته في الآية رقم [٦٧] نقلاً عن القرطبي: أذكر هنا: أنَّ هذه الآية هي أول القصَّة، وقدِّمت الآيات السابقة عليها في التنزيل لغرضٍ، وهو: أنَّه لمَّا ذكر سابقاً خبائثهم، وقبائحهم، وجناياتهم، ووُبِّخوا عليها؛ ناسب أن يقدِّم في هذه القصَّة ما هو من قبائحهم، وهو تعنتهم على موسى؛ لتتصل قبائحهم، ومساوئهم ببعضها، ليكون أبلغ في توبيخهم على القتل. انتهى. جمل. وقال أبو السعود ـ رحمه الله تعالى ـ: وإنَّما غيَّر الترتيب لتكرير التوبيخ، وتثنية التقريع، فإنَّ كلَّ واحدٍ من قتل النفس المحرمة، والاستهزاء بموسى عليه السلام، والافتيات على أمره جنايةٌ عظيمةٌ جديرةٌ بأن تنعى عليهم.

تنبيه: قال علماء السِّير، والأخبار: إنَّه كان في بني إسرائيل رجل غني، لا أولاد له، وله ابن عمٍّ فقير، لا وارث له سواه، فلمَّا طال موته؛ قتله؛ ليرثه، وحمله إلى قرية أخرى، وألقاه على بابها، ثمَّ أصبح يطلب ثأره، وجاء بناس إلى موسى يدَّعي عليهم بالقتل، فجحدوا، واشتبه أمر القتيل على موسى ـ على نبيِّنا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ فسألوا موسى أن يدعو الله لهم ما أشكل عليهم، فسأل موسى ربَّه في ذلك، فأمره بذبح بقرة، وأمره أن يضربه ببعضها، فقال لهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً...﴾ إلخ الآيات التي رأيتها فيما سبق.

وكان في ذلك حكمة لِلَّه عزَّ، وجلَّ، وذلك: أنه كان رجل صالح في بني إسرائيل، وله ابنٌ وله عجلةٌ، فأتى بها غيضةً، وقال: اللهم إنِّي استودعتك هذه العجلة لابني حتَّى يكبر، ومات ذلك

الرَّجل، وصارت العجلة في الغيضة عواناً، وكانت تهرب من الناس، فلمَّا كبر ذلك الطفل، وكان بارّاً بأمِّه؛ فقالت له أمُّه يوماً: يا بنيَّ! إنَّ أباك ورَّثك عجلةً استودعها الله في غيضة كذا، فانطلق، وادع إله إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق أنْ يردَّها عليك، وعلامتها: أنك إذا نظرت إليها يخيَّل إليك أن شعاع الشَّمس يخرج من جلدها، وكانت تسمى المُذَهَّبة؛ لحسنها، وصفرتها.

فأتى الفتى الغيضة، فرآها ترعى، فصاح بها، وقال: أعزم عليك بإله إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، فأقبلت البقرة حتى وقفت بين يديه، فقبض على قرنها يقودها، فسار بها إلى أمِّه، فقالت له: إنَّك رجل فقيرٌ، ولا مال لك، ويشقُّ عليك الاحتطاب بالنَّهار، والقيام في الليل، فانطلق وبع البقرة، فقال: بكم أبيعها؟ قالت: ثلاثة دنانير ولا تبع بغير مشورتي، وكان ثمن البقرة ثلاثة دنانير، فانطلق الفتى بها إلى السُّوق، وبعث الله ملكاً ليري خلقه قدرته، ويختبر الفتى كيف برُّه بأمه؟ وهو أعلم، فقال له الملك: بكم هذه البقرة؟ قال: بثلاثة دنانير، وأشترط رضا أمي، فقال الملك: لك ستة دنانير، ولا تستأمر أمَّك، فقال الفتى: لو أعطيتني وزنها ذهباً، لم آخذه إلا برضا أمِّي، ورجع الفتى إلى أمِّه، وأخبرها بالثَّمن، فقالت له: ارجع، فبِعْها بستة دنانير، ولا تبعها إلا برضاي، فرجع إلى السوق، وأتى الملك، فقال له: استأمرت أمَّك؟ فقال: نعم إنَّها أمرتني أن لا أنقصها عن ستة على رضاها، فقال الملك: إنِّي أعطيك اثني عشر ديناراً، ولا تستأمرها، فأبى، ورجع إلى أمِّه، وأخبرها الخبر بذلك، فقالت له أمُّه: إنَّ الذي يأتيك ملكٌ في صورة آدمي ليجرِّبك، فإذا أتاك فقل له: أتأمرنا أن نبيع هذه البقرة، أم لا؟ ففعل، فقال له الملك: اذهب إلى أمِّك، فقل لها: أمسكي البقرة؛ فإنَّ موسى بن عمران يشتريها منك لقتيل يقتل في بني إسرائيل، فلا تبعها إلا بملء مَسْكِها ذهباً، والمَسْكُ الجلد، فأمسكها وقدَّر الله على بني إسرائيل ذبح البقرة بعينها، فما زالوا يستوصفون البقرة؛ حتَّى وُصِفت لهم تلك البقرة بعينها مكافأةً لذلك الفتى على برِّه بأمه، فضلاً من الله ورحمة.

فاشتروها، وذبحوها، ثمَّ ضربوا القتيل بقطعة لحم منها، فحيي، وقال لبني عمِّه: قتلني فلان، ثمَّ رجع ميتاً، فقتل موسى القاتل، وحُرِم الميراث. ومن طلب شيئاً قبل أوانه؛ عوقب بحرمانه. انتهى. خازن بتصرُّف مع اختصار.

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾

الشرح: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم﴾: القساوة: عبارة عن الغلظ مع الصلابة كما في الحجر، وقساوة القلب: نبوُّه عن الاعتبار، فقساوته مستعارةٌ من قساوة الحجر، استعيرت لنبوِّ قلوبهم عن

التأثر بالعظات، والقوارع الَّتي تميع منها الجبال، وتلين بها الصخور. هذا؛ وأصل الفعل: «قَسَى» فلما اتصلت به تاء التأنيث صار: «قَسَاتْ» فحذفت الألف لالتقائها ساكنة مع تاء التأنيث فصار: «قست». هذا؛ والقلب: قطعةٌ صغيرة على هيئة الصَّنوبرة، خلقها الله في الآدمي، وجعلها محلّاً للعلم، فيحصي به العبد من العلوم ما لا يسع في أسفار، يكتبه الله بالخطِّ الإلهي، ويضبطه بالحفظ الربَّاني حتَّى يحصيه، ولا ينسى منه شيئاً، وهو بين لَمَّتَيْن: لمةٍ من المَلك، ولمةٍ من الشَّيطان، ـ كما قال الرسول ﷺ ـ، فأمَّا لمَّة المَلك؛ فإيعادٌ بالخير، وتصديق بالحقِّ، وأما لمَّة الشيطان؛ فإيعاد بالشرِّ، وتكذيب بالحقِّ، من وجد الأول؛ فيعلم: أنه من الله، ويحمد الله، ومن وجد الثاني؛ فليعوذ بالله من الشَّيطان، ثم قرأ الرَّسول ﷺ قوله تعالى: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾ الآية رقم [٢٦٧] الآتية. هذا واللَّمة بفتح اللام: الخَطْرة الواحدة. من: الإلمام، وهو القُرب من الشيء، والمراد بها في الحديث: التي تقع في القلب من خير أو شرٍّ، فأما لمَّة الشيطان؛ فوسوسةٌ، وأما لمَّة المَلك؛ فإلهامٌ من الله تعالى. هذا وسمِّي القلب قلباً لأنَّه يتقلَّب؛ قال الشاعر: [الطويل]

وَمَا سُمِّيَ الإِنْسَانُ إلا لأُنسِهِ ... وَلَا القَلْبُ إِلَّا أَنَّهُ يَتَقَلَّبُ

﴿مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾: من بعد المعجزات التي جاء بها موسى عليه السلام، ولهذا نهى الله المؤمنين عن مثل حالهم، فقال تعالى في سورة (الحديد): ﴿۞أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾.

﴿فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ﴾: اختلف العلماء في معنى (أو) هنا، بعد استحالة كونها للشكِّ، فقال بعضهم: هي هنا بمعنى الواو، كقوله تعالى في سورة (الدَّهر): ﴿وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا﴾ وقوله تعالى في سورة (المرسلات): ﴿عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا﴾، وكما قال جرير في مدح الخليفة الصَّالح ـ وهو الشاهد رقم [٩٦] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [البسيط]

جَاءَ الخِلَافَةَ أَوْ كَانَتْ لَهُ قَدَراً ... كَمَا أَتَى رَبَّهُ مُوسَى عَلَى قَدَرِ

أي: وكانت. وقيل: هي بمعنى «بل» كقوله تعالى في سورة (النساء) رقم [٧٧]: ﴿إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗۚ﴾ وكقوله تعالى في سورة (الصافات) رقم [١٤٧]: ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ﴾ وقال جرير في مدح هشام بن عبد الملك ـ وهو الشاهد رقم [١٠١] من كتابنا المذكور ـ: [الطويل]

مَاذَا تَرَى فِي عِيَالٍ قَدْ بَرِمْتُ بِهِمْ ... لَمْ أُحْصِ عِدَّتَهُمْ إِلَّا بِعَدَّادِ؟

كَانُوا ثَمَانِينَ أَوْ زَادُوا ثَمَانِيَةً ... لَوْلَا رَجَاؤكَ قَدْ قَتَّلْتُ أَوْلَادِي

أي: بل، وزادوا ثمانية، وأيضاً قول ذي الرُّمَّة: [الطويل]

بَدَتْ مِثْلَ قَرْنِ الشَّمْسِ فِي رَوْنَقِ الضُّحَى وَصُورَتِهَا أَوْ أَنْتَ فِي الْعَيْنِ أَمْلَحُ

أي: بل أنت، وقيل: معناها الإبهام على المُخاطب، ومنه قول أبي الأسود الدؤلي. [الوافر]

أُحِبُّ مُحَمَّداً حُبّاً شَدِيداً وَعَبَّاساً وَحَمْزَةَ أَوْ عَلِيَّا

فَإِنْ يَكُ حُبُّهُمْ رُشْداً أُصِبْهُ وَلَسْتُ بِمُخْطِئٍ إِنْ كَانَ غَيَّا

ولم يشكَّ أبو الأسود الدُّؤلي: أنَّ حبهم رشدٌ ظاهر، وإنَّما قصد الإبهام.

﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: والمراد: جميع الحجارة، أو حجر موسى الذي كان يضربه في التيه لسقيهم. ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ﴾: التِّشقُّق دون التفجر، والمراد منه العيون الصغيرة، والينابيع، وأصل الفعل: يتشقَّق، قلبت التاء شيناً، ثمَّ أدغمت في الثانية بعد سكونها، وقرأ الأعمش على الأصل ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ المعنى: من الحجارة ما هو أنفع من قلوبكم، لخروج الماء منها، وتردِّيها. قال مجاهد: ما تردَّى حجرٌ من رأس جبل، ولا تفجَّر نهرٌ من حجر، ولا خرج منه ماء إلا من خشية الله، نزل بذلك القرآن. وهو صحيح لا غبار عليه.

فإنه لا يمتنع أن يعطي الله بعض الجمادات المعرفة، فتعقل، كالذي روي عن الجذع الذي كان يستند إليه رسول الله ﷺ إذا خطب، فلمَّا تحول عنه ﷺ؛ حَنَّ إليه.

وثبت عن النبي ﷺ: أنه قال: «**إن حجراً كان يسلِّم عليَّ في الجاهليَّة، إنِّي لأعرفه الآن**»، وكما روي: أنَّ النبي ﷺ قال: «**قال لي ثَبِيرُ: اهبط فإنِّي أخاف أن يقتلوك على ظهري، فيعذبني الله**». فناداه حِرَاء: إليَّ يا رسول الله! وقال تعالى في آخر سورة (الأحزاب): ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا...﴾ إلخ. وقال تعالى في سورة (فصِّلت) رقم [١١]: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾.

ولا تنس قوله تعالى في سورة (الإسراء) رقم [٤٤]: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾. انظر شرح هذه الآيات في محلِّها؛ تجد ما يسرك، ويثلج صدرك.

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾: فيه وعيدٌ، وتهديد، والمعنى: أن الله تعالى بالمرصاد لهؤلاء القاسية قلوبهم، وحافظٌ لأعمالهم حتَّى يجازيهم في الآخرة، فهي مسجلة في كتاب، وهو لا يغادر صغيرةً، ولا كبيرةً إلا أحصاها: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾.

بعد هذا: فقسوة القلب سببٌ في شقاء الفرد، وشقاء المجتمع، والحقد، والحسد، وسببٌ في ترك الصَّلاة، ومنع الزكاة، وترك صلاة الجمعة، والجماعة، وسببٌ في أكل الرِّبا، وفعل

الزِّنى، والغيبة، والنَّميمة، وأكل أموال الناس بالباطل، وسببٌ في شهادة الزُّور، وارتكاب الفجور، وشرب الخمر، ولعب القمار، ومخالفة الجبَّار، بل إنِّي أقول: إن قسوة القلب سبب في كلِّ معصيةٍ، وبلاء، وقد رأيتَ كيف ذمَّ اللهُ اليهود، وذوي القلوب الغافلة القاسية.

ولقائل أن يقول: ما هي أسباب قسوة القلب حتى نجتنبها؟ فأذكر بعضاً منها على سبيل الاختصار:

فأقول وبالله التوفيق: **منها**: أكل الحرام، فإنَّ الشخص الذي لا يُبالي من أين أكل: من الحلال، أم من الحرام؛ تخبث نفسه، ويقسو قلبه، وتفحش أعماله، وتسوء أخلاقه. **ومنها**: اتباع الهوى، والانقياد للشَّيطان الرَّجيم، فإنَّ الشخص الذي يسلسل لنفسه قيادها، تجرُّه إلى المهالك، والذي ينقاد إلى شيطانه يأمره بكل شرٍّ، وينهاه عن كلِّ خير، ورحم الله البوصيري؛ إذ يقول: [البسيط]

وَخَالِفِ النَّفْسَ وَالشَّيْطَانَ وَاعْصِهِمَا ... وَإِنْ هُمَا مَحَّضَاكَ النُّصْحَ فَاتَّهِمِ

وَلَا تُطِعْ مِنْهُمَا خَصْمَاً ولَا حَكَماً ... فَأَنْتَ تَعْرِفُ كَيْدَ الْخَصْمِ وَالْحَكَمِ

ومنها: كثرة الشَّغف بالمجادلة، والمخاصمة بالباطل، وقد قال رسول الله ﷺ: «**ما ضلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدىً كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أُوتُوا الْجَدَل**». ثُمَّ قرأ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾. رواه الترمذيُّ، وابن ماجه عن أبي هريرة، رضي الله عنه. والمِرَاء يقسي القلوب، ويورث الضغائن. **ومنها**: الغفلة عن ذكر الله تعالى، وعدم مراقبته في السرِّ، والعلن، والإعراض عن واجبات الله كالصَّلاة، وغيرها، فإنَّ الشَّخص الذي يُعرض عن الله يعرض الله عنه، ويكله إلى شيطانه مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ رقم [٣٦] من سورة (الزخرف).

ومنها: كثرة الكلام فيما لا يعني، والخوض في الباطل، فعن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله؛ فإنَّ كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوةٌ للقلب، وإن أبعد الناس من الله تعالى القلب القاسي**». أخرجه الترمذي.

ومنها: الانغماس في الشَّهوات، والملذَّات، والإغراق في التَّرف، والنِّعم، وكثرة الأكل، والشرب، قال بعض العلماء: من كثر أكلُه؛ كثُر شربه، ومن كثر شربُه؛ كثر نومُه، ومن كثر نومُه؛ كثر تَخَمُه، ومن كثر تَخَمُه؛ قسا قلبه، ومن قسا قلبه؛ غرق في الآثام، ومن غرق في الآثام؛ فالنار أولى به! ورحم الله تعالى من يقول: [الطويل]

يُمِيتُ الطَّعامُ القلبَ إنْ زادَ كَثْرَةً ... كَزَرْعٍ إذا بالماءِ قَدْ زَادَ سَقْيُهُ

وَإِنَّ لَبِيباً يَرْتَضِي نَقْصَ عَقْلِهِ ... بِأَكْلِ لُقَيْمَاتٍ لَقَدْ ضَلَّ سَعْيُهُ

قال سعدي الشيرازي رحمه الله تعالى: [البسيط]

إنَّ الْحَدِيدَ مَتَى أَوْدَى بِهِ صَدَأٌ فَلَيْسَ بِالصَّقْلِ تَبْدُو مِنْهُ آثَارُ
لَا يَدْخُل الوَعْظُ قَلْبَاً مُظْلِمَاً أَبَدَاً وَلا يَغُوص بِقَلْبِ الصَّخْرِ مِسْمَارُ

أما دواء قسوة القلب؛ فهو الإخلاص في العبادة، والعبادة في النَّهار، والتهجُّد في الليل، وقراءة القرآن، وتدبُّر معانيه، ومجالسة أهل الخير، والتَّقوى، والصلاح، والإقلال من الطَّعام، والشراب، وتجنُّب الأمور الَّتي تسبب قسوة القلب، المذكورة آنفاً، ورحم الله مَنْ يقول: [البسيط]

دَواءُ قَلْبِكَ خمسٌ عندَ قَسْوتِهِ فَدُمْ عَلَيْهَا تَفُزْ بِالخَيْرِ وَالظَّفَرِ
خَلَاءُ بَطْنٍ وَقُرآنٌ تَدَبُّرُهُ كَذَا تَضَرُّعُ بَاكٍ سَاعَةَ السَّحَرِ
كَذَا قِيَامُكَ جنحَ اللَّيْلِ أَوْسَطَهُ وَأَنْ تُجَالِسَ أَهْلَ الْخَيْرِ وَالْخَبَرِ

الإعراب: ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿قَسَتْ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدَّر على الألف المحذوفة لالتقائها ساكنةً مع تاء التأنيث التي هي حرف لا محل لها. ﴿قُلُوبُكُم﴾: فاعله، والكاف ضمير متصل في محل جر بالإضافة. ﴿مِّنۢ بَعۡدِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، أو هما متعلِّقان بمحذوف حال من ﴿قُلُوبُكُم﴾، و﴿بَعۡدِ﴾ مضاف، و﴿ذَٰلِكَ﴾: اسم إشارة مبني على السكون في محل جرٍّ بالإضافة، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب لا محل له، وجملة: ﴿قَسَتْ﴾: معطوفة على جملة: (قلنا) فهي في محل جر أيضاً بسبب العطف.

(هي): ضمير منفصل مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ. ﴿كَٱلۡحِجَارَةِ﴾: متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ، وإن اعتبرت الكاف اسماً بمعنى: مثل؛ فهي الخبر، وعليه فهي مضاف، والحجارة مضاف إليه، وعلى الاعتبارين فالجملة اسمية، وهي معطوفة بالفاء على الجملة الفعلية السَّابقة، فهي في محل جرٍّ أيضاً. ﴿أَوۡ﴾: حرف عطف. ﴿أَشَدُّ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: هي أشد، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها، وإن اعتبرت ﴿أَشَدُّ﴾ معطوفاً على الخبر المحذوف، أو على الكاف؛ فيكون العطف من عطف المفردات. ﴿قَسۡوَةً﴾: تمييز، والمتعلِّق محذوف؛ إذ التقدير: أو أشدُّ قسوةً منها.

﴿وَإِنَّ﴾: الواو: واو الحال. (إنَّ): حرف مشبه بالفعل. ﴿مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ﴾: متعلقان بمحذوف رفع خبر (إنَّ) تقدَّم على اسمها، ﴿لَمَا﴾: اللام: لام الابتداء، (ما): اسم موصول مبني على السكون في محل نصب اسم (إنَّ) مؤخر. ﴿يَتَفَجَّرُ﴾: فعل مضارع. ﴿مِنۡهُ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾: فاعل ﴿يَتَفَجَّرُ﴾، والجملة الفعلية صلة الموصول لا محل لها، والجملة الاسمية: (إنَّ مِنَ الحِجَارة) في محل نصب حال من ﴿ٱلۡحِجَارَةِ﴾، والرَّابط الواو،

وأعيدت الحجارة بلفظها للبيان، والإيضاح، ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ﴾: معطوفة على ما قبلها، فهي في محل نصب حال أيضاً، وجملة: ﴿فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ﴾ معطوفة على جملة: ﴿يَشَّقَّقُ﴾ لا محل لها مثلها؛ لأنها صلة الموصول، و جملة: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾: معطوفة على سابقتها فهي في محل نصب حال أيضاً، وهي مثلها في إعرابها.

﴿وَمَا﴾: الواو: واو الحال، أو هي حرف عطف. (ما): نافية حجازية تعمل عمل «ليس». ﴿ٱللَّهُ﴾ اسمها. ﴿بِغَٰفِلٍ﴾: الباء: حرف جر صلة. (غافل): خبر (ما) منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدَّرة على آخره، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد. هذا؛ وبعضهم يعتبر (ما) تميمية، فيعتبر لفظ الجلالة مبتدأ، والباء مزيدة في خبره و(غافل) اسم الفاعل، ففاعله مستتر فيه، والجملة الاسمية على الاعتبارين في محل نصب حال من الكاف في ﴿قُلُوبُكُم﴾، والرابط: الواو، والضمير، وإن اعتبرتها مستأنفة؛ فلست مفنَّداً، والمعنى لا يأباه، ﴿عَمَّا﴾: جار ومجرور متعلقان بـ (غافل)، و(ما): تحتمل الموصولة، والموصوفة، والمصدرية، فعلى الأولين مبنية على السكون في محل جر بـ (عن)، والجملة الفعلية بعدها صلتها، أو صفتها، والعائد، والرابط محذوف؛ إذ التقدير: وما الله بغافل عن الذي، أو عن شيء تعملونه، وعلى اعتبارها مصدرية تؤول مع الفعل بعدها بمصدر في محل جر بـ (عن)، التقدير: وما الله بغافل عن عملكم.

﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝٧٥﴾

الشرح: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ﴾: هذا الخطاب للنبيِّ ﷺ ولأصحابه، والاستفهام إنكاريٌّ، أو استبعادي، كأنه أيأسهم من إيمان هذه الفرقة من اليهود، أي: إن كفروا فلهم سابقة في ذلك، وذلك: أنَّ الأنصار كان لهم حرص على إسلام اليهود للحلف، والجوار الذي كان بينهم. هذا؛ والطَّمع: نزوع النَّفس إلى الشيء، وتعلُّقها به، والحرص على حصوله، وهو مذموم إن كان في أمور الدنيا، وصارفاً عن الآخرة، وطمِع، يطمَع من باب: سلِم، يسلَم، ويقال: طمع فيه طمعاً، وطماعيةً، فهو طَمِع على وزن فَعِل، ويقال في التعجب: طَمُع الرَّجل بضم الميم، أي: صار كثير الطمع، وامرأة مِطْمَاع: تُطْمِع، ولا تُمَكِّن.

﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾: الفريق: الطائفة من الناس، والفريق أكثر من الفرقة، وهو اسم جمع لا واحد له من لفظه، كرهط، ومعشر، وجمعه في أدنى العدد: فرق، وفي الكثير: فرقاء. وقال الأعلم ـ رحمه الله تعالى ـ: الفريق يقع للمفرد، والمثنى، والجمع، والمذكر، والمؤنث، مثل: صديق، وعدو، وقعيد.

﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ ٱللَّهِ﴾: المراد به التوراة التي أنزلها الله على موسى، على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام. وقال الربيع، وابن إسحاق: المراد: السَّبعون الذين اختارهم موسى للاعتذار عن عبادة بني إسرائيل العجل، فسمعوا كلام الله، فلم يمتثلوا أمره، وحرَّفوا القول في إخبارهم لقومهم. وهذا ضعيفٌ جدّاً، والمعتمد الأوَّل، ويؤيده قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ﴾.

قال مجاهد، والسُّدِّي: هم علماء اليهود؛ الَّذين يحرفون التوراة، فيجعلون الحرام حلالاً، والحلال حراماً إتِّباعاً لأهوائهم. وأيضاً حرَّفوا ما فيها من صفة النبي ﷺ، وحرَّفوا آية الرَّجم، ويفسِّرون التوراة بما يشتهون، ففي صفات النبي ﷺ كتبوا بدل «أكحل العين، رَبْعَة، أجعد الشعر، حسن الوجه»: أزرق العين، سَبِطُ الشَّعر، طويلاً... إلخ.

هذا؛ والفعل (يسمع) من الأفعال الصَّوتية، إنْ تعلق بالأصوات؛ تعدَّى إلى مفعول واحد، وإن تعلق بالذَّوات تعدَّى إلى اثنين، الثاني منهما جملةٌ فعلية مصدَّرة بمضارع من الأفعال الصَّوتية، مثل قولك: سمعت فلاناً يقول كذا، وهذا اختيار الفارسي. واختار ابن مالك، ومن تبعه أن تكون الجملة الفعلية في محلِّ نصبِ حال؛ إن كان المتقدِّم معرفة؛ مثل قولك: سمعت زيداً يقول كذا، وصفة؛ إن كان نكرة، مثل قولك: سمعتُ رجلاً يقول كذا.

هذا؛ والكلام بالنسبة إلى البشر يدلُّ على أحد ثلاثة أمور:

أولها: الحدث الذي يدل عليه لفظ التكليم، تقول: أعجبني كلامك زيداً. تريد: تكلُّمك إيَّاه. وقال الشاعر: [البسيط]

قَالُوا: كَلامُكَ هِنْداً وَهيَ مُصْغِيةٌ   يَشْفِيكَ قُلتُ صَحيحٌ ذَاكَ لَوْ كَانَا

وثانيها: ما يدور في النَّفس من هواجس، وخواطر، وكلُّ ما يعبِّر عنه اللفظ لإفادة السَّامع ما قام بنفس المخاطب، فَيُسمَّى هذا الذي تخيلته في نفسك كلاماً في اللغة العربية، تأمل في قول الأخطل التغلبي: [الكامل]

لا يُعْجِبَنَّكَ مِنْ خَطِيبٍ خُطْبَةٌ   حَتَّى يَكُونَ مَعَ الْكَلَامِ أَصِيلا

إنَّ الكَلامَ لَفِي الْفُؤَادِ وَإنَّمَا   جُعِلَ اللِّسَانُ عَلَى الفُؤَادِ دَلِيلا

ثالثها: كلُّ ما تحصل به الفائدة، سواء أكان ما حصلت به لفظاً، أو خطَّاً، أو إشارةً، أو دلالة حالٍ. انظر إلى قول العرب: (القلم أحد اللِّسانين)، وانظر إلى تسمية المسلمين ما بين دفتي المصحف: (كلام الله)، ثم انظر إلى قوله تعالى في هذه الآية: ﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ ٱللَّهِ﴾، وقال جلَّ شأنه في سورة (التوبة) رقم [٦]: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾، وإلى كلمته جلَّت حكمته في سورة (آل عمران) رقم [٤١]: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ ثم انظر إلى قول عمر بن أبي ربيعة المخزومي الَّذي نفى الكلام اللَّفظي عن محبوبته، وأثبت لعينها القول، وذلك في قوله: [الطويل]

أَشَارَتْ بِطَرْفِ الْعَيْنِ خِيْفَةَ أَهْلِهَا إِشَارَةَ مَحْزُونٍ وَلَمْ تَتَكَلَّمِ
فَأَيْقَنْتُ أَنَّ الطَّرْفَ قَدْ قَالَ مَرْحَبًا وَأَهْلاً وَسَهْلاً بِالحَبِيبِ المُتَيَّمِ

والدليل عليه فيما نطق به الحال قول نصيب: [الطويل]

فَعَاجُوا فَأَثْنَوْا بِالَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ وَلَوْ سَكَتُوا أَثْنَتْ عَلَيْكَ الْحَقَائِبُ

وقال تعالى في سورة (فصلت) رقم [١١] حكاية عن قول السماء والأرض: ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ فقال قوم من العلماء: إنهما تكلمتا حقيقة، وقال آخرون: إنهما لما انقادتا لأمر الله عز وجل؛ نزل ذلك منزلة القول، والكلام، وانظر شرح القول في الآية رقم [٢٦].

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ﴾: من بعد ما فهموه، وضبطوه بعقولهم، وانظر العقل في الآية [٤٤]. ﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾: أي: أنهم مبطلون مفترون. والمعنى: أنَّ أحبار اليهود كانوا على هذه الحالة من التحريف، والتغيير، والتبديل لكلام الله، فكيف تتوقعون إيمان سفلتهم، وجهالهم، وأنهم إن كفروا؛ فلهم سابقةٌ في ذلك.

الإعراب: ﴿أَفَتَطۡمَعُونَ﴾: الهمزة: حرف استفهام إنكاري استبعادي. واختلف في مثل هذا التركيب؛ أي: دخول الهمزة على الفاء، وعلى الواو، وعلى ثُمَّ، فذهب الجمهور إلى أن الهمزة مقدَّمة من تأخير، لأن لها الصَّدر، ولا حذف في الكلام، والتقدير: فأتطمعون، وألا يعلمون... إلخ. وذهب الزمخشري إلى أنَّها داخلة على محذوف، وعليه سياق الكلام، والتقدير هنا: أتسمعون أخبارهم، وتعلمون أحوالهم، فتطمعون. الفاء: حرف عطف. (تطمعون): فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله. ﴿أَن﴾: حرف مصدري ونصب. ﴿يُؤۡمِنُواْ﴾: فعل مضارع منصوب بـ ﴿أَن﴾، وعلامة نصبه حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿لَكُمۡ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، وهذا على تأويل الفعل بـ «ينقادوا»، وأما على تأويله بـ «صدقوكم»، فاللام زائدة، والكاف مفعول به، و﴿أَن﴾ والفعل المضارع في تأويل مصدر في محل نصب بنزع الخافض، أو في محل جر بحرف جر محذوف، التقدير: في إيمانهم، والجار والمجرور متعلقان بالفعل: (تطمعون).

﴿وَقَدۡ﴾: الواو: واو الحال. (قد): حرف تحقيق يقرب الماضي من الحال. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿فَرِيقٞ﴾: اسم (كان). ﴿مِّنۡهُمۡ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ: ﴿فَرِيقٞ﴾، أو بمحذوف صفة له. ﴿يَسۡمَعُونَ﴾: فعل مضارع وفاعله. ﴿كَلَٰمَ﴾: مفعول به، وهو مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾ مضاف إليه، من إضافة المصدر، أو اسم المصدر لفاعله، وجملة: ﴿يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ في محل نصب خبر ﴿كَانَ﴾، وأجاز قوم أن تكون الجملة صفة لـ ﴿فَرِيقٞ﴾، و﴿مِّنۡهُمۡ﴾ الخبر. وهو ضعيف، والجملة الفعلية: (قد كان): في محل نصب حال من واو الجماعة، والرابط الواو، والضمير.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿يُحَرِّفُونَهُۥ﴾: فعل مضارع، وفاعله، ومفعوله، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، فهي في محل نصب مثلها. ﴿مِنۢ بَعْدِ﴾: متعلقان بما قبلهما و﴿بَعْدِ﴾ مضاف، و﴿مَا﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل جر بالإضافة، وجملة: ﴿عَقَلُوهُ﴾ صلته، وإن اعتبرت ﴿مَا﴾ مصدرية تؤول مع الفعل بعدها بمصدر، ويكون المصدر في محل جر بالإضافة، التقدير: من بعد عقلهم له. ﴿وَهُمْ﴾: الواو: واو الحال. (هم): ضمير منفصل مبني على السكون في محل رفع مبتدأ، وجملة: ﴿يَعْلَمُونَ﴾ مع المفعول المحذوف في محل رفع خبره، والجملة الاسمية في محل نصب حال من واو الجماعة بقوله: عقلوه فتكون حالاً مؤكدة؛ لأنَّ معناها قد فهم من قوله: ﴿عَقَلُوهُ﴾. والأولى اعتبارها حالاً من واو الجماعة بقوله: ﴿يُحَرِّفُونَهُۥ﴾ أي: يحرفونه حال علمهم بذلك. تأمل، وتدبر.

﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾﴾

الشرح: قال الخازن رحمه الله تعالى: نزلت هذه الآية في اليهود الذين كانوا في زمن النبي ﷺ، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: إنَّ منافقي اليهود، كانوا إذا لقوا أصحاب رسول الله ﷺ، قالوا لهم: آمنا بالذي آمنتم به، وإن صاحبكم لصادق، وإن قوله الحق، وإنَّا نجد نعته، وصفته في كتابنا.

﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾: انظر الآية رقم [١٤] ففيها البحث كاف وافٍ مع ملاحظة الفرق بأنَّ ما هنا نزل بمنافقي اليهود، وما هناك نزل بمنافقي العرب: عبد الله بن أبيٍّ ابن سلول، وأصحابه. ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ يعني: كعب بن الأشرف، وكعب بن أسد، وغيرهما من رؤساء اليهود لاموا المنافقين منهم على ذلك. ﴿قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: قصَّ، وبيَّن، وفصَّل في كتابكم التوراة من صفة محمد ﷺ، ومنه قوله تعالى في سورة (الأعراف) رقم [٨٩]: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾، وما يشبهها في سورة (الشعراء) رقم [١١٨]، وقال تعالى في سورة (الأنفال) رقم [١٩]: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾.

﴿لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ﴾: ليحتجُّوا عليكم بما أنزل الله في كتابه، أو ليحتجوا عليكم بقولكم، يقولون لكم: كفرتم به بعد أن عرفتم صدقه. والمراد بقوله: ﴿عِندَ رَبِّكُمْ﴾ قيل: في الآخرة، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ رقم [٣١] من سورة (الزُّمر). هذا؛ والحجة: الكلام المستقيم على الإطلاق، ومن ذلك محجَّة الطريق الواضحة، وحاججت فلاناً، فحججته؛ أي: غلبته بالحجَّة، ومنه الحديث الذي ذكرته في الآية رقم [٣٦]: «**فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى**»؛ أي: فغلبه. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾: هذا من قول الأحبار اللائمين للمنافقين منهم.

وقيل: هو خطاب من الله تعالى للمؤمنين؛ أي: أفلا تعقلون: أنَّ اليهود لا يؤمنون بالله، ونبيكم، وهم بهذه الأحوال المعوجَّة المنحرفة عن الصِّراط المستقيم.

الإعراب: ﴿وَإِذَا﴾: الواو: حرف عطف. (إذا): ظرف لما يستقبل من الزمان، خافض لشرطه، منصوب بجوابه، صالح لغير ذلك، مبني على السكون في محل نصب. ﴿لَقُواْ﴾: فعل ماض مبني على الضم، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل نصب مفعول به، وجملة ﴿ءَامَنُواْ﴾ مع المتعلق المحذوف صلة الموصول، لا محل لها، وجملة: ﴿لَقُواْ﴾ في محل جر بإضافة (إذا) إليها على المشهور المرجوح. ﴿قَالُوٓاْ﴾: فعل ماض وفاعله، والألف للتفريق. ﴿ءَامَنَّا﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية مع المتعلق المحذوف في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قَالُوٓاْ﴾: جواب (إذا) لا محل لها، و(إذا) ومدخولها كلام معطوف على جملة: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ﴾ فهو في محل نصب حال. وفي السمين: وهذه الجملة الشرطية تحتمل وجهين: **أحدهما**: أن تكون مستأنفة كاشفة عن أحوال اليهود، والمنافقين، **والثاني**: أن تكون في محل نصب على الحال معطوفة على الجملة الحالية قبلها، وهي: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ﴾، والتقدير: كيف تطمعون في إيمانهم وحالهم كيت، وكيت؟! انتهى. جمل.

﴿وَإِذَا﴾: الواو: حرف عطف. (إذا): مثل سابقتها. ﴿خَلَا﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف للتعذر. ﴿بَعْضُهُمْ﴾: فاعله، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿إِلَىٰ بَعْضٍ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، وقيل: متعلقان بمحذوف حال من ﴿بَعْضُهُمْ﴾، وجملة: ﴿خَلَا﴾ في محل جر بإضافة (إذا) إليها. ﴿قَالُوٓاْ﴾: فعل وفاعل. ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم﴾: الهمزة: حرف استفهام إنكاري وتوبيخي. (تحدثونهم): فعل مضارع، وفاعله، ومفعوله الأول، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، وهما في محل نصب مفعوله الثاني. و(ما) تحتمل الموصولة، والموصوفة، والمصدرية. ﴿فَتَحَ﴾: فعل ماض. الله: فاعله. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، والجملة الفعلية صلة (ما) أو صفتها، والعائد أو الرابط محذوف، إذ التقدير: بالذي، أو بشيء فتحه الله عليكم. هذا؛ وعلى اعتبار (ما) مصدرية تؤول مع الفعل بعدها بمصدر في محل جر بالباء، والجار والمجرور متعلقان بالفعل قبلهما، التقدير: بفتح الله عليكم، وجملة: ﴿قَالُوٓاْ﴾ جواب (إذا) لا محل لها، و(إذا) ومدخولها: كلام معطوف على ما قبله على الوجهين المعتبرين فيه.

﴿لِيُحَآجُّوكُم﴾: فعل مضارع منصوب بـ «أن» مضمرة بعد لام الصَّيرورة، وعلامة نصبه حذف النون؛ لأنَّه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والكاف مفعوله، و«أن» المضمرة، والفعل المضارع في تأويل مصدر في محل جرٍّ باللام، والجار والمجرور متعلقان بالفعل: (تُحَدِّثونَهم).

﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿عِندَ﴾: ظرف مكان متعلق بالفعل (يحاج) أيضاً، و﴿عِندَ﴾ مضاف، و﴿رَبِّكُمْ﴾ مضاف إليه، والكاف في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه.

﴿أَفَلَا﴾: الهمزة: حرف استفهام، وتقريع، وتأنيب. الفاء: حرف استئناف، أو هي حرف عطف. (لا): نافية. ﴿تَعْقِلُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله، والجملة الفعلية مع المفعول المحذوف معطوفة على جملة مقدرة، التقدير: أطبع على قلوبكم فلا تعقلون؟! هذا على اعتبارها من تمام مقولهم، وإن كانت من خطاب الله تعالى للمؤمنين؛ فهي معطوفة على قوله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾ في الآية السابقة.

﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾﴾

الشرح: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ﴾: أي: اللائمون، والمنافقون من اليهود. هذا؛ والسرُّ: الخفاء. والعلن، والإعلان، والعلانية: الجهر. قال تعالى في سورة (إبراهيم) على نبينا وحبيبنا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾ الآية رقم [٣١]، وقال الشاعر: [البسيط]

لَا تَظْلِمُوا مِسْوَرَاً فَإِنَّهُ لَكُمُ ... مِنَ الَّذِينَ وَفَوْا بِالسِّرِّ وَالعَلَنِ

والَّذي أسرَّه اليهودُ الكفرُ، والذي أعلنوه إظهارُهم الإيمان، وقولُهم لأصحاب النبيِّ ﷺ: آمنا بالذي آمنتم به، وإنَّ صاحبكم لصادقٌ، وإنَّ قوله لحقٌّ، وإنا نجد نعته، وصفته في كتابنا التوراة. ولا تنس الطباق بين ﴿يُسِرُّونَ﴾ و﴿يُعْلِنُونَ﴾ وهو من المحسِّنات البديعية.

الإعراب: ﴿أَوَلَا﴾: الهمزة: حرف استفهام، وتوبيخ. الواو: حرف عطف، أو حرف استئناف. انظر ما ذكرته في الآية السابقة. (لا): نافية. ﴿يَعْلَمُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله. ﴿أَنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿يَعْلَمُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى ﴿ٱللَّهَ﴾ والجملة الفعلية في محل رفع خبر ﴿أَنَّ﴾، و﴿أَنَّ﴾ واسمها وخبرها في تأويل مصدر في محل نصب سدَّ مسدَّ مفعول به مفرد؛ إن جعلنا الفعل من المعرفة، أو في محل سد مسد مفعولين؛ إن جعلناه من العلم. ﴿مَا﴾: تحتمل الموصولة، والموصوفة، والمصدرية. ﴿يُسِرُّونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله، والجملة الفعلية صلة (ما)، أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف، التقدير: يعلم الذي، أو شيئاً يسرُّونه، وعلى اعتبار (ما) مصدرية تؤول مع الفعل بعدها بمصدر في محل نصب مفعول به، التقدير: يعلم سرَّهم. ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾: معطوف على ما قبله، وإعرابه مثله بلا فارق بينهما، وجملة: (لا يعلمون): مستأنفة لا محل لها

من الإعراب، أو هي معطوفة على الجمل السابقة الواقعة حالاً. ويبعده: أن الاستفهام إنشاء، والإنشاء لا يقع حالاً.

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾

الشرح: لمَّا ذكر الله تعالى علماء السوء من اليهود الَّذين حرفوا، وبدَّلوا؛ ذكر العوام الذين قلَّدوهم، وبيَّن: أنَّهم في الضلال، والمآل سواءٌ، فقال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾ أي: ومن اليهود طائفة من الجهلة العوام لا يعرفون القراءة، والكتابة؛ ليطلعوا على ما فيها بأنفسهم، ويتحقَّقوا بما فيها. و﴿أُمِّيُّونَ﴾ جمع: أمّي، وهو من لا يحسن القراءة، والكتابة، وهي صفة ذمٍّ إلا في حق نبينا ﷺ، فإنَّها له صفة مدحٍ؛ لأنه أتى بعلوم الأولين والآخرين، كما رأيته في الآية رقم [١٥٦] من سورة (الأعراف)، والحمد لله! وأمِّيٌّ منسوب إلى الأم التي ولدته، أو إلى الأمة، وهي القامة، والخلقة، كأنَّ الذي لا يقرأ، ولا يكتب قائم على الفطرة، والجبلَّة. قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّة، لا نَكْتُب، وَلَا نَحْسُب، الشَّهْرُ هَكَذَا، وَهَكَذا، وهَكَذَا. . .**» الحديث. أو منسوب إلى الأمة؛ لأنها ساذجة قبل أن تعرف المعارف، والمراد بالكتاب: التوراة.

﴿إِلَّآ أَمَانِىَّ﴾ أي: أكاذيب، جمع: أمنيَّة بتشديد الياء وتخفيفها فيها، قال أبو حاتم رحمه الله تعالى: كل ما جاء من هذا النحو واحده مشدَّد؛ فلك فيه التشديد، والتخفيف مثل: أثافي، وأغاني، أماني، ونحوه، وهذا من قولهم: مان الرجل في حديثه ميناً، وتمنَّى تمنياً، أي: كذب، ومنه قول عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ: ما تمنيت منذ أسلمتُ! أي: ما كذبتُ!.

أو هي جمع أمنية من التمنِّي، وهو: طلب محبوب لا يرجى حصوله لكونه مستحيلاً، أو بعيد الوقوع، وإذا كان متوقَّع الحصول؛ فإنَّ ترقُّبه يسمَّى: ترجياً، وعليه فالأماني التي يتمنَّاها سفلة اليهود، ويعدهم بها رؤساؤهم مواعيد فارغة من أنَّ الجنَّة لا يدخلها إلا من كان هوداً، وأنَّ النار لن تمسَّهم إلا أياماً معدودةً، وأنَّ آباءهم الأنبياء يشفعون لهم، وأنَّهم أبناء الله، وأحباؤه، إلى غير ما هنالك من الأماني الفارغة.

هذا؛ والأماني جمع: أمنية بمعنى التلاوة، والقراءة، وأصلها: أمنوية، على وزن: أفعولة، فقل في إعلاله: اجتمعت الواو، والياء، والأول ساكن، فقلبت الواو ياءً، وأدغمت الياء في الياء، ثم قلبت ضمَّة النون كسرة لمناسبة الياء، فصارت أمنية.

والمعنى: أن سفلة اليهود لا يقرؤون التَّوراة إلا قراءة عارية عن معرفة المعنى. هذا؛ و«تمنَّى» بمعنى: قرأ، وقيل به في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ الآية رقم [٥٢] من سورة (الحج)، أي: إذا تلا ألقى الشيطان في تلاوته، انظر شرحها هناك، فإنَّه جيد، والحمد لله! وأنشد الشاعر في عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ: [الطويل]

تَـمَـنَّـى كِـتَـابَ اللهِ آخـرَ لَـيْـلَـةٍ تَـمـنِّـي دَاودَ الـزَّبُـورَ عَـلَـى رِسْـلِ

وقال كعب بن مالك ـ رضي الله عنه ـ فيه أيضاً: [الطويل]

تَـمَـنَّـى كِـتَـابَ اللهِ أَوَّلَ لَـيْـلَـةٍ وَآخِـرَهُ لَاقَـى حِـمَـامَ الـمَـقَـادِرِ

وقال ابن الأنباري ـ رحمه الله تعالى ـ: الأماني تنقسم على ثلاثة أقسام: تكون من التمنِّي، وتكون من التلاوة، وتكون من الكذب. كشاف بتصرف.

هذا؛ وقيل: الأماني: المقدَّرات، يقال: منى له، أي قدَّر له، قاله الجوهري، وحكاه ابن بحر، وأنشد قول الشاعر: [البسيط]

لَا تـأْمَـنَـنَّ وَإِنْ أَمْـسَـيْـتَ فِـي حـرَمٍ حَـتَّـى تُـلاقِـيَ مَـا يَـمْـنِـي لَـكَ الْـمَـانِـي

وقال أبو قلابة الهذلي: [البسيط]

وَلَا تَـقُـولَـنْ لِـشَـيءٍ سَـوْفَ أَفْـعَـلُـهُ حَـتَّـى تُـلَاقِـيَ مَـا يَـمْـنِـي لَـكَ الْـمَـانـي

أي: ما يقدر لك القادر. وبه قيل في آخر سورة القيامة في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾.

﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي: يكذبون، ويحدِّثون؛ لأنه لا علم لهم بصحة ما يتلون، إنَّما هم مقلِّدون لأحبارهم فيما يقرؤون به.

قال أبو بكر الأنباري ـ رحمه الله تعالى ـ: وقد حدَّثنا أحمد بن يحيى النَّحويُّ: أنَّ العرب تجعل الظنَّ علماً، وشكّاً، وكذباً، وقال: إذا قامت براهين العلم، فكانت أكثر من براهين الشك؛ فالظنُّ يقينٌ، وإذا اعتدلت براهين اليقين، وبراهين الشك؛ فالظنُّ شك، وإذا زادت براهين الشك على براهين اليقين؛ فالظن كذب، قال الله عز وجل: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أراد: إلا يكذبون، انظر ما ذكرته في الآية رقم [٤٦] فإنه جيد، والحمد لله!.

الإعراب: ﴿وَمِنْهُمْ﴾: الواو: حرف عطف. (منهم): جار ومجرور متعلقان بمحذوف في محل رفع خبر مقدَّم. ﴿أُمِّيُّونَ﴾: مبتدأ مؤخر مرفوع، وعلامة رفعه الواو نيابة عن الضمة؛ لأنه جمع مذكر سالم، والنون عوض عن التنوين في الاسم المفرد. هذا ما يقوله المفسرون، والمعربون في هذه الجملة، وأمثالها، وأرى: أنَّ مضمون: (منهم) مبتدأ و﴿أُمِّيُّونَ﴾ خبراً، وانظر ما ذكرته في الآية رقم [٨]. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَعْلَمُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله، ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: مفعول به. ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء. ﴿أَمَانِيَّ﴾: استثناء منقطع، قدر البيضاوي فعلاً ناصباً له، كما قدَّر ﴿إِلَّآ﴾ بـ «لكن» فقال: والمعنى: ولكن يعتقدون أماني، أو يدركون أماني. والجملة الفعلية: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾: في محل رفع صفة: ﴿أُمِّيُّونَ﴾، والجملة الاسمية: ﴿وَمِنْهُمْ

أُمِّيُّونَ﴾: معطوفة على الجمل السابقة، فهي في محل نصب حال مثلها، قاله سليمان الجمل، وأرى جواز اعتبارها مستأنفة لا محل لها.

﴿وَإِنْ﴾: الواو: حرف عطف. (إنْ): حرف نفي بمعنى «ما». ﴿هُمْ﴾: ضمير منفصل مبني على السكون في محل رفع مبتدأ.

﴿إِلَّا﴾: حرف حصر. ﴿يَظُنُّونَ﴾: فعل مضارع، وفاعله، ومفعولاه محذوفان اختصاراً ورعايةً لرؤوس الآي، التقدير: يظنون أنهم على حق، أو ناجون، أو نحو ذلك، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، واعتبرها أبو البقاء صفة لموصوف محذوف، هو المبتدأ، التقدير: إلا قوم يظنون، وعلى كلٍّ فالجملة الاسمية معطوفة على الجملة الاسمية السَّابقة على الوجهين المعتبرين فيها، وإن اعتبرتها في محل نصب حال من واو الجماعة؛ فلست مفنداً، والاستئناف ممكنٌ أيضاً.

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾

الشرح: (ويل): كلمة تقولها العرب لكل مَنْ وقع في هلكة، وأصلها في اللغة: العذاب، والهلاك، وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: الويل: شدَّة العذاب. وعن أبي سعيدٍ الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**الْوَيْلُ وَادٍ فِي جَهَنَّمَ يَهْوِي فِيهِ الْكَافِرُ أَرْبَعِينَ خَرِيفاً قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ قَعْرَهُ**». أخرجه الترمذيُّ. وقال الأصمعيُّ: الويل: تفجع، والويح: ترحم. وقيل: أصله الهلكة، وكلُّ مَنْ وقع في هلكةٍ دعا بالويل، ومنه قوله تعالى في سورة (الكهف) رقم [٤٩]: ﴿وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾. هذا؛ والويل مصدر، لم يستعمل منه فعل؛ لأنَّ فاءه وعينه معتلتان، ومثله: (ويح، وويه، ويس، وويك، وويب) وهو لا يثنَّى، ولا يجمع، وقيل: يجمع على: ويلات، بدليل قول امرئ القيس في معلَّقته رقم [١٨]: [الطويل]

وَيَوْمَ دَخَلْتُ الخِدْرَ خِدْرَ عُنَيْزَةٍ فَقَالَتْ لَكَ الوَيْلَاتُ إِنكَ مُرْجِلِي

وإذا أضيفت هذه الأسماء؛ فالأحسن النَّصب على المفعولية المطلقة، وإذا لم تضف؛ فالأحسن فيها الرفع على الابتداء، وهي نكرات، وساغ ذلك لتضمُّنها معنىً خاصّاً.

﴿يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾: الكتابة معروفة، وأول من كتب بالقلم، وخطَّ به إدريس، عليه الصلاة، والسلام، وجاء ذلك في حديث أبي ذرٍّ خرَّجه الآجري، وغيره. وقد قيل: إن آدم عليه السلام أعطي الخط، فصار وراثةً في ولده، وهو صحيحٌ، وجيِّد. وقد كان عيسى ـ على نبينا، وحبيبنا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ يحسن الخطَّ، ويجيده.

﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾: تأكيد، فإنه قد علم: أن الكتابة لا تكون إلا باليد، فهو مثل قوله تعالى في سورة (الأنعام) رقم [٣٨]: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾، وقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ الآية رقم [١٦٧] من سورة (آل عمران).

﴿ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي: يقولون لأتباعهم الأميين: هذا الذي تجدونه هو نصوص التوراة التي أنزلها الله على موسى عليه السلام، مع أنَّهم كتبوها بأيديهم، ونسبوها إلى الله كذباً، وزوراً، فإذا نظر الأميُّون إلى النبيِّ ﷺ، وإلى تلك الصفة المكتوبة في التوراة؛ وجدوه مخالفاً لها، فيكذِّبون، ويقولون: إنه ليس به. ﴿لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾: لينالوا بما كتبوا عرض الدنيا الزائل وحطامها الفاني. هذا؛ ووصف الله تعالى ما يأخذونه بالقلَّة إما لفنائه، وعدم ثباته، وإما لكونه حراماً؛ لأن الحرام لا بركة فيه، ولا يربو عند الله. قال ابن إسحاق، والكلبي: كانت صفة رسول الله ﷺ في كتابهم: «**حَسَنُ الْوَجْهِ، حَسَنُ الشَّعْر، أَجْعَدُه، أَكْحَلُ العَيْنَيْن، أَبْيَضُ، رَبْعَة**» فغيَّروها، وكتبوا مكانها: طويلاً، أزرق، سَبِط الشَّعر، والذي حملهم على ذلك: أنَّهم خافوا زوال رياستهم، وانقطاع ما يأخذونه من سفلتهم. وقال الزُّهري: عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يا معشر المسلمين! كيف تسألون أهل الكتاب عن شيءٍ، وكتاب الله الذي أنزله الله على نبيه أحدث أخبار الله، تقرؤونه غضاً لم يشب، وقد حدَّثكم الله تعالى: أنَّ أهل الكتاب قد بدَّلوا كتاب الله، وغيَّروه، وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا: هو من عند الله؛ ليشتروا به ثمناً قليلاً، أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم، ولا والله ما رأينا منهم أحداً قطُّ سألكم عن الذي أنزل عليكم؟!.

﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا...﴾ إلخ؛ أي: فويل لهم ممَّا كتبوا بأيديهم من الكذب، والبهتان، والافتراء، وويل لهم ممَّا أكلوا من سفلتهم من السُّحت الحرام. هذا؛ وكرر لفظ: (ويل) تغليظاً لفعلهم، وتشنيعاً لعملهم، وتقبيحاً لسوء صنيعهم. والتكرير واقع في آيات القرآن، منه ما يكون لمزيد المدح، ورفعة الشأن، كما في سورة (الواقعة): ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾. ومنه ما يكون لمزيد التهويل، والتخويف، والزجر والرَّدع، مثل قوله تعالى في سورة (الواقعة): ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾.

هذا؛ واليد تطلق في الأصل على اليد الجارحة، وقد تطلق على النفس، والذات كما في الآية رقم [١٩٤] الآتية، وقد تطلق على القدرة، والقوَّة، وهو كثير مثل قوله تعالى في سورة (صٓ) رقم [١٧]: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ﴾. خذ قول عروة بن حزام العذري، وهو الشاهد رقم [١١٦] من كتابنا: «فتح رب البريَّة»: [الطويل]

وَحُمِّلْتُ زَفراتِ الضُّحَى فَأَطَقْتُهَا وَمَالِي بِزَفْرَاتِ الْعَشِيِّ يَدَانِ

كما تُطلق اليد على النِّعمة، والمعروف، يقال: لفلانٍ يدٌ عندي؛ أي: نعمة، ومعروف، وإحسان. وتطلق على الحيلة، والتدبير، فيقال: لا يد لي في هذا الأمر؛ أي: لا حيلة لي فيه، ولا تدبير.

فائدة: تحريف كلام الله تعالى يكون بتأويله تأويلاً فاسداً، ويكون بتغيير، وتبديل الكلام، وقد وقع من أحبار اليهود التَّحريف بالتَّأويل، وبالتغيير، كما فعلوا بصفة النبيِّ ﷺ، وقد وقع التَّحريف بقسميه في الكتب السَّماوية: التوراة، والإنجيل، والزبور، كما قال تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ الآية رقم [٤٦] من سورة (النساء)، أما التحريف بمعنى التأويل الباطل فقد وقع في القرآن الكريم من المنافقين، والملاحدة، ومن علماء السوء في كلِّ زمان، ومكانٍ، وأمَّا التحريف بمعنى إسقاط الآية، ووضع كلام بدلها فقد حفظ الله كتابه العزيز منه، قال تعالى في سورة (الحِجْر) رقم [٩]: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ انتهى. صفوة التفاسير بتصرف.

الإعراب: (ويل): مبتدأ سوغ الابتداء به؛ وهو نكرة؛ لأنه دعاء عليهم، والدعاء من المسوغات سواء أكان دعاء له، نحو: سلام عليك، أو عليه كهذه الآية. ﴿لِّلَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف في محل رفع خبر المبتدأ. ﴿يَكْتُبُونَ﴾: فعل مضارع، والواو فاعله. ﴿ٱلْكِتَـٰبَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها.

﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، وعلامة الجر كسرة مقدرة على الياء للثقل، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿يَقُولُونَ﴾: مضارع، وفاعله. والجملة الفعلية معطوفة على جملة الصلة لا محل لها مثلها. ﴿هَـٰذَا﴾: الهاء حرف تنبيه لا محل له. (ذا): اسم إشارة مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿مِنْ عِندِ﴾: متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ، و﴿عِندِ﴾: مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾: مضاف إليه، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول.

﴿لِيَشْتَرُوا۟﴾: فعل مضارع منصوب بـ: «أن» مضمرة بعد لام التعليل، وعلامة نصبه حذف النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والألف للتفريق، و«أن» المضمرة والفعل المضارع في تأويل مصدر في محل جر باللام، والجار والمجرور متعلقان بالفعل: ﴿يَقُولُونَ﴾. ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿ثَمَنًا﴾: مفعول به. ﴿قَلِيلًا ۖ﴾: صفة ﴿ثَمَنًا﴾، والجملة الاسمية: (ويل): مستأنفة لا محل لها. (ويل): مبتدأ. ﴿لَّهُم﴾: جار ومجرور متعلقان بـ (ويل). ﴿مِّمَّا﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف في محل رفع خبر المبتدأ، و(ما) تحتمل الموصولة، والموصوفة، والمصدرية، فعلى الأولين مبنية على السكون في محل جر بـ «مِنْ» والجملة الفعلية بعدها صلتها، أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف، التقدير: مِنَ الذي، أو: مِنْ شيءٍ كتبته أيديهم، وعلى اعتبار (ما) مصدرية تؤول مع الفعل بعدها بمصدر في محل جر بالباء، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ، التقدير: فويل لهم مِنْ كتابة أيديهم، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها، ومؤكِّدة لها، وأيضاً جملة ﴿وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ معطوفة عليها، ومؤكِّدة لها، وإعرابها مثل إعراب سابقتها بلا فارق بينهما. تأمل، وتدبر، وربك أعلم.

﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨٠﴾

الشرح: روى البخاريُّ، وغيره عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أنه قال: «لما فُتحت خيبر أهديت لرسول الله ﷺ شاة فيها سمٌّ، فقال رسول الله ﷺ: «**اجمعوا لي من كان من اليهود هنا**»، فقال لهم رسول الله ﷺ: «**من أبوكم؟**» قالوا: فلان، قال: «**كذبتم بل أبوكم فلان**». فقالوا: صدقت وبررت! ثم قال لهم: «**هل أنتم صادقيَّ عن شيءٍ إن سألتكم عنه؟**» قالوا: نعم يا أبا القاسم! وإن كذبناك؛ عرفت كذبنا، كما عرفته في أبينا! فقال لهم: «**من أهل النار؟**» فقالوا: نكون فيها يسيراً، ثمَّ تخلفونا فيها، فقال لهم رسول الله ﷺ: «**اخسؤوا، والله لا نخلفكم فيها أبداً!**» ثم قال لهم: «**هل أنتم صادقيَّ عن شيءٍ إن سألتكم عنه؟**». قالوا: نعم يا أبا القاسم! قال: «**هل جعلتم في هذه الشاة سُمّاً؟**». فقالوا: نعم! قال ﷺ: «**ما حملكم على ذلك؟**» فقالوا: أردنا إن كنت كاذباً؛ أن نستريح منك، وإن كنت نبيّاً؛ لم يضرك».

وقال مجاهد: عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: إنَّ اليهود كانوا يقولون: إنَّ هذه الدنيا سبعة آلاف سنة، وإنَّما نعذب بكل ألف سنة يوماً في النَّار، وإنَّما هي سبعة أيام معدودة، فأنزل الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾، وقال العوفي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: قالوا: ولن تمسنا النار إلا أربعين ليلة، وهي مدَّة عبادتهم العجل.

هذا؛ وقد جاء وصف ﴿أَيَّامًا﴾ في آية الصيام الآتية بلفظ: ﴿مَّعْدُودَٰتٍ﴾، وهذا يدل على أنه يجوز في العربية استعمال اللفظين في وصف أياماً كما ترى. ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ﴾: انظر الآية رقم [٥٤] فالبحث فيها وافٍ كافٍ. ﴿عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا﴾: أي: قل يا محمد لهم على سبيل الإنكار، والتوبيخ، والتقريع: هل أعطاكم الله عهداً بذلك، فالله لا يخلف وعده، ولا ينقض عهده؛ لأنه تعالى لا يخلف الميعاد، ولكن هذا ما جرى، ولا كان من الله تعالى، بل أنتم تقولون على الله ما لا تعلمون من الكذب، والافتراء. وافتراؤهم هذا كان حينما توعَّدهم الرسول ﷺ بالنَّار؛ إن لم يسلموا. هذا؛ وقال الزمخشري ـ رحمه الله تعالى ـ: يجوز في ﴿أَمْ﴾ في هذه الآية أن تكون معادلة، أي: متصلة؛ بمعنى: أي الأمرين كائن على سبيل التقرير لحصول العلم بكون أحدهما. ويجوز أن تكون منقطعة، انظر ما ذكرته في الآية رقم [٦] لشرح المتصلة، والمنقطعة.

الإعراب: (قالوا): فعل، وفاعل، والألف للتفريق، والجملة الفعلية مع مقولها مستأنفة، وهو أولى من العطف على الآية قبلها. ﴿لَن﴾: حرف نفي، ونصب، واستقبال.

﴿تَمَسَّنَا﴾: فعل مضارع منصوب بـ ﴿لَن﴾ و(نا) مفعول به. ﴿ٱلنَّارُ﴾: فاعله، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول. ﴿إِلَّآ﴾: حرف حصر. ﴿أَيَّامًا﴾: ظرف زمان متعلق بالفعل قبله، أو هو منصوب بنزع الخافض. ﴿مَّعْدُودَةً﴾: صفة: ﴿أَيَّامًا﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: «أنت»، ﴿أَتَّخَذْتُمْ﴾: الهمزة: حرف استفهام وتوبيخ. (اتخذتم): فعل وفاعل، ﴿عِندَ﴾: ظرف مكان متعلق بالفعل قبله، ويجوز تعليقه بـ ﴿عَهْدًا﴾؛ لأنه مصدر، كما يجوز اعتباره متعلقاً بمحذوف حال من ﴿عَهْدًا﴾ كان صفة له، فلما قدم عليه صار حالاً على القاعدة: «نعت النكرة إذا تقدم عليها؛ صار حالاً». وجملة: ﴿أَتَّخَذْتُمْ﴾: في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قُلْ﴾: مستأنفة لا محل لها؛ لأنها بمنزلة جواب لسؤال مقدر، كما رأيت فيها، وفي أمثالها.

﴿فَلَن﴾: الفاء: اعتبرها الزمخشري، وتبعه البيضاوي، والنسفي: أنها واقعة في جواب شرط محذوف، تقديره: إن اتخذتم عند الله عهداً؛ فلن... إلخ. (لن): حرف ناصب. ﴿يُخْلِفَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ (لن)، ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله، ﴿عَهْدَهُۥٓ﴾: مفعول به، والهاء: في محل جر بالإضافة مِنْ إضافة المصدر لمفعوله، وفاعله محذوف، والجملة الفعلية في محل جزم جواب الشرط المقدر، كما رأيت على قول الزمخشري، ومن تبعه، والشرط المقدر، ومدخوله في محل نصب مقول القول، وقال ابن عطية: هي معترضة بين المتعاطفين لا محل لها من الإعراب. ﴿أَمْ﴾: حرف عطف، وهي تحتمل أن تكون متصلة، وهي التي يطلب بها وبالهمزة التَّعيين، ويحتمل أن تكون منقطعة، وهي التي بمعنى «بل». ﴿تَقُولُونَ﴾: فعل مضارع، وفاعله. ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: متعلقان به، والجملة الفعلية معطوفة على جملة: ﴿أَتَّخَذْتُمْ﴾ فهي في محل نصب مفعول به لـ ﴿تَقُولُونَ﴾، وساغ ذلك لأنها مبهمة، وهي كناية عن كلام كثير، والجملة الفعلية بعدها صلتها، أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف، التقدير: الذي، أو شيئاً لا تعلمونه.

فائدة: قال القرطبي: رحمه الله تعالى ـ: في هذه الآية ردٌّ على أبي حنيفة وأصحابه، حيث استدلوا بقوله ﷺ: «**دَعِي الصَّلَاةَ أَيَّامَ أَقْرَائِكِ**» في أنَّ مدَّة الحيض ما يُسمَّى أيام الحيض، وأقلها ثلاثة أيام، وأكثرها عشرة، قالوا: لأنَّ ما دون الثلاثة يُسمَّى يوماً ويومين، وما زاد على العشرة يقال فيه: أحد عشر يوماً، ولا يقال فيه: أيام، وإنَّما يقال: أيام: من الثلاثة إلى العشرة، قال الله تعالى: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ﴾، ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾، ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ﴾.

فيقال لهم: فقد قال الله تعالى في الصَّوم: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ يعني: جميع الشهر، وقال تعالى: ﴿قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ يعني: أربعين يوماً، وأيضاً: إذا أضيفت الأيام إلى عارضٍ لم يُرَدْ به تحديد العدد، بل يقال: أيامُ مشيكَ، وسفركَ، وإقامتكَ، وإن كان ثلاثين، وعشرين، وما شئت من العدد، ولعلَّه أراد ما كان معتاداً لها، والعادة ستٌّ، أو سبعٌ، فخرَّج الكلام عليه، والله أعلم. انتهى. قرطبي.

﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾﴾

الشرح: ﴿بَلَىٰ﴾: ردٌّ لما ادَّعاه اليهود في الآية السابقة؛ أي: ليس الأمر كما زعمتم، وذكرتم، بل تمسكم النار زماناً مديداً، ودهراً طويلاً، و﴿بَلَىٰ﴾: حرف جواب كنعم، وجير، وأجل، وإي، إلا أنَّ ﴿بَلَىٰ﴾ جواب لنفي، متقدِّم؛ أي: وإبطال، ونقض، وإيجاب له، سواء دخله الاستفهام أم لا؛ فتكون إيجاباً له، نحو قول القائل: ما قام زيد، فتقول: بلى، أي: قد قام، وقوله: أليس زيدٌ قائماً، فتقول: بلى، أي: هو قائم، قال الله تعالى في سورة (الأعراف) رقم [١٧٢]: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لو قالوا: نعم؛ كفروا.

﴿كَسَبَ سَيِّئَةً﴾: عمل سيئة، والكسب: استجلاب النفع، وتعليقه بالسَّيئة تهكماً على طريقة: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. هذا؛ والسيئة المراد بها هنا: الشِّرك، وهي أيضاً المعصية، ومخالفة أوامر الله تعالى، وهي كبائر، وصغائر، وأصلها: «سَيْوِئة» فقل في إعلالها اجتمعت الواو والياء، وسبقت إحداهما بالسكون، فقلبتَ الواو ياءً، وأدغمت الياء في الياء. ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾: استولت عليه، وأحدقت به من كلِّ جانب بأن مات مشركاً، وكذلك مَنْ يفعل الكبائر من الذنوب، ولم يتب قبل موته.

وخذ ما يلي: فعن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إياكم ومحقرات الذنوب، فإنهنَّ يجتمعن على الرَّجل حتى يهلكنه**»، وإنَّ رسول الله ﷺ ضرب لهنَّ مثلاً كمثل قوم نزلوا بأرض فلاةٍ، فحضر صنيعُ القوم، فجعل الرَّجل ينطلق، فيجيء بالعود والرَّجل يجيء بالعود، حتَّى جمعوا سواداً، وأجَّجوا ناراً، فأنضجوا ما قذفوا فيها، رواه الإمام أحمد. هذا؛ وقرأ نافع: (خطيئاته) بالجمع، انظر إعلالها في الآية رقم [٥٨] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾: انظر الآية رقم [٣٩] ففيها الكفاية.

الإعراب: ﴿بَلَىٰ﴾: حرف جواب لا محل له من الإعراب. ﴿مَن﴾: اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿كَسَبَ﴾: فعل ماض مبني على الفتح في محل جزم فعل الشرط، والفاعل يعود إلى (مَنْ) تقديره: هو. ﴿سَيِّئَةً﴾: مفعول به. ﴿وَأَحَاطَتْ﴾: الواو: حرف عطف. (أحاطت): فعل ماض، والتاء للتأنيث. ﴿بِهِۦ﴾ جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، ﴿خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾: فاعل، والهاء في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط، (أولئك): اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ، والكاف حرف خطاب لا محل له. ﴿أَصْحَٰبُ﴾: خبر المبتدأ، و﴿أَصْحَٰبُ﴾: مضاف، و﴿ٱلنَّارِ﴾: مضاف إليه، والجملة الاسمية: (أولئك) في محل جزم جواب الشرط.

وخبر المبتدأ الذي هو ﴿مَن﴾ مختلف فيه، فقيل: جملة الشرط، وقيل: جملة الجواب، وقيل الجملتان. وهو المرجح عند المعاصرين. هذا؛ وإن اعتبرت ﴿مَن﴾ اسماً موصولاً فهو مبتدأ، وجملة ﴿كَسَبَ﴾ صلته، والجملة الاسمية: (أولئك) في محل رفع خبره، ودخلت الفاء على خبره؛ لأن الموصول يشبه الشرط في العموم، والجملة الاسمية: ﴿بَلَىٰ مَن﴾: مبتدأة أو مستأنفة لا محل لها من الإعراب. هذا؛ ويرجح اعتبار ﴿مَن﴾ اسماً موصولاً عطف الآية التالية على هذه الآية.

﴿هُمْ﴾: ضمير منفصل مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور متعلقان بما بعدهما. ﴿خَٰلِدُونَ﴾: خبر المبتدأ مرفوع، وعلامة رفعه الواو... والجملة الاسمية في محل نصب حال من: ﴿أَصْحَٰبُ﴾ أو من: ﴿ٱلنَّارِ﴾ والرابط الضمير على الاعتبارين، والعامل في الحال اسم الإشارة لما فيه من معنى الفعل، وإن اعتبرت الجملة الاسمية مستأنفة؛ فلست مفنداً، والوقف على ﴿ٱلنَّارِ﴾ تامٌّ، وجيِّد.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾

الشرح: من رحمة الله بعباده، ومن كرمه، وجوده، وإحسانه: أنَّه لم يذكر عباده المؤمنين في الكتاب؛ إلا ويذكر الكافرين، والفاسدين، ولم يذكر الحسنات، والأعمال الصَّالحات؛ إلا ويذكر السيئات، والخطيئات، ولم يذكر الجنَّة، ونعيمها؛ إلا ويذكر النار، وجحيمها، وذلك من باب المقابلة، والمقارنة، وفيه ما فيه من التذكير، والتنبيه، والاتعاظ، وما يتذكر إلا أولو الألباب. هذا؛ وجعل أصحاب الجنة بمعنى مالكيها بملازمتهم لها، وعدم انفكاكهم عنها، وقل مثله في أصحاب النار، انظر الآية رقم [٣٩] وانظر الإعراب فيها أيضاً، فإنه مثله بلا فارق، فلا أعيده هنا رغبةً في الاختصار، والاقتصار، والله الموفق، والمعين، وبه أستعين.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾

الشرح: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: اختلف في الميثاق هنا، فقال مكي: هو الميثاق؛ الذي أخذ عليهم حين أخرجوا من صلب آدم كالذرِّ، ويعني به ما ذكر في قوله الله تعالى في سورة (الأعراف) رقم [١٧٢]: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ...﴾ إلخ. وقيل: هو ميثاق

أخذه عليهم، وهم عقلاء في حياتهم على ألسنة أنبيائهم، وهو قوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾. وعبادة الله: إثبات توحيده، وتصديق رسله، والعمل بما أنزل في كتبه. وانظر ما ذكرته في سورة الفاتحة: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾: يراد في هذا اللفظ: الأب، والأم، ففيه تغليب الأب على الأم، وأيضاً في لفظ «الأبوين»، وفيه إشعار بتفضيل الأب على الأم، والذَّكر على الأنثى. والإحسان إلى الأبوين يكون بالقول، والفعل، والإنفاق عليهما عند عجزهما، واحتياجهما. وانظر ما ذكرته في سورة (الإسراء) رقم [٢٣] في هذا الصدد، وانظر سورة (النساء) رقم [٣٦]. ﴿وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي: القرابات من جهة الأب، ومن جهة الأم، وهم الأرحام. وانظر ما ذكرته في سورة (الرعد) رقم [٢٣] في حقِّهم. ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾: جمع: يتيم، وهو مَنْ فقد أباه، أو أمه، أو فقدهما معاً، وقد يغلب أن يكون المراد من فقد معيله، وهو الأب من بني آدم، والأم من الحيوانات، والطيور، وهناك يتيم العقل، والأدب، والتربية، والخلق، والدين، وهو أسوأ حالاً من الأول، وإن كان قد بلغ من العمر الخمسين، والسِّتين، ويملك من المال الملايين، ولله درُّ القائل: [البسيط]

لَيْسَ الْيَتِيمُ الَّذِي قَدْ مَاتَ وَالِدُهُ ... إِنَّ الْيَتِيمَ يَتِيمُ الْعَقْلِ وَالأَدَبِ

وخُذْ قول الآخر: [الكامل]

لَيْسَ الْيَتِيمُ مَنِ انْتَهَى أَبواهُ مِنْ ... هَمِّ الْحَيَاةِ وَخَلَّفَاهُ ذَلِيلا

إِنَّ الْيَتِيمَ هُوَ الَّذِي تَلْقَى لَهُ ... أُمّاً تَخَلَّتْ أَوْ أَباً مَشْغُولا

وقد ذكرت الإحسان إلى اليتيم والعطف عليه، وثواب رعايته، وجزاء كفالته في مناسباتٍ كثيرة، وآياتٍ عديدة. ﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾: انظر الآية رقم [١٧٦] الآتية.

﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ أي: قولوا لهم قولاً ذا حُسْنٍ، وقرئ: (حَسَناً) بفتحتين، و(حُسُناً) بضمتين، فالأولى قراءة حمزة، والكسائي، والثانية قراءة عيسى بن عمرو، وهي غير سبعية، والمعنى: قولوا لهم الطَّيِّب من القول، وجازوهم بأحسن ما يحبُّون أن يجازوا به، وهذا كلُّه حضٌّ على مكارم الأخلاق، فينبغي للإنسان أن يكون قوله ليناً، ووجهه منبسطاً طلقاً مع البَرِّ، والفاجر، والسُّنِّيِّ، والمبتدع من غير مداهنةٍ؛ لأن الله تعالى قال لموسى، وهارون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ الآية رقم [٤٤] من سورة (طه). والمأمور بذلك اليهود، والنصارى، والمسلم أولى بذلك. ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ انظر الآية رقم [٤٣]، ﴿وَءَاتُواْ﴾: أصله: «آتِيُوا» فاستثقلت الضمة على الياء، فحذفت، فصار: «آتِيْوا» بعد حذف الياء، ثم قلبت الكسرة ضمة لمناسبة الواو فصار: (آتُوا). ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾: انظر الآية رقم [٦٤]، والخطاب لليهود معاصري محمد ﷺ وأسند إليهم تولِّي أسلافهم؛ إذ هم كلُّهم بتلك السبيل في إعراضهم عن الحقِّ مثلهم، كما قيل: «شِنْشِنَةٌ أَعْرِفُهَا مِنْ أَخْزَمِ». ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ﴾ أي: مِنْ آبائكم

في عهد موسى، وهارون، على نَبيِّنا، وعليهما ألف صلاة، وألف سلام، وفي عهد محمد ﷺ أسلم عبد الله بن سلام، وأصحابه. ﴿وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ أي: عن الإيمان وعن الوفاء بالعهد، كما أعرض آباؤكم.

هذا؛ والملاحظ: أنَّ الله تعالى أمر بني إسرائيل بهذه التَّكاليف الثمانية؛ لتكون لهم المنزلة الرَّفيعة عنده بما التزموا به، فأخبر الله عنهم: أنَّهم ما وفوا بذلك بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾

تنبيه: أمر الله تعالى في هذه الآية بني إسرائيل، وكلَّ إنسان بالإحسان إلى الوالدين، والبر بهما، والرَّحمة لهما، فيما لا يخالف أوامر الله تعالى، ويوصل إليهما ما يحتاجان إليه من المساعدة، والإنفاق عليهما بقدر الحاجة، ولا يؤذيهما ألبتة، وإن كانا كافرين، بل يجب عليه الإحسان إليهما، ومن الإحسان إليهما: أن يدعوهما إلى الإيمان بالرِّفق، واللين، وكذا إن كانا فاسقين؛ بأمرهما بالمعروف بالرِّفق، واللِّين من غير عنفٍ، وإنَّما عطف برَّ الوالدين على الأمر بعبادته؛ لأن شكر المنعم واجب، ولله على عبده أعظم النِّعم؛ لأنه هو الذي خلقه، وأوجده بعد العدم، فيجب تقديم شكره على شكر غيره ثم إنَّ للوالدين على الولد نعمة عظيمة؛ لأنَّهما السبب في كون الولد، ووجوده، ثمَّ إن لهما عليه حقَّ التربية أيضاً، فيجب شكرهما ثانياً. خازن. ولا تنس قوله تعالى في سورة لقمان: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾.

الإعراب: (إذ): ظرف لما مضى من الزمان مبني على السُّكون في محل نصبٍ، متعلق بمحذوف، تقديره: اذكر، فيكون خطاباً للنبي ﷺ أو تقديره: اذكروا: فيكون خطاباً لليهود المعاصرين له عليه الصَّلاة والسلام. ﴿أَخَذْنَا﴾: فعل، وفاعل. ﴿مِيثَٰقَ﴾: مفعول به، وهو مضاف. ﴿بَنِيٓ﴾: مضاف إليه مجرور، وعلامة جره الياء نيابة عن الكسرة؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم، وحذفت النُّون للإضافة، و﴿بَنِيٓ﴾ مضاف، و﴿إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ مضاف إليه مجرور، وعلامة جره الفتحة نيابة عن الكسرة؛ لأنه ممنوع من الصَّرف للعلمية، والعجمة، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة (إذ) إليها.

﴿لَا﴾: نافية. ﴿تَعْبُدُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله. ﴿إِلَّا﴾: حرف حصر، لا محل لها. ﴿ٱللَّهَ﴾: منصوب على التعظيم، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول لقول محذوف، التقدير: وقلنا لهم: لا تعبدون. وهذا النفي بمعنى النَّهي، وهو أبلغ من النهي الصَّريح، ويعضده: أنه قرئ بحذف النون على النَّهي الصريح، والقول ومقوله معطوف على جملة: ﴿أَخَذْنَا﴾ فهو في محل جرٍّ مثلها، وجوز أن يكون في محل نصب حال من (نا) وهو على تقدير «قد» أيضاً، وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب، وقرئ: (لا يعبدون) بالياء، وعليه فلا التفات. هذا وقد ذكر أبو البقاء: أنَّ في الجملة أربعة أوجه: أحدها: أنها جواب قسم دل عليه المعنى، وهو قوله: ﴿أَخَذْنَا مِيثَٰقَ﴾ لأنَّ معناه: استحلفناهم: والله لا تعبدون. والثاني: أنَّ «أَنْ» الناصبة مرادة، والتقدير: أخذنا ميثاق بني إسرائيل على ألا تعبدوا إلا الله، فحذف حرف الجرِّ،

ثمَّ حذف «أنْ» فارتفع الفعل، والثالث: أنَّ الجملة الفعلية في محل نصب حال، التقدير: أخذنا ميثاقهم موحِّدين، وهي حال مصاحبة، ومقدرة؛ لأنهم كانوا وقت أخذ العهد موحِّدين، والتزموا الدوام على التَّوحيد، والوجه الرابع: أن يكون لفظه لفظ الخبر، ومعناه النهي، التقدير: قلنا لهم: لا تعبدوا. هذا؛ وذكر الجمل: أنَّه يحتمل أن تكون الجملة مفسرة لأخذ الميثاق، ثمَّ قال: ولا محل لها حينئذٍ من الإعراب. انتهى بتصرُّف، وهو منقول من السمين.

﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ﴾: الواو: حرف عطف. ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ﴾: متعلِّقان بفعل محذوف، تقديره: أحسنوا بالوالدين، والجملة هذه معطوفة على جملة: ﴿لَا تَعْبُدُونَ﴾ على جميع الوجوه المعتبرة فيها، ولا سيما على الوجه الأول، والاستئناف ضعيف. ﴿إِحْسَانًا﴾: مفعول مطلق مؤكد للفعل المقدَّر. وقيل: هو مفعول به على تقدير المحذوف: استوصوا. وقيل: هو مفعول لأجله، والأول أقوى، وآكد. ﴿وَذِى﴾: معطوف على الوالدين مجرور مثله، وعلامة جره الياء نيابة عن الكسرة؛ لأنه من الأسماء الخمسة، و(ذي) مضاف، و﴿ٱلْقُرْبَىٰ﴾ مضاف إليه مجرور، وعلامة جره كسرة مقدرة على الألف للتعذُّر. ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾: معطوفان على ما قبلهما.

(قولوا): فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿لِلنَّاسِ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿حُسْنًا﴾: صفة مصدر محذوف واقع مفعولاً مطلقاً؛ إذ التقدير: قولوا قولاً ذا حسنٍ، فحذف المضاف، وحلَّ المضاف إليه محلَّه، أو التقدير: قولوا قولاً حسناً، وجملة ﴿وَقُولُوا۟﴾: معطوفة على جملة: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾، وأيضاً جملتا: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: معطوفتان عليها. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾: فعل، وفاعل، والجملة الفعلية معطوفة على جملة محذوفة؛ إذ التقدير: فقبلتم، ثم توليتم، والجملتان المقدَّرة والمذكورة معطوفتان على جملة: ﴿أَخَذْنَا مِيثَٰقَ...﴾؛ فهما في محل جرٍّ مثلها. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿قَلِيلًا﴾ مستثنى من تاء الفاعل، وقال أبو البقاء: قرئ بالرفع شاذّاً، ووجهه أن يكون فاعلاً بفعل محذوف، التقدير: امتنع قليلٌ، ويجوز أن يكون مبتدأ، والخبر محذوف، التقدير: إلا قليل منكم لم يتولَّ، وعليه فالجملة على الاعتبارين في محل نصب حال من تاء الفاعل، ويجوز أن يكون توكيداً للضمير المرفوع المستثنى منه. انتهى بتصرف كبير. ﴿مِّنكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ: ﴿قَلِيلًا﴾ أو بمحذوف صفة له. (أنتم معرضون): مبتدأ، وخبر، والجملة الاسمية في محل نصب حال من تاء الفاعل، والرابط: الواو، والضمير، وهي حال مؤكِّدة لمعنى التولِّي.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾﴾

الشرح: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ﴾: هو مثل سابقه. ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ﴾: تُريقونها بقتل بعضكم بعضاً؛ لأن من أراق دم غيره؛ فكأنما أراق دم نفسه، فهو من باب المجاز بأدنى

ملابسة. وقيل: لما كانت ملَّتهم واحدة، وأمرُهم واحد، وكانوا في الأمم كالشَّخص الواحد؛ جعل قتل بعضهم بعضاً، وإخراج بعضهم بعضاً قتلاً لأنفسهم، ونفياً لهم، وقد قال نبيُّنا المعظم ﷺ في حجَّة الوداع: «**إنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ**». وهو يريد دماء وأموال المؤمنين؛ لأن المؤمنين إخوة، وقال ﷺ: «**مَثَلُ المُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مثلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ؛ تداعى لهُ سائرُ الجسد بالسَّهر والحُمَّى**». وفي رواية: «**إن اشتكى عَيْنُه؛ اشْتَكَى كُلُّهُ، وإِنْ اشْتَكَى رَأْسُه؛ اشْتَكَى كُلُّهُ**». هذا؛ والسَّفك: الصَّبُّ، والإراقة، ولا يستعمل إلا في الدَّم، قال في المصباح: وسفكَ الدَّمَ: أراقه، وبابه ضرب، وانظر شرح الدم في الآية رقم [٣٠]. ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾ أي: بالميثاق، واعترفتم بلزومه. ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾: على أنفسكم بذلك. هذا؛ والخطاب للأبناء بما فعل آباؤهم، والغرض من ذلك توجيه التوبيخ والتقريع إليهم لما بينهم وبين أصولهم من الخبث، والمكر، والخداع، ومخالفة أوامر الله، ومخالفة رسله، ومعناه: أنتم تشهدون على أسلافكم بما قبلوا، وأقرُّوا به.

هذا؛ و﴿دِيَـٰرِكُمْ﴾ جمع: دار، وهي مؤنثة وقد تذكر، وهي منزل الإنسان ومسكنه، أصلها: «دور» بفتحتين، قلبت الواو ألفاً لتحركها، وانفتاح ما قبلها، وجمعها: ديار، دور، وأدؤر، وأدور، ،أدورة، وأدوار، ودورات، وديارات، ودوران، وديران، وأصل: ديار: دوار، وأدور، قلبت الواو ياء؛ لأنها وقعت عيناً في جمع على وزن فعال لمفرد اعتلَّت عينه بالقلب. هذا؛ والدار أيضاً: البلد، والقبيلة، ودار القرار: الآخرة، والداران: الدنيا، والآخرة، ودار الحرب: بلاد العدو. هذا؛ وقال أبو حاتم: إنَّ الديار العساكر، والخيام، لا البنيان، والعمران، وإن الدَّار البنيان، والعمران، وعليه قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ أي: في عساكرهم، وخيامهم ميتين، وقال جلَّ شأنه: ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ أي: في مدينتهم المعمورة، ولو أراد غير ما قيل؛ لجمع الدار، فعلم من كلامه: أنَّ الديار مخصوصة بالخيام. انتهى. قال صاحب الخزانة: وهذه غفلة عن قول الشَّاعر، وهو مجنون ليلى: «أقبِّل ذا الجدار» وهو حائط البيت، وذلك في قوله، وهو الشاهد رقم [٩٠٣] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»: [الوافر]

أَمُرُّ عَلَى الدِّيَارِ دِيارِ لَيْلَى ... أُقَبِّلُ ذَا الجِدارَ، وَذَا الجِدارا

وَمَا حُبُّ الدِّيارِ شَغَفْنَ قَلْبِي ... وَلَكِنْ حُبُّ مَنْ سَكَنَ الدِّيَارَا

الإعراب: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ﴾: هذا الكلام معطوف على مثله في الآية السابقة، وهو مثله في إعرابه. ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ﴾: إعرابها ومحلها مثل: ﴿لَا تَعْبُدُونَ...﴾ في الآية السابقة. ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ﴾: معطوفة على ما قبلها، وهي مثلها في إعرابها، ومحلِّها. ﴿أَقْرَرْتُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية قيل: معطوفة على جملة محذوفة: التقدير: قبلتم، ثمَّ أقررتم. وقيل: هي معطوفة على جملة: ﴿أَخَذْنَا﴾ فتكون في محل جرٍّ مثلها. ﴿وَأَنتُمْ﴾: الواو: واو

الحال. (أنتم): ضمير منفصل مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿تَشْهَدُونَ﴾: فعل مضارع، وفاعله، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل نصب حال من تاء الفاعل، والرابط: الواو والضمير، وقيل: معطوفة على جملة: ﴿أَقْرَرْتُمْ﴾ ومؤكِّدة لها.

﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥)﴾

الشرح: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾: هذا خطابٌ لليهود المعاصرين للنبي ﷺ. وقتل أنفسهم مثل سفك دمائهم في الآية السابقة بلا فارقٍ. ﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ﴾ أي: يُخرج بعضكم بعضاً من ديارهم. ﴿تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾: أي: تتعاونون عليهم بالمعصية، والظلم، والعدوان. وقرئ: (تظَّاهارون) بتشديد الظاء، وتخفيفها، وأصلها: تتظاهارون، فمن قرأ بتشديد الظاء؛ فقد أدغم التاء الثانية في الظَّاء، ومن قرأ بتخفيف الظاء، فهو على حذف إحدى التاءين، وهذا الحذف كثيرٌ في القرآن الكريم، وفي اللُّغة العربية. هذا؛ والعدوان: تجاوز لحدود الله، والطُّغيان. والإثم: الذنب الذي يستحقُّ عليه صاحبه الذَّمَّ. هذا؛ والإثم: اسم من أسماء الخمرة، قال الشاعر: [الوافر]

شَرِبْتُ الإِثْمَ حَتَّى ضَلَّ عَقْلِي ... كَذَاكَ الإِثْمُ يَذْهَبُ بِالْعُقُولِ

﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ﴾ أي: تنقذوهم، وتفكُّوهم من الأسر بالمال وغيره. ويقرأ ﴿أُسَارَىٰ﴾ و﴿أَسْرَىٰ﴾ مثل: سُكارى، وسَكْرى، ومثل هذه الآية رقم [٦٧] من سورة (الأنفال) وسمِّي الأسير أسيراً لشدِّه بالإسار، وهو القدُّ، أي: الحبل الذي يشدُّ به وثاقه، فسمِّي كلُّ أخيذٍ أسيراً، وإن لم يشدَّ به. هذا؛ والأسر: الخَلْق، قال تعالى في سورة الدَّهر: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾، وأُسرة الرجل: رهطُه؛ لأنه يتقوَّى بهم.

﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾: الحرام في الأصل: كلُّ ممنوع، قال تعالى: ﴿وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾ فالحُرمات: كل ممنوع منك ممَّا بينك وبين غيرك، وقولهم: لفلان بي حرمة، أي: أنا ممتنعٌ من مكروهه. وحرمة الرَّجل. محظورة به عن غيره، وقوله تعالى: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ فالمحروم هو الممنوع من المال، والتلذُّذ به. والإحرام بالحجِّ هو المنع من أمورٍ معروفة.

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ﴾ أي: بعض التَّوراة، وهو أخذ الفداء. ﴿وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ أي: ببعض التوراة، وفيها تحريم القتل، والمظاهرة، والإخراج من الديار بالظُّلم. ﴿فَمَا

جَزَآءُ...﴾ إلخ: فما عقوبة؟. ﴿خِزۡيٞ﴾: ذلٌّ، وهوانٌ، وقد خزوا في الدنيا بقتل بني قُريظة، ونفي بني النَّضير إلى الشام، وضرب الجزية عليهم. والإخزاء: هو الإذلال، قال ذو الإصبع العدواني شاعرٌ جاهليٌّ: [البسيط]

لَاهِ ابنُ عَمِّكَ لَا أَفْضَلْتَ فِي حَسَبٍ … عَنِّي وَلا أَنْتَ دَيَّانِي فَتَخْزُونِي

وهذا هو الشاهد رقم [٢٦٠] من كتابنا: «فتح القريب المجيب». ومنه قول حسان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ يخاطب به مَنْ شجَّ وجه النبي ﷺ في غزوة أُحد: [الطويل]

فَأَخْزَاكَ رَبِّي يَا عُتَيب بْنَ مَالِكٍ … وَلَقَّاكَ قَبْلَ الْمَوْتِ إِحدَى الصَّوَاعِقِ

مَدَدْتَ يَمِيناً لِلنَّبِيِّ تَعَمُّداً … وَدَمَّيْتَ فَاهُ قُطِّعَتْ بِالْبَوَارِقِ

وهو على هذا من الرُّباعي من: أخزى، يخزى، وهو من الثلاثي: خزى، يخزي بمعنى استحيا، وخجل، قال نهشل بن حري الدَّارمي من قصيدة يرثي بها أخاه مالكاً، وكان قد قتل بصفِّين مع الإمام عليٍّ كرَّم الله وجهه: [الطويل]

أَخٌ مَاجِدٌ لَمْ يَخْزِنِي يَوْمَ مَشْهَدٍ … كَمَا سَيْفُ عَمْرٍو لَمْ تَخُنْهُ مضَارِبُهْ

وهذا هو الشاهد رقم [٣٢٤] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»، وقال ذو الرُّمة: [البسيط]

خِزَايَةً أدْرَكَتْهُ بَعْدَ جَوْلَتِهِ … مِنْ جَانِب الْحَبْلِ مخْلُوطاً بِهَا الْغَضَبُ

﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أي: يوم يقوم الناس من قبورهم للحساب، والجزاء. ﴿يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ﴾ أي: في جهنَّم يصلونها، وبئس المصير.

تنبيه: قال السُّدي ـ رحمه الله تعالى ـ: إنَّ الله تعالى أخذ على بني إسرائيل في التوراة ألا يقتل بعضُهم بعضاً، ولا يُخرج بعضُهم بعضاً مِنْ ديارهم، وأيُّما عبدٍ، أو أمةٍ وجدتموه من بني إسرائيل، فاشتروه، وأعتقوه، وكانت قريظة حلفاء الأوس، وبنو النَّضير حلفاء الخزرج حين كان بينهما ما كان من العداوة والشَّنآن، فكان كلُّ فريق يقاتل مع حلفائه، فإذا غلبوا؛ خرَّبوا ديارهم، وأخرجوهم منها، ثم إذا أُسِر رجلٌ من الفريقين؛ جمعوا له مالاً، فيفدونه، فعيَّرتهم العرب، وقالت لهم: كيف تقاتلونهم، ثم تفدونهم؟! فيقولون أمرنا أن نفديهم، وحرم علينا قتالهم، ولكنَّا نستحيي أن تذل حلفاؤنا، فذمَّهم الله على هذه المناقضة، انتهى. جمل بحروفه.

قال القرطبي: قال علماؤنا: كان الله تعالى قد أخذ عليهم أربعة عهود: ترك القتل، وترك الإخراج، وترك المظاهرة، وفداء أساراهم، فأعرضوا عن كل ما أمروا به إلا الفداء، فوبخهم الله على ذلك توبيخاً يُتلى، فقال: ﴿أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ﴾. قلتُ: ولعمر الله لقد أعرضنا نحن عن الجميع بالفتن، فتظاهر بعضنا على بعض، ليت بالمسلمين، بل بالكافرين، حتى تركنا إخواننا أذلاء صاغرين يجري عليهم حكم المشركين، فلا حول، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!! انتهى.

أقول: يظهر: أنه يقصد ما حصل في الأندلس من فتن، ومحاربة بعض المسلمين بعضاً، واستعانة البعض على البعض الآخرين بالإسبان الإفرنج، وهذا يحصل من المسلمين في كلِّ زمانٍ، ومكانٍ، فقد ذُكر: أن قيصر عرض على معاوية مساعدته على عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ، وقال: والله لو قُطِّعت إرْباً إرْباً لا أستعين بكافرٍ على مسلمٍ.

الإعراب: ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿أَنتُمْ﴾: ضمير منفصل مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾: اسم إشارة مبني على الكسرة في محل نصب مفعول به لفعل محذوف، تقديره: أعني. أو هو مبني على الضم المقدَّر على آخره في محل نصب بيا النداء المحذوفة، وعليه فجملة: ﴿تَقْتُلُونَ...﴾ في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة سواء أكانت فعلية، أم ندائية معترضة بين المبتدأ والخبر، لا محل لها من الإعراب، إلا أنَّ هذا لا يجيزه سيبويه؛ لأن (أولاء) مبهم، ولا يحذف حرف النداء مع المبهم. هذا؛ ويعتبر الكوفيون ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ اسم موصول هو الخبر، وجملة: ﴿تَقْتُلُونَ﴾ صلته، ولم يجزه البصريون؛ لأن ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ اسم إشارة، ولا يكون بمعنى «الذين». وهناك وجه ثالث، وهو أنَّ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ خبر المبتدأ على تقدير مضاف محذوف، التقدير: ثمَّ أنتم مثل هؤلاء، كقولك: أبو يوسف أبو حنيفة، فعلى هذا جملة: ﴿تَقْتُلُونَ﴾ في محل نصب حال من ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾، والعامل في الحال معنى التشبيه. انتهى عكبري بتصرف، هذا؛ وأرى صحة وجه آخر، وهو أن يكون ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ مبتدأ ثانياً، وجملة: ﴿تَقْتُلُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية في محل رفع خبر ﴿أَنتُمْ﴾. هذا؛ ومثل الآية الكريمة قول ذي الرُّمَّة، وهو الشاهد [٤٣٠] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»: [الطويل]

إِذَا هَمَلَتْ عَيْنِي لَهَا قَالَ صَاحِبِي ... بِمِثْلِكَ ـ هذا ـ لَوْعَةٌ وَغَرَامُ

حيث قال الكوفيون: إن التقدير: يا هذا، ومثله الشاهد رقم [١٠٩٥]. وجملة: ﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا﴾: معطوفة على سابقتها على جميع الوجوه المعتبرة فيها، ﴿مِّنكُم﴾: متعلقان بـ ﴿فَرِيقًا﴾ أو بمحذوف صفة له. ﴿مِّن دِيَٰرِهِمْ﴾ متعلقان بالفعل (تخرجون)، وجملة: ﴿تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم﴾ في محل نصب حال من واو الجماعة، أو مِنْ ﴿فَرِيقًا﴾ بعد وصفه بالجار والمجرور. ﴿بِٱلْإِثْمِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، أو هما متعلقان بمحذوف حال من واو الجماعة، فهي حال متداخلة. ﴿وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾: معطوف على ما قبله. ﴿وَإِن﴾: الواو: واو الاعتراض. (إن): حرف شرط جازم. ﴿يَأْتُوكُمْ﴾: فعل مضارع فعل الشرط مجزوم، وعلامة جزمه حذف النون، والواو فاعله، والكاف مفعوله، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها ابتدائية، ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفي. ﴿أُسَٰرَىٰ﴾: حال من واو الجماعة منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على الألف للتعذر. ﴿تُفَٰدُوهُمْ﴾: فعل مضارع جواب الشرط مجزوم. . . والواو فاعله، والهاء مفعوله، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها جملة جواب الشرط، ولم تقترن بالفاء، ولا بـ «إذا» الفجائية، والجملة الشرطية معترضة بين جملة: ﴿تَظَٰهَرُونَ﴾ وجملة: ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ﴾ الواقعتين في محل نصب حال.

(هو): ضمير منفصل مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ. ﴿مُحَرَّمٌ﴾: خبره. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: متعلقان بـ ﴿مُحَرَّمٌ﴾؛ لأنه اسم مفعول. ﴿إِخْرَاجُهُمْ﴾: نائب فاعل بـ ﴿مُحَرَّمٌ﴾ سدَّ مسدَّ خبره، ويكون قد قام مقام الجملة، وهو في محل رفع خبر المبتدأ: (هو).

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ﴾: الهمزة: حرف استفهام توبيخي تقريعي. الفاء: حرف استئناف، أو حرف عطف. (تؤمنون): فعل مضارع، والواو فاعله. ﴿بِبَعْضِ﴾: متعلقان بما قبلهما، و(بعض) مضاف، و﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ مضاف إليه، والجملة الفعلية معطوفة على جملة محذوفة، التقدير: أتفعلون ذلك، فتؤمنون؟! وهذا الكلام مستأنف لا محل له، وجملة: ﴿وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾: معطوفة على ما قبلها لا محل لها مثلها. ﴿فَمَا﴾: الفاء: حرف استئناف. (ما): نافية. ﴿جَزَآءُ﴾: مبتدأ، وهو مضاف، و﴿مَن﴾ اسم موصول مبني على السكون في محل جر بالإضافة، وجملة: ﴿يَفْعَلُ ذَٰلِكَ﴾: صلة الموصول لا محل لها. ﴿مِنكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال من فاعل ﴿يَفْعَلُ﴾ المستتر.

﴿إِلَّا﴾: أداة حصر. ﴿خِزْيٌ﴾: خبر المبتدأ. ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ﴾: متعلقان بـ ﴿خِزْيٌ﴾ أو بمحذوف صفة له. ﴿ٱلدُّنْيَا﴾: صفة. ﴿ٱلْحَيَوٰةِ﴾: مجرور، وعلامة جره كسرة مقدرة على الألف للتعذر. هذا؛ وقد قال أبو البقاء: يجوز اعتبار: (ما) استفهاماً مبتدأ، و﴿جَزَآءُ﴾ خبره، و﴿إِلَّا خِزْيٌ﴾ بدلاً من: ﴿جَزَآءُ﴾ ولا أراه قوياً. والجملة الاسمية ﴿فَمَا جَزَآءُ﴾: مستأنفة لا محل لها.

﴿وَيَوْمَ﴾: الواو: حرف عطف. (يوم): ظرف زمان متعلق بالفعل بعده، و(يوم) مضاف، و﴿ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ مضاف إليه. ﴿يُرَدُّونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو نائب فاعله. ﴿إِلَىٰٓ أَشَدِّ﴾: متعلقان بما قبلهما. و﴿أَشَدِّ﴾ مضاف، و﴿ٱلْعَذَابِ﴾ مضاف إليه. ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ انظر إعرابها في الآية رقم [٧٤]. هذا؛ ويقرأ: ﴿يُرَدُّونَ﴾ و﴿تَعْمَلُونَ﴾ بالياء، والتاء، فعلى القراءة بالياء يكون التفاتاً من الخطاب إلى الغيبة.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾

الشرح: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾: أي: اليهود الذين كانوا في عصر النبي ﷺ، وكانوا يفعلون المتناقضات، كما رأيت في الآية السابقة. ﴿ٱشْتَرَوُا۟﴾: استبدلوا، انظر مثله في الآية رقم [١٦]. ﴿ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ﴾: هما على حذف مضاف؛ أي: نعيم الحياة الدنيا بنعيم الآخرة وخيراتها، والمراد هنا: اختاروا الدنيا، وفضلوها على الآخرة.

﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ أي: لا يُفَتَّر عنهم ساعة واحدة. ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي: وليس لهم ناصر ينصرهم، ولا مجير ينقذهم من عذاب الله الأليم. هذا؛ ووصف الله الحياة بالدنيا لحقارتها، ودناءتها، وأنها لا تساوي عند الله جناح بعوضة، ورحم الله مَنْ يقول: [الكامل]

يا خاطِبَ الدُّنْيا الدَّنِيَّةَ إنَّها شَرَكُ الرَّدَى وقُرارَةُ الأَكْدارِ
دارٌ مَتى ما أضْحَكَتْ في يَوْمِها أبْكَتْ غداً تَبّاً لَها مِنْ دارِ

وما أحسن قول الشَّافعي ـ رضي الله عنه ـ: [الطويل]

وَما هيَ إلَّا جيفَةٌ مُسْتَحيلَةٌ عَلَيْها كِلابٌ هَمُّهُنَّ اجْتِذابُها
فَإنْ تَجْتَنِبْها كُنْتَ سِلْماً لأَهْلِها وَإنْ تَجْتَذِبْها نازَعَتْكَ كِلابُها

الإعراب: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ، والكاف حرف خطاب لا محل له. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع خبر المبتدأ. ﴿ٱشْتَرَوُاْ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف المحذوفة لالتقائها ساكنة مع الواو التي هي فاعله، والألف للتفريق. ﴿ٱلْحَيَوٰةَ﴾: مفعول به. ﴿ٱلدُّنْيَا﴾: صفة الحياة منصوب مثله، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على الألف. ﴿بِٱلْءَاخِرَةِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، أو هما متعلقان بمحذوف حال من الحياة الدُّنيا. التقدير: مستبدلة بالآخرة، والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها، وجملة: ﴿ٱشْتَرَوُاْ﴾: صلة الموصول لا محل لها. ﴿فَلَا﴾: الفاء: حرف عطف. (لا): نافية. ﴿يُخَفَّفُ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول. ﴿عَنْهُمُ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿ٱلْعَذَابُ﴾: نائب فاعل، والجملة الفعلية معطوفة على الجملة الاسمية السابقة لا محل لها مثلها. وقال الجمل في مثلها: معطوفة على جملة الصِّلة. هذا؛ وقد قال النسفي: وقيل: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ صفة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، والجملة الفعلية في محل رفع خبر ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، وعليه فالفاء صلة. وقيل: الجملة الفعلية: ﴿فَلَا يُخَفَّفُ...﴾ إلخ في محل رفع خبر ثانٍ للمبتدأ، وتكون الفاء زائدة أيضاً. ﴿وَلَا﴾: الواو حرف عطف. (لا): نافية مهملة. ﴿هُمْ﴾: ضمير منفصل مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿يُنصَرُونَ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول، والواو نائب فاعله، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ. والجملة الاسمية معطوفة على الجملة الفعلية قبلها على جميع الوجوه المعتبرة فيها، وهو أقوى من اعتبار الحالية فيها.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾

الشرح: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾: التوراة. ﴿وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ﴾: أتبعناهم رسولاً في إثر رسول: إلياس، وداود، وسليمان، ويونس، وزكريا، ويحيى، وغيرهم، على نبيِّنا، وحبيبنا، وعليهم ألف صلاة، وألف سلام. هذا؛ وأصل: (قفينا): قفونا، فقلبت الواو

ياء. لوقوعها رابعة، واشتقاقه من: قفوته، إذا اتَّبعت قفاه، ثم اتَّسع فيه، فأطلق على كل تابع، وإن بعد زمان التابع من زمان المتبوع. والقفا: مؤخر العنق، ويقال له: القافية أيضاً، ومنه قول النبي ﷺ: «**يَعْقِدُ الشَّيْطَانُ عَلَى قَافِيَةِ أَحَدِكُمْ إِذَا هُوَ نَامَ ثَلاثَ عُقَد**». رواه الشَّيخان، وغيرهما. ومنه قافية الشِّعر، وهي آخر حرف من البيت، سمِّيت بذلك؛ لأنها تتلو، وتتبع ما قبلها من أبيات. هذا؛ وقد قال تعالى في سورة الحديد رقم [٢٧]: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾.

﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: الحجج، والمعجزات، وهي إبراء الأكمه، والأبرص وإحياء الميِّت، وغير ذلك، ممَّا ذكر في: (آل عمران) و(المائدة)، ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾: وقويناه بجبريل عليه الصلاة والسَّلام، رواه أبو مالك، وأبو صالح عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ ومعمر بن قتادة، وقال حسَّان ـ رضي الله عنه ـ: [الوافر]

وَجِبْرِيلٌ رَسُولُ اللهِ فِينَا ... وَرُوحُ الْقُدْسِ لَيْسَ بِهِ خَفَاءُ

قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: إنَّما سمِّي جبريل روح القدس؛ لأن القدس هو الله، وروحه: بجبريل، فالإضافة للتَّشريف، وقال الرازي ـ رحمه الله تعالى ـ: وما يدل على أن روح الله القدس بجبريل قوله تعالى في سورة (النَّحل): ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾. وقال النَّحاس: سمِّي جبريل روحاً، وأضيف إلى القدس؛ لأنه كان بتكوين الله عز وجل له روحاً من غير ولادة والد ولده، وكذلك سمي عيسى روحاً لهذا، هذا؛ والقدس: الطهر، هذا؛ وعيسى مأخوذ من العيس، وهو بياض يخالطه شقرة، قاله أبو البقاء.

﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ﴾: لا يوافق هواكم، ويلائمه. استكبرتم: عن إجابته، واتباعه، والأخذ بتعاليمه. انظر الآية رقم [٩١] الآتية: ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ﴾: فكان ممَّن كذبوه عيسى، ومحمَّد عليهما ألف صلاة، وألف سلام. ﴿وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾: وممن قتلوه يحيى، وزكريا، وغيرهما، هذا؛ والتَّعبير بالمضارع بقوله تعالى: ﴿وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ لم يقل: قتلتم كما قال: ﴿كَذَّبْتُمْ﴾؛ لأنَّ المضارع كما هو المألوف في أساليب البلاغة يستعمل في الأفعال الماضية التي بلغت من الفظاعة مبلغاً عظيماً، وكأنه أحضر صورة قتل الأنبياء أمام السَّامع، وجعله ينظر إليها بعينه، فيكون إنكاره لها أبلغ، واستفظاعه لها أعظم، ومنه قوله تعالى في سورة (الحج) رقم [٦٣]: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ فعبَّر بالماضي، ثم قال: ﴿فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ فعدل عنه إلى المضارع لتصوير اخضرارها في النفس، وعليه قول عمرو بن معد يكرب الزبيدي ـ رضي الله عنه ـ، يصور شجاعته، وجرأته: [الوافر]

فَإِنِّي قَدْ لَقِيتُ الْقِرْنَ يَسْعَى ... بِسَهْبٍ كَالصَّحِيفَةِ صَحْصَحَانِ

فَآخُذُهُ فَأَضْرِبُهُ فَيَهْوِي ... صَرِيعاً لِلْيَدَيْنِ وَلِلْجِرَانِ

هذا؛ و﴿تَهْوَىٰٓ﴾ فعل مضارع، بمعنى تحبُّ، وترغب فيه، والاسم منه: «هوى» يقصر، ويمد، والمراد بالأول الحب، والعشق، والغرام، وهو أيضاً محبَّة الإنسان للشيء، وغلبته على قلبه، قال تعالى في سورة (الفرقان) رقم [٤٣]: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ وقد نهى الله عنه بقوله: ﴿فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ ومدح من يخافه، ويخشاه بقوله: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ أي: نهاها عن شهواتها، وما تدعو إليه من معاصي الله تعالى، ويراد بالممدود: ما بين السماء والأرض، وقد جاء الهوى بمعنى العشق ممدوداً في الشعر، ومنه قول الشاعر: [الطويل]

وَهَانَ عَلَى أَسْمَاءَ إِنْ شَطَّتِ النَّوَّى ... نَحِنُّ إِلَيْهَا والْهَوَاءُ يَتُوقُ

وإليك هذين البيتين فإنهما من النكت الحسان: [الكامل]

جُمِعَ الْهَوَاءُ مَعَ الهوَى فِي مُهْجَتِي ... فَتَكَامَلَتْ فِي أَضْلُعِي نَارَانِ

فَقَصَرْتُ بِالْمَمْدُودِ عَنْ نَيلِ الْمُنَى ... وَمُدِدْتُ بِالْمَقْصُورِ فِي أَكْفَانِي

وقال أبو عبيدة ـ رحمه الله تعالى ـ: لم نجد الهوى يوضع إلا موضع الشر، ويروى عن ابن عباس أيضاً: أنه لا يقال: فلان يهوى الخير، بل يقال: فلان يحبُّ الخير، وهذا في الغالب، والآية الكريمة من ذلك، وقد يستعمل في الخير، والحق، ومنه قول عمر ـ رضي الله عنه ـ في أسارى بدر: فهوي رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يهوَ ما قلت. وقالت عائشة للنبي ﷺ في صحيح الحديث: «**وَالله مَا أَرَى رَبَّكَ إِلَّا يُسَارِعُ فِي هَوَاكَ**». أخرجهما مسلم. هذا؛ وجمع الممدود: أهوية، وجمع المقصور: أهواء.

وقال الشَّعبي: إنَّما سمِّي الهوى هوىً؛ لأنه يهوي بصاحبه إلى النار. وقال عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ. عن النبي ﷺ: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعاً لِمَا جِئْتُ بِهِ**». وقال أبو أمامة ـ رضي الله عنه ـ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَا عُبِدَ تَحْتَ السَّمَاءِ إِلَهٌ أَبْغَضَ إِلَى اللهِ مِنَ الْهَوَى**». والأحاديث في ذلك كثيرة، وقال الأصمعي رحمه الله تعالى: سمعت رجلاً يقول: [الكامل]

إِنَّ الْهَوَانَ هُوَ الْهَوَى قُلِبَ اسْمُهُ ... فَإِذَا هَوِيتَ فَقَدْ لَقِيتَ هَوَانَا

وسئل ابن المقفَّع عن الهوى، فقال: هوان سرقت نونه، فأخذه شاعرٌ، فنظمه، فقال: [الكامل]

نُونُ الْهَوَانِ مِنَ الْهَوَى مَسْرُوقَةٌ ... فَإِذَا هَوِيْتَ فَقَدْ لَقِيْتَ هَوَانَا

وللعلماء، وللشعراء في هذا الباب في ذمِّ الهوى، ومخالفته كتبٌ، ومصنفات، وأبواب كثيرة، أشرنا إلى ما فيه كفاية منه، والله وليُّ التوفيق.

تنبيه ـ بل فائدة ـ: ﴿مَرْيَمَ﴾ بالعبرية بمعنى الخادم، ثمَّ سمِّي به كثير من الناس، و(مريم) في لسان العرب: هي التي تكره مخالطة الرِّجال. ولم تذكر امرأة باسمها صريحاً في القرآن الكريم إلا مريم بنت عمران، وقد ذكرت فيه في ثلاثين موضعاً.

هذا وفي القاموس المحيط: المريم: هي التي تحبُّ حديث الرجال، ولا تفجر، وهذا يناقض ما قاله الشَّاعر: [الطويل]

وَزَائِـرَةٍ لَـيْـلاً كَـمَـا لاَحَ بَـارِقٌ تَـضَـوَّعَ مِـنْـهَـا لِـلْـكِـسَـاءِ عَـبِـيـرُ
فُـقْـلـتُ لَـهَـا أَهْـلاً وَسَـهْـلاً أَمَـرْيَـمٌ فَقَالَتْ: نَعَمْ مَنْ أَنْتَ؟ قُلْتُ لَهَا: زِير

وانظر الآية رقم [٤٢] من سورة (آل عمران) ففيها كبير الفائدة.

الإعراب: ﴿وَلَقَدْ﴾: الواو: حرف قسم وجر، والمقسم به محذوف، التقدير: والله. والجار والمجرور متعلقان بفعل محذوف، تقديره: أقسم. واللام: واقعة في جواب القسم. (قد): حرف تحقيق يقرب الماضي من الحال. ﴿ءَاتَيْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿مُوسَى﴾: مفعول به أول منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على الألف للتعذر. ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: مفعول ثان، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها، وانظر الآية رقم [٦٥]. جملة: ﴿وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾: معطوفة على ما قبلها لا محل لها مثلها. ﴿بِٱلرُّسُلِ﴾: متعلقان بما قبلهما. وجملة: (آتينا): معطوفة أيضاً لا محل لها. ﴿عِيسَى﴾: مفعول به أول منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على الألف للتعذر. ﴿ٱبْنَ﴾: صفة عيسى، وابن مضاف، و﴿مَرْيَمَ﴾: مضاف إليه مجرور وعلامة جره الفتحة نيابة عن الكسرة؛ لأنه ممنوع من الصرف للعلمية، والتأنيث المعنوي. ﴿ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: مفعول به ثان منصوب، وعلامة نصبه الكسرة نيابة عن الفتحة؛ لأنه جمع مؤنث سالم، وجملة (أيدناه بروح القدس) معطوفة على جملة القسم لا محل لها.

﴿أَفَكُلَّمَا﴾: الهمزة: حرف استفهام، وتوبيخ، وتقريع، وانظر: ﴿أَفَلَا﴾ في الآية رقم [٤٤].

(كُلَّما): انظر الآية رقم [٢٠]. ﴿جَآءَكُمْ﴾: فعل ماض. والكاف: في محل نصب مفعول به. ﴿رَسُولٌۢ﴾: فاعله. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. (ما): تحتمل الموصولة، والموصوفة، فهي مبنية على السكون في محل جر بالباء، و(ما) والفعل: (جاء) في تأويل مصدر في محل جر بإضافة (كل) إليه، التقدير: كل مجيء إليهم، وهذه الإضافة، وهذا التقدير هما اللذان سببا الظرفية لـ (كل). أو التقدير: كل وقت مجيء. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿تَهْوَىٰٓ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف. ﴿أَنفُسُكُمُ﴾: فاعل، والكاف في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية صلة (ما) أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف، التقدير: بالذي، أو بشيء لا تهواه أنفسكم. ﴿ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾: فعل، وفاعل، والجملة الفعلية جواب: (كلما) لا محل لها، وجملة: ﴿أَفَكُلَّمَا﴾ مستأنفة لا محل لها من الإعراب. ﴿فَفَرِيقًا﴾: الفاء: حرف عطف، وتفريع. (فريقاً): مفعول به مقدم. ﴿كَذَّبْتُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها لا محل لها مثلها. (فريقاً): مفعول به مقدم. ﴿تَقْتُلُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع

وعلامة رفعه ثبوت النون، والواو فاعله، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها لا محل لها أيضاً، وقدم المفعول في الجملتين للاهتمام، وتشويق السَّامع إلى ما يلقى إليه.

﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾

الشرح: ﴿وَقَالُوا۟﴾: أي: اليهود. ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾: جمع: أغلف، أي: مغطاة بأغطية، فلا تعي ما تقول، ويريدون: أنها خلقت مغشاةً بأغطية خِلْقيَّةٍ، فهي لا تعي ما جئت به، وهو مستعار من «الأغلف» الذي لم يُختن، وقرئ بسكون اللام، وضمِّها مثل «رسل»، قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: أي قلوبنا ممتلئة علماً لا تحتاج إلى علم محمَّد ﷺ، ولا غيره. والقول الأول مثل قوله تعالى في سورة (النِّساء) رقم [١٥٥]: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، وأيضاً قوله تعالى في سورة (فصلت) رقم [٥]: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾. ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾: طردهم، وأبعدهم من رحمته. وأصل اللَّعن في كلام العرب: الطَّرد، والإبعاد، ويقال للذِّئب: لعين، وللرَّجل الطَّريد: لعين، وقال الشَّماخ: [الوافر]

ذَعَرْتُ بِهِ القَطَا ونَفَيْتُ عَنْهُ		مَقَامَ الذِّئْبِ كالرَّجلِ اللَّعِينِ

ووجه الكلام: مقام الذئب اللَّعين كالرَّجل. فالمعنى: أبعدهم الله من رحمته.

وقيل: أبعدهم الله من توفيقه، وهدايته. وقيل: مِنْ كلِّ خيرٍ، وهذا عام، انظر الآية [١٦١] الآتية. ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾: مثل قوله تعالى: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، فقال بعضهم: فقليل مَنْ يؤمن منهم، وقيل: المعنى: فقليل إيمانهم؛ بمعنى: أنهم يؤمنون بما جاءهم به موسى من أمر المعاد، والثواب، والعقاب، ولكنَّه إيمان لا ينفعهم؛ لأنه مغمورٌ بما كفروا به مِنَ الذي جاءهم به محمد ﷺ.

الإعراب: ﴿وَقَالُوا۟﴾: الواو: حرف عطف. (قالوا): فعل، وفاعل، والألف للتفريق. ﴿قُلُوبُنَا﴾: مبتدأ و(نا) في محل جر بالإضافة. ﴿غُلْفٌۢ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول، والجملة الفعلية (قالوا) معطوفة على ما قبلها، أو هي مستأنفة فلا محل لها على الوجهين، والاستئناف أقوى. ﴿بَل﴾: حرف عطف، وإضراب، تُبْتَدأ بعده الجمل. ﴿لَّعَنَهُمُ﴾: فعل ماض والهاء مفعول به. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله. ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾: متعلقان بما قبلهما، والباء للسببية، والهاء في محل جر بالإضافة من إضافة المصدر لفاعله، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، فهي في محل نصب مقول القول مثلها، وجوز اعتبارها مستأنفة.

﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾: الفاء: حرف تعليل لطردهم من رحمة الله وهاأنذا أنقل لك باختصار ما ذكره ابن هشام في مغني اللبيب في إعراب هذه الجملة، وأمثالها، فقال رحمه الله تعالى: ﴿مَا﴾ تحتمل لثلاثة أوجه:

أحدها: الزيادة، فتكون لمجرد تقوية الكلام، فتكون حرفاً باتفاق. و(قليلاً) في معنى النفي، وأمَّا التقليل مثلها في: (أكلتُ أكلاً ما) وعلى هذا فيكون تقليلاً بعد تقليل.

الوجه الثاني: النفي، و(قليلاً) نعت لمصدر محذوف، أو الظرف محذوف، أي: إيماناً قليلاً، أو زماناً قليلاً.

الوجه الثالث: أن تكون مصدرية، وهي وصلتها فاعل بـ (قليل)، و(قليلاً) حال معمول لمحذوف دل عليه المعنى؛ أي: لعنهم الله، فأخروا «قليلاً إيمانهم» أجازه ابن الحاجب، ورجَّح معناه على غيره. انتهى بتصرف كبير، ولم يذكر إعراب (قليلاً) على الوجه الأول. وذكر الجمل الوجه الأوَّل، واعتبر (قليلاً) نعتاً لمصدر محذوف مثل اعتباره في الوجه الثاني. وذكر أبو البقاء الثاني، وقال: التقدير: لا يؤمنون قليلاً، ولا كثيراً. وجملة: (قليلاً ما يؤمنون) تعليلية لا محل لها من الإعراب.

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾

الشرح: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ﴾ أي: اليهود. ﴿كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾: هو القرآن؛ الذي أنزل على محمَّد ﷺ. ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾: يعني: التوراة. ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ مجيء الكتاب، ومن قبل مبعث النبي ﷺ ﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾: يستنصرون. ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: المشركين العرب، وهم الأوس، والخزرج. ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟﴾ أي: من الحقِّ، وهو بعثة النبي ﷺ ونزول القرآن عليه ﴿كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾: أي: بمحمد ﷺ حسداً، وبغياً، وخوفاً على الرياسة وحبِّ الدنيا. ﴿فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: المراد: على اليهود، وقد أظهر في موضع الإضمار؛ لينبِّه على السبب المقتضي لذلك، وهو الكفر، وأتى بـ ﴿عَلَى﴾ تنبيهاً على أن اللَّعنة قد استعلت عليهم، وشملتهم. وفي الآية إطلاق كلمة الكفر على المشركين العرب، وعلى اليهود.

تنبيه: كان اليهود في المدينة المنورة قبل مبعث النبي ﷺ إذا حزبهم أمر، أو دهمهم عدو؛ يقولون: اللهم فرِّج كربنا! اللهم انصرنا بالنبيِّ المبعوث في آخر الزَّمان، الذي نجد صفته في التوراة! فكانوا يُنصرون، ويفرِّج كربهم، ويزول ما بهم من الغمِّ، والبؤس، وكانوا يقولون لأعدائهم من المشركين: قد أظلَّ زمان نبيٍّ يخرج بتصديق ما قلنا، فنقتلكم معه قتل عادٍ، وإرم. هذا؛ والاستفتاح: الاستنصار، وفي الحديث كان النبي ﷺ يستفتح بصعاليك المهاجرين، أي: يستنصر بدعائهم، وصلاتهم، ومنه قوله تعالى في الآية رقم [٥٢] من سورة (المائدة): ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ

أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾. والنصر: فتح شيء مغلق. هذا؛ وروى النَّسائيُّ عن أبي سعيدٍ الخدري ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ النبي ﷺ قال: «**إنما يَنْصُرُ الله هذه الأمة بضعفائها؛ بدعوتهم، وصلاتهم، وإخلاصهم**». وروى النسائيُّ أيضاً عن أبي الدَّرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ابْغُوني الضَّعيف؛ فإنكم إنَّما تُرزقون، وتنصرون بضعفائكم**».

هذا؛ والسبب في سكنى اليهود المدينة المنورة هو انتظارهم مبعث النبي ﷺ وظهوره، فقد قَدِم آباؤهم، وأجدادهم من فلسطين قبل مبعث النَّبيِّ ﷺ بمئتين أو بثلاثمئة سنة إلى المدينة ينتظرون خروجه، وظهوره؛ لأنه منصوص عليه في التوراة: أنه يولد في مكَّة، ويهاجر إلى المدينة، فلمَّا ظهر؛ كفروا به بغياً، وعدواً، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ فقال لهم معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ: يا معشر يهود! اتَّقوا الله، وأسلموا؛ فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ﷺ، ونحن أهل شرك، وتخبروننا: أنه مبعوث، وتصفونه بصفته. فقال: سلامُ بن مِشْكَم، أخو بني النضير ـ لعنه الله ـ: ما جاءنا بشيءٍ نعرفه، وما هو بالذي نذكرُ لكم، فأنزل الله في ذلك قوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ...﴾ إلخ.

الإعراب: ﴿وَلَمَّا﴾: الواو: حرف استئناف. (لمَّا): حرف وجود لوجود عند سيبويه، وبعضهم يقول: حرف وجوب لوجوب، وهي ظرف بمعنى (حين) عند ابن السَّراج، والفارسي، وابن جني، وجماعة، تتطلَّب جملتين مرتبطتين ببعضهما ارتباط فعل الشرط بجوابه، وصوب ابن هشام الأول، والمشهور الثاني. ﴿جَآءَهُمْ﴾: فعل ماض، والهاء مفعول به. ﴿كِتَٰبٌ﴾: فاعل، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة (لمَّا) على اعتبارها ظرفاً، وابتدائية لا محل لها على اعتبار (لمَّا) حرفاً. ﴿مِّنْ عِندِ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة: ﴿كِتَٰبٌ﴾ و﴿عِندِ﴾ مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾: مضاف إليه. ﴿مُصَدِّقٌ﴾: صفة: ﴿كِتَٰبٌ﴾. ﴿لِّمَا﴾: جار ومجرور متعلقان بـ ﴿مُصَدِّقٌ﴾، ﴿مَعَهُمْ﴾: ظرف مكان متعلق بمحذوف صلة (ما) أو بمحذوف صفتها إن كانت نكرة موصوفة، وانظر تعليق اللام في الآية رقم [٤١] فإنه جيد، وجواب (لمَّا) محذوف دل عليه جواب الثانية، تقديره: أنكروه، أو نحو ذلك، وقيل: إنَّ جوابها ﴿كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ وجواب الثانية ومدخولها جواب الأولى، وهذا ضعيف؛ لأن الفاء مع (لما) الثانية، و(لمَّا) لا تجاب بالفاء، إلا أن يعتقد زيادة الفاء على ما يجيزه الأخفش. انتهى عكبري. وأقوى الأقوال الأوَّل، و(لمَّا) ومدخولها معطوف على جملة: (قالوا) في الآية السابقة، لا محل لها مثلها.

﴿وَكَانُواْ﴾: الواو: واو الحال، (كانوا): فعل ماض ناقص مبني على الضم، والواو اسمه، والألف للتفريق. ﴿مِن قَبْلُ﴾: متعلقان بالفعل كانوا، وهذا على القول بجواز التعليق بالفعل الناقص. ويؤيِّده: المعنى هنا، ومن لا يجيزه يعلقهما بالفعل بعدهما. وجملة: ﴿يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ في محل نصب خبر (كان) وجملة: (كانوا) في محل نصب حال من الضمير، وهو

الهاء، والرابط الواو، والضمير، والجملة على تقدير «قد» قبلها، وهذا أقوى من العطف على جواب (لمَّا) المحذوف، وجملة: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾: معطوفة على (لمَّا) السابقة، ومدخولها. و(ما) هي الفاعل، وتحتمل الموصولة، والموصوفة، التقدير: الذي، أو شيء عرفوه، وجملة: ﴿كَفَرُواْ بِهِۦ﴾: جواب (لمَّا) الأولى، أو الثانية.

﴿فَلَعۡنَةُ﴾: الفاء: حرف عطف، وسبب. (لعنة): مبتدأ، وهو مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾ مضاف إليه، من إضافة المصدر لفاعله. ﴿عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ، وعلامة الجر الياء نيابة عن الكسرة؛ لأنه جمع مذكر سالم، والنون عوض عن التنوين في الاسم المفرد، والجملة الاسمية معطوفة على الكلام السَّابق لا محل له مثله.

﴿بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغۡيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٩٠﴾﴾

الشرح: ﴿بِئۡسَمَا﴾: بئس: فعل ناقص لإنشاء الذم، ونعم: فعل ماض لإنشاء المدح، فـ «بئس» منقول من: بَئِسَ فلان، بفتح الباء، وكسر الهمزة: إذا أصاب بؤساً، ونِعْمَ منقول من: نَعِمَ بفتح النون وكسر العين: إذا أصابَ النِّعمة، فنقلا إلى المدح، والذمِّ، فشابها الحروف، فلم يتصرفا، وفيهما أربع لغات: نِعْمَ، وبِئْس بكسرٍ، وسكون، وهي أفصحهن، ثمَّ: نِعِم وبِئِس بكسر أولهما وثانيهما، غير أن الغالب في «نِعِم» أن يتصل بها (ما) كقوله تعالى: ﴿فَنِعِمَّا هِيَۖ﴾، ﴿نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ﴾ و«بئس» اتصلت بها (ما) على اللغة الفصحى، كما في هذه الآية والآية رقم [٩٣] الآتية، وفي سورة (الأعراف) رقم [١٥٠]: ﴿قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي﴾. واللغة الثالثة: نَعْمَ وبَأس بفتحٍ، وسكون، والرابعة: نَعِم، وبَئِس - بفتح، وكسر - وهي الأصل فيهما، ولا بدَّ لهما من شيئين: فاعل، ومخصوص بالمدح، أو الذم، قال ابن مالك رحمه الله تعالى في ألفيته: [الرجز]

فِعْلانِ غَيْرُ مُتَصَرِّفَيْنِ نِعْمَ وبِئْسَ رَافِعانِ اسْمَيْنِ
مُقَارِنَيْ أَلْ أَوْ مُضَافَيْنِ لِمَا قَارَنَها كَنِعْمَ عُقْبَى الْكُرَمَا
ويَرْفَعَانِ مُضْمَراً يُفَسِّرُهْ مُمَيِّزٌ كَنِعْمَ قَوْماً مَعْشَرُهْ

والقول بفعليتهما إنَّما هو قول البصريين والكسائي بدليل دخول تاء التأنيث عليهما في قول النَّبيِّ ﷺ: «**مَنْ تَوَضَّأَ يَوْمَ الْجُمُعَة فَبِهَا، وَنعمت، وَمَنِ اغْتَسَلَ فَالغُسْلُ أَفْضَل**». وقال الكوفيون إلا الكسائي: هما اسمان؛ بدليل دخول حرف الجر عليهما في قول أعرابي، وقد أُخبر بأنَّ امرأته ولدت بنتاً له، فقال: وَالله مَا هِيَ بِنعمَ الوَلد! نَصرُهَا بُكاء، وَبِرُّهَا صَدَقةٌ. وقول غيره:

قالوا: يا رسول الله هذا شرٌّ صاحبٍ! قال: «**فوَ الَّذي نفسِي بيدِهِ إنَّهَا لَنُفوسُكم التي بينَ جُنُوبِكم!**». انتهى.

الإعراب: ﴿يُخَٰدِعُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع... إلخ، والواو فاعله. ﴿ٱللَّهَ﴾: منصوب على التعظيم. (الذين): اسم موصول مبني على الفتح في محل نصب معطوف على لفظ الجلالة. ﴿ءَامَنُواْ﴾: فعل ماض مبني على الضم، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية مع المتعلق المحذوف صلة الموصول، لا محل لها، وجملة: ﴿يُخَٰدِعُونَ﴾... إلخ: بدل اشتمال من جملة: ﴿يَقُولُ﴾... إلخ؛ لأنَّ قولهم كذا مشتمل على الخداع، وتحتمل أن تكون مستأنفة جواباً لسؤال مقدَّر، وهو: ما بالهم قالوا: آمنا، وما هم بمؤمنين؟ فقيل: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾. وجوز أبو البقاء اعتبارها حالاً من فاعل: ﴿يَقُولُ﴾ المستتر، أو من الضمير المستتر بـ (مؤمنين) ﴿وَمَا﴾: الواو واو الحال. (ما) نافية. ﴿يَخْدَعُونَ﴾: فعل مضارع، والواو فاعله. ﴿إِلَّآ﴾ حرف حصر لا محل له. ﴿أَنفُسَهُمْ﴾: مفعول به، والهاء في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية في محل نصب حال من واو الجماعة، والرابط الواو، والضمير، فتكون حالاً متداخلة على قول أبي البقاء، وغير متداخلة على الوجهين المعتبرين في الجملة السابقة، ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ إعرابها كإعراب ما قبلها، وهي معطوفة عليها، فهي في محل نصب حال مثلها، وقيل: مستأنفة لا محل لها، ولا وجه له، وحذف مفعول الفعل للعلم به، التقدير: وما يشعرون: أن وبال خداعهم راجع على أنفسهم. هذا؛ ولا تنس: أنَّه روعي لفظ (مَنْ) بإرجاع فاعل يقول إليها، وروعي معناها بإرجاع الضَّمير بقوله: (وهم لا يشعرون).

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ١٠﴾

الشرح: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾: أي: شكٌّ، ونفاق، فهو يمرض قلوبهم، أي: يضعفها، وذلك بضعف الإيمان فيها، والمرض: حقيقة فيما يعرض للبدن، فيخرجه عن الاعتدال اللائق به، ويوجب الخلل في أفعاله، وقد يؤدِّي إلى الموت، والمرض هنا: عبارةٌ مستعارة للفساد الذي في عقائدهم، وذلك إما أن يكون شكّاً، ونفاقاً، وإما جحداً، وتكذيباً، والمعنى: قلوبهم مرضى لخلوِّها من الإيمان، والعصمة، والتوفيق، والرِّعاية، والتأييد من الله.

﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ﴾: قيل: هو دعاء عليهم، ويكون معنى الكلام: زادهم الله شكّاً، ونفاقاً جزاءً على كفرهم، وخبثهم. وعلى هذا يكون في الآية دليل على جواز الدُّعاء على المنافقين، والطرد لهم من رحمة الله؛ لأنهم شر خلق الله، وقيل: هو إخبار من الله تعالى عن زيادة مرضهم، أي: فزادهم الله مرضاً إلى مرضهم، كما قال في سورة (التوبة) رقم [١٢٥]: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ وقال سليمان الجمل ـ رحمه الله تعالى ـ: بأن طبع الله على قلوبهم لعلمه

تعالى بأنه لا يؤثر فيها التذكير، والإنذار، وقيل: زادهم كفراً بزيادة التكاليف الشَّرعية؛ لأنهم كانوا كلما ازدادت التكاليف بنزول الوحي؛ يزدادون كفراً. انتهى نقلاً من أبي السعود.

هذا وزاد، يزيد: ضد نقص، ينقص، يكون لازماً، كقولك: زاد المال درهماً، ويكون متعدياً لمفعولين، كما في الآية الكريمة، وقولك: زاد الله خالداً خيراً؛ بمعنى: جزاه الله خيراً، وأما قولك: زاد المال درهماً، والبر مدّاً، فدرهماً، ومدّاً تمييز، ومثله قل في: نقص، فمن المتعدِّي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا﴾ الآية رقم [٤] من سورة (التوبة)، ومن اللازم قوله تعالى في سورة ق رقم [٤]: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ﴾: أي: موجع، مثل السَّميع، بمعنى: المُسمع، وآلم: إذا أوجع.

والإيلام: الإيجاع، والألم: الوجع، والتألُّم: التوجُّع. هذا وقال المرحوم سليمان الجمل: مؤلَم بفتح اللام على طريق الإسناد المجازي، حيث أسند الألم للعذاب، وهو في الحقيقة إنما يسند إلى الشخص المعذَّب، يقال: أَلِم، من باب: طرِب، فهو أليم: كوجع، فهو وجيع، أي: متألِّم ومتوجِّع، ولا يقال: إنَّه بكسر اللام اسم فاعل على طريق الإسناد الحقيقي، كسميع بمعنى: مُسمِع لخلوِّه من دعوى المبالغة الحاصلة على كونه بفتح اللام؛ حيث يقتضي: أن العذاب لشدَّة إيلامه للمعذبين، صار هو كأنه مؤلم، أي: معذب، فهو على حد: جدَّ جدُّه. انتهى. هذا؛ وعذاب: اسم مصدر لا مصدر؛ لأن المصدر: تعذيب؛ لأنه مِنْ: عذَّب، يعذِّب بتشديد الذال فيهما، وقيل: هو مصدر على حذف الزوائد، ومثله عطاء، وسلام، وثبات؛ لأعطى، وسلم، وأثبت، هذا والعذاب كل ما شقَّ على الإنسان، ومنعه عن مراده، وهو كالنَّكال وزناً ومعنىً.

تنبيه: وحكمة كفِّه ﷺ عن قتل المنافقين مع علمه بأعيان بعضهم ما ثبت في الصحيحين: أنه ﷺ قال لعمر ـ رضي الله عنه ـ: «**أكرهُ أن يَتَحدَّثَ العَرَبُ: أنَّ مُحمداً يقتلُ أصحابَهُ**».

وفي روايةٍ ثانية: «**معاذَ اللهِ أنْ يتحدثَ الناسُ أنِّي أقتُلُ أصحَابي!**». والنبي ﷺ لم يقتلهم لمصلحة، وهي تأليف القلوب عليه لئلا تنفر منه، علماً بأن أقرباء بعض المنافقين جاؤوا للنَّبيِّ ﷺ يستأذنونه بقتل ذويهم، الذين ظهر منهم إيذاء له ﷺ، وذلك مثل عبد الله ـ رضي الله عنه ـ ابن عبد الله بن أُبيّ ابن سلول، الذي جاءه يستأذنه في قتل أبيه حينما تكلَّم كلاماً مسيئاً للنبيِّ ﷺ، وقد كان ﷺ يعطي المال من أسلم حديثاً تألُّفاً لهم مع علمه بضعف إيمانهم، ولكن جاء التَّهديد، والوعيد من الله لهم على العموم، مثل قوله تعالى في سورة (الأحزاب) رقم [٦٠]: ﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قال قتادة: معناه: إذا هم أعلنوا النفاق.

هذا وزيادة النفاق في قلوبهم كانت تحصل من نزول القرآن آيةً بعد آيةٍ، فكانوا كلَّما كفروا بآياته؛ ازدادوا كفراً، ونفاقاً، والمؤمنون بعكس ذلك، كانوا كلما تُليت عليهم آيات القرآن؛ ازدادوا إيماناً، ويقيناً. انظر الآية رقم [٢] من سورة (الأنفال).

الإعراب: ﴿فِي قُلُوبِهِم﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف في محل رفع خبر مقدم، والهاء في محل جر بالإضافة، ﴿مَّرَضٌ﴾: مبتدأ مؤخَّر، هذا؛ ويجيز الأخفش اعتباره فاعلاً بالجار والمجرور من غير اعتماد على نفي، أو استفهام، وهو ممَّا ينفرد به، والتقدير عنده: ثبت، أو استقر في قلوبهم مرض، فهو في الحقيقة فاعل بمتعلق الجار والمجرور. والجملة على الاعتبارين بمنزلة التوكيد لقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ أو هي تعليل لعدم إيمانهم. (زادهم): فعل ماض، والهاء مفعول به أول. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله. ﴿مَرَضًا﴾: مفعول به ثان، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها بالفاء العاطفة على الوجهين المعتبرين فيها. (لهم): جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم، والميم في الجميع حرف دال على جماعة الذكور. ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ مؤخر، وقيل فيه ما رأيته في سابقه عن الأخفش. ﴿أَلِيمٌ﴾: صفة عذاب، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها أيضاً. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلقان بـ ﴿أَلِيمٌ﴾ أو بمحذوف صفة ثانية لـ ﴿عَذَابٌ﴾ وقال أبو البقاء: صفة: ﴿أَلِيمٌ﴾. و(ما) تحتمل الموصولة، والمصدرية، فعلى الأول مبنية على السكون في محل جر بالباء، ﴿كَانُوا﴾: فعل ماض ناقص مبني على الضم، والواو اسمه، والألف للتفريق، ﴿يَكْذِبُونَ﴾: فعل مضارع وفاعله، والجملة الفعلية في محل نصب خبر (كان) وجملة: ﴿كَانُوا﴾... إلخ: صلة الموصول لا محل لها، والعائد محذوف؛ إذ التقدير بسبب الذي كانوا يكذبونه، وعلى اعتبار (ما) مصدرية تؤول مع الفعل بعدها بمصدر في محل جر بالباء، التقدير: بكونهم يكذبون، وعلى هذا القول بأن لـ (كان) مصدراً، وهو الصحيح عند بعضهم للتَّصريح به في قول الشاعر، وهو الشاهد رقم [٢٢٣] من كتابنا فتح رب البرية: [الطويل]

بِبَذْلٍ وَحِلْمٍ سَادَ فِي قَوْمِهِ الفَتَى ... وَكَوْنُكَ إِيَّاهُ عَلَيْكَ يَسِيرُ

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾﴾

الشرح: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾: لهؤلاء المنافقين، والقائل هو الله، عزَّ وجلَّ، أو الرسول ﷺ، أو بعض المؤمنين، وهذا شروعٌ في تعديد بعض قبائحهم. ﴿لَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ قال ابن جرير ـ رحمه الله تعالى ـ: أهل النفاق مفسدون في الأرض بمعصيتهم ربهم، وركوبهم ما نهاهم عن ركوبه، وتضييعهم فرائضه، وشكِّهم في دينه، وكذبهم المؤمنين بدعواهم غير ما هم مقيمون عليه من الشَّكِّ، والرَّيب، ومظاهرتهم أهل التكذيب بالله، وكتبه، ورسله على أولياء الله إذا وجدوا إلى ذلك سبيلاً، كالذي حصل منهم، كممودتهم لقريش، ومصافاتهم لقبائل اليهود؛ الذين كانوا يسكنون المدينة: بني قينقاع، وبني النضير، وبني قريظة، فذلك إفساد المنافقين في الأرض.

وهم يحسبون أنهم بفعلهم ذلك مصلحون في الأرض، قال تعالى في سورة (فاطر) رقم [٨]: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾، وقال تعالى في سورة (الكهف) رقم [١٠٣ ـ ١٠٤]: ﴿قُلْ

﴿هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾، فالمنافق لمَّا كان ظاهره الإيمان اشتبه أمره على المؤمنين، وغرَّهم بقوله الذي لا حقيقة له، ووالى الكافرين على المؤمنين، ولو أنه استمرَّ على حاله الأول؛ لكان شرُّه أخفَّ، وخذ ما يلي:

فقد قال رسول الله ﷺ: «**إنِّي لا أخافُ على أمَّتي مؤمناً، ولا كافراً، أمَّا المؤمنُ فيَحْجُزُهُ إيمَانُهُ، وأمَّا الكافرُ فيَقْمَعُهُ كُفْرُهُ، ولكنْ أخافُ على أمَّتي كلَّ مُنافِقٍ عليمِ اللِّسانِ**». أخرجه الطَّبرانيُّ عن عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ، وكرم الله وجهه.

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ أي: نريد أن نداري الفريقين من المؤمنين، والكافرين، ونصطلح مع هؤلاء، وهؤلاء. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أي نريد الإصلاح بين الفريقين من المؤمنين وأهل الكتاب. انتهى. وخذ قوله تعالى في بيان حقيقتهم: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ رقم [١٤٣] من سورة (النساء).

هذا و(الأرض) مؤنثة، وهي اسم جنس، وكان حق الواحدة أن يقال: أَرْضَةٌ، ولكنهم لم يقولوا، والجمع: أرْضات لأنهم قد يجمعون المؤنث الذي ليس فيه هاء التأنيث بالألف، والتاء، لقولهم: عُرُسَات، ثم قالوا: أرَضون، فجمعوا بالواو والنون، والمؤنث لا يجمع بالواو، والنون إلا أن يكون منقوصاً كَثُبَة، وظُبَة، ولكنهم جعلوا الواو والنون عوضاً عن حذفهم الألف، والتاء، وتركوا فتحة الراء على حالها، وربما سكنت، وقد تجمع على أُرُوض.

وزعم أبو الخطاب: أنَّهم يقولون: أرْض، وأراضٍ، مثل: أهل، وأهالٍ، والأراضي أيضاً على غير قياس، كأنهم جمعوا أرْضاً، وكل ما سفل فهو أرْض، وأرض أريضة؛ أي: زكية بينة الأراضة، وقد أرُضت بالضم؛ أي: زكت، قال أبو عمرو: نزلنا أرضاً أريضةً، أي: معجبة للعين. ويقال: لا أرض لك! كما يقال: لا أمَّ لك! والأرض أسفل قوائم الدَّابة، قال حميد بن ثور الهلالي يصف فرساً: [الرجز]

وَلَمْ يُقَلِّبْ أرْضَهَا البَيْطَارُ ... ولا لِحَبْلَيْهِ بِهَا حَبَارُ

والأرض: النَّفْضة، والرِّعدة، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وقد زلزلت الأرض: زُلْزِلَتِ الأرضُ أمْ بي أرْضٌ؟ أي: نَفْضَةٌ، ورِعدة. وقال ذو الرُّمَّة يصف صائداً: [البسيط]

إذا تَوجَّسَ رِكْزاً مِنْ سَنَابِكِهَا ... أَوْ كَانَ صَاحِبَ أَرْضٍ أو بِهِ الْمُوَمُ

والأرض: الزُّكام. وقد أرضه الله إيراضاً؛ أي: أزكمه، فهو مزكوم. والأَرَضَةُ بالتَّحريك: دويبة تأكل الخشب، يقال: أُرِضَتِ الخَشبةُ، تُؤْرَضُ أرْضاً ـ بالتسكين ـ فهي مأروضة: إذا أكلتها. انتهى صحاح الجوهري بحروفه.

الإعراب: ﴿وَإِذَا﴾: الواو: حرف استئناف. (إذا): ظرف لما يستقبل من الزمان، خافض لشرطه، منصوب بجوابه، صالح لغير ذلك، مبني على السكون في محل نصب. ﴿قِيلَ﴾: فعل

أَيَرْجُو بَنُو مَرْوَانَ سَمْعِي وَطَاعَتِي وَقَوْمِي تَمِيمٌ وَالفَلاةُ ورائيا

ثبت بما تقدَّم: أنه من الأضداد، وهو منصوب على الظَّرفية المكانية، قال الأخفش، يقال: لقيته من وراء. فترفعه على الغاية إذا كان غير مضاف، تجعله اسماً، وهو غير متمكِّن، كقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾، وأنشد قول الشاعر: [الطويل]

إِذَا أَنَا لَمْ أُوْمَنْ عَلَيْكَ وَلَمْ يَكُنْ لِقَاؤُكَ إلا مِنْ وَرَاءُ وَرَاءُ

الإعراب: ﴿وَإِذَا﴾: الواو: حرف استئناف. (إذا): ظرف لما يستقبل من الزمان، خافض لشرطه، منصوب بجوابه صالح لغير ذلك، مبني على السكون في محل نصب. ﴿قِيلَ﴾: فعل ماض مبني للمجهول. ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿ءَامِنُواْ﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والألف للتفريق، والواو فاعله، والجملة الفعلية في محل رفع نائب فاعل: (قيل)، وهذا على قول مَنْ يجيز وقوع الجملة فاعلاً، ويكون جارياً على القاعدة في بناء الفعل للمجهول: (يحذف الفاعل ويقام المفعول به مقامه) وهذا لا غبار عليه، وقال ابن هشام في مغني اللبيب: فليس هذا من باب الإسناد إلى الجملة؛ لما بيَّنا؛ أي: مِنْ أنَّ الجملة إذا قصد لفظها يحكم لها بحكم المفرد، فيجوز حينئذٍ وقوعها مبتدأ، أو فاعلاً، أو نائب فاعل، ومثَّل لذلك في شذور الذهب بقول النبيِّ ﷺ: «**أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله**». هذا؛ وقيل: نائب الفاعل ضمير مستتر تقديره: «هو» يعود إلى المصدر المفهوم من الفعل، أو هو محذوف يدل عليه المقام، التقدير: وإذا قيل قول، وقيل: الجار والمجرور. ﴿لَهُمْ﴾ في محل رفع نائب فاعل، والجملة: (قيل) في محل جر بإضافة (إذا) إليها. ﴿بِمَآ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، و(ما) تحتمل الموصولة، والموصوفة، والمصدرية ضعيفةٌ. ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل، والجملة الفعلية صلة (ما) أو صفتها، والعائد أو الرابط محذوف، التقدير: بالَّذي، أو بشيء أنزله.

﴿قَالُواْ﴾: ماض وفاعله. ﴿نُؤْمِنُ﴾: فعل مضارع والفاعل مستتر تقديره: «نحن»، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قَالُواْ﴾: جواب (إذا) لا محل لها، و(إذا) ومدخولها كلام مستأنف لا محل له. ﴿بِمَآ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما.

﴿أُنزِلَ﴾: فعل ماض مبني للمجهول، ونائب الفاعل يعود إلى (ما) وهو العائد، أو الرابط، والجملة الفعلية صلة (ما) أو صفتها. ﴿عَلَيْنَا﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿وَيَكْفُرُونَ﴾: الواو: حرف عطف. (يكفرون): فعل مضارع، والواو فاعله. ﴿بِمَا﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿وَرَآءَهُۥ﴾: ظرف مكان متعلق بمحذوف صلة (ما) أو صفتها، والهاء في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، وهو ضعيف، والأولى اعتبارها في محل نصب حال من واو الجماعة، والرابط: الواو، والضمير، ويجب تقدير ضمير قبلها؛ لأن الجملة المضارعة الواقعة حالاً لا تقترن بالواو، وإن اقترنت بالواو؛ فيجب تقدير الضمير، قال ابن مالك في ألفيته: [الرجز]

وَذَاتُ بَدْءٍ بِمُضَارِعٍ ثَبَتْ   حَوَتْ ضَمِيراً وَمِنَ الْوَاوِ خَلَتْ
وَذَاتُ وَاوٍ بَعْدَهَا انْوِ مُبْتَدَا   لَهُ الْمُضَارِعَ اجْعَلَنَّ مُسْنَدَا

﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾: الواو: واو الحال. (هو الحق): مبتدأ وخبر، والجملة الاسمية في محل نصب حال من (ما) والعامل الفعل: (يكفرون)، والرابط الواو، والضمير. ﴿مُصَدِّقًا﴾: حال مؤكدة لمضمون الجملة الاسمية قبلها، ومثلها قول سالم بن دارة اليربوعي، وهو الشاهد رقم [٣٨٥] من كتابنا: «فتح رب البرية»: [البسيط]

أَنَا ابْنُ دَارَةَ مَعْرُوفاً بِهَا نَسَبِي   وَهَلْ بِدَارَةَ يَا لَلنَّاسِ مِنْ عَارِ؟

﴿لِّمَا﴾: جار ومجرور متعلقان بـ ﴿مُصَدِّقًا﴾، وانظر الآية رقم [٤١] ﴿مَعَهُمْ﴾: ظرف مكان متعلق بمحذوف صلة (ما) والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: «أنت»، ﴿فَلِمَ﴾: الفاء: صلة، أو هي الفصيحة؛ لأنها تفصح عن شرط مقدر، التقدير: قل: إن كنتم آمنتم بما أنزل عليكم؛ فلم... (لِمَ): جار ومجرور متعلقان بالفعل بعدهما، وعلامة الجر الألف المحذوفة للفرق بين الخبر والاستخبار. ﴿تَقْتُلُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله. ﴿أَنۢبِيَآءَ﴾: مفعول به وهو مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾ مضاف إليه. ﴿مِن قَبْلُ﴾: متعلقان بالفعل ﴿تَقْتُلُونَ﴾، أو بمحذوف حال من: ﴿أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ وبُني ﴿قَبْلُ﴾ على الضم لقطعه عن الإضافة لفظاً لا معنىً، والجملة الفعلية: (لم تقتلون) في محل جزم جواب للشرط المقدر بـ «إنْ» والجملة الشرطية في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قُلْ...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها.

﴿إِن﴾: حرف شرط جازم. ﴿كُنتُم﴾: فعل ماض ناقص مبني على السكون في محل جزم فعل الشرط، والتاء اسمه. ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾: خبر (كان) منصوب، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها ابتدائية، ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفي، وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله؛ إذ التقدير: إن كنتم مؤمنين؛ فلم تقتلون، ويكون الشرط وجوابه قد ذكر مرَّتين، فحذف الشرط من الجملة الأولى، وبقي جوابه: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ﴾: وحُذف الجواب من الثاني، وبقي شرطه، فقد حُذف من كلٍّ واحدة ما أثبت في الأخرى. انتهى. جمل. ثم قال: والوجه الثاني أنَّ (إنْ) نافية بمعنى «ما» أي: ما كنتم مؤمنين، لمنافاة ما صدر منكم للإيمان. انتهى. نقلاً عن السمين. وهذا غير مسلم، والمعنى لا يؤيده.

﴿۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾﴾

الشرح: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: الخطاب لليهود المعاصرين للنبي ﷺ، والمراد آباؤهم. و(البينات) هي قوله تعالى في سورة (الإسراء) رقم [١٠١]: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ

﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ وهي: العصا، واليد، والسنون، والدم، والطُّوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، وفلق البحر. وقيل: البينات: التوراة لما فيها من الدَّلالات. ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ﴾ أي: عبدتموه إلهاً، انظر الآية رقم [٥١]. ﴿وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾ أي: لأنفسكم بهذا الاتخاذ، ولم تضروا أحداً من الناس؛ لأنه شرك وكفر.

الإعراب: ﴿وَلَقَدۡ﴾: الواو: حرف قسم وجر، والمقسم به محذوف، التقدير: والله، والجار والمجرور متعلِّقان بفعل محذوف، تقديره: أقسم، واللام: واقعة في جواب القسم. (قد): حرف تحقيق يقرب الماضي من الحال. ﴿جَآءَكُم﴾: فعل ماض، والكاف مفعوله. ﴿مُّوسَىٰ﴾ فاعل مرفوع وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف للتعذُّر. ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ متعلقان بالفعل قبلهما، أو هما متعلقان بمحذوف حال من موسى، التقدير: ملتبساً بالبينات، والجملة الفعلية: (لقد...) جواب القسم لا محل لها، انظر ما ذكرته في الآية رقم [٦٥]. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿ٱتَّخَذۡتُمُ﴾: فعل، وفاعل، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها لا محلَّ لها مثلها. ﴿ٱلۡعِجۡلَ﴾: مفعول به أول. ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾: متعلقان بمحذوف حال من ﴿ٱلۡعِجۡلَ﴾ أي: اتخذتم العجل إلهاً من بعده، وإن اعتبرته مفعولاً ثانياً، فالجار والمجرور متعلقان بمحذوف صفة له، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿وَأَنتُمۡ﴾: الواو: واو الحال. (أنتم): ضمير منفصل مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿ظَٰلِمُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل نصب حال من تاء الفاعل، والرابط: الواو، والضمير. هذا؛ والكلام: ﴿وَلَقَدۡ...﴾ إلخ مستأنف لا محلَّ له.

﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱسۡمَعُواْۖ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ بِكُفۡرِهِمۡۚ قُلۡ بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٩٣﴾

الشرح: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾: انظر الآية رقم [٦٣] ففيها الكفاية. ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾: انظر الآية نفسها. ﴿وَٱسۡمَعُواْۖ﴾ أي: اسمعوا سماع قبول، وطاعة، والتزام، وليس المراد سماع اللَّفظ مجرداً عمَّا ذُكر، ومنه قولهم في الصَّلاة: «**سمع الله لمن حمده**» أي: قبل، وأجاب، قال الشاعر: [الوافر]

دَعَوْتُ اللهَ حَتَّى خِفْتُ أَلَّا ... يَكُونَ اللهُ يَسْمَعُ مَا أَقُولُ

أي: يقبل، وقال الراجز: [الرجز]

وَالسَّمْعُ وَالطَّاعَةُ وَالتَّسْلِيمْ ... خَيْرٌ وَأَعْفَى لِبَنِي تَمِيمْ

﴿قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا﴾: اختلف: هل صدر منهم هذا اللفظ حقيقةً باللِّسان نطقاً، أو يكونوا فعلوا فعلاً قام مقام القول، فيكون مجازاً، كما قال الآخر: [الرجز]

امْتَلأَ الْحَوْضُ وَقَالَ قَطْنِي مَهْلاً رُوَيْداً قَدْ مَلأْتُ بَطْنِي

وهذا احتجاج عليهم في قولهم في الآية رقم [٩١]: ﴿قَالُواْ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا﴾. ﴿وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ﴾ أي: حب العجل، والمعنى: جعلت قلوبهم تشربه، وهذا تشبيه، ومجاز عبارة عن تمكن أمر العجل في قلوبهم، وفي الحديث قال رسول الله ﷺ: «**تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِير عُوداً عُوداً، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا؛ نُكِتَ فيه نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ**». أخرجه مسلم، يقال: أشرب قلبُه حبَّ كذا، قال زهير بن أبي سلمى: [الكامل]

فَصَحَوْتُ عَنْهَا بَعْدَ حُبٍّ دَاخِلٍ وَالْحُبُّ تُشْرِبُهُ فُؤَادَكَ دَاءُ

وإنما عبَّر عن حبِّ العجل بالشُّرب دون الأكل؛ لأنَّ شرب الماء يتغلغل في الأعضاء حتَّى يصل إلى باطنها، والطَّعام مجاور غير متغلغل فيها، وقد زاد على هذا المعنى أحد التابعين، فقال في زوجته عَثْمَةَ، وكان قد عتب عليها في بعض الأمر، فطلَّقها، وكان محبّاً لها: [الوافر]

تَغَلْغَلَ حُبُّ عَثْمَةَ فِي فُؤَادِي فَبَادِيهِ مَعَ الْخَافِي يَسِيرُ

تَغَلْغَلَ حَيْثُ لَمْ يَبْلُغْ شَرَابٌ وَلَا حُزْنٌ وَلَمْ يَبْلُغْ سُرُورُ

أَكَادُ إِذَا ذَكَرْتُ الْعَهْدَ مِنْهَا أَطِيرُ لَو أَنَّ إِنْسَاناً يَطِيرُ

هذا ولا تنس ندامة الفرزدق حين طلق النَّوار، فقال: [الوافر]

نَدِمْتُ نَدَامَةَ الْكُسَعِيِّ لَمَّا غَدَتْ مِنِّي مُطَلَّقَةً نَوَارُ

وَكَانَتْ جَنَّتِي فَخَرَجْتُ مِنْهَا وَأَصْبَحَ لَا يُضِيءُ لِيَ النَّهَارُ

وقال السُّديُّ، وابن جريج ـ رحمهما الله تعالى ـ: إنَّ موسى، على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ بَرَدَ العجلَ، وذرَّاه في الماء، وقال لبني إسرائيل: اشربوا من ذلك الماء، فشرب جميعُهم، فمن كان يحب العجل خرجت برادة الذَّهب على شفتيه. أما تذريته في البحر فقد دلَّ عليه قوله تعالى في سورة (طه) رقم [٩٧]: ﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا﴾ وأما شرب الماء، وظهور البرادة على الشفاه، فيردُّه قوله تعالى: ﴿وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ بِكُفۡرِهِمۡۚ﴾: بسبب كفرهم، وخروجهم عن طاعة ربهم. هذا؛ وفيه استعارة مكنية، فقد شبه حبَّ العجل بمشروبٍ لذيذٍ سائغ الشراب، وطوى ذكر المشبه به، ورمز إليه من لوازمه، وهو الإشراب على طريق الاستعارة المكنية.

﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ﴾ الذي زعمتم في قولكم: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ فكيف تدعون الإيمان لأنفسكم، وقد فعلتم الأفاعيل، من كفركم بآيات الله، ومخالفتكم الأنبياء، بل وقتلكم إيَّاهم، ثم كفركم بمحمد ﷺ خاتم الرُّسل، وسيد الأنبياء المبعوث إلى النَّاس أجمعين؟!

الإعراب: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾: انظر إعراب هذا الكلام في الآية رقم [٦٣] القريبة منك. ﴿قَالُوا۟﴾: فعل ماض، وفاعله، والألف للتفريق. ﴿سَمِعْنَا﴾: فعل، وفاعل، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول، والتي بعدها معطوفة عليها، فهي في محل نصب مقول القول أيضاً، ومفعول الفعلين محذوف لعلمه من المقام، وجملة: ﴿قَالُوا۟﴾: مستأنفة لا محلَّ لها؛ لأنها بمنزلة جواب لسؤال مقدَّر نشأ من الكلام السابق. ﴿وَأُشْرِبُوا۟﴾: الواو: واو الحال. (أشربوا): فعل ماض مبني للمجهول مبني على الضم، والواو نائب فاعله، وهو المفعول الأوَّل. ﴿فِى قُلُوبِهِمُ﴾: متعلقان بمحذوف حال مِنْ: حبِّ العجل المذكور بعدهما، وهو أولى من تعليقهما بالفعل قبلهما، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿ٱلْعِجْلَ﴾: مفعول به ثان، وهو في الأصل مضاف إليه انظر الشرح. ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾: متعلقان بالفعل (اشربوا) والهاء في محل جر بالإضافة من إضافة المصدر لفاعله. وجملة: (أشربوا): في محل نصب حال من واو الجماعة في: ﴿قَالُوا۟﴾ والرابط الواو، وهي على تقدير «**قد**» قبلها، والحالية أقوى من العطف على جملة: ﴿قَالُوا۟﴾. وقيل: مستأنفة لا محل لها، وهو ضعيف.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: «أنت». ﴿بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ﴾: انظر إعراب هذا الكلام في الآية رقم [٩٠] والمخصوص بالذم محذوف؛ أي: المذموم عبادة العجل، وهذا المخصوص يجوز فيه ما ذكرته في الآية المذكورة من التقديم والتأخير، والجملة ﴿بِئْسَمَا﴾ في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قُلْ بِئْسَمَا﴾: مستأنفة لا محل لها. ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾: انظر إعراب هذه الجملة في الآية رقم [٩١] وما قيل فيها، والجواب محذوف تقديره: فَلِمَ قتلتم أنبياء الله؟ أو فَلِمَ كذَّبتم الرسل، وكتمتم الحق...؟

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾﴾

الشرح: ﴿إِن كَانَتْ لَكُمُ...﴾ قال القرطبيُّ ـ رحمه الله تعالى ـ: لمَّا ادعت اليهود دعاوى باطلة، حكاها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ عنهم في كتابه، كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ وقوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾، وقالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾؛ كذَّبهم الله؛ عزَّ وَجلَّ، وألزمهم الحجَّة، فقال: قل يا محمد: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ يعني: الجنَّة؛ ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾

في أقوالكم؛ لأنَّ من اعتقد أنَّه من أهل الجنة، كان الموت أحبَّ إليه، من الحياة الدنيا؛ لما يصير إليه من نعيم الجنة، ويزول عنه من أذى الدُّنيا، كما قال الإمام عليٌّ ـ كرم الله وجهه ـ: لا أُبالي أسقطتُ على الموت، أم سقط الموت عليَّ؟ وقال عمار بن ياسر ـ رضي الله عنه ـ بصفين: الآن ألقى الأحبة: محمداً، وحزبه. وقال ذلك بلال ـ رضي الله عنه ـ عند احتضاره، وقال حذيفة ـ رضي الله عنه ـ حين احتضر: [المتقارب]

وَجَاءَ حَبِيبٌ عَلَى فَاقَةٍ فَلَا أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ قَدْ نَدِمْ

﴿خَالِصَةً﴾: مصدر، كالعافية، والعاقبة؛ بمعنى: الخلوص؛ أي: خاصَّة بكم، لا يشارككم فيها أحد. ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ﴾ فسلوا الله الموت، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لو تمنَّى اليهود الموت؛ لماتوا، ولو تمنَّوا الموت؛ لشرق أحدهم بريقه. وقال ابن جرير: وبلغنا أنَّ النبي ﷺ قال: لو أن اليهود تمنوا الموت؛ لماتوا، ولرأوا مقاعدهم من النَّار، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ؛ لرجعوا لا يجدون أهلاً، ولا مالاً. ونظير هذه الآية قوله تعالى في سورة (الجمعة) رقم [٦]: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ...﴾ إلخ، ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي: في دعواكم: أنَّ الجنة لكم دون غيركم، وانظر التمنِّي في الآية رقم [٧٨].

الإعراب: ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: «أنت». ﴿إِن﴾: حرف شرط جازم. ﴿كَانَتْ﴾: فعل ماض ناقص مبني على الفتح في محل جزم فعل الشرط، والتاء تاء التأنيث. ﴿لَكُمُ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر (كان) تقدم على اسمها. ﴿ٱلدَّارُ﴾: اسم (كان) المؤخر، وهو على حذف مضاف؛ إذ التقدير: نعيم الدار، فحذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه. ﴿ٱلْءَاخِرَةُ﴾: صفة ﴿ٱلدَّارُ﴾. ﴿عِندَ﴾ ظرف مكان متعلق بـ ﴿خَالِصَةً﴾ و﴿دُونِ﴾ مضاف، و﴿ٱلنَّاسِ﴾: مضاف إليه. ﴿خَالِصَةً﴾: حالٌ من: ﴿ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ﴾، ﴿مِّن دُونِ﴾: متعلقان بـ ﴿خَالِصَةً﴾. هذا وجهٌ لإعراب هذه الجملة، وهناك وجهٌ ثانٍ، وهو: أن ﴿خَالِصَةً﴾: خبر: (كان)، و﴿لَكُمُ﴾ متعلقان بـ ﴿خَالِصَةً﴾ أو بـ (كان) عند من يجيز التعليق بها، و﴿عِندَ﴾ متعلق بـ ﴿خَالِصَةً﴾. ووجه ثالث، وهو أنَّ الخبر متعلق بالظرف: ﴿عِندَ﴾، و﴿خَالِصَةً﴾ حال من الدار، والعامل فيها إمَّا ﴿عِندَ﴾ أو ما يتعلق به، أو (كان) أو ﴿لَكُمُ﴾ على اعتبارهما متعلقين بـ (كان).

﴿فَتَمَنَّوُاْ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (تمنوا): فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتَّفريق. ﴿ٱلْمَوْتَ﴾: مفعول به، والجملة: (تمنوا الموت) في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور، والدسوقي يقول: لا محل لها؛ لأنها لا تحل محلَّ المفرد، وجملة: (كانت) لا محل لها؛ لأنها ابتدائية، ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفي، والشرط، ومدخوله في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قُلْ...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها، وقيل: كرر

الأمر تأكيداً لما في الجملة السَّابقة، والغرض من ذلك إظهار كذب اليهود في فنٍّ آخر مِنْ أباطيلهم، وافتراءاتهم. ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾: انظر الآية رقم [٩١] فالإعراب لا يتغيَّر، والتقدير هنا: إن كنتم مؤمنين؛ فتمنوا الموت.

﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾﴾

الشرح: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ﴾ أي: الموت؛ لما يعلمون من مآلهم السَّيئ، وعاقبتهم عند الله الخاسرة. ﴿أَبَدًا﴾: الأبد: هو الزمان الطويل، الذي ليس له حدٌّ، فإذا قلت: لا أكلمك أبداً، فالأبد من وقت التكلم إلى آخر العمر. ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بما فعلوا من الكفر بمحمد ﷺ، وتحريف التوراة، ونسب إلى الأيدي جميع ما اقترفوه؛ لأن أكثر الأعمال تزاول باليد، ﴿عَلِيمٌ﴾: صيغة مبالغة. (الظالمين): الكافرين حيث ظلموا أنفسهم بالكفر، وقال: ﴿بِالظَّالِمِينَ﴾ ولم يقل: بهم؛ إقامة للظاهر مقام المضمر، إشارةً إلى أنهم غارقون بالظلم، والفساد، والطغيان، وفيه وعيد، وتهديد لا يخفيان. هذا؛ والحكمة في الإتيان بـ (لن) بقوله: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ﴾ أبداً هنا وفي سورة الجمعة بـ (لا) بقوله: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا﴾: أنَّ ادِّعاءهم هنا أعظم من ادِّعائهم هناك، فإنَّهم ادعوا هنا اختصاصهم بالجنَّة، وهناك كونهم أولياء لله من دون الناس، فناسب هنا التوكيد بـ (لن) المفيدة للنفي في الحاضر، والمستقبل، وأما هناك فاكتفى بالنفي.

وقال الزمخشري: لا فارق بين (لا) و(لن) في أنَّ كل واحدةٍ منهما نفي للمستقبل إلا أن في (لَنْ) تأكيداً وتشديداً ليس في (لا) فأتى بلفظ التأكيد في ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ﴾ أي في هذه الآية، ومرَّة بغير لفظه في سورة الجمعة في: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا﴾. قال الشيخ: هذا رجوع عن مذهبه ـ وهو أن «لن» تقتضي النفي على التأبيد ـ إلى مذهب الجماعة، وهو أنَّها لا تقتضيه. قلت: ليس فيه رجوع، غاية ما فيه: أنه سكت عنه، وتشريكه بين (لا) و(لن) في نفي المستقبل لا ينفي اختصاص (لن) بمعنى آخر. جمل. نقلاً عن السَّمين.

الإعراب: ﴿وَلَن﴾: الواو: حرف استئناف. (لن): حرف نفي، ونصب، واستقبال، ﴿يَتَمَنَّوْهُ﴾: فعل مضارع منصوب بـ (لَنْ) وعلامة نصبه حذف النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والهاء مفعوله، والجملة الفعلية مستأنفة لا محل لها. ﴿أَبَدًا﴾: ظرف زمان متعلق بالفعل قبله. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، و(ما) تحتمل الموصولة، والموصوفة، والمصدرية، والأول أقوى. ﴿قَدَّمَتْ﴾: فعل ماض، والتاء تاء للتأنيث. ﴿أَيْدِيهِمْ﴾: فاعل مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء للثقل، والهاء في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية صلة (ما) أو صفتها، والعائد أو الرابط محذوف؛ إذ التقدير: بالذي، أو بشيء قدمته أيديهم، وعلى اعتبارها مصدرية تؤول مع الفعل بعدها بمصدر في محل جر بالباء، أي: بتقديم

أيديهم، وهو ضعيف كما ترى. والجملة الاسمية: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾: في محل نصب حال من الضمير المجرور محلاً بالإضافة، والرابط: الواو فقط.

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٩٦)﴾

الشرح: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ﴾: الخطاب للنبيِّ ﷺ ولكلِّ عاقل، والضمير المنصوب عائد على اليهود. ﴿أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾ أي: فاليهود شديدو الحرص على الحياة، ولا يتمنون الموت؛ لمعرفتهم بذنوبهم، وأنَّه لا خير لهم عند الله. ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ أي: وأحرص من الذين أشركوا، ومشركو العرب لا يعرفون إلا هذه الحياة، ولا علم لهم عن الآخرة، وكذلك المجوس، والهندوس الذين يقولون بتناسخ الأرواح، ولا حساب، ولا جزاء. والغرض من ذلك توبيخ اليهود، وتقريعهم؛ لأنَّهم يعلمون: أن الحريص الشَّحيح لا يدخل الجنَّة، والمشركون لا يعلمون ذلك، بل ولا يعتقدون بجنَّة، ولا بنار. هذا؛ والفعل: «حرص» على الشيء، يحرص، إذا رغب فيه رغبةً شديدة والحرص: الجشع، والطمع. ورجلٌ حريص: شديد البخل، وشديد المحافظة على المال. وعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أربعةٌ مِنَ الشَّقاء: جُمُودُ العينِ، وَقَسْوَةُ القلبِ، وطولُ الأَمَلِ، والحِرْصُ على الدُّنْيَا**». وخذ قول الشّاعر: [الوافر]

وَذِي حِرْصٍ تَرَاهُ يَلُمُّ وَفْراً ... لِوَارِثِهِ وَيَدْفَعُ عَنْ حِمَاهُ
كَكَلْبِ الصَّيدِ يَرْكُضُ وَهوَ طَاوٍ ... فَرِيسَتَهُ لِيَأْكُلَهَا سِوَاهُ

وقال آخر: [الكامل]

اِسْعَدْ بِمَالِكَ فِي الْحَيَاةِ فَإِنَّمَا ... يَبْقَى خِلَافَكَ مُصْلِحٌ أَوْ مُفْسِدُ
فَإِذا جَمَعْتَ لِمُفْسِدٍ لَمْ يُغْنِهِ ... وأَخُو الصَّلاحِ قَلِيلُهُ يَتَزَيَّدُ

وقال آخر: [البسيط]

يفنى الحَرِيْصُ بجمْعِ المالِ مُدَّتَهُ ... وَلِلْحَوادِثِ وَالْوُرَّاثِ مَا يَدَعُ
كَدُودة القَزِّ مَا تَبْنِيهِ يَهْدِمُهَا ... وَغَيْرُهَا بِالَّذِي تَبْنِيْهِ يَنْتَفِعُ

﴿يَوَدُّ﴾: يحب، ويتمنى. وأصله: يودد، والماضي: ودَّ، والودُّ: الحب، وهو بتثليث الواو، والودود: الكثير الحب. ﴿أَحَدُهُمْ﴾: (أحد) أصله: وحد؛ لأنه من الوحدة، فأبدلت الواو همزة، وهذا قليل في المفتوحة، وإنَّما يحسن في المضمومة، والمكسورة: مثل قولهم: في وجوه: أُجُوه، وفي وسادة: إسَادة، وهو مرادف للواحد في موضعين: أحدهما: وصف الباري

جلَّ في علاه. فيقال: هو الواحد وهو الأحد، والثاني: أسماء العدد: فيقال: أحد وعشرون، وواحد عشرون، وفي غير هذين الموضعين يفرق بينهما في الاستعمال، فلا يستعمل أحد إلا في النفي، وهو كثير في الكلام، أو في الإثبات مضافاً كما في هذه الآية، بخلاف الواحد، وقولهم: ما في الدار أحد، هو اسم لمن يعقل، ويستوي فيه الواحد، والمثنى، والجمع، والمذكر، والمؤنث، قال تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ الآية رقم [٣٢] من سورة (الأحزاب)، وقال جلَّ ذكره: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ الآية رقم [٤٧] من سورة (الحاقة)، وإن أردت الزيادة فانظر الآية رقم [٢٦] من سورة (الجن) تجد ما يسرك، ويثلج صدرك.

﴿يُعَمَّرُ﴾: يعيش. ﴿أَلْفَ سَنَةٍ﴾: كناية عن كثرة العدد، فليس المراد خصوص هذا العدد، وأصل ﴿سَنَةٍ﴾: سنو، وتصغيرها سُنيَّة، وسُنيهة، وجمعها: سنون بضم السين وكسرها، ويجمع على سنوات، وسنهات، السنة اثنا عشر شهراً، كما يطلق اسم الحول، والعام على هذه الأشهر.

﴿بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾: بمبعده، وفعله يكون لازماً، ومتعدياً، قال الشاعر في اللَّازم: [الطويل]

خَلِيلَيَّ مَا بَالُ الدُّجَى يَتَزَحْزَحُ ... وَمَا بَالُ ضَوْءِ الصُّبْحِ لَا يَتَوَضَّحُ

وقال ذو الرُّمَّة في المتعدِّي: [البسيط]

يا قَابِضَ الروحِ عَنْ جِسْمٍ عصَى زمناً ... وغَافِرَ الذَّنْبِ زَحْزِحْني عَنِ النَّارِ

وروى النَّسائيُّ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: «**مَنْ صَامَ يَوْماً فِي سَبِيلِ اللهِ زَحْزَحَ اللهُ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفاً**». هذا؛ واختلف في إرجاع الضمير على وجوه: أحدها: أنه عائد على (أحد) والثاني: أنه ضمير «التعمير» وقد دلَّ عليه: ﴿لَوْ يُعَمَّرُ﴾. وقال الفارسي موافقاً الكوفيين في قولهم: إنه ضمير الشأن: والبصريُّون يأبون تفسيره بالمفرد، بل لا بدَّ من جملةٍ مُصَرَّح بجزءيها، سالمة من حرف جرٍّ.

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي: بما يعمل هؤلاء الذين ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾. هذا؛ وقال العلماء: وصف الله ـ عزَّ وجلَّ ـ نفسه بأنه ﴿بَصِيرٌۢ﴾ على معنى: عالم بخفيات الأمور، والبصير في كلام العرب: العالم بالشَّيء، الخبير به.

الإعراب: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ﴾ الواو: حرف قسم وجر، والمقسم به محذوف تقديره: والله. والجار والمجرور متعلقان بفعل محذوف تقديره: أقسم، واللام واقعة في جواب القسم. (تجدنهم): فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة؛ التي هي حرف لا محل له، والفاعل مستتر تقديره: «أنت» والهاء مفعول به أوَّل. ﴿أَحْرَصَ﴾: مفعول به ثان، و(أحرص) مضاف، والناس مضاف إليه. ﴿عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾: متعلقان بـ ﴿أَحْرَصَ﴾.

هذا؛ ويجوز في اللغة: «أحرصي الناس» على حدِّ: ﴿أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا﴾ في سورة (الأنعام) رقم [١٢٣] وانظر حاشية الجمل، وجملة (لتجدنهم) جواب القسم لا محل لها، والقسم وجوابه

كلام مستأنف. ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ﴾: متعلقان بمحذوف دلَّ عليه ما قبله؛ إذ التقدير: وأحرص من الذين. وذكر أبو البقاء وجهاً آخر، وهو أنَّه على الاستئناف، وفحواه: أنَّ الجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم، والمبتدأ المؤخر محذوف، التقدير: ومن الذين أشركوا قومٌ يودُّ أحدهم، وهو وجهٌ ضعيف. ﴿أَشْرَكُواْ﴾: فعل ماض وفاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية صلة الموصول لا محل لها.

﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ﴾: مضارع، وفاعله، والهاء في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية في محل نصب حال من واو الجماعة، والرابط: الضمير فقط، وجوز أن تكون حالاً من الهاء في: (لتجدنهم) وقيل: مفسِّرة للحرص، وهذا على تعليق الجار والمجرور بـ ﴿أَحْرَصَ﴾ محذوفاً، وأما على تعليقهما بمحذوف خبر مقدم؛ فالجملة في محل رفع صفة «قوم» المحذوف، والمعتبر مبتدأ مؤخراً. ﴿لَوْ﴾: حرف مصدري. ﴿يُعَمَّرُ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول، ونائب الفاعل يعود إلى: ﴿أَحَدُهُمْ﴾. ﴿أَلْفَ﴾: ظرف زمان متعلق بالفعل قبله، و﴿أَلْفَ﴾ مضاف، و﴿سَنَةٍ﴾ مضاف إليه، و﴿لَوْ﴾ والفعل ﴿يُعَمَّرُ﴾ في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به.

﴿وَمَا﴾: الواو: واو الحال، أو الاستئناف. (ما): نافية حجازية تعمل عمل «ليس». ﴿هُوَ﴾: ضمير منفصل مبني على الفتح في محل رفع اسم (ما). ﴿بِمُزَحْزِحِهِۦ﴾: الباء: حرف جر صلة. (مزحزحه): خبر منصوب وعلامة نصبه فتحة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد. هذا؛ وإن اعتبرت (ما) مهملة فالضمير يكون مبتدأ، والباء زائدة في خبره، والهاء في محل جر بالإضافة من إضافة المصدر الميمي لمفعوله. ﴿أَن يُعَمَّرَ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول منصوب بـ ﴿أَن﴾، ونائب الفاعل يعود إلى ﴿أَحَدُهُمْ﴾ أيضاً، والمصدر المؤوَّل من الفعل، وناصبه في محل رفع فاعل: (مزحزحه)، وهذا على اعتبار الضمير عائداً على ﴿أَحَدُهُمْ﴾ وأما على اعتباره ضمير «التَّعمير» فالمصدر المؤول بدل منه؛ بدل ظاهر من مضمر، والجملة الاسمية: (ما هو) في محل نصب حال من ﴿أَحَدُهُمْ﴾ على الوجه الأول في الضمير، ومستأنفة لا محل لها على الوجه الثاني في الضمير، وهو أقوى من الحال.

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ﴾: مبتدأ وخبر. ﴿بِمَا﴾ متعلقان بـ ﴿بَصِيرُۢ﴾؛ لأنه صيغة مبالغة، و(ما) تحتمل الموصولة، والموصوفة، والمصدرية، فعلى الأولين مبنية على السكون في محل جر بالباء. ﴿يَعْمَلُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله، والجملة الفعلية صلة (ما) أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف، التقدير: بالذي، أو بشيء يعملونه، وعلى اعتبار (ما) مصدرية تؤول مع الفعل بعدها بمصدر في محل جرٍّ بالباء، التقدير: بعملهم، والجملة الاسمية: (الله بصير) في محل نصب حال من الضمير المنصوب في (لتجدنهم) أو هي مستأنفة، وهو أولى.

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾﴾

الشرح: ﴿قُلْ﴾: فيه خطاب للنبي ﷺ ولكلِّ أحد. ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾: في (جبريل) عشر لغات. ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ﴾: الضمير في (إنَّه) يحتمل معنيين: الأول: فإنَّ الله نزل جبريل على قلبك. والثاني: فإن جبريل ينزل بالقرآن على قلبك. وخصَّ القلب بالذِّكر؛ لأنه موضع العقل، والعلم، وتلقِّي المعارف. ودلَّت الآية على شرف جبريل عليه السلام، وذمِّ معاديه. ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: بإرادته، وعلمه. ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب السابقة: التوراة، والإنجيل، والضَّمير يعود إلى القرآن، ولم يتقدَّم له ذكر لعلمه من المقام. ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ خص المؤمنين؛ لأنَّهم هم المنتفعون بالقرآن، بخلاف غيرهم من المنافقين، والفاسقين، والفاجرين.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: سبب نزول الآية: أنَّ عبد الله بن صوريا ـ حبر من أحبار اليهود ـ قال للنبي ﷺ: أيُّ مَلَكٍ يأتيكَ من السَّماء؟ قال: «**جبريل**». قال: ذاك عدُّونا، ولو كان ميكائيل؛ لآمنا بك، واتَّبعناك، إنَّ جبريل ينزل بالعذاب، والشِّدَّة، والخسف، وإنَّه عادانا مراراً، وأشدُّ ذلك علينا: أن الله أنزل على نبيِّنا: أنَّ بيت المقدس سيخرب على يد رجل يقال له: بختنصر، فلمَّا كان زمنُه؛ بعثنا إليه مَنْ يقتلُه، فلقيه ببابل غلاماً مسكيناً، فأخذه ليقتله، فدفع عنه جبريل، وقال: إنْ كان الله أمر بهلاككم، فلن تُسلط عليه، وإن لم يكن هو؛ فعلى أيِّ حقٍّ تقتله؟! فلمَّا كبُر ذلك الغلام، وقوي؛ غزانا، وخرَّب بيت المقدس، فلهذا نتخذه عدوّاً. فأنزل الله هذه الآية. انتهى. خازن.

وقيل: إنَّ عمر ـ رضي الله عنه ـ كان له أرض بأعلى المدينة، وكان ممرُّه إليها على مدارس اليهود، فكان يجلس إليهم، ويسمع كلامهم، فقالوا له يوماً: مَنْ صاحب محمد الذي يأتيه من الملائكة؟ قال: جبريل، قالوا: ذاك عدوُّنا، يُطْلِع محمداً على سرِّنا، وهو صاحب كلِّ عذاب، وخسف، وشدَّة، وإنَّ ميكائيل يجيء بالخصب، والسلامة. فقال لهم: تعرفون جبريل، وتنكرون محمداً ﷺ، قالوا: نعم، فقال: أخبروني عن منزلة جبريل، وميكائيل من الله تعالى؟ قالوا: جبريل عن يمينه، وميكائيل عن يساره، وميكائيل عدوٌّ لجبريل، فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: أشهد أنَّ من كان عدوّاً لأحدٍ كان عدوّاً للآخر، ومن كان عدوّاً لهما كان عدوّاً لله، ثم رجع عمر إلى النَّبيِّ ﷺ، فوجد جبريل عليه السلام قد سبقه بالوحي، فقرأ رسول الله ﷺ عليه هذه الآيات: وقال: لقد وافقك ربُّك يا عمر! فقال ـ رضي الله عنه ـ: والله لقد رأيتني بعد ذلك في ديني أصلب من الحجر. خازن. بتصرف كبير.

الإعراب: ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: «أنت». ﴿مَن﴾: اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص مبني على الفتح في محل جزم

فعل الشرط، واسمه ضمير مستتر تقديره: «هو» يعود إلى ﴿مَن﴾. ﴿عَدُوًّا﴾: خبر ﴿كَانَ﴾. ﴿لِّجِبْرِيلَ﴾: متعلقان بـ ﴿عَدُوًّا﴾ أو بمحذوف صفة له، وعلامة الجرِّ الفتحة نيابة عن الكسرة؛ لأنه ممنوع من الصرف للعلمية، والعجمة. وقيل: للتركيب المزجي، ولا وجه له؛ لأنَّ الجزء الأول منه لم يبنَ على الفتح كما هو شرط التركيب المزجي، وجواب الشرط محذوف، التقدير: فليمت غيظاً، ونحوه، وخبر المبتدأ الذي هو ﴿مَن﴾ مختلف فيه، كما رأيت في الآية رقم [٨١] ﴿فَإِنَّهُ﴾: الفاء: حرف تفريع عمَّا قبلها. (إنَّه): حرف مشبه بالفعل، والهاء في محل نصب اسمها. ﴿نَزَّلَهُ﴾: فعل ماض والفاعل مستتر تقديره: «هو»، يعود إلى ﴿ٱللَّهِ﴾ أو إلى (جبريل) والهاء مفعول به، والجملة الفعلية في محل رفع خبر (إنَّ) والجملة الاسمية مفرعة عمَّا قبلها، وهي والجملة الاسمية: ﴿مَن كَانَ...﴾ كلتاهما في محل نصب مقول القول، وجملة ﴿قُلْ...﴾: مستأنفة لا محل لها. ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾: متعلقان بما قبلهما، والكاف في محل جر بالإضافة. ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: متعلقان بمحذوف حال من فاعل (نزل) المستتر؛ أي: نزله ملتبساً، أو مقروناً بإذن، و(إذن) مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾: مضاف إليه من إضافة المصدر لفاعله. ﴿مُصَدِّقًا﴾: حال من الضمير المنصوب. (لما): متعلقان بـ ﴿مُصَدِّقًا﴾ وانظر الآية رقم [٤١] ﴿بَيْنَ﴾: ظرف مكان متعلق بمحذوف صلة الموصول، التقدير: للذي نزل بين، و﴿بَيْنَ﴾ مضاف. و﴿يَدَيْهِ﴾ مضاف إليه مجرور، وعلامة جره الياء نيابة عن الكسرة؛ لأن لفظه مثنى، وحذفت النون للإضافة، والهاء في محل جر بالإضافة.

﴿وَهُدًى﴾: معطوف على مصدقاً منصوب مثله، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على الألف المحذوفة، والثابتة دليل عليها، وليست عينها. ﴿وَبُشْرَىٰ﴾: معطوف على ما قبله منصوب أيضاً، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على الألف للتعذر. ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾: متعلقان بالمصدرين على التنازع، أو بمحذوف صفة لهما.

﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾

الشرح: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾: جاء ذكر هذين الملكين بعد ذكر الملائكة، فهو من باب ذكر الخاصِّ بعد العام للتشريف، والتعظيم، والتنويه بشأنهما، ورفعة قدرهما. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ فيه إيقاع الظاهر موقع الضمير؛ حيث لم يقل: فإنه عدو لهم؛ لتقرير ما تقدم من المعنى، وإعلام الكافرين بأن مَنْ عادى وليّاً لله؛ فقد عادى الله، ومن عادى الله؛ فإنَّ الله عدوٌّ له، ومن كان الله عدوَّه؛ فقد خسر الدنيا والآخرة. ولا تنس مراعاة لفظ (مَنْ) بإرجاع اسم ﴿كَانَ﴾ إليها، ومراعاة معناها بقوله: ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾.

هذا؛ و(جبريل) و(ميكال): ملكان كريمان، بل هما ملكان من الرؤساء العشرة الذين يجب على كلِّ مسلم ومسلمة أن يعرف أسماءهم، وهم: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وعزرائيل، ومنكر، ونكير، ورقيب، وعتيد، ورضوان، ومالك، ولكلٍّ واحدٍ منهم عملٌ موكول إليه، وتحت يده وأمره جنودٌ من الملائكة يقومون بتنفيذ ذلك.

و(جبريل) أعجمي، فلذلك لا يتصرف، وقد تصرفت فيه العرب على عادتها في الأسماء الأعجمية، فجاءت فيه بثلاث عشرة لغة، أشهرها، وأفصحها: جبريل، وهي لغة أهل الحجاز، قال حسَّان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ: [الوافر]

وجِبْريلٌ رسولُ الله فِينَا ورُوح القُدْسِ لَيْسَ بِهِ خَفَاءُ

والثانية: جَبريل بفتح الجيم، الثالثة: جبرئيل، كما قرأ أهل الكوفة، وأنشدوا: [الطويل]

شَهِدْنا فَمَا تلقى لَنا مِنْ كَتيبةٍ مدَى الدَّهرِ إلا جبرئيلُ أمَامَها

الرابعة: جبرألٌّ، الخامسة: جبرائيل. السادسة: جبرائل. السابعة: جبرابيل. الثامنة: جبرال، والتاسعة، والعاشرة: جبرين بكسر الجيم وفتحها، الحادية عشرة: جبرائين، الثانية عشرة: جبرألْ، والثالثة عشرة: جِبْرَيْل بصيغة المصغر، وقد قرئ باللغات الأربع الأولى، قال النَّحاس: ويجمع جبريل على التَّكسير: جباريل.

ميكال: اسم أعجمي، والكلام فيه كالكلام في جبريل، وفيه سبع لغات: ميكال بوزن مِفْعَال، وهي لغة أهل الحجاز فيه، قال كعب بن مالك ـ رضي الله عنه ـ: [البسيط]

وَيومَ بَدْرٍ لَقِينَاكُمْ لَنَا مَدَدٌ فِيهِ مَعَ النَّصرِ ميكالٌ وجبريلُ

وقال آخر: [الكامل]

عَبَدوا الصَّليبَ وكذَّبوا بمحمَّدٍ وَبِجَبْرَئِيل وكذَّبوا مِيكَالا

الثانية: ميكائل، الثالثة: ميكائيل، الرابعة: ميكئيل، الخامسة: ميكئل، السادسة: ميكاييل، السَّابعة: ميكاءل، وقرئ بالستة ما عدا السَّابعة. وحكى الماوردي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أن جبر بمعنى عبد، وميكا بمعنى عبيد، و«إيل» اسم من أسماء الله أي: بالعبرانية، فيكون معنى جبرئيل: عبد الله، ومعنى ميكائيل: عبيد الله، قال: ولا نعلم لابن عباس مخالفاً في ذلك. وانظر ما ذكرته في إسرافيل في الآية رقم [٤٠]. وقال القرطبيُّ ـ رحمه الله تعالى ـ: وزاد بعض المفسرين: وإسرافيل معناه: عبد الرحمن.

الإعراب: ﴿مَن﴾: اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص مبني على الفتح في محل جزم فعل الشرط، واسمه مستتر تقديره: «هو»، يعود إلى ﴿مَن﴾.

﴿عَدُوًّا﴾ خبر ﴿كَانَ﴾. ﴿لِّلَّهِ﴾: متعلقان بـ ﴿عَدُوًّا﴾ أو بمحذوف صفة له. ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾: معطوفان على لفظ الجلالة، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾: معطوفان أيضاً، وعلامة الجر فيهما الفتحة نيابة عن الكسرة لمنعهما من الصَّرف، للعلمية، والعجمية.

﴿فَإِنَّ﴾: (الفاء): واقعة في جواب الشرط. (إنَّ): حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿عَدُوٌّ﴾: خبرها. ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾: متعلقان بـ ﴿عَدُوٌّ﴾ أو بمحذوف صفة له، وقيل: جواب الشرط محذوف، كالآية السابقة، كما رأيت تقديره، والجملة الاسمية معطوفة على ذلك المحذوف، وخبر المبتدأ الذي هو مختلف فيه، كما رأيت فيما تقدم. هذا؛ واعتبار (مَنْ) موصولة في هذه الآية، وسابقتها رقم [٨١] ضعيفٌ والجملة الاسمية: ﴿مَن كَانَ...﴾ إلخ فهي بمنزلة التوكيد للآية السابقة.

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾﴾

الشرح: المعنى أنزلنا إليك يا محمد علاماتٍ واضحاتٍ، دالَّات على نبوَّتك. وتلك الآيات هي ما حواه كتاب الله من خفايا علوم اليهود، ومكنونات سرائر أخبارهم، وأخبار أوائلهم من بني إسرائيل، والنبأ عما تضمَّنته كتبهم التي لم يكن يعلمها إلا أحبارهم، وعلماؤهم، وما حرفه أوائلهم، وأواخرهم، وما بدَّلوه من أحكامهم التي كانت في التوراة، فأطلع الله في كتابه الذي أنزله على نبيِّه محمد ﷺ، فكان في ذلك من أمره الآيات البينات لمن أنصف من نفسه، ولم يدعهم إلى تبديلها، وإنكارها إلا الحسد، والبغي. والآية الكريمة نزلت رداً على ابن صوريا، وغيره من أحبار اليهود الذين قالوا: ما أنزل في التوراة في شأن محمد ﷺ من شيء.

﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ﴾: بالآيات الموجودة في القرآن الكريم، وفي التوراة الصحيحة قبل التحريف، والتبديل. ﴿إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ﴾: الكافرون، والفاجرون الخارجون عن طاعة الله، وطاعة رسله.

الإعراب: ﴿وَلَقَدْ﴾: الواو: حرف قسم وجر، والمقسم به محذوف، تقديره: والله. والجار والمجرور متعلقان بفعل محذوف، تقديره: أقسم، واللام: واقعة في جواب القسم. (قد): حرف تحقيق يقرب الماضي من الحال. ﴿أَنزَلْنَآ﴾: فعل وفاعل. ﴿إِلَيْكَ﴾ متعلقان بما قبلهما، والجملة الفعلية جواب القسم، لا محل لها، والقسم وجوابه كلام مستأنف، انظر الآية رقم [٦٥]. ﴿ءَايَٰتٍۭ﴾: مفعول به. ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾: صفة الآيات، وعلامة نصبهما الكسرة نيابة عن الفتحة؛ لأنهما جمعا مؤنث سالمان.

﴿وَمَا﴾: الواو: واو الحال. (ما): نافية. ﴿يَكْفُرُ﴾: فعل مضارع. ﴿بِهَآ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿إِلَّا﴾: حرف حصر. ﴿ٱلْفَٰسِقُونَ﴾: فاعل. ﴿يَكْفُرُ﴾: مرفوع، وعلامة رفعه الواو نيابة عن الضمة؛ لأنه جمع مذكر سالم، والنون عوض عن التنوين في الاسم المفرد، وجملة: (ما يكفر) في محل نصب حال من ﴿ءَايَٰتٍۭ﴾ والرابط: الواو، والضمير، وساغ ذلك؛ لأن ﴿ءَايَٰتٍۭ﴾

وصفت، فتخصَّصت، وقال في روح المعاني: الجملة الفعلية معطوفة على جواب القسم. والأول أقوى فيما يظهر لي، والله أعلم، وأجلُّ، وأكرم.

﴿أَوَكُلَّمَا عَـٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

الشرح: (أَوَ): الواو حرف عطف، دخلت عليها ألف الاستفهام، كما دخلت على الفاء في قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ وغيرها كثير، وكما دخلت على ثمَّ كقوله تعالى: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم﴾ هذا قول سيبويه، وقال الأخفش: زائدة. ومذهب الكسائي: أنها (أَوْ) تحركت الواو منها تسهيلاً، وقرأها قوم: (أو) ساكنة الواو، فتجيء بمعنى «بل». وقال ابن عطية: وهذا تكلُّف، والصحيح قول سيبويه. وانظر ما ذكرته في ﴿أَفَلَا﴾ في الآية رقم [٤٤] فإنَّه جيد. (كلما عاهدوا عهداً): انظر الآية رقم [٢٧] ففيها الكفاية، والمعنِيُّ في الآية: مالك بن الصَّيف من أحبار اليهود، كان قد قال: والله ما أُخِذَ علينا عهد في كتابنا أَن نؤمن بمحمَّد، ولا ميثاق: فنزلت هذه الآية الكريمة، وكانوا يقولون قبل مبعث النبي ﷺ: لئن خرج محمَّد لنؤمنَنَّ به، ولنكونَنَّ معه على مشركي العرب، فلمَّا بعث ﷺ؛ كفروا به. انظر ما ذكرته في الآية رقم [٨٩] فإنَّه جيد، وقال عطاء: هي العهود التي كانت بين النَّبي ﷺ وبين اليهود، فنقضوها، كفعل قريظة، والنضير، وقينقاع، ودليله قوله تعالى في سورة (الأنفال) رقم [٥٦]: ﴿ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾. ﴿نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾: النبذ: الطرح، والإلقاء، ومنه: النبيذ، والمنبوذ، وقال أبو الأسود الدؤلي ـ رحمه الله تعالى ـ: [الطويل]

وَخَبَّرَنِي مَنْ كُنْتُ أرسَلْتُ إِنَّمَا ... أَخذتَ كِتَابِي مُعرِضاً بِشِمَالكا
نظرتَ إِلَى عِنْوَانِهِ فنبذْتَهُ ... كَنَبْذِكَ نَعْلاً أَخْلَقَتْ مِنْ نِعَالِكَا

وقال آخر: [الكامل]

إِنَّ الَّذِينَ أَمَرْتَهُمْ أَنْ يَعْدِلُوا ... نَبَذُوا كتابَكَ واستحلُّوا الْمحرّما

هذا؛ وسمِّي اللَّقيط منبوذاً؛ لأنَّه يُنبذ على الطريق، وهو مثلٌ يضرب لمن استخف بالشَّيء، فلا يَعْمَل به. تقول العرب: اجعل هذا خلفك، ودبراً منك، وتحت قدمك، أي: اتركه، وأعرض عنه. قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ رقم [٩٢] من سورة (هود) على نبيِّنا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: أي بل أكثر اليهود لا يؤمنون الإيمان الصَّادق بالله، ولا بالتَّوراة، ولا بالرُّسل، لذلك ينقضون العهود، والمواثيق.

الإعراب: (أَوَ): الهمزة: حرف استفهام إنكاري توبيخي. الواو: حرف عطف على المعتمد. (كلَّما): كلَّ: ظرفية متعلقة بجوابها؛ إذ هي تحتاج إلى جملتين مرتبطتين ببعضهما

ترابط فعل الشرط بجوابه. (ما): مصدرية توقيتية. ﴿عَـٰهَدُوا۟﴾: فعل ماض، وفاعله، والألف للتفريق. ﴿عَهْدًا﴾: مفعول به ثان، والمفعول الأول محذوف؛ إذ التقدير: عاهدوا الله عهداً، و(ما) والفعل: ﴿عَـٰهَدُوا۟﴾ في تأويل مصدر في محل جر بإضافة: (كلَّ) إليه، التقدير: كلَّ وقت عهد، وهذا التقدير، وهذه الإضافة هما اللّذان سببا الظَّرفية لـ (كل). انظر مبحث: «كلّما» في كتابنا: «فتح القريب المجيب». وقيل: (ما) نكرة موصوفة، والجملة الفعلية بعدها صفة لها، وهي بمعنى (وقت) أيضاً، والمدرِّسون يقولون: أداة شرط غير جازمة، ولا يعرفون هذا الإعراب، والتَّفصيل. ﴿نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ﴾: ماض، ومفعوله، وفاعله، والجملة الفعلية جواب (كلّما) لا محل لها، ﴿مِّنْهُم﴾ متعلقان بـ ﴿فَرِيقٌ﴾ أو بمحذوف صفة له.

﴿بَلْ﴾: حرف إضراب انتقالي. ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾: مبتدأ، والهاء في محل جرٍّ بالإضافة.

﴿لَا﴾: نافية. ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله، والجملة الفعلية مع المتعلّق المحذوف في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على ﴿فَرِيقٌ﴾ عطف مفرد على مفرد، وجملة: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ في محل نصب حال من: ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾ والرابط: الضمير فقط، وقال ابن عطية: في محل نصب حال من الضمير في: ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾ انتهى جمل. و(كلما) ومدخولها معطوف على الجملة الواقعة جواباً للقسم في الآية السابقة أو هو مستأنف لا محلَّ له.

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾

الشرح: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ﴾ أي: اليهود ﴿رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾: هو محمَّد ﷺ جاء مصدقاً للتَّوراة، وموافقاً لها في أصول الدِّين، ومقرِّراً لنبوَّة موسى، وهارون، عليهما السلام. ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ﴾ أي: طرح اليهود التوراة، وأعرضوا عنها، وعن العمل فيها؛ لأنها تدلُّ على نبوَّة محمَّدٍ ﷺ، فجحدوا نبوَّته، وأنكروا رسالته. قيل: إنَّهم أدرجوها في الحرير، وحلوها بالذَّهب، ولم يعملوا بما فيها، وكذلك المسلمون في هذه الأيام يتنافسون في تزويق المُصحف، وتزيينه، والعمل بما فيه قليلٌ، ولا حول ولا قوَّة إلا بالله العلي العظيم! ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنَّهم نبذوا كتاب الله، ورفضوه عن علم به، ومعرفة، وإنَّما حملهم على ذلك عداوة النَّبيِّ ﷺ، وحسدهم له، وحقدهم عليه، فشبِّهوا بمن لا يعلم؛ إذ فعلوا فعل الجاهل.

هذا؛ و(الكتاب) في اللغة: الضمُّ، والجمع، وسمِّيت الجماعة من الجيش: كتيبةً؛ لاجتماع أفرادها على رأيٍ واحدٍ، وخطَّةٍ واحدة، كما سمي الكاتب: كاتباً؛ لأنه يضمُّ الكلام بعضه إلى

بعض، ويجمعه، ويرتِّبه. وفي الاصطلاح: اسم جملة مختصَّة من العلم، مشتملةٍ على أبواب، وفصول، ومسائل غالباً، ورحم الله من يقول: [الطويل]

لَـنَـا جُـلَـسَـاءُ مَـا يُـمَـلُّ حَـدِيـثُـهُـمْ ... أَلِـبَّـاءُ مَـأمُـونُـونَ غَـيْـبَـاً وَمَـشْـهَـدا
يـفـيـدُونَـنَـا مِـنْ عِـلْـمِـهِـمْ عِـلْـمَ مَـا مَـضَـى ... وَعَـقْـلاً وَتَـأدِيـبَـاً ورأيَـاً مُـسَـدَّدَا
فَـإِنْ قُـلْـتَ أَحـيـاءٌ فَـمَـا أَنْـتَ كَـاذبٌ ... وَإِنْ قُـلْـتَ أَمـواتٌ فَـلَـسْـتَ مُـفَـنَّـدَا

وإنِّي أتمثَّل بقولٍ آخر: [الخفيف]

مَـا تَـطَـعَّـمْـتُ لَـذَّة الـعَـيْـشِ حَـتَّـى ... صِـرْتُ لِـلْـبَـيْـتِ وَالـكِـتَـابِ جَـلِـيـسَـا
لَـيْـسَ عِـنْـدِي شَـيءٌ أَلَـذَّ مِـنَ الْـ ... ـعِـلْـمِ فَـلِـمْ أَبْـتَـغـي سِـوَاهُ أَنِـيـسَـا
إِنَّـمَـا الـذُّلُّ فِـي مُـخَـالَـطَـةِ الـنَّـا ... سِ فَـدَعْـهُـمْ وَعِـشْ عَـزِيـزاً رَئِـيْـسَـا

ورحم الله من يقول: [الطويل]

وَقَـائِـلَـةٍ أتـلـفْـتَ فِـي الـكُـتْـبِ مَـا حَـوَتْ ... يَـمِـيـنُـكَ مِـنْ مَـالٍ فـقـلـتُ دَعِـيـنـي
لَـعـلِّـي أَرَى فِـيـهَـا كِـتَـابَـاً يـدلُّـنِـي ... لأَخْـذِ كِـتَـابِـي فِـي غَـدٍ بِـيَـمِـيْـنِـي

ورحم الله من يقول: [الوافر]

كِـتَـابِـي فِـيـهِ بُـسْـتَـانِـي وَرُوحِـي ... ومِـنْـهُ سَـمِـيـرُ نَـفْـسِـي والـنَّـدِيـمُ
يُـسَـالِـمُـنِـي وَكُـلُّ الـنَّـاسِ حَـرْبٌ ... وَيُـسْـلِـيـنِـي إِذَا عَـرَتِ الـهُـمُـومُ
وَيُـحْـيِـي لِـيْ تَـصَـفُّـح صَـفْـحَـتَـيْـهِ ... كِـرَامَ الـنَّـاسِ إِنْ فُـقِـدَ الْـكَـرِيـمُ
إِذا اعـوَجَّـتْ عَـلَـيَّ طَـرِيـقُ قَـوْمِـي ... فَـلِـي فِـيْـهِ طَـرِيـقٌ مُـسْـتَـقِـيـمُ

وبالجملة: فالكتاب هو نِعْمَ الذُّخر، والعُدَّة، والشُّغل، والحرفة، جليس لا يضرُّك، ورفيقٌ لا يملُّك، يطيعك باللَّيل طاعتَه بالنَّهار، ويُطيعك في السَّفر طاعته في الحَضر، إن ألفته؛ خلَّد على الأيَّام ذكرك، وإن درسته؛ رفع بين الخلائق قَدْرَك.

الإعراب: ﴿وَلَمَّا﴾: الواو: حرف عطف. (لمَّا): حرف وجود لوجود عند سيبويه، وبعضُهم يقول: حرف وجوب لوجوب، وهي ظرف بمعنى «حين» عند ابن السَّراج، والفارسي، وابن جنِّي، وجماعة، تتطلَّب جملتين مرتبطتين ببعضهما ارتباط فعل الشرط بجوابه، وصوَّب ابن هشام الأوَّل، والمشهور الثاني. ﴿جَآءَهُمْ رَسُولٌ﴾: ماض، ومفعوله وفاعله، والجملة الفعلية لا محل لها على اعتبار (لمَّا) حرفاً، وهي في محل جرٍّ بإضافة (لمَّا) إليها على اعتبارها ظرفاً، وعلى

اعتبارها متعلقةً بالجواب. ﴿مِّنْ عِندِ﴾: متعلقان بـ ﴿رَسُولٌ﴾ أو بمحذوف صفة له، و﴿عِندِ﴾ مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾ مضاف إليه. ﴿مُصَدِّقٌ﴾: صفة ثانية، ﴿لِّمَا﴾: جار ومجرور متعلقان بـ ﴿مُصَدِّقٌ﴾ وانظر الآية رقم [٤١]. ﴿مَعَهُمْ﴾: ظرف مكان متعلق بمحذوف صلة (ما) والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ﴾: ماض، وفاعله، والجملة جواب (لمَّا) لا محلَّ لها، و﴿لِمَّا﴾ ومدخولها معطوف على (كلما) ومدخولها على الوجهين المعتبرين فيه. ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ﴾: متعلقان بـ ﴿فَرِيقٌ﴾ أو بمحذوف صفة. ﴿أُوتُواْ﴾: فعل ماض مبني للمجهول مبني على الضم، والواو نائب فاعله، وهو المفعول الأول، والألف للتفريق. ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: مفعول به ثان، والجملة الفعلية صلة الموصول لا محل لها.

﴿كِتَٰبَ﴾ مفعول به لـ ﴿نَبَذَ﴾، و﴿كِتَٰبَ﴾ مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾ مضاف إليه. ﴿وَرَآءَ﴾: ظرف مكان متعلق بـ ﴿نَبَذَ﴾، و﴿وَرَآءَ﴾ مضاف، و﴿ظُهُورِهِمْ﴾ مضاف إليه، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿كَأَنَّهُمْ﴾: حرف مشبه بالفعل، والهاء اسمها. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَعْلَمُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع والواو فاعله، ومفعوله محذوف، والجملة الفعلية في محل رفع خبر (كأنَّ)، والجملة الاسمية في محل نصب حال من: ﴿فَرِيقٌ﴾ وساغ ذلك لتخصصه بالوصف، والرابط الضمير فقط، وصح ذلك؛ لأنَّ ﴿فَرِيقٌ﴾ بمعنى القوم، أو الجماعة، أو هي في محل رفع صفة ثانية له.

﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾

الشرح: ﴿وَٱتَّبَعُواْ﴾: أي: اليهود. ﴿مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾: تُحدِّث، وتروي، من التِّلاوة بمعنى: القراءة، أو من التلاوة بمعنى الاتِّباع، فصار له معنيان، القراءة، والاتِّباع. ﴿عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾: على عهد سليمان. ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾: نقل المرحوم سليمان الجمل عن السُّدي ما يلي: كانت الشياطين تسترق السمع، فيسمعون كلام الملائكة فيما يكون في الأرض من موتٍ، وغيره، فيأتون الكهنة، ويخلطون بما يسمعون في كلِّ كلمةٍ سبعين كذبةً، ويخبرونهم بها، فاكتتب الناس ذلك، وفشا في بني إسرائيل: أنَّ الجنَّ تعلم الغيب، فبعث سليمان في النَّاس،

وجمع تلك الكتب، فجعلها في صندوق، ودفنها تحت كرسيِّه، وقال: لا أسمع أنَّ أحداً يقول: إنَّ الشياطين تعلم الغيب إلا ضربت عنقه، فلمَّا مات سليمان ـ على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ وذهب العلماء الذين يعرفون أمر سليمان، ودفنه الكتب، وخلف من بعدهم خلفٌ، تمثَّل لهم الشيطان على صورة إنسان، فأتى نفراً من بني إسرائيل، فقال لهم: هل أدلُّكم على كنزٍ لا تأكلونه أبداً؟ قالوا: نعم. قال: فاحفروا تحت الكرسيِّ، فذهب معهم، وأراهم المكان، وأقام في ناحيةٍ، فقالوا: ادن، فقال: ولكنني ها هنا، فإن لم تجدوه؛ فاقتلوني، وذلك أنه لم يكن أحد من الشياطين يدنو من الكرسي إلا احترق، فحفروا، وأخرجوا تلك الكتب. فقال الشيطان: إنَّ سليمان كان يضبط الجنَّ، والإنس، والشياطين، والطُّيور، والرِّياح وغير ذلك، ويحكم فيهم بهذا، ثمَّ طار الشيطان، وفشا في الناس أن سليمان كان ساحراً، وأخذت بنو إسرائيل تلك الكتب، فلذلك كان أكثر ما يوجد من السِّحر في اليهود، فلمَّا جاء سيدنا محمد ﷺ برأ الله سليمان من ذلك، وأنزل تكذيباً لمن زعم ذلك: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ...﴾ إلخ انتهى.

﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ أي: ما كان سليمان ساحراً، ولا كفر بتعلُّمه السِّحر. وفيه تنزيه سليمان عن السِّحر ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ أي: أنَّهم كفروا باتِّخاذهم السِّحر، وتعليمهم النَّاس. هذا؛ والسِّحر كل ما لطف ودقَّ. يقال: سحره: إذا أبدى له أمراً يدقُّ عليه، ويخفى. قال الغزاليُّ في الإحياء ما نصُّه: السِّحر نوعٌ يستفاد من العلم بخواصِّ الجواهر، وبأمورٍ حسابيَّةٍ في مطالع النجوم، فيتخذ من تلك الحواس هيكل على صورة الشَّخص المسحور، ويُترصَّد له وقتٌ مخصوصٌ من المَطالع، وتُقرن به كلماتٌ يُتلفَّظ بها من الكفر، والفحش المخالف للشرع، ويتوصل بسببها إلى الاستغاثة بالشَّياطين، ويحصل من مجموع ذلك بحكم إجراء الله العادة أحوال غريبة في الشَّخص المسحور. هذا؛ وسمِّي الأكل في اللَّيل سحوراً؛ لأنه يقع خفيّاً آخر اللَّيل، والسَّحر بفتح الحاء: الرِّئة، وسميت بذلك لخفائها، ولطف مجاريها إلى أجزاء البدن، كما قال أبو جهل الخبيث يوم بدر لعتبة: انتفخ السَّحر، أي انتفخت رئته من الخوف، وقالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: توفي رسول الله ﷺ بين سَحرِي، ونحرِي. ﴿فِتْنَةٌ﴾: ابتلاء، واختبار من الله للنَّاس، فمن تعلمه كفر، ومن تركه؛ فهو مؤمن، والفتنة: المحنة، والاختبار، ومنه قول الشاعر: [المتقارب]

وَقَدْ فُتِنَ النَّاسُ فِي دِينِهِمْ ... وَخَلَّى ابنُ عفَّان شَرّاً طَوِيلا

هذا؛ والمعتمد: أنَّ تعلُّمه لدفع الضرر عن نفسه، وعن غيره، أو اتَّخذه الشخص ذريعة للاتقاء عن الاغترار بمثله؛ بقي على الإيمان، فلا كفر باعتقاد حقيقته، وجواز العمل به من غير إضرار أحد. انتهى من أبي السعود بتصرف، وقد ذكر ذلك البخاريُّ في باب الطِّبِّ، انظر القسطلاني في شرح البخاريِّ.

هذا؛ وبعضهم يعتبر السِّحر من الكبائر التي نهى الله عنها، ويرى تحريمه، من ذلك ما روي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**اجتنبوا السبع الموبقات**»، قيل: يا رسول الله! وما هنَّ؟ قال: «**الإشراك بالله، والسِّحر، وقتل النفس الَّتي حرَّم اللهُ إلا بالحق، وأكل مال اليتيم، والزنى، والتَّولِّي يوم الزَّحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات**». أخرجه البخاريُّ، ومسلمٌ، ويروى: «**أكل الربا**» بدل «**الزنى**». وأيضاً ما ري عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ قال: «**من أتى كاهناً، أو ساحراً، فصدَّقه بما يقول؛ فقد كفرَ بِما أُنزل على محمَّد ﷺ**». رواه بإسنادٍ جيِّد قويٍّ.

﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا﴾: من الملكين. ﴿مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ﴾: بالسِّحر. ﴿بَيْنَ ٱلْمَرْءِ﴾: الرَّجل، وضم الميم فيه لغة تقول: هذا مُرء صالح، وهما مُرءان، وجمعه رجال من غير لفظه، والمؤنثة: امرأة، والمثنى: امرأتان، وجمعها من غير لفظه نساء. ﴿وَمَا هُم﴾ أي: السَّحرة ﴿بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بإرادته، وقضائه، لا بأمره؛ لأنَّ الله لا يأمر بالفحشاء، ويقضي على الخلق بها.

﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ﴾ أي: في الغالب بسبب استعماله في إيذاء الناس. ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ أي: في الآخرة، إن أخذوا على استعماله دريهمات في الدُّنيا؛ فلا قيمة لها بجانب الضَّرر الذي يلحقهم في الآخرة. ﴿وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ﴾: اختاره صنعةً، أو استبدله بكتاب الله. ﴿مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ﴾: من نصيب. ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: البديل الذي استبدلوا به من السِّحر عوضاً من الإيمان، ومتابعة الرَّسول ﷺ، ولو كان لهم علمٌ بما وعظوا به؛ لاتَّعظوا، وانتفعوا. وهذا جارٍ على الأسلوب المعروف في فنون البلاغة من أنَّ العالم بالشيء إذا لم يجر على موجب علمه قد يُنَزَّل منزلة الجاهل به، ويُنفى عنه العلم، كما يُنفى عن الجاهلين، والحكمة من تعليم الملكين النَّاس السِّحر: أن السحر كثر في ذلك الزَّمن واخترعوا فنوناً غريبةً من السِّحر، وربما زعموا: أنهم أنبياء، فبعث الله تعالى الملكين؛ ليعلما النَّاس وجوه السحر؛ حتَّى يتمكَّنوا من التمييز بينه، وبين المعجزة، ويعرفوا: أنَّ الذين يدَّعون النُّبوة كذباً إنَّما هم سحرةٌ، لا أنبياء.

تنبيه: روى الترمذيُّ عن جندب الأزديِّ ـ رضي الله عنه ـ: أنَّه قال: قال رسول الله ﷺ: «**حَدُّ السَّاحرِ ضَرْبُهُ بالسَّيْف**». وقد روي من طرق متعدِّدة: أن الوليد بن عقبة، كان عنده ساحر يلعب بين يديه، فكان يضرب رأس الرَّجل، ثم يصيح به، فيرد إليه الرأس. فقال النَّاس: سبحان الله! يحيي الموتى! ورآه رجل من صالحي المهاجرين، فلما كان الغد جاء مشتملاً على سيفه، وذهب السَّاحر يلعب لعبه ذلك، فاخترط الرَّجل سيفه، وضرب به عنق السَّاحر، وقال: إن كان صادقاً فليحيي نفسه، وتلا قول الله تعالى: ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ فغضب الوليد؛ إذ

لم يستأذنه في ذلك، فسجنه ثمَّ أطلقه. روى الشَّافعي، وأحمد بن حنبل عن عمرو بن دينار: أنَّه سمع بجالة بن عَبَدَة يقول: كتب عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: أن اقتلوا كلَّ ساحرٍ، وساحرة، قال: فقتلنا ثلاث سواحر. أخرجه البخاريُّ في صحيحه. وصحَّ: أنَّ حفصة زوج النبيِّ ﷺ سحرتها جاريةٌ لها، فأمرت بها، فقُتِلت. انتهى. مختصر ابن كثير.

أقول: وما يفعله ضراب الشِّيش، وآكلوا الحيَّات، والعقارب، والَّذين يقتحمون النَّار، ويفعلون ما يفعلون من الخُزعبلات، والشَّعوذات؛ فقتلهم جائز شرعاً، بل واجبٌ، ولكن اتقاءً للفتن تركهم، والابتعاد عنهم أولى في هذه الأيام، وحسابهم على الله تعالى. هذا؛ وروى سفيان عن عمَّار الدُّهْني: أنَّ ساحراً كان عند الوليد بن عقبة يمشي على الحبل، ويدخل في أست الحمار، ويخرج من فيه، فاشتمل له جندب على السَّيف فقتله، هذا هو جندب بن كعب الأزدي، ويقال: الجبلي، وهو الذي قال في حقِّه النبي ﷺ: يكون في أمَّتي رجلٌ، يقال له: جُندُب، يضرب ضربة بالسيف يفرق بين الحقِّ، والباطل، فكان يرونه جندباً هذا قاتل السَّاحر، وهذه الرواية غير الرواية الأولى.

هذا؛ وقال العلماء: لا ينكر أن يظهر على يد السَّاحر خرق العادات، مما ليس في مقدور البشر من مرض، وتفريق، وحبٍّ، وبغضٍ، وزوال عقلٍ، وغير ذلك، قالوا: ولا يبعد في السِّحر أن يستدقَّ جسم الساحر؛ حتَّى يتولج في الكوات الضَّيقة، والجري على حبلٍ، والطيران في الهواء، والمشي على الماء، وغير ذلك، ومع ذلك فلا يكون السِّحر موجباً لذلك، ولا علَّة لوقوعه، ولا يكون السَّاحر مستقلّاً به، وإنما يخلق الله تعالى هذه الأشياء، ويحدثها عند وجود السِّحر، كما يخلق الشِّبع عند الأكل، والرِّي عند شرب الماء. انتهى قرطبي.

تنبيه: (بابل): المشهور: أنَّه بلد من سواد العراق، سمِّي بذلك لتبلبل الألسنة فيه، وذلك: أنَّ الله أمر ريحاً، فحشرت الخلق لهذه الأرض، فلم يدر أحد ما يقول الآخر، ثمَّ فرقتهم الرِّيح في البلاد يتكلَّم كلٌّ واحدٍ بلغةٍ. والبلبلة: التَّفرقة، وقيل: لمَّا أهبط الله نوحاً ـ على نبيِّنا، وعليه ألف صلاة وألف سلام ـ بعد الطوفان بنى قرية، وسماها ثمانين، فأصبح ذات يوم، وقد تبلبلت ألسنتهم على ثمانين لغةً، إحداها: اللسان العربي، وكان لا يفهم بعضهم على بعض. وقيل: سمِّيت بذلك؛ لتبلبل ألسنة الخلق عند سقوط صرح نمرود. انتهى سمين. والله أعلم بالحقيقة. وهاروت، وماروت سريانيان، ويجمعان على: هواريت، ومواريت، مثل: طواغيت، وهو جمع: طاغية، ويجمعان على: هوارية، وموارية، وهوار، وموار، وليسا مشتقين من الهرت، والمرت لعدم انصرافهما، ولو كانا مشتقَّين كما ذُكر؛ لانصرفا.

تنبيه: لقد ذكر المفسِّرون في هاروت، وماروت قصصاً، وحكايات هي أقرب إلى الخُرافات منها إلى الحقيقة، فأعرض عنها، وعن ذكرها لتفاهتها، واكتف بما ذكره البيضاوي،

رحمه الله تعالى، قال: هما ملكان أُنزلا لتعليم السِّحر ابتلاءً من الله للناس، وتمييزاً بينه وبين المُعجزة، وما روي أنَّهما بَشَرَينِ، وركب فيهما الشهوة، فتعرضا لامرأة يقال لها: زهرة، فحملتهما على المعصية، والشرك، ثمَّ صعدت إلى السَّماء بما تعلَّمت منهما؛ فمحكيٌّ عن اليهود، ولعلَّه من رموز الأوائل، وحلُّه لا يخفى على ذوي البصائر. وقيل: هما رجلان سمِّيا ملكين باعتبار صلاحهما، ويؤيِّده قراءة (المَلِكين) بالكسر! انتهى. وقال الجمل: وقيل: إنَّهما أنزلا لتعليم السحر للتمييز بينه وبين المُعجزة، لئلا يغترَّ به الناس، وذلك: أنَّ السحرة كثُروا في ذلك الزمان، واستنبطوا أبواباً غريبة من السِّحر وكانوا يدَّعون النبوة، فبعث الله هذين الملكين؛ ليعلِّما الناس أبواب السحر؛ حتَّى تمكَّنوا من معارضة أولئك الكذَّابين، وإظهار النَّاس على أمرهم. انتهى. هذا؛ وحديث هاروت، وماروت رواه الإمام أحمد، وابن حبَّان في صحيحه عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ، عن النبيِّ ﷺ وهو موجود في كتاب التَّرغيب، والترهيب، في باب شرب الخمر، والله أعلم.

هذا؛ وقال القرطبيُّ ـ رحمه الله تعالى ـ بعد أن ذكر ما نُسِب إلى ابن عباس، وعليٍّ، وابن مسعودٍ، وابن عمر، وكعب الأحبار، والسُّدي، والكلبيِّ، رحمهم الله جميعاً ـ: هذا كلُّه ضعيف، وبعيدٌ، ولا يصحُّ منه شيء، فإنَّه قولٌ تدفعه الأصول في الملائكة، الذين هم أمناء الله على وحيه، وسفراؤه إلى رسله، قال تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾. وقال تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾. وقال جلَّ ذكره: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ انتهى باختصار.

الإعراب: (اتبعوا): فعل ماض وفاعله، والألف للتفريق. ﴿مَا﴾: اسم موصول، أو نكرة موصوفة مبنية على السكون في محل نصب مفعول به. ﴿تَتْلُواْ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الواو للثقل. ﴿ٱلشَّيَٰطِينُ﴾: فاعله، والجملة الفعلية صلة ﴿مَا﴾ أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف، التقدير: اتبعوا الذي، أو شيئاً تتلوه الشَّياطين. ﴿عَلَىٰ مُلْكِ﴾: متعلقان بما قبلهما، وملك مضاف، و﴿سُلَيْمَٰنَ﴾ مضاف إليه مجرور وعلامة جره الفتحة عوضاً عن الكسرة؛ لأنه ممنوع من الصرف للعلمية، وزيادة الألف والنون، وقيل: للعلمية والعجمة، وجملة: ﴿وَٱتَّبَعُواْ...﴾ معطوفة على جملة: ﴿نَبَذَ﴾ في الآية السابقة لا محل لها مثلها. ﴿وَمَا﴾: الواو: واو الحال. (ما): نافية. ﴿كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾: ماض وفاعله، والجملة الفعلية في محل نصب حال من سليمان، والرابط: الواو، وإعادة لفظ ﴿سُلَيْمَٰنُ﴾ للتعظيم، والتفخيم، وهو قائم مقام إضماره.

﴿وَلَٰكِنَّ﴾: الواو: حرف عطف. (لكن): حرف استدراك يقرأ بالتَّشديد، والتَّخفيف. ﴿ٱلشَّيَٰطِينَ﴾: اسم (لكنَّ) وهو مبتدأ على رفعه، وجملة: ﴿كَفَرُواْ﴾ مع المتعلق المحذوف

خبر: ﴿الشَّيَاطِينُ﴾ على الوجهين، والجملة الاسمية ﴿وَلَكِنَّ...﴾ معطوفة على ما قبلها، فهي في محل نصب حال مثلها. ﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾: مضارع، وفاعله، ومفعولاه، والجملة الفعلية في محل نصب حال من واو الجماعة، أو من ﴿الشَّيَاطِينَ﴾ والعامل في الحال (لكن) لما فيها من رائحة الفعل. وقيل: هي في محل رفع خبر ثان لـ ﴿الشَّيَاطِينَ﴾. وقيل: هي بدل من جملة: ﴿كَفَرُوا﴾ أبدل الفعل من الفعل، وقيل: هي مستأنفة، وهو وجهٌ ضعيف. ﴿وَمَا﴾: معطوفة على السِّحر، الذي هو مفعول ثان، وتحتمل الموصولة، والموصوفة، فهي مبنية على السُّكون في محل نصب. ﴿أُنزِلَ﴾: فعل ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل يعود إلى (ما) وهو العائد، أو الرابط. ﴿عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾: متعلقان بما قبلهما، وعلامة الجرِّ الياء نيابة عن الكسرة؛ لأنه مثنى، والنون عوض عن التنوين في الاسم المفرد ﴿بِبَابِلَ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل ﴿أُنزِلَ﴾ أو هما متعلقان بمحذوف حال من ﴿الْمَلَكَيْنِ﴾ وهو أقوى، وعلامة الجر الفتحة نيابة عن الكسرة؛ لأنه ممنوع من الصَّرف للعلمية، والعجمة. ﴿هَارُوتَ﴾: عطف بيان، أو بدل بعض من كل من الملكين، مجرور وعلامة جرِّه الفتحة نيابة عن الكسرة؛ لأنه ممنوع من الصَّرف للعلمية، والعجمة، وما بعده معطوف عليه.

هذا؛ وقال القرطبي: (ما) نفي، والواو للعطف على قوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ وفي الكلام تقديمٌ وتأخير، التقدير: وما كفر سليمان، وما أنزل على الملكين، ولكن الشَّياطين كفروا، يعلمون النَّاس السِّحر ببابل هاروت، وماروت. ثم قال: هذا أولى ما حملت عليه الآية من التأويل، وأصحُّ ما قيل فيها. انتهى. وهذا يعني: أنَّ نائب فاعل ﴿أُنزِلَ﴾ لا مرجع له، ويجب تقديره كما يلي: أو ما نزل على الملكين شيء، وهذا تكلف، وتعسف، كما هو واضح.

﴿وَمَا﴾: الواو: واو الحال. (ما): نافية. ﴿يُعَلِّمَانِ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والألف فاعله. ﴿مِنْ﴾: حرف جر صلة. ﴿أَحَدٍ﴾: مفعول به ثان، والمفعول الأول محذوف، التقدير: وما يعلمان السحر أحداً، منصوب وعلامة نصبه فتحة مقدرة على آخره، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجرِّ الزائد، والجملة الفعلية في محل نصب حال من ﴿الْمَلَكَيْنِ﴾، والرابط الواو وألف الاثنين، وقيل: معطوفة على ما قبلها، وهو غير وجيه كما هو ظاهر. ﴿حَتَّى﴾: حرف غاية، وجر بعدها «أن» مضمرة. ﴿يَقُولَا﴾: فعل مضارع منصوب بـ «أن» المضمرة بعد ﴿حَتَّى﴾ والفعل: ﴿يَقُولَا﴾ في تأويل مصدر في محل جر بـ ﴿حَتَّى﴾. والجار والمجرور متعلقان بالفعل ﴿يُعَلِّمَانِ﴾، ﴿إِنَّمَا﴾: كافة ومكفوفة. ﴿نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾: مبتدأ، وخبر، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول.

﴿فَلَا﴾: الفاء: حرف عطف على قول مَنْ يجيز عطف الإنشاء على الخبر، وابن هشام يعتبرها للسببية المحضة، وأراها الفاء الفصيحة؛ لأنها تفصح عن شرط مقدر؛ إذ التقدير: إذا

عرفت ما نقول؛ فلا . . . (لا): ناهية. ﴿تَكْفُرْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ (لا) الناهية، والفاعل مستتر، تقديره: «أنت»، والجملة الفعلية لا محل لها لأنها جواب للشرط المقدر بـ «إذا». (يتعلمون): فعل مضارع والواو فاعله. ﴿مِنْهُمَا﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، والميم والألف حرفان دالّان على التثنية. ﴿مَا﴾: اسم موصول، أو نكرة موصوفة مبنية على السكون في محل نصب مفعول به. ﴿يُفَرِّقُونَ﴾: فعل مضارع وفاعله. ﴿بِهِۦ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿بَيْنَ﴾: ظرف مكان متعلق بالفعل قبله. و﴿بَيْنَ﴾: مضاف، و﴿ٱلْمَرْءِ﴾ مضاف إليه. (زوجه): معطوف على ما قبله، والهاء في محل جر بالإضافة، وجملة: ﴿يُفَرِّقُونَ بِهِۦ...﴾ صلة (ما) أو صفتها، والعائد أو الرابط: الضمير المجرور محلّاً بالباء، وجملة: (يتعلمون) قال سيبويه: التقدير: فهم يتعلمون. قال: ومثله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ وقيل: هو معطوف على موضع (ما يعلمان) لأن قوله: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ﴾ وإن دخلت عليه ما النافية فمضمَّنه الإيجاب في التعليم، وقال الفرَّاء: هي مردودة على قوله: ﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ﴾، ويكون: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ﴾ متصلة بقوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾ فيأتون، فيتعلمون، وهذا يعني: أنَّ الجملة الفعلية معطوفة على جملة محذوفة.

﴿وَمَا﴾: الواو: واو الحال. (ما): نافية حجازية تعمل عمل «ليس». ﴿هُم﴾: ضمير منفصل مبني على السكون في محل رفع اسم (ما)، ﴿بِضَآرِّينَ﴾: الباء: حرف صلة، (ضارين): خبر (ما) مجرور لفظاً، منصوب محلّاً، وإن اعتبرت: (ما) مهملة تميمية؛ فالضمير مبتدأ، و(ضارين): خبره مجرور لفظاً مرفوع محلاً، والجملة الاسمية في محل نصب حال من واو الجماعة، والرابط: الواو، والضمير. ﴿بِهِۦ﴾: متعلقان بـ (ضارِّين) والهاء عائدة على: (ما) المكنى بها عن السحر. ﴿مِنْ﴾: حرف جر صلة. ﴿أَحَدٍ﴾: مفعول به لـ (ضارين) لأنه جمع اسم فاعل، فهو مجرور لفظاً منصوب محلاً، وفاعل (ضارين) مستتر فيه. ﴿إِلَّا﴾: حرف حصر.

﴿بِإِذْنِ﴾: متعلقان بمحذوف حال مستثنى من عموم الأحوال، وصاحب الحال الضمير المستتر بـ (ضارين) أو ﴿أَحَدٍ﴾ وجاز مجيء الحال منه لتقدُّم النفي عليه، أو هو الضمير المجرور محلّاً بالباء، و(إذن): مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾ مضاف إليه، وجملة: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ﴾: معطوفة على جملة: (يتعلمون) السابقة على جميع الوجوه المعتبرة فيها. ﴿مَا﴾: مفعول به، وتحتمل الموصولة، والموصوفة. ﴿يَضُرُّهُمْ﴾: مضارع، ومفعوله، والفاعل يعود إلى ﴿مَا﴾ وهو العائد، أو الرابط، والجملة الفعلية صلة ﴿مَا﴾ أو صفتها، وجملة: ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾: معطوفة عليها.

﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟﴾: الواو حرف قسم وجر، والمقسم به محذوف، تقديره: والله، والجار والمجرور متعلقان بفعل محذوف، تقديره: أقسم، اللام: واقعة في جواب القسم. (قد): حرف تحقيق يقرب الماضي من الحال. ﴿عَلِمُوا۟﴾: ماض، وفاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية

جواب القسم، لا محل لها، والقسم، وجوابه كلامٌ مستأنفٌ لا محل له، وانظر الآية رقم [٦٥] ﴿لَمَنِ﴾: اللام: لام الابتداء معلقة للفعل (علم) عن العمل لفظاً. (مَنْ): اسم موصول مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿ٱشْتَرَىٰهُ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف، والفاعل يعود إلى (مَنْ) وهو العائد. والهاء: مفعول به، والجملة الفعلية صلة (مَنْ) لا محل لها. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿لَهُۥ﴾: متعلقان بمحذوف خبر مقدم. ﴿فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾: متعلقان بمحذوف خبر ثان، أو بالخبر نفسه، أو بمحذوف حال من الضمير المستتر في الخبر المحذوف، وبعضهم يقول: متعلقان بمحذوف حال من ﴿خَلَٰقٍ﴾ كان صفة له، فلما قدم عليه؛ صار حالاً على القاعدة: نعت النكرة إذا تقدَّم عليها؛ صار حالاً. وهذا لا يجيزه كثير من النَّحويين؛ لأن الحال هيئة فاعل أو مفعول. ﴿مِنْ﴾: حرف جر صلة. ﴿خَلَٰقٍ﴾: مبتدأ مؤخر مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد، والجملة الاسمية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية ﴿لَمَنِ﴾ في محل نصب سدَّت مسد مفعولي: ﴿عَلِمُوا۟﴾ المعلَّق عن العمل بسبب لام الابتداء.

﴿وَلَبِئْسَ﴾: الواو: حرف قسم وجر، والمقسم به محذوف، تقديره: والله، والجار والمجرور متعلقان بفعل محذوف، تقديره: أقسم، واللام: واقعة في جواب القسم (بئس ما شروا به أنفسهم): انظر إعراب هذه الجملة في الآية رقم [٩٠] والمخصوص بالذَّم محذوف، التقدير: هو علم السحر، والقسم وجوابه كلامٌ مستأنفٌ، أو هو معطوف على ما قبله، لا محل له على الاعتبارين.

﴿لَوْ﴾: حرف لما كان سيقع لوقوع غيره. ﴿كَانُوا۟﴾: ماض ناقص مبني على الضم، والواو اسمه. ﴿يَعْلَمُونَ﴾: مضارع مرفوع، والواو فاعله، ومفعوله محذوف، انظر الشرح، والجملة الفعلية في محل نصب خبر: ﴿كَانُوا۟﴾ والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها ابتدائية، ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفي، وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف، التقدير: لو كانوا يعلمون؛ ما تعلَّموا، وانظر الآية التالية. ﴿وَلَوْ﴾ مدخولها كلام معترض في آخر الكلام، مفاده توكيد الذم لشرائهم.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

الشرح: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ...﴾ أي: ولو أنَّ اليهود، وغيرهم الذين يتعلَّمون السحر آمنوا بالله، وخافوا عقابه، فتركوا ما هم عليه من نبذ كتاب الله، واتِّباع كتب الشياطين ﴿لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ أي: لأثابهم الله ثواباً أفضل ممَّا شغلوا به أنفسهم من السحر الذي لا يعود عليهم إلا بالويل، والخسار والدمار. والمراد بالعنديَّة المجاز عن إثابتهم. ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ انظر الآية السابقة ففيها الكفاية.

الإعراب: ﴿وَلَوْ﴾: الواو: حرف استئناف. (لو): حرف لما كان سيقع لوقوع غيره. ﴿أَنَّهُمْ﴾: حرف مشبه بالفعل، والهاء اسمه. ﴿ءَامَنُواْ﴾: فعل ماض وفاعله، والألف للتفريق، والمتعلق محذوف، انظر الشرح، والجملة الفعلية في محل رفع خبر (أنَّ)، والتي بعدها معطوفة عليها، فهي في محل رفع مثلها، و(أنَّ) واسمها، وخبرها في تأويل مصدر في محل رفع. وفيه قولان: أحدهما: وهو قول سيبويه: أنه في محل رفع بالابتداء، وخبره محذوف، التقدير: ولو إيمانهم ثابت، والثاني: وهو قول المبرِّد في أنه في محل رفع بالفاعلية، رافعه محذوف، تقديره: ولو ثبت، أو حصل إيمانُهم، وقول المبرد هو المرجح؛ لأن «لو» لا يليها إلا فعل ظاهر، أو مقدَّر، والفعل المقدر وفاعله جملة فعلية لا محل لها؛ لأنها ابتدائية، ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفي، هذا؛ وقال البيضاوي، والنسفي تبعاً للزمخشري: والمعنى: لأثيبوا من عند الله ما هو خير، وأوثرت الجملة الاسمية على الفعلية في جواب (لو) لما فيها من الدلالة على ثبات المثوبة، واستقرارها، وهذا يعني: أن الجملة الاسمية الآتية هي جواب (لو) وهو مفاد كلام أبي البقاء أيضاً، وقال الجلال: جواب (لو) محذوف دل عليه: ﴿لَمَثُوبَةٌ﴾، واللام جواب قسم محذوف، ثم ابتدأ لمثوبة من عند الله خير، وتكون الجملة جواب القسم المقدر.

وقال ابن هشام في المغني: والأولى أن يقدر الجواب محذوفاً، أي: لكان خيراً لهم، أو أن يقدر (لو) بمنزلة (ليت) في إفادة التمني، فلا تحتاج إلى جواب. أقول: وتبقى الجملة الاسمية جواب القسم المقدر، وتكون الجملة القسمية مستأنفة لا محل لها.

﴿مِّنْ عِندِ﴾: متعلقان بـ (مثوبة) أو بمحذوف صفة لها، و(عند) مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾ مضاف إليه. ﴿خَيْرٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية جواب (لو)، و(لو) ومدخولها كلام مستأنف لا محل له من الإعراب. ﴿لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾: انظر إعراب هذا الكلام في الآية السابقة، وجواب ﴿لَّوْ﴾ محذوف تقديره مع تقدير المفعول كما يلي: لو كانوا يعلمون: أنه خير؛ لما آثروه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾

الشرح: سبب نزول هذه الآية: أن المسلمين كانوا يقولون: راعنا يا رسول الله! مِنَ المُراعاة، أي: أرعنا سمعك، وفرِّغه لكلامنا، وكانت هذه اللَّفظة سبّاً قبيحاً بلغة اليهود اللؤماء، ومعناها عندهم: اسمع، لا سمعت. وقيل: من الرعونة، فإذا أرادوا أن يُحمِّقوا إنساناً؛ قالوا: راعنا، يعني: أحمق، فلمَّا سمعت اليهود هذه الكلمة من المسلمين، قالوا فيما بينهم: كنا نسبُّ محمداً سرّاً، فأعلنوا به الآن، فكانوا يأتونه، ويقولون: راعنا يا محمد! ويضحكون فيما بينهم، فسمعها سعدُ بن معاذ ـ رضي الله عنه ـ ففطن لها، وكان يعرف لغتهم، فقال لليهود: لئن سمعتها

من أحدٍ منكم يقولها لرسول الله ﷺ لأضربن عنقه! فقالوا: أو ألستم تقولونها؟! فأنزل الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا﴾ لكي لا يجد اليهود بذلك سبيلاً إلى شتم رسول الله ﷺ. انتهى. خازن. هذا ومثل هذه الآية في مغزاها، ومعناها قوله تعالى في سورة (النساء) رقم [٤٦] ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾. ﴿وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا﴾ قال مجاهد: المعنى: فهمنا، وبين لنا. وقيل: المعنى انتظرنا، وتأنَّ بنا. قال علقمة الفحل: [الطويل]

فَـإِنَّكُـمَـا إِنْ تُـنْـظِـرَانِـي سَـاعَـةً ... مِـنَ الـدَّهْـرِ يَـنْـفَـعْـنِـي لَـدَى أُمِّ جُـنْـدُبِ

وقرأ الأعمش وغيره: (أَنْظِرنا) بقطع الألف وكسر الظاء، بمعنى: أَخِّرنا، وأمهلنا حتى نفهم عنك، ونتلقَّى منك، قال عمرو بن كلثوم في معلقته: [الوافر]

أَبَـا هِـنْـدٍ فَـلَا تَـعْـجَـلْ عَـلَـيْـنَـا ... وَأَنْـظِـرْنَـا نُـخَـبِّـرْكَ الـيَـقِـيـنَـا

﴿وَٱسْمَعُواْ﴾: أي: ما تؤمرون به، وأطيعوا نهي الله تعالى عباده المؤمنين أن يقولوا لنبيه ﷺ: راعنا؛ لئلا يتطرَّق أحدٌ إلى شتمه. وأمرهم بتوقيره، وتعظيمه، وأن يتخيَّروا لخطابه ﷺ من الألفاظ أحسنها، ومن المعاني أدقَّها، وإن سألوه؛ يسألوه بتبجيل، وتعظيم، ولين، ولا يخاطبوه بما يسرُّ اليهود الخبثاء اللُّؤماء.

ففي الآية الكريمة دلالة على النَّهي الشديد، والتَّهديد، والوعيد على التشبُّه بالكفار في أقوالهم، وأفعالهم، ولباسهم، وأعيادهم، وعباداتهم، وغير ذلك من أمورهم؛ التي لم تشرع لنا، ولا نُقَرُّ عليها. قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ تَشَبَّهَ بِقَومٍ فَهُوَ مِنْهُمْ**». أخرجه الإمام أحمد، وأبو داود عن ابن عمر، رضي الله عنهما.

وعن عمرو بن شُعيب عن أبيه عن جدِّه ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَشَبَّهَ بِغَيْرِنَا، لا تشبَّهوا باليهود، ولا بالنصارى، فإنَّ تسليم اليهود الإشارة بالأصابع، وتسليم النَّصارى الإشارة بالأكف**». رواه الترمذي.

تنبيه: نادى الله عباده المؤمنين في هذه الآية بأكرم وصف، وألطف عبارة؛ أي: يا من صدقتم الله ورسوله، وتحليتم بالإيمان الذي هو زينة الإنسان. وقد خاطب الله عباده المؤمنين بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ في ثمانية وثمانين موضعاً من القرآن، وهذا أول خطاب خوطب به المؤمنون في هذه السورة بالنداء الدال على الإقبال عليهم أن يتلقى المخاطبين. ونداء المخاطبين باسم المؤمنين يذكرهم بأن الإيمان يقتضي من صاحبه أن يتلقَّى أوامر الله ونواهيه بحسن الطاعة، والامتثال، وإنما خصَّهم الله بالنداء؛ لأنهم هم المستجيبون لأمره، المنتهون عمَّا نهى عنه؛ إذ الغالب أن يتبع هذا النداء بأمر، أو بنهي.

الإعراب: (يا): أداة نداء تنوب مناب أدعو. (أيها): منادى نكرة مقصودة مبنية على الضم في محل نصب بـ (يا)، و(ها): حرف تنبيه لا محل له، وأقحم للتوكيد، وهو عوض من

المضاف إليه، ولا يقال: ضمير في محل جر بالإضافة؛ لأنه حينئذ يجب نصب المنادى. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع بدلاً من (أيُّ) وانظر الآية رقم [٢١] وجملة: ﴿ءَامَنُوا۟﴾ صلة الموصول لا محل لها. ﴿لَا﴾: ناهية. ﴿تَقُولُوا۟﴾: فعل مضارع مجزوم بـ (لا) وعلامة جزمه حذف النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها ابتدائية كالجملة الندائية قبلها. ﴿رَٰعِنَا﴾: فعل صيغته أمر، وهو التماس هنا، مبني على حذف حرف العلة وهو الياء، والكسرة قبلها دليل عليها، والفاعل مستتر تقديره: «أنت» و(نا): مفعوله والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول. ﴿وَقُولُوا۟﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها. ﴿ٱنظُرْنَا﴾: فعل أمر، وفاعله مستتر فيه تقديره: «أنت» و(نا) مفعول به، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول، وجملة: (اسمعوا) معطوفة على جملة: (قولوا) لا محل لها مثلها. ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ انظر الآية السابقة رقم [٩٠].

﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾

الشرح: ﴿مَّا يَوَدُّ﴾: ما يحبُّ. ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ﴾: المراد بأهل الكتاب: اليهود، والنصارى والمراد بالمشركين: عبدة الأوثان، وهذا يدلُّ على أنَّ يقال لليهود، والنصارى، كفار، هذا؛ و﴿أَهْلِ﴾: اسم جمع لا واحد له من لفظه مثل: معشر، ورهط، والأهل: العشيرة، وذو القربى، ويطلق على الزَّوجة، وعلى الأتباع أيضاً، والجمع: أهلون، وأهال، وآهال، وأهلات، وبالأولَيْن قرئ قوله تعالى في سورة (التَّحريم): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾.

﴿أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾: المراد بالخير، الوحي الذي ينزل بالقرآن، والهدى، هذا؛ والخير يكون بمعنى المال، كما في قوله تعالى في سورة (العاديات): ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ ويكون بمعنى: الطعام، كما في قوله تعالى في حكاية عن قول موسى - على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام - في سورة (القصص) رقم [٢٤]:

﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾، ويكون بمعنى: القوة، كما في قوله تعالى في سورة (الدخان) رقم [٣٧]: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ ويكون بمعنى: العبادة، والطَّاعة، كما في قوله تعالى في سورة الأنبياء رقم [٧٣]: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ ويكون بمعنى المطر، قال الشاعر، وهو الشاهد رقم [٢٠٢] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»: [البسيط]

سَقَى الْحَيَا الأَرْضَ حَتَّى أَمْكُنٍ عُزِيَتْ   لَهُمْ فَلَا زَالَ عَنْهَا الخَيْرُ مَجْدُودَا

﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ﴾: نبوته، وتوفيقه، وهدايته. ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ يعني: أنَّ كل خير يناله عباده في دينهم، ودنياهم، فإنَّه منه تعالى تفضُّلاً عليهم من غير استحقاق منهم لذلك، بل له الفضل، والمنَّة على خلقه. انتهى خازن.

هذا؛ وذكر الجمل: أنَّ الفعل: «يختص» يستعمل متعدياً، ولازماً، فعلى الأول فاعله مستتر فيه، والموصول بصلته في محل نصب على المفعولية، والمعنى: والله يخصُّ، وعلى الثاني الفاعل هو الموصول بصلته، والمعنى: والله يتميَّز برحمته من يشاء الله تمييزه. انتهى. ولم أجده لغيره في كتب اللُّغة، هذا؛ وهذه الجملة مذكورة في سورة (آل عمران) رقم [٧٤].

الإعراب: ﴿مَّا﴾: نافية. ﴿يَوَدُّ﴾: فعل مضارع. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع فاعل. ﴿كَفَرُواْ﴾: ماض، وفاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية صلة الموصول لا محل لها. ﴿مِنْ أَهْلِ﴾: متعلقان بمحذوف حال من الاسم الموصول و﴿أَهْلِ﴾: مضاف، و﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾: مضاف إليه. ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): زائدة لتأكيد النفي.

﴿ٱلْمُشْرِكِينَ﴾: معطوف على ﴿أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ مجرور مثله، وجوَّز النَّحاس عطفه على الموصول، لكن لم يقرأ أحد بالواو والنُّون، ﴿أَن يُنَزَّلَ﴾: مضارع مبني للمجهول منصوب بـ ﴿أَن﴾، ﴿عَلَيْكُم﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿مِّنْ﴾: حرف جر صلة. ﴿خَيْرٍ﴾: نائب فاعل مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على آخره، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد، و﴿أَن﴾ والفعل المضارع في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به للفعل: ﴿يَوَدُّ﴾ وجملة: ﴿مَّا يَوَدُّ﴾: مستأنفة لا محل لها. ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾: متعلقان بـ ﴿خَيْرٍ﴾ والكاف في محل جر بالإضافة من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه.

﴿وَٱللَّهُ﴾: الواو: واو الحال. (الله): مبتدأ. ﴿يَخْتَصُّ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى (الله).

﴿بِرَحْمَتِهِۦ﴾: متعلقان بما قبلهما والهاء في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية في محلِّ رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: ﴿وَٱللَّهُ...﴾ إلخ في محل نصب حال من كاف المخاطب، والرابط الواو فقط. وقال صاحب روح المعاني: ابتدائية، ولا وجه له، وقيل: مستأنفة، وهو غير مسلم. ﴿مَن﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل نصب مفعول به. ﴿يَشَآءُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى (الله)، والجملة الفعلية صلة ﴿مَن﴾ لا محل لها، والعائد محذوف، التقدير: الذي يشاؤه.

﴿وَٱللَّهُ﴾: الواو: حرف عطف، (الله): مبتدأ، ﴿ذُو﴾: خبر مرفوع، وعلامة رفعه الواو نيابة عن الضمَّة؛ لأنه من الأسماء الخمسة. و﴿ذُو﴾: مضاف، و﴿ٱلْفَضْلِ﴾: مضاف إليه، ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾: صفة الفضل، والجملة الاسمية: ﴿وَٱللَّهُ ذُو﴾ معطوفة على ما قبلها، فهي مثلها في محل نصب حال.

﴿۞مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾﴾

الشرح: ﴿مَا نَنسَخْ﴾: النَّسخ في اللغة: إزالة الصُّورة عن الشيء، وإثباتها في غيره، وفي الشرع: انتهاء الحكم الشرعي المطلق الذي تقرر في أوهامنا استمراره بطريق التراخي، فكان تبديلاً في حقِّنا، بياناً في حقِّ صاحب الشَّرع.

وسبب نزول هذه الآية: أن اليهود قالوا: إنَّ محمداً يأمر أصحابه بأمر، ثم ينهاهم عنه، ويأمرهم بخلافه، ويقول اليوم قولاً، ويرجع عنه غداً، ما يقول إلَّا من تلقاء نفسه، كما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ﴾ رقم [١٠١] من سورة (النَّحل)، فأنزل الله ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾ فبيَّن بهذه الآية وجه الحكمة في النَّسخ، وأنَّه من عنده لا مِنْ عند محمد ﷺ.

هذا؛ وبعض المفسرين يقول: إن المشركين في مكَّة هم الذين عابوا النَّسخ، وطعنوا فيه. وهذا غير وجيه؛ لأن مكَّة لم يحصل فيها نسخ، ولا تبديل، ولا تغيير، والسبب في ذلك: أنَّ مكة لم تنزل فيها آيات الأحكام، ومهمَّة الرسول ﷺ في مكة كانت مقصورة على التَّوحيد، والإيمان بالبعث، والنشر، والحساب، والجزاء. واليهود أنكروا النَّسخ كفراً، وعناداً، فإنه ليس في العقل ما يدلُّ على امتناع النَّسخ في أحكام الله تعالى، كما أنه يفعل ما يريد، ولا يسأل عما يفعل مع أنه قد وقع ذلك في كتبه المتقدِّمة، وشرائعه الماضية، كما أحلَّ لآدم عليه السلام تزويج بناته من بنيه، ثمَّ حرم ذلك بشريعة نوح، وكما أباح لنوح عليه السلام بعد خروجه من السفينة أكل جميع الحيوانات، ثمَّ نسخ بعضها، وكان نكاح الأختين مباحاً لإسرائيل، وبنيه، ثم حرَّم ذلك في شريعة التوراة وما بعدها، وأمر إبراهيم ـ على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ بذبح ولده، ثم نسخه قبل الفعل، وهم يعترفون بذلك، ويصدفون عنه، عليهم لعائن الله في الدنيا والآخرة!

هذا والنَّسخ على أنواع: منها نسخ الأثقل إلى الأخف، كآية المُصابرة المذكورة في سورة الأنفال رقم [٦٦]: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ فإنَّها نسخت حكم ما قبلها، وكالذي كان على المؤمنين من نسخ قيام اللَّيل، كما هو في آخر سورة المزمِّل، ومنها نسخ الأخف إلى الأثقل، والأكمل في الثواب، والأجر، كالذي كان على المسلمين من صيام أيامٍ معدوداتٍ في كلِّ شهر، وصيام يوم عاشوراء، فنسخ ذلك بفريضة صيام رمضان، ونسخ المثل بمثله ثقلاً وخفة، كنسخ التوجُّه إلى بيت المقدس، وصرفه إلى المسجد الحرام، وينسخ الشيء لا إلى بدل كصدقة النجوى كما رأيت في سورة المجادلة رقم [١٢] ١٣ ـ وينسخ القرآن بالقرآن اتفاقاً، وينسخ القرآن بالسُّنة، كما في آية الوصية للأقربين رقم [١٨٠] الآتية، فإنها منسوخة بقول

النبي ﷺ: «**لَا وَصيَّة لِوَارِثٍ**». والقرآن يجيزها للورثة، وهذا عند الجمهور، ما عدا الشافعي ـ رضي الله عنه ـ فإنَّه يرى نسخها بآية المواريث المذكورة في سورة النِّساء.

ثمَّ النسخ في القرآن على وجوه:

أحدها: ما رفع حكمه، وتلاوته، كما روي عن ابن أبي أمامة بن سهل ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ قوماً من الصحابة قاموا ليلة ليقرؤوا سورةً فلم يذكروا منها إلا: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، فغدوا إلى النبي ﷺ، فأخبروه: فقال رسول الله ﷺ: «**تِلْكَ السُّورَة رُفِعَتْ بِتِلَاوتِهَا وحُكْمِهَا**» أخرجه البغوي، بغير سندٍ، وقيل: إنَّ سورة الأحزاب، كانت مثل سورة البقرة، فرفع أكثرها تلاوة، وحكماً.

الوجه الثاني: ما رفع تلاوته، وبقي حكمه، مثل آية الرَّجم.

روي عن ابن عباسٍ ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال عمر بن الخطَّاب ـ رضي الله عنه ـ وهو جالس على منبر رسول الله ﷺ: (إن الله بعث محمداً ﷺ، وأنزل عليه الكتاب، فكان ممَّا أنزل عليه آية الرَّجم، فقرأناها، ووعيناها، وعقلناها، ورجم رسول الله ﷺ، ورجمنا بعده، فأخشى إن طال بالنَّاس زمانٌ أن يقول قائل: لا نجد الرَّجم في كتاب الله، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله، وإنَّ الرَّجم في كتاب الله حقٌّ على كلِّ مَنْ زنى إذا أحصن من الرِّجال والنِّساء إذا قامت البينة، أو كان الحَبَل، أو الاعتراف). أخرجه البخاريُّ، ومسلمٌ. هذا وآية الرَّجم: (الشَّيْخُ والشَّيْخَةُ إِذَا زَنَيا فَارْجُمُوهُمَا ألبتة نكَالاً مِنَ اللهِ واللهُ عزيزٌ حكيم). هذا؛ وممَّا نُسِخَتْ تلاوته وبقي حكمه آية الرَّضاع التي أخذ بها الشَّافعي رحمه الله تعالى، ونصُّها: (خَمسُ رَضَعَاتٍ يُحَرِّمنَ).

الوجه الثالث: ما رفع حكمه وثبت خطُّه، وتلاوته، وهو كثيرٌ في القرآن الكريم، مثل آية الوصيَّة المذكورة آنفاً، وآية عدَّة الوفاة بالحَوْل، وهي رقم [٢٤٠] الآتية، فإنَّها نُسِخت بآية أربعة أشهر وعشراً وهي رقم [٢٣٤] الآتية، وأيضاً آية المُصابرة المذكورة آنفاً، ومثل ذلك كثيرٌ.

﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ قرئ: (أو ننساها) فالأول من النِّسيان، وهو ما رأيته عن أبي أمامة، والثاني: التأخير، والإرجاء. قاله مجاهد، وعطاء. ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ﴾ أي: مما هو أنفع لكم، وأسهل عليكم، وأكثر لأجوركم، وليس معناه في أنَّ آية خيرٌ من آية؛ لأنَّ كلام الله تعالى كلُّه خير ﴿أَوْ مِثْلِهَآ﴾ في المنفعة، والأجر، والثَّواب... ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ﴾: هذا خطاب للنبيِّ ﷺ، ويشمل كلَّ عاقلٍ، وعالم. ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: فيه دليل على تسمية الله تعالى بالقدير، والقادر، والمقتدر، والقدير أبلغ في الوصف. والقدير، والقادر، والمقتدر بمعنى واحد، والاقتدار على الشيء: القدرة عليه، فالله عزَّ وجل قادرٌ، مقتدرٌ، قديرٌ على كلِّ ممكنٍ يقبل الوجود، والعدم، فيجب على كل مكلَّف أن يعلم: أنَّ الله تعالى قادر، له قدرة بها فعل، ويفعل ما يشاء على وفق علمه، واختياره. ويجب عليه أيضاً أن يعلم: أنَّ للعبد قدرة يكتسب بها ما أقدره الله تعالى عليه على ما تجري العادة،

وأنَّه غير مستبد بقدرته وإنَّما خصَّ هنا تعالى صفته التي هي القدرة بالذِّكر دون غيرها؛ لأنه تقدَّم ذكر فعل مضمنه الوعيد، والإخافة، فكان ذكر القدرة مناسباً لذلك. والله أعلم.

الإعراب: ﴿مَا﴾: اسم شرط مبني على السكون في محل نصب مفعول به مقدَّم لفعل شرطه، وقيل: هي في محل نصب مفعول مطلق. أي نسخ ننسخ آية. ﴿نَنسَخْ﴾: فعل مضارع فعل الشرط، وفاعله مستتر تقديره نحن. ﴿مِنْ ءَايَةٍ﴾: متعلقان بمحذوف حال من ﴿مَا﴾، و﴿مِنْ﴾ بيان لما أبهم فيها، وقال الجمل: متعلقان بمحذوف صفة لها، ولا وجه له. وقال أبو البقاء: زائدة، و﴿ءَايَةٍ﴾ تمييز لـ ﴿مَا﴾ وليس بالقويِّ، والجملة الفعلية: ﴿نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾ ابتدائية لا محل لها. ﴿أَوْ﴾: حرف عطف. ﴿نُنسِهَا﴾: مضارع معطوف على فعل الشرط مجزوم مثله، وعلامة جزمه حذف حرف العلَّة من آخره، وهو الياء، والفاعل: تقديره: «نحن»، و(ها) مفعول ثان، والأول محذوف؛ إذ التقدير: نُنْسِكَها، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها. ﴿نَأْتِ﴾: فعل مضارع جواب الشَّرط مجزوم، وعلامة جزمه حذف حرف العلة من آخره وهو الياء، والكسرة قبلها دليل عليها، والفاعل مستتر تقديره: «نحن». ﴿بِخَيْرٍ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿مِنْهَآ﴾: متعلقان بـ (خير) أو بمحذوف صفة له. ﴿أَوْ﴾: حرف عطف. ﴿مِثْلِهَآ﴾: معطوف على (خير)، و(ها): في محل جر بالإضافة، وجملة: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ﴾: لا محل لها؛ لأنها جواب الشَّرط، ولم تقترن بالفاء، ولا بـ «إذا» الفجائية. ﴿أَلَمْ﴾: الهمزة: حرف استفهام، وتقرير. (لم): حرف نفي، وقلب، وجزم. ﴿تَعْلَمْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ (لم) والفاعل مستتر تقديره: «أنت». ﴿أَنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿عَلَىٰ كُلِّ﴾: متعلقان بـ ﴿قَدِيرٌ﴾ بعدهما، و﴿كُلِّ﴾ مضاف، و﴿شَيْءٍ﴾ مضاف إليه. ﴿قَدِيرٌ﴾: خبر ﴿أَنَّ﴾، و﴿أَنَّ﴾ واسمها وخبرها في تأويل مصدر في محل نصب سدَّ مسد مفعولي: ﴿تَعْلَمْ﴾، وجملة: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ مستأنفة لا محل لها من الإعراب.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾﴾

الشرح: يرشد الله عباده في هذه الآية، إلى أنَّه له التصرُّف في خلقه بما يشاء، فله الخلق، والأمر، وهو المتصرِّف فيهم، فكما خلقهم كما يشاء، يسعد من يشاء، ويشقي من يشاء، ويوفِّق من يشاء، ويخذل مَنْ يشاء، كذلك يحكم في عباده بما يشاء، فيحل ما يشاء، ويحرِّم ما يشاء، ويُبيح ما يشاء، ويحظر ما يشاء، وهو الذي يحكم ما يريد، ولا معقِّب لحكمه. ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾، ويختبر عباده بالنَّسخ، فيأمر بالشيء لما فيه من المصلحة التي يعلمها الله تعالى، ثمَّ ينهى عنه لما يعلمه تعالى، فالطَّاعة كلَّ الطاعة في امتثال أمره، واتباع رسله في

تصديق ما أخبروا، وامتثال ما أمروا، وترك ما عنه زجروا، وفي هذا ردٌّ عظيمٌ، وبيانٌ بليغٌ لكفر اليهود، وتزييف شبهتهم ـ لعنهم الله ـ في دعوى استحالة النسخ. وهذا الخطاب وإن كان للنبيِّ ﷺ على وجه الخبر، وعظمته، فإنَّه منه جل ثناؤه تكذيبٌ لليهود الذين أنكروا نسخ أحكام التوراة، وجحدوا نبوَّة عيسى، ومحمد ـ عليهما الصَّلاة والسَّلام ـ لمجيئهما بما جاءا من عند الله بتغيير ما غيَّر الله من حكم التَّوراة، فأخبرهم الله: أنَّ له تلك السموات والأرض وسلطانها، وأنَّ الخلق أهل مملكته، وطاعته، وعليهم السَّمع والطَّاعة لأمره، ونهيه، والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ﴾: انظر إعراب مثله في الآية السَّابقة. ﴿لَهُۥ﴾: متعلقان بمحذوف في محل رفع خبر مقدَّم. ﴿مُلْكُ﴾: مبتدأ مؤخر، و﴿مُلْكُ﴾: مضاف، و﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ مضاف إليه، ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على سابقه، والجملة الاسمية في محل رفع خبر ﴿أَنَّ﴾، والجملة الفعلية: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾: مستأنفة لا محل لها كالجملة السَّابقة، فهي مقرِّرةٌ، ومؤكِّدةٌ لها. ﴿وَمَا﴾: الواو: واو الحال. (ما): نافية. ﴿لَكُم﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدَّم. ﴿مِّن دُونِ﴾: متعلقان بالخبر المحذوف، أو هما متعلقان بمحذوف خبر ثان، وقيل: متعلقان حال من: ﴿وَلِيٍّ﴾ كان صفة له، فلما قدم عليها صار حالاً، وهو ضعيف؛ لأنَّ كثيراً من النُّحاة لا يجيزون مجيء الحال من المبتدأ، و﴿دُونِ﴾ مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾ مضاف إليه. ﴿مِن﴾: حرف جر صلة. ﴿وَلِيٍّ﴾: مبتدأ مؤخر مرفوع وعلامة رفعه ضمة مقدرة على آخره، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد. ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): زائدة لتأكيد النفي. ﴿نَصِيرٍ﴾: معطوف على ﴿وَلِيٍّ﴾ مجرور تبعاً للفظه، والجملة الاسمية: ﴿وَمَا لَكُم﴾ في محل نصب حال من لفظ الجلالة، والرابط: الواو، وإعادة الاسم الكريم للتفخيم، والتعظيم. هذا؛ وأجاز الجمل اعتبار (ما) حجازية.

وهذا على قول من يجيز تقديم خبرها؛ وهو ظرف، أو جار ومجرور على اسمها.

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾﴾

الشرح: جاء في مختصر ابن كثير ما يلي: نهى الله تعالى المؤمنين في هذه الآية الكريمة عن كثرة سؤال النبي ﷺ عن الأشياء قبل كونها، كما قال تعالى في سورة (المائدة) رقم [١٠١]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ﴾ أي: وإن تسألوا عن تفصيلها بعد نزولها؛ تُبيَّن لكم، ولا تسألوا عن الشيء قبل كونه، فلعلَّه أن يُحرَّمَ من أجل تلك المسألة، ولهذا جاء في الصحيح: «**إنَّ أعظمَ المُسلمين جُرْماً مَنْ سألَ عنْ**

شيءٍ لَمْ يُحَرَّمْ، فَحُرِّمَ منْ أَجْلِ مَسْأَلتِهِ». وثبت في الصَّحيحين من حديث المغيرة بن شعبة: أنَّ رسول الله ﷺ كان ينهى عن قيل، وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال.

وفي صحيح مسلم: «**ذَرُوني ما تركتكم: فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكثرةِ سؤَالِهِمْ، واخْتِلَافِهِم عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا أَمَرْتُكمْ بِأَمرٍ؛ فائتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِنْ نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيءٍ؛ فَاجْتَنِبُوه**». وهذا إنَّما قاله بعدما أخبرهم: أنَّ الله كتب عليهم الحجَّ، فقال رجل: أكلَّ عام يا رسول الله؟ فسكت عنه رسول الله ﷺ ثلاثاً، ثم قال ﷺ: «**لا، وَلَوْ قُلْتُ: نَعْم؛ لَوَجَبَتْ؛ وَلَوْ وَجَبَتْ؛ لَمَا اسْتطعْتُمْ**». ثمَّ قال: «**ذروني ما تركتكم**». ولهذا قال أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ: نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيءٍ، فكان يعجبنا أن يأتي الرَّجل من أهل البادية، فيسأله؛ ونحن نسمع. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: ما رأيت قوماً خيراً من أصحاب محمد ﷺ، ما سألوه إلا عن اثنتي عشرة مسألة، كلُّها في القرآن: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ و﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾ و﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ يعني: هذا وأشباهه، رواه البزَّار عن سعيد بن جُبير عن ابن عباس، رضي الله عنهما.

هذا؛ ويفيد: أنَّ الخطاب للمؤمنين، ويؤيده قوله تعالى: ﴿كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ أي: فقد سأل بنو إسرائيل موسى أسئلةً كثيرةً كلُّها تعنُّتٌ، وعنادٌ، مثل قولهم: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾، ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ...﴾ إلخ وغير ذلك كثير. وقيل: السائل اليهود، فعن ابن عباس؛ قال: قال رافع بن حرملة، ووهب بن زيد: يا محمد! ائتنا بكتاب تنزله علينا نقرؤه، وفجر لنا أنهاراً نتبعك، ونصدقك. ويكون قوله: ﴿رَسُولَكُمْ﴾ مأخوذ من عموم بعثته ﷺ للخلق أجمعين، واليهود داخلون في هذا العموم بلا ريب، ولا شك، فصحَّ توجيه الخطاب إليهم بهذا العموم، وأيضاً سياق الكلام سابقاً، ولاحقاً في شأن اليهود.

وقال النَّسفي: روي: أن قريشاً قالوا: يا محمد! اجعل لنا الصَّفا ذهباً، ووسِّع لنا أرض مكة، فنهوا أن يقترحوا عليه الآيات، كما اقترح قوم موسى عليه حين قالوا: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا﴾ وهذا لا وجه له؛ لأنَّ سورة البقرة مدنيَّة بالإجماع، وسؤال قريش هذه الأسئلة مذكور في سورة الإسراء، وغيرها من السُّور المكيَّة.

﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ أي: ومن يشتر الكفر بالإيمان، ويرضى بذلك. ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: فقد أخطأ الطَّريق المستقيم إلى الجهل، والضلال، و﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾: وسطه، وانظر معانيه الكثيرة فيما تقدم، هذا؛ و﴿ٱلسَّبِيلِ﴾: الطريق، يذكر، ويؤنث، بلفظ واحد، فمن التذكير قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ ومن التأنيث قوله تعالى: ﴿قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ والجمع على التأنيث: سُبُول، وعلى التذكير: سُبُل بضمتين، و: سُبْل بضم فسكون. هذا؛ بالإضافة لما ذكرته في الآية رقم [٢٦].

أقول: و«ضل» أكثر ما يستعمل بمعنى: كفر، وأشرك، وهو ضدُّ: اهتدى، واستقام، ومصدره: الضَّلال، ويأتي «ضلَّ» بمعنى: غاب، كما في قوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ ويأتي بمعنى: خفي، يخفى، قال تعالى في سورة (طه) حكاية عن قول موسى لفرعون: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ رقم [٥٢] وضلَّ الشيء: ضاع، وهلك، وضل: أخطأ في رأيه، ولولا هذا المعنى؛ لكفر أولاد يعقوب، بقولهم في حضرته: ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ وقولهم في غيبته: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾. وضلَّ: تحيَّر، وهو أقرب ما يفسر به قوله تعالى في سورة الضُّحى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ وأضل، يُضِلُّ غيره من الرُّباعي ومصدره: الإضلال، فهو متعدٍّ، والثلاثي لازم، ومصدره: الضَّلال، وهو الخروج عن جادة الحق، والانحراف عن الصراط المستقيم، وينبغي أن تعلم: أنَّ طريق الهدى واحدة، لا اعوجاج فيها، ولا التواء، وأمَّا الضَّلال؛ فطرقه كثيرة، ومتشعبة، قال تعالى في سورة (يونس) على نبيِّنا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ رقم [٣٢] وقال الشاعر الحكيم: [البسيط]

الطُّرقُ شَتَّى وَطرْقُ الحَقِّ وَاحِدةٌ ... وَالسَّالِكونَ طَرِيقَ الحقِّ أفراد
لا يُعرَفُونَ وَلا تُدْرَى مَقَاصِدُهُمْ ... فَهُمْ عَلَى مَهَلٍ يَمْشُونَ قصَّادُ
وَالنَّاسُ فِي غَفلَةٍ عَمَّا يُرادُ بِهِمْ ... فَجُلُّهُمْ عَنْ سَبِيلِ الحقِّ رُقَّادُ

الإعراب: ﴿أَمْ﴾: حرف إضراب، أو هو حرف انتقال، وهي بمعنى: بل، وعليه فهي المنقطعة، لعدم تقدُّم الاستفهام عليها. ﴿تُرِيدُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله. ﴿أَن﴾: حرف مصدري، ونصب. ﴿تَسْـَٔلُواْ﴾: فعل مضارع منصوب بـ «أن» وعلامة نصبه حذف النون؛ لأنَّه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والألف للتَّفريق. ﴿رَسُولَكُمْ﴾: مفعول به، والكاف في محل جر بالإضافة، و«أن» والفعل المضارع في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به، وجملة: ﴿تُرِيدُونَ﴾ مبتدأة، أو مستأنفة لا محل لها من الإعراب.

﴿كَمَا﴾: الكاف: حرف تشبيه وجر. (ما): مصدرية. ﴿سُئِلَ﴾: ماض مبني للمجهول. ﴿مُوسَىٰ﴾: نائب فاعل مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف المقصورة للتعذر. ﴿مِن قَبْلُ﴾: متعلقان بالفعل ﴿سُئِلَ﴾ أو هما متعلقان بمحذوف حال من: ﴿مُوسَىٰ﴾. ﴿قَبْلُ﴾ مبني على الضمِّ لقطعه عن الإضافة لفظاً لا معنىً، و(ما) المصدرية، والفعل ﴿سُئِلَ﴾ في تأويل مصدر في محل جر بالكاف، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف صفة لمفعول مطلق محذوف، التقدير: إن تسألوا سؤالاً مثل سؤال قوم موسى. وهو قول أبي البقاء، وغيره في مثل هذا التَّركيب. ومذهب سيبويه في مثله النصب على الحال من المصدر المفهوم من الفعل المتقدِّم

على طريق الاتساع، فيكون التقدير: أن تسألوا رسولكم على مثل هذه الحالة؛ لأن حذف الموصول، وإبقاء الصِّفة لا يجوز عند سيبويه إلا في مواضع معيَّنة، وليس هذا منها.

﴿وَمَن﴾: الواو: حرف استئناف. (من): اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿يَتَبَدَّلِ﴾: فعل مضارع فعل الشرط، والفاعل مستتر تقديره: «هو»، يعود إلى (مَنْ).

﴿ٱلْكُفْرَ﴾: مفعول به. ﴿بِٱلْإِيمَٰنِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، أو هما متعلقان بمحذوف حال من ﴿ٱلْكُفْرَ﴾ أي: مقابلاً، أو مستبدلاً بالإيمان. ﴿فَقَدْ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (قد): حرف تحقيق يقرب الماضي من الحال. ﴿ضَلَّ﴾: فعل ماض والفاعل يعود إلى (مَنْ) أيضاً.

﴿سَوَآءَ﴾: مفعول به، وقال أبو البقاء: ظرف مكان، وهو مضاف، و﴿ٱلسَّبِيلِ﴾ مضاف إليه، وخبر المبتدأ الذي هو: (مَن) مختلف فيه، كما رأيت في الآية رقم [٨١] والجملة الاسمية: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها من الإعراب.

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾

الشرح: نزلت الآية الكريمة في نفرٍ من اليهود، وذلك: أنَّهم قالوا لحذيفة بن اليمان، وعمَّار بن ياسر ـ رضي الله عنهم ـ بعد وقعة أحد: لو كنتم على حقٍّ ما هربتم، فارجعا إلى ديننا، فنحن أهدى سبيلاً منكم، فقال عمار ـ رضي الله عنه ـ: كيف نَقْضُ العهد فيكم؟ قالوا: شديدٌ. قال: إنِّي عاهدت الله ألا أكفر بمحمد ﷺ ما عشت! قالت اليهود: أما هذا فقد صبأ، وقال حذيفة ـ رضي الله عنه ـ: أما أنا فقد رضيت بالله ربّاً، وبمحمَّدٍ رسولاً، وبالإسلام ديناً، وبالقرآن إماماً، وبالكعبة قبلةً، وبالمؤمنين إخواناً. ثمَّ إنهما أتيا رسول الله ﷺ فأخبراه بذلك، فقال: «**أصبتُما الخير، وأفلحتُما**». انتهى خازن.

﴿وَدَّ﴾: أحب، وتمنَّى. ﴿لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا﴾: لو يصيرونكم كفاراً مثلهم. ﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾: أي: من تلقائهم من غير أن يجدوه في كتاب، ولا أمروا به، ولكن حملتهم نفوسهم الخبيثة على ذلك.

﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾: يعني في التَّوراة: أنَّ قول محمد ﷺ ودينه حقٌّ، لا يشكُّون في أمره، لكن كفروا حسداً، وبغياً. هذا؛ والحسد نوعان: مذموم، وممدوح، فالمذموم: أن يتمنَّى العبد زوال نعمة الله عن الناس، وسواء تمنَّى أن يستفيد من تلك النعمة أم لا. وهذا النَّوع

هو الذي ذمَّه الله في كتابه في قوله: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ وقال رسول الله ﷺ: «**إيَّاكمْ وَالحَسَد فَإِنَّ الحَسَد يَأكُلُ الحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الحَطَبَ**» أو قال: «**العشب**». أخرجه أبو داود، وغيره عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، وانظر ما ذكرته في سورة (الفلق) وفي الآية رقم [٥٤] من سورة (النِّساء) تجدْ ما يسرك، ويثلج صدرك.

﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾ أي: اتركوهم، وأعرضوا عنهم، فلا تؤاخذوهم، وكان هذا الأمر بالعفو، والصَّفح قبل أن يؤمر بالقتال، فَنُسخ ذلك بقوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ وقوله جلَّ ذكره: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ...﴾ وكذا قال أبو العالية، وقتادة، والسُّدي: إنَّها منسوخة بآية السيف، ويرشد إلى ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ أي: بعقابه، وبعذابه، وهو القتل، والسبي لبني قريظة، والإجلاء، والنَّفي لبني النَّضير. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هو أمر الله بقتالهم. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: انظر الآية رقم [١٠٦].

الإعراب: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ﴾: فعل، وفاعل. ﴿مِّنْ أَهْلِ﴾: متعلقان بـ ﴿كَثِيرٌ﴾ أو بمحذوف صفة له، و﴿أَهْلِ﴾ مضاف، و﴿الْكِتَابِ﴾ مضاف إليه. ﴿لَوْ﴾: حرف مصدري. ﴿يَرُدُّونَكُم﴾: فعل مضارع مرفوع، وفاعله، ومفعوله الأول. ﴿مِّن بَعْدِ﴾: متعلقان بما قبلهما، و﴿بَعْدِ﴾ مضاف، و﴿إِيمَانِكُمْ﴾ مضاف إليه، والكاف في محل جر بالإضافة. ﴿كُفَّارًا﴾: مفعول به ثان، و﴿لَوْ﴾ والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به للفعل: ﴿وَدَّ﴾، وبعضهم يعتبر ﴿لَوْ﴾ شرطية امتناعية، ويقدر لها جواباً كما يلي: لو يردونكم كفاراً، لسروا، وفرحوا بذلك. والأوَّل أقوى، وأتمُّ معنىً، كما اعتبر أبو البقاء: ﴿كُفَّارًا﴾ حالاً من كاف الخطاب، والمرجَّح الأول.

﴿حَسَدًا﴾: مفعول لأجله، والعامل فيه: ﴿وَدَّ﴾. ﴿مِّنْ عِندِ﴾ متعلقان بـ ﴿حَسَدًا﴾ أو بمحذوف صفة له، وجوز تعليقهما بالفعل: ﴿وَدَّ﴾، والأول أقوى معنىً وأتمُّ سبكاً، و﴿عِندِ﴾ مضاف، و﴿أَنفُسِهِم﴾ مضاف إليه، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿مِّن بَعْدِ﴾: متعلقان بالفعل: ﴿وَدَّ﴾. ﴿مَا﴾: مصدرية. ﴿تَبَيَّنَ﴾: فعل ماض. ﴿لَهُمُ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿الْحَقُّ﴾: فاعل، و﴿مَا﴾ والفعل ﴿تَبَيَّنَ﴾ في تأويل مصدر في محل جر بإضافة ﴿بَعْدِ﴾ إليه، التقدير: بعد تبيين الحق لهم، وجملة: ﴿وَدَّ﴾: مستأنفة لا محل لها. ﴿فَاعْفُوا﴾: الفاء: فيها أقوال، فبعضهم يعتبرها عاطفة جملة إنشائية على جملة خبرية، وابن هشام يعتبرها للسَّببيَّة المحضة، وأنا أعتبرها الفاء الفصيحة. (اعفوا): فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتَّفريق، والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنها جملة جواب شرط غير جازم، التقدير: وإذا حصل من اليهود مثل هذه الأقوال؛ فاعفوا عنهم، واصفحوا. ومتعلَّق الفعلين محذوفٌ، التقدير: عنهم.

﴿حَتَّىٰ﴾: حرف غاية وجر بعدها «أَنْ» مضمرة. ﴿يَأْتِيَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ «أَنْ» مضمرة بعد ﴿حَتَّىٰ﴾. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله. ﴿بِأَمْرِهِۦٓ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، والهاء في محل جر بالإضافة. و«أن» المضمرة بعد ﴿حَتَّىٰ﴾ والفعل: ﴿يَأْتِيَ﴾ في تأويل مصدر في محل جر بـ ﴿حَتَّىٰ﴾ والجار والمجرور متعلقان بالفعل قبلهما.

﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسم ﴿إِنَّ﴾. ﴿عَلَىٰ كُلِّ﴾: متعلقان بـ ﴿قَدِيرٌ﴾ بعدهما، و﴿كُلِّ﴾: مضاف، و﴿شَيْءٍ﴾ مضاف إليه. ﴿قَدِيرٌ﴾: خبر: ﴿إِنَّ﴾، والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها.

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾

الشرح: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ﴾: لـمَّا أمر الله المؤمنين بالعفو، والصفح عن اليهود؛ أمرهم بما فيه صلاح أنفسهم من إقام الصَّلاة، وإيتاء الزكاة الواجبتين، ونبَّه بذلك على سائر الواجبات. ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ أي: من طاعة، وعمل صالح، وقيل: أراد بالخير: المال؛ يعني: صدقة التطوُّع؛ لأن الزَّكاة تقدَّم ذكرها، وجاء في الحديث: «**إِنَّ العَبْدَ إِذَا مَاتَ؛ قَالَ النَّاسُ: مَا خَلَّفَ؟ وَقالتِ الملائكةُ: مَا قَدَّمَ؟**».

وخرَّج البخاريُّ، ومسلم عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَيُّكُمْ مَالُ وَارِثِهِ أَحَبُّ إِلَيهِ مِنْ مَالِهِ؟**» قالوا: يا رسول الله! ما منَّا أحدٌ إلا مالهُ أحبُّ إليه!.

قال: «**فإنَّ ماله مَا قدَّم، ومال وارثه ما أخَّر**».

وجاء عن عمر ـ رضي الله عنه ـ: أنه مرَّ ببقيع الغرقد، فقال: السَّلام عليكم أهل القبور! أخبار ما عندنا؛ فإنَّ نساءكم قد تزوَّجت، ودوركم قد سُكنت، وأموالكم قد قُسمت، فأجابه هاتف: يا بن الخطاب! أخبار ما عندنا: ما قدَّمناه؛ وجدناه، وما أنفقناه؛ فقد ربحناه، وما خلَّفناه؛ فقد خسرناه. ولقد أحسن من قال: [الكامل]

قَدِّم لِنَفْسِكَ قَبْلَ مَوْتِكَ صَالِحاً … واعْمَلْ فَلَيْسَ إِلَى الخُلودِ سَبِيلُ

وقال آخر: [الكامل]

قَدِّمْ لِنَفْسِكَ تَوْبَةً مَرْجُوَّةً … قَبْلَ المَمَاتِ وَقَبْلَ حَبْسِ الأَلْسُنِ

وقال أبو العتاهية الصُّوفي رحمه الله تعالى: [الوافر]

اسْعَدْ بِمَالِكِ فِي حيَاتِكَ إِنَّمَا … يَبْقَى وَرَاءَكَ مصلِحٌ أو مُفسدُ

فَـإِذَا تَـرَكْـتَ لِـمُـفْـسِـدٍ لَـمْ يُـغْـنِـهِ وَأخـو الـصَّـلاح قـلـيـلُـهُ يَـتَـزيـدُ
وَإِنِ اسْـتَـطَـعْـتَ فَـكُـنْ لِـنَـفْـسِـكَ وَارِثـاً إِنَّ الـمُـورِّثَ نَـفْـسَـهُ لَـمُـسَـدَّدُ

الإعراب: ﴿وَأَقِيمُواْ﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها، والتي بعدها معطوفة عليها. ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾: مفعول به ﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾: مفعول به لـ: (آتوا). ﴿وَمَا﴾: الواو: واو الحال. (ما): اسم شرط جازم مبني على السكون في محل نصب مفعول به مقدَّم للفعل بعده. ﴿تُقَدِّمُواْ﴾: فعل مضارع فعل الشرط مجزوم، وعلامة جزمه حذف النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿لِأَنفُسِكُم﴾: متعلِّقان بما قبلهما، والكاف في محل جر بالإضافة. ﴿مِّنْ خَيْرٍ﴾: متعلقان بمحذوف حال من (ما)، و﴿مِّنْ﴾ بيان لما أبهم فيها. ﴿تَجِدُوهُ﴾: فعل مضارع جواب الشرط... إلخ، والواو فاعله، والهاء مفعول به، والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنَّها جواب الشرط، ولم تقترن بالفاء، ولا بـ «إذا» الفجائية، والجملة الشرطية ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ...﴾ في محل نصب حال من واو الجماعة، والرابط: الواو، والضمير. وقيل: مستأنفة، والأول أقوى.

﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلقان بـ ﴿بَصِيرٌ﴾ الآتي. و(ما) تحتمل الموصوفة، والمصدرية. ﴿تَعْمَلُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع والواو فاعله، والجملة الفعلية صلة (ما) أو صفتها، والعائد والرابط محذوف؛ إذ التقدير: بالذي، أو: بشيءٍ تعملونه، وعلى اعتبارها مصدرية تؤوَّل ما بعدها بمصدر في محل جر بالباء، التقدير: بعملكم. ﴿بَصِيرٌ﴾ خبر: ﴿إِنَّ﴾ والجملة الاسمية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ...﴾ مستأنفة لا محلَّ لها.

﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾

الشرح: ﴿وَقَالُواْ﴾: أي: اليهود، والنَّصارى، وانظر الآية رقم [٦٢]. ﴿أَمَانِيُّهُمْ﴾: جمع: أمنية، وانظر الآية رقم [٧٨]. ﴿قُلْ﴾: خطاب للنبي ﷺ، ولكلِّ عاقل يستطيع أن يحاجهم، ويقول لهم ذلك على سبيل التبكيت، والتقريع، والتأنيب. قال ابن هشام في قطر النَّدى: وأما هاتِ، وتعالَ؛ فعدَّهما جماعة من النحويين في أسماء الأفعال. والصَّواب: أنَّهما فعلا أمر بدليل: أنَّهما دالان على الطَّلب، وتلحقهما ياء المخاطبة، فتقول: هاتي، وتعالي. واعلم: أنَّ آخر (هات) مكسوراً أبداً إلا إذا كان لجماعة المذكرين؛ فإنه يضم، فنقول: هاتِ يا زيدٌ، وهاتِي يا هندُ، وهاتِيا يا زيدان، وهاتيا يا هندانِ، وهاتين يا هنداتُ، كلُّ ذلك بكسر التاء، وتقول: هاتُوا يا قومُ، بضمها، قال تعالى: ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، وأنَّ آخر

«تعالَ» مفتوح في جميع أحواله من غير استثناء، تقول: تعالَ يا زيدُ، وتعالَيْ يا هندُ، وتعالَيَا يا زيدان، وتعاليا يا هندان، وتَعَالَوْا يا زيدون، وتَعَالَيْنَ يا هندات، كلٌّ ذلك بالفتح، قال الله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ...﴾، وقال جلَّ ذكره: ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ﴾. ومن ثمَّ لحنوا أبا فراس الحمداني بقوله حيث كسر لام تعالي: [الطويل]

أَيَا جَارَتَا مَا أَنْصَفَ الدَّهْرُ بَيْنَنَا تَعَالِي أُقَاسِمْكِ الْهُمُومَ تَعَالِي

وأقول: إنَّ الفعلين (هات، وتعال) ملازمان للأمرية، فلا يأتي منهما فعل مضارع، ولا ماض، وهما بمعنى (احضروا، أو أحضروا) فالأول لازم، وهو من الثلاثي، والثاني متعدٍّ، وهو من الرباعي، وأما: تعالى، يتعالى فهما بمعنى: تعاظم، يتعاظم، أو بمعنى: تنزَّه، يتنزه، وقل في إعلال «تعالوا» أصله: تعالووا، ثم تعاليوا، فحذفت الضمة التي على الياء للثقل، فالتقى ساكنان، فحذفت الياء، وبقيت الواو؛ لأنها ضمير، وبقيت الفتحة على اللام لتدلَّ على الألف المحذوفة.

الإعراب: ﴿وَقَالُوا﴾: فعل ماض، وفاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿وَدَّ...﴾ لا محلَّ لها مثلها. ﴿لَن﴾: حرف نفي، ونصب، واستقبال. ﴿يَدْخُلَ﴾ فعل مضارع منصوب بـ ﴿لَن﴾. ﴿الْجَنَّةَ﴾: ظرف مكان متعلِّق بالفعل قبله، وانظر الآية رقم [٥٨] ففيها الكفاية. ﴿إِلَّا﴾: حرف حصر. ﴿مَن﴾: اسم موصول، أو نكرة موصوفة مبني على السُّكون في محل رفع فاعل ﴿يَدْخُلَ﴾، ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمه ضمير مستتر، تقديره: «هو»، يعود إلى ﴿مَن﴾. ﴿هُودًا﴾: خبر: ﴿كَانَ﴾ والجملة الفعلية صلة ﴿مَن﴾ أو صفتها، والعائد أو الرابط عود الضمير إليها. ﴿أَوْ﴾: حرف عطف. ﴿نَصَارَىٰ﴾: معطوف على ﴿هُودًا﴾ خبر ﴿كَانَ﴾، والجملة الفعلية صلة ﴿مَن﴾ أو صفتها، والعائد، أو الرابط عود الضمير إليها. ﴿أَوْ﴾: حرف عطف. ﴿نَصَارَىٰ﴾: معطوف على ﴿هُودًا﴾ منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على الألف للتعذر، وجملة: ﴿لَن يَدْخُلَ﴾ في محل نصب مقول القول.

﴿تِلْكَ﴾: اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب لا محل له. ﴿أَمَانِيُّهُمْ﴾: خبر المبتدأ، والهاء في محل جر بالإضافة، والجملة الاسمية معترضة بين الدَّعوى، وطلب الدَّليل عليها. ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله مستتر، تقديره: «أنت». ﴿هَاتُوا﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قُلْ﴾ مستأنفة لا محل لها. ﴿بُرْهَانَكُمْ﴾: مفعول به، والكاف في محل جر بالإضافة. ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾: انظر إعراب مثلها في الآية رقم [٩١]. والشَّرط وجوابه في محل نصب مقول القول.

﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾

الشرح: ﴿بَلَىٰ﴾: فيه إثبات لما نفوه من دخول غيرهم الجنة، وانظر شرح ﴿بَلَىٰ﴾ في الآية رقم [٨١]. ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾: انقاد لأوامره بكليته. وخصَّ الوجه بالذكر لأنه أشرف الأعضاء الظاهرة، وفيه أكثر الحواس، ولأنه موضع السُّجود، ومظهر آثار الخشوع، والخضوع، وفيه مظهر العزِّ، والذلِّ، والسُّرور، والغمِّ، والهمِّ، وغير ذلك، والعرب تُخْبِر بالوجه عن جملة الشَّيء، قال الله لنبيِّه ﷺ: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾ رقم [٢٠] من سورة (آل عمران)، وإذا جاء العبد بوضع وجهه على الأرض في السُّجود. فقد جاء بجميع أعضائه، قال زيد بن عمرو بن نفيل ـ وهو من المتحنِّفين في الجاهلية ـ: [المتقارب]

وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ ... لَهُ الأَرْضُ تَحْمِلُ صَخْراً ثِقَالا
وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ ... لَهُ الْمُزْنُ تَحْمِلُ عَذْباً زُلالا

يعني بذلك: استسلمت لطاعة من استسلمت لطاعته الأرض، والمزن. ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: في عمله، وله شرطان: أحدهما: أن يكون خالصاً لله تعالى، والثاني: أن يكون صواباً موافقاً للشَّريعة؛ التي جاء بها محمد ﷺ، فمتى اختلَّ شرطٌ منهما؛ كان العمل غير مقبول قطعاً. ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾: ثوابه مدَّخرٌ عند ربه يوفيه إياه يوم القيامة، يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم. ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: فلا خوف عليهم فيما بين أيديهم من أهوال يوم القيامة، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من الدُّنيا، وليس فيه دليل على نفي أهوال يوم القيامة، وخوفها على المُطيعين، إلا أنَّه يُخفَّف عنهم، وإذا صاروا إلى رحمته؛ فكأنهم لم يخافوا. هذا؛ والحزن: ضدُّ السرور، ولا يكون إلا على ماضٍ، وحزن الرَّجل، وأحزنه غيره، وحزَّنه أيضاً، مثل: سلكه، وأسلكه، قال اليزيدي: حزَّنه لغة قريش، وأحزنه لغة تميم، وقد قرئ بهما إلا في سورة (الأنبياء) فإنَّه في الأولى فقط قوله تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ وهي أفصح اللُّغتين.

الإعراب: ﴿بَلَىٰ﴾: حرف جواب، تُبتدأ بعده الجمل. ﴿مَنْ﴾: اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿أَسْلَمَ﴾: فعل ماض مبني على الفتح في محل جزم فعل الشرط، والفاعل يعود إلى ﴿مَنْ﴾ تقديره: هو. ﴿وَجْهَهُۥ﴾: مفعول به، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿لِلَّهِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾: مبتدأ، وخبر، والجملة الاسمية في محل نصب حال من فاعل: ﴿أَسْلَمَ﴾ المستتر، وهذه الحال مؤكدة؛ لأنَّ من أسلم وجهه؛ فهو

محسن. والرابط: الواو، والضمير. ﴿فَلَهُۥ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (له): متعلقان بمحذوف خبر مقدَّم. ﴿أَجْرُهُۥ﴾: مبتدأ مؤخر، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿عِندَ﴾: ظرف مكان متعلِّق بمحذوف خبر ثانٍ، أي: ثابت، وبعضهم يعلقه بمحذوف حال من المبتدأ. وهو ضعيف يمنعه كثيرون. و﴿عِندَ﴾ مضاف، و﴿رَبِّهِۦ﴾ مضاف إليه، والهاء في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه، والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط، وخبر المبتدأ الذي هو (مَنْ) مختلف فيه كما بينته مراراً. هذا؛ وإن اعتبرت ﴿مَنْ﴾ اسماً موصولاً؛ فهو مبتدأ، وجملة: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ﴾ صلته، والجملة الاسمية: ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ﴾ في محل رفع خبره، ودخلت الفاء على خبره؛ لأن الموصول يشبه الشَّرط في العموم.

﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): نافية مهملة، ولا يجوز إعمالها إعمال «ليس» لأنها تكررت. ﴿خَوْفٌ﴾: مبتدأ. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ، ويجوز تعليقهما بـ ﴿خَوْفٌ﴾ لأنه مصدر، أو بمحذوف صفة له، وعليهما فالخبر محذوف تقديره: حاصلٌ، أو موجودٌ، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها، فهي في محل جزم مثلها. ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): صلة لتأكيد النفي. ﴿هُمْ﴾: مبتدأ، وجملة: ﴿يَحْزَنُونَ﴾ في محل رفع خبره، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها. هذا؛ وقرأ جماعة: ﴿وَلَا خَوْفٌ﴾ بفتح الفاء على اعتبار (لا) عاملة عمل «إنَّ» لنفي الجنس، والاختيار عند النحويين الرفع والتنوين على الابتداء؛ لأنَّ الثاني معرفة لا يكون فيه إلا الرَّفع؛ لأن (لا) لا تعمل في معرفة، فاختاروا في الأول الرفع أيضاً؛ ليكون الكلام من وجهٍ واحدٍ.

ويجوز أن تكون: (لا) في قولك: ﴿وَلَا خَوْفٌ﴾ بمعنى «ليس». انتهى. قرطبي. أقول: وقد ذكرت لك: أنها إذا تكرَّرت؛ أهملت، أي: لا تعمل عمل «ليس». تأمَّل، وتدبَّر، وربك أعلم، وأجلُّ، وأكرم.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾

الشرح: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ أي: كفر اليهود بعيسى، وقالوا: ليست النصارى على دين صحيح معتدٍّ به، فدينهم باطل. ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾: المعنى واضح من أنَّ كل طائفة كفَّرت الأخرى، وهذا كان لمَّا قدم وفد نجران مِنَ النَّصارى المدينة، واجتمعوا بالنبي ﷺ أتتهم أحبار اليهود، فتنازعوا عند رسول الله ﷺ، فقال رافع بن

حرملة للنَّصارى: ما أنتم على شيء، وكفر بعيسى، والإنجيل. وقال رجل من أهل نجران لليهود: ما أنتم على شيءٍ، وكفَر بموسى، والتَّوراة، فأنزل الله الآية الكريمة.

﴿وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾: أي: إنَّ كلاً من اليهود، والنصارى يقرؤون كتابهم، وفيه تصديق الكتاب الآخر، فاليهود قرؤوا التَّوراة، وفيها البشارة بعيسى، والإنجيل، والنَّصارى قرؤوا الإنجيل، وفيه تصديق التَّوراة، والإيمان بموسى، على نبينا وعليه ألف صلاة، وألف سلام.

﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ اختلف في هؤلاء، والمعتمد: أنهم هم المشركون، فقد كانوا ينفون جميع الأديان السماويَّة، ولا يعترفون إلا بوثنيتهم العربيَّة. ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ...﴾ أي: إنه تعالى يجمع بينهم يوم المعاد، ويفصل بينهم بقضائه العدل، الذي لا يجور فيه، ولا يظلم مثقال ذرة. وهذه الآية كقوله تعالى في سورة الحجِّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾.

الإعراب: ﴿وَقَالَتِ﴾: الواو: حرف عطف. (قالت): فعل ماض، والتاء تاء التأنيث حرف لا محل له. ﴿ٱلْيَهُودُ﴾: فاعل، والجملة الفعلية معطوفة على جملة: (قالوا...) في الآية رقم [١١١]. ﴿لَيْسَتِ﴾ فعل ماض ناقص، والتاء تاء التأنيث الساكنة. ﴿ٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ اسم (ليس) مرفوع وعلامة رفعه ضمة مقدَّرة على الألف المقصورة للتعذُّر. ﴿عَلَىٰ شَىْءٍ﴾: متعلقان بمحذوف خبر ﴿لَيْسَتِ﴾، والجملة في محل نصب مقول القول، والجملة الفعلية بعدها معطوفة عليها، وإعرابها مثلها بلا فارق. ﴿وَهُمْ﴾: الواو: واو الحال. (هم): ضمير منفصل مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿يَتْلُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع... والواو فاعله. ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، أو الجملة الاسمية في محل نصب حال من اليهود والنصارى، والرابط: الواو، والضمير.

﴿كَذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لمفعول مطلق محذوف، عامله ما بعده، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب لا محل له. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: فاعله، وجملة: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ مع المفعول المحذوف صلة الموصول لا محل لها. ﴿مِثْلَ﴾: مفعول: ﴿قَالَ﴾. وقيل: بدل من الكاف، وقال أبو البقاء: منصوب بـ ﴿يَعْلَمُونَ﴾ والمعنى لا يؤيده، و﴿مِثْلَ﴾ مضاف، و﴿قَوْلِهِمْ﴾ مضاف إليه، وقيل: هو بدل من اسم الإشارة، وفيه بعد لا يخفى، والهاء في محل جر بالإضافة، وجملة: ﴿كَذَٰلِكَ...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها.

﴿فَٱللَّهُ﴾: الفاء: حرف استئناف، ويجوز اعتبارها فصيحة. (الله): مبتدأ. ﴿يَحْكُمُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى الله، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية لا محل لها؛ لأنها مستأنفة. ﴿بَيْنَهُمْ﴾: ظرف مكان متعلق بالفعل قبله، والهاء في محل جر

بالإضافة. ﴿يَوْمَ﴾: ظرف زمان متعلق بالفعل: ﴿يَحْكُمُ﴾ أيضاً، و﴿يَوْمَ﴾ مضاف، و﴿ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ مضاف إليه.

﴿فِيمَا﴾: متعلقان بالفعل: ﴿يَحْكُمُ﴾ أيضاً، ويجوز اعتبارهما متعلقين بمحذوف حال من الضمير المجرور محلّاً بالإضافة، و(ما) تحتمل الموصولة، والموصوفة، والمصدرية، فعلى الأولين مبنية على السكون في محل جر بـ (في). ﴿كَانُواْ﴾: فعل ماض ناقص مبني على الضم، والواو اسمه، والألف للتفريق، ﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل بعدهما. ﴿يَخْتَلِفُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله، والجملة الفعلية صلة (ما) أو صفتها، والعائد، أو الرابط الضمير المجرور محلّاً بـ (في) التقدير: في الذي، أو: في شيءٍ كانوا يختلفون فيه، والمصدرية ضعيفةٌ كما ترى.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾

الشرح: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن﴾: استفهام بمعنى النفي، أي: لا أحد أظلم مِمَّن منع... إلخ. هذا؛ والممنوع في الحقيقة إنَّما هم الناس الَّذين يريدون العبادة في المساجد. ﴿أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ أي: بالتوحيد، والصلاة، والتَّسبيح، وغير ذلك. ﴿وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ﴾ أي: بالهدم، وتعطيل إقامة الشعائر فيها.

وخراب المساجد يكون حقيقيّاً، كتخريب بختنصر بيت المقدس، فغزا اليهود، وسباهم، وحرَّق التوراة، كما سترى في سورة (الإسراء). ويكون مجازاً لمنع المشركين المسلمين حين صدُّوا رسول الله ﷺ عن المسجد الحرام عام الحديبية. وعلى الجملة: فتعطيل المساجد عن الصَّلاة وإظهار شعائر الإسلام فيها خرابٌ لها.

هذا؛ وجمع ﴿مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ وإن كان المراد واحداً، إمَّا المسجد الحرام، وإما بيت المقدس؛ ليعمَّ جميع مساجد الله في الدنيا في القديم، والجديد، كما تقول لمن آذى صالحاً واحداً: ومن أظلم ممَّن آذى الصَّالحين؟!.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ﴾: هذا خبر معناه الطلب؛ أي: لا تمكِّنوا هؤلاء إذا قدرتم عليهم من دخولها إلا تحت الهدنة، والجزية، ولهذا لمَّا فتح رسول الله ﷺ مكَّة؛ أمر من العام القابل في سنة تسع أن ينادي علي ـ رضي الله عنه ـ برحابِ منى: ألا لا يحجَّنَّ، بعد هذا العام مشرك، ولا يطوفنَّ بالبيت عريان، ومن كان له أجلٌ؛ فأجله إلى مدَّته.

وأما النصارى فإنَّ بيت المقدس موضع حجِّ النصارى، وزيارتهم. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لم يدخلها بعد عمارتها روميٌّ، أو نصرانيٌّ إلا خائفاً، إن علم به؛ قتل. وقيل: أخيفوا بالجزية، والقتل، فالجزية على الذمِّي، والقتل للحربيِّ. وقيل: خوفهم هو فتح مدائنهم الثلاث: قسطنطينية، ورومية، وعمورية من قبل المسلمين.

﴿لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ﴾: هو الجزية على الذمِّي، والقتل للحربيِّ كما تقدَّم. ﴿وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾: هو الخلود في جهنم لهم، ولكل كافر معاندٍ للحقِّ.

الإعراب: ﴿وَمَنْ﴾: الواو: حرف استئناف. (مَنْ): اسم استفهام مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿أَظْلَمُ﴾: خبره. ﴿مِمَّن﴾: متعلقان بأظلم. ﴿مَّنَعَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى (مَنْ) تقديره: هو، والجملة الفعلية صلة (مَنْ) أو صفتها، والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها. ﴿مَسَٰجِدَ﴾: مفعول به، وهو مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾ مضاف إليه. ﴿أَن يُذْكَرَ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول منصوب بـ ﴿أَن﴾ والمصدر المؤول منهما، في محل نصب مفعول ثانٍ لـ ﴿مَّنَعَ﴾، أو هو مفعول لأجله على حذف مضاف، التقدير: كراهة أن يذكر، أو هو بدل مِنْ ﴿مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ أو هو على إسقاط حرف الجر، والأصل: من أن يذكر. ذكر الأوجه الأربعة سليمان الجمل نقلاً عن السَّمين بدون ترجيح. ﴿فِيهَا﴾: متعلقان بالفعل قبلهما.

﴿وَسَعَىٰ﴾: الواو: حرف عطف. (سعى): فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف، والفاعل يعود إلى (مَنْ). ﴿فِي خَرَابِهَآ﴾: متعلقان بالفعل (سعى). و(ها) في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية معطوفة على جملة: ﴿مَّنَعَ﴾ التي هي صلة (مَنْ) أو صفتها.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ، والكاف حرف خطاب لا محل له. ﴿مَا﴾: حرف نفي. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿لَهُمْ﴾: متعلِّقان بمحذوف في محل نصب خبر: ﴿كَانَ﴾ مقدم. ﴿يَدْخُلُوهَآ﴾: فعل مضارع منصوب بـ ﴿أَن﴾. وعلامة نصبه حذف النون، والواو فاعله. و(ها): مفعوله، والمصدر مِنْ: ﴿أَن يَدْخُلُوهَآ﴾: في محل رفع اسم ﴿كَانَ﴾ مؤخر. ﴿إِلَّا﴾ حرف حصر. ﴿خَآئِفِينَ﴾: حال مستثنى من عموم الأحوال، التقدير: ما كان لهم الدخول في جميع الأحوال إلا في حالة الخوف، وجملة: ﴿مَا كَانَ...﴾ في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ...﴾ مستأنفة لا محل لها.

﴿لَهُمْ﴾: متعلقان بمحذوف خبر مقدم. ﴿فِي ٱلدُّنْيَا﴾: متعلقان بالخبر المحذوف، أو بمحذوف خبر ثان، أو هما متعلقان بمحذوف حال من الضمير المستتر في الخبر المحذوف، ويجوز تعليقهما بالمصدر ﴿خِزْيٌ﴾ بعدهما، واعتبارهما متعلقين بمحذوف حال منه غير مسلَّم. ﴿خِزْيٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها، ولا يجوز اعتبارها حالاً مثل ﴿خَآئِفِينَ﴾ لأن استحقاقهم الخزي ثابت في كلِّ حال، لا في حال دخولهم المساجد خاصة. والتي بعدها معطوفة عليها، وإعرابها مثلها بلا فارقٍ.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾

الشرح: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ﴾: موضع الشُّروق. ﴿وَٱلْمَغْرِبُ﴾: موضع الغروب، أي: هما لله ملك، وما بينهما من الجهات، والمخلوقات بالإيجاد، والاختراع، وخصَّهما بالذِّكر، والإضافة إليه تشريفاً، نحو بيت الله، وناقة الله. هذا؛ وفي سورة (الرَّحمن) قوله: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ أي: مشرقي الشِّتاء والصَّيف، ومغربيهما، وقال تعالى في سورة (المعارج): ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾ فقد جمع المشرق، والمغرب كما ترى باعتبار مشارق الشمس، ومغاربها في السَّنة، وهي ثلاثمئة وستون، تشرق الشمس كلَّ يوم في واحدٍ منها، وكذا تغرب في واحد منها. هذا؛ وتقديم المشرق في جميع حالاته على المغرب يوحي بأفضليته عليه. هذا؛ وكان من حق المشرق والمغرب فتح العين، وهي الراء فيهما؛ لأن المصدر الميمي، واسمي الزمان، والمكان، إذا أخذ أحدهما من فعل ثلاثي، مفتوح العين، أو مضمومها في المضارع أن يكون بفتح العين قياساً، ولكن التلاوة جاءت بكسرها، وأيضاً جاء كثيرٌ بكسر العين، وهو مذكور في كتب النَّحو، من ذلك: المَسْجِد، والمنْبِت، والمسقِط، والمرفِق، والمنْخِر، والمجْزِر. والتَّحقيق: أنَّها أسماء نوعيَّة، غير جارية على فعلها، وإلا؛ فلا مانع من الفتح.

﴿تُوَلُّوا۟﴾: تتَّجهوا في صلاتكم، وقرأ الحسن: (تولَّوا) بفتح التاء، واللام، والأصل: «تتولوا». و(ثَمَّ) بفتح الثاء ظرف مكان بمعنى هناك، وانظر الآية رقم [٥٦]. ﴿وَجْهُ ٱللَّهِ﴾: جهته التي ارتضاها قبلة، وأمر بالتوجُّه إليها، وقال الحذاق من علماء القرآن والسنة: ذلك راجع إلى الوجود، والعبارة عنه بالوجه من مجاز الكلام؛ إذ كان الوجه أظهر الأعضاء في الشَّاهد، وأجلُّها قدراً، وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: الوجه: عبارة عنه عزَّ وجلَّ، كما قال: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ وقيل: الوجه القَصْدُ، كما قال الشاعر: [البسيط]

أَسْتَغْفِرُ اللهَ ذَنْباً لَسْتُ مُحْصِيَهُ رَبَّ العِبَادِ إِلَيْهِ الْوَجْهُ وَالعَمَلُ

هذا؛ واختلف في المعنى الذي أنزلت فيه الآية على ثلاثة أقوال:

الأول: أن الرَّسول ﷺ لمَّا هاجر إلى المدينة المنوَّرة؛ أُمِر بالتوجُّه إلى بيت المقدس في صلاته ستة عشر، أو سبعة عشر شهراً، ثمَّ صرفه الله إلى الكعبة، ولهذا يقول تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾. عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: كان أوَّل ما نُسِخ من القرآن القبلة، وانظر الآية رقم [١٤٤] الآتية؛ ففيها البحث كافٍ وافٍ.

الثاني: قال قوم: بل نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ إذناً من الله تعالى أن يصلِّي المتطوع حيث توجه من شرقٍ، أو غربٍ في سفره؛ لما روي عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: أنه كان يصلي حيث توجهت به راحلته، ويذكر: أن رسول الله ﷺ كان يفعل ذلك، ويتأوَّل هذه الآية: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾.

القول الثالث: قال آخرون: بل نزلت هذه الآية في قومٍ عميت عليهم القبلة، فلم يعرفوا شطرها، فصلوا على أنحاء مختلفة؛ لما روي عن عامر بن ربيعة عن أبيه ـ رضي الله عنه ـ قال: كنا في ليلة سوداء مع رسول الله ﷺ، فنزلنا منزلاً، فجعل الرجل يأخذ الأحجار فيعمل مسجداً يصلي فيه، فلما أصبحنا إذا نحن قد صلينا إلى غير قبلةٍ، فقلنا: يا رسول الله لقد صلينا ليلتنا هذه لغير القبلة، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ...﴾.

هذا وقال ابن جرير: ويحتمل: فأينما تولوا في دعائكم لي؛ فهنالك وجهي أستجب لكم دعاءكم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ﴾ يسع خلقه كلهم بالكفاية، والرزق، والجود، والعطاء، وهو واسع الفضل، والرَّحمة. وقيل: واسع القدرة، والرزق. وقيل: هو الغني؛ الذي وسع جميع مخلوقاته غناه. ﴿عَلِيمٌ﴾: بأفعالهم ما يغيب منها شيء، قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾.

مسألة تتعلّق بحكم الآية، وهي: أن المسافر إذا كان في مفازةٍ، أو بلادِ الشِّرك، واشتبهت عليه القبلة، فإنَّه يجتهد في طلبها بنوع من الدلائل، ويصلي إلى الجهة التي أدَّى إليها اجتهاده، ولا إعادة عليه، وإن لم يصادف القبلة، فإنَّ جهة الاجتهاد قبلتُه، وكذا الغريق في البحر إذا بقي على اللَّوح، فإنه يصلي على حسب حاله، وتصحّ صلاته، وكذا المشدود على جذع شجرة، ونحوها، بحيث لا يمكنه الاستقبال، والله أعلم.

الإعراب: ﴿وَلِلَّهِ﴾: الواو: حرف استئناف. (لله): متعلقان بمحذوف خبر مقدَّم. ﴿ٱلْمَشْرِقُ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها. ﴿وَٱلْمَغْرِبُ﴾: معطوف على ما قبله. ﴿فَأَيْنَمَا﴾: الفاء: حرف عطف وتفريع أو هي الفصيحة. (أينما): اسم شرط جازم مبني على السكون. ويقال: مبني على الفتح، و(ما): زائدة، وهو في محل نصب على الظرفية المكانية متعلق بالفعل بعده. وقيل: متعلق بجوابه، والأول أصح. ﴿تُوَلُّوا۟﴾: فعل مضارع فعل الشرط مجزوم وعلامة جزمه حذف النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها ابتدائية، أو هي في محل جر بإضافة: (أينما) إليها على اعتبارها متعلقة بالجواب. ﴿فَثَمَّ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (ثمّ): ظرف مكان متعلق بمحذوف خبر مقدم، وقد بني على الفتح لتضمنه معنى الإشارة، وقيل: لتضمنه معنى حرف الخطاب. ﴿وَجْهُ﴾: مبتدأ مؤخر، وهو مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾: مضاف إليه، والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط، والشرط ومدخوله كلام معطوف على ما قبله لا محل له مثله، والجملة الاسمية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ مستأنفة لا محل لها.

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾﴾

الشرح: ﴿وَقَالُوا۟﴾: أي: اليهود، والنَّصارى، ومن زعم: أنَّ الملائكة بناتُ الله، وهم العرب. ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾: فقد أخرج البخاري عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن النبيِّ ﷺ

قال: «**قال الله تعالى: كذَّبني ابن آدم، ولم يكن له ذلك، وشتمني، ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إيَّاي؛ فزعم أنِّي لا أقدر على إعادته كما كان، وأما شتمه إيَّايَ، فقوله: لي ولد، فسبحاني أن أتَّخذ صاحبةً وولداً**». سبحانه! انظر الآية رقم [٣٢].

﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: مُلكاً، وخلقاً، وعبيداً، والملكية تنافي الولادة. هو سبحانه المتصرِّف في خلقه، وهو خالقهم، ورازقهم، ومسخِّرهم، ومسيِّرهم، ومصرِّفهم كما يشاء، والجميع عبيد له، وملكٌ له، فكيف يكون له ولد منهم؛ والولد إنَّما يكون من شيئين متناسبين، والله تبارك وتعالى ليس له نظير، لا مشارك له في عظمته، وكبريائه!.

هذا؛ وعبَّر سبحانه بـ (ما) تغليباً لما لا يعقل على مَنْ يعقل، كما غلَّب في آياتٍ كثيرةٍ مَنْ يعقل على ما لا يعقل. ﴿كُلٌّ﴾ أي: كلُّ ما فيها، فالتنوين عوض من المضاف إليه. ﴿قَٰنِتُونَ﴾: مطيعون، منقادون مذلَّلون، مسخَّرون، المسلمون، والكافرون، والصَّالحون، والفاسدون، فالأوَّلون بالعبادة، والطاعة، والإنابة، والكافرون مسخَّرون لأوامره، وتنفيذ قضائه عليهم في الدنيا، وفي الآخرة محاسبون، ومجزيون على كفرهم، وفسوقهم بالعذاب الأليم، والعقاب الشديد. وأيضاً فيه تغليب مَنْ يعقل على ما لا يعقل؛ حيث جمع بالواو والنون جمع المذكر السالم.

الإعراب: ﴿وَقَالُواْ﴾: ماض وفاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية معطوفة على جملة: (قالت اليهود) في الآية رقم [١١٣]، وقيل: معطوفة على جملة: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾، وقرئ بدون واو، فتكون مستأنفة. ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾: ماض، وفاعله، ومفعوله، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول. ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾: مفعول مطلق لفعل محذوف، والهاء في محل جر بالإضافة من إضافة المصدر، أو اسم المصدر لفاعله، فيكون المفعول محذوفاً، أو لمفعوله فيكون الفاعل محذوفاً، والجملة الحاصلة منه، ومن فعله المحذوف معترضة لا محل لها من الإعراب.

﴿بَل﴾: حرف إضراب تُبتدأ بعده الجمل. ﴿لَّهُۥ﴾: متعلقان بمحذوف خبر مقدم غير متعلقة بكلام سابق. ﴿مَا﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل رفع مبتدأ مؤخَّر، والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها. ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: متعلقان بمحذوف صلة ﴿مَا﴾. ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ما قبله. ﴿كُلٌّ﴾: مبتدأ، ﴿لَّهُۥ﴾: متعلقان بـ ﴿قَٰنِتُونَ﴾ بعدهما. ﴿قَٰنِتُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل نصب حال من الضمير المستتر في الصلة المقدرة، وهذه الحال مؤكِّدة لمضمون الجملة الاسمية فيها.

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾

الشرح: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: منشئهما، وموجدهما، ومبدعهما، ومخترعهما على غير حدٍّ، ولا مثالٍ سبق، قال تعالى في سورة (الأنعام): ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ

وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾. ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾: أي: إذا أراد إحكامه، وإتقانه كما سبق في علمه؛ فإنما يقول له: كن فيكون، احدث، فيحدث، وليس المراد حقيقة أمر، بل هو تمثيل ما تعلَّقت به إرادته تعالى بلا مهلةٍ بطاعة المأمور، والمطيع بلا توقُّف. انتهى بيضاوي. قال الشاعر: [الطويل]

إِذَا مَــا أَرَادَ اللهُ أَمْــراً فَــإِنَّــمَــا   يَـقُـولُ ـ لَـهُ الـتـنـزيـه ـ كُـنْ فَـيَـكُـونُ

تنبيه: قال الشيخ أبو منصور ـ رحمه الله تعالى ـ القضاء يحتمل الحكم، كقوله تعالى: ﴿لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ أي: ليحكم ما قد علم: أنه يكون كائناً، أو ليتم أمراً كان قد أراده، وما أراد كونه فهو مفعول لا محالة، انتهى. هذا؛ والماضي: «قضى» والمصدر «قضاء» بالمد؛ لأن لام الفعل ياء؛ إذ أصل ماضيه: «قضيَ» بفتح الياء، فقلبت ألفاً لتحرُّكها، وانفتاح ما قبلها، ومصدره: «قَضَياً» بالتَّحريك كطلب طلباً، فتحركت الياء فيه أيضاً، وانفتح ما قبلها، فقلبت ألفاً، فاجتمع ألفان، فأبدلت الثانية همزة، فصار: قضاءً ممدوداً، وجمع القضاء: أقضية، كعطاء، وأعطية، وهو في الأصل: إحكام الشيء، وإمضاؤه، والفراغ منه، كما في قول الشاعر، وهو الشَّاهد رقم [١٧٩] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»: [الخفيف]

وَجْـهُـكَ الْـبَـدْرُ لَا بَـلِ الـشَّـمْـسُ لَـوْ لَـمْ   يُـقْـضَ لِـلـشَّـمْـسِ كَـسْـفَـةٌ أَوْ أُفُـولُ

وقال الشمَّاخ في عمر ـ رضي الله عنه ـ: [الطويل]

قَـضَـيْـتَ أُمـوراً ثُـمَّ غَـادَرْتَ بَـعْـدَهَـا   بَـوَائِـقَ فِـي أَكْـمَـامِـهَـا لَـمْ تُـفَـتَّـقِ

ويكون بمعنى الأمر، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾. وبمعنى العلم، تقول: قضيت بكذا، أي: أعلمتك به، وبمعنى الإتمام، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾. وبمعنى الفعل، قال تعالى، حكايةً عن قول السَّحرة لفرعون: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ وبمعنى الإرادة، وهو كثير كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾. وبمعنى الموت، كقوله تعالى حكاية عن قول أهل النَّار: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾. وبمعنى الكتابة، قال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ أي: مكتوباً في اللَّوح المحفوظ. وبمعنى الفصل، قال تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾. وبمعنى الخلق، كقوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾. وبمعنى بلوغ المُراد، والأرب، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾. وبمعنى وفاء الدَّين تقول: قضى فلان ما عليه إذا ما أوفى ذمته، وأبرأها مما عليه من ديون. انتهى قسطلاني في شرح البخاري، بتصرف. أضيفُ: أنه يكون بمعنى: أوحينا، كقوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾.

قال القرطبيُّ ـ رحمه الله تعالى ـ: فإذا كان القضاء يحتمل هذه المعاني؛ فلا يجوز إطلاق القول بأنَّ المعاصي بقضاء الله تعالى؛ لأنَّه إن أريد به الأمر؛ فلا خلاف: أنه لا يجوز ذلك؛

لأن الله تعالى لا يأمر بها، فإنَّه لا يأمر بالفحشاء. وقال زكريا بن سلام: جاء رجل إلى الحسن البصريِّ، فقال: إنَّه طلق امرأته ثلاثاً، فقال: إنَّك قد عصيت ربك، وبانت منك. فقال الرَّجل: قضى الله عليَّ، فقال الحسن، وكان فصيحاً، ما قضى الله ذلك؛ أي: ما أمر الله به، وقرأ قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾.

هذا؛ و(الأمر): واحد الأمور، وليس بمصدر: أَمَرَ، يأمر، قال العلماء: والأمر في القرآن يتصرف على أربعة عشر وجهاً: **الأول**: الدِّين، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي: دين الإسلام. **الثَّاني**: القول، ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ يعني: قولنا، وقوله تعالى: ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمْرَهُم﴾ يعني قولهم. **الثالث**: العذاب، ومنه قوله تعالى: ﴿لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ يعني: لما وجب العذاب بأهل النار. **الرابع**: عيسى عليه السلام، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾ يعني: عيسى، وكان في علمه تعالى أن يكون من غير أب. **الخامس**: القتل ببدر، قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ يعني: القتل ببدر، وقوله تعالى: ﴿لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ يعني: قتل أهل مكة. **السادس**: فتح مكة، قال تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ يعني: فتح مكة. **السَّابع**: قتل قريظة، وجلاء النضير، قال تعالى: ﴿فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾. **الثامن**: القيامة، قال الله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾. **التاسع**: القضاء، قال الله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ يعني: القضاء. **العاشر**: الوحي، قال الله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ يقول: ينزل الوحي من السماء إلى الأرض. وقوله تعالى: ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ يعني: الوحي. **الحادي عشر**: أمر الخلق، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ يعني: أمور الخلائق. **الثاني عشر**: النصر، قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾ يعنون النصر. **الثالث عشر**: الذَّنب، قال تعالى: ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ أي: جزاء ذنبها. **الرابع عشر**: الشأن، والفعل، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ أي: فعله، وشأنه، وقال جلَّ شأنه: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ أي: فعله، وقوله. انتهى قرطبي.

الإعراب: ﴿بَدِيعُ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: هو بديع، والجملة الاسمية معترضة بين الكلام السابق، واللاحق لا محل لها. هذا؛ وقرئ بجر (بَدِيْعِ) على أنه بدل من الضمير في (له) على مذهب الكسائي، والمحققون لا يجيزون إبدال ظاهر من الضمير، وقرئ بنصبه على: أنه منصوب على المدح بفعل محذوف، و﴿بَدِيعُ﴾: مضاف، و﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: مضاف إليه من إضافة الصفة المشبهة لمفعولها، وفاعلها ضمير مستتر تقديره: هو، أو هو اسم فاعل، كما رأيت في الشرح، وهو أولى. ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على سابقه. ﴿وَإِذَا﴾: الواو: حرف عطف. (إذا): ظرف لما يستقبل من الزمان خافض لشرطه منصوب بجوابه، صالح لغير ذلك، مبني على

السكون في محل نصب. ﴿قَضَىٰٓ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف للتعذر، والفاعل يعود إلى ﴿ٱللَّهُ﴾ تقديره: هو.

﴿أَمۡرٗا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة (إذا) إليها على القول المرجوح وهو المشهور. ﴿فَإِنَّمَا﴾: الفاء: واقعة في جواب (إذا)، (إنما) كافة ومكفوفة. ﴿يَقُولُ﴾: فعل مضارع، والفاعل تقديره: هو. ﴿لَهُۥ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿كُن﴾: فعل أمر تام، وفاعله ضمير مستتر تقديره: أنت، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿يَقُولُ﴾ جواب (إذا) لا محل لها، و(إذا) ومدخولها كلام معطوف على ما في الآية رقم [١١٥].

﴿فَيَكُونُ﴾: الفاء: حرف عطف. (يكون): فعل مضارع تام، وفاعله مستتر تقديره: هو، يعود إلى ﴿أَمۡرٗا﴾ والجملة الفعلية في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: فهو يكون، والجملة الاسمية هذه مستأنفة لا محل لها، وهذا القول يُعزى لسيبويه. وقيل: إنَّ (يكون) معطوف على: ﴿يَقُولُ﴾ وهذا يُعزى للزَّجاج، والطبريِّ، وقيل: هو معطوف على ﴿كُن﴾ من حيث المعنى، وهو قول الفارسيِّ، انتهى سليمان الجمل. هذا؛ وقرأ ابن عامر بالنصب على أنَّ الفعل منصوب بـ «أن» مضمرة بعد الفاء السببية، وضعفه أبو البقاء.

وأقول: لا يمكن سبك مصدر من المضمر، والفعل، وعطفه على مصدر متصيَّد من الفعل السابق؛ إذ لا يقال: ليكن حدوث، فحدوث.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ١١٨﴾

الشرح: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾: قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هم اليهود. قال مجاهد: هم النصارى، ورجَّحه الطَّبريُّ. وقال الربيع، والسُّدي، وقتادة: هم مشركو العرب، ﴿لَوۡلَا﴾: هلا ﴿يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾ أي: يقول لنا: إنَّك رسول الله. ﴿أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ﴾: دلالة واضحة تدلُّ على صدقك في دعواك النبوة، والرسالة. ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم﴾: اليهود والنصارى في قول من جعل الذين لا يعلمون كفار العرب، أو الأمم السالفة في قول: من جعل الذين لا يعلمون اليهود والنصارى، أو اليهود في قول من جعل الذين لا يعلمون النَّصارى. ﴿تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ﴾: في الكفر، وترك الإيمان، والتعنيت، والاقتراح، وهو مثل قوله تعالى في الآية رقم [١١٣]: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ﴾. ﴿قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي: الدَّلالات على نبوَّة محمد ﷺ ﴿لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ أي: إنَّ آيات القرآن، وما جاء به محمد ﷺ من المعجزات الباهرات كافيةٌ لمن كان طالباً لليقين. وإنَّما خصَّ أهل الإيقان بالذكر؛ لأنهم هم أهل التثبُّت في الأمور، ومعرفة الأشياء على يقين. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: (قال): فعل ماض. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع فاعل، وجملة: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ مع المفعول المحذوف صلة الموصول لا محل لها، وجملة: (قال الذين لا يعلمون): مستأنفة لا محل لها؛ لأنَّ الكلام مستأنف لحكاية نوع آخر من قبائح اليهود، والنَّصارى. ﴿لَوْلَا﴾: حرف تحضيض. ﴿يُكَلِّمُنَا﴾: فعل مضارع، و(نا) مفعوله. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول. ﴿أَوْ﴾: حرف عطف. ﴿تَأْتِينَآ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء للثقل، و(نا) مفعول به. ﴿ءَايَةٌ﴾: فاعله، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، فهي في محل نصب مقول القول مثلها.

﴿كَذَٰلِكَ﴾: الكاف حرف تشبيه وجر. (وذا): اسم إشارة مبني على السكون في محل جر بالكاف، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف صفة مفعول مطلق محذوف، عامله ما بعده، التقدير: قال الذين من قبلهم قولاً كائناً مثل قولهم، أو مثل ذلك القول، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب لا محل له. ﴿مِن قَبْلِهِم﴾: متعلقان بمحذوف صلة الموصول، والهاء في محل جر بالإضافة، ﴿مِّثْلَ﴾: مفعول به لـ ﴿قَالَ﴾، وهي قائمة مقام كلام كثير، كما رأيت في الشرح، فلذا صح أن تكون مفعول به لـ ﴿قَالَ﴾؛ لأنها لا تنصب إلا الجمل، أو ما يقوم مقامها. و﴿مِّثْلَ﴾: مضاف، و﴿قَوْلِهِمْ﴾: مضاف إليه. والهاء: في محل جر بالإضافة، من إضافة المصدر لفاعله، ﴿تَشَٰبَهَتْ﴾: فعل ماض، والتاء للتأنيث حرف لا محل له. ﴿قُلُوبُهُمْ﴾: فاعله، والهاء في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية في محل نصب حال من الضمير المجرور محلاً بالإضافة، والرابط الضمير فقط، وهي على تقدير «**قد**» قبلها. ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق يقرب الماضي من الحال. ﴿بَيَّنَّا﴾: فعل، وفاعل، والجملة الفعلية مستأنفة لا محل لها، المراد منها بيان: أنَّ الله لم يترك شيئاً بدون توضيح، وتبيين. ﴿لِقَوْمٍ﴾: متعلقان بما قبلهما. والجملة الفعلية بعده في محل جر صفة لـ (قوم). ﴿ٱلْءَايَٰتِ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه الكسرة نيابة عن الفتحة؛ لأنه جمع مؤنث سالم.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ١١٩﴾

الشرح: الخطاب لسيد الخلق، وحبيب الحق ﷺ. ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا﴾: مبشراً لأهل الطاعة بالثَّواب العظيم، والأجر الجزيل، والدُّخول في دار النعيم. ﴿وَنَذِيرًا﴾: لأهل المعاصي والفساد من غضب الله، وعقابه. ﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: أنت لست مسؤولاً عمَّن لم يؤمن منهم، بعد أن بذلت الجهد في دعوتهم إلى الإيمان، وقرئ الفعل بقراءاتٍ كثيرة، ومنها قراءة بالجزم على النَّهي. قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: وذلك: أنَّ رسول الله ﷺ قال ذات يوم: «**ليت شعري ما فعل أبواي**». فنزلت هذه الآية. والمعنى: إنا أرسلناك بالحق لتبليغ ما أرسلت به، فإنَّما عليك البلاغ، ولست مسؤولاً عمَّن كفر، وهذا ينفي القول بأنَّ الله

أحيا أبوي النَّبي ﷺ. والقول الفصل بأنَّ أبويه ﷺ ناجيان مع أهل الفترة كما ذكرته في سورة (الإسراء)، وهما في الجنَّة وجميع أجداده، وجدَّاته، إن شاء الله تعالى.

الإعراب: ﴿إِنَّآ﴾: حرف مشبه بالفعل، و(نا) اسمها، حذفت نونها، وبقيت الألف دليلاً عليها. ﴿أَرْسَلْنَٰكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة الفعلية في محل رفع خبر (إنَّ). والجملة الاسمية مبتدأة، أو مستأنفة لا محل لها. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: متعلقان بمحذوف حال من كاف الخطاب، أي: متلبساً بالحقِّ. ﴿بَشِيرًا﴾: حال أيضاً. ﴿وَنَذِيرًا﴾: معطوف على ما قبله. ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): نافية، ﴿تُسْـَٔلُ﴾: مضارع مبني للمجهول، ونائب الفاعل تقديره: أنت، والجملة الفعلية معطوفة على: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾، فهي في محل نصب حال أيضاً. ﴿عَنْ أَصْحَٰبِ﴾: متعلقان بما قبلهما. و﴿أَصْحَٰبِ﴾: مضاف، و﴿ٱلْجَحِيمِ﴾ مضاف إليه.

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾

الشرح: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ...﴾: في هذا الكلام تيئيس، وتقنيط للرَّسول ﷺ من إسلام اليهود، والنَّصارى، فإنهم إذا كانوا لم يرضوا حتى يتبع ملتهم، فكيف يسلمون؟!.

هذا؛ والملَّة بكسر الميم: الطريقة، والشريعة، والدِّيانة، وهي بفتح الميم: الرَّماد الحار، وقد تمسَّك بهذه الآية جماعة من العلماء، منهم أبو حنيفة، والشافعي على أنَّ الكفر ملَّةٌ واحدة، لقوله تعالى: ﴿مِلَّتَهُمْ﴾ فوحَّد الملَّة، وبقوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ ولقول النبي ﷺ: «**لا يَرِثُ الْمُسْلِمُ الكَافِر**». وذهب مالك، وأحمد إلى أنَّ الكفر مِلَلٌ، فلا يرث اليهوديُّ النَّصرانيَّ، ولا يرثان المجوسيَّ، والعكس كذلك، أخذاً بظاهر قول النبي ﷺ: «**لا يتوارث أهل ملَّتين**». وأما قوله تعالى: ﴿مِلَّتَهُمْ﴾ فالمراد: الكثرة، وإن كانت موحدة في اللفظ بدليل إضافتها إلى ضمير الكثرة، كما تقول: أخذت عن علماء المدينة علمهم، وسمعت عنهم حديثهم، يعني: علومهم، وأحاديثهم. قرطبي.

﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: ما أنت عليه يا محمد من هدى الله الحق الذي يضعه في قلب مَنْ يشاء هو الهدى الحقيقي، لا ما يدَّعيه هؤلاء، والمراد دين الإسلام، الذي ارتضاه الله لنفسه، وللناس أجمعين، حيث قال تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾.

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾: في هذا الخطاب وجهان: **أحدهما**: أنه للرَّسول ﷺ على سبيل الفرض، والتقدير؛ أي: إن حصل منك ذلك. **والثاني**: أنَّه للرسول، والمراد أمَّته، وفيه تأديب لهم، وتهذيب لهم. وسبب نزول الآية: أن علماء اليهود، والنَّصارى،

كانوا يسألون المسالمة، والهدنة، ويعدون الرسول ﷺ بالإسلام، فأعلمه الله: أنَّهم لن يرضوا عنه حتى يتَّبع ملتهم، وأمره بجهادهم.

الإعراب: ﴿وَلَن﴾: الواو: حرف استئناف. (لن): حرف نفي، ونصب، واستقبال. ﴿تَرْضَىٰ﴾: فعل مضارع منصوب بـ (لن) علامة نصبه فتحة مقدرة على الألف للتعذر. ﴿عَنكَ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿ٱلْيَهُودُ﴾: فاعله، والجملة الفعلية مستأنفة لا محل لها.

﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): زائدة لتأكيد النفي. ﴿ٱلنَّصَٰرَىٰ﴾: معطوف على: ﴿ٱلْيَهُودُ﴾ مرفوع مثله، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف للتعذُّر. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف غاية وجر؛ بعدها «أن» مضمرة. ﴿تَتَّبِعَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ «أن» المضمرة بعد حتَّى، والفاعل تقديره: أنت، و«أنْ» المضمرة، والفعل: ﴿تَتَّبِعَ﴾ في تأويل مصدر في محل جر بـ ﴿حَتَّىٰ﴾، والجار والمجرور متعلقان بالفعل: ﴿تَرْضَىٰ﴾. ﴿مِلَّتَهُمْ﴾ مفعول به، والهاء في محل جر بالإضافة.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: أنت. ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿هُدَى﴾: اسمها منصوب وعلامة نصبه فتحة مقدرة على الألف للتعذر، و﴿هُدَى﴾ مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾: مضاف إليه. ﴿هُوَ﴾: ضمير منفصل مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ. ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾: خبره مرفوع. . ، والجملة الاسمية في محل رفع خبر: ﴿إِنَّ﴾، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول. هذا؛ ويجوز اعتبار الضمير توكيداً لاسم ﴿إِنَّ﴾ على المحل كما يجوز اعتباره ضمير فصل، وعليهما فخبر ﴿إِنَّ﴾ هو ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾، وجملة: ﴿قُلْ...﴾ مستأنفة، أو مبتدأة لا محل لها.

﴿وَلَئِنِ﴾ الواو حرف استئناف، واللام موطئة لقسم محذوف. (إنْ): حرف شرط جازم. ﴿ٱتَّبَعْتَ﴾: فعل ماض مبني على السكون في محل جزم فعل الشرط، والتاء فاعله والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها ابتدائية، ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفي.

﴿أَهْوَآءَهُم﴾: مفعول به، والهاء في محل جر بالإضافة. و﴿بَعْدَ﴾: ظرف زمان متعلق بالفعل قبله، و﴿بَعْدَ﴾ مضاف، و﴿ٱلَّذِى﴾ اسم موصول مبني على السكون في محل جر بالإضافة.

﴿جَآءَكَ﴾: فعل ماض، والكاف مفعول به، والفاعل يعود إلى ﴿ٱلَّذِى﴾ وهو العائد، والجملة صلة الموصول لا محل لها. ﴿مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾: متعلقان بمحذوف حال من الفاعل المستتر العائد إلى الموصول، و﴿مِنَ﴾ بيان لما أبهم فيه. ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾: انظر إعراب هذه الكلمات في الآية رقم [١٠٧] وهي هنا جملة اسمية لا محل لها؛ لأنها جواب القسم المدلول عليه باللام، وجواب الشرط محذوف لدلالة جواب القسم عليه على القاعدة: «إذا اجتمع شرط وقسم، فالجواب للسَّابق منهما». قال ابن مالك ـ رحمه الله تعالى ـ في ألفيته: [الرجز]

وَاحْذِفْ لَدى اجتماعِ شَرْطٍ وَقَسَمْ جوابَ مَا أَخَّرْتَ فَهْوَ مُلْتَزَمْ

والكلام: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ...﴾ مستأنف لا محل له.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٢١﴾

الشرح: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾: قال قتادة ـ رحمه الله تعالى ـ: هم أصحاب محمد ﷺ والكتاب على هذا التأويل: القرآن، وقال ابن زيد ـ رحمه الله تعالى ـ: هم من أسلم من بني إسرائيل، والكتاب: على هذا التأويل: التوراة، والآية تعمُّ. انتهى قرطبي. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: نزلت في أهل السفينة الَّذين قدموا مع جعفر بن أبي طالب، وكانوا أربعين رجلاً: اثنان وثلاثون رجلاً من الحبشة، وثمانية من رهبان الشام، منهم بحيرا الرَّاهب. انتهى. خازن. وهو غير مسلم قطعاً، وهل عاش بحيرا الراهب إلى زمن رجوع جعفر من الحبشة؟ وما الذي ذهب به إلى الحبشة، ثمَّ أتى إلى الشام؟.

﴿يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ أي: يقرؤونه كما أنزل، لا يغيِّرونه، ولا يحرفونه، ولا يبدلون ما فيه من نعت الرسول ﷺ. وقيل: معناه: يتبعونه حقَّ اتباعه، فيحلون حلاله، ويحرمون حرامه، ويعملون بمحكمه، ويؤمنون بمتشابهه، ويقفون عنده، ويكلون علمه إلى الله تعالى. وقيل: معناه: تدبَّروه حقَّ تدبره، وتفكَّروا في معانيه، وحقائقه.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ﴾ أي: الذين يتلونه حق تلاوته يصدِّقون به. فإن قلنا: إنَّ الآية نزلت في أهل الكتاب؛ فيكون المعنى: إنَّ المؤمن بالتوراة الذي يتلوها حقَّ تلاوتها هو المؤمن بمحمَّد ﷺ، لأنَّ في التوراة نعته، وصفته، وإن قلنا: إنَّها نزلت في المؤمنين عامةً؛ فظاهرٌ. ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ﴾: يجحد ما فيه من فرائض الله، ونبوَّة محمَّد ﷺ. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ أي: خسروا أنفسهم؛ حيث استبدلوا الكفر بالإيمان.

الإعراب: ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ. ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمُ﴾: فعل وفاعل ومفعول به أول، والجملة الفعلية صلة الموصول لا محل لها. ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾: مفعول به ثان. ﴿يَتۡلُونَهُۥ﴾: فعل مضارع، وفاعله، ومفعوله، والجملة الفعلية في محل نصب حال من المفعول الأول، أو المفعول الثاني. وقيل: في محل رفع خبر المبتدأ، ﴿حَقَّ﴾: مفعول مطلق. ويقال: نائب مفعول مطلق، و﴿حَقَّ﴾ مضاف، و﴿تِلَاوَتِهِۦٓ﴾: مضاف إليه، والهاء في محل جرٍّ بالإضافة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ، والكاف حرف خطاب لا محل له. ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله. ﴿بِهِۦۗ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل رفع خبر المبتدأ

على اعتبار جملة (يتلونه) حالاً، أو في محل رفع خبر ثان له على اعتبار الجملة الفعلية الأولى خبراً أولاً، وقيل: مستأنفة، والجملة الاسمية: ﴿ٱلَّذِينَ...﴾ مستأنفة لا محل لها. ﴿وَمَن﴾: الواو: حرف استئناف. (مَنْ): اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿يَكْفُرْ﴾: فعل مضارع فعل الشرط، والفاعل يعود إلى (مَنْ) تقديره: هو. ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (أولئك): مبتدأ. ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل لا محل له. ﴿ٱلْخَٰسِرُونَ﴾: خبر المبتدأ. هذا؛ وإن اعتبرت الضمير مبتدأ ثانياً، والخاسرون خبر عنه؛ فالجملة الاسمية تكون في محل رفع خبر المبتدأ الأول، والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشَّرط، وخبر المبتدأ الذي هو (مَنْ) مختلف فيه كما ذكرته لك مراراً. والجملة الاسمية: ﴿وَمَن...﴾ مستأنفة لا محل لها.

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾﴾

انظر الآية رقم [٤٧] لشرح هذه الآية وإعرابها. قال البيضاوي: لمَّا صدَّر قصتهم بالأمر بذكر النِّعم، والقيام بحقوقها، والحذر من إضاعتها، والخوف من السَّاعة، وأهوالها؛ كرَّر ذلك، وختم به الكلام معهم مبالغةً في النُّصح، وإيذاناً بأنه فذلكة القصَّة، والمقصود من القصَّة، انتهى.

﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

انظر الآية رقم [٤٨] لشرح هذه الآية وإعرابها، وقال الخازن: وفي هذه الآية عظةٌ لليهود الذين كانوا في زمن الرَّسول ﷺ. وكرَّرها في أول السُّورة، وهنا للتَّوكيد، وتذكير النِّعم. انتهى.

﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾

الشرح: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ﴾: قال ابن كيسان: ويقال: أبلاه، وبلاه في الخير والشرِّ، وأنشد قول زهير في ممدوحَيْه: هرم بن سنان، والحارث بن عوف المُرِّيين: [الطويل]

جَـزَى اللهُ بِـالإِحْـسَـانِ مَـا فَـعَـلا بِـكُـمْ وَأَبْـلاهُـمَـا خَـيْـرَ الْـبَـلَاءِ الَّـذِي يَـبْـلُـو

فجمع بين اللُّغتين. وقيل: الأكثر في الخير: أبليته، وفي الشرِّ: بلوته، وفي الاختبار: ابتليته، وبلوته. قاله النَّحاس، والابتلاء في الأصل: الشَّيء الشاقُّ. والابتلاء يكون في الخير،

والشرِّ، وقال تعالى في حقِّ بني إسرائيل: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ﴾ وأصل الابتلاء: الامتحان، والاختبار؛ ليظهر للناس حال الإنسان، والله تعالى عالم بحال الإنسان من الأزل إلى الأبد، فالمراد: أنه عامله معاملة المختبر؛ ليظهر ذلك للخلق.

هذا؛ ولقد اختلف في الكلمات التي اختبر الله بها إبراهيم، على نبينا، وعليه ألف صلاةٍ، وألف سلام، فقال عكرمة: عن ابن عبَّاسٍ ـ رضي الله عنهما ـ: هي ثلاثون من شرائع الإسلام: عشر في (براءة): ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ﴾ الآية رقم [١١٢]، وعشر في (الأحزاب): ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ...﴾ إلخ الآية رقم [٣٥] وعشر في (المؤمنون): ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ...﴾. وقال طاوس ـ رحمه الله تعالى ـ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ابتلاه الله بعشرة أشياء هي الفطرة: خمس في الرأس الشَّامل للوجه: قصُّ الشارب، والمضمضة، والاستنشاق، والسواك، وفرق الرأس، وخمس في الجَسد: تقليم الأظافر، وغسل البراجم، ونتف الإبط، وحلق العانة، والاستنجاء بالماء. وإنِّي أعتمد هذا. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

وفي الصَّحيحين عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**الفطرة خمس: الختان، والاستحداد، وقصُّ الشارب، وتقليم الأظافر، ونتف الإبط**». وفي الخبر: أنَّ إبراهيم عليه السلام أول مَنْ قص الشارب، وأول من اختتن، وكان عمره ثمانين سنةً، في روايةٍ ثانيةٍ: مئة وعشرين سنة، وهو أول من قلَّم الأظفار، وأوَّل من رأى الشيب، فلمَّا رآه؛ قال: يا ربِّ، ما هذا؟ قال: الوقار، قال: يا ربِّ زدني وقاراً. ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾: قام بهن على الوجه الأكمل. ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾: قدوة في الخير، فالمعنى: جاعلك للناس إماماً يأتمُّون بك في هذه الخصال، ويقتدي بك الصَّالحون، فجعله الله تعالى إماماً لأهل طاعته، فكذلك اجتمعت الأمم على الدَّعوى فيه. هذا؛ والإمام: الطريق. والكتاب: إمام. قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ﴾. ولا تنس دعوة عباد الرحمن في سورة (الفرقان): ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ فعلم: أنَّ المراد من الإمامة في الآية الكريمة الإمامة في الدِّين، والطاعة، والعبادة، ولو كانت الإمامة الدُّنيوية؛ لخالف ذلك الواقع؛ إذ نالها كثيرٌ من الظالمين.

﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾: أي: نسلي، وعقبي، وهي تقع على الجمع كما هنا، وكما في قوله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا﴾. وتقع على الواحد، كما في قوله تعالى حكايةً عن قول زكريا عليه الصلاة والسَّلام: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ قيل: هي مشتقة من الذَّرا بفتح الذال، وهي كل ما استذريت به، يقال: أنا في ظلِّ فلان، وفي ذَراه، أي: في كنفه، وستره، وتحت حمايته، وهو بضم الذَّال: أعلى الشيء. وقيل: مشتقةٌ من الذَّرء، وهو الخلق، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾.

﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: المراد بالعهد: النُّبوة، والإمامة، والقدوة الحسنة. هذا؛ وقرئ: (الظالمون) والمعنى لا يتغيَّر؛ لأن مَنْ نالك؛ فقد نلته، ومن نلته؛ فقد نالك.

هذا؛ و(إبراهيم) اسم عجمي، ومعناه: أب رحيم، وهو إبراهيم بن تارخ، وهو آزر بن ناخور ابن شاروع، بن أرغو بن فالغ، بن عابر، بن شالح، بن أرفحشد بن سام بن نوح عليه السلام، وقد وُلد بحرَّان من أرض العراق، ولكن نقله أبوه إلى أرض بابل، وهي أرض نمرود الجبَّار، وإبراهيم - على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام - يعترف بفضله جميع الطوائف البشرية قديماً، وحديثاً، فأمَّا اليهود، والنَّصارى؛ فإنَّهم مقرُّون بفضله، ويتشرفون بالانتساب إليه، وأنهم أولاده، وأمَّا العرب في الجاهلية؛ فإنهم يعترفون أيضاً بفضله، ويتشرفون بالانتساب إليه أيضاً؛ لأنهم أولاده. ومن ساكني حرمه، وخدَّام بيته. ولمَّا جاء الإسلام؛ زاده الله شرفاً، وفضلاً.

هذا؛ ومناسبة الآية والتي بعدها لما قبلها: أنَّ الله تعالى لما ذكر في الآيات السابقة نعمه على بني إسرائيل، وبيَّن كيف كانوا يقابلون النِّعم بالكفر، والعناد، ويأتون المنكرات في الأقوال، والأعمال؛ وصل حديثهم بقصَّة إبراهيم أبي الأنبياء الَّذي يزعم اليهود، والنصارى انتماءهم إليه، ويقرُّون بفضله وشرفه، ولو كانوا صادقين؛ لوجب عليهم اتباع محمد ﷺ، ودخولهم في دينه القويم؛ لأنه أثر دعوة إبراهيم الخليل حين دعا لأهل الحرم، ثم هو مِنْ ولد إسماعيل عليه السلام، فكانوا أولى بالاتباع، والتمسُّك بشريعته الحنيفية السَّمحة التي هي شريعة إبراهيم على نبينا، وعليهم ألف صلاة، وألف سلام.

الإعراب: ﴿وَإِذِ﴾: الواو: حرف عطف؛ إذا كان الكلام موجهاً إلى اليهود، وحرف استئناف؛ إذا كان موجهاً للنَّبي ﷺ. (إذ): ظرف لما مضى من الزمان متعلِّق بفعل محذوف، تقديره: اذكروا، أو: اذكر حسب المراد من الكلام، كما ترى، مبني على السكون في محل نصب. وقيل: هو في محل نصب مفعول به للفعل المقدَّر، وانظر الشرح والإعراب في الآية رقم [٣٠]. ﴿ٱبْتَلَىٰٓ﴾: فعل ماض. ﴿إِبْرَٰهِـۧمَ﴾: مفعول به، وهو واجب على التقديم على الفاعل هنا عند جمهور النُّحاة؛ لأنه متى اتصل بالفاعل ضمير يعود إلى المفعول وجب تقديمه لئلا يعود الضَّمير على متأخر لفظاً، ورتبةً. ﴿رَبُّهُۥ﴾: فاعل، والهاء في محل جر بالإضافة من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة (إذ) إليها. هذا؛ وقرئ برفع (إبراهيمُ) ونصب (ربَّه) على أنه دعا ربَّه، وهي قراءة شاذة قراءةً وعربيَّةً لعود الضمير حينئذٍ على متقدم لفظاً ورتبةً، قال ابن مالك - رحمه الله تعالى - في ألفيته: [الرجز]

وشَاعَ نَحْوَ خَافَ رَبَّهُ عُمَرْ وَشَذَّ نَحْوَ زَانَ نَوْرُهُ الشَّجَرْ

فالشَّطر الأول للقراءة الأولى، وهي سبعية، والشَّطر الثاني للقراءة الثانية الشَّاذة، انظر الشاهد رقم [٣٠٨] وما بعده من كتابنا: «فتح ربِّ البرية»؛ تجد ما يسرك، ويثلج صدرك.

﴿بِكَلِمَٰتٍ﴾: متعلقان بما قبلهما. (أتمّهن): فعل ماض، والفاعل يعود إلى ﴿إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ والهاء مفعول به، والنون حرف دال على جماعة الإناث، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، فهي في محل جرٍّ مثلها. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى: ﴿رَبُّهُۥ﴾، ﴿إِنِّى﴾: حرف مشبه بالفعل، وياء المتكلم اسمه. ﴿جَاعِلُكَ﴾: خبر: (إنّ) والكاف في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله الأوّل، وفاعله مستتر فيه، تقديره: أنا. ﴿لِلنَّاسِ﴾: متعلقان بمحذوف حال من: ﴿إِمَامًا﴾ كان صفة له، فلمَّا قُدِّم عليه؛ صار حالاً على القاعدة: «نعت النكرة إذا تقدم عليها؛ صار حالاً». وهذا أقوى من تعليقهما بـ (جاعل). ﴿إِمَامًا﴾: مفعول به ثان لـ (جاعل). وجملة: ﴿إِنِّى...﴾ إلخ: في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قَالَ إِنِّى...﴾: مستأنفة لا محل لها.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى: ﴿إِبْرَٰهِـۧمَ﴾. ﴿وَمِن﴾: الواو: حرف عطف. (من ذريتي): متعلقان بفعل محذوف، تقديره: اجعل من بعض ذريتي إماماً، وهذا كعطف التلقين، كما يقال لك: سأكرمك، فتقول: وزيداً؛ أي: أكرم زيداً، وعلامة الجر كسرة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم، منع من ظهورها اشتغال المحل بالحركة المناسبة، والياء ضمير متصل في محل جر بالإضافة. ولا تنس أنَّ الجار والمجرور في محل نصب مفعول به أوَّل، والمفعول الثاني محذوف؛ إذ التقدير: اجعل بعض ذريتي إماماً، وقدَّره أبو البقاء: اجعل فريقاً من ذريتي إماماً، والفعل المقدَّر، ومفعولاه في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قَالَ﴾: مستأنفة لا محل لها؛ لأنها بمنزلة جواب لسؤالٍ مقدَّر، كالجملة السابقة، واللاحقة. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى (الله). ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَنَالُ﴾: فعل مضارع. ﴿عَهْدِى﴾: فاعل مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدَّرة على ما قبل ياء المتكلِّم... إلخ. ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه الياء، وعلى قراءته بالواو فيكون فاعلاً، و﴿عَهْدِى﴾ مفعولاً به، وجملة: ﴿لَا يَنَالُ...﴾ في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قَالَ...﴾ مستأنفة لا محل لها.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾

الشرح: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ﴾: اسم غالب للكعبة، كالنَّجم للثُّريا. ﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾: أي: مرجعاً، يقال: ثاب، يثوب، مثاباً، ومثابةً، وثؤوباً، وثوباناً، فالمثابة مصدر وصف به، ويراد به الموضع يثاب إليه؛ أي: يرجع إليه، قال ورقة بن نوفل: [الطويل]

مَثَاباً لأَفْنَاءِ القَبَائِلِ كُلِّهَا ... تَخُبُّ إِلَيْهَا الْيَعْمُلاَتُ الذَّوَامِلُ

ويحتمل أن يكون مصدراً من الثَّواب، أي: يثابون هناك. وقال مجاهد: لا يقضي أحد منه وطراً. قال الشاعر: [الرمل]

جُعِلَ الْبَيْتُ مَثَاباً لَهُمْ لَيْسَ مِنْهُ الدَّهْرَ يَقْضُونَ الْوَطَرْ

هذا؛ والأصل: مَثْوَبة، فقل في إعلاله اجتمع معنا حرف صحيح وساكن، وحرف علة متحرك، والحرف الصحيح أولى بالحركة من حرف العلة، فنقلت حركة الواو إلى الثاء قبلها بعد سلب سكونها. ثم قل: تحركت الواو بحسب الأصل، وانفتح ما قبلها الآن، فقلبت ألفاً. ومثله (مقام) في إعلاله. ﴿وَأَمْنًا﴾: مأمناً لأهله من الظلم والاعتداء، والغارات التي تقع في غيره، كان الرجل يرى فيه قاتل أبيه، فلا يزعجه لحرمة الحرم، قال تعالى في سورة (العنكبوت) رقم [٦٧]. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾.

﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾: مكاناً للصلاة، وقيل: مكان دعاء، فهو بمعنى: مُدَّعى، ومقام إبراهيم: هو الحَجَرُ الذي وقف عليه عند بناء الكعبة المعظمة، وأصله من الجنَّة كالحجر الأسود، وفي الحديث عن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إِنَّ الركْنَ، وَالمَقَامَ يَاقُوتَتَانِ مِنْ يَاقُوتِ الجنَّةِ، طَمَسَ اللهُ نُورَهُمَا، وَلَوْ لَمْ يُطْمَسْ نُورُهُمَا؛ لأَضَاءَ مَا بَيْنَ المَشرقِ، وَالْمَغرِبِ»** أخرجه الترمذيُّ، قال: وهذا يروى عن ابن عمر موقوفاً.

﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ أي: أمرناهما، وألزمناهما، وأوجبنا عليهما. قيل: إنما سمي إسماعيل؛ لأن إبراهيم كان يدعو له الناس أن يرزقه ولداً، ويقول في دعائه: اسمع يا إيل، وإيل بلسان السريانية: هو الله، فلما رزق الولد؛ سماه به. ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾: يعني الكعبة المعظمة، أضافه إلى نفسه تشريفاً وتكريماً وتفضيلاً وتخصيصاً، أي: ابنياه على الطهارة، والتوحيد. وقيل: طهراه من سائر الأقذار، والأنجاس، وقيل: طهراه من الشرك، والأوثان، وقول الزُّور ﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾: الذين يطوفون حوله. (العاكفين): المقيمين في الحرم حول البيت، والعكوف: اللزوم والإقبال على الشيء، قال العجاج يصف ثوراً: [الرجز]

فَهُنَّ يَعْكُفْنَ بِهِ إذا حَجَا عَكْفَ النَّبِيطِ يَلْعَبُونَ الفَنْزَجَا

الفنزجة، والفنزج: رقص العجم إذا أخذ بعضهم يد البعض؛ وهم يرقصون، ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ أي: المصلون، جمع راكع، وجمع ساجد، وقال تعالى في سورة (الحج): ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾.

تنبيه: جاء في البخاري: أن المقام هو الحَجر، الذي ارتفع عليه إبراهيم حين ضعف عن رفع الحِجارة التي كان إسماعيل يناولها إياه في بناء البيت، وغرقت قدماه فيه، قال أنس ـ رضي الله عنه ـ: رأيت في المقام أثر أصابعه، وعقبه، وأخمص قدميه، غير أنه أذهبه مسح الناس بأيديهم.

تنبيه: هذه الآية من الآيات التي وافقت رأي عمر ـ رضي الله عنه ـ قال: يا رسول الله! لو صلَّيت خلف المقام، فنزلت الآية الكريمة.

تنبيه: ذكر العلامة ابن القيِّم ـ رحمه الله تعالى ـ أنَّ السرَّ في تفضيل البيت العتيق ظاهر في انجذاب الأفئدة، وهوى القلوب، ومحبتها له، فجذبه للقلوب أعظم من جذب المغناطيس للحديد، فهم يثوبون إليه من جميع الأقطار، ولا يقضون منه وطراً، بل كلَّما ازدادوا له زيارة؛ ازدادوا اشتياقاً، قال الشاعر: [البسيط]

لا يَرْجِعُ الطَّرفُ عَنْهَا حِينَ يُبْصِرُهَا حَتَّى يَعودَ إِلَيْهَا الطَّرْفُ مُشْتَاقَا

الإعراب: ﴿وَإِذْ﴾: معطوفة على مثلها في الآية السابقة. ﴿جَعَلْنَا﴾: فعل وفاعل، وهو بمعنى: صيرنا هنا، فلذا نصب مفعولين. ﴿ٱلْبَيْتَ﴾: مفعول به أول. ﴿مَثَابَةً﴾: مفعول به ثان، أو هو حال إذا كان الفعل بمعنى: خلقنا. ﴿لِّلنَّاسِ﴾: متعلقان بـ ﴿مَثَابَةً﴾ أو بمحذوف صفة له، أو هما متعلقان بالفعل قبلهما، وجملة: ﴿جَعَلْنَا﴾ في محل جر بإضافة (إذ) إليها.

﴿وَأَمْنًا﴾: معطوف على ما قبله. ﴿وَٱتَّخِذُواْ﴾: الواو: حرف عطف. (اتخذوا): فعل أمر مبني على حذف النون، والنون فاعله، والألف للتفريق. ﴿مِن مَّقَامِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، وإن علقتهما بمحذوف حال من: ﴿مُصَلًّى﴾ كما رأيت في الآية السابقة؛ فلست مفنداً، وبعضهم يعتبر (مِنْ) زائدة في الإيجاب، ومقام مفعولاً به، وهو غير مسلَّم لهم، و﴿مَّقَامِ﴾: مضاف، و﴿إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ مضاف إليه مجرور بالفتحة نيابة عن الكسرة؛ لأنه ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة، وجملة (اتخذوا. . .) إلخ: في محل نصب مقول القول لقول محذوف، تقديره: قلنا: اتخذوا. . . إلخ وهذه الجملة معطوفة على جملة: ﴿جَعَلْنَا﴾؛ فهي في محل جر مثلها، وهناك أقوال أخرى لا وجه لها أبداً. هذا؛ وقد قرئ الفعل بصيغة الماضي، وفي هذه الجملة حينئذ ثلاثة أوجه: **أحدها**: أنها معطوفة على جملة: ﴿جَعَلْنَا﴾، فهي في محل جر مثلها، ويكون الكلام جملتين: **والثاني**: أنها معطوفة على: جملة محذوفة، التقدير: فثابوا، واتخذوا. وفي هذين الوجهين تكلُّف لا داعي له.

والثالث: أنها معطوفة على مجموع: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا...﴾ إلخ، فيحتاج إلى تقدير: أي: وإذ اتخذوا. . . ﴿مُصَلًّى﴾: مفعول به منصوب وعلامة نصبه فتحة مقدرة على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين، والألف الثابتة دليل عليها، وليست عينها.

(عهدنا): فعل وفاعل. ﴿إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿وَإِسْمَـٰعِيلَ﴾: معطوف على ما قبله فهو مجرور مثله، وعلامة الجر فيهما مثل: ﴿إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ السابق. ﴿أَن﴾: مفسرة؛ لأن في: (عهدنا): معنى القول، وقيل: مصدرية، ولا أعتمده. ﴿طَهِّرَا﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والألف فاعله. ﴿بَيْتِىَ﴾: مفعول به منصوب وعلامة نصبه فتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم، منع من ظهورها اشتغال المحل بالحركة المناسبة، والياء في محل جر بالإضافة. ﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، واللام بمعنى: من أجل. ﴿وَٱلْعَـٰكِفِينَ﴾: معطوف على ما

قبله مجرور مثله، وعلامة الجر فيهما الياء؛ لأنَّهما جمعا مذكرٍ سالمان، وعطف (العاكفين) على (الطائفين) لتباين ما بينهما، بخلاف (الركع) و(السجود) فإنَّ المراد بهما شيءٌ واحد، وهو الصَّلاة؛ إذ لو عطف؛ لتوهم: أنَّ كلاً منهما عبادة على حيالها. هذا؛ والصِّفات كلها لموصوفٍ محذوف، وجملة: ﴿طَهِّرَا﴾ لا محل لها؛ لأنها تفسير لقوله: (عهدنا). هذا قول الجمهور، وقال الشلوبين: بحسب ما تفسره. وهو جيد. وجملة: (عهدنا) معطوفة على جملة: ﴿جَعَلْنَا﴾ فهي في محل جر مثلها.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾

الشرح: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ أي: ذا أمنٍ، يأمن فيه أهله. وإنَّما دعا إبراهيم له بالأمن؛ لأنه بلد ليس فيه زرع، ولا ثمر، وإذا لم يكن آمناً؛ لم يجلب إليه شيءٌ من النواحي البعيدة، فأجاب الله دعاء إبراهيم له بالأمن، فما قصده جبَّار، إلا قصمه الله تعالى، كما فعل بأصحاب الفيل.

قال القرطبيُّ - رحمه الله تعالى -: فروي: أنه لمَّا دعا بهذا الدُّعاء؛ أمر الله تعالى جبريل عليه السلام، فاقتلع الطَّائف من الشَّام، فطاف بها حول البيت أسبوعاً، فسمِّيت الطَّائف لذلك، ثم أنزلها تهامة، وكانت مكَّة وما يليها حين ذلك قفراً، لا ماء، ولا نبات، فبارك الله فيما حولها، كالطَّائف، وغيرها، وأنبت فيها أنواع الثِّمار. ثمَّ قال: ولقد جعل فيها سبحانه من العلامة العظيمة على الأمن في مكة ما شوهد من أمر الصيد فيها، فيجتمع فيها الكلب، والصيد، فلا يهيج الكلب الصَّيد، ولا ينفر منه؛ حتى إذا خرجا من الحرم عدا الكلب على الصيد، وعاد إلى النفور، والهرب. انتهى.

وفي بيان هذا الأمن قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: «**إن هذا البلد حرَّمه الله يوم خلق السَّموات والأرض، فهو حرامٌ بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنَّه لم يحلَّ القتال فيه لأحدٍ قبلي، ولم يحلَّ لي إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يُعضدِ شوكه، ولا يُنفَّر صيده، ولا يلتقط لُقَطَتُهُ إلا مَنْ عرَّفها، ولا يُختَلى خلاها**». فقال العباس - رضي الله عنهما -: يا رسول الله! إلا الإذخر، فإنَّه لِقَيْنِهم، ولبيوتهم، فقال: «**إلا الإذخر**». أخرجه البخاريُّ، ومسلمٌ عن عبد الله بن عبَّاس، رضي الله عنه. والقَيْنُ: الحدَّاد، ويُختَلى خلاه: يقطع النبات الَّذي ينبت بنفسه.

﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: ليُقبلوا على طاعتك، ويتفرَّغوا لعبادتك. وخصَّ بدعوته المؤمنين فقط. قال الخليل - على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف

سلام ـ: الرزق على الإمامة، فنبهه الله على أنَّ الرزق رحمةٌ دنيوية شاملةٌ للمؤمن، والكافر، والبرِّ، والفاجر بخلاف الإمامة. فإنَّها خاصَّة بالخواص من المؤمنين، ولذا قال تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا﴾ أي: وأرزقُ مَنْ كفر أيضاً، كما أرزقُ المؤمن، والمعنى: أأخلق خلقاً، ثمَّ لا أرزقهم؟! أما الكافر فأمتعه في الدُّنيا متاعاً قليلاً، وذلك مدَّة حياته فيها. ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ﴾: ثم ألجئه في الآخرة، وأسوقه إلى عذاب النَّار، فلا يجد عنها محيصاً، ولا مهرباً، والمضطر: هو الذي لا يملك لنفسه الامتناع ممَّا اضطر إليه. ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾: وبئس المآل، والمرجع للكافر أن يكون مأواه نار جهنم. قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ الآية رقم [٤٨] من سورة (الحج)، وقال الرسول ﷺ: «**إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه؛ لم يفلته**»، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ رقم [١٠٢] من سورة (هود). رواه أبو موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ والظالم قد يكون من المسلمين، كما ذكرتُه لك مراراً، وقد يكون أخبث من الكافر، وأشدَّ مكراً، وخداعاً.

الإعراب: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ﴾: هذا الكلام معطوف على مثله في الآية رقم [١٢٤] وجملة: ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ﴾: في محل جر بإضافة (إذ) إليها. ﴿رَبِّ﴾ منادى حذف منه حرف النداء منصوب بفتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة للتخفيف. . . والياء المحذوفة في محل جر بالإضافة، وانظر ﴿يَٰقَوْمِ﴾ في الآية رقم [٥٤] فيجوز في ﴿رَبِّ﴾ ما جاز فيه، والجملة الندائية في محل نصب مقول القول.

﴿ٱجْعَلْ﴾: فعل دعاء، والفاعل مستتر تقديره: أنت. ﴿هَٰذَا﴾: اسم إشارة مبني على السكون في محل نصب مفعول به أوَّل، والهاء حرف تنبيه لا محل له. ﴿بَلَدًا﴾: مفعول به ثان، وجملة: ﴿ٱجْعَلْ...﴾ في محل نصب مقول القول. ﴿وَٱرْزُقْ﴾: الواو: حرف عطف. (ارزق): فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: أنت. ﴿أَهْلَهُۥ﴾: مفعول به، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، وهما في محل نصب مفعول به ثان، وجملة: (ارزق): معطوفة على ما قبلها فهي في محل نصب مقول القول مثلها. ﴿مَنْ﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل نصب بدلاً مِنْ ﴿أَهْلَهُۥ﴾ بدل بعض من كل. ﴿ءَامَنَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى ﴿مَنْ﴾ وهو العائد، والجملة الفعلية صلة ﴿مَنْ﴾ لا محل لها.

﴿مِنْهُم﴾: متعلقان بمحذوف حال من الفاعل المستتر، و(مِنْ) بيان لما أبهم في ﴿مَنْ﴾. ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿وَٱلْيَوْمِ﴾: معطوف على (الله)، ﴿ٱلْءَاخِرِ﴾: صفة اليوم.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى (الله)، ﴿وَمَن﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل نصب مفعول به لفعل محذوف معطوف بالواو العاطفة على قوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ عطف تلقين،

كأنه قيل: وأَرْزُق مَنْ كفر، وهذا المحذوف مضارع مرفوع، وفاعله مستتر تقديره: أنا، وجملة ﴿كَفَرَ﴾ مع فاعله المستتر، ومتعلقه المحذوف صلة الموصول لا محل لها، وجوز أن تكون (مَن) نكرة موصوفة فتكون الجملة الفعلية صفة لها.

(أمتعه): مضارع، والفاعل تقديره: أنا، والهاء مفعوله. ﴿قَلِيلًا﴾: صفة مفعول مطلق محذوف؛ أي: تمتيعاً قليلاً، أو: صفة زمان محذوف، أي: زماناً قليلاً، وجملة: ﴿فَأُمَتِّعُهُۥ...﴾: معطوفة على جملة: «**أرزقُ من كفر**». هذا؛ ويجوز أن تكون (مَنْ): موصولة، أو شرطية مبنية على السكون في محل رفع مبتدأ، وجملة: ﴿كَفَرَ﴾: صلتها، أو شرطها، وجملة: (أمتعه) خبره والفاء صلة على اعتبار (مَنْ) موصولاً، وهي رابطة للجواب على اعتبار (مَنْ) شرطاً، وجملة (أمتعه) في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: (أنا أمتعه) وعليه فالجملة اسمية لا فعلية، وهي في محل جزم جواب الشرط. وجملة: ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ﴾ معطوفة على جملة: (أمتعه) بـ ﴿ثُمَّ﴾ على جميع الوجوه المعتبرة فيها، وجملة: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ مستأنفة لا محل لها، والمخصوص بالذمِّ محذوف، التقدير: هو العذاب، أو: هو النار، ونحو ذلك.

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ١٢٧﴾

الشرح: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾: ﴿يَرْفَعُ﴾: يبني، ورد التعبير بصورة المضارع حكاية عن الماضي، ولذلك وجهٌ معروف في محاسن البيان، وهو استحضار الصورة الماضية، وكأنَّما هي مشاهدة بالعيان، فكأنَّ السامع ينظر، ويرى إلى البنيان وهو يرتفع، والبنَّاء هو: إبراهيم، وإسماعيل، على نبينا، وعليهما ألف صلاة، وألف سلام. ﴿ٱلْقَوَاعِدَ﴾: الأسس التي ترتكز عليها الجدران، أو هي الجدران نفسها. ﴿ٱلْبَيْتِ﴾: الكعبة المعظمة.

هذا وفي القسطلاني على البخاريِّ ما نصُّه، وبنيت الكعبة عشر مرات: **الأول**: بناء الملائكة، روي: أن الله تعالى أمرهم أن يبنوا في كلِّ سماء بيتاً، وفي كل أرض بيتاً، قال مجاهد: هي أربعة عشر بيتاً، **الثَّاني**: بناء آدم. روي: أنه قيل له: أنت أوَّل الناس، وهو أول بيتٍ وُضع للناس. **الثالث**: بناه ابنه شيث عليه السلام بالطِّين، والحجارة، فلم يزل معموراً به، وبأولاده، ومن بعدهم حتَّى كان زمن نوح عليه السلام فأغرقه الطُّوفان، وغيَّر مكانه. **الرابع**: بناء إبراهيم، وكان المبلِّغ له ببنائه جبريل عن المَلِك الجليل، والمبلِّغ، والمهندس: جبريل، والباني: الخليل، والمعين والمساعد: إسماعيل. **الخامس**: بناء العمالقة. **السَّادس**: بناء جُرهم، والذي بناه منهم الحارث بن مضاض الأصغر. **السابع**: بناه قصيٌّ خامسُ جدٍّ للنبي ﷺ، **الثامن**: بناء قريش، وحضره النَّبيُّ ﷺ، وهو ابن خمس وثلاثين سنة. **التاسع**: بناء عبد الله بن

الزُّبير ـ رضي الله عنهما ـ وسببه توهين الكعبة من حجارة المنجنيق الَّتي أصابتها حين حوصر ابن الزُّبير بمكَّة. **العاشر**: بناء الحجَّاج بعد قتل ابن الزبير، ونظم العشرةَ بعضُهم، فقال: [الطويل]

بَنى بيتَ رَبِّ العَرْشِ عَشْرٌ فَخُذْهُمُ ... ملائكةُ اللهِ الكِرامُ وآدمُ

فشِيثٌ فإبراهيمُ ثُمَّ عمالِقٌ ... قُصَيٌّ قُريشٌ قَبْلَ هذينِ جُرْهُمُ

وعَبْدُ الإلَهِ بنُ الزُّبَيْرِ بنَى كَذَا ... بِناءٌ لِحَجَّاجٍ وَهَذَا مُتَمِّمُ

انتهى جمل نقلاً من القسطلَّاني. هذا؛ وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: حجَّ آدم البيت أربعين حجَّةً من الهند ماشياً على رجليه، هذا؛ وانظر ما ذكرته في الآية رقم [٣٧] من سورة (إبراهيم) تجد ما يسرك، ويثلج صدرك.

الإعراب: ﴿وَإِذْ﴾: معطوفة على مثلها في الآية رقم [١٢٤]، وجملة: ﴿يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ﴾ في محل جر بإضافة (إذ) إليها. ﴿مِنَ ٱلْبَيْتِ﴾: متعلقان بمحذوف حال من ﴿ٱلْقَوَاعِدَ﴾، وقيل: متعلقان بمحذوف صفة لها، وهذا لا يكون إلا إذا اعتبرنا (أل) للجنس، وليس الجنس مراداً هنا، وقيل: متعلقان بالفعل ﴿يَرْفَعُ﴾ وليس بالقويِّ.

﴿وَإِسْمَٰعِيلُ﴾: معطوف على ﴿إِبْرَٰهِـۧمُ﴾. ﴿رَبَّنَا﴾: منادى حذف منه أداة النداء، و(نا) في محل جر بالإضافة، مِنْ إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿تَقَبَّلْ﴾: فعل دعاء، وفاعله مستتر فيه تقديره: أنت، والجملتان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ﴾ في محل نصب مقول القول لفعل محذوف، التقدير: «يقولان ربنا. . .» والجملة الفعلية هذه في محل نصب حال من: (إبراهيم وإسماعيل)، والعامل الفعل: ﴿يَرْفَعُ﴾. ﴿مِنَّآ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿إِنَّكَ﴾ حرف مشبه بالفعل، والكاف اسمه. ﴿أَنتَ﴾: ضمير منفصل فيه ثلاثة أوجه: **الأول**: اعتباره ضمير فصل لا محل له، والثاني: اعتباره توكيداً لاسم (إنَّ) على المحل، وعليهما ف ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ خبر لـ (إنَّ). **والثالث**: اعتباره مبتدأ، و﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾: خبران له، وعليه فالجملة الاسمية في محل رفع: (إن) والجملة الاسمية تعليل للدعاء لا محل لها، وهي بدورها في محل نصب مقول القول لقول محذوف، تأمل، وتدبَّر، وربُّك أعلم، وأجل، وأكرم.

﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾

الشرح: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾: مخلصين لك، مِنْ: أسلم وجهه، أو: مستسلمين، مِنْ: أسلم: إذا استسلم، وانقاد. والمراد طلب المزيد في الإخلاص، والإذعان، والثبات على الإسلام مقروناً بالعمل الصَّالح. هذا؛ وقرئ: (مُسْلِمِينَ) بصيغة الجمع على أن المراد أنفسهما،

وهاجر. (من ذريتنا): (مِنْ) للتبعيض؛ أي: واجعل بعض ذريتنا؛ لأن الله تعالى قد كان أعلمه: أنَّ منهم ظالمين. ﴿أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾: جماعةً خاضعة، منقادة لأوامرك، وإنَّما خصَّ الذريَّة بالدُّعاء؛ لأنهم أحقُّ بالشَّفقة، والنَّصيحة، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾. ولأن أولاد الأنبياء إذا صلحوا؛ صلُح بهم غيرُهم.

هذا؛ و﴿أُمَّةً﴾ تكون واحداً إذا كان يُقتدى به، كقوله تعالى في حقِّ إبراهيم ـ على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾ رقم [١٢٠] من سورة (النَّحل)، وقال رسول الله ﷺ في زيد بن عمرو بن نفيل: «**يُبْعَثُ أُمَّةً وَحْدَهُ**»؛ لأنه لم يشرك في دينه غيره، والأمَّة: الطريقة والملَّة والدِّين، كقوله تعالى حكاية عن قول المشركين: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾. وكل جنس من الحيوان أمَّة، كقوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾. وانظر الآية رقم [١٩٩] الآتية. والأمة: الحين، والوقت، كقوله تعالى: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي: بعد وقت، وحين. والأمَّة: الشَّجَّة التي تبلغ الدماغ، يقال: رجل مأموم، وأميم. والأمة أيضاً: القامة، يقال: فلان حسن الأمة؛ أي: حسن القامة، قال الشاعر: [المتقارب]

وَإِنَّ مُعَاوِيَةَ الأَكْرَمِين ... حِسَانُ الْوُجُوهِ طِوَالُ الأُمَمْ

﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾: علِّمنا، وأصله: أرئينا، انظر (نرى) في الآية رقم [٥٥]، وهو هنا بمعنى: عرِّفنا، يتعدَّى لواحدٍ فقط، ويتعدَّى للثاني بواسطة همزة التعدية. هذا؛ والمناسك: شرائع العبادة على اختلاف درجاتها، وتفاوت مراتبها، أو هي: مناسك الحجِّ. وقيل: مذابحنا، والنُّسك: الذبيحة، وأصل النسك: العبادة، والناسك: العابد. ويستدل بهذه الآية مَنْ يقول بتناسخ الأرواح. ﴿ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾: انظر الآية رقم [٣٧]. هذا؛ والمراد بقوله: ﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ﴾ طلب التثبيت على الطَّاعة، والدوام على العبادة، لا لأنهما كان لهما ذنبٌ. وقيل: المراد: البيان للناس: أنَّ ذلك الموقف، وتلك المواضع مكان التنصُّل من الذُّنوب، وطلب التَّوبة، والمغفرة.

الإعراب: ﴿رَبَّنَا﴾: منادى حذف منه أداة النداء، وانظر الآية السَّابقة. (اجعلنا): فعل دعاء، وفاعله مستتر تقديره: أنت. و(نا): مفعول به أول. ﴿مُسْلِمَيْنِ﴾: مفعول به ثان منصوب، وعلامة نصبه الياء نيابة عن الفتحة؛ لأنه مثنى، وجمع مذكر سالم، والنون عوض عن التنوين في الاسم المفرد. ﴿لَكَ﴾: متعلقان بـ ﴿مُسْلِمَيْنِ﴾ وقيل: متعلقان بمحذوف صفة له، وجملة: ﴿وَٱجْعَلْنَا﴾ معطوفة على جملة: ﴿تَقَبَّلْ﴾ في الآية السابقة، وجملة النداء: ﴿رَبَّنَا﴾ معترضة لتأكيد الدعاء. (من ذريتنا): متعلقان بفعل محذوف، تقديره: اجعل، وهما في محل نصب مفعوله الأول. و(نا): في محل جر بالإضافة، ﴿أُمَّةً﴾: مفعول به ثان للفعل المقدر. ﴿مُّسْلِمَةً﴾: صفة ﴿أُمَّةً﴾، ﴿لَّكَ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ ﴿مُّسْلِمَةً﴾ أو بمحذوف صفة له. وذكر أبو البقاء وجهاً آخر

للإعراب، لا مبرر له، وجملة: «اجعل من ذريتنا» معطوفة على الجملة السابقة، فهي داخلة في المقول، (أرنا): فعل دعاء مبني على حذف حرف العلة من آخره، وهو الياء، والكسرة دليل عليها، والفاعل مستتر تقديره: أنت. و(نا): مفعول به أول. ﴿مَنَاسِكَنَا﴾: مفعول به ثان. و(نا): في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، وكذلك جملة: ﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ﴾ معطوفة أيضاً. ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ انظر الآية السابقة، فهي مثلها بلا فارق.

تنبيه: بالإضافة لما ذكرته في سورة (إبراهيم) على نبيِّنا، وعليه ألف صلاة وألف سلام أذكر هنا ما يلي: ذكر بناء قريش الكعبة بعد إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، وقبل مبعث رسول الله ﷺ بخمس سنين، وقد نقل معهم الحجارة، وله ﷺ من العمر خمسٌ وثلاثون سنة.

قال محمَّد ابن اسحاق في السيرة: ولمَّا بلغ رسول الله ﷺ خمساً وثلاثين سنة اجتمعت قريش لبناء الكعبة، وكانوا يهابون هدمها، وقد كانت رَضْماً فوق القامة، فأرادوا رفعها، وتسقيفها، وذلك: أن نفراً سرقوا كنزاً للكعبة، وكان البحر قد رمى بسفينةٍ إلى جدَّة لرجلٍ من تجَّار الروم، فتحطمت، فأخذوا خشبها، فأعدُّوه لتسقيفها، وكان بمكَّة رجل قِبْطيٌّ نجَّار، فتهيأ لهم في أنفسهم بعضُ ما يصلحها.

وكانت حيَّة تخرج من بئر الكعبة، فتتشرَّق على جدار الكعبة، وكانت مما يهابون، وذلك: أنها كانت لا يدنو منها أحدٌ إلا احْزَأَلَّتْ (ارتفعت، واشتدَّت للوثوب) وكشَّت، وفتحت فاها، فكانوا يهابونها، فبينما تتشرَّق على جدار الكعبة ذات يوم، كما كانت تصنع؛ بعث الله إليها طائراً، فاختطفها، وذهب بها، فقالت قريش: إنا لنرجو أن يكون الله قد رضي ما أردنا (أي: من هدم الكعبة وبنائها) عندنا عامل رفيق، وعندنا خشب، وقد كفانا الله الحيَّة، فلمَّا أجمعوا أمرهم في هدمها، وبنائها؛ قام أبو وهب بن عمرو بن عائذ، فتناول من الكعبة حَجَراً، فوثب مِنْ يده حتى رجع إلى موضعه، فقال: يا معشر قريش! لا تُدخلوا في بنيانها مِنْ كسبكم إلا طيباً، لا يدخل فيه مهر بغيٍّ، ولا بيع ربا، ولا مظلمة أحدٍ من الناس.

﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾

الشرح: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ يعني: محمداً ﷺ، فقد روى خالد بن معدان ـ رضي الله عنه ـ أن نفراً من أصحاب النبي ﷺ، قالوا: يا رسول الله! أخبرنا عن نفسك، قال: «**نَعَمْ: أَنَا دَعْوَةُ أبي إِبراهيمَ، وبُشْرَى عيسَى**». وروى الإمام أحمد، عن العرباض بن سارية، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنِّي عندَ اللهِ لخاتمُ النَّبيِّينَ، وإنَّ آدمَ لَمنجدلٌ في طينتِهِ، وسأنبئكُمْ بأوَّلِ ذَلِكَ: دَعْوَةُ أبي إبراهيمَ، وبشارةُ عِيسَى بِي، ورؤيَا أُمِّي الَّتي رَأتْ، وَكَذَلِكَ أُمهاتُ النبيِّينَ يَرَيْنَ**». هذا؛ وبشارة

عيسى عليه السلام هي قوله تعالى حكاية عن قوله حيث قام خطيباً في بني إسرائيل، فقال: ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾. ورؤيا أمّه كانت مناماً، رأته حين حملت به، وقصّته على قومها. فشاع فيهم، واشتهر بينهم.

﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ﴾: يقرأ عليهم آيات الكتاب الذي تُنَزِّله عليهم، والمراد: القرآن الكريم الذي نزل على قلب الرسول ﷺ. ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: القرآن، وهو آيات الله المذكورة، فعلى ذلك فهو من اختلاف اللفظ، واتحاد المعنى. ﴿وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾: المعرفة بالدِّين، والفقه في التأويل، والفهم الذي هو منحةٌ، ونور من الله تعالى، قاله مالك، وقال أبو بكر بن دريد: هي كل كلمة وعظتك، أو دعتك إلى مكرمةٍ، أو نهتك عن قبيحٍ؛ فهي حكمة. وانظر ما ذكرته في الآية رقم [٢٠٨] فإنه جيد والحمد لله. (يزكيهم): يطهرهم من الشرك، والمعاصي، وسوء الأخلاق، والطباع. ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾: الغالب الذي لا يقهر، ولا يُغلب على ما يريد، ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ﴾، ومن قول الخنساء ـ رضي الله عنها ـ: [المتقارب]

كَأَنْ لَمْ يَكُونُوا حِمىً يُتَّقَى إِذِ النَّاسُ إِذْ ذَاكَ مَنْ عَزَّ بَزَّا

وانظر ما ذكرته في الآية رقم [٢٦٨] فإنه جيد، والحمد لله!

الإعراب: ﴿رَبَّنَا﴾: منادى حذف منه أداة النداء. (ابعث): فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: أنت. ﴿فِيهِمۡ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿رَسُولٗا﴾: مفعول به. ﴿مِّنۡهُمۡ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ ﴿رَسُولٗا﴾ وبمحذوف صفة له، والجملة الفعلية معطوفة على جملة: ﴿تَقَبَّلۡ...﴾ إلخ في الآية رقم [١٢٧] فهي داخلة معها في المقول. ﴿يَتۡلُواْ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدَّرة على الواو للثقل، والفاعل يعود إلى ﴿رَسُولٗا﴾، والجملة الفعلية في محل نصب صفة: ﴿رَسُولٗا﴾ أو في محل نصب حال منه بعد وصفه بالجار والمجرور بعده. ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿ءَايَٰتِكَ﴾ مفعول به منصوب، وعلامة نصبه الكسرة نيابة عن الفتحة؛ لأنه جمع مؤنث سالم، والكاف في محل جر بالإضافة، (يعلمهم الكتاب): فعل مضارع ومفعولاه، والفاعل يعود إلى ﴿رَسُولٗا﴾، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها على الوجهين المعتبرين فيها، وأيضاً جملة: ﴿وَيُزَكِّيهِمۡۚ﴾ وما يتعلق بالفعل معطوفة عليها. ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ انظر الآية رقم [١٢٧] فهو مثله بلا فارق.

﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٣٠﴾

الشرح: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ﴾ أي: لا يرغب، فالاستفهام بمعنى النَّفي. هذا؛ والفعل: «يرغب» يتغيَّر معناه بتغير الجار الذي يتعلق به، تقول: رغبت عن الشيء: إذا كرهته، ولم تحبَّه.

ورغبت فيه: إذا أردته، وأحببته، ولذا كان قول القائل ـ وهو الشاهد رقم [٩٢٥] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [الطويل]

وَيَـرْغَـبُ أَنْ يَـبْـنِـيَ الـمَـعَـالِـيَ خَـالِـدٌ ويَـرْغَـبُ أَنْ يَـرْضَـى صَـنِـيـعَ الأَلَائِـمِ

محتملاً للمدح والذمِّ بسبب تقدير الجار والمجرور، كما يجوز تقدير (عن) أو (في) في قوله تعالى: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ ومثل يرغب: ادَّعى، يقال: ادَّعى فلان في بني هاشم: إذا انتسب إليهم، وادَّعى عنهم: إذا عدل بنسبه عنهم. ومثله: عدل، ومال، وانحرف، وغير ذلك كثير، وهذا ممَّا يدلُّ على اتساع اللغة العربية. ﴿مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾: دينه، وطريقته، وشريعته. هذا؛ والملة بفتح الميم: الرَّماد الحار.

﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾: استمهنها، وأذلَّها، واستخفَّ بها. قال المبرد، وثعلب: سفِه بالكسر متعدٍّ، وبالضم لازم، ويشهد له ما جاء عن النبي ﷺ: **«الكِبْر أَنْ تَسْفَهَ الحقَّ، وَتَغْمِصَ النَّاس»** أي: تحتقرهم، والأول من باب: طَرِب، والثاني من باب: ظَرُف. هذا؛ وجاء في المختار: وقولهم: سفِه نفسَه، وغبِنَ رأيَهُ، وبَطِر عَيْشَهُ، وألِم بَطْنَه، وَوَفِق أمرَه، ورشِدَ أمرَهُ، كان الأصل: سَفِهت نفسُ زيدٍ، ورشِد أَمرُهُ، فلمَّا حُوِّل الفعل إلى الرَّجل؛ انتصب ما بعده بوقوع الفعل عليه؛ لأنَّه صار في معنى سفَّه نفسه بالتَّشديد. هذا قول البصريين، والكسائي، ويجوز عندهم تقديم هذا المنصوب، كما يجوز: غلامَهُ ضربَ زيدٌ. وقال الفرَّاء: لمَّا حُوِّل الفعل من النفس إلى صاحبها؛ خرج ما بعده مفسِّراً ليدلَّ على أنَّ السَّفه فيه، وكان حكمه من النفس سفِه زيدٌ نفساً؛ لأنَّ المفسِّر لا يكون إلا نكرةً، ولكنه تُرِك على إضافته، ونصب، كنصب النَّكرة تشبيهاً بها، ولا يجوز عنده تقديمه؛ لأن المفسِّر لا يتقدَّم، ومثله قولهم: ضِقْتُ به ذرعاً، وطِبْتُ به نفساً، والمعنى: ضاق ذَرْعي به، وطابت نفسي به. انتهى بحروفه.

﴿ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ اخترناه على غيره بالرِّسالة والخلَّة. ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: الذين لهم الدَّرجات العلى. هذا؛ والصَّلاح درجة عالية، ومكانة رفيعة، ولذلك سأل الله هذه المنزلة يوسفُ الصدِّيق، عليه وعلى نبينا، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين ألف صلاة، وألف سلام، سأله هذه المنزلة قبل وفاته، وقد حكى القرآن ذلك عنه: ﴿۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وسألها إبراهيم عليه السلام، وحكاها القرآن عنه: ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ سورة (الشعراء). وطلبها سليمان عليه السلام، وحكاها القرآن الكريم عنه: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ سورة (النمل)، وقال تعالى في حقِّ إسماعيل، وإدريس، وذي الكفل، على نبينا، وعليهم ألف صلاةٍ، وألف سلامٍ: ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

تنبيه: سبب نزول الآية الكريمة: أن عبد الله بن سلام ـ رضي الله عنه ـ كان من أحبار اليهود، وقد أسلم، ودعا ابني أخيه إلى الإسلام، وهما: مهاجر، وسلمة، فقال لهما: قد علمنا: أن الله تعالى قال في التوراة: إنِّي باعث من ولد إسماعيل نبيًّا اسمه أحمد، فمن آمن به؛ فقد اهتدى، ومن لم يؤمن به، فهو ملعون. فأسلم سلمة، وامتنع مهاجر عن الإسلام، فنزلت الآية الكريمة. والعبرة بعموم اللَّفظ لا بخصوص السبب، فهو تعريض، وتوبيخٌ لليهود، والنصارى، ومشركي العرب؛ لأنَّ اليهود، والنَّصارى يفتخرون بالانتساب إلى إبراهيم؛ لأنهم من بني إسرائيل، وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، والعرب يفتخرون به؛ لأنهم من ولد إسماعيل بن إبراهيم، وإذا كان كذلك كان إبراهيم هو الذي طلب بعثة الرسول في آخر الزمان، فمن رغب عن الإيمان بهذا الرسول، الذي هو دعوة إبراهيم؛ فقد رغب عن ملَّة إبراهيم. انتهى الخازن، وغيره.

هذا؛ وروى حجَّاج بن حجَّاج الأحول المعروف بـ «زق العسل» قال: سمعت معاوية بن قرة يقول: اللهم إنَّ الصَّالحين أنت أصلحتهم، ورزقتهم أن عملوا بطاعتك، فرضيت عنهم، اللهم كما أصلحتهم، فأصلحنا، وكما رزقتهم أن عملوا بطاعتك، فرضيت عنهم فارزقنا أن نعمل بطاعتك، وارضَ عنَّا.

الإعراب: ﴿وَمَن﴾: الواو: حرف استئناف. (مَنْ): اسم استفهام مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿يَرْغَبُ﴾: فعل مضارع، والفاعل مستتر تقديره: هو، يعود إلى (مَنْ)، ﴿عَن مِّلَّةِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، و﴿مِّلَّةِ﴾ مضاف، و﴿إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ مضاف إليه مجرور، وعلامة جره الفتحة نيابة عن الكسرة؛ لأنه ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة، وجملة: ﴿يَرْغَبُ...﴾ إلخ: في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها. ﴿إِلَّا﴾: حرف حصر، أو حرف استثناء. ﴿مَن﴾: اسم موصول، أو نكرة موصوفة مبنية على السكون في محل رفع بدل من الضمير المستتر في: ﴿يَرْغَبُ﴾، أو في محل نصب على الاستثناء، ورُجِّح الأول؛ لأن الكلام منفي معنىً.

﴿سَفِهَ﴾: فعل ماض، وفاعله يعود إلى ﴿مَن﴾. ﴿نَفْسَهُۥ﴾: مفعول به، والهاء في محل جر بالإضافة. وقيل: ﴿نَفْسَهُۥ﴾ منصوب على التمييز، مثل: غَبِن رأيَهُ. وأَلِم رأسَهُ كما قيل: هو منصوب على نزع الخافض؛ أي: سفه على نفسه، وجملة: ﴿سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ صلة (مَنْ) أو صفتها.

﴿وَلَقَدِ﴾: الواو: حرف قسم وجر، والمقسم به محذوف، التقدير: والله، والجار والمجرور متعلقان بفعل محذوف تقديره: أقسم، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها مستأنفة، واللام واقعة في جواب القسم. (قد): حرف تحقيق يقرِّب الماضي من الحال.

﴿ٱصْطَفَيْنَٰهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول به: والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها، وانظر الآية رقم [٦٥]. ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾: متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿وَإِنَّهُۥ﴾: الواو: واو الحال. (إنه): حرف مشبه

بالفعل، والهاء اسمه. ﴿فِي ٱلْآخِرَةِ﴾: متعلقان باسم فاعل محذوف: التقدير: وإنَّه صالح في الآخرة. وقيل: متعلقان بمصدر محذوف، تقديره: صلاحه في الآخرة. وهذا لأن (أل) بمعنى الموصول، والجار والمجرور صلة، ولا تتقدم الصِّلة على الموصول. وقول ثالث: إنَّ ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ليس بمعنى: الذين صلحوا، ولكنَّه اسمٌ قائم بنفسه، كما يقال: الرجل، والغلام، والجملة الاسمية في محل نصب حال من الضمير الواقع مفعولاً به، والرابط: الواو، والضمير.

﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾

الشرح: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ﴾ أي: اثبت على الإسلام، واستقم على نهجه، وطريقته، لأنه كان مسلماً، ولأن الأنبياء جميعاً نشؤوا على الإسلام والتوحيد. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: قال له ذلك حين خرج من السِّرب، وذلك عند استدلاله بالكواكب، والشَّمس، والقمر، واطلاعه على أمارات الحدوث فيها، وافتقارها إلى محدث مدبِّر، كما ذكر الله في سورة (الأنعام) رقم [٧٥] وما بعدها، فلما عرف ذلك؛ قال له ربه: أسلم، ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: قال إبراهيم، ـ على نبينا، وعليه ألف صلاة وألف سلام ـ: خضعت بالطَّاعة، وأخلصت العبادة لمالك الخلائق ومدبِّرها، ومحدثها. هذا؛ والمراد بالإسلام: التوحيد، وليس المراد الإسلام المتعارف عليه في شريعة محمد ﷺ، وكذلك ما يذكر عن إسلام كثيرٍ من الأنبياء السَّابقين، فإن المراد: التَّوحيد، والاستسلام، والانقياد. هذا؛ والسِّرب الذي ذكره ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يشير إلى أنَّ إبراهيم عليه السلام قد رُبِّي خفيةً عن النُّمرود الجبَّار؛ الذي ادعى الألوهية، وأن تربية إبراهيم كانت في السِّرْب بعيدةً عن الناس خوفاً من النُّمرود، فهي شبيهةٌ بتربية موسى عليه السلام.

هذا؛ وفي الآية الكريمة التفاتٌ من التكلُّم في الآية السابقة إلى الغيبة في هذه الآية؛ إذ كان مقتضى الكلام: «إذ قلنا. . .» إلخ، وللالتفات فوائد كثيرة: منها تطرية الكلام، وصيانة السَّمع عن الضَّجر، والملال؛ لما جبلت عليه النفوس من حبِّ التنقُّلات، والسآمة من الاستمرار على منوالٍ واحدٍ. هذه فوائده العامة، ويختصُّ كل موضعٍ بنكتٍ، ولطائف باختلاف محلِّه، كما هو مقرَّر في علم البديع، ووجهه حثُّ السامع، وبعثه على الاستماع؛ حيث أقبل المتكلِّم عليه، وأعطاه فضل عنايته، وخصّصه بالمواجهة.

الإعراب: ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزَّمان مبنيٌّ على السكون في محل نصب متعلق بفعل محذوف، تقديره: اذكر، أو هو مفعول به لهذا المحذوف، وقيل: هو ظرف للفعل ﴿ٱصْطَفَيْنَٰهُ﴾ وقيل: هو بدل من الجار والمجرور: ﴿فِي ٱلدُّنْيَا﴾. وهذا ضعيفٌ جدّاً.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض. ﴿لَهُۥ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿رَبُّهُۥٓ﴾: فاعله، والهاء في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة ﴿إِذْ﴾ إليها. ﴿أَسْلِمْ﴾: فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: أنت، والجملة الفعلية

في محل نصب مقول القول. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى ﴿إِبْرَاهِـمَ﴾ تقديره: هو. ﴿أَسْلَمْتُ﴾: فعل وفاعل، ﴿لِرَبِّ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، و(ربِّ) مضاف، و﴿ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾: مضاف إليه مجرور، وعلامة جره الياء نيابة عن الكسرة؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم، والنون عوض عن التنوين في الاسم المفرد، والإضافة من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه، وجملة: ﴿أَسْلَمْتُ...﴾ إلخ في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قَالَ...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها من الإعراب.

﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾

الشرح: ﴿وَوَصَّىٰ﴾: وقرئ: (وأوصى) والأول أبلغ. ﴿بِهَآ﴾: بالملَّة، وقيل: بالكلمة، وهي: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾. ﴿إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ﴾: بنو إبراهيم هم: إسماعيل وأمُّه هاجر، ولد قبل: إسحاق بأربع عشرة سنة، وعاش مئة وسبعاً وثلاثين سنةً، وكانت سنُّه يوم مات أبوه تسعاً وثمانين سنة، وإسحاق وأمُّه سارة، وعاش مئة وثمانين سنة، ثمَّ لمَّا توفيت سارة تزوج إبراهيم عليه السلام قطورا بنت يقطن الكنعانية، فولدت له مَدْين، ومديان، ويقشان، وزمران، ويشبق، وسوح، فهم ستة مع الاختلاف في تسميتهم بحسب الروايات. ﴿وَيَعْقُوبُ﴾ أي: أوصى بنيه، وهم اثنا عشر ولداً، وهم: روبيل، وشمعون، ولاوي، ويهوذا، وريالون، ويشجر، ودان، ونفتالي، وجاد، وآشر، ويوسف، وبنيامين، ولا تنسَ أن يعقوب ولد في حياة إبراهيم جدِّه، وهو النافلة بنصِّ القرآن.

﴿يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ...﴾ إلخ: هذا من وصية يعقوب لبنيه، وأصل بَنيَّ: «بنين لي» فحذفت اللام الجارة، ثم حذفت النون للإضافة، ثم أدغمت ياء المتكلم في ياء الجمع. و﴿ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾: اختار لكم دين الإسلام، وهو التوحيد، الذي ذكرته فيما مضى. ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي: الزموا الإسلام، ودوموا عليه، ولا تفارقوه حتَّى تموتوا، فالنَّهي في اللفظ عن الموت على غير الإسلام، وهو في المعنى على غير ذلك؛ إذ المعنى: لا تفارقوا الإسلام حتى تموتوا، كما في قولك: لا تصلِّ إلا وأنت خاشع، والمعنى: صلِّ الصَّلاة مقترنةً بالخشوع، وهذه الجملة مذكورة في سورة آل عمران برقم [١٠٢].

الإعراب: ﴿وَوَصَّىٰ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف للتعذُّر. ﴿بِهَآ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿إِبْرَٰهِـۧمُ﴾: فاعله، والجملة الفعلية معطوفة على جملة: ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ...﴾ إلخ. في الآية السابقة: لا محل لها مثلها. ﴿بَنِيهِ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه الياء نيابة عن الفتحة؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم، وحذفت النون للإضافة، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿وَيَعْقُوبُ﴾: معطوف على إبراهيم، فهو مرفوع مثله. وقيل: هو مبتدأ حذف خبره،

التقدير: ويعقوب وصَّى بنيه أيضاً، والأول أقوى. هذا؛ ويقرأ بالنصب عطفاً على ﴿بَنِيهِ﴾ وهو بعيد؛ لأنَّ يعقوب لم يكن بين أولاد إبراهيم لمَّا وصاهم. (يا): حرف نداء ينوب مناب أدعو. (بني): منادى منصوب، وعلامة نصبه الياء نيابة عن الفتحة؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم، وحذفت النون للإضافة، وياء المتكلم في محل جرٍّ بالإضافة. ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿ٱصْطَفَىٰ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف للتعذر، والفاعل يعود إلى ﴿ٱللَّهَ﴾، والجملة الفعلية في محل رفع خبر: ﴿إِنَّ﴾. ﴿لَكُمُ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿ٱلدِّينَ﴾: مفعول به، والكلام: ﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ...﴾ إلخ فيه وجهان: **أحدهما**: أنَّه من مقول ﴿إِبْرَٰهِـۧمُ﴾ وذلك على القول بعطف (يعقوب) على ﴿إِبْرَٰهِـۧمُ﴾. **الثاني**: أنه من مقول (يعقوب) على القول برفعه على الابتداء، ويكون قد حذف مقول ﴿إِبْرَٰهِـۧمُ﴾ للدَّلالة عليه، وعلى كل تقدير فالكلام منصوب بقول محذوف على رأي البصريين، أي: فقال: يا بني. . .إلخ، وبفعل الوصية؛ لأنها في معنى القول عند الكوفيين. انتهى. جمل نقلاً من السَّمين.

هذا؛ ومثل هذه الآية قوله تعالى في سورة (هود) رقم [٤٢]: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا...﴾ إلخ. حيث قال البصريون: إنَّ قوله: ﴿يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا...﴾ إلخ في محلِّ نصب مقول القول لقول محذوف وقال الكوفيون: في محل نصب مفعول به للفعل: (نادى) وخذ قول الراجز، وهو الشاهد رقم [٧٦٧] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»، فالقول فيه مثل الآيتين: [الرجز]

رَجُلَانِ مِنْ مَكَّةَ أَخْبَرَانَا ... إِنَّا رَأَيْنَا رَجُلاً عُرْيَانَا

﴿فَلَا﴾: الفاء: أراها الفصيحة، وابن هشام يعتبرها للسببية المحضة، ومن يجيز عطف الإنشاء على الخبر يعتبرها عاطفة. (لا): ناهية. ﴿تَمُوتُنَّ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ (لا) الناهية، وعلامة جزمه حذف النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، وواو الجماعة المحذوفة المدلول عليها بالضمة: فاعله، ونون التوكيد حرف لا محل لها، والجملة الفعلية لا محل لها على جميع الوجوه المعتبرة بالفاء. ﴿إِلَّا﴾: حرف حصر، والجملة الاسمية: ﴿وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ في محل نصب حال مستثنىً من عموم الأحوال، والرابط: الواو، والضمير.

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾

الشرح: روي: أن اليهود قالوا للنبيِّ ﷺ: ألست تعلم: أن يعقوب أوصى بنيه باليهودية يوم مات؟! فنزلت الآية الكريمة، وفيها توبيخٌ لهم، وتقريع. ﴿شُهَدَآءَ﴾: حضوراً، جمع: شاهد، وشهيد. ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى﴾ أي: من بعد موتي. أراد تقريرهم على التوحيد، والإسلام، وأخذ

ميثاقهم على الثبات عليها، وأتى بـ ﴿مَا﴾ التي لغير العاقل؛ لأن المعبودات في ذلك الزّمان كانت غير عاقلة، كالأوثان، والشّمس، والقمر، فعرف بنوه ما أراد، فأجابوه بالحق؛ إذ الجواب على وفق السؤال. هذا؛ وقد عدَّ إسماعيل عليه السلام أبا يعقوب مع كونه عمَّه أخا أبيه تغليباً للأب، والجدِّ، أو لأنه كالأب في التقدير والاحترام، وقد قال النبي ﷺ: «**عمُّ الرجل صنو أبيه**». وقال في عمِّه العباس: «**هذا بقية آبائي**». وقدَّم إسماعيل على إسحاق في الذكر لسببين: **أولهما**: أنَّه أسبق منه في الولادة بأربع عشرة سنة، و**ثانيهما**: أنه جدُّ نبينا محمد ﷺ، فاستحق التَّقدير لذلك.

﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ أي: موحِّدون، مطيعون، خاضعون، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ هذا؛ والإسلام هو ملَّة الأنبياء، وطريقة الرُّسل قاطبةً، وإن تنوَّعَتْ شرائعهم، واختلفتْ مناهجهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾. وذكرت لك: أنَّ معنى الإسلام التَّوحيد. وقال النبيُّ المعظم ﷺ: «**نحنُ معشرَ الأنبياءِ أولَادُ عَلَّاتٍ، دِينُنَا واحِدٌ**».

الإعراب: ﴿أَمْ﴾: حرف عطف، وهي منقطعة، وبمعنى: بل، والهمزة، ومعنى الهمزة فيها الإنكار، أي: ما كنتم حاضرين إذ حضر يعقوب الموت، وقال لبنيه ما قال؛ فَلِمَ تدعون اليهودية عليه؟! أو هي متصلة بمحذوف، تقديره: أكنتم غائبين، أو شهداء وقت حضر... إلخ. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ماض ناقص مبني على السكون، والتاء اسمه. ﴿شُهَدَآءَ﴾: خبر كان، والجملة الفعلية معطوفة على المقدَّر على الوجهين. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزّمان مبني على السُّكون في محل نصب متعلِّق بـ ﴿شُهَدَآءَ﴾. ﴿حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾: ماض، ومفعوله، وفاعله، والجملة في محل جر بإضافة ﴿إِذْ﴾ إليها. ﴿إِذْ﴾: بدل من سابقتها. ﴿قَالَ﴾: ماض، وفاعله يعود إلى يعقوب. ﴿لِبَنِيهِ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة ﴿إِذْ﴾ إليها. ﴿مَا﴾: اسم استفهام مبني على السكون في محل نصب مفعول به مقدَّم. ﴿تَعْبُدُونَ﴾: مضارع، وفاعله، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول. ﴿مِنۢ بَعْدِى﴾: متعلقان بالفعل قبلهما. وعلامة الجر كسرة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم، منع من ظهورها اشتغال المحل بالحركة المناسبة، والياء في محل جرٍّ بالإضافة.

﴿قَالُواْ﴾: ماض، وفاعله، والألف للتفريق. ﴿نَعْبُدُ﴾: فعل مضارع، والفاعل مستتر تقديره: نحن. ﴿إِلَٰهَكَ﴾: مفعول به: والكاف في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية في محلِّ نصب مقول القول، وجملة: ﴿قَالُواْ...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها. (إلٰه): معطوف على ما قبله، وهو مضاف، و﴿ءَابَآئِكَ﴾ مضاف إليه، والكاف في محل جر بالإضافة. ﴿إِبْرَٰهِـۧمَ﴾: بدل من ﴿ءَابَآئِكَ﴾ بدل كل من كل، أو هو عطف بيان عليه، مجرور مثله، وعلامة جره الفتحة نيابة عن الكسرة؛ لأنه ممنوع من الصرف للعلمية والعجمية.

﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ﴾: معطوفان على ﴿إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾ مجروران مثله. ﴿إِلَٰهٗا﴾: بدل من (إله آبائك) بدل كل من كل. ﴿وَٰحِدٗا﴾: صفته، والجملة الاسمية: ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾: في محل نصب حال من فاعل ﴿نَعۡبُدُ﴾ المستتر، والرَّابط: الواو، والضمير، وقيل: معطوفة على جملة: ﴿نَعۡبُدُ...﴾ إلخ، والأول أقوى. وقيل: معترضة؛ ولا وجه له، والجار والمجرور: ﴿لَهُۥ﴾ متعلقان بـ ﴿مُسۡلِمُونَ﴾ بعدها.

﴿تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٣٤﴾

الشرح: ﴿تِلۡكَ﴾: الإشارة إلى إبراهيم وذريته الطَّيبة، على نبينا، وعليهم أفضل الصلاة، وأتمُّ التسليم، وأنث لتأنيث الخبر. ﴿أُمَّةٞ﴾: جماعة. ﴿خَلَتۡۖ﴾: مضت، وأصله: خَلاَتْ، حذفت الألف لالتقائها ساكنة مع تاء التأنيث. ﴿لَهَا مَا كَسَبَتۡ﴾: أي ما عملت من الأعمال، وقدَّمت من الصَّالحات في دنياها لآخرتها. ﴿وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ﴾: مثله، يريد من خير، وشر. والمعنى: إنَّ انتسابكم إليهم لا يوجب انتفاعكم بأعمال إبراهيم، وذرِّيته. وإنَّما تنتفعون بموافقتهم، واتِّباعهم بأعمالهم، كما قال النبي ﷺ لأقربائه: «**لا يأتيني الناس بالأعمال، وتأتوني بالأنساب**». ﴿وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا...﴾ إلخ، أي: لا تؤاخذون بسيئاتهم، كما لا تثابون بحسناتهم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ﴾.

هذا؛ وفي الآية دليل على: أن العبد يضاف إليه الأعمال كسباً، وإن كان الله تعالى أقدره على ذلك، إن كان خيراً؛ فبفضله، وإن شرّاً، فبعدله. وهذا مذهب أهل السنة، والآي في القرآن بهذا المعنى كثيرة، فالعبد مكتسب لأفعاله، على معنى: أنه خلقت له قدرة مقارنة للفعل يدرك بها الفرق بين حركة الاختيار، وحركة الرَّعشة مثلاً، وذلك التمكُّن هو مناط التكليف، وقالت الجبرية بنفي اكتساب العبد، وأنَّه كالنبات الَّذي تصرِّفه الرياح، وقالت القدرية، والمعتزلة خلاف هذين القولين، وأن العبد يخلق أفعاله.

الإعراب: ﴿تِلۡكَ﴾: اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب لا محل له. ﴿أُمَّةٞ﴾: خبر المبتدأ. ﴿قَدۡ﴾: حرف تحقيق يقرب الماضي من الحال. ﴿خَلَتۡۖ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف المحذوفة، والتاء حرف لا محل له، والفاعل يعود إلى: ﴿أُمَّةٞ﴾، والجملة الفعلية في محل رفع صفة ﴿أُمَّةٞ﴾. هذا؛ وقال القرطبي: وإن شئت كانت الجملة خبر المبتدأ، وتكون ﴿أُمَّةٞ﴾ بدلاً من: ﴿تِلۡكَ﴾. وهذا غير مسلم له؛ لأنه لا يبدل من اسم الإشارة إلا الاسم المقرون بأل. والجملة الاسمية: ﴿تِلۡكَ...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها من الإعراب.

﴿لَهَا﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم. ﴿مَا﴾: تحتمل الموصولة، والموصوفة، والمصدرية، فعلى الأولين مبنية على السكون في محل رفع مبتدأ مؤخَّر.

﴿كَسَبَتْ﴾: فعل ماض، والتاء للتأنيث، والفاعل يعود إلى ﴿أُمَّةٌ﴾، والجملة الفعلية صلة ﴿مَا﴾ أو صفتها، والعائد أو الرابط محذوف، التقدير: لها الذي، أو شيء كسبته، وعلى المصدرية تؤول مع الفعل بعدها بمصدر في محل رفع مبتدأ مؤخر، التقدير: لها كسبها، وعلى كلٍّ فالجملة اسمية، وهي في محل رفع صفة ثانية لـ ﴿أُمَّةٌ﴾، أو هي في محل نصب حال من فاعل: ﴿خَلَتْ﴾ المستتر، والرابط: الضمير فقط، أو هي مستأنفة لا محل لها. ﴿وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾: وهذه الجملة معطوفة على ما قبلها على جميع الوجوه المعتبرة فيها، و﴿مَّا﴾ تحتمل ما ذكرته في الأولى.

﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): نافية. ﴿تُسْـَٔلُونَ﴾: مضارع مبني للمجهول مرفوع، والواو: نائب فاعله. ﴿عَمَّا﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، و(ما) تحتمل الموصولة، والموصوفة، والمصدرية، والجملة بعدها صلتها، أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف، التقدير: عن الذي، أو عن شيء كانوا يعملونه، وعلى اعتبار (ما) مصدرية تؤول مع الفعل بعدها بمصدر في محل جر بـ (عن)، التقدير: عن عملهم، وجملة: ﴿وَلَا تُسْـَٔلُونَ...﴾ إلخ في محل نصب حال من تاء الفاعل في: ﴿كَسَبْتُمْ﴾، وهي حال مؤكدة، والرابط: الواو، والضمير، والحالية أقوى من العطف، وقال أبو البقاء: مستأنفة لا غير، ولا وجه له. ﴿كَانُوا﴾: ماض ناقص، والواو اسمه، والألف للتفريق، وجملة: ﴿يَعْمَلُونَ﴾ في محل نصب خبرها. تأمل، وتدبر، وربك أعلم، وأجلُّ، وأكرم.

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾

الشرح: ﴿وَقَالُوا﴾ أي: اليهود، والنصارى. ﴿كُونُوا﴾: صيروا. ﴿هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا﴾: تكونوا على الحق، وتكونوا من المهتدين. ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ...﴾ أي: قل يا محمد: بل نتبع ملَّة إبراهيم. ﴿حَنِيفًا﴾: أي: مائلاً عن الأديان المكروهة إلى الحقِّ دين إبراهيم، عليه السلام، قال الشاعر: [الوافر]

وَلَكِنَّا خُلِقْنَا إذْ خُلِقْنَا ... حَنِيفاً دِينُنَا عَنْ كُلِّ دِينِ

ورجل أحنف، وهو الذي تميل قدماه كلُّ واحدةٍ منهما إلى أُخْتِها بأصابعها.

قَالت أم الأحنف بن قيس: [الرجز]

وَاللهِ لَوْلَا حَنَفٌ بِرِجْلِهِ ... مَا كَانَ فِي فِتْيَانِكُمْ مِنْ مِثْلِهِ

وقال قوم: الحنف الاستقامة، فسمِّي دين إبراهيم حنيفاً لاستقامَته، وسمِّي المعوجُّ الرِّجلين أحنف تفاؤلاً بالاستقامة كما قيل للديغ: سليم، وللمَهلكة: مفازة. انتهى قرطبي. والعرب تسمِّي كل من حجَّ، أو اختتن: حنيفاً، تنبيهاً على أنه على دين إبراهيم.

هذا؛ ومناسبة الآية لما قبلها: أن الله تعالى لمَّا ذكر: أنَّ ملة إبراهيم هي الملة الحنيفية السمحة، وأنَّ مَنْ لم يؤمن بها، ورغب عنها؛ فقد بلغ الذروة العليا في الجهالة، والسفاهة؛ ذكر تعالى في هذه الآية ما عليه أهل الكتاب من الدَّعاوى الباطلة من زعمهم: أن الهداية في اتباع اليهودية، والنصرانية، وبيَّن: أن تلك الدَّعاوى لم تكن عن دليلٍ، أو شبهةٍ، بل هي مجرد جحود، وعناد. ثمَّ عقَّب ذلك بأنَّ الدين الحق هو التمسك بالإسلام، وهو دين إبراهيم، ودين جميع الأنبياء، والمرسلين، على نبينا، وعليهم جميعاً ألف صلاة، وألف سلام.

الإعراب: ﴿وَقَالُواْ﴾: الواو: حرف عطف. (قالوا): ماض وفاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية معطوفة في المعنى على الآية رقم [١١١]، ومستأنفة في الإعراب.

﴿كُونُواْ﴾: فعل أمر ناقص مبني على حذف النون، والواو اسمه، والألف للتفريق. ﴿هُودًا﴾: خبر: ﴿كُونُواْ﴾: والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول. ﴿نَصَـٰرَىٰ﴾: معطوف على ﴿هُودًا﴾ منصوب مثله، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على الألف للتعذر. ﴿تَهْتَدُواْ﴾: فعل مضارع مجزوم لوقوعه جواباً للأمر، وجزمه عند الجمهور بشرط محذوف، التقدير: إن تكونوا هوداً؛ تهتدوا، وعلامة جزمه حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق، وهي في محل نصب مقول القول أيضاً.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: أنت، ومتعلقه محذوف. ﴿مِلَّةَ﴾: مفعول به لفعل محذوف، التقدير: بل نتبع ملَّة، و﴿بَلْ﴾ حرف إضراب، وقيل: منصوب على الإغراء، وقدَّر البيضاوي فعلاً ناقصاً: «نكون» ولا وجه له. هذا؛ وقرئ برفع: (ملَّة) على أنه خبر لمبتدأ محذوف، أو مبتدأ خبره محذوف، التقدير: بل ملَّتنا ملةٌ، أو: بل ملَّةُ إبراهيم ملَّتُنا. و﴿مِلَّةَ﴾ مضاف، و﴿إِبْرَٰهِـۧمَ﴾: مضاف إليه مجرور وعلامة جره الفتحة نيابة عن الكسرة؛ لأنه ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة. ﴿حَنِيفًا﴾: حال من: ﴿إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ وجاز مجيء الحال من المضاف إليه؛ لأن المضاف كجزء منه، قال ابن مالك ـ رحمه الله ـ في ألفيته: [الرجز]

وَلَا تُجِزْ حَالاً مِنَ الْمُضَافِ لَهْ ... إِلَّا إِذَا اقْتَضَى الْمُضَافُ عَمَلَهْ
أَوْ كَانَ جُزْءَ مَا لَهُ أُضِيفَا ... أَوْ مِثْلَ جُزْئِهِ فَلَا تَحِيفَا

وقيل: هو منصوب بإضمار: أعني، ولا وجه له. ﴿وَمَا﴾: الواو: واو الحال، (ما): نافية. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمه ضمير يعود إلى إبراهيم. ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾: جار ومجرور

متعلقان بمحذوف خبر: ﴿كَانَ﴾ والجملة الفعلية في محل نصب حال من ﴿إِبْرَٰهِـۧمُ﴾، والرابط: الواو، والضمير، وهي حال متعدِّدة، ومؤكِّدة لما قبلها، والجملة المقدرة: «بل نتبع ملة... إلخ» في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قُلْ...﴾ إلخ مستأنفة لا محلَّ لها.

﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾

الشرح: ﴿قُولُوٓاْ﴾: أمرٌ للرسول ﷺ ولأمته، فقد أخرج البخاريُّ ـ رحمه الله تعالى ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية، ويفسِّرونها لأهل الإسلام بالعربيَّة، فقال رسول الله ﷺ: «**لا تُصَدِّقُوا أهلَ الكِتابِ، وَلَا تُكذِّبُوهُمْ، وقولُوا: آمنا بالله. ومَا أُنْزِلَ...**» إلخ. ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ...﴾ إلخ: المراد به: الصُّحف التي أنزلت على إبراهيم، وقد عَمِل بها إسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، وأحفاده، وهم بالطبع أحفاد لإبراهيم، ثم صار أولاد يعقوب الاثنا عشر قبائل، يطلق عليها: الأسباط، فالأسباط في بني إسرائيل كالقبائل في العرب من بني إسماعيل، وانظر سبب ذكر إسماعيل، وسبب تقديمه على إسحاق في الآية رقم [١٣٣].

﴿وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ﴾ أي: التوراة. ﴿وَعِيسَىٰ﴾: أي: أوتي الإنجيل. ﴿وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾: والمعنى: آمنا بالتوراة، والإنجيل، والكتب، والصحف التي أوتي جميع الأنبياء، والمرسلين. وصدَّقنا: أن ذلك كلَّه حقٌّ، وهدىً، ونور، وأنَّ الجميع من عند الله. ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: لا نفعل ذلك كما فعل اليهود، والنصارى، كما قال الله فيهم: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾ الآيتان [١٥٠ ـ ١٥١] من سورة (النساء): ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ﴾: لله. ﴿مُسْلِمُونَ﴾: خاضعون، منقادون، مخلصون له في العبادة، مقرُّون له بالألوهيَّة، والربوبيَّة.

هذا؛ والأسباط جمع سبط، وهو ولد الولد، وهو: الحافد، والحفيد. ومنه قيل للحسن، والحسين: سبطا رسول الله ﷺ. وجمع إبراهيم: براهيم، وجمع إسماعيل: سماعيل قاله الخليل، وسيبويه، وقاله الكوفيون أيضاً. وحكوا: براهمة، وسماعلة، وبراهم، وسماعل. وسماعيل. وجمع إسحاق: أساحيق، وجمع يعقوب: يعاقيب، وحكى الكوفيون: أساحقة، وأساحق، ويعاقبة، ويعاقب. هذا، والأسماء في هذه الآية كلها تُجمع جمعاً مذكراً سالماً، فيقال: إبراهيمون، وإسحاقون، ويعقوبون... إلخ.

هذا؛ وروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أنه قال: كلُّ الأنبياء من بني إسرائيل إلا عشرة: نوحاً، وشعيباً، وهوداً، وصالحاً، ولوطاً، وإبراهيمَ، وإسحاقَ، ويعقوبَ، وإسماعيل،

ومحمداً صلى الله عليهم وسلم أجمعين. بعد هذا ينبغي أن تعلم أنَّ هذه الآية مذكورة في سورة آل عمران برقم [٨٤] مع الاختلاف في بعض الكلمات، وبعض الحروف. والمعنى واحدٌ مع ملاحظة: أنَّ الأمر هنا موجَّه إلى المسلمين عامَّةً، وفي سورة (آل عمران) موجَّه إلى الرسول ﷺ.

الإعراب: ﴿قُولُوٓاْ﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿ءَامَنَّا﴾: فعل، وفاعل. ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلقان به، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قُولُوٓاْ...﴾ إلخ مبتدأة أو مستأنفة لا محل لها. (ما): اسم موصول مبني على السكون في محل جر معطوف على (الله). ﴿أُنزِلَ﴾: فعل ماض مبني للمجهول، ونائب الفاعل يعود إلى (ما) وهو العائد، والجملة الفعلية صلتها. ﴿إِلَيۡنَا﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿وَمَآ أُنزِلَ﴾: معطوف على ما قبله، وإعرابه مثله. ﴿إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾: متعلقان بما قبلهما، وعلامة الجر الفتحة نيابة عن الكسرة؛ لأنه ممنوع من الصرف للعلمية، والعجمة، والأسماء بعده معطوفة عليه. ﴿وَمَآ﴾: معطوفة على ما قبلها. ﴿أُوتِيَ﴾: فعل ماض مبني للمجهول، ﴿مُوسَىٰ﴾: نائب فاعله، وهو المفعول الأول، وعلامة رفعه ضمة مقدَّرة على الألف للتعذُّر، والجملة الفعلية صلة (ما) لا محل لها والعائد محذوف، التقدير: والذي أوتيه موسى وعيسى. ﴿وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ﴾: معطوف على ما قبله، وإعرابه مثله. ﴿مِن رَّبِّهِمۡ﴾ متعلقان بمحذوف حال من الضمير المحذوف الواقع مفعولاً ثانياً للفعل ﴿أُوتِيَ﴾، التقدير: منزَّلاً من ربهم، والهاء في محل جر بالإضافة من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر.

﴿لَا﴾: نافية. ﴿نُفَرِّقُ﴾: فعل مضارع، وفاعله مستتر تقديره: نحن. ﴿بَيۡنَ﴾ ظرف مكان متعلق بالفعل قبله، و﴿بَيۡنَ﴾ مضاف، و﴿أَحَدٍ﴾ مضاف إليه. ﴿مِّنۡهُمۡ﴾ جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة: ﴿أَحَدٍ﴾، وجملة: ﴿لَا نُفَرِّقُ...﴾ إلخ في محل نصب حال من (نا) والرابط الضمير فقط، والجملة الاسمية: (نحن له مسلمون) في محل نصب حال ثانية من (نا) أيضاً، وهي حال مؤكدة للإيمان، والرابط: الواو، والضمير.

﴿فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٣٧﴾

الشرح: ﴿فَإِنۡ ءَامَنُواْ﴾ أي: اليهود، والنصارى. ﴿بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾: الخطاب للنبي ﷺ ولأمته. والمعنى: فإن أتوا بإيمانٍ كإيمانكم، وتوحيدٍ كتوحيدكم ـ والمراد: ما ذكر في الآية السابقة ـ. ولم يفرقوا بين الرُّسل، وبين الكتب السَّماوية. ﴿فَقَدِ ٱهۡتَدَواْ﴾ أي: أصابوا الحق، وأرشدوا إليه ـ ﴿وَّإِن تَوَلَّوۡاْ﴾: أعرضوا عن الإيمان الصحيح بعد قيام الحجة، والبرهان. ﴿فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖ﴾ أي: في خلاف معكم. هذا؛ وللشقاق ثلاثة معان: **أحدها**: العداوة، كما في قوله

تعالى حكاية عن قول شعيب لقومه: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ...﴾ إلخ. **والثاني**: الضلال، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾. **والثالث**: الخلاف، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا﴾ لأنَّ كل واحد من المتشاقين يكونُ في شقٍّ غير شقِّ صاحبه في ناحية وجهة، قال الشاعر: [الوافر]

وَإِلَّا فـاعْـلَـمُـوا أَنَّـا وَأَنـتُـمْ بُـغَـاةٌ مـا بَـقِـيـنَـا فـي شِـقَـاقِ

﴿فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ﴾: وعد من الله لرسوله، وللمؤمنين بالحفظ من كَيدهم، وَالنَّصر عَلَيهم. وقد حقَّق الله ما وعد بقتل بعضهم، وإجلاء بعضهم، كما هو معروف، ومسطور. وفي هذا الكلام التفات من الغيبة إلى الخطاب، وانظر الالتفات في الآية رقم [١٣١]. وهذا الحرف: ﴿فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ﴾ هو الذي وقع عليه دم عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ حين قتل بإخبار النَّبيِّ ﷺ. ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾: لأقوالهم. ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾: بأفعالهم، وما في ضمائرهم من الحقد، والحسد، والعداوة، والبغضاء. وهما صيغتا مبالغة.

الإعراب: ﴿فَإِنۡ﴾: الفاء: حرف تفريع عما سبق في الآية قبلها. (إن): حرف شرط جازم. ﴿ءَامَنُواْ﴾: فعل ماض مبني على الضم في محل جزم فعل الشرط، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها ابتدائية، ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفي. ﴿بِمِثۡلِ﴾: الباء: حرف جر صلة. مثل: مجرور لفظاً، صفة لمصدر محذوف، واقع مفعولاً مطلقاً، التقدير: فإن آمنوا إيماناً مثل ما... إلخ. وقيل: (مثل) هي الصلة، والتقدير: بما آمنتم به، فعلى الأول (مثل) مضاف، و﴿مَآ﴾ اسم موصول مبني على السكون في محل جر بالإضافة، وعلى الثاني فالباء حرف جر، و﴿مَآ﴾: اسم موصول في محل جر بالباء: والجار والمجرور متعلقان بالفعل قبلهما، وجملة: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ صلة الموصول على الوجهين السابقين، وإن اعتبرت ﴿مَآ﴾ نكرة موصوفة؛ فالجملة صفتها. ﴿فَقَدِ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (قد): حرف تحقيق يقرب الماضي من الحال. ﴿ٱهۡتَدَواْۖ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور. والدُّسوقي يقول: لا محل لها؛ لأنها لم تحلَّ محلَّ المفرد. و(إن) ومدخولها كلام مفرع على ما قبله لا محل له من الإعراب. هذا؛ وزيادة لفظ (مثل) قيل به في قوله تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ الآية رقم [١١] من سورة الشورى، وبه قيل في قول أوس بن حجر: [المتقارب]

وَقَـتْـلَـى كـمِـثْـلِ جُذُوعِ الـنَّـخِـيـ ـلِ يَـغْـشَـاهُـم مـطَـرٌ مُـنْـهَـمِـرْ

﴿وَإِن﴾: الواو: حرف عطف. (إن): حرف شرط جازم. ﴿تَوَلَّوۡاْ﴾: ماض مبني على فتح مقدر على الألف المحذوفة في محل جزم فعل الشرط، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة

الفعلية لا محل لها مثل سابقتها. ﴿فَإِنَّمَا﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (إنما): كافة ومكفوفة. ﴿هُمْ﴾: مبتدأ. ﴿فِي شِقَاقٍ﴾: متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل جواب الشرط، والشرط ومدخوله معطوف على ما قبله، لا محل له مثله. ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ﴾: الفاء: حرف استئناف. والسين: حرف استقبال، وهو هنا متحقِّق الوقوع، (يكفيكهم): فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء للثقل، والكاف مفعول به أول، والهاء مفعول به ثان. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله، والجملة الفعلية مستأنفة لا محل لها، والجملة الاسمية: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ في محل نصب حال من لفظ الجلالة، والرابط الواو، والضمير، وقيل: مستأنفة، والأول أقوى.

تنبيه: اتصل بالفعل: (يكفي) ضميران: ضمير المخاطب، وضمير الغائب، والأول أعرف كما في قوله تعالى في سورة (هود) حكاية عن قول نوح لقومه: ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ فيجب تقديم الأعرف في هذه الحالة إذا اتصلا بالفعل، قال ابن مالك رحمه الله تعالى في ألفيته: [الرجز]

وَقَدِّمِ الأَخَصَّ فِي اتِّصَالِ وَقَدِّمَنْ مَا شِئْتَ فِي انْفِصَالِ

علماً بأنَّ ضمير المُتكلم أعرف من ضمير المخاطب، وضمير المخاطب أعرف من ضمير الغائب. هذا؛ ويجوز وصل الضميرين بالفعل: (يكفي) و(نلزم) وفصلهما. وكذلك يجوز الأمران في حال اتصالهما بالأفعال: منع وسأل، وأعطى، وكسا، وألبس. قال ابن مالك رحمه الله تعالى في ألفيته: [الرجز]

وَصِلْ أَوِ افْصِلْ هَاءَ سَلْنِيْهِ وَمَا أَشْبَهَهُ فِي كُنْتُهُ الْخُلْفُ انْتَمَى

كَذَاكَ خِلْتَنِيْهِ وَاتِّصَالَا أَخْتَارُ غَيْرِي اخْتَارَ الانْفِصَالَا

﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾

الشرح: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾: دين الله. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: وإنَّما سماه الله صبغةً؛ لأن أثر الدين يظهر على المتديِّن، كما يظهر أثر الصَّبغ على الثَّوب، وذلك بطريق الاستعارة. وقد ورد عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «**إنَّ بني إسرائيل قالوا: يا نبيَّ الله هل يصبغ ربُّك؟ فقال: اتقوا الله! فناداه: يا موسى! إنْ سألوك: هل يصبغ ربُّك؟ فقل: نعم، أنا أصبغ الألوان: الأحمر، والأبيض، والأسود، والألوان كلُّها من صَبْغِي**». والمعنى: تطهير الله، لأنَّ الإيمان يطهِّر النفوس. والأصل فيه: أنَّ النَّصارى كانوا يغمسون أولادهم في ماء أصفر يسمُّونه المعموديَّة، ويقولون: هو تطهير لهم، فإذا فعل الواحد منهم بولده ذلك؛ قال: الآن صار نصرانيّاً حقّاً، فأمر المسلمون بأن يقولوا لهم: قولوا آمنا بالله، وصبغنا الله بالإيمان صبغته، ولم

نصبغ صبغتكم. وجيء بلفظ الصبغة للمشاكلة، كقولك لمن يغرس الأشجار: اغرس كما يغرس فلان، تريد رجلاً يصطنع الكرام. انتهى نسفي. ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ أي: لا أحد أحسن من الله صبغة، أي: ديناً. وقيل: تطهيراً؛ لأنَّه يطهر من أوساخ الكفر. ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ مطيعون، ولا نعصيه. هذا؛ وقال بعض شعراء ملوك همدان: [المتقارب]

وَكُلُّ أُناسٍ لَهُمْ صِبْغَةٌ وَصِبْغَةُ هَمْدَانَ خَيْرُ الصِّبَغْ

صَبَغْنَا عَلَى ذَاكَ أَبْنَاءَنَا فَأَكْرِمْ بِصِبْغَتِنَا في الصِّبَغْ

الإعراب: ﴿صِبْغَةَ﴾: مفعول مطلق، وقال أبو البقاء: انتصابه بفعل محذوف، أي: اتبعوا دين الله، وقيل: هو منصوب على الإغراء، أي: الزموا صبغة الله، وقيل: هو بدل من ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِۦمَ﴾، وقال النسفي: هو مصدر مؤكد، عن قوله: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾، وهذا يعني: أنه مفعول مطلق، عامله: ﴿ءَامَنَّا﴾، وانظر الكلام في الشرح، والكلام اللاحق، و﴿صِبْغَةَ﴾: مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾ مضاف إليه، من إضافة المصدر لفاعله. ﴿وَمَنْ﴾: الواو: واو الاعتراض. (من): اسم استفهام مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿أَحْسَنُ﴾: خبره، ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾: متعلقان بـ ﴿أَحْسَنُ﴾. ﴿صِبْغَةً﴾: تمييز، والجملة: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ...﴾ إلخ معترضة لا محل لها. والجملة الاسمية: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾: معطوفة على قوله تعالى: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ...﴾ إلخ في الآية رقم [١٣٦].

وهذا العطف يدلُّ على أنَّ قوله: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ داخل في مفعول: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ أي: قولوا: هذا، وهذا. ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ وهذا يرد قول مَنْ قال: إنَّ ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ بدل من: ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِۦمَ﴾ أو نصب على الإغراء بمعنى: عليكم صبغة الله، لما فيه من فك النظم، وإخراج الكلام عن التئامه، وانتصابها على أنَّها مصدر مؤكد هو الذي ذكره سيبويه، والقول ما قالت حذام. انتهى. نسفي. وهو من الكشاف للزَّمخشري. وقال الجمل: وقوله: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ معترض بين المعطوف، والمعطوف عليه. انتهى نقلاً من أبي السعود. وهذا مبني على أنَّ التقدير: صبغنا الله صبغة. وما ذكره النسفي أولى بالاعتبار.

﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾﴾

الشرح: ﴿قُلْ﴾: خطاب للنبي ﷺ، وتعليم له في مخاطبة اليهود الذين قالوا للمسلمين: نحن أهل الكتاب الأول، وقبلتنا أقدم من قبلتكم، ولم تكن الأنبياء من العرب، ولو كان محمد نبيّاً؛ لكان منَّا. ﴿أَتُحَآجُّونَنَا﴾: أتخاصموننا في شأن الله: أنه بعث نبيّاً من العرب؟. ﴿وَهُوَ رَبُّنَا

﴿وَرَبُّكُمْ﴾: هو مالكنا، ومالككم، ومتولي شؤوننا وشؤونكم. ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ العبادة. ﴿وَلَنَآ أَعْمَالُنَا﴾: نجازى عليها. ﴿وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ تجزون عليها؛ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾. وتكرر هذا المعنى في كثير من الآيات، كقوله تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

هذا؛ والإخلاص حقيقته تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين. قال ﷺ: «**إن الله تعالى يقول: أَنَا خَيْرُ شَرِيكٍ، فَمَنْ أَشْرَكَ مَعِي شَرِيكاً؛ فَهُوَ لِشَرِيكي، يا أَيُّها الناس! أَخْلِصُوا أَعْمَالَكُمْ للهِ تَعَالَىٰ، فإنَّ الله تعالىٰ لا يَقْبَلُ إِلَّا مَا خَلُصَ لَهُ، وَلا تَقُولُوا: للهِ، وَلِلرَّحِمِ، فَإِنَّها لِلرَّحِمِ، وَلَيْسَ للهِ مِنْهَا شَيءٌ**». رواه الضحاك بن قيس الفهري؛ قال: قال رسول الله ﷺ، فذكره. خرَّجه الدارقطني. وقال رُوَيْم: الإخلاص في العمل هو أن لا يريد صاحبه عوضاً في الدَّارين، ولا حظّاً من المَلَكيْنِ. وقال الجنيد رحمه الله تعالى: الإخلاص بين العبد وبين الله، لا يعلمُه مَلَكٌ، فيكتبه، ولا شيطان فيفسده، ولا هوى فيميله، وذكر أبو القاسم القُشيري، وغيره عن النبي ﷺ: أنه قال: «**سَأَلْتُ جِبْريلَ عَنِ الإِخْلَاصِ مَا هُوَ؟ فَقَالَ: سَأَلتُ رَبَّ الْعِزَّةِ عنِ الإِخْلَاصِ مَا هُوَ؟ قالَ: سِرٌّ مِنْ أَسْرَارِي، اسْتَوْدَعْتُهُ قَلْبَ مَنْ أَحْبَبْتُهُ مِنْ عِبَادِي**». انتهى قرطبي.

هذا؛ وقد قال تعالى في سورة (الزمر): ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾. وقد قال الرسول ﷺ: «**مَنْ فَارَقَ الدُّنْيَا على الإِخْلَاصِ للهِ وَحْدَهُ لا شريكَ لَهُ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ، وَآتى الزَّكَاةَ؛ فَارَقَهَا؛ والله رَاضٍ عَنْهُ**». رواه ابن ماجه، والحاكم عن أنس ـ رضي الله عنه ـ.

الإعراب: ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: أنت. ﴿أَتُحَآجُّونَنَا﴾ الهمزة: حرف استفهام إنكاري. (تحاجوننا) فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، و(نا) مفعوله. ﴿فِي اللَّهِ﴾: متعلقان بما قبلهما، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول، والجملة الفعلية: ﴿قُلْ...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها. ﴿وَهُوَ﴾: الواو: واو الحال، هو: ضمير منفصل مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ. ﴿رَبُّنَا﴾: خبره، و(نا) في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿وَرَبُّكُمْ﴾: معطوف على ما قبله، والكاف في محل جر بالإضافة... إلخ، والجملة الاسمية: ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾: في محل نصب حال من لفظ الجلالة، والرابط الواو، والضمير. ﴿وَلَنَآ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم. ﴿أَعْمَالُنَا﴾: مبتدأ مؤخَّر. و(نا): في محل جر بالإضافة، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها، فهي مثلها في محل نصب حال، وأيضاً الجملتان بعدها معطوفتان عليها، وإن اعتبرتها أحوالاً متعددةً؛ فلست مفنَّداً. والجار والمجرور: ﴿لَهُ﴾ متعلقان بـ ﴿مُخْلِصُونَ﴾ بعدهما.

﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾

الشرح: ﴿أَمْ تَقُولُونَ﴾: خطاب لليهود، والنصارى، وفيه توبيخٌ لهم. ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ﴾: انظر الآيتين رقم [١٣٣] و[١٣٦]. ﴿كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ والمعنى: أتزعمون أنَّ إبراهيم، وبنيه كانوا على دينكم، وملَّتكم؟ وإنما حدثت اليهودية، والنصرانية بعدهم، فثبت كذبكم يا معشر اليهود والنصارى على إبراهيم، وبنيه. ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ أي: هل أنتم أعلم بديانتهم أم الله؟ وقد شهد الله لهم بملة الإسلام، وبرَّأهم من اليهودية، والنصرانية، قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ فكيف تزعمون: أنهم على دينكم؟.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ﴾ أي: أخفى: قال الحسن البصري ـ رحمه الله تعالى ـ كانوا يقرؤون في كتاب الله الذي آتاهم: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ وإنَّ محمداً رسول الله، وإنَّ إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط كانوا براء من اليهودية، والنَّصرانية، فشهد الله بذلك، وأقرُّوا على أنفسهم لله، فكتموا شهادة الله عندهم من ذلك. انتهى. والمعنى: ومن أظلم ممن كتم شهادة جاءته من عند الله، فكتمها، وأخفاها.

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ تكرر ورود هذه الجملة في مواطن كثيرة من القرآن، قال أبو حيَّان ـ رحمه الله تعالى ـ: ولا تأتي هذه الجملة إلا عقب ارتكاب معصية، فتجيء متضمنةً وعيداً، ومعلمةً: أن الله لا يترك أمرهم سدى. انتهى. والجملة فيها تهديد، ووعيد شديدان، والمعنى: أن الله لا يترك أمرهم سدى. انتهى. والمعنى: أن علمه تعالى محيط بأعمالهم صغيرها، وكبيرها، ويجزيهم بها. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿أَمْ﴾: حرف عطف، وهي تحتمل الاتصال، والانقطاع، وعلى الاتصال فهي معادلة للهمزة في قوله تعالى: ﴿أَتُحَآجُّونَنَا﴾ في الآية السابقة. ﴿تَقُولُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله، والجملة الفعلية مستأنفة على الانقطاع لا محل لها، ومعطوفة على جملة: ﴿أَتُحَآجُّونَنَا﴾ على الاتصال، فهي في محل نصب مقول القول مثلها. ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿إِبْرَٰهِۦمَ﴾: اسمها، والأسماء المذكورة معطوفة عليه. ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ماض ناقص، والواو اسمه، والألف للتفريق. ﴿هُودًا﴾ خبر (كان) والجملة الفعلية في محل رفع خبر: ﴿إِنَّ﴾، ﴿أَوْ﴾: حرف عطف. ﴿نَصَٰرَىٰ﴾: معطوف على: ﴿هُودًا﴾ منصوب مثله، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على الألف للتعذر، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: «أنت». ﴿ءَأَنتُمْ﴾: الهمزة: حرف استفهام إنكاري. (أنتم أعلم): مبتدأ وخبر، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول. ﴿أَمِ﴾: حرف عطف، وهي معادلة للهمزة. ﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ، وخبره محذوف، أي: الله أعلم، والجملة الاسمية هذه معطوفة على ما قبلها، فهي في محل نصب مقول القول مثلها. وجملة: ﴿قُلْ...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها. ﴿وَمَنْ﴾: الواو: حرف استئناف. (مَنْ): اسم استفهام مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿أَظْلَمُ﴾: خبره، والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها.

﴿مِمَّن﴾: جار ومجرور متعلقان بـ ﴿أَظْلَمُ﴾، و(مَنْ) تحتمل الموصولة، والموصوفة. ﴿كَتَمَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى (مَنْ)، تقديره: هو، والجملة صلة: (مَنْ) أو صفتها. ﴿شَهَـٰدَةً﴾: مفعول به ثان، والأول محذوف، التقدير: كتم الناس شهادةً. ﴿عِندَهُۥ﴾: ظرف مكان متعلق بـ ﴿شَهَـٰدَةً﴾ أو بمحذوف صفة لها، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾: متعلقان بمحذوف صفة ثانية، وجوز تعليقهما بالفعل: ﴿كَتَمَ﴾، ﴿وَمَا﴾: الواو: حرف استئناف. (ما): نافية حجازية تعمل عمل «ليس» ﴿ٱللَّهُ﴾ اسم (ما)، ﴿بِغَـٰفِلٍ﴾: الباء: حرف جر صلة. (غافل): خبر (ما) منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد، وفاعله مستتر فيه. ﴿عَمَّا﴾: جار ومجرور متعلقان بـ (غافل)، و(ما): تحتمل الموصولة، والموصوفة، والمصدرية، فعلى الأولين مبنية على السكون في محل جر بـ (عن) والجملة الفعلية بعدها صلتها، أو صفتها، والعائد أو الرابط محذوف، التقدير: عن الذي، أو عن شيء يعملونه، وعلى اعتبارها مصدرية تؤول مع ما بعدها بمصدر في محل جرٍّ بـ (عن) التقدير: عن عملكم.

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾

انظر شرح هذه الآية وإعرابها برقم [١٣٤]. وكرِّرت للمبالغة في التهديد، والتخويف، وللمبالغة في الزَّجر عمَّا هم فيه من الافتخار بالآباء، والاتكال على أعمالهم، والمعنى: إذا كان أولئك الأنبياء على إمامتهم، وفضلهم يجازون بكسبهم؛ فأنتم أحرى.

﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾ الجزء ٢

الشرح: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ...﴾ إلخ: السين: حرف استقبال، وهذه الآية نزلت قبل الآية رقم [١٤٤] الآتية، وهي مترتبة على ما يذكر فيها من تحويل القبلة إلى الكعبة المعظمة، فإذاً هي من

الإخبار بالغيب، والحكمة من الإخبار بما يقول قبل وقوعه توطين نفوس المؤمنين على الصبر؛ إذ المفاجأة بالمكروه أشد، وإعداد الجواب قبل الحاجة إليه أقطع للخصم، وأبلغ في الحجة، فقبل الرمي يراش السهم. وهذه الآية متقدِّمة في نظم القرآن، متأخرة في النزول عن الآية التي أشرت إليها، ويعزون هذا إلى ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وإلى غيره.

فمعنى: ﴿سَيَقُولُ...﴾ إلخ: أنَّهم يستمرُّون على هذا القول، وإن كانوا قد قالوه. وحكمة الاستقبال: أنهم كما قالوا ذلك في الماضي، منهم من يقوله أيضاً في المستقبل. انتهى ملخصاً من الجمل. هذا؛ و﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾ جمع: سفيه، وهو الجاهل، ضعيف الرأي، قليل المعرفة بالمنافع والمضار. وأصل السَّفه: الخفة، والرِّقة، من قولهم: ثوب سفيه: إذا كان خفيف النَّسج، والمراد: اليهود، والمنافقون. ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ﴾: ما صرفهم. ﴿عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾: التي كانوا يتوجهون إليها في صلاتهم، وهي بيت المقدس.

﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾: أي جميع جهاتها فهي ملك لله تعالى يتصرف فيها كيف يشاء. ﴿يَهْدِى﴾: يوجه، ويدل، ويرشد. ﴿مَن يَشَآءُ﴾: هدايته، وتوفيقه. ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ﴾: طريق. ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾: لا اعوجاج فيه، وانظر سورة (الفاتحة)؛ تجد ما يسرك، ويثلج صدرك.

هذا؛ وخرَّج البخاري ـ رحمه الله تعالى ـ عن البراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ: أن النبي ﷺ صلَّى إلى بيت المقدس ستة عشر، أو سبعة عشر شهراً، وكان يعجبه أن تكون قبلته قِبَل البيت، وأنه أول صلاة صلاها ـ أي: إلى الكعبة ـ العصر، وصلى معه قوم، فخرج رجل ممَّن كان صلى مع النبي ﷺ، فمرَّ على أهل المسجد، وهم راكعون، فقال: أشهد بالله، لقد صليت مع النبي ﷺ قِبَل مكة، فداروا، كما هم قِبَل البيت ففي هذه الرواية كانت الصلاة صلاة العصر، وفي رواية مالكٍ: صلاة الصبح، وقيل: صلاة الظهر. والمراد بأهل المسجد الذين مرَّ عليهم الرَّجل: أهل مسجد قباء. هذا؛ وقيل: نزل ذلك على النبي ﷺ في مسجد بني سلمة، وهو في صلاة الظهر بعد ركعتين منها، فتحول في الصلاة، فسمِّي ذلك المسجد مسجد القبلتين. وكان التحوُّل إلى الكعبة قبل موقعة بدر.

هذا واختلف في اتجاه النبي ﷺ في صلاته قبل الهجرة، فقالت طائفة: إلى بيت المقدس، وبالمدينة ستة عشر شهراً، ثم صرفه الله تعالى: إلى الكعبة. قاله ابن عباس رضي الله عنهما. وقال آخرون: أول ما فرضت عليه الصَّلاة إلى الكعبة، فلمَّا هاجر؛ أمر بالتوجُّه إلى بيت المقدس، ثمَّ صرفه الله إلى الكعبة، قال أبو عمر: وهذا أصح القولين عندي.

وقال أبو حاتم البستي: صلَّى المسلمون إلى بيت المقدس سبعة عشر شهراً وثلاثة أيام سواء، وذلك: أنَّ قدومه المدينة كان يوم الإثنين لاثنتي عشرة ليلةً خلت من شهر ربيع الأول،

وأمره الله عز وجل باستقبال الكعبة يوم الثلاثاء للنصف من شعبان. انتهى كلُّه من القرطبي بتصرُّفٍ كبيرٍ منِّي.

الإعراب: ﴿سَيَقُولُ﴾: السين: حرف استقبال. (يقول السُّفهاء): مضارع، وفاعله، والجملة الفعلية مستأنفةٌ لا محل لها. ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾: متعلقان بمحذوف حال من ﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾. ﴿مَا﴾: اسم استفهام مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿وَلَّىٰهُمْ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف للتعذر، والفاعل يعود إلى (ما)، تقديره: هو، والهاء مفعول به، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ...﴾ إلخ في محل نصب مقول القول. ﴿عَن قِبْلَتِهِمُ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، والهاء في محل جرٍّ بالإضافة. ﴿ٱلَّتِى﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل جر صفة: ﴿قِبْلَتِهِمُ﴾. ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ماض ناقص، والواو اسمه، والألف للتفريق، ﴿عَلَيْهَا﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر (كان)، وجملة: ﴿كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ صلة الموصول، لا محلَّ لها.

﴿قُل﴾: فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: أنت. ﴿لِّلَّهِ﴾: متعلقان بمحذوف خبر مقدَّم. ﴿ٱلْمَشْرِقُ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قُل لِّلَّهِ...﴾ إلخ، مستأنفة لا محلَّ لها. ﴿وَٱلْمَغْرِبُ﴾: معطوف على ما قبله. ﴿يَهْدِى﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء للثقل، والفاعل يعود إلى (الله). ﴿مَن﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل نصب مفعول به. ﴿يَشَآءُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى (الله)، والمفعول محذوف، أي: هدايته، وتوفيقه. والجملة الفعلية صلة: ﴿مَن﴾ أو صفتها، وجملة: ﴿يَهْدِى...﴾ إلخ في محل نصب حال من لفظ الجلالة، والرابط: الضمير فقط. وقيل: هي في محل نصب مقول القول، والأوَّل أقوى. ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾: صفة صراط.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾

الشرح: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: الإشارة إلى مفهوم الآية السابقة؛ أي: كما جعلناكم مهديِّين إلى الصِّراط المستقيم، أو جعلنا قبلتكم أفضل القبل؛ جعلناكم... إلخ ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾: خياراً، أو عدولاً مزكَّيين بالعلم، والعمل. وهو يستوي فيه المذكر، والمؤنث. ولمَّا جعل الله هذه الأمة

وسطاً؛ خصَّها بأكمل الشَّرائع، وأقوم المناهج، وأوضح المذاهب، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾، وفي سورة (ن): ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ أي: أعدلهم، وخيرهم، وقال زهير في معلقته: [الطويل]

هُم وَسَطٌ يَرْضَى الأَنَامُ بِحُكْمِهِمْ إِذَا نَزَلَتْ إِحْدَى اللَّيَالي بِمُعْظَمِ

وفي الحديث: «**خَيْرُ الأُمُورِ أَوْسَاطُهَا**». وفيه عن علي ـ رضي الله عنه ـ: «**عليكمْ بالنَّمطِ الأَوسطِ، فإليهِ ينزلُ العالي، وإليه يرتفع النَّازِلُ**». وليس من الوسط الذي بين شيئين في شيءٍ، والوسْط بسكون السين: الظرف، تقول: صَليت وسْط القوم، وجلست وسْط القوم. قال الجوهري: كل موضعٍ صلح فيه «بين» فهو وَسْط، وإن لم يصلح فيه «بين» فهو وَسَط بالتَّحريك. وانظر الآية رقم [٢٣٧] الآتية.

﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ هذا يكون يوم القيامة، يوم يجمع الله الأوَّلين والآخرين في صعيدٍ واحدٍ، ثم يقول لكفار الأمم السَّابقة: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ﴾ فينكرون، ويقولون: ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ فيسأل الله الأنبياء عن ذلك، فيقولون: كذبوا! قد بلغنا، فيسألهم البينة ـ وهو أعلم بهم ـ إقامةً للحجَّة، فيقولون: أمّة محمد ﷺ تشهد لنا، فيؤتى بأمة محمد، عليه الصلاة والسَّلام فيشهدون لهم: أنهم قد بلَّغوا، فتقول الأمم الماضية: من أين علموا، وإنَّما كانوا بعدنا؟ فيسأل الله هذه الأمَّة، فيقولون: أرسلت إلينا رسولاً كريماً، وأنزلت عليه كتاباً مبيناً، أخبرتنا فيه بتبليغ الرُّسل، وأنت صادقٌ فيما أخبرت. ثم يؤتى بمحمَّد سيِّد الخلق، وحبيب الحقِّ، فيسأل عن حال أمَّته، فيزكِّيهم ويشهد بصدقهم. انتهى. خازن.

﴿شُهَدَآءَ﴾: جمع شاهد، أو شهيد. ﴿ٱلرَّسُولُ﴾ المراد به هنا محمَّد ﷺ. ﴿ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ﴾ أي: أوَّلاً، وهي الكعبة المعظَّمة، وكان النبيُّ ﷺ يتوجَّه إليها في صلاته، وهو في مكَّة، كما رأيت فيما سبق، فلمَّا هاجر إلى المدينة المنوَّرة؛ أمره ربُّه باستقبال بيت المقدس، تألُّفاً لليهود، فصلَّى مستقبلاً إيَّاه، كما رأيت فيما سبق، ثمَّ حُوِّل، وهو ما تراه في الآية التالية. ﴿لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ...﴾ إلخ أي: لنمتحن به الناس، ونميِّز من يتَّبعك في التَّوجه إليها ممَّن يرتدُّ عن دينك شكَّاً، وتحيُّراً. وقد ارتدَّ جماعةٌ. هذا؛ والتعبير بقوله تعالى: ﴿يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ استعارة تمثيليةٌ؛ حيث مثَّل لمن يرتدُّ عن دينه بمن ينقلب على عقبيه. ومثل هذه الآية قولُه تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ الآية [١٤٠] من سورة (آل عمران)، وقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ الآية رقم [٣١] من سورة (محمد ﷺ).

﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ أي: وإنَّ هذا التوجه والتحويل إلى الكعبة كان امتحاناً كبيراً، وشاقَّاً على ضعفاء الإيمان، لكنَّ الذي كتب الله لهم السعادة ثبتهم على الإيمان،

واتِّباع الرسول ﷺ، فلم يرتابوا. هذا؛ واسم (كان) يعود إلى القبلة، أو التَّحويلة، أو التولية، فلذا أنث الفعل.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ أي: وما كان ليضيع ثواب صلاتكم إلى بيت المقدس. وذلك أنَّ بعض اليهود قالوا للمسلمين: أخبرونا عن صلاتكم إلى بيت المقدس: إن كانت على هدى؛ فقد تحوَّلتم عنه، وإن كانت على ضلالة؛ فقد دِنْتم الله بها مدَّةً، ومن مات منكم عليها؛ فقد مات على ضلالةٍ؟! فانطلق جماعة من المسلمين إلى النبيِّ ﷺ، فقالوا: يا رسول الله! قد صرفك الله إلى ملَّة إبراهيم، فكيف بإخواننا الذين ماتوا، وهم يصلُّون إلى بيت المقدس؟! فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾. انتهى جمل بتصرُّف.

هذا؛ وقد عبَّر الله تعالى عن الصَّلاة بالإيمان لعظم شأنها، وجلالة قدرها، وأنَّها قاعدة الإسلام، وروح الإيمان. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ الرأفة: شدة الرحمة، والعطف والحنان، وفي الصَّحيح: أنَّ رسول الله ﷺ رأى امرأة من السبي قد فُرِّق بينها وبين ولدها، فجعلت كلَّما وجدت صبيًّاً من السَّبي؛ أخذته، فألصقته بصدرها، وهي تدور على ولدها، فلمَّا وجدته؛ ضمَّته إليها، وألقمته ثَدْيَها، فقال رسول الله ﷺ: «**أَتَرَوْنَ هَذِهِ طارِحَةً وَلَدَها في النَّارِ؛ وَهيَ تَقْدِرُ عَلَى أَلا تَطْرَحه؟**». قالوا: لا يا رسول الله! قال: «**فو الله لله أرحم بعباده من هذه بولدها!**». وانظر ما ذكرته في الآية رقم [٢٠٦] فإنَّه جيِّد، والحمد لله!.

الإعراب: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: الواو: حرف عطف. (كذلك): جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لمفعول مطلق محذوف، عامله الفعل الذي بعده، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب لا محل له. ﴿جَعَلْنَٰكُمْ﴾: فعل وفاعل، ومفعول به أول. ﴿أُمَّةً﴾، مفعول به ثان. ﴿وَسَطًا﴾: صفة. ﴿أُمَّةً﴾ وجملة: ﴿وَكَذَٰلِكَ...﴾ إلخ: معطوفة على ما قبلها، انظر تأويل الكلام في الشرح. ﴿لِّتَكُونُوا۟﴾: فعل مضارع ناقص منصوب بـ «أن» مضمرة جوازاً بعد لام التعليل، وعلامة نصبه حذف النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة. والواو اسمه، والألف للتفريق. ﴿شُهَدَآءَ﴾: خبره. و«أن» المضمرة والفعل: (تكونوا) في تأويل مصدر في محل جر باللام، والجار والمجرور متعلقان بالفعل قبلهما، أي: جعلناكم لكونكم شهداء على الناس في المستقبل. ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾: متعلقان بـ ﴿شَهِيدًا﴾. ﴿وَيَكُونَ﴾: معطوف على ما قبله منصوب مثله. ﴿ٱلرَّسُولُ﴾: اسمه. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: متعلقان بـ ﴿شَهِيدًا﴾. و﴿شَهِيدًا﴾: خبر لـ (يكون).

﴿وَمَا﴾: الواو: حرف عطف. (ما): نافية. ﴿جَعَلْنَا﴾: فعل، وفاعل. ﴿ٱلْقِبْلَةَ﴾: مفعول به أول، والمفعول الثاني محذوف. ﴿ٱلَّتِى﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل نصب صفة ﴿ٱلْقِبْلَةَ﴾. ﴿كُنتَ﴾: فعل ماض ناقص مبني على السكون، والتاء اسمه. ﴿عَلَيْهَآ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر: ﴿كُنتَ﴾، والجملة الفعلية صلة: ﴿ٱلَّتِى﴾، وتقدير الكلام:

جعلنا القبلة التي كنت عليها قبلةً. ﴿إِلَّا﴾: حرف حصر لا محل له. ﴿لِنَعْلَمَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ «أن» مضمرة بعد لام التعليل، والفاعل مستتر تقديره: نحن. ﴿مَن﴾: مفعول به. وهي تحتمل الموصولة، والموصوفة. وجملة: ﴿يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ﴾ صلة ﴿مَن﴾ أو صفتها، و«أن» المضمرة، والفعل المضارع في تأويل مصدر في محل جر باللام، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف في محل نصب على الاستثناء؛ إذ المعنى: وما رددناك إلى القبلة الَّتي تحب أن تستقبلها، إلا امتحاناً للناس، وابتلاءً؛ لنعلم. . . . ﴿مِمَّن﴾: متعلقان بالفعل (نعلم) ويجوز تعليقهما بمحذوف حال من الفاعل المستتر، والأول أقوى. ﴿يَنقَلِبُ﴾ فعل مضارع، والفاعل يعود إلى (مَنْ)، والجملة الفعلية صلة (مَنْ) أو صفتها. ﴿عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، أو هما في محل نصب حال من الفاعل المستتر، التقدير: ينقلب مرتدّاً على عقبيه، وعلامة الجر الياء نيابة عن الكسرة؛ لأنه مثَّنى، وحذفت النون للإضافة، والهاء في محل جر بالإضافة، وجملة: (ما جعلنا. . .) إلخ معطوفة على ما قبلها، وإن اعتبرتها في محل نصب حال من (نا) الواقعة فاعلاً؛ فالمعنى لا يأباه، ويكون الرَّابط: الواو، والضمير، وهو (نا).

﴿وَإِن﴾: الواو: واو الحال. (إن): مخففة من الثقيلة مهملة لا عمل لها. ﴿كَانَتْ﴾: فعل ماض ناقص، والتاء للتأنيث حرف لا محل له، واسمها تقديره: هي، يعود إلى التولية المفهومة من الكلام السابق، أو إلى القبلة، والأول أقوى معنىً. ﴿لَكَبِيرَةً﴾: اللام: هي الفارقة بين «إن» النَّافية، والمخفَّفة المهملة. هذا؛ ويقول الكوفيون: إنَّ (إنْ) نافية بمعنى «ما» واللام بمعنى «إلَّا» وهو ضعيف جدّاً، وغير مسلَّم لهم. (كبيرة): خبر كانت. ﴿إِلَّا﴾: حرف حصر. ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ﴾: متعلقان بـ (كبيرة) أو بمحذوف صفة لها. ﴿هَدَى﴾: فعل ماض. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله، والجملة الفعلية صلة الموصول لا محل لها، والعائد محذوف، التقدير: على الذين هداهم الله، وجملة: ﴿وَإِن كَانَتْ...﴾ إلخ في محل نصب حال من التولية، أو من القبلة، والرابط: الواو، والضمير. وإن اعتبرتها معطوفة على ما قبلها؛ فلست مفنداً.

﴿وَمَا﴾: الواو: حرف عطف. (ما): نافية. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿ٱللَّهُ﴾: اسم ﴿كَانَ﴾. ﴿لِيُضِيعَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ «أن» مضمرة بعد لام الجحود، والفاعل يعود إلى ﴿ٱللَّهُ﴾ و«أن» المضمرة والفعل المضارع في تأويل مصدر في محل جر باللام، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر ﴿كَانَ﴾، التقدير: وما كان الله مريداً إضاعة إيمانكم، وجملة: (ما كان الله. . .) إلخ معطوفة على ما قبلها على الوجهين المعتبرين فيها. ﴿إِيمَـٰنَكُمْ﴾: مفعول به، والكاف: في محل جر بالإضافة.

﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿بِٱلنَّاسِ﴾: متعلقان بأحد الاسمين بعدهما على التنازع، ﴿لَرَءُوفٌ﴾: اللام: هي المزحلقة. (رؤوف رحيم) خَبَرانِ لـ ﴿إِنَّ﴾ والجملة الاسمية تعليل للنفي المتقدِّم لا محل لها.

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾

الشرح: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾: ذكرتُ لك: أن هذه مقدَّمة في النزول على الآية رقم [١٣٨]، ومعنى ﴿تَقَلُّبَ وَجْهِكَ﴾: تردُّد وجهك في جهة السماء تطلُّعاً للوحي، قال السُّدِّي: كان النبي ﷺ إذا صلى نحو بيت المقدس؛ رفع رأسه إلى السَّماء ينظر ما يؤمر به، وكان يحبُّ أن يصلي إلى قِبَل الكعبة. وخصَّ السماء بالذكر؛ إذ هي مختصة بتعظيم ما أضيف إليها، ويعود منها كالمطر، والرحمة، والوحي.

﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ﴾: فلنجعلنك تتوجه في صلاتك إلى الكعبة المعظمة، التي ﴿تَرْضَىٰهَا﴾: تحبُّها، وتتشوَّق بالاتجاه إليها. ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾: اصرف وجهك، وتوجَّه في صلاتك. ﴿شَطْرَ﴾: جهة. قال الشاعر: [الوافر]

أَقُــولُ لأُمِّ زِنْــبَــاعٍ أَقِــيــمِــي ... صُــدُورَ الْـعِـيْـسِ شَـطْـرَ بَـنِـي تَـمِـيـمِ

هذا؛ وشطر الشيء: نصفه، ومنه قول النبي ﷺ: «**الطُّهُور شَطْرُ الإِيْمَان**» وجمعه: أشطر، وشاطره ماله: إذا ناصفه إياه. والشَّاطر: المتصف بالدَّهاء، والمكر، والخُبث. والشَّطير: البعيد، والغريب، ومنه قول الشَّاعر، وهو الشَّاهد رقم [٢١] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»: [الرجز]

لَا تَـتْـرُكَـنِّـي فِـيـهِـمُـو شَـطِـيـرا ... إِنِّـي إِذَنْ أَهْـلِـكَ أَوْ أَطِـيـرَا

﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي: المُحرَّم فيه الظلم، والاعتداء، ولا يصاد صيدُه، ولا يُختلى خلاه، ومن دخله كان آمناً، والمراد بالمسجد الحرام الكعبة المعظمة، ويُطلق أيضاً على ما حولها مهما اتَّسع. ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ﴾: في أيِّ أرض، وفي أيِّ مكان من المعمورة. ﴿فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾: فتوجَّهوا في صلاتكم إليه، واجعلوه قبلتكم، والفعل منه من الأضداد يتغيَّر معناه بتغيُّر الجار. يقال: أشطر إلى كذا: إذا أقبل نحوه، وشطر عن كذا: إذا أبعد منه، وأعرض عنه، وانظر الآية رقم [١٣٠].

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾: المراد بهم اليهود الذين كانوا في عصره ﷺ. ﴿لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ...﴾ إلخ: ذلك؛ لأن من صفات النبي ﷺ في كتبهم: أنه يصلِّي إلى القبلتين: الكعبة، وبيت المقدس، ويستقر الأمر بالتوجُّه إلى الكعبة المعظمة. والضمير المتصل بـ: ﴿أَنَّهُ﴾ عائد إلى التوجُّه إلى الكعبة المفهوم من الكلام السابق. ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ...﴾ إلخ: انظر الآية رقم [١٤٠].

تنبيه: سبب نزول الآية الكريمة: أنَّ النبيَّ ﷺ بعد أن هاجر إلى المدينة المنورة أمره ربه أن يستقبل بيت المقدس في صلاته تأليفاً لليهود، فرضي، وأحبَّ، وامتثل، وصلَّى نحوه ستة عشر، أو سبعة عشر شهراً، ومع ذلك كان يحبُّ بطبعه أن يستقبل الكعبة؛ لأنَّها قبلة أبيه إبراهيم، وأقدم القبلتين، وأدعى للعرب إلى الإيمان، ولمخالفة اليهود اللُّؤماء؛ الذين ناصبوه العداء، فقال لجبريل عليه السلام: «**وَدِدْتُ لَوْ حَوَّلني اللهُ إلى الْكَعْبَةِ**» فقال جبريل عليه السلام: إنَّما أنا عبدٌ مثلك. وجعل عليه الصَّلاة والسلام يديم النظر إلى السَّماء رجاء أن ينزل جبريل عليه السلام بما يحبُّ من أمر القبلة، فأنزل الله تحقيقاً لأمنيته، واستجابةً لرغبته: ﴿قَدْ نَرَىٰ...﴾ إلخ. انتهى. خازن، وبيضاوي بتصرف. ورحم الله من يقول: [الكامل]

كَمْ لِلنَّبيِّ الْمُصطَفَى مِنْ آيةٍ غَرَّاءَ حَارَ الْفِكْرُ في مَعْنَاهَا
لَمَّا رَأَى الْبَارِي تَقَلُّبَ وَجْهِهِ وَلَّاهُ أَيْمَنَ قِبْلَةٍ يَرْضَاهَا

الإعراب: ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق، وقيل: هي حرف تكثير هنا. ﴿نَرَىٰ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف للتعذُّر، والفاعل مستتر تقديره: نحن، وهو بصري، اكتفى بمفعول واحد، وهو: ﴿تَقَلُّبَ﴾. و﴿تَقَلُّبَ﴾ مضاف، و﴿وَجْهِكَ﴾: مضاف إليه، من إضافة المصدر لفاعله، والكاف في محل جر بالإضافة ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾: متعلقان بالمصدر ﴿تَقَلُّبَ﴾. وأجيز أن يكونا متعلِّقين بمحذوف حال من: ﴿وَجْهِكَ﴾ أي: متطلِّعاً في السَّماء. والجملة الفعلية: ﴿قَدْ نَرَىٰ...﴾ إلخ هي في المعنى علَّة ثانية لقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا...﴾ إلخ في الآية السابقة.

﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ﴾: الفاء: حرف تفريع عما سبق. اللام: واقعة في جواب قسم محذوف. (نولينك): فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة؛ التي هي حرف لا محل لها، والكاف: مفعول به أول. ﴿قِبْلَةً﴾: مفعول به ثان، والفاعل: مستتر تقديره: نحن، والجملة الفعلية، لا محل لها؛ لأنها جواب القسم المحذوف، والقسم، وجوابه كلام مفرَّع عما قبله، لا محل له. ﴿تَرْضَىٰهَا﴾: (ترضى): فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف للتعذُّر، و(ها): مفعول به، والفاعل مستتر، تقديره: أنت، والجملة الفعلية في محل نصب صفة ﴿قِبْلَةً﴾ أي: قبلة مرضية عندك، أو لك.

﴿فَوَلِّ﴾ الفاء: هي الفصيحة، (وَلِّ): فعل أمر مبني على حذف حرف العلة من آخره، وهو الياء، والكسرة قبلها دليل عليها، والفاعل تقديره: أنت. ﴿وَجْهَكَ﴾: مفعول به، الكاف في محل جر بالإضافة. ﴿شَطْرَ﴾: ظرف مكان متعلق بالفعل قبله، وقيل: هو مفعول ثان: وهو مضاف، و﴿ٱلْمَسْجِدِ﴾: مضاف إليه. ﴿ٱلْحَرَامِ﴾: صفة المسجد، والجملة الفعلية: ﴿فَوَلِّ...﴾ إلخ

لا محل لها؛ لأنها جواب لشرط مقدر بـ «إذا» إذ التقدير: وإذا كان ذلك حاصلاً؛ فَوَلِّ... إلخ.

﴿وَحَيْثُ مَا﴾: الواو: حرف عطف. (حيثما): اسم شرط جازم مبني على السكون في محل نصب على الظرفية المكانية متعلِّق بمحذوف في محل نصب خبر لـ ﴿كُنتُمْ﴾ تقدَّم عليه. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ماض ناقص مبني على السكون في محل جزم فعل الشرط، والتاء اسمه. ﴿فَوَلُّوا۟﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (وَلُّوا): فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها ابتدائية، ويقال: لأنها شرط غير ظرفي. ﴿وُجُوهَكُمْ﴾: مفعول به، والكاف في محل جر بالإضافة، ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفي. ﴿شَطْرَهُۥ﴾: ظرف مكان متعلق بالفعل قبله، وقيل: مفعول به ثان، والهاء في محل جر بالإضافة، ﴿وَحَيْثُ مَا...﴾ إلخ ومدخولها كلام معطوف على الشرط المقدَّر السابق، ومدخوله، لا محل له مثله. ﴿وَإِنَّ﴾: الواو: واو الحال، (إنَّ) حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل نصب اسمها. ﴿أُوتُوا۟﴾ : فعل ماض مبني للمجهول، مبني على الضم، والواو: نائب فاعله، وهو المفعول الأول، والألف للتفريق، ﴿ٱلْكِتَـٰبَ﴾: مفعول به ثان، والجملة الفعلية صلة الموصول لا محل لها. ﴿لَيَعْلَمُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع... إلخ، والواو فاعله، واللام هي المزحلقة. ﴿أَنَّهُ﴾: حرف مشبه بالفعل، والهاء اسمها. ﴿ٱلْحَقُّ﴾: خبر (أنَّ)، والمصدر المؤول من (أنَّ) واسمها، وخبرها في محل نصب سدَّ مسدَّ مفعولي (يعلمون)، ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾: متعلقان بمحذوف حال من الحق، والجملة الفعلية: ﴿لَيَعْلَمُونَ...﴾ إلخ في محل رفع خبر (إنَّ) والجملة الاسمية: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ...﴾ إلخ في محل نصب حال من التوجه إلى الكعبة المفهوم من الكلام السابق، والرابط: الواو، والضمير. ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾: انظر إعراب هذه الكلمات في الآية رقم [١٤٠].

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾

الشرح: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ...﴾ إلخ أي: وعزتي، وجلالي لئن جئت اليهود، والنَّصارى بكلِّ معجزةٍ، وبرهانٍ، وحجَّةٍ على صدقك في أمرِ القبلة، وغيره ممَّا بعثك الله به؛ ما اتبعوك يا محمد! ولا صلَّوا إلى قبلتك! فهو قطع لأمل الرسول ﷺ في إيمانهم؛ لأنهم لم يتركوا الإيمان لشبهة تزيلها الحجَّة، وإنما كفروا مكابرةً، وعناداً. ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾: هذا قطع

لأطماعهم، فإنَّهم قالوا: لو ثبت على قبلتنا؛ لكنا نرجو: أنه صاحبنا الَّذي ننتظره. وهم كاذبون في قولهم هذا.

﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ أي: إنَّ اليهود لا يصلُّون إلى قبلة النَّصارى، وهي مشرق الشَّمس، وإن النَّصارى لا يصلون إلى قبلة اليهود، وهي بيت المقدس، فهذا إعلام باختلافهم، وتدابرهم، وضلالهم. ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم...﴾ إلخ: هذا على سبيل الفرض، والتقدير. ومحال أن يتَّبع الرَّسول ﷺ آراءهم الزائفة! ومثله في الآية رقم [١٢٠]. ﴿إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: لأنفسهم باتِّباع ما لم يأذن به الله.

الإعراب: ﴿وَلَئِنْ﴾: الواو: حرف عطف. اللام: موطئة لقسم محذوف. (إنْ): حرف شرط جازم. ﴿أَتَيْتَ﴾: فعل ماض مبني على السكون في محل جزم فعل الشرط، والتاء فاعله. ﴿الَّذِينَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية: ﴿أُوتُوا الْكِتَابَ﴾: صلة ﴿الَّذِينَ﴾. ﴿بِكُلِّ﴾ متعلقان بالفعل ﴿أَتَيْتَ﴾، و(كل) مضاف، و﴿آيَةٍ﴾ مضاف إليه، وجملة: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ﴾ لا محل لها لأنها ابتدائية، ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفي. ﴿مَّا﴾: نافية. ﴿تَبِعُوا﴾: فعل ماض مبني على الضم، والواو فاعله. ﴿قِبْلَتَكَ﴾: مفعول به، والكاف: في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية جواب القسم المحذوف لا محل لها، وجواب الشرط محذوف لدلالة جواب القسم عليه على القاعدة: «إذا اجتمع شرط وقسم فالجواب للسابق منهما». قال ابن مالك رحمه الله تعالى في ألفيته: [الرجز]

وَاحْذِفْ لَدَى اجْتِمَاعِ شَرْطٍ وقَسَمْ جَوَابَ مَا أَخَّرْتَ فَهْوَ مُلْتَزَمْ

والجملة القسمية، والشرطية كلتاهما معطوفتان على جملة: (حيثما...) إلخ في الآية السابقة، والاستئناف ممكن بالإعراض عن الكلام السابق. ﴿وَمَا﴾: الواو: حرف عطف. (ما): نافية حجازية تعمل عمل «ليس». ﴿أَنتَ﴾: ضمير منفصل مبني على الفتح في محل رفع اسم (ما). ﴿بِتَابِعٍ﴾: الباء حرف جر صلة. (تابع): خبر (ما) منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدَّرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد، وفاعله مستتر فيه تقديره: أنت. ﴿قِبْلَتَهُمْ﴾: مفعول به لـ (تابع)، والهاء في محل جر بالإضافة، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة الشرطية، وإعراب: ﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ مثلها، وهي أيضاً معطوفة على ما قبلها، ولا يخفى عليك بعدما تقدم إعراب: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم﴾. ﴿مِّن بَعْدِ﴾: متعلقان بالفعل: ﴿اتَّبَعْتَ﴾، و﴿بَعْدِ﴾ مضاف، و﴿مَا﴾ اسم موصول مبني على السكون في محل جر بالإضافة. ﴿جَاءَكَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى: ﴿مَا﴾، والكاف مفعول به، والجملة الفعلية صلة: ﴿مَا﴾. ﴿مِنَ الْعِلْمِ﴾: متعلقان بمحذوف حال من فاعل: ﴿جَاءَكَ﴾ المستتر، و﴿مِنَ﴾ بيان لما أبهم في: ﴿مَا﴾. ﴿إِنَّكَ﴾: حرف مشبه بالفعل

والكاف اسمه. ﴿إِذًا﴾: حرف جواب، وجزاء، لا عمل له هنا. هذا؛ وإن اعتبرته ظرفاً متعلقاً بـ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بعده؛ فلست مفنداً. ﴿لَّمِنَ﴾: اللام: هي المزحلقة. (من الظالمين): متعلقان بمحذوف خبر (إن)، التقدير: إنك لكائن من الظالمين حينئذٍ، والجملة الاسمية جواب القسم المدلول عليه باللام الموطئة، وجواب الشرط محذوف لدلالة جواب القسم عليه، وهذا الكلام معطوف على سابقه.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾

الشرح: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾: هم اليهود، والنَّصارى، والمراد: علماؤهم. ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾: الضمير يعود لرسول الله ﷺ وإن لم يسبق له ذكر؛ لدلالة الكلام عليه، وعدم اللَّبس. ويقال: بل سبق ذكره بلفظ الرسول مرَّتين، ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ يعرفونه بأوصافه كمعرفتهم أبناءهم، وذلك بنعته في كتبهم. قال عبد الله بن سلام ـ رضي الله عنه ـ: لقد عرفت محمَّداً كما أعرف ابني، ومعرفتي لمحمد أشدُّ، فقال له عمر ـ رضي الله عنه ـ: ولم؟ قال: لأنِّي لست أشكُّ في محمَّدٍ: أنه نبيٌّ، فأمَّا ولدي، فلعل والدته قد خانت، فقبَّل رأسه، وفي رواية: أنَّ عمر ـ رضي الله عنه ـ قال لعبد الله بن سلام ـ رضي الله عنه ـ: أتعرف محمداً ﷺ، كما تعرف ابنك؟ قال: نعم، وأكثر! بعث الله أمينه في سمائه إلى أمينه في أرضه بنعته، فعرفته، وابني لا أدري ما كان من أمِّه. وإنَّما خصَّ الأبناء بالذِّكر دون البنات؛ لأنَّ الذكور أشهر، وأعرف، وهم لصحبة الآباء ألزم، وبقلوبهم ألصق. انتهى كشاف.

﴿وَإِنَّ فَرِيقًا﴾: جماعة من اليهود، والنصارى، والمراد رؤساهم، وعلماؤهم. ﴿لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ﴾: ليخفون، وينكرون صفات النَّبيِّ ﷺ الموجودة في التوراة، والإنجيل، وهم يعلمون: أنَّ كتمان الحق، ونكرانه معصيةٌ من أعظم المعاصي، وهو ظاهر في صحة الكفر عناداً، ومثله قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

عن عطاء بن يسار ـ رحمه الله تعالى ـ قال: لقيت عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ، فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة، فقال: «**أجلْ، والله إنَّه لموصوفٌ في التَّوراة بصفته في القرآن: يا أيها النبي إنا أرْسَلْنَاكَ شاهداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً، وَحِرْزاً للأُميِّين، أنتَ عبدي ورسولي، سمَّيتُكَ المتوكل؛ ليس بفظٍّ ولا غليظٍ، ولا سخَّابٍ في الأسواق، ولا يدفعُ بالسَّيئةِ السَّيئةَ، ولكنْ يعفُو، ويغفرُ، وَلَنْ يقبِضَه الله حتَّى يقيمَ به الملَّةَ العوجاءَ، بأن يقولُوا: لا إلٰه إلا اللهُ، ويُفتحُ بها أعينٌ عميٌّ، وآذانٌ صُمٌّ، وقلوبٌ غُلفٌ**». رواه البخاريُّ، وأحمد.

الإعراب: ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ. ﴿ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ﴾: فعل ماض، وفاعله، ومفعولاه، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محلَّ لها.

﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾: مضارع، وفاعله، ومفعوله، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، هذا؛ ويجوز اعتبار الموصول صفة لـ ﴿ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أو بدلاً منه، وعليه فجملة: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾ في محل نصب حال من الضمير المنصوب، والرابط: الضمير فقط ﴿كَمَا﴾: الكاف: حرف تشبيه وجر. (ما): مصدرية. ﴿يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾: فعل مضارع، وفاعله، ومفعوله، والهاء في محلِّ جرٍّ بالإضافة، و(ما) المصدرية، والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بالكاف، والجار، والمجرور متعلقان بمحذوف صفة لمفعول مطلق محذوف، التقدير: يعرفونه معرفة كائنةً مثل معرفتهم أبناءهم... إلخ. وانظر: ﴿كَمَا سُئِلَ﴾ في الآية رقم [١٠٨].

﴿وَإِنَّ﴾: الواو: واو الحال. (إنَّ): حرف مشبه بالفعل. ﴿فَرِيقًا﴾: اسمها. ﴿مِّنْهُمْ﴾: متعلقان بـ ﴿فَرِيقًا﴾: أو بمحذوف صفة له. ﴿لَيَكْتُمُونَ﴾: اللام: هي المزحلقة. (يكتمون): مضارع، وفاعله. ﴿ٱلْحَقَّ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل رفع خبر (إنَّ)، والجملة الاسمية: ﴿وَإِنَّ...﴾ إلخ في محل نصب حال من واو الجماعة، والرابط: الواو والضمير. ﴿وَهُمْ﴾: الواو: واو الحال. (هم): ضمير منفصل مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. وجملة ﴿يَعْلَمُونَ﴾ مع المفعول المقدر في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل نصب حال من واو الجماعة؛ التي هي فاعل (يكتمون) فهي حال متداخلة، والرابط: الواو، والضمير.

﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾

الشرح: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾: الخطاب للنبي ﷺ، والمعنى: ما أنت عليه يا محمد من الهدى، والنور إنما هو الحقُّ، ومن ذلك استقبال الكعبة، لا ما أخبرك به اليهود من استقبال بيت المقدس. ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾: الشَّاكين في الذي أنت عليه، وهذا على سبيل الفرض، والتقدير؛ لأنه من المحال أن يشكَّ النَّبيُّ ﷺ، فيما أنزل إليه من ربه، هذا؛ وقيل: الخطاب للنبي ﷺ، والمراد أمته؛ لأن النهي المذكور محال في حقه ﷺ.

وحاصل الجواب: أن متعلَّق الامتراء هو علم أهل الكتاب بحقيَّة القرآن، وهو أحد الأجوبة في الكشاف. والثاني: أنه من باب التهييج، والتَّحريض على الأمر. والامتراء: الشك، ومنه المراء، والتماري، والمماراة؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ منهم يشك في قول صاحبه. وانظر مثل هذه الآية في مماراة النَّصارى لسيِّد الخلق في شأن عيسى في الآية رقم [٦٠] من سورة (آل عمران).

الإعراب: ﴿ٱلْحَقُّ﴾: مبتدأ. ﴿مِن رَّبِّكَ﴾: متعلقان بمحذوف في محل رفع خبره، والكاف في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. هذا؛ وجوز أن يكون

﴿ٱلْحَقُّ﴾ مبتدأ، وخبره محذوفاً؛ أي: الحقُّ من ربك يعرفونه، فيكون الجار والمجرور متعلقين بمحذوف حال من: ﴿ٱلْحَقُّ﴾ وهو ضعيف كما ذكرته فيما مضى. هذا؛ وقرئ بنصب (الحقَّ)، وخرج على وجوهٍ: على أنَّه منصوب بـ ﴿يَعْلَمُونَ﴾، أو على تقدير: الزم الحق، أو على اعتباره بدلاً من سابقه. ﴿فَلَا﴾: الفاء: هي الفصيحة. (لا): ناهية. ﴿تَكُونَنَّ﴾: فعل مضارع ناقص مبني على الفتح في محل جزم بلا الناهية، والنون حرف لا محل له، اسمه ضمير مستتر تقديره: أنت. ﴿مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾: متعلقان بمحذوف خبر: ﴿تَكُونَنَّ﴾ والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها جواب الشرط المحذوف المقدر بـ «إذا»، والشرط المقدر، ومدخوله كلام مستأنف لا محل له فيما يظهر.

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾﴾

الشرح: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ﴾: أي: لكلِّ فريق من المسلمين، واليهود، والنصارى. وجهته. والقياس: جهة، مثل: زِنة، وعِدة، وقد جاء على الأصل المتروك في عِدَة، وزنَةٍ. هذا؛ وقيل: سلمت الواو في ﴿وِجْهَةٌ﴾ للفرق بين عِدَة، وزنة؛ لأنَّ «جهة» ظرف، وتلك مصادر، ومعنى ﴿وِجْهَةٌ﴾: قبلة يتَّجه إليها في صلاته، فقبلة المسلمين الكعبة، وقبلة اليهود بيت المقدس، وقبلة النَّصارى مشرق الشمس. ﴿هُوَ﴾: في هذا الضمير وجهان: أحدهما هو ضمير اسم الله، والثَّاني: هو ضمير (كُلٍّ) فعلى الأولى المعنى: الله موجِّه من يشاء إلى الجهة التي يشاؤها، وعلى الثاني المعنى: صاحب القبلة مولِّيها نفسه.

﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ أي: سارعوا، وبادروا، وتنافسوا في الخيرات، وهي الطَّاعات. قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ...﴾ إلخ، وقال جلَّ ذكره: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ...﴾ إلخ، ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾.

﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾: أي: يجمعكم يوم القيامة للحساب، والجزاء، فيجازيكم بأعمالكم، والله قادرٌ مقتدر، لا يعجزه شيء. هذا؛ والرسول ﷺ حثنا كذلك على المُسابقة في الأعمال الصالحات، والمسابقة إلى الخيرات قبل فوات الأوان، وضياع الفرص، فقال: «**بَادِرُوا بالأَعْمَالِ فِتناً كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِم، يُصبِحُ الرَّجلُ مُؤْمِناً، وَيُمْسِي كافِراً، أَو يُمْسِي مُؤْمِناً، وَيُصْبِحُ كَافِراً، يَبِيعُ دِينهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا**». أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه. فالله ورسوله لم يحثَّا العباد على جمع الدُّنيا، والركض فيها، والتَّفاني في جمع حطامها الفاني، بل حثَّا على المسابقة على الطَّاعات، والمسارعة إلى الأعمال الصَّالحات.

الإعراب: ﴿وَلِكُلٍّ﴾: الواو: حرف استئناف. (لكلٍّ): جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدَّم. ﴿وِجْهَةٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها. ﴿هُوَ﴾: ضمير منفصل مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ. ﴿مُوَلِّيهَا﴾: خبره مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء للثقل، و(ها): في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله الأول، وفاعله مستتر فيه، والمفعول الثاني محذوف؛ إذ التقدير: موليها ذلك الفريق بأمره. وهذا على اعتبار: ﴿هُوَ﴾: ضمير اسم الله، وأما على الاعتبار الثاني فيه، فالتقدير: ﴿هُوَ﴾ أي: الفريق مولِّي الوجهة نفسه، وهذا أقوى من الأول، ويؤيده قراءة: (هو مُولَّاها) بفتح اللام، وصيغة المفعول. فنائب الفاعل ـ وهو المفعول الأول ـ يعود إلى كل فريق، و(ها): مفعوله الثاني، والجملة الاسمية: ﴿هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ في محل رفع صفة: ﴿وِجْهَةٌ﴾. هذا؛ وقال مكيٌّ: واللام في (لكلٍّ) متعلق بـ: (مولي)، وهي زائدة.

﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾: الفاء: هي الفصيحة. ﴿الْخَيْرَاتِ﴾: منصوب بنزع الخافض، والناصب له عند البصريين النزع، وعند الكوفيين الفعل، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها جواب شرط غير جازم، التقدير: وإذا كان ذلك واقعاً، وحاصلاً؛ فاستبقوا الخيرات. ﴿أَيْنَ مَا﴾: اسم شرط جازم مبني على السكون، وبعضهم يعتبر (ما) زائدة. فيكون مبنيّاً على الفتح، وهو في محل نصب على الظرفية المكانية، متعلق بمحذوف في محل نصب خبر ﴿تَكُونُوا﴾؛ لأنه ناقص، وهو فعل الشرط مجزوم، وعلامة جزمه حذف النون... إلخ، والواو اسمه، والألف للتفريق، والجملة الفعلة ابتدائية لا محل لها بمفردها. ﴿يَأْتِ﴾: فعل مضارع جواب الشرط مجزوم، وعلامة جزمه حذف حرف العلة، ومتعلقه محذوف. انظر الشرح. والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها جملة جواب الشرط، ولم تقترن بالفاء، ولا بـ «إذا» الفجائية، والشرط ومدخوله كلامٌ مستأنف لا محل له من الإعراب. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: إعراب هذه الجملة واضح إن شاء الله تعالى، وهي تعليلٌ لمدخول الشرط.

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾﴾.

الشرح: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ أي: من أيِّ مكان خرجت للسَّفر، وفي أيِّ مكان كنت فيه. ﴿وَإِنَّهُ﴾ أي: التوجه إلى الكعبة حيثما وجد المسلم. وكرَّر الأمر بالتوجه إلى الكعبة، لتأكيد أمر القبلة، وتشديده، لأنَّ النَّسخ من مظانِّ الفتنة، والشبهة، فكرَّر عليهم ليثبتوا، على أنَّه نيط بكلِّ واحدٍ ما لم يُنط بالآخر، فاختلَفت فوائدها. انتهى. نسفي. ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ...﴾ إلخ: انظر الآية رقم [١٤٠] ويقرأ: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ بالياء، والتاء.

الإعراب: ﴿وَمِنْ﴾: الواو: حرف استئناف. (مِنْ): حرف جر. ﴿حَيْثُ﴾: اسم مبني على الضم في محل جر بـ (مِنْ)، والجار والمجرور متعلقان بالفعل: (وَلِّ) الآتي. ﴿خَرَجْتَ﴾ فعل

وفاعل، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة ﴿حَيْثُ﴾ إليها. ﴿فَوَلِّ﴾: الفاء: حرف جر صلة، وإن اعتبرتها حرفاً أصليّاً دالّاً على الاستئناف؛ فالواو تكون زائدة. (ولِّ): فعل أمر مبني على حذف حرف العلة من آخره، وهو الياء، والكسرة قبلها دليل عليها، الفاعل مستتر تقديره: أنت. ﴿وَجْهَكَ﴾: مفعول به أوَّل، والكاف في محل جر بالإضافة. ﴿شَطْرَ﴾: ظرف مكان متعلق بالفعل قبله، وقيل: هو مفعول ثان، وهو مضاف، و﴿ٱلْمَسْجِدِ﴾ مضاف إليه. ﴿ٱلْحَرَامِ﴾: صفة: ﴿ٱلْمَسْجِدِ﴾، والجملة الفعلية: (ولِّ...) إلخ مستأنفة لا محلَّ لها. هذا؛ وهناك أوجهٌ أخر في إعراب ما تقدَّم، فبعضهم يعتبر ﴿حَيْثُ﴾ شرطاً يحتاج إلى فعل شرط، وجواب، والفعل ﴿خَرَجْتَ﴾ شرطه، وجملة ﴿فَوَلِّ﴾ جوابه، وهذا غير مسلَّم؛ لأنه يشترط أن تتصل (ما) بـ ﴿حَيْثُ﴾ لتكون من أدوات الشرط الجازمة، وبعضهم يعلق: ﴿وَمِنْ حَيْثُ﴾ بفعل محذوف عطف عليه: ﴿فَوَلِّ﴾، والتقدير: ومن حيث خرجت افعل ما أمرت به فول... إلخ، وهذا ظاهر فيه التكلف. فالوجه ما ذكرته أولاً. والله أعلم.

﴿وَإِنَّهُۥ﴾: الواو: واو الحال، (إنه): حرف مشبه بالفعل، والهاء اسمه. ﴿لَلْحَقُّ﴾: اللام: هي المزحلقة. (الحق): خبر (إنَّ)، والجملة الاسمية في محل نصب حال من التوجه المفهوم من الكلام السابق، وهو أقوى من الاستئناف، والعطف لا وجه له هنا، والرابط: الواو، والضمير. ﴿مِن رَّبِّكَ﴾: متعلقان بمحذوف حال من: (الحق)، والكاف في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿وَمَا﴾: الواو: حرف عطف. (ما): نافية حجازية تعمل عمل «ليس»، ﴿ٱللَّهُ﴾: اسمها. ﴿بِغَٰفِلٍ﴾: الباء حرف جر صلة. (غافل): خبر (ما) منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على آخره، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد، وفاعله مستتر فيه، والجملة الاسمية معطوفة على (ما) قبلها، فهي في محل نصب حال مثلها. ﴿عَمَّا﴾: جار ومجرور متعلقان بـ (غافل)، و(ما) تحتمل الموصولة، والموصوفة، والمصدرية. فعلى الأولين مبنية على السكون في محل جر بـ (عن)، والجملة بعدها صلتها، أو صفتها، والعائد، والرابط محذوف، التقدير: عن الذي، أو: عن شيء تعملونه، وعلى اعتبارها مصدرية تؤول مع الفعل بعدها بمصدر في محل جر بـ (عن) التقدير: بغافل عن عملكم.

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾

الشرح: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ...﴾ إلخ: هذا أمر ثالث من الله تعالى باستقبال المسجد الحرام من جميع أقطار الأرض. وقد اختلفوا في حكمة هذا التّكرار ثلاث مرّات، فقيل: تأكيدٌ

لأنه أول ناسخ وقع في الإسلام على ما نصَّ عليه ابن عباس، وغيره، وقيل: بل هو منزل على أحوال، فالأول: لمن شاهد الكعبة، والأمر الثاني: لمن هو في مكة غائباً عن الكعبة، والأمر الثالث: لمن هو في بقية البلدان. هكذا وجهه فخر الدين الرازي. وقال القرطبي: الأول: لمن هو في مكة، والثاني: لمن هو في بقيَّة الأمصار، والثالث: لمن خرج في الأسفار.

﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾: المراد بهم اليهود، فإنَّهم يعلمون من صفة هذه الأمَّة التوجُّه إلى الكعبة، فإن فقدوا ذلك من صفتها؛ ربما احتجُّوا بها على المسلمين، ولئلا يحتجُّوا بموافقة المسلمين إيَّاهم في التوجُّه إلى بيت المقدس. وقال أبو العالية: يعني به أهل الكتاب حين قالوا: صُرِف محمدٌ إلى الكعبة، وقالوا: اشتاق الرجل إلى بيت أبيه، ودين قومه، وكانت حجَّتهم على النبي ﷺ انصرافه إلى البيت الحرام، أن قالوا: سيرجع إلى ديننا، كما رجع إلى قبلتنا.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ أي: إلا المعاندين منهم: اليهود، والمشركون، فاليهود قالوا: ما تحوَّل محمد إلى الكعبة إلا ميلاً إلى دين آبائه، وحبّاً لبلده. والمشركون قالوا: رجع محمَّد إلى قبلة إبراهيم، وسيرجع إلى دين آبائه، وأجداده. وجواب الجميع: أن الله تعالى اختار له التوجه إلى بيت المقدس أولاً، لما له تعالى في ذلك من الحكمة، فأطاع ربَّه تعالى في ذلك، ثمَّ صرفه إلى قبلة إبراهيم، وهي الكعبة، فامتثل أمر الله تعالى في ذلك أيضاً، فهو ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ مطيعٌ لله في جميع أحواله، لا يخرج عن أمر الله تعالى طرفة عين، وأمته تبع له.

ذكر الأخفش، والفرَّاء، وأبو عبيدة، ومعمر بن المثنى: أنَّ «إلَّا» تأتي عاطفة بمنزلة الواو في التَّشريك في اللفظ، والمعنى، وجعلوا منه: ﴿إِلَّا﴾ في هذه الآية، والآية رقم [١١] من سورة النَّمل، وتأولهما الجمهور على الاستثناء المُنقَطِع، وخذ قول الفرزدق: [البسيط]

مَا بِالْمَدِينَةِ دارٌ غَيْرُ وَاحِدَةٍ دَارُ الْخَلِيفَةِ إِلَّا دَارُ مَرْوَانَا

فالعطف فيهِ ظَاهر، وأيضاً قول الآخر: [الكامل]

وَأَرَى لَهَا دَاراً بِأَغْدِرَةِ الـ ـسِّيدانِ لَمْ يَدْرُسْ لَهَا رَسْمُ
إِلَّا رَمَاداً هَامِداً دَفَعَتْ عَنْهُ الرِّيَاحَ خَوَالِدٌ سُحْمُ

هذا؛ والمراد بحجَّتهم الاعتراض، والمجادلة بالباطل، لا الحجَّة حقيقة، والمجادلة الباطلة قد تسمَّى حجة، كقوله تعالى: ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ لشبهها لها صورةً، وسمَّاها الله تعالى حجَّةً، وحكم بفسادها حيث كانت من ظَلَمةٍ. والمعنى: لا حجة لأحد عليكم إلا الحجة الداحضة؛ حيث قالوا: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا﴾، وتحيَّر محمَّد في دينه، وما توجه إلى قبلتنا إلا أنا كنا أهدى منه، وغير ذلك من الأقوال التي لم تصدر إلا من عابد وثنٍ، أو من يهوديٍّ، أو منافق.

﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾: فلا تخافوا جدالهم في التوجُّه إلى الكعبة. ﴿وَٱخْشَوْنِي﴾: خافوني بامتثال أمري، واجتناب نهيي، هذا؛ والماضي: خشي، والمصدر خشيةً، والرَّجل خَشْيَانُ، والمرأة خشيَا، وهذا المكان أَخْشَى من ذاك، أي: أشد خوفاً، وقد يأتي خَشِي بمعنى: علم القلبيَّة، قال الشاعر المُسلم: [الكامل]

وَلَقَدْ خَشِيتُ بِأَنَّ مَنْ تَبِعَ الْهُدى سَكَنَ الْجِنَانَ مَعَ النَّبِيِّ مُحَمَّدِ

قالوا: معناه: علمت، وقوله تعالى في سورة (الكهف) حكايةً عن قول الخَضِر: ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَنًا وَكُفْرًا﴾. قال الأخفش: معناه: كرهنا. هذا؛ والخشية أصلها: طمأنينة في القلب تبعث على الترقِّي. والخوف: فزع القلب تخفُّ له الأعضاء، ولخفة الأعضاء سمِّي خوفاً.

﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ أي: بالهداية، والتوفيق إلى القيام بما آمركم به، والابتعاد عمَّا أنهاكم عنه، وأيضاً بالرِّضا، والتسليم، والاستسلام لكلِّ ما شرعتُ من الأحكام، من تغييرٍ، وتبديلٍ، وناسخٍ، ومنسوخ من التعاليم. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾: تُوفَّقون إلى الحق. وإلى ما ضلَّت عنه الأمم، وهديناكم إليه، وخصصناكم به، وبهذا كانت هذه الأمَّة أشرف الأمم، وأفضلها.

الإعراب: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾: هو مثل الآية السابقة بلا فارقٍ، وهي معطوفة عليها، ومؤكِّدة لها. ﴿وَحَيْثُ مَا﴾: الواو: حرف عطف. (حيثما): اسم شرط جازم مبني على السكون في محل نصب على الظرفية المكانية.

وبعضهم يقول: مبني على الضمِّ على اعتبار (ما) زائدة، متعلق بمحذوف في محل نصب خبر لـ ﴿كُنتُمْ﴾ تقدَّم عليه. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ماض ناقص مبني على السكون في محل جزم فعل الشرط، والتاء اسمه. ﴿فَوَلُّوا۟﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (ولوا): فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿وُجُوهَكُمْ﴾: مفعول به، والكاف في محل جر بالإضافة. ﴿شَطْرَهُۥ﴾: ظرف مكان متعلق بالفعل قبله، وقيل: مفعول به ثان، والهاء في محل جر بالإضافة، والجملة الشرطية معطوفة على ما قبلها، والجملة الفعلية: (ولوا...) إلخ في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور، والدُّسوقي يقول: لا محل لها من الإعراب؛ لأنها لم تحل محل المفرد.

﴿لِئَلَّا...﴾ إلخ: اللام: حرف تعليل وجر. (أن): حرف مصدري ونصب مدغم في (لا) النافية. ﴿يَكُونَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ «أَنْ». ﴿لِلنَّاسِ﴾: متعلقان بمحذوف خبر ﴿يَكُونَ﴾ مقدم. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بالخبر المحذوف المقدَّم. أو هما متعلقان بمحذوف حال من ﴿حُجَّةٌ﴾ كان صفة له، فلما قدم عليه صار حالاً على القاعدة: «نعت النكرة إذا تقدم عليها صار حالاً»، ﴿حُجَّةٌ﴾: اسم ﴿يَكُونَ﴾ مؤخر، و«أن» والفعل: ﴿يَكُونَ﴾ في تأويل مصدر في محل جر باللام، والجار والمجرور متعلقان بفعل محذوف، التقدير: فعلنا ذلك لقطع حجة

الناس عليكم. وهذا الكلام مستأنف مبين لحكمة التوجه إلى الكعبة المشرفة. ﴿إِلَّا﴾ حرف استثناء ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل نصب على الاستثناء من (النَّاس)، وجملة: ﴿ظَلَمُواْ﴾: صلة الموصول، لا محل لها. ﴿مِنْهُمْ﴾: متعلقان بما قبلهما، أو هما متعلقان بمحذوف حال من واو الجماعة، و(من) بيان للموصول.

﴿فَلَا﴾: الفاء: هي الفصيحة فيما أرى، ويعتبرها ابن هشام للسببية المحضة، ومن يجيز عطف الإنشاء على الخبر يعتبرها عاطفة. (لا): ناهية جازمة. ﴿تَخْشَوْهُمْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ (لا)، وعلامة جزمه حذف النون، والواو فاعله، والهاء مفعول به، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، ولا محل لها على جميع الوجوه المعتبرة بالفاء. ﴿وَٱخْشَوْنِي﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والنون للوقاية، وياء المتكلم مفعول به، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها.

﴿وَلِأُتِمَّ﴾: فعل مضارع منصوب بـ «أن» مضمرة بعد لام التعليل، والفاعل مستتر تقديره: أنا، و«أن» المضمرة والفعل المضارع في تأويل مصدر في محل جر باللام، والجار والمجرور معطوفان على قوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ...﴾ إلخ. وقال الزجاج: متعلقان بفعل محذوف، التقدير: ولأتم نعمتي عليكم عرفتكم نعمتي، فهما متعلقان بـ «عرفتكم». ﴿نِعْمَتِي﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم، منع من ظهورها اشتغال المحل بالحركة المناسبة، والياء ضمير متصل في محل جر بالإضافة. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل (أُتِمَّ).

﴿وَلَعَلَّكُمْ﴾: حرف مشبه بالفعل، والكاف اسمها. ﴿تَهْتَدُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون... إلخ، والواو فاعله، والمتعلق محذوف، كما رأيت في الشرح، والجملة الفعلية في محل رفع خبر (لعلَّ)، والجملة الاسمية معطوفة على (ما) قبلها، فهي تعليل ثالث لقطع حجَّة الناس عليكم.

﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾

الشرح: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا﴾: انظر الإعراب لربطه بما قبله. أو بما بعده. ﴿فِيكُمْ﴾: الخطاب للعرب. ﴿رَسُولًا﴾: هو محمد ﷺ ﴿مِّنكُمْ﴾ أي: من العرب المخاطبين، ولم يبعثه من العجم كما لم يبعثه مَلَكاً من الملائكة. ﴿يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾: انظر شرح هذا الكلام في الآية رقم [١٢٩] مع ملاحظة الغيبة هناك، والخطاب هنا. ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾: هذه الجملة بعد سابقتها من باب ذكر العام بعد الخاص؛ لإفادة

الشمول، وهذا يسمَّى في البلاغة بالإطناب، والمعنى: يعلمكم أموراً لا تعلمونها بعقولكم، ولا تصل إليها أفهامكم، وذلك بأخبار الأمم الماضية، وقصص الأنبياء، وأخبار الحوادث المستقبلة، بالإضافة إلى الأمور التشريعية؛ التي لم تكن موجودة في الديانات السابقة ولا علم لكم بها. هذا؛ ومعنى الآية الكريمة: أن الله تعالى يذكِّر عباده المؤمنين بما أنعم به عليهم من بعثة الرسول محمد ﷺ، فهو يقرأ عليهم آيات القرآن البينات، ويزكيهم؛ أي: يطهرهم من رذائل الأخلاق، ودنس النفوس، وأفعال الجاهلية، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ويعلمهم الكتاب، وهو القرآن، والحكمة، وهي السنة المطهرة وغير ذلك مما ذكرته سابقاً، ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون، فكانوا في الجاهلية الجهلاء يسفهون بالقول العقلاء، والحكماء، فانتقلوا ببركة رسالته، وبِمنِّ دعوته إلى حال الأولياء، وسجايا العلماء، فصاروا أعمق الناس علماً، وأبرَّهم قلوباً، وأطهرهم نفوساً، وأصدقهم حجةً، وقد قال تعالى في سورة (آل عمران) رقم [١٦٤]: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾. وقال تعالى في سورة الجمعة رقم [٢]: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

الإعراب: ﴿كَمَآ﴾: الكاف: حرف تشبيه وجر. (ما): مصدرية. ﴿أَرْسَلْنَا﴾: فعل، وفاعل. ﴿فِيكُمْ﴾: صفة ﴿رَسُولًا﴾ و(ما) المصدرية، والفعل ﴿أَرْسَلْنَا﴾ في تأويل مصدر في محل جر بالكاف، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف صفة لمفعول مطلق محذوف، عامله الفعل: (أُتِمَّ) في الآية السابقة، وتقدير الكلام: لأُتِمَّ نعمتي عليكم إتماماً كائناً مثل إرسالنا فيكم رسولاً. هذا؛ وجوز البيضاوي، والنَّسفي تبعاً للزمخشري تعليق الجار والمجرور بالآية التالية؛ أي: فاذكروني كما ذكرتكم بإرسال رسول... إلخ، والأول قاله الفرَّاء، واستحسنه ابن عطيَّة. والثاني اختاره الزجَّاج. وقال القرطبيُّ: وهو اختيار الترمذيِّ الحكيم في كتابه... إلخ، كما أجيز تعليقهما بمحذوف حال من الكاف، والميم، والمعنى: ولأُتِمَّ نعمتي عليكم في هذه الحال.

﴿يَتْلُوا۟﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدَّرة على الواو للثقل، والفاعل يعود إلى ﴿رَسُولًا﴾ والجملة الفعلية في محل نصب صفة: ﴿رَسُولًا﴾، أو في محل نصب حال منه بعد وصفه بما تقدَّم، والجمل بعدها معطوفة عليها على الاعتبارين فيها، ﴿عَلَيْكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿ءَايَـٰتِنَا﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه الكسرة نيابة عن الفتحة؛ لأنه جمع مؤنث سالم، و(نا): ضمير متصل في محل جر بالإضافة. (يزكيكم): فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء للثقل، والفاعل يعود إلى رسولاً، والكاف مفعول به، (يعلمكم الكتاب): مضارع، ومفعولاه، والفاعل يعود إلى رسولاً أيضاً. ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾: معطوف على ما قبله. (يعلمكم): مضارع ومفعوله الأول، والفاعل يعود إلى: ﴿رَسُولًا﴾.. ﴿مَّا﴾:

تحتمل الموصولة، والموصوفة، فهي مبنية على السكون في محل نصب مفعول به ثان. ﴿لَمْ﴾: حرف نفي، وقلب، وجزم. ﴿تَكُونُوا﴾: فعل مضارع ناقص مجزوم بـ ﴿لَمْ﴾ وعلامة جزمه حذف النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو اسمه، والألف للتفريق، وجملة: ﴿تَعْلَمُونَ﴾ في محل نصب خبره، وجملة: ﴿لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ صلة ﴿مَا﴾ أو صفتها، والعائد أو الرابط محذوف، التقدير: يعلمكم الذي، أو: شيئاً لم تكونوا تعلمونه.

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾

الشرح: قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: معناه: اذكروني بطاعتي؛ أذكركم بمعونتي. وقيل: اذكروني في النعمة، والرَّخاء؛ أذكركم في الشدَّة والبلاء. وقال أهل المعاني: اذكروني بالتَّوحيد، والإيمان؛ أذكركم بالجنان، والرِّضوان، وقيل: اذكروني بالإخلاص؛ أذكركم بالخلاص، وقيل غير ذلك.

هذا؛ وقال أرباب المعاني: ربط سبحانه وتعالى بني إسرائيل بذكر النِّعمة؛ حيث قال: ﴿يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ...﴾ إلخ الآية رقم [٤٠]، وأسقطه عن أمَّة محمد ﷺ، ودعاهم إلى ذكره، فقال: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ ليكون نظر الأمم من النِّعمة إلى المُنعم، ونظر أمَّة محمد ﷺ من المُنعم إلى النِّعمة. وقال بعض العارفين: عبيد النِّعم كثيرون، وعبيد المُنعم قليلون، فالله تعالى ذكَّر بني إسرائيل بنعمه عليهم؛ حتَّى يعرفوا منها المُنعم. فقال: ﴿يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ...﴾ إلخ، وأما أمَّة محمد ﷺ، فقد ذكَّرهم بالمُنعم، فقال: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ ليتعرفوا من المُنعم على النِّعمة، وشتَّان ما بين الأمرين. هذا؛ وانظر الشكر في الآية رقم [٥٢]. ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ أي: لا تجحدون، وسمِّي الجحود كفراناً؛ لأنه مثل الكفر في التغطية، والستر، وقلب الشيء عن وجهه.

بعد هذا فقد جعل الله لكل طاعة، وعبادة أولاً وآخراً إلا الذكر، فإنَّه لا أوَّل له، ولا آخر، قال تعالى في سورة (الجمعة): ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، وقال تعالى في سورة (الأحزاب) رقم [٣٥]: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ أي: كثيراً، وقال فيها أيضاً رقم [٤١]: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لم يفرض الله ـ عز وجل ـ على عباده فريضة إلا وجعل لها حَدّاً مَعلوماً، ثم عذر أهلها في حال العذر؛ غير الذِّكر، فإنَّه لم يجعل له حدّاً ينتهي إليه، ولم يعذر أحداً في تركه، إلا مُغلَّباً على عقله، وأمرهم به في الأحوال كلِّها، فقال تعالى في سورة النساء رقم [١٠٣]: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ﴾ وقال جل ذكره: ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ يعني: باللَّيل والنَّهار، في البرِّ والبحر، في الصِّحة والمرض، في السرِّ والعلانية، وقيل: الذِّكر الكثير هو أن لا ينساه أبداً. وخذ ما يلي:

فعن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعِهَا في دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ والْوَرِقِ، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ، فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ، وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟**». قالوا: بلى، قال: «**ذِكْرُ اللهِ**». قال معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ: ما شَيءٌ أنجى من عذاب الله مِنْ ذِكْرِ الله. رواه الإمام أحمد بإسنادٍ حسن، والترمذي، وابن ماجه، والحاكم، والبيهقي.

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ عَجَزَ مِنْكُمْ عَنِ اللَّيْلِ أَنْ يُكَابِدَهُ، وَبَخِلَ بِالْمَالِ أَنْ يُنْفِقَهُ، وجَبُنَ عَنِ الْعدُوّ أَنْ يُجَاهِدَه؛ فَلْيُكْثِرْ ذِكْرَ اللهِ**». رواه الطَّبراني، والبيهقيُّ، وغيرهما.

وعن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ: أنه قال: «**إِنَّ لِكُلِّ شَيءٍ صَقَالَةً، وَإِنَّ صَقَالَةَ الْقُلُوبِ ذِكْرُ اللهِ، وَمَا مِنْ شَيءٍ أَنْجَى مِنْ عذابِ اللهِ مِنْ ذِكْرِ اللهِ**». قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «**وَلَوْ أَنْ يَضْرِبَ بِسَيْفِهِ؛ حتَّى يَنْقَطِعَ**». رواه البيهقيُّ، وغيره.

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أن النبي ﷺ قال: «**أَرْبَعٌ مَنْ أُعْطِيَهُنَّ؛ فقَدْ أُعْطِيَ خَيْرَي الدُّنْيَا، والآخِرَةِ: قلباً شاكِراً، ولِسَاناً ذاكِراً، وَبدَناً عَلَى الْبَلَاءِ صَابِراً، وزوجةً لا تَبْغِيهِ حُوْباً في نَفْسِهَا، وَمَالِهِ**». رواه الطَّبراني.

وعن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال النَّبي ﷺ: «**مثلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ، وَالَّذِي لا يَذْكُر اللهَ مَثلُ الْحَيِّ وَالْمَيْتِ**». رواه البخاريُّ، ومسلم.

وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**إنَّ الشيطانَ وَاضِعٌ خَطْمَهُ عَلَى قَلْبِ ابْنِ آدَمَ فَإِنْ ذَكَرَ اللهَ؛ خَنَسَ، وإِنْ نَسِيَ؛ الْتَقَمَ قَلْبَهُ**». رواه البيهقي، وغيره.

وفي التَّحذير من غفلة القلب عن ذكر الله خذ ما يلي:

فعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَا مِنْ سَاعَةٍ تَمرُّ بِابْنِ آدَمَ لَمْ يَذْكُرِ اللهَ فيهَا بخيْرٍ؛ إِلَّا تَحسَّرَ عَلَيْهَا يَوْمَ القِيَامَةِ**». رواه البيهقي، وغيره.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِساً لَمْ يَذكُرُوا اللهِ فيهِ، وَلَمْ يُصَلُّوا عَلَى نَبِيِّهِم؛ إِلَّا كَانَ عَلَيْهِمْ تِرَةٌ، فَإِنْ شَاءَ؛ عَذَّبَهُمْ، وَإِنْ شَاءَ؛ غَفَرَ لَهُمْ**». رواه أبو داود، والترمذي، والبيهقي.

وتكرَّم النبيُّ ﷺ، وتفضل بما يلي: «**مَنْ جَلَسَ مَجْلِساً كثُر فيهِ لَغَطُهُ، فقال قَبْلَ أَنْ يَقُومَ مِنْ مَجْلِسه ذَلِكَ: سُبْحَانَكَ اللَّهمَّ وبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ؛ إِلَّا غُفِرَ لَهُ مَا كَانَ في مَجْلِسِهِ ذَلِكَ**». رواه أبو داود، والترمذي، والنَّسائي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.

وعن سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**خَيْرُ الذِّكْرِ الْخَفِيُّ، وخَيْرُ الرِّزْقِ مَا يَكْفِي**». رواه ابن حبَّان، وأبو عوانة في صحيحيهما. نعم أفضل الذكر

الخفيُّ، وأما الذين يذكرون الله رقصاً، ودبكاً، وصياحاً؛ فليسوا على شيءٍ! وانظر ما ذكرته بشأن هؤلاء الجهلة في سورة (ص) رقم [٤٤] وفي (الزُّمر) رقم [٢٣] تجد ما يسرك، ويثلج صدرك.

هذا؛ وقال عبد الله بن زيد ـ رحمه الله تعالى ـ: غلطت في أربعة أشياء في الابتداء مع الله تعالى: ظننت أنِّي أحبه، فإذا هو أحبني، قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾، وظننت أني أرضى عنه، فإذا هو قد رضي عني، قال تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ﴾. وظننت: أني أذكره، فإذا هو يذكرني، قال تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُۗ﴾ ـ ولا تنس الآية التي نحن بصدد شرحها ـ. وظننت أني أتوب، فإذا هو قد تاب عليَّ، قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْۚ﴾.

الإعراب: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ﴾: الفاء: هي الفصيحة؛ لأنها تفصح عن شرطٍ مقدر، (اذكروني): فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والنون للوقاية، والياء مفعول به، والجملة الفعلية لا محل لها من الإعراب، لأنها جواب لشرط مقدر بـ «إذا»، التقدير: وإذا كان ما ذكر حاصلاً، وواقعاً؛ فاذكروني. ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾: فعل مضارع مجزوم لوقوعه جواباً للأمر، وجزمه عند الجمهور بشرطٍ محذوف، التقدير: إن تذكروني أذكركم، وعليه فالفاء للاستئناف لاستحالة تقدير شرطين على مدخولٍ واحد، والفاعل مستتر تقديره: أنا، والكاف مفعول به، والجملة الفعلية لا محل لها، والتي بعدها معطوفة عليها. ﴿لِى﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): ناهية جازمة. ﴿تَكْفُرُونِ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ (لا) وعلامة جزمه حذف النون، والواو فاعله، والنون للوقاية، وياء المتكلم المحذوفة للتخفيف في محل نصب مفعول به، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾

الشرح: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: انظر مثل هذا النداء في الآية رقم [١٠٤]. هذا؛ ولمَّا فرغ تعالى من بيان الأمر بالشكر، وعدم الجحود للنِّعم شرع في بيان الصبر، والإرشاد، والاستعانة بالصبر، والصلاة على متاعب الحياة، ومحنها، فإنَّ العبد إما أن يكون في نعمةٍ؛ فيشكر عليها، أو في نقمة؛ فيصبر عليها، كما جاء في قول النبي ﷺ: «**عَجَباً لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إنَّ أَمْرَهُ لَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ إلَّا لِلْمُؤمِنِ، إنْ أَصَابَتْهُ سَراء؛ شَكَرَ، فكانَ خَيْراً لَهُ، وإنْ أصابَتْهُ ضَرَّاء؛ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْراً لَهُ**»، رواه مسلم عن صهيب الرُّومي ـ رضي الله عنه ـ، وبيَّن الله عز وجل أنَّ أجود ما يستعان به على تحمُّل المصائب الصبرُ، والصَّلاة، انظر الآية رقم [٤٥] ففيها الكفاية. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي: بالمعونة، والهداية، والتوفيق، والرعاية، والسَّداد. هذا؛ ومعية الله على نوعين: عامَّة، وخاصَّة، فالأولى: لكلِّ الناس، وهي معيَّةٌ بالعلم، والقدرة، والإحاطة. والثانية: للمؤمنين المتَّقين، والمحسنين، هي: الحفظ، والنصر، والتأييد، والمعونة... إلخ، قال

تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾. هذا، وبالإضافة لِمَا ذُكر فيما تقدم بشأن الصَّلاة؛ فخذ ما يلي:

فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أَرَأَيْتُمْ لو أَنَّ نَهراً ببابِ أَحَدِكُم يَغْتَسِلُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيءٌ؟! قَالُوا: لَا يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيءٌ، قال: فكذَلِكَ مَثَلُ الصَّلواتِ الْخَمْس يَمْحُو اللهُ بِهِنَّ الخَطَايَا**». رواه الستَّة إلا أبا داود. ولكن يجب أن تعلم: أنَّ الصلاة يمحو الله بها الصَّغائر من الذُّنوب، وأما الكبائر؛ فلا يمحوها صومٌ، ولا صلاةٌ، ولا حجٌّ، ولا زكاةٌ، وعلى الأخص حقوق النَّاس، فقد قال الرسول ﷺ: «**الصَّلواتُ الخمسُ، والجُمعةُ إلى الجمعةِ، ورمضانُ إلَى رَمَضَانَ مُكَفِّراتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ، إِذَا اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ**». وفي روايةٍ: «**مَا لَمْ تفشُ الْكَبَائِر**».

الإعراب: (يا): أداة نداء تنوب مناب: أدعو. (أيها): منادى نكرة مقصودة مبنية على الضم في محل نصب بـ (يا)، و(ها): حرف تنبيه لا محل له أقحم للتَّوكيد، ولا يقال: ضمير في محل جر بالإضافة لأنه يجب حينئذ نصب المنادى. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع بدلاً من لفظ (أيها)، وجملة: ﴿ءَامَنُوا۟﴾: مع المتعلق المحذوف صلة الموصول لا محل لها. ﴿ٱسْتَعِينُوا۟﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية لا محل لها، لأنَّها ابتدائية كالجملة النِّدائية قبلها. ﴿بِٱلصَّبْرِ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ﴾: معطوف على ما قبله. ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿مَعَ﴾: ظرف مكان متعلق بمحذوف خبر: ﴿إِنَّ﴾ وهو مضاف، و﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ مضاف إليه مجرور... إلخ، والجملة الاسمية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ...﴾ إلخ تعليلٌ للأمر، لا محل لها.

﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾

الشرح: نزلت هذه الآية الكريمة فيمن قُتل من المسلمين في غزوة بدر، وكانوا أربعة عشر رجلاً: ستة من المهاجرين، وهم: عُبيدة بن الحارث بن عبد المطلب، وعُمير بن أبي وقاص، وعمرو بن نضلة، وعاقل بن البُكَيْر، ومِهْجَعٌ مولى لعمر بن الخطاب، وصفوان ابن بيضاء، وثمانية من الأنصار، وهم: سعد بن خيثمة، ومُبَشِّر بن عبد بن المنذر، ويزيد بن الحارث، وعُمير بن الحُمام، ورافع بن المُعَلَّى، وحارِثة بن سُراقة، وعوف، ومعوِّذ، ابنا الحارث، وأمُّهما اسمها عفراء - رضي الله عنهم أجمعين -، كان الناس يقولون لمن قتل في سبيل الله: مات فلان، وذهب عنه نعيم الدنيا، ولذاتها، فأنزل الله هذه الآية، وهي برهان قاطع على أنَّ حياة الشُّهداء ليست بالجسد، ولا من جنس ما يحسُّ به من الحيوانات، وإنَّما هي أمر لا يدرك بالعقل، بل بالوحي. وعن الحسن البصري - رحمه الله تعالى -: إنَّ الشهداء أحياءٌ عند ربهم، تعرض

أرزاقهم على أرواحهم، فيصل إليهم الرَّوْحُ، والفَرْح، كما تعرض النار على أرواح آل فرعون غدوّاً، وعشيّاً، فيصل إليهم الوجع، والألم. وفي هذه الآية دلالة على: أنَّ الأرواح جواهر قائمة بنفسها، مغايرة لما يحسُّ به من البدن، تبقى بعد الموت داركة. وعليه جمهور الصَّحابة، والتابعين، وبه نطقت الآيات، والسُّنن، وعلى هذا فتخصيص الشُّهداء لاختصاصهم بالقرب من الله، ومزيد البهجة والكرامة. انتهى. بيضاوي، وغيره بتصرُّف. ففيه دليل على أن المطيعين لله يصل إليهم ثوابهم. وهم في قبورهم، وكذا العصاة يعذبون في قبورهم، والنعيم والعذاب في القبر، إنما هو للروح فقط؛ لأنَّ الجسد يطرأ عليه الفناء كما هو معروف. ﴿وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ أي: لا ترونهم أحياء، فتعلمون ذلك حقيقة، وإنما تعلمون ذلك بإخباري إيَّاكم. هذا؛ والثابت في القرآن والسنة النبوية: أن جميع المطيعين من المسلمين، يصل إليهم من نعيم الجنة في قبورهم، وإنما خص الشهداء بالذكر؛ لأنهم فضلوا على غيرهم بمزيد من النعيم، والتكريم، والتعظيم، وعلوِّ الدَّرجات، وكثير النفحات، والبركات. وخذ ما يلي:

فعن معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ: أنَّه سمع النبي ﷺ يقول: «**مَنْ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللهِ فُوَاقَ نَاقَةٍ؛ فقدْ وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ، وَمَنْ سألَ اللهَ القَتْلَ مِنْ نَفْسِهِ صَادِقاً، ثمَّ ماتَ، أَوْ قُتِلَ؛ فإنَّ لَهُ أَجْرَ شَهِيدٍ، وَمَنْ جُرِحَ جُرْحاً في سَبِيلِ اللهِ، أو نُكِبَ نَكْبَةً؛ فإنَّها تَجِيء يَوْمَ القِيَامَةِ كَأَغْزَرِ مَا كَانَتْ، لونُهَا لَوْنُ الزَّعْفران، وَرِيحُهَا رِيحُ المِسْكِ**». رواه أبو داود، والتِّرمذيُّ.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ. أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ في الْجَنَّةِ مِئَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللهُ لِلْمُجَاهِدِينَ في سَبِيلِ اللهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ، كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ**». رواه البُخاريُّ.

وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**مَا أَحَدٌ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يُحِبُّ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا، وَإِنَّ لَهُ مَا عَلَى الأرضِ مِنْ شَيءٍ إِلَّا الشَّهِيدُ، فَإِنَّهُ يَتَمَنَّى أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا، فَيُقْتَلَ عَشْرَ مَرَّاتٍ؛ لِمَا يَرَى مِنَ الْكَرَامَةِ**». وفي روايةٍ: «**لِمَا يَرَى مِنْ فَضْلِ الشَّهادَةِ**». رواه الشيخان، وغيرهما.

وعنه أيضاً ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ الرُّبيِّعَ بنت البَراء ـ رضي الله عنها ـ وهي أمُّ حارثة بن سُراقة ـ أتت النبيَّ ﷺ، فقالت: يا رسول الله! ألا تحدِّثني عن حارثة ـ وكان قتل يوم بدر ـ فإن كان في الجنة صَبَرْتُ، وإن كان غير ذلك؛ اجتهدت عليه في البُكاء! فقال: «**يَا أُمَّ حَارِثَةَ إِنَّهَا جِنَانٌ، وَإِنَّ ابنَكِ أَصَابَ الْفِرْدوس الأَعْلَى**». أخرجه البخاريُّ. وانظر الآية رقم [١٩٥] من سورة (آل عمران) تجدْ ما يسرك، ويثلج صدرك.

الإعراب: ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): ناهية جازمة. ﴿تَقُولُوا﴾: فعل مضارع مجزوم بـ (لا) وعلامة جزمه حذف النون... إلخ، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، أو هي مستأنفة، ولا محل لها على الاعتبارين.

﴿لِمَن﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، و(مَن) تحتمل أن تكون موصولة وأن تكون موصوفة. ﴿يُقْتَلُ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول، ونائب الفاعل يعود إلى (مَنْ) تقديره: هو، وقد راعى لفظها فيه، وراعى معناها فيما يأتي. ﴿فِي سَبِيلِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، ويجوز تعليقهما بمحذوف حال من نائب الفاعل العائد إلى (مَنْ)، و﴿سَبِيلِ﴾: مضاف، و﴿اللَّهِ﴾: مضاف إليه. ﴿أَمْوَاتٌ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: هم أموات، وقد راعى فيه، وفيما بعده معنى (مَنْ). والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول.

﴿بَلْ﴾: حرف عطف، وإضراب ﴿أَحْيَاءٌ﴾: خبر لمبتدأ محذوف أيضاً، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها، فهي في محل نصب مقول القول مثلها. ﴿وَلَكِن﴾: الواو: حرف عطف. (لكن): حرف استدراك مهمل لا عمل له. ﴿لَّا﴾: نافية. ﴿تَشْعُرُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله، والمفعول محذوف، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، فهي من جملة القول.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥)﴾

الشرح: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾: الابتلاء: الاختبار، والامتحان، ويكون في الخير، وفي الشرِّ، قال تعالى في حق اليهود اللُّؤماء: ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾. وقال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ والمعنى: ولنصيبنكم إصابة مَنْ يختبر أحوالكم، هل تصبرون على البلاء، وتستسلمون للقضاء أم لا؟ قال تعالى في سورة (محمد ﷺ): ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾. ﴿بِشَيْءٍ﴾ أي: بشيءٍ قليلٍ، وإنَّما قلَّله بالنسبة إلى ما وقاهم منه ليخفف عليهم، ويُريهم: أنَّ رحمته لا تفارقهم، وإنَّما أخبرهم به قبل وقوعه؛ ليوطِّنوا أنفسهم عليه، وليظهر الطائع من العاصي، والصَّابر من الجازع؛ الذي لا يصبر، ولا يرضى بما يصيبه في دنياه ﴿مِّنَ الْخَوْفِ﴾: الخوف على النفس، أو على الولد، أو على المال، أو على الكرامة هو من أعظم البلاء؛ لذا قدَّمه الله تعالى بالذِّكر قال الشاعر: [الطويل]

كَأَنَّ بِلَادَ اللهِ وَهْيَ عَرِيضَةٌ ... عَلَى الْخَائِفِ الْمَطْلُوبِ كِفَّةُ حَابِلِ

الكِفَّة: بكسر الكاف ما يصاد بها الظِّباء يجعل كالطَّوق. والأمن على ما ذكر من أعظم أنواع السَّعادة. قال الرسول ﷺ: «**مَنْ أصبحَ مُعَافى في بدنِهِ، آمِناً في سِرْبِهِ، عِنْدَهُ قَوْتُ يَوْمِهِ؛ فقد مَلَكَ الدُّنْيا بِحَذافِيرِهَا**». ﴿وَالْجُوعِ﴾: أي: المتسبب من الفقر، وهو يتسبب من الجدب، والقحط، وهو مع الخوف من أشدِّ أنواع البلاء، قال تعالى في حقِّ القرية الكافرة بأنعم الله: ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ رقم [١٢] من سورة (النَّحل)، ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ﴾ بموت المواشي، وخسران التجارة، وغير ذلك، وانظر الآية رقم [١٧٦] الآتية. ﴿وَالْأَنفُسِ﴾ كموت الأصحاب، والأقارب، والأحباب، وهو جمع: نفس جمع قلة. وانظر الآية رقم [٩].

﴿وَٱلثَّمَرَٰتِۗ﴾: ثمرات الزُّروع، والأشجار، والخضار بسبب الآفات السَّماوية التي تصيبها، وانظر الآية رقم [٢٢] وقيل: المراد بالثَّمرات: الأولاد؛ لأنَّ الولد ثمرة القلب، وخذ ما يلي:

فعن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول الله ﷺ قال: «**إِذَا مَاتَ وَلَدُ الْعَبْدِ؛ قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ لِملائِكَتِهِ: قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي؟ فيقولونَ: نَعَمْ. فَيَقُولُ: قَبضْتمْ ثَمرَةَ فُؤَادِهِ؟ فيقُولُونَ: نَعَمْ. فَيَقولُ: ماذا قالَ عَبْدي؟ فيقولونَ: حَمَدكَ، واسْتَرْجَعَ. فيقولُ: ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتاً في الجنةِ، وسَمُّوهُ بَيْتَ الحمدِ**». رواه الترمذيُّ، وابن حبَّان.

هذا؛ وعن الشَّافعي ـ رضي الله عنه ـ: الخوف خوف الله، والجوع صوم رمضان، والنَّقص من الأموال الصَّدقات، والزَّكوات، ومن الأنفس الأمراض، ومن الثمرات موت الأولاد. انتهى. بيضاوي.

أقول: سياق الآيات لا يناسب تفسير الخوف، والنقص بما ذكر. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾: الواو: حرف قسم وجر، والمقسم به محذوف، التقدير: وعزتي وجلالي، وهو أولى من تقدير: والله. والجار والمجرور متعلقان بفعل محذوف تقديره: أقسم. واللام: واقعة في جواب القسم. (نبلونكم): فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة؛ التي هي حرف لا محل له، والفاعل مستتر تقديره: نحن، والكاف مفعول به، والجملة الفعلية لا محل لها جواب القسم. والقسم وجوابه كلام مستأنف لا محل له. ﴿بِشَيْءٍ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿مِّنَ ٱلْخَوْفِ﴾: متعلقان بمحذوف صفة (شيء)، و﴿وَنَقْصٍ﴾: معطوف على الخوف. ﴿مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ﴾: متعلقان بـ (نقص) لأنه مصدر، أو هما متعلقان بمحذوف صفة له، وجوز أن يكونا متعلقين في محل نصب صفة لمفعول محذوف نصب بهذا المصدر المنون، التقدير: ونقص شيئاً كائناً من كذا. ذكره أبو البقاء، ولا وجه له، بل هو تعسُّف.

﴿وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ﴾: معطوفان على الأموال، ﴿وَبَشِّرِ﴾: الواو: حرف عطف. (بشِّر): فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: أنت. ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه الياء نيابة عن الفتحة؛ لأنه جمع مذكر سالم، والنون عوض عن التنوين في المفرد، ولا تنس: أنه صفة لموصوف محذوف، وهو يشمل الإناث أيضاً، وذُكِّر على التغليب، والجملة الفعلية: ﴿وَبَشِّرِ...﴾ إلخ معطوفة على الجملة القسمية السابقة، عطف المضمون على المضمون، أي: الابتلاء حاصل لكم، وكذا البشارة، لكن لمن صبر. قاله الشيخ سعد الدين التفتازاني.

﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾

الشرح: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ﴾: المصيبة: هي كل ما يصيب المؤمن من مكروه؛ لقول النبي ﷺ: «**نَعَمْ كُلُّ مَا آذَى المؤمِنَ فهُوَ مُصِيبَةٌ**». وهذه الجملة قالها الرَّسول ﷺ حين طفئ

مصباحه ذات ليلةٍ، واسترجع، فقالت له عائشة ـ رضي الله عنها ـ: أوَتعُدّ هذا مصيبة؟ قال: «نعمْ...» إلخ. هذا؛ وأصاب فلاناً البلاءُ: وقع عليه، وأصابهم المطر: نزل عليهم. قال تعالى في سورة (الروم) رقم [٤٨]: ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾. وتقول: أصاب السَّهم، يُصيب، فلم يخطئ هدفه، وأصاب الرجلُ في قوله، أو في رأيه: أتى بالصواب ويأتي (أصاب) بمعنى قصد، وأراد، قال تعالى في حقِّ سليمان ـ على نبينا، وعليه ألف صلاةٍ، وألف سلامٍ ـ: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾. وقال الشاعر: [المتقارب]

أَصَابَ الْكَلَامَ فَلَمْ يَسْتَطِعْ فَأَخْطَأَ الْجَوَابَ لَدَى الْمُفصلِ

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ﴾: ملكاً، وخلقاً، وعبيداً، يتصرَّف فينا كيف يشاء. فهو توحيد، وإقرار بالعبودية لله. ﴿وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ أي: في الآخرة بعد الموت، فيجازينا بأعمالنا قولاً، وفعلاً، إن خيراً فخيرٌ، وإن شرّاً فشرٌّ، فكل من مات، وخرجت روحه من بين جنبيه، فقد رجع إلى الله، وقد قال الرسول ﷺ: «**مَنْ مَاتَ فقدْ قَامَتْ قِيامَتُهُ**». والجملة إقرار بالهلاك على أنفسنا والبعث من قبورنا، واليقين: أنَّ رجوع الأمر كلِّه إلى الله تعالى.

تنبيه: هذه الجملة: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾لم يعطها الله لأمة قبل أمة محمَّد ﷺ، ولم يهبها لنبيٍّ قبل محمَّد ﷺ، ولو أطلع الله عليها يعقوب لم يقل: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ عند فقد يوسف، ثم أعادها عند فقد أخيه بنيامين، لذا فهي من الكنوز الَّتي ادَّخرها الله لهذه الأمَّة، وخذ ما يلي:

عن أمِّ سلمة زوج النبي ﷺ ـ رضي الله عنها ـ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَا مِنْ عَبْدٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ، فَيقولُ: إِنَّا للهِ وَإِنَّا إليهِ راجعُونَ، اللَّهُمَّ اؤْجُرْني فِي مُصيبتي، وَاخْلُفْ لِي خَيْراً مِنْهَا إِلَّا أَجَرَهُ اللهُ تعَالى في مُصِيبَتِهِ، وَأَخْلَفَ لَهُ خَيْراً مِنْهَا**». قالَت: فلمَّا مَاتَ أَبُو سلمةَ؛ قُلْتُ: أيُّ المسلمين خَيْرٌ مِنْ أَبِي سَلَمَةَ، أوَّلُ بَيْتٍ هَاجَرَ إلى الله، ورسوله ﷺ: ثمَّ إني قلتها، فأخلف الله لي خيراً منه رسول الله ﷺ. رواه مسلم، وأبو داود، والنسائي، والترمذيُّ.

وعن فاطمة بنت الحسين، عن أبيها ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ أُصِيبَ بِمُصِيبَةٍ، فَذَكَرَ مُصِيبَتَهُ، فَأَحْدَثَ اسْتِرْجَاعاً ـ وَإِنْ تَقَادَم عَهْدُهَا ـ كَتَبَ اللهُ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مثله يَوْمَ أُصِيبَ**». رواه ابن ماجه. فهذا تنبيه على قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ مع الاسترجاع إمَّا بالخلف، كما أخلف لأم سلمة مَنْ هو خيرٌ مِنْ أبي سلمة كما رأيت، وإمَّا بالثواب الجزيل، والأجر العظيم، كما في حديث أبي موسى المذكور في آخر الآية السابقة. وقد يكون بهما معاً، والله ذو الفضل العظيم.

تنبيه: من أعظم المصائب المصيبة في الدِّين عند مَنْ يعقل، ولكن أكثر المسلمين في هذه الأيام بمعزل عن هذا، يُهدم من دينهم كلَّ يومٍ ركنٌ، وأركان، من صومٍ، وصلاةٍ، وحجٍّ،

وزكاة، ويرتكبون الجرائم مِنْ بعدِ عن الحق، ومحاربته، واتِّباع للباطل، بل ودعمه، والدِّفاع عنه. هذا؛ بالإضافة لاتِّصافهم بصفات المُنافقين، مِنْ كذبٍ، وفجورٍ، وخُلْفٍ للوعد، ونقضٍ للعهد، وخيانةٍ للأمانة بجميع أنواعها، ولكنَّ الواحد منهم إذا أصيب بمصيبةٍ في ماله مهما كانت قليلةً، أو إذا غبن في بيع، أو شراء؛ فإنه يتنغص عيشُه أياماً كثيرةً، ويتحسَّر، ويتأسَّف، فصاروا كالبهائم؛ الَّتي لا يهمُّها إلا ملء بطنها، ورحم الله من قال: [الكامل]

أَبُنَيَّ إِنَّ مِنَ الرِّجَالِ بَهِيمَةً ... فِي صُورَةِ الرَّجُلِ السَّمِيعِ الْمُبْصِرِ
فَطِنٌ بِكُلِّ مُصِيبَةٍ فِي مَالِهِ ... وَإِذَا أُصِيبَ بِدِينِهِ لَمْ يَشْعُرِ

هذا؛ وذكر أبو عمر الفريابي؛ قالَ: حدَّثنا فِطْرُ بن خليفةَ، قال: حدثنا عطاء بن أبي رباح، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذَا أصابَ أحدَكُمْ مصيبةٌ؛ فلْيَذْكُرْ مصابَهُ بي، فإنَّها مِنْ أَعْظَمِ الْمَصَائِبِ**». أخرجه السَّمرقندي أبو محمد في مسنده، قال أبو عمر رحمه الله تعالى: وصدق رسول الله ﷺ لأنَّ المصيبة به أعظم من كل مصيبةٍ. يُصاب بها المسلم بعده إلى يوم القيامة، انقطع الوحي، وماتت النبوة، وكان أول ظهور الشرِّ بعده بارتداد العرب، وغير ذلك من الفتن التي ظهرت بعد قتل عثمان، وفي حياته. قال أبو سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ وغيره: ما نفضنا أيدينا من التراب من قبر رسول الله ﷺ حتَّى أنكرنا قلوبنا. ولقد أحسن أبو العتاهية الصُّوفي ـ رحمه الله تعالى ـ حيث يقول: [الكامل]

اصْبِرْ لِكُلِّ مُصِيبَةٍ وتَجَلَّدِ ... واعْلَمْ بِأَنَّ الْمَرْءَ غَيْرُ مُخَلَّدِ
أَوَ مَا تَرَى أنَّ الْمَصَائِبَ جَمَّةٌ ... وَتَرَى الْمَنِيَّةَ لِلْعِبَادِ بِمَرْصَدِ
مَنْ لَمْ يُصَبْ مِمَّنْ تَرَى بِمُصِيبَةٍ؟ ... هذا سَبِيلٌ لَسْتَ فِيهِ بِأَوْحَدِ
وَإِذَا أَرَدْتَ مُصِيبَةً تَسْلُو بِهَا ... فاذكُرْ مُصَابَكَ بالنَّبِيِّ مُحَمَّد

الإعراب: ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح، وفيه أربعة أوجه: **الأول**: أن يكون في محل نصب على النَّعت لـ ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾. **الثاني**: أن يكون في محل نصب على المدح بفعل محذوف. **الثالث**: أن يكون في محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف. أي: هم الذين. والجملة الاسمية على هذا مستأنفة لا محل لها، **والرابع**: أن يكون مبتدأ، خبره الجملة الاسمية بعده. انتهى جمل. نقلاً عن السَّمين. بتصرُّف مني. ﴿إِذَآ﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، خافض لشرطه، منصوب بجوابه، صالح لغير ذلك مبني على السكون في محل نصب. ﴿أَصَٰبَتْهُم﴾: فعل ماض، والتاء للتأنيث، والهاء مفعول به. ﴿مُّصِيبَةٌ﴾: فاعله، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة ﴿إِذَآ﴾ إليها على المشهور المرجوح.

﴿قَالُوٓاْ﴾: فعل ماض وفاعله، والألف للتفريق. ﴿إِنَّا﴾: حرف مشبه بالفعل، و(نا) اسمها، حذفت نونها، وبقيت الألف دليلاً عليها. ﴿لِلَّهِ﴾: متعلقان بمحذوف خبر (إنَّ)، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول. وجملة: ﴿قَالُوٓاْ...﴾ إلخ جواب: ﴿إِذَآ﴾ لا محل لها، و﴿إِذَآ﴾ ومدخولها صلة الموصول. ﴿إِنَّا﴾: مثل سابقتها. ﴿إِلَيْهِ﴾: جار ومجرور متعلقان بما بعدهما. ﴿رَٰجِعُونَ﴾: خبر (إنَّ) مرفوع، وعلامة رفعه الواو نيابة عن الضمة؛ لأنه جمع مذكر سالم، والنون عوض عن التنوين في الاسم المفرد، وجملة: ﴿وَإِنَّآ إِلَيْهِ...﴾ إلخ معطوفة على ما قبلها، فهو في محل نصب مقول القول مثلها.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

الشرح: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: الإشارة لـ ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ الذين تقدَّم ذكرهم. ﴿صَلَوَٰتٌ﴾: مغفرة، ورحمة، وجمعها للتنبيه على كثرتها، وتنوعها. ﴿وَرَحْمَةٌ﴾: كرر الرحمة لما اختلف اللفظ تأكيداً، وإشباعاً. كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾ وفي الكشاف: والصلاة: الحنو، والتعطف، فوضعت موضع الرأفة. وجمع بينها وبين الرحمة، كقوله تعالى: ﴿رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ و﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ والمعنى: عليهم رأفة بعد رأفة، ورحمة بعد رحمة. وانظر الصَّلاة في الآية رقم [٤٣].

هذا؛ وروي عن عمر ـ رضي الله عنه ـ: أنه قال: ما أصابتني مصيبة إلا وجدت فيها ثلاث نعم: الأولى: أنَّها لم تكن في ديني، الثَّانية: أنها لم تكن أعظم ممَّا كانت. الثَّالثة: أنَّ الله تعالى يجازي عليها الجزاء الكبير، ثم تلا الآية الكريمة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ...﴾ إلخ.

وعنه ـ رضي الله عنه ـ قال: نعم العدلان، ونعمت العلاوة، أراد بالعدلين: الصَّلاة، والرحمة، وبالعلاوة: الاهتداء. والعلاوة: ما توضع بين العدلين، وفوق حمل الجمل، وهي زيادة في الحمل، فكذلك هؤلاء أعطوا ثوابهم، وزيدوا أيضاً التوفيق إلى العمل الصَّالح، والسير على الصِّراط المستقيم، وإلى تسهيل المصائب، وتخفيف الحزن عند وقوعها. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ، والكاف حرف خطاب لا محل له. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم. ﴿صَلَوَٰتٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل رفع خبر المبتدأ الأول. هذا؛ وإن اعتبرت الجار والمجرور متعلقين بمحذوف خبر: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ فيكون: ﴿صَلَوَٰتٌ﴾ فاعلاً بمتعلق الجار والمجرور؛ إذ التقدير: أولئك ثابت عليهم صلوات، وعلى كلٍّ فالجملة الاسمية: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ...﴾ إلخ في محل رفع خبر: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في الآية السابقة على وجهٍ مرَّ ذكره، أو هي مستأنفة لا محل لها. ﴿وَرَحْمَةٌ﴾: معطوف على: ﴿صَلَوَٰتٌ﴾. ومتعلقه محذوف لدلالة ما قبله عليه. (أولئك): مبتدأ مثل سابقه. ﴿هُمُ﴾:

ضمير فصل لا محل له. ﴿ٱلْمُهْتَدُونَ﴾: خبر المبتدأ مرفوع... إلخ. هذا؛ ويجوز اعتبار الضمير مبتدأً ثانياً، و﴿ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية في محل رفع خبر المبتدأ الأوَّل، وعلى الوجهين فالجملة الاسمية معطوفة على سابقتها على الوجهين المعتبرين فيها.

﴿۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾

الشرح: ﴿ٱلصَّفَا﴾: جمع: صفاة، وهي الصَّخرة الصُّلبة الملساء، وألفه منقلبةٌ عن واو بدليل قلبها في التثنية واواً. قالوا: صفوان، والاشتقاق يدل عليه أيضاً؛ لأنه من الصَّفو، وهو الخلوص، والنقاء، وقيل: الذي لا يخالطه غيره من طين، أو تراب، و(المروة): الحجر الرَّخو، جمعها: مَرْوٌ، ومَرْوَات، وهذا معناها لغةً، والمراد بهما: جبلان صغيران قرب الكعبة المعظَّمة، معروفان، يقع السَّعي بينهما، وهو ركن من أركان الحجِّ، والعمرة عندنا معاشر الشَّافعية. ﴿شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾: أعلام دينه، جمع: شعيرة، وهي العلامة، والمراد بالشَّعائر: تكاليف الإسلام من صومٍ، وصلاةٍ، وحجٍّ، وزكاةٍ. والسَّعي بين الصفا والمروة من أعمال الحج، والعمرة، كما أسلفت. ﴿حَجَّ﴾: أراد، وقصد الكعبة المعظمة لأداء النسك؛ الَّذي هو أحد أركان الإسلام الخمسة. ﴿ٱعْتَمَرَ﴾: زار الكعبة المشرفة، وأعمال العمرة أعمالُ الحجِّ ما عدا الوقوف بعرفة، والمبيت بمزدلفة، ومنى.

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ﴾: لا إثم، ولا مؤاخذة عليه. ﴿يَطَّوَّفَ﴾: أصله: يتطوَّف، وماضيه: تطوَّف، قلبت التاء طاءً في المضارع، وأدغمت الطاء في الطاء، والمعنى: يسعى بينهما. ﴿تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ أي: فعل طاعةً فرضاً كان، أو نفلاً، أو زاد على ما فرضه الله عليه من حجٍّ، أو عمرةٍ، أو غير ذلك. ﴿شَاكِرٌ﴾: أي: لعمله بأن يُثيبه عليه. ﴿عَلِيمٌ﴾ بالعمل الصَّالح الذي يعمله العبد. هذا؛ والشكر معناه: مقابلة النعمة والإحسان بالثناء والعرفان. وهذا محالٌ على الله؛ إذ ليس لأحدٍ عنده يدٌ، ونعمة، ولهذا حمله العلماء على الثَّواب، والجزاء؛ أي: إنه تعالى يثيبه، ولا يضيع أجر العاملين. والصَّحيح ما عليه السلف من إثبات الصفات كما وردت، فهو شكرٌ يليق بجلاله، وكماله. وخذ ما يلي:

فقد روى الإمام أحمد ـ رحمه الله تعالى ـ: عن عروة بن الزبير، عن خالته الصدِّيقة بنت الصديق، قال: قلتُ: أرأيتِ قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ...﴾ إلخ. فوالله ما على أحدٍ جُناح ألا يطوَّف بهما. فقالت ـ رضي الله عنها ـ: بئس ما قلت يا بن أختي! إنها لو كانت على ما أوَّلتها عليه؛ كانت: فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما. ولكنَّها إنما أنزلت أنَّ الأنصار كانوا قبل أن يُسْلِموا، كانوا يُهلُّون لِمَنَاة الطَّاغية؛ الَّتي كانوا يعبدونها عند المُشَلَّل، وكان من أهلَّ لها، يتحرَّج أن يطوَّف بالصَّفا، والمروة، فسألوا رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله! إنا كنا

نطَّوَّف بالصَّفا، والمروة في الجاهلية، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ...﴾ إلخ. قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «**ثمَّ قد سنَّ رسول الله ﷺ الطواف بهما، فليس لأحدٍ أن يدع الطواف بهما**». رواه الشيخان، وأحمد. وقال أنس ـ رضي الله عنه ـ: كنَّا نرى: أنَّهما من أمر الجاهلية، فلما جاء الإسلام؛ أمسكنا عنهما، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾. وقال الشعبيُّ: كان (إساف) على الصفا، وكانت (نائلة) على المروة، وكانوا يستلمونهما، فتحرَّجوا بعد الإسلام من الطواف بينهما، فنزلت هذه الآية. وقال طُلَيْب: رأى ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قوماً يطوفون بين الصفا، والمروة، فقال: هذا ما أورثتكم أمُّكم أمُّ إسماعيل.

هذا؛ وذكِّر الصَّفا؛ لأنَّ آدم عليه السلام وقف عليه فسمي به، ووقفت حواء على المروة فسميت باسم المروة، فأنِّث لذلك، وزعم أهل الكتاب: أنَّ إساف، ونائلة زنيا في الكعبة فمسخهما الله حجرين. فوضعوهما على الصفا، والمروة ليعتبر بهما الناس، فلما طالت المدة؛ زين الشيطان عبادتهما لهم، فعُبِدا من دون الله. والله تعالى أعلم.

وفي صحيح مسلم ـ رحمه الله تعالى ـ: أنَّ رسول الله ﷺ لما فرغ من طوافه بالبيت عاد إلى الرُّكن، فاستلمه، ثمَّ خرج من باب الصَّفا، وهو يقول: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ ثمَّ قال: «**أبْدأُ بما بَدَأ اللهُ بِهِ**»، وقال: «**اسْعَوْا فإنَّ اللهَ كتبَ عليكم السَّعْيَ**». وقد استدلَّ بهذا الحديث مَنْ يرى: أنَّ السَّعي بين الصفا والمروة ركنٌ في الحج، كما هو مذهب الشَّافعي، ورواية عن أحمد، وهو المشهور عن مالك. وقيل: إنَّه واجبٌ، وليس ركناً، فإنْ تركه عمداً، أو سهواً؛ جبره بدم. وهو رواية عن أحمد، وهو عند الحنفية مستحب، وقيل: واجب. واحتجُّوا بقوله تعالى: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ والقول الأوَّل أرجح؛ لأنَّ النبي ﷺ طاف بينهما، وقال: «**خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ**»، وبيَّن الله تعالى: أنَّ الطواف بين الصفا، والمروة من شعائر الله، أي ممَّا شرع الله تعالى لإبراهيم، وإسماعيل في مناسك الحج.

وقد تقدم في حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أنَّ أصل ذلك مأخوذ من طواف هاجر رحمها الله تعالى، وتردادها بين الصَّفا، والمروة في طلب الماء لها، ولولدها لمَّا نفد زادُهما، فلم تزل تتردَّد في هذه البقعة المشرَّفة بين الصفا والمروة، متذلِّلةً، خائفةً، وَجِلَةً؛ حتَّى كشف الله كربتها، وآنس غربتها، وفرَّج شدَّتها، وأنبع لها زمزم؛ التي ماؤها (طعامُ طَعْم، وشفاءُ سُقْم) فالسَّاعي بينهما ينبغي له أن يستحضر فقره، وذلَّه، وحاجته إلى الله في هداية قلبه، وصلاح حاله، وغفران ذنبه، وأن يلتجئ إلى الله ـ عز وجلَّ ـ لتفريج ما هو به.

الإعراب: ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱلصَّفَا﴾: اسمها منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على الألف للتعذر، وهناك مضاف محذوف؛ إذ الأصل: إنَّ طواف الصفا، فلما حذف المضاف؛ أخذ المضاف إليه محلَّه في الإعراب. ﴿وَٱلْمَرْوَةَ﴾: معطوف على سابقه. ﴿مِن شَعَآئِرِ﴾: متعلقان بمحذوف خبر: ﴿إِنَّ﴾، والجملة الاسمية: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ...﴾ إلخ ابتدائية لا محل لها من

الإعراب. ﴿فَمَنْ﴾ الفاء: حرف استئناف. (مَنْ) اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿حَجَّ﴾: فعل ماض مبني على الفتح في محل جزم فعل الشرط، والفاعل يعود إلى (مَنْ) تقديره: هو. ﴿ٱلْبَيْتَ﴾: مفعول به. ﴿أَوِ﴾: حرف عطف. ﴿ٱعْتَمَرَ﴾: فعل ماض معطوف على سابقه، والفاعل يعود إلى (مَنْ) أيضاً، ومتعلقه محذوف؛ إذ التقدير: اعتمر فيه.

﴿فَلَا﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (لا): نافية للجنس تعمل عمل إنَّ. ﴿جُنَاحَ﴾: اسم (لا) مبني على الفتح في محل نصب. ﴿عَلَيْهِ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف في محل رفع خبر (لا). ﴿أَن﴾: حرف مصدري ونصب. ﴿يَطَّوَّفَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ ﴿أَن﴾ والفاعل يعود إلى (مَنْ) أيضاً. ﴿بِهِمَا﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، والميم والألف حرفان دالان على التثنية. و﴿أَن﴾ والفعل المضارع في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر محذوف، التقدير: في تطوافه بهما، والجار والمجرور متعلقان بـ ﴿جُنَاحَ﴾ لأنه مصدر، أو المصدر في محل نصب بنزع الخافض. هذا؛ وقد قيل: إنَّ خبر (لا) محذوف، التقدير: فلا جناح في الحجِّ، وإنَّ الوقف على ﴿جُنَاحَ﴾ وأنَّ ﴿عَلَيْهِ﴾: متعلقان بمحذوف خبر مقدَّم، والمصدر المؤوَّل في محل رفع مبتدأ مؤخر، وهو وجهٌ ضعيف، فلا حاجة إلى تكلُّفه. وجملة: (لا جناح...) إلخ في محل جزم جواب الشرط، وخبر المبتدأ الَّذي هو (مَنْ) مختلف فيه، فقيل: هو جملة فعل الشرط، وقيل: هو جملة الجواب، وقيل: هو الجملتان، وهو المعتمد عند المعاصرين. هذا؛ وإن اعتبرت (مَنْ) اسماً موصولاً مبتدأ، فتكون الجملة الفعلية بعده صلته، والخبر جملة: ﴿فَلَا جُنَاحَ...﴾ إلخ، واقترنت بالفاء؛ لأنَّ الموصول يشبه الشرط في العموم، والجملة الاسمية: (من حج...) إلخ مستأنفة لا محل لها من الإعراب. ﴿وَمَن تَطَوَّعَ﴾: إعرابه مثل إعراب سابقه. ﴿خَيْرًا﴾: منصوب بنزع الخافض، التقدير: تطوع بخير، أو هو صفة مصدر محذوف، أي: تطوع تطوعاً خيراً، وقيل: هو حال من ذلك المصدر المقدَّر معرفةً عند سيبويه، هو مذهبه، انتهى جمل نقلاً من السمين. ﴿فَإِنَّ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (إنَّ) حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾: خبران لـ (إنَّ)، والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط، والجملة الاسمية: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا...﴾ إلخ معطوفة على ما قبلها، وقل فيها ما قلته بسابقتها من أوجه الإعراب. والله الموفق للحقِّ والصَّواب.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾

الشرح: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: يخفون ما أنزلناه من الآيات البينات، والدلائل الواضحات الدالة على صدق محمد ﷺ وثبوت نبوته. ﴿وَٱلْهُدَىٰ﴾: ما يهدي إلى

وجوب اتباعه، والإيمان به. ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ﴾ ليتبعوه، ويهتدوا به، ويسيروا على نهجه. والذين كتموا هم: أحبار اليهود، ورهبان النصارى، كتموا أمر محمد ﷺ مع أن الإنجيل، والتوراة قد أمرهم باتباع محمد ﷺ. وموسى، وعيسى ـ على نبينا، وعليهما ألف صلاة وألف سلام ـ قد بشرا به، قال تعالى في سورة (الأعراف): ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾ رقم [١٥٧]. ﴿فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ المراد: التوراة. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ أي: الملائكة، والمؤمنون، أو كلُّ شيءٍ في السَّموات، والأرض، ويكونون قد جُمعوا جمع مَنْ يعقل بالواو، والنون؛ لأنه أسند إليهم فعل مَنْ يعقل: كقوله تعالى حكايةً عن قول يوسف ـ على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ: ﴿رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾ ولم يقل: ساجدات. ومثله كثير، فهو من باب التغليب.

هذا؛ واللعن: الطرد، والإبعاد من رحمة الله تعالى، ولقد كرَّر الله لعن الكافرين في هذه الآية، كما لعن الظَّالمين، والكاذبين، والمنافقين النَّاقضين للعهد، والميثاق في آياتٍ متفرقة، وهو دليل قاطع على أنَّ من مات على كفره؛ فقد استحقَّ اللَّعن من الله، والملائكة، والناس أجمعين، وأمَّا الأحياء من الكفار؛ فقد قال بعض العلماء: لا يجوز لعن كافر معين؛ لأنَّ حاله لا يُعلم عند الوفاة، فلعلَّه يؤمن، ويموت على الإيمان، وقد قيَّد الله في الآية التالية إطلاق اللعنة على من مات على الكفر، ويجوز لعن الكفار جملة بدون تعيين، كما في قولك: لعن الله الكافرين، يدل عليه قول النبي ﷺ: «**لَعَنَ اللهُ الْيَهُودَ حُرِّمَتْ عَلَيْهِم الشُّحُومُ، فجمَّلُوهَا، وَبَاعُوها**». وذهب بعضهم إلى جواز لعن إنسان معيَّنٍ من الكفار بدليل قتاله. وهو الصَّحيح، كيف لا؟ وقد لعن حسان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ أبا سفيان، وزوجه هنداً في شعره، ولم ينكر عليه النبي ﷺ. خذ قوله: [السريع]

لَعَنَ الإِلَهُ وَزَوْجَهَا مَعَهَا هِنْدَ الْهُنُودِ طَوِيلَةَ الْبَظْرِ

وقد لعن الفاروق ـ رضي الله عنه ـ أبا سفيان، وعكرمة بن أبي جهل، وأبا الأعور السلمي، وغيرهم؛ الذين قدموا المدينة المنورة بعد غزوة أحد، وقد أعطاهم النبيُّ ﷺ الأمان على أن يكلِّموه، فقام معهم جماعةٌ من المنافقين، وقالوا للنبي ﷺ: ارفض ذكر آلهتنا بسوء، وقل: إنَّ لها شفاعة لمن عبدها، وندعك وربك. فشقَّ ذلك على سيد الخلق، وحبيب الحق ﷺ، فقال الفاروق ـ رضي الله عنه ـ: يا رسول الله ائذن لي في قتلهم، فقال: إني أعطيتهم الأمان، فقال الفاروق ـ رضي الله عنه ـ: اخرجوا في لعنة الله، وغضبه؛ ولم ينكر عليه النبي ﷺ ذلك. كيف لا؟ وآية النور رقم [٧] تأمر المسلم أن يلعن نفسه؛ إن كان من الكاذبين.

وأما العصاة من المسلمين لا يجوز لعن واحد منهم على التعيين قطعاً، وأما على الإطلاق فيجوز، كما في قولك: لعن الله الفاسقين، والفاسقات، والفاسدين، والفاسدات، والخبيثين،

والخبيثات... إلخ؛ لما روي: أن النبي ﷺ قال: «**لَعَنَ اللهُ السَّارِقَ يَسْرِقُ الْبيضَة، والحبْلَ، فَتُقْطَعُ يَدُهُ**». ولعن رسول الله ﷺ: «**الْوَاشِمَةَ، والْمستوشِمَةَ، وآكِلَ الرِّبَا، ولَعَنَ مَنْ غَيَّر مَنَارَ الأرْضِ، وَمَنِ انْتَسبَ إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ، وَمَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ، وَمَنْ أَتَى امْرأَةً في دُبُرِهَا، وَغَيْر ذَلِكَ**». وكلُّ ذلك في الصحيح من الأحاديث، وخذ ما يلي:

عن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا لَعَنَ شَيْئاً؛ صَعدَت اللَّعنةُ إلى السَّمَاءِ، فَتُغْلَقُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ دُونَهَا، ثم تَهْبِطُ إِلَى الأَرْضِ، فَتُغْلَقَ أَبْوَابها دونَهَا، ثم تَأخُذُ يَميناً وشِمَالاً، فَإِنْ لَم تَجدْ مَسَاغاً؛ رَجَعَتْ إِلَى الَّذِي لَعَنَ، فَإِنْ كانَ أَهْلاً، وَإِلَّا؛ رَجَعتْ إلى قَائِلِهَا**». رواه أبو داود.

تنبيه: نزلت الآية الكريمة في أحبار اليهود، ورهبان النَّصارى الذين كتموا ما في التوراة كآية الرَّجم، ونعت محمد ﷺ، وهي تعمُّ كلَّ مَنْ كتم شيئاً من أحكام الدِّين لعموم الحكم؛ فإنَّ خصوص السَّبب لا يمنع تعميم الحكم إلى يوم القيامة، والأحاديث الشريفة كثيرةٌ في هذا الباب، وخذ ما يلي:

فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ، فَكَتَمهُ؛ أُلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلجَامٍ مِنْ نَارٍ**». رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه.

وعن أبي سعيد الخدريِّ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ كَتَمَ عِلْماً مِمَّا يَنْفَعُ اللهُ بِهِ النَّاسَ في أَمْرِ الدِّينِ؛ أَلْجَمهُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ بِلجَامٍ مِنْ نَارٍ**». رواه ابن ماجه.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**مَثَلُ الَّذِي يَتَعَلَّمُ، ثُمَّ لَا يُحَدِّثُ بِهِ، كَمَثَلِ الَّذِي يَكْنِزُ الْكَنْزَ، ثم لا يُنْفِقُ مِنْهُ**». رواه الطَّبرانيُّ في الأوسَط.

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**تَناصَحُوا فِي العِلْمِ، فَإِنَّ خِيَانَةَ أَحَدِكُمْ في عِلْمِهِ أَشَدُّ مِنْ خِيَانَتِهِ في مَالِهِ، وَإِنَّ اللهَ مُسَائِلُكُمْ**». رواهُ الطَّبرانيُّ في الكبير.

وهذه الآية هي التي أراد أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ في قوله: لولا آيةٌ في كتاب الله تعالى ما حدَّثتكم حديثاً، وقال الرسول ﷺ: «**لا تَمْنَعُوا الْحِكْمَةَ أَهْلَهَا، فَتَظْلِمُوهُمْ، وَلَا تَضَعُوها فِي غَيْرِ أَهْلِهَا، فَتَظْلِمُوهَا**». وروي عنه ﷺ: أنَّه قال: «**لا تُعَلِّقُوا الدُّرَّ في أَعْنَاقِ الْخَنَازِيرِ**».

وقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ﴾ دلَّ على أنَّ ما كان من غير ذلك جائزٌ كتمه، لا سيما إن كان مع ذلك خوفٌ، فإنَّ ذلك آكد للكتمان، وقد ترك أبو هريرة ذلك حين خاف، فقال: حفظت عن رسول الله ﷺ وعاءين، فأمَّا أحدهما؛ فبثثته، وأما الآخر؛ فلو بثثته؛ قُطِع هذا البلعوم. أخرجه البخاريُّ. قال العلماء: وهذا الذي لم يبثَّه أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ وخاف على نفسه من الفتنة، والقتل، إنَّما هو ممَّا يتعلق بأمر الفتن، والنَّص على أعيان المرتدِّين، والمنافقين، ونحو هذا مما لا يتعلَّق بالبينات، والهدى. والله تعالى أعلم.

الإعراب: ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل نصبٍ اسمها. ﴿يَكْتُمُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محلَّ لها. ﴿مَآ﴾: تحتمل الموصولة، والموصوفة، فهي مبنية على السكون في محل نصب مفعول به. ﴿أَنزَلْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية صلة: ﴿مَآ﴾ أو صفتها، والعائد أو الرابط محذوف؛ إذ التقدير: الذي أو شيئاً أنزلناه. ﴿مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال من المفعول المحذوف، و﴿مِنَ﴾ بيان لما أُبهم في ﴿مَآ﴾؛ ﴿وَٱلْهُدَىٰ﴾: معطوف على ما قبله مجرور مثله، وعلامة جره كسرة مقدرة على الألف للتعذُّر. ﴿مِنۢ بَعْدِ﴾ متعلقان بالفعل ﴿يَكْتُمُونَ﴾. ﴿مَا﴾: مصدرية، واعتبارها موصولة ضعيف. ﴿بَيَّنَّٰهُ﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به. و﴿مَا﴾ والفعل في تأويل مصدر في محل جر بإضافة ﴿بَعْدِ﴾ إليه. ﴿لِلنَّاسِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾: متعلقان بالفعل (بيَّنا) أيضاً، أو هما متعلقان بمحذوف حال من مفعوله. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾: اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ، والكاف حرف خطاب لا محل له. ﴿يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ﴾ فعل مضارع، ومفعوله، وفاعله.

والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل رفع خبر ﴿إِنَّ﴾. هذا، وجوز اعتبار: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ بدلاً من ﴿ٱلَّذِينَ﴾، والجملة الفعلية: ﴿يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ﴾ خبر (إنَّ). ولا أراه قويّاً، وجملة: ﴿وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ معطوفة على ما قبلها، فهي في محل رفع مثلها على الوجهين المعتبرين فيها والجملة الاسمية: ﴿إِنَّ...﴾ إلخ ابتدائية أو مستأنفة لا محل لها على الاعتبارين فيها.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾

الشرح: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾: رجعوا عن سوء فعلهم، وندموا. (أصلحوا) أي: عملهم بالعزم على عدم العودة إلى سوء فعلهم. (بينوا) أي: ما كتموا من الحق، وهو عبارة عن الإقلاع عن سوء العمل، وهو هنا الكتمان، وهذه الآية الكريمة تشير إلى شروط التوبة النصوح المذكورة في سورة التحريم، والشروط هي: الاستغفار باللسان، والندم بالجنان، والإقلاع بالأركان، وانظر توبة آدم في الآية رقم [٣٧]. ﴿أَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾: أقبل توبتهم. ﴿ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾: انظر مثلهما في الآية رقم [٣٧]. ومعناها: المبالغة في قبول التوبة، ونشر الرَّحمة. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ. ﴿تَابُوا۟﴾: فعل ماض مبني على الضم، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية مع المتعلق المحذوف صلة الموصول لا محل لها، والجملتان: (أصلحوا) و(بينوا) معطوفتان عليها، لا محل لهما مثلها. ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾: الفاء: زائدة في خبر الموصول؛ لأنه يشبه الشرط في العموم. (أولئك): اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ. ﴿أَتُوبُ﴾: فعل مضارع،

والفاعل ضمير مستتر تقديره أنا. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، ومضمون الجملة الاسمية: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ...﴾ إلخ في محل نصب على الاستثناء من الكلام السابق، واعتبار المفرد: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مستثنىً من الكلام السابق يجعل الجملة الاسمية: (أولئك...) إلخ غير مرتبطة بما قبلها إعراباً مع كونها مرتبطة بها معنىً. ﴿وَأَنَا﴾: الواو: حرف عطف. (أنا): ضمير منفصل مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ خبران للمبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها، أو هي في محل نصب حال من فاعل: ﴿أَتُوبُ﴾ المستتر، والرابط: الواو، والضمير، أو هي معترضة في آخر الكلام، وهو ما يسمَّى بالاعتراض التذييلي، والغاية منه تحقيق مضمون ما قبله من قبول التوبة للتائبين.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾: أي: كفروا، واستمرُّوا على الكفر؛ حتى داهمهم الموت، وهم على تلك الحالة. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ...﴾ إلخ، أي: يلعنهم الله، وملائكته، وأهل الأرض جميعاً؛ حتَّى الكفار، فإنَّهم يوم القيامة يلعن بعضهم بعضاً، هذا بالإضافة لما تقدم أذكر: أنه اختلف في لعن المسلم العاصي المُعَيَّن، فذكر ابن العربي: أن لعن العاصي المعين لا يجوز اتِّفاقاً؛ لما روي عن النبي ﷺ: أنه أُتِي بشارب خمر مراراً، فقال بعض مَنْ حضره: لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به! فقال النبي ﷺ: **«لَا تَكُونُوا عَوْنَ الشَّيْطَانِ عَلَى أَخِيكُمْ»**. أخرجه الشَّيخان، فجعل له حرمة الأخوَّة، وهذا يوجب الشفقة، وأجاز بعضهم لعنه. وإنَّما قال عليه الصلاة والسلام ما تقدَّم في حقِّ الصحابي نُعَيْمَان بن عمرو بن رفاعة، شهد العقبة، وبدراً، والمشاهد كلَّها، وكان كثير المِزاح، يضحك النبي ﷺ من مزاحه، وقال ذلك الرسول المعظم بعد إقامة الحد على نُعَيْمَان المذكور، ومن أقيم عليه حدُّ الله تعالى؛ فلا ينبغي لعنهُ، ومن لم يُقَم عليه الحدُّ؛ فلعنته جائزةٌ، سواء سمِّي أم لا؟ لأنَّ النبي ﷺ لا يلعن إلا من تجب عليه اللعنة ما دام على تلك الحالة الموجبة لِلَّعن، فإذا تاب منها، وأقلع عنها، وطهَّره الحد؛ فلا لعنة تتوجَّه عليه. انتهى من القرطبي بتصرف منِّي. وعليه فيجوز لعن فاسق بعينه؛ لأنَّ الحدود غير مقامة على أصحاب الكبائر، وهم يسرحون، ويمرحون بدون خجلٍ، أو ارعواء.

الإعراب: ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسمها، وجملة: ﴿كَفَرُوا۟﴾ مع المتعلق المحذوف صلة الموصول لا محل لها، والجملة بعدها ﴿وَمَاتُوا۟﴾ معطوفة عليها. ﴿وَهُمْ﴾: الواو: واو الحال. (هم): ضمير منفصل مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿كُفَّارٌ﴾: خبر (هُمْ) والجملة الاسمية في محل نصب حال من واو الجماعة، والرابط: الواو، الضمير. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ،

والكاف حرف خطاب لا محل له. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم، ﴿لَعْنَةُ﴾: مبتدأ مؤخر، وهو مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾ مضاف إليه، من إضافة المصدر لفاعله، والجملة الاسمية في محل رفع خبر ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾. هذا؛ وإن اعتبرت الجار والمجرور متعلقين بمحذوف خبر المبتدأ، فيكون ﴿لَعْنَةُ﴾ فاعلاً به، التقدير: أولئك مستحق عليهم لعنة، وعلى الوجهين فالجملة الاسمية في محل رفع خبر ﴿إِنَّ﴾ والجملة الاسمية هذه مبتدأة، أو مستأنفة لا محل لها على الاعتبارين. ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾: معطوف على لفظ الجلالة مجرور مثله، وقرئ بالرفع بالعطف على محل الجلالة؛ لأنَّ محلَّه الرفع كما رأيت، وهذا معروف في العربية، ومشهور. ﴿وَٱلنَّاسِ﴾: معطوف على (الملائكة) جرّاً ورفعاً. ﴿أَجْمَعِينَ﴾: توكيد لـ (الناس) على الجر، فهو مجرور، وعلامة جره الياء.. .إلخ وقرئ: (أجمعون) توكيد لـ (الناس) على الرَّفع، فهو مرفوع، وعلامة رفعه الواو.. . إلخ. هذا؛ ومن الإتباع على المحل قول زياد العنبري، وهو الشاهد رقم [٨٦٠] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»: [الرجز]

قَدْ كُنْتُ دَايَنْتُ بِهَا حَسَّانَا ... مَخَافَةَ الإفْلَاسِ واللَّيَانَا

فـ «اللَّيانا»: معطوف على محل «الإفلاس» المجرور لفظاً المنصوب محلاً؛ لأنه مفعول للمصدر، وهو: «مخافة»، ومنه أيضاً قول لبيد بن ربيعة العامري ـ رضي الله عنه ـ: [الكامل]

حَتَّى تَهَجَّرَ فِي الرَّوَاحِ وَهَاجَهَا ... طَلَبُ الْمُعَقِّبِ حَقَّهُ الْمَظْلُومُ

فـ «المظلوم» صفة «المعقب» على المحل؛ لأنه فاعل بالمصدر «طَلَبُ» وأيضاً قول المتنخل الهذلي: [البسيط]

السَّالِكُ الثَّغْرَةِ الْيَقْظَانِ سَالِكُهَا ... مَشْيَ الهلوكِ عَلَيْهَا الْخَيْعلُ الْفُضُلُ

فـ «الهلوك» فاعل بالمصدر «مَشْيَ» وهو مجرور لفظاً، مرفوع محلاً، و«الْخَيْعلُ» و«الفضل» صفتان له على المحل.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ١٦٢﴾

الشرح: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾: الخلود: الدوام، والمراد: عدم الخروج أبداً. ﴿فِيهَا﴾: أي: في اللعنة المذكورة، أو النار المدلول عليها باللَّعنة، والإضمار قبل الذكر تفخيماً لشأنها، وتهويلاً، أو اكتفاءً بدلالة اللَّعنة عنها، وكثيراً ما وقع في القرآن: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ وهو عائد على النَّار ﴿يُنظَرُونَ﴾: يمهلون. أو لا ينظر إليهم نظر رحمة، قال تعالى في سورة (الزخرف): ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ٧٤ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾.

هذا؛ وقال الإمام الفخر الرازي ـ رحمه الله تعالى ـ: قال قوم: إنَّ عذاب الله للكافرين منقطع، وله نهاية، واستدلُّوا بقوله تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ وبأن معصية الظالم متناهية،

فالعقاب بما لا يتناهى ظلمٌ. والجواب: إن قوله: ﴿أَحْقَابًا﴾ لا يقتضي: أنَّ له نهاية؛ لأن العرب يعبِّرون به، وبنحوه عن الدَّوام، ولا ظلم في ذلك؛ لأنَّ الكافر كان عازماً على الكفر ما دام حيّاً، فعوقب دائماً، ولم يعاقب بالدائم إلا على دائم، فلم يكن عذابه إلا جزاءً وفاقاً. انتهى جمل في سورة (هود) [١٠٧].

الإعراب: ﴿خَالِدِينَ﴾: حال مقدَّرة من الضمير المجرور في الآية السابقة، وهو عائد على واو الجماعة منصوب، وعلامة نصبه الياء نيابة عن الفتحة... إلخ، وفاعله مستتر فيه. ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور متعلقان بـ ﴿خَالِدِينَ﴾، ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يُخَفَّفُ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول. ﴿عَنْهُمُ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿الْعَذَابُ﴾: نائب فاعله، والجملة الفعلية في محل نصب حال أخرى من الضمير المجرور، وهي حال مؤكدة للحال المفردة، والرابط الضمير فقط. وقال أبو البقاء: حال من الضمير المستتر في: ﴿خَالِدِينَ﴾ فتكون حالاً متداخلة. ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): نافية. ﴿هُمْ﴾: مبتدأ. ﴿يُنظَرُونَ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول، والواو نائب فاعله، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: ﴿وَلَا هُمْ...﴾ إلخ معطوفة على ما قبلها في محل نصب حال أيضاً.

هذا؛ وذكرت لك: أنَّ ﴿خَالِدِينَ﴾ حال مقدَّرة؛ إذ الحال بالنسبة للزَّمان على ثلاثة أقسام: حال مقارنة، وهي الغالبة، نحو قوله تعالى حكاية عن قول امرأة إبراهيم ـ على نبينا، وحبيبنا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ: ﴿وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾. وحال مقدرة، وهي المستقبلة، نحو قوله تعالى: ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾. ومنها الحال في هذه الآية، كما رأيت. وحالٌ محكيَّةٌ، وهي الحال الماضية، نحو جاء زيدٌ أمسِ راكباً. وهناك الحال الموطئة، وهي التي تذكر توطئة للصفة بعدها بمعنى: أنَّ المقصود الصفة، وهذا كثير في القرآن الكريم. خذ قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ فـ ﴿آيَاتٍ﴾ حال من الضمير المنصوب.

هذا؛ والحال أيضاً على نوعين: إمَّا مؤسِّسة، وإما مؤكدة، فالأولى هي التي لا يستفاد معناها بدونها، نحو جاء زيد ضاحكاً، ونحوه، وأكثر ما تأتي الحال من هذا النوع مبينةً هيئة فاعل، أو مفعول، والمؤكدة هي التي يستفاد معناها بدونها، وإنَّما يؤتى بها للتَّوكيد، وهذه ثلاثة أنواع:

الأولى: ما يؤتى بها لتوكيد عاملها، وهي التي توافقه معنىً فقط، أو معنىً، ولفظاً، فالأولى كقوله تعالى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾. والثاني: نحو قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾.

النوع الثاني: ما يؤتى بها لتوكيد صاحبها، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ رقم [٩٩] من سورة (يونس) على حبيبنا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام.

النوع الثالث: ما يؤتى بها لتوكيد مضمون جملة معقودة من اسمين مَعْرِفتين جامدين، نحو

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ وقولك: «هو الحق صريحاً أو بيناً» وقول سالم بن دارة اليربوعي وهو الشاهد رقم [٣٨٥] من كتابنا فتح ربِّ البرية: [البسيط]

أَنَـا ابْـنُ دَارَةَ مَـعْـرُوفـاً بِـهَـا نَـسَـبِـي وَهَـلْ بِـدَارَةَ يَـا لِـلـنَّـاسِ مِـنْ عَـارِ؟

وهناك الحال اللازمة في قراءة من قرأ قوله تعالى: في سورة (ص) رقم [٢٩] (كتاب أنزلناه إليك مباركاً) بالنَّصب؛ لأنَّ البركة لا تفارق الكتاب، وهو القرآن.

وأخيراً خذ الحال السببية، ولم يذكرها أحد من المفسِّرين، ولا المعربين قطعاً، ومثالها قوله تعالى في سورة (الأنبياء): ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾، وقوله تعالى في سورة (المعارج) وفي سورة (نٓ): ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾، فـ ﴿لَاهِيَةً﴾ و﴿خَٰشِعَةً﴾ حال مما قبلهما في الإعراب، وعند التأمل يتبيَّن لك: أنهما حالان ممَّا بعدهما، وهذا كما في النعت السببي في قولك: مررت برجال كريم آباؤهم، وبنسوة كريم آباؤهن، فكريم صفة لما قبله في الإعراب، وهو في الحقيقة صفة لما بعده. تأمل، وتدبر، وربك أعلم، وأجلُّ، وأكرم.

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾

الشرح: (إلٰهكم): خطاب عام لجميع الناس، أي: هو المستحقُّ منكم العبادة. ﴿وَٰحِدٌ﴾: لا شريك له هو الذي يصح أن يُعبد، أو يسمى إلٰهاً. ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: تقدير للوحدانية، ودفع لأن يتوهم: أنَّ في الوجود إلٰهاً آخر. سبب نزول هذه الآية: أنَّ كفار قريش قالوا: يا محمد! صف لنا ربك، وانسبه! فأنزل الله هذه الآية، وسورة (الإخلاص) ومعنى الوحدة: الانفراد، وحقيقة الواحد هو الشيء الذي لا يتبعَّض، ولا ينقسم، والواحد في صفة الله: أنه واحد، لا نظير له، وليس كمثله شيء. وقيل: واحد في ألوهيته، وربوبيته، ليس له شريك؛ لأنَّ المشركين أشركوا معه الآلهة، فكذبهم الله تعالى بقوله: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ يعني: لا شريك له في مصنوعاته، وواحد في ذاته، لا قسيم له، وواحد في صفاته، لا يشبهه شيءٌ من خلقه. انتهى خازن.

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾: يعني: أنَّه الْمَولى لجميع النِّعم، أصولها، وفروعها، فلا شيء سواه بهذه الصِّفة؛ لأنَّ كلَّ ما سواه إمَّا نعمة، وإما مُنْعَم عليه، وهو المنعم على خلقه، الرَّحيم بهم، وعن أسماء بنت يزيد ـ رضي الله عنها ـ، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**اسْمُ اللهِ الأَعْظَمُ في هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ**: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ...﴾ إلخ، وفاتحة آل عمران: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾». أخرجه أبو داود، والترمذيُّ، وقال: حديث صحيح. وقيل: لما نزلت هذه الآية قال المشركون: إن محمداً يقول: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ فليأتنا بآية إن كان صادقاً، فأنزل الله الآية التالية. انتهى خازن. وإذا علمت: أنَّ السورة مدنية؛ فلم يبق ما عزي إلى المشركين صحيحاً. والله أعلم.

الإعراب: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ﴾: الواو: حرف استئناف. (إلٰهكم): مبتدأ، والكاف في محل جر بالإضافة. ﴿إِلَٰهٌ﴾: خبره. ﴿وَاحِدٌ﴾: صفة: ﴿إِلَٰهٌ﴾ وهو الخبر في الحقيقة؛ لأنه محط الفائدة، ألا ترى أنه لو اقتصر على ما قبله؛ لم يفد، وهذا يشبه الحال الموطئة، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾. والجملة الاسمية هذه مستأنفة لا محل لها من الإعراب. ﴿لَّآ﴾: نافية للجنس تعمل عمل «إن». ﴿إِلَٰهَ﴾: اسمها مبني على الفتح في محل نصب، والخبر محذوف، تقديره: موجود. ﴿إِلَّا﴾: حرف حصر لا محل له. ﴿هُوَ﴾: فيه ثلاثة أوجه: الأول: كونه بدلاً من اسم (لا) على المحل؛ إذ محله الرفع على الابتداء، والثاني: كونه بدلاً من ﴿لَّآ﴾ وما عملت فيه؛ لأنها وما بعدها في محل رفع بالابتداء، والثالث: كونه بدلاً من الضمير المستكن في الخبر المحذوف، وهو الأقوى.

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾: يجوز فيه أربعة أوجه: أحدها: أن يكون بدلاً مِنْ ﴿هُوَ﴾ بدل ظاهر من مضمرة الثاني: أن يكون خبر مبتدأ محذوف، أي: هو الرحمن، وحسَّن حذفه توالي اللفظ مرتين، الثالث: أن يكون خبراً ثالثاً: لقوله: (إلٰهكم) أخبر عنه بقوله: ﴿إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾، وبقوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، وبقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وذلك عند من يرى تعدد الخبر مختلفاً بالإفراد والجملة، والرابع: أن يكون صفة للضمير، وذلك عند الكسائي، فإنه يجيز وصف الضمير الغائب بصفة مدح، فهو يشترط هذين الشرطين: أن يكون غائباً، وأن تكون الصفة صفة مدح. ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾: يجري فيه ما جرى في سابقه، وإن اعتبرته بدلاً من الرحمن؛ فلست مفنداً، بل هو الأقوى؛ لأنهما اسمان كريمان من أسماء الله الحسنى على المعتمد، والله أعلم، وأجلُّ، وأكرم.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾

الشرح: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: وما فيهما. ذكر الله في هذه الآية من آثار قدرته، ودلائل عظمته ثمانية أنواع، وقدم السَّموات والأرض في الذكر هنا، وخصَّهما بالذكر في كثير من الآيات؛ لأنهما أعظم المخلوقات فيما يرى العباد، وجمع السموات دون الأرض، وهي مثلهن سبعاً بدليل قوله تعالى في سورة (الطلاق) رقم [١٢]: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ لأن طبقاتها مختلفة بالذات، متفاوتة بالصِّفات، والآثار، والحركات، وقدَّمها لشرفها، وعلو مكانها، وتقدُّم وجودها، ولأنها مُتعبَّد الملائكة، ولم يقع فيها معصية كما في

الأرض، وأيضاً: لأنها كالذَّكر، فنزول المطر من السماء على الأرض، كنزول المني من الذَّكر في المرأة، ولأن الأرض تنبت، وتخضرُّ بالمطر. ووحَّد الأرض؛ لأنها بجميع طبقاتها جنسٌ واحد، وهو التُّراب.

وآية السموات: ارتفاعها بغير عمد من تحتها، ولا علائق من فوقها، ثمَّ ما فيها من الشمس، والقمر، والنجوم السائرة، والكواكب الزاهرة، شارقةً وغاربةً، نيِّرةً وممحوةً آية ثانية. وآية الأرض: مدُّها، وبسطُها، وما فيها من الجبال، والبحار، والمعادن، والجواهر، والأنهار، والأشجار، والثمار، وما بثَّ فيها من أجناس المخلوقات: فيعلم العباد حينئذٍ أنَّ لهما خالقاً مدبِّراً حكيماً؛ لأنَّ عظم آثاره، وأفعاله تدلُّ على عظم خالقها، كما قيل: [المتقارب]

وَفِي كُلِّ شَيءٍ لَهُ آيَةٌ ... تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ

﴿وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾: بالذهاب، والمجيء، والزيادة، والنقصان. قال تعالى في كثير من الآيات: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾، وقال تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ﴾ وانظر الآية رقم [٥١] لشرحهما.

﴿وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾: (الفلك) يقرأ بضمِّ الفاء وسكون اللام، وبضمِّهما، وهو يطلق على المفرد، والجمع. يذكَّر، ويؤنَّث، قال تعالى: ﴿وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ فأنَّث. ويحتمل الإفراد، والجمع. قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم﴾ فجمع، وأنَّث، وكأنه يذهب بها إذا كانت واحدةً إلى المركب، فيذكَّر، وإلى السَّفينة، فيؤنَّث. وقد ألغز فيها الشاعر، حيث قال: [الطويل]

مُكَسَّحَةٌ تَجْرِي وَمَكْفُوفَةٌ تَرَى ... وَفِي بَطْنِهَا حَمْلٌ عَلَى ظَهْرِهَا يعْلُو

فَإِنْ عَطِشَتْ عَاشَتْ وَعَاشَ جَنِينُهَا ... وَإِنْ شَرِبَتْ مَاتَتْ وَفَارَقَهَا الْحَمْلُ

ولا تنس: أنَّ أول من اخترع السَّفينة ـ وهي الفُلك ـ نوح، على نبيِّنا، وشفيعنا، وعليه ألف صلاةٍ، وألف سلام، ومن تصميمها وشكلها أخذت البشرية تصنع السُّفن، وتتطوَّر جيلاً بعد جيل، حتَّى وصلت إلى ما وصلت إليه في العصر الحاضر. هذا؛ وقد كانت السُّفن في الزَّمن الماضي تسير بواسطة الرِّياح، وأما في أيامنا هذه فإنَّها تسير بواسطة البخار، وفي الزَّمن الماضي كان البحَّارون يلقون العناء إذا اضطرب البحر، أو عاكست الرياح(١)، وقد عبَّر المتنبي عن ذلك بقوله: وهو جارٍ مجرى المثل: [البسيط]

مَا كُلُّ مَا يَتَمَنَّى المرءُ يُدْرِكُهُ ... تَأتي الرِّيَاحُ بِمَا لَا تَشْتَهِي السُّفُنُ

---

(١) أقول: ولا يزال، وسيبقى البحارون يلقون العناء والمشقة إذا اضطرب البحر، وفي زماننا هذا نسمع كثيراً عن غرق كثيرٍ من السفن، والعبارات بسبب سوء الأحوال الجوية، واضطراب البحر.

هذا؛ والفلك بفتحتين مدارُ النجوم، وبجمع على فُلْك بضم الفاء، وسكون اللام، وضمِّهما أيضاً، وعلى أفلاك أيضاً، والفلك من كلِّ شيء: مستداره، ومعظمه، والفلكي منسوب إلى عالم الفلك. ﴿بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ أي: الذي ينفعهم من التجارات وسائر المآرب الَّتي تصلح بها أحوالهم، وقد قال مَنْ طعن في الدِّين: إن الله تعالى يقول في كتابكم: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ فأين ذكر التَّوابل المصلحة للطعام من الملح، والفلفل، وغير ذلك، فقيل له في قوله تعالى: ﴿بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾. ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ﴾ يعني: الأمطار التي بها إنعاش العباد، وإخراج النبات، والأرزاق التي بها حياة كلِّ ذي روح من الإنسان، والحيوان، وهو فحوى قوله تعالى: ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: فأظهر الله النبات من الأرض بعد نزول المطر عليها، فأظهر حسنها، وبهجتها، ونضارتها بعد أن كانت يابسةً، لا نبات فيها، قال تعالى في سورة (الحج): ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾.

﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾: فرَّق، ونشر، والبثُّ: النشر، والتفريق، و﴿دَآبَّةٍ﴾: ما يَدُبُّ على الأرض، من الإنسان، والحيوان، والهوام، والطير، وغير ذلك؛ إذ كلُّ ماشٍ على الأرض دابَّة، وتجمع على «دواب»، قال تعالى في سورة (الأنفال): ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾: تصريفها: إرسالها عقيماً، وملقحةً، وصرّاً، ونصراً، وهلاكاً، وحارةً، وباردةً، وليِّنة، وعاصفةً. والرِّيح في الأصل الهواء المسخَّر بين السماء والأرض، وهو جسمٌ متحرِّكٌ لطيفٌ، ممتنع بلطفه من القبض عليه، يظهر للحسِّ بحركته، ويخفى عن البصر بلطفه، وهو حياة كلِّ نامٍ، من إنسانٍ، وحيوانٍ، ونباتٍ، مثل الماء، بل الحاجة إليه أشدُّ، وأصله: الرِّوْح، قلبت الواو ياءً لانكسار ما قبلها، والجمع: أرواح، ورياح، وأصل رياح: رواح، فعل به كما فعل بأصل ريح، والأكثر في الريح التأنيث، كما في قوله تعالى: ﴿جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ وقد تذكَّر على معنى الهواء.

والرياح الأصول أربع: **إحداها**: الشَّمال، وتأتي من ناحية الشَّمال، وهي شِمَال من استقبل مطلع الشمس، وهذه الريح حارةٌ في الصيف، باردةٌ في الشتاء، **والثانية**: الجنوب، وهي مقابلتها، أي: تأتي من جهة يمين من استقبل مطلع الشَّمس، وهي الريح اليمانيَّة، **والثالثة**: الصَّبا بفتح الصَّاد، وتأتي من مطلع الشمس، وتسمَّى: القبول أيضاً، **والرابعة**: الدَّبُور، وتأتي من مغرب الشمس، وما أتى منها من بين تلك الجهات؛ يقال لها: النَّكباء، ثمَّ إنْ خرجت من بين الجنوب، والشرق؛ قيل لها: أَزْيَب: بفتح الهمزة، وسكون الزاي، وفتح الياء، وإن خرجت من بين الشَّمال، والغرب، قيل لها: جِرْبِيَا: بكسر الجيم وسكون الراء، وكسر الباء، وإن خرجت من بين الشَّمال، والشرق، قيل لها: صابية، وإن خرجت من بين الجنوب، والغرب، قيل لها: هَيْف: بفتح الهاء، وسكون الياء، وقد جمع النواحي الثمانية بقوله: [الطويل]

صَبَاً ودَبُورٌ وَالْجَنُوبُ وَشَمْأَلٌ بِشَرْقٍ وَغَرْبٍ والتيمُّنِ وَالضِّدِّ
وَمِنْ بَيْنِهَا النَّكْبَاءُ أَزْيَبُ جِرْبِيَا وَصَابِيَةٌ وَالْهَيْفُ خَاتِمَةُ الْعَدِّ

هذا؛ وأضيف: أنَّ ريح الصَّبا نَصَر الله بها نبينا ﷺ في غزوة الخندق، حيث فعلت بقريش العجائب، فارتدُّوا على أعقابهم خاسئين، كما تراه في سورة (الأحزاب)، وأن ريح الدَّبُور أهلك بها قوم عاد، ونبيُّهم هو هود ـ على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ كما تراه في سورة (الأعراف) وسورة (الشعراء) وغيرهما.

هذا؛ ولا تنسَ: أنَّ الريح تفسر بالدَّولة، والقوَّة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ أي: دولتكم، وقوتكم، شُبِّهت في نفوذ أمرها، وتمشِّيه بالرِّيح، وهبوبها، يقال: هبت رياح بني فلان: إذا دالت لهم الدولة، ونفذ أمرهم، وتقول: الريح لفلان: إذا كان غالباً في الأمر، قال الشاعر: [الوافر]

إِذَا هَبَّتْ رِيَاحُكَ فَاغْتَنِمْهَا فَإِنَّ لِكُلِّ خَافِقَةٍ سُكُونُ
وَلَا تَغْفَلْ عَنِ الإِحْسَانِ فِيهَا فَمَا تَدْرِي السُّكُونُ مَتَى يَكُونُ

فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «**الرِّيحُ مِنْ رَوْحِ اللهِ تعالى، تَأْتي بالرَّحْمةِ، وتأتي بالْعَذَابِ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهَا؛ فلَا تَسُبُّوهَا، وَاسْأَلُوا الله من خيرها، واسْتَعيذُوا باللهِ مِنْ شَرِّهَا**». رواه الشَّافعيُّ في مسنده بطوله، وأخرجه أبو داود في المسند عنه.

وروي: أن النبي ﷺ كان إذا اشتدت الريحُ، وهبَّتْ يقول: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا رِيَاحاً، وَلَا تَجْعَلْهَا رِيحاً**». ويقول: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَهَا، وخَيْرَ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شرِّهَا، وشَرِّ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ**».

هذا؛ ومَنْ وَحَّد الريح؛ فلأنه اسم جنس يدل على القليل، والكثير، ومن جمع، فلاختلاف الجهات التي تهبُّ فيها الرِّياح، ومن جمع مع الرحمة، ووحد مع العذاب، فإنَّه فعل ذلك اعتباراً بالأغلب في القرآن: نحو قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ سورة (الروم) رقم [٤٦] وقوله تعالى: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ سورة (الذاريات) فجاءت في القرآن مجموعةً مع الرحمة، مفردةً مع العذاب إلا في سورة (يونس) رقم [٢٢] قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ وذلك لأنَّ ريح العذاب شديدةٌ ملتئمة الأجزاء كأنها جسم واحد، وريح الرحمة لينةٌ متقطعةٌ، فلذلك هي رياح، وأفردت مع الفلك في سورة (يونس) لأن ريح إجراء السفن إنما هي ريح واحدة متَّصلة، ثم وصفت بالطيب، فزال الاشتراك بينها وبين ريح العذاب.

﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ﴾: المذلل بأمر الله تعالى يسير حيث شاء بواسطة الرياح، وسمي الغيم سحاباً؛ لانسحابه في الهواء، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾

وقال جلَّ ذكره: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابًا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ﴾ والسَّحاب: الغيوم التي تراها العيون في السماء، وهو واحد في اللفظ، ولكنه جمع، وقيل: السَّحاب اسم جنس، واحده: سحابة، فلذلك وصف بالجمع، وهو ﴿ٱلثِّقَالَ﴾ في آية (الرَّعد)، وتجمع السَّحابة على: سحاب، وسحائب، وسحب، وهو غربال الماء، قاله عليُّ بن أبي طالب كرَّم الله وجهه. هذا؛ وقيل: السحاب: الغيم فيه ماء، أولم يكن فيه ماء، وأصل السَّحْب الجرُّ، وسمِّي السَّحاب سحاباً، إمَّا لجرِّ الريح له، أو لجرِّه الماء، أو لانجراره في سيره.

فقد روى مسلم ـ رحمه الله تعالى ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، عن النبي ﷺ قال: **«بَيْنَمَا رَجُلٌ بِفلَاةٍ مِنَ الأَرْضِ، فَسَمِعَ صَوْتَاً في سَحَابَةٍ: اسْقِ حَدِيقَة فُلَانٍ، فَتَنَحَّى ذَلِكَ السَّحَابُ، فَأَفْرَغَ ماءَهُ في حرَّة، فَإِذَا شَرْجَةٌ مِنْ تِلْكَ الشِّراجِ قَدِ اسْتَوْعَبَتْ ذَلِكَ الماءَ كُلَّهُ، فتتَبَّعَ الماءَ، فَإِذا رَجُلٌ قَائِمٌ فِي حَدِيقَتِهِ يُحَوِّلُ بِمِسْحاتِهِ، فَقَالَ لَهُ: يا عبدَ الله! ما اسْمُكَ؟ قَالَ: فُلَانٌ ـ للاسمِ الَّذِي سمعَ في السَّحَابَةِ ـ فقالَ لهُ: يا عبدَ الله! لِمَ تسألني عن اسْمِي؟ فقَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ صَوتاً في السَّحَابِ الَّذي هذا مَاؤُهُ يَقُولُ: اسْقِ حَدِيقَةَ فُلان لاسْمِكَ، فَمَا تَصْنَعُ فِيهَا؟ قَالَ: أَمَّا إِذْ قلتَ هَذَا؛ فإني أَنْظُرُ إلى مَا يَخْرُجُ مِنْها، فأتَصدَّقُ بِثُلُثِهِ، وَآكُلُ أَنَا، وَعِيَالِي ثُلُثَهُ، وَأَرُدُّ ثُلُثَهُ إلى الأَرْض»**. القرطبيُّ. الحرَّة: أرض ذات حِجارة سود، والشَّرْجَةُ: طريق الماء، وسبيله.

﴿لَأٓيَٰتٖ﴾: دلالات واضحة على وحدانية الله، وقدرته. ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾: يتدبرون وانظر شرح العقل في الآية رقم [٤٤].

بعد هذا؛ فقد نزلت الآية الكريمة حيث طلب المشركون دليلاً على وحدانية الله المذكور في الآية السَّابقة، وعن عطاء ـ رحمه الله تعالى ـ قال: أنزل بالمدينة على النبي ﷺ: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ فقال كفار قريش بمكَّة: كيف يسع الناسَ إلٰهٌ واحد؟! فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ...﴾ إلخ. هذا؛ وروي: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: **«وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَ هَذِهِ الآية فَمَجَّ فِيهَا»** أي: لم يتفكر فيها، ولم يعتبر بها، ومثلها في (آل عمران) رقم [١٩٠].

وعن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: إنَّ الرياح ثمان: أربع منها عذاب، وهي: القاصف، والعاصف، والصَّرصر، والعقيم، وأربع منها رحمةٌ، وهي: الناشرات، والمبشرات، والمرسلات، والذَّاريات.

الإعراب: ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿فِي خَلۡقِ﴾: متعلقان بمحذوف في محل رفع خبر ﴿إِنَّ﴾ تقدم على اسمها، و﴿خَلۡقِ﴾ مضاف، و﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: مضاف إليه، من إضافة المصدر لمفعوله، وفاعله محذوف؛ إذ التقدير: خلق الله السَّموات. وقال الجمل: الخلق هنا بمعنى المخلوق؛ إذ الآيات التي تشاهد إنَّما هي في المخلوق، الذي هو السَّموات والأرض، وحينئذ فالإضافة بيانية. انتهى. ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾: معطوف على ما قبله، ﴿وَٱخۡتِلَٰفِ﴾: معطوف على ﴿خَلۡقِ﴾

وهو مضاف، و﴿ٱلَّيۡلِ﴾: مضاف إليه من إضافة المصدر لفاعله. ﴿وَٱلنَّهَارِ﴾: معطوف على ما قبله. ﴿وَٱلۡفُلۡكِ﴾: معطوف على: ﴿خَلۡقِ﴾. ﴿ٱلَّتِي﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل جر صفة (الفلك). ﴿تَجۡرِي﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى: (الفلك)، وهو العائد، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها. ﴿فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، أو هما متعلقان بمحذوف حال من الفاعل المستتر، و(ما) تحتمل الموصولة، والموصوفة، والمصدرية، فعلى الأولين مبنية على السكون في محل جر بالباء، والجملة الفعلية بعدها صلتها، أو صفتها، والعائد، أو الرابط رجوع الفاعل إليها، التقدير: تجري بالَّذي، أو: بشيء ينفع الناس، وعلى اعتبارها مصدرية تؤوَّل مع الفعل بعدها بمصدر في محل جر بالباء، التقدير: تجري بنفع الناس، وفيه ضعفٌ، لعدم ظهور فاعل الفعل: ﴿يَنفَعُ﴾.

﴿وَمَآ﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل جر معطوف على ﴿خَلۡقِ﴾. ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية صلة (ما) والعائد محذوف، التقدير: الَّذي أنزله الله. ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: متعلقان بالفعل: ﴿أَنزَلَ﴾ أو بمحذوف حال من مفعوله المحذوف. ﴿مِن مَّآءٍ﴾: بدل ممَّا قبلهما بدل اشتمال، و﴿مِن﴾ بيان لما أبهم في (ما). ﴿فَأَحۡيَا﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف للتعذُّر، والفاعل يعود إلى ﴿ٱللَّهُ﴾. ﴿بِهِ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها لا محل لها مثلها. ﴿بَعۡدَ﴾: ظرف زمان متعلِّق بما قبله، وهو مضاف، و﴿مَوۡتِهَا﴾ مضاف إليه، و(ها) في محل جر بالإضافة. ﴿وَبَثَّ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى (الله). ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها. ﴿مِن كُلِّ﴾: متعلقان بما قبلهما، وهما في محل نصب مفعول به، وقيل: ﴿مِن﴾ زائدة في الإيجاب على مذهب الأخفش، و﴿كُلِّ﴾ مفعول به لـ (بث)، و﴿كُلِّ﴾ مضاف. ﴿دَآبَّةٍ﴾: مضاف إليه.

﴿وَتَصۡرِيفِ﴾: معطوف على ﴿خَلۡقِ﴾ وهو مضاف، و﴿ٱلرِّيَٰحِ﴾ مضاف إليه، من إضافة المصدر للفاعل، والمفعول محذوف، التقدير: وتصريف الرياح السَّحابَ، أو هو من إضافة المصدر لمفعوله، وفاعله محذوف، التقدير: وتصريف الله الرِّياح. ﴿وَٱلسَّحَابِ﴾: معطوف على ﴿ٱلرِّيَٰحِ﴾ وهو أولى من عطفه على: ﴿خَلۡقِ﴾. ﴿ٱلۡمُسَخَّرِ﴾: صفة له. ﴿بَيۡنَ﴾: ظرف مكان متعلق بـ: ﴿ٱلۡمُسَخَّرِ﴾ لأنه اسم مفعول، أو هو متعلق بمحذوف حال من نائب فاعله المستتر فيه. و﴿بَيۡنَ﴾ مضاف، و﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ مضاف إليه. ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾: معطوف على السماء. ﴿لَأٓيَٰتٍ﴾: اللام: لام الابتداء. (آيات): اسم ﴿إِنَّ﴾ مؤخر منصوب، وعلامة نصبه الكسرة نيابة عن الفتحة؛ لأنه جمع مؤنث سالم. ﴿لِّقَوۡمٍ﴾: متعلقان بمحذوف صفة (آيات) ﴿يَعۡقِلُونَ﴾: مضارع مرفوع وعلامة رفعه ثبوت النون، والواو فاعله، والجملة الفعلية صفة قوم، والجملة الاسمية: ﴿إِنَّ فِي...﴾ إلخ مبتدأة، أو مستأنفة، لا محلَّ لها على الاعتبارين.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾

الشرح: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ...﴾ إلخ: لما أثبت الله وحدانيته بالدلائل السابقة؛ بيَّن: أنَّ بعض الناس لم يعتقدها، ولم يؤمن بها، بل سلك طريق الإشراك سفهاً، وغباوةً، وجهلاً، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ...﴾ إلخ: أي: بعض الناس يتخذ آلهة من دون الله يعبدونها، ويقدِّسونها، ويعظِّمونها كما يعظم المؤمنون ربَّهم، ويقدِّسونه، و﴿أَندَادًا﴾ جمع: ند، انظر الآية [٢٢]. هذا والحبُّ، والمحبَّة: ميل القلب، استعير لِحَبَّة القلب، ثمَّ اشتُقَّ منه الحبُّ؛ لأنه أصابها، ورسخ فيها، ومحبَّة العبد لله تعالى: إرادة طاعته، وتحصيل مراضيه، والابتعاد عن معاصيه، ومناهيه، ومحبَّة الله للعبد: إرادة إكرامه، واستعماله في الطاعة، وصرفه عن المعاصي، وإغداق رحمته، وجوده، وكرمه، وإحسانه عليه، قال تعالى في سورة (المائدة) رقم [٥٤]: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ أي: أثبت، وأدوم على محبَّته، لا يختارون على الله سواه، لا في شدَّة، ولا في رخاءٍ، ولا في سرَّاء، ولا في ضرَّاء، والمشركون يعدلون عن آلهتهم في الشَّدائد، ويقبلون على الله، قال تعالى في سورة (العنكبوت) رقم [٦٥]: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، وقال جلَّ ذكره في سورة (لقمان) رقم [٣٢]: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، وكان المشركون أيضاً إذا اتَّخذوا صنماً، ثم رأوا آخر أحسن؛ طرحوا الأوَّل، واختاروا الثاني، وكان بعضهم يصنع الصَّنم من الزُّبد، والحلوى في أوقات السَّنة، فإذا جاعوا؛ أكلوه.

﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟...﴾ إلخ؛ أي: ولو يرى الذين ظلموا أنفسهم بالكفر، والمعاصي عند رؤية العذاب حين يقذف بهم في النار؛ لعرفوا مضرَّة الكفر، وأنَّ ما اتَّخذوه من الأصنام لا ينفعهم، وعلموا، وأيقنوا: أنَّ القوة، والعزَّة لله جميعاً، ولشاهدوا: أنَّ الأمر ليس على ما كانوا عليه من الشِّرك، والجحود، واتِّباع تزيين الشَّياطين لهم.

قال أبو عبيد: المعنى: لو يرى الذين ظلموا في الدنيا عذاب الآخرة؛ لعلموا حين يرونه: أن القوة لله جميعاً. و﴿يَرَى﴾ على هذا من رؤية البصر، وضعَّف هذا التقدير محمد بن يزيد، واستبعده؛ لأنه يجعل العذاب مشكوكاً فيه، وقد أوجبه الله تعالى، ولكنَّ التقدير: «ولو يرى الذين ظلموا: أنَّ القوَّة لله» أولى، وهو قول الأخفش، وانظر الإعراب، ولم يأت لـ (لو) جواب، قال الزهري، وقتادة: الإضمار أشدُّ للوعيد. هذا؛ ويقرأ بالتاء: (ترى)، والمعنى يكون

تقديره: ولو ترى يا محمد الذين ظلموا في حال رؤيتهم العذاب، وفزعهم، واستعظامهم له؛ لأقرُّوا: أنَّ القوة لله. وتقدير آخر: ولو ترى يا محمد الذين ظلموا في حال رؤيتهم العذاب، وفزعهم منه؛ لعلمت: أنَّ القوَّة لله جميعاً. وقد كان النبي ﷺ علم ذلك، ولكن خوطب، والمراد أمته، فإن فيهم مَنْ يحتاج إلى تقوية علمه بمشاهدة مثل هذا. انتهى قرطبي بتصرف.

هذا؛ وفائدة هذا الكلام المبالغة في تهويل الخطب، وتفظيع الأمر، فإن اختصاص القوَّة به تعالى لا يوجب شدَّة العذاب بجواز تركه عفواً مع القدرة عليه. انتهى جمل.

تنبيه: في هذه الآية أضيفت ﴿إِذْ﴾ لما هو مستقبل، ويحصل يوم القيامة، لكنَّه لتحقُّق وقوعه عبَّر عنه بما يعبَّر عن الماضي، وذلك؛ لأنَّ خبر الله تعالى المستقبل في الصِّحة كالماضي، وهو مما يتكرَّر في القرآن الكريم، كقوله تعالى في سورة (غافر) رقم [٧١]: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ...﴾ إلخ. وعكسه قوله تعالى في سورة (الجمعة): ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً...﴾ إلخ. انظر شرح الآيتين في محلِّهما.

الإعراب: ﴿وَمِنَ﴾: الواو: حرف استئناف. (من النَّاس): متعلقان بمحذوف في محل رفع خبر مقدم. ﴿مَن﴾: اسم موصول، أو نكرة موصوفة مبنية على السكون في محل رفع مبتدأ مؤخَّر، هذا هو الظاهر، ولا أرتضيه، بل ولا أعتمده. وانظر ما ذكرته في الآية رقم [٨]. ﴿يَتَّخِذُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى ﴿مَن﴾ تقديره: هو، والجملة الفعلية صلة (مَنْ) أو صفتها، والعائد أو الرابط رجوع الفاعل إليها. ﴿مِن دُونِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، وهما في محل نصب مفعوله الثاني تقدَّم على الأول، و﴿دُونِ﴾ مضاف. و﴿ٱللَّهِ﴾ مضاف إليه. ﴿أَندَادًا﴾: مفعوله الأول. ﴿يُحِبُّونَهُمْ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله، والهاء مفعوله، والجملة الفعلية فيها ثلاثة أوجه: **أحدها**: أن تكون في محل رفع صفة: ﴿مَن﴾ في أحد وجهيها، والضَّمير المرفوع يعود إليها بعد اعتبار اللفظ في فاعل: ﴿يَتَّخِذُ﴾، **والثاني**: أن تكون في محل نصب صفة: ﴿أَندَادًا﴾ والضمير المنصوب يعود إليهم، فهو رابط الصِّفة، وإنما جمعوا جمع العقلاء؛ لأنَّ المشركين يعاملونهم معاملة العقلاء. **والثالث**: أن تكون في محل نصب حال من فاعل: ﴿يَتَّخِذُ﴾ المستتر، وقد أُفرد في الأول حملاً على اللفظ، وجُمع في الثاني: حملاً على المعنى.

﴿كَحُبِّ﴾: متعلقان بمحذوف صفة مصدر محذوف واقع مفعولاً مطلقاً. التقدير: يحبونهم حبّاً كائناً كحب الله. وهذا ليس مذهب سيبويه، وإنَّما مذهبه في مثل هذا التركيب أن يكون منصوباً على الحال من المصدر المضمر المفهوم من الفعل المتقدِّم. وإنَّما أحوج سيبويه إلى هذا؛ لأنَّ حذف الموصوف وإقامة الصِّفة مقامه لا يجوز إلا في مواضع محصورة، وليس هذا منها. انتهى جمل نقلاً من السمين. و(حبِّ) مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾: مضاف إليه من إضافة المصدر لمفعوله، وفاعله محذوف؛ أي: كحبهم الله.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾: الواو: واو الحال. (الذين): اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ، وجملة: ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾ مع المتعلّق المحذوف صلته. ﴿أَشَدُّ﴾: خبره، ومتعلقه ـ وهو المفضل عليه ـ محذوف، تقديره: منهم، وفاعله مستتر فيه، والجملة الاسمية في محل نصب حال من واو الجماعة، والرابط: الواو والضمير المحذوف مع جارِّه، وهو: «منهم».

﴿وَلَوۡ﴾: الواو: واو الاعتراض، أو حرف استئناف. (لو): حرف لما كان سيقع لوقوع غيره. ﴿يَرَى﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف للتعذر.

﴿ٱلَّذِينَ﴾: فاعله. ﴿ظَلَمُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، ومفعوله محذوف، التقدير: أنفسهم، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محلَّ لها، والجملة الفعلية ﴿يَرَى ٱلَّذِينَ...﴾ إلخ لا محل لها ابتدائية، ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفي، وجواب (لو) محذوف. انظر تقديره في الشرح. وأقول هنا: يقدر بعد انتهاء الآية؛ أي: لَمَا اتخذوا من دون الله أنداداً، أو: لعلموا أنَّ الأصنام لا تضرُّ، ولا تنفع.

هذا؛ وعلى قراءة الفعل: (ترىٰ) بالتاء خطاباً للنبيِّ ﷺ، أو لكلِّ من يتأتَّى منه الرؤية، فيكون الفاعل مستتراً تقديره «أنت» و﴿ٱلَّذِينَ﴾ مفعول به، ويكتفى به؛ لأنه بمعنى: تبصر. ﴿إِذۡ﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان؛ لأنه بمعنى «إذا» هنا، كما رأيت في الشرح، مبني على السكون في محل نصب متعلق بالفعل: ﴿يَرَى﴾. ﴿يَرَوۡنَ﴾: فعل مضارع مرفوع والواو فاعله. ﴿ٱلۡعَذَابَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محلِّ جرٍّ بإضافة: ﴿إِذۡ﴾ لها. ﴿أَنَّ﴾ حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱلۡقُوَّةَ﴾: اسمه. ﴿لِلَّهِ﴾: متعلقان بمحذوف خبره. ﴿جَمِيعٗا﴾: حال من الضمير المستتر في الخبر المحذوف، و﴿أَنَّ﴾ واسمها، وخبرها في تأويل مصدر في محل نصب سدَّ مسدَّ مفعولي: ﴿يَرَى﴾. وانظر ما قدَّمته من أنَّ المصدر المؤوَّل يقع بعد جواب «لو» المحذوفة، فيكون في محلِّ نصبٍ سدَّ مسدَّ مفعوله، وعليه يكون مفعول ﴿يَرَى﴾ محذوفاً، وأما على قراءة: (ترى) بالتاء فالمصدر المؤول في محل جر بحرف جر محذوف، التقدير: لأنَّ القوة... إلخ، وقال القرطبي: في موضع نصب مفعول لأجله، وأنشد سيبويه قول حاتم الطائي ـ وهو الشَّاهد رقم [٣٤٦] من كتابنا: «فتح ربِّ البرية» ـ: [الطويل]

وَأَغْفِرُ عَوْرَاءَ الْكَرِيمِ ادِّخَارَهُ وَأُعْرِضُ عَنْ شَتْمِ اللَّئِيمِ تَكَرُّمَا

هذا؛ وقد قرئ بكسر همزة (إن)، وعليه فالجملة اسمية، وهي في محل نصب مقول القول لقولٍ محذوف يقع جواباً لـ (لو)، التقدير: لقالوا: إنَّ القوة... إلخ، وإعراب ما بعدها مثلها على قراءتي كسر الهمزة، وفتحها، و﴿شَدِيدُ﴾ مضاف، و﴿ٱلۡعَذَابِ﴾: مضاف إليه من إضافة الصِّفة المشبهة لفاعلها.

﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾

الشرح: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟﴾ يعني: السادة، والرُّؤساء تبرؤوا ممَّن اتَّبعهم على الكفر، ينكرون إضلالهم. وفي مختصر ابن كثير: تبرأت الملائكة الَّذين كانوا يزعمون: أنَّهم يعبدونهم في الدَّار الدنيا، فتقول الملائكة: ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ سورة (القصص) رقم [٦٣]. ﴿قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ سورة (سبأ) رقم [٤١]، والجن أيضاً تتبرأ منهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ﴾ (الأحقاف) رقم [٦]، والمعتمد الأول. ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾ وهم الضعفاء الذين اتبعوا الأقوياء، وقلَّدوهم بالكفر، والضلال. هذا؛ والتبرُّؤ: الخلوص، والانفصال، ومنه: برئت من الدين، ونحوه، وهو هنا بمعنى: يتبرأ، وعبَّر بالماضي عن المستقبل لتحقق وقوعه، ومثله كثير في القرآن الكريم. ﴿وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ يعني: التابعين، والمتبوعين. قيل: عند تيقنهم العذاب عند المعاينة، وقيل: عند العرض والمساءلة في الآخرة، قال القرطبيُّ ـ رحمه الله تعالى ـ: كلاهما حاصلٌ، يعاينون عند الموت ما يصيرون إليه من الهوان. وفي الآخرة يذوقون أليم العذاب، والنَّكال. ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ جمع: سبب، وهو في الأصل: ما يتصل به إلى شيءٍ عيناً كان، أو معنىً، والمراد به هنا: الوُصَل التي كانت بينهم في الدُّنيا من القرابات، والصَّداقات، والمال، وغير ذلك. وأسباب السموات: أبوابها، وطرقها، قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾.

وقال زهير في معلَّقته: [الطويل]

وَمَنْ هَابَ أَسْبَابَ المَنَايَا يَنَلْنَهُ وَلَوْ رَامَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ بِسُلَّمِ

الإعراب: ﴿إِذْ﴾: بدل من سابقتها في الآية السابقة. ﴿تَبَرَّأَ﴾: فعل ماض. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: فاعله، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة ﴿إِذْ﴾ إليها. ﴿ٱتُّبِعُوا۟﴾ فعل ماض مبني للمجهول، والواو نائب فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية صلة الموصول. ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ﴾: متعلقان بالفعل ﴿تَبَرَّأَ﴾ وجملة: ﴿ٱتَّبَعُوا۟﴾ مع مفعوله المحذوف صلة الموصول لا محل لها. ﴿وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾: فعل ماض وفاعله ومفعول به، والجملة الفعلية في محل نصب حال من واو الجماعة، وهي على تقدير: «قد» قبلها، والرابط: الواو، والضمير، والجملة الفعلية بعدها معطوفة عليها، وهي في محل نصب حال مثلها.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ١٦٧﴾

الشرح: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾: هم الضُّعفاء الذين اتَّبعوا الأقوياء، والرُّؤساء في الشرك، والضلالة. ﴿لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾: رجعة إلى الدنيا. ﴿فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ﴾: من المتبوعين. ﴿كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ﴾: الكرَّة: الرَّجعة، والعودة إلى حالٍ قد كانت، أي: قال الأتباع: لو رُددنا إلى الدُّنيا؛ حتَّى نعمل صالحاً، ونتبرأ منهم كما تبرؤوا منا. وهم كاذبون في هذا، كما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ رقم [٢٨] من سورة (الأنعام).

﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْۖ﴾ أي: كما أراهم الله العذاب كذلك يريهم أعمالهم. قال الربيع ـ رحمه الله تعالى ـ أي: الأعمال الفاسدة التي ارتكبوها في الدُّنيا، فوجبت لهم بها النار، وقال ابن مسعود والسُّدي: الأعمال الصالحة التي تركوها، ففاتتهم الجنة. ورويت في هذا القول أحاديث. قال السُّدِّي: ترفع لهم الجنَّة، فينظرون إليها، وإلى بيوتهم فيها لو أطاعوا الله تعالى، ثمَّ تقسم بين المؤمنين، فذلك حين يندمون. وأضيفت هذه الأعمال إليهم من حيث هم مأمورون بها، وأمَّا إضافة الأعمال الفاسدة إليهم؛ فمن حيث عملوها.

﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ دليل على خلود الكفار فيها، وأنَّهم لا يخرجون منها. هذا؛ وعدل عن الجملة الفعلية إلى الجملة الاسمية؛ إذ الأصل: «وما يخرجون» للمبالغة في الخلود، والإقناط من الخلاص والرُّجوع إلى الدُّنيا.

هذا؛ و﴿حَسَرَٰتٍ﴾ جمع: حسرة، وهي شدَّة الندم، وتألُّم القلب على شيءٍ فات، وهي ساكنة السين، وفتحت في الجمع على القاعدة المتَّبعة، وهي: أنه إذا جمع الاسم الثلاثي الصحيح العين، الساكنها، المؤنث المختوم بالتاء أو المجرد عنها بألف وتاء أتبعت عينه لفائه، سواء كانت فاؤه مضمومةً، أو مفتوحةً، أو مكسورةً، فتقول في بُسْرة، وجُمْل: بُسُرات، وجُمُلات. وفي حفْنة، ودَعْد: حَفَنَات، ودَعَدَات. وفي كِسرة، وهِنْد: كِسِرات وهِنِدات، ويجوز في العين بعد الضمة، والكسرة التسكين، والفتح، فتقول: بُسْرات، وبُسَرات، وجُمْلات وجُمَلات، وكِسْرات وكِسَرات، وهِنَدات وهِندات، ولا يجوز التسكين بعد الفتحة، بل يجب الاتباع.

هذا؛ وقال المرحوم مصطفى الغلاييني: وإن جمعت اسماً ثلاثيّاً مضموم الأول، أو مكسوره، ساكن الثاني، صحيحه، خالياً من الإدغام، مثل: خُطوة، وجُمْل، وهِند، وقطعة، وفقرة؛ جاز فيه ثلاثة أوجه: الأول: إتباع ثانيه لأوله كخُطُوات، وجُمُلات، وهِنِدات، وقِطِعات، وفِقِرات. الثاني: فتح ثانيه كخُطَوات، وجُمَلات، وهِنَدات، وقِطَعات، وَفِقَرات. الثالث: إبقاء ثانيه على حاله من السُّكون، كخُطْوات، وجُمْلات، وهِنْدات، وقِطْعات، وفِقْرات.

أما الاسم فوق الثلاثي، كزينب، والاسم الصِّفة، كضخمة، والاسم الثلاثي المُحرَّك الثاني كشجرة. والاسم الَّذي ثانيه حرف علَّة، كجوزة، والاسم الثلاثي الذي فيه إدغام كمرَّة، فكل ذلك لا تغيير فيه عند جمعه جمع مؤنث سالماً.

الإعراب: (قال): فعل ماض. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: فاعله. ﴿ٱتَّبَعُواْ﴾: فعل ماض، وفاعله، والألف للتفريق، والمفعول محذوف، والجملة الفعلية صلة الموصول لا محل لها. ﴿لَوۡ﴾: حرف تمنٍّ. ﴿أَنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿لَنَا﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر: ﴿أَنَّ﴾ تقدَّم على اسمها. ﴿كَرَّةً﴾: اسمها مؤخر. و﴿أَنَّ﴾ واسمها، وخبرها في تأويل مصدر في محل رفع فاعل بالفعل المحذوف، تقديره: يقع، أو يحصل، ونحوه. وقد اختلف: هل لـ ﴿لَوۡ﴾ هذه جواب؟ والمعتمد: أنَّ جوابها محذوف قام مقامه الكلام الآتي. ﴿فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ﴾ الفاء: هي السببية (نتبرأ): فعل مضارع منصوب بـ (أن) مضمرة بعد الفاء، والفاعل مستتر وجوباً تقديره: «نحن». ﴿مِنۡهُمۡ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، و«أن» المضمرة بعد الفاء، والفعل المضارع في تأويل مصدرٍ معطوفٍ على مصدرٍ متصيَّد من الفعل السَّابق، وتقدير الكلام: نتمنى رجعة إلى الدنيا، وبراءة من هؤلاء المتبوعين. وهذا الكلام في محل نصب مقول القول، وجملة: (قال...) إلخ معطوفة على جملة: (نتبرأ) فهي في محل جرٍّ مثلها.

﴿كَمَا﴾: الكاف حرف تشبيه وجر. (ما): مصدرية. ﴿تَبَرَّءُواْ﴾: ماض، وفاعله، والألف للتفريق، و(ما) المصدرية، والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جرٍّ بالكاف، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف صفة لمصدرٍ محذوف واقع مفعولاً مطلقاً للفعل قبله، التقدير: فنتبرأ منهم تبرُّؤاً كائناً مثل تبرُّئهم منَّا. وهذا ليس مذهب سيبويه، وإنَّما مذهبه في مثل ذلك أن يكون الجار والمجرور متعلقين بمحذوف حالٍ من المصدر المضمر المفهوم من الفعل السَّابق، وإنما أحوج سيبويه إلى هذا؛ لأنَّ حذف الموصوف وإقامة الصِّفة مقامه لا يجوز إلا في مواضع محصورة، وليس هذا منها. انتهى سمين في غير هذا الموضع.

﴿كَذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لمصدر محذوف واقع مفعولاً مطلقاً للفعل بعده، التقدير: يريهم الله أعمالهم إراءةً كائنةً... إلخ. وانظر: ﴿كَذَٰلِكَ يُحۡيِ﴾ في الآية رقم [٧٣]. ﴿يُرِيهِمُ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء للثقل، والهاء مفعول به أول. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله. ﴿أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾: مفعول به ثان، والهاء في محل جرٍّ بالإضافة. ﴿حَسَرَٰتٍ﴾: مفعول به ثالث، وقيل: حال منصوب، وعلامة نصبه الكسرة نيابةً عن الفتحة؛ لأنه جمع مؤنَّث سالم. ﴿عَلَيۡهِمۡۖ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ ﴿حَسَرَٰتٍ﴾ لأنه جمع: حسرة، وهي مصدر، أو هما متعلقان بمحذوف صفة له، وجملة: ﴿كَذَٰلِكَ...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها.

﴿وَمَا﴾: الواو: واو الحال. (ما): نافية حجازية تعمل عمل «ليس». ﴿هُم﴾ ضمير منفصل مبني على السكون في محل رفع اسمها. ﴿بِخَٰرِجِينَ﴾: الباء: حرف جر صلة. (خارجين): خبر:

(ما) مجرور لفظاً، منصوب محلاًّ، وفاعله مستتر فيه: ﴿مِنَ ٱلنَّارِ﴾: متعلقان بـ: (خارجين) والجملة الاسمية: ﴿وَمَا هُم...﴾ إلخ في محل نصب حال من الضَّمير الواقع مفعولاً به، والرابط: الواو، والضمير.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾﴾

الشرح: لمَّا بيّن الله تعالى: أنَّه لا إلٰه إلا هو، وأنَّه المستقلُّ بالخلق؛ شرع يبيِّن: أنه الرزَّاق لجميع خلقه، مؤمنهم، وكافرهم، وصالحهم، وفاسدهم، فذكر في معرض الامتنان: أنَّه أباح لهم أن يأكلوا مما في الأرض في حال كونه حلالاً مستطاباً في نفسه، غير ضارٍّ للأبدان، ولا للعقول، ونهاهم عن اتِّباع خطوات الشَّيطان الرَّجيم.

نزلت الآية الكريمة في بني ثقيف، وخزاعة، وعامر بن صعصعة، وبني مدلج فيما حرَّموا على أنفسهم من الحَرْث، والأنعام، والبَحيرة، والسَّائبة، والوصيلة، والحام. انظر الآية رقم [٣] من سورة (المائدة)، والآية رقم [١٣٦] من سورة (الأنعام) وما بعدها، لترى أعمال أهل الجاهلية. وعن عياض بن حماد ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «**يقولُ اللهُ تعالى: إنَّ كلَّ مالٍ مَنَحْتُهُ عِبَادِي فَهُوَ لَهُمْ حَلَالٌ**» وفيه: «**وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي ضُعَفَاءَ، فَجَاءَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ، فاجْتَالَتْهُمْ عنْ دِينِهِمْ، وحرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ**». رواه مسلم، ومعنى اجتالتهم: صرفتهم عن الهدى إلى الضلالة.

هذا؛ والحلال: المباح الذي أحلَّه الشرع، وانحلَّت عقدة الخطر عنه، وأصله من الحل الذي هو نقيض العقد. والطَّيب: ما يستلذُّه المسلم، والمسلم لا يستطيب إلا الحلال، ويعاف الحرام. هذا؛ والأمر للإباحة، لا للوجوب، و(من) دالة على التبعيض؛ إذ لا يؤكل كل ما في الأرض، والطَّيب: ما يستطيبه الشَّرع، وتقبله الفطرة السَّليمة، والخليقة المستقيمة، وخذ ما يلي:

فعن عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: تليت هذه الآية عند رسول الله ﷺ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ...﴾ إلخ فقام سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ فقال: يا رسولَ الله! ادعُ اللهَ أنْ يجعلني مستجابَ الدَّعوة، فقال له النبي ﷺ: «**يا سَعْدُ أَطِبْ مَطْعَمَكَ؛ تَكُنْ مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيدِهِ! إنَّ الْعَبْدَ لَيَقْذِف اللُّقمة الحرامَ في جَوْفِهِ مَا يُتَقَبَّلُ مِنْهُ عملٌ أربعينَ يَوْماً، وأيُّمَا عَبْدٍ نَبَتَ لحمُهُ مِنْ سُحْتٍ؛ فالنَّارُ أولَى بِهِ**». رواه الطبراني في الصغير. ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾: خطواته: زخارفه، ووساوسه، وأحابيله، وتزيينه تحليل الحرام، وتحريم الحلال. والمعنى: لا تسلكوا سبيله، ولا تأتمُّوا به، ولا تقفوا آثاره.

قال قتادة، والسُّديُّ: كلُّ معصيةٍ للهِ فهي من خطوات الشَّيطان، وقال مسروق ـ رحمه الله تعالى ـ أتي عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ بضرع، وبلح، فجعل يأكل، فاعتزل رجل من

القوم، فقال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: ناولوا صاحِبَكم! فقال: لا أريدُهُ. فقالَ: أصائمٌ أنْتَ؟ قالَ: لا، قال: فَمَا شَأْنُكَ؟ قال: حَرَّمتُ أَنْ آكل ضِرْعاً أبداً! فقال ابن مسعود: هذا من خُطوات الشيطان، فاطعمْ، وكفِّرْ عن يمينك. رواه ابن أبي حاتم عن أبي الضُّحى عن مسروق، وعن ابن عباسٍ ـ رضي الله عنهما ـ قال: ما كان مِنْ يمينٍ، أو نذرٍ في غضبٍ؛ فهوَ من خطواتِ الشَّيطانِ، وكفارتُهُ كفارَةُ يمينٍ.

﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾: بيِّن العداوة. وقد بيَّن الله لنا عداوته لآدم، ولذريته، قال تعالى في سورة (فاطر) رقم [٦] ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا...﴾ إلخ، وقال في سورة (الكهف) رقم [٥٠]: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾، ومثل ذلك كثير في آيات الله، وهو غاية في التَّحذير من كيده، وشرِّه.

الإعراب: (يا): حرف نداء ينوب مناب أدعو. (أيُّها): منادى نكرة مقصودة مبنية على الضم في محل نصب بـ (يا)، و(ها) حرف تنبيه لا محل له، أقحم للتوكيد، وهو عوض من المضاف إليه، ولا يقال: ضمير في محل جر بالإضافة؛ لأنه يجب حينئذ نصب المنادى. ﴿ٱلنَّاسُ﴾: بدل من (أيُّ) أو عطف بيان عليه، وانظر الآية رقم [٢١]. ﴿كُلُوا۟﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها ابتدائية كالجملة الندائية قبلها. ﴿مِمَّا﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: متعلقان بمحذوف صلة الموصول، أو بمحذوف صفة: (ما) إن كانت نكرة موصوفة. ﴿حَلَٰلًا﴾: حال من: (ما) وقيل: هو مفعول به لـ ﴿كُلُوا۟﴾. وقيل: هو صفة مصدر محذوف، أي: أكلاً حلالاً، وقال مكي: صفة مفعول به، التقدير: شيئاً حلالاً، أو رزقاً حلالاً. ﴿طَيِّبًا﴾: صفة: ﴿حَلَٰلًا﴾ وهي صفة مؤكدة. (لا): ناهية جازمة. ﴿تَتَّبِعُوا۟﴾: فعل مضارع مجزوم بـ (لا) الناهية، وعلامة جزمه حذف النون... إلخ، والواو فاعل، والألف للتفريق، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها لا محل لها مثلها، ﴿خُطُوَٰتِ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه الكسرة نيابة عن الفتحة؛ لأنه جمع مؤنث سالم، وهو مضاف، و﴿ٱلشَّيْطَٰنِ﴾: مضاف إليه. ﴿إِنَّهُۥ﴾: حرف مشبه بالفعل، والهاء اسمه.

﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بما بعدهما، وانظر الآية رقم [٢٠٧]. ﴿عَدُوٌّ﴾: خبر: (إنَّ).

﴿مُّبِينٌ﴾: صفة له، والجملة الاسمية تعليلية لا محل لها من الإعراب.

﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾

الشرح: (السوء والفحشاء): قال البيضاوي: هو ما استقبَحه الشَّرع، وأنكره العقل. والعطف لاختلاف الوصفين، فإنه سوء لاغتمام العاقل به، وفحشاء باستقباحه إياه، وقيل: السوء: من القبائح، والفحشاء: ما تجاوز الحد من الكبائر. وقيل: الأول ما لا حدَّ فيه،

والثاني ما شرع فيه الحد. انتهى. وسمِّي السُّوء سوءاً؛ لأنه يسوءُ صاحبه بسوء عواقبه، وهو مصدر: ساء، يسوء، سوءاً، ومساءةً: إذا أحزنه، والسُّوء: الشرُّ، والفساد، والجمع: أسواء، وهو بضم السِّين من: ساءه، وبفتحها المصدر، تقول: «رجل سَوْءٍ» بالإضافة و«رجل السَّوْء» ولا تقول: الرَّجل السَّوْء، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَـٰسِقِينَ﴾. هذا؛ والفحشاء أصله قبح المنظر، كما قال امرؤ القيس في معلَّقته رقم [٣٢]: [الطويل]

وَجِيدٍ كَجِيدِ الرِّئْمِ لَيْسَ بِفَاحِشٍ إِذَا هِيَ نَصَّتْهُ وَلَا بِمُعَطَّلِ

وقال مقاتل رحمه الله تعالى: إنَّ كلَّ ما في القرآن من ذكر الفحشاء فإنَّه الزنى إلا قوله تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَـٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ فإنَّه منع الزكاة؛ أي: البخل بإنفاق المال.

﴿وَأَن تَقُولُوا۟...﴾ إلخ: تفتروا على الله أشياء لا أصل لها، كاتِّخاذ الأنداد، وتحليل المحرَّمات، وتحريم الطيبات، وغير ذلك ممَّا هو مخالف للدِّين الحنيف، والشَّرع الشَّريف، فيدخل في هذا كلُّ كافر، وكلُّ مبتدعٍ أيضاً. والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿إِنَّمَا﴾: كافة ومكفوفة مفيدة للحصر. ﴿يَأْمُرُكُم﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى ﴿ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾ والكاف مفعول به، والجملة الفعلية مستأنفة لا محل لها. ﴿بِٱلسُّوٓءِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿وَٱلْفَحْشَآءِ﴾: معطوف على ما قبله. (أن): حرف مصدري، ونصب. ﴿تَقُولُوا۟﴾: فعل مضارع منصوب بـ (أن)، وعلامة نصبه حذف النون... إلخ، والواو فاعل، والألف للتفريق و(أن) والفعل المضارع في تأويل مصدر في محل جر معطوف على (السُّوء والفحشاء). ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿مَا﴾: اسم موصول، أو نكرة موصوفة مبنية على السكون في محل نصب مفعول به. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿تَعْلَمُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون، والواو فاعله، والجملة الفعلية صلة: (ما) أو صفتها، والعائد أو الرابط محذوف؛ إذ التقدير: الذي، أو شيئاً لا تعلمونه.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾

الشرح: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾: وإذا قيل للمشركين: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ على رسوله من الوحي، والقرآن، والهدى، والنور، والإيمان، واتركوا ما أنتم عليه من الجهل، والضَّلال، والطُّغيان. ﴿قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ...﴾ إلخ. ونظيرها الآية رقم [٢١] من سورة (لقمان)، وأيضاً قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ رقم [١٠٤] من سورة (المائدة). وإنما عدل عن الخطاب معهم للنِّداء على ضلالتهم، كأنه التفت إلى العقلاء، وقال

لهم: انظروا إلى هؤلاء الحمقى ماذا يجيبون؟! ومعنى ﴿مَآ أَلْفَيْنَا﴾: ما وجدنا عليه آباءنا من عبادة الأصنام، وتحريم السوائب، والبحائر، وغيرها، فإنهم كانوا خيراً منَّا، وأعلم، وأعقل، فلذا ردَّ الله عليهم بقوله: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُم...﴾ إلخ؛ أي: أيتبعون آباءهم؛ وإن كانوا سفهاء أغبياء، ليس لهم عقل يردعهم عن الشر، ولا بصيرة تنير لهم الطريق؟! والاستفهام للإنكار، والتوبيخ، والتعجيب من حالهم في تقليدهم الأعمى للآباء. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أنها نزلت في طائفة من اليهود، دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام، فقالوا: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ...﴾ إلخ، والأولى التعميم، وهي بالعرب الجاهليين ألزق، وألزم، والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿وَإِذَا﴾: الواو: حرف استئناف. (إذا): ظرف لما يستقبل من الزمان، خافض لشرطه منصوب بجوابه صالح لغير ذلك، مبني على السكون في محل نصب. ﴿قِيلَ﴾: فعل ماض مبني للمجهول. ﴿لَهُمُ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿ٱتَّبِعُواْ﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿مَآ﴾: اسم موصول، أو نكرة موصوفة مبنية على السكون في محل نصب مفعول به. ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾: ماض، وفاعله، والجملة الفعلية صلة ما، أو صفتها، والعائد أو الرابط محذوف، التقدير: اتبعوا الذي، أو شيئاً أنزل الله، والجملة الفعلية في محل رفع نائب فاعل ﴿قِيلَ﴾، وهذا على قول مَنْ يجيز وقوع الجملة فاعلاً.

﴿قَالُواْ﴾: ماض، وفاعله، والألف للتفريق، ﴿بَلْ﴾: حرف عطف ما بعده على جملة محذوفة قبله، تقديرها: لا نتبع ما أنزل الله بل نتبع... إلخ، وقال أبو البقاء: ﴿بَلْ﴾ هنا للإضراب عن الأول، أي: لا نتبع ما أنزل الله، وليس بخروج من قصَّة إلى قصة، يعني بذلك: أنه إضراب إبطال، لا إضراب، وانتقال، وعلى هذا يقال: كلُّ إضراب في القرآن المراد به الانتقال من قصَّة إلى قصَّة إلا في هذه الآية، وإلا في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ فإنَّه محتمل للأمرين. انتهى جمل بتصرف. ﴿نَتَّبِعُ﴾: فعل مضارع والفاعل مستتر تقديره: نحن. ﴿مَآ﴾ مفعول به، وهي تحتمل الموصولة، والموصوفة. ﴿أَلْفَيْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿عَلَيْهِ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، وهما في محل نصب مفعوله الثاني، تقدم على الأول. ﴿ءَابَآءَنَآ﴾: مفعول به، و(نا) في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية صلة: ﴿مَآ﴾ أو صفتها، والعائد أو الرابط الضمير المجرور محلاًّ بـ (على)، والجملة الفعلية: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ...﴾ إلخ في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قَالُواْ...﴾ إلخ جواب: (إذا) لا محل لها، و(إذا) ومدخولها كلام مستأنف لا محل له.

﴿أَوَلَوْ...﴾ إلخ: الهمزة: حرف استفهام وتوبيخ. الواو: فيها قولان: أحدهما ـ وإليه ذهب أبو البقاء، وابن عطية ـ: أنها للعطف، والثاني: ـ وإليه ذهب الزمخشري في كشافه، وتبعه البيضاوي، والنسفي ـ: أنها واو الحال. وللجمل كلام كثير في الجمع بين القولين، نقله عن

شيخه. وأرى: أنها حرف استئناف؛ لأنَّ الجملة بعدها متضمنةٌ التوبيخ، والإنكار، وأن الوقف على ﴿ءَابَآءَنَآ﴾ جيد، والمعنى تامٌّ لا يحتاج إلى تقييده بحال، وأن الاستفهام إنشاء، ولا يصح وقوعه حالاً كما هو معروف، وأن تقدير معطوف عليه محذوف تكلُّف لا داعي له.

(لو): حرف لما كان سيقع لوقوع غيره. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿ءَابَآؤُهُمْ﴾: اسمها، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَعْقِلُونَ﴾: مضارع وفاعله. ﴿شَيْئًا﴾: مفعول به، وله متعلق محذوف، التقدير: شيئاً نافعاً من أمر الدين، والجملة الفعلية في محل نصب خبر: ﴿كَانَ﴾ والتي بعدها معطوفة عليها، فهي في محل نصب مثلها، والمتعلق محذوف؛ إذ التقدير: لا يهتدون إلى حق. وجملة: ﴿كَانَ...﴾ إلخ لا محل لها؛ لأنها ابتدائية، ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفي، وجواب (لو) محذوف، التقدير: لاتبعوهم، و(لو) ومدخولها كلام مستأنف لا محل له، كما ذكرت في الواو، وما أجدرك أن تنظر الآية رقم [١٠٤] من سورة (المائدة)؛ فهي مثلها في كل شيء مع اختلاف في بعض الألفاظ، وأيضاً الآية رقم [٢١] من سورة (لقمان) وهو لا يؤثر في المعنى، والإعراب. والله الموفق للحقِّ والصواب.

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾

الشرح: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ﴾... إلخ: شبَّه الله تعالى واعظ الكفار، وداعيهم، وهو محمَّد ﷺ بالرَّاعي الذي يَنْعِق بالغنم، والإبل، فلا تسمع إلا دعاءه، ونداءه، ولا تفهم ما يقول. هكذا فسره ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وغيره، وهذه نهاية الإيجاز. قال سيبويه ـ رحمه الله تعالى ـ: ولم يشبهوا بالناعق، إنَّما شبهوا بالمنعوق به، والمعنى: ومثلك يا محمد، ومثل الذين كفروا كمثل الناعق، والمنعوق به من البهائم التي لا تفهم. فحذف لدلالة المعنى عليه، وقال ابن زيد ـ رحمه الله تعالى ـ: المعنى: مثل الذين كفروا في دعائهم الآلهة من الجماد، كمثل الصَّائح في جوف الليل، فيجيبه الصَّدَى، فهو يصيح بما لا يسمع، ويجيبه ما لا حقيقة فيه، ولا منتفع. وقيل: المعنى: ومثل الذين كفروا في دعائهم آلهتهم التي لا تفقه دعاءهم، كمثل النَّاعق بغنمه، لا ينتفع من نعيقه بشيءٍ غير أنَّه في عناء، وكذلك الكافر ليس له من دعائه الآلهة إلا العناء. وقيل غير ذلك، والأوَّل هو الأولى بالاعتبار.

هذا؛ وفي قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ...﴾ إلخ تشبيهٌ مرسل، ومجمل، مرسل لذكر الأداة، ومجمل لحذف وجه الشبه. وقال ابن القيم في إعلام الموقعين عن الآية: لك أن تجعل هذا التشبيه من المركَّب، وأن تجعله من التشبيه المفرَّق، فإن جعلته من المركَّب؛ كان تشبيهاً للكفار في عدم فقههم، وانتفاعهم بالغنم؛ الَّتي يَنْعِق بها الراعي: فلا تفقه من قوله شيئاً غير

الصَّوت المجرَّد الذي هو الدعاء والنِّداء. وإن جعلته من التشبيه المفرَّق؛ فالذين كفروا بمنزلة البهائم، ودعاء داعيهم إلى الطريق والهدى بمنزلة الذي يَنْعِق بها، ودعاؤهم إلى الهدى بمنزلة النَّعْق، وإدراكهم مجرد الدُّعاء والنِّداء كإدراك البهائم مجرَّد صوت الناعق. والله أعلم.

هذا ويقال: نعَق الراعي بغنمه يَنْعِق نعيقاً، ونعاقاً: إذا صاح بها، وزجرها. قال الأخطل في هجاء جرير: [الكامل]

فَانْعِقْ كَضَأْنِكَ يَا جَرِيْرُ فَإِنَّمَا ... مَنَّتْكَ نَفْسُكُ فِي الْخَلَاءِ ضَلَالَا

وبالجملة: المعنى: ومثل الكفار في عدم انتفاعهم بالقرآن، وحججه السَّاطعة، ومثل مَنْ يدعوهم إلى الهدى، كمثل الراعي الذي يَنْعِق بغنمه، ويزجرُها، فهي تسمع الصَّوت، والنداء دون أن تفهم الكلام، والمراد، أو تدرك المعنى الَّذي يقال لها، ولكنَّها لا تجيب بالقول، فهؤلاء الكفار كالدَّواب، لا يفهمون ما تدعوهم إليه، ولا يفقهون، يسمعون القرآن، ويصمُّون عنه.

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ انظر الآية رقم [١٨] وخذ هنا زيادة على ما ذكرته هناك قوله تعالى في سورة (الأنعام) رقم [٣٩]: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، وقوله تعالى في سورة (الأعراف) رقم [١٧٩]: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾.

الإعراب: ﴿وَمَثَلُ﴾: الواو: حرف استئناف. (مثل): مبتدأ، وهو مضاف، و﴿ٱلَّذِينَ﴾: مضاف إليه مبني على الفتح في محل جر بالإضافة، وجملة: ﴿كَفَرُوا۟﴾ مع المتعلَّق المحذوف صلة الموصول، لا محل لها. ﴿يَنْعِقُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى الَّذي، وهو العائد، والجملة صلة: ﴿ٱلَّذِى﴾. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، والجملة المنفية: ﴿لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ صلة الموصول، لا محل لها، والعائد الفاعل العائد إلى (ما)، وينبغي أن تعرف: أنَّ بعد هذا الإعراب حذفاً، وتقدير الكلام: مثل داعي الذين كفروا إلى الهدى كمثل الناعق بالغنم، وإنما قدر ذلك ليصح التشبيه، فداعي الذين كفروا كالناعق بالغنم، ومثل الذين كفروا كالغنم المنعوق بها. انتهى عكبري بتصرف. وانظر الشرح. والجملة الاسمية: (مثل الذين...) إلخ مستأنفة لا محل لها.

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾: يجوز أن تكون هذه الأسماء أخباراً لمبتدأ محذوف، وأن تكون أخباراً لمبتدآت محذوفة، والجملة الاسمية الواحدة، أو الجمل المتعدِّدة في محل نصب حال من واو الجماعة. والرابط الضمير فقط، وهو المبتدأ المقدر بـ «هو»، والاستثناء ممكن، فلا يكون لها محل من الإعراب. ﴿فَهُمْ﴾: الفاء: حرف عطف، وسبب. (هم): ضمير منفصل مبني على

السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَعْقِلُونَ﴾: مضارع، والواو فاعله. والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها، لا محلَّ لها، على الاعتبارين فيها. هذا؛ ومن الغريب: أنَّ الواحدي في كتابه (البسيط) قد اعتبر ﴿إِلَّا﴾ زائدة في هذه الآية، وأنشد عليه قول الفرزدق: [الطويل]

هُمُ الْقَوْمُ إِلَّا حَيْثُ حَلُّوا سُيُوفَهُمْ وَضحَّوْا بِلَحْمٍ مِنْ مُحِلٍّ ومُحْرِمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ١٧٢﴾

الشرح: نادى الله عباده المؤمنين في هذه الآية بأكرم وصف، وألطف عبارة، أي: يا من صدقتم الله، ورسوله، وتحليتم بالإيمان الذي هو زينة الإنسان! وقد خاطب الله عباده المؤمنين بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ في ثمانية وعشرين موضعاً من القرآن، ونداء المخاطبين باسم المؤمنين يذكرهم بأن الإيمان يقتضي من صاحبه أن يتلقَّى أوامر الله، ونواهيه بحسن الطاعة، والامتثال، وإنما خصَّهم الله بالنداء؛ لأنهم هم المستجيبون لأمره، المنتهون عما نهى الله عنه؛ إذ الغالب أن يتبع هذا النداء بأمرٍ، أو بنهي.

﴿كُلُواْ﴾: الأمر مستعمل في كلٍّ من الوجوب، والندب، والإباحة، الأول: إذا كان لقيام البدن، والثاني: كالأكل مع الضَّيف، والثالث: في غير ما ذكر. انتهى جمل بتصرف. وقد أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالأكل من طيبات ما رزقهم تعالى، وأن يشكروه تعالى على ذلك؛ إن كانوا عُبَّاده، والأكل من الحلال سببٌ لتقبُّل الدُّعاء، والعبادة كما أنَّ الأكل من الحرام يمنع قبول الدعاء، والعبادة، كما جاء في الحديث الشريف من قول الرسول ﷺ: «**أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ الله طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّباً، وَإِنَّ الله أَمَرَ المؤمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ فقالَ:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾، **وقال:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ **ثمَّ ذكر الرَّجل يطيل السفر، أشعث أغبر، يمد يده إلى السماء: يا ربُّ! يا ربُّ! ومَطْعَمُهُ حرامٌ، وَمَشْرَبُهُ حرامٌ، ومَلْبَسُهُ حرامٌ، وغُذِيَ بِالْحَرامِ، فَأَنَّى يُستجَابُ لَهُ؟!**». رواه أبو هريرة رضي الله عنه، وأخرجه مسلم، وأحمد، والترمذي.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: تليت هذه الآية عند رسول الله ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا﴾ فقام سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ فقال: يا رسول الله! ادعُ الله أن يجعلني مستجاب الدَّعوة، فقال له النبي ﷺ: «**يَا سَعْدُ! أَطِبْ مَطْعَمَكَ تَكُنْ مُسْتَجابَ الدَّعْوةِ؛ وَالَّذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيَدِهِ! إِنَّ الْعَبْدَ لَيَقْذِفُ اللُّقْمَةَ الْحَرَامَ في جَوْفِهِ، مَا يُتَقَبَّلُ مِنْهُ عَملٌ أَرْبَعينَ يَوْماً، وَأَيُّمَا عَبْدٍ نَبَتَ لَحْمُهُ مِنْ سُحْتٍ؛ فَالنَّارُ أَوْلَى بِهِ**». رواه الطَّبراني في الصغير.

والمراد من: ﴿طَيِّبَٰتِ﴾: حلالات، والحلال هو المراد عند الإطلاق؛ لأنَّ الحرام خبيث، نجس؛ وإن كان مستلذّاً عند مَنْ يأكله. وانظر الدُّعاء في الآية رقم [١٨٥] الآتية.

﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ﴾ انظر الشكر في الآية رقم [٥٢]. ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾: انظر العبادة في سورة الفاتحة، ولا تنس: أنَّ تقديم المفعول يوحي بالاختصاص. وعن النبيِّ ﷺ قال: «**يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: أنا، والإنسُ، والجنُّ في نَبَأٍ عظيمٍ، أَخْلُقُ، ويُعْبَدُ غيري، وأرْزُقُ، ويُشْكَرُ غيري!**».

الإعراب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: انظر إعراب مثلها فيما تقدَّم قريباً. ﴿مِن طَيِّبَٰتِ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. و﴿طَيِّبَٰتِ﴾ مضاف. ﴿مَا﴾: في محل جر بالإضافة وهي تحتمل الموصولة، والموصوفة، فهي مبنية على السكون في محل جر. هذا؛ وجملة: ﴿ءَامَنُوا۟﴾ مع المتعلق المحذوف صلة الموصول لا محل لها، ومفعول: ﴿كُلُوا۟﴾ محذوف، التقدير: كلوا رزقكم، وعليه فالجار والمجرور متعلقان بمحذوف حال من المفعول المحذوف، وجوز الأخفش اعتبار: ﴿مِن﴾ زائدة في الإيجاب، وعليه فـ ﴿طَيِّبَٰتِ﴾ مجرور لفظاً منصوب محلاً. ﴿رَزَقْنَٰكُمْ﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به أول، والجملة الفعلية صلة: ﴿مَا﴾ أو صفتها، والعائد أو الرابط محذوف، التقدير: من طيبات الذي، أو: شيء رزقناكموه، على اعتبارها مصدرية تؤول مع الفعل بعدها بمصدر في محل جر بالإضافة، التقدير: طيبات رزقنا، وجملة: ﴿كُلُوا۟﴾... إلخ لا محل لها؛ لأنها ابتدائية كالجملة الندائية قبلها، وجملة: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ﴾ معطوفة عليها لا محل لها مثلها.

﴿إِن﴾: حرف شرط جازم. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ماض ناقص مبني على السكون في محل جزم فعل الشرط، والتاء: اسمه. ﴿إِيَّاهُ﴾: ضمير منفصل مبني على الضم في محل نصب مفعول به مقدم. ﴿تَعْبُدُونَ﴾: فعل مضارع، وفاعله، والجملة الفعلية في محل نصب خبر: (كان). وجملة: ﴿كُنتُمْ...﴾ إلخ لا محل لها؛ لأنها ابتدائية، ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفي، وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه. و﴿إِن﴾ ومدخولها كلام مرتبط بما قبله لا محل له مثله. هذا؛ ويجيز بعض الكوفيين اعتبار (إنْ) بمعنى: «إذ» أيْ: ظرفاً. وردَّه ابن هشام في المغني.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾

الشرح: ﴿إِنَّمَا﴾: كلمة موضوعة للحصر، تتضمَّن النفي، والإثبات، فتثبت ما تناوله الخطاب، وتنفي ما عداه، وقد حصرت ها هنا التحريم، لا سيما وقد جاءت عقيب التحليل في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾.

﴿ٱلْمَيْتَةَ﴾ أي: أكلها، أو الانتفاع بشيءٍ منها، وهي الَّتي ماتت من غير ذكاة شرعية، والحديث ألحق بها ما أُبين من حيوانٍ حيٍّ، وخصَّ منها السَّمك، والجراد بقول النبي ﷺ: «**أُحِلَّتْ لَنَا مَيْتَتَانِ، ودَمَان: السَّمكُ، والجرادُ، والكبدُ، والطِّحَالُ**».

وكذلك جنين المذكَّاة الميت في بطنها، فأكله جائز من غير تذكية له إلا أن يخرج حياً فيُذكَّى، ويكون له حكم أمِّه، فقد روى جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ: أنَّ رسول الله ﷺ سُئِل عن البقرة، والشاة تذبح، والناقة تنحر، فيكون في بطنها جنينٌ ميِّتٌ، فقال: «**إنْ شئِتُمْ فكلُوهُ؛ لأنَّ ذَكَاتَهُ ذكاةُ أمِّهِ**». أخرجه أبو داود بمعناه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. هذا؛ ويلحق بالميتة ذبيحة كل وثنيٍّ، ووثنية، بخلاف ذبيحة الكتابيِّ، والكتابية، فإنَّها تؤكل، وكذا نكاح المحصنات من أهل الكتاب جائز لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٥].

هذا؛ وأصل الميتة بتشديد الياء؛ لأن بناءه فيعِلة، والأصل مَيْوتة فقل في إعلاله: اجتمعت الواو والياء وسبقت إحداها بالسكون فقلبت الواو ياءً، وأدغمت الياء في الياء، والميتة والميت بفتح الميم وسكون الياء فيهما، وهو مَنْ فارقت روحه جسده، وجمعه: أموات. وأما المشدَّد فهو الحيُّ الذي سيموت، وعليه قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾، وجمعه: موتى، قال بعض الأدباء في الفرق بينهما: [الطويل]

أَيَا سَائِلِي تَفْسِيرَ مَيْتٍ وَمَيِّتٍ ... فَدُونَكَ قَد فَسَّرْتُ مَا عَنْهُ تَسْأَلُ
فَمَنْ كَانَ ذَا رُوحٍ فَذَلِكَ مَيِّتٌ ... وَمَا الْمَيْتُ إِلَّا مَنْ إِلَى الْقَبْرِ يُحْمَلُ

هذا هو الأصل الغالب في الاستعمال. وقد يتعاوضان كما في قول عديٍّ بن الرَّعلاء الغسَّاني ـ وهو الشَّاهد رقم [٨٣٤] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [الخفيف]

لَيْسَ مَنْ مَاتَ فَاسْتَرَاحَ بِمَيْتٍ ... إِنَّمَا الْمَيْتُ مَيِّتُ الأَحْيَاءِ
إِنمَا الْمَيْتُ مَنْ يَعِيشُ كَئِيباً ... كَاسِفاً بَالُهُ قَلِيلَ الرَّجَاءِ

(الدم): المراد به دم الحيوان الذي يُذبح، كان الجاهليون يجمدونه، ويقلونه بالزيت، ونحوه، ويأكلونه. اتفق العلماء على أنَّ الدَّم حرام نجس، لا يؤكل، ولا ينتفع به، قال ابن خُوَيز مِنْداد: وأمَّا الدَّم فحرام ما لم تعم به البلوى، ومعفو عمَّا تعمُّ به لبلوى، والذي تعم به البلوى هو الدم في اللحم وعروقه، ويسيره في البدن، والثوب يصلى فيه. وقد روت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: كنَّا نطبخ البرمة على عهد رسول الله ﷺ، يعلوها الصفرة من الدَّم، فنأكل، ولا ننكره؛ لأنَّ التحفظ من هذا إصْر، وفيه مشقة، والإصر، والمشقَّة في الدِّين موضوعٌ. وقد أُحِلَّ لنا دمان بقول النبي ﷺ: «**أُحِلَّ لَنَا مِنَ الدَّمِ دمَانِ، ومِنَ الميتةِ ميتتانِ: الحوت، والجرادُ،**

ومنَ الدمِ الكبدُ والطِّحَالُ» رواه الطَّبراني عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن عبد الله بن عمر، رضي الله عنهم أجمعين. هذا؛ وقيده سبحانه وتعالى في سورة (الأنعام) رقم [١٤٥] بقوله: ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ أي: سائلاً، والمطلق يحمل على المقيَّد.

﴿وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾: والمراد جميع أجزائه، وإنَّما خُصَّ اللحم بالذِّكر؛ لأنه معظم ما يؤكل من الحيوان، ومعظم الانتفاع متعلِّق به، ويجمع لحم على: لحوم، ولحام، قال لبيد ـ رضي الله عنه ـ في معلَّقته: [الكامل]

أَدْعُو بِهِنَّ لِعَاقِرٍ أَوْ مُطْفِلٍ   بُذِلَتْ لِجِيْرانِ الجميعِ لِحَامُهَا

هذا؛ ويقال: لحم، وألحم، ولحمان، ولحام، ورجل لَحِمٌ شحيمٌ، إذا كان قَرِماً إلى اللَّحم. ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾: رُفع به الصَّوت عند الذبح للصنم، هي ذبيحة المجوسيِّ، والوثنيِّ، والمعطِّل. فالمجوسيُّ يذبح لناره، والوثني لوثنه، والمعطل ـ أي الملحد ـ لا يعتقد شيئاً، فيذبح لنفسه، ويدخل في ذلك كلُّ ما لم يقصد به وجه الله تعالى، كالذي يذبح على الأضرحة، وللأولياء، ويقول: هذه ذبيحة جدِّي فلان، والرَّسول ﷺ قال: «**لَعَنَ اللهُ سَبْعَةً مِنْ خَلْقِهِ مِنْ فَوْق سبع سَمواتِهِ، وردَّدَ اللعْنَةَ على واحدٍ منهم ثلاثاً، ولَعَنَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ لَعْنَةً تكْفِيهِ، قال: مَلعونٌ مَنْ عِملَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ، مَلْعونٌ مَنْ أَتَى شَيْئاً مِنَ الْبَهَائِم، ملعونٌ مَنْ عَقَّ وَالِدَيْهِ، مَلْعُونٌ مَنْ جَمَعَ بَيْنَ امْرَأَةٍ وابنتِها، مَلْعُونٌ مَنْ غَيَّرَ حدود الأرض، مَلْعُونٌ مَنِ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ مَوَالِيه، ملعون مَنْ ذبح لغير الله**». رواه الطَّبراني في الأوسط عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، وعنه أيضاً: أنَّ النبي ﷺ قال: «**مَلْعُونٌ مَنْ أَتَى امْرَأَةً فِي دُبُرِهَا**». رواه أحمد، وأبو داود.

ولذلك نهى الإمام عليٌّ ـ رضي الله عنه وكرَّم الله وجهه ـ عن أكل الإبل التي ذبحها جد الفرزدق، ومنافسه عند مباراتهما في الكرم، وقال: هذا ممَّا ذبح لغير وجه الله! فأكلتها الوحوش، والطيور. وقس على ذلك كلَّ ما لم يقصد به وجه الله تعالى.

هذا؛ والإهلال: رفع الصوت، وكانوا يرفعونه عند الذبح لآلهتهم، والأصل: أن يرفع الصوت بالتكبير عند رؤية الهلال في مطلع الشهر الجديد، يقال: أهلَّ بكذا، أي: رفع صوته. قال ابن أحمر يصف فلاة: [السريع]

يُهِلُّ بِالْفَرْقَدِ رُكْبَانُهَا   كَمَا يُهِلُّ الرَّاكِبُ الْمُعْتَمِرُ

وقال النابغة: [الكامل]

أَوْ دُرَّةٌ صَوفِيَّةٌ غَوَّاصُهَا   بَهِجٌ مَتَى يَرَهَا يُهِلُّ وَيَسْجُدُ

﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ...﴾ إلخ: المضطر: هو المكلف بالشيء، الملجأ إليه، المكره عليه، وهو على ثلاثة أقسام: إما بإكراه مِنْ ظالم، أو بجوع في مَخْمَصَةٍ، أو بفقر لا يجد شيئاً ألبتَّة، فإن التَّحريم

يرتفع مع وجود هذه الأقسام بحكم الاستثناء في قوله تعالى: ﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ﴾ وتباح له الميتة، فأمَّا الإكراه؛ فيبيح له ذلك إلى أن يزول، وأما المخمصة، فلا يخلو أن تكون دائمةً، فلا خلاف في جواز الشِّبع منها. وإن كانت نادرةً؛ فاختلف فيها العلماء، وللشَّافعي فيها قولان: أحدهما: أنَّه يأكل ما يسدُّ به الرَّمق، وبه قال أبو حنيفة. والثاني: أنه يأكل قدر الشِّبع. وبه قال مالك، وهو المعتمد إن شاء الله، وحديث العنبر نصٌّ في ذلك، فإنَّ أصحاب النبي ﷺ، لما رجعوا من سفرهم وقد ذهب عنهم الزاد، وكانوا في غزوةٍ على ساحل البحر، فرفع لهم على ساحله كهيئة الكثيب الضَّخم، فلمَّا أتوه، فإذا هي دابةٌ تُدْعى: العنبر، فقال أبو عبيدة أميرهم ـ رضي الله عنه ـ: ميتة، ثم قال: لا بل نحن رسل رسول الله ﷺ، وفي سبيل الله، وقد اضطررتم، فكلوا، قال: فأقمنا عليها شهراً، ونحن ثلاثمئة؛ حتى سَمِنَّا، فأكلوا، وشبعوا رضوان الله عليهم مما اعتقدوا: أنَّها ميتة، وتزوَّدوا منها إلى المدينة، وذكروا ذلك للنبي ﷺ، فأخبرهم ﷺ: أنَّه حلال، وقال: «**هل معكم من لحمه شيء، فتطعمونا؟**». فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ منه فأكله، فهو معجزةٌ للنبي ﷺ، وكرامةٌ لهم حيث لم ينتن.

مسألة: إذا وجد المضطر ميتة، وطعام الغير، بحيث لا قطع فيه، ولا أذى، فإنه لا يحل له أكل الميتة، بل يأكل طعام الغير بلا خلاف؛ لحديث عبَّاد بن شرحبيل الغزي ـ رضي الله عنه ـ قال: أصابنا عامُ مخمصةٍ، فأتيت المدينة، فأتيت حائطاً، فأخذت سنبلاً، ففركتُه، وأكلتُه، وجعلت منه في كسائي، فجاء صاحب الحائط، فضربني، وأخذ ثوبي، فأتيت رسول الله ﷺ، فأخبرته. فقال للرَّجل: «**مَا أَطْعَمْتهُ إِذْ كَانَ جَائِعَاً أَوْ سَاغِباً، وَلَا عَلَّمته إذ كانَ جَاهِلاً**». فأمره، فردَّ إليه ثوبه، وأمر له بِوَسْق طعامٍ، أو نصف وسق. رواه ابن ماجه. وقال مسروق: من اضطر إلى طعامٍ، أو شرابٍ، فله أن يأكل، ويشرب، فإن لم يأكل، ولم يشرب، ثم مات؛ دخل النار.

وذكر التِّرمذي عن يحيى بن سليم بن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ عن النبي ﷺ قال: «**مَنْ دخلَ حَائِطاً؛ فَلْيَأْكُلْ، وَلَا يَتَّخِذْ خُبْنَةً**». قال أبو عبيد: قال أبو عمر: وهو الوعاء الذي يُحمل فيه الشيء. وروى أبو داود عن الحسن عن سمرة ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ النبي ﷺ قال: «**إِذَا أَتَى أَحَدُكُمْ عَلَى مَاشِيَةٍ، فَإِنْ كَانَ فِيهَا صَاحِبُها؛ فَلْيَسْتَأْذِنْهُ، فَإِنْ أَذِنَ لَهُ؛ فَلْيَحْتَلِبْ، وَيَشْرَبْ، وَلَا يَحْمِلْ**».

﴿غَيۡرَ بَاغٖ﴾: خارج على المسلمين، و﴿وَلَا عَادٖ﴾ معتد عليهم بقطع الطَّريق، فيدخل فيها قاطع الطريق، الخارج على السُّلطان بدون تأويل، والمسافر في قطع الرحم، وقصد السَّرقة، وإيذاء الناس، وما شاكله من الأمور غير المباحة، وهذا قاله مجاهد، وسعيد بن جبير، وغيرهما، وبه قال المفسِّرون من أئمة الشَّافعية. وقال قتادة، والحسن، والرَّبيع، وابن زيد،

وعكرمة: ﴿بَاغٍ﴾ قاصدٍ للشَّهوة، واللَّذة، و﴿عَادٍ﴾ متجاوز مقدار الحاجة من سدِّ الرَّمق، ودفع الخوف، والتخلُّص من الإكراه. وبه قال المفسِّرون من أئمة الحنفية، وغيرهم، وانظر الآية رقم [٩٠].

هذا؛ وربما استُعمل البغي في طلب غير الفساد، والعرب تقول: خرج الرَّجل في بغاء إبل له، ومنه قول الشاعر: [مجزوء الكامل]

لَا يَمْنَعَنَّكَ مِنْ بغَا ءِ الْخَيْرِ تَعْتَادُ الرَّتَائِمْ
إِنَّ الأَشَائِمَ كَالأَيَا مِنِ والأَيَامِنُ كَالأَشَائِمْ

بعد هذا، فأنا أعلِّمها لك، فأقول ـ وبالله التوفيق ـ: أصل باغٍ: باغي، بكسرة على الياء علامة للجر، أو بضمة على الياء علامة للرفع، وبتنوين الصرف، لكن استثقلت الكسرة، أو الضمة على الياء بعد كسرةٍ، فسكنت الياء، فالتقى ساكنان: الياء، والتنوين، فحذفت الياء لعلة الالتقاء، وبقيت الغين مكسورة على ما كانت عليه قبل الإعلال، فقيل: باغ بالكسر، وإنما لم يقل بالرفع؛ لأنَّ الياء محذوفة لعلة الالتقاء كالثابتة فتمنع الرفع للغين. وهكذا قل في إعلال كل اسم منقوص مجرد من: أل، والإضافة، سواء أكان ثلاثيّاً، أو رباعيّاً، وعادٍ مثله، أصله: عاديٌ. وقال القرطبيُّ ـ رحمه الله تعالى ـ: أصله: عائد، فهو من المقلوب، كشاكي السِّلاح، وهارٍ، ولاثٍ، والأصل: شائك، وهائر، ولائث. ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾: فلا مؤاخذة، ولا جناح في أكله الميتة، وما عطف عليها في حال الضَّرورة. ﴿غَفُورٌ﴾: لعبده المؤمن إذا فعل ذلك، وهو صيغة مبالغة. ﴿رَّحِيمٌ﴾: بهم؛ حيث رخَّص لهم الأمور المحظورة في حال الضرورة.

الإعراب: ﴿إِنَّمَا﴾: كافة ومكفوفة مفيدة للحصر. ﴿حَرَّمَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى الله، تقديره: «هو». ﴿عَلَيْكُمُ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿ٱلْمَيْتَةَ﴾: مفعول به منصوب، وما بعده معطوف عليه، هذا، ويقرأ برفع الميتة وما بعده، وخرج على أنَّ (ما) غير كافة لـ (إنَّ) فهي عاملة و(ما) اسم موصول مبني على السكون في محل نصب اسمها على حدِّ قوله تعالى في سورة (طه): ﴿إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ﴾ وجملة: ﴿حَرَّمَ عَلَيْكُمُ﴾ صلة الموصول، والعائد محذوف، التقدير: إنَّ الذي حرَّمه الله عليكم: ﴿ٱلْمَيْتَةَ﴾.

وهذه القراءة قراءة ابن أبي عبلة، وقرئ حُرِّمَ بالبناء للمجهول، وخرج على وجهين: أحدهما: أنَّ (ما) غير كافة، وهي اسم (إنَّ) كما تقدَّم، ونائب الفاعل يعود إلى (ما) الموصولة، وهو العائد، والجملة صلة لها، و﴿ٱلْمَيْتَةَ﴾ خبر (إن). والوجه الثاني: أنَّ (ما) كافة لها، وأنَّ ﴿ٱلْمَيْتَةَ﴾ بالرَّفع نائب فاعل: ﴿حَرَّمَ﴾، وهذه قراءة أبي جعفر بن القعقاع، والقراءتان غير سبعيتين، وسواء أكانت الجملة فعلية، أم اسمية، فهي مستأنفة لا محل لها من الإعراب.

﴿وَمَآ﴾ اسم موصول مبني على السكون معطوف على الميتة على الوجهين المعتبرين فيه. ﴿أُهِلَّ﴾: ماض مبني للمجهول. ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور في محل رفع نائب فاعل: ﴿أُهِلَّ﴾، والجملة الفعلية صلة الموصول لا محل لها. ﴿لِغَيْرِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما. وقيل: متعلقان بمحذوف حال من الضمير المجرور بالباء، و(غير) مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾ مضاف إليه. ﴿فَمَنِ﴾: الفاء: حرف عطف وتفريع. (مَنْ): اسم شرط جازم، مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿ٱضْطُرَّ﴾: فعل ماض مبني للمجهول مبني على الفتح في محل جزم فعل الشرط، ونائب الفاعل يعود إلى (مَنْ). ﴿غَيْرَ﴾: حال من نائب الفاعل المستتر، وقال النسفي، وغيره: التقدير: فأكل غير... إلخ، وهذا يعني: أنَّه حال من فاعل الفعل المقدر، وعليه فالجملة المقدرة معطوفة على سابقتها. و﴿غَيْرَ﴾ مضاف، و﴿بَاغٍ﴾ مضاف إليه مجرور، وعلامة جره كسرة مقدرة على الياء المحذوفة لالتقاء الساكنين. ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): زائدة لتأكيد النفي المفهوم مِنْ ﴿غَيْرَ﴾. ﴿عَادٍ﴾: معطوف على: ﴿بَاغٍ﴾ مجرور مثله. ﴿فَلَآ﴾: الفاء واقعة في جواب الشرط. (لا): نافية للجنس تعمل عمل «إنَّ». ﴿إِثْمَ﴾ اسمها مبني على الفتح في محل نصب. ﴿عَلَيْهِ﴾: متعلقان بمحذوف خبر (لا) وخبر المبتدأ الَّذي هو (مَنْ) مختلفٌ فيه، كما ذكرته مراراً. هذا؛ ويجوز اعتبار (مَنْ) اسماً موصولاً مبتدأً، وجملة: ﴿ٱضْطُرَّ﴾... إلخ صلته، وجملة: ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ في محل رفع خبره، وقد اقترنت بالفاء؛ لأنَّ الموصول يشبه الشرط في العموم. ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل، و﴿ٱللَّهَ﴾: اسمه. ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: خبران له، والجملة الاسمية مفيدة للتعليل، أو معترضة في آخر الكلام لا محل لها على الاعتبارين.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُولَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾﴾

الشرح: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ﴾: انظر الآية رقم [١٥٩]، والمراد: علماء اليهود كتموا ما أنزل الله في التوراة من صفة محمد ﷺ، وصحَّة رسالته، فعلوا ذلك؛ لئلا تذهب رياستهم، وما كانوا يأخذون من العوامِّ من الهدايا، والتُّحف. ومعنى ﴿أَنزَلَ﴾: أظهر، كما قال تعالى في سورة (الأنعام) رقم [٩٣]: ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي: سأظهر. وقيل: هو على بابه من النزول، أي: أنزل به ملائكته على رسله. ﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾: انظر الآية رقم [٧٩] ففيها الكفاية.

﴿أُولَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾: ذكر البطون دلالةً، وتأكيداً على حقيقة الأكل؛ إذ قد يستعمل مجازاً في مثل: فلان أكل أرضي، ونحوه. وفي ذكر البطون أيضاً تنبيهٌ على

جشعهم، وأنَّهم باعوا آخرتهم بحظِّهم من المطعم الذي لا خطر له، فسمى الله ما أكلوه من الرُّشا ناراً؛ لأنَّه يؤدِّيهم إلى النار. هكذا قال أكثر المفسرين.

وقيل: إنَّه يعاقبهم على كتمانهم بأكل النار في جهنَّم حقيقةً، كأنما أخبر عن المآل بالحال، كما قال تعالى في سورة (النِّساء) رقم [١٠]: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ أي: إنَّ عاقبته تؤول إلى ذلك، ومنه قول أبي سعيد سابق البربري، ـوهو الشَّاهد رقم [٣٨٧] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [الطويل]

فَلِلْمَوت تَغْذُو الْوَالِدَاتُ سِخَالَهَا كَمَا لِخَراب الدُّورِ تُبْنَى الْمَسَاكِنُ

وأيضاً قول عبد الله بن الزِّبَعْرى ـ وهو الشاهد رقم [٣٨٨] من كتابنا المذكور ـ: [المتقارب]

فَإِنْ يَكُنِ الْمَوتُ أَفْنَاهُمُو فَلِلْمَوْتِ مَا تَلِدُ الْوَالِدَهْ

﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: كلام رحمة لشدَّة غضبه عليهم، وإنَّما يكلمهم كلام سخطٍ، ومقتٍ، فيقول لهم: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾. انظر سورة (المؤمنون) رقم [١٠٨]. ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾: ولا يطهِّرهم من أدران الذنوب، والسيئات. أو: لا يصلح أعمالهم الخبيثة، فتطهر، وفي صحيح مسلم ـ رحمه الله تعالى ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«ثَلاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُم اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ولا يُزَكِّيهِمْ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: شَيْخٌ زَانٍ، ومَلِكٌ كَذَّابٌ، وَعَائِلٌ مسْتَكْبِرٌ»**.

وإنَّما خص هؤلاء بأليم العذاب، وشدَّة العقوبة لمحض المعاندة، والاستخفاف الحامل لهم على تلك المعاصي؛ إذ لم يحملهم على ذلك حاجة، ولا دعتهم إليه ضرورة، كما تدعو من لم يكن مثلهم.

الإعراب: ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسمها مبني على الفتح في محلِّ نصب، والجملة الفعلية بعدها صلتها. ﴿مَآ﴾: اسم موصول، أو نكرة موصوفة مبنية على السكون في محل نصب مفعول به، والجملة الفعلية بعدها صلتها، أو صفتها، والعائد أو الرابط محذوف، التَّقدير: يكتمون الَّذي، أو شيئاً أنزله الله. ﴿مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: متعلقان بمحذوف حال من المفعول المحذوف، و﴿مِنَ﴾ بيان لما أبهم في: ﴿مَآ﴾، والجملة الفعلية: ﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ معطوفة على جملة: ﴿يَكْتُمُونَ﴾... إلخ لا محلَّ لها مثلها.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾: اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ، والكاف حرف خطاب لا محل لها. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿يَأْكُلُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون، والواو فاعله. ﴿فِى بُطُونِهِمْ﴾: متعلقان بما قبلهما، وقيل: متعلقان بمحذوف حال من واو الجماعة، والأول أقوى. والهاء: في محل جرٍّ بالإضافة، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة

الاسمية في محل رفع خبر: ﴿إِنَّ﴾، والجملة الاسمية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ...﴾ إلخ مبتدأة لا محل لها، وهي تؤكد معنى الآية رقم [١٥٩] مع تباعد ما بينهما. ﴿إِلَّا﴾: حرف حصر. ﴿ٱلنَّارَ﴾ مفعول به، وجملة: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ...﴾ إلخ معطوفة على ما قبلها، فهي في محل رفع مثلها. ﴿يَوْمَ﴾: ظرف زمان متعلِّق بما قبله، وهو مضاف، و﴿ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: مضاف إليه. ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): نافية، ويقال: زائدة لتأكيد النفي. ﴿يُزَكِّيهِمْ﴾: فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء للثقل، والفاعل ضمير مستتر تقديره: هو يعود إلى: ﴿ٱللَّهُ﴾، والهاء مفعول به، وحذف المتعلق، وهو الظرف اكتفاءً بالأول، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، فهي في محل رفع أيضاً. ﴿وَلَهُمْ﴾: الواو: حرف عطف. (لهم): جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم. ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿أَلِيمٌ﴾: صفة له، والجملة الاسمية تحتمل العطف على الجملة الفعلية قبلها، وعلى الجملة الاسمية: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ لكن عطفها على الأولى أقوى من جهة المعنى، وعلى الثاني أقوى من جهة عطف الاسمية على الاسمية. تأمَّل، وتدبَّر، وربُّك أعلم، وأجلُّ، وأكرم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾

الشرح: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ...﴾ إلخ؛ أي: الموصوفون بما ذكر. ﴿ٱشْتَرَوُاْ﴾... إلخ: انظر الآية رقم [١٦] ففيها الكفاية. وقال القرطبيُّ هنا: ولمَّا كان العذاب تابعاً للضلالة، وكانت المغفرة تابعةً للهدى؛ الذي اطَّرحوه؛ دخلا في تجوُّز الشراء. هذا؛ ولا تنس: أنَّ الآية المتقدِّمة إنَّما نزلت في حق المنافقين، وهذه الآية إنَّما هي في حقِّ اليهود؛ الذين الكلام فيهم.

﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾: معنى هذه الجملة التعجُّب، تعجبٌ من حالهم في الالتباس بموجبات النَّار من غير مبالاة بغضب الله الواحد القهار، كأنه قال: اعجبوا من صبرهم على النار، ومكثهم فيها! ومثلها قوله تعالى في سورة (الكهف): ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْۚ﴾ وقريب منه في سورة (مريم) على نبينا، وعليها ألف صلاة، وألف سلام. وقال الحسن وغيره: ما لهم والله عليها مِنْ صبر! ولكن ما أجرأهم على النار! وقال الكسائي، وقطرب: أي: ما أدومهم على عمل أهل النار! وقيل: (ما) استفهام، معناه التوبيخ، قاله ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وغيره، ومعناه: أيُّ شيءٍ صبَّرهم على عمل أهل النار؟! وقيل هذا على وجه الاستهانة بهم، والاستخفاف بأمرهم. ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: العذاب في جهنَّم ﴿بِأَنَّ﴾ بسبب أنَّ ﴿ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّۗ﴾ فرفضوه، والمراد بالكتاب: التوراة، فيكون اليهود هم المذمومين، وكذلك النصارى؛

حيث اختلفوا فيما ذكر فيها من صفة عيسى، ومحمد ﷺ. وقيل: المراد: القرآن، و﴿ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟﴾ كفار قريش، حيث قال بعضهم: هو سحر، وبعضهم يقول: شعر، كهانة، أساطير الأولين... إلخ، وانظر ﴿شِقَاقٍ﴾ في الآية رقم [١٣٧].

الإعراب: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾: اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ، والكاف حرف خطاب لا محل له. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها، وفيها معنى التوكيد لجملة: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾.

﴿ٱشْتَرَوُا۟﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين، والواو فاعله، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها. ﴿ٱلضَّلَٰلَةَ﴾: مفعول به. ﴿بِٱلْهُدَىٰ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، أو هما متعلّقان بمحذوف حال من الضَّلالة، التقدير: مستبدلة بالهدى. (العذاب): معطوف على الضلالة. ﴿بِٱلْمَغْفِرَةِ﴾: معطوفان على: ﴿بِٱلْهُدَىٰ﴾ على الاعتبارين في تعليقهما.

﴿فَمَآ﴾: الفاء: حرف عطف، أو هي حرف استئناف، (ما): نكرة تامة بمعنى شيء مبنية على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿أَصْبَرَهُمْ﴾: فعل ماض جامد دال على التعجب مبني على الفتح، والفاعل مستتر فيه وجوباً تقديره هو يعود إلى (ما)، والهاء مفعول به، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ الذي هو (ما)، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها، أو هي مستأنفة لا محل لها، والأول أقوى. وهذا الإعراب هو المشهور عن سيبويه رحمه الله تعالى.

وقال الأخفش رحمه الله تعالى: (ما) : نكرة موصوفة، والجملة بعدها صفتها. وقال أيضاً: هي موصولة، والجملة بعدها صلتها، فله قولان، والخبر محذوف، التقدير على الأول: شيءٌ أصبرهم على النار عظيمٌ، وعلى الثاني: الَّذي أصبرهم على النار شيء عظيمٌ. وقال الفراء، وابن درسْتَويْه: (ما) استفهامية مشوبة بتعجب والجملة بعدها خبر عنها، والتقدير: أيُّ شيء أصبرهم على النَّار؟! وهناك قول خامس: أنَّ (ما) نافية؛ أي: فما أصبرهم الله على النار، أي: ما منحهم الصَّبر... إلخ. وهذا ضعيف جدّاً.

وهناك خلاف في (أفعل) فهو فعل عند البصريين، وهو المعتمد، وهو اسم عند الكوفيين، كما يترتب عليه خلاف في نصب الاسم بعده، هل هو مفعول به، أو هو مشبَّه بالمفعول به. ﴿عَلَى ٱلنَّارِ﴾ متعلقان بما قبلهما.

﴿ذَٰلِكَ﴾: اسم إشارة مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. واللام للبعد. والكاف حرف خطاب لا محل له. ﴿بِأَنَّ﴾: الباء: حرف جر. (أنَّ)، حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها، والجملة الفعلية ﴿نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ في محل رفع خبر (أَنَّ)، و(أنَّ) واسمها، وخبرها في تأويل مصدر في محل جر بالباء، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف في محل رفع خبر المبتدأ؛ أي:

ذلك العذاب مستحق بسبب كونهم. . . إلخ، والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ متعلقان بمحذوف حال من: ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهو أولى من تعليقهما بالفعل قبلهما.

﴿وَإِنَّ﴾: الواو: واو الحال. (إنَّ): حرف مشبه بالفعل و﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسمها، والجملة الفعلية صلته لا محل لها. ﴿لَفِي﴾: اللام: هي المزحلقة، (في شقاقٍ): متعلِّقان بمحذوف خبر (إنَّ). ﴿بَعِيدٍ﴾: صفة شقاق، والجملة الاسمية في محل نصب حال من: ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾، والرابط: الواو، وإعادة الكتاب بلفظه للتعظيم، والتنويه بشأنه، ورفعة قدره.

﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾

الشرح: من هنا بداية النصف الثاني من السُّورة الكريمة على وجه التَّقريب، ونصف السُّورة السَّابق كان متعلقاً بأصول الدِّين، وبقبائح اليهود، ومساوئهم، وهذا النصف غالبه متعلق بأحكام الإسلام الفرعية تفصيلاً: من صيام، وحج، وطلاق، وعدة، كما ستراه مفصلاً؛ إن شاء الله تعالى، ووجه المناسبة: أنه تعالى ذكر في الآيات السابقة: أنَّ أهل الكتاب اختلفوا في دينهم اختلافاً كبيراً صاروا بسببه في شقاقٍ بعيدٍ، ومن أسباب شقاقهم أمر القبلة؛ إذ أكثروا الخوض فيه، وأنكروا على المسلمين التحوُّل إلى استقبال الكعبة، وادَّعى كلٌّ من الفريقين: اليهود، والنصارى: أن الهدى مقصود على قبلته، فردَّ الله عليهم، وبيَّن: أنَّ العبادة الحسنة، وعمل البر ليس بتوجُّه الإنسان جهة المشرق، والمغرب، ولكن بطاعة الله، وامتثال أوامره، وبالإيمان الصَّادق الرَّاسخ.

هذا؛ والآية الكريمة، كما ترى جامعة للكمالات الإنسانية بأسرها، دالة عليها صريحاً، أو ضمناً، فإنَّها بكثرتها، وتشعُّبها منحصرةٌ في ثلاثة أشياء: صحَّة الاعتقاد، وحسن المعاشرة، وتهذيب النفس، ولذلك وصف المستجمع لها بالصِّدق نظراً إلى إيمانه، واعتقاده، وبالتقوى اعتباراً بمعاشرته للخلق، ومعاملته مع الحقِّ، وإليه أشار النبي ﷺ بقوله: «**مَنْ عَمِلَ بِهَذِهِ الآيَةِ؛ فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الإِيْمَانَ**». وإليك التفصيل:

﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ﴾ البر: كلمة جامعة لخصال الخير الدنيوية، والأخروية من قولٍ، أو عمل، أو اعتقادٍ، وهو بكسر الباء، وهو بضم الباء: القمح، ونحوه ممَّا يُقتات، ويؤكل، وهو بفتحها: البار بوالديه، وبأرحامه، وهو أيضاً اسم من أسماء الله الحسنى، وهو أيضاً: الأرض الفلاة،

والأرض اليابسة ما عدا البحر. ﴿أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ﴾: توجَّهوا، أي: في الصلاة. ﴿قِبَلَ﴾: جهة. ﴿ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾: انظر الآية رقم [١١٥]. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ تقدَّم شرح هذه الكلمات مفصَّلاً في محاله.

﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ في مرجع الضَّمير قولان: أحدهما: يرجع إلى المال نفسه؛ أي: إنَّ المؤتي محتاجٌ إليه، وهو مع ذلك يؤثر غيره به. والثاني: يرجع إلى الله تعالى؛ أي: يؤتي المال على حبِّ الله تعالى. ومثل هذه الآية قوله تعالى في سورة (الدَّهر): ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾.

هذا و﴿ٱلْمَالَ﴾ قال فيه ابن الأثير: وأكثر ما يطلق المال عند العرب على الإبل؛ لأنها كانت أكثر أموالهم، وقال الجوهريُّ: ذكر بعضهم: أن المال يؤنث، وأنشد لحسَّان ـ رضي الله عنه ـ: [البسيط]

الْـمَـالُ تُـزْرِي بِـأَقْـوَامٍ ذَوِي حَـسَـبٍ ... وَقَـدْ تُـسَـوِّدُ غَـيْـرَ الـسَّـيِّـدِ الْـمَـالُ

وعن المفضل الضَّبِّيِّ: المال عند العرب: الصَّامت، والنَّاطق، فالصَّامت: الذهب، والفضة، والجواهر، والناطق: البعير، والبقرة، والشاة، فإذا قلت عن بدوي: كثر ماله؛ فهو الناطق، وإذا قلت عن حضري: كثر ماله؛ فهو الصَّامت. هذا؛ والنَّشَب: يطلق على المال الثابت، كالضِّياع، والدُّور، وقد قال عمرو بن معديكرب الزَّبيدي ـ رضي الله عنه ـ في ذلك ـ وهو الشاهد رقم [٥٩٧] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»، ورقم [٤٨٥] من كتابنا: «فتح رب البرية» ـ: [البسيط]

أَمَـرْتُـكَ الْـخَـيْـرَ فَـافْـعَـلْ مَـا أُمِـرتَ بِـهِ ... فَـقَـدْ تَـرَكْـتُـكَ ذَا مَـالٍ وَذَا نَـشَـبِ

﴿ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾: أصحاب القرابات من جهة الأب، أو الأم. والإنفاق عليهم مع حاجتهم للمال أفضل من الإنفاق على الغرباء؛ لأنه صدقةٌ، وصلة، فعن سليمان بن عامر ـ رضي الله عنه ـ عن النبيِّ ﷺ قال: «**الصَّدَقَةُ عَلَى الْمِسْكِينِ صَدَقَةٌ، وَعَلى ذَوِي الرَّحِمِ ثِنْتَانِ: صَدَقَةٌ، وَصِلَةٌ**»، أخرجه النَّسائي، والترمذي. وفضَّل الرسول ﷺ الصدقة على الأقارب على عتق الرِّقاب. فقال لميمونة زوجه، وقد أعتقت وليدة: «**أَمَا إِنَّكِ لَوْ أَعْطَيْتِهَا أَخْوَالَكِ؛ كَانَ أَعْظَمَ لأَجْرِكِ**». وعن عبد الله بن عُمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَيُّمَا رَجُلٍ أَتَاهُ ابْنُ عَمِّهِ، فَسَأَلَهُ مِنْ فَضْلِهِ، فَمَنَعَهُ؛ مَنَعَهُ اللهُ فَضْلَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**». أخرجه الطَّبرانيُّ، وقال زهير بن أبي سلمى: [الطويل]

وَمَـنْ يَـكُ ذَا فَـضْـلٍ فَـيَـبْـخَـلْ بِـفَـضْـلِـهِ ... عَـلَـى قَـوْمِـهِ يُـسْـتَـغْـنَ عَـنْـهُ وَيُـذْمَـمِ

﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾: انظر الآية رقم [٨٣]. (المساكين) جمع مسكين، وهو ممن دَخْلُه لا يقوم بكفايته، والفقير أسوأ حالاً منه. (ابن السبيل): المسافر، والمنقطع في سفره، وأطلق عليه ابن السبيل لملازمته الطَّريق. هذا؛ وقد قال تعالى في سورة (الإسراء) رقم [٢٦] ومثلها في سورة (الروم) رقم [٣٨]: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾. هذا؛ واختُلف: هل يعطى اليتيم

من صدقة التطوع بمجرد اليتم على وجه الصِّلة، وإن كان غنيّاً، أو لا يعطى؛ حتى يكون فقيراً؟ قولان للعلماء، وهذا على أن يكون إيتاء المال غير الزكاة الواجبة على ما بيَّنته، أما الزكاة الواجبة؛ فلا يعطى منها إلا إذا كان فقيراً.

﴿وَٱلسَّآئِلِينَ﴾: جمع: سائل، وهو الذي يطلب منك المال، ويريد منك المساعدة، والعون، وقد حثَّ الرَّسول ﷺ على إعطاء السَّائل، وبذل المال له مهما كان قليلاً، ومهما كانت هيئة السَّائل، وحالته، فقد قال ﷺ: «**لَا تَرُدُّوا السَّائِلَ وَلَو بِظِلْفٍ مُحْرَقٍ**». وقال: «**أَعْطُوا السَّائِلَ وَلَوْ جَاءَ عَلَى ظَهْرِ فَرَسٍ**». وإن كان ضعيفاً. وفي روايةٍ للإمام أحمد، وأبي داود: «**لِلسَّائِلِ حَقٌّ؛ وَإِنْ جَاءَ عَلَى فَرَسٍ**». وفي الوقت نفسه حذر الرَّسول ﷺ من السؤال، والمسألة، وشدَّد النكير على الذين يتسوَّلون. وخذ ما يلي:

فعن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: أنَّ النبي ﷺ قال: «**لَا تَزَالُ الْمَسْأَلَةُ بِأَحَدِكُمْ حَتَّى يَلْقَى اللهَ تَعَالَى؛ وَلَيْسَ فِي وَجْهِهِ مزعةُ لَحْمٍ**». أخرجه البخاري، ومسلم.

وعنه أيضاً قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**المسألةُ كُلُوحٌ فِي وَجْهِ صَاحِبها يَوْمَ القِيَامَةِ، فَمَنْ شَاءَ اسْتَبْقَى عَلَى وَجْهِهِ**». رواه الإمام أحمد.

فالرَّسول ﷺ يريد من المسلم أن يكون عزيز النفس، مرفوع الرأس، لذا نفَّر من السؤال، والمسألة، ورغَّب في العمل، فعن الزُّبير بن العوَّام ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ أحبله، فيَأْتِيَ بحُزْمَةٍ مِنْ حَطَبٍ عَلَى ظَهْرِهِ فيبيعَها، فَيَكُفَّ بِهَا وَجْهَهُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ أَعْطَوْهُ، أَمْ مَنَعُوهُ**» وغير ذلك. وخذ هذه الطرفة عن الأصمعي ـ رحمه الله تعالى ـ حيث قال: مررت في بعض سكك الكوفة؛ فإذا برجلٍ قد خرج من حشٍّ وعلى كتفه جرَّةٌ، وهو يقول: [الطويل]

وأُكْـرِمُ نَـفْـسِـي إِنَّـنِـي إنْ أَهَـنْـتُـهَـا   وَحَـقِّـكَ لَـمْ تُـكْـرَمْ عَـلَـى أَحَـدٍ بَـعْـدِي

فقلت له: أتكرمها بمثل هٰذا؟ قال: نعم، وأستغني عن مسألة مثلك: إذا سألته، ثم قال: صنع الله بك، وترك! فقلت: تراه عرفني، فأسرعت، فصاح بي، وأنشد: [الوافر]

لَـنَـقْـلُ الـصَّـخْـرِ مِـنْ قُـلَـلِ الْـجِـبَـالِ   أَحَـبُّ إِلَـيَّ مِـنْ مِـنَـنِ الـرِّجَـالِ
يَـقُـولُ الـنَّـاسُ كَـسْـبٌ فِـيـهِ عَـارٌ   وَكُـلُّ الْـعَـارِ فِـي ذُلِّ الـسُّـؤَالِ

﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ أي: فكِّها من الرِّقِّ، والعبودية يوم كانت موجودةً، وذلك بالمكاتبة، أو فكِّ الأسارى. وإعطاء المال لهؤلاء، والحثُّ عليه المراد به غير الزكاة المفروضة، وغير الكفَّارات على جميع أنواعها، وإنَّما هو على سبيل القُرَب بدليل عطف الزكاة عليه فيما يلي.

﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟﴾: هم الذين إذا وعدوا؛ أنجزوا، وإذا نذروا؛ وفَّوْا، وإذا حلفوا؛ بروا في أيمانهم. وإذا قالوا؛ صدقوا في أقوالهم، وإذا ائتُمِنوا؛ أدَّوا الأمانة. خازن.

وانظر الآية رقم [٥١]. وهذه صفات المؤمنين الحقيقيين، ونقيضها صفات المنافقين الكذّابين، المخادعين ﴿وَالصَّابِرِينَ﴾: انظر: الآية رقم [٤٥].

﴿الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾: اسمان مشتقان من البؤس، والضر بضم الباء والضاد، ولا فعل لهما؛ لأنهما اسمان، وليسا بنعت، وعن الأزهريّ: البأساء في الأموال، كالفقر، والضرَّاء في الأنفس، كالمرض، وبعبارة أوضح أقول: البؤس: الشرُّ، والجهد، والشدَّة، مؤنَّثه: بؤسى بوزن رُجعى، وتمدُّ فتفتح الباء، كما في هذه الآية، وغيرها.

﴿وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ أي: حين شدَّة القتال في سبيل الله، قال الإمام عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ: كُنَّا إِذَا اشتدَّ البأسُ؛ اتَّقينا برسول الله ﷺ.

﴿أُولَئِكَ﴾ أي: الموصوفون بما ذكر، ﴿الْمُتَّقُونَ﴾: أي: الذين امتثلوا أمر الله فيما أمر، وفيما نهى عنه. هذا؛ وجاء الخبر في الجملة الأولى فعلاً ماضياً: ﴿صَدَقُوا﴾ لإفادة التحقيق، وأن ذلك وقع منهم، واستقرَّ، وجاء الخبر في الجملة الثانية جملة اسمية: ﴿هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ ليدل على الثبوت، وأنه ليس متجدِّداً، بل صار كالسَّجيَّة لهم، ومراعاة للفاصلة أيضاً. ووصفهم الله بالصدق في الأقوال، والأعمال، والتَّقوى في أمورهم والوفاء بها، وهذا غاية الثناء. والصِّدق: خلاف الكذب، ويقال: صدقوهم القتال بمعنى: ثبتوا في الميدان، والصِّدِّيق: الملازم للصِّدق، وفي الحديث الصَّحيح: «**عَلَيْكُمْ بالصِّدْقِ، فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَالْبِرُّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ، وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقاً**». أخرجه البخاريُّ، ومسلمٌ، وغيرهما عن عبد الله بن مسعودٍ ـ رضي الله عنه ـ عن النَّبي ﷺ.

تنبيه: جاء (الصابرين) منصوباً بالياء، والأصل أن يكون مرفوعاً عطفاً على ما قبله، وإنما نصب على الاختصاص، أو المدح؛ أي: وأخص بالذِّكر، أو أمدح الصابرين، وهذا الأسلوب معروف عند البلغاء، فإذا ذكرت صفاتٌ للمدح، أو الذمِّ، وخولف الإعراب في بعضهما؛ فذلك تفنُّنٌ، ويسمَّى: قطعاً؛ لأن تغيير المألوف يدل على مزيد اهتمام بشأنه، وتشويقٍ لسماعه. ومثل هذه الآية قوله تعالى في سورة (النِّساء) رقم [١٦٢]: ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَوٰةَ﴾.

تنبيه: يطعن المستشرقون، والملحدون من أبناء المسلمين في الإسلام، وينعتونه بالقسوة، وبأنَّه عمل على تكديس الرقِّ، وتكريسه، انظر ما ذكرته في الآية رقم [٣٣] من سورة (النور) تجد الجواب كافياً شافياً بحمد الله، وتوفيقه.

الإعراب: ﴿لَّيْسَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿الْبِرَّ﴾: خبر: ﴿لَّيْسَ﴾ مقدم. ﴿أَن﴾: حرف مصدري ونصب. ﴿تُوَلُّوا﴾: فعل مضارع منصوب بـ ﴿أَن﴾ وعلامة نصبه حذف النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والألف للتفريق، و﴿أَن﴾ والفعل المضارع في تأويل مصدر في محل رفعٍ اسم ﴿لَّيْسَ﴾ مؤخَّر. وهذه قراءة حفص، وقرأ الباقون برفع (البر) على أنَّه اسم:

﴿لَّيْسَ﴾ والمصدر المؤول في محل نصب خبرها، التقدير: ليس البرُّ تَوْلِيَتَكُمْ وجوهَكم، وعلى الأول: لَيْسَ تَوْلِيَتُكمْ وَجُوهَكمْ الْبِرَّ، والقراءتان حسنتان، كقوله تعالى في سورة (الروم) رقم [١٠]: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ...﴾ إلخ. وقوله تعالى في سورة (الحشر) رقم [١٧]: ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَاۚ﴾ وقوله تعالى في سورة (الجاثية) رقم [٢٥]: ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ﴾.

﴿وُجُوهَكُمْ﴾: مفعول به، والكاف في محل جر بالإضافة. ﴿قِبَلَ﴾: ظرف مكان متعلق بالفعل قبله، وهو مضاف، و﴿ٱلْمَشْرِقِ﴾ مضاف إليه، وجملة: ﴿لَّيْسَ...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها.

﴿وَلَٰكِنَّ﴾: الواو: حرف عطف. (لكن): حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱلْبِرَّ﴾: اسمها. هذا؛ وقرئ بتخفيف نون (لكن) ورفع (البر) على أنه مبتدأ، و(لكن) حرف استدراك مهمل لا عمل له، والخبر محذوف على الوجهين؛ إذ التقدير: بِرُّ مَنْ... إلخ، وعليه فـ ﴿مَنْ﴾ اسم موصول مبني على السكون في محل جر بإضافة ذلك المحذوف إليه. ﴿ءَامَنَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى ﴿مَنْ﴾ وهو العائد، ويجوز اعتبار ﴿مَنْ﴾ اسماً موصولاً، أو نكرة موصوفة بمعنى شخص، وهو يشمل الذَّكر، والأنثى. ﴿بِٱللَّهِ﴾ متعلقان بالفعل قبلهما، والجملة الفعلية صلة: ﴿مَنْ﴾ أو صفتها. (اليوم) و(الملائكة) و(الكتاب) و(النَّبيين): هذه الأسماء كلُّها معطوفة على لفظ الجلالة، و﴿ٱلْأٓخِرِ﴾ صفة: (اليوم).

﴿وَءَاتَى﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف للتعذر، والفاعل يعود إلى (مَنْ) أيضاً. ﴿ٱلْمَالَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية معطوفة على جملة: ﴿ءَامَنَ﴾... إلخ على الوجهين المعتبرين فيها. ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾: متعلقان بمحذوف حال من المال، والهاء في محل جر بالإضافة، من إضافة المصدر لفاعله، والمفعول محذوف، أو من إضافة المصدر لمفعوله، والفاعل محذوف، وذلك بحسب مرجع الضمير كما رأيت في الشرح. ﴿ذَوِي﴾: مفعول به ثان لـ (آتى) لأنه بمعنى: أعطى فهو منصوب، وعلامة نصبه الياء نيابةً عن الفتحة؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم، وحذفت النون للإضافة، و﴿ذَوِي﴾: مضاف، و﴿ٱلْقُرْبَىٰ﴾ مضاف إليه مجرور، وعلامة جره كسرة مقدَّرة على الألف للتعذُّر. ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾: هذه الأسماء معطوفة على ﴿ذَوِي﴾ فهي منصوبة مثله، و(ابن): مضاف، و﴿ٱلسَّبِيلِ﴾ مضاف إليه. ﴿وَٱلسَّآئِلِينَ﴾: معطوف أيضاً فهو منصوب، وعلامة نصبه الياء... إلخ.

﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾: متعلقان بفعل محذوف، التقدير: وآتى المال في فكِّ الرقاب، وعليه فالجار والمجرور في محلِّ نصب مفعوله الثاني، والمضاف محذوف، وهذه الجملة المقدرة على جملة الصِّلة أيضاً، وجوز عطف الجار والمجرور على: ﴿ذَوِي﴾ بدون تقدير فعل، ولكن الأول أقوى، والجملتان: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ معطوفتان على جملة الصِّلة، لا محل لهما مثلها.

﴿وَٱلْمُوفُونَ﴾: فيه ثلاثة أوجه: أحدها: العطف على ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ والتقدير: ولكن البر المؤمنون، والموفون، والثاني: هو خبر مبتدأ محذوف، التقدير: وهم الموفون. الثالث: هو معطوف على الضمير في: ﴿ءَامَنَ﴾ فهو مرفوع على جميع الاعتبارات، وعلامة رفعه الواو نيابة عن الضَّمة؛ لأنه جمع مذكر سالم، وفاعله مستتر فيه؛ لأنه جمع لاسم فاعل. ﴿بِعَهْدِهِمْ﴾: متعلقان بـ (الموفون)، والهاء في محل جر بالإضافة من إضافة المصدر لفاعله. ﴿إِذَا﴾: ظرف زمان مجرد عن الشرطية متعلق بـ (الموفون) أيضاً، مبني على السكون في محل نصب. ﴿عَٰهَدُوا۟﴾: فعل ماض مبني على الضم، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها.

﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾: منصوب على المدح بفعل محذوف، التقدير: أمدح، أو أخص، ونحوه، وقال مكي: أو على العطف على ﴿ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ وقال: وإذا عطفت على ﴿ذَوِى﴾ لم يجز أن ترفع: ﴿وَٱلْمُوفُونَ﴾ إلا على العطف على المضمر في: ﴿ءَامَنَ﴾ ليكون داخلاً في صلة: ﴿مَنْ﴾. هذا والجملة الفعلية: «أمدح الصابرين» معطوفة في المعنى على ما قبلها، ويجوز اعتبارها مستأنفة. وفاعل (الصابرين) مستتر فيه. ﴿فِى ٱلْبَأْسَآءِ﴾: متعلقان بـ (الصابرين). ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾: معطوف على ما قبله. (حين): ظرف زمان معطوف على الجار والمجرور قبله، فهو متعلق ضمناً بـ (الصابرين) وانظر ما ذكرته في سورة (النساء) في الآية رقم [١٦٢].

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾: اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ، والكاف حرف خطاب لا محل له. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة بعده صلته، والمتعلق محذوف، أي: صدقوا في الإيمان، وفعل البر. والجملة الاسمية مستأنفة لا محلَّ لها. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ مثل سابقه. ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل لا محل له. ﴿ٱلْمُتَّقُونَ﴾: خبر المبتدأ مرفوع... إلخ. هذا؛ ويجوز اعتبار الضمير مبتدأً ثانياً، و﴿ٱلْمُتَّقُونَ﴾ خبره. والجملة الاسمية هذه في محل رفع خبر المبتدأ الأول، وعلى الوجهين فالجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها، ومؤكِّدة لها، لا محل لها مثلها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾﴾

الشرح: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: نادى الله عباده المؤمنين في هذه الآية بأكرم وصف، وألطف عبارة؛ أي: يا مَنْ صدقتم الله، ورسوله، وتحلَّيتم بالإيمان الذي هو زينة الإنسان! وقد خاطب

الله عباده المؤمنين بهذا النِّداء في ثمانيةٍ وثمانين موضعاً من القرآن الكريم، ونداء المخاطبين باسم المؤمنين يذكرهم بأنَّ الإيمان يقتضي من صاحبه أن يتلقى أوامر الله، ونواهيه بحسن الطَّاعة، والامتثال، وإنَّما خصَّهم الله بهذا النِّداء؛ لأنَّهم هم المستجيبون لأوامره، المنتهون عمَّا نهى الله عنه؛ إذ الغالب أن يتبع هذا النداء بأمرٍ، أو بنهيٍ. ﴿كُتِبَ﴾: فرض، كما في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ﴾ ومنه قول عمر بن أبي ربيعة المخزومي: [الخفيف]

كُتِبَ الْقَتْلُ وَالْقِتَالُ عَلَيْنَا ... وَعَلَى الْغَانِيَاتِ جَرُّ الذُّيُولِ

﴿ٱلْقِصَاصُ﴾: القَوَدُ الذي هو قتل القاتل فقط لا يتجاوز إلى غيره، قال تعالى في سورة (الإسراء) رقم [٣٣]: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ﴾. والإسراف: هو قتل غير القاتل: انظر شرحها هناك. هذا؛ والقصاص لا يقيمه إلا أولو الأمر، فلو تُركَ لوليِّ القتيل؛ تقع الفوضى في المجتمع، ويختلُّ النظام الاجتماعي. ﴿ٱلْقَتْلَى﴾ جمع: قتيل، لفظه مؤنث تأنيث الجماعة، وهو ممَّا يُدخل على الناس المَساءة، فلذلك جاء على هذا البناء، كجَرْحَى، وزَمْنَى، وحَمْقَى، وَصَرْعَى، وغَرْقَى. هذا؛ وخذ ما يلي: [مجزوء الخفيف]

إنَّ قَوْمِي تَجَمَّعُوا ... وبِقَتْلِي تَحَدَّثُوا

لَا أُبَالِي بَجَمْعِهِمْ ... كُلَّ جَمْعٍ مُؤَنَّثُ

﴿ٱلْحُرُّ﴾ هو الذي لا ملك لأحد فيه. و(العبد) بخلافه. هذا؛ وقد اختلف في تأويل الآية، فقالت طائفة: جاءت الآية مبينةً لحكم النوع إذا قتل نوعه، فبينت حكم الحر إذا قتل حرّاً، والعبد إذا قتل عبداً، والأنثى إذا قتلت أنثى، ولم تتعرض لأحدِ النوعين إذا قتل الآخر، فالآية محكمةٌ، وفيها إجمال يبينه قوله تعالى في سورة (المائدة) رقم [٤٥]: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ...﴾ إلخ وبينه النَّبيُّ ﷺ بسنَّته لما قتل اليهوديَّ بالمرأة.

وذهب أبو حنيفة ـ رحمه الله تعالى ـ إلى أنَّ الحرَّ يُقتل بالعبد لعموم آية المائدة المذكورة، وهو مروي عن عليٍّ، وابن مسعودٍ، رضي الله عنه. قال البخاريُّ ـ رحمه الله تعالى ـ: يقتل السيد بعبده لعموم قول النَّبيِّ ﷺ: **«مَنْ قَتَل عَبْدَهُ؛ قَتَلْنَاهُ، وَمَنْ جَدَعَ عَبْدَهُ؛ جَدَعْنَاهُ، وَمَنْ خصَاهُ؛ خَصَيْنَاهُ»**. وخالفهم الجمهور، فقالوا: لا يقتل الحرُّ بالعبد؛ لأنَّ العبد سلعةٌ، لو قتل خطأً؛ لم يجب فيه دية، وإنَّما تجب فيه قيمتهُ، ولأنه لا يقاد بطرفه، ففي النفس بطريق الأولى. وذهب الجمهور إلى أنَّ المسلم لا يقتل بالكافر؛ لما ثبت عن البخاري في عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لَا يُقْتَلُ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ»** ولا يصحُّ حديث، ولا تأويل يخالف هذا. وأما أبو حنيفة؛ فذهب إلى أنَّه يقتل به لعموم آية المائدة المذكورة، وقد عيب عليه ذلك، وقد أفتى أبو يوسف ـ رحمه الله ـ بذلك، وقد قال بعض الشعراء ذامّاً له، بل ومتهجِّماً عليه، خذ قوله: [السريع]

يَا قَاتِلَ الْمُسْلِمِ بِالْكَافِرِ جُرْتَ وَمَا الْعَادِلُ كَالْجَائِرِ
يَا مَنْ بِبَغْدَادَ وأَطْرافِهَا مِنْ فُقَهَاءِ النَّاسِ أَوْ شَاعِرِ
جَارَ عَلَى الدِّينِ أَبُو يُوسُفٍ بِقَتْلِهِ الْمُسْلِمَ بِالْكَافِرِ
فَاسْتَرْجِعُوا وابكُوا عَلَى دِينِكُمْ وَاصْطَبِرُوا إِنَّ الأجْرَ لِلصَّابِرِ

أقول وبالله التوفيق: لو أقيمت الحدود الشَّرعية في هذه الأيام؛ لوجب قتل المسلم بالكافر، والسَّبب في ذلك تغيُّر الأوضاع الاجتماعية، كما لا يخفى.

﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ أي: سمح بأن تنازل وليُّ المقتول عن بعض حقِّه، أو تنازل عن قتل القاتل إلى أخذ الدِّية، وفي ذكر ﴿أَخِيهِ﴾ تعطُّف، وتلطُّف داعٍ إلى العفو، وإعلام من الله تعالى لعباده المؤمنين بأن القتل لا يقطع أخوَّة الإيمان بينهم.

﴿فَٱتِّبَاعٌۢ﴾ أي: فمطالبة من العافي، أو المتنازل عن بعض حقِّه للقاتل. ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾: باللطف، والرِّفق. ﴿وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾ أي: وعلى القاتل الذي تنازل له وليُّ المقتول عن بعض حقِّه أن يؤدِّي ما عليه بإحسانٍ؛ أي: بلا بخسٍ للحقِّ، ولا مطلٍ، ولا خداعٍ.

﴿ذَٰلِكَ﴾: إشارة إلى الحكم المذكور من جواز القصاص، والعفو عنه إلى الدِّية، أو إسقاط بعضها. ﴿تَخْفِيفٌ﴾: تسهيلٌ، وتيسير. ﴿مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ أي: من الله تعالى بكم حيث وسع في ذلك، ولم يحتِّم واحداً منهما، كما حتم على اليهود القصاص، وعلى النصارى الدِّية، لا يجوز لكلِّ ملَّة منهم أن تأخذ بغير ما فرض الله عليها، وفي هذا تضييق على كلٍّ مِنْ وليِّ المقتول، والقاتل، وقد خير الله هذه الأمة بين القَوَد، والدِّية، وأيضاً العفو تيسير عليها، وقال تعالى في آية المائدة بعد ذكر القصاص: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ فندب إلى رحمة العفو، والصدقة.

﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: بأن قتل وليُّ المقتول القاتلَ، أو تعرَّض له بسوءٍ بعد أخذ الدية، أو بعد العفو عنه. قال الحسن البصريُّ ـ رحمه الله تعالى ـ: كان الرجل في الجاهلية إذا قتل قتيلاً؛ فرَّ إلى قومه، فيجيء قومُه، فيصالحون بالدِّية، فيقول وليُّ المقتول: إنِّي أقبل بالدِّية، حتَّى يأمن القاتلُ، ويخرجَ، فيقتله، ويرمي إليهم بالدِّية. واختلف فيمن قتل بعد أخذ الدية، فقال جماعة من العلماء، ومنهم: مالك، والشَّافعي: هو كمن قتل ابتداءً، إن شاء الولي قتله، وإن شاء عفا عنه، وعذابه في الآخرة. وقال قتادة، وعكرمة، والسُّدي، وغيرهم: عذابه أن يقتل ألبتَّة، ولا يُمكِّن الحَاكمُ الوليَّ من العفو. وروى أبو داود عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا أُعْفِيَ مَنْ قَتَلَ بَعْدَ أَخْذِهِ الدِّيَةِ**». وهذا دعاء عليه، أي: لا كثر ماله، ولا استغنى، ولا أعفاه الله من عذاب الآخرة. وفي سنن الدَّارقطني عن أبي شُريح الخزاعي ـ رضي

الله عنه ـ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ أُصِيبَ بِدَمٍ، أو خَبْلٍ ـ وَالخَبلُ: العرجُ ـ فَهُوَ بالخِيَارِ بَيْنَ إِحْدَى ثَلَاثٍ، فَإِنْ أَرَادَ الرَّابِعَةَ، فَخذُوا على يَدَيهِ بَيْنَ أَنْ يَقْتَصَّ، أَوْ يَعْفُوَ، أَوْ يَأْخُذَ العَقْلَ، فَإِنْ قَبِلَ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ ثُمَّ عَدَا بَعْدَ ذلِكَ؛ فَلَهُ النَّارُ خَالِدَاً فِيهَا مُخَلَّداً**».

هذا؛ وإذا قتل الابن أباه؛ يقتل حتماً، وإذا قتل الأب ابنه؛ فيه خلافٌ، ومذهب مالك: أنَّه يقتل إذا قتل ابنه متعمداً، مثل أن يضجعه، ويذبحه، أو يصبره، ويضربه، مما لا عذر له فيه، ولا شبهة في ادِّعاء الخطأ: أنَّه يقتل به قولاً واحداً، فأمَّا إن رماه بالسِّلاح أدباً، أو حَنَقاً، فقتله، ففيه في المذهب قولان. وقال الشَّافعي، وأحمد، وإسحاق، وأصحاب الرأي: لا قودَ فيه، وعليه ديته، فقد روى الدَّارقطني، وأبو عيسى التِّرمذيُّ عن سراقة بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: حضرت رسول الله ﷺ، يقيد للأب من ابنه، ولا يقيد للابن من أبيه. قال أبو عيسى: هذا حديث لا نعرفه من حديث سراقة إلا من هذا الوجه، وليس إسناده بصحيح.

وقد استدل الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى بهذه الآية على قوله: لا تقتل الجماعة بالواحد، قال: لأنَّ الله سبحانه شرط المساواة، ولا مساواة بين الجماعة والواحد، وقد قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ...﴾ إلخ، والجواب: أنَّ المراد بالقصاص في الآية قتل مَنْ قتل كائناً مَنْ كان ردَّاً على العرب؛ التي كانت تريد أن تقتل بمن قُتِلَ مَنْ لم يَقْتُل، وتقتل في مقابلة الواحد مئة افتخاراً، واستظهاراً بالجاه، والمقدرة، فأمر الله سبحانه بالعدل، والمساواة، وذلك بأن يُقْتَل مَنْ قَتَل، وقد قتل عمر ـ رضي الله عنه ـ سبعةً برجل بصنعاء، وقال: (لو تمالأ عليه أهل صنعاء لقتلتُهم به جميعاً). وقتل عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ طائفةً من الخوارج نُسِبوا إلى حروراء بعبد الله بن خبَّاب. وفي الترمذيِّ عن أبي سعيد، وأبي هريرة ـ رضي الله عنهما ـ عن رسول الله ﷺ قال: «**لَو أَنَّ أَهْلَ السَّمَاءِ وَأَهلَ الأَرْضِ اشْتَرَكُوا في دَمِ مُؤْمِنٍ لأَكَبَّهُمُ اللهُ في النَّار**». وأيضاً فلو علم الجماعة: أنهم إذا قتلوا الواحد لم يقتلوا؛ لتعاون الأعداء على قتل أعدائهم بالاشتراك في قتلهم، وبلغوا الأمل من التشفِّي. ومراعاة هذه القاعدة أولى من مراعاة الألفاظ. هذا؛ ولا تنس أنَّ هنا فعلاً محذوفاً، التقدير: فمن اعتدى بعد ذلك، فَقَتَلَ. ومثله آية الصِّيام الآتية.

تنبيه: قيل: نزلت الآية الكريمة في الأوس، والخزرج، وكان لأحد الحيَّيْن زيادة على الآخر في الكثرة، والشرف، وكانت حصلت بينهم حروب، ووقعت دماء كثيرة، فأقسم الفريق المتعالي بكثرته. لنقتلنَّ بالعبد منَّا الحر منهم، وبالمرأة منا الرَّجل منهم، وبالرَّجل منا الرَّجلين منهم، فلمَّا أسلموا جميعاً، وأرادوا المُصالحة فيما بينهم؛ رفعوا أمرهم إلى النبي ﷺ فأنزل الله هذه الآية الكريمة، وأمرهم بالمساواة، فرضوا، وسلَّموا. وانظر آية (المائدة).

الإعراب: ﴿يَتَأَيُّهَا﴾: (يا): أداة نداء تنوب مناب «أدعو»، أو: أنادي. (أيها): نكرة مقصودة مبنية على الضم في محل نصب بـ (يا)، و(ها): حرف تنبيه لا محل له من الإعراب، أُقحم

للتوكيد، وهو عوض عن المضاف إليه، ولا يقال: ضمير في محل جر بالإضافة؛ لأنَّه يجب حينئذ نصب المنادى. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع بدل من لفظ (أيها). وجملة: ﴿ءَامَنُوا۟﴾ مع المتعلِّق المحذوف: صلة الموصول، لا محل لها، ﴿كُتِبَ﴾: فعل ماض مبني للمجهول. ﴿عَلَيْكُمُ﴾: جار ومجرور متعلِّقان بما قبلهما. ﴿ٱلْقِصَاصُ﴾: نائب فاعل، ﴿فِى ٱلْقَتْلَى﴾: متعلقان بمحذوف حال من: ﴿ٱلْقِصَاصُ﴾. وقيل: الفاء للسببية، فتكون متعلقة بالفعل ﴿كُتِبَ﴾. والجملة الفعلية ابتدائية كالجملة الندائية قبلها، لا محل لها مثلها. ﴿ٱلْحُرُّ﴾: مبتدأ. ﴿بِٱلْحُرِّ﴾ متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ؛ أي: مقتول ومأخوذ بالحرِّ، والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها، واعتبارها مفسرةً للقصاص معنىً مقبولٌ، والجملتان الاسميتان بعدها معطوفتان عليها، وإعرابها مثلها بلا فارق. ﴿فَمَنْ﴾: الفاء: حرف استئناف، وتفريع. (مَنْ): اسم شرط جازم مبني على السكون في محلِّ رفع مبتدأ. ﴿عُفِىَ﴾: فعل ماض مبني على الفتح في محل جزم فعل الشرط، وهو مبني للمجهول. ﴿لَهُۥ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿مِنْ أَخِيهِ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال من: ﴿شَىْءٌ﴾ كان صفة له، فلمَّا قُدِّم عليه؛ صار حالاً على القاعدة: «نعت النكرة إذا تقدم عليها صار حالاً». وعلامة الجر الياء نيابةً عن الكسرة؛ لأنَّ من الأسماء الخمسة، والهاء في محل جرٍّ بالإضافة. ﴿شَىْءٌ﴾ نائب فاعل: ﴿عُفِىَ﴾. ﴿فَٱتِّبَاعٌۢ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط، (اتباع): مبتدأ، خبره محذوف، التقدير: فعليه اتباع، وقيل: خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: فالأمر اتباع، والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور، والدُّسوقي يقول: لا محل لها؛ لأنها لم تحلَّ محلَّ المفرد، وخبر المبتدأ الذي هو (مَنْ) مختلفٌ فيه، كما رأيت فيما سبق. هذا؛ وإن اعتبرت (مَنْ) اسماً موصولاً فهو مبتدأ، وجملة: ﴿عُفِىَ...﴾ إلخ صلتها، والجملة الاسمية: ﴿فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾: خبره، وزيدت الفاء في الخبر؛ لأن الموصول يشبه الشَّرط في العموم، والجملة الاسمية مستأنفة على الاعتبارين لا محل لها. ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾: متعلقان بـ (اتباع) لأنه مصدر، أو هما متعلقان بمحذوف صفة له. (أداء): مبتدأ، خبره محذوف، أي: وعلى القاتل أداءٌ، أو بمحذوف صفة له. ﴿بِإِحْسَٰنٍ﴾: متعلقان بما تعلق به: ﴿إِلَيْهِ﴾، وأجيز تعليقهما بمحذوف حال من الضمير المجرور بـ (إلى) وهو ضعيف.

﴿ذَٰلِكَ﴾: اسم إشارة مبني على السكون في محل رفع مبتدأ، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب، لا محل له. ﴿تَخْفِيفٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها، وأجيز اعتبارها في محل نصب حال مؤكدة لمضمون الجملة السابقة، والرابط اسم الإشارة. ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾: متعلقان بـ (تخفيف) لأنه صفة مشبهة، والكاف في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿وَرَحْمَةٌ﴾: معطوف على: ﴿تَخْفِيفٌ﴾. ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ﴾ إعرابه

مثل إعراب سابقه. ﴿بَعْدَ﴾: ظرف زمان متعلق بالفعل قبله، و﴿بَعْدَ﴾ مضاف، و﴿ذَٰلِكَ﴾ اسم إشارة مبني على السكون في محل جر بالإضافة، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب لا محل له. ﴿فَلَهُۥ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (له): جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم. ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿أَلِيمٌ﴾: صفة له، والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط، وتتمة الكلام مثل ما قبله بلا فارق.

﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾

الشرح: ﴿ٱلْقِصَاصِ﴾ انظر الآية السابقة. ﴿حَيَوٰةٌ﴾: بقاء عظيم، وهذا كلام في غاية الفصاحة، والبلاغة مِنْ حيث جعل الشيء محلَّ ضدِّه، وعرَّف ﴿ٱلْقِصَاصِ﴾ ونكَّر الحياة؛ ليدلَّ على أن في هذا الجنس من الحكم نوعاً من الحياة عظيماً، وذلك لأن العلم به يردع القاتل عن القتل، فيكون سبب حياة نفسين، ولأنهم كانوا يقتلون غير القاتل، ويقتلون الجماعة بالواحد، فتثور الفتنة بينهم، فإذا اقْتُصَّ من القاتل؛ سلم الباقون، ويصير ذلك سبباً لحياتهم. انتهى بيضاوي. وهذا الحكم غير مختص بالقصاص الذي هو القتل، بل يدخل فيه جميع الجروح، والشِّجاج، وغير ذلك؛ لأن الجارح إذا علم أنَّه إذا جَرَحَ؛ جُرِح؛ لم يجرح، فيصير ذلك سبباً لبقاء الجارح، والمجروح، وربما أفضت الجراحة إلى الموت، فيقتص من الجارح، وانظر ما ذكرته في سورة (المائدة) رقم [٣٨] تجد ما يسرك.

وقيل في معنى الآية: إنَّ الحياة: سلامتُه من قصاص الآخرة، فإنَّه إذا اقتُصَّ منه في الدنيا؛ لم يقتص منه في الآخرة، وفي ذلك حياتُه، وإذا لم يُقْتَصَّ منه في الدنيا؛ اقتُص منه في الآخرة. انتهى خازن. وهذا لا يناسب معنى الآية، ولكن صريح قول الرسول ﷺ: «**مَنْ عُوقِبَ في الدُّنيا؛ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ**» هو الذي يفيد ما ذكرته، وانظر سورة (المائدة) آية [٣٣].

هذا؛ وقد اتَّفق علماء البيان على أنَّ هذه الجملة: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ بالغة أعلى درجات البلاغة. ونقل عن العرب في هذا المعنى قولهم: «القتل أنفى للقتل» ولكن شتَّان ما بين الآية الكريمة من البلاغة، وبين قول العرب، فقد جعلت الآية الكريمة سبب الحياة القصاص، وهو القتل عقوبة على وجه التماثل، وقول العرب جعل سبب الحياة القتل، ومن القتل ما يكون ظلماً، فيكون سبباً للفناء، وتصحيح العبارة أن يقال: القتل قصاصاً أنفى للقتل ظلماً. والآية الكريمة جاءت خالية من التكرار اللفظي، وقول العرب كرر فيه لفظ (القتل) فمسَّه بهذا التكرار من الثقل ما سلمت منه الآية. وقد ذكر وجوهٌ كثيرة من التفريق بين الآية الكريمة، واللفظة العربية، وقد ذكرها السُّيوطي في الإتقان. وانظر ما ذكرته في قوله تعالى في سورة (الأنبياء) آية [٢٣]: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾.

(أولي): أصحاب، ولا واحد له من لفظه، وإنَّما واحده «ذي» المضاف، إن كان مجروراً، و«ذا» المضاف إن كان منصوباً، و«ذو» المضاف إن كان مرفوعاً. ﴿ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: العقول، جمع: لب، وهو العقل الخالي من الهوى، سمِّي بذلك لأحد وجهين: إما لبنائه مِنْ: لبَّ بالمكان: أقام به، وإما من اللُّباب، وهو الخالص من كل شائبة. هذا؛ واللبيب: العاقل الفاهم، والجمع: ألباء، والأنثى لبيبة، وجمعها: لبيبات ولبائب، واللُّب: خالص كلِّ شيءٍ. انظر الآية رقم [١٩٦] الآتية، ففيها بحث جيد. ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ انظر الآية رقم [٢١]، والمراد هنا: لعلكم تتقون القتل، أي: تبتعدون عنه مخافة القصاص. وانظر الآية رقم [١٨١] الآتية.

الإعراب: ﴿وَلَكُمْ﴾: الواو: حرف استئناف. (لكم): جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم. ﴿فِى ٱلْقِصَاصِ﴾: متعلقان بالخبر المحذوف، أو هما متعلقان بخبر ثان، كما جوز أن يكونا متعلقين بمحذوف حال من الضمير المستكن في الخبر المحذوف، واعتبارهما متعلقين بمحذوف حال من: ﴿حَيَوٰةٌ﴾ ضعيف؛ لأن كثيراً من النحاة، لا يجيزون مجيء الحال من المبتدأ. ﴿حَيَوٰةٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها. ﴿يَٰٓأُو۟لِى﴾: (يا): حرف نداء ينوب مناب: أدعو. (أولي): منادى منصوب، وعلامة نصبه الياء نيابة عن الفتحة؛ لأنَّه ملحق بجمع المذكر السَّالم، وحذفت النون للإضافة، وهو مضاف، و﴿ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ مضاف إليه، والجملة النِّدائية، ابتدائية، أو مستأنفة لا محل لها. ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: حرف مشبه بالفعل، والكاف اسمها. ﴿تَتَّقُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، ومفعوله محذوف، انظر تقديره في الشرح، والجملة الفعلية في محل رفع خبر: (لعلَّ) والجملة الاسمية فيها معنى التعليل لما قبلها.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾﴾

الشرح: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ﴾: فرض عليكم. ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ أي: إذا حضرت أمارته، كالمرض المَخُوف؛ الذي لا يُرجى برؤه، وحضور الموت: وجود أسبابه، ومتى حضر السبب كنَّت به العرب عن المسبَّب، قال عنترة: [الوافر]

وَإِنَّ الْمَوْتَ طَوْعُ يَدِي إِذَا مَا ... وَصَلْتُ بَنَانَهَا بِالْهُنْدَوَانِي

﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ أي: مالاً، وانظر ما ذكرته في الآية رقم [١٠٥] فإنه جيد، وشرح (أحد) في الآية رقم [٩٦]. هذا وعبر عن المال بالخير؛ لأن الإنسان يكسب به العزة، والشرف، والأجر، والثواب، وقد يكون العكس؛ إذا كسبه من حرام، وأنفقه في حرام. ﴿ٱلْوَصِيَّةُ﴾: هي تبرع بشيء

مضاف لما بعد الموت. ﴿لِلْوَالِدَيْنِ﴾: فيه تغليب الوالد على الوالدة، ومثله: الأبوان. ﴿وَالْأَقْرَبِينَ﴾: جمع: الأقرب، بمعنى القريب، وليس صيغة تفضيل. ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾: بالعدل بأن لا يزيد على الثلث، ولا يفضل الغني لغناه، وهو بخلافه في الآية رقم [١٧٧] ﴿حَقًّا﴾: واجباً ثابتاً، مِنْ: حقَّ، يحقُّ، بمعنى: وجب، يجب.

تنبيه: حكم هذه الآية كان في بدء الإسلام، فنسخ بآية المواريث الموجودة في سورة النساء، وبقول النبي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ، حقَّه، أَلا لَا وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ؛ إِلَّا أَنْ يُجِيزَهَا بَاقِي الْوَرَثَةِ**». رواه أصحاب السنن عن عمرو بن خارجة، رضي الله عنه. وقيل: هي غير منسوخة؛ لأنها نزلت في حقِّ من ليس بوارث بسبب الكفر؛ لأنَّ الرَّجل كان يسلم، ووالداه يبقيان على كفرهما، فلذا استحقا الوصية؛ لأن الإسلام قطع الإرث بين المسلم، والكافر، فشرعت الوصية قضاءً لحقِّ القرابة ندباً، وعلى هذا لا يراد بـ ﴿كُتِبَ﴾ فرض، وبقيت ندباً بحدود الثلث؛ حتى لا تجحف بورثته، كما ثبت في الصحيحين: أن سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ، قال: يا رسول الله! إنَّ لي مالاً، ولا يرثني إلا ابنة لي، أفأوصي بثُلُثَيْ مالي؟ قال: «لا» قال: فبالشطر؟ قال: «لا» قال: فبالثلث؟ قال: «**الثلث، والثلثُ كثيرٌ. إِنَّكَ إِنْ تَذَرْ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ؛ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَدَعَهُمْ عَالَةً، يَتَكَفَّفُونَ النَّاس**».

هذا؛ والوصية لوارث موقوفة على إجازة الورثة، فقد روى الدَّارقطني عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَا تَجُوزُ الْوَصِيَّةُ لِوَارِثٍ؛ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ الْوَرَثَةُ**». وروى أيضاً عن عمرو بن خارجة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَا وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ إِلَّا أَنْ تُجِيزَ الْوَرَثَةُ**».

هذا؛ والوصية سنَّةٌ مؤكَّدةٌ، فقد أخرج الدَّارقطني عن أبي أمامة، ومعاذ بن جبل ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ، قال: «**إِنَّ اللهَ تَصَدَّقَ عَلَيْكُمْ بِثُلُثِ أَمْوَالِكُم عِنْدَ وَفَاتِكُمْ، زِيَادَةً لَكُمْ فِي حَسَنَاتِكُمْ؛ لِيَجْعَلَهَا لَكُمْ زَكَاةً**». وعن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**مَا حَقُّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، لَهُ شَيْءٌ يُوصِي فِيهِ يَبِيتُ لَيْلَتَيْنِ**» وفي رواية: «**ثلاثَ لَيَالٍ، إِلَّا وَوَصِيَّتُهُ مَكْتُوبَةٌ عِنْدَهُ**». قال نافع مولى ابن عمر: سمعت عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ يقول: ما مرَّت عليَّ ليلةٌ منذ سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك؛ إلا وعندي وصيتي مكتوبةٌ. رواه مالك، والستَّة.

وعن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ مَاتَ عَلَى وَصِيَّةٍ مَاتَ عَلَى سَبِيلٍ، وسُنَّةٍ، وَمَاتَ عَلَى تُقىً، وشَهَادَةٍ، وَمَاتَ مغفوراً لَهُ**». أخرجه ابن ماجه.

هذا؛ والرسول ﷺ فضَّل الصَّدقة، وأعمال الخير في حال الصِّحَّة، على حال المرض، ودنو الموت، وخذ ما يلي: فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: جاء رجل إلى النبيِّ ﷺ، فقال: يا رسول الله! أيُّ الصدقة أعظم أجراً؟ قال: «**أَنْ تَصَدَّقَ، وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ، تَخْشَى الْفَقْرَ، وَتَأْمُلُ الْغِنَى، وَلَا تُمْهِلْ حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ؛ قُلْتَ: لِفُلانٍ كَذَا، ولِفُلانٍ كَذَا؛ وقدْ كَانَ لِفُلانٍ كذا**».

رواه الستَّة إلا الترمذيّ. وعن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لأَنْ يَتصَدَّقَ الْمَرْءُ فِي حَيَاتِهِ، وَصِحَّتِهِ بِدِرْهَمٍ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَتَصَدَّقَ عِنْدَ مَوْتِهِ بِمِئةٍ**». رواه أبو داود، وغيره. وعن أبي الدَّرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَثَلُ الَّذِي يَتَصدَّقُ عِنْدَ مَوْتِهِ، كَمَثَلِ الَّذِي يُهْدِي بَعْدَمَا يَشْبَعُ**». رواه النَّسائيُّ، وابن حبَّان، وغيرهما.

هذا؛ وقد حذَّر الرَّسول ﷺ من الحيف في الوصية، وشدَّد النكير على الذين يجورون فيها. وخذ ما يلي: فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ ـ أَو الْمَرْأَةَ ـ بِطَاعَةِ اللهِ سِتِّينَ سَنَةً، ثُمَّ يَحْضُرهُمَا الْمَوتُ، فَيُضَارَّان فِي الْوَصِيَّةِ، فَتَجِبُ لَهُمَا النَّارُ**» ثمَّ قرأ أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ﴾ حتى بلغ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾. رواه أبو داود، والترمذيُّ.

وإن الذين يَحْرِمون البنات من أملاكهم في حياتهم، ويسجِّلون للذكور خاصَّة؛ حرمهم الله من رحمته، وأبعدهم من رضوانه، وجنَّته! وحديث بشير بن النُّعمان ـ رضي الله عنه ـ مشهور، ومسطور، فقد جاء إلى النبيِّ ﷺ، وقال: يا رسول الله! إن ابنة رواحة أعجبها أن أشهدك على ما وهبتُ لابنها. فقال سيِّد الخلق، وحبيب الحق، الناطق بالصدق: «**أَكُلَّ وَلَدِكَ نَحَلْتَ مِثْلَهُ؟**» قال: لا، قال: «**لَا أَشْهَدُ عَلَى جَوْرٍ! اتَّقُوا الله، واعْدِلُوا فِي أَوْلَادِكُمْ**». فالله يقول: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾، وهم يقولون: المال، والملك كلُّه للذكور خاصَّةً، ولا حظَّ فيه للإناث.

الإعراب: ﴿كُتِبَ﴾: فعل ماض مبني للمجهول، وفي نائب الفاعل ثلاثة أوجه: أحدها: أن يكون: ﴿ٱلۡوَصِيَّةُ﴾ وذُكِّر الفعل للفصل، ولكون ﴿ٱلۡوَصِيَّةُ﴾ مؤنثاً مجازيّاً، والثاني: أنه الإيصاء المدلول عليه بالوصية، أي: كُتِبَ هو، أي: الإيصاء. والثالث: أنه الجار والمجرور: ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ وهذا يتجه على رأي الأخفش، والكوفيين، وعلى الوجهين الأولين فالجار والمجرور متعلقان بالفعل قبلهما على أنهما في محل نصب مفعول به. انتهى جمل نقلاً عن السَّمين. ﴿إِذَا﴾: ظرف زمان مجرد عن الشرطية متعلِّق بالفعل قبله مبني على السُّكون في محل نصب. ﴿حَضَرَ﴾: فعل ماض. ﴿أَحَدَكُمُ﴾: مفعول به، والكاف في محل جر بالإضافة. ﴿ٱلۡمَوۡتُ﴾: فاعله، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة: ﴿إِذَا﴾ إليها.

﴿إِن﴾: حرف شرط جازم. ﴿تَرَكَ﴾: فعل ماض مبني على الفتح في محل جزم فعل الشرط، والفاعل يعود إلى ﴿أَحَدَكُمُ﴾. ﴿خَيۡرًا﴾: مفعول به، واكتفى به؛ لأنَّ الفعل بمعنى: خلَّى، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها ابتدائية، ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفي، وجواب ﴿إِن﴾ محذوف دلَّ عليه لفظ الوصية، التقدير: إن ترك خيراً؛ فليوصِ. ﴿ٱلۡوَصِيَّةُ﴾: نائب فاعل: ﴿كُتِبَ﴾؛ وعليه فالجملة الشرطية معترضة بين الفعل ونائب فاعله. ﴿لِلۡوَٰلِدَيۡنِ﴾:

جار ومجرور متعلقان بـ ﴿ٱلْوَصِيَّةُ﴾ وعلامة الجر الياء نيابة عن الكسرة؛ لأنه مثنًى، وهذا ما جرى عليه ابن هشام في المغني، وقد ردَّ على الأخفش، الذي اعتبر ﴿ٱلْوَصِيَّةُ﴾ مبتدأ، وخبره ﴿لِلْوَٰلِدَيْنِ﴾ والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط، وحذفت الفاء التي تقع في جواب الشرط؛ إذا كانت الجملة اسمية، كما في قول عبد الرحمن بن حسان بن ثابت ـ رضي الله عنهما، وهو الشاهد رقم [١٤٦] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [البسيط]

مَنْ يَفْعَلِ الْحَسَنَاتِ اللهُ يَشْكُرُهَا وَالشَّرُّ بِالشَّرِّ عِنْدَ اللهِ مِثْلَانِ

إذ التقدير: فالله يشكرها، فقال: مردود؛ لأن الفاء لا تحذف إلا في ضرورة الشِّعر، والقرآن لا ضرورة فيه، بل هو منزَّه عن الضرورة، واعتبر ﴿ٱلْوَصِيَّةُ﴾ نائب فاعل ﴿كُتِبَ﴾. هذا؛ وردَّ مكيٌّ ما تقدم بقوله: ﴿ٱلْوَصِيَّةُ﴾ رفع بالابتداء، والخبر محذوف، أي: فعليكم الوصية. ويبعد رفعها بـ ﴿كُتِبَ﴾ لأنها تصير عاملة في ﴿إِذَا﴾ فإذا كانت ﴿إِذَا﴾ في صلة الوصية؛ فقد قدمت الصِّلَة على الموصول، ونائب فاعل ﴿كُتِبَ﴾ مضمر دلَّت عليه (الوصية) تقديره: كتب عليكم الإيصاء إذا حضر، فالإيصاء عامل في ﴿إِذَا﴾. انتهى بتصرف. وهو كلام فيه تكلُّف، ثم ذكر كلاماً للنَّحاس بعيداً كل البعد.

﴿وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾: معطوف على ما قبله مجرور مثله، وعلامة جره الياء نيابة عن الكسرة؛ لأنه جمع مذكر سالم، والنون فيه، وفي سابقه عوضٌ عن التنوين في الاسم المفرد. ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾: متعلقان بمحذوف حال من الضمير المستتر في الخبر المحذوف، أو من ﴿ٱلْوَصِيَّةُ﴾ إن كانت نائب فاعل، أي: ملتبسة بالمعروف. ﴿حَقًّا﴾: مفعول مطلق لفعل محذوف، أي: حقَّ ذلك حقّاً. قال أبو البقاء: ويجوز أن يكون صفة لمصدر محذوف، أي: كتباً حقّاً، أو إيصاءً حقّاً. قال الجلال: ﴿حَقًّا﴾ مصدر مؤكد لمضمون الجملة قبله. أقول: وعلى تقدير فعل قبله، فجملته في محل نصب حال مؤكدة لمضمون الجملة قبلها. ﴿عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ متعلقان بـ ﴿حَقًّا﴾ أو بمحذوف صفة له.

﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾﴾

الشرح: ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ﴾: فمن غيَّر الإيصاء عن وجهه، إن كان موافقاً للشرع من الأوصياء، والشهود. ﴿فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ﴾ أي: التبديل المفهوم من: ﴿بَدَّلَهُۥ﴾. ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ﴾ أي: يبدلون الإيصاء، ولا يعود الضمير على التبديل. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾: أي: لأقوال الناس من موصٍ، وموصىً له، ووصي، وشاهد. ﴿عَلِيمٌ﴾: بأفعال الناس جميعاً، فيجازي كلَّ واحد بما قال، أو فعل، ولا تخفى عليه خافية في الأرض، ولا في السماء، وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: وقع أجر الميت الموصي على الله، وتعلَّق الإثم بالَّذين بدَّلوا. وهذه الآية في الوصية المحكمة المعمول بها إلى الآن، وإلى يوم القيامة.

قال سليمان الجمل ـ رحمه الله تعالى ـ: لكن هنا وقفة من حيث إنَّ الكلام السابق إنما هو في الوصية المنسوخة، التي هي للوالدين، والأقربين، والكلام في هذه الآية، والتي بعدها، إنَّما هو في الوصية، التي استقر عليها الشرع، ويعمل بها إلى الآن، وإذا كان كذلك، فكيف يعود الضمير من المُحْكَمة على المنسوخة؟! فليتأمل، فإني لم أر من نبَّه على هذا. أقول: الذي جوز ذلك الاسم الجامع بينهما بغضِّ النظر عن المنسوخة، والمحكمة.

الإعراب: ﴿فَمَنْ﴾: الفاء: حرف استئناف. (مَنْ): اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿بَدَّلَهُۥ﴾: فعل ماض مبني على الفتح في محل جزم فعل الشرط، والفاعل يعود إلى (مَنْ) والهاء مفعول به. (بعد): ظرف زمان متعلق بما قبله وهو مضاف. (ما): اسم موصول مبني على السكون في محل جر بالإضافة، ﴿سَمِعَهُۥ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى (ما) وهو العائد، والهاء مفعول به، والجملة الفعلية صلة (ما) لا محل لها، والعائد محذوف، التقدير: بعد الذي سمعه. هذا؛ وعلى اعتبار (ما) مصدرية، تؤول مع الفعل بعدها بمصدر في محل جر بإضافة (بعد) إليه، التقدير: بعد سمعه، والمتعلق محذوف، التقدير: بعد سمعه له. ﴿فَإِنَّمَآ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (إنما): كافة ومكفوفة. ﴿إِثْمُهُۥ﴾: مبتدأ، والهاء: في محل جر بالإضافة. ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ. ﴿يُبَدِّلُونَهُۥٓ﴾: فعل مضارع، وفاعله، ومفعوله، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها، والجملة الاسمية: (إنما إثمه...) إلخ في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور، والدسوقي يقول: لا محل لها؛ لأنها لم تحلَّ محلَّ المفرد. هذا؛ وإن اعتبرت (مَنْ) اسماً موصولاً في محل رفع مبتدأ، والجملة الفعلية بعدها صلتها، والجملة الاسمية: ﴿فَإِنَّمَآ...﴾ إلخ في محل رفع خبرها، ودخلت الفاء على الخبر؛ لأن الموصول يشبه الشرط في العموم، فهو جيد، والمعنى لا يأباه، وعلى الاعتبارين فالجملة الاسمية: مستأنفة لا محل لها. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾: إعرابها لا خفاء فيه، والجملة الاسمية معترضة في آخر الكلام، الغاية منها: التهديد، والوعيد لمن يغيِّر في الوصيَّة شيئاً.

﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾﴾

الشرح: ﴿فَمَنْ خَافَ﴾: توقَّع، وقيل: معناه: علم، وهو مجاز، والعلاقة بينهما هو أنَّ الإنسان، لا يخاف شيئاً؛ حتى يعلم أنَّه ممَّا يُخاف منه، فهو من باب التعبير عن السبب بالمسبَّب. ومن مجيء الخوف بمعنى العلم، قوله تعالى في الآية رقم [٢٢٩] الآتية: ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ انتهى جمل. هذا؛ وأمَّا التَّخوُّف، فهو التنقُّص، كما في قوله تعالى في الآية رقم [٤٧] من سورة (النحل): ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾. يروى: أن عمر

الفاروق ـ رضي الله عنه ـ قال على المنبر: ما تقولون في قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ فسكتوا، فقام شيخ من هُذيل، فقال: هذه لغتنا، التَّخوُّف: التنقُّص، قال: فهل تعرف العرب هذا في أشعارهم؟ قال: نعم، قال: شاعرنا أبو كبير الهُذلي: [البسيط]

تَخَوَّفَ الرَّحْلُ مِنْهَا تَامِكاً قَرِداً ... كَمَا تَخَوَّفَ عُودَ النَّبْعَةِ السَّفَنُ

فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: أيها الناس عليكم بديوانكم، لا تَضِلُّوا، قالوا: وما ديواننا؟ قال: شعر الجاهليَّة، فإن فيه تفسير كتابكم، ومعاني كلامكم. هذا؛ وأصل الخوف: انزعاجٌ في الباطن، يحصل من توقُّع مكروهٍ يقع في المستقبل، وأصل خاف: (خَوِف) فقل في إعلاله: تحركت الواو، وانفتح ما قبلها، فقلبت ألفاً. ﴿جَنَفًا﴾ ميلاً، من: جَنِفَ، يَجْنَفُ، جَنَفاً، قال الأعشى: [الطويل]

تَجَانَفُ عَنْ جَوِّ الْيَمَامَةِ نَاقَتِي ... وَمَا قَصَدَتْ مِنْ أَهْلِهَا لِسَوَائِكَا

ومنه الآية الكريمة. والجنف: الجور، قال الشاعر: [الوافر]

هُمُ الْمَوْلى وَإِنْ جَنِفُوا عَلَيْنَا ... وَإِنَّا مِنْ لِقَائِهِمُ لَزُورُ

وقال لبيد ـ رضي الله عنه ـ: [الكامل]

إِنِّي امْرُؤٌ مَنَعَتْ أرُومَةُ عَامِرٍ ... ضَيْمِي وَقَدْ جَنَفَتْ عَلَيَّ خُصُومُ

﴿أَوْ إِثْمًا﴾: ظلماً، وخروجاً عن الحقِّ، ﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ في هذا الإصلاح؛ إذ الجَنَفُ في الوصيَّة، والإثم: العمد، وعليه فمعنى الآية: إذا حضر رجل مريضاً؛ وهو يوصي، فرآه يميل في وصيته، إما بتقصير، أو بإسراف، أو وضع الوصية في غير موضعها؛ فلا حرج عليه أن يأمره بالعدل في وصيته، وينهاه عن الجَنَف، والميل. وقيل: إن المراد به: إذا أخطأ الميت في وصيته، أو جَنِف متعمِّداً؛ فلا حرج على وليه، أو وصيه، أو ولي أمور المسلمين أن يصلح بعد موته بين ورثته، وبين الموصى لهم، ويردَّ الحق إلى نصابه، ويقيم العدل بينهم؛ وإن حصل في الوصية تبديل، وتغيير؛ لأن فيه خيراً، بخلاف التبديل السَّابق. وانظر الأحاديث التي ذكرتها في الآية السَّابقة، التي تشدِّد النكير على من يجور في وصيته. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: واسع المغفرة، والرَّحمة لمن قصد بعمله الإصلاح. فهما صيغتا مبالغة.

الإعراب: ﴿فَمَنْ﴾: الفاء: حرف استئناف. (مَنْ): انظر الاعتبارين فيها في الآية السابقة. ﴿خَافَ﴾: فعل ماض مبني على الفتح في محل جزم فعل الشرط، والفاعل يعود إلى (مَنْ). ﴿مِن مُّوصٍ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، أو هما متعلقان بمحذوف حال مِنْ: ﴿جَنَفًا﴾ كان صفة، فلما قُدِّم عليه صار حالاً، على القاعدة المشهورة: «نعت النكرة... إلخ». وعلامة الجر كسرة مقدرة على الياء المحذوفة، لالتقاء الساكنين.

﴿جَنَفًا﴾: مفعول به. ﴿أَوْ﴾: حرف عطف. ﴿إِثْمًا﴾: معطوف على ما قبله. ﴿فَأَصْلَحَ﴾: الفاء: حرف عطف. (أصلح): فعل ماض، والفاعل يعود إلى (مَنْ) أيضاً، والجملة الفعلية معطوفة على جملة: ﴿خَافَ...﴾ إلخ، ﴿بَيْنَهُمْ﴾: ظرف مكان متعلق بما قبله، والهاء في محل جرٍّ بالإضافة. ﴿فَلَآ﴾: الفاء: واقعة في جواب (مَنْ) على اعتبارها شرطية، أو موصولة. (لا): نافية للجنس تعمل عمل «إنَّ». ﴿إِثْمَ﴾: اسم (لا) مبني على الفتح في محل نصب. ﴿عَلَيْهِ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر (لا)، والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشَّرط، أو في محل رفع خبر (مَنْ) على اعتبارها موصولة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: هذه الجملة مفيدة للتعليل، أو هي معترضة في آخر الكلام، الغرض منها الترغيب في الإصلاح بين الناس، وعلى الاعتبارين لا محل لها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾

الشرح: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: نادى الله عباده المؤمنين في هذه الآية بأكرم وصف، وألطف عبارة، أي: يا من صدقتم الله، ورسوله، وتحلَّيتم بالإيمان الذي هو زينة الإنسان، وقد خاطب الله عباده المؤمنين بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ في ثمانية وثمانين موضعاً من القرآن الكريم، ونداء المخاطبين باسم المؤمنين يذكِّرهم بأنَّ الإيمان يقتضي من صاحبه أن يتلقى أوامر الله، ونواهيه بحسن الطَّاعة، والامتثال، وإنَّما خصَّهم الله بالنِّداء؛ لأنهم هم المستجيبون لأمره، والمنتهون عمَّا نهى الله عنه؛ إذ الغالب أن يتبع هذا النداء بأمرٍ، أو بنهي.

﴿كُتِبَ﴾: فرض. ﴿ٱلصِّيَامُ﴾ هو في اللغة: الإمساك، وقد يكون إمساكاً عن الكلام على حدِّ قوله تعالى لمريم عليها السلام: ﴿فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ أي: سكوتاً عن الكلام، وقد يكون إمساكاً عن غيره، ومنه قول النَّابغة الذبياني: [البسيط]

خَيْلٌ صِيَامٌ وَخَيْلٌ غَيْرُ صَائِمَةٍ ... تَحْتَ الْعَجَاجِ وَأُخْرَى تَعلِكُ اللُّجُمَا

أي: خيل ثابتة ممسكةٌ عن الجري، والحركة، فهي تعلك لجمها، لمنعها عن الجري، والركض، ثمَّ نقل الصيام في الشرع إلى إمساك مخصوصٍ عن الطعام، والشراب، والجماع، ونحو ذلك بنيَّةٍ مخصوصةٍ، من طلوع الفجر إلى غروب الشَّمس، وتمامه، وكماله باجتناب المحرَّمات، وعدم الوقوع في المحظورات، لقول النبيِّ ﷺ: «**مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ، والْعَمَلَ بِهِ؛ فَلَيْسَ للهِ حاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرابَهُ**». أخرجه البخاريُّ، وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه. وقال أيضاً: «**رُبَّ صَائِمٍ حَظُّهُ مِنْ صِيَامِهِ الجُوعُ، وَالْعَطَشُ، وَرُبَّ قَائِمٍ حَظُّهُ مِنْ قِيَامِهِ الْكَدُّ، وَالسَّهَرُ**»، أخرجه ابن ماجه عن أبي هريرة، رضي الله عنه. ورحم الله من يقول: [الطويل]

وَمَا صَامَ مَنْ صَامَتْ عَنِ الزَّادِ بَطْنُهُ وَأَذْعَنَ لِلآثَامِ والشَّهَواتِ
وَلَيْسَ لَهُ مِنْ صَوْمِهِ غَيْرُ جُوْعِهِ وَقَدْ بَاءَ بِالْخُسْرانِ وَالْحَسَراتِ

وقال آخر: [الطويل]

إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي السَّمْعِ مِنِّي تَصَاوُنٌ وَفِي بَصَرِي غَضٌّ فَي مَنْطِقِي صَمْتُ
فَحَظِّي مِنْ صَوْمي هُوَ الْجُوعُ وَالظَّما وَإِنْ قُلْتُ إِنِّي صُمْتُ يَوْمَاً فَمَا صُمْتُ

وينبغي أن تعلم: أنَّ الله فرض على نبيه ﷺ في ابتداء الدَّعوة إلى الإسلام صيام ثلاثة أيام من كلِّ شهر، وكانت قريش تصوم يوم عاشوراء، وكان ﷺ يصومُه، ولمَّا هاجر إلى المدينة رأى اليهود تصوم يوم عاشوراء، فقال: **«ما هذا؟»** قالوا: هذا يومٌ صالحٌ نجَّى الله فيه بني إسرائيل من فرعون، فصامه موسى عليه السلام فنحن نصومه، فقال: **«أنا أحق منكم بموسى عليه الصلاة والسَّلام»**، فصامه، وأمر بصيامه، فلما فرض الله صيام شهر رمضان في السنة الثانية للهجرة؛ نسخ فرض ما تقدَّم، وبقيت سنِّيته، كما هو مقررٌ ومعلوم في الشريعة الإسلامية إلى يوم القيامة. وقد روي: أنَّ هذا الصيام لم يزل مشروعاً من زمن نوحٍ إلى أن نَسخ الله ذلك بصيام شهر رمضان.

هذا؛ وفعل المادة واوي: صام، يصوم، ومصدره: صوماً، وصِواماً، وقد قلبت الواو ياء في الثاني لمناسبة الكسرة، ومثله: قيام، مصدر قام يقوم، فقد ذكر السيوطي رحمه الله تعالى في (همع الهوامع) في باب الإبدال ما يلي: تبدل الياء بعد كسرة من واو، هي عين مصدر لفعل معتل العين، موزون بِفعال، نحو: قام قياماً، وعاد عياداً، بخلاف عين غير المصدر، كصوان وسواك، والمصدر المفتوح أوله كرَواحٍ، أو المضمون كقُوار، والمكسور الذي لم تعلَّ عين فعله، كـ «لاوذ، لواذاً» و«عاود عِواداً»، أو الموزون بِفْعل كالحَول، وتبدل أيضاً بعد كسرة من واو هي عين جمع لواحد ساكن العين، أو معتلها، صحيح اللام، موزون بفعال كثوب وثياب، وحوض وحياض، ودار وديار، وريح ورياح، بخلاف عين المفرد. انتهى.

﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾: يعني من الأمم، وأنبيائهم، من لدن آدم إلى عهدكم، والمعنى: أنَّ الصوم عبادةٌ قديمة لم يخل الله أمَّةً إلا وقد فرضه عليها، كما فرضه عليكم، وذلك لأنَّ الصوم عبادةٌ شاقة، والشيء الشَّاقُّ إذا عمَّ سهل عملُه، وقيل: إنَّ أول من صام شهر رمضان نوح، على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام.

هذا؛ وقيل: إنَّ صيام شهر رمضان كان واجباً على النَّصارى، كما فرض علينا، فصاموا رمضان زماناً، فربما وقع في الحرِّ الشديد، والبرد الشديد، وكان ذلك يشقُّ عليهم في أسفارهم، ويضرُّهم في معايشهم، فاجتمع رأي علمائهم ورؤسائهم على أن يجعلوه في فصلٍ من السنة،

معتدل بين الصيف والشتاء، فجعلوه في فصل الرَّبيع، ثم زادوا عشرة أيام كفارةً لما صنعوا، فصاموا أربعين يوماً، ثم بعد زمان اشتكى ملكهم فمه، فجعل لله عليه، إنْ هو برأ من وجعه أن يزيد في صومهم أسبوعاً، فزادوا فيه أسبوعاً، ثم مات ذلك الملك بعد زمان، ووليهم ملك آخر، فقال: ما شأن هذه الثلاثة أيام؟! أتمُّوه خمسين، فأتموه خمسين.

واختار هذا القول النَّحاس، وقال: وهو أشبه بما في الآية، وفيه حديث يدلُّ على صحته، أسنده عن دعفل بن حنظلة، عن النبي ﷺ قال: «**كان على النصارى صوم شهر، فمرض رجل منهم، فقالوا: لئن شفاه الله؛ لنزيدنَّ عشرة أيام، ثم كان ملك آخر، فأكل لحماً، فأوجع فاه، فقالوا: لئن شفاه الله لنزيدنَّ سبعة أيام، ثم كان ملك آخر، فقال: لَنُتِمَّنَّ هذه السبعة، ونجعل صومنا في الربيع، قال: فصار خمسين**». انتهى خازن، وقرطبي، وفي الكشاف باختصار.

وأقول: ثمَّ فكر علماؤهم بأنَّ الامتناع من الطَّعام، والشَّراب طيلة النَّهار، ثم الانفلات من ذلك عند المساء، والانكباب على الطَّعام، والشراب هذا لا يكسر شَرَهَ النفس، ولا يُحقِّق الحكمة من الصَّوم، وهي تهذيب الأخلاق، وتأديب الجوارح، فرأوا أن يكون الامتناع عن الدسم ـ أي: عما يخرج من الحيوان ـ أردع للنفس وأزجر لها عن المعاصي، فقرَّروا أن يكون الصَّوم عن ما يخرج من الحيوان من اللَّحم، وغيره، وهذا كلُّه يخضع لقاعدةٍ عندهم، وهي أن ما يعقد في الأرض يعقد في السَّماء، وما يحلُّ في الأرض يحلُّ في السماء، فكأنَّ وظيفة الرَّبِّ في نظرهم هي الموافقة على ما يحلِّلون، وما يحرِّمون فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ انظر الآية رقم [١٨٦] الآتية.

الإعراب: (يا): أداة نداء، تنوب مناب أدعو، أو أنادي. (أيُّها): منادى نكرة مقصودة مبنية على الضم في محل نصب بـ (يا). و(ها): حرف تنبيه، لا محل له من الإعراب، أقحم للتوكيد، وهو عوض من المضاف إليه، ولا يقال: ضمير في محل جر بالإضافة؛ لأنه يجب حينئذٍ نصب المنادى. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع بدل من لفظ: (أيُّها) وجملة: ﴿ءَامَنُواْ﴾... إلخ مع المتعلق المحذوف صلة الموصول، لا محل لها. ﴿كُتِبَ﴾: فعل ماض مبني للمجهول، ﴿عَلَيْكُمُ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿ٱلصِّيَامُ﴾: نائب فاعل (كتب) والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها مبتدأة كالجملة الندائية قبلها. ﴿كَمَا﴾: الكاف: حرف تشبيه وجر، (ما): مصدرية. ﴿كُتِبَ﴾: فعل ماض مبني للمجهول، ونائب الفاعل يعود إلى ﴿ٱلصِّيَامُ﴾. ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾: متعلقان بمحذوف صلة الموصول، والكاف ضمير متصل في محل جر بالإضافة، و(ما) المصدرية، والفعل: ﴿كُتِبَ﴾ في تأويل مصدر في محل جر بالكاف، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف صفة مفعول مطلق محذوف، التقدير: كتب عليكم الصيام كتابة كائنة مثل كتابته على الذين. أو

هما متعلقان بمحذوف حال من: ﴿ٱلصِّيَامُ﴾. وقيل: متعلقان بمحذوف صفة الصيام على اعتبار (أل) فيه للجنس، وليست للتعريف، وزاد أبو البقاء وجهاً رابعاً بقوله: صفة: (صوماً) ولا وجه له. ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: حرف مشبه بالفعل، والكاف اسمه، وجملة: ﴿تَتَّقُونَ﴾ في محل رفع خبره، والجملة الاسمية مفيدة للتعليل، لا محلَّ لها.

﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾﴾

الشرح: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾: جاء وصف (أياماً) في الآية رقم [٨٠]: ﴿مَّعْدُودَةً﴾ وهذا يدل على أنه يجوز في العربية استعمال اللَّفظين في وصف (أياماً) كما ترى، وهو وصف قلَّة كما ترى. ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾: المرض المبيح للفطر هو المرض الذي تحصل معه مشقَّةٌ إذا صام الرَّجل، أو المرأة، بخلاف المرض البسيط، كمرض الرِّجل، واليد، وغير ذلك. ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾: السفر الذي يبيح الفطر تقدَّر مسافته في هذه الأيام بخمسة وثمانين كيلو متراً، إذا أنشأ السفر صباحاً قبل الإمساك، ولا يجوز له الفطر إذا أنشأ السفر بعد الصُّبح إلا إذا لحقه مشقَّةٌ في السفر، ويشترط أن يكون السفر في طاعةٍ، أو مباحاً لتجارةٍ، ونحوها، والرُّخصة موجودةٌ، ومشروعةٌ، ولو كان السفر في الطَّائرة، وقطع المسافة في دقائق معدودة، ولكن نقول للصَّائم المسافر: إذا كان لا يتضرَّر بالصيام؛ فالأولى له أن يصوم حتَّى يحوز بركة أيام رمضان، ويكون مشاركاً إخوانه المسلمين في صومهم، وروحانيتهم، وإذا ترخَّص، وأفطر؛ فالقضاء واجب عليه، وتأكَّدَ عليه أن يصوم؛ إذا لم يتضرَّر بالصوم.

ومن الأعذار المبيحة للإفطار: الحيض، والنفاس. ولو طرأ أحدهما قبل الغروب بلحظات؛ بطل صوم المرأة، ونرجو من الله أن يثيبها على صومها يومها، وإن لم يحسب لها، وإذا انقطع دمها يقيناً في اللَّيل؛ يجوز لها أن تنوي الصوم، وإن لم تغتسل، وينبغي لها أن تستنجي قبل طلوع الفجر مع النية؛ حتى لا تحتاج للمبالغة بعد طلوع الفجر، ولا قضاء عليها للصَّلاة، وعليها قضاء الصوم؛ لأنه لا يتكرَّر، بخلاف الصلاة، فإنها تتكرَّر عليهما كما هو معروف.

ومن الأعذار المبيحة للإفطار: المرأة الحامل، والمرضع؛ إذا خافتا على نفسيهما، أو على ولديهما. و أيضاً الهرم، والشيخوخة؛ إذا كان الصوم يضعف الرجل، أو المرأة، ويؤثر على حركتهما، وذوو الأعمال الشاقة لا يجوز لهم أن يهملوا السحور، والنِّية، من الليل، بل يجب عليهم أن يعقدوا النية على الصَّوم، ويتوكَّلوا على الله، وإذا حصلت لهم المشقَّة أثناء النهار؛

فالرُّخصة موجودة بقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، وبقوله جل ذكره: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾.

﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ أي: كلُّ مَنْ أفطر بعذرٍ يجب عليه أن يعدَّ الأيام التي أفطرها، ثم يقضيها بعد التمكُّن من القضاء إلا المريض الَّذي لا يرجى برؤه، والشَّيخ، والشَّيخة اللذين لا يرجى صومهما بسبب الهرم، والضعف، فهؤلاء يخرجون كفارة لكلِّ يوم أفطروا فيه. هذا؛ و﴿أُخَرَ﴾: صفة لـ ﴿أَيَّامٍ﴾، و«أخر» على ضربين: ضرب جمع: أُخرى تأنيث أَخَر، بفتح الخاء أفعل تفضيل، وضرب جمع: أخرى بمعنى: آخرة، تأنيث آخِر بكسرها مقابل لـ «أول»، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ﴾ فالضرب الأول لا يصرف، والعلَّة المانعة من الصَّرف: الوصف، والعدل. ولا تنس أنَّ قبل: ﴿فَعِدَّةٌ...﴾ إلخ جملة محذوفة التقدير: «فأفطر».

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾: روى البخاريُّ ـ رحمه الله تعالى ـ عن سلمة ابن الأكوع ـ رضي الله عنه ـ: أنه قال: لمَّا نزلت: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ...﴾ إلخ كان من أراد أن يفطر يفتدي حتى نزلت الآية الَّتي بعدها، فنسختها. ومثله عن ابن عمر، رضي الله عنهما، وبه قال السُّدِّي، والمراد بالتي بعدها: قوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ليست منسوخة، هو الشَّيخ الكبير، والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما، فيطعمان مكان كل يوم مسكيناً. أخرجه البخاريُّ عن عطاء، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وعليه يكون المعنى: وعلى الذين كانوا يطيقونه في حال الشَّباب، ثم يعجزون عنه في حال الشَّيخوخة فديةٌ طعام مسكين، ولذا قرأ ابن عباس: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطَيَّقُونَهُۥ﴾ وقيل: هي محكمة، وقبلها «لا» مقدَّرة، أي: لا يطيقونه لكبرٍ، أو مرض لا يُرجى برؤه.

﴿فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾: هي القدر الذي يبذله المسلم يقي نفسه به من تقصير وقع منه في عبادة، أو نحوها من كفارة يمين، أو ظهارٍ، أو جماعٍ في شهر رمضان، أو فعلٍ محظور في الحجِّ... إلخ، لكن ما مقدار هذه الفدية فيما ذكرٍ؟ فالله يقول: ﴿طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ وكثير من العلماء يقولون: مدٌّ من قمح، وهل يكون المدُّ في هذه الأيام طعام مسكين؟ فلا حول ولا قوة إلا بالله، فقد روى البخاريُّ رحمه الله تعالى: أنَّ أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أطعم بعدما كبر عاماً، أو عامين، عن كلِّ يوم مسكيناً خبزاً، ولحماً، وأفطر. فأنس ـ رضي الله عنه ـ يطعم المسكين خبزاً، ولحماً، وهم يعطونه مدَّ قمح، فكأنه بنظرهم حمامة، أو دجاجة يلتقط الحبَّات بمنقاره، وانظر شرح المسكين في الآية رقم [١٧٧].

﴿وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ فهذه الخيرية تعمُّ كلَّ من ترخَّص الإفطار بعذرٍ من الأعذار، ويقدر على الصوم بلا مشقَّة، وعناء، ما عدا الحائض، والنفساء، فإنَّ فطرهما واجبٌ، وصومهما لا ينعقد. ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ بركة الصيام في رمضان؛ فلا تفطروا بمجرد العذر المرخِّص للإفطار.

الإعراب: ﴿أَيَّامًا﴾: مفعول به لفعل محذوف، دلَّ عليه ﴿ٱلصِّيَامُ﴾، التقدير: صوموا أياماً، وقيل: هو ظرف متعلق بهذا المحذوف، التقدير: صوموا في أيام، وقيل: هو منصوب بـ ﴿ٱلصِّيَامُ﴾ وردَّه أبو البقاء للفصل بينهما. وقيل: هو منصوب بـ ﴿كُتِبَ﴾ ولا وجه له؛ لأنه استوفى مفعوله، وهو الصِّيام، الذي جعل نائب فاعل له، وقال الفراء: مفعول ثان له، ولا وجه له أيضاً؛ لأنه ليس من الأفعال التي تنصب مفعولين إلا بتضمينٍ بعيد. ﴿مَّعْدُودَٰتٍ﴾: صفة ﴿أَيَّامًا﴾ منصوب مثله، وعلامة نصبه الكسرة نيابة عن الفتحة؛ لأنه جمع مؤنث سالم، والجملة المقدرة بـ «صوموا... إلخ» مفسرة للصِّيام، وهو أولى من الاستئناف. ﴿فَمَن﴾: الفاء: حرف تفريع واستئناف. (مَنْ): اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص مبني على الفتح في محل جزم فعل الشرط، واسمه ضمير مستتر يعود إلى (مَنْ). ﴿مِنكُم﴾: جار ومجرور متعلقان بـ ﴿كَانَ﴾، أو بمحذوف حال مِنْ: ﴿مَّرِيضًا﴾ كان صفة له... إلخ. ﴿مَّرِيضًا﴾: خبر ﴿كَانَ﴾. ﴿أَوْ﴾: حرف عطف. ﴿عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ معطوفان على قوله: ﴿مَّرِيضًا﴾ فهما في محل نصب مثله. ﴿فَعِدَّةٌ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (عدةٌ): خبر لمبتدأ محذوف، التقدير، فالواجب عدَّةٌ، أو هو مبتدأ، والخبر محذوف، التقدير: فعلية عدَّةٌ، والجملة الاسمية على الاعتبارين في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور، والدُّسوقي يقول: لا محل لها، وخبر المبتدأ الذي هو (مَنْ) مختلفٌ فيه، فقيل: هو جملة الشَّرط، وقيل: هو جملة الجواب. وقيل: الجملتان، وهو المرجح عند المعاصرين. هذا؛ وإن اعتبرت (مَنْ) اسماً موصولاً مبتدأ، والجملة الفعلية بعده صلته، والجملة الاسمية: (عدَّةٌ...) إلخ في محل رفع خبره، وزيدت الفاء في خبره، فهو كلام سديد، وتقدَّم كثيرٌ مثله. ﴿مِّنْ أَيَّامٍ﴾: متعلقان بمحذوف صفة (عدة). ﴿أُخَرَ﴾: صفة: ﴿أَيَّامٍ﴾ مجرور مثله، وعلامة جره الفتحة نيابة عن الكسرة؛ لأنه ممنوع من الصرف للصفة والعدل، والجملة الاسمية: ﴿فَمَن كَانَ...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها، ولا تنس الجملة المقدَّرة قبلها في الشرح «فأفطر».

﴿وَعَلَى﴾: الواو: حرف عطف. (على الذين): جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم، ﴿يُطِيقُونَهُۥ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون، والواو فاعله، والهاء مفعوله، والجملة الفعلية صلة الموصول لا محل لها، والمتعلق محذوف، التقدير: يطيقونه منكم، ﴿فِدْيَةٌ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿طَعَامُ﴾: بدل من: ﴿فِدْيَةٌ﴾، أو هو خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: هي طعام، وعليه. فالجملة الاسمية في محل رفع صفة ﴿فِدْيَةٌ﴾ و﴿طَعَامُ﴾ مضاف، و﴿مِسْكِينٍ﴾ مضاف إليه، من إضافة اسم المصدر لمفعوله، وفاعله محذوف. هذا؛ وقرئ: (فديةِ طعامِ مساكين) بالإضافة والجمع. والجملة الاسمية: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ...﴾ إلخ معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها.

﴿فَمَن﴾: الفاء: حرف استئناف. (من): اسم شرط جازم مبتدأ. ﴿تَطَوَّعَ﴾: فعل ماض مبني على الفتح في محل جزم فعل الشرط، والفاعل يعود إلى (مَنْ). ﴿خَيْرًا﴾: منصوب على نزع

الخافض، التقدير: تطوع بخير، أو هو صفة مصدر محذوف، أي: تطوع تطوعاً خيراً، وقيل: هو حال من ذلك المصدر المقدر معرفة عند سيبويه، وهو مذهبه، والمعتمد الأول. ﴿فَهُوَ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (هو خير): مبتدأ، وخبر. ﴿لَّهُۥ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ ﴿خَيْرٌ﴾ والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط، وبقية الكلام كما في قوله تعالى: (من كان منكم مريضاً...) إلخ بلا فارق.

﴿وَأَن﴾: الواو: واو الحال. (أن) حرف مصدري، ونصب، واستقبال. ﴿تَصُومُوا۟﴾: فعل مضارع منصوب بـ (أن) وعلامة نصبه حذف النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والألف للتفريق، و(أن تصوموا) في تأويل مصدر في محل رفع مبتدأ، ﴿خَيْرٌ﴾: خبره. ﴿لَّكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ ﴿خَيْرٌ﴾، وتقدير الكلام: صيامكم خير لكم. والجملة الاسمية في محل نصب حال مقدرة من كاف الخطاب في ﴿مِنكُم﴾، والرابط: الواو، والضمير، وقلت: مقدرة؛ لأنها مستقبلة بواسطة (أن) وإن اعتبرتها مستأنفة؛ فلست مفنداً.

﴿إِن﴾: حرف شرط جازم. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ماضٍ ناقص مبني على السكون في محل جزم فعل الشرط، والتاء اسمه. ﴿تَعْلَمُونَ﴾: مضارع مرفوع، والواو فاعله، والمفعول محذوف للتعميم، التقدير: تعلمون أنه خير، والجملة الفعلية في محل نصب خبر ﴿كُنتُمْ﴾، والجملة الفعلية هذه لا محل لها؛ لأنها ابتدائية، ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفي، وجواب الشَّرط محذوف، التقدير: فافعلوه، ونحو ذلك. و﴿إِن﴾ مدخولها كلامٌ معترضٌ في آخر الكلام لا محلَّ له، الغرض منه الحثُّ على الصيام.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾

الشرح: ﴿شَهْرُ﴾: الشهر فيه لأهل اللغة قولان: **أشهرهما**: أنه اسم مدَّة الزَّمان الذي يكون مبدؤها الهلال ظاهراً إلى أن يستتر، سمِّي بذلك لشهرته في حاجة الناس إليه في المعاملات، وغيرها. **والثَّاني**: قاله الزَّجاج: أنه اسم للهلال نفسه. ويجمع على: أشهر، وشهور.

﴿رَمَضَانَ﴾: مأخوذ من: رمض الصائم، إذا احترق جوفه من شدَّة العطش، والرَّمضاء (ممدودة): شدَّة الحر، وفي هذه التسمية أقوال: **أحدها**: أنه وافق مجيئه في الرَّمضاء. وهي شدَّة الحر، فسمِّي به، كما سمِّي ربيع لموافقته فصل الربيع، وكما سمِّي جمادى لموافقته فصل

الشتاء الشّديد البرد، وقيل: لأنّه يرمض الذنوب، أي: يحرقها. بمعنى: يمحوها، وقيل: لأن القلوب تحترق فيه من الموعظة، والقرآن. ويجمع على: رمضانات، وأرْمِضة.

﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ وشرح هذا الإنزال في شهر رمضان: أن جبريل عليه الصلاة والسلام نسخه من اللّوح المحفوظ، ونزل به جملة واحدة، ووضعه في السّماء الدُّنيا في مكان يسمَّى بيت العزَّة، وقد صادف ذلك ليلة القدر، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ وقال جل ذكره: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ ثم نزل به جبريل الأمين على الرسول ﷺ مفرَّقاً في ثلاثٍ وعشرين سنة، على حسب الوقائع، ومقتضيات الأحوال والحاجات.

هذا؛ وقرآن مشتق من: قريت الماء في الحوض: إذا جمعته، فكأنه قد جمع فيه الحكم، والمواعظ، والآداب، والقصص، والفروض، وجميع الأحكام، وكملت فيه جميع الفوائد الهادية إلى طرق الرشاد. وخذ قول عمرو بن كلثوم في معلقته رقم [١٧]: [الوافر]

ذِرَاعَــيْ عَــيْــطَــلٍ أَدْمَـــانَ بِــكْــرٍ ... هِـجَـان الـلَّـوْنِ لَـمْ تَـقْـرَأْ جَـنِـيـنـا

«لم تقرأ جنيناً»: لم تضم، ولم تجمع في رحمها ولداً قط. وهو في اللُّغة مصدر بمعنى الجمع، يقال: قرأت الشيء، قرآناً: إذا جمعته. وبمعنى القراءة، يقال: قرأت الكتاب قراءةً، وقرآناً، ثم نقل إلى هذا المجموع المقروء المنزل على الرسول ﷺ، المنقول عنه بالتواتر فيما بين الدُّفتين، المتعبَّد بتلاوته المبدوء بسورة الفاتحة، المختتم بسورة الناس. وهذا التعريف متَّفق عليه بين العلماء والأصوليين، أنزله الله؛ ليكون دستوراً للأمة، وهدايةً للخلق أجمعين، وليكون آيةً دالة على صدق الرسول ﷺ، وبرهاناً ساطعاً على نبوته، ورسالته، وحجَّةً قائمةً إلى يوم الدين، تشهد: أنَّه تنزيل الحكيم الحميد، بل هو المعجزة الخالدة، التي تتحدى الأجيال، والأمم على مَر الأزمان، ومرِّ الدهور. ورحم الله شوقي إذ يقول: [البسيط]

جَـاءَ الـنَّـبِـيُّـونَ بِـالآيَـاتِ فَـانْـصَـرَمَـتْ ... وَجِـئْـتَـنَـا بِـكِـتَـابٍ غَـيْـرِ مُـنْـصَـرِمِ

آيَــاتُــهُ كُــلَّــمــا طَــالَ الْــمَــدَى جُــدُدٌ ... يَــزِيــنُــهُــنَّ جَــمَــالُ الْــعِــتْــقِ وَالْــقِــدَمِ

وللقرآن أسماء عديدة، كلُّها تدلُّ على رفعة شأنه، وعلوِّ مكانته، وعلى أنَّه أشرف كتابٍ سماوي على الإطلاق، فيسمَّى: القرآن، والفرقان، والتنزيل، والذِّكر، والكتاب، والنور، والهدى... إلخ، كما وصفه الله بأوصافٍ عديدةٍ، منها: نور، وهدىً، ورحمة، وشفاء، وموعظة، وعزيز، ومبارك، وبشير، ونذير إلى غير ذلك من الأوصاف التي تشعر بعظمته، وقدسيَّته. ويحرم على محدِث حدثاً أكبر: قراءته، ومسُّه، وحمله، وعلى المحدث حدثاً أصغر: حمله، ومسُّه، ولا يمنع من قراءته عن ظهر قلب. قال تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ وقال تعالى في سورة (الإسراء) رقم [١٠٦]: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾. وعلى

اعتباره مصدراً جاء قول الشاعر ـ مع اختلافٍ في قائله، والمُراد به عثمان بن عفَّان ـ رضي الله عنه ـ، وهو الشاهد رقم [٣٩٩] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [البسيط]

ضَحَّوْا بِأَشْمَطَ عُنْوَانُ السُّجُودِ بِهِ ... يُقَطِّعُ اللَّيْلَ تَسْبِيحاً وَقُرْآنا

أي: قراءة. ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ أي: هادياً لهم من الضَّلالة. ﴿وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ أي: آيات، ودلائل، وحجج مبينة، واضحة، جلية لمن فهمها، وتدبرها، دالة على صحَّة ما جاء به محمَّد ﷺ من الهدى المنافي للضَّلال، والرشد المخالف للغيِّ، ومفرقاً بين الحقِّ، والباطل، والحلال، والحرام.

﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾: أي: إيجابٌ حتمٌ على مَنْ حضر استهلال الشهر، وهو صحيحٌ مقيمٌ مطيقٌ للصوم، مع صحة إسلامه أن يصوم أيام رمضان، وهذه الجملة ناسخةٌ للإباحة المتقدِّمة في الآية السابقة. ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ انظر الآية السابقة ففيها الكفاية.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ﴾ أي: التيسير، والتسهيل، فلذا أباح لكم الفطر في المرض، والسَّفر، ونحوهما من الأعذار. ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾: التعسير، والتشديد في الأحكام. ففي الجملتين من المحسنات البديعية طباق السَّلب. هذا؛ ويقرأ بتسكين السين في الكلمتين، وضمهما. وقال عيسى بن عمر رحمه الله تعالى: كلُّ اسم على ثلاثة أحرف وسطها ساكن، فمن العرب من يخفِّفه، ومنهم من يثقِّله، وذلك مثل: حلم، ورحم، وعسر... إلخ.

هذا؛ ودلت الآية الكريمة على: أنَّ الله سبحانه مريد بإرادة قديمةٍ أزليةٍ، زائدة على الذَّات. هذا مذهب أهل السُّنَّة، كما أنَّه جلَّت قدرتُه عالمٌ بعلم، قادرٌ بقدرةٍ، حيٌّ بحياةٍ، سميعٌ بسمع، بصيرٌ ببصر، متكلمٌ بكلام، وهذه كلُّها معانٍ وجوديةٌ أزليةٌ زائدةٌ على الذَّات. وذهب المعتزلة، والشِّيعة إلى نفيها، والَّذي يقطع دابر هؤلاء أن يقال: لو لم يصدق كونه ذا إرادة؛ لصدق: أنه ليس بذي إرادة، ولو صح ذلك؛ لكان كل ما ليس بذي إرادة ناقصاً بالنسبة إلى من له إرادة، فلم يبق إلا أن يكون الذي لم يتَّصف بالإرادة أنقص ممَّن هو متَّصف بها، ولا يخفى ما فيه من المُحال، فإنَّه كيف يتصوَّر أن يكون المخلوق أكمل من الخالق، والبديهة تقضي بردِّه، وإبطاله، وقد وصف الباري نفسه جل جلاله، وتقدَّست أسماؤه بأنَّه مريدٌ، فقال تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ وقال جل شأنه: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ وقال جلت قدرته: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

﴿وَلِتُكْمِلُوا ٱلْعِدَّةَ﴾ أي: عدَّة أيام رمضان، وذلك بقضاء ما فاتكم منه بسبب المرض، والسفر، وغيرهما من الأعذار المبيحة للإفطار. ﴿وَلِتُكَبِّرُوا ٱللَّهَ﴾ أي: في يوم عيد الفطر، وليلته، قال الرسول ﷺ: «**زَيِّنُوا أَعْيَادَكُمْ بِالتَّكْبِيرِ**». ﴿عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ أي: أرشدكم لمعالم

دينه، ووفقكم للقيام بها على الوجه الأكمل. و قيل: لِمَا ضلَّ فيه النصارى من تبديل صيامهم، ولِمَا كانت الجاهلية تفعله، فأرشدكم إلى الحقِّ والصواب، وتولاكم بعنايته، ورعايته. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ اللهَ على نعمه، وتوفيقه للقيام بطاعته، وخذ ما يلي:

فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**مَنْ قامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إيمَاناً، وَاحْتِسَاباً؛ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ، ومن صام رمضان إيماناً، واحتساباً؛ غفر له ما تقدم من ذنبه**». أخرجه الشيخان، وغيرهما.

وعن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**مَنْ صامَ رَمَضَانَ، وعَرَفَ حُدُودَهُ، وتَحفَّظَ مَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَتَحَفَّظَ؛ كَفَّرَ مَا قَبْلَهُ**». رواه ابن حبَّان.

والأحاديث في الترغيب في فضل رمضان كثيرةٌ جدّاً موجودةٌ في الترغيب والترهيب للحافظ المنذري، وغيره، وخذ ما يلي:

فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ أَفْطَرَ يَوْماً مِنْ رَمَضَانَ مِنْ غَيْرِ رُخْصَةٍ، ولا مَرَضٍ؛ لَمْ يَقْضِهِ صَوْمُ الدَّهْرِ كُلِّهِ؛ وَإِنْ صَامَهُ**». أخرجه الترمذيُّ، وغيره.

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**عُرَا الإِسْلامِ، وَقَوَاعِدُ الدِّينِ ثَلاثَةٌ، عَلَيْهِنَّ أُسِّسَ الإِسْلَامُ، مَنْ تَرَكَ وَاحِدَةً مِنْهُنَّ؛ فَهْوَ بِهَا كافِرٌ، حلالُ الدَّمِ: شَهَادَةُ أَنْ لا إِلَه إِلَّا اللهُ، وَالصَّلاةُ الْمَكْتُوبَةُ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ**».

الإعراب: ﴿شَهْرُ﴾: مبتدأ، وخبره: ﴿الَّذِيٓ﴾. أو هو خبر مبتدأ محذوف، التقدير: ذلكم، أو: هو شهر، أو: الأيام المعدودة شهرُ... إلخ، أو هو بدل من الصيام على حذف مضاف؛ أي: كتب عليكم الصِّيام صيام شهر... إلخ، وعلى هذه الأوجه فـ ﴿الَّذِيٓ﴾ صفة: ﴿شَهْرُ﴾. هذا وقرئ بالنصب (شهرَ) وخرِّج على ثلاثة أوجه: أحدها: أنه بدل من «أياماً تصوموا». والثاني: على إضمار: أعني، والثالث: أن يكون منصوباً بـ ﴿تَعْلَمُونَ﴾ أو بـ (أن تصوموا). ولم يجوِّز هذا النحاس؛ لأنه يدخل في الصِّلة، ثم يفرق بين الصلة والموصول، وهو يعني بالصِّلة والموصول: (أن) والفعل المضارع: ﴿تَصُومُواْ﴾. وقال: يجوز أن تنصبه على الإغراء، أي: الزموا شهر رمضان، وصوموا شهر رمضان. واستبعد هذا القرطبيُّ. و﴿شَهْرُ﴾ مضاف، و﴿رَمَضَانَ﴾: مضاف إليه مجرور، وعلامة جره الفتحة نيابة عن الكسرة؛ لأنه ممنوع من الصرف للعلمية، وزيادة الألف والنون.

﴿الَّذِيٓ﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل رفع خبر، أو نعت لـ ﴿شَهْرُ﴾، وعلى نصبه فهو نعت فقط.

﴿أُنزِلَ﴾: فعل ماض مبني للمجهول. ﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور متعلقان به. ﴿الْقُرْءَانُ﴾: نائب فاعله، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها. ﴿هُدًى﴾: حال من: ﴿الْقُرْءَانُ﴾ منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين، والألف الثابتة دليل

عليها، وليست عينها، وهو بمعنى: هادياً. ﴿لِلنَّاسِ﴾ متعلقان بـ ﴿هُدًى﴾ أو بمحذوف صفة له. ﴿وَبَيِّنَٰتٍ﴾: معطوف على: ﴿هُدًى﴾ منصوبه مثله، وعلامة نصبه الكسرة نيابة عن الفتحة؛ لأنه جمع مؤنث سالم. ﴿مِّنَ ٱلْهُدَىٰ﴾: متعلقان بـ (بينات) أو بمحذوف صفة له، وعلامة جره كسرة مقدَّرة على الألف للتعذر. ﴿وَٱلْفُرْقَانِ﴾: معطوف على ما قبله، وهو على تقدير حرف الجر؛ أي: ومن الفرقان.

﴿فَمَن﴾: الفاء: حرف استئناف، وتفريع. (مَنْ): اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿شَهِدَ﴾: فعل ماض مبني على الفتح في محل جزم فعل الشرط، والفاعل يعود إلى (مَنْ). ﴿مِنكُمُ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، أو هما متعلقان بمحذوف حال من الفاعل المستتر، العائد إلى (مَنْ) و(مِنْ) بيان لما أبهم فيه. ﴿ٱلشَّهْرَ﴾ مفعول به، وقيل: هو ظرف متعلق بالفعل قبله. ﴿فَلْيَصُمْهُ﴾ الفاء: واقعة في جواب الشَّرط. واللام: لام الأمر. (يصمه): فعل مضارع مجزوم بلام الأمر، والفاعل يعود إلى (مَنْ)، والهاء عائدة على الشَّهر على الوجهين المعتبرين فيه: ظرف زمان، أو مفعول به على السَّعة، والجملة الفعلية في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور، وخبر المبتدأ الذي هو (مَنْ) مختلف فيه، كما ذكرته لك مراراً. هذا؛ وإن اعتبرت (مَنْ) اسماً موصولاً؛ فهو مبتدأ صلته الجملة بعده، وخبره جملة: ﴿فَلْيَصُمْهُ﴾ وزيدت الفاء في خبره؛ لأن الموصول يشبه الشرط في العموم. ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ انظر الآية السابقة ففيها الكفاية، فهي مثلها محلاًّ، وإعراباً.

﴿يُرِيدُ﴾: فعل مضارع. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله. ﴿بِكُمُ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿ٱلْيُسْرَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية تعليل للتَّرخيص في إفطار المريض، والمسافر، ونحوهما في شهر رمضان، والتي بعدها معطوفة عليها، مفيدة للتعليل مثلها. ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟﴾: الواو: حرف عطف، (لتكملوا): اللام: لام التعليل. (تكملوا): فعل مضارع منصوب بـ «أن» مضمرة بعد لام التعليل، وعلامة نصبه حذف النون... إلخ، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿ٱلْعِدَّةَ﴾: مفعول به، و«أن» المضمرة والفعل المضارع في تأويل مصدر في محلِّ جرٍّ باللام، والجار والمجرور معطوفان في المعنى على الجملة الفعلية السَّابقة المفيدة للتعليل، وإعراب: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ مثلها، والجار والمجرور بعد التأويل معطوفان أيضاً على ما قبلهما. ﴿عَلَىٰ﴾: حرف جر. ﴿مَا﴾: مصدرية، ﴿هَدَىٰكُمْ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف للتعذر، والفاعل يعود إلى ﴿ٱللَّهَ﴾ والكاف مفعول به، والمتعلق محذوف، التقدير: إليه، و﴿مَا﴾ المصدرية والفعل (هدى)في تأويل مصدر في محل جرٍّ بـ ﴿عَلَىٰ﴾ والجار والمجرور متعلقان بالفعل قبلهما، التقدير: لتكبروا الله على هدايتكم؛ أي: هدايته إيَّاكم. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: تقدَّم إعراب مثلها كثيراً، وهي معطوفة على ما قبلها، ومفيدة للتعليل أيضاً.

هذا وقدَّر الجمل، والبيضاوي فعلاً لتعليق هذه العلل، فقالا: وشرع الله تلك الأحكام على سبيل اللَّف فإنَّ قوله: ﴿وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ﴾ علَّة للأمر بمراعاة العدَّة، وقوله: ﴿وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ﴾ علَّة للأمر بالقضاء، وبيان كيفيته، وقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ علَّة للترخيص، والتيسير، ثمَّ قال الجمل ـ رحمه الله تعالى ـ: وهذا نوع من اللَّف لطيف المسلك، لا يكاد يهتدي إلى تبيينه إلا النُّقَّاد من علماء البيان. انتهى.

بعد هذا يجوز عطف (لِتُكملوا) و(لتكبروا) على ﴿ٱلۡيُسۡرَ﴾ و﴿ٱلۡعُسۡرَ﴾ وعليه في اللام أوجه، أحدها: أنها مزيدة في مفعول الإرادة. قاله الزمخشري في غير هذا الموضع، وكأن هذه اللام زيدت مع فعل الإرادة توكيداً له، لما فيها من معنى الإرادة. وقال ابن عطية ـ رحمه الله تعالى ـ: اللام مؤكدة دخلت على المفعول؛ لأن التَّقدير: يريد الله بكم اليسر، وتكميل العدة والتكبير في يوم العيد، وليلته. والثاني: أنها لام العلَّة، وهذا تقدَّم. والثالث: أنها بمعنى «أن» الناصبة، وأنها نصبت الفعل بنفسها، قال الفراء: العرب تجعل لام «كي» في موضع «أن» في أراد، وأمر، وإليه ذهب الكسائي أيضاً، انظر الآية رقم [٣٢] من سورة (التوبة) والآية رقم [٣٣] من سورة (الأحزاب) والآية رقم [٢٦] من سورة (النساء) والآية رقم [٧١] من سورة (الأنعام) والآية رقم [٨] من سورة (الصف)، ومثل ذلك قول كُثَيِّر ـ وهو الشَّاهد رقم [٣٩٤] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [الطويل]

أُرِيدُ لأَنْسَى ذِكْرَهَا فَكَأَنَّمَا ... تَمَثَّلُ لِي لَيْلَى بِكُلِّ سَبِيلِ

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِى وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾

الشرح: ﴿عِبَادِى﴾ جمع: عبد، وهو الإنسان، حرّاً كان، أو رقيقاً، ويقال للملوك: عبد قن، وله جموع كثيرة، أشهرها: عبيد، وعباد، وأعبد، وعبدان، وعبدة، والإضافة إضافة تشريف، وتكريم، وذكر العبودية مقام عظيم، ولو كان للنَّبيِّ ﷺ اسم أشرف منه وأعظم؛ لسماه به حينما أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، فقال جلَّ ذكره: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ...﴾ وفي معناه أنشدوا: [السريع]

يَا قَوْمُ قَلْبِي عِنْدَ زَهْرَاء ... يَعْرِفُهُ السَّامِعُ وَالرَّائِي

لا تَدْعُنِي إِلّا بَيَا عَبْدَهَا ... فَإِنَّهُ أَشْرفُ أَسْمَائِي

﴿فَإِنِّى قَرِيبٌۖ﴾ أي: منهم، أي: بالاطلاع على أحوالهم، وأقوالهم، وأفعالهم. ﴿أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ﴾ أي: بإعطائه ما سأل. ﴿دَعَانِۖ﴾: سألني حوائجه، وما يريد مِنْ خَيْرَي الدُّنيا، والآخرة،

وهذا وعدٌ من السميع العليم بإعطاء العبد سؤله. هذا؛ والياءان من قوله: ﴿ٱلدَّاعِ﴾ و﴿دَعَانِ﴾؛ من الزوائد عند القرَّاء، ومعنى ذلك: أنَّ الصحابة لم تثبت لها صورة في المصحف، فمن القرَّاء من أسقطها تبعاً للرَّسم وقفاً، ووصلاً، ومنهم من يثبتها في الحالين، ومنهم مَنْ يثبتها وصلاً، ويحذفها وقفاً. ومثل هذا كثير مثل قوله تعالى في سورة (القمر): ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾.

﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي﴾ أي: بالطاعة، والخضوع، والامتثال لأمري. فيما آمر به، وفيما أنهى عنه. هذا؛ وأجاب، واستجاب بمعنىً، فالسين والتاء زائدتان، انظر: ﴿ٱسْتَوْقَدَ﴾ في الآية رقم [١٧]. ﴿وَلْيُؤْمِنُواْ بِي﴾: هذا أمر بالثبات على الإيمان، والمداومة عليه. هذا؛ وقال القرطبيُّ: الدُّعاء هنا بمعنى: العبادة، والإجابة بمعنى: القبول، فصار المعنى: أقبل عبادة مَنْ عبدني. دليله ما رواه أبو داود عن النُّعمان بن بشير ـ رضي الله عنهما ـ عن النَّبي ﷺ قال:

«**الدُّعاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ، قالَ رَبُّكُم: ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**» فسمَّى الدعاء عبادة.

أقول: إبقاء الكلام على ظاهره من أنَّ المراد الدُّعاء أولى، وأصحُّ. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾: يهتدون، ويوفَّقون إلى ما فيه خيرهم، وصلاحهم. هذا؛ والرُّشْد، والرَّشَد، والرَّشاد: الهدى، والاستقامة، وضدُّه: الغيُّ، والضَّلال، والفساد. والفعل رَشَد يأتي من الباب الأول، رَشَد، يَرْشُد رُشداً، ومن الباب الرَّابع رشِد، يَرْشَد رشَداً.

تنبيه: روي: أنَّ جماعة من الصَّحابة قالوا: يا رسول الله! أقريبٌ ربُّنا، فنناجِيَه، أم بعيدٌ، فنناديَه؟ فنزلت الآية الكريمة. وقال ابن عبَّاس ـ رضي الله عنهما ـ: قال يهود المدينة: يا محمَّد! كيف يسمع ربنا دعاءنا؛ وأنت تزعم أنَّ بيننا وبين السَّماء خمسمئة عام، وأن غلظ كلِّ سماءٍ مثل ذلك؟!

هذا؛ وما ذكر في الكتاب والسنَّة من قرب الله، ومعيَّته لا ينافي ما ذكر من علوِّه، وفوقيته، فإنه سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾. وفي الحديث الصحيح عن النبيِّ ﷺ: «**إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ**».

تنبيه: لعلَّك تدرك معي: أنَّ هذه الآية معترضة بين سابقتها، ولاحقتها؛ لأنَّ الآيتين، بل الآيات كلُّها متعلقةٌ بأحكام صيام رمضان. هذا؛ وإنَّ الغرض من إقحام هذه الآية بينهما هو الاهتمام بالدُّعاء، وبيانُ فضله، والحثُّ على الإكثار منه، وأنَّه عند الله بمقام عظيم، وأجرٍ جزيل، ولذا قال النبيُّ ﷺ: «**الدُّعَاءُ مُخُّ الْعِبَادَةِ**»، رواه الترمذيُّ عن أنسٍ، رضي الله عنه. وخذ ما يلي:

فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**الدُّعَاءُ سِلَاحُ الْمُؤْمِنِ، وعِمادُ الدِّين، وَنُورُ السَّمَواتِ، والأَرْضِ**». رواه الحاكم.

وعن سلمان الفارسيِّ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ حَيِيٌّ كريمٌ، يَسْتَحْيِيْ إِذَا رَفَعَ الرَّجُلُ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْراً خَائِبَتَيْنِ**». رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه.

وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ نَزَلَتْ بِهِ فَاقَةٌ، فَأَنْزَلَهَا بالنَّاسِ؛ لَمْ تُسَدَّ فاقتُهُ، وَمَنْ نَزَلَتْ بِهِ فَاقَةٌ، فَأَنْزَلَهَا بِاللهِ؛ فَيُوشِكُ الله بِرِزْقٍ عَاجِلٍ، أَوْ آجلٍ**». رواه أبو داود، والترمذي، والحاكم.

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: «**لَا يُغْنِي حَذَرٌ مِنْ قدَرٍ، والدُّعَاءُ يَنْفَعُ مِمَّا نَزَلَ، وَمِمَّا لَمْ يَنْزِلْ، وَإِنَّ البلَاءَ لَيَنْزِلُ، فَيَلْقَاهُ الدُّعَاءُ، فَيَعْتَلِجَانِ إِلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**». رواه الطَّبرانيُّ، وغيره. وانظر ما ذكرته في سورة (الأعراف) رقم [٥٥] فإنَّه جيد، والحمد لله!

والأحاديث في ذلك كثيرةٌ مشهورةٌ مسطورة في (الترغيب والترهيب) للحافظ المنذري. وانظر فيه شروط الدُّعاء، وأركانه، وآدابه لتحقيق الإجابة. وأهم ركن، وأعظم شرط لإجابة الدُّعاء هو أكل الحلال، ولولا الإطالة عليك؛ لذكرتها لك، وانظر الآية رقم [١٧٢] المتقدِّمة، وانظر رقم [١١] من سورة (الإسراء) وسورة (يونس) على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام.

هذا؛ وقد نهانا الرسول ﷺ عن الدُّعاء على أنفسنا، وأولادنا؛ فعن جابر ـ رضي الله عنه ـ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَلَا تَدْعُوا على أولادكم، ولَا تَدْعُوا عَلَى أَمْوَالِكُمْ، لَا تُوَافِقُوا مِنَ اللهِ سَاعَةً يُسْأَلُ فِيها عَطَاء، فَيَسْتَجيب لَكُمْ**». رواه مسلم.

الإعراب: ﴿وَإِذَا﴾: الواو: واو الاعتراض. (إذا): ظرف لما يستقبل من الزمان، خافض لشرطه، منصوب بجوابه، صالح لغير ذلك، مبني على السكون في محل نصب. ﴿سَأَلَكَ﴾: فعل ماض، والكاف مفعول به. ﴿عِبَادِي﴾: فاعل مرفوع، وعلامة رفعه ضمَّةٌ مقدرة على ما قبل ياء المتكلم، منع من ظهورها اشتغال المحل بالحركة المناسبة، والياء في محل جر بالإضافة. ﴿عَنِّي﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، وهما في محل نصب مفعوله الثاني، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة (إذا) إليها على القول المشهور المرجوح، وهذا يعني: أنَّ (إذا) متعلقة بجوابها. وضعفه ابن هشام في المغني لاقتران الجواب بالفاء، ولا يعمل ما بعد الفاء فيما قبلها. ﴿فَإِنِّي﴾: الفاء: واقعة في جواب (إذا). (إني): حرف مشبه بالفعل، وياء المتكلم في محل نصب اسمها. ﴿قَرِيبٌ﴾: خبرها، والجملة الاسمية جواب (إذا): لا محل لها، وقال أبو البقاء: هو على تقدير: فقل لهم: إنِّي قريب. ﴿أُجِيبُ﴾: فعل مضارع، والفاعل مستتر تقديره: «أنا» والجملة الفعلية في محل رفع خبر ثان لـ (إنَّ)، وقيل: نعت لـ ﴿قَرِيبٌ﴾ والأول أولى. ﴿دَعْوَةَ﴾: مفعول به، وهو مضاف، و﴿ٱلدَّاعِ﴾ مضاف إليه مجرور، وعلامة جره كسرة مقدرة على الياء المحذوفة، أو الثابتة، كما رأيت في الشرح، وهو من إضافة المصدر لمفعوله، ﴿إِذَا﴾: ظرف زمان متعلِّق بالفعل: ﴿أُجِيبُ﴾، مبني على السكون في محل نصب. ﴿دَعَانِ﴾ فعل ماض مبني على فتح مقدَّر على الألف للتعذُّر، والفاعل يعود إلى الدَّاع، والنون للوقاية، وياء المتكلم المحذوفة للتَّخفيف في محل نصب مفعول به، والنون للوقاية، والكسرة دالة على الياء المحذوفة. هذا؛ وجوز اعتبار (إذا) شرطية. والأول أقوى.

﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ﴾: الفاء: هي الفصيحة؛ لأنها تفصح عن شرط مقدر، التقدير: وإذا كان ذلك واقعاً وحاصلاً منّي... إلخ، اللام: لام الأمر. (يستجيبوا): فعل مضارع مجزوم بلام الأمر، وعلامة جزمه حذف النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنَّها جواب للشرط المقدر بـ ﴿إِذَا﴾ كما رأيت، والشرط المقدر، ومدخوله كلام معطوف على ما قبله، لا محل له مثله، والجملة: ﴿وَلْيُؤْمِنُواْ﴾: معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها. ﴿لِى﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿بِى﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿لَعَلَّهُمْ﴾: حرف مشبه بالفعل، والهاء: اسمه. ﴿يَرْشُدُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون، والواو فاعله، والجملة الفعلية في محل رفع خبر: (لعل)، والجملة الاسمية مفيدة للتوقع، والترجّي، والتعليل، لا محلَّ لها.

تنبيه: وما ذكره أبو البقاء من تقدير: «قل» قبل الجملة الاسمية: ﴿فَإِنِّى...﴾ إلخ؛ فقد قاسه على مثل قوله تعالى في سورة (طه): ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾ ولكن عدم التقدير أولى وأبلغ، ولأن الله قد تولى جوابهم بنفسه إشعاراً بفرط قربه منهم، وحضوره مع كل سائلٍ؛ بحيث لا تتوقف إجابته على وجود واسطة بينه وبين السائلين من ذوي الحاجات. انتهى صابوني، وهو جيد إن شاء الله تعالى.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾

الشرح: ﴿أُحِلَّ﴾: الحلال ضدُّ الحرام، انظر الآية رقم [٨٥] ولفظ ﴿أُحِلَّ﴾ يوحي أنَّ شيئاً كان محرماً قبل ذلك، ثم نسخ كما ستعرفه. ﴿لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ﴾ أي: ليالي صيام رمضان. ﴿ٱلرَّفَثُ﴾: يطلق على الكلام الفاحش، والقبيح بين الناس، والمراد به: الجماع، فقد كنى الله به عنه، وعُدِّي بـ ﴿إِلَىٰ﴾ لتضمُّنه معنى الإفضاء، وهو من الكنايات الحسنة، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ وقوله جل ذكره: ﴿فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ﴾ وقوله جل شأنه: ﴿فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ﴾ وقوله تعالت حكمته: ﴿أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: إن الله ـ عز وجل ـ كريمٌ، حليمٌ، يكني.

﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾: هذه استعارة بديعة، وأصل اللباس في الثياب، فقد شبه الله كلَّ واحد من الزوجين لاشتماله على صاحبه في العناق، والضم باللباس المشتمل على لابسه، وسمِّي امتزاج كلِّ واحدٍ من الزَّوجين بصاحبه لباساً، لانضمام الجسد إلى الجسد، وامتزاجهما، وتلازمهما بالثَّوب، قال النابغة الجعدي ـ رضي الله عنه ـ: [الرمل]

إِذَا مَا الضَّجِيعُ ثَنَى جِيدَهَا ... تَدَاعَتْ فَكَانَتْ عَلَيْهِ لِبَاساً

وقال أيضاً ـ وهو كناية عن جيل عاصره، ثمَّ فني الجيل، وبقي حيّاً؛ يريد بذلك بيان عمره الطَّويل ـ: [المتقارب]

لَبِسْتُ أُنَاساً فَأَفْنَيْتُهُمْ ... وَأَفْنَيْتُ بَعْدَ أُنَاسٍ أُنَاسَا

وقال بعضهم: يقال لِما ستر الشيء، وواراه: لباس، فجائز أن يكون كلٌّ واحدٍ منهما ستراً لصاحبه عمَّا لا يحل. كما ورد عن النبي ﷺ قوله: «**مَنْ رَزَقَهُ اللهُ امْرأَةً صَالِحَةً؛ فقدْ أَعَانَهُ عَلَى شَطْرِ دِيْنِهِ، فَلْيَتَّقِ اللهَ في الشَّطْرِ الثَّاني**». رواه الطَّبرانيُّ في الأوسط، والحاكم عن أنس، رضي الله عنه. وفي روايةٍ للبيهقيِّ قال رسول الله ﷺ: «**إذا تَزَوَّجَ الْعَبْدُ؛ فَقَدِ اسْتَكْمَلَ نِصْفَ الدِّينِ، فلْيَتَّقِ اللهَ في النِّصْفِ الْبَاقِي**».

أقول: وهذا المعنى هو أولى ما تفسر به الآية، فإنَّ الرجل، والمرأة حينما يكون أحدهما عزباً، فإنه يكون عرضةً لكلام الناس، فحينما يتزوج تنقطع ألسنة الناس عنه. هذا بالإضافة لما فهم من الحديث الشريف من تحصين الفرج، وغضِّ البصر، فصار كلٌّ منهما لباساً لصاحبه بهذا المعنى، وقدَّم سبحانه قوله: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ﴾ تنبيهاً على شدَّة احتياج الرَّجل للمرأة، وعدم صبره عنها، ولأنَّه هو البادئ بطلب ذلك منها، وعليه؛ فينبغي لكلٍّ منهما أن ينتقي هذا اللباس من أهل التَّقوى، والدِّين، والأحاديث التي ترغب في اختيار الزَّوجين موجودة في كتاب الترغيب، والترهيب، وغيره، لا أطيل الكلام في ذلك، وخذ ما يلي:

عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ؛ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بالصَّوْمِ، فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ**». رواه الستَّة ما عدا ابن ماجه.

﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾: تظلمون أنفسكم بتعريضها للعقاب، وتنقيص حقها من الثواب. والاختيان أبلغ من الخيانة، كالاكتساب من الكسب، وسمَّاه الله: خائناً لنفسه؛ من حيث كان ضرره عائداً عليه، وكلُّ عاصٍ لله خائنٌ لنفسه بتعريضها للعقاب، وتنقيص حقِّها من الثواب، وألف: ﴿تَخْتَانُونَ﴾ مبدلة من الواو؛ لأنه مِنْ: خان، يخون، وتقول في الجمع: خَوَنَة، واسم الفاعل: خائن، وأصله: خاوِن؛ مثل: قائل، أصله: قاوِل.

﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾: قبل توبتكم، ووفّقكم للتوبة، والاعتراف بالذّنب. ﴿وَعَفَا عَنكُمْ﴾: أي: تجاوز عنكم، ولم يعاقبكم بذنوبكم. ﴿فَالْـَٔانَ بَٰشِرُوهُنَّ﴾: كناية عن الجماع، كما تقدَّم، وسمِّي الوقاع مباشرة لتلاصق البشرتين فيه، وأطلقت على الجماع للزومها فيه. وهذا الأمر، والثلاثة بعده للإباحة. ﴿وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾: اطلبوا ما قدَّره الله لكم من الولد، وما يتبع ذلك من قصد التحصين، والعفة بالنسبة للرَّجل، والزوجة، وبهذا القصد يؤجر الرجل على هذا العمل، ويؤيِّده قول الرسول ﷺ في الحديث الذي أخرجه مسلم ـ رحمه الله تعالى ـ عن أبي ذرٍّ ـ رضي الله عنه ـ: «**وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ**» قالوا: يا رسول الله! أيأتي أحدُنا شهوته، ويكون له فيها أجر؟ قال: «**أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ؛ أَكَانَ عَلَيْهِ وِزْرٌ؟**» قالوا: نعم، قال: «**فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي حَلَالٍ؛ كَانَ لَهُ أَجْرٌ**». أقول: ولكنَّ الأجر متوقفٌ على القصد؛ الَّذي ذكرته.

﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾: قال ابن هشام ـ رحمه الله تعالى ـ في المغني: إذا تعلَّق الإعلام بمجرد إيقاع الفاعل للفعل، فيقتصر عليه، ولا يذكر المفعول، ولا يُنْوَى؛ إِذْ المَنْوِيُّ كالثابت، ولا يُسمَّى محذوفاً؛ لأن الفعل ينزل لهذا القصد منزلة ما لا مفعول له، ومنه قوله تعالى في سورة (البقرة) رقم [٢٥٨]: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾، وقوله تعالى في سورة (الزمر) رقم [٩]: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وقوله تعالى في سورة (الأعراف) رقم [٣١]: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ وأيضاً ما في هذه الآية، وقوله تعالى في سورة (الإنسان) رقم [٢٠]: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ﴾، إذ المعنى: ربيَ الذي يفعل الإحياء، والإماتة، وهل يستوي من يتصف بالعلم، ومن ينتفي عنه العلم؟ وأوقعوا الأكل والشرب، وذروا الإسراف، وإذا حصلت منك رؤية هنالك. ومنه على الأصح قوله تعالى في سورة (القصص) رقم [٢٣]: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ...﴾ إلخ ألا ترى: أنَّ موسى ـ على نبينا وعليه ألف صلاة وألف سلام ـ إنما رحمهما؛ إذ كانتا على صفة الذياد، وقومُهما على السَّقي، لا لكون المسقي غنماً ومسقيهم إبلاً، وكذلك المقصود من قولهما: (نَسْقي) السَّقي، لا المسقي، ومن لم يتأمل قدَّر: يسقون إبلهم، وتذودان عنهما، ولا نسقي غنماً. انتهى.

﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ﴾ يقال: تبين الشيء، وبان، وأبان، واستبان، كلُّه بمعنى واحد، وهو لازم، وقد يستعمل بعضها متعدياً. ﴿ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ﴾... إلخ: شبه سبحانه وتعالى أول ما يبدو من الفجر المعترض في الأفق، وما يمتدُّ معه من غبش الليل بخيطين: أبيض وأسود، واكتفى سبحانه ببيان الخيط الأبيض بقوله: ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ عن بيان الخيط الأسود لدلالته عليه، وبذلك خرجا عن الاستعارة إلى التمثيل. بيضاوي. وينبغي أن تعلم: أن الفجر الذي يحرم بطلوعه الطَّعام، ويحلُّ به الصَّلاة هو الفجر المعترض في الأفق يمنةً ويسرةً. روى مسلمٌ ـ رحمه الله تعالى ـ عن سمرة بن جندب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَا يَغُرَّنَّكُمْ مِنْ سُحُورِكُمْ أَذَانُ بِلَالٍ، وَلَا بَيَاضُ الأُفُقِ الْمُسْتَطِيلُ هَكَذَا؛ حَتَّى يَسْتَطِيرَ هَكَذَا**». وحكاه حماد بيديه، قال: يعني: معترضاً. وروى الدارقطني عن عبد الرحمن بن عباس: أنه بلغه أنَّ رسول الله ﷺ، قال: «**هُمَا فَجْرَانِ: فَأَمَّا الَّذِي**

كَأَنَّهُ ذَنَبُ السِّرْحانِ؛ فَإِنَّهُ لا يُحِلُّ شَيْئاً، ولَا يُحَرِّمُهُ، وَأَمَّا المُسْتَطِيلُ الَّذِي عَارَضَ الأُفُقَ؛ فَفِيهِ تَحِلُّ الصَّلاةُ، ويَحْرُمُ الطَّعَامُ». هذا مرسل. وروى الدَّارقطني عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن النبي ﷺ قال: «**مَنْ لَمْ يُبَيِّتِ الصِّيَامَ قبلَ طُلُوعِ الفَجْرِ؛ فلَا صِيامَ لَهُ**». قال الشاعر: [البسيط]

الْخَيْطُ الأَبْيَضُ ضَوْءُ الصُّبْحِ مُنْفَلِقٌ وَالْخَيْطُ الاَسْوَدُ جُنْحُ اللَّيْلِ مُكْتُومُ

﴿ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِۚ﴾: فإذا جاء الليل؛ فقد حلَّ الأكل، والشُّرب، والجماع، وكلُّ شيءٍ كان محظوراً، كما جاء في الصحيحين من قول الرسول ﷺ: «**إِذَا أقبلَ اللَّيْلُ مِنْ هَاهنا، وأَدْبَرَ النَّهَارُ مِنْ ها هنا فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِمُ**». ويستحبُّ تعجيل الإفطار، لما رواه سهل بن سعد الساعدي ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**لَا يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا عَجَّلُوا الْفِطْرَ**». أخرجه أحمد، والترمذيُّ.

﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِۗ﴾: لا تجامعوا النساء، وأنتم مقيمون في المساجد بنية الاعتكاف. والمعلوم: أنَّ الجماع في المسجد حرام، بل هو كبيرة من غير نيَّة الاعتكاف، ولكن المراد: أنَّ الجماع لا يجوز للمعتكف، ولو في بيته ما دام متلبساً بنيَّة الاعتكاف، وهذا إذا كان الاعتكاف منذوراً، أو مقيَّداً بمدة معلومة، فأما إذا كان مطلقاً، وتطوعاً، فله إبطال نيته، والجماع، ثم إذا أراد الاعتكاف؛ فليُجدِّد نيته. هذا؛ وأقلُّ الاعتكاف عند مالك، وأبي حنيفة، ورواية عن أحمد: يومٌ وليلةٌ، وشرطه الصَّوم، وعند الشافعيِّ، وقول آخر لأحمد: أقلُّه لحظة، ولا حدَّ لأكثره، وليس من شرطه الصوم، لذا يندب في حق الدَّاخل المسجد أن ينوي الاعتكاف، ولو دخل لأداء الصَّلاة المفروضة عند الشَّافعيِّ. ونرجو من الله الأجر والثواب إن تأدب الدَّاخل بآداب المسجد، وأمَّا إن دخل يُهْرِهر، وخرج يُهَرْهِر؛ فبشره بالوزر، وويل له إن جلس بعد الصَّلاة، وتكلم الكلام في الدُّنيا من غير ذكرٍ، فبشره بأنه يخرج من المسجد محملاً بالأوزار، وعرضة لغضب الواحد القهار. والأحاديث التي تشدِّد النكير على الذين يجعلون المسجد مقهىً كثيرةٌ مشهورةٌ مسطورةٌ، أكتفي منها بما يلي:

عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**سَيَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ يكونُ حَدِيثُهُمْ فِي مسَاجِدِهِمْ، لَيْسَ للهِ فِيهِمْ حَاجَةٌ**». رواه ابن حبان. وفي روايةٍ: «**فَلا تُجالِسُوهُمْ، فَلَيْسَ للهِ فِيهِمْ حَاجَةٌ**».

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أي: الأحكام التي ذكرت في هذه الآية، جمع: حدٍّ، وهو في اللغة: الحاجز بين شيئين متجاورين، والمراد هنا: الحدُّ الفاصل بين الحلال والحرام، فلذا يعاقب مَنْ تجاوزه بالحدِّ، وهو العقوبة المقرَّرة لذلك. ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَاۗ﴾: نهى عن قربانها، فضلاً عن انتهاكها، والقاعدة: أنَّ الأحكام إذا كانت نواهي، يقال فيها: فلا تقربوها؛ على حدِّ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓۖ﴾، ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ﴾ وهكذا، وإن كانت أوامر، يقال فيها: (لا تعتدوها) أي: لا تتجاوزوها، كما في الآية رقم [٢٢٨] الآتية، وما هنا من قبيل الأوَّل، والآية الأخرى من قبيل الثاني، فكلٌّ جاء على ما يليق به. انظر الآية رقم [٢٢٨] ففيها بحث جيِّد، والحمد لله!.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ﴾ أي: كما بيَّن الصيام، وأحكامه، وشرائعه، وتفاصيله، كذلك يبين سائر أحكام الشريعة على لسان عبده ورسوله محمد ﷺ. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: يعرفون كيف يهتدون، وكيف يطيعون؟ فيبتعدون عن المعاصي، أو ينتظمون في سلك المتقين. والترجِّي في هذه الآية، وأمثالها، إنما هو بحسب عقول البشر؛ لأنَّ الله تعالى لا يقع منه ترجٍّ لعباده، وأعمالهم. تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً!

تنبيه: سبب نزول الآية الكريمة: أنَّه كان في ابتداء الأمر بالصَّوم إذا أفطر الصائم عند الغروب؛ حلَّ له الطعام، والشَّراب، والجماع إلى أن يصلي العشاء الآخرة، أو ينام قبلها، فإذا صلَّى، أو رقد قبلها؛ حرم عليه ذلك كله إلى الليلة القابلة، ثم إن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ واقع أهله بعدما صلَّى العشاء، فلما اغتسل؛ أخذ يبكي، ويلوم نفسه، ثم أتى النَّبيَّ ﷺ، فقال: يا رسول الله، إني أعتذر إلى الله، وإليك من هذه الخطيئة، وإنِّي رجعت إلى أهلي بعدما صليت العشاء، فوجدت رائحة طيبة، فسولت لي نفسي، فجامعت أهلي. فقال النَّبيُّ ﷺ: «**مَا كُنْتَ جَدِيراً بِذَلِكَ يَا عُمَرُ!**» فقام رجال، فاعترفوا بمثل ذلك، فنزل في عمر، وأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ أجمعين، قول الله تعالى: ﴿فَٱلْـَٔـٰنَ بَٰشِرُوهُنَّ...﴾ إلخ.

وعن البراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ قال: كان أصحاب محمد ﷺ إذا كان الرجل صائماً، فحضر الإفطار، فنام قبل أن يفطر، لم يأكل ليلته، ولا يومه؛ حتى يُمْسِي، وإن قيس بن صرمة الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ كان صائماً، فلمَّا حضر الإفطار؛ أتى امرأته، فقال: أعندك طعام؟ قالت: لا، لكن انطلقُ، فأطلب لك طعاماً، وكان يومه يعمل، فغلبتْه عينه، فنام، فجاءته امرأته، فلما رأته نائماً؛ قالت: خيبةً لك يا قيسُ! فلمَّا انتصف النهار؛ غُشِيَ عليه، فذكر ذلك للنبي ﷺ فنزلت الآية الكريمة، ففرحوا بذلك فرحاً شديداً، وذلك قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟...﴾ إلخ.

تنبيه: من أكل، أو شرب ناسياً؛ فإنه لا يفطر، سواء أكان الصَّوم فرضاً، أم تطوُّعاً، لقوله ﷺ: «**مَنْ نَسِي وهوصائمٌ، فأكلَ أو شَرِبَ، فليتمَّ صومَهُ، فَإِنَّما أَطْعَمَهُ اللهُ، وَسَقَاه**». ومن جامع في رمضان فإنَّه يفطر، وتفطر المرأة، وتجب الكفارة على الفاعل فقط عند الشَّافعي رحمه الله تعالى، وعند مالك، وأبي يوسف، وأصحاب الرأي تجب على الرَّجل، والمرأة، وتوسَّط أبو حنيفة، فقال: إن طاوعته؛ فعليها الكفارة مثله، وإن أكرهها؛ فلا كفارة عليها، وأظنُّ: أن هذا مذهب أحمد بن حنبل أيضاً، رحم الله الجميع برحمةٍ واسعةٍ، ورحمنا معهم.

هذا؛ وأما الفطر في رمضان عامداً متعمداً من غير عذر، ومن غير جماع؛ فيجب عليه القضاء فقط عند الشَّافعي، والقضاء مع الكفارة عند غيره، وتأوَّل الشافعي الحديث الَّذي رواه الترمذيُّ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ أَفطَرَ يَوْماً مِنْ رَمَضَانَ مِنْ غَيْرِ رُخْصَةٍ، وَلَا مَرَضٍ؛ لَمْ يَقْضِهِ صوم الدهر كله؛ وإن صامه**» بأنَّ المراد بتحصيل الأجر، والثواب؛ الذي يفوته

بفطره ذلك اليوم. وأرى: أن رأيه جدير بالاعتبار، وإذا أخذنا برأي غيره، ماذا يفعل مَنْ بلغ من العمر في هذه الأيام الثلاثين، والأربعين سنة؛ وهو لا يصوم شهراً، ولا أياماً، ثم راجع نفسه، وصار يصلِّي، فنراه يقضي ما فاته من صلاة، بينما لا يذكر ما فاته من صيامٍ، ولا يخطر له على بال.

الإعراب: ﴿أُحِلَّ﴾: فعل ماض مبني للمجهول. ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿لَيْلَةَ﴾: ظرف زمان متعلق بالفعل قبله. هذا هو المشهور، ورده الجمل بقوله: وليس بشيءٍ؛ لأن الإحلال ثابت قبل ذلك الوقت، وفيه قولٌ ثانٍ. هو: أنه مدلول عليه بلفظ الرَّفث، تقديره: أحل لكم أن ترفثوا ليلة الصيام، وإنَّما لم يجز أن ينتصب بالرفث؛ لأنه مصدر مقدَّر بموصول، ومعمول الصِّلة لا يتقدَّم على الموصول. وفيه قول ثالث: أنه متعلِّق بالرَّفث، وذلك على رأي من يرى الاتساع في الظروف، والمجرورات. انتهى جمل بتصرف. و﴿لَيْلَةَ﴾ مضاف، و﴿ٱلصِّيَامِ﴾ مضاف إليه. ﴿ٱلرَّفَثُ﴾: نائب فاعل: ﴿أُحِلَّ﴾. ﴿إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾: متعلقان بالرَّفث، وجملة: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ...﴾ إلخ مستأنفة في الإعراب، ومرتبطة بالآيتين السَّابقتين في المعنى.

﴿هُنَّ﴾: ضمير منفصل مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ. ﴿لِبَاسٌ﴾: خبره، والجملة الاسمية فيها معنى التعليل، وقال البيضاوي: مستأنفة. وليس بشيءٍ. ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة: ﴿لِبَاسٌ﴾ ﴿وَأَنتُمْ﴾: الواو: حرف عطف. (أنتم): ضمير منفصل مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿لِبَاسٌ﴾: خبره. ﴿لَّهُنَّ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة: ﴿لِبَاسٌ﴾. والنون حرف دال على جماعة الإناث، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها.

﴿عَلِمَ ٱللَّهُ﴾: ماض وفاعله. ﴿أَنَّكُمْ﴾: حرف مشبه بالفعل، والكاف اسمه. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ماض ناقص مبني على السكون، والتاء اسمه. ﴿تَخْتَانُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع... إلخ، والواو فاعله. ﴿أَنفُسَكُمْ﴾: مفعول به، والكاف في محل جر بالإضافة، وجملة: ﴿تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾: في محل نصب خبر: ﴿كُنتُمْ﴾. وجملة: ﴿كُنتُمْ...﴾ إلخ في محل رفع خبر: ﴿أَنَّكُمْ﴾ و(أن) واسمها وخبرها في تأويل مصدر في محل نصب سد مسدَّ مفعولي: ﴿عَلِمَ﴾، وجملة ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ...﴾ إلخ في محل نصب حال من كاف الخطاب، والرابط الضمير فقط، وهي على تقدير «قد» قبلها، وإن اعتبرتها مستأنفةً؛ فلا محل لها، ولست مفنَّداً. وقيل: هي تعليل. ولا وجه له.

﴿فَتَابَ﴾: الفاء: حرف عطف. (تاب): فعل ماض، والفاعل يعود إلى: ﴿ٱللَّهُ﴾، ﴿عَلَيْكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، والجملة الفعلية معطوفة على جملة: ﴿عَلِمَ...﴾ إلخ لا محل لها مثلها، وجملة: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ معطوفة على جملة محذوفة، التقدير: فتبتم، فتاب عليكم، وهذا الكلام معطوف على جملة: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ...﴾ إلخ لا محل لها مثلها، وجملة: ﴿وَعَفَا عَنكُمْ﴾ معطوفة على جملة: (تاب عليكم).

﴿فَٱلۡـَٔـٰنَ﴾: الفاء: حرف استئناف. (الآن): ظرف زمان متعلق بما بعده. ﴿بَٰشِرُوهُنَّ﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والهاء مفعول به، والنون حرف دال على جماعة الإناث، والجملة الفعلية مستأنفة لا محل لها، وجملة: ﴿وَٱبۡتَغُواْ﴾ معطوفة عليها، لا محل لها مثلها. ﴿مَا﴾: اسم موصول، أو نكرة موصوفة مبنية على السكون في محل نصب مفعول به. ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ﴾: ماضٍ، وفاعله، ﴿لَكُمۡ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، والجملة الفعلية صلة (ما) أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف؛ إذ التقدير: ابتغوا الذي، أو: شيئاً كتبه الله لكم. هذا؛ والجملتان ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ﴾: معطوفتان على ما قبلهما، لا محل لهما أيضاً، ومفعول الفعلين محذوف، كما رأيت في الشرح. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف غاية وجر بعدها «أن» مضمرة، وهي بمعنى: «إلى أن». ﴿يَتَبَيَّنَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ «أن» المضمرة بعد ﴿حَتَّىٰ﴾. ﴿لَكُمُ﴾: جار ومجرور متعلقان به. ﴿ٱلۡخَيۡطُ﴾: فاعله. ﴿ٱلۡأَبۡيَضُ﴾: صفته. ﴿مِنَ ٱلۡخَيۡطِ﴾: متعلقان بمحذوف حال من ﴿ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ﴾. ﴿ٱلۡأَسۡوَدِ﴾: صفة له. ﴿مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾: متعلقان بمحذوف حال أخرى من ﴿ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ﴾ وهما بمعنى البدل من: ﴿ٱلۡخَيۡطِ﴾ وعلقهما الجمل بالفعل: ﴿يَتَبَيَّنَ﴾. وقال أبو البقاء: يجوز أن يكونا متعلقين بمحذوف حال من الضمير في: ﴿ٱلۡأَبۡيَضُ﴾ ويجوز أن يكونا تمييزاً، والأول أولى بالاعتبار، و«أن» المضمرة بعد ﴿حَتَّىٰ﴾ والفعل: ﴿يَتَبَيَّنَ﴾ في تأويل مصدر في محل جرٍّ بـ ﴿حَتَّىٰ﴾ والجار والمجرور متعلقان بأحد الفعلين (كلوا واشربوا) على التنازع. ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف. ﴿أَتِمُّواْ﴾: فعل أمر، وفاعله. ﴿ٱلصِّيَامَ﴾: مفعول به. ﴿إِلَى ٱلَّيۡلِۚ﴾: متعلقان بمحذوف حال من: ﴿ٱلصِّيَامَ﴾ أي: ممتدّاً إلى الليل، وقيل: متعلقان بالفعل قبلهما، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها.

﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف، (لا): ناهية جازمة. ﴿تُبَٰشِرُوهُنَّ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ (لا) الناهية، وعلامة جزمه حذف النون، والواو فاعله، والهاء مفعول به، والنون حرف دال على جماعة الإناث، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها. ﴿وَأَنتُمۡ﴾: الواو: واو الحال. (أنتم): ضمير منفصل مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿عَٰكِفُونَ﴾: خبر المبتدأ مرفوع، وعلامة رفعه الواو نيابة عن الضمة؛ لأنه جمع مذكر سالم، والنون عوض عن التنوين في الاسم المفرد، وفاعله مستتر فيه؛ لأنه جمع اسم فاعل. ﴿فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ﴾ متعلقان بـ ﴿عَٰكِفُونَ﴾ والجملة الاسمية في محل نصب حال من واو الجماعة، والرابط: الواو، والضمير.

﴿تِلۡكَ﴾: اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب لا محل له. ﴿حُدُودُ﴾: خبر المبتدأ، وهو مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾ مضاف إليه، والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها. ﴿فَلَا﴾: الفاء: هي الفصيحة؛ لأنها تفصح عن شرط مقدر. (لا تقربوها): إعرابها مثل إعراب: (لا تباشروهن)، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها جواب

الشرط مقدر بـ «إذا» التقدير: وإذا كان ما ذكر حاصلاً وواقعاً؛ فلا تقربوها، والجملة الشرطية معطوفة على الجملة الاسمية قبلها، لا محل لها مثلها. وقال أبو البقاء ـ رحمه الله تعالى ـ: دخول الفاء هنا عاطفة على محذوف، تقديره: تنبهوا، فلا تقربوها.

﴿كَذَٰلِكَ﴾: الكاف: حرف تشبيه وجر. و(ذا) اسم إشارة مبني على السكون في محل جر بالكاف، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف صفة لمفعول مطلق محذوف، عامله الفعل الذي بعده، التقدير: يبين الله أحكام دينه، وشريعته للناس تبييناً مثل تبيينه أحكام الصيام في هذه الآيات، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب، لا محل له. ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ﴾: مضارع، وفاعله، والجملة الفعلية مستأنفة، لا محل لها. ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾ مفعول به منصوب، وعلامة نصبه الكسرة نيابة عن الفتحة لأنه جمع مؤنث سالم. ﴿لِلنَّاسِ﴾: متعلقان بالفعل: ﴿يُبَيِّنُ﴾. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ انظر إعراب مثلها، ومحلها في الآية السابقة.

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾

الشرح: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾: لا يأخذ بعضكم مال البعض بالوجه الذي لم يبحه الشرع الشريف، والدين الحنيف. والتعبير بـ ﴿أَمْوَٰلَكُم﴾ فيه منتهى الردع، والزجر عن أكل مال المسلم؛ لأنه يجب عليك أن تحافظ على ماله، كما تحافظ على مالك، ولأن الاعتداء على ماله كالاعتداء على مالك. وانظر ما ذكرته في الآية رقم [٨٤] فإنَّه جيد، والحمد لله! وكلُّ من أخذ مال غيره، لا على وجه إذنِ الشرع؛ فقد أكله بالباطل، ومن الأكل بالباطل أن يحكم الحاكم لك، وأنت تعلم أنك مُبْطِل، فالحرام لا يصير حلالاً بقضاء الحاكم؛ لأنه يقضي بالظاهر، فقد روى الأئمة عن أمِّ سلمة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ يَكُونُ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَأَقْضِيَ لَهُ عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ، فَمَنْ قَطَعْتُ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيئاً؛ فَلا يَأْخُذْهُ، فَإِنَّما أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنْ نَارٍ**». وانظر شرح (الباطل) في الآية رقم [٤٢] ويجمع (باطل) على: أباطيل شذوذاً، كما شذَّ: أحاديث، وأعاريض، وأفاظيع، في جمع: حديث، وعريض، وفظيع. وفي القرطبيِّ: وجمع الباطل: بواطل، والأباطيل جمع: البطولة.

هذا؛ وأخذ أموال الناس بالباطل يشمل، ويعمُّ كلَّ مالٍ أخذ بدون وجهٍ شرعيٍّ، وأبوابه كثيرةٌ متنوعة، أذكر منها على سبيل المثال ما أشاع الفسادَ، والضَّلالَ: الرِّبا بآثامه وشروره، واستغلال النفوذ بأنواعه، وفجوره، والرَّشوة بأنواعها، واحتكار البضائع لبيعها بثمن أعلى، وخزنها، وتصريفها بثمن أغلى، والذين يأخذون معاشاتهم، ولا يؤدون أعمالهم، ويقبضون

أجورهم، ويتهرَّبون من واجباتهم، والذين يسرقون، ويخونون، ويغشُّون، ويختلسون، ويدخل في ذلك: القمار، والخداع، والغصوب، وجحد الحقوق، وما لا تطيب به نفس مالكه، كما يؤخذ بالحياء، إذ ما أخذ بالحياء؛ فهو حرام، أو حرمته الشريعة؛ وإن طابت به نفس مالكه، وحلوان الكهَّان، والمنجِّمين، والمشعوذين، وأثمان الخمور، والخنازير، وأثمان الملاهي الشاغلة عن ذكر الله تعالى، وربحها، بل وتجارتها حرام، والغبن الفاحش في البيع والشِّراء، وأفحش ذلك أكلُ مالُ اليتيم بغير حقٍّ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾.

﴿وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ﴾: الإدلاء في الأصل: إرسال الدلو في البئر، ثم جُعل كلُّ إلقاء، أو رفع لقول، أو فعل إدلاء، يقال: أدلى بحجته، أي: أرسلها، والمراد بالإدلاء هنا: الدفع إلى الحاكم بطريق الرِّشوة لأجل تغيير الحكم، وإضاعة الحق، وإقامة الباطل. والمعنى في الآية: لا تجمعوا بين أكل المال بالباطل، الَّذي تقدَّم ذكره، وبين الإدلاء إلى الحكَّام بالحجج الباطلة، والدَّعاوى الفاسدة. وهو كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾ وقيل: المعنى: لا تصانعوا الحكام بأموالكم، وترشوهم؛ ليقضوا لكم بالباطل على غيركم. وهذا القول يترجَّح لأن الحكام مظنَّة الرِّشا، والحيف في الحكم، إلا مَنْ عصم الله، وهم قليل.

﴿لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ﴾ أي: لتأخذوا قطعةً، وجزءاً، وقسماً من أموال الناس. هذا؛ والفريق في الأصل يطلق على الجماعة، والطائفة من الناس، قال تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ الآية رقم [٣٠] من سورة (الأعراف) وقال جل ذكره في سورة (الشورى) رقم [٧]: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ هذا؛ والإثم: الباطل، والمعصية، والذنب. والإثم: اسم من أسماء الخَمْرة، قال الشاعر: [الوافر]

شَرِبْتُ الإثْمِ حَتَّى ضَلَّ عَقْلِي ... كَذَاكَ الإِثْمُ يَذْهَبُ بِالْعُقُولِ

﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: أنكم مبطلون، وتأكلون أموال الناس بالباطل.

الإعراب: ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف استئناف. (لا): ناهية. ﴿تَأْكُلُوٓا۟﴾: فعل مضارع مجزوم بـ (لا) وعلامة جزمه حذف النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والألف للتفريق، ﴿أَمْوَٰلَكُم﴾: مفعول به، والكاف في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية مستأنفة لا محل لها. ﴿بَيْنَكُم﴾: ظرف مكان متعلق بالفعل قبله، والكاف في محل جر بالإضافة. ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، وجوز أن يكونا متعلقين بمحذوف حال من واو الجماعة، أو من ﴿أَمْوَٰلَكُم﴾ وجملة: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها، ولا يوجد مناسبة للعطف على ما قبلها. ﴿وَتُدْلُوا۟﴾: مضارع معطوف على ما قبله، فهو مجزوم مثله، وجوز أن يكون منصوباً بـ «أن» مضمرة بعد الواو على اعتبارها للمعيَّة، وعلامة الجزم، أو النصب حذف النون، والواو فاعله،

والألف للتفريق، وعلى النصب يؤول الفعل مع «أن» المضمرة بمصدر معطوف بواو المعية على مصدر متصيد من الفعل السابق، والتقدير: لا يكن منكم أكلٌ لأموال الناس، وإدلاءٌ بها... إلخ. ﴿بِهَآ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، وأيضاً: ﴿إِلَى ٱلْحُكَّامِ﴾ متعلقان به.

﴿لِتَأْكُلُواْ﴾: فعل مضارع منصوب بـ «أن» مضمرة بعد لام التعليل، وعلامة نصبه حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق، «أن» المضمرة والفعل (تأكلوا) في تأويل مصدر في محل جر باللام، والجار والمجرور متعلقان بالفعل (تدلوا). ﴿فَرِيقًا﴾: مفعول به. ﴿مِّنْ أَمْوَٰلِ﴾: متعلقان بـ ﴿فَرِيقًا﴾ أو بمحذوف صفة له، و﴿أَمْوَٰلِ﴾ مضاف، و﴿ٱلنَّاسِ﴾: مضاف إليه. ﴿بِٱلْإِثْمِ﴾: متعلقان بالفعل: ﴿تَأْكُلُواْ﴾ أو بمحذوف حال من واو الجماعة، أو بمحذوف صفة ﴿فَرِيقًا﴾ أي: مقروناً بالإثم. ﴿وَأَنتُمْ﴾: الواو: واو الحال، (أنتم): ضمير منفصل مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿تَعْلَمُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون، والواو فاعله، والمفعول محذوف، انظر تقديره في الشرح. والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل نصب حال من واو الجماعة، والرابط: الواو، والضمير.

﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾

الشرح: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾: أصل «سأل» إذا كان من السُّؤال أن يتعدَّى إلى مفعولين، نحو قوله تعالى في سورة (هود) على حبيبنا، وشفيعنا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ رقم [٤٦]، ويجوز أن تقتصر على مفعول واحد، كما تقتصر في أعطيت، وكسوت، نحو قوله تعالى في سورة (الممتحنة) رقم [١٠]: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟﴾ فإذا اقتصرت على مفعول واحد؛ جاز أن يتعدى إلى ذلك الواحد بحرف الجر، كما في قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ والتقدير: سأل سائل النبيَّ عن عذاب واقع؛ إذ الباء بمعنى «عن».

فائدة: كلُّ ما جاء في القرآن من السؤال أجيب بـ «قل» بلا «فاء» إلا في قوله تعالى في سورة (طه): ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ﴾... إلخ فبالفاء؛ لأن الجواب في الجميع كان بعد وقوع السؤال، وفي سورة (طه) كان قبله؛ إذ تقديره: إن سئلت عن الجبال؛ فقل.

هذا؛ و(سأل) تارة يكون لاقتضاء معنى في نفس المسؤول، فيتعدى بـ (عن) كهذه الآية، وفي أول سورة (الأنفال) وقد يكون لاقتضاء مال، ونحوه، فيتعدى لاثنين، نحو: سألت زيداً مالاً.

﴿ٱلۡأَهِلَّةِۖ﴾ جمع: هلال، سمِّي به القمر لرفع أصواتهم عند رؤيته في جهة المغرب في أوَّل الشهر. واختلف اللُّغويون إلى متى يسمَّى هلالاً، فقال الجمهور: يقال لليلتين، وقيل: لثلاث، ثم يكون قمراً. وقال أبو الهيثم: لليلتين من أوَّل الشهر، ولليلتين من آخره، وما بينهما قمر. انتهى جمل نقلاً عن السَّمين. هذا؛ وجمع الهلال على: أهلة، وهو واحد في الحقيقة من حيث كونه هلالاً واحداً في شهر غير كونه هلالاً في آخر، فإنَّما جمع أحوال من الأهلة، ويريد بالأهلة شهورها، وقد يعبَّر بالهلال عن الشهر لحلوله فيه. وقيل: سمِّي شهراً؛ لأن الأيدي تشير بالإشارة إلى موضع الرؤية، ويدلون عليه. وانظر الآية رقم [١٨٤].

﴿قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّۗ﴾: تبيين لوجه الحكمة في زيادة القمر، ونقصانه، وهو زوال الإشكال في الآجال، والمعاملات، والأيمان، والحجّ، والعِدد، والصَّوم، والفطر، ومدَّة الحمل، والإجارات، والأكرية إلى غير ذلك من مصالح العباد. ونظيره قوله تعالى في سورة (الإسراء) رقم [١٢]: ﴿وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ﴾، وقوله تعالى في سورة يونس رقم [٥]: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ﴾. هذا؛ و﴿مَوَٰقِيتُ﴾ جمع: ميقات، مثل موازين، ومواعيد، ومواريث، جمع: ميزان، وميعاد، وميراث، والأصل: مِوزان، وموعاد، وموراث، وموقات، قلبت الواو ياء لسكونها، وانكسار ما قبلها، وردت الواو لأصلها في الجمع؛ لأن جمع التكسير يرد الأشياء إلى أصولها. وإنَّما خُصَّ الحج بالذكر؛ لأنَّه ممَّا يحتاج فيه إلى معرفة الوقت، وأنه لم يقع فيه النسيء الَّذي كانت العرب تفعله في الجاهلية من تأخير حرمة شهرٍ إلى آخر.

تنبيه: لقد استدل مالك، وأبو حنيفة، وأصحابهما على أنَّ الإحرام بالحجِّ يصحُّ، وينعقد في غير أشهر الحجِّ بهذه الآية؛ لأنَّ الله تعالى جعل الأهلة كلَّها ظرفاً لذلك، وخالف في ذلك الشافعي لقوله تعالى: ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ﴾ رقم [١٩٧].

﴿وَلَيۡسَ ٱلۡبِرُّ بِأَن تَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ أي: ليس البر بدخولكم المنازل من ظهورها، كما كنتم تفعلون في الجاهلية. وانظر: ﴿ٱلۡبِرَّ﴾ في الآية رقم [١٧٧]. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ﴾: عمل الخير؛ الذي يحبه الله، ويرضاه. ﴿مَنِ ٱتَّقَىٰۗ﴾: امتثل أمر الله فيما أمر، واجتنب كل ما نهى عنه، فهذا الذي يقربكم إلى الله. ﴿وَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِنۡ أَبۡوَٰبِهَاۚ﴾: ادخلوها كعادة الناس من الأبواب. ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ تقدَّم شرح مثل ذلك كثيراً.

هذا؛ وحكى المهدوي، ومكيٌّ عن ابن الأنباري، والماورديُّ عن ابن زيد ـ رحم الله الجميع ـ: أنَّ الآية مثلٌ في جماع النساء، أمر بإتيانهن في القبل، لا من الدبر، وسمِّي النساء بيوتاً للإيواء إليهن كالإيواء إلى البيوت. قال ابن عطية: وهذا بعيد مغير نمط الكلام. أقول: بحث ذلك يأتي في الآية رقم [٢٢٢] الآتية، وانظر: (ائتوا) في الآية [٢٣].

فائدة: يجوز عند مالك، وأحمد ـ رحمهما الله ـ البيع في السَّلم، وغيره إلى الحَصاد، أو إلى الدياس، وعند الشَّافعيِّ، وأبي حنيفة رحمهما لا يجوز إلا بتعيين اليوم، والشهر، ولا خلاف في ذلك بين العلماء في بيع شيءٍ بثمنٍ معلومٍ إلى أجلٍ معلومٍ من شهر عربي، أو روميٍّ.

تنبيه: ما في الآية الكريمة ممَّا سأل عنه اليهود، واعترضوا به على النَّبي ﷺ: فقال معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ: يا رسول الله! إن اليهود تغشانا، وتكثر مسألتنا عن الأهلَّة، فما بال الهلال يبدو دقيقاً، ثم يزيد؛ حتى يستوي، ويستدير، ثم ينقص؛ حتى يعود كما كان؟ وكان ناسٌ من الأنصار إذا أحرموا بالحجِّ، أو بالعمرة لم يدخل أحد منهم حائطاً، ولا داراً، ولا فسطاطاً من باب، فإن كان من أهل الدَّار نقب نقْباً في ظهر بيته، يدخل منه، ويخرج، وإن كان من أهل الوبر خرج من خلف الخباء، وكانوا يعدون ذلك بِرّاً، وعملاً صالحاً، ووجه اتصال الكلام ببعضه: أنهم سألوا عن الحكمة في اختلاف حال القمر، وعن حكم دخولهم بيوتهم من غير أبوابها، فنزلت الآية الكريمة في هذين السَّببين.

تنبيه: في هذه الآية بيان: أنَّ ما لم يشرعه الله قربةً، ولا ندب إليه لا يصير قربة بأن يتقرب له به متقرِّب. قال ابن خوْيزْ مِنْدَاد: إذا أشكل ما هو برٌّ، وقربةٌ بما ليس هو برٌّ، وقربة أن ينظر في ذلك العلم، فإن كان له نظير في الفرائض، والسنن؛ فيجوز أن يكون، وإن لم يكن؛ فليس ببرٍّ، ولا قربة. انتهى قرطبي. أقول: قد يكون حراماً، وبدعةً سيِّئةً، وما أكثر البدع في هذه الأيام، خذ منها الأذكار المشتملة على الرَّقص، والدَّبك، وما يحدث فيها من الهيام المخترع المسمَّى بالحال، وأسوأ السوء فيه ما يحدث من ضرب الشِّيش، وغير ذلك من الخزعبلات، والتَّدجيل، ولا تنسَ الموالد وما يكون فيها من مغالاة، وما يقع فيها من إسراف، وتبذيرٍ، والمبذرون إخوان الشياطين، وما يحصل فيها من رياء، وحبِّ السُّمعة، والمَحْمَدة.

تنبيه: علماء البلاغة يعدون القسم الأول من الآية الكريمة، بل ويسمُّونه: أسلوب الحكيم، ويكون بتنزيل السؤال منزلة سؤال آخر مناسب لحالة المسألة، فجاء الجواب في الآية الكريمة عن الحكمة المترتِّبة على ذلك؛ لأنَّها أهمُّ للسائل، فنزَّل سؤالهم عن سبب الاختلاف منزلة السُّؤال عن حكمته، ومثلها الآية رقم [٢١٤] الآتية.

الإعراب: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون، والواو فاعله، والكاف مفعول به، والجملة الفعلية مستأنفة لا محل لها. ﴿عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، وهما في محل نصب مفعوله الثاني. ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: أنت، ومتعلقه محذوف، التقدير: قل لهم. ﴿هِىَ﴾: ضمير منفصل مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ. ﴿مَوَٰقِيتُ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول.

﴿لِلنَّاسِ﴾: متعلقان بـ ﴿مَوَٰقِيتُ﴾ أو بمحذوف صفة له، وهو أقوى. ﴿وَٱلْحَجِّ﴾: معطوف على (الناس)، وجملة: ﴿قُلْ...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها؛ لأنها بمنزلة جواب لسؤالٍ مقدَّر.

﴿وَلَيْسَ﴾: الواو: حرف عطف. (ليس): فعل ماض ناقص. ﴿ٱلْبِرُّ﴾: اسمها. ﴿بِأَن﴾: الباء: حرف جر. (أن): حرف مصدري ونصب. ﴿تَأْتُوا۟﴾: فعل مضارع منصوب بـ (أن) وعلامة نصبه حذف النون. . . . إلخ، والواو فاعله، والألف للتفريق، ﴿ٱلْبُيُوتَ﴾: مفعول به. ﴿مِن ظُهُورِهَا﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، أو هما متعلقان بمحذوف حال من: ﴿ٱلْبُيُوتَ﴾، (وها): في محل جر بالإضافة، (وأَنْ) المصدرية والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بالباء، والجار والمجرور متعلِّقان بمحذوف خبر (ليس). هذا؛ وقيل: الباء حرف جر صلة، والمصدر مجرور لفظاً، منصوب محلّاً، والأول أقوى، وتقدَّم له نظائر كثيرةٌ، وجملة: ﴿وَلَيْسَ...﴾ إلخ معطوفة على ما قبلها، فهي في محل نصب مقول القول أيضاً. ﴿وَلَٰكِنَّ﴾: الواو: حرف عطف. (لكن) حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱلْبِرَّ﴾: اسمها. ﴿مَنِ﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل جرٍّ بإضافة اسم محذوف إليه هو الخبر، التقدير: ولكنَّ البرَّ برُّ مَن، ومثله الآية رقم [١٧٦]. ﴿ٱتَّقَىٰ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف للتعذر، والفاعل يعود إلى ﴿مَنِ﴾ وهو العائد، والجملة صلة لها.

﴿وَأْتُوا۟﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة معطوفة على ما قبلها: فهي من جملة مقول القول، مع ملاحظة: أنها إنشائية، والتي قبلها خبرية. ﴿ٱلْبُيُوتَ﴾: مفعول به. ﴿مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، وأجيز تعليقهما بمحذوف حال من: ﴿ٱلْبُيُوتَ﴾، و(ها): في محل جر بالإضافة. ﴿وَٱتَّقُوا۟﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿ٱللَّهَ﴾: منصوب على التعظيم، والجملة الفعلية معطوفة أيضاً.

قال سليمان الجمل ـ رحمه الله تعالى ـ: ولمَّا تقدم جملتان خبريّتان، وهما: (ليس البر. . .) إلخ، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ عطف عليهما جملتان أمريتان: الأولى للأولى، والثانية للثانية، وهما: ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ﴾، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾. انتهى نقلاً عن السَّمين. ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾: تقدَّم إعراب مثلها كثيراً.

﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾

الشرح: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ...﴾ إلخ هذه الآية أوَّل آية نزلت في الأمر بالقتال؛ إذ من المعلوم: أنَّ القتال كان محظوراً قبل الهجرة، والآيات التي تنهى عن القتال قبل الهجرة، وتحثُّ على الصَّبر، وتحمُّل الأذى من قريش كثيرةٌ، فلمَّا هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة؛ أمر بالقتال، فنزلت الآية الكريمة، قاله الرَّبيع بن أنس، وغيره، وروي عن أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ

وأرضاه: أنَّ أول آية نزلت في القتال قوله تعالى في سورة (الحج) رقم [٣٩]: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ۚ﴾، والأوَّل أكثر، وأنَّ آية الإذن إنما نزلت في القتال غايةً لِمَنْ قاتل، ولمن لم يقاتل مِنَ المشركين، وأن هذه الآية نزلت لمَّا تجهز المسلمون لعمرة القضاء، وخافوا أن لا تفي قريش بما وعدت من الشُّروط، والعهود؛ الَّتي عقدت في غزوة الحديبية، ويقاتلون المسلمين، وقد كره المسلمون قتالهم في الحرم، والشَّهر الحرام، فنزلت الآية الكريمة تبيح قتال المشركين؛ إن هم قاتلوهم، انظر غزوة الحديبية وما حصل فيها من شروط، وعهود بين المسلمين، وبين المشركين ـ فإنَّه جيد، والحمد لله ـ وذلك في سورة (الفتح). وفي الآية الكريمة إباحة القتال لمن يقاتل من المشركين دون مَنْ ليس من أهل المناصبة، والمقاتلة من الشيوخ، والصبيان، والرُّهبان، والنِّساء، والزَّمْنَى، والأُجَراء، إلا أن يكون لأحدٍ منهم إذاية للمسلمين، بقولٍ، أو فعل، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ۚ﴾ أي: لا تتجاوزوا ما شرعه الله، وأباحه لكم.

تنبيه: لا يذكر في القرآن الكريم لفظ القتال، أو الجهاد؛ إلا ويقرن بكلمة: ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وفي ذلك دلالة واضحة على أنَّ الغاية من القتال، والجهاد غايةٌ شريفةٌ نبيلةٌ، هي إعلاء كلمة الله، لا السيطرة، أو المغنم، أو الاستعلاء في الأرض، أو غير ذلك من الغايات الدنيئة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ أي: المتجاوزين ما شرعه الله لهم. هذا؛ وعدم محبَّة الله لهم كنايةٌ عن البغض، والسُّخط، والغضب، والطرد من رحمته، ورضوانه، ومحبته للعبد: رضاه عنه، وغفرُ ذنوبه، وسَتْرُ عيوبه.

الإعراب: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟﴾: الواو: حرف استئناف. (قاتلوا): فعل أمر، وفاعله، والألف للتفريق، ﴿فِى سَبِيلِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، و﴿سَبِيلِ﴾ مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾: مضاف إليه. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل نصب مفعول به. ﴿يُقَـٰتِلُونَكُمْ﴾: مضارع مرفوع، وفاعله، ومفعوله، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محلَّ لها، وجملة: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها، ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): ناهية جازمة. ﴿تَعْتَدُوٓا۟ۚ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ (لا) الناهية، وعلامة جزمه حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها. ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يُحِبُّ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى: ﴿ٱللَّهَ﴾. ﴿ٱلْمُعْتَدِينَ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه الياء نيابة عن الفتحة؛ لأنه جمع مذكر سالم، والنون عوض عن التنوين في الاسم المفرد، والجملة الفعلية في محل رفع خبر: ﴿إِنَّ﴾ والجملة الاسمية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ...﴾ إلخ مفيدة للتعليل، لا محلَّ لها.

﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾﴾

الشرح: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ أي: حيث وجدتموهم، فهو مثل قوله تعالى في سورة (التوبة) رقم [٥]: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ بل هذه أعمُّ، والأولى أخصُّ، لذا قيل: هذه ناسخة لتلك. هذا؛ والثقف في الأصل: الحِذْق في إدراك الشيء، علماً كان، أو عملاً، فهو يتضمن معنى الغلبة، يقال: ثقف، يثقف، ثقفاً. ويقال: رجل ثقفٌ لَقِف، أي: خفيف حاذق: إذا كان محكماً لما يتناول من الأمور، قال الشاعر: [الوافر]

فَـإِمَّـا تَـثْـقَـفُـونِـي فَـاقْـتُـلُـونِـي ... فَـمَـنْ أَثْـقَـفْ فَـلَـيْـسَ إِلَـى خُـلُـودِ

﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ أي: أخرجوكم من مكَّة كما فعلوا بكم، وقد تمَّ ذلك بفضل الله عام الفتح. ﴿وَٱلْفِتْنَةُ﴾ فسر بالشرك، والأولى تفسيرها بالمحنة؛ التي يفتن بها الإنسان، كالتعذيب، والإخراج من الوطن أعظم من القتل؛ لدوام تعبها، وتألم النفس بها، ومنه قول الشاعر: [الطويل]

لَـقَـتْـلٌ بِـحَـدِّ الـسَّـيْـفِ أَهْـوَنُ مَـوْقِـعاً ... عَـلَـى الـنَّـفْـسِ مِـنْ قَـتْـلٍ بِـحَـدِّ فِـرَاقِ

﴿تُقَٰتِلُوهُمْ﴾، ﴿يُقَٰتِلُوكُمْ﴾، ﴿قَٰتَلُوكُمْ﴾: هذه الأفعال الثلاثة تقرأ بالألف، وبدونها، ولا يتغيَّر معناها، ولا إعرابها. ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ...﴾ إلخ: جاء في الصحيحين من قول الرسول ﷺ: «**إنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَّمَهُ اللهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، فَهُوَ حَرَامٌ بحرمةِ اللهِ إلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَلَمْ يَحِلَّ إِلَّا ساعةً مِنْ نَهارٍ ـ وَإِنَّهَا سَاعَتِي هَذِهِ ـ فهو حرامٌ بحرمةِ اللهِ إلى يوم القيامةِ، لا يُعضَدُ شَجَرُهُ، وَلَا يُخْتَلَى خَلاهُ، فَإِنْ أَحدٌ تَرَخَّص بقتالِ رسول الله ﷺ؛ فقولوا: إنَّ اللهَ أَذِنَ لِرَسُولِهِ، ولم يأذنْ لَكُمْ**». يعني بذلك ﷺ: قتالَه أهلهُ يوم فتح مكَّة. هذا؛ ونصُّ الآية الكريمة: أنه لا يجوز قتال الكافر حتَّى يُقاتل في الحَرَم، ولكن الآية الآتية: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ عمَّمت القتال. ﴿كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: أي: مثل ذلك جزاؤهم، يُفعل بهم مثل ما فعلوا بكم، والجزاء مِنْ جِنْسِ العمل.

الإعراب: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والهاء مفعوله، والجملة الفعلية، معطوفة على ما قبلها في الآية السابقة لا محل لها مثلها. ﴿حَيْثُ﴾: ظرف مكان متعلق بالفعل قبله، مبني على الضم في محل نصب. ﴿ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾: فعل ماض مبني على السكون، والتاء فاعله، والميم علامة جمع الذُّكور، وحركت بالضم لتحسين اللفظ، فتولدت واو الإشباع، والهاء مفعول به، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة: ﴿حَيْثُ﴾ إليها، وجملة:

﴿وَأَخۡرِجُوهُم﴾: معطوفة على جملة: (اقتلوهم) لا محل لها، وإعرابها مثلها. ﴿مِّنۡ حَيۡثُ﴾: متعلقان بما قبلهما، و﴿حَيۡثُ﴾ مبني على الضم في محل جرٍّ بـ ﴿مِّنۡ﴾ وجملة: ﴿أَخۡرَجُوكُمۡ﴾ في محل جر بإضافة ﴿حَيۡثُ﴾ إليها.

﴿وَٱلۡفِتۡنَةُ﴾: الواو: واو الاعتراض. (الفتنة أشد): مبتدأ، وخبر، والجملة الاسمية معترضة بين الجملتين المتعاطفتين، وهو أقوى من الحالية. ﴿مِنَ ٱلۡقَتۡلِ﴾: متعلقان بـ ﴿أَشَدُّ﴾، ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): ناهية جازمة. ﴿تُقَٰتِلُوهُمۡ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ (لا) الناهية، وعلامة جزمه حذف النون، والواو فاعله، والهاء مفعول به، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها أيضاً. ﴿عِندَ﴾: ظرف مكان متعلق بالفعل قبله، و﴿عِندَ﴾: مضاف، و﴿ٱلۡمَسۡجِدِ﴾: مضاف إليه. ﴿ٱلۡحَرَامِ﴾: صفة ﴿ٱلۡمَسۡجِدِ﴾. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف غاية وجر بعدها «أن» مضمرة.

﴿يُقَٰتِلُوكُمۡ﴾: فعل مضارع منصوب بـ «أن» المضمرة بعد ﴿حَتَّىٰ﴾ وعلامة نصبه حذف النون... إلخ، والواو فاعله، والكاف مفعول به، ﴿فِيهِۖ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، و«أن» المضمرة بعد ﴿حَتَّىٰ﴾ والفعل المضارع في تأويل مصدر في محل جرٍّ بـ ﴿حَتَّىٰ﴾، والجار والمجرور متعلِّقان بالفعل: ﴿تُقَٰتِلُوهُمۡ﴾.

﴿فَإِن﴾: الفاء: حرف عطف، وتفريع. (إنْ): حرف شرط جازم. ﴿قَٰتَلُوكُمۡ﴾: فعل ماض مبني على الضم في محل جزم فعل الشرط، والواو فاعله، والكاف مفعوله، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها ابتدائية، ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفي. ﴿فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (اقتلوهم): فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والهاء مفعوله، ومتعلقه مع متعلق سابقه محذوف لدلالة ما قبله عليه، والجملة الفعلية في محل جزم جواب الشرط، والشرط ومدخوله كلام معطوف، ومفرَّعٌ عمَّا قبله لا محل له أيضاً.

﴿كَذَٰلِكَ﴾: الكاف: حرف تشبيه وجر. (ذا): اسم إشارة مبني على السكون في محل جر بالكاف، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف في محل رفع خبر مقدم، واللام للبعد، والكاف: حرف خطاب لا محل له. ﴿جَزَآءُ﴾: مبتدأ مؤخر، وهو مضاف، و﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ مضاف إليه مجرور... إلخ، والجملة الاسمية معترضة في آخر الكلام مقوِّية لمضمون الكلام السَّابق.

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٩٢﴾

الشرح: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ﴾ أي: عن الكفر بأن أسلموا، وتركوا القتال. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾: فإن الله يغفر لهم جميع ما تقدَّم من ذنوبهم، يرحم كلاً منهم بالعفو عمَّا اجترم، نظيره قوله تعالى في سورة (الأنفال): ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ رقم [٣٨]، والرَّسول ﷺ قال: «**الإِسْلَام يَجبُّ مَا قَبله**» أي: يمحو جميع ما فعله الكافر من إيذاءٍ، وقتلٍ للمسلمين.

الإعراب: ﴿فَإِنِ﴾: الفاء: حرف عطف. (إن): حرف شرط جازم. ﴿ٱنتَهَوْا۟﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدَّر على الألف المحذوفة لالتقائها بساكنة مع واو الجماعة، وهو في محل جزم فعل الشرط، والواو فاعله، والألف للتَّفريق، والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنها ابتدائية، ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفي. ﴿فَإِنَّ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (إنَّ): حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: خبران لـ (إنَّ)، والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط. والدسوقي يقول: لا محل لها؛ لأنها لم تحلَّ محلَّ المفرد، و(إنَّ) ومدخولها كلام معطوف على مثله في الآية السابقة لا محل لها مثله، والاستئناف ممكن.

﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾

الشرح: ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾: أمر بالقتال لكلِّ مشرك في كلِّ موضع على قول مَنْ رآها ناسخة، ومن رآها غير ناسخة؛ قال: المعنى: قاتلوا هؤلاء الذين قال الله فيهم: ﴿فَإِن قَـٰتَلُوكُمْ﴾. والأول أظهر، وهو أمرٌ بقتالٍ مطلق، لا بشرط أن يبدأ الكفار: دليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾. وفي سورة (الأنفال): ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ وقال الرسول ﷺ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَإِذَا قَالُوها عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ، وأموالهم إِلَّا بِحَقِّ الإِسْلَامِ**». هذا؛ والفتنة هنا بمعنى الشِّرك، ومثله في (الأنفال) رقم [٣٩] والآية رقم [٩١] السَّابقة، وتكون الفتنة بمعنى العبرة، كقوله تعالى في سورة (يونس) رقم [٨٥]: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ ولها معان أخر بحسب موقعها من الجملة.

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟﴾: أي: عن الكفر، إمَّا بالإسلام، كما تقدَّم، أو بأداء الجزية، كما رأيت في سورة (التَّوبة). ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ﴾: المراد به هنا: المعاقبة، والمقاتلة، وسمَّى ما يصنع بالظالمين: عدواناً من حيث هو جزاء عدوان؛ إذ الظلم يتضمَّن العدوان، فسمَّى جزاء العدوان عدواناً من قبيل المشاكلة، وهي الاتفاق في اللفظ مع الاختلاف في المعنى، كما في الآية التالية: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾، وقوله تعالى في آخر سورة (النَّحل): ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ ومثل ذلك كثير في كتاب الله. قال الزجَّاج ـ رحمه الله تعالى ـ: العرب تقول: ظلمني فلان، فظلمته؛ أي: جازيته بظلمه، وقال ابن الرقعمق في المشاكلة: [الكامل]

أَصْحَابُنَا قَصَدُوا الصَّبُوحَ بِسُحْرَةٍ ... وَأَتَى رَسُولُهُمُ إِلَيَّ خَصِيصَا
قَالُوا اقْتَرِحْ شَيْئاً نُجِدْ لَكَ طَبْخَهُ ... قُلْتُ: اطْبُخُوا لِي جُبَّةً وَقَمِيصَا

وقال عمرو بن كلثوم التغلبي في معلقته رقم [١١٤]: [الوافر]

أَلَا لَا يَجْهَلَنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَا

من ذلك قول الرسول ﷺ: «**فَإِنَّ اللهَ لَا يَمَلُّ؛ حَتَّى تَمَلُّوا**» فمعناه أن الله تعالى لا يقطع فضله عنكم حتى تملوا مِنْ مسألته، وتزهدوا فيها؛ لأنَّ الله لا يملُّ في الحقيقة، وإنما نسب الملل إليه لازدواج اللَّفظين.

هذا؛ وقوله تعالى: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ تصريح بأن يكون دين الله هو الظاهر العالي على سائر الأديان، فهذا المراد والغاية من القتال، كما ثبت في الصَّحيحين عن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ قال: سئل رسول الله ﷺ عن الرَّجلِ يقاتل شجاعةً، ويقاتل حميةً، ويقاتل رياءً، أيُّ ذلك في سبيل الله؟ فقال ﷺ: «**مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ**».

الإعراب: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ﴾: الواو: حرف عطف. (قاتلوهم): فعل أمر، وفاعله ومفعوله، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها في الآيات السابقة، لا محل لها مثلها. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف غاية، وجر. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿تَكُونَ﴾: فعل مضارع تام منصوب بـ «أنْ» مضمرة بعد ﴿حَتَّىٰ﴾، ﴿فِتْنَةٌ﴾: فاعله، و«أن» المضمرة، والفعل المضارع في تأويل مصدر في محل جر بـ «حتى»، والجار والمجرور متعلقان بالفعل قبلهما، و﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى «كي» أو بمعنى: «إلى أن»، ﴿وَيَكُونَ﴾: الواو: حرف عطف. (يكون): معطوف على سابقه منصوب مثله، وهو يحتمل التَّمام والنُّقصان، ﴿ٱلدِّينُ﴾: فاعله، أو اسمه. ﴿لِلَّهِ﴾: متعلقان بالفعل (يكون)، أو هما متعلقان بمحذوف خبره على نقصانه. ﴿فَإِنِ﴾: الفاء: حرف تفريع، (إن انتهوا): انظر الآية السابقة. ﴿فَلَا﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (لا): نافية للجنس تعمل عمل «إنَّ» ﴿عُدْوَٰنَ﴾: اسمها مبني على الفتح في محل نصب. ﴿إِلَّا﴾: حرف حصر. ﴿عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: متعلقان بمحذوف خبر (لا) وإن كانت بصورة النفي، فهي بالمعنى إثبات، ففي الإثبات تقول: العدوان على الظالمين، فإذا جئت بالنفي، وإلا بقي الإعراب على ما كان عليه. انتهى عكبري. هذا ويجوز أن يكون خبرها محذوفاً، تقديره: فلا عدوان على أحد، فيكون الجار والمجرور بدلاً من: «على أحد» بإعادة العامل.

﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾

الشرح: ﴿ٱلشَّهْرُ﴾ انظر الآيتين رقم [١٨٥] و [١٨٩]. ﴿ٱلْحَرَامُ﴾: أي: المحرم، والأشهر المحرمة أربعة: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، وشهر رجب، قال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ

عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ﴾. الآية رقم [٣٦] من سورة (التوبة).

وقال الرسول الأعظم ﷺ في حجَّة الوداع: «**إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ استدارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ الله السَّمَوَاتِ والأَرْضَ، السَّنةُ اثنا عشرَ شَهْرَاً، منها أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ: ثَلَاثٌ متوالياتٌ: ذُو القعدةِ، وذو الحجةِ، والْمُحَرَّمُ، ورجبُ الَّذي بين جُمَادَى، وشَعْبَانَ**».

وسميت حرماً لتحريم القتال فيها، وكان القتال محرَّماً في هذه الأشهر في بدء الإسلام، ثمَّ نسخ هذا التحريم، كما ستعرفه فيما يأتي إن شاء الله تعالى، والمعنى: الشهر الحرام مقابلٌ بمثله، أي: فكما قاتلوكم فيه؛ فاقتلوهم في مثله.

(الحرمات): جمع: حرمة، وهي ما يجب المحافظة عليه من مالٍ، وعرضٍ، ونسبٍ. هذا؛ والحرام في الأصل كلُّ ممنوعٍ، والحرمات كلُّ ممنوع منك ممَّا بينك وبين غيرك. وقولهم: لفلان بي حرمة، أي: ممتنعٌ من مكروهه. وحرمة الرَّجل محظورة به عن غيره، وقوله تعالى: ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ فالمحروم هو الممنوع من المال، والتلذُّذ به. والإحرام بالحجِّ هو المنع من أمورٍ معروفة، وإنَّما جمعت الحرمات؛ لأن المراد حرمة الشَّهر الحرام، وحرمة البلد الحرام، وحرمة الإحرام بالعمرة.

﴿قِصَاصٞۚ﴾ أي: يجري فيها معاقبة؛ أي: فكما هتكوا حرمة شهركم بالصَّدِّ عن دخول الحرم، وقاتلوكم في الشهر الحرام؛ فافعلوا بهم مثله، وادخلوا عليهم عنوةً، فاقتلوهم؛ إن قاتلوكم. ﴿فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ﴾: انظر المشاكلة في الآية السابقة، وانظر المعاقبة في الآية رقم [١٢٦] من سورة (النَّحل) وانظر المجازاة والانتقام من المعتدي، والظالم في الآية رقم [٤٠] من سورة (الشورى) تجد ما يسرك، ويثلج صدرك.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾: خافوه، فامتثلوا أمره فيما أمر، واجتنبوا كلَّ شيءٍ عنه نَهى، وزَجَر، وراقبوه في جميع أعمالكم، وأقوالكم. وفيه التَّحذير من مجاوزة الحدِّ في الانتقام من المعتدي أكثر من اعتدائه. هذا ويؤخذ من قضاء الرسول ﷺ العمرة لمَّا صُدَّ عن دخول مكة، وأدائها على أنَّ الشروع في الحجِّ، والعمرة ملزمٌ بإتمامهما، فإن منع المحرم من أحدهما من الإتمام لسبب من الأسباب؛ وجب عليه القضاء لِمَا مُنِع من أدائه. ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ أي: بالنَّصر، والمعونة، والتأييد في الدنيا، والآخرة.

تنبيه: خرج المسلمون بصحبة النبي ﷺ للعمرة في شهر ذي القعدة في السنة السادسة للهجرة النَّبوية، فصدَّهم المشركون، ثم وقعت مفاوضات بين الرسول ﷺ وبين المشركين، وانتهت المفاوضات بعقد معاهدة الحديبية المشهورة، ومِنْ شروطها: أن يعود الرسول ﷺ بالمسلمين هذا العام من غير عمرة، على أن يعتمروا في العام القادم، فلمَّا أراد المسلمون قضاء العمرة في العام القادم في شهر ذي القعدة؛ خافوا من معارضة قريش لهم، وكرهوا قتالهم في

الشَّهر الحرام، فقيل لهم: هذا الشهر الحرام بذلك الشَّهر الحرام، وهتكه بهتكه، فلا تبالوا فيه. ومعناه: إن قاتلوكم؛ فقاتلوهم، ولا إثم عليكم، ولا مؤاخذة.

الإعراب: ﴿ٱلشَّهۡرُ﴾: مبتدأ. ﴿ٱلۡحَرَامُ﴾: صفته. ﴿بِٱلشَّهۡرِ﴾: متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ. ﴿ٱلۡحَرَامِ﴾: صفة (الشَّهْرِ) والجملة الاسمية مستأنفة، أو مبتدأة لا محل لها. ﴿وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ﴾: مبتدأ، وخبر، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها. ﴿فَمَنِ﴾: الفاء: حرف تفريع، واستئناف. (مَنْ): اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿ٱعۡتَدَىٰ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف في محل جزم فعل الشرط، والفاعل يعود إلى (مَنْ) تقديره: هو. ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿فَٱعۡتَدُواْ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (اعتدوا): فعل أمر، مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿عَلَيۡهِ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، والجملة الفعلية في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور، والدسوقي يقول: لا محل لها؛ لأنها لم تحلَّ محل المفرد، وخبر المبتدأ الذي هو (مَنْ) مختلف فيه، كما ذكرته لك مراراً. هذا؛ وإن اعتبرت (مَنْ) اسماً موصولاً؛ فهو مبتدأ، والجملة الفعلية بعده صلته، وخبره جملة: ﴿فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ﴾ ودخلت الفاء على خبره؛ لأن الموصول يشبه الشرط في العموم. والأول أقوى؛ لأن وقوع خبر المبتدأ جملة طلبية منازعٌ فيه. والجملة الاسمية على الاعتبارين مستأنفة، ومفرَّعة عما قبلها، لا محل لها.

﴿بِمِثۡلِ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، وقيل: الباء زائدة، و(مثل) صفة لمصدر محذوف، التقدير: اعتدوا عليه اعتداء مثل جناية اعتدائه عليكم، و(مثل) مضاف، و﴿مَا﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل جر بالإضافة، وجملة: ﴿ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ﴾: صلة الموصول، لا محل لها، والعائد محذوف، التقدير: بمثل الذي اعتدى عليكم به. هذا؛ وجوز اعتبار: ﴿مَا﴾ مصدرية، تؤول مع الفعل بعدها بمصدر في محل جر بإضافة (مثل) إليه، أي: بمثل اعتدائه عليكم.

﴿وَٱتَّقُواْ﴾: الواو: حرف عطف. (اتقوا): فعل أمر، وفاعله، والألف للتفريق. ﴿ٱللَّهَ﴾: منصوب على التعظيم، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، وأيضاً جملة: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ...﴾ إلخ معطوفة أيضاً على ما قبلها. ﴿أَنَّ﴾: حرف مشبَّه بالفعل. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿مَعَ﴾: ظرف مكان متعلق بمحذوف في محل رفع خبرها، و﴿مَعَ﴾ مضاف، و﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ مضاف إليه مجرور... إلخ، و﴿أَنَّ﴾ واسمها، وخبرها في تأويل مصدر في محل نصب سدَّ مسد مفعولي: (اعلموا).

﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٩٥﴾

الشرح: ﴿وَأَنفِقُواْ﴾ أي: ابذلوا المال. ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: المراد به هنا: الجهاد بالمال، وهو أمر بالجهاد به بعد الأمر بالجهاد بالنفس، والروح. دلَّ على ذلك الأمر به في الآيات

السابقة. وقيل: هو عام في الجهاد، وغيره. وهو الحقُّ، انظر شرح: ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في الآية [١٩٠] ﴿وَلَا تُلْقُوا۟﴾: الإلقاء: هو الطرح، والرمي. وقيل: معناه هنا: ولا تفضوا. ﴿بِأَيْدِيكُمْ﴾ أي: بأنفسكم هكذا فسر. وقيل: الباء سببية، والمفعول محذوف، أي: ولا تلقوا أنفسكم بأيديكم. وانظر شرح (اليد) في الآية رقم [٧٩]. ﴿ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ مصدر: هَلِكَ بكسر اللام، وهو مثل الهلك، والهلاك، والهلوك، فهذه كلها مصادر له، هذا معنى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟...﴾ إلخ؛ أي: بالإسراف في الإنفاق، وتضييع الزوجة، والأولاد، والدستور في ذلك ـ وهو مما نفخر، ونعتز به ـ قوله تعالى في سورة (الإسراء) رقم [٢٩]: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾. وقوله تعالى في سورة (الفرقان) رقم [٦٧]: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾. ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟...﴾ إلخ؛ أي: في جميع أعمالكم، وأقوالكم، وأخلاقكم؛ حتَّى يحبَّكم الله، وتكونوا من أوليائه المقرَّبين.

هذا؛ ومضمون الآية وفحواها الأمر بالإنفاق في سبيل الله في سائر وجوه القربات، ووجوه الطاعات؛ وخاصةً صرف الأموال في قتال الأعداء، وبذلها فيما يقوِّي المسلمين على أعدائهم، والإخبار عن ترك ذلك بأنَّه هلاك، ودمار لمن لزمه، واعتاده. ثم عطف الأمر بالإحسان، وهو أعلى مقامات الطاعة، ولما سئل الرسول ﷺ عن الإحسان قال: «**الإحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**». هذا؛ وقال ابن عبَّاس ـ رضي الله عنهما ـ: أنفق في سبيل الله، وإن لم يكن إلا سهم، أو مِشْقص، لا يقولنَّ أحدكم: لا أجد شيئاً. ونحوه عن السُّدِّي ـ رحمه الله تعالى ـ: أنفق ولو عِقالاً، ولا تلق بيدك إلى التهلكة، فتقول: ليس عندي شيء.

فائدة: روي: أنَّ رجلاً من المسلمين حمل على جيش الروم في خلافة الفاروق حتى دخل فيهم، فصاح الناس: سبحان الله! ألقى بيديه إلى التهلكة، فقال أبو أيوب الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ: إنَّما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار حين أعزَّ الله الإسلام، وَكَثُرَ ناصروه، فقلنا: لو أقمنا في أموالنا، فأصلحنا ما ضاع منها. فنزلت الآية، فكانت التهلكة: الإقامة على الأموال، وإصلاحها، وترك الجهاد في سبيل الله. أخرجه أبو داود، والترمذي، والنَّسائي. فما زال أبو أيوب ـ رضي الله عنه ـ شاخصاً في سبيل الله حتى استشهد، ودفن بأرض الروم، وكان ذلك تحت إمرة يزيد في عهد معاوية.

فعن البراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ قال له رجل: يا أبا عمارة! قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ أهو الرجل يلقى العدو، فيقاتل؛ حتى يقتل؟ قال: لا، ولكن هو الرجل يذنب الذَّنب، فيقول: لا يغفره الله. رواه الحاكم موقوفاً، وقال: صحيح على شرط الشَّيخين، وانظر الآية رقم [٢٩] من سورة (النساء) فالمعنى متشابه.

الإعراب: ﴿وَأَنفِقُوا۟﴾: الواو: حرف عطف. (أنفقوا): فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها أيضاً،

والمفعول محذوف، تقديره: أنفقوا المال. ﴿فِي سَبِيلِ﴾: متعلقان بما قبلهما، و﴿سَبِيلِ﴾ مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾ مضاف إليه. ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): ناهية جازمة. ﴿تُلْقُوا۟﴾: فعل مضارع مجزوم بـ (لا) الناهية، وعلامة جزمه حذف النون... إلخ، والواو فاعله، والألف للتفريق، والمفعول محذوف، انظر تقديره في الشرح. ﴿بِأَيْدِيكُمْ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، وعلامة الجرِّ كسرةٌ مقدَّرة على الياء للثقل، وقيل: الباء: حرف جر صلة، و(أيديكم): هو المفعول، فهو مجرور لفظاً، منصوب محلاًّ، والكاف في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، وجملة: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟﴾ مع المفعول المحذوف معطوفة أيضاً، والجملة الاسمية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ مفيدة للتعليل، لا محل لها. وانظر إعراب ما يشبهها في الآية رقم [١٨٩].

﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾﴾

الشرح: المناسبة بين هذه الآيات، والتي قبلها: لمَّا ذكر الله تعالى في الآيات السابقة أحكام الصيام؛ أعقب ذلك بذكر أحكام الحج؛ لأن شهوره تأتي مباشرة بعد شهر الصيام، وأمَّا آيات القتال، فقد ذكرت عرضاً لبيان حكمٍ هامٍّ، وهو بيان الأشهر الحرم، والقتال فيها، وفيما لو تعرض المشركون للمؤمنين، وهم في حالة الإحرام، هل يباح لهم ردُّ العدوان عن أنفسهم، والقتال في الأشهر الحرم؟ فقد وردت الآيات السابقة تبيِّن حكم الأهلة، وأنها مواقيت للصيام، والحج، ثمَّ بينت الآيات بعدها موقف المسلمين من القتال في الشهر الحرام، وذلك حين أراد رسول الله ﷺ العمرة، وصدَّه المشركون، ومنعوه من دخول مكة، ووقع صلح الحديبية، ثم لما أراد القضاء في العام القابل، وخشي أصحابه غَدْرَ المشركين بهم؛ وهم في حالة الإحرام؛ نزلت الآية تبيِّن: أنه ليس لهم أن ينتهكوا هذه الحرمات على سبيل الابتداء، بل على سبيل القصاص، ودفع العدوان، ثم عاد الكلام إلى أحكام الحجِّ، وحكم الإحصار فيه. فهذا هو الارتباط بين الآيات السابقة، واللاحقة. انتهى صفوة التفاسير.

﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ أدُّوهما كاملين بأركانهما، وشروطهما، وجميع حقوقهما، قال تعالى في الآية رقم [١٢٤]: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ وهذا الأمر يدل على وجوبهما، ويؤيده قراءة مَنْ قرأ: (وأقيموا الحج والعمرة)، وانظر شرحها في الآية رقم [١٥٨]. هذا؛ وحجَّ الرسول

ﷺ حجَّة واحدةً، هي حجة الوداع، واعتمر أربع عمر، كلُّها في ذي القعدة: عمرة الحديبية سنة ست، وعمرة القضاء سنة سبع، وعمرة الجِعِرَّانة سنة ثمان، وعمرته التي اعتمر بها مع الحجِّ سنة عشر، وما اعتمر في غير ذلك بعد هجرته، ولكن قال لأم هانئ: «**عمرةٌ في رمضانَ تَعْدِلُ حجة مَعِي**». وسبب ذلك: أنها عزمت على الحج معه ﷺ، فاعتاقت عن ذلك بسبب الطُّهر، وقال سعيد بن جبير ـ رحمه الله تعالى ـ: هو من خصائصها.

هذا؛ والحج فرض في العمر مرَّةً واحدةً متَّفق عليه، وأما العمرة؛ فقد اختلف فيها، فقال جمعٌ من الصحابة، والتابعين: هي فرضٌ مثل الحجِّ: وهو قول الشافعيِّ، رحمه الله تعالى، وأحمد، رحمه الله تعالى، وسئل زيد بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ عن العمرة قبل الحجِّ، فقال: صلاتان، لا يضرك بأيِّهما بدأت. ذكره الدَّارقطني. وروي مرفوعاً عن محمد بن سيرين عن زيد بن ثابت، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الحجَّ والعمرةَ فريضَتَانِ، لا يَضُرُّكَ بِأَيهما بَدَأْتَ**». وقال جمع من الصحابة، والتابعين: هي سنَّةٌ، وبه قال مالك، وأبو حنيفة، رحمهما الله تعالى، وقالوا: معنى (أتمُّوا): إلزام الإتمام؛ لو أحرم، وشرع، لا إلزام الابتداء. والله أعلم. هذا؛ وقرأ الشعبي، وأبو حيدة برفع تاء العمرة، وهي تدلُّ على عدم الوجوب، وقرأ الجماعة بنصب التاء، وهي تدل على الوجوب.

﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾: منعتم من إتمامهما، أو من أحدهما بعد الإحرام بها بسبب عدوٍّ، أو مرضٍ، ونحو ذلك. والحصر: المنع، والحبس، وهو يحتمل أن يكون من الرُّباعي: أحصر، ومن الثلاثي: حصر. وقال أبو عبيدة، والكسائي: أحصر بالمرض، وحصر بالعدو. وفي المجمل لابن فارس على العكس: حُصِرَ بالمرض، وأُحْصِرَ بالعدو. وقالت طائفة: يقال: أُحْصِر فيهما جميعاً من الرُّباعي، حكاه أبو عمر، والصحيح: أنهما يستعملان فيهما، وهو ما قدَّمته أولاً. قال القرطبيُّ رحمه الله تعالى: الأكثر من أهل اللغة على أنَّ حُصِرَ في العدو، وأُحْصِر في المرض. وأصل الكلمة من الحبس، ومنه الحصير للذي يحبس نفسه عن البوح بسرِّه، والحصير: الملك لأنه كالمحبوس من وراء الحجاب. والحصير: الذي يُجلس عليه لانضمام بعض طاقات القش إلى بعض.

تنبيه: من أنواع الإحصار في هذه الأيام ما يطلب من دراهم زيادة على رسوم الحجِّ المعتادة بمعنى: أنَّ من طُلِبَ منه ذلك لا يجب عليك الحجُّ، ولا يكلَّف المسلم أن يعطي للواسطة مبلغاً من المال يشترطه عليه.

﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ أي: إذا منعتم من إتمام الحج، أو العمرة بمرضٍ، أو عدوٍّ، وأردتم التحلُّل؛ فعليكم أن تذبحوا ما تيسر من بدنةٍ، أو بقرةٍ، أو شاةٍ. و﴿ٱلْهَدْيِ﴾: هو ما يساق من النَّعم ليذبحه المُحرم بحجٍّ، أو عمرة في الحرم، فإن أحصر؛ ذبح في موضع الإحصار. وهو

قول الشَّافعي، وقال قتادة، وإبراهيم النَّخعي: يبعث بهديه إن أمكن، فإذا بلغ محلَّه؛ صار حلالاً، ومحلُّه الحرم، وقال أبو حنيفة: دم الإحصار لا يتوقف على يوم النَّحر، بل يجوز ذبحه قبل يوم النحر؛ إذا بلغ محلَّه. وخالفه صاحباه، فقالا: يتوقف على يوم النَّحر، وإن نحر قبله؛ لم يجزه، فهذا فحوى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾. قال عبد الله ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: خرجنا مع رسول الله ﷺ ـ أي: إلى العمرة ـ فحال كفار قريش دون البيت، فنحر رسول الله ﷺ هديه، وحلق رأسه. ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾ فالمحصر الذي خشي أن يفوته الوقوف بعرفة يتحلل من إحرامه في مكانه الذي أحصر بحلق رأسه، أو تقصيره بعد ذبح هديه؛ إن كان معه هدي، وإن لم يكن معه هدي؛ يشتري ما يتيسر له من النَّعم، ويذبحه في مكان الإحصار، أو يبعثه إلى الحرم على اختلاف بين المذاهب كما قدَّمته، فإن لم يتيسر له؛ عدل إلى قيمة الحيوان، واشترى به طعاماً، وتصدَّق به في مكان الإحصار، فإن لم يجد؛ صام عن كل مدٍّ يوماً حيث شاء، وله التحلل حالاً قبل الصوم، وهذا الدَّم دم ترتيب، وتعديل، وهو في هذه الصُّورة، وفي الوطء، كما أشار إليه ابن المُقري ـ رحمه الله ـ بقوله: [الرجز]

وَالثَّانِي تَرْتِيبٌ وَتَعْدِيلٌ ورِدْ ... فِي مُحْصَرٍ وَوَطْءِ حَجٍ إنْ فَسَدْ
إنْ لَمْ يَجِدْ قَوَّمَهُ ثُمَّ اشْتَرَى ... بِهِ طَعَاماً طُعْمَةً لِلْفُقَرَا
ثُمَّ لِعَجْزٍ عِدْلُ ذَاكَ صَوْمَا ... أَعْنِي بِهِ عَنْ كُلِّ مُدٍّ يَوْمَا

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ﴾: بأن كان به هوامُّ تُؤذيه، أو صداع شديد يصعب احتماله. وهنا معطوف محذوف، أي: فحلق شعره، أو لبس ثيابه. ومنه: التطيُّب، وقلم الظفر، ووطء ثان، أو وقع وطء بين تحلُّلين. ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ وعن كعب بن عجرة ـ رضي الله عنه ـ قال: أتى عليَّ النبي ﷺ، وأنا أوقد تحت قدرٍ؛ والقمل يتناثر على وجهي، أو قال: حاجبي، فقال: «**يُؤذِيكَ هَوَامُّ رَأْسِكَ؟**» قلت: نعم، قال: «**فَاحْلِقْهُ، وصمْ ثلاثةَ أيامٍ، أَوْ أَطْعِمْ سِتَّةَ مسَاكِينَ، أو انْسُكْ نَسِيكةً**». قال أيوب: لا أدري بأيتهنَّ بدأ. رواه الإمام أحمد.
وكفارة ما ذكر مخيرة بين ثلاثة أمور، كما رأيت، وهذا الدَّم دم تخيير، وتقدير، كما أشار له ابن المقري ـ رحمه الله تعالى ـ بقوله: [الرجز]

وَخَيِّرَتْ وَقَدِّرَنْ فِي الرابِعِ ... إنْ شِئْتَ فَاذْبَحْ أَوْ فَجُدْ بِآصُعِ
لِلشَّخْصِ نِصْفٌ أو فَصُمْ ثلاثَا ... تَجْتَثُّ ما اجْتَنَيْتَهُ اجْتِثَاثَا
فِي الحَلْقِ والقَلْمِ ولبس دهنِ ... طِيبٍ وَتَقْبِيْلٍ ووطءٍ ثَنِي
أَوْ بَيْنَ تَحَلُّلَيْ ذي إحْرَامِ ... فَذِي دماءُ الحجِّ بِالتَّمَامِ

هذا؛ و(نسك): جمع نسيكة، وهي الذَّبيحة ينسكها العبد لله تعالى، ويُجمع أيضاً على: نسائك، والنُّسك في الأصل: العبادة، ومنه قوله تعالى حكاية، عن قول إبراهيم ـ على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام في الآية رقم [١٢٨] ـ: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ أي: متعبداتنا، وانظرها هناك، وانظر رقم [٢٠٠] الآتية. وقيل: إنَّ أصل النسك في اللغة: الغسل، ومنه: نسك ثوبه: إذا غسله، فكأن العابدَ غسل نفسه من أدران الذنوب بالعبادة. هذا؛ وسمِّيت ذبيحة الأنعام نسكاً؛ لأنها من أعظم العبادات، التي يتقرب بها إلى الله تعالى. هذا؛ والمنسك بفتح السين، وكسرها: المذبح، وهو موضع ذبح القربان، قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا...﴾ إلخ: الآية رقم [٣٤] من سورة (الحج). والمنسك: الشريعة، قال تعالى في سورة (الحج) رقم [٦٧]: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾.

﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾ أي: كنتم آمنين من أول الأمر، أو صرتم بعد الإحصار آمنين. ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ﴾ أي: أحرم بالعمرة قبل الحج، وفي أشهر الحج. وهذا يسمى متمتعاً، ومتلذِّذاً يستمتع بما يستمتع به غير المحرم من الطِّيب، واللِّباس، والنِّساء، وغيرها، فيصير بعد فراغه من العمرة كأهل مكَّة، على أن يكون من أهل الآفاق، وقدم مكة، ففرغ من العمرة، ثمَّ أقام بمكة حلالاً إلى أن أنشأ الحجَّ منها في عامه ذلك قبل رجوعه إلى بلده، أو قبل خروجه إلى ميقات أهل ناحيته، فإذا فعل ذلك صار متمتعاً، وعليه ما أوجب الله على المتمتِّع، وهو قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ يذبحه، ويعطيه للمساكين بمنى، أو بمكَّة، وهو دم المتعة، وهو نسك عند أبي حنيفة، ويأكل منه، وعند الشَّافعية يجري مجرى الجنايات، ولا يأكل منه، ويذبحه يوم النَّحر عند أبي حنيفة، وعند الشَّافعي: إذا أحرم بحجته. فإن لم يجد صام ثلاثة قبل يوم عرفة، وسبعة إذا رجع إلى بلده، وهذا دم ترتيب، وتقدير، وهو فداء لأمورٍ كثيرة ذكرها ابن المُقري رحمه الله تعالى بقوله: [الرجز]

أَرْبَعَةٌ دِمَاءُ حَجٍّ تُحْصَرُ　　أَوَّلُهَا الْمُرَتَّبُ الْمُقَدَّرُ
تَمَتُّعُ فَوْتٍ وحَجٍّ قُرِنَا　　وتركُ رمْيٍ والْمَبِيتُ بِمِنَى
وَتَرْكُهُ الْمِيقَاتَ والْمُزْدَلِفَهْ　　أَوْ لَمْ يودِّعْ أَوْ كَمَشْيٍ أَخْلَفَهْ
نَاذِرُهُ يَصُومُ إِنْ دَماً فَقَدْ　　ثَلاثَةً فِيْهِ وسَبْعاً في الْبَلَدْ

فقد اشتملت الآية الكريمة على ثلاثة أنواع من أنواع الدم الواجب في النُّسك، وبقي الرابع يذكر في سورة (المائدة) في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ...﴾ إلخ الآية رقم [٩٥] هو دم تخيير، وتعديل، ويجب في شيئين، كما أشار إليه ـ رحمه الله ـ بقوله: [الرجز]

وَالثَّالِثُ التخييرُ والتَّعْديلُ فِي　　صَيْدٍ وَأَشْجَارٍ بِلَا تَكَلُّفِ
إِنْ شِئْتَ فَاذْبَحْ أو فعدِّل مِثْلَ مَا　　عدَّلْتَ فِي قِيمَةِ مَا تَقَدَّمَا

﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾: هذه الجملة تأكيد لما قبلهما، وحثٌّ على صيامها، وعدم التهاون بها، أو تنقيص عددها، وهي تجزئ عن الذَّبح، وثوابها كثوابه من غير نقصان إن شاء الله تعالى، وهذا عند فقدان الذَّبيحة بأن كان فقيراً لا يجد ثمنها. وانظر شرح لفظ عشرة في الآية رقم [٦٠]، وانظر ما ألحق بالمتمتع في قول ابن المقري.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الحكم المتقدِّم ذكره. ﴿لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾: بأن لم يكن أهله على دون مرحلتين من الحرم عند الشَّافعي، رحمه الله تعالى، فإن كان؛ فلا دم عليه، ولا صيام؛ وإن تمتع. وكذلك لا يُحصر بمرض وغيره، بل يجب عليه أن يحضر المشاهد كلَّها، وإن يمش مشياً لقرب المسافة بالبيت، وقال أبو حنيفة، وأصحابه: كل مَنْ مُنِع من الوصول إلى البيت بعدوٍّ، أو مرضٍ، أو ذهاب نفقةٍ، أو إضلال راحلته، أو لدغ هامة فإنه يقف مكانه على إحرامه، ويبعث بهديه، أو بثمنه، فإذا نحر؛ فقد حلَّ من إحرامه، كذلك قال عروة، وقتادة، والحسن، وعطاء، والنخعي، ومجاهد لعموم قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾: انظر التقوى في الآية رقم [٢]. وفي الأمر بالتقوى حثٌّ على المحافظة على أوامره، ونواهيه، وخصوصاً الحج، وأحكامه. ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾: فيه تهديد، ووعيد لِمَنْ يخالف أوامر الله، ونواهيه.

بعد هذا خذ ما يلي: عن عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: جاءت ضِبَاعةُ بنت الزُّبير ـ رضي الله عنهما ـ إلى رسول الله ﷺ، فقالت: إنِّي امرأة ثقيلة، وإني أريد الحجَّ، فكيف تأمرني أن أحجَّ؟ قال: «**أَهِلِّي، واشْتَرِطِي: أَنَّ مَحِلِّي حَيْثُ حَبَسْتَنِي**». قال: أَدْرَكَتِ الحجَّ، ولم تحلل؛ حتَّى فرغت منه.

الإعراب: ﴿وَأَتِمُّوا۟﴾: الواو: حرف عطف. (أتمُّوا): فعل أمر وفاعله، والألف للتفريق. ﴿ٱلْحَجَّ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها في الآيات السابقة، والاستئناف ممكن. ﴿وَٱلْعُمْرَةَ﴾: معطوف على ﴿ٱلْحَجَّ﴾، ﴿لِلَّهِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، أو هما متعلقان بمحذوف حال من ﴿ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ﴾ أي: كائنين لِله. هذا؛ وعلى قراءة: (العمرةُ) بضم التاء، فهو مبتدأ، و﴿لِلَّهِ﴾: متعلقان بمحذوف خبرها، والجملة الاسمية في محل نصب حال من: ﴿ٱلْحَجَّ﴾ والرابط: الواو فقط. ﴿فَإِنْ﴾: الفاء: حرف عطف، وتفريع. (إن): حرف شرط جازم. ﴿أُحْصِرْتُمْ﴾: فعل ماض مبني للمجهول، مبني على السكون في محل جزم فعل الشرط، والتاء نائب فاعله، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها ابتدائية، ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفي ﴿فَمَا﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (ما): اسم موصول مبني على السكون في محل رفع مبتدأ، والخبر محذوف، التقدير: فعليكم ما . . . إلخ، أو في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: فالواجب ما . . . إلخ، ويجوز أن تكون في محل نصب مفعول به لفعل محذوف،

التقدير: فاهدوا، أو: فأدوا ما... إلخ. ﴿ٱسْتَيْسَرَ﴾: فعل ماض، والفعل يعود إلى (ما) ﴿مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾: متعلقان به، والجملة الفعلية صلة (ما) أو صفتها إن اعتبرتها نكرة موصوفة، والعائد أو الرابط هو الفاعل المستتر، العائد عليها، وجملة: ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ في محل جزم جواب الشرط، والدُّسوقي يقول: لا محلَّ لها، و(إنْ) ومدخولها كلام مفرع عمَّا قبله لا محل لها من الإعراب.

﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): ناهية جازمة. ﴿تَحْلِقُوا۟﴾: فعل مضارع مجزوم بـ (لا)، وعلامة جزمه حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿رُءُوسَكُمْ﴾: مفعول به، والكاف في محل جر بالإضافة. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف غاية وجر بعدها «أن» مضمرة. ﴿يَبْلُغَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ «أن» المضمرة بعد ﴿حَتَّىٰ﴾. ﴿ٱلْهَدْىُ﴾: فاعله. ﴿مَحِلَّهُۥ﴾: اسم مكان متعلق بالفعل قبله، وهو يطلق على الزمان أيضاً، وقيل: مفعول به ولا وجه له، و«أنْ» المضمرة والفعل ﴿يَبْلُغَ﴾ في تأويل مصدر في محل جر بـ ﴿حَتَّىٰ﴾، والجار والمجرور متعلقان بالفعل قبلهما، وجملة: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا۟...﴾ إلخ معطوفة على جملة: (أتموا...) إلخ لا محل لها مثلها، وقيل: معطوفة على (إنَّ) ومدخولها، والأوَّل أقوى.

﴿فَمَن﴾: الفاء حرف عطف، أو استئناف. (مَنْ): اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص مبني على الفتح في محل جزم فعل الشرط، واسمه يعود إلى (مَنْ). ﴿مِنكُم﴾: جار ومجرور متعلقان بـ ﴿كَانَ﴾، أو بمحذوف حال من: ﴿مَّرِيضًا﴾ كان صفة له... إلخ. ﴿مَّرِيضًا﴾: خبر: ﴿كَانَ﴾. ﴿أَوْ﴾: حرف عطف. ﴿بِهِۦٓ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف معطوف على: ﴿مَّرِيضًا﴾، التقدير: أو كائناً به. ﴿أَذًى﴾: فاعل بمتعلق الجار والمجرور؛ لأن الجار إذا اعتمد رفع الفاعل عند الجمهور، وهو في الحقيقة فاعل بالمتعلق المحذوف، كما رأيت، ويجوز أن يكون الجار والمجرور متعلقين بمحذوف خبر مقدم، و﴿أَذًى﴾ مبتدأ مؤخر، فهو مرفوع على الوجهين، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين، والألف الثابتة دليل عليها، وليست عينها، وعليه فالجملة الاسمية في محل نصب، وهي معطوفة على خبر: ﴿كَانَ﴾ وهو: ﴿مَّرِيضًا﴾. ﴿مِّن رَّأْسِهِۦ﴾: متعلقان بمحذوف في محل رفع صفة ﴿أَذًى﴾. ﴿فَفِدْيَةٌ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (فدية): خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: فالواجب فدية، أو هو مبتدأ، والخبر محذوف، التقدير: فعليه فدية، والجملة الاسمية على الاعتبارين في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور، والدسوقي يقول: لا محل لها، وخبر المبتدأ الذي هو (مَنْ) مختلف فيه، كما ذكرته مراراً. هذا؛ وإن اعتبرت (مَنْ) اسماً موصولاً؛ فهو مبتدأ، الجملة الفعلية بعده صلته، والجملة الاسمية: ﴿فَفِدْيَةٌ...﴾ إلخ في محل رفع خبره، وزيدت الفاء في خبره؛ لأن الموصول يشبه الشرط في العموم، فهو كلام

سديد، والجملة الاسمية: (من كان. . .) إلخ مفرعة مستأنفة لا محل لها من الإعراب. ﴿مِّن صِيَامٍ﴾: متعلقان بمحذوف صفة. (فدية). ﴿صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ معطوفان على ﴿صِيَامٍ﴾.

﴿فَإِذَآ﴾: الفاء حرف عطف، وقيل: حرف استئناف. (إذا): ظرف لما يستقبل من الزمان، خافض لشرطه، منصوب بجوابه، صالح لغير ذلك مبني على السكون في محل نصب. ﴿أَمِنتُمْ﴾: فعل، وفاعل، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة (إذا) إليها على القول المشهور المرجوح. ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾: إعراب هذه الجملة مثل ما تقدَّم، فهو واضح إن شاء الله تعالى، لا أطيل الكلام في إعرابه، والجملة الاسمية الحاصلة منه على الوجهين المعتبرين في (مَنْ) جواب: (إذا) لا محل لها، و(إذا) ومدخولها كلام معطوف على (إنْ) ومدخولها. وقيل: مستأنف. ﴿إِلَى ٱلْحَجِّ﴾: متعلقان بمحذوف، التقدير: واستمر تمتُّعه إلى الحج، أي: إلى الإحرام بالحجِّ.

﴿فَمَن﴾: الفاء حرف عطف، أو استئناف. (مَنْ): تحتمل الشرطية، والموصولة. ﴿لَّمْ﴾: حرف نفي، وقلب، وجزم. ﴿يَجِدْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ ﴿لَّمْ﴾، والفاعل يعود إلى (مَنْ) والمفعول محذوف لدلالة ما قبله عليه. ﴿فَصِيَامُ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (صيام): خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: الواجب صيام، أو هو مبتدأ خبره محذوف، التقدير: فعليه صيام، و(صيام) مضاف، و﴿ثَلَٰثَةِ﴾: مضاف إليه من إضافة المصدر لمفعوله، وفاعله، و﴿ثَلَٰثَةِ﴾: مضاف، و﴿أَيَّامٍ﴾ مضاف إليه، ﴿فِي ٱلْحَجِّ﴾: متعلقان بمحذوف صفة لـ ﴿ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ﴾، وقيل: حال من: ﴿ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ﴾، ﴿وَسَبْعَةٍ﴾ معطوف على لفظ: ﴿ثَلَٰثَةِ﴾ وقرئ بنصبه، فيكون معطوفاً على محل: ﴿ثَلَٰثَةِ﴾. وقيل: منصوب بفعل محذوف، التقدير: وصوموا سبعة. ﴿إِذَا﴾: ظرف متعلق بـ (صيام) مبني على السكون في محل نصب. ﴿رَجَعْتُمْ﴾: فعل، وفاعل، والجملة الفعلية في محل جرٍّ بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها. ﴿تِلْكَ﴾: اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب، لا محل له. ﴿عَشَرَةٌ﴾: خبر المبتدأ. ﴿كَامِلَةٌ﴾: صفة: ﴿عَشَرَةٌ﴾ صفة مؤكدة، والجملة الاسمية مؤكدة لما قبلها.

﴿ذَٰلِكَ﴾: اسم إشارة مبني على السكون في محل رفع مبتدأ، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب لا محل له. ﴿لِمَن﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ. ﴿لَّمْ﴾: حرف جازم. ﴿يَكُنْ﴾: فعل مضارع ناقص مجزوم بـ ﴿لَّمْ﴾. ﴿أَهْلُهُۥ﴾: اسمه، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿حَاضِرِي﴾: خبر (يكن) منصوب، وعلامة نصبه الياء لأنه جمع مذكر سالم، وحذفت النون للإضافة، وهو مضاف، و﴿ٱلْمَسْجِدِ﴾: مضاف إليه، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿ٱلْحَرَامِ﴾: صفة: ﴿ٱلْمَسْجِدِ﴾. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟...﴾ إلخ: انظر إعراب مثل هذا الكلام في الآية رقم [١٩٤]. و﴿شَدِيدُ﴾: مضاف، و﴿ٱلْعِقَابِ﴾: مضاف إليه من إضافة الصفة المشبهة لفاعله، التقدير: شديدٌ عقابُهُ.

﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٧﴾

الشرح: ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ﴾ وهي: شوال، وذو العقدة، والعشر الأول من ذي الحجة. وهو قول الشافعي رحمه الله تعالى. والقول بصحَّة الإحرام بالحجِّ في جميع السنة هو مذهب مالك، وأبي حنيفة، وأحمد رحمهم الله تعالى. واحتُجَّ لهم بقوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّۗ﴾ فعند الشافعية إذا أحرم بغير أشهر الحج انعقد إحرامه عمرةً.

﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ﴾: بنية الإحرام عند الشَّافعي، وعند أبي حنيفة بالتلبية، وإنَّما سمي شهران، وبعض الشهر أشهراً، إقامةً للبعض مقام الكل، أو إطلاقاً للجمع على ما فوق الواحد، أو هو من باب التغليب.

﴿فَلَا رَفَثَ﴾: المراد به هنا: الجماع، انظر الآية رقم [١٨٧] فإنه جيد. أي: مَنْ أحرم بالحج، أو بالعمرة؛ فليجتنب الجماع، وكذلك يحرم تعاطي دواعيه من المباشرة، والتقبيل، ونحو ذلك، وكذلك التكلم به بحضرة النساء. قال ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: الرفث: إتيان النساء، والتكلم بذلك للرِّجال، والنساء، إذا ذكروا ذلك بأفواههم، ومنه قول المحرم لامرأته: فإذا أحللنا؛ فعلنا بك كذا من غير كناية. وقاله ابن عباس أيضاً، وأنشد وهو محرمٌ: [الرجز]

وَهُنَّ يَمْشِينَ بِنَا هَمِيسَا إنْ تَصْدُقِ الطَّيْرُ نَنِكْ لَمِيسَا

فقال له صاحبه حصين بن قيس: أترفث وأنت محرم؟ فقال: إن الرَّفث ما قيل عند النِّساء. هذا؛ والرَّفث: كلُّ كلام ساقط لا قيمة له، قاله أبو عبيدة، وأنشد قول الشاعر: [الرجز]

وَرُبَّ أَسْرَابِ حَجِيجٍ كُظَّمِ عَنِ اللَّغَا ورَفَثِ التَّكَلُّمِ

﴿وَلَا فُسُوقَ﴾: ولا خروج عن حدود الشَّريعة. وقيل: هو السباب، والتنابز بالألقاب، وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: الفسوق: جميع المعاصي المنهي عنها في حال إحرامه بالحج، أو بالعمرة، ومنه قتل الصيد، وقصُّ الظفر. وقد ثبت عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ حَجَّ هَذَا الْبَيْتَ، فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ خَرجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ**». ورواية الصَّحيحين: «**رَجَعَ كيومَ وَلَدَتْهُ أُمُّه**». ﴿وَلَا جِدَالَ﴾ أي: ولا مماراة، ولا مخاصمة. وهذه الأمور الثلاثة منهي عنها في جميع الحالات، وفي جميع الأوقات، والأمكنة.

وفي حالة الإحرام آكد، وهي في الحج أقبح، صيغته نفي، وحقيقته نهي، أي: لا يرفث... إلخ، وهو أبلغ من النَّهي الصريح، كما هو معروف في فن البلاغة. قال رسول الله ﷺ:

«**مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدىً كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أوتُوا الجَدَلَ**» ثم قرأ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾. رواه الترمذي، وابن ماجه عن أبي هريرة، رضي الله عنه.

﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ أي: لا يخفى عليه شيء من أعمالكم، وهو الذي يجازيكم عليها. حثَّ الله على فعل الخير عقيب النهي عن الشرِّ، وهو أن يستعملوا مكان الرَّفث الكلام الحسن، ومكان الفسوق البرَّ، والتقوى، ومكان الجدال الوفاق، والأخلاق الجميلة. هذا؛ وذكر سبحانه الخير، وإن كان عالماً بجميع أفعال العباد لفائدة، وهي: أنَّه تعالى إذا علم من عبده المؤمن الخير؛ ذكره في الملأ الأعلى، وأشهره، وإذا علم منه الشر؛ أسرَّه، وأخفاه: فإذا كان هذا فعله مع عبده المؤمن في الدنيا؛ فكيف يكون في العقبى، وإذا كان الأمر كذلك؛ فلماذا لا يخجل العبد من ربِّه حين ارتكابه المعصية؛ وهو يوقن: أنَّه يراه، ويعلم ما يفعل.

هذا؛ والإحرام بالحج، والعمرة على ثلاثة أنواع: إفراد، وتمتُّع، وقِران. فصورة الإفراد: أن يحج، ثم بعد فراغه منه يعتمر من أدنى الحلِّ. وصورة التَّمتُّع أن يحرم بالعمرة في أشهر الحجِّ، ويأتي بأعمالها، فإذا فرغ منها أحرم بالحج من مكَّة في تلك السَّنة. وصورة القِران: أن يحرم بالعمرة، والحج في أشهر الحجِّ، فينويهما بقلبه، وكذلك: لو أحرم بالعمرة في أشهر الحج، ثم أدخل عليها الحجَّ قبل أن يفتتح الطواف، فيصير قارناً. واختلفوا في الأفضل: فذهب مالك، والشَّافعي إلى أن الإفراد أفضل، ثم التمتُّع، ثم القِران. وذهب الثوريُّ، وأبو حنيفة إلى أن القران أفضل. وذهب الإمام أحمد، وإسحاق بن راهويه إلى أن التمتُّع أفضل، ولكلٍّ دليله، علماً بأن المفرد بالحج لا يلزمه شيءٌ، وأما القارن، والمتمتع؛ فيلزمهما دم، أو صيام، كما قدَّمته فيما سبق.

﴿وَتَزَوَّدُوا﴾: أمر الله باتخاذ الزاد في سفر الحج. نزلت في أناس من أهل اليمن، كانوا يخرجون للحجِّ من غير زاد، ويقولون: نحن متوكِّلون، ويقولون: نحج بيت ربنا. أفلا يطعمنا؟ فإذا قدموا مكة؛ سألوا الناس، وربما أفضى بهم الحال إلى الغصب، والنهب، والسَّرقة. قال رجل للإمام أحمد ـ رحمه الله تعالى ـ: أريد أن أخرج إلى مكة على التوكُّل بلا زاد. فقال له: اخرج في غير القافلة. فقال: لا، إلا معهم، قال رحمه الله: فعلى جُرُبِ النَّاسِ توكَّلتَ!.

﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ أي: تزودوا ما تتبلَّغون به. وتكفُّون به وجوهكم عن الناس، واتَّقوا إبرامهم، والتثقيل عليهم، وكذلك ما تتقون به من الهلكة، والضياع. وقيل: المعنى تزوَّدوا من العبادة، والطَّاعة، فإن الإنسان لا بدَّ له من سفر في الدنيا، ولا بدّ له من زادٍ، ويحتاج فيه إلى الطَّعام، والشراب... إلخ، ولا بدَّ له من سفرٍ من الدُّنيا إلى الآخرة، ولا بدَّ له من زاد، وهو تقوى الله، والعمل بطاعته، وهذا أفضل من الزاد الأول، فإن زاد الدنيا يوصل إلى مراد الدنيا، وشهواتها، وزاد الآخرة يوصل إلى النعيم المقيم، وفي هذا المعنى يقول الأعشى من قصيدته التي أعدَّها لِمَدْحِ الرسول ﷺ: [الطويل]

إذَا أَنْـتَ لَـمْ تَـرْحَـلْ بِـزَادٍ مِـنَ الـتُّـقَـى وَلاقَـيْـتَ بَـعْـدَ الْـمَـوتِ مَـنْ قَـدْ تَـزَوَّدَا
نَـدِمْـتَ عَـلَـى أَنْ لا تَـكُـونَ مَـكَـانَـهُ وَأَنَّـكَ لَـمْ تَـرْصُـدْ كَـمَـا كَـانَ أَرْصَـدَا

انظر الشاهد رقم [٣٩١] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»، وانظر حياة الأعشى في كتابنا: «فتح الكبير المتعال إعراب المعلقات العشر الطوال» تَجِدْ ما يسرك، ويثلج صدرك.

﴿وَٱتَّقُونِ﴾ أي: خافوا عقابي، واشتغلوا بطاعتي، وتقواي، وفيه تنبيه على كمال الله جل جلاله. ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: يا أصحاب العقول السليمة، والقلوب الفاهمة، وقد خص الله أولي الألباب بالخطاب، وإن كان الأمر يعم جميع الناس؛ لأنهم الذين قامت عليهم الحجَّة، وهم العاملون بأوامر الله، المنتهون عن زواجره. وانظر الآية رقم [١٧] فإنه جيد.

الإعراب: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ﴾: مبتدأ، وخبر، وقال بعضهم: التقدير: الحج حجُّ أشهرٍ معلومات، وقيل: التقدير: وقت الحج. ﴿مَّعْلُومَٰتٌ﴾: صفة ﴿أَشْهُرٌ﴾ والجملة الاسمية مستأنفة، أو مبتدأة لا محل لها. ﴿فَمَن﴾: الفاء: حرف تفريع واستئناف. (مَنْ): اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿فَرَضَ﴾: فعل ماض مبني على الفتح في محل جزم فعل الشرط، والفاعل يعود إلى (مَنْ)، ﴿فِيهِنَّ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، والنون حرف دال على جماعة الإناث. ﴿ٱلْحَجَّ﴾: مفعول به. ﴿فَلَا﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (لا): نافية للجنس تعمل عمل «إنَّ». ﴿رَفَثَ﴾: اسم (لا) مبني على الفتح في محل نصب. ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): صلة لتأكيد النفي في الموضعين. ﴿فُسُوقَ﴾، ﴿جِدَالَ﴾: معطوفان على ﴿رَفَثَ﴾. ﴿فِي ٱلْحَجِّ﴾: متعلقان بمحذوف في محل رفع خبر (لا). هذا وجه للإعراب، ويجوز اعتبار (لا) عاملة في الثلاثة، والجار والمجرور: ﴿فِي ٱلْحَجِّ﴾ متعلقان بمحذوف خبر الأخيرة، وخبر الأولى والثانية محذوف لدلالة خبر الثالثة عليه. هذا؛ وتقرأ الأسماء الثلاثة بالرَّفع، وخرج على وجهين: إهمال (لا)، وإعمالها، فعلى الإهمال فيه أيضاً وجهان: اعتبار الأول مبتدأ، والثاني، والثالث معطوفان عليه، و﴿فِي ٱلْحَجِّ﴾ متعلقان بمحذوف خبره. والوجه الثاني اعتبار الكل مبتدآت، و﴿فِي ٱلْحَجِّ﴾ خبر الثالث، وخبر الثاني والأول محذوفان لدلالة الثالث عليهما، كما يجوز اعتبار: ﴿فِي ٱلْحَجِّ﴾: خبراً للأول، وخبر الثاني، والثالث محذوفان لدلالة خبر الأول عليهما، وعلى إعمال (لا) عمل ليس يجوز أيضاً جميع الاعتبارات التي ذكرتها في إهمالها، كما قرئ برفع الأولين، وتنوينهما، وفتح الأخير، وعلى هذه القراءة يجوز في الأولين ما ذكرته في وجهي إهمال (لا) وإعمالها من الاعتبارات، وتعتبر الأخيرة عاملة عمل «إنَّ» والخبر لها، وخبر الأولين محذوف على جميع الاعتبارات، وخذ قول ابن مالك رحمه الله تعالى في ألفيته: [الرجز]

وَرَكِّـبِ الْـمُـفْـرَدَ فَـاتِـحـاً كَـلَا حَـوْلَ وَلَا قُـوَّةَ والـثَّـانِ اجْـعَـلَا

مَـرْفُـوعـاً أَوْ مَـنْـصُـوبـاً أَوْ مُـرَكَّـبَـاً وَإِنْ رَفَـعْـتَ أَوَّلاً لَا تَـنْـصِـبَـا

انظر مبحث (لا) النافية للجنس في كتابنا: «فتح ربِّ البرية» تجد ما يسرك، ويثلج صدرك. وانظر شرح ابن عقيل أيضاً، وجملة: (لا رفث...) إلخ في محل جزم جواب الشرط، أو هي في محل رفع خبر المبتدأ على اعتبار (مَنْ) اسماً موصولاً، والجملة الاسمية على الاعتبارين معطوفة على الجملة الاسمية السابقة لا محل لها.

﴿وَمَا﴾: الواو: حرف عطف. (ما): اسم موصول مبني على السكون في محل نصب مفعول به مقدم. ﴿تَفْعَلُوا﴾: فعل مضارع فعل الشرط مجزوم، وعلامة جزمه حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾: متعلقان بمحذوف حال من (ما)، و﴿مِنْ﴾ بيان لما أبهم فيها. ﴿يَعْلَمْهُ﴾: فعل مضارع جواب الشرط مجزوم، والهاء مفعول به. ﴿اللَّهُ﴾: فاعله. والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنَّها جملة جواب الشرط، ولم تقترن بالفاء، ولا بإذا الفجائية، والجملة الشرطية معطوفة على ما قبلها لا محلَّ لها مثلها.

﴿وَتَزَوَّدُوا﴾: الواو: حرف عطف، أو حرف استئناف. (تزودوا): فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتَّفريق، والمتعلق محذوف، والجملة الفعلية لا محل لها على الوجهين المعتبرين بالواو. (إنَّ): حرف مشبه بالفعل. ﴿خَيْرَ﴾: اسمها، و﴿خَيْرَ﴾: مضاف، و﴿الزَّادِ﴾: مضاف إليه. ﴿التَّقْوَىٰ﴾: خبر (إنَّ) مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف، والجملة الاسمية تعليل للأمر قبلها، لا محل لها. ﴿وَاتَّقُونِ﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والنون للوقاية، وياء المتكلم المحذوفة مفعول به، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها. (يا): أداة نداء. (أولي): منادى منصوب، وعلامة نصبه الياء نيابة عن الفتحة؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم، وهو مضاف، و﴿الْأَلْبَابِ﴾: مضاف إليه.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (١٩٨)﴾

الشرح: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾: أي: إثم، ومؤاخذة. ﴿أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾: أي: رزقاً، أي: ربحاً بسبب التجارة. وابتغاء الفضل بمعنى التجارة. ورد في قوله تعالى في سورة (الجمعة): ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾. والدليل على صحة هذا ما رواه البخاري عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: كانت عكاظ، ومجنَّة، وذو المجاز أسواقاً في الجاهلية، فتأثَّموا أن يتَّجروا في المواسم، فنزلت الآية الكريمة.

هذا؛ و«عكاظ» نخلٌ في واد بينه وبين الطائف ليلة، وبينه وبين مكة ثلاث ليال. و«ذو المجاز» خلف عرفة. و«مجنة» بمر الظهران، قرب جبل، يقال له: الأصفر، وهو بأسفل مكة على قدر ميلٍ منها. وهذه أسواق للعرب، وكان أهل الجاهلية يصبحون بعكاظ يوم هلال ذي القعدة، ثم يذهبون منه إلى مجنَّة بعد مضي عشرين يوماً من ذي القعدة، فإذا رأوا هلال ذي الحجَّة؛ ذهبوا من مجنَّة إلى ذي المجاز، فلبثوا فيه ثماني ليال، ثم يذهبون إلى عرفة، ولم تزل هذه الأسواق قائمةً في الإسلام إلى أن كان أول ما تُرِكَ منها سوق عكاظ في زمن الخوارج سنة تسع وعشرين ومئة، لمَّا خرج الحروري بمكَّة مع أبي حمزة المختار بن عوف، خاف الناس أن ينتهبوا، فتركت إلى الآن، ثُمَّ ترك ذو المجاز، ومجنَّة بعد ذلك، واستغنوا بالأسواق بمكَّة، وبمنى، وعرفة.

هذا وفي الآية دليل على جواز التجارة في الحج للحاج مع أداء العبادة، وأن القصد إلى ذلك لا يعدُّ شركاً، ولا يخرج به المكلَّف عن اسم الإخلاص المفترض عليه؛ ما لم يكن الباعث على التِّجارة أقوى من الباعث على الحج، فقد روى الدَّارَقُطْنِيُّ في سننه عن أبي أمامة التيمي ـ رضي الله عنه ـ قال: قلت لابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: إنِّي رجل أكري في هذا الوجه، وإن ناساً يقولون: إنه لا حجَّ لك، فقال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فسأله مثل هذا الذي سألتني، فسكت حتى نزلت هذه الآية: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ...﴾ إلخ فقال رسول الله ﷺ: «**إنَّ لَكَ حَجّاً**».

﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم﴾: أي: اندفعتم، يقال: أفاض الإناء: إذا امتلأ؛ حتى ينصبَّ عن نواحيه. ورجل فياض، أي: متدفق بالعطاء. قال زهير بن أبي سلمى في ممدوحه: [الطويل]

وَأَبْيَضَ فَيَّاضٍ يَدَاهُ غَمَامَةٌ عَلَى مُعْتَفِيهِ مَا تُغِبُّ فَوَاضِلُهُ

هذا؛ وفاض: لازم، وأفاض متعدٍّ، تقول: فاض الإناء، وأفضته، أي: ملأته. ﴿مِّنْ عَرَفَٰتٍ﴾: اسم علم سمي بلفظ الجمع كأذرعات في قول امرئ القيس، وهو الشاهد رقم [١٨٨] من كتابنا: «فتح رب البرية» إعراب شواهد جامع الدروس العربية: [الطويل]

تَنَوَّرْتُهَا مِنْ أَذْرِعَاتٍ وَأَهْلُهَا بِيَثْرِبَ أَدْنَى دَارِهَا نَظَرٌ عَالِي

فقد قرئ ﴿عَرَفَٰتٍ﴾ بالتنوين، وهي قراءة الجماعة، والتنوين هنا بمنزلة النون في مسلمين. قال النحاس: هذا الجيد. وحكى سيبويه عن العرب حذف التنوين من عرفات، يقول: هذه عرفاتُ يا هذا، ورأيت عرفاتِ يا هذا، ومررت بعرفاتِ يا هذا، بكسر التاء، وبغير تنوين، قال: لما جعلوها معرفة حذفوا التنوين، وحكى الأخفش، والكوفيُّون فتح التاء تشبيهاً بتاء فاطمة، وطلحة؛ أي: فهو ممنوع من الصرف، وانظر الكلام على بيت امرئ القيس في الكتاب المذكور؛ فإنَّه جيد، والحمد لله!.

هذا؛ وسميت تلك البقعة المقدسة عرفات؛ لأنها وصفت لإبراهيم على نبينا وعليه ألف صلاة وألف سلام، فلما رآها؛ عرفها، وقيل: إنَّ جبريل عليه السلام حين كان يدور به في

المشاعر أراه إيَّاها، فقال: قد عرفت. وقيل: لأنَّ الناس يتعارفون فيها، إذا أوقفوا جميعاً في اليوم التاسع من شهر ذي الحجة، وقيل: لأن آدم ـ عليه السلام ـ لمَّا هبط في الهند، وحواء ـ عليها السلام ـ هبطت بِجُدَّة، فاجتمعا بعد طول الطلب بعرفات يوم عرفة، وتعارفا، فَسُمِّيَ اليوم: عرفة، والموضع: عرفات. والله أعلم بحقيقة ذلك. والظاهر أنَّ اسمه مرتجل كسائر أسماء البقاع. وعرفة هي نعمان الأراك، وفيها يقول الشاعر: [الطويل]

تَزَوَّدْتُ مِنْ نَعْمَانَ عُوْدَ أَرَاكَةٍ لِهِنْدٍ، وَلَكِنْ مَنْ يُبَلِّغُهُ هِنْدَا

وقيل: مأخوذ اسمها من الْعَرْفِ، وهو الطِّيب. قال تعالى في سورة محمد ﷺ: ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ أي: طيَّبها؛ بخلاف «مِنَى» التي فيها الفروث، والدِّماء. هذا؛ والوقوف بعرفات هو الرُّكن الهامُّ في الحج، قال الرسول ﷺ: «**الْحَجُّ عرفةُ، فمنْ أَدْرَكَ عَرَفَةَ فَقَدْ أَدْرَكَ الْحجَّ**». ووقت الوقوف بعرفة من زوال الشَّمس يوم التاسع إلى طلوع الفجر صباح العيد. وانفرد الإمام أحمد ـ رحمه الله تعالى ـ بجواز الوقوف مِنْ أوَّل يوم عرفة، وحديث عروة بن مضرِّس ـ رضي الله عنه ـ مشهور مسطور، والجمع بين الليل، والنهار في موقف عرفة سنة عند الشَّافعي، وواجب عند أبي حنيفة ولازم عند مالك، وأحمد. يقول بقول الشافعي، والأحسن والأفضل الجمع بين اللَّيل والنهار للتَّوفيق بين جميع المذاهب، وعليه العمل الآن، فلا يدفع أحدٌ من عرفة إلا بعد غروب الشمس. هذا؛ وتُصَلَّى صلاة العصر مع الظُّهر في يوم عرفة جمع تقديم مع القصر. هذا؛ وعرفة كلُّها موقف إلا بطن عُرَنَة، فمن وقف فيه، واقتصر عليه؛ فلا يصحُّ حجُّه.

﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾: أي: بالدعاء، والتلبية، والتهليل، والتكبير. ﴿عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾: جبل صغير في المزدلفة، يقال له: قُزَح. والمشعر: المعلم؛ لأنه معلم للعبادة، وصف بالحرام لحرمته، وتعظيمه، وسميت تلك الأرض: المزدلفة، وجمعاً؛ لأن آدم اجتمع فيها مع حواء، وازدلف إليها؛ أي: ودنا منها. أو لأن الحاج يجمع فيها بين صلاتي المغرب، والعشاء جمع تأخير مع قصر العشاء فقط، أو لأن الناس يزدلفون فيها إلى الله، يتقرَّبون بالوقوف، والدُّعاء فيها. والمبيت بمزدلفة يدخل وقته بنصف ليلة العيد إلى طلوع الفجر، وليس ركناً من أركان الحج، فمن فاته الوقوف فيه يذبح شاة، انظر الدماء في الآية رقم [١٩٦]. ومزدلفة كلها موقف إلا بطن مُحَسِّر؛ قال رسول الله ﷺ: «**عرفَةُ كلُّهَا مَوْقِفٌ، وارتفِعُوا عن بَطْنِ عُرَنَةَ، والمزدلفة كُلُّهَا مَوْقِفٌ، وارْتَفِعُوا عنْ بطنِ مُحَسِّرٍ**». أخرجه مالك في موطَّئه.

﴿وَاذْكُرُوهُ﴾: بالدعاء والتلبية... إلخ. ﴿كَمَا هَدَاكُمْ﴾: أي: لهدايتكم، أو لهدايته إيَّاكم، إلى الخير، والأعمال الصَّالحة. ففيه تنبيه لهم على ما أنعم الله به عليهم من الهداية، والبيان، والإرشاد إلى مشاعر الحجِّ، على ما كان عليه من الهداية لإبراهيم الخليل، على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام، ولهذا قال: ﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾ أي: من

قبل البيان والهدى، أو من قبل القرآن، أو من قبل الرسول ﷺ والكل متقارب، ومتلازم، وصحيح المعنى.

خاتمة: يوم عرفة فضله عظيم، وثوابه جسيم، يكفِّر الله فيه الذنوب العظام، ويضاعف فيه الصَّالح من الأعمال. روى مسلم ـ رحمه الله تعالى ـ عن أبي قتادة ـ رضي الله عنه ـ قال: سئل رسول الله ﷺ عن صوم يوم عرفة، فقال: «**يُكَفِّرُ ذنوبَ السَّنَةِ الماضِيةِ، وَالْقَابِلَةِ**». وفي روايةٍ: «**أَحْتَسِبُ عَلَى اللهِ أَنْ يُكَفِّر... إلخ**».

وقال ﷺ: «**أفضلُ الدعاءِ دعاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَأَفْضلُ ما قلتُ أَنَا، والنَّبيُّون مِنْ قَبْلِي: لَا إِلٰه إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ، لا شَرِيكَ لَهُ**».

وروى الدَّارقُطْنِيُّ ـ رحمه الله تعالى ـ عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: أَنَّ رسول الله ﷺ قال: «**مَا مِنْ يَوْمٍ أَكْثَرَ أَنْ يُعْتِقَ اللهُ فِيهِ عَدَداً مِنَ النَّارِ مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَإِنَّهُ لَيَدْنُو عزَّ وجلَّ، ثُمَّ يباهي بِهِمُ الملائكةَ، يَقولُ: مَا أَرَادَ هَؤلَاءِ؟**».

وفي الموطأ عن عُبيد الله بن كُرَيْز ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول الله ﷺ قال: «**مَا رُئِيَ الشيطَانُ يَوْماً هُوَ فِيهِ أَصغرُ، ولَا أَدحرُ، وَلَا أحقرُ، ولَا أَغْيظُ مِنْهُ فِي يَوْمِ عَرَفَةَ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِمَا رأى مِنْ تَنَزُّلِ الرَّحْمةِ، وَتَجَاوُزِ اللهِ عنِ الذُّنُوبِ الْعِظَامِ؛ إِلَّا مَا أُرِيَ يَوْمَ بَدْرٍ**» قيل: وما رأى يوم بدر يا رسول الله؟! قال: «**أَمَا إِنَّهُ قد رَأَى جِبْرِيلَ يَزَعُ الْمَلَائِكَةَ**». أي: يصفُّهم، ويسويهم، ويهيِّئهم للحرب.

ولقد تبسم رسول الله ﷺ لما أصبح بالمزدلفة، فقال له أبو بكر، وعمر ـ رضي الله عنهما ـ: إنَّ هذه لساعة ما كنت تضحك فيها، فما الذي أضحكك؟ أضحك الله سنَّك! قال: «**إِنَّ عَدُوَّ اللهَ، إِبْلِيسَ لَمَّا عَلِمَ أَنَّ اللهَ قَد استجابَ لِي دَعْوَتي، وَغَفَرَ لأُمَّتِي؛ أَخَذَ الترابَ، فجعلَ يَحْثُوه عَلَى رَأْسِهِ، وَيَدْعُو بِالوَيْلِ وَالثُّبور، فأَضْحَكَنِي مَا رَأَيْتُ مِنْ جَزَعِهِ**».

هذا؛ وحديث عروة بن مُضَرِّسٍ الطائي ـ رضي الله عنه ـ قال: أتيت رسول الله ﷺ بالمزدلفة حين خرج إلى الصلاة، فقلت: يا رسول الله! إنِّي جئت من جبل طيِّئٍ، فأكْلَلْتُ راحلتي، وأتعبت نفسي، والله ما تركت من جبل إلا وقفت عليه! فهل لي من حجٍّ يا رسول الله؟! فقال رسول الله ﷺ: «**مَنْ صَلَّى مَعَنا صَلَاةَ الغَدَاةِ بِجَمْعٍ، وَقَدْ أَتَى عَرَفَاتَ قَبْلَ ذَلِكَ لَيْلاً، أَوْ نَهَاراً؛ فَقَدْ قَضَى تَفَثَهُ، وَتَمَّ حَجُّهُ**». أخرجه غير واحد من الأئمَّة، منهم: أبو داود، والنَّسائيُّ، وأحمد، والدَّارقطنيُّ، وقال الترمذيُّ: حديثٌ حسنٌ صحيح.

الإعراب: ﴿لَيْسَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر ﴿لَيْسَ﴾ تقدَّم على اسمها. ﴿جُنَاحٌ﴾: اسمها مؤخَّر، ﴿أَن﴾: حرف مصدري، ونصب. ﴿تَبْتَغُواْ﴾: فعل مضارع منصوب بـ ﴿أَن﴾ وعلامة نصبه حذف النون... إلخ، والواو فاعله، والألف للتفريق، و﴿أَن﴾ والفعل: ﴿تَبْتَغُواْ﴾ في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر

محذوف، التقدير: في ابتغاء فضله، والجار، والمجرور متعلِّقان بـ ﴿جُنَاحٌ﴾ أو بمحذوف صفة له. وقال القرطبيُّ ـ رحمه الله تعالى ـ: المصدر المؤول في محل نصب خبر: ﴿لَيْسَ﴾، وقدَّر: في أن تبتغوا، وسكت عن تعليق: ﴿عَلَيْكُمْ﴾ وهو ضعيفٌ، والمعتمد ما قدَّمته، وهو ما جريت عليه في مثل ذلك في سورة (النساء) وسورة (النور) وغيرهما، والله الموفق، والمعين، وبه أستعين. ﴿فَضْلًا﴾: مفعول به. ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾: متعلقان بـ: ﴿فَضْلًا﴾ أو بمحذوف صفة له، وجوز تعليقهما بالفعل قبلهما، وهو ضعيف، والكاف في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه، وجملة: ﴿لَيْسَ...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها.

﴿فَإِذَآ﴾: الفاء: حرف عطف. (إذا): ظرف لما يستقبل من الزمان، خافض لشرطه، منصوب بجوابه، صالح لغير ذلك مبني على السكون في محل نصب. ﴿أَفَضْتُم﴾: فعل وفاعل، ومفعول محذوف، التقدير: أفضتم أنفسكم، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة (إذا) إليها على المشهور المرجوح. ﴿مِّنْ عَرَفَٰتٍ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿فَاذْكُرُوا۟﴾: الفاء: واقعة في جواب (إذا). (اذكروا): فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية جواب (إذا) لا محل لها. ﴿ٱللَّهَ﴾: منصوب على التعظيم. ﴿عِندَ﴾: ظرف مكان متعلق بالفعل قبله. و﴿عِندَ﴾: مضاف، و﴿ٱلْمَشْعَرِ﴾ مضاف إليه. ﴿ٱلْحَرَامِ﴾: صفة له، و(إذا) ومدخولها كلام معطوف على ما قبله، أو هو مستأنف، لا محل له على الاعتبارين، وجملة: (اذكروه): معطوفة على جواب (إذا) ومؤكدة له توكيداً لفظيّاً.

﴿كَمَا﴾: الكاف: حرف تشبيه، وجر، وقيل: الكاف للتعليل، قيل: هي بمعنى: «على» وقيل: هي كافة لـ (ما) وليس بشيء. (ما): مصدرية. ﴿هَدَىٰكُمْ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف للتعذر، والفاعل يعود إلى ﴿ٱللَّهَ﴾ والكاف مفعول به، و(ما) والفعل: (هدى) في تأويل مصدر في محل جر بالكاف، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف صفة لمصدر محذوف، التقدير: اذكروا الله ذكراً مشابهاً لهدايتكم. وقيل: متعلقان بمحذوف حال من الفاعل، التقدير: اذكروه مشبهين لكم حين هداكم، وعلى اعتبار الكاف للتعليل، أو بمعنى «على» فالجار والمجرور متعلقان بالفعل قبلهما.

﴿وَإِن﴾: الواو: واو الحال. (إن): مخففة من الثقيلة مهملة، وقيل: هي نافية، وقيل: هي بمعنى «قد»، ﴿كُنتُم﴾: فعل ماض ناقص، مبني على السكون، والتاء اسمه. ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾: متعلقان بمحذوف، يدل عليه ما بعده، التقدير: ضالِّين مِنْ قبله، ولا يجوز تعليقهما بما بعدهما؛ لأنَّ ما بعد «أل» الموصولة، لا يعمل فيما قبلها، إلا على رأي من يتوسع في الظرف، والجار والمجرور. ﴿لَمِنَ﴾: اللام: هي الفارقة بين المخفَّفة، والنافية، وهي بمعنى «إلا» عند الكوفيين، وصلة على اعتبار (إن) بمعنى «قد». (من الضَّالين): متعلقان بمحذوف خبر (كان)، وجملة: (إن كنتم. . .) إلخ في محل نصب حال من واو الجماعة، والرابط الواو، والضمير.

﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٩٩﴾

الشرح: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ...﴾ إلخ: الخطاب لقريش الْمُسَمَّوْن في الجاهلية الْحُمْس، فإنهم كانوا لا يقفون مع الناس بعرفات، بل كانوا يقفون بالمزدلفة، وهي من الحرم، وكانوا يقولون: نحن قطين الله، فينبغي لنا أن نعظِّم الحرم، ولا نعظم شيئاً من الحل، وكانوا مع معرفتهم، وإقرارهم: أنَّ عرفة موقف إبراهيم ـ على نبينا، وعليه ألف صلاة وألف سلام ـ لا يخرجون من الحرم، ويقفون بـ «جَمْع» ويفيضون منه، ويقف الناس بـ «عرفة» فقيل لهم: أفيضوا مع الناس. وقال الضحاك ـ رحمه الله تعالى ـ: المخاطب بالآية جميع الأمَّة، والمراد بالناس: إبراهيم عليه السلام، كما قال تعالى في سورة (آل عمران) رقم [١٧٣]: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ﴾ فالمراد بالناس الأولى: شخص واحد. انظر الآية هناك، فإنَّه جيد، والحمد لله!.

فلمَّا جاء الإسلام أمر الله نبيه ﷺ أن يأتي عرفة، فيقف بها، ثم يفيض منها، فذلك قوله تعالى: ﴿مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ والمراد بالإفاضة هاهنا الإفاضة من المزدلفة إلى منى لرمي الجمار، وهذا بعد الإفاضة مِنْ عرفة، ويحتمل أن يكون المراد: ثمَّ أفيضوا من عرفة... إلخ. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

هذا؛ وقرئ: (مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسِ) بكسر السين، يريد آدم، على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام، وهي صفة غلبت عليه، كالعباس، والحارث، ودلَّ عليه قوله تعالى في سورة (طه): ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾. ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ﴾: اطلبوا منه المغفرة. والسين، والتاء للطلب، وذلك لمخالفتكم في الموقف، ونحو ذلك ممَّا كنتم تفعلونه في جاهليتكم، أو من تقصيركم في أعمال الحجِّ. هذا؛ و«استغفر» يتعدَّى لاثنين، أولهما بنفسه، والثاني بـ «مِنْ» نحو: استغفرت الله من ذنبي، وقد يحذف حرف الجر، كقول الشاعر، وهو الشاهد رقم [٤٨٦] من كتابنا: «فتح رب البرية»: [البسيط]

أَسْتَغْفِرُ اللهَ ذنباً لَسْتُ مُحْصِيَهُ ... رَبَّ الْعِبَادِ إِلَيْهِ الْوَجْهُ وَالْعَمَلُ

فائدة: كثيراً ما يأمر الله بذكره بعد قضاء العبادات، كما في هذه الآية؛ حيث أمر بالاستغفار بعد الوقوف بعرفة، والإفاضة منها، وقد ثبت في صحيح مسلم: أنَّ رسول الله ﷺ كان إذا فرغ من الصلاة يستغفر ثلاثاً، وفي الصَّحيحين: أنَّه ندب إلى التسبيح، والتحميد، والتكبير ثلاثاً وثلاثين بعد كلِّ صلاة، وقد روى ابن جرير ـ رحمه الله تعالى ـ استغفاره ﷺ لأمته عشية عرفة. وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: أن أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ قال: يا رسول الله! علِّمني دعاءً أدعو به في صلاتي فقال: «**قُل: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي**

ظُلماً كثيراً، ولا يَغْفِرُ الذُّنوبَ إلَّا أنْتَ، فاغْفِرْ لِي مغفرةً مِنْ عِندِكَ، وَارْحَمْني إنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحيم». وطلب الاستغفار بعد أداء العبادات لأمرين: أولهما: لعلَّه يحصل تقصير في أداء العبادات، أو يحصل خلل فيها، ولا يعلم العبد، والأمر الثاني: أنَّ طلب المغفرة بعد أداء العبادة يكون أرجى للقبول، وأبلغ في وصول المأمول.

علماً بأنَّ الرسول ﷺ ـ وجزاه الله عنا خير الجزاء ـ قد حثَّنا على الاستغفار في جميع الحالات، وفي جميع الأوقات، فعن شداد بن أوس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«سيِّدُ الاستغفارِ أَنْ يَقولَ الْعَبْدُ: اللَّهمَّ أَنْتَ رَبي لَا إلهَ إلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَني، وأنا عبْدُك، وأنا عَلَى عهدِكَ، ووعدِكَ ما اسْتَطَعْتُ، أعُوذُ بكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أبوءُ لكَ بنعمتِكَ عَلَيَّ، وَأَبوءُ بِذَنْبي، فَاغْفِرْ لي، فَإنَّه لا يغفرُ الذنوبَ إلا أَنْتَ. مَنْ قَالَهَا في ليلةٍ، فماتَ في ليلتِهِ؛ دَخَلَ الجنَّةَ، وَمَنْ قَالَهَا في يَوْمِهِ، فَمَاتَ؛ دَخَلَ الجنَّةَ»**. رواه البخاري، والنَّسائي، والترمذي. وليس لشداد في البخاريِّ غير هذا الحديث.

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ لَزِمَ الاستغفارَ؛ جعلَ اللهُ لَهُ مِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجاً، وَمِنْ كُلِّ ضِيْقٍ مَخْرجاً، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ»**. رواه أبو داود، والنَّسائي، وابن ماجه، والحاكم، والبيهقي.

وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى دَائِكُمْ، وَدَوائِكُم؟ أَلَا إنَّ دَاءَكُمُ الذُّنوبُ، وَدَوَاءَكُمُ الاستِغْفَارُ»**. رواه البيهقي، وغير ذلك كثير. انظر الترغيب، والتَّرهيب للحافظ المنذري.

الإعراب: ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿أَفِيضُواْ﴾: فعل أمر، وفاعله، والألف للتَّفريق، والمفعول محذوف، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محلَّ لها أيضاً. ﴿مِنْ﴾: حرف جر. ﴿حَيْثُ﴾: اسم مبني على الضم في محل جر بـ ﴿مِنْ﴾ والجار والمجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾: ماض، وفاعله، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة: ﴿حَيْثُ﴾ إليها، وجملة: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۚ﴾ معطوفة على ما قبلها، لا محل لها أيضاً، والجملة الاسمية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ...﴾ إلخ تعليل للأمر، لا محل لها.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًاۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۝٢٠٠﴾

الشرح: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم...﴾ إلخ: أديتم أعمال حجِّكم من الوقوف بعرفة، والمبيت بالمزدلفة، ورمي جمرة العقبة، والطواف بالكعبة، والحَلْق، وانتهيتم من ذلك. وانظر شرح

﴿قَضَىٰ﴾ في الآية رقم [١١٧]. هذا؛ ومناسك: جمع منسَك بفتح السين، وكسرها، وهو مصدر ميمي، أو اسم مكان، والأول أرجح، وانظر الآية رقم [١٢٨]. ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بالتسبيح، والتحميد، والتهليل، والتكبير، والتقديس، والتعظيم. ﴿كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ﴾: اختلف في معناه، فقال عطاء: هو كما يلهج الصَّبيُّ بذكر أبيه، وأمِّه، فكذلك أنتم الْهَجُوا بذكر الله بعد قضاء النُّسك. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كان أهل الجاهلية يقفون في الموسم، فيقول الرجل منهم: كان أبي يُطعم، ويحمل الحَمَالات، ويتحمَّل الدِّيات، ليس لهم ذكر غير فعال آبائهم، فأنزل الله على محمَّد ﷺ الآية. وقولٌ آخر لابن عباس: هو أن تغضب لله تعالى؛ إذا عُصي أشدَّ من غضبك لوالديك إذا شُتما. و﴿أَوْ﴾: للتخيير، والإباحة.

﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ...﴾ إلخ قال ابن عبَّاس ـ رضي الله عنهما ـ: كان قومٌ من الأعراب يجيئون إلى الموقف، فيقولون: اللهم اجعله عام غيث، وعام خصب، وعام ولادٍ حسن، لا يذكرون من أمر الآخرة شيئاً، فأنزل الله فيهم الآية. انتهى. والسبب في ذلك: أنَّهم كانوا لا يعرفون الآخرة، ولا يؤمنون بها، فنهوا عن ذلك الدُّعاء المخصوص بأمر الدنيا، وجاء النهي في صيغة الخبر عنهم، ويجوز أن يتناول هذا الوعيد المؤمن إذا قصر دعواته في الدنيا، على هذا. ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ﴾ أي: كخلاق الذي يسأل الآخرة. والخلاق: الحظ، والنصيب.

الإعراب: ﴿فَإِذَا﴾: الفاء: حرف استئناف. (إذا): انظر الآية السابقة. ﴿قَضَيْتُم﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة (إذا) إليها على المشهور المرجوح. ﴿مَّنَـٰسِكَكُمْ﴾: مفعول به، والكاف في محل جر بالإضافة، وهناك مضاف محذوف، انظر تقديره في الشَّرح. ﴿فَٱذْكُرُوا۟﴾: الفاء: واقعة في جواب (إذا). (اذكروا): فعل أمر، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية جواب (إذا) لا محل لها، و(إذا) ومدخولها كلام مستأنف لا محل له. ﴿ٱللَّهَ﴾: منصوب على التعظيم. ﴿كَذِكْرِكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لمفعول مطلق محذوف، التقدير: اذكروا الله ذكراً مشابهاً لذكر آبائكم، أو هما متعلقان بمحذوف حال من واو الجماعة، التقدير: اذكروا الله مشبهين لكم حين ذكركم آباءكم، والكاف في محل جر بالإضافة، مِنْ إضافة المصدر لفاعله. ﴿ءَابَآءَكُمْ﴾: مفعول به للمصدر، والكاف في محل جر بالإضافة، والميم في الجميع حرف دال على جماعة الذكور. ﴿أَوْ﴾: حرف عطف. ﴿أَشَدَّ﴾: معطوف على (ذكر) المجرور، فهو مجرور مثله، وعلامة جره الفتحة نيابة عن الكسرة؛ لأنه ممنوع من الصرف للصفة، ووزن أفعل، أو هو معطوف على الكاف المضاف إليه، وذلك على اللفظ، فهو مجرور أيضاً، أو هو معطوف على: ﴿ءَابَآءَكُمْ﴾ فهو منصوب، أو هو منصوب بمضمر دل عليه المعنى؛ تقديره: أو كونوا أشدَّ. انتهى. بيضاوي،

وعكبري بتصرف. وعلى هذا فـ ﴿ذِكۡرٗاۗ﴾: تمييز. وقال الجلال، وتبعه الجمل: ونصب ﴿أَشَدَّ﴾ على الحال من (ذكراً) المنصوب بـ (اذكروا) إذ لو تأخر عنه؛ لكان صفةً له، وتفسيره: أنَّ (أشدَّ) حال ممَّا بعده، كان صفة له، فلما تقدَّم عليه؛ صار حالاً على القاعدة: «نعت النكرة إذا تقدَّم عليها؛ صار حالاً»، وعلى هذا فـ (ذكراً) مفعول مطلق للفعل: (اذكروا) وهو قول أبي حيَّان أيضاً، ولم يرتضه ابن هشام في المعنى.

﴿فَمِنَ﴾: الفاء: حرف تفريع، واستئناف. (من الناس): متعلقان بمحذوف خبر مقدم. ﴿مَن﴾: اسم موصول، أو نكرة موصوفة مبنية على السكون في محل رفع مبتدأ مؤخر. ﴿يَقُولُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى: ﴿مَن﴾ والجملة صلتها، أو صفتها. هذا هو الإعراب الظاهر في مثل ذلك، ولا أعتمده، وإنَّما أعتمد ما ذكرته في الآية رقم [٨]. ﴿رَبَّنَآ﴾: منادى، حذف حرف النداء، و(نا): ضمير متصل في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿ءَاتِنَا﴾: فعل دعاء مبني على حذف حرف العلة من آخره، وهو الياء، والكسرة قبلها دليل عليها، والفاعل مستتر تقديره: أنت، و(نا): مفعول به أول، والمفعول الثاني محذوف. انظر الشرح، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول كالجملة الندائية قبلها. ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا﴾: متعلقان بالفعل قبلهما والجملة الاسمية: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها.

﴿وَمَا﴾: الواو: واو الحال. ﴿لَهُۥ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم. ﴿فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾: متعلقان بالخبر المحذوف، أو هما مِنْ تعدُّد الخبر، أو هما متعلقان بمحذوف حال من الضمير المستتر في الخبر المحذوف. ﴿مِنۡ﴾: حرف جر صلة. ﴿خَلَٰقٖ﴾: مبتدأ مؤخر مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد، والجملة الاسمية: ﴿وَمَا لَهُۥ...﴾ إلخ في محل نصب حال من فاعل: ﴿يَقُولُ﴾ المستتر، والرابط: الواو، والضمير.

﴿وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٢٠١﴾

الشرح: ﴿وَمِنۡهُم مَّن...﴾ إلخ: هذا فريق غير الفريق الأول، الَّذي طلب الدنيا، ومتاعها، وملذاتها، وشهواتها. ﴿وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ﴾ لأنَّ همَّه مقصور على الدُّنيا؛ لأنه لا يؤمن بالآخرة. وأمَّا هذا الفريق، فإنَّه يطلب الصحة، والكفاف من الرزق، والتوفيق لعمل الخير في الدُّنيا، ويطلب الأجر، والثواب في الآخرة، كما يطلب الوقاية من النَّار، وذلك بالحفظ من المعاصي، والذنوب المؤدية إلى النَّار.

فقد جمعت الدعوة في هذه الآية كلَّ خير في الدنيا، وصرفت كل شرٍّ، فإن الحسنة في الدنيا تشمل كلَّ مطلوب دنيوي من عافيةٍ، ودارٍ رحبة، وزوجةٍ صالحة، ورزقٍ واسعٍ، وعلمٍ نافعٍ، وعملٍ صالحٍ، ومركب هنيءٍ، وجارٍ صالحٍ، وثناءٍ جميلٍ، وغير ذلك، وأما الحسنة في الآخرة؛ فأعلى ذلك دخول الجنَّة، وما فيها من النعيم المقيم، والأمن من الفزع الأكبر في عَرصاتِ القيامة، وتيسير الحساب، وغير ذلك من الأمور الآخرة الصَّالحة. وأما النَّجاة من النَّار؛ فهو يقتضي تيسير أسبابه في الدُّنيا، من اجتناب المحارم، والمآثم، وترك الشُّبهات وأكل الحرام.

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أن النبي ﷺ، قال: «**أَرْبَعٌ مَنْ أُعْطِيهُنَّ؛ فَقَدْ أُعْطِيَ خَيْرَي الدُّنْيَا والآخِرَةِ: قَلْبَاً شاكِراً، ولِسَاناً ذاكراً، وبَدَناً على الْبَلاَءِ صَابِراً، وزَوْجةً لاَتَبْغِيهِ حُوباً في نفسِهَا، وَمَالِهِ**». رواه الطَّبراني بإسنادٍ جيد.

ولهذا وردت السنة بالتَّرغيب بالدُّعاء في هذه الآية، فقال البخاريُّ ـ رحمه الله تعالى ـ عن أنسٍ ـ رضي الله عنه ـ: كان النبي ﷺ يقول: «**اللَّهُمَّ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**»، وكان أنس ـ رضي الله عنه ـ إذا أراد أن يدعو بدعوة؛ دعا بها، وإذا أراد أنْ يدعو بدعاء؛ دعا بها فيه.

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: إنَّ عند الرُّكن اليماني مَلَكاً قائماً منذ خلق الله السَّمواتِ والأرض، يقول: آمين، فقولوا: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا...﴾ إلخ. وسئل عطاء بن أبي رباح عن الركن اليماني، وهو يطوف بالبيت، فقال: حدثني أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ النبي ﷺ قال: «**وكِّلَ بِهِ سَبْعُونَ مَلَكاً، فَمَنْ قَالَ: اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَفْوَ والعافيةَ في الدُّنيا والآخِرَةِ، رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وفي الآخرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ؛ قالوا: آمين**». أخرجه ابن ماجه في السُّنن.

بعد هذا؛ فـ (قنا) من الوقاية، وهي التَّحرُّز من المهالك في الدنيا، والآخرة، فهو فعل دعاء، وصيغته صيغة أمر، فهو مِنْ: وقى، يقي اللفيف المفروق، فتحذف فاؤه من المضارع مثل كلِّ فعل مثال، مثل: وَعَدَ، يعدُ، و: وزنَ، يَزِنُ... إلخ، والأمر منه: أوْقِنَا، حذفت منه الواو، كما حذفت من مضارعه، واستُغني عن همزة الوصل لتحرك الحرف المبدوء به، وتحذف لامه مع فائه لبنائه على حذف حرف العلَّة، مثل كل فعل ناقص معتل الآخر، مثل: اسعَ، وادعُ، وارمِ، فيبقى فعل الأمر باللفظ حرفاً واحداً (قِ) ومثله: وَعَى، يَعي، عِ، وَوَفَى، يَفِي، فِ، وولي، يلي، لِ، ووطى، يطي، طِ. وإذا لم يتصل به ضمير؛ تلحقه هاء السكت، فتقول: فِهْ، قِهْ، لِهْ عِهْ، طِهْ، وبه يلغز، فيقال: [الرجز]

فــي أَيِّ لَــفْــظٍ يَــا نُــحَــاةَ الْــمِــلَّــهْ حَــرَكَــةٌ قَــامَــتْ مَــقَــامَ الْــجُــمْــلَــهْ؟

الإعراب: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾: انظر إعراب هذا الكلام في الآية السابقة. ﴿فِي ٱلدُّنْيَا﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، أو هما متعلقان بمحذوف حال من:

﴿حَسَنَةً﴾ كان صفة له، فلما قدم عليه صار حالاً . . . إلخ. ﴿وَفِي ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً﴾: معطوف على ما قبله عطف مفردات، أو هو على تقدير فعل محذوف، فيحصل جملة تعطف على ما قبلها. (قنا): فعل دعاء مبني على حذف حرف العلة من آخره، هو الياء، والكسرة قبلها دليل عليها، والفاعل مستتر تقديره: أنت. و(نا) مفعول به أول. ﴿عَذَابَ﴾: مفعول به ثان، وهو مضاف، و﴿ٱلنَّارِ﴾ مضاف إليه، وجملة: ﴿وَقِنَا...﴾ إلخ معطوفة على ما قبلها، فهي في محل نصب مقول القول مثلها.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾

الشرح: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: الإشارة إلى الفريقين المذكورين، فللمؤمن الصَّالح ثواب علمه، ودعائه، وللكافر، والفاجر، والفاسق عقاب سوء عمله، وقصر نظره إلى الدُّنيا. وهو مثل قوله تعالى في سورة (الأنعام) رقم [١٣٢]: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۚ﴾. وقيل: يرجع إلى الفريق الثاني فقط، والأول أولى. ﴿لَهُمْ نَصِيبٌ﴾: حظٌّ من الخير، أو من الشرِّ. ﴿مِّمَّا كَسَبُواْۚ﴾: أي: من جنس ما عملوا، إن خيراً؛ فخير، وإن شرّاً؛ فشر، فالفريق الأول يستحق النار، وما فيها من المقت، والنَّكال، والفريق الثاني يستحق الجنَّة، وما فيها من النَّعيم المقيم؛ الذي لا يزول.

﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾: لا يحتاج إلى عدٍّ، ولا إلى عقدٍ، ولا إلى إعمال فكرٍ كما يفعله الحُسَّاب، ولهذا قال تعالى في سورة (الأنبياء): ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ وقال رسول الله ﷺ في دعائه يوم الخندق: «**اللَّهُمَّ مُنَزِّلَ الكِتابِ، سَرِيعَ الْحِسَابِ. . . إلخ**» والمعنى: أنه تعالى لا يشغله شأن عن شأن. فكما يرزقهم في ساعةٍ واحدةٍ؛ يُحاسبهم لذلك في ساعةٍ واحدة، قال تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ رقم [٢٨] من سورة (لقمان)، وقيل للإمام علي ـ رضي الله عنه ـ: كيف يحاسب الله العباد في يوم؟ قال: كما يرزقهم في يوم. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: إذا أخذ في حسابهم؛ لم يَقِل أهل الجنة إلا فيها، ولم يَقِل أهل النار إلا فيها. هذا؛ ويقيل: من القيلولة، وهي الاستراحة وقت الظهيرة، ومعنى الحساب، وفائدته تعريف الله العباد مقادير الجزاء على أعمالهم، وتذكيره إيَّاهم بما قد نسوه؛ بدليل قوله تعالى في سورة (المجادلة): ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ﴾.

هذا؛ وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في تفسير قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ...﴾ إلخ: هو الرَّجل يأخذ مالاً يحجُّ به عن غيره، فيكون له ثواب. وروي عنه في هذه الآية: أن رجلاً قال: يا رسول الله! مات أبي، ولم يحجَّ، أفأحجُّ عنه؟ فقال ﷺ: «**لَوْ كَانَ عَلَى أَبِيكَ دَيْنٌ، فَقَضَيْتَهُ، أَمَا كَانَ ذَلِكَ يَجْزِي؟**» قال: نعم، قال: «**فَدَيْنُ اللهِ أَحَقُّ أَنْ يُقْضَى**». قال: فهل لي من أجر؟ فأنزل الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ...﴾ إلخ، يعني: مَنْ حجَّ عن ميِّتٍ؛ كان الأجر بينه، وبين الميِّت. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

هذا والحاج عن غيره عند الشافعي لا يجوز حتَّى يكون قد قضى الحج عن نفسه أولاً، وعند غيره يجوز أن يحجَّ عن غيره، ولو لم يكن قد أدى فرضه، وقالوا: كلُّ مَنْ لم يراع مصالحه في الدنيا يصحُّ أن ينوب عن غيره في مثلها، فتتم لغيره، وإن لم تتم له لنفسه، ويزوِّج غيره، وإن لم يزوِّج نفسه؛ أي: وإن كان غير متزوِّج.

الإعراب: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾: اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ. والكاف حرف خطاب. ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدَّم. ﴿نَصِيبٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل رفع خبر المبتدأ. هذا؛ وإن اعتبرت الجار والمجرور متعلقين بمحذوف خبر ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ فيكون: ﴿نَصِيبٌ﴾ فاعلاً بمتعلق الجار والمجرور، التقدير: أولئك ثابت لهم نصيب. ﴿مِّمَّا﴾: جار ومجرور متعلقان بـ﴿نَصِيبٌ﴾، أو بمحذوف صفة له، و (ما) تحتمل الموصولة، والموصوفة، والمصدرية. ﴿كَسَبُواْ﴾: ماض، وفاعله، والألف للتفريق، والجملة صلة (ما)، أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف، التقدير: مِنَ الذي، أو مِنْ شيءٍ كسبوه، وعلى اعتبارها مصدرية تؤول مع الفعل بعدها بمصدر في محل جر بـ (مِنْ)، التقدير: نصيبٌ من كسبهم، والجملة الاسمية: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها. (الله): مبتدأ. ﴿سَرِيعُ﴾: خبره، وهو مضاف، و﴿ٱلْحِسَابِ﴾: مضاف إليه، من إضافة الصفة المشبهة لفاعلها؛ إذ التقدير: سريع حسابه، والجملة الاسمية: ﴿وَٱللَّهُ...﴾ إلخ معطوفة على ما قبلها.

﴿۞ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾

الشرح: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾: بالتكبير مع قطع التلبية. ﴿فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ﴾: انظر الآية رقم [١٨٤]. والمراد: التكبير في أدبار الصلوات، وعند ذبح القرابين، وعند رمي الجمار، وغيرها في أيام التشريق، وهي الأيام التي تلي يوم الأضحى، ويبدأ التكبير عقب الصلوات من صبح يوم عرفة، وينتهي بعد صلاة العصر في اليوم الثالث من أيام التَّشريق عند الشَّافعيِّ، وعليه العمل في هذه الأيام. هذا؛ وقد قال تعالى في سورة (الحج) رقم [٢٨]: ﴿وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ فأيام الرَّمي معدودات، وأيام النَّحر معلومات، وروى نافع عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: أنَّ الأيام المعدودات، والأيام المعلومات يجمعها أربعة أيام، يوم النحر، وثلاثة أيام بعده، فيوم النحر معلوم غير معدود، واليومان بعده معلومان معدودان، واليوم الرابع معدود لا معلوم، وإنَّما كان كذلك؛ لأنَّ الأول ليس من الأيام التي تختص بمنى، والأضحية جائزةٌ في يوم النَّحر العيد، وثلاثة بعده، وهذه الأيام لا يجوز صومها لقول الرَّسول ﷺ: «**أَيَّامُ التَّشْرِيقِ أَيَّامُ أَكْلٍ، وَشُرْبٍ، وَذِكرٍ للهِ**» أخرجه مسلم، وأحمد، رحمهما الله تعالى.

﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ أي: نفر مِنْ مِنى إلى مكَّة في اليوم الثاني من أيام التشريق. ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾: فلا مؤاخذة عليه بشرط أن ينفر قبل الغروب، ويرمي فيه بعد الزوال عند الأئمة الثلاثة، إلا أبا حنيفة فإنَّه يجيز الرَّمي قبل الزوال، بخلاف الرمي يوم العيد، فإنَّه يدخل وقته بنصف ليلة النَّحر. ﴿وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أي: تأخر في الخروج من منى إلى اليوم الثالث من أيام التشريق؛ فلا حرج، ولا جناح عليه. وينبغي أن تعلم: أن المبيت بالمزدلفة، وبمنى، والرَّمي في يوم العيد، وفي اليوم الثاني بعده، والثالث: وهو الثاني من أيام التَّشريق واجبٌ، فمن ترك شيئاً من ذلك فعليه دمٌ، انظر ما ذكرته في الدِّماء في الآية رقم [١٩٦]. ﴿لِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ الله في حجِّه بأن قام بشرطه، وأركانه، وواجباته، وآدابه.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ...﴾ إلخ؛ أي: خافوا الله، وأيقنوا: أنكم مجموعون إليه للحساب، والجزاء، فيجازيكم بأعمالكم، إن خيراً؛ فخيرٌ، وإن شرّاً؛ فشرٌّ. هذا؛ وأصل: (اتقى) و(اتقوا) اوْتقى، واوْتقوا، فقلبت الواو تاءً، وأدغمت التاء بالتاء.

تنبيه: يكثر النهي في القرآن الكريم عن العجلة، واستعجال الشيء قبل أوانه، وهذا النهي أكثر ما يوجَّه للكافرين الذين طلبوا استعجال العذاب، وقد يوجه إلى بني آدم جميعاً، وقد توجَّه إلى النبيِّ ﷺ في سورة (طه) رقم [١١٤] وفي سورة (القيامة) أيضاً. بينما حث الله تعالى على المسارعة إلى فعل الطاعات، فقال تعالى في سورة (آل عمران) رقم [١٣٣]: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وقال جل ذكره في سورة (الحديد) رقم [٢١]: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ كما وصف أنبياءه، ورسله بأنهم ﴿كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ في الآية رقم [٩٠] من سورة (الأنبياء) وهذا لا يناقض ما ورد: «**العَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ، والتَّأَنِّي مِنَ الرَّحْمَنِ**». وقال الشاعر: [البسيط]

قَدْ يُدْرِكُ المتأَنِّي بَعْضَ حَاجَتِهِ وَقَدْ يَكُونُ مَعَ الْمُسْتَعْجِلِ الزَّلَلُ

لأن المسارعة إلى الطَّاعات مستثناة من ذلك، كما أنَّ هناك أموراً تسن المبادرة إلى فعلها كأداء الصلاة المكتوبة إذا دخل وقتها، وقضاء الدين بحق الموسر، وتزويج البكر البالغ إذا أتى الكفؤ، ودفن الميت، وإكرام الضيف إذا نزل. وخذ ما يلي: فعن عليٍّ ـ رضي الله عنه، وكرَّم الله وجهه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يَا عَلِيُّ! ثلاثٌ لا تُؤَخِّرْهَا: الصَّلاةُ إِذَا أَتَتْ، وَالْجَنَازَةُ إِذَا حَضَرَتْ، والأَيِّمُ إِذَا وَجَدَتْ كُفْؤاً**». أخرجه الترمذي، وجاء في الشِّعر العربي الحثُّ على العجلة، قال بشار بن برد الأعمى: [البسيط]

مَنْ رَاقَبَ النَّاسَ لَمْ يَظْفَرْ بِحَاجَتِهِ وَفَازَ بِالطَّيِّبَاتِ الفَاتِكُ اللَّهِجُ

واختصره سلم الخاسر، فقال: [مخلّع البسيط]

مَـنْ رَاقَـبَ الـنَّـاسَ مَـاتَ هَـمَّـاً وَفَـازَ بِـالـلَّـذَّةِ الْـجَـسُـورُ

ونسب للأعشى، ولغيره ما يلي: [البسيط]

وَرُبَّـمَـا فَـاتَ قَـومـاً جُـلُّ أَمْـرِهِـمُ مِـنَ الـتَّـأَنِّـي وكَـانَ الْـجَـزْمُ لَـوْ عَـجِـلُـوا

فـ «لو» مصدرية، والتقدير، وكان الحزمُ تعجيلَهم. وقال آخر: [البسيط]

وَرُبَّـمَـا ضَـرَّ بَـعْـضَ الـنَّـاسِ بُـطْـؤُهُـمُ وَكَـانَ خَـيْـراً لَـهُـمْ لَـوْ أَنَّـهُـمْ عَـجِـلُـوا

الإعراب: (اذكروا): فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها لا محل لها مثلها. ﴿ٱللَّهَ﴾: منصوب على التعظيم. ﴿فِيٓ أَيَّامٍ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿مَّعۡدُودَٰتٍۚ﴾: صفة ﴿أَيَّامٍ﴾. ﴿فَمَن﴾: الفاء: حرف عطف وتفريع. (مَنْ): اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿تَعَجَّلَ﴾: فعل ماض مبني على الفتح في محل جزم فعل الشرط، والفاعل يعود إلى (مَنْ). ﴿فِي يَوۡمَيۡنِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، وعلامة الجر الياء نيابة عن الكسرة؛ لأنه مثنى، والنون عوض عن التنوين في الاسم المفرد. ﴿فَلَآ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (لا): نافية للجنس تعمل عمل «إنَّ». ﴿إِثۡمَ﴾: اسم (لا) مبني على الفتح في محل نصب. ﴿عَلَيۡهِ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر (لا) والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور، والدسوقي يقول: لا محل لها؛ لأنها لم تحل محل المفرد. وخبر المبتدأ الذي هو (مَنْ) مختلف فيه، كما ذكرتُ مراراً، والجملة الاسمية: ﴿فَمَن...﴾ إلخ معطوفة على ما قبلها. هذا؛ وإن اعتبرت (مَنْ) اسماً موصولاًفهي مبتدأ، والجملة الفعلية بعدها صلتها، والجملة الاسمية: ﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ﴾: في محل رفع خبرها، وزيدت الفاء في خبرها؛ لأن الموصول يشبه الشرط في العموم.

﴿وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۖ﴾: معطوفة على ما قبلها، وإعرابها مثلها بلا فارق، ومتعلق الفعل: ﴿تَأَخَّرَ﴾ محذوف لدلالة المقام عليه، وانظر الشرح. ﴿لِمَنِ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: الذي ذكر من التأخير، أو من الأحكام لمن اتقى. وقدَّر مكي رحمه الله تعالى: المغفرة لمن اتقى المحرَّمات. وقيل: تقديره: الإباحة في التأخير، والتعجيل لِمَن اتقى. و(مَنْ) تحتمل الموصولة، والموصوفة.

﴿ٱتَّقَىٰۗ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف، والفاعل يعود إلى (مَنْ) والمفعول محذوف، والجملة الفعلية صلة (مَنْ) أو صفتها، والعائد أو الرابط رجوع الفاعل إليها، والجملة الاسمية التي رأيت تقديرها في محل نصب حال مؤكدة لمضمون الكلام السابق برمَّته. ﴿وَٱتَّقُواْ﴾: الواو: حرف عطف. (اتقوا): فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله،

والألف للتفريق. ﴿ٱللَّهَ﴾: منصوب على التعظيم، والجملة الفعلية معطوفة على جملة: (اذكروا...) إلخ لا محل لها مثلها. ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟﴾: أمر، وفاعله. ﴿أَنَّكُمْ﴾: حرف مشبه بالفعل، والكاف اسمه. ﴿إِلَيْهِ﴾: جار ومجرور متعلقان بما بعدهما. ﴿تُحْشَرُونَ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون... إلخ، والواو نائب فاعله، والجملة الفعلية في محل رفع خبر ﴿أَنَّكُمْ﴾، و(أنَّ) واسمها وخبرها في تأويل مصدر في محل نصب سدَّ مسد مفعولي: (اعلموا)، والجملة الفعلية هذه معطوفة على ما قبلها، لا محل لها أيضاً.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾﴾

الشرح: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ﴾: يروقك، ويعظم في نفسك ما يقوله. هذا؛ والعجب ـ بفتح العين، والجيم ـ: انفعال نفساني، يعتري الإنسان عند استعظامه، أو استطرافه، أو استنكاره ما يَرِدُ عليه، ويشاهده. وقال الراغب ـ رحمه الله تعالى ـ: العجب: حيرةٌ تعرض للإنسان بسبب الشيء، وليس هو شيئاً له في ذاته حالة حقيقية، بل هو بحسب الإضافات إلى مَنْ يعرف السبب، ومَنْ لا يعرفه، وحقيقة: أعجبني كذا: ظهر لي ظهوراً لم أعرف سببه، انتهى جمل نقلاً من السَّمين. والعُجْب ـ بضم العين، وسكون الجيم ـ: رؤية النفس، وهو نوع من الكِبْر، وهو من المهلكات، ففي حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ. عن النبي ﷺ: «**وَثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ: شُحٌّ مُطَاعٌ، وَهَوىً مُتَّبَعٌ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ**» رواه البيهقي. وعنه أيضاً: قال رسول الله ﷺ: «**لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا؛ لَخَشِيتُ عَلَيْكُمْ مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْهُ: الْعُجْبُ**». رواه البزار بإسنادٍ جيد.

(يشهد الله): يحلف كذباً، ويشهد الله على أنَّ ما في قلبه موافق لِلسانه؛ أي: يظهر الإيمان بلسانه، ثم يَظْهَرُ منه خلاف ذلك. ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾: شديد الخصومة، والعداوة لك يا محمد، ولصحابتك الكرام. هذا؛ و﴿أَلَدُّ﴾ صفة مشبَّهة، واللَّدَد: شدة الجدال، ورجل ألدُّ، وامرأة لَدَّاء، وهم أهل لَدِدٍ، قال الشاعر: [الكامل]

وَأَلَدُّ ذِي حَنَقٍ عَلَيَّ كَأَنَّمَا ... تَغْلِي عَدَاوَةُ صَدْرِهِ فِي مِرْجَلِ

وقال آخر: [الخفيف]

إِنَّ تَحْتَ التُّرَابِ عَزْماً وَحَزْماً ... وَخَصِيماً أَلَدَّ ذَا مِغْلَاقِ

هذا؛ وقال تعالى في سورة مريم ـ على نبينا، وعليها ألف صلاة، وألف سلام ـ: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾. وقال الرسول ﷺ: «**إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللهِ، الأَلَدُّ الْخَصِمُ**». رواه البخاريُّ، ومسلمٌ، والترمذيُّ، والنَّسائيُّ عن عائشة، رضي الله عنها.

و﴿ٱلۡخِصَامِ﴾: مصدر: خاصم، يخاصم، وقال الخليل، رحمه الله تعالى، وقال الزجاج: هو جمع: خصم، كصعب، وصعاب، وضخم، وضخام. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**كَفَى بِكَ إِثْماً أَنْ لَا تَزَالَ مُخَاصِماً**». رواه الترمذي، رحمه الله تعالى. وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدىً كانُوا عَلَيْهِ؛ إِلَّا أُوتُوا الْجَدَلَ، ثُمَّ قرأَ**: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢا بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ﴾». رواه الترمذي، وابن ماجه.

تنبيه: نزلت الآية الكريمة، والتي بعدها في الأخنس بن شُرَيق الثقفي، واسمه أُبَيٌّ، والأخنس لقب لُقِّب به؛ لأنه خنس يوم بدر بثلاثمئة رجل من حلفائه من بني زهرة عن قتال رسول الله ﷺ، كما ستعرفه في سورة (آل عمران) كان منافقاً حسن المنظر، حلو الكلام للنبي ﷺ فجاء بعد ذلك، فأظهر الإسلام، وقال: الله يعلم أنه صادق، ويحلف بالله: أنه مؤمن برسالته، ومحبٌّ له، وكان الرسول ﷺ يقرِّبه، ويدني مجلسه، ولكن الله تعالى قد كذَّبه في دعواه، فقد مرَّ بزرع، وحمر لبعض المسلمين، فأحرقه، وأحرقها، كما بينت الآية التالية. وهذا وأمثاله من المنافقين، والكذابين يطلق عليهم في عرف الشَّرع الإسلامي: أصحاب الوجهين، واللِّسانين، وما أكثرهم في هذا الزمن! وخذ ما يلي:

عن سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ذُو الْوَجْهَيْنِ فِي الدُّنْيَا، يَأْتِي يَوْمَ الْقِيامَةِ؛ وَلَهُ وَجْهَانِ مِنْ نَار**». رواه الطبرانيُّ في الأوسط. وعن عمار بن ياسر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ كَانَ لَهُ وَجْهَانِ في الدُّنيَا؛ كَانَ لهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِسَانَانِ مِنْ نارٍ**». رواه أبو داود، وابن حبان. وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ كَانَ ذَا لِسَانَيْنِ؛ جَعَلَ اللهُ لهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِسَانَيْنِ مِنْ نارٍ**». رواه الطبرانيُّ، وغيره. ورحم الله صالح بن عبد القدُّوس؛ إذ يقول: [الكامل]

لَا خَيْرَ فِي وُدِّ امْرِئٍ مُتَقَلِّبِ ... حُلْوِ اللِّسَانِ وَقَلْبُهُ يَتَلَهَّبُ
يَلْقَاكَ يَحْلِفُ أَنَّهُ بِكَ واثِقٌ ... وَإِذَا تَوارَى عَنْكَ فَهْوَ الْعَقْرَبُ
يُعْطِيكَ مِنْ طَرَفِ اللِّسَانِ حَلَاوَةً ... وَيَرُوغُ مِنْكَ كَمَا يَرُوغُ الثَّعْلَبُ

الإعراب: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾: الواو: حرف عطف، أو حرف استئناف، (من الناس): جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدَّم. ﴿مَن﴾: اسم موصول، أو نكرة موصوفة مبنية على السكون في محل رفع مبتدأ مؤخر. هذا هو الإعراب المتعارف عليه وهو الظاهر، ولا أعتمده، وإنما أعتمد ما ذكرته في الآية رقم [٨]. ﴿يُعۡجِبُكَ﴾: فعل مضارع، والكاف مفعول به. ﴿قَوۡلُهُۥ﴾: فاعله، والهاء في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية صلة: ﴿مَن﴾، أو صفتها، والعائد، أو الرابط الضمير المجرور محلاًّ بالإضافة، والجملة الاسمية: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ...﴾ إلخ معطوفة على ما قبلها، أو مستأنفة، لا محل لها على الاعتبارين. ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ﴾ متعلقان بالفعل قبلهما، وقيل: متعلقان بـ:

﴿قَوْلُهُۥ﴾ لأنه مصدر. ﴿ٱلدُّنْيَا﴾: صفة: ﴿ٱلْحَيَوٰةِ﴾ مجرور مثله، وعلامة جره كسرة مقدرة على الألف للتعذر. (يُشْهِدُ) مضارع، والفاعل يعود إلى ﴿مَن﴾ ﴿ٱللَّهَ﴾: منصوب على التعظيم. ﴿عَلَىٰ مَا﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿فِى قَلْبِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف صلة الموصول، والهاء في محل جر بالإضافة، وجملة: (يشهد...) إلخ معطوفة على جملة: ﴿يُعْجِبُكَ...﴾ إلخ. كذا قيل، والأولى أن تكون في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: وهو يشهد... إلخ، وهذه الجملة الاسمية في محل نصب حال من فاعل: ﴿يُعْجِبُكَ﴾ المستتر، والرابط الواو والضمير، وإنما احتجنا إلى تقدير مبتدأ محذوف؛ لأن الجملة المضارعية المقترنة بالواو لا تقع حالاً، قال ابن مالك ـ رحمه الله تعالى ـ في ألفيته: [الرجز]

وَذَاتُ بَدْءٍ بِمُضَارِعٍ ثَبَتْ ... حَوَتْ ضَمِيراً وَمِنَ الْوَاوِ خَلَتْ
وَذَاتُ وَاوٍ بَعْدَهَا انْوِ مُبْتَدَا ... لَهُ الْمُضَارِعُ اجْعَلَنَّ مُسْنَدَا

﴿وَهُوَ﴾: الواو: حرف عطف. (هو): ضمير منفصل مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ.

﴿أَلَدُّ﴾: خبره، وهو مضاف، و﴿ٱلْخِصَامِ﴾ مضاف إليه من إضافة الصفة المشبهة لفاعلها، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة الاسمية قبلها، فهي من تعدُّد الحال، وهو جملة. وإن اعتبرتها حالاً من فاعل: (يُشْهِدُ) فهي حال متداخلة.

﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾

الشرح: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ﴾: أدبر، وانصرف من عند رسول الله ﷺ، وخرج. وانظر الآية رقم [٦٤]. ﴿سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: أي: مشى بقدميه في الأرض؛ ليستعمل مكره، ودهاءه، وإدارة الدَّوائر على الإسلام، وأهله. وهذا كان منه بعد إلانة القول، وحلاوة المنطق.

﴿لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾: بقطع الأرحام، وسفك دماء المسلمين. ﴿وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ﴾: الزرع. ﴿وَٱلنَّسْلَ﴾: الحيوانات التي تتوالد. وذلك: أن الأخنس الخبيث، كان بينه وبين بني ثقيف خصومة، فبيَّتهم، فأحرق زروعهم، وأهلك مواشيهم؛ التي كانت متروكة في تلك الزروع. وانظر الآية السابقة.

وقيل: المعنى: إذا صار والياً، وملك رقاب الناس؛ سعى في الأرض؛ ليفسد فيها بالظلم، والعدوان، كما يفعل ولاة السوء، والظلمة. وعلى كلٍّ فالآية عامة في حق كل من كان موصوفاً بهذه الصفات في كل زمان، ومكان؛ لأن خصوص السبب، لا يمنع التعميم. ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾، أي: لا يرضى بالإيذاء، والضرر، والضرر قرين الشرك بالله.

الإعراب: ﴿وَإِذَا﴾: الواو: حرف عطف. (إذا): ظرف لما يستقبل من الزمان، خافض لشرطه، منصوب بجوابه، صالح لغير ذلك مبني على السكون في محل نصب.

﴿تَوَلَّىٰ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدَّر على الألف للتعذر، والفاعل ضمير مستتر، يعود إلى ﴿مَن﴾ تقديره: هو، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة (إذا) إليها على القول المشهور المرجوح، وجملة: ﴿سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ جواب (إذا)، لا محل لها، و(إذا) ومدخولها كلام مستأنف لا محل له، ويجوز عطفه على جملة: ﴿يُعْجِبُكَ...﴾ إلخ في الآية السابقة، فيكون من جملة الصلة، أو الصفة مثلها: ﴿لِيُفْسِدَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ «أن» مضمرة بعد لام التعليل، والفاعل يعود إلى ﴿مَن﴾ أيضاً، ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور متعلقان به، و«أن» المضمرة والفعل المضارع في تأويل مصدر في محل جرٍّ باللام، والجار والمجرور متعلقان بالفعل: ﴿سَعَىٰ﴾. ﴿وَيُهْلِكَ﴾: معطوف على: (يفسد) منصوب مثله، والفاعل يعود إلى ﴿مَن﴾ أيضاً. ﴿ٱلْحَرْثَ﴾: مفعول به. ﴿وَٱلنَّسْلَ﴾: معطوف عليه. ﴿وَٱللَّهُ﴾: الواو واو الحال، (الله) مبتدأ. ﴿لَا﴾: نافية. يحب: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى الله. ﴿ٱلْفَسَادَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل نصب حال من: ﴿ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ﴾ والرابط: الواو فقط، وإن اعتبرتها مستأنفة؛ فلا محل لها.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾

الشرح: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ...﴾ إلخ: أي: إذا وُعظ هذا الفاجر في مقاله، وفعاله، وقيل له: اتق الله، وانزع عما أنت عليه من التلوُّن، وارجع إلى الحق؛ امتنع، وأبى، وأخذته الحَمِيَّة، والغضب بالإثم. قال القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ: هذه صفة الكافر، والمنافق الذَّاهب بنفسه زهواً، ويُكره للمؤمن أن يوقعه الحرج في بعض هذا. وقال عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: إن من أكبر الذنوب عند الله أن يقال للعبد: اتق الله، فيقول: عليك بنفسك. وروي: أنه قيل لعمر ـ رضي الله عنه ـ: اتق الله، فوضع خده على الأرض تواضعاً لله تعالى. لكن في هذه الأيام إذا قيل لأحدهم: هذا لا يحله الشرع، وإن أحله القانون؛ يقول: هو لا يؤمن بهذا الشرع.

هذا؛ و﴿ٱلْعِزَّةُ﴾: القوة، والغلبة، مِنْ: عزَّه، يعزه: إذا غلبه، قال تعالى في سورة (النساء) رقم [١٣٩]: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ وقال تعالى في سورة (فاطر) رقم [١٠]: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ وفي سورة (المنافقون) رقم [٨]: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ والعزة في هذه الآية: الحمية، والأنفة، ومنه قول الشاعر: [الرمل]

أَخَذَتْهُ عِزَّةٌ مِنْ جَهْلِهِ ... فَتَوَلَّى مُغْضَباً فِعْلَ الضَّجِرْ

وقال تعالى في سورة (صَ): ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾. ذُكر: أنَّ يهوديّاً كانت له حاجة عند هارون الرشيد، فاختلف إلى بابه سنةً، فلم يقض حاجته، فوقف على الباب يوماً، فلما خرج هارون؛ سعى؛ حتى وقف بين يديه، وقال: اتق الله يا أمير المؤمنين! فنزل هارون عن دابته، وخرَّ ساجداً، فلمَّا رفع رأسه؛ أمر بحاجته، فقضيت، فلمَّا رجع قيل له: يا أمير المؤمنين نزلت عن دابتك لقول يهودي، قال: لا ولكن تذكَّرت قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ...﴾ إلخ. ﴿فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُۚ﴾: كافيه معاقبةً، وجزاءً جهنم، كما تقول للرجل: كفاك ما حلَّ بك. ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾: الفراش؛ أي: ما يفترشه في الآخرة، والمهاد: جمع. المهد، وهو الموضع المهيَّأ للنوم، ومنه مهد الصبي، قال تعالى في سورة (آل عمران) رقم [٤٦]: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾. وفي هذه الجملة تهكم بالمنافقين، والكافرين، حيث جُعلت لهم جهنم غطاء، ووطاء، فأكرموا بذلك، كما تُكْرِم الأمُّ ولدها بالغطاء، والوطاء اللَّيِّنين.

الإعراب: ﴿وَإِذَا﴾: مثل الآية السابقة. ﴿قِيلَ﴾: فعل ماض مبني للمجهول. ﴿لَهُ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿ٱتَّقِ﴾: فعل أمر مبني على حذف حرف العلة من آخره، وهو الياء، والكسرة قبلها دليل عليها، والفاعل تقديره: أنت. ﴿ٱللَّهَ﴾: منصوب على التعظيم، والجملة الفعلية في محل رفع نائب فاعل: ﴿قِيلَ﴾، وانظر ما ذكرته فيما مضى كثيراً. ﴿أَخَذَتْهُ﴾: فعل ماض، والتاء للتأنيث، والهاء مفعول به. ﴿ٱلْعِزَّةُ﴾: فاعله، والجملة الفعلية جواب: (إذا) لا محل لها، و(إذا) ومدخولها معطوف على مثله في الآية السابقة: ﴿بِٱلْإِثْمِۚ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، أو هما متعلقان بمحذوف حال من الضَّمير المنصوب.

﴿فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُۚ﴾: الفاء: أراها الفصيحة. (حسبه جهنم): مبتدأ، وخبر، والهاء في محل جر بالإضافة، والجملة الاسمية لا محل لها؛ لأنها جواب لشرطٍ مقدَّر بـ «إذا»، التقدير: وإذا كان ما ذكر شأنه، وحاله؛ فحسبه جهنم. والجملة الشرطية هذه مستأنفة، لا محل لها.

و﴿وَلَبِئْسَ﴾: الواو: حرف عطف، أو حرف استئناف. اللام: لام الابتداء، أو هي واقعة جواباً لقسم مقدر. (بئس): فعل ماض جامد لإنشاء الذم. ﴿ٱلْمِهَادُ﴾: فاعله، والمخصوص بالذم محذوف، التقدير: المذمومة هي، أو جهنم. والجملة الفعلية لا محل لها على الوجهين المعتبرين بالواو.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾

الشرح: لما ذكر الله صنيع المنافقين؛ ذكر بعده صنيع المؤمنين الصَّادقين. هذا؛ وقد ذكر في سبب نزول هذه الآية أقوالٌ كثيرة، وروایاتٌ مختلفة، والمعتمد: أنها نزلت في صهيب بن سنان بن

مالك الرُّومي، وهو عربي الأصل سباه الرُّوم، وهو صغير، فجُلِب إلى مكة، فاشتراه عبد الله بن جدعان. وقيل: بل هرب من الرّوم، فقدم مكة، وحالف ابن جدعان، وكان ـ رضي الله عنه ـ من السَّابقين إلى الإسلام، شهد بدراً، والمشاهد كلَّها، وتوفي بالمدينة سنة ثمانٍ وثلاثين.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: نزلت الآية في صهيب ـ رضي الله عنه ـ. وذلك: أنَّه لمَّا أراد الهجرة، منعه كفار قريش أن يهاجر بماله، وأخذوه، وعذبوه، فقال لهم: إنِّي شيخٌ كبير، ولا يضركم: أَمِنْكُم كنت، أم مِنْ غيركم؟ فهل لكم أن تأخذوا مالي، وتذروني، وديني؟! ففعلوا ذلك، وكان شرط عليهم رحله، ونفقةً. وفي روايةٍ ثانية: خرج من مكة مهاجراً، فلحقه نفر من قريش، فنزل عن راحلته، وانتثل ما في كنانته، وأخذ قوسه، وقال: لقد علمتم أنِّي من أرماكم، وايم الله! لا تصلون إليَّ؛ حتى أرمي بما في كنانتي، ثم أضرب بسيفي ما بقي بيدي منه شيء، ثم افعلوا ما شئتم! فقالوا: لا نتركك تذهب عنا غنيّاً، وقد جئتنا صعلوكاً، ولكن دلَّنا على مالك بمكة، ونخلي عنك. فعاهدوه على ذلك، ففعل، فلمَّا قدِم على رسول الله ﷺ، قال له: «**ربح بيعك أبا يحيى**»، وتلا عليه الآية. وفي روايةٍ: تلقَّاه أبو بكر، وعمر ـ رضي الله عنهما ـ ورجالٌ، فقال له الصِّدِّيق: ربح بيعك أبا يحيى، فقال له صهيب: وبيعك فلا يخسر! فما ذاك؟ فقال: أنزل الله فيك كذا. وقرأ عليه الآية الكريمة.

﴿يَشْرِى نَفْسَهُ﴾: يبيعها، بمعنى: يبذلها في طاعة الله مِنْ صلاةٍ، وصيام، وحجٍّ، وجهادٍ، وأمرٍ بمعروف، ونهيٍ عن منكر. وقال تعالى عمَّا فعل إخوة يوسف فيه: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ أي: باعوه، وأصله: الاستبدال، ومنه قوله تعالى في سورة (التوبة) رقم [١١١]: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ...﴾ إلخ. ومنه قول الشاعر: [الطويل]

وَإِنْ كَانَ رَيْبُ الدَّهْرِ أَمْضَاكَ في الأُلَى ... شَرَوْا هَذِهِ الدُّنْيَا بِجَنَّاتِهِ الْخُلْدِ

﴿ٱبْتِغَآءَ﴾: ابتغاء طلب مرضاة الله. ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ حيث أرشدهم إلى مثل هذا الشراء، وكلَّفهم بالجهاد، فعرضهم لثواب الغزاة، والشُّهداء. هذا؛ والرأفة: أشدُّ الرحمة، و﴿رَءُوفٌ﴾ صيغة مبالغة، ومن رأفة الله بعباده أن جعل النَّعيم الدائم في الجنة جزاء على العمل القليل المنقطع، ومن رأفته: أنَّه يقبل توبة عبده المذنب، ومن رأفته: أن نفس العباد، وأموالهم ملكه، ثم إنه تعالى يشتري ملكه بملكه فضلاً منه، ورحمةً، وإحساناً. وانظر ما ذكرته في الآية رقم [١٤٣] فإنه جيد، والحمد لله!.

الإعراب: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ انظر الآية رقم [٢٠٤] فهو مثله بلا فارق. ﴿يَشْرِى﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء للثقل، والفاعل يعود إلى ﴿مَن﴾. ﴿نَفْسَهُ﴾: مفعول به، والهاء في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية صلة: ﴿مَن﴾، أو صفتها، والعائد، أو الرابط الضمير المجرور محلاً بالإضافة. ﴿ٱبْتِغَآءَ﴾ مفعول لأجله، وهو مضاف، و﴿مَرْضَاتِ﴾ مضاف

إليه، من إضافة المصدر لمفعوله، وفاعله محذوف، و﴿مَرۡضَاتِ﴾ مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾ مضاف إليه، من إضافة المصدر لمفعوله أيضاً، وفاعله محذوف أيضاً، والجملة الاسمية: ﴿وَٱللَّهُ...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها، وإن اعتبرتها في محل نصب حال من لفظ الجلالة؛ فلست مفنداً، والرابط: الواو، وإعادة الاسم الكريم بلفظه للتعظيم. هذا؛ وجاز وقوع الحال من المضاف إليه؛ لأن المضاف عامل فيه، قال ابن مالك ـ رحمه الله تعالى ـ في ألفيته: [الرجز]

وَلَا تُجِزْ حَالاً مِنَ الْمُضَافِ لَهْ ... إِلَّا إِذَا اقْتَضَى الْمُضَافُ عَمَلَهْ

أَوْ كَانَ جُزْءَ مَا لَهُ أُضِيفَا ... أَوْ مِثْلَ جُزْئِهِ فَلَا تَحِيفَا

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٠٨﴾

الشرح: لمَّا بيَّن الله سبحانه: أنَّ من الناس مؤمن، وكافر، ومنافق؛ قال: كونوا على ملَّة واحدة، واجتمعوا على الإسلام، واثبتوا عليه. فالسِّلم هنا بمعنى الإسلام، ومنه قول الشاعر الكندي: [الوافر]

دَعَوْتُ عَشِيرَتِي لِلسِّلْمِ لَمَّا ... رَأَيْتُهُمُ تَوَلَّوْا مُدْبِرِينَا

أي: إلى الإسلام، وذلك لمَّا ارتدت قبيلة كندة بعد وفاة النَّبي ﷺ مع الأشعث بن قيس الكندي. هذا؛ ويقرأ ﴿ٱلسِّلۡمِ﴾ بكسر السين وفتحها، وهو: الاستسلام، والخضوع، والطاعة، و﴿ٱلسِّلۡمِ﴾ أيضاً: الإسلام، وقال حذيفة ابن اليمان ـ رضي الله عنه ـ في هذه الآية: الإسلام ثمانية أسهم: الصَّلاةُ سهمٌ، والزَّكاةُ سهمٌ، والصَّومُ سهمٌ، والحَجُّ سهمٌ، والعمرة سهمٌ، والجهادُ سهمٌ، والأمرُ بالمعروفِ سهمٌ، والنهي عن المنكر سهمٌ، وقد خاب من لا سهم له في الإسلام. هذا؛ والسَّلم: المسالمة، والمصالحة، قال تعالى في سورة (الأنفال) رقم [٦١] مخاطباً نبيَّه ﷺ: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ وهو أيضاً بكسر السين وفتحها، وهو يذكَّر، ويؤنث بدليل: ﴿لَهَا﴾ و﴿كَآفَّةً﴾. و﴿كَآفَّةً﴾ بمعنى جميعاً، والمعنى: تقبلوا جميع تعاليم الإسلام، ولا تقبلوا غيرها أبداً.

﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ انظر الآية رقم [١٦٨]، وخطواته: وساوسه، وأحابيله، وزخارفه، و﴿مُّبِينٞ﴾ اسم فاعل مِنْ: أبان الرُّباعي، أصله مُبْيِن بسكون الباء، وكسر الياء، فنقلت كسرة الياء إلى الباء بعد سلب سكونها؛ لأن الحرف الصحيح أولى بالحركة من حرف العلَّة، واسم الفاعل من بان الثلاثي: بائن، وأصله: باين. وعداوة الشيطان بينة بتبيين الله لنا عداوته، فكأنه بيِّن؛ وإن لم نشاهده.

تنبيه: نزلت الآية الكريمة في عبد الله بن سلام ـ رضي الله عنه ـ وأصحابه، كانوا من اليهود، وأسلموا، فعظَّموا السبت، وكرهوا لحوم الإبل بعد إسلامهم. وانظر الآية رقم [١٤٦] للكلام على عبد الله بن سلام، وانظر نداء المؤمنين في الآية رقم [١٠٤]. وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ، قال: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لا يَسْمَعُ بي أَحدٌ مِنْ هذِهِ الأمَّة، يهوديٌّ، ولا نَصْرَانيٌّ، ثم يموت، ولا يُؤْمِنُ، بالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ؛ إلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّار**». أخرجه مسلم.

الإعراب: (يا): أداة نداء تنوب مناب: أدعو. (أيها): منادى نكرة مقصودة مبنية على الضم في محل نصب بـ (يا)، و(ها) حرف تنبيه لا محل له. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع بدل من لفظ: (أي). ﴿ءَامَنُواْ﴾: فعل ماض مبني على الضم، والواو فاعله، والألف للتفريق، والمتعلق محذوف، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها. ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾ فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها ابتدائية كالجملة الندائية قبلها. ﴿فِي ٱلسِّلۡمِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿كَآفَّةً﴾: حال من ﴿ٱلسِّلۡمِ﴾ وقيل: حال من واو الجماعة، وضعَّفه ابن هشام. ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ﴾: الواو: حرف عطف. (لا) ناهية. ﴿تَتَّبِعُواْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ (لا) الناهية، وعلامة جزمه حذف النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها.

﴿خُطُوَٰتِ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه الكسرة نيابة عن الفتحة؛ لأنه جمع مؤنث سالم، و﴿خُطُوَٰتِ﴾: مضاف، و﴿ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾: مضاف إليه. ﴿إِنَّهُۥ﴾: حرف مشبه بالفعل، والهاء اسمها. ﴿لَكُمۡ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ ﴿عَدُوٌّ﴾ بعدهما، أو هما متعلقان بمحذوف حال منه، كان صفة له، فلما قدم عليه صار حالاً، على القاعدة: «نعت النكرة إذا تقدم عليها صار حالاً». ﴿عَدُوٌّ﴾: خبر (إنَّ)، ﴿مُّبِينٌ﴾: صفة له، والجملة الاسمية تعليل للنهي، لا محل لها.

﴿فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٠٩﴾

الشرح: ﴿فَإِن زَلَلۡتُم﴾ أي: إن انحرفتم عن الصِّراط المستقيم من بعد مجيء الحجج الباهرة، والبراهين الساطعة على أنَّ دين الإسلام هو الدِّين الحق. وأصل الزلل في القدم، ثمَّ استعمل في الأمور المعنوية على سبيل الاستعارة. ويقال: زلَّت قدمه: إذا ذهب عزُّه. وفي المثل: «زلت نعله» يضرب لمن نُكِبَ، وزالت نعمتُه، قال زهير بن أبي سلمى في مَمْدُوحَيْهِ: [الطويل]

تَدَارَكْتُمَا عَبْساً وَقَدْ ثُلَّ عَرْشُهَا ... وَذُبْيَانَ إِذْ زَلَّتْ بِأَقْدَامِهَا النَّعْلُ

﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾ أي: المعجزات وآيات القرآن، إن كان الخطاب للمؤمنين، فإن كان الخطاب لأهل الكتابين؛ فـ ﴿ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾ ما ورد في شرعهم من الإعلام بمحمد ﷺ، والتَّعريف به، وبرسالته. وفي الآية دليل على أنَّ عقوبةَ العَالِم بالذَّنب أعظمُ من عقوبة الجاهل به.

﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾: قوي في نقمته ممَّن خالفه، لا يعجزه شيء. ﴿حَكِيمٌ﴾: لا يفعل إلا ما فيه حكمة، أو لا ينتقم إلا بحق. والحكيم: ذو الإصابة في الأمور كلها. وفي الآية وعيدٌ، وتهديدٌ لِمَنْ في قلبه شكٌّ، ونفاقٌ، أو عنده شبهة في الدِّين. وانظر ما ذكرته في الآية رقم [١٢٩].

تنبيه: روي: أنَّ أعرابيّاً سمع قارئاً يقرأ: فاعلموا أن الله غفور رحيم، فأنكره، ولم يكن يقرأ القرآن، وقال: إن كان هذا كلام الله، فلا يقول كذا الحكيم، لا يذكر الغفران عند الزَّلل؛ لأنه إغراءٌ به. ومثله روي: أن قارئاً قرأ قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ قرأ: فإنك أنت الغفور الرحيم، فأنكره آخر، ولم يكن يقرأ القرآن أيضاً، وقال: هذا لا يناسب مَنْ يقدر على التَّعذيب، والمغفرة.

الإعراب: ﴿فَإِن﴾: الفاء: حرف استئناف. (إن): حرف شرط جازم. ﴿زَلَلۡتُم﴾: فعل ماض مبني على السكون في محل جزم فعل الشرط، والتاء فاعله، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها ابتدائية، ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفي. ﴿مِّنۢ بَعۡدِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿مَا﴾: مصدرية. ﴿جَآءَتۡكُمُ﴾: فعل ماض. والتاء للتأنيث، والكاف مفعول به.

﴿ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾: فاعله، و﴿مَا﴾ المصدرية، والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بإضافة ﴿بَعۡدِ﴾ إليه، من بعد مجيء البينات لكم. هذا؛ واعتبار ﴿مَا﴾ موصولة، أو موصوفة، يحوج إلى تقدير عائد، أو رابط، التقدير: من بعد الَّذي، أو شيء جاءتكم البينات به. وهذا تكلف لا حاجة له، وهو ضعيف معنى. ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط، وجملة: (اعلموا أنَّ الله عزيز حكيم) في محل جزم جواب الشرط، وانظر إعراب مثلها في الآية رقم [٢٠١]. و﴿أَنَّ﴾ ومدخولها كلام مستأنف لا محل له.

﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٢١٠﴾

الشرح: ﴿هَلۡ﴾: حرف استفهام معناه النفي مفيد للتَّوبيخ؛ أي: لا ينبغي لهم إلا انتظار إتيان العذاب. ﴿يَنظُرُونَ﴾ أي: ينتظر التَّاركون الدُّخول في السلم، والمتَّبعون خطوات الشيطان.

إلا أن يأتيهم الله؛ أي: أمر الله، أو عذابه. فالكلام على حذف مضاف، مثل قوله تعالى في سورة (الحشر): ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ أي: بخذلانه إياهم.

﴿فِي ظُلَلٍ﴾ جمع ظلَّة، كقلة، وقلل، وهي ما أظلَّك، وعلاك، وتجمع (ظلة) جمع مؤنث سالماً: ظللات، وأنشد سيبويه قول النابغة الجعدي ـ رحمه الله تعالى ـ: [الطويل]

إِذَا الْوَحْشُ ضَمَّ الْوَحْشَ في ظُلُلَاتِهَا ... سَوَاقِطُ مِنْ حَرٍّ وقَدْ كَانَ أَظْهَرَا

وظلال: جمع ظل في الكثير، والقليل: أظلال. ﴿مِنَ الْغَمَامِ﴾ هو السَّحاب الأبيض، وإنَّما يأتيهم العذاب فيه؛ لأنَّه مظنَّة الرَّحمة، فإذا جاء العذاب منه؛ كان أفظع؛ لأنَّ الشر إذا جاء من حيث لا يُحتسب، كان أصعب، فكيف إذا جاء من حيث يُحتسب بالخير، قال تعالى في بيان عذاب قوم هود ـ على نبينا وعليه ألف صلاة وألف سلام ـ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا﴾، قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ الآية رقم [٢٤] من سورة (الأحقاف).

﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ أي: وتأتيهم الملائكة. ففي تفسير ابن كثير: أي: ما ينتظرون شيئاً إلا أن يأتيهم الله يوم القيامة لفصل القضاء بين الخلائق؛ حيث تنشقُّ السَّماء، وينزل الجبار ـ عزَّ وجل ـ في ظلل من الغمام، وحملة العرش، والملائكة الذين لا يعلم كثرتهم إلا الله، ولهم زجل من التسبيح، يقولون: سبحانَ ذِي الملكِ، والملكوتِ! سبحان رب العرش، والجبروت! سبحان الحيِّ الذي لا يموتُ! سبحان الَّذِي يُميتُ الخلائقَ، ولا يموتُ! سُبُّوحٌ قدوس، ربُّ الملائكة والرُّوح.

و﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي: انتهى أمر الخلائق بالفصل بينهم، كما قال تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ الآية رقم [٧] من سورة (الشورى)، وانظر ما ذكرته في الآية رقم [٣٩] من سورة (مريم) على نبينا، وعليها ألف صلاة، وألف سلام. ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾: هو مثل قوله تعالى: ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ رقم [٥٣] من سورة (الشورى) وقوله جلَّ ذكره في كثير من الآيات: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ والمقصود: تصوير عظمته تعالى يوم القيامة، وهولها وشدتها، وبيان: أن الحاكم فيها هو ملك الملوك جلَّ وعلا؛ الذي لا معقِّب لحكمه، ولا رادَّ لقضائه، وهو أحكم الحاكمين. بعد هذا فخذ ما يلي:

قال الخازن ـ رحمه الله تعالى ـ: واعلم: أنَّ هذه الآية من آيات الصِّفات، وللعلماء في آيات الصِّفات، وأحاديث الصِّفات مذهبان:

أحدهما: وهو مذهب سلف هذه الأمة، وأعلام أهل السنَّة: الإيمان، والتسليم لما جاء في آيات الصِّفات، وأحاديث الصِّفات، وأنَّه يجب علينا الإيمان بظاهرها، ونؤمن بها كما جاءت، ونكل علمها إلى الله، وإلى رسوله ﷺ، مع الإيمان، والاعتقاد بأنَّ الله تعالى منزَّهٌ عن سِمَات الحدوث، وعن الحركة والسُّكون.

قال الكلبيُّ ـ رحمه الله تعالى ـ: هذا مِنَ الَّذي لا يُفَسَّر. وسفيان بن عيينة ـ رحمه الله تعالى ـ قال: كلُّ ما وصف الله به نفسه في كتابه؛ فتفسيره قراءته، والسكوت عليه، وليس لأحدٍ أن يفسِّره إلا الله، ورسوله. وكان الزُّهري، والأوزاعي، ومالك، وابن المبارك، وسفيان الثَّوري، والليث بن سعد، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ يقولون في هذه الآية، وأمثالها: اقْرَؤُوها كما جاءت، بلا كيفٍ، ولا تشبيهٍ، ولا تأويلٍ. هذا مذهب أهل السُّنَّة، ومعتقد سلف الأمَّة، وأنشد بعضُهم في المعنى: [الطويل]

عَقِيدَتُنَا أَنْ لَيْسَ مِثْلَ صِفَاتِهِ ... وَلَا ذَاتِهِ شَيءٌ عَقِيدَةُ صَائِبِ
نُسَلِّمُ آيَاتِ الصِّفَاتِ بِأَسْرِهَا ... وَأَخْبَارِهَا لِلظَّاهِرِ الْمُتَقَارِبِ
وَنُؤْيِسُ عَنْهَا كُنْهَ فَهْمِ عُقُولِنَا ... وَتَأْوِيلِنَا فِعْلُ اللَّبِيبِ الْمُغَالِبِ
وَنَرْكَبُ لِلتَّسْلِيمِ سُفناً فَإِنَّهَا ... لِيَسْلَم دِينُ الْمَرْءِ خَيْرُ الْمَرَاكِبِ

المذهب الثاني: وهو قول جمهور علماء المتكلمين، وذلك: أنه أجمع جميع المتكلمين من العقلاء، والمعتبرين من أصحاب النظر على أنه تعالى منزَّه عن المجيء، والذهاب، ويدلُّ على ذلك: أنَّ كلَّ ما يصحُّ عليه المجيء، والذهاب، ولا ينفكُّ عن الحركة، والسكون ـ وهما محدثان ـ وما لا ينفك عن المحدث؛ فهو محدث، والله تعالى منزَّهٌ عن ذلك، فيستحيل ذلك في حقِّه تعالى، فثبت بذلك: أنَّ ظاهر الآية ليس مراداً، فلا بد من التأويل على سبيل التفصيل. فعلى هذا قيل في معنى الآية: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: بالآيات، فيكون مجيءُ الآيات مجيئاً لله تعالى على سبيل التفخيم لشأن الآيات. وقيل: معناه: إلا أن يأتيهم أمرُ الله، ووجه هذا التأويل: أن الله تعالى فسَّره في آيةٍ أخرى، فقال: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ الآية [٣٣] من سورة (النحل)، فصار هذا الحكم مفسراً لهذا المجمل في هذه الآية.

قال ابن تيميَّة ـ رحمه الله تعالى ـ في رسالته التدمرية: وصفه تعالى نفسه بالإتيان في ظلٍّ من الغمام كوصفه بالمجيء في آيات أخر، ونحوهما مما وصف به نفسه في كتابه، أو صحَّ عن رسول الله ﷺ، والقول في جميع ذلك من جنسٍ واحدٍ، وهو مذهب سلف الأمَّة، وأئمتها، إنَّهم يصفونه سبحانه بما وصف به نفسه، ووصفه به رسوله ﷺ من غير تحريفٍ، ولا تعطيلٍ، ولا تكييفٍ، ولا تمثيلٍ، والقول في صفاته كالقول في ذاته، والله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، فلو سأل سائل: كيف يجيء سبحانه؟ فليقل له: كما لا تعلم كيفية ذاته، كذلك لا تعلم كيفية صفاته. انتهى. صفوة التفاسير. وانظر ما ذكرته رقم [٧] من سورة (آل عمران)، فله اتصال بمعنى هذا الكلام.

أقول: وإنما ذهب جمهور العلماء من المتكلِّمين إلى ما ذهبوا في العصر العباسي حينما كثرت الفرق الإسلامية الضالَّة، وكثرت البدع، والآراء الشاذَّة، فتصدى هؤلاء إلى تزييف تلك

الآراء الشاذَّة، وصاروا يؤوِّلون الآيات، والأحاديث التي توهم تشبيهاً لله تعالى؛ تأويلاً يقبله العقل، والشرع، مثل قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ وقوله جلَّ ذكره: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾ والأحاديث مثل قول النبي ﷺ: «**إذَا كَانَ الثُّلُثُ الأَخِيرُ مِنَ اللَّيْلِ؛ يَنْزِلُ رَبُّنَا... إلخ**». ومذهب السَّلف يسمَّى: مذهب التَّفويض، والثاني يُسمَّى: مذهب التأويل، ومذهب السَّلف أسلم، ومذهب الخلف أحكم. هذا ما أردت إيراده هنا، والله وليُّ التوفيق.

الإعراب: ﴿هَلۡ﴾ حرف استفهام إنكاري توبيخي. ﴿يَنظُرُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله، والجملة الفعلية مستأنفة لا محل لها. ﴿إِلَّآ﴾: حرف حصر. ﴿أَن يَأۡتِيَهُمُ﴾: فعل مضارع منصوب بـ ﴿أَن﴾ والهاء مفعول به. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله، و﴿أَن﴾ والفعل المضارع في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به. ﴿فِي ظُلَلٍ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، أو هما متعلقان بمحذوف حال من أمر الله المقدَّر. ﴿مِّنَ ٱلۡغَمَامِ﴾: متعلقان بمحذوف صفة: ﴿ظُلَلٍ﴾ كما يجوز تعليقهما بالفعل السابق. ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾: معطوف على أمر الله المقدَّر، وقرئ بالجر عطفاً على: ﴿ظُلَلٍ﴾ أو على ﴿ٱلۡغَمَامِ﴾، ﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ﴾: الواو حرف عطف. (قضي الأمر): فعل ماض مبني للمجهول ونائب فاعله، والفعل بمعنى المضارع. لذا فالجملة الفعلية معطوفة على ما بعد ﴿إِلَّآ﴾ فهي في حيِّز الانتظار. وقيل: هي مستأنفة، وليست في حيِّز الانتظار، فهي باقية على ماضويَّتها، وجملة: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ مستأنفة، لا محل لها، والفعل يقرأ بالبناء للفاعل، وبالبناء للمفعول، فهو يحتمل أن يكون لازماً، ومتعدياً.

﴿سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةِۭ بَيِّنَةٖۗ وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢١١﴾﴾

الشرح: ﴿سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾: الخطاب لسيد الخلق، وحبيب الحق ﷺ، أمره ربُّه أن يسأل يهود المدينة، وليس المراد بهذا السُّؤال العلم بالآيات؛ لأنَّه ﷺ كان قد علمها بإعلام الله إياه، ولكن المراد بهذا السؤال التَّقريع، والتَّوبيخ، والمبالغة في الزَّجر عن الإعراض عن دلائل الله، وترك الشكر على نعمة الله. وقيل: المراد بهذا السؤال: التقرير. وتذكير النعم؛ التي أنعم الله بها على سلفهم. انتهى خازن.

فالله تعالى يذكر عن بني إسرائيل: كم شاهدوا على يد موسى ـ على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ من حجة قاطعة بصدقه فيما جاءهم به، كَيَدِهِ، وعصاه، وفلقه البحر، وضربه الحجر؛ ليخرج الماء منه، وما كان من تظليل الغمام عليهم في شدَّة الحرِّ، ومن إنزال المنِّ، والسَّلوى يوم كانوا في التِّيه، وغير ذلك من المعجزات الدَّالات على صدقه، وعلى قدرة الله الفاعل المختار، ومع ذلك فقد أعرض كثيرٌ منهم عنها، وبدَّلوا نعمة الله بالجحود، والكفر؛

أي: استبدلوا بالإيمان بها الكفر، والإعراض عنها، كما قال تعالى إخباراً عن كفار قريش: ﴿۞أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ الآية رقم [٢٨] من سورة (إبراهيم) على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾: فيه تهديد، ووعيد لمن يبدل نعمة الله، ويجحدها. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

تنبيه: ﴿سَلْ﴾: أصله: اسأل، نقلت حركة الهمزة الثانية، التي هي عين الكلمة إلى الساكن قبلها، ثم حذفت تخفيفاً، وحذفت همزة الوصل للاستغناء عنها، فصار وزنه: «فل» ومثل هذه الآية قوله تعالى في سورة(ن): ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾ هذا؛ وفرق بين إثبات الهمزة، وإسقاطها باختلاف الكلام المستعمل فيه، فتحذف الهمزة في الكلام المبتدأ، كما في الآيتين، وتثبت في العطف، مثل قوله تعالى في سورة (يوسف): ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾.

الإعراب : ﴿سَلْ﴾: فعل أمر، وفاعله تقديره: أنت. ﴿بَنِيٓ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه الياء نيابة عن الفتحة؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم، وحذفت النون للإضافة، و﴿بَنِيٓ﴾ مضاف، و﴿إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: مضاف إليه مجرور، وعلامة جرة الفتحة نيابة عن الكسرة؛ لأنَّه ممنوع من الصرف للعلمية، والعجمة. ﴿كَمْ﴾: اسم استفهام، وقيل: خبرية بمعنى كثير مبنية على السكون في محل نصب مفعول به ثان للفعل بعدها، أو هي في محل رفع مبتدأ، والجملة الفعلية في محل رفع خبرها. فيكون الرابط محذوفاً، التقدير: آتيناهم إيَّاها. وقال مكي: ﴿كَمْ﴾ في موضوع نصب بإضمار فعل بعدها، تقديره: كم آتينا آتيناهم. والجملة على جميع الاعتبارات في محل نصب مفعول به ثان لـ ﴿سَلْ﴾ المعلَّق عن العمل بسبب ﴿كَمْ﴾. ﴿مِّنْ﴾: حرف جر صلة. ﴿ءَايَةٍ﴾: تمييز لـ ﴿كَمْ﴾ على الوجهين فيها منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على آخره، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة الجر الزائد. ﴿بَيِّنَةٍ﴾: صفة آية على لفظها، وجملة: ﴿سَلْ...﴾ إلخ: مستأنفة، أو مبتدأة لا محل لها. ﴿وَمَن﴾: الواو: حرف استئناف. (مَنْ): اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿يُبَدِّلْ﴾: فعل مضارع فعل الشرط، والفاعل يعود إلى: ﴿مِنْ﴾، ﴿نِعْمَةَ﴾: مفعول به، وهو مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾ مضاف إليه، من إضافة المصدر لفاعله. ﴿مِنۢ بَعْدِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿مَا﴾: مصدرية. ﴿جَآءَتْهُ﴾: فعل ماض، والتاء للتأنيث، والهاء مفعول به، والفاعل يعود إلى: ﴿نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾. و﴿مَا﴾ المصدرية والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بإضافة ﴿بَعْدِ﴾ إليه، التقدير: من بعد مجيئها له. ﴿فَإِنَّ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (إنَّ): حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿شَدِيدُ﴾: خبرها، وهو مضاف، و﴿ٱلْعِقَابِ﴾: مضاف إليه، من إضافة الصفة المشبهة لفاعلها؛ إذ الأصل: شديدٌ عقابُهُ، والجملة الاسمية: (إن الله. . .) إلخ في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور، والدسوقي يقول: لا محلَّ لها لأنَّها لم تحل محلَّ المفرد. هذا؛ وإن اعتبرت جواب الشرط محذوفاً، التقدير: فله السُّخط، والغضب، ونحو ذلك؛ فلست مفنداً، وتكون الجملة الاسمية مفيدة

للتعليل، ولا محلَّ لها، والمعنى لا يأباه، وخبر المبتدأ الذي هو (مَنْ) مختلف فيه كما ذكرته لك مراراً، والجملة الاسمية: ﴿وَمَن...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها.

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾﴾

الشرح: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ...﴾ إلخ، حسنت في أعينهم، وأشربت محبتها في قلوبهم، حتَّى تهالكوا عليها، وأعرضوا عن غيرها، والمزيِّن في الحقيقة هو الله تعالى؛ إذ ما من شيء إلا هو فاعله، وكلٌّ من الشيطان، والقوَّة الحيوانية، وما خلقه الله فيها من الأمور البهيمية، والأشياء الشهيَّة مزينٌ بالعرض. انتهى بيضاوي. وهذا مذهب أهل السنة، والجماعة، وانظر ما ذكرته بشأن المعتزلة، وغيرهم من الفرق الضالة في الآية رقم [١٤] من سورة (آل عمران) وغيرها.

﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ﴾ أي: يهزأ كفار قريش من الذين آمنوا؛ أي: من فقراء المسلمين، كبلال، وعمار، وصهيب، وخبَّاب، وغيرهم، والسُّخرية بالناس حرام، فقد روى عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ النبي ﷺ قال: «**مَنِ اسْتَذَلَّ مُؤْمناً، أَو مُؤْمِنةً، أو حقَّرهُ لِفقرِهِ، وَقلَّةِ ذاتِ يَدِهِ؛ شَهَّرَهُ اللهُ تعالى يومَ الْقِيامَةِ، ثمَّ فَضحهُ، وَمَنْ بَهتَ مُؤْمِناً، أَو مُؤْمِنَةً، أو قال فيهِ مَا لَيْسَ فيهِ، أقامَهُ الله على تَلٍّ مِنْ نَارٍ يَوْمَ الْقيامَةِ؛ حتَّى يَخرُجَ ممَّا قَالَ فِيهِ، وإنَّ عِظَمَ المؤمِنِ أعظمُ عندَ الله، وأكرمُ عَلَيْه مِنْ مَلَكٍ مُقرَّبٍ، وَلَيْسَ شيءٌ أَحبَّ إلى اللهِ مِن مؤمنٍ تائبٍ، أو مؤمنةٍ تائبةٍ، وإنَّ الرَّجُل المؤمنَ يُعْرَفُ في السَّماء، كما يَعْرِفُ الرجلُ أهلَهُ، وولَدَهُ**». وانظر ما ذكرته في الآية رقم [١٥]. هذا وقد أورد التزيين بصيغة الماضي لكونه مفروغاً منه، مركوزاً في طبائعهم، وعطف عليه بالفعل المضارع للدَّلالة على استمرار السُّخرية منهم؛ لأن صيغة المضارع تفيد الاستمرار، والتَّجدد.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي: إنَّ الله تعالى يرفع درجات الفقراء المؤمنين يوم القيامة، حتَّى يجعلهم في أعلى علِّيين، ويضع درجات الكافرين المستكبرين حتى يجعلهم في أسفل سافلين، والمؤمنون في الآخرة في أوج العز، والكرامة، والكافرون، والفاسدون المفسدون في حضيض الذلِّ، والمهانة. هذا؛ وقد قال تعالى في سورة المطففين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ﴾، ثمَّ قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾.

عن حارثة بن وهب ـ رضي الله عنه ـ: أنَّه سَمِعَ رسولَ الله ﷺ يقول: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بأَهلِ الْجَنَّة؟ كل ضَعيفٍ مُتَضَعِّفٍ، لَوْ أَقْسَمَ على الله؛ لأَبرَّهُ، أَلَا أُخْبِرُكُمْ بَأَهلِ النَّارِ؟ كُلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ**». متَّفق عليه.

﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: بغير تقدير، فيوسِّع في الدنيا استدراجاً تارةً، وابتلاءً أخرى، وأمَّا في الآخرة، فرزقه للمؤمنين واسعٌ، لا يضبطه عدٌّ، ولا كيلٌ، ولا وزنٌ بخلاف

رزق الدُّنيا؛ فإنَّه مضبوطٌ محصورٌ، ورزق الآخرة لا ينتهي عدده، ولا ينقطع مدده، صافٍ عن كدِّ الاكتساب، وخوف الحساب، لا منَّة فيه، ولا عذاب.

الإعراب: ﴿زُيِّنَ﴾: فعل ماض مبني للمجهول. ﴿لِلَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. وجملة: ﴿كَفَرُوا۟﴾ مع المتعلق المحذوف صلة الموصول، لا محلَّ لها. ﴿ٱلْحَيَوٰةُ﴾: نائب فاعل، والجملة الفعلية مستأنفة لا محل لها. ﴿ٱلدُّنْيَا﴾: صفة الحياة مرفوع مثله، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف للتعذر. ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾: الواو: حرف عطف. (يسخرون): فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون، والواو فاعله، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها هذا، ويجوز تقدير مبتدأ قبلها، وهي خبره، أي: وهم يسخرون... إلخ، والجملة الاسمية هذه في محل نصب حال من واو الجماعة، والرابط: الواو، والضمير، وانظر ما ذكرته في الآية رقم [٢٠٤]. ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، والجملة الفعلية بعد الموصول صلته، والمتعلَّق محذوف.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾: الواو: حرف عطف. (الذين): اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ. ﴿ٱتَّقَوْا۟﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف المحذوفة لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة؛ التي هي فاعله، والألف للتفريق، والمفعول محذوف، تقديره: اتقوا الله، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محلَّ لها. ﴿فَوْقَهُمْ﴾: ظرف مكان متعلِّق بمحذوف خبر المبتدأ، والهاء في محل جر بالإضافة، ﴿يَوْمَ﴾: ظرف زمان متعلق بالخبر المحذوف، و﴿يَوْمَ﴾: مضاف، و﴿ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾: مضاف إليه، والجملة الاسمية: ﴿ٱلَّذِينَ...﴾ إلخ معطوفة على ما قبلها، فهي في محل نصب حال مثلها. ﴿وَٱللَّهُ﴾: الواو: حرف استئناف. (الله): مبتدأ، ﴿يَرْزُقُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى (الله)، ﴿مَن﴾: اسم موصول، أو نكرة موصوفة مبنية على السكون في محل نصب مفعول به أول، والمفعول الثاني محذوف، التقدير، رزقاً واسعاً، ونحوه، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية ﴿وَٱللَّهُ...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها، وهو أولى من العطف على ما قبلها، والحالية ضعيفة، ﴿يَشَآءُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى (الله)، والجملة الفعلية صلة: ﴿مَن﴾ أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف، التقدير: يشاؤه ﴿بِغَيْرِ﴾: متعلقان بما قبلهما، و(غير): مضاف، و﴿حِسَابٍ﴾: مضاف إليه.

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾

الشرح: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: كان الناس متفقين على الحقِّ. قال ابن جرير: عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: كان بين آدم، ونوح ـ على نبينا، وعليهما ألف صلاة، وألف سلام

- عشرة قرون، كلُّهم على شريعة من الحقِّ، فاختلفوا. ودلَّ على هذه الجملة لدلالة قوله: ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِۚ﴾. وانظر شرح أمَّة في الآية رقم [١٢٨]، والإمة بكسر الهمزة: النعمة؛ لأنَّ الناس يقصدون قصدها. ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾: انظر الآية رقم [٦١]. ﴿مُبَشِّرِينَ﴾: للمؤمنين بالجنَّة، وحسن المآل. (منذرين): مخوفين للكافرين، والعاصين بالنَّار، وسوء الحساب.

﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ المراد به الجنس، لا المراد: أنَّ الله تعالى أنزل بكلِّ واحد منهم كتاباً يخصُّه، فإن أكثرهم لم يكن معهم كتاب يخصُّهم، وإنما كانوا يأخذون بكتب مَنْ قبلهم. انتهى بيضاوي، وذلك كما في أنبياء بني إسرائيل، فإنَّ جميعهم كان يحكم بالتوراة؛ حَتَّى بُعِثَ عيسى، على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام، بل وحتى عيسى كان يحكم بالتَّوراة؛ لأن الإنجيل الَّذي أنزل عليه، لم يكن فيه سوى بعض الأحكام المغيِّرة لأحكام التوراة.

﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِۚ﴾ يحتمل رجوع الفاعل إلى ﴿ٱللَّهُ﴾ أو النبيِّ المبعوث، أو كتابه، ويؤيد الأول قراءة الجحدري: (لنحكم) بنون العظمة. ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ﴾ أي: في الحقِّ، أو في الكتاب. ﴿أُوتُوهُ﴾ أي: الكتاب حيث آمن به بعض، وكفر به بعض آخر. ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾: المعجزات الظاهرات، والحجج السَّاطعات على التوحيد. ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْۖ﴾ حسداً بينهم أو ظلماً، وعدواناً لحرصهم على الدنيا، ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: ثبَّتهم الله على الحق ﴿لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦۗ﴾: بأمره، وتوفيقه. ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: ففي هذه الآية ردٌّ على المعتزلة بقولهم: إنَّ العبد يخلق أفعال نفسه، ويستبدُّ بهدايته إلى ما يشاء، ويريد.

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال النبي ﷺ: «**نَحْنُ الآخرونَ الأوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيامَةِ، نحنُ أَوَّلُ النَّاسِ دخولاً الجنَّةَ، بَيْدَ أنَّهمْ أوتُوا الكتابَ مِنْ قَبْلِنَا، وأُوتيناه مِنْ بَعْدِهِمْ، فَهَدَانَا اللهُ لما اخْتَلَفُوا فيهِ مِنَ الحقِّ بإذنِهِ، فهذا اليوم الذي اختلفوا فيه، فهدانا الله له، فالناس لنا فيه تبع، فَغَداً لِلْيَهُودِ، وَبَعْدَ غَدٍ للنَّصَارَى**». المراد باليوم الذي اختلفوا فيه: يوم الجمعة.

وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه - رضي الله عنه -: اختلفوا في يوم الجمعة، فاتخذ اليهود يوم السَّبت، والنصارى يوم الأحد، فهدى الله أمَّة محمد ﷺ ليوم الجمعة. واختلفوا في الصَّلاة، فمنهم من يركع، ولا يسجد، ومنهم من يسجد ولا يركع، ومنهم من يصلِّي؛ وهو يتكلم، ومنهم من يصلي؛ وهو يمشي، فهدى الله أمَّة محمد ﷺ للحقِّ من ذلك. واختلفوا في إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، فقالت اليهود: كان يهوديّاً، وقالت النَّصارى: كان نصرانيّاً، وجعله الله حنيفاً مسلماً، فهدى الله أمَّة محمد ﷺ للحق من ذلك. واختلفوا في عيسى عليه السلام، فكذبت به اليهود، وقالوا لأمه بهتاناً عظيماً، وجعلته النصارى إلهاً وولداً، وجعله الله روحه، وكلمته، فهدى الله أمَّة محمد ﷺ للحقِّ من ذلك. وكان أبو العالية - رحمه الله - يقول: في هذه الآية المخرج من الشُّبهات، والضَّلالات، والفتن.

وفي صحيح البخاري، ومسلم عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: أنَّ رسول الله ﷺ كان إذا قام من الليل يصلي يقول: «**اللهمَّ رَبَّ جبريلَ، وميكائيلَ، وإسرافيلَ، فاطِرَ السمواتِ والأرْض، عالمَ الْغَيْبِ والشهادَة، أنتَ تحكمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فيما كانوا فيهِ يَختَلِفُونَ، اهْدِني لِمَا اخْتُلفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بإذْنِكَ، إنكَ تَهْدي مَنْ تَشاءُ إلى صراطٍ مُسْتقيم**».

وَفي الدعاء المأثور: «**اللهمَّ أَرنَا الحَقَّ حقّاً، وارزقنا اتباعَهُ، وأَرِنَا الْبَاطِلَ بَاطِلاً، وارْزُقْنا اجْتنابَهُ، ولا تَجْعَلْهُ مُلْتَبساً عَلَيْنَا، فَنضلَّ، واجْعَلْنا للْمتَّقِين إمَاماً**».

الإعراب: ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿ٱلنَّاسُ﴾: اسمها. ﴿أُمَّةً﴾: خبرها. ﴿وَٰحِدَةً﴾: صفة لها، والجملة الفعلية مستأنفة لا محل لها. ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ﴾: ماض، وفاعله، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها. وهناك جملة مقدرة قبلها، التقدير: فاختلفوا، فبعث. ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾: مفعول به. ﴿مُبَشِّرِينَ﴾: حال من النبيين. ﴿وَمُنذِرِينَ﴾: معطوف عليه، وعلامة النصب في الثلاثة الياء نيابة عن الفتحة؛ لأنها جمع مذكر سالم، والنون عوض من التنوين في الاسم المفرد. (أنزل): فعل ماض، والفاعل يعود إلى: ﴿ٱللَّهُ﴾. ﴿مَعَهُمُ﴾: ظرف مكان متعلق بما قبله، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: مفعول به. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: متعلقان بمحذوف حال من: ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: ملتبساً بالحق، وجملة: ﴿وَأَنزَلَ...﴾ إلخ معطوفة على ما قبلها، وقال أبو البقاء ـ رحمه الله تعالى ـ: هي في محل نصب حال، وهذا يحتاج إلى تقدير «قد» قبلها، لتقربها من الحال. ﴿لِيَحْكُمَ﴾: مضارع منصوب بـ «أن» مضمرة بعد لام التعليل، والفاعل ضمير مستتر تقديره: هو، انظر الشرح، و«أن» المضمرة والفعل المضارع في تأويل مصدر في محل جر باللام، والجار والمجرور متعلقان بالفعل (أنزل)، ﴿بَيْنَ﴾: ظرف مكان متعلق بالفعل قبله، و﴿بَيْنَ﴾ مضاف، و﴿ٱلنَّاسِ﴾ مضاف إليه. ﴿فِيمَا﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل (يحكم) أيضاً، و(ما) تحتمل الموصولة، والموصوفة، والجملة الفعلية بعدها صلتها، أو صفتها، والعائد، أو الرابط: الضمير المجرور محلاً بـ (في).

﴿وَمَا﴾: الواو: واو الحال. (ما): نافية. ﴿ٱخْتَلَفَ﴾: فعل ماض. ﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿إِلَّا﴾: حرف حصر. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع فاعل، والجملة الفعلية في محل نصب حال من الضمير المجرور محلاً بـ (في) والرابط: الواو، والضمير، والاستئناف ممكن. ﴿أُوتُوهُ﴾: فعل ماض مبني للمجهول مبني على الضم، والواو نائب فاعله، وهو المفعول الأول، والهاء مفعوله الثاني، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها. ﴿مِنۢ بَعْدِ﴾: متعلقان بالفعل: ﴿ٱخْتَلَفَ﴾: ﴿مَا﴾: مصدرية. ﴿جَآءَتْهُمُ﴾: فعل ماض، والتاء للتأنيث، والهاء مفعول به. ﴿ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾: فاعله، و﴿مَا﴾ والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بإضافة ﴿بَعْدِ﴾ إليه؛ التقدير: من بعد مجيء البينات. ﴿بَغْيًۢا﴾: مفعول لأجله، وقيل: حال، ولا وجه له. ﴿بَيْنَهُمْ﴾: ظرف مكان متعلق بـ ﴿بَغْيًۢا﴾ أو بمحذوف صفة له، والهاء في محل جر بالإضافة.

(هدى): فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف للتعذر. ﴿اللَّهُ﴾: فاعله. ﴿الَّذِينَ﴾: مفعول به. ﴿ءَامَنُواْ﴾: ماض وفاعله، والألف للتفريق، والمتعلق محذوف، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها. ﴿لِمَا﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل: (هدى)، (وما) تحتمل الموصولة، والموصوفة، وجملة: ﴿اخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾ صلة (ما) أو صفتها. ﴿مِنَ الْحَقِّ﴾: متعلقان بمحذوف حال من الضمير المجرور بـ (في) العائد بدوره على (ما)، و﴿مِنَ﴾ بيان لما أبهم فيها. ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾: متعلقان بالفعل: (هدى) أو هما متعلقان بمحذوف حال من ﴿الَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ التقدير: مأذوناً لهم، وجملة: ﴿فَهَدَى...﴾ إلخ معطوفة على ما قبلها، والاستئناف ممكن.

﴿وَاللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿يَهْدِى﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء للثقل، والفاعل يعود إلى (الله)، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل نصب حال من الضمير المجرور محلاً بالإضافة، والرابط: الواو، والضمير، والاستئناف ممكن. ﴿مَن﴾: اسم موصول، أو نكرة موصوفة مبنية على السكون في محل نصب مفعول به. ﴿يَشَآءُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى (الله) والجملة الفعلية صلة: ﴿مَن﴾ أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف، التقدير: يهدي الذي أو شخصاً يشاؤه. ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ﴾: متعلقان بالفعل: ﴿يَهْدِى﴾. ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾: صفة ﴿صِرَٰطٍ﴾.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَآءُ وَالضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾

الشرح: ﴿أَمْ﴾: منقطعة هنا. انظر مبحثها في كتابنا: «فتح القريب المجيب». ﴿حَسِبْتُمْ﴾: ظننتم، فهو من باب: تَعِبَ في لغة جميع العرب، إلا بني كنانة، فإنهم يكسرون السين في المضارع مع الماضي أيضاً على غير قياسٍ، وقد قرئ المضارع بفتح السين، وكسرها من البابين: الرَّابع، والسادس. والمصدر: الحِسبان بكسر الحاء، وحَسَبت المال حسباً من باب: قَتَل، بمعنى: أحصيته عدداً. ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم﴾، أي: ولم تمتحنوا بمثل ما امتحن به من كان قبلكم، فتصبروا كما صبروا، أو المعنى: ولما يصبكم مثل الذين أصاب الذين من قبلكم من البلاء، قال تعالى في أول سورة (العنكبوت): ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَٰذِبِينَ﴾: انظر شرح هذه الآيات هناك؛ تجدْ ما يسرك، ويثلج صدرك.

﴿مَّسَّتْهُمُ﴾: أصابتهم. ﴿الْبَأْسَآءُ وَالضَّرَّآءُ﴾: انظر الآية رقم [١٦٧]. ﴿وَزُلْزِلُواْ﴾: خوِّفوا من الأعداء تخويفاً شديداً، وامتحنوا امتحاناً عظيماً، كما جاء في الحديث عن خبَّاب بن الأرت

ـ رضي الله عنه ـ قال: قلنا: يا رسول الله! ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو الله لنا؟ قال: «**كانَ الرَّجلُ فِيمَنْ قبْلَكُمْ يُحْفر لَهُ في الأَرض، فَيُجعَلُ فيه، فيجاء بالمِنْشَار، فَيُوضَعُ على رَأْسِهِ، فَيُشقُّ باثنتين وَمَا يَصُدُّه ذلكَ عَن دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بأَمْشَاطِ الحديد مَا دُوْنَ لَحْمِهِ من عظمٍ، أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّه ذَلِكَ عَنْ دِيْنِهِ، والله لَيَتِمَّنَّ هَذا الأَمرُ، حتى يَسِيرَ الرَّاكبُ من صَنْعَاءَ إلى حَضْرَمَوتَ، لا يَخَافُ إلا الله، أو الذِّئبَ عَلَى غَنَمِهِ، ولَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ**». رواه البخاري [٣٦١٢].

﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ أي: بلغ بهم الضجر، ولم يبق لهم صبر؛ حتى قالوا ذلك. ومعناه: طلب الصبر، وتمنيه، واستطالة زمان الشدة، بحيث تقطَّعت حبال الصَّبر عندهم، وفي هذه الغاية دليل على تناهي الأمر في الشدَّة، وتماديه في العظم؛ لأنَّ الرسل لا يُقادر قَدْرُ ثباتهم، واصطبارهم، وضبطهم لأنفسهم، فإذا لم يبقَ لهم صبر حتَّى ضجوا؛ كان ذلك الغاية في الشدَّة؛ التي لا مطمع وراءها.

﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾: هذا جواب من الله تعالى، ووعد لهم بالنصر، وفي ضمنه كلام آخر، التقدير: فاصبروا، كما صبروا؛ تظفروا بالنَّصر، كما ظفروا. هذا؛ وقرى: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ﴾ بالنصب على إضمار «أن» ومعنى الاستقبال؛ لأنَّ «أن» تصرف الفعل المضارع له. وقرئ بالرَّفع على أنه بمعنى الحال، كقولك: شربت الإبل حتى يجيءُ البعير بطنه، إلا أنها حال ماضية محكية. وانظر مبحث «حتَّى» في كتابنا: «فتح القريب المجيب» تجدْ ما يسرك، ويثلج صدرك.

تنبيه: قال قتادة، والسُّدي، وأكثر المفسرين: نزلت هذه الآية في غزوة الخندق حين أصابهم من الجهد والشدَّة، والحرِّ، والبرد، وسوء العيش، وأنواع الشدائد، وكان كما قال الله تعالى في سورة (الأحزاب): ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾، وقيل: نزلت في حرب (أحد) نظير هذه الآية قوله تعالى في سورة (آل عمران): ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ﴾ رقم [١٤٢].

وقالت جماعة أخرى: نزلت الآية تسلية للمهاجرين حين تركوا ديارهم، وأموالهم بأيدي المشركين، وآثروا رضا الله ورسوله، وأظهرت اليهود العداوة لرسول الله ﷺ، وأسرَّ قومٌ من الأغنياء النفاق، فأنزل الله الآية الكريمة تطييباً لقلوبهم، وتفريجاً لهمومهم. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿أَمْ﴾: حرف عطف بمعنى «بل». ﴿حَسِبْتُمْ﴾: فعل، وفاعل. ﴿أَن﴾: حرف مصدري، ونصب. ﴿تَدْخُلُوا۟﴾: فعل مضارع منصوب بـ ﴿أَن﴾ وعلامة نصبه حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق، و﴿أَن﴾ والفعل المضارع: ﴿تَدْخُلُوا۟﴾ في تأويل مصدر في محل نصب سد مسد مفعولي ﴿حَسِبْتُمْ﴾ والجملة الفعلية هذه معطوفة على ما قبلها، أو مستأنفة لا محل لها على الاعتبارين. ﴿ٱلْجَنَّةَ﴾: مفعول به. وانظر ما ذكرته في الآية رقم [٥٨]. ﴿وَلَمَّا﴾: الواو:

واو الحال. (لمَّا): حرف نفي، وقلب، وجزم. ﴿يَأْتِكُم﴾: فعل مضارع مجزوم بـ (لمَّا) وعلامة جزمه حذف حرف العلة من آخره، وهو الياء، والكسرة قبلها دليل عليها، والكاف مفعول به. ﴿مَّثَلُ﴾: فاعله، وهو مضاف، و﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول مبني على الفتح في محل جر بالإضافة ﴿خَلَوْا۟﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدَّر على الألف المحذوفة لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة، التي هي فاعله. وقدَّر الجلال، والجمل محذوفاً بين المتضايفين، فالجلال قدَّر: مثل ما أتى الَّذين. والجمل قدَّر: مثل محنة المؤمنين الَّذين. ﴿مِن قَبْلِكُم﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، والجملة الفعلية صلة الموصولة، لا محل لها، وجملة: ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُم...﴾ إلخ في محل نصب حال من واو الجماعة، والرابط: الواو، والضمير.

﴿مَّسَّتْهُمُ﴾: فعل ماض، والتاء للتأنيث، والهاء مفعول به. ﴿ٱلْبَأْسَآءُ﴾: فاعله، والجملة الفعلية في محل نصب حال من واو الجماعة، والرابط: الواو، والضمير، وهي على تقدير «قد» قبلها، وجوز اعتبارها مستأنفة. ﴿وَٱلضَّرَّآءُ﴾: معطوف على ما قبله. ﴿وَزُلْزِلُوا۟﴾: فعل ماض مبني للمجهول مبني على الضم، والواو نائب فاعله، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف غاية، وجر. ﴿يَقُولَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ «أن» مضمرة بعد ﴿حَتَّىٰ﴾. ﴿ٱلرَّسُولُ﴾: فاعله. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: معطوف على ما قبله، وجملة: ﴿ءَامَنُوا۟﴾ مع المتعلق المحذوف صلته. ﴿مَعَهُۥ﴾: ظرف مكان متعلق بالفعل قبله، والهاء في محل جر بالإضافة، و«أن» المضمرة، والفعل المضارع في تأويل مصدر في محل جر بـ ﴿حَتَّىٰ﴾ والجار والمجرور متعلقان بالفعل (زلزلوا) وعلى قراءة الفعل بالرَّفع؛ فالجملة معطوفة على ما قبلها عطفاً.

﴿مَتَىٰ﴾: اسم استفهام مبني على السكون في محل نصب على الظرفية الزَّمانية متعلق بمحذوف خبر مقدَّم. ﴿نَصْرُ﴾: مبتدأ مؤخر، وهو مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾ مضاف إليه، من إضافة المصدر لفاعله، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول. ﴿أَلَآ﴾: حرف استفتاح يسترعي انتباه المخاطب لِمَا يأتي بعده من كلام. ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿نَصْرَ﴾: اسمها، وهو مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾ مضاف إليه، من إضافة المصدر لفاعله. ﴿قَرِيبٌ﴾: خبر: ﴿إِنَّ﴾، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول لقول محذوف؛ أي: قيل لهم ذلك، والقائل هو الله تعالى؛ الذي لا يخلف وعده. والقول، ومقوله كلام مستأنف لا محل له. وقال أبو البقاء ـ رحمه الله ـ: هو من مقول الرَّسول. والأول أقوى.

هذا؛ والجملة الاسمية فيها عدَّة مؤكدات، تدل على تحقُّق النصر: **أولاً**: بدء الجملة بأداة الاستفتاح: ﴿أَلَآ﴾ التي تفيد التأكيد. **ثانياً**: ذكر ﴿إِنَّ﴾ الدَّالة على التوكيد أيضاً. **ثالثاً**: إيثار الجملة الاسمية على الفعلية، فلم يقل: «ستنصرون». والتعبير بالجملة الاسمية يفيد التأكيد. **رابعاً**: إضافة النَّصر لله ربِّ العالمين القادر على كل شيء.

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾

الشرح: ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾: انظر الكلام على: سأل، يسأل في الآية رقم [١٨٩] والخطاب للنبي ﷺ، والسائل هو عمرو بن الجموح، رضي الله عنه، وكان شيخاً كبيراً ذا مال جم، فسأل الرسول ﷺ عمَّا ينفق، وعلى مَنْ ينفق. ﴿مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ أي: ما قدره، وما جنسه؟ والمراد: نفقة التطوع، لا الزكاة، فالآية محكمة لا منسوخة، فهي مبينة لمصارف صدقة الصَّدقة، ومثل هذه الآية قوله تعالى في سورة (الإسراء) وسورة (الروم): ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾. هذا؛ ويعدُّ علماء البلاغة هذه الآية من الأسلوب الحكيم؛ حيث قالوا: إن السائل سأل الرسول ﷺ عن حقيقة الإنفاق، وعن كمية المال الذي ينفق: الربع، أو الثلث، أو النصف مثلاً، فأجيب ببيان طرق إنفاق المال تنبيهاً على أنَّ هذا هو الأولى، والأجدر بالسُّؤال عنه. ومثل هذه الآية في هذا الحكم الآية رقم [١٨٩]، فقد بني الكلام في هذه على ما هو الأهم، وهو بيان المصرف؛ لأنَّ النفقة لا يعتد بها إلا أن تقع موقعها، كما قال الشاعر الحكيم: [الكامل]

إنَّ الصَّنِيْعَةَ لَا تَكُونُ صَنِيعَةً حَتَّى يُصَابَ بِهَا طَرِيقُ الْمَصْنَعِ

فَإِذَا صَنَعْتَ صَنِيعَةً فَاعْمَدْ بِهَا لِلَّهِ أَوْ لِذَوِي الْقَرَائِبِ أو دَعِ

﴿قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ﴾: من مال، وانظر الآية رقم [١٠٥]. ﴿فَلِلْوَالِدَيْنِ﴾: فواجب على الرجل الغني أن ينفق على أبويه المحتاجين في قدر ما لهما من حاجة من طعام، وكسوة، وسكن يليق بهما، وعليه أن يزوج أباه إن كانت نفسه تتشرف إلى الزَّواج؛ لأن إعفاف الأب مطلوب، بل هو أولى من الطَّعام، والكسوة، وعليه نفقة امرأة أبيه إن تزوَّج بعد موت أمِّ أولاده امرأة أجنبية، ولا يجوز للولد أن يمنع أمَّه من الزَّواج؛ إن طلبت الزواج بعد موت أبيه؛ لأنَّ إعفافها مطلوبٌ أيضاً، وعليه أن يُخرج عنهما صدقة الفطر؛ لأنَّها مستحقَّةٌ بالنفقة، والإسلام. أمَّا ما يتعلق بالعبادات من الأموال، فليس على الولد أن يعطيهما ما يحجَّان به، ولكن من باب البرِّ الَّذي أوصى الله به أن يبذل لهما من المال ما يَحُجَّان به، ولا سيما الأم التي تعبت في تربيته، ولاقت العناء الشديد في حمله، ووضعه. ﴿وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ وانظر الآية رقم [١٧٦] ففيها الكفاية. ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾: المراد به كلُّ عملٍ صالح من إنفاق مالٍ، وغيره. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾: يجازي به الجزاء الأوفى.

الإعراب: ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾: فعل مضارع، وفاعله، ومفعوله الأول. ﴿مَاذَا﴾: (ما): اسم استفهام مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. (ذا): اسم موصول مبني على السكون في محل

رفع خبره، وجملة: ﴿يُنفِقُونَ﴾: صلته، والعائد محذوف، التقدير: ما الذي ينفقونه؟. هذا، ويجوز اعتبار: ﴿مَاذَا﴾ اسم استفهام مركباً، وفي إعرابه وجهان: اعتباره مفعولاً متعدِّياً للفعل بعده، واعتباره مبتدأ، والجملة الفعلية بعده خبره، والرابط محذوف، وهو مفعول الفعل المحذوف. وسواءٌ أكانت الجملة اسمية، أم فعلية، فهي في محل نصب مفعول به ثان للفعل قبلها. وجملة: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ...﴾ إلخ مستأنفة.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: أنت. ﴿مَآ﴾: اسم شرط جازم مبني على السكون في محل نصب مفعول به لفعل شرطه. ﴿أَنفَقْتُم﴾: فعل ماض مبني على السكون في محل جزم فعل الشرط، والتاء فاعله، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها ابتدائية. ﴿مِّنْ خَيْرٍ﴾: متعلقان بمحذوف حال مِنْ: ﴿مَآ﴾، و﴿مِّنْ﴾ بيان لما أبهم فيها. ﴿فَلِلْوَٰلِدَيْنِ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (للوالدين): جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: فمصرفه للوالدين. والجملة الاسمية هذه في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور، والدُّسوقي يقول: لا محل لها. هذا؛ وإن اعتبرت: ﴿مَآ﴾ اسماً موصولاً؛ فهي مبتدأ، والجملة الفعلية بعده صلته، والعائد محذوف، التقدير: الذي أنفقتموه، ويكون: ﴿مِّنْ خَيْرٍ﴾ متعلقين بمحذوف حال من هذا المحذوف، ويكون: (للوالدين) متعلقين بمحذوف خبر المبتدأ، واقترن بالفاء؛ لأنَّ الموصول يشبه الشرط في العموم، ورُجِّح الأول لمناسبة الجملة الثانية؛ إذ لا يصح فيها الاعتبار الثاني. تأمَّل، وعلى كلٍّ فالجملة: ﴿مَآ أَنفَقْتُم...﴾ إلخ سواء أكانت اسمية، أم فعلية، فهي في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قُلْ...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها.

﴿وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ هذه الأسماء معطوفة على (الوالدين) مجرورة مثله، وعلامة الجر في الأول الياء، وفي الثاني كسرة مقدرة على الألف للتعذر، وفي الأخيرين الكسرة الظاهرة، و(ابن): مضاف، و﴿ٱلسَّبِيلِ﴾: مضاف إليه، وإعراب الجملة: (ما تفعلوا...) إلخ لا يخفى عليك بعد إعراب ما تقدَّم، و(ما) لا يجوز فيها إلا الشرطية، والجملة الاسمية: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ...﴾ إلخ في محلِّ جزم جواب الشرط عند الجمهور، و(ما) ومدخولها كلام معطوف على ما قبله، فهي في محل نصب مقول القول مثلهنَّ، والجار والمجرور: ﴿بِهِۦ﴾ متعلقان بـ ﴿عَلِيمٌ﴾ بعده، تأمل، وتدبر، وربك أعظم، وأجل، وأكرم.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾

الشرح: مناسبة الآية، والتي بعدها: لمَّا ذكر الله تعالى في الآيات السابقة: أنَّ النَّاس فريقان: فريق يسعى في الأرض فساداً، ويضلُّ الناس بخلابة لسانه، وقوَّة بيانه، وحلاوة كلامه.

وفريق باع نفسه للحقِّ، يبتغي به وجه الله، ورضاه، ولا يرجو أحداً سواه. ولمَّا كان لا بدَّ للتنازع بين الخير والشر، ولا بدَّ للحقِّ من سيف مصلت إلى جانبه؛ لذا شرع الله للمؤمنين أن يحملوا السَّيف مناضلين، وشرع الجهاد دفعاً للعدوان، وردعاً للظُّلم، والطغيان. صفوة التفاسير.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ﴾: فرض عليكم الجهاد في سبيل الله. قال عمر بن أبي ربيعة: [الخفيف]

كُتِبَ الْقَتْلُ وَالْقِتَالُ عَلَيْنَا وعَلَى الْغَانِيَاتِ جَرُّ الذُّيُولِ

وقد ذكرت لك فيما مضى: أنَّ الله جلَّت قدرته لم يأذن للمسلمين بالقتال قبل الهجرة، فلمَّا هاجر الرَّسول ﷺ والمسلمون إلى المدينة؛ أذن لهم بالجهاد باللِّسان، والسنان. والجهاد في بدء الإسلام كان فرض عين، فلمَّا عزَّ الإسلام، وانتشرت دعوته؛ صار فرض كفاية، إذا قام به البعض؛ سقط عن الباقين، إلا أن ينزل العدو بساحة الإسلام، كما في أيَّامنا هذه، حيث احتل اليهود اللُّؤماء أراضينا، فهو فرض عين على كل قادر على حمل السلاح.

﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ أي: كره في الطِّباع البشرية. قال ابن عرفة: الكره - بضم الكاف -: المشقة، وبالفتح: ما أكرهت عليه. هذا هو الاختيار، ويجوز الضم في معنى الفتح، فيكونان لغتين، وإنما كان الجهاد كرهاً؛ لأن فيه إخراج المال، ومفارقة الوطن، والأهل، والتعرض بالجسد للشِّجاج، والجراح، وقطع الأطراف، وذهاب النفس، فكانت كراهيتهم لذلك، لا أنهم كرهوا فرض الله تعالى. هذا؛ و﴿كُرْهٌ﴾ مصدر وضع موضع اسم المفعول: «مكروه» للمبالغة.

﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾: (عسى) من الله واجبة في جميع القرآن، والمعنى: عسى أن تكرهوا ما في الجهاد من المشقَّة؛ وهو خير لكم في أنَّكم تغلبون، وتظفرون، وتغنون، وتؤجرون، ومن مات؛ مات شهيداً. ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ﴾ الدَّعة، وترك القتال، ﴿وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ في أنَّكم تغلبون، وتذلُّون، ويذهب عزُّكم، وتضعف شوكتكم. هذا؛ وبين الجملتين من المحسنات البديعية ما يسمَّى بالمقابلة، فقد قابل بين الكراهية، والحب، وبين الخير، والشر.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: الله أعلم بعواقب الأمور منكم، وأدرى بما فيه صلاحكم في دنياكم، وآخرتكم، فبادروا إلى ما يأمركم به. وفي هذه الجملة طباق السَّلب.

هذا؛ وإن النفس تميل إلى الشر بسبب ميلها إلى الدَّعة، والراحة، وإلى الشهوات الموجبة لهلاكها، وتنفر من الخير الَّذي يتسبَّب عن التكاليف الإلٰهية الموجبة لسعادتها، وإن كان في ظاهرها مشقة، وجهد، وعناء، فالآية الكريمة تحثُّ على الجهاد، فلعلَّ لكم فيه وإن كرهتموه خيراً؛ لأن فيه إمَّا الظفر، والغنيمة، وحسن السُّمعة، والثناء من الناس، أو الشهادة، والأجر؛ الذي أعدَّه الله للمجاهدين؛ الذين يبذلون أرواحهم في سبيل إعلاء كلمة الله، مع أن في تركه شرّاً؛ لأن فيه الذل، والفقر، والحرمان من الأجر. والمحروم مَنْ حُرِم الأجر، والثواب.

الإعراب: ﴿كُتِبَ﴾: فعل ماض مبني للمجهول. ﴿عَلَيْكُمُ﴾: جار ومجرور متعلقان به. ﴿الْقِتَالُ﴾: نائب فاعله، والجملة الفعلية مستأنفة، لا ارتباط لها بما قبلها. ﴿وَهُوَ﴾: الواو: واو الحال. (هو): ضمير منفصل مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ. ﴿كُرْهٌ﴾: خبره. ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ ﴿كُرْهٌ﴾؛ لأنه مصدر، أو اسم مفعول، والجملة الاسمية في محل نصب حال من القتال، والرابط: الواو، والضمير. ﴿وَعَسَىٰ﴾: الواو: حرف عطف، (عسى): فعل ماض جامد من أفعال الرجاء، مبني على فتح مقدر على الألف للتعذر، وهو تام هنا. قال ابن مالك ـ رحمه الله تعالى ـ في ألفيته: [الرجز]

بَعْدَ عَسَى اخْلَوْلَقَ أوشَكَ قَدْ يَرِدْ غِنَىً بِأَنْ يَفْعَلَ عَنْ ثَانٍ فُقِدْ

﴿أَن تَكْرَهُوا﴾: فعل مضارع منصوب بـ ﴿أَن﴾ وعلامة نصبه حذف النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والألف للتفريق، و﴿أَن تَكْرَهُوا﴾: في تأويل مصدر في محل رفع فاعل (عسى)، والجملة الفعلية معطوفة على جملة: ﴿كُتِبَ...﴾ إلخ لا محل لها مثلها. ﴿شَيْئًا﴾: مفعول به، والجملة الاسمية: ﴿وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في محل نصب حال من: ﴿شَيْئًا﴾ وهو نكرة، وكان الواجب أن تكون صفة على القاعدة: «الجمل بعد النكرات صفات، وبعد المعارف أحوال»، والمعارض في ذلك الواو، فإنها لا تعترض بين الصفة، والموصوف، خلافاً للزمخشري، وأبي البقاء، وإنَّما توسَّطت الواو في رأي الزمخشري؛ لتأكيد لصوق الصِّفة بالموصوف. هذا الذي أجازه أبو البقاء هنا، والزمخشري في الآية الكريمة: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ الآية رقم [٤] من سورة (الحجر)، وهو رأي ابن خيران، وسائر النَّحويين يخالفونه. انتهى. جمل نقلاً عن السَّمين.

أقول: ومثل هذه الآية قوله تعالى في الآية رقم [٢٥٩]: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾. والشاهد على هذه المسألة في مغني اللبيب قول قيس بن ذريح، وهو الشاهد رقم [٧٩٦] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»: [الطويل]

مَضَى زَمَنٌ، وَالنَّاسُ يَسْتَشْفِعُونَ بِي فَهَلْ لِي إِلى لَيْلَى الْغَدَاةَ شَفِيعُ؟

وإعراب: ﴿وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا...﴾ إلخ لا يخفى عليك بعد هذا، والجملة معطوفة على ما قبلها. ﴿وَاللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿يَعْلَمُ﴾ فعل مضارع، والفاعل يعود إلى (الله) ومفعوله محذوف، التقدير: يعلم ما هو خير لكم، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل نصب حال من الكاف المجرورة محلاً باللام، والرابط: الواو، والضمير في الجملة الثانية المعطوفة عليها؛ لأن الجملتين المتعاطفتين كالجملة الواحدة. ﴿وَأَنتُمْ﴾: الواو: حرف عطف. (أنتم): ضمير منفصل مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿لَا﴾ نافية. ﴿تَعْلَمُونَ﴾: فعل

مضارع، وفاعله، ومفعوله محذوف تقديره: لا تعلمون ذلك، وهذه الجملة خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾

الشرح: فقد روى أبو اليسار عن جندب بن عبد الله: أنَّ النبي ﷺ بعث رهطاً في جمادى الآخرة قبل وقعة بدر بشهرين، وقيل: في شهر رجب، وبعث عليهم أبا عبيدة بن الحارث، فلمَّا ذهب لينطلق؛ بكى صبابة إلى رسول الله ﷺ، فبعث مكانه عبد الله بن جحش، وكتب له كتاباً، وأمره ألا يقرأ الكتاب؛ حتى يبلغ مكان كذا، وكذا، وقال: لا تُكرهنَّ أصحابك على المسير معك. فلمَّا بلغ المكان؛ قرأ الكتاب، فاسترجع، وقال: سمعاً، وطاعةً للهِ، ولرسوله. قال: فرجع رجلان، ومضى بقيَّتهم معه، فلقوا ابن الحضرمي، فقتلوه، وأسروا رجلين كانا معه، هما عثمان بن عبد الله، والحكم بن كيسان، وأفلت منهم نوفل بن عبد الله، وأخذوا ما كان معهم من عِيْر، ثمَّ قدموا بالعير، والأسيرين على رسول الله ﷺ، وقال عبد الله بن جحش ـ رضي الله عنه ـ: اعزلوا ممَّا غنمنا الخمس لرسول الله ﷺ، ففعلوا، فكان أول خمس في الإسلام، ثمَّ نزلت الآية في سورة (الأنفال) رقم [٤١] تؤيِّد ذلك ـ وكانت تلك الحادثة قد وقعت في أوَّل ليلة من شهر رجب، أو في آخر ليلة منه، والأول أشهر ـ فعيَّر المشركون المسلمين بانتهاك حرمة الشَّهر الحرام، والرَّسول ﷺ لامهم على ذلك، فخاف المسلمون من ذلك، فنزلت الآية الكريمة تؤيِّد ما فعله عبد الله، وأصحابه بالمشركين.

واختلف العلماء في نسخ هذه الآية، فالجمهور على نسخها، وأنَّ قتالَ المشركين في الأشهر الحرم مباحٌ، وانظر ما ذكرته في الآية رقم [١٣٣]. واختلف في ناسخ هذه الآية، وقد قال عبد الله بن جحش ـ رضي الله عنه ـ لمَّا عيَّرهم المشركون بقتل ابن الحضرمي في الشهر الحرام ما يلي: [الطويل]

تَعُدُّونَ قَتْلاً في الحَرَامِ عَظِيمَةً ... وَأَعْظَمُ مِنْهُ لَوْ يَرَى الرُّشْدَ رَاشِدُ

صُدُوْدُكُم عَمَّا يَقُولُ مُحَمَّدٌ ... وَكُفْرٌ بِهِ وَاللهُ رَاءٍ وَشَاهِدُ

وَإِخْرَاجُكُمْ مِنْ مَسْجِدِ اللهِ أَهْلَهُ ... لِئَلَّا يُرى للهِ في البَيْتِ سَاجِدُ

فَـإِنَّـا وَإِنْ عَـيَّـرْتُـمُـونَـا بِـقَـتْـلِـهِ وَأَرْجَـفَ بِـالإِسْـلَامِ بَـاغٍ وَحَـاسِـدُ
سَقَيْنَـا مِنِ ابْـنِ الْـحَـضْـرَمِـيِّ رِمَاحَنَـا بِـنَـخْـلَـةَ لَـمَّـا أَوْقَـدَ الْـحَـرْبَ وَاقِـدُ
دَمـاً وَابْـنُ عَـبْـدِ اللهِ عُـثْـمَـانُ بَـيْـنَـنَـا يُـنَـازِعُـهُ غُـلٌّ مِـنَ الْـقِـدِّ عَـانِـدُ

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾: تقدَّم الكلام على هذا فيما مضى. ﴿قِتَالٍ فِيهِ﴾ المعنى: يسألك أصحابك يا محمد عن القتال في الشهر الحرام، أيحل لهم القتال فيه؟ فقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ يدل على الاستفهام، كما قال امرؤ القيس في معلقته رقم [٨١]: [الطويل]

أَصَـاحِ تَـرَى بَـرقـاً أُرِيـكَ وَمِـيـضَـهُ كَـلَـمْـعِ الْـيَـدَيْـنِ فـي حَـبِـيٍّ مُـكَـلَّـلِ

﴿قُلْ﴾ لهم: القتال فيه أمره كبير، ووزره عظيم، ولكن هناك ما هو أعظم، وأخطر، وهو (صد عن سبيل الله) أي: الإعراض عن دين الله. هذا، و(صد) مصدر: صد، يصد من باب: قتل، وله مصدر آخر: صدود. قال تعالى: ﴿رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ رقم [٦١] من سورة (النِّساء) ومضارعه: يَصُدُّ. ﴿وَكُفْرٌۢ بِهِۦ﴾: بالله. ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي: ومنعٌ، وصدٌّ عن بيت الله، كما فعل كفار قريش مع المسلمين. ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ...﴾ إلخ، أي: إخراج الرَّسول ﷺ، وأصحابه من المسجد الحرام ﴿أَكْبَرُ﴾ وأعظم عند الله ممَّا فعلته سريَّة عبد الله بن جحش، وأصحابه ـ رضي الله عنه ـ. مِنْ قتل ابن الحضرمي، وأسر رفيقيه... إلخ وكان ذلك على سبيل الخطأ، وعدم التحقُّق من الشَّهر الحرام، ولا تنس تعذيب المشركين للمستضعفين المسلمين، فإنَّه أشدُّ قبحاً، وأشنع فعلاً من قتل واحد في الشَّهر الحرام. والعندية هنا مجاز؛ لأن الله تعالى لا يحويه مكان، ولا يحيط به.

﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾: والشرك أكبر، وأعظم من قتل ابن الحضرمي في الشهر الحرام. ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ...﴾ إلخ؛ أي: هم مستمرون على عداوتكم، وقتالكم إلى أن يردُّوكم إلى الشِّرك؛ إن قدروا على ذلك، ولن يقدروا بتوفيق الله لكم، وحفظه، ورعايته لكم. والخطاب للمسلمين، وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب، كما يكون الالتفات من الخطاب إلى الغيبة، ومن المفرد إلى الجمع، وبالعكس. وانظر الآية رقم [١٣١]

﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾ قيَّد الردَّة بالموت عليها بعد أن يستتاب، فإذا لم يرجع؛ يقتل. قال الرسول ﷺ: «**مَنْ بدَّلَ دينَهُ؛ فاقتلُوهُ**». والمعنى: من خرج من الإسلام إلى الكفر؛ فاقتلوه، وأما مَنْ خرج مِنْ كفرٍ إلى كفر؛ فلا سلطان عليه لأحد. والكلام على المرتد وعلى مآله طويل في كتب الفقه، وإذا أخذنا بأحكام الشريعة في هذه الأيام؛ نجد الألوف بل الملايين من أبناء المسلمين مرتدِّين، ولا حول ولا قوَّة إلا بالله! هذا؛ وقرئ الفعل: ﴿يَرْتَدَّ﴾ في سورة (المائدة) رقم [٥٤] بالفك، والإدغام.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ﴾ والمراد: الأعمال النافعة بطل ثوابها، وأجرها. هذا؛ وفي المصباح المنير: حبِط العمل، يَحْبط من باب: تعب، حبْطاً بالسكون، وحبوطاً: فسد، وهدر. وحَبَط، يحبِط من باب ضرب لغة، وقرئ بها في الشواذ. وحَبِطَ دم فلان من باب: تعب: هدر. وأحبطت العمل والدم بالألف: أهدرته. وفي المختار: والحَبَط بفتحتين: أن تأكل الماشية، فتكثر؛ حتى تنتفخ لذلك بطونها، ولا يخرج عنها ما فيها. وقيل: هو أن ينتفخ بطنُها من أكل الذرق، وهو الحندقوق. وفي الحديث: «**إنَّ مِمَّا يُنْبِتُ الرَّبيعُ ما يَقْتُلُ حَبَطاً، أَوْ يُلِمُّ**». انتهى. واسم هذا الدَّاء: حباط. والفعل حبط: لازم، ويتعدَّى بالهمزة، كما في قوله تعالى: في كثير من الآيات: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾. وباقي الكلام تقدَّم مثله كثيراً.

الإعراب: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به أول. ﴿عَنِ ٱلشَّهْرِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، وهما في محل نصب مفعول به ثانٍ. ﴿ٱلْحَرَامِ﴾: صفة الشهر. ﴿قِتَالٍ﴾ بدل اشتمال من الشهر؛ لأن القتال يقع فيه، وهو مشتمل عليه، وقد يقع بدل الاشتمال في إبدال الظاهر من ضمير الغيبة، كما في قوله تعالى في سورة (الكهف): ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ وقوله تعالى في سورة (مريم) على نبينا، وعليها، وعلى ولدها ألف صلاة، وألف سلام: ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾، ومن إبدال الظاهر من ضمير التكلم قول عدي بن زيد العبادي: [الوافر]

ذَرِينِي إِنَّ أَمْرَكَ لَنْ يُطَاعَا ... وَمَا أَلْفَيْتِنِي حِلْمِي مُضَاعَا

وأيضاً، كقول النابغة الجعدي ـ رضي الله عنه وهو الشاهد رقم [٥١٠] من كتابنا: «فتح رب البرية» ـ: [الطويل]

بَلَغْنَا السَّمَاءَ مَجْدُنَا وَسَنَاؤُنَا ... وإنَّا لَنَرْجُو فَوْقَ ذَلِكَ مَظْهَرا

﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ ﴿قِتَالٍ﴾ لأنه مصدر، أو بمحذوف صفة له، وقال الكسائي: هو مخفوض على التكرير، تقديره عنده: عن الشهر، عن قتال فيه. وقال الفراء: هو مخفوض بإضمار «عن». وقال أبو عبيدة: هو مخفوض على الجوار. والمعتمد الأول بلا شك. وجملة: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله أنت. ﴿قِتَالٌ﴾: مبتدأ. ﴿فِيهِ﴾: متعلقان بـ ﴿قِتَالٌ﴾ أو بمحذوف صفة له. ﴿كَبِيرٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قُلْ...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها. ﴿وَصَدٌّ﴾: الواو: حرف عطف. (صد): مبتدأ، ﴿عَن سَبِيلِ﴾: متعلقان بـ (صد)، أو بمحذوف صفة له، و﴿سَبِيلِ﴾ مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾ مضاف إليه. ﴿وَكُفْرٌۢ﴾ معطوف على (صدٌّ). ﴿بِهِۦ﴾: متعلقان بـ (كفر) أو بمحذوف صفة له.

﴿وَٱلۡمَسۡجِدِ﴾: معطوفة على ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. ﴿ٱلۡحَرَامِ﴾: صفة (المسجد)، والتقدير: وصد عن المسجد. وقال أبو البقاء: متعلق بمحذوف، دل عليه: (صدٌّ) والتقدير: ويصدُّون عن المسجد الحرام، وقال الفراء: ﴿وَكُفۡرُۢ﴾: عطف على: ﴿كَبِيرٞۚ﴾، ﴿وَٱلۡمَسۡجِدِ﴾: عطف على الهاء في: ﴿بِهِۦ﴾ فيكون الكلام نسقاً متصلاً غير منقطع، قال ابن عطية: وذلك خطأ؛ لأن المعنى يسوق إلى أن قوله: ﴿وَكُفۡرُۢ بِهِۦ﴾ أي: بالله عطف أيضاً على ﴿كَبِيرٞۚ﴾ ويجيء من ذلك: أن إخراج أهل المسجد منه أكبر من الكفر عند الله، وهذا بيِّنٌ فساده. وصحَّح ابن هشام في المغني: أن خفض (المسجد) بباء محذوفة لدلالة ما قبلها عليها، لا بالعطف، ورجوع الجار والمجرور على: (به) لأنه لا يعطف على الضمير المخفوض إلا بإعادة الخافض. ﴿وَإِخۡرَاجُ﴾: معطوف على: (صدٌّ)، وهو مضاف، و﴿أَهۡلِهِۦ﴾ مضاف إليه، من إضافة المصدر لمفعوله، وفاعله محذوف. التقدير: وإخراجكم أهله، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿مِنۡهُ﴾: جار ومجرور متعلقان بالمصدر (إخراج). ﴿أَكۡبَرُ﴾: خبر المبتدأ (صَدٌّ) وما عطف عليه، وساغ ذلك؛ لأنه أفعل تفضيل، وهو يستوي فيه الواحد، والأكثر، والمذكر، والمؤنث، إذا كان مجرداً من أل، والإضافة، قال ابن مالك رحمه الله تعالى في ألفيته: [الرجز]

وَإِنْ لِمَنْكُورٍ يُضَفْ أَوْ جُرِّدَا أُلْزِمَ تَذْكِيراً وَأَنْ يُوَحَّدَا

﴿عِندَ﴾ ظرف مكان متعلق بـ ﴿أَكۡبَرُ﴾. و﴿عِندَ﴾ مضاف، و﴿ٱللَّهِۚ﴾ مضاف إليه، وتمييز ﴿أَكۡبَرُ﴾ محذوف، التقدير: أكبر وزراً عند الله، وجملة: ﴿وَصَدٌّ...﴾ إلخ معطوفة على ما قبلها، فهي في محل نصب مقول القول مثلها، وأيضاً الجملة الاسمية: ﴿وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ﴾ معطوفة على ما قبلها، وهي في محل نصب مقول القول مثلها، واعتبار هذه الجمل في محل نصب حال صحيح معنىً. ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا) نافية. ﴿يَزَالُونَ﴾: فعل مضارع ناقص مرفوع، والواو اسمه. ﴿يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾: مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون... إلخ، والواو فاعله، والكاف مفعول به، والجملة الفعلية في محل نصب خبر (يزال) وجملة: ﴿وَلَا يَزَالُونَ...﴾: معطوفة على الجمل الاسمية قبلها، وفيه ضعف من جهة المعنى، والأولى عطفها على جملة: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ﴾، كما يجوز اعتبارها في محل نصب حال من واو الجماعة. فتلخص من ذلك: أن الكلام من قوله: ﴿وَصَدٌّ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلۡقَتۡلِۗ﴾ يجوز اعتباره معطوفاً على جملة: ﴿قِتَالٖ فِيهِۖ...﴾ إلخ فهو في محل نصب مقول القول، ويجوز اعتباره في محل نصب حال من الضمير المستتر في: ﴿كَبِيرٞۚ﴾ والرابط: الواو فقط، وأن جملة: ﴿وَلَا يَزَالُونَ...﴾ إلخ يجوز فيها ثلاثة أوجه: العطف على جملة: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ...﴾ إلخ، والحالية من واو الجماعة، والاستئناف.

﴿حَتَّىٰ﴾: حرف غاية وجر بعدها «أن» مضمرة. ﴿يَرُدُّوكُمۡ﴾: فعل مضارع منصوب بـ «أن» المضمرة، وعلامة نصبه حذف النون، والواو فاعله، والكاف مفعول به، و«أن» المضمرة، والفعل المضارع في تأويل مصدر في محل جر بـ ﴿حَتَّىٰ﴾، والجار والمجرور متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿عَن

﴿دِينِكُمْ﴾: متعلقان بما قبلهما، والكاف في محل جرٍّ بالإضافة. ﴿إِنِ﴾: حرف شرط جازم. ﴿ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾: فعل ماض مبني على الضم في محل جزم فعل الشرط، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنها ابتدائية، ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفي، وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه، التقدير: إن استطاعوا أن يردُّوكم؛ فليردوكم.

(مَنْ): اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ ﴿يَرْتَدِدْ﴾: فعل مضارع فعل الشرط، والفاعل يعود إلى (من). ﴿مِنكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال من فاعل ﴿يَرْتَدِدْ﴾ المستتر، و(من) بيان لما أبهم في (مَنْ). ﴿عَن دِينِهِۦ﴾: متعلقان بالفعل يرتدد، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿فَيَمُتْ﴾: الفاء: حرف عطف. يمت: معطوف على: ﴿يَرْتَدِدْ﴾ مجزوم مثله، والفاعل يعود إلى (مَنْ) أيضاً. ﴿وَهُوَ كَافِرٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة الاسمية في محل نصب حال من فاعل (يمت) المستتر، والرابط: الواو، والضمير. ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (أولئك): اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ، والكاف حرف خطاب، لا محل له. ﴿حَبِطَتْ﴾: فعل ماض، والتاء للتأنيث. ﴿أَعْمَٰلُهُمْ﴾: فاعله، والهاء في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: (أولئك..) إلخ في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور، والدسوقي يقول: لا محل لها؛ لأنها لم تحلَّ محلَّ المفرد، وخبر المبتدأ الذي هو (مَنْ) مختلف فيه، والمرجح: أنه جملتا الشرط والجواب، كما رأيته فيما سبق، والجملة الاسمية: (مَنْ...) إلخ مستأنفة لا محل لها. ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾ متعلقان بالفعل: ﴿حَبِطَتْ﴾، وعلامة الجر كسرة مقدرة على الألف للتعذر. ﴿وَٱلْءَاخِرَةِ﴾: معطوف على ما قبله. ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾: تقدَّم مثل هذه الجملة كثيراً، ويأتي مثلها، وفي محل الجملة الاسمية وجهان: عطفها على جملة جواب الشرط، واستئنافها. تأمل، وتدبَّر.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾

الشرح: قال جندب بن عبد الله، وعروة بن الزبير ـ رضي الله عنهما ـ : لمَّا قَتَل واقد بن عبد الله التميمي عمرو بن الحضرمي في الشهر الحرام؛ توقَّف رسول الله ﷺ عن أخذ خمسه؛ الَّذي وُفِّق في فرضه له عبد الله بن جحش، وفي الأسيرين، فعنَّف المسلمون عبد الله بن جحش، وأصحابه؛ حتَّى شقَّ ذلك عليهم، فتلافاهم الله ـ عزَّ وجل ـ بهذه الآية في الشهر الحرام، وفرَّج عنهم، وأخبر: أنَّ لهم ثواب مَنْ هاجر، وغزا. وقال بعض المسلمين: إن سلموا من الإثم؛ فليس لهم أجر، فردَّ الله عليهم بهذه الآية. فالإشارة إليهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ثم هي باقية في كلِّ مَنْ فعل ما ذكره الله عزَّ وجلَّ.

﴿هَاجَرُواْ﴾: الهجرة معناها: الانتقال من موضع إلى موضع، وقصد ترك الأول إيثاراً للثاني، والهجر ضدُّ الوصل، وهو بفتح الهاء، والهُجر بضم الهاء: الفحش في القول. (جاهدوا): قاتلوا. ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: من أجل نصر دين الله. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: المؤمنون المهاجرون المجاهدون. ﴿يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾: يطلبون رحمة الله بما فيها من خيرٍ عميمٍ، وفضل عظيم. وإنَّما قال جلَّ ذكره: ﴿يَرْجُونَ﴾ وقد مدحهم، وأثنى عليهم بالإيمان والهجرة والجهاد؛ لأنَّه لا يعلم أحد في هذه الدنيا: أنه صائر إلى الجنة، ولو بلغ في طاعة الله كلَّ مبلغٍ؛ لأمرين: أحدهما: لا يدري بما يُختم له، والثاني: لئلا يتَّكل على عمله.

هذا؛ والرجاء: الطَّمع، والأمل في الشيء، والرَّجاء معه خوفٌ لا بدَّ، كما أنَّ الخوف معه رجاءٌ، والرَّجاء من الطَّمع، والأمل (ممدودٌ)، والرَّجا بالقصر: ناحية الشيء، وطرفه، والعوام من الناس يخطئون في قولهم: يا عظيم الرجا، ويقال: ترجيته، وارتجيته، ورجيته، كله بمعنى: رجوته، قال بشر يخاطب ابنته: [الوافر]

فَرَجِّي الْخَيْرَ وَانْتَظِري إِيَابِي إِذَا مَا الْقَارِظُ الْعَنَزِيُّ آبَا

والرجاء بمعنى الأمل، والطَّماعية في الشَّيء، ومنه قول الشاعر: [الوافر]

أَتَرْجُو أُمَّةٌ قَتَلَتْ حُسَيْنَاً شَفَاعَةَ جَدِّهِ يَوْمَ الْحِسَابِ

والرَّجاء يأتي بمعنى عدم المبالاة إذا كان منفيّاً، قال خبيب بن عدي رضي الله عنه: [الطويل]

لَعَمْرُكَ مَا أَرْجُو إِذَا كُنْتُ مُسْلِماً عَلَى أَيِّ جَنْبٍ كَانَ فِي الله مَصْرَعِي

وقد يأتي الرجاء بمعنى الخوف، وبه فسر كثير من المفسرين الآية الأخيرة من سورة (الكهف) وغيرها، وهي لغة تهامة، ومنه قول أبي ذؤيب الهُذلي في صفة عسَّال، وهو الذي يقطف عسل النحل: [الطويل]

إِذَا لَسَعَتْهُ الدَّبْرُ لَمْ يَرْجُ لَسْعَهَا وَخَالَفَهَا فِي بَيْتِ نَوبٍ عَوَامِلُ

وقال بعض العلماء: لا يقع الرَّجاء بمعنى الخوف إلا مع الجَحْد؛ أي: النَّفي، كقوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ وقال بعضهم: بل يقع في كلِّ موضعٍ دلَّ عليه المعنى، وهو المعتمد. هذا، والدَّبر: النحل، والنُّوب بضم النون أيضاً: النَّحل، واحدة: نوب. ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ لما فعله أهل سرية عبد الله خطأً، وقلَّة احتياط. ﴿رَّحِيمٌ﴾: بهم، فهو يجزل لهم الأجر، والمثوبة، وهما صيغتا مبالغة.

الإعراب: ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل نصب اسمها. ﴿ءَامَنُواْ﴾: ماض، وفاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية مع المتعلق

المحذوف: صلة الموصول، لا محل لها. ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾: معطوف على ما قبله، وجملة: ﴿وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ معطوفة على جملة الصِّلة، لا محل مثلها، و﴿سَبِيلِ﴾: مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾ مضاف إليه. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ، والكاف حرف خطاب، لا محلَّ له. ﴿يَرْجُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون، والواو فاعله، والجملة في محل رفع خبر المبتدأ، ﴿رَحْمَتَ﴾: مفعول به، وهو مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾ مضاف إليه، من إضافة المصدر لفاعله، والجملة الاسمية: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ...﴾ إلخ في محل رفع خبر ﴿إِنَّ﴾، والجملة الاسمية: ﴿إِنَّ...﴾ إلخ لا محل لها؛ لأنها مبتدأة، والجملة الاسمية: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ في محل نصب حال من لفظ الجلالة، والرابط الواو، وإعادة الاسم الكريم بلفظه، والاستئناف ممكن.

﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَاۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ٢١٩﴾

المناسبة: لمَّا ذكر الله تعالى في الآية السابقة أحكام الجهاد، وبيَّن الهدف السامي من مشروعيته، وهو نصرة الحق، وإعزاز الدِّين، وحماية الأمة من أن يلتهمها العدو الخارجيُّ؛ ذكر بعدها ما يتعلق بإصلاح المجتمع الداخلي على أسس من الفضيلة والخلق الكريم، ولا بدَّ للدولة من الإصلاح الداخلي، والخارجي؛ لتقوم دعائمها على أسس متينة، وتبقى صرحاً شامخاً، لا تؤثر فيه الأعاصير.

الشرح: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾: فقد روى جماعةٌ عن ابن عبَّاسٍ ـ رضي الله عنهما ـ قال: ما رأيت قوماً خيراً من أصحاب محمَّدٍ ﷺ ما سألوه إلا عن ثلاث عشرة مسألة، كلُّهن في القرآن: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِۖ﴾، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰۖ...﴾ إلخ ما كانوا يسألون إلا عمَّا ينفعهم. قال ابن عبد البر: ليس في الحديث من الثلاث عشرة مسألة إلا ثلاث.

أقول: يناقض هذا قوله تعالى في سورة (المائدة) رقم [١٠١]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ وقوله تعالى في سورة المجادلة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةًۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. وعن المغيرة بن شعبة ـ رضي الله عنه ـ، عن النبي ﷺ قال: «**إنَّ الله حَرَّمَ عَلَيْكُمْ، عُقُوقَ الأُمَّهاتِ، ووَأْدَ الْبَنات، وَمَنْعاً وَهَاتِ، وَكَرِهَ لَكُمْ: قِيلَ، وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤال، وَإِضَاعَةَ الْمَال**». أخرجه البخاريُّ، وغيره. فهذا يدلُّ على أنَّهم كانوا يكثرون السؤال.

﴿عَنِ ٱلْخَمْرِ﴾: ﴿ٱلْخَمْرِ﴾: مأخوذ من خمر: إذا ستر، ومنه: خِمار المرأة. وكلُّ شيءٍ غطَّى شيئاً فقد خمره. ومنه قول النّبي ﷺ: «**خَمِّرُوا آنيتكُمْ**». فالخمر تخمر العقل، أي: تغطيه، وتستره، ومن ذلك الشَّجر الكثير الملتف يقال له: الخمر بفتح الميم؛ لأنه يغطِّي ما تحته، ويستره، يقال منه: أخمرت الأرض: كثر خمرها، قال الشاعر: [الوافر]

أَلَا يَا زَيْدُ وَالضَّحَّاكُ سِيرَا ... فَقَدْ جَاوَزْتُمَا خَمَرَ الطَّرِيقِ

أي: سيرا مُدِلِّين فقد جاوزتما الوَهْدَة الَّتي يستتر بها الذِّئب، وغيره. وهو على حذف مضاف؛ إذ التقدير: يسألونك عن شرب الخمر. ﴿وَٱلْمَيْسِرِ﴾ أي: وعن تعاطي الميسر: وهو قمار العرب بالأزلام، واشتقاقه من اليسَرِ؛ لأنَّه أخذ المال بسهولة من غيرِ تعبٍ، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كان الرَّجلُ في الجاهلية يُقامر الرَّجلَ على أهله، وماله، فأيُّهما قمر صاحبه؛ ذهب بماله، وأهله. والأزلام هي: سهام الميسر، وهي أحد عشر سهماً، منها سبعةٌ لها حظوظ، وفيها فروض على عدد الحظوظ، وهي: الفذُّ، وفيه علامةٌ واحدة، وله نصيبٌ، وعليه نصيب إن خاب. الثاني: التوءم، وفيه علامتان، وله نصيبان وعليه نصيبان. الثالث: الرَّقيب، وفيه ثلاث علامات على ما ذكرنا. الرابع: الحلس، وله أربع. الخامس: النَّافر، أو النافس أيضاً، وله خمس. السَّادس: المسبل، وله ست. السَّابع: المعلَّى، وله سبع، فذلك ثمانية، وعشرون فرضاً، وأنصباء الجزور كذلك في قول الأصمعي، وبقي من السِّهام أربعة، وهي الأغفال، لا فروض لها، ولا أنصباء، وهي: المصدَّر، والمُضعَّف، والمَنيح، والسَّفيح. وقيل: الباقية الأغفال الثلاثة: السَّفيح، والمنيح، والوغد. قال بعضهم: [مجزوء الرمل]

لِي فِي الدُّنْيَا سِهَامٌ ... لَيْسَ فِيهِنَّ رَبِيحْ

إِنَّمَا سَهْمِي وَغْدٌ ... وَمَنِيحٌ وَسَفِيحْ

تزاد هذه الثلاثة لتكثر السِّهام على الَّذي يُجيلها، فلا يجد إلى الميل مع أحد سبيلاً. وكانت عادة العرب أن تضرب الجزور بهذه السِّهام في الشدَّة، وضيق الوقت، وكلب البرد على الفقراء، يشترى الجزور، ويضمن الأيسار ثمنها، ويرضى صاحبها من حقِّه، وكانوا يفتخرون بذلك، ويذمُّون من لم يفعل ذلك منهم، ويسمونه البرم؛ أي: البخيل. قال متمم بن نويرة في رثاء أخيه مالك، ومدحه: [الطويل]

وَلَا بَرَماً تُهْدِي النِّسَاءُ لِعِرسِهِ ... إِذَا الْقَشْعُ مِنْ بَرْدِ الشِّتَاءِ تَقَعْقَعَا

وكانوا لا يأكلون منه شيئاً، ويدعونه للفقراء، ويكتفون بمدح الناس لهم، والثَّناء عليهم.

تنبيه: نزل في الخمر أربع آيات، نزل في مكَّة قوله تعالى في سورة (النَّحل): ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ فهذه الآية في معرض الامتنان على الناس جميعاً، فكان المسلمون يشربونها، وهم في مكَّة، وهي حلالٌ لهم، وبعد

الهجرة إلى المدينة المنورة جاء عمر، ومعاذ، ونفرٌ من الصَّحابة رضوان الله عليهم إلى النبي ﷺ، وقالوا: يا رسول الله! أفتنا في الخمر، فإنَّها مَذْهَبَةٌ للعقل، مسلبةٌ للمال. فنزلت الآية الكريمة التي نحن بصدد شرحها، فشربها قومٌ، وتركها آخرون تورُّعاً، وترجيحاً لمضرَّتها على منفعتها، الَّتي ذكرتها، ثم إن عبد الرحمن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ دعا جماعةً من الصحابة إلى بيته، فشربوا، وسكروا، فلمَّا حضرت صلاة المغرب، قدَّموا أحدهم يُصَلِّي بهم، فقرأ سورة (الكافرون): ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ إلخ، وحذف (لا) النافية، فأنزل الله تعالى قوله في سورة (النساء): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ...﴾ إلخ، فتركها الأكثرون، وقلَّ مَنْ يشربها، وعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ كان يقول دائماً: اللَّهمَّ بيِّن لنا في الخمر بياناً شافياً.

ثم إنَّ عُتبان بن مالك الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ دعا جماعةً من الصَّحابة فيهم سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ، فأكلوا، وشربوا، حتَّى أخذت منهم الخمر، فافتخروا عند ذلك، وانتسبوا، وتناشدوا الأشعار، فأنشد سعد ـ رضي الله عنه ـ قصيدةً فيها فخرٌ بقومه، وهجاء الأنصار، فأخذ رجل من الأنصار لَحْيَ بعيرٍ، فضرب به رأس سَعْدٍ، فشجَّه موضحةً، فانطلق سعد إلى رسول الله ﷺ، وشكا إليه الأنصاريَّ، فقال الفاروق ـ رضي الله عنه ـ: اللَّهمَّ بيِّن لنا في الخمر بياناً شافياً! ويروى: أن الحمزة ـ رضي الله عنه ـ شرب الخمرة يوماً، وخرج، فلقي رجلاً من الأنصار، وبيده ناضح ناقةٍ له، والأنصاريُّ يتمثَّل ببيتين لكعب بن مالك ـ رضي الله عنه ـ، يمدح بهما قومه، وهما: [الطويل]

جَمَعْنَا مَعَ الإِيْواءِ نَصْراً وَهِجْرةً ... فلَمْ يُرَ حَيٌّ مِثْلُنَا فِي الْمَعَاشِرِ
فَأَحْيَاؤُنَا مِنْ خَيْرِ أَحياءِ مَنْ مَضَى ... وَأَمواتُنَا مِنْ خَيْرِ أَهْلِ الْمَقَابِرِ

فقال الحمزة ـ رضي الله عنه ـ: أولئك المهاجرون، وقال الأَنْصَارِيُّ: بل نحن الأنصار، فجرد الحمزةُ سيفه، وعدا على الأنصاريِّ، فهرب الأنصاريُّ، وترك ناضحه، فقطعه الحمزة بسيفه، فجاء الأنصاريُّ شاكياً إلى رسول الله ﷺ، فأخبره بفعل الحمزة، فغرم له رسول الله ﷺ ناقةً، فقال الفاروق ـ رضي الله عنه ـ: اللَّهم بيِّن لنا في الخمر بياناً شافياً! فأنزل الله تعالى آية (المائدة) قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ...﴾ إلخ إلى قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ فقال الفاروق ـ رضي الله عنه ـ: انتهينا يا رب! فكانت الآيات مما وافق رأي عمر ـ رضي الله عنه ـ وذلك بعد غزوة الأحزاب بأيَّام.

هذا؛ والحكمة في وقوع التَّحريم على هذا التَّرتيب: أنَّ الله تعالى علم: أنَّ القوم كانوا قد ألفوا شرب الخمر، وكان انتفاعهم بذلك كثيراً، فعلم أنَّه لو منعهم من الخمر دفعة واحدة؛ لشقَّ ذلك عليهم، فلا جرم استعمل هذا التَّدريج، وهذا الرِّفق. قال أنس رضي الله عنه: حُرِّمت

الخمر، ولم يكن يومئذ للعرب عيشٌ أعجب منها، وما حُرِّم عليهم شيءٌ أشدَّ من الخمر. انتهى. ما تقدَّم من الخازن، والبيضاوي، والنَّسفي، والجمل، والكشَّاف بتصرُّفٍ كبير.

أما بالنسبة لتحريم الخمر، فقد روى أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: لعن رسول الله ﷺ في الخمر عشرةً: «**عَاصِرَهَا، ومُعْتَصِرَهَا، وَشَارِبهَا، وَحامِلَهَا، والمَحْمولَةَ إِلَيْهِ، وَسَاقِيهَا، وَبَائعَهَا، وآكلَ ثمنِهَا، والْمَشترِيَ لَها، والْمُشْتَرى لَهُ**». رواه الترمذيُّ.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ الله حَرَّمَ الْخَمْرَ، وَثَمَنَها، وحَرَّمَ الْمَيتةَ، وَثَمَنَهَا، وَحَرَّمَ الْخِنْزِيرَ، وَثَمَنَهُ**». رواه أبو داود، وغيره.

وعنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ زَنَى، أَوْ شَرِبَ الْخَمْرَ؛ نَزَعَ اللهُ مِنْهُ الإيمانَ، كَمَا يَخْلَعُ الإنسانُ الْقَمِيصَ مِنْ رَأْسِهِ**». رواه الحاكم.

وعن خباب بن الأرتِّ ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «**إِيَّاكَ والخَمْرَةَ؛ فَإِنَّ خَطِيئَتَها تَفْرَعُ الخطايَا، كَمَا أنَّ شجَرتها تفْرَعُ الشَّجَرَ**». رواه ابن ماجه.

وعن ابن عباسٍ ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**اجْتَنِبُوا الْخَمْرَ؛ فَإِنَّهَا مِفْتَاحُ كُلِّ شَرٍّ**». رواه الحاكم.

وعن عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**اجْتَنِبُوا أُمَّ الْخَبَائِثِ.. إلخ**» الحديث. رواه ابن حبَّان، والبيهقيُّ، والأحاديث في ذلك كثيرة. وروي عن عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ قال: لو وقعت قطرة خمر في بئر، فَبُنِيَتْ مكانها منارةٌ؛ لم أؤذِّن عليها، ولو وقعت في بحرٍ، ثم جَفَّ، ونبت فيه الكلأ؛ لم أرعه.

ثمَّ إنَّ الشَّارب يصير ضُحْكَةً للعقلاء، فيلعب ببوله، وعَذرَته، وربما يمسح وجهه به؛ حتَّى رؤي بعضهم يمسح وجهه ببوله، ويقول: اللَّهم اجعلني من التَّوابين، واجعلني من المتطهِّرين. ورؤي بعضهم؛ والكلب يلحس وجهه، وهو يقول له: أكرمك الله؛ كما أكرمتني.

وأمَّا القِمار؛ فإنه يورث العداوة، والبغضاء؛ لأنه أكل مال الغير بالباطل، والحكم في الآية يعمُّ جميعَ أنواع القمار فكلُّ شيءٍ فيه مقامرةٌ؛ فهو من الميسر، وكلُّ شيءٍ فيه رهنٌ فهو منه، حتى لعب الصبيان بالجَوز، والكِعاب، والطاولة. وأما النَّرد (الورق) فيحرم اللعب به، ولو بغير رهنٍ، ويدلُّ على تحريمه ما روي عن بُريدة ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ لَعِبَ بالنَّرْدَ شِير؛ فكأنما صَبَغَ يَدَهِ في دَم خِنْزِير**». رواه مسلم. وعن أبي موسى الأشعريِّ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ لَعِبَ بالنَّرْدِ؛ فَقَدْ عصى اللهَ ورسولَهُ**». أخرجه أبو داود، وغيره، وقد أخرج البيهقيُّ كما في الزَّواجر عن يحيى بن كثير؛ قال: مرَّ رسول الله ﷺ على قومٍ يلعبون بالنَّرد، فقال: «**قُلُوبٌ لاهيَةٌ، وَأَيْدٍ عَامِلَةٌ، وَأَلْسِنَةٌ لَاغِيَةٌ**».

وعن عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ: قال: النَّرد، والشِّطْرَنج من المَيْسِر. واختلفوا في الشِّطْرَنْج، فمذهب أبي حنيفة: أنه يحرم اللعب به، سواءٌ كان بِرَهْنٍ، أو بغير رَهْنٍ. ومذهب الشافعي: أنَّهُ

مباح بشروط، ذكرها الشَّافعي، فقال: إذا خلا الشطرنج عن الرِّهان، واللِّسان عن الهَذَيان، والصلاة عن النسيان؛ لم يكن حراماً، وهو خارج عن المَيْسر؛ لأنَّ الميسر ما يوجب دفع مالٍ، وأخذ مالٍ، وهذا ليس كذلك. انتهى خازن. أقول: ولعلَّ السبب في عدم تحريمه عند الشَّافعي ـ رحمه الله تعالى ـ: أنَّه قائمٌ على النظر، والفكر. ومثله ما يسمَّى اليوم بـ «الضَّاما».

﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ أي: وزرٌ عظيم، والسَّبب في ذلك ما قدَّمته من ذكر المفاسد؛ التي تنتج من تعاطيهما، فالخمرة عدو للعقل، فإذا غلبت على عقل الإنسان؛ ارتكب كلَّ قبيح، ففي ذلك آثامٌ كبيرة، منها: إقدامه على شرب المُحَرَّم، ومنها: فعله مالا يحلُّ فعله. وأما الإثم الكبير في الميسر؛ فهو أكل المال الحرام بالباطل، وما يجري بين المتقامرين من المشاتمة، والمخاصمة، والمعاداة، وكلُّ ذلك فيه آثار كثيرة، وخطيرة. هذا؛ وقرأ حمزة والكسائي: (كثيرٌ) وحجتهما: أن النبي ﷺ لعن الخَمْرَةَ، ولعن معها عشرةً، كما رأيت فيما تقدَّم، وأيضاً جمع المنافع يحسن معه جمع الآثام. وقرأ الباقون: ﴿كَبِيرٌ﴾ وحجَّتهم: أنَّ الذنب في القمار، وشرب الخمر من الكبائر، فوصْفُه بالكبير أليق. هذا؛ وقد فسر الإثم في آية (الأعراف) رقم [٣٣] بالخَمْرَة، واستدلوا بقول الشاعر: [الوافر]

شَرِبْتُ الإِثْمَ حَتَّى ضَلَّ عَقْلِي ... كَذَاكَ الإِثْمُ يَذْهَبُ بِالْعُقُولِ

﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾: ربح الخمر بالتجارة، فقد كانوا يجلبونها من الشَّام برُخْصٍ، فيبيعونها في الحجاز بربحٍ كبير، فهذا أصحُّ ما قيل في منفعتها، وقيل: من منافعها: أنَّها تهضم الطعام، وتقوي الضَّعيف، وتعين على الباه، وتسخِّي البخيل، وتشجع الجبان، وتُصَفِّي اللون إلى غير ذلك من اللَّذة بها، وقد قال حسان ـ رضي الله عنه ـ قبل إسلامه: [الوافر]

وَنَشْرَبُهَا فَتَتْرُكُنَا مُلُوكاً ... وَأُسْداً مَا يُنَهْنِهُنَا اللِّقَاءُ

وأما منفعة القمار، فهي مصير الشَّيء إلى الإنسان في القمار بغير كدٍّ، ولا تعبٍ. ﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾: أعلمَ اللهُ ـ عز وجل ـ: أن الإثم، والضَّرر أكبرُ من النَّفع، وأعْوَدُ بالضَّرر في الدنيا والآخرة، فالإثم الكبير بعد التَّحريم، والمنافع قبل التحريم؛ فقد سلبهما الله جميع المنافع بعد التَّحريم تحريماً قاطعاً، ومن ظنَّ: أن فيهما منفعة بعد التحريم فهو ناقص العقل، والإيمان، دخل الرسول ﷺ على زوجه أمِّ سلمة ـ رضي الله عنها ـ وهي تسقي بنتاً لها مريضةً شيئاً من النَّبيذ، فقال لها: ما هذا؟ قالت: إنَّها مريضة، وإنِّي أداوي بها علَّتها. فقال لها ﷺ: **«إنَّ اللهَ لَمْ يَجْعَلْ شِفَاءَ أُمَّتي فِيما حَرَّمَ عَلَيْهَا، إنَّهَا دَاءٌ، وَلَيْسَتْ بدَوَاءٍ»**. ورحم الله من يقوله: [السريع]

مَنْ جَعَلَ الْخَمْرَ شِفَاءً لَهُ ... فَلَا شَفَاهُ اللهُ مِنْ عِلَّتِهْ

وإنَّ الخمر المُحرَّمة هي ما خامرت العقل، وغطَّته، فمناط الحكم في التَّحريم الإسكار، لقول الرسول ﷺ: **«كُلُّ مُسْكرٍ خَمْرٌ، وَكُلُّ خَمْرٍ حَرَامٌ»**. فكلُّ ما أسكر تحت أيِّ اسم، وفي أيِّ

لون، ومن أيِّ مادَّةٍ؛ كانت فهو حرام. وخاب الفسقة، والفجرة الَّذين يقولون: إنَّ الله لم يحرم الخمر تحريماً قاطعاً؛ لأنه لم يذكر مادة: «حرَّم» في تحريمها، وقد قال تعالى في تحريم الشِّرك: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. وقال في تحريم الخمر: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ فالاجتناب للشرك كالاجتناب للخمر، فاعتبروا يا أولي الأبصار.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾: السائل هو عمرو بن الجموح ـ رضي الله عنه ـ سأل في الآية رقم [٢١٥] عن مصرف الزَّكاة، وفي هذه الآية سأل عن قدر الإنفاق، فإنه قال ـ رضي الله عنه ـ: كم أنفق؟ ﴿قُلِ الْعَفْوَ﴾، أي الفضل، أي: ما فضل عن الحاجة، وتيسَّر، ومنه قول أسماء بن خارجة الفزاري يخاطب زوجته حين بنى بها: [الطويل]

خُذِي الْعَفْوَ مِنِّي تَسْتَدِيمِي مَوَدَّتِي وَلَا تَنْطِقِي في سَوْرَتِي حِينَ أَغْضَبُ

فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«خَيْرُ الصَّدَقَةِ مَا كَانَ عَنْ ظَهْرِ غِنىً، واليدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ»**. أخرجه مسلم. وعنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ لرجل قال: يا رسول الله! عندي دينار، قال: **«أَنْفِقْهُ عَلَى نَفْسِكَ»**. قال: عندي آخر، قال: **«أنفقه عَلَى أَهْلِكَ»** قال: عندي آخر، قال: **«أَنْفِقْهُ عَلَى وَلَدِكَ»**. قال: عندي آخر، قال: **«فَأَنْتَ أَبْصَرُ بِهِ»**. رواه ابن جرير، وأخرجه مسلمٌ بنحوه. قال الكلبيُّ: كان الرَّجل بعد نزول هذه الآية؛ إذا كان له مال من ذهب، أو فضة، أو زرع، أو ضرع؛ نظر إلى ما يكفيه، وعياله لنفقة سنة، أمسكه، وتصدَّق بسائره، وإن كان ممَّن يعمل بيده؛ أمسك ما يكفيه، وعياله يوماً، وتصدَّق بالباقي؛ حتى نزلت آية الزَّكاة المفروضة، فنسخت هذه الآية، وكلَّ صدقةٍ أمروا بها.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: كما فصَّل لكم هذه الأحكام وبيَّنها، كذلك يبيِّن لكم سائر الآيات في أحكامه، ووعده، ووعيده. ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩) فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يعني في زوال الدُّنيا، وفنائها، وإقبال الآخرة وبقائها. وقال الحسن ـ رحمه الله تعالى ـ: هي والله لمن تفكَّر فيها، ليعلم: أن الدنيا دار بلاء، ثم دار فناء، وليعلم: أن الآخرة دار جزاء، ثمَّ دار بقاء. وانظر التفكر في آل عمران رقم [١٩١].

الإعراب: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ﴾: الإعراب مثل الآية [٢١٧] إفراداً، وجملة.

﴿وَالْمَيْسِرِ﴾: معطوف على ما قبله. ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، والفاعل تقديره: أنت. ﴿فِيهِمَا﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم، والميم والألف حرفان دالان على التثنية. ﴿إِثْمٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قُلْ...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها. ﴿كَبِيرٌ﴾: صفة: ﴿إِثْمٌ﴾. ﴿وَمَنَافِعُ﴾: معطوفة على: ﴿إِثْمٌ﴾ عطف مفرد على

مفرد. ﴿لِلنَّاسِ﴾: متعلقان بـ: (منافع)، أو هما متعلقان بمحذوف صفة له. ﴿وَإِثْمُهُمَآ﴾: الواو: واو الحال. (إثمهما): مبتدأ، والهاء في محل جر بالإضافة، من إضافة المصدر لفاعله؛ لأنَّ الخمر، والميسر هما اللذان يؤثمان، والميم والألف حرفان دالان على التثنية. ﴿أَكۡبَرُ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل نصب حال من الضمير المجرور محلّاً بـ (في) العائد على الخمر، والميسر، والرابط: الواو، والضمير. ﴿مِن نَّفۡعِهِمَاۗ﴾: متعلقان بـ ﴿أَكۡبَرُ﴾ والهاء في محل جر بالإضافة، والميم والألف حرفان دالان على التثنية.

﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾: انظر الإعراب مثل هذا الكلام في الآية رقم [٢١٥] والجملة الفعلية معطوفة على أول الآية، لا محل لها مثلها. ﴿ٱلۡعَفۡوَۗ﴾ يقرأ بالنصب، والرفع، فالنصب على تقدير فعل، تقديره: أنفقوا العفو، وهذا إن جعلت: ﴿مَاذَا﴾ اسماً واحداً مركباً في محل نصب مفعول به مقدَّم للفعل بعده، والرفع على أنَّه خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: قل: الْمُنْفَقُ الْعَفوُ، وهذا، إن جعلت (ماذا) مبتدأً، وخبراً؛ لأن (العفو) جواب، وإعراب الجواب كإعراب السُّؤال، وحكى النَّحويون: ماذا تعلَّمت: أنحواً أم شعراً؟ بالنَّصب، والرَّفع على أنَّهما جيدان حسنان؛ إلا أنَّ التفسير في الآية على النَّصب. والجملة سواء أكانت اسمية، أم فعلية في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ﴾ مستأنفة لا محل لها من الإعراب.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لمصدر محذوف، عامله الفعل الَّذي بعده، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب لا محلَّ له. ﴿يُبَيِّنُ﴾: فعل مضارع. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله. ﴿لَكُمُ﴾: متعلقان به. ﴿ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ مفعول به منصوب، وعلامة نصبه الكسرة نيابة عن الفتحة؛ لأنه جمع مؤنث سالم، وتقدير الكلام: يبين الله لكم الآيات تبييناً مثل هذا التبيين، والجملة الفعلية مستأنفة، لا محل لها. ﴿لَعَلَّكُمۡ﴾: حرف مشبه بالفعل، والكاف اسمها. ﴿تَتَفَكَّرُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون، والواو فاعله، والجملة الفعلية في محل رفع خبر (لعلّ)، والجملة الاسمية تعليل للتبيين. ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا﴾: متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿وَٱلۡأٓخِرَةِۗ﴾ معطوف على الدُّنيا.

﴿فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعۡنَتَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٢٢٠﴾

الشرح: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ﴾: روى أبو داود، والنَّسائي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: لما أنزل الله تعالى قوله: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ وقوله: ﴿إِنَّ

﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾ انطلق مَنْ كان عنده يتيم، فعزل طعامه من طعامه، وشرابه من شرابه، واعتزل الأوصياء اليتامى، ومخالطتهم، والاهتمام بشؤونهم تحرُّجاً من الإثم، فشقَّ ذلك على الأوصياء، واليتامى، فذكروا ذلك للنَّبيِّ ﷺ فنزلت هذه الآية، فخلطوا طعامهم بطعام اليتامى، وشرابهم بشرابهم.

﴿قُلۡ﴾: الخطاب للنبي ﷺ: ﴿إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ﴾ أي: مخالطتهم، ومداخلتهم لإصلاح أحوالهم، وإصلاح أموالهم بالحفظ، والتنمية خيرٌ من مجانبتهم. ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡۚ﴾ أي: إذا خلطتم أموالهم بأموالكم على وجه المصلحة لهم؛ فهم إخوانكم في الدين، وأخوَّة الدين أقوى من أخوة النَّسب، ومن حقوق هذه الأخوة المخالطة بالإصلاح، والنفع.

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ﴾: وَعْدٌ، ووعيدٌ، فالوعيد لمن يفسد في مال اليتيم، ويضرُّ بمصالحه، والوعد لمن يقوم بتربية اليتيم، وحفظ ماله، والاهتمام بشأنه. والعلم يقتضي المجازاة على الإفساد، والإصلاح. وبالجملة: الله تعالى أعلم وأدرى بِمَنْ يقصد بمخالطتهم الخيانة، والإفساد لأموالهم، ويعلم كذلك مَنْ يقصد لهم الإصلاح، فيجازي كلاًّ بعمله. وبين المفسد، والمصلح طباق، وهو من المحسِّنات البديعية.

﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعۡنَتَكُمۡۚ﴾: أي: لو شاء تعالى لأوقعكم في الحرج، والمشقَّة، وشدَّد عليكم، ولكنَّه يسَّر عليكم الدِّين، وسهَّله رحمةً بكم. والعَنَتُ هنا: المشقة، والتضييق. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾: غالب على أمره، قويٌّ لا يقهره أحد. ﴿حَكِيمٞ﴾: في صنعه يضع الأمور مواضعها لحكمةٍ يعلمها. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ لا يحسن مكانه غفورٌ رحيم. وانظر الآية رقم [٢٠٩].

الإعراب: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ قُلۡ﴾: تقدَّم إعراب مثل هذه الكلمات إفراداً، وجملة. ﴿إِصۡلَاحٞ﴾: مبتدأ، وهو نكرة سوغ الابتداء به وصفه بالجار والمجرور: ﴿لَّهُمۡ﴾، أو بعمله فيهما؛ إن علقتهما به؛ لأنه مصدر. ﴿خَيۡرٞۖ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول، والجملة الفعلية: ﴿قُلۡ إِصۡلَاحٞ...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها.

﴿وَإِن﴾: الواو: حرف عطف. (إن): حرف شرط جازم. ﴿تُخَالِطُوهُمۡ﴾: فعل مضارع فعل الشرط مجزوم، وعلامة جزمه حذف النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والهاء مفعول به، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها ابتدائية، ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفي.

﴿فَإِخۡوَٰنُكُمۡۚ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (إخوانكم): خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: فهم إخوانكم، والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور، والدسوقي يقول: لا محل لها؛ لأنها لم تحلَّ محل المفرد، و(إنْ) ومدخولها كلام معطوف على ما قبله، فهو في محل نصب مقول القول مثله.

﴿وَٱللَّهُ﴾: الواو: واو الحال. (الله): مبتدأ. ﴿يَعْلَمُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود على (الله)، ﴿ٱلْمُفْسِدَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل نصب حال من (إخوانكم) والرابط: الواو، وضمير مقدر؛ إذا التقدير: المفسد لأموالهم، والمصلح لأموالهم. والاستئناف ممكن. ﴿مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾: متعلقان بالفعل: ﴿يَعْلَمُ﴾ أو هما متعلقان بمحذوف حال من: ﴿ٱلْمُفْسِدَ﴾ وذلك على اعتبار (أل) للتعريف.

﴿وَلَوْ﴾: الواو: حرف عطف (لو): حرف لما كان سيقع لوقوع غيره. ﴿شَآءَ﴾: فعل ماض. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله، ومفعوله محذوف، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها ابتدائية، ويقال: لأنَّها جملة شرط غير ظرفي. ﴿لَأَعْنَتَكُمْ﴾: اللام: واقعة في جواب (لو)، (أعنتكم): فعل ماض، والكاف مفعول به، والفاعل يعود إلى: ﴿ٱللَّهُ﴾ والجملة الفعلية جواب (لو)، لا محل لها، و(لو) ومدخولها كلام مستأنف لا محل له، واعتباره في محل نصب مقول القول غير بعيد. والجملة الاسمية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾: مفيدة للتعليل، لا محل لها.

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾

الشرح: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟﴾: لا تتزوَّجوا، فهو من الثلاثي المتعدي لواحد، وهو بفتح تاء المضارعة، بخلاف الآتي؛ فإنَّه بضمِّها؛ لأنه من الرُّباعي وهو حقيقة في العقد، مجاز في الوطء على الأصحِّ عند الشافعي، رضي الله عنه، والعكس عند غيره. ﴿ٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾: جمع: مشركة، وهي الوثنية، مثل: مشركي العرب في الجاهلية، والمجوس، وكل من يدين بدين غير سماوي. هذا؛ و﴿ٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ تعمُّ الكتابيات؛ لأنَّ أهل الكتاب مشركون، لقوله تعالى في سورة (التوبة): ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ وكان ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ يقول: حرَّم الله المشركات على المؤمنين، ولا أعرف شيئاً من الإشراك أعظم من أن تقول المرأة: ربُّها عيسى، وهو عبدٌ من عباد الله، ومع ذلك فقد خُصَّت هذه الآية بقوله تعالى في سورة (المائدة): ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ...﴾ إلخ. ﴿حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾: فإن آمنت المشركة؛ فأحْرِ بها أن تكون زوجة، ويحصل أجرٌ، وثواب لمن يكون سبباً في إيمانها. هذا؛ ويجوز عند غير الشافعي زواج الكتابية، وتركها على دينها بدون شروط، وعند الشَّافعي يجوز زواجها مع بقائها على دينها بشرطين: الأول أن يكون نسبها عائداً إلى يعقوب، على نبينا، وعليه

ألف صلاة، وألف سلام، والثاني: أن يُعلم عدم دخول أحد آبائها في اليهودية، أو النَّصرانية بعد بعثة محمَّدٍ ﷺ.

﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ بحسنها، وجمالها، وقدِّها، واعتدالها. وقد نهى الرسول ﷺ وحذَّر من التزوُّج لذلك، فقال: «**لَا تَزَوَّجُوا النِّسَاءَ لِحُسْنِهِنَّ، فَعَسَى حُسْنُهُنَّ أَنْ يُرْدِيَهُنَّ، وَلَا تَزَوَّجُوهنَّ لأَموَالِهِنَّ؛ فَعَسَى أَمْوَالُهُنَّ أَنْ تُطْغيهُنَّ، ولكن تَزَوَّجُوهُنَّ عَلَى الدِّينِ، وَالخُلُق، وَلأَمَةٌ خَرْمَاءُ سَوْدَاءُ، ذاتُ دِينٍ أَفْضَلُ**» رواه ابن ماجه عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

هذا؛ وقال مقاتل ـ رحمه الله تعالى ـ: نزلت الآية الكريمة في مِرْثَد بن أبي مرثد الغنوي، واسمه كَنَّاز بن حصين الغنوي، بعثه رسول الله ﷺ إلى مكة سرّاً ليخرج رجلاً من أصحابه، وكانت له بمكَّة امرأة يحبُّها في الجاهلية، يقال لها: عَناق، فجاءته، فقال لها: إنَّ الإسلام حرَّم ما كان بينهما في الجاهلية، قالت: فتزوجني، قال: حتَّى أستأذن رسول الله ﷺ فأتى النبي ﷺ، فاستأذن، فنهاه عن التزوُّج بها؛ لأنَّه كان مسلماً، وهي مشركة، وانظر مثل هذا في رقم [٣] من سورة (النور).

هذا؛ وقال السُّدِّيُّ، وغيره: كان لعبد الله بن رواحة ـ رضي الله عنه ـ أمةٌ سوداء، فلطمها في غضب، ثمَّ ندم، فأتى النبي ﷺ، فأخبره، فقال: «**يا عبد الله! مَا هِيَ؟**». فقال: تصوم، وتصلِّي، وتحسن الوضوء، وتشهد أن لا إله إلا الله، وأنَّك رسول الله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: «**هذه مؤمنة**». فقال: والذي بعثك بالحق لأعتقنَّها، ولأتزوجنَّها، ففعل، فطعن عليه ناس من المسلمين، وقالوا: نكح أمةً، وكانوا يريدون أن ينكحوا إلى المشركين، وينكحوهم رغبة في أحسابهم، فنزل قوله تعالى: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾. وقال الطبري، وغيره: نزلت في خنساء وليدة سوداء كانت لحذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنه ـ فقال لها حذيفة: يا خنساء! قد ذكرت في الملأ الأعلى مع سوادك، ودمامتك، وأنزل الله ذكرك في كتابه. هذا، وقال ابن حبيب من المالكية: ونكاح اليهودية، والنصرانية؛ وإن كان الله قد أحلَّه مستثقلٌ مذمومٌ. أقول: والسبب في ذلك هو الخوف على الأولاد والَّذين تنجبهم من أن يتأثَّروا بديانتها، وهذا كله متوقف على شخصية الزَّوج، ورجوليته؛ لأنَّنا رأينا، وسمعنا: أن رجالاً مسلمين تزوجوا نصرانيات، فلمَّا كانوا مستقيمين بيَّنوا لهن محاسن الإسلام، وأخذوهن باللطف، والمعروف، والدَّعوة الحسنة حتَّى آمنَّ، وصرنَ أعبد منهم.

طرفة: تزوج رجل مسلم اسماً من عائلة كان لها مجدٌ غابر نصرانيَّةً بإذن أهلها، فأنجبت منه بنتين، فكانت تصحبهما معها إلى الكنيسة؟! والزوج متهتِّك ذو شخصية هزليَّةٍ، فقلت لقريبه: كيف يسمح لها أن تصحب البنتين إلى الكنيسة، فقال لي: هي أحسن منه، هي تعرف: أنَّها لها دين، وهو لا يعرف: أنَّه له دين يدين به، فكانت خيراً منه، فأيَّدته.

﴿وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: ولا تُزوجوا المشركين بناتِكُم، فقد أجمعت الأمَّة على أنَّ المشرك لا يطأ المؤمنة بوجهٍ، لما في ذلك من الغضاضة على الإسلام من وجوه: **الأول**: لأن الإسلام يعلو، ولا يعلى عليه، والزواج فيه علوٌّ، وتسلُّط للرَّجل على المرأة، وهذا واضحٌ لا يحتاج إلى بيان. **الثاني**: جاز أن يتزوج المسلم الكتابية، ولا يجوز أن يتزوج الكتابيُّ المسلمة؛ لأنَّ المسلم يقدِّس ما تقدِّسه الكتابية في دينها، من تعظيم مريم، وتقديس عيسى، على نبينا، وعليهما ألف صلاة وألف سلام، فلا يؤذيها بسب ما تعظِّمه في دينها، بخلاف الكافر إذا تزوج مسلمةً؛ فلا يعظِّم ما تعظمه في دينها، فقد يؤذيها بسبٍّ، وشتم ما تقدِّسه في دينها، وهذا لا يحتاج إلى إيضاح.

هذا؛ وفي الآية الكريمة دليلٌ بالنَّصِّ على أن لا نكاح إلى بوليٍّ، قال محمد بن علي بن الحسين الشهير بالباقر: النِّكاح بوليٍّ في كتاب الله، ثمَّ قرأ: ﴿وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ...﴾ إلخ قال ابن المنذر: ثبت: أن رسول الله ﷺ قال: «**لَا نِكَاحَ إلّا بوليٍّ**» وقد اختلف أهل العلم في النكاح بغير ولي، فقال كثير من أهل العلم: «**لا نكاح إلا بولي**». روي هذا الحديث عن عمر بن الخطاب، وعليٍّ، وابن مسعود، وابن عبَّاسٍ، وأبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، وبه قال من التابعين سعيد بن المسيب، والحسن البصري، وعمر بن عبد العزيز، وجابر بن زيد، وسفيان الثوري، وابن أبي ليلى، وابن شُبْرُمَة، وابن المبارك، والشَّافعي، وعبيد الله بن الحسن، وأحمد، وإسحاق، وأبو عبيدة، ومالك، وأبو ثور، والطَّبريُّ رضي الله عنهم أجمعين.

ويعضد ما تقدَّم قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ﴾ رقم [٢٣٢] الآتية، وقوله تعالى في سورة (النساء) رقم [١٩]: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾، فلولا أنَّ الولي له حقٌّ في الإنكاح؛ ما نُهي عن العضل، وقال تعالى في سورة (النساء) رقم [٢٥]: ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ وقال تعالى في سورة (النور) رقم [٣٢]: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ وقال تعالى عن قول شعيب ـ على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ في سورة (القصص) رقم [٢٧]: ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ﴾ وقال تعالى في سورة (النساء) رقم [٣٤]: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ فقد تعاضد الكتاب، والسنة على أنه لا نكاح إلا بوليٍّ، ولا تنس الخطاب للأولياء في هذه الآية بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ﴾.

وروى الدَّارقطنيُّ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تزوِّجِ المرأةُ المرأَةَ، ولا تُزوِّج المرأةُ نفسها، فإن الزانيةَ هيَ التي تُزَوِّجُ نَفْسَها**».

وروى أبو داود من حديث سفيان عن الزُّهري، عن عروة، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: «**أيُّما امرأةٍ نَكحَتْ بغَيْرِ إذْنِ وَليِّهَا، فَنِكاحُهُا بَاطلٌ ـ ثلاث مرَّات ـ فَإنْ دَخَلَ بهَا؛ فالمَهْرُ لهَا بمَا أصابَ مِنْهَا، فَإنْ تَشَاجَرُوا؛ فالسُّلطانُ وليُّ من لَا وليَّ لَهُ**». وأما قول الرسول ﷺ: «**الأيِّمُ أَحَقُّ بِنَفْسِها مِنْ وَليِّها**» فإن المعنى في أنه لا يُعقد عليها إلا برضاها،

لا أنها أحقُّ بنفسها في أن تعقد عقد النكاح على نفسها دون وليِّها، ولو كانت ثيباً، أو بنت خمسين سنة، وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: أن رسول الله ﷺ قال: «**لا نكاحَ إلَّا بولي، وَشَاهدَيْ عَدْل، وَمَا كَانَ مِنْ نِكاحٍ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ؛ فهو باطلٌ، فإن تشاجَرُوا؛ فالسلطانُ وليُّ مَنْ لا وليَّ لهُ**». في هذا الحديث زيادة «**شاهدي عدْل**» وبه أخذ الشَّافعيُّ رضي الله عنه.

هذا؛ وقد كان الزُّهري، والشعبيُّ يقولان: إذا زوجت المرأة نفسها كفؤاً بشاهدين، فذلك نكاح جائز، وبقولهما أخذ أبو حنيفة، رضي الله عنه. وقال أيضاً: إنْ زوجت نفسها غير كفؤ؛ فالنِّكاح جائز، وللأولياء أن يفرِّقوا بينهما. قال ابن المنذر ـ رحمه الله تعالى ـ: وأما ما قاله النعمان؛ فمخالف للسنة، خارج عن قول أكثر أهل العلم. وقال أبو يوسف رحمه الله تعالى: لا يجوز النكاح إلا بوليٍّ. فإن سلَّم الولي جاز، وإن أبى والزوج كفؤ؛ أجازه القاضي. وهو قول محمد بن الحسن، ولا خلاف بين أبي حنيفة وأصحابه: أنه إذا أذن لها وليها، فعقدت النِّكاح بنفسها جاز، وحمل القائلون بمذهب الزُّهري قول النبي ﷺ: «**لَا نِكَاحَ إلَّا بِوليّ**» على الكمال، لا على الوجوب، واستدلُّوا على هذا بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحۡنَ أَزۡوَٰجَهُنَّ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ﴾ الآية رقم [٢٣٢] الآتية، وأيضاً رقم [٢٣٩]، وبما روى الدَّارقطني عن سماك بن حرب، قال: جاء رجل إلى عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ فقال: امرأة أنا وليُّها، تزوَّجت بغير إذني، فقال عليٌّ ـ كرم الله وجهه ـ: ينظر فيما صنعت، فإن كانت تزوَّجت كفؤاً؛ أجزنا ذلك لها، وإن كانت تزوجت غير كفؤ لها؛ جعلنا ذلك إليك. وفي الموطأ: أنَّ عائشة ـ رضي الله عنها ـ زوَّجت بنت أخيها عبد الرحمن؛ وهو غائب، ولكن ثبت: أنَّ عائشة قرَّرت المهر، وأحوال النكاح، وتولَّى العقد أحد عصبتها، ونسب العقد إلى عائشة لمَّا كان تقريره إليها. واختلف في الأولياء، فالأرجح: أنَّهم العصبات على ترتيب الإرث.

﴿وَلَعَبۡدٞ مُّؤۡمِنٌ﴾ أي: مملوك. ﴿خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكُمۡۗ﴾ أي: بحسنه، وماله، وحسبه، ومنصبه. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: المشركون من رجال، ونساء. ﴿يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ﴾ أي: إلى الأعمال الموجبة إلى النار، فإن صحبتهم، ومخالطتهم، ومعاشرتهم توجب الانحطاط في كثيرٍ من هواهم مع تربيتهم النَّسل. ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ﴾ أي: المؤمنين إلى العمل المؤدي على غفران الذنوب، ثُمَّ إلى دخول الجنة. ﴿بِإِذۡنِهِۦۖ﴾: بتوفيقه للطاعات، وإرادته للخيرات. وبين الجملتين مقابلة، وهي من المحسِّنات البديعيَّة. ﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ﴾: أحكام شريعته. ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾: يتعظون، فيعملون بأحكامه، ومواعظه. انتهى كلُّه من القرطبي بتصرفٍ كبير.

الإعراب: ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف استئناف. (لا) ناهية جازمة. ﴿تَنكِحُواْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ (لا) وعلامة جزمه حذف النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والألف في الجمع للتفريق. ﴿ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه الكسرة نيابة عن الفتحة؛ لأنه

جمع مؤنث سالم، والجملة الفعلية مستأنفة لا محل لها. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف غاية وجر بعدها «أن» مضمرة. ﴿يُؤْمِنَّ﴾: فعل مضارع مبني على السكون، وهو في محل نصب بـ «أن» المضمرة، ونون النسوة فاعله، ومتعلقه محذوف، التقدير: يُؤْمِنَّ بالله ورسوله، و«أن» المضمرة، والفعل ﴿يُؤْمِنَّ﴾ في تأويل مصدر في محل جر بـ ﴿حَتَّىٰ﴾، والجار والمجرور متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿وَلَأَمَةٌ﴾: الواو: واو الاعتراض. اللام: لام الابتداء. (أمة): مبتدأ. ﴿مُّؤْمِنَةٌ﴾: صفة لها. ﴿خَيْرٌ﴾: خبر المبتدأ. ﴿مِّن مُّشْرِكَةٍ﴾: متعلقان بـ ﴿خَيْرٌ﴾؛ لأنه أفعل تفضيل، والجملة الاسمية معترضة بين الجملتين المتعاطفتين. وقال البيضاويُّ، والجمل ـ رحمهما الله تعالى ـ: تعليل للنَّهي. ولا أرى له وجهاً؛ لأن الواو لا تفيد التعليل، ولو قالا: هي في محل نصب حال من واو الجماعة، أو من نون النسوة؛ لكان وجهاً مقبولاً. والرابط: الواو فقط. ﴿وَلَوْ﴾: الواو: واو الحال. (لو): وصلية. ﴿أَعْجَبَتْكُمْ﴾: فعل ماض، والتاء للتأنيث، والكاف مفعول به، والفاعل يعود إلى ﴿مُّشْرِكَةٍ﴾ والجملة الفعلية في محل نصب حال من الموصوف بـ ﴿مُّشْرِكَةٍ﴾، التقدير: امرأة مشركة، وهو أولى من اعتبارها حالاً من: ﴿مُّشْرِكَةٍ﴾، والرابط: الواو والضمير، وتكون الحال متداخلة على وجه مرَّ ذكره، أو هي مكررة.

﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾: إعراب هذا الكلام مثل إعراب سابقه، مع ملاحظة حذف المفعول الأول للفعل: (لا تنكحوا)، إذ التقدير: لا تنكحوا بناتكم المشركين.

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾: اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ، والكاف حرف خطاب لا محل له. ﴿يَدْعُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون، والواو فاعله، يكون فيه تغليب الذكور على الإناث. هذا؛ وإن اعتبرت الفعل مبنياً على السكون، ونون النسوة فاعله؛ يكون فيه تغليب الإناث على الذُّكور، والأول أولى لشرف الذكور، وعلى الوجهين فالجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ...﴾ إلخ مستأنفة، أو تعليلية، لا محلَّ لها على الاعتبارين. (الله) مبتدأ. ﴿يَدْعُوٓا۟﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الواو للثقل، والفاعل يعود إلى (الله). ﴿إِلَى ٱلْجَنَّةِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، ﴿وَٱلْمَغْفِرَةِ﴾: معطوفة على ما قبله. ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾: متعلقان بمحذوف حال من فاعل ﴿يَدْعُوٓا۟﴾ المستتر، والهاء في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟...﴾ إلخ معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها، (يبين) فعل مضارع، والفاعل يعود إلى (الله) ﴿ءَايَـٰتِهِۦ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه الكسرة نيابة عن الفتحة؛ لأنه جمع مؤنث سالم، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿لِلنَّاسِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، أو بمحذوف حال من ﴿ءَايَـٰتِهِۦ﴾ التقدير: واضحات للناس، وجملة: ﴿وَيُبَيِّنُ...﴾ إلخ معطوفة على جملة: ﴿يَدْعُوٓا۟...﴾ إلخ فهي في محل رفع مثلها وجملة: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ مفيدة للتعليل، لا محل لها.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾

الشرح: كان أهل الجاهلية لا يُساكنون الحُيَّض من النِّساء، ولا يؤاكلونهنَّ، كفعل اليهود والمجوس، واستمرَّ ذلك إلى أن سأل ثابت بن الدَّحداح ـ رضي الله عنه ـ مع نفر من الصَّحابة رسول الله ﷺ عن ذلك، فنزلت الآية الكريمة، وقال الرسول ﷺ: «**اصْنَعُوا كلَّ شَيءٍ إلَّا النِّكَاحَ**». فبلغ ذلك اليهود، فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع شيئاً من أمرنا؛ إلا خالفنا فيه! وإذا علمت: أنَّ النَّصارى كانوا لا يتحاشون شيئاً حتى الجماع؛ تبيَّن لك: أن شريعتنا الغرَّاء وسط بين التَّفريط، والإفراط.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾: أي: يسألك المسلمون عن المحيض. هذا؛ وقد جاء هذا الفعل ثلاث مرات مقروناً بواو العطف، وجاء أربع مرات غير مقرون بواو العطف، كما رأيت فيما مضى ذكره في هذه السورة الكريمة. والجواب: أن السؤالات الأواخر وقعت في وقت واحد، فجمع بينها بواو العطف المفيدة لمطلق الجمع، وأما السؤالات الأولى، فوقعت في أوقات متفرقة، فلذلك استؤنفت كلُّ جملةٍ منها، وجيء بها وحدها. انتهى. جمل بتصرف كبير.

﴿ٱلْمَحِيضِ﴾: الحيض، وهو مصدر، يقال: حاضت المرأة حيضاً، ومحاضاً، ومحيضاً، فهي حائض بدون تاء، كطالق، وعاقر؛ لأنها أوصاف خاصَّة بالنساء، وروي: حائضة عن الفرَّاء، وأنشد: [الطويل]

كَحَائِضَةٍ يُزْنَى بِهَا غَيْرَ طَاهِرِ

هذا؛ وللحيض أسماء كثيرة؛ منها: الطَّمث، ومنها: ضاحك، كما في سورة هود رقم [٧١] قوله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ﴾، ومنها: كابر، كما في سورة يوسف رقم [٣١] ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾. والحيض: خلقة في النِّساء، وطبعٌ معتادٌ معروفٌ منهنَّ، تترك المرأة الصَّوم، و الصلاة في أيام حيضها، وفي أيام نفاسها وجوباً، ويحرم عليها قراءة القرآن، ودخول المسجد، والطواف في المسجد الحرام، وتمكين زوجها منها، ولكنَّها تقضي الصَّوم، ولا تقضي الصلاة لكثرتها، وتراكمها في كلِّ شهر بخلاف الصَّوم.

فقد روى البخاريُّ ـ رحمه الله تعالى ـ عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: خرج رسول الله ﷺ في أضحىً، أو فطر إلى المصلَّى، فمرَّ على النساء، فقال: «**يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ! تَصَدَّقْنَ، فَإنِّي أُرِيتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ**». فقلن: وبمَ يا رسول الله؟! قال: «**تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ، وَتَكْفُرْنَ**

الْعَشيرَ، مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقصاتِ عَقْلٍ ودِينٍ أذهبَ لِلُبِّ الرَّجل الحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ». قلن: وما نقصان عقلنا، وديننا يا رسول الله؟! قال: «**أَلَيْسَ شَهَادةُ الْمَرْأَةِ مِثْلَ نِصْفِ شَهادةِ الرَّجُلِ؟**» قلن: بلى! قال: «**فَذَلِكَ مِنْ نُقْصَانِ عَقْلِهَا. أَلَيْسَ إِذَا حَاضَتْ لَمْ تُصَلِّ، ولَمْ تَصُمْ؟**» قلن: بلى يا رسول الله! قال: «**فَذَلِكَ مِنْ نُقْصَانِ دِينِهَا**».

هذا؛ وأمَّا نكران العشير؛ فقد فُسِّرَ في حديث آخر بأنَّ الرجل مهما صنع مع المرأة من معروفٍ، ثم رأت ما يغيِّر خاطرها؛ تقول: ما رأيت منك خيراً قط! وهذا واقع، وكثير في هذا الزمن.

﴿قُلْ هُوَ أَذًى﴾ أي: هو شيء تتأذَّى به المرأة، وغيرها، وهو كناية عن القذر، ويطلق أيضاً على القول المكروه، ومنه قوله تعالى في الآية رقم [٢٦٤]: ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ﴾ وقوله تعالى في سورة (الأحزاب) رقم [٤٨]: ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ وفي حديث شعب الإيمان: «**وأدناها إماطة الأذى عن الطريق**».

﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ أي: في زمن الحيض، أو في محلِّه، فظهر بذلك: أنَّ المحيض يطلق على الحيض نفسه إذا كان مصدراً، وعلى زمانه، وعلى مكانه، وهذا مقرَّرٌ في القواعد النحوية، مثل قوله تعالى في سورة (طه) حكاية عن قول فرعون الطاغية لموسى ـ عليه السلام ـ: ﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ﴾ فـ ﴿مَوْعِدًا﴾ يحتمل اسم الزمان، واسم المكان. أمَّا كيفية اعتزال الرجل المرأة في أيام حيضها، ونفاسها أيضاً؛ فقد روي في ذلك حديثان: الأول: قال الرسول ﷺ، لمن سأله: ما يحلُّ لي من امرأتي وهي حائض؟ قال: «**شُدَّ عَلَيْهَا إِزارَهَا، ثمَّ شَأْنَكَ بِأَعْلَاهَا**». ومثله قوله ﷺ لعائشة ـ رضي الله عنها ـ: «**شُدِّي عَلَيْكِ إِزَارَكِ، ثُمَّ عُودِي إِلَى مَضْجَعِكِ**». وقال ﷺ: «**اصْنَعُوا كلَّ شَيءٍ إِلَّا النِّكاح**». والأول أحوط؛ لأنَّ من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه.

﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾: هو كناية عن جماعهنَّ، وهو أبلغ في النهي عن التعبير بالجماع. وانظر ما ذكرته في الآية رقم [١٨٦]. هذا؛ ويقرأ الفعل بتسكين الطاء، وتشديدها على أن أصله: يتطهَّرن، فعل به ما فعل بقوله تعالى: ﴿يَطَّوَّفَ﴾ في الآية رقم [١٥٨]. ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ أي: اغتسلن بالماء، وهو قول الشافعي، ومالك، وأحمد رضي الله عنهما. وقال أبو حنيفة، وصاحباه ـ رضي الله عنهم ـ: إن انقطع دمها بعد مضي عشرة أيام جاز له أن يطأها قبل الغسل، وإن كان انقطاعه قبل العشرة؛ لم يجز حتى تغتسل، أو يدخل عليها وقت صلاة، واختلف في الزوجة الكتابية، هل تجبر على الاغتسال، من الحيض، والنفاس، أو لا تجبر؟ لا شكَّ إن امتنع عنها مدَّةً؛ فإنها تخضع، وتغتسل بدون إكراهٍ لها، وهو أفضل له.

﴿فَأْتُوهُنَّ﴾: جامعوهن، وهو كناية أيضاً، وهذا شأن الله ـ جلَّ الله، وتعالى شأنه ـ في كتابه من استعمال الكنايات في الألفاظ غير الحسنة. ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾: ﴿مِنْ﴾ بمعنى «في»

أي: فائتوهنَّ في المحل الذي أمر الله بالإتيان فيه. وهو معروف. والأمر للإباحة. هذا؛ وأقل الحيض عند الشَّافعي، وأحمد، ومالك يوْمٌ، وليلة، وأكثره خمسة عشر يوماً، وأقلُّه عند أبي حنيفة ثلاثة أيام، وأكثره عشرة أيام، وما نقص عن الأقل، وزاد على الأكثر؛ فهو استحاضة عند الجميع. والمستحاضة لا تمنع من عبادة من العبادات، لكنَّها تتحفَّظ بعد دخول وقت الصلاة، وتتوضَّأ، وتبادر للصَّلاة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ من الذنوب، فهو صيغة مبالغة، وانظر الآية رقم [٣٧]: ﴿وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ أي: من الأقذار، والفواحش، ومن إتيان المرأة في أيام الحيض. هذا؛ ومعنى محبة الله للعبد: رضاه عنه، ورحمته، ورضوانه، وبغضه له هو العكس.

هذا؛ والنهي للتَّحريم، وهي بمعنى: إلى أن، ويجب على مَنْ وَطئ الحائض في أوَّله أن يتصدق بدينار مع التَّوبة، وعلى من وطئ في آخره أن يتصدَّق بنصف دينار. وقدَّم الله بالذِّكر التائبين من الوطء بالحيض، والتائبين من غيره على مَنْ لم يذنب؛ لئلا يقنط التائب من الرحمة، ولا يعجب المتطهر بنفسه، كما قال تعالى في الآية رقم [٣٢] من سورة (فاطر): ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾.

الإعراب: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ﴾ هذه الكلمات تقدَّم إعراب مثلها فيما تقدَّم جملةً، وإفراداً، ﴿هُوَ﴾: ضمير منفصل مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ. ﴿أَذًى﴾: خبر المبتدأ مرفوع، وعلامة رفعه ضمَّة مقدرة على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين، والألف الثابتة دليل عليها، وليست عينها، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول، والجملة الفعلية: ﴿قُلْ...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها. ﴿فَٱعْتَزِلُوا۟﴾: الفاء: هي الفصيحة؛ لأنَّها تفصح عن شرطٍ مقدر، (اعتزلوا): فعل أمر مبني على حذف النُّون، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿ٱلنِّسَآءَ﴾: مفعول به. ﴿فِى ٱلْمَحِيضِ﴾: متعلقان بمحذوف حال من: ﴿ٱلنِّسَآءَ﴾ وهو أولى من تعليقهما بالفعل قبلهما؛ إذ المعنى: متلبسات في الحيض. والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها جواب لشرطٍ غير جازم؛ إذ التقدير: وإذا كان الحيض أذىً كما ذكر؛ فاعتزلوا... إلخ. ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف، (لا) ناهية جازمة. ﴿تَقْرَبُوهُنَّ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ (لا)، وعلامة جزمه حذف النون، والواو فاعله، والهاء مفعول به، والنون حرف دال على جماعة الإناث، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف غاية وجر بعدها «أن» مضمرة. ﴿يَطْهُرْنَ﴾: فعل مضارع مبني على السكون في محل نصب بـ «أن» المضمرة بعد ﴿حَتَّىٰ﴾، ونون النسوة فاعله، والمتعلق محذوف، و«أن» المضمرة بعد: ﴿حَتَّىٰ﴾ والفعل: ﴿يَطْهُرْنَ﴾ في تأويل مصدر في محل جر بـ ﴿حَتَّىٰ﴾، ونون النسوة فاعله، والمتعلق محذوف، والجار والمجرور متعلِّقان بالفعل قبلهما.

﴿فَإِذَا﴾: الفاء: حرف استئناف. (إذا): ظرف لما يستقبل من الزَّمان، خافض لشرطه، منصوب بجوابه، صالح لغير ذلك مبني على السُّكون في محل نصب. ﴿تَطَهَّرْنَ﴾: فعل، وفاعل،

والجملة الفعلية في محل جرٍّ بإضافة (إذا) إليها على المشهور المرجوح. ﴿فَأۡتُوهُنَّ﴾: الفاء: واقعة في جواب (إذا). (ائتوهنَّ): فعل أمر، وفاعله، ومفعوله، والنون حرف دالٌّ على جماعة الإناث، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنَّها جواب لشرط غير جازم، وهو (إذا)، و(إذا) ومدخولها كلام مستأنف لا محل له. ﴿مِنۡ حَيۡثُ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، وهما في محل نصب مفعوله الثاني، و﴿حَيۡثُ﴾ مبني على الضم في محل جرٍّ. ﴿أَمَرَكُمُ﴾: فعل ماض، والكاف مفعول به. ﴿ٱللَّهُۚ﴾: فاعله، والجملة الفعلية في محل جرٍّ بإضافة: ﴿حَيۡثُ﴾ إليها، ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿يُحِبُّ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى: ﴿ٱللَّهَ﴾، والجملة الفعلية في محل رفع خبر: ﴿إِنَّ﴾، والجملة الاسمية، تعليل للأمر، لا محلَّ لها. ﴿ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه الياء نيابة عن الفتحة؛ لأنه جمع مذكر سالم، والنون عوض عن التنوين في الاسم المفرد. ﴿وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾ إعراب هذه المفردات واضحٌ إن شاء الله، والجملة الفعلية معطوفة على خبر: ﴿إِنَّ﴾.

﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡۖ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٢٣﴾

الشرح: روى الأئمَّة، واللَّفظ لمسلم ـ رحمه الله تعالى ـ عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ قال: كانت اليهود تقول: إذا أتى الرَّجل امرأته من دُبرِها في قُبُلِها؛ جاء الولد أحول، فنزلت الآية: ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡۖ﴾ أي: مقبلات، ومدبرات، قائمات، وقاعدات، مستلقيات، ومُجَبِّيات... إلخ، لكن في الفرج فقط، وفي الحديث: «**أَقْبِلْ، وَأَدْبِرْ، وَاتَّقِ الدُّبر، وَالحَيْضَة**». أخرجه الترمذيُّ. هذا؛ والحرث: مصدر، أُخبر به عن الجمع، مثل: رجلٌ صَوْم، وقومٌ صَوْم، والحرث: بمعنى المحترث، وهو على حذف مضاف؛ أي: موضع حرث، أو على سبيل التشبيه، فالمرأة كالأرض، والنطفة من الرَّجل كالبذر، والولد كالنبات الخارج من الأرض. وأنشد ثعلب: [مجزوء الرمل]

إِنَّمَا الأَرْحَامُ أَرْضُونَ لَنَا مُحْتَرَثَاتُ   فَعَلَيْنَا الزَّرْعُ فِيهَا وَعَلَى اللهِ النَّبَاتُ

قال الزَّمخشري ـ رحمه الله تعالى ـ: وقوله تعالى: ﴿هُوَ أَذٗى فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ﴾، ﴿فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾، ﴿فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡۖ﴾ هو من الكنايات اللطيفة، والتعريضات المستحسنة، وهذه، وأمثالها في كلام الله آداب حسنةٌ، على المؤمنين أن يتعلَّموها، ويتأدَّبوا بها. ويتكلَّفوا مثلها في محاوراتهم، ومكاتباتهم، وخذ ما يلي:

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: إن ابن عمر ـ والله يغفر له ـ أوْهَم، إنَّما كان هذا الحيُّ من الأنصار ـ وهم أهل وثنٍ ـ مع هذا الحيِّ من يهود، وَهُم أهل كتاب، وكانوا يرون لهم

فضلاً عليهم في العلم، فكانوا يقتدون بكثيرٍ من فعلهم، وكان من أمر أهل الكتاب، ألا يأتوا النِّساء إلا على حَرْفٍ (على جَنْبٍ)، وذلك أستر ما تكون المرأة، فكان هذا الحيُّ من الأنصار قد أخذوا بذلك مِنْ فعلهم، وكان هذا الحيُّ مِنْ قريش يشرحون النِّساء شَرْحاً مُنْكَراً، ويتلذَّذون منهنَّ مُقبلات، ومُدبرات، ومستلقيات، فلما قَدِم المهاجرون المدينة؛ تزوج رجلٌ منهم امرأة من الأنصار، فذهب يصنع بها ذلك، فأنكرته عليه، وقالت: إنَّما كنا نؤتى على حرفٍ، فاصنع ذلك، وإلا؛ فاجتنبني، حتَّى شَرِيَ أمرُهما، فبلغ ذلك النَّبيَّ ﷺ، فأنزل الله ـ عزَّ وجل ـ: ﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾؛ أي: مُقبلاتٍ، ومدبراتٍ، ومستلقياتٍ، يعني بذلك موضع الولد. أخرجه أبو داود. ومعنى قوله: (أوْهم) ابن عمر، فإنه قال: يأتيها في قُبُلها، وسكت، ولم يزد على ذلك.

﴿وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ﴾ أي: الأعمال الصَّالحات، وما ينفعكم غداً، فحذف المفعول، وقيل: هو طلب الولد الصَّالح، وقيل: التسمية قبل الوطء، وفيه الترغيب من النبي ﷺ، حيث قال: «**لَوْ أنَّ أَحَدكُمْ إِذَا أَرادَ أنْ يأتيَ أَهْلَهُ؛ قَالَ: بِسْمِ الله، اللَّهُمَّ جَنِّبْنا الشَّيطانَ، وجنِّبِ الشَّيطانَ مَا رَزَقْتَنَا، فَإِنَّهُ إِنْ يُقدَّرْ بينهُمَا ولدٌ في ذلك؛ لَمْ يَضُرَّهُ شَيْطانٌ أَبداً**». أخرجه البخاريُّ، ومسلمٌ عن ابن عبَّاسٍ ـ رضي الله عنهما ـ واللفظ لمسلم.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ تحذير، ووعيد. ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَـٰقُوهُ﴾: صائرون إلى الله، وذلك بالبعث، والحشر بعد الموت فاستعدُّوا للقائه بالعمل الصَّالح، وترك العمل السَّيِّئ. وعن عبد الله بن عباسٍ ـ رضي الله عنهما ـ قال سمعت رسول الله ﷺ، وهو يخطب يقول: «**إنكُمْ ملاقُوا اللهِ حفاةً، عراةً، مشاةً، غرلاً**» ثمَّ تلا قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ...﴾ إلخ. أخرجه مسلم بمعناه. ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: المستوجبين للمدح، والتعظيم بترك القبائح، وفعل الأعمال الصَّالحات، ولا تنس الالتفات من خطاب الجماعة إلى خطاب المفرد.

بعد هذا؛ فقد رأيت: أنَّه لا يجوز للرَّجل أن يأتي امرأته في أيَّام حيضها، ونفاسها، كما لا يجوز له أن يأتيها في دُبُرها. وخذ ما يلي من قول سيد الخلق، وحبيب الحقِّ ﷺ، فعن عبد الله ابن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**هِيَ اللُّوطِيَّةُ الصُّغْرى، يعني: الرَّجلَ يأتي امرأته في دبرها**». رواه أحمد، والبزَّار. وعن خزيمة بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الحقِّ ـ ثَلاثَ مراتٍ ـ لا تأْتُوا النِّسَاءَ في أدْبارِهنَّ**». رواه ابن ماجه، والنَّسائي. وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من أَتَى النِّسَاء في أعْجَازِهِنَّ؛ فَقَدْ كفَرَ**». رواه الطَّبرانيُّ في الأوسط. وعنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**مَلْعُونٌ مَنْ أَتَى امرأةً في دُبرها**». رواه أحمد، وأبو داود، وعنه أيضاً: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ أَتَى حَائِضاً، أو امرأةً في دُبُرِها، أو كاهناً، فصدَّقَهُ؛ كَفَرَ بِمَا أَنْزلَ الله عَلَى مُحمَّد ﷺ**». رواه خمسةٌ غير البخاريِّ، ومسلم.

الإعراب: ﴿نِسَآؤُكُمْ﴾: مبتدأ، والكاف في محل جر بالإضافة. ﴿حَرْثٌ﴾ خبر المبتدأ. ﴿لَّكُمْ﴾: جار ومجرور متعلِّقان بمحذوف صفة: ﴿حَرْثٌ﴾ والجملة الاسمية مستأنفة، لا محلَّ لها. ﴿فَأْتُواْ﴾: الفاء: هي الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن شرطٍ مقدَّرٍ. (ائتوا): فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿حَرْثَكُمْ﴾: مفعول به، والكاف في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها جواب للشَّرط المقدر بـ «إذا» التقدير: وإذا كان نساؤكم حرثاً لكم؛ فائتوا حرثكم. ﴿أَنَّىٰ﴾: اسم استفهام مبني على السكون في محل نصب حال تقدم على عامله، وقيل: هو في محل نصب على الظرفية متعلِّق بالفعل بعده. ﴿شِئْتُمْ﴾: فعل وفاعل، ومفعوله محذوف، والجملة الفعلية في محل نصب مفعول به ثان للفعل قبلها. هذا؛ والجملة الشرطية التي رأيت تقديرها معطوفة على الجملة الاسمية، لا محل لها مثلها.

﴿وَقَدِّمُواْ﴾: الواو: حرف عطف. (قدِّموا): فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق، ومفعوله محذوف، انظر تقديره في الشَّرح، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها، وأيضاً جملة: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ...﴾ إلخ. ﴿أَنَّكُم﴾: حرف مشبه بالفعل، والكاف اسمه. ﴿مُّلَٰقُوهُ﴾: خبر (أنَّ) مرفوع، وعلامة رفعه الواو؛ لأنَّه جمع مذكر سالم، وحذفت النون للإضافة، والهاء في محل جرٍّ بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه، و(أنَّ) واسمها، وخبرها في تأويل مصدر في محل نصب سدَّ مسدَّ مفعولي: (اعلموا). ﴿وَبَشِّرِ﴾: الواو: حرف استئناف، (بشر): فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: أنت. ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه الياء... إلخ، والجملة الفعلية مستأنفة لا محلَّ لها.

﴿وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾﴾

الشرح: ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً﴾: العُرضة: فعلة بمعنى: مفعول، كالقبضة بمعنى المقبوض، وهي اسم ما تعرضه دون الشيء، مِنْ عرض العُود على الإناء، فيعترض دونه، ويصير حاجزاً، ومانعاً منه، تقول: فلان عرضة دون الخير. والعرضة أيضاً: المعرض للأمر؛ بمعنى المُعَدِّ، والمُهَيَّأ، قال الشاعر أبو تمَّام: [الطويل]

دَعُونِي أَنُحْ وَجْداً كَنَوْحِ الْحَمَائِمِ وَلَا تَجْعَلُونِي عُرْضَةً لِلَّوائِمِ

وفلان عُرْضَةٌ للنَّاس: لا يزالون يقعون فيه، والعُرْضَةُ: الهمَّة، والقدرة، قال حسَّان ـ رضي الله عنه ـ: [الوافر]

وَقَالَ اللهُ قَدْ أَعْدَدْتُ جُنْداً هُمُ الأَنْصَارُ عُرْضَتُهَا اللِّقَاءُ

﴿أَن تَبَرُّواْ﴾ أي: في أن تفعلوا الخير، والمعروف، والإحسان. ﴿وَتَتَّقُواْ﴾: الله. ﴿وَتُصۡلِحُواْ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ﴾: والمعنى: لا تمنعنَّكم الأيمانُ بالله عزَّ وجل مِنْ فعل الخير، وتقوى الله، والإصلاح بين الناس؛ إذا كانوا متنازعين متخاصمين. ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم، وأيمانكم. ﴿عَلِيمٌ﴾ بنيَّاتكم، وأحوالكم، وأفعالكم، فهما صيغتا مبالغة.

هذا؛ والإصلاح بين النَّاس مقامه عظيمٌ، وأجره كبيرٌ، وخذ ما يلي:

فعن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بأفضَلَ مِنْ درجةِ الصِّيَام، والصَّلاةِ، والصَّدقةِ؟**» قالوا: بلى! قال: «**إصلاحُ ذاتِ البَيْنِ، فإنَّ فسادَ ذاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ**». رواه أبو داود، والتِّرمذيُّ، وقال الترمذي أيضاً: ويروى عن النَّبيِّ ﷺ: أنه قال: «**هِيَ الحَالِقَةُ، لَا أقولُ: تحلِقُ الشَّعْرَ، وَلكِنْ تحلقُ الدِّينَ**».

هذا؛ وقد أباح الرَّسول ﷺ الكذب لإصلاح ذات البين، كما إذا غيَّر الكلام القبيح من أحد المتخاصمين بكلامٍ حسنٍ. وخذ ما يلي:

فعن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ـ رضي الله عنها ـ: أنَّ النبي ﷺ قال: «**لمْ يكذبْ مَنْ نَمَى بينَ اثْنَيْنِ لِيصْلِحَ**». وفي روايةٍ أخرى: «**لَيْسَ بالكاذِبُ مَنْ أَصلَحَ بينَ النَّاسِ، فقالَ خيراً، أوْ نَمَى خَيْراً**». رواه أبو داود.

تنبيه: نزلت الآية الكريمة في أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ حين حلف: أنَّه لا يُنفق على مِسْطَح ابن خالته لافترائه على عائشة، رضي الله عنها. والقصَّة مذكورة بكاملها في سورة (النُّور) وقيل: نزلت في عبد الله بن رواحة ـ رضي الله عنه ـ حين حلف: أنَّه لا يكلِّم ختنه ـ أي: صهره ـ بشير بن النعمان، ولا يصلح بينه، وبين أخته عَمْرَة، وهي زوجة بشير ـ رضي الله عنهم ـ أجمعين.

والمعنى: لا تمتنعوا من فعل الخير؛ إذا حلفتم عليه، بل ائتوه، وكفروا، كقوله ﷺ لعبد الرحمن بن سَمُرَة: «**إذَا حَلفْتَ على يمينٍ، فرأيتَ غَيْرَهَا خيراً مِنْهَا؛ فائْتِ الَّذي هُو خَيْرٌ، وكفِّر عَنْ يمينكَ**». رواه البخاريُّ، ومسلم. وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمينٍ، فرأى غيْرَها خَيراً منها؛ فَلْيُكَفِّرْ عَنْ يمينهِ، وَلْيفعل الَّذِي هوَ خَيْرٌ**». رواه مسلم، وعن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنِّي واللهِ إنْ شاءَ اللهُ، لَا أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ، فأَرَى غَيْرَهَا خَيْراً مِنْهَا؛ إلَّا أتَيْتُ الَّذي هو خيرٌ، وتَحَلَّلْتُهَا**». رواه البخاريُّ، ومسلم. وقيل: معنى الآية الكريمة: لا تُكثروا الحلف بالله؛ وإن كنتم بارِّين متَّقين مصلحين، فإن كثرة الحلف بالله ضربٌ من الجراءة على الله، وقد نهى الله عن كثرة الحلف، كما نهى عن تصديق مَنْ يكثر الحلف. فقال تعالى في سورة (القلم): ﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ﴾. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف استئناف، (لا): ناهية جازمة. ﴿تَجۡعَلُواْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ (لا) وعلامة جزمه حذف النُّون؛ لأنَّه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والألف

للتَّفريق فيه وفيما بعده. ﴿ٱللَّهَ عُرۡضَةٗ﴾: مفعولان للفعل: ﴿تَجۡعَلُواْ﴾، والجملة الفعلية مستأنفة لا محل لها. ﴿لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ﴾ متعلقان بمحذوف صفة: ﴿عُرۡضَةٗ﴾ وأجيز تعليقهما بالفعل قبلهما، والكاف في محل جر بالإضافة. ﴿أَن تَبَرُّواْ﴾: فعل مضارع منصوب بـ ﴿أَن﴾ وعلامة نصبه حذف النون، والواو فاعله، والمصدر المؤوَّل منهما في محل نصب على نزع الخافض، التقدير: في أن تبروا. وهذا على قول الخليل، والكسائي، رحمهما الله تعالى. وقال الزمخشريُّ، وتبعه البيضاويُّ، والنَّسفيُّ، والجمل: عطف بيان لـ (أيمانكم) أي: للأمور المحلوف عليها، الَّتي هي البرُّ، والتقوى، والإصلاح بين الناس. وقيل: المصدر المؤول في محل رفع مبتدأ، خبره محذوف، التقدير: البرُّ، والتَّقوى، والإصلاح أولى، وأمثل، مثل قوله تعالى: ﴿طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ﴾. وهو قول الزَّجاج، والنَّحاس، وهو يفيد: أنَّ الجملة الاسمية تعليلٌ للنَّهي، وقال الزَّجاج أيضاً: محل المصدر النَّصب بفعل محذوف، التَّقدير: لا تمنعنَّكم اليمين بالله ـ عز وجل ـ عن البر، والتقوى، والإصلاح. وإذا رجعنا إلى قول البصريين، والكوفيين في مثل ذلك، فالبصريون يعتبرون المصدر في محل جر بإضافة مفعول لأجله محذوف، التقدير: مخافة أو كراهة بركم، والكوفيون يقدِّرون: لئلا تبروا، كقوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ﴾ الآية رقم [١٧٦] من سورة (النساء). ﴿وَتَتَّقُواْ وَتُصۡلِحُواْ﴾: هذان الفعلان معطوفان على: ﴿تَبَرُّواْ﴾ وهما مثله في الإعراب، والتأويل، والتقدير. ﴿بَيۡنَ﴾: ظرف مكان متعلق بالفعل قبله. و﴿بَيۡنَ﴾ مضاف، و﴿ٱلنَّاسِۗ﴾ مضاف إليه، والجملة الاسمية: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾: معترضة في آخر الكلام، وهي متضمِّنة معنى الوعيد، والتهديد، أو هي مستأنفة، ولا محل لها على الاعتبارين.

﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتۡ قُلُوبُكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ٢٢٥﴾

الشرح: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾: اللغو: هو السَّاقط من الكلام؛ الذي لا يعتدُّ به، ولغو اليمين ما لا عَقْدَ معه، قال الفرزدق: [الطويل]

وَلَسْتَ بِمَأْخُوذٍ بِلَغْوٍ تَقُولُهُ ... إِذَا لَمْ تَعَمَّدْ عَاقِدَاتِ الْعَزَائِمِ

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هو قول الرَّجل في درج كلامه، واستعجاله في المحاورة: لا والله، وبلى والله، وإي والله، وكلَّا والله لمجرد التَّوكيد لقوله، فهذا لا إثم فيه، ولا كفارة. وعليه قوله تعالى في سورة (المائدة) رقم [٨٩]: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾. وعن عروة بن الزبير: أنَّ خالته الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق ـ رضي الله عنهم ـ، قالت: أيمانُ اللغو ما كانت في المِراء، والهزل، والمزاحة، والحديث الذي لا ينعقد عليه القلب. وقيل: اللَّغو: أن يحلف الرجل على شيءٍ يرى أنَّه صادق، ثم يتبيَّن له خلاف ذلك. وبه قال أبو حنيفة، ومالك. والأول هو مذهب الشافعي، ولا كفارة على مذهبه، ولا كفارة على مذهب مالك، وأبي حنيفة،

كلٌّ فيما ذهب إليه، ومذهب الشَّافعي هو قول عائشة، والشعبي، وعكرمة، ومذهب مالك، وأبي حنيفة هو قول ابن عبَّاس، والحسن، ومجاهد، والنخعي، وغيرهم. ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أي: لكن يؤاخذكم بما عزمتم عليه، وقصدتم له، كما قال تعالى في آية (المائدة): ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ﴾. وكسب القلب هو العقد، والعزم، والنية. و﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ لعباده فيما هو لغو من أيمانهم، والتي أخبر أنه لا يؤاخذهم عليها، ولو شاء لآخذهم، وألزمهم الكفارة في العاجل، والعقوبة عليها في الآجل. ﴿حَلِيمٌ﴾ في ترك معاجلة أهل العصيان بالعقوبة.

قال الحليمي ـ رحمه الله تعالى ـ في معنى: الحليم: إنَّه الَّذي لا يحبس إنعامه، وإفضاله عن عباده لأجل ذنوبهم، ولكنَّه يرزق العاصي، كما يرزق المطيع، ويقيه؛ وهو منهمكٌ في معاصيه، كما يقي البرَّ المتَّقي، وقد يقيه الآفات، والبلايا، وهو غافل لا يذكره فضلاً عن أن يدعوه، كما يقيها الناسك الذي يدعوه، ويسأله. وقال أبو سليمان الخطَّابي: الحليم: ذو الصفح، والأناة الذي لا يستفزُّه غضبٌ، ولا يستخفُّه جهل جاهل، ولا عصيان عاص، ولا يستحقُّ الصَّافحُ من العجز اسم الحليم، إنما الحليم الصفوح مع القدرة على الانتقام، المتأنِّي؛ الذي لا يعجِّل بالعقوبة.

تنبيه: لا يجوز الحلف إلا باسم من أسماء الله الحسنى، أو بصفة من صفاته تعالى؛ مثل قولك: وقدرة الله، وعزة الله... إلخ. أما كفارة اليمين؛ فقد ذُكرت في آية المائدة مخيرة ابتداءً مرتبةً انتهاءً، وقد أنكرت على مَنْ يفتي بإعطاء عشرة مساكين خمسة كيلوات من القمح كفارة اليمين، وأما اليمين الغموس التي تغمس صاحبها في النار، فهي التي يُقتطع بها مالُ امرئٍ مسلم بغير حقٍّ. وخذ ما يلي:

عن أبي أمامة إياس بن ثعلبة الحارثي ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ رسول الله ﷺ: قال: «**مَنِ اقتطعَ حقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بيمينِه؛ فَقَدْ أوجبَ اللهُ لَهُ النَّارَ، وَحَرَّم عَلَيْهِ الْجَنَّةَ**». قالوا: يا رسول الله! وإن كان شيئاً يسيراً؟ فقال: «**وَإِنْ كَانَ قَضِيباً مِنْ أَرَاكٍ**». رواه مسلم والنَّسائيُّ وابن ماجه.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَيْسَ شَيءٌ مِمَّا عُصِيَ اللهُ بِهِ هُوَ أعجل عِقَاباً مِنَ البَغْيِ، وَمَا مِنْ شَيءٍ أُطِيعَ اللهُ فيهِ أَسْرَعَ ثواباً من الصِّلةِ، واليمينُ الفاجرةُ تدَعُ الدِّيَارَ بَلاقِعَ**». رواه البيهقيُّ. ولا تنس: أنَّ حقَّ الكافر أعظمُ جرماً من حقِّ المسلم.

الإعراب: ﴿لَّا﴾: نافية. ﴿يُؤَاخِذُكُمُ﴾: فعل مضارع، والكاف مفعول به. ﴿اللَّهُ﴾: فاعله، والجملة الفعلية مستأنفة لا محل لها. ﴿بِاللَّغْوِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ متعلقان بـ: (اللغو)؛ لأنه مصدر، كما يجوز تعليقهما بمحذوف حال من (اللغو) على اعتبار (أل) فيه للتعريف، أي: اللغو كائناً في أيمانكم، وبمحذوف صفة له على اعتبار (أل) فيه للجنس، التَّقدير: اللغو الكائن في أيمانكم. والكاف ضمير متصل في محلِّ جرٍّ بالإضافة.

﴿وَلَٰكِن﴾: الواو: حرف عطف. (لكن): حرف استدراك مهمل، لا عمل له. ﴿يُؤَاخِذُكُم﴾: فعل مضارع، والكاف مفعوله، والفاعل يعود إلى: ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، و(ما) تحتمل الموصولة، والموصوفة، والمصدرية. ﴿كَسَبَتْ﴾: فعل ماض، والتاء للتأنيث، ﴿قُلُوبُكُمْ﴾: فاعله، والكاف في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية صلة (ما) أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف، التقدير: بالَّذي، أو بشيءٍ كسبته قلوبكم، وعلى اعتبار (ما) مصدرية تؤول مع ما بعدها بمصدر في محل جر بالباء، التقدير: بكسب قلوبكم، والجملة الاسمية: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ معترضة في آخر الكلام، الغاية منها تأكيد الغفران، وإن اعتبرتها في محل نصب حال من فاعل: ﴿يُؤَاخِذُكُم﴾ المستتر؛ فلست مفنَّداً. والرابط: الواو، والضمير.

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾﴾

الشرح: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ﴾: يحلفون، والمصدر: إيلاء، وأَلِيَّة، فالإيلاء في اللغة: الحلف، قال الشاعر: [الطويل]

فَآلَيْتُ لَا أَنْفَكُّ أَحْذُو قَصِيدَةً ... تَكُونُ وَإِيَّاهَا بِهَا مَثَلاً بَعْدِي

وفي الشرع: اليمين على ترك وطء الزَّوجة. وقال ابن دريد في مقصورته: [الرجز]

أَلِيَّةٌ بِالْيَعْمَلَاتِ يَرْتَمِي ... بِهَا النَّجَاءُ بَيْنَ أَجْوَازِ الْفَلَا

وجمع ألية: ألايا، قال الشَّاعر: [الطويل]

قَلِيلُ الأَلَايَا حَافِظٌ لِيَمِينِهِ ... وَإِنْ سَبَقَتْ مِنْهُ الأَلِيَّةُ بَرَّتِ

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كان إيلاء الجاهلية السَّنة، والسَّنتين، وأكثر من ذلك، يقصدون بذلك إيذاء المرأة عند المساءة، فوقَّت الله للمسلمين أربعة أشهر، فمن آلى بأقلَّ مِنْ ذلك، فليس بإيلاءٍ حكميٍّ. ولا تنسَ: أنَّ النبيَّ ﷺ آلى على نسائه كما ستراه في سورة الأحزاب حينما سألنه زيادة النَّفقة، وكذلك آلى مِنْ زينب ـ رضي الله عنها ـ حيث ردت هديَّته. ذكره ابن ماجه.

هذا؛ ويقال: آلى، يُؤلي، وتألَّى تألِّياً، وائتلى ائتلاءً؛ أي: حلف، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ...﴾ إلخ [النور: ٢٢]. ﴿مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ أي: يحلفون على نسائهم ألا يجامعوهن. والإيلاء: الحلف، وحقُّه أن يُعدَّى بـ «على» ولكن لمَّا ضمن هذا القسم معنى البعد عُدِّي بـ «مِنْ». ﴿تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ أي: انتظار، وتمهل، وترقُّب، وتأخُّر، ومنه قوله تعالى في كثيرٍ من الآيات: ﴿قُلْ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾، وقال الشاعر: [الطويل]

تَرَبَّصْ بِهَا رَيْبَ الْمَنُونِ لَعَلَّهَا ... تُطَلَّقُ يَوْماً أَوْ يَمُوتَ حَلِيلُهَا

والحكم في ذلك: أنَّ الزوج إذا حلف لا يطأ زوجته مدَّةً أقل من أربعة أشهر؛ فليس لها حق المطالبة بذلك، وإذا حلف مدَّة أربعة أشهر؛ فلها الحقُّ أن ترفع دعواها إلى الحاكم، كما سيأتي. وجعل الله للزوج مدَّة أربعة أشهر في تأديب المرأة بالهجر، لقوله تعالى في سورة (النِّساء) رقم [٣٤]: ﴿وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ﴾. وقد آلى النبي ﷺ من أزواجه شهراً تأديباً لهنَّ، وقد قيل: إنَّ الأربعة الأشهر، هي التي لا تستطيع ذات الزوج أن تصبر عنه أكثر منها. وقد رُوي: أن الفاروق ـ رضي الله عنه ـ كان يطوف ليلة بالمدينة، فسمع امرأة تنشد: [الطويل]

تَطَاولَ هذا اللَّيلُ واسودَّ جانِبُهْ ... وَأرَّقَني أَنْ لا حَلِيلَ أُلاعِبُهْ

فو الله لولَا اللهُ أَنِّي أُرَاقِبُهْ ... لَحُرِّكَ مِنْ هَذَا السَّرِيرِ جوانِبُهْ

مَخَافَةَ رَبِّي وَالْحَيَاءُ يَصُدُّنِي ... وأُكرِمُ بَعْلِي أَنْ تُنَالَ مراتِبُهْ

فسأل عمر ـ رضي الله عنه ـ عن المرأة، فقيل له: إنَّ زوجها مع المجاهدين في العراق، فاستدعى نساءً، فسألهنَّ: كم تصبر المرأة عن زوجها؟ فقلن: شهرين، ويقلُّ صبرها في ثلاثة، وينفد صبرها في أربعة، فجعل عمر ـ رضي الله عنه ـ مدَّة غزو الرجل أربعة أشهر، فإذا مضت استردَّ الغازين، ووجَّه آخرين. وهذا ـ والله أعلم ـ يقوي اختصاص مدَّة الإيلاء بأربعة أشهر.

﴿فَإِن فَآءُو﴾: رجعوا في المدة، أو بعدها عن اليمين إلى الوطء، ويحنث في يمينه، فيكفِّر عنها، يقال: فاء، يفيء، فيئة، وفُيوءاً، وإنَّه لسريع الفيئة، يعني: الرجوع. قال الشاعر: [الطويل]

فَفَاءَتْ، وَلَمْ تَقْضِ الَّذِي أقْبَلَتْ لَهُ ... وَمِنْ حَاجَةِ الإنْسَانِ مَا لَيْسَ قَاضِيا

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ﴾ أي: لهم ما أتوه من ضرر المرأة بالحلف. ﴿رَّحِيمٞ﴾: أي: بهم حيث لم يعاجلهم بالعقوبة.

الإعراب: ﴿لِّلَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدَّم. ﴿يُؤۡلُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون، والواو فاعله، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محلَّ لها. ﴿مِن نِّسَآئِهِمۡ﴾: متعلِّقان بالفعل قبلهما، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿تَرَبُّصُ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها، و﴿تَرَبُّصُ﴾ مضاف، و﴿أَرۡبَعَةِ﴾ مضاف إليه، من إضافة المصدر لظرفه، و﴿أَرۡبَعَةِ﴾ مضاف، و﴿أَشۡهُرٖۖ﴾ مضاف إليه. ﴿فَإِن﴾: الفاء حرف تفريع، وعطف. (إنْ): حرف شرط جازم. ﴿فَآءُو﴾: فعل ماض مبني على الضم في محل جزم فعل الشرط، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿فَإِنَّ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (إنَّ): حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ خبران لـ (إنَّ)، والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور، والدسوقي يقول: لا محل لها؛ لأنها لم تحلَّ محلَّ المفرد، و(إنَّ) ومدخولها كلام مفرَّع عمَّا قبله، لا محلَّ له.

﴿وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَـٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾

الشرح: ﴿عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَـٰقَ﴾: العزم، والعزيمة: ما عقدت عليه نفسك من أمرٍ: أنَّك فاعله. و﴿ٱلطَّلَـٰقَ﴾: حل عقدة النكاح، وأصل معناه: التَّخلية. يقال: نعجة طالق، وناقة طالق؛ أي: مهملة، قد تُركت في المرعى، لا قيد لها، ولا راعي. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لأقوال المُولين. ﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوالهم، وجميع تصرفاتهم.

ملخص الإيلاء: أن يحلف الرَّجل أن لا يطأ امرأته مدَّةً تزيد على أربعة أشهر، فتنتظره الزَّوجة مدَّة أربعة أشهر، فإن وطئها؛ فبها، ونعمت، ويكون قد حنث في يمينه، وعليه الكفارة، وإن لم يطأها؛ وقعت الفرقة، والطَّلاق بمضيِّ تلك المدة عند أبي حنيفة، وعند الشَّافعي، وأحمد ومالك: ترفع أمرها للقاضي، فيأمره إمَّا بالفيئة، أو الطَّلاق، فإن أبى عنهما؛ طلَّق عليه الحاكم طلقةً رجعيَّةً. هذا هو خلاصة حكم الإيلاء، والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَـٰقَ...﴾ إلخ: إعراب هذه الآية مثل إعراب سابقتها بلا فارق. وقيل: ﴿ٱلطَّلَـٰقَ﴾ منصوب على نزع الخافض، التقدير: على الطلاق. وقيل: إنَّ جواب الشرط محذوفٌ، التقدير: فليوقعوه، وعليه تكون الجملة الاسمية: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ...﴾ إلخ مفيدةٌ للتعليل.

﴿وَٱلْمُطَلَّقَـٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَـٰثَةَ قُرُوٓءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَـٰحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾﴾

الشرح: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَـٰتُ﴾: جمع: مطلقة بصيغة مفعول. لمَّا ذكر الله الإيلاء، وأنَّ الطلاق قد يقع فيه؛ بيَّن تعالى حكم المرأة بعد التَّطليق. ولفظ (المطلقات) عموم، والمراد به الخصوص في المدخول بهنَّ، وخرجت المطلقة قبل الدخول بقوله تعالى في سورة (الأحزاب) رقم [٤٩]: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾، وخرجت الحامل بقوله تعالى في سورة (الطلاق) رقم [٤]: ﴿وَأُو۟لَـٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾. ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾: ينتظرن، ويتمهَّلن عن النِّكاح، والأزواج، وهو بمعنى الأمر؛ إذ المعنى: لِيَنْتَظِرْنَ، وتغيير العبارة للتَّأكيد، والإشعار بأنه ممَّا يجب أن يسارع إلى امتثاله، وهو كقولك في الدعاء: رحمه الله. أخرج مخرج الخبر ثقة بالاستجابة، كأنَّما وجدت الرَّحمة، فهو يخبر عنها. وبناؤه على المبتدأ مما يزيده فضل تأكيد؛ لأن الجملة الاسمية تدلُّ على الثبات، والدَّوام بخلاف الفعلية. وفي ذكر الأنفس بعث لهن على التربُّص؛ لأن أنفس النساء طوامح إلى الرِّجال، فأمرن أن يقمعن أنفسهن، ويغلبنها على الطُّموح، ويجبرنها على التربُّص. وانظر شرح (النَّفس) في الآية رقم [٩].

﴿ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾: جمع: قُرْء، بفتح القاف، وضمِّها، ولكن جمع الأول: قروء، وأقرؤ، وجمع الثاني: أقراء، وقروء جمع كثرة، والموضع موضعُ قلَّة، فكان الوجه: ثلاثة أقراء. واختلف في تأويله، فقيل: ووضع جمع الكثرة في موضع جمع القلة. وقيل: لمَّا جمع المطلقات؛ أتى بلفظ جمع الكثرة؛ لأن كل مطلقة تتربص ثلاثة قروء. وقيل: التقدير: ثلاثة أقراء، من: قُرْء. انتهى. عكبري. واختلف في الأقراء، فقال أبو حنيفة، وأحمد ـ رحمهما الله تعالى ـ: القرء: الحيض، وهو قول عمر، وعلي، وابن مسعود، وأبي موسى الأشعري، وغيرهم من التابعين. ودليلهم ما جاء في الحديث عن فاطمة بنت أبي حُبيش: أن رسول الله ﷺ قال لها: «**دَعِي الصَّلاةَ أَيَّامَ أَقْرَائِكِ**». فهذا لو صحَّ؛ لكان صريحاً في أنَّ القرء هو الحيض. مختصر ابن كثير. وقال أهل الحجاز: هي الأطهار. وهو قول عائشة، وابن عمر، وزيد بن ثابت، وهو مذهب الشَّافعي، ومالك، واستشهد أبو عبيدة وغيره بقول الأعشى: [الطويل]

أفي كلِّ عَامٍ أَنْتَ جاشِمُ غَزْوَةٍ ... تَشُدُّ لأَقْصَاهَا عَزِيمَ عَزَائِكَا
مورِّثَةٍ مَالاً وفي الحيِّ رِفْعَةً ... لِمَا ضَاعَ فِيْها مِنْ قُرُوءِ نِسَائِكَا

أراد: أنه كان يخرج للغزو، ولم يغش النِّساء، فتضيع أقراؤهن زمان الطُّهر، لا زمان الحيض. وأصل القرء: الانتقال من الطُّهر إلى الحيض، وهو المراد به في الآية؛ لأنَّه الدال على براءة الرَّحم، لا الحيض. وقال آخر في الحيض: [الرجز]

يَا رُبَّ ذِي ضِغْنٍ عَلَيَّ فَارِضٍ ... لَهُ قُرُوءٌ كَقُرُوءِ الْحَائِضِ

يعني: أنَّه طعنه، فكان له دم كدم الحائض. وقال أبو بكر بن عبد الرحمن: ما أدركنا أحداً من فقهائنا إلا يقول بقول عائشة ـ رضي الله عنها ـ في أنَّ الأقراء هي الأطهار، وفي أيامنا تُعطي المحاكم الشَّرعية مدة ثلاثة أشهر للمطلقة المدخول بها، سواء أكانت من ذوات الحيض، أم لا؟ وهو جيِّد، وفيه زيادة احتياط لبيان براءة الرَّحم، وحفظ الفروج.

﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ﴾ أي: يخفين ما في أرحامهن من الولد، أو الحيض استعجالاً في العدَّة، أو إبطالاً لحقِّ الزوج في الرجعة، وزيادة النفقة عليه. ﴿إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾: هذا وعيد عظيم شديد لتأكيد تحريم الكتمان، وإيجاب لأداء الأمانة في الإخبار عن الرَّحم بحقيقة ما فيه. وليس مفهوم الشَّرط في الإيمان على أنَّه أبيح لمن لا يؤمن أن يكتم؛ لأن ذلك لا يحل لمن لا يؤمن أيضاً، فهو كقوله تعالى في سورة (النور): ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ رقم [٣٣].

﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: في زمن التربُّص، وهو العدَّة الواجب مراعاتها. والبعولة جمع: بعل، وهو الزَّوج، سمِّي بعلاً؛ لعلوه على الزَّوجة بما قد ملكه من زوجيتها. ومنه قوله:

﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾ الآية رقم [١٢٥] من سورة (الصَّافات)، والبعل: المستعلي على غيره، ولمَّا كان الزوج مستعلياً على المرأة، قائماً بأمرها؛ سمِّي بعلاً، ويقال للمرأة أيضاً: بعل، وبعلة، كما يقال لها: زوج، وزوجة، والتاء في البعولة لتأنيث الجمع، كعمومة، وخؤولة. وفي الكشاف: والبعولة جمع بعل، والتاء لاحقة لتأنيث اللفظ، كما في الحزونة، والسهولة. ﴿إِنْ أَرَادُوٓاْ﴾ أي: الأزواج. ﴿إِصْلَٰحًا﴾ أي: إن أراد لأزواج بالرَّجعة الإصلاح، وحسن العشرة، لا الإضرار بهنَّ. وهذا الشرط لا مفهوم له مثل سابقه.

﴿وَلَهُنَّ﴾: من الحقوق. ﴿مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ﴾: للأزواج، وقد بيَّن الرسول ﷺ الحقوق، والواجبات المتبادلة بين الزوجين فيما يلي: عن عمرو بن الأحوص الجشمي ـ رضي الله عنه ـ: أنَّه سمع رسول الله ﷺ في حجَّة الوداع يقول بعد أن حمد الله، وأثنى عليه، وذكر ووعظ، ثم قال: «**أَلَا اسْتَوْصُوا بالنِّساءِ خَيْراً، فَإِنما هُنَّ عَوَانٌ عِنْدَكُمْ، لَيْسَ تَمْلِكُونَ مِنْهُنَّ شيْئاً غَيْرَ ذَلِكَ؛ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ، فَإِن فَعَلْنَ؛ فاهجُرُوهنَّ في الْمَضَاجِعِ، واضْرِبُوهُنَّ ضَرْباً غَيْرَ مُبَرِّحٍ، فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ؛ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً، أَلَا إِنَّ لَكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ حَقّاً، وَلِنِسَائِكُمْ عَلَيْكُمْ حقّاً، فحقُّكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لا يُوطِئن فُرُشَكُمْ مَنْ تَكْرَهُونَ، وَلَا يَأْذَنَّ فِي بُيُوتِكم لِمَنْ تَكْرَهُونَ، أَلَا وَحَقُّهُنَّ عَلَيْكُمْ أَنْ تُحْسِنُوا إِلَيْهِنَّ في كِسْوَتِهِنَّ، وَطَعَامِهِنَّ**». رواه ابن ماجه، والترمذي، وقال: حديث حسن صحيح. هذا؛ وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: إنِّي لأُحِبُّ أن أتزين لامرأتي، كما أحبُّ أن تتزيَّن لي؛ لأن الله يقول: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ...﴾ إلخ. ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ أي: في الفضيلة في الخَلْق والخُلُق، والمنزلة بين الناس، وطاعة الله، والإنفاق، والقيام بالمصالح، والفضل في الدنيا والآخرة، وهو واضح في الميراث، والجهاد، ومن ذلك وجوب طاعتها له إذا دعاها إلى فراشه، ولا يجب عليه إجابتها لذلك، لكن يُسَنُّ؛ حتى يعفَّها. قال تعالى في سورة (النساء) رقم [٣٤]: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ التقدير: بما ساق لها من المهر، وبما أنفق عليها. وقيل: إنَّ فضيلة الرجل على المرأة بأمور، منها: العقل، والشهادة، والميراث، والدِّية، وصلاحية الإمامة، والقضاء، وللرَّجل أن يتزوج عليها، وليس لها ذلك، وبيد الرجل الطلاق، وبيده الرجعة إذا طلقها رجعيّاً، وليس بيدها شيء من ذلك. ولا تنس: أنَّ هذه الدرجة تكليف، لا تشريف، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾. ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أي: قوي في انتقامه ممَّن عصاه، وخالف أمره. ﴿حَكِيمٌ﴾: في أمره، ونهيه، وشرعه، وتشريعه. ولا يصلح مكان هذه الجملة ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ انظر الآية رقم [٢١٨].

بعد هذا أذكر: أنه كان الرَّجل في الجاهلية يطلِّق امرأته ما شاء من الطلاق، ثم يراجعها قبل أن تنقضي عدَّتها، ولو طلقها ألف مرة، كان له الحق في مراجعتها، فعمد رجل في الإسلام

لامرأته، فقال لها: لا آويك، ولا أدعك تحلِّين! قالت: وكيف؟ قال: أطلقك، فإذا دنا مُضِيُّ عدَّتك؛ راجعتك. فشكت المرأة أمرها للنَّبيِّ ﷺ، فأنزل الله: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ... الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ...﴾ إلخ، أما الرجعة إن كانت قبل انقضاء العدَّة؛ فلا يكلَّف الزوج شيئاً ماديّاً، ولا تتوقَّف الرجعة على رضا الزَّوجة، وموافقتها، وأمَّا بعد انقضاء العدة؛ فيكلَّف الزوج مهراً جديداً، وتحتاج إلى عقدٍ جديد بوليٍّ، وشاهدين، كما رأيت فيما تقدَّم، وتحتاج أيضاً إلى موافقة الزوجة؛ لأنها بانقضاء عدَّتها ملكت نفسها. هذا؛ والرجعة قبل انقضاء العدَّة تحتاج إلى لفظ: راجعت زوجتي، ونحو ذلك عند الشافعي، ومالك، وتحصل الرَّجعة قبل قضاء العدَّة عند أبي حنيفة بالوطء، والنَّظر بشهوة إلى فرجها، وكذا إن قبَّلها، أو لمسها بشهوةٍ، ونحو ذلك، ويسنُّ الإشهاد على الرَّجعة خوفاً من الإنكار، قال تعالى في سورة (الطلاق): ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ رقم [٢].

وفسر الشِّيعة الإشهاد على الطَّلاق، ولذلك لا يقع الطلاق عندهم إلا إذا أشهد عليه، ووُجد مَنْ يفتي بذلك، فيتحمَّل الذُّنوب لقاء دريهمات يأخذها من الناس، وحسابهم على الله تعالى.

الإعراب: (المطلَّقات): مبتدأ. ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾: فعل مضارع مبني على السكون، ونون النسوة فاعله، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة لا محلَّ لها. ﴿بِأَنفُسِهِنَّ﴾ متعلقان بالفعل قبلهما، والهاء في محل جرٍّ بالإضافة، والنون حرفٌ دالٌّ على جماعة الإناث. وقيل: الباء زائدة، و(أنفسهن): توكيد للضمير. وليس بشيء؛ لأنه لا يوجد فاصل لصحَّة التوكيد. قال ابن مالك رحمه الله تعالى في ألفيته: [الرجز]

وَإِنْ تُؤَكِّدِ الضَّمِيرَ الْمُتَّصِلْ بِالنَّفْسِ، وَالْعَيْنِ فَبَعْدَ الْمُنْفَصِلْ
عَنَيْتُ ذَا الرَّفْعِ وَأَكَّدُوا بِمَا سِوَاهُمَا، وَالْقَيْدُ لَنْ يُلْتَزَمَا

﴿ثَلَاثَةَ﴾: مفعول به على حذف مضاف، التقدير: يتربصن مضيَّ ثلاثة، فلما حذف المضاف؛ أقيم المضاف إليه مقامه، وقيل: هو ظرف زمان على تقدير مدَّة ثلاثة. و﴿ثَلَاثَةَ﴾: مضاف، و﴿قُرُوءٍ﴾: مضاف إليه. ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): نافية. ﴿يَحِلُّ﴾: فعل مضارع، ﴿لَهُنَّ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، والنون حرف دال على جماعة الإناث في كلِّ الآية. ﴿أَن﴾: حرف مصدري، ونصب. ﴿يَكْتُمْنَ﴾: فعل مضارع مبني على السكون، وهو في محل نصب بـ ﴿أَن﴾، ونون النسوة فاعله، و﴿أَن﴾ والمضارع في تأويل مصدر في محل رفع فاعل: ﴿يَحِلُّ﴾، التقدير: ولا يحل لهنَّ كتمان، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، فهي في محل رفع مثلها. ﴿مَا﴾: اسم موصول، أو نكرة موصوفة مبنية على السكون في محل نصب مفعول به. ﴿خَلَقَ اللَّهُ﴾: ماض، وفاعله، والجملة الفعلية صلة (ما) أو صفتها، والعائد، أو

الرابط محذوف، التقدير: الذي، أو شيئاً خلقه الله. ﴿فِيٓ أَرۡحَامِهِنَّ﴾: متعلقان بالفعل خلق، أو هما متعلقان بمحذوف حال من الضمير المنصوب المحذوف. ﴿إِن﴾: حرف شرط جازم. ﴿كُنَّ﴾: فعل ماض ناقص مبني على السكون في محل جزم فعل الشرط، والنون اسمها. ﴿يُؤۡمِنَّ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل نصب خبر: (كان) والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنَّها ابتدائية، ويقال: لأنَّها جملة شرط غير ظرفي، وجواب الشرط محذوف، التقدير: إن كن يؤمن؛ فلا يكتمن. والجملة الشرطية بكاملها بمنزلة الحال من نون النسوة، وهي غير مقيد بها الكتمان كما رأيت في الشرح. ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿وَٱلۡيَوۡمِ﴾: معطوفة على لفظ الجلالة. ﴿ٱلۡأٓخِرِۚ﴾: صفة اليوم.

﴿وَبُعُولَتُهُنَّ﴾: مبتدأ، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿أَحَقُّ﴾: خبر المبتدأ. ﴿بِرَدِّهِنَّ﴾: متعلقان بـ ﴿أَحَقُّ﴾ لأنه صفة مشبهة، أو اسم فاعل، ففاعله مستتر فيه، والهاء في محل جر بالإضافة، من إضافة المصدر لمفعوله. ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ متعلقان بـ ﴿أَحَقُّ﴾ أو بـ (ردهنَّ) لأنه مصدر، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة الاسمية السابقة لا محل لها مثلها، واعتبارها في محل نصب حال من نون النسوة غير مستبعد، وعليه فالرابط: الواو، والضمير. ﴿إِنۡ﴾ حرف شرط. ﴿أَرَادُوٓاْ﴾: فعل ماض مبني على الضم في محل جزم فعل الشرط، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿إِصۡلَٰحٗاۚ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية لا محل لها، على مثال ما تقدَّم، وجواب الشرط محذوف، التقدير: إن أرادوا إصلاحاً؛ فهم أحقُّ بِرَدِّهِنَّ. والجملة الشرطية في محل نصب حال من فاعل: ﴿أَحَقُّ﴾ المستتر، وانظر ما ذكرته في سابقتها.

(لهن): جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم. ﴿مِثۡلُ﴾: مبتدأ مؤخر، وهو مضاف، و﴿ٱلَّذِي﴾ مضاف إليه مبني على السكون في محل جر. ﴿عَلَيۡهِنَّ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف صلة الموصول. ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾: متعلقان بمحذوف صفة: ﴿مِثۡلُ﴾، وجوز أن يكونا متعلقين بالخبر المحذوف، الذي متعلق به (لَهُنَّ) والأول أولى، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة الاسمية السابقة لا محل لها أيضاً، والاستئناف ممكن. ﴿وَلِلرِّجَالِ﴾: متعلقان بمحذوف خبر مقدم، ﴿عَلَيۡهِنَّ﴾: متعلقان بالخبر المحذوف، أو بمحذوف خبر ثان، وجوز أن يكونا متعلقين بمحذوف حال من ﴿دَرَجَةٞ﴾ وهو ضعيف. ﴿دَرَجَةٞ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها أيضاً، وفي هذه الجملة إيجاز، وإبداع لا يخفى، فقد حذف من الأول بقرينة الثاني، ومن الثاني بقرينة الأول. والمعنى: ولهنَّ على الرِّجال من الحقوق، مثل الذي للرِّجال عليهنَّ من الحقوق. ومثله يُسَمَّى في علم البيان الاحتباك. وفي الجملة من المحسنات البديعية: الطباق بين (لهن) و(عليهن)، وهو طباق بين حرفين. والجملة الاسمية: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ معترضة في آخر الكلام. انظر معناها في الشرح.

﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٢٩﴾

الشرح: عن عروة بن الزبير ـ رضي الله عنهما ـ قال: كان الرجل إذا طلق امرأته، ثمَّ ارتجعها قبل أن تنقضي عدَّتها؛ كان له ذلك، وإن طلقها ألف مرة، فعمد رجل إلى امرأته، فطلقها، حتى إذا شارفت انقضاء عدَّتها؛ ارتجعها، ثم قال: والله لا آويك إليَّ، ولا تحلِّين أبداً، فأنزل الله تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ﴾. وثبت: أنَّ أهل الجاهلية لم يكن عندهم للطلاق عددٌ، وكانت العدَّة عندهم معلومة مقدَّرة، ولما نزلت الآية الكريمة؛ استقبل الناس الطلاق جديداً من ذلك اليوم من كان طلق، ومن لم يكن طلق. انتهى خازن. أخرجه الترمذيُّ. هذا؛ والطلاق اسم مصدر بمعنى التطليق، كالسلام بمعنى التسليم، والمعنى: التَّطليق الرجعي اثنتان؛ لِمَا روي: أنَّ النبي ﷺ سئل عن الثالثة؟ فقال: «**إِمْسَاكٌ بِمَعْروفٍ، أَوْ تَسْريحٌ بِإِحْسانٍ**». أخرجه الدارقطنيُّ عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

هذا؛ والطلاق في أصله مباح، وقد يكون مكروهاً؛ إذا كانت الزَّوجة صالحةً مستقيمةً، وقد يكون مندوباً؛ إذا كانت سيئة الخلق، لا تخضع لأوامر الزَّوج، وقد يكون واجباً؛ إذا كانت المرأة معوجَّة السلوك في عِرْضها، وخُلُقها، أو تخونه في ماله، ونفسها، فقد روى الدَّارقطني عن معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**يا معاذُ ما خلقَ اللهُ شيْئاً على وجهِ الأَرضِ أحبَّ إليهِ مِن العَتاقِ، وَلَا خَلَقَ الله تعالى شيئاً على وجهِ الأرضِ أبغض إليهِ مِنَ الطَّلاقِ، فإذا قال الرجل لمملوكه: أنت حُرٌّ إنْ شاء الله؛ فهوَ حُرٌّ، ولا استثناءَ لَهُ، وإذا قال الرجل لامرأته: أنتِ طالقٌ إن شاءَ اللهُ، فلهُ استثناؤُهُ، ولا طلاقَ عليْهِ**». وهذا في طلاق الصَّالحة المستقيمة، كما قدمت. وممَّن رأى الاستثناء في الطلاق طاووس، وحمَّاد، وأبو ثور، والشافعي، وأصحاب الرأي، ولا يراه مالك، والأوزاعي، والحسن، وقتادة. انتهى قرطبي بتصرف.

هذا؛ وللطلاق ألفاظ صريحةٌ لا تحتاج إلى نيَّة عند الشَّافعي، وهي لفظ الطلاق، والسَّراح، والفراق، وهو ممَّا ورد به القرآن، قال تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ وقال: ﴿أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾، وقوله: ﴿أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ﴾، وهناك ألفاظ كثيرة تعدُّ كنايةً عن الطلاق، إن نوى الطلاق؛ يقع، وإن لم ينوه؛ لم يقع. وعند أبي حنيفة الصريح هو لفظ الطلاق. ولفظ: (عليَّ الحرام) هو من

الكنايات عند الشّافعي، ومن الطلاق عند أبي حنيفة، كما هو مشهور في مذهبه. هذا؛ واختلف في لفظ الثلاث: قال القرطبيُّ - رحمه الله تعالى -: واتفق أئمَّة الفتوى على لزوم إيقاع الطلاق الثلاث في كلمةٍ واحدة، وهو قول جمهور السَّلف، وشذَّ طاووس، وبعض أهل الظاهر إلى أن طلاق الثلاث بكلمةٍ واحدةٍ يقع واحدةً، وقال بعضهم: لا يلزم منه شيء، وهو قول مقاتل بن سليمان، ويُحكى عن داود: أنه قال: لا يقع. وروى كثيرون عن ابن عباس - رضي الله عنهما - فيمن طلَّق امرأته ثلاثاً: أنه قد عصى ربه، وبانت منه امرأته، ولا ينكحها إلا بعد زوجٍ. وفي ذلك ما يدلُّ على وهن رواية طاووس، وغيره، وما كان لابن عباس أن يخالف الصَّحابة إلى رأي نفسه.

وروي عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: أنَّه قال: كان الطلاق على عهد رسول الله ﷺ، وأبي بكر، وسنتين من خلافة عمر بن الخطاب طلاق الثلاث واحدة، فقال عمر - رضي الله عنه -: إنَّ الناس قد استعجلوا في أمرٍ كانت لهم فيه أناة، فلو أمضيناه عليهم! فأمضاه عليهم.

هذا؛ والطلاق على ضربين: سنِّيٌّ: وهو أنْ يطلقها في طهر لم يجامعها فيه، وبدعي: وهو أن يطلقها في الحيض، أو في طهر جامعها فيه، وعُدَّ منه الطلاق بلفظ الثلاث.

هذا؛ ومعنى ما تقدم: الطَّلاق المشروع؛ الذي يملك به الزوج الرَّجعة مرتان، وليس بعدها إلا المعاشرة بالمعروف مع حسن المعاملة، أو التسريح؛ أي: التطليق بإحسان بألا يظلمها من حقِّها شيئاً، ولا يذكرها بسوء، ولا ينفِّر الناس عنها.

﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا﴾ أي: ولا يحلُّ لكم أن تضاجروهن، وتضيقوا عليهن؛ ليفتدين منكم بما أعطيتموهنَّ من المهور، أو بعضها، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ رقم [١٩] من سورة (النساء)، وانظر الآية رقم [٢٣١] الآتية. ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ المعنى: إلا أن يظنَّ كلُّ واحدٍ من الزَّوجين بنفسه: أنه لا يقيم حقَّ النكاح لصاحبه حسب ما يجب عليه فيه لكراهة يعتقدها، فلا حرج على المرأة أن تفتدي، ولا حرج على الزوج أن يأخذ. واختلف هل يكتفي الزوج أن تردَّ عليه ما أعطاها؟، فمذهب الشافعي يجوز أن يأخذ منها أكثر ممَّا أعطاها. والخوف هنا بمعنى العلم، أي: أن يعلما ألا يقيما حدود الله.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ أي: فإن خفتم سوء العشرة بينهما، وأرادت الزوجة أن تختلع بالنزول عن مهرها، أو بدفع شيء من المال لزوجها؛ حتَّى يطلقها، فلا إثم، ولا مؤاخذة عليهما. والخطاب للولاة، وللأولياء. هذا؛ وأصل ﴿خِفْتُمْ﴾: (خَوِفْتُمْ) فحذفت الواو لثقل الكسرة عليها، فصار الفعل: (خَفْتُمْ) ثم قلبت الفتحة كسرة لخفتها، وهي دالة على حركة المحذوف، ولو كانت دالة على المحذوف؛ لكانت ضمَّة.

تنبيه: أول خُلعٍ حصل في الإسلام كان بما يلي: روى عكرمة عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: أوَّل مَنْ خالع في الإسلام أخت عبد الله بن أبي ابن سلول، أتت النبي ﷺ، فقالت: يا رسول الله! لا يجتمع رأسي ورأسه أبداً، إنِّي رفعت جانب الخباء، فرأيته أقبل في عدَّةٍ، إذا هو أشدُّهم سواداً، وأقصرهم قامةً، وأقبحهم وجهاً، فقال: أتردِّين عليه حديقته؟ قالت: نعم، وإن شاء زدته. ففرَّق بينهما، رواه ابن ماجه، ورواه البخاريُّ بتغييرٍ ببعض ألفاظه. كما اختُلف في المرأة فقيل: اسمها: جميلة، وقيل: اسمها: حبيبة، وقيل: هي أخت عبد الله المُنافق. وقيل: هي بنته، والمعتمد: أنَّها أخته، وقيل: هي حبيبة بنت سهل الأنصاري، والزوج هو ثابت بن قيس ابن شمَّاس رضي الله عنه، وكان في أذنيه صَمَمٌ.

بعد هذا: فإن كان الزوج مُضارّاً للزَّوجة، وحملها على الافتداء؛ فحرام عليه رائحة الجنَّة، ولها العذر بتخليصها نفسها من ظلمه، وأمَّا إذا لم يكن لها عذر، وسألت الافتداء منه؛ فقد قال رسول الله ﷺ: «**أَيُّمَا امْرَأَةٍ سَأَلَتْ زَوْجَهَا طَلَاقَهَا فِي غَيْرِ مَا بَأْسٍ؛ فَحَرَامٌ عَلَيْهَا رَائِحَةُ الْجَنَّةِ**»، رواه الإمام أحمد، وأبو داود، وابن ماجه.

وهذه الصحابية قد بينت العذر في بغضها لثابت، وهذا عذرٌ مقبول، مع كون ثابت من كرام الصَّحابة. انظر ما ذكرتُه بشأنه في سورة (الحجرات) رقم [٢] فإنَّه جيد والحمد لله، ولا تنس أن ما يعجب الرجل من امرأته، يعجبها منه مثله.

تنبيه: يصحُّ الخُلع في الحيض، والطُّهر؛ لأنه لا يوصف بسنِّيٍّ، ولا بدعيٍّ، وتملك المرأة به نفسها، فلا رجعة للزَّوج عليها إلا بعقدٍ جديدٍ، ومهرٍ، ووليٍّ، وشاهدين. وهل ينقص الخلع عدد الطَّلاق؟ فخذه بما يلي: فعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أن إبراهيم بن سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنهما ـ سأله، فقال: طلَّق رجل امرأته تطليقتين، ثم اختلعت منه، أيتزوَّجها؟ قال: نعم، ليس الخُلع بطلاق. ذكر الطلاق في أوَّل الآية وآخرها، والخُلع فيما بين ذلك، فليس الخلع بشيءٍ، ثم قرأ: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ...﴾ إلخ.

وهذا الذي ذهب إليه ابن عباس رواية عن عثمان، وابن عمر، وبه يقول الإمام أحمد، وهو مذهب الشَّافعي في القديم. والقول الثاني في الخُلع: إنَّه طلاق بائن، وإليه ذهب مالك، وأبو حنيفة، والشافعي في الجديد. وللشَّافعي قولٌ آخر في الخُلع، وهو: أنَّه إذا لم يكن بلفظ الطلاق، وعَرِيَ عن البيِّنة؛ فليس بشيء بالكلِّية، والمفتى به القول الأوَّل.

ويؤيِّده حديث الرُّبيِّع بنت مُعَوِّذ ـ رضي الله عنها ـ: أنها اختلعت على عهد النبي ﷺ، فأمرها ﷺ أن تعتدَّ بحيضةٍ، فهذا يدل على أن الخلع فسخٌ لا طلاق، وذلك: أنَّ الله تعالى قال: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍۚ﴾، ولو كانت هذه مطلقة لم يُقْتصر بها على قرءٍ واحدٍ. وروى الترمذيُّ، وأبو داود، والدَّارقطنيُّ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أنَّ النبيَّ ﷺ أمر

امرأة ثابت بن قيس ـ رضي الله عنه ـ أن تعتدَّ بحيضةٍ واحدةٍ. هذا؛ ويكون الخُلع مخلصاً، ومخرجاً من الحلف بالثَّلاث، وتفسيره بما يلي:

إذا حلف على الشَّيءِ بالطَّلاق بالثَّلاث، تجري المُخالعة بينهما، ثم يفعل المحلوف عليه، ثم يرتجعها بعقد جديدٍ، ومهرٍ جديدٍ، ووليٍّ، وشاهدين، ويكون قد فعل المحلوف عليه، وهي بائنة منه. ولا تنس: أنَّ الحلف بالطلاق يمين الفُسّاق، فقد ورد في أحاديث الرَّسول ﷺ: «**لَا يَحْلِفُ بِالطَّلَاقِ إِلَّا فَاسِقٌ، وَلَا يَرْضَى بِهِ إِلَّا مُنَافِقٌ**». وسمع النبي ﷺ رجلاً يحلف بالطَّلاق، فقام مُغضباً، وظهرت الكراهية في وجهه، وقال: «**ألعباً بدين الله؛ وأنا فيكم؟! ألعباً بدين اللهِ؛ وأنا بين أَظْهُرِكُمْ؟! من كان حالفاً؛ فليَحْلِفْ باللهِ، أَوْ لِيَصْمُتْ**». انتهى كلُّه من القرطبيِّ بتصرفٍ كبير.

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ أي: هذه الأحكام هي التي شرعها الله في حدوده، فلا تتجاوزوها، كما ثبت في الحديث الصحيح: أنَّ النبي ﷺ قال: «**إن اللهَ حدَّ حدوداً، فلَا تعتدُوهَا، وَفَرضَ فَرَائِضَ، فَلَا تُضَيِّعُوهَا، وَحَرَّمَ مَحارمَ، فَلَا تَنْتَهِكُوهَا، وَسَكَتَ عن أشياءَ رَحمةً لَكُم غير نِسْيَانٍ، فَلَا تَسْأَلُوا عَنْهَا**». وانظر رقم [١٨٧] آخرها ففيها بحثٌ جيِّد، والحمد لله!.

﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ﴾: يتجاوز ما شرعه الله، فقد عرض نفسه لسخط الله، وغضبه، وهو من الظالمين لأنفسهم، المستحقِّين للعقاب الشديد، والعذاب الأليم، وقد رُوْعِيَ لفظ (مَنْ) في رجوع الفاعل إليها، ومعناه في الإشارة إليها، والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿ٱلطَّلَٰقُ﴾: مبتدأ. ﴿مَرَّتَانِ﴾: خبره مرفوع، وعلامة رفعه الألف نيابة عن الضمة؛ لأنه مثنىً، والنون عوض عن التنوين في الاسم المفرد، والكلام على حذف مضاف؛ إذ التقدير: عدد الطلاق مرتان. ﴿فَإِمْسَاكٌۢ﴾، الفاء: حرف عطف، وتفريع. (إمساك): مبتدأ، خبره محذوف، التقدير: فعليكم إمساك، أو هو خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: فالواجب إمساك. ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾: متعلقان بـ (إمساك) لأنه مصدر، أو بمحذوف صفة له، وفاعله ومفعوله محذوفان، التقدير: فإمساككم إيَّاهنَّ، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها، الأولى بالابتداء، والثانية بالإتباع. ﴿أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾: معطوفة على ما قبلها وهو مثله بالإعراب، هو مثله بالإعراب، والتقدير، والتركيب... إلخ، ﴿وَلَا﴾ الواو: حرف عطف. (لا): نافية. ﴿يَحِلُّ﴾: فعل مضارع. ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، ﴿أَن تَأْخُذُوا۟﴾: فعل مضارع منصوب بـ ﴿أَن﴾ وعلامة نصبه حذف النون والواو فاعله، والألف للتفريق، والمصدر المؤول من: ﴿أَن تَأْخُذُوا۟﴾ في محل رفع فاعل يحلُّ، والتقدير: ولا يحلُّ لكم أخذ شيء. ﴿مِمَّآ﴾: جار، ومجرور متعلقان بمحذوف حال مِنْ ﴿شَيْـًٔا﴾ كان صفة له، فلما قُدِّم عليه؛ صار حالاً، على القاعدة: «نعت النكرة إذا تقدَّم عليها صار حالاً». ﴿ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾: فعل، وفاعل، والميم علامة جمع الذُّكور، وحركت بالضَّمِّ لتحسين اللَّفظ، فتولَّدت واو الإشباع، والهاء مفعول

به، والنُّون حرف دال على جماعة الإناث، والجملة الفعلية صلة (ما) أو صفتها، والعائد أو الرابط محذوف، وهو المفعول الثاني؛ إذ التقدير: من الذي، أو من شيء آتيتموهن إيَّاه. ﴿شَيْئًا﴾: مفعول به لـ ﴿تَأْخُذُوا﴾. ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء ﴿أَن يَخَافَآ﴾: فعل مضارع منصوب بـ ﴿أَن﴾، وعلامة نصبه حذف النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، وألف الاثنين فاعله، والمصدر المؤول من: ﴿أَن يَخَافَآ﴾ في محل جر بحرف جرٍّ محذوف، التقدير: إلا في حال خوف عدم القيام بحقوق الزَّوجية، والجار والمجرور متعلِّقان بمحذوف حال مستثنىً من عموم الأحوال. ﴿أَن﴾: حرف ناصب. (لا): نافية. ﴿يُقِيمَا﴾: فعل مضارع منصوب بـ (أن) وعلامة نصبه حذف النون، والألف فاعله، والمصدر المؤول في محل نصب مفعول به، وانظر ما قدَّرته. ﴿حُدُودَ﴾: مفعول به، وهو مضاف. ﴿ٱللَّهِ﴾: مضاف إليه.

﴿فَإِنْ﴾: الفاء: حرف استئناف. (إن): حرف شرط جازم. ﴿خِفْتُمْ﴾: فعل ماض مبني على السكون في محل جزم فعل الشرط، والتاء فاعله، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنَّها ابتدائية، ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفي، وإعراب: ﴿أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ ومحله مثل إعراب ما قبله، ﴿فَلَا﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (لا): نافية للجنس تعمل عمل «إنَّ». ﴿جُنَاحَ﴾: اسم (لا) مبني على الفتح في محل نصب. ﴿عَلَيْهِمَا﴾: جار ومجرور متعلِّقان بمحذوف خبر (لا). ﴿فِيمَا﴾: جار ومجرور متعلقان بالخبر المحذوف. ﴿ٱفْتَدَتْ﴾: فعل ماض، والتاء للتأنيث، والفاعل يعود إلى المرأة المفهومة من المقام. ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، والجملة الفعلية صلة (ما) على اعتبارها موصولة، أو صفتها على اعتبارها موصوفة، والعائد أو الرابط الضمير المجرور محلاً بالباء، والجملة الاسمية: (لا جناح...) إلخ في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور، والدسوقي يقول: لا محل لها؛ لأنَّها لم تحلَّ محلَّ المفرد، و(إنْ) ومدخولها كلام مستأنف لا محل لها.

﴿تِلْكَ﴾: اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب لا محلَّ له. ﴿حُدُودُ﴾: خبر المبتدأ، و﴿حُدُودُ﴾: مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾: مضاف إليه، والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها. ﴿فَلَا﴾: الفاء: هي الفصيحة، (لا): نافية جازمة. ﴿تَعْتَدُوهَا﴾: فعل مضارع مجزوم بـ (لا) وعلامة جزمه حذف النون، والواو فاعله، و(ها) مفعول به، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها جواب لشرط مقدر، التقدير: وإذا كان ما ذكر واقعاً وحاصلاً؛ فلا تعتدوها، والجملة الشرطية هذه معطوفة على ما قبلها لا محل لها مثلها.

﴿وَمَن﴾: الواو: حرف استئناف. (مَنْ): اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿يَتَعَدَّ﴾: فعل مضارع فعل الشرط مجزوم، وعلامة جزمه حذف حرف العلَّة من آخره، وهو الألف والفتحة قبلها دليلٌ عليها، والفاعل يعود إلى (مَنْ) تقديره: «هو». ﴿حُدُودَ﴾: مفعول

به، وهو مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾: مضاف إليه. ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (أولئك): اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ، والكاف حرف خطاب لا محل له. ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل لا محل له. ﴿ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾: خبر المبتدأ مرفوع وعلامة رفعه الواو؛ لأنه جمع مذكر سالم، والنون عوض عن التنوين في الاسم المفرد. هذا؛ وإن اعتبرت الضمير مبتدأ ثانياً، و﴿ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ خبره، فالجملة الاسمية تكون في محل رفع خبر: (أولئك)، والجملة الاسمية هذه في محل جزم جواب الشرط، وخبر المبتدأ الذي هو (مَنْ) مختلف فيه كما ذكرته لك مراراً، والجملة الاسمية: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها.

﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾﴾

الشرح: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ أي: الزوج بعد الطَّلقتين ثالثةً. قال البيضاوي ـ رحمه الله تعالى ـ: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ متعلق بقوله تعالى: ﴿ٱلطَّلَـٰقُ مَرَّتَانِ﴾، وتفسير لقوله: ﴿أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَـٰنٍ﴾ اعترض بينهم ذكر الخُلع، دلالةً على أن الطلاق يقع مجاناً تارةً، وبعوض أخرى. ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ﴾ أي: من بعد الطلقة الثالثة. قال القرطبيُّ: احتجَّ بعض مشايخ خراسان من الحنفية بهذه الآية على أنَّ المختلعة يلحقها الطلاق، قالوا: فشرع الله سبحانه صريح الطلاق بعد المفاداة بالطلاق. ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾: نكاحاً صحيحاً بشروطه جميعها، وبعد انقضاء عدتها من المطلق. ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ أي: الزوج الثاني. ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ﴾: فلا إثم، ولا مؤاخذة أن يرجع كلٌّ من المرأة والزوج الأول إلى بعضهما بعد انقضاء عدتها من الثاني، وذلك بعقد جديدٍ، ومهرٍ جديد، ووليٍّ وشاهدين.

﴿إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا...﴾ إلخ؛ أي: إن رأى كلٌّ من الزّوجين صلاح حاله، وأنَّه يقوم بحق الآخر عليه، وأمَّل كلٌّ منهما حياة هانئةً مع الآخر. ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا﴾: يوضِّحها. ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: الحقَّ، وفيهم إيمانٌ، وخوفٌ من الله، وإنما خص أهل العلم بالذكر؛ لأن الجاهل إذا كثر له أمره، ونهيه؛ فإنه لا يحفظه، ولا يتعاهده، والعالم يحفظ، ويتعاهد، فلهذا المعنى خاطب العلماء، ولم يخاطب الجهّال.

هذا؛ وقال ابن خويز مَنْداد: واختلف أصحابنا: هل على الزوجة خدمته أَوْ لا؟ فبعضهم لم يكلفها خدمته، وإنما قصر أمرها على الاستمتاع بها. أقول: والحقُّ: أن هذا يعود إلى حال الزّوج عسراً، ويسراً، وإلى البيئة، فكثير من الناس كانوا فقراء، وكانوا يخدمون غيرهم، فدالت الأيام لهم، فصار عندهم عبيد، وإماء، وخدم، وحشم. وكثير كانوا يُخْدَمون، فدالت الأيام عليهم، والدهر ذو تقلب. وقد جرى عرف المسلمين في بلدانهم في قديم الأمر، وحديثه بما

ذكرت، ألا ترى: أنَّ أزواج النبي ﷺ وأصحابه كن يتكلَّفن الطَّحين، والخبيز، والطبيخ، وفرش الفراش، وتقريب الطعام، وأشباه ذلك، ولا نعلم امرأة امتنعت من ذلك، ولا يسوغ لها الامتناع، بل كانوا يضربون نساءهم إذا قصَّرن في ذلك، وقول فاطمة الزهراء ـ رضي الله عنها ـ: «**طَحَنْتُ حتَّى مَجِلَتْ يَدَايَ**» مشهور. والرسول ﷺ اعتبرها مجاهدة؛ إذا قامت بشؤون بيتها، وتربية أولادها، فالمغزل في يدها كالسَّيف في يد زوجها، وخذ ما يلي:

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله! إنِّي وافدة النساء إليك؛ هذا الجهاد كتبه الله على الرِّجال، فإن يُصيبوا؛ أُجِرُوا، وإن قُتِلُوا؛ كانوا أحياءً عند ربهم يرزقون، ونحن معشر النساء نقوم عليهم، فما لنا من ذلك؟.

فقال رسول الله ﷺ: «**أَبْلِغي مَنْ لَقِيتِ مِنَ النِّسَاءِ: أَنَّ طَاعَةَ الزَّوْجِ، واعْتِرَافاً بِحقِّهِ يَعْدِلُ ذَلِكَ، وَقَلِيلٌ مِنْكُنَّ يَفْعَلُهُ**». رواه الطَّبرانيُّ، والبزار.

بعد هذا أذكر: أنَّ تزوج المرأة بالزَّوج الثاني لا بدَّ من الدُّخول فيها على مذهب الجمهور، وأنَّه لا يكفي العقد عليها؛ لِمَا روى البخاريُّ، ومسلمٌ عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: جاءت امرأة رفاعة القرظي، واسمها تميمة، وقيل: عائشة بنت عبد الرحمن بن عتيك الْقَرظي، وكانت عند ابن عمها رفاعة بن وهب بن عَتيك الْقَرظي، فطلقها ثلاثاً، وتزوجت غيره، فجاءت للنبي ﷺ وقالت: يا رسول الله كنت عند رفاعة، فطلقني، فبَتَّ طلاقي، فتزوجت بعده عبد الرحمن بن الزَّبير ـ بفتح الزاي المشددة ـ وإنما معه مثل هدبة الثَّوب، فتبسَّم الرَّسول ﷺ، وقال: «**أَتُرِيدِينَ أَنْ تَرْجِعي إِلَى رِفَاعَةَ؟**» قالت: نعم. قال: «**لا؛ حَتَّى يَذُوقَ عُسَيْلَتَك، وَتَذُوقِي عُسَيْلَتَه**» وأبو بكرٍ جالسٌ.

فإذا علم الزَّوج من نفسه: أنَّه لا يقدر أن يقوم بحقوق الزوجة المادية، والمعنوية؛ فلا يحل له الإقدام على خطبة أنثى، والعقد عليها؛ حتَّى يبيِّن لها، وكذلك يجب على المرأة إذا علمت من نفسها العجز عن قيامها بحقوق الزوج، أو كان بها علَّةٌ تمنع الاستمتاع بها، ومتى وجد أحد الزوجين بصاحبه عيباً؛ فله الردُّ، فإن كان العيب بالرَّجل؛ فلها الصداق إن كان دخل بها، وإن لم يدخل بها؛ فلها نصفه، وإن كان العيب بالمرأة؛ ردَّها الزوج، وأخذ ما أعطاها من الصَّداق، فقد روي: أنَّ النبيَّ ﷺ تزوج امرأة من بني بياضة، فوجد بكشحها برصاً، فردَّها، وقال: «**دَلَّسْتُمْ عليَّ**». ومن المنصوص عليه في الفقه من العيوب: الجنون، والجذام، والبرص، والرَّتق، والقرن، وأذكر من العيوب هنا: أنه إذا تزوجها بكراً، فوجدها ثيباً، أو كانت لا تأتيها العادة الشَّهرية منتظمةً ـ وهذا قد يمنع الحمل ـ ففي هاتين الحالتين إن وطئها تكن الحقوق بالمصالحة، والتَّسامح. والله أعلم.

هذا؛ والحكمة من تزوُّج المرأة بالزَّوج الثاني الزَّجر، والرَّدع عن التَّسرُّع إلى الطلاق، والنفور منه، ومن العود إلى المرأة المطلقة ثلاثاً، والرغبة فيها. والنكاح بشرط التحليل فاسد

عند الشَّافعي، وأحمد، ومالك. ولو تزوجها، ولم يشترط في العقد: أنه يفارقها؛ فالنِّكاح صحيح، ويحصل به التَّحليل إذا طلَّقها، وانقضت العدَّة، غير أنه يكره إذا كان في عزمهما ذلك. وبه قال الشَّافعي، وأبو حنيفة.

هذا وقد لعن الرسول ﷺ: **«المحلِّلَ، والمحلَّلَ لهُ»**. فخذه بما يلي: عن جابر ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول الله ﷺ، قال: **«لعن اللهُ المحلِّلَ، والمحلَّلَ لَهُ»**. رواه الترمذيُّ. وعن عقبة بن عامر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِالتَّيْسِ الْمُسْتَعَارِ؟!»** قالوا: بلى يا رسول الله! قال: **«هو المحلِّلُ، والْمحلَّلُ لَهُ»**. رواه ابن ماجه. وعن عمر بن نافع عن أبيه: أنه قال: جاء رجل إلى ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ، فسأله عن رجلٍ طلق امرأته ثلاثاً، فتزوَّجها أخ له من غير مؤامرةٍ منه، ليحلَّها لأخيه، هل تحلُّ للأول؟ فقال: لا؛ إلا نكاح رغبةٍ، كنَّا نعدُّ هذا سفاحاً على عهد رسول الله ﷺ. رواه الحاكم في المستدرك.

هذا؛ والطلاق سلاحٌ شرعه الله حينما يستفحل النزاع بين الزوجين، ويبدو أن لا وفاق بينهما، والنَّصارى الذين كانوا لا يبيحونه قطعاً أدركوا حكمة الطلاق؛ فأباحوه في هذه الأيام، وحكمت به محاكمهم، ووقعت الفرقة بين كثير من الأزواج عندهم، ولكن الكثير من المسلمين قد أساؤوا استعمال هذا السِّلاح في هذه الأيام، كما هو مشاهد، وواقع. فلا حول، ولا قوة إلا بالله العليِّ العظيم!

الإعراب: ﴿فَإِن﴾: الفاء: حرف عطف، وتفريع. (إنْ): حرف شرط جازم، ﴿طَلَّقَهَا﴾: فعل ماض مبني على الفتح في محل جزم فعل الشرط، والفاعل محذوف لدلالة المقام عليه، و(ها): مفعول به أول، والمفعول الثاني محذوف، انظر الشرح. والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها ابتدائية، ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفي، ﴿فَلَا﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (لا): نافية. ﴿تَحِلُّ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى المرأة المطلقة. ﴿لَهُۥ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، والجملة الفعلية في محل جزم جواب الشرط، و(إنْ) ومدخولها كلام مفرع عما قبله لا محل له. ﴿مِنۢ بَعْدُ﴾ متعلقان بالفعل قبلهما، أو بمحذوف حال من الفاعل المستتر، وقد يُبنى (بَعْدُ) على الضم لقطعه عن الإضافة لفظاً، لا معنىً. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف غاية وجر بعدها «أن» مضمرة. ﴿تَنكِحَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ«أن» المضمرة، والفاعل محذوف لدلالة المقام عليه، و«أن» المضمرة والفعل المضارع في تأويل مصدر في محل جر بـ ﴿حَتَّىٰ﴾ والجار والمجرور متعلقان بالفعل: ﴿تَحِلُّ﴾، وساغ ذلك لاختلاف معاني الحروف. ﴿زَوْجًا﴾: مفعول به. ﴿غَيْرَهُۥ﴾: صفة: ﴿زَوْجًا﴾ والهاء في محل جر بالإضافة، والإضافة للضمير لا تزيده تعريفاً لشدة إبهامه.

هذا؛ ولا يخفى عليك بعد هذا الإعراب إعراب: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ﴾. والمصدر المؤول من: ﴿أَن يُقِيمَا﴾ في محل جر بحرف جر محذوف، التقدير: في مراجعتهما، والجار

والمجرور متعلقان بما يتعلق: ﴿عَلَيْهِمَآ﴾ وقد مرَّ مثله معنا. ﴿إِن﴾: حرف جازم. ﴿ظَنَّآ﴾: فعل ماض مبني على الفتح في محل جزم فعل الشرط، وألف الاثنين فاعله، والجملة الفعلية لا محلَّ لها، مثل ما تقدَّم. ﴿أَن يُقِيمَا﴾: فعل مضارع منصوب بـ ﴿أَن﴾ وعلامة نصبه حذف النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، وألف الاثنين فاعله، و﴿أَن﴾ والفعل المضارع في تأويل مصدر في محل نصب سدَّ مسد مفعولي: (ظنَّ)، ﴿حُدُودَ﴾: مفعول به، وهو مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾ مضاف إليه.

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ﴾: مبتدأ، وخبر، و﴿حُدُودُ﴾: مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾: مضاف إليه، والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها، ﴿يُبَيِّنُهَا﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى: ﴿ٱللَّهِ﴾، و(ها): مفعول به، والجملة الفعلية في محل نصب حال من: ﴿حُدُودُ﴾ أو من: ﴿ٱللَّهِ﴾ والرابط على الاعتبارين: الضمير فقط، والعامل في الحال: اسم الإشارة. ﴿لِقَوْمٍ﴾: متعلقان بما قبلهما، وجملة ﴿يَعْلَمُونَ﴾ في محل جر صفة: (قوم) ولم يذكر مفعول للفعل؛ لأنه بمعنى: يفهمون، ويعملون بمقتضى العلم.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (٢٣١)﴾

الشرح: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ...﴾ إلخ: الخطاب للأزواج. ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾: قاربن انقضاء عدَّتهن؛ لأنَّه بعد بلوغ الأجل لا خيار له في الإمساك، بخلافه في الآية التالية. ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ...﴾ إلخ: هذا أمر من العلي القدير للرِّجال، بأنَّه إذا طلَّق أحدهم المرأة طلاقاً رجعيّاً، أن يحسن في أمرها؛ إذا قاربت انقضاء عدَّتها، ولم يبق منها إلا مقدار ما يمكنه فيه رجعتها، فإما أن يمسكها؛ أي: يرتجعها إلى عصمة نكاحه بمعروفٍ، وهو أن يشهد على رجعتها، ويعاشرها بالمعروف الَّذي أمر الله ورسولُه به، أو يتركها؛ حتى تنقضي عدَّتها وتذهب إلى حال سبيلها، من غير شقاقٍ ولا مخاصمةٍ، ولا تشاجر. ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا﴾: قال ابن عباس، ومجاهد ـ رضي الله عنهم ـ: كان الرجل يطلِّق امرأته، فإذا قاربت انقضاء العدَّة راجعها، يقصد ضرها؛ لئلا تذهب إلى غيره، ثم يطلقها، فتعتدَّ، فإذا شارفت على انقضاء عدَّتها؛ طلَّق؛ لتطول عليها العدة، فنهاهم الله عن ذلك، وتوعَّدهم عليه، فقال جلَّ ذكره: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾ أي: لا تهزؤوا بأحكام الله، وأوامره، ونواهيه، فتجعلوا شريعته مهزوءاً بها بمخالفتكم لها. قال الحسن، وقتادة ـ رضي الله عنهما ـ: هو الرَّجل يطلِّق،

ويقول: كنت لاعباً. أو يعتق، أو ينكح، ويقول: كنت لاعباً. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: طلَّق رجلٌ امرأته، وهو يلعب لا يريد الطَّلاق، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ﴾ فألزمه رسول الله ﷺ الطَّلاق. وقال عليه الصَّلاة والسلام: «**ثَلَاثٌ جِدُّهُنَّ جِدٌّ، وهَزْلُهُنَّ جِدٌّ: النِّكَاحُ، وَالطَّلاقُ، والرَّجْعَةُ**». رواه أبو داود، والترمذيُّ، وابن ماجه. والمراد بالرَّجعة: رجعة المرأة المطلَّقة، وهي في عدَّتها. وراوي الحديث هو أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ، وروي عن علي، وابن مسعود وأبي الدرداء ـ رضي الله عنهم ـ كلهم قالوا: ثلاث اللعب فيهن، واللاعب فيهن جادٌّ: النكاحُ، والطلاقُ، والعَتاقُ.

﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي: بالإسلام وإرسال الرَّسول ﷺ بالهدى، والبيِّنات. ﴿وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: القرآن. ﴿وَٱلْحِكْمَةِ﴾: هي السنَّة المطهَّرة، وانظر الآية رقم [١٢٩] فهو جيد. والحمد لله! ﴿يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ أي: يأمركم، وينهاكم عن ارتكاب المحارم، ويخوِّفكم عقابه. وإنَّما لم يثنِّ: الضمير؛ لأنه عائد على (ما) وانظر ما ذكرته في الآية رقم [٢٧٠] فإنَّه جيد. والحمد لله! ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ...﴾ إلخ: تقدَّم مثله كثيراً، ومضمونه التَّأكيد، والوعيد، والتَّهديد.

الإعراب: ﴿وَإِذَا﴾: الواو: حرف عطف. (إذا): ظرف لما يستقبل من الزمان، خافض لشرطه، منصوب بجوابه، صالح لغير ذلك، مبني على السكون في محل نصب. ﴿طَلَّقْتُمُ﴾: فعل، وفاعل. ﴿ٱلنِّسَآءَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة (إذا) إليها على المشهور المرجوح. ﴿فَبَلَغْنَ﴾: الفاء: حرف عطف. (بلغن): فعل، وفاعل، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها. ﴿أَجَلَهُنَّ﴾: مفعول به، والهاء في محل جر بالإضافة، والنون في الكلِّ حرف دالٌّ على جماعة الإناث. ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾: الفاء: واقعة في جواب (إذا). (أمسكوهن): فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والهاء مفعوله، والجملة الفعلية جواب (إذا) لا محل لها. ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿أَوْ﴾: حرف عطف، وجملة: ﴿سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ﴾: معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها، وإعرابها مثلها أيضاً.

﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): ناهية. ﴿تُمْسِكُوهُنَّ﴾: مضارع مجزوم بـ (لا) الناهية، وعلامة جزمه حذف النون، والواو فاعله، والهاء مفعوله، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها. ﴿ضِرَارٗا﴾: مفعول لأجله، ويجوز أن يكون مصدراً في موضع الحال؛ أي: مضارين، كجاء زيد ركضاً. ﴿لِّتَعْتَدُواْۚ﴾: فعل مضارع منصوب بـ «أن» مضمرة بعد لام التعليل، وعلامة نصبه حذف النون، والواو فاعله، والألف فيه، وفيما بعده للتفريق، و«أن» المضمرة، والفعل المضارع في تأويل مصدر في محل جرٍّ باللام، والجار والمجرور متعلقان بـ ﴿ضِرَارٗا﴾ فيكون علَّة للْعلَّة، ولا يجوز تعليقهما بالفعل؛ لأن المفعول لأجله لا يتعدَّد إلا بالعطف، وهو مفقودٌ هنا، انتهى. جمل. و﴿وَإِذَا﴾ ومدخولها كلام معطوف على ما قبله، لا محلَّ له مثله.

﴿وَمَن﴾: الواو: واو الاعتراض. (مَنْ): اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿يَفْعَلْ﴾: فعل مضارع فعل الشرط مجزوم، والفاعل يعود إلى (مَنْ)، تقديره: هو. ﴿ذَٰلِكَ﴾: اسم إشارة مبني على السكون في محل رفع نصب مفعول به، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب لا محلَّ له. ﴿فَقَدْ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (قد): حرف تحقيق يقرِّب الماضي من الحال. ﴿ظَلَمَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعد إلى (مَنْ). ﴿نَفْسَهُۥ﴾: مفعول به، والهاء في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية في محل جزم عند الجمهور، وخبر المبتدأ الَّذي هو (مَنْ) مختلفٌ فيه، والمرجَّح: أنه جملة الشرط، والجواب. والجملة الاسمية معترضة بين الجملتين المتعاطفتين، الغرض منها التأكيد، والتهديد، والوعيد.

﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): ناهية. ﴿تَتَّخِذُوٓاْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ (لا)... إلخ، والواو فاعله. ﴿ءَايَٰتِ﴾: مفعول به أول منصوب، وعلامة نصبه الكسرة نيابة عن الفتحة؛ لأنه جمع مؤنث سالم، و﴿ءَايَٰتِ﴾ مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾: مضاف إليه، ﴿هُزُوًا﴾: مفعول به ثان، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها من جمل، لا محل لها. ﴿وَٱذْكُرُواْ﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله. ﴿نِعْمَتَ﴾: مفعول به، وهو مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾: مضاف إليه. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، أو هما متعلقان بمحذوف حال من: ﴿نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها أيضاً. ﴿وَمَآ﴾: الواو: حرف عطف، (ما): اسم موصول مبني على السكون في محل نصب معطوفة على ﴿نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ فهو عطف خاص على عام. ﴿أَنزَلَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى (الله)، والجملة الفعلية صلة (ما) والعائد محذوف، التقدير: والذي أنزله. ﴿عَلَيْكُم﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: متعلقان بمحذوف حال من الضمير المحذوف العائد إلى (ما)، ﴿مِّنَ﴾: بيان لما أبهم فيها. ﴿وَٱلْحِكْمَةِ﴾: معطوف على: ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾. ﴿يَعِظُكُم﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى (الله)، والكاف مفعول به. ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، والجملة الفعلية في محل نصب حال من فاعل: ﴿أَنزَلَ﴾ أو من مفعوله، والرابط: الضمير فقط على الاعتبارين، وجوز أبو البقاء اعتبار (ما) مبتدأ، وجملة: ﴿يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ في محل رفع خبره. ولا أراه قويّاً، وتكون الجملة الاسمية على رأيه معترضةً بين المتعاطفين.

﴿وَٱتَّقُواْ﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله. ﴿ٱللَّهَ﴾: منصوب على التعظيم، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، وجملة: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ...﴾ إلخ: معطوفة على ما قبلها أيضاً. ﴿أَنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسم ﴿أَنَّ﴾. ﴿بِكُلِّ﴾: متعلقان بـ ﴿عَلِيمٌ﴾، و(كلّ) مضاف، و﴿شَىْءٍ﴾: مضاف إليه. ﴿عَلِيمٌ﴾: خبر: ﴿أَنَّ﴾. و﴿أَنَّ﴾ واسمها، وخبرها في تأويل مصدر في محل نصب سدَّ مسدَّ مفعولي: (اعلموا).

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾

الشرح: فقد ثبت: أنَّ هذه الآية نزلت في مَعْقِل بن يسار المُزني، وأخته. وخذ ما يلي: عن معقل ـ رضي الله عنه ـ، قال: كانت لي أختٌ تُخطب، وأمنعها من النَّاس، فأتاني ابن عمٍّ لي، فأنكحتُها إيَّاه، فاصطحبا ما شاء الله، ثم طلَّقها طلاقاً له رجعةٌ، ثمَّ تركها؛ حتى انقضت عِدَّتُها، فلمَّا خُطِبت إليَّ؛ أتاني يخطبها مع الخطَّاب، فقلت له: خُطِبَتْ إليَّ، فمنعتها النَّاس، وآثرتك بها، فزوَّجتك، ثمَّ طلقتَها طلاقاً لك فيه رجعة ثم تركتها؛ حتى انقضت عدَّتها، فلمَّا خُطِبَتْ إليَّ؛ أتيني تخطبها مع الخطَّاب؟! والله لا أنكحتها لك أبداً! ففيَّ نزلت هذه الآية، فكفَّرت عن يميني، وأنكحتها إيَّاه. أخرجه البخاريُّ.

وفي رواية الترمذي: ثم طلَّقها تطليقةً لم يراجعها؛ حتَّى انقضت عدَّتها، فهويها، وهويته، ثمَّ خطبها مع الخطاب، فقال له: يا لُكع ابن لكع! أكرمتُك بها، وزوجتُكها، فطلقتها، والله لا ترجع إليك أبداً آخر ما عليك! فعلم الله حاجته إليها، وحاجتها إلى بعلها، فأنزل الله الآية، فلمَّا سمع معقل ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعٌ لربِّي، وطاعةٌ. ثمَّ دعاه، فزوَّجه إيَّاها، وكفَّر عن يمينه رضي الله عنه.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ﴾: الخطاب للأزواج، والأولياء، والنِّساء. ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: انقضت عدَّتها يقيناً بخلاف الآية السابقة. ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ﴾: فلا تمنعوهن أن يرجعن إلى أزواجهنَّ بعقدٍ جديدٍ. هذا؛ والعضل: التضييق، والمنع، وهو راجع إلى معنى الحبس. ومن قول معاوية: معضلةٌ ولا أبا حسن لها، يريد عليّاً ـ رضي الله عنه ـ؛ الَّذي كان يحلُّ المعضلات من الأمور، وانظر حلَّه المعضلة في الآية التالية. والمعضلة: مسألة صعبةٌ ضيقة المخارج، وقال طاوس: لقد وردت عُضَلُ أقضيةٍ ما قام بها إلا ابن عبَّاس رضي الله عنهما. وكلُّ مشكلٍ عند العرب مُعْضِلٌ، ومنه قول الشَّافعي ـ رضي الله عنه ـ: [المتقارب]

إِذَا الْمُعْضِلَاتُ تَصَدَّيْنَنِي ... كَشَفْتُ حَقَائِقَهَا بِالنَّظَرْ

هذا؛ والعضل: الحبس، قال الشَّاعر: [الوافر]

وَإِنَّ قَصَائِدِي لَكَ فَاصْطَنِعْنِي ... عَقَائِلُ قَدْ عُضِلْنَ عَنِ النِّكَاحِ

وقال آخر: [الكامل]

فَلأَعْضِلَنَّ قَصَائِدِي مِنْ بَعْدِهِ ... حَتَّى أُزَوِّجَهَا مِنَ الأَكْفَاءِ

وداء عضال: أي: شديدٌ عَسِرُ البُرْء، أعيا الأطباء. هذا؛ وفي قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ...﴾ إلخ دليلٌ قويٌّ للشَّافعي، وموافقيه: أن المرأة لا تتولى نكاح نفسها، ولو كانت ثيباً، وبنت خمسين سنة، وقد ذكرته في الآية رقم [٢٢١]. ﴿إِذَا تَرَٰضَوۡاْ بَيۡنَهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ﴾ أي: إذا تراضى الأزواج، والزَّوجات المطلَّقات. والمعروف هنا: ما وافق الشَّرع من عقدٍ حلال بشروطه: مهر... إلخ، وقيل: هو أن يرضى كلٌّ منهما، ويتعهَّد بما التزمه لصاحبه بحقِّ العقد؛ حتَّى تحصل الصُّحبة الحسنة، والعِشرة الجميلة. هذا؛ وفي واو الجماعة تغليب الذُّكور على الإناث.

﴿ذَٰلِكَ﴾: إشارة إلى الأحكام المذكورة. ﴿يُوعَظُ بِهِۦ﴾ أي: ينتفع به، ويهتدي إلى طريق السداد، وهم المؤمنون بالله واليوم الآخر. هذا؛ وأفرد ﴿ذَٰلِكَ﴾ ولم يقل: ذلكم؛ لأنَّه محمول على معنى الجمع بدليل ما بعدها. ﴿ذَٰلِكُمۡ أَزۡكَىٰ لَكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ﴾ أي: الاتِّعاظ بما ذكر، والتمسُّك بأوامر الله، خيرٌ، وأنفع لكم، وأطهر من الآثام، وأوضار الذُّنوب، والمعاصي. ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أي: والله يعلم ما هو أصلح لكم من الأحكام والشَّرائع، وأنتم لا تعلمون ذلك، فامتثلوا أمره تعالى، ونهيه في جميع ما تأتون، وما تذرون.

قال الإمام الفخر الرازي ـ رحمه الله تعالى ـ: الحكمة في إثبات حقِّ الرَّجعة: أنَّ الإنسان ما دام مع صاحبه لا يدري هل تشق عليه المفارقة، أو لا؟ فإذا فارقه؛ فعند ذلك تظهر، فلو جعل الله الطلقة الواحدة مانعةً من الرُّجوع؛ لعظمت المشقَّة على الإنسان؛ إذ قد تظهر المحبَّة بعد المفارقة، ثمَّ لما كان كمال التَّجربة لا يحصل بالمرَّة الواحدة؛ أثبت الله تعالى حقَّ المراجعة مرَّتين، وهذا يدلُّ على كمال رحمته تعالى، ورأفته بعباده!. انتهى. صفوة التفاسير.

الإعراب: ﴿وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ﴾: انظر إعراب مثل هذا الكلام في الآية السابقة. ﴿أَن﴾: حرف مصدري، ونصب. ﴿يَنكِحۡنَ﴾: فعل مضارع مبني على السكون في محل نصب بـ ﴿أَن﴾، ونون النسوة في محل رفع فاعل، و﴿أَن﴾ والمضارع في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر محذوف عند الخليل، والجار والمجرور متعلقان بالفعل قبلهما، التقدير: فلا تعضلوهن من نكاح أزواجهنَّ، وهو في محل نصب بنزع الخافض عند سيبويه. ﴿إِذَا﴾: ظرف زمان متعلق بالفعل قبله، مبني على السكون في محل نصب. ﴿تَرَٰضَوۡاْ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدَّر على الألف المحذوفة لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة؛ الَّتي هي فاعله، والألف للتفريق. ﴿بَيۡنَهُم﴾: ظرف مكان متعلِّق بالفعل قبله، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ﴾: متعلقان بمحذوف حال من واو الجماعة، أو بمحذوف صفة مصدر محذوف، التقدير: تراضوْا تراضياً كائناً بالمعروف، وجملة: ﴿تَرَٰضَوۡاْ...﴾ إلخ في محل جر بإضافة: ﴿إِذَا﴾ إليها، وإن اعتبرتها شرطية؛ فجوابها محذوفٌ لدلالة ما قبله عليه.

﴿ذَٰلِكَ﴾: اسم إشارة مبني على السكون في محل رفع مبتدأ، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب لا محل له. ﴿يُوعَظُ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول. ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿مَن﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل رفع نائب فاعل. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص واسمه يعود إلى: ﴿مَن﴾ تقديره: هو. ﴿مِنكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ ﴿كَانَ﴾ على قول من يجيز التعليق بالفعل الناقص، أو هما متعلقان بما بعدهما. ﴿يُؤْمِنُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى ﴿مَن﴾. ﴿بِٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿وَٱلْيَوْمِ﴾: معطوف على (الله). ﴿ٱلْءَاخِرِ﴾ صفة (اليوم)، وجملة: (يؤمن...) إلخ في محل نصب خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة: ﴿كَانَ...﴾ إلخ صلة الموصول لا محلَّ لها.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾: اسم إشارة مبني على السُّكون في محل رفع مبتدأ، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب لا محلَّ له. ﴿أَزْكَىٰ﴾: خبر المبتدأ مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف للتعذر. ﴿لَكُمْ﴾: متعلقان بـ ﴿أَزْكَىٰ﴾ وقيل: متعلقان بمحذوف صفة له. وليس بشيء. ﴿وَأَطْهَرُ﴾: معطوف على ﴿أَزْكَىٰ﴾، وحذف متعلقه اكتفاءً بسابقه، والجملة الاسمية: ﴿ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ﴾ مؤكدة للأولى وهو أولى من اعتبارها بدلاً منها. ﴿وَٱللَّهُ﴾: الواو: واو الحال. (الله): مبتدأ. ﴿يَعْلَمُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى (الله)، والمفعول محذوف للتعميم، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل نصب حال مؤكدة لمضمون ما قبلها. (أنتم): ضمير منفصل مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿تَعْلَمُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله، والمفعول محذوف للتعميم، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: معطوفة على ما قبلها، فهي في محل نصب حال مثلها.

﴿۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾﴾

الشرح: لمَّا ذكر الله تعالى جملةً من الأحكام المتعلِّقة بالنكاح، والطلاق، والعدة، والرَّجعة، والعضل؛ ذكر في هذه الآية الكريمة حكم الرَّضاع؛ لأنَّ الطلاق يحصل به الفراق، وقد يطلِّق الرَّجل زوجته، ويكون لها منه طفل ترضعه، وربما أضاعت الطفل، أو حرمته الرضاع انتقاماً من الزوج، وإيذاءً له في ولده، لذلك وردت هذه الآية لندب الوالدات المطلَّقات إلى رعاية الأطفال، والاهتمام بشأنهم.

﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ﴾ أي: ليرضعن، فهو خبر بمعنى الأمر، وهذا الأمر للندب، وللوجوب، فالأوَّل عند وجود ثلاثة شروط: قدرة الأب على الاستئجار، ووجود غير الأم، وقبول الولد للبن غيرها، وللوجوب عند فقد واحد منها. هذا؛ وإن تربية الطفل بلبن الأم أصلح من غيرها، لكمال شفقتها عليه، ويدلُّ على أنه لا يجب على المرأة إرضاع ولدها قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ ولو وجب عليها الرضاع؛ لما استحقَّت الأجرة. وقال تعالى: ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾ سورة (الطلاق) هذا نصٌّ صريح في ذلك، انظر شرح الآية هناك، فإنه جيد، والحمد لله!.

﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾: الحول، والعام، والسَّنة بمعنىً واحد، والحول: مِنْ: (حالَ): إذا انقلب من حال إلى حال، و﴿كَامِلَيْنِ﴾: توكيد؛ لأنَّه مما يتسامح فيه، فيقال: أقمت عند فلان يومين ـ والقائل يريد يوماً وبعض اليوم الآخر ـ كما في قوله تعالى: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ وقد مرَّ في الآية رقم [٢٠٣]. ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: وعلى الأب نفقة الوالدات المطلَّقات، وكسوتهن بما هو متعارف عليه بدون إسراف، ولا تقتير لتقوم بخدمة الولد حقَّ القيام، وإنما عبر سبحانه بهذا؛ لأن الوالدات إنما ولدن للآباء، ولذلك ينسب الولد للأب دون الأم، وينسب للمأمون ما يلي: [البسيط]

لَا تَـزْدَرِيـنَ فَـتـىً مِـنْ أَنْ يَـكُـونَ لَـهُ ... أُمٌّ مِـنَ الـرُّومِ أَوْ سَـوْدَاءُ عَـجْـمَـاءُ
فَـإِنَّـمَـا أُمَّـهَـاتُ الـنَّـاسِ أَوْعِـيَـةٌ ... مُـسْـتَـوْدَعَـاتٌ وَلـلأَبْـنَـاءِ آبَـاءُ

هذا ولم تحذف النون من (تَزْدَرِينَ) مع كونه مجزوماً بـ (لا) الناهية لضرورة الشعر.

والهاء في ﴿لَهُۥ﴾ عائدة على (أَلْ) لأنَّ المعنى: الذي يولد له، وهو الوالد. هذا؛ والرضاع المُحرِّم هو الذي يكون في حدود الحولين، وبعدهما لا تحريم بالرَّضاع، كما رأيته في الآية رقم [٢٣] من سورة (النساء).

﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾: إلا طاقتها، ومقدرتها على الإنفاق، والمعنى: أن أبا الولد لا يُكلَّف في الإنفاق عليه، وعلى أمِّه إلا ما قد تَتَّسِع به مقدرته، كذلك لا تكلف المرأة الصَّبر على التقتير في الأجرة، بل يُراعى القصد، والاعتدال، وفي هذه الأيام القاضي الشَّرعي هو الذي يقرِّر نفقة المطلقة، ونفقة الولد حسب دخل الرَّجل الشَّهري، هذا، وكثيراً ما نسمع من ويلات الطلاق من قبل الفاسقين، والفاسدين؛ الذين ينكحون ثانية، وثالثة، ويتركون الأولى، ويدعون لها أولادها بدون إنفاقٍ عليها، وعلى أولادهم؛ سواء طلَّقوا، أم لم يطلقوا! فلا حول ولا قوة إلا بالله!.

هذا؛ وفي هذه الآية دليل على أنَّ الحضانة للأم، ويقدر مدَّتها في هذه الأيام القاضي الشرعي، والرَّسول ﷺ قال للأم: «**أَنْتِ أَحَقُّ بِهِ مَا لَمْ تَنْكِحِي**». فقد روى أبو داود عن

الأوزاعي، قال: حدَّثني عمرو بن شعيب، عن أبيه عن جدِّه عبد الله بن عمرو: أنَّ امرأة جاءت إلى النبيِّ ﷺ، فقالت: يا رسول الله! إنَّ ابني هذا كان بطني له وعاءً، وثديي له سقاءً، وحِجْري له حواءً، وإن أباه طلَّقني، وأراد أن ينتزعه منِّي. فقال لها رسول الله ﷺ: «**أَنْتِ أَحَقُّ بِهِ مَا لَمْ تَنْكِحِي**». وخذ ما يلي هذه الطُّرفة:

فقد روى القالي في أماليه عن أبي عبيدة، قال: جرى بين أبي الأسود الدُّؤلي وامرأته كلام في ابنٍ لها منه، وأراد نزعه منها، فصارا إلى زياد بن أبيه، وهو والي البصرة، فقالت المرأة: أصلح الله الأمير، هذا ابني، كان بطني وعاءه، وحِجْري فناءه، وثديي سقاءه، أكلؤه إذا نام، وأحفظه إذا قام، فلم أزل بذلك سبعة أعوام، حتَّى إذا استوفى فِصَاله، وكملت خصالُه، واستوعكت أوصالُه، وأمَّلْتُ نفعه، ورجوت خيره أراد أن يأخذه كرهاً، فآوني أيها الأمير، فقد رام قهري، وأراد قسري. فقال أبو الأسود: أصلحكَ الله، هذا ابني حملتُه قبل أن تحملَه، ووضعتُه قبل أن تضعَه، أنا أقوم في أدبه، وأنظر في أوده، وأمنحه علمي، وألهمه حلمي، حتى يكمل عقلُه، ويستحكم فتله. فقالت المرأة: أصلحكَ الله، حمله خفّاً، وحملته ثقلاً، وضعه شهوةً، ووضعته كرهاً. فقال زياد: رُدَّ على المرأة ولدها، فهي أحقُّ به منك، ودعني مِنْ سجعك. انتهى. فإن تزوَّجت المطلقة؛ فأمُّها أحقُّ بحضانة أولادها الصِّغار.

﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾ أي: لا يُضِرُّ الوالدان بالولد، فيفرطا في تعهُّده، أو يقصِّرا في ما ينبغي له، أو يضارَّ أحدهما الآخر، بسبب الولد، فترفض الأمُّ إرضاعه؛ لتضرَّ أباه بتربيته، أو ينتزع الأب الولد منها إضراراً بها؛ مع رغبتها في إرضاعه، ليغيظ أحدُهما صاحبَه. وإضافة الولد لكلٍّ منهما في الموضعين للاستعطاف.

﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾: اختلفوا في تأويله، فقال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وغيره: المُراد: وارث أبي الصَّبيِّ، فعليه أن ينفق على الطِّفل، وعلى والدته التي تُرْضِعه، وتحضنه من غير تقصيرٍ، ولا إفراطٍ، ولا تفريط. وهو قول الجمهور، وقد استدلَّ الحنفيَّة، والحنابلة بذلك على وجوب نفقة الأقارب بعضهم على بعض؛ سواء كانوا من جهة الأب، أو من جهة الأم، كما في المواريث، ويرجح ذلك بحديث الحسن عن سمرة مرفوعاً: «**من ملك ذا رحم محرم؛ عتق عليه**». وقيل: المراد: وارث الصَّبيِّ إذا مات. وقيل: المراد: الوارث هو الصَّبيُّ نفسه؛ أي: عليه إذا ورث أباه بعد موتة إرضاع نفسه من المال الذي ورثه.

﴿فَإِنْ أَرَادَا﴾ أي: الأب، والأم. ﴿فِصَالًا﴾: فطاماً للولد. ﴿عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ﴾ أي: عن اتفاق بينهما على فطامه قبل الحولين، ورأيا في ذلك مصلحةً له، وتشاورا في ذلك، وأجمعا عليه، فلا مؤاخذة، ولا إثم عليهما. فيؤخذ منه: أنه لا يجوز لأحدهما أن يستبدَّ بفطامه دون مشاورة الآخر. وفي هذا احتياط لمصلحة الطفل، وإلزام للنظر في أمره، وهو من رحمة الله

بعباده، قال تعالى في سورة (الطلاق): ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾.

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟...﴾ إلخ: هذا خطاب للآباء إذا أرادوا أن يستأجروا مرضعات لأولادهم غير أمهاتهم، فلا إثم عليهم، ولا حرج، ولا سيما إذا تزوّجت أم الولد غير أبيه بعد طلاقها منه، أو طلبت فوق أجرة المثل. والسين، والتاء للطلب، وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب، وانظر الالتفات في الآية رقم [١٣١].

﴿إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: دفعتم الأجرة إلى المرضعة كاملة. وقال مجاهد: أسلمتم إلى الأمهات أجرهنَّ بحساب ما أرضعن إلى وقت الاسترضاع. و(المعروف): الإحسان، والإجمال في القول. أمروا أن يكونوا عند تسليم الأجرة لمن ترضع الطفل مستبشري الوجوه، ناطقين بالقول الجميل، مطيبين لأنفس المراضع بما أمكن؛ حتى يؤمن تفريطهن في إرضاع الطفل. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾: خافوا الله فيما أوجب عليكم من الحقوق، وفيما أجب عليكم لأولادكم، وهو يعمُّ المرضعات. ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: لا يخفى عليه خافية من جميع أعمالكم سرِّها، وعلانيتها، فإنه تعالى يعلمها.

بعد هذا فقوله تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ مثل قوله تعالى في سورة (لقمان) رقم [١٤]: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾، وقد استنتج من الآيتين ومن آية (الأحقاف) رقم [١٥] وهي قوله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾: أنَّ أقل مدة الحمل ستة أشهر. وهو استنتاج قوي، وصحيح. روى محمَّد بن إسحاق عن معمر بن عبد الله الجهني، قال: تزوّج رجل منَّا امرأةً من جُهينة، فولدت ولداً لتمام ستَّة أشهر من زواجها، فانطلق زوجها إلى عثمان ـ رضي الله عنه ـ فذكر ذلك له، فبعث إليها، فلما قامت لتلبس ثيابها؛ بكت أختُها، فقالت: ما يبكيك؟ فو الله ما التبس بي أحد من خلق الله تعالى غيره قطُّ، فيقضي الله سبحانه وتعالى فيَّ ما شاء، فلمَّا أتي بها عثمان ـ رضي الله عنه ـ أمر برجمها، فبلغ ذلك عليّاً ـ رضي الله عنه ـ فأتاه، فقال: ما تصنع؟ قال: ولدت لستة أشهر، وهل يكون ذلك؟ فقال له عليٌّ كرم الله وجهه: أما تقرأ القرآن؟ قال: بلى! قال: أما سمعت الله عز وجل يقول: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾، وقال في سورة (البقرة): ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ...﴾ إلخ، وقال في سورة (لقمان): ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ فلم تجده بقي إلا ستة. قال: فقال عثمان ـ رضي الله عنه ـ: والله ما فطنت بهذا، عليَّ بالمرأة، فوجدوها قد فرغ منها، قال: فقال معمر ـ رضي الله عنه ـ: فوالله ما الغراب بالغراب، ولا البيضة بالبيضة بأشبه منه بأبيه، فلمَّا رآه أبوه، قال: إنِّي والله لا أشك فيه. قال: وابتلاه الله تعالى بهذه القرحة بوجهه الآكلة، فما زالت تأكله؛ حتَّى مات. أخرجه ابن أبي حاتم. انتهى. مختصر ابن كثير. انظر ما قاله معاوية في حقِّ عليٍّ في الآية السابقة، وقد صار مثلاً من الأمثال عند وجود مشكلة معضلة.

هذا؛ ويفيد قوله: «فوجدوها قد فرغ منها»: أنها أقيم عليها حد الرَّجم، وانتهى أمرها. وذكر القرطبي في تفسير سورة (الأحقاف): أنَّ عثمان ـ رضي الله عنه ـ رجع عن قوله، ولم يحدَّها، والمروي في الموطأ: أنَّها رجمت. وفي تيسير الوصول، فأمر عثمان بردِّها، فوجدت قد رجمت. وهذا هو المعتمد، رحمها الله تعالى. هذا؛ وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: إذا وضعت المرأة لتسعة أشهر؛ كفاه من الرَّضاع أحد وعشرون شهراً، وإذا وضعته لسبعة أشهر؛ كفاه من الرَّضاع ثلاثة وعشرون شهراً، وإذا وضعته لستة أشهر؛ فحولين كاملين؛ لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾. هذا؛ وأصل الكلام: وأنَّ حمله وفصاله ثلاثون شهراً. ولا يصح المعنى إلا بهذا. هذا؛ والواقع يوحي بأنَّ المرأة المذكورة كانت ثيباً؛ إذ لو كانت بكراً لكان حدُّها الجلد، لا الرَّجم، تأمَّل، وتدبَّر، وربك أعلم، وأجل، وأكرم.

الإعراب: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ﴾: الواو: حرف عطف. (الوالدات): مبتدأ. ﴿يُرْضِعْنَ﴾: فعل مضارع مبني على السكون، ونون النسوة فاعله. ﴿أَوْلَٰدَهُنَّ﴾: مفعول به، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿حَوْلَيْنِ﴾: ظرف زمان متعلق بالفعل قبله. ﴿كَامِلَيْنِ﴾: صفة ﴿حَوْلَيْنِ﴾ منصوب مثله، وعلامة نصبهما الياء نيابة عن الفتحة؛ لأنهما مثنى، والنون عوض عن التنوين في الاسم المفرد، والجملة الفعلية: ﴿يُرْضِعْنَ...﴾ إلخ في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها. ﴿لِمَنْ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، وقيل: متعلقان بمحذوف خبر لمبتدأ، التقدير: ذلك؛ أي: ما تقدَّم من إرضاع الولد حولين، و(مَنْ) تحتمل الموصولة، والموصوفة. ﴿أَرَادَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى (مَنْ) وهو العائد، أو الرابط. ﴿أَن يُتِمَّ﴾: مضارع منصوب بـ: ﴿أَن﴾ والفاعل يعود إلى (مَنْ)، و﴿أَن﴾ والمضارع في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به. ﴿ٱلرَّضَاعَةَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية: ﴿أَرَادَ...﴾ إلخ: صلة (مَنْ) أو صفتها، والجملة الاسمية: (الوالدات)... إلخ مستأنفة، أو هي معترضة بين المتعاطفتين، لا محل لها على الاعتبارين.

(على المولود): جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم. ﴿لَهُۥ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ ﴿ٱلْمَوْلُودِ﴾ على أنهما في محل رفع نائب فاعله. ﴿رِزْقُهُنَّ﴾: مبتدأ مؤخر.

﴿وَكِسْوَتُهُنَّ﴾: معطوف على ما قبله، والهاء: في محل جر بالإضافة، والنون حرف دال على جماعة الإناث، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها.

﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾: علقهما أبو البقاء بمحذوف حال من: ﴿رِزْقُهُنَّ﴾وهذا لا يجيزه كثير من النحاة؛ لأن الحال هيئة فاعل، أو مفعول، والأولى تعليقهما بمحذوف حال من الضمير في الخبر المحذوف. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿تُكَلَّفُ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول. ﴿نَفْسٌ﴾: نائب فاعله، وهو المفعول الأول. ﴿إِلَّا﴾: حرف حصر. ﴿وُسْعَهَا﴾: مفعول به ثان، والجملة الفعلية مفيدة للتعليل لا محلَّ لها.

﴿لَا﴾: نافية، أو ناهية. ﴿تُضَآرَّ﴾: قرئ بالرَّفع، والجزم، وبالبناء للفاعل، وبالبناء للمجهول، وأصل الأول (تُضارِرْ) بكسر الراء الأولى في الأول، وبفتحها في الثاني، ومثله في الآية رقم [٢٨٢] الآتية، وقرئ بالفكِّ (تُضارِرْ) وبالإدغام: ﴿تُضَآرَّ﴾؛ فعلى الفكِّ هو ظاهر، وعلى الإدغام؛ فعلى الرفع بالضَّمَّة ظاهرة، وعلى الجزم والإدغام، فإنَّه حرك بالفتحة لالتقاء السَّاكنين، وكان الفتح أولى لتجانس الألف والفتحة قبلها، كما هو القاعدة في جزم المضعَّف. ﴿وَالِدَةٌۢ﴾: نائب فاعله. ﴿بِوَلَدِهَا﴾: متعلقان بالفعل قبلهما والباء للسببية، و(ها) في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية بمنزلة البدل ممَّا قبلها، لا محل لها مثلها. ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): نافية. ﴿مَوْلُودٌ﴾: معطوف على: ﴿وَالِدَةٌۢ﴾. ﴿لَّهُۥ﴾: جار ومجرور في محل رفع نائب فاعل. ﴿بِوَلَدِهِۦۚ﴾: متعلقان بالفعل المحذوف؛ إذ التقدير: ولا يضارَّ مولود له، والهاء في محل جر بالإضافة. (على الوارث): متعلقان بمحذوف خبر مقدم. ﴿مِثْلُ﴾: مبتدأ مؤخر، و ﴿مِثْلُ﴾ مضاف، و﴿ذَٰلِكَۗ﴾: اسم إشارة مبني على السكون في محل جر بالإضافة، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب لا محل له، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها لا محلَّ لها أيضاً.

﴿فَإِنْ﴾: الفاء: حرف استئناف. (إن): حرف شرط جازم. ﴿أَرَادَا﴾: فعل ماض مبني على الفتح في محل جزم فعل الشرط، والألف فاعله. ﴿فِصَالًا﴾: مفعول به، ﴿عَن تَرَاضٍ﴾ متعلقان بمحذوف صفة ﴿فِصَالًا﴾، وعلامة الجر كسرة مقدرة على الألف للتعذُّر، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها ابتدائية، ويقال: لأنَّها جملة شرط غير ظرفي.

﴿مِّنْهُمَا﴾: جار ومجرور متعلقان بـ ﴿تَرَاضٍ﴾. ﴿وَتَشَاوُرٍ﴾: معطوف على ﴿تَرَاضٍ﴾. ﴿فَلَا﴾: الفاء: واقعة في جواب الشَّرط. (لا): نافية للجنس تعمل عمل «إن». ﴿جُنَاحَ﴾: اسم (لا) مبني على الفتح في محل نصب. ﴿عَلَيْهِمَاۗ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر (لا)، والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط، و (إنْ) ومدخولها كلام مستأنف لا محل له. ﴿وَإِنْ﴾: الواو: حرف عطف. (إنْ): حرف شرط جازم. ﴿أَرَدتُّمْ﴾: فعل ماض مبني على السكون في محل جزم فعل الشرط، والتاء فاعله، والجملة الفعلية لا محل لها. ﴿أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أَن﴾ وعلامة نصبه حذف النُّون... إلخ، والمصدر المؤول منهما في محل نصب مفعول به، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿أَوْلَٰدَكُمْ﴾: مفعول به، والكاف في محل جرٍّ بالإضافة. ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾: إعرابه مثل ما قبله، والجملة الاسمية في محلِّ جزم جواب الشرط... إلخ، و (إنْ) ومدخولها كلام معطوف على ما قبله. هذا ومفعول: ﴿تَسْتَرْضِعُوٓا۟﴾ في الحقيقة محذوف، و﴿أَوْلَٰدَكُمْ﴾ منصوب بنزع الخافض، وتقدير الكلام: وإن أردتم أن تسترضعوا أجنبيةً لأولادكم. ﴿إِذَا﴾: ظرف زمان متعلِّق بـ (جناح). ﴿سَلَّمْتُم﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة: ﴿إِذَا﴾ إليها. وقيل: ﴿إِذَا﴾ شرطية، فيكون جوابها محذوفاً، دلَّ

عليه ما قبلها، وتكون ﴿إِذَا﴾ ومدخولها كلام مؤكِّد لمضمون الشرط السابق. ﴿مَآ﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل نصب مفعول به.

﴿ءَاتَيْتُم﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية صلة الموصول، والعائد محذوف، التقدير: الذي آتيتموهن إيَّاه نقداً. ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ﴾: انظر إعراب هذه الكلمات في الآية رقم [٢٣١] إفراداً وجملاً. ﴿بِمَا﴾ جار ومجرور متعلقان بـ ﴿بَصِيرٌ﴾ بعدهما، و(ما) تحتمل الموصولة، والموصوفة، والمصدرية. ﴿تَعْمَلُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون، والواو فاعله، والجملة الفعلية صلة (ما) أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف، التقدير: بالذي، أو بشيءٍ تعملونه، وعلى اعتبارها مصدرية تؤول بما بعدها بمصدر في محلِّ جر بالباء، التقدير: بعلمكم. ﴿بَصِيرٌ﴾: خبر: ﴿أَنَّ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾﴾

الشرح: لمَّا ذكر الله عز وجل عدَّة الطلاق، واتصل بذكرها ذكر الإرضاع؛ ذكر عدَّة الوفاة أيضاً؛ لئلا يتوهم: أنَّ عدة الوفاة مثل عدَّة الطلاق، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ...﴾ إلخ. وأصل التوفِّي أخذ الشَّيء وافياً، فمن مات؛ فقد استوفى عمره كاملاً، ورزقه، قال الرسول ﷺ: «**يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللهَ، وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، فَإِنَّ نفساً لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَوفِيَ رِزْقَهَا، وَإِنْ أَبْطَأَ عَنْهَا، فَاتَّقُوا اللهَ، وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، خُذُوا مَا حَلَّ، وَدَعُوا ما حَرُمَ**». أخرجه ابن ماجه، والحاكم عن جابر رضي الله عنه. هذا؛ ويقرأ الفعل بالبناء للمجهول، وبالبناء للمعلوم، بمعنى: يستوفون آجالهم.

﴿وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا﴾: المراد بالأزواج هنا: النِّساء؛ لأنَّ العرب تطلق اسم الزوج على المرأة، والرجل، كما رأيت في الآية رقم [٢٥]. ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾ انظر [٢٢٨] ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾: أي: وعشرة أيام، وإنَّما قال: وعشراً؛ لأنَّ العرب إذا أبهمت العدد من الليالي، والأيام؛ غلَّبوا الليالي، حتى إنَّ أحدهم ليقول: صمت عشراً من الشهر؛ لكثرة تغليبهم الليالي على الأيام؛ فإذا أظهروا الأيام؛ قالوا: صمنا عشرة أيام. وقيل: إن هذه الأيام أيام حزن، ولبس إحداد؛ فشبَّهها بالليالي على سبيل الاستعارة.

ووجه الحكمة في أنَّ الله تعالى حدَّ العدة في هذا القدر؛ لأن الولد يتحرك في بطن أمه لنصف مدَّة الحمل، وقيل: إنَّ الروح ينفخ في الولد في هذه العشرة أيام. ويدلُّ على ذلك ما روي

عن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: حدثنا رسول الله ﷺ، وهو الصادق المصدوق: «**أنَّ خلق أحدكم يُجمع في بطن أمِّه أربعينَ يَوْماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه ملكاً، يكتبُ رزقهُ، وأجلَهُ، وعمَلَهُ، وشَقيٌّ، أو سعيدٌ، ثم يَنْفُخُ فِيهِ الرُّوح**». أخرجاه في الصَّحيحين بزيادة. فدلَّ هذا الحديث على أنَّ خلق الولد يجتمع في مدة أربعة أشهر، ويتكامل خلقه بنفخ الروح فيه في هذه الأيام الزائدة.

وهذا الحكم يشمل الزَّوجات المدخول بهنَّ، وغير المدخول بالإجماع، ومستنده في غير المدخول بها عموم الآية، وهذا الحديث الذي رواه الإمام أحمد، وأهل السُّنن: أنَّ ابن مسعود - رضي الله عنه - سئل عن رجل تزوج امرأة، فمات عنها، ولم يدخل بها، ولم يفرض لها مهراً، فتردَّدوا إليه مراراً في ذلك، فقال: أقول فيها برأيي، فإن كان صواباً؛ فمن الله، وإن كان خطأً فمنِّي، ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان منه: لها الصَّداق كاملاً. وفي لفظ: لها صداق مثلها، ولا وكْسَ، ولا شطَطَ، وعليها العدَّة، ولها الميراثُ. فقام معقل بن يسار الأشجعي - رضي الله عنه - فقال: سمعت رسول الله ﷺ قضى به في «بَرْوَعَ بنت وَاشِقٍ» ففرح عبد الله - رضي الله عنه - بذلك فرحاً شديداً.

ولا يخرج من ذلك إلا المتوفى عنها زوجها، وهي حامل، فإن عدَّتها بوضع الحمل، لقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾ سورة (الطلاق). وكان ابن عباس - رضي الله عنهما - يرى: أن عليها أن تتربَّص بأبعد الأجلين: من الوضع، أو من أربعة أشهر، وعشر، للجمع بين الآيتين، وهذا مسلكٌ جيد، ومأخذ قويٌّ، لولا ما ثبتت به السنة في حديث سُبيعة الأسلمية - رضي الله عنها - المخرج في الصَّحيحين من غير وجه: أنَّها توفي عنها زوجها سعد بن خولة، وهي حامل، فلم تنشب أن وضعت حملها بعد وفاته، فلما تعلَّت من نفاسها؛ تجمَّلت للخطَّاب، فدخل عليها أبو السنابل بن بعكك - رضي الله عنه - فقال لها: ما لي أراك متجمِّلةً لعلك ترجين النّكاح؟ والله ما أنت بناكحٍ؛ حتى يمرَّ عليكم أربعة أشهرٍ، وعشر! قالت - رضي الله عنها -: فلمَّا قال لي ذلك؛ جمعت علي ثيابي حين أمسيت، فأتيت رسول الله ﷺ، فسألتُه عن ذلك، فأفتاني بأني قد حللت حين وضعت حملي، وأمرني بالتزوُّج؛ إن بدا لي. قال أبو عمر بن عبد البر: وقد روي أنَّ ابن عباس رجع إلى حديث سُبيعة، لما احْتُجَّ به عليه، ويصحح ذلك عنه: أنَّ أصحابه أفتوْا بحديث سبيعة، كما هو قول أهل العلم قاطبةً. انتهى. مختصر ابن كثير. هذا؛ وسعد بن خولة - رضي الله عنه - من بني عامر، وكان من أهل بدر، توفي في حجَّة الوداع، وأبو السَّنابل - رضي الله عنه - من بني عبد الدار. هذا؛ وقال ابن شهاب: ولا أرى بأساً أن تتزوج حين وضعت، وإن كانت في دمها غير أنَّه لا يقربها حتى تطهُر.

هذا؛ ويجب على من توفي عنها زوجها الإحداد، وهو ترك الزينة، والطِّيب، ودهن الرأس بكلِّ دهن، والكحل المطيَّب، فإن اضطرت إلى كحل فيه زينة؛ فيرخص لها. وبه قال مالك،

وأبو حنيفة، وقال الشَّافعي: تكتحل به باللَّيل، وتمسحه بالنَّهار. عن أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ قالت: دخل عليَّ رسول الله ﷺ حين توفي أبو سلمة، وقد جعلت عليَّ صبراً، فقال: «**ما هذا يا أمَّ سلمة؟**» فقلت: إنَّما هو صبر يا رسول الله! ليس فيه طيب، فقال: «**إنه يشبُّ الوجه، فلا تجعليه إلا باللَّيل. وتنزعينه بالنَّهار. ولا تمتشطي بالطِّيب، ولا بالحنَّاء؛ فإنَّه خضاب**». قلت: بأيِّ شيء أتمشَّط يا رسول الله! قال: «**بالسِّدر تغلِّفين به رأسك**». أخرج أبو داود، والنَّسائي نحوه، ومعنى يشبُّ الوجه: يحسِّنه، وينوِّره. والسِّدر: يشبه الشَّجر المسمَّى في بلادنا بالغار.

وعن زينب بنت أبي سلمة، قالت: دخلت على أمِّ حبيبة زوج النبي ﷺ حين توفي أبوها أبو سفيان، فدعت بطيبٍ، فيه صفرةُ خلوقٍ، أو غيره، فدهنت به جاريةً، ثم مست بعارضيها، ثمَّ قالت: والله ما لي بالطيب من حاجة، غير أنِّي سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر: «**لَا يحِلُّ لامْرَأةٍ، تُؤْمِنُ باللهِ واليومِ الآخرِ أنْ تحِدَّ عَلَى مَيِّتٍ فَوقَ ثَلَاثٍ إلَّا على زوجٍ أربعةَ أشهُرٍ وَعَشْرَاً**». قالت زينب ـ رضي الله عنها ـ: ثمَّ دخلتُ على زينب بنت جحش ـ رضي الله عنها ـ حين توفي أخوها، فدعت بطيبٍ، فمسَّت منه، ثم قالت: والله ما لي بالطِّيب من حاجةٍ غير أنِّي سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر: «**لَا يَحِلُّ لامرأةٍ تُؤْمِنُ باللهِ واليومِ الآخر أنْ تحِدَّ عَلَى مَيْتٍ فوْقَ ثَلاثٍ إلَّا عَلَى زَوْجٍ أربعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً**». متفق عليه.

هذا؛ ومن الإحداد أن لا تخرج من بيتها حتى تنتهي عدَّتها كالمُطلقة، وثبت: أنَّ النَّبي ﷺ قال للفُرَيْعَة بنت مالك بن سنان: «**امْكُثي في بَيْتِكِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ**» وكانت متوفى عنها زوجها. أخرجه مالك في موطئه عن سعيد بن إسحاق بن كعب بن عجرة.

هذا؛ وتخرج المعتدَّة من مسكنها لقضاء حوائجها؛ إذا لم يكن لها من يقضيها لها، ولا يجوز لها المبيت إلا في بيت عدَّتها إلا إذا خافت على نفسها، أو مالها، فعند ذلك يجوز لها ذلك. هذا؛ والمطلقة طلاقاً رجعيّاً تنتقل إلى عدَّة الوفاة، وترثُه، بخلاف البائنة، والمطلقة ثلاثاً، فلا تنتقلان إلى عدَّة الوفاة، ولا ترثان، كما إذا ماتتا، فلا يرثهما أيضاً.

تنبيه: هذه الآية ناسخة لحكم الآية رقم [٢٤٠] وإن كانت متأخِّرة بالتَّرتيب، لكنَّها متقدِّمة بالنزول، كما ستقف عليه.

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾: انقضت عدَّتهن يقيناً. واختلفوا في المرأة يبلغها وفاة زوجها، أو طلاقه، فقالت طائفة من الصَّحابة والتابعين: العدَّة في الطلاق، والوفاة مِنْ يوم يموت، أو يطلق. وإليه ذهب مالك، والشافعي، وأحمد، وغيرهم، وقالت طائفة من الصَّحابة، والتابعين: إنَّ عدتها من يوم يبلغها الخبر. والصَّحيح الأوَّل؛ لأنَّ الله تعالى علَّق العدَّة بالوفاة، أو الطلاق، ولأنَّها لو علمت بموته، فتركت الإحداد عمداً، انقضت عدَّتها، فإذا تركته مع عدم العلم؛ فهو أهون. والمعنى: أنَّ العدة لا تُقضى. والله أعلم.

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ...﴾ إلخ الخطاب للأولياء؛ لأنهم هم الذين يتولَّون العقد في المذهب الشَّافعي. ﴿فِيمَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ يعني: من التزيين، والتطييب، والنقلة من المسكن الذي كانت معتدة فيه، ونكاح من يجوز لها نكاحه. واحتجَّ الحنفية على جوار النكاح بغير وليٍّ بهذه الآيةِ؛ لأنَّ إضافة الفعل إلى الفاعل محمولٌ على المباشرة، وأجاب الشَّافعي: أنَّ قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ خطاب للأولياء، ولو صح العقد بغير وليٍّ؛ لما كان مخاطباً، وأجيب عن قوله: ﴿فِيمَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ﴾: إنَّما هو التزين، والتطيب بعد انقضاء العدَّة، لا أنها تزوِّج نفسها.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ يعني: أنه تعالى لا تخفى عليه خافية. و(الخبير): من أسماء الله الحسنى، وهو: العالم بكنه الشيء، وحقيقته من غير شكٍّ. و(الخبير) في صفة المخلوقين إنَّما يستعمل في نوع من العلم، وهو الذي يوصل إليه بالاجتهاد ، والفكر، والله تعالى منزَّه عن ذلك كلِّه، والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: الواو: حرف عطف. (الذين): اسم موصول مبني على الفتح في محلِّ رفعٍ مبتدأ. ﴿يُتَوَفَّوْنَ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول، أو للمعلوم مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون، والواو الفاعل، أو نائب الفاعل. ﴿مِنكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، أو هما متعلقان بمحذوف حال من واو الجماعة، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها، وجملة: ﴿وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا﴾ معطوفة عليها، لا محلَّ لها مثلها.

﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾: انظر إعراب هذه الجملة في الآية رقم [٢٢٨]، لكن الجملة الفعلية هنا خبراً للمبتدأ غير مسلَّم؛ لأنها لم تشتمل على ضمير يعود إلى المبتدأ، لذا فإنَّ في إعراب هذا التركيب ثلاثة أوجه: أحدها: أنَّ التقدير: وأزواج الذين يتوفون. . .إلخ، فحذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه، وهذا مستعمل عربية. الثاني: أنَّ التقدير: يتربصن بعدهم، قال الأخفش: فيكون الرابط مقدراً، والمقدر كالمذكور. الثالث: أنَّ ﴿يَتَرَبَّصْنَ...﴾ إلخ: خبر مبتدأ محذوف، التقدير: أزواجهم يتربصن. . .إلخ، والجملة خبر عن الأول، قاله المبرد. انتهى جمل نقلاً عن السَّمين بتصرفٍ كبير. وقال مكِّي: وقياس قول سيبويه: أنَّ الخبر محذوف، تقديره: وفيما يتلى عليكم الَّذين. . .إلخ، مثل: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ﴾. والجملة الاسمية: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ...﴾ إلخ: معطوفة على ما قبلها، أو مستأنفة لا محل لها.

﴿فَإِذَا﴾: الفاء: حرف استئناف، وتفريع. (إذا): ظرف لما يستقبل من الزمان، خافض لشرطه، منصوب بجوابه، صالح لغير ذلك، مبني على السُّكون في محل نصب. ﴿بَلَغْنَ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة (إذا) إليها. ﴿أَجَلَهُنَّ﴾: مفعول به، والهاء في محل جرٍّ بالإضافة، والنون حرف دال على جماعة الإناث. ﴿فَلَا﴾: الفاء: واقعة في جواب (إذا). (لا): نافية للجنس، تعمل عمل «إنَّ».

﴿جُنَاحَ﴾: اسم (لا) مبني على الفتح في محل نصب. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر: (لا). ﴿فِيمَا﴾: جار ومجرور متعلقان بالخبر المحذوف. ﴿فَعَلْنَ﴾: فعل، وفاعل، والجملة الفعلية صلة (ما) أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف، التقدير: في الَّذين، أو: في شيء فعلنه. ﴿فِيٓ أَنفُسِهِنَّ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، أو هما متعلقان بمحذوف حال من الضمير المحذوف، والجملة الاسمية: ﴿فَلَا جُنَاحَ...﴾ إلخ، جواب: (إذا) لا محل لها، و(إذا) ومدخولها كلام مستأنف لا محل له. ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾: انظر إعراب مثل هذه الجملة في الآية السابقة، والجملة الاسمية هذه مستأنفة لا محل لها.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِيٓ أَنفُسِكُمْۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوْلًا مَّعْرُوفًاۚ وَلَا تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾

الشرح: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾: لا إثم، ولا مؤاخذة عليكم. ﴿فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ﴾: وهن في عدَّة الوفاة، أو في عدَّة الطلاق البائن، وهو مباح في العدَّة، وهو أن يقول لها: إنَّك لجميلة، وإنَّك لصالحة، ومَنْ يجد مثلك؟ وإني أريد أن أتزوج، وإنِّي فيك لراغب، وأرجو أن يرزقني الله امرأةً صالحةً، ونحو ذلك من الكلام الموهم من غير تصريح، بأن يقول: إنِّي أريد أن أتزوَّجك. وخِطبة النساء بكسر الخاء. وبضمها: الموعظة، والإرشاد، والنصيحة. هذا؛ والتعريض للمعتدَّة الرَّجعية لا يجوز. ﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ فِيٓ أَنفُسِكُمْۚ﴾ أي: أضمرتم، وسترتم، وأخفيتم في أنفسكم رغبتكم في نكاح المعتدَّات من وفاة، أو من طلاقٍ بائن.

هذا؛ والفرق بين الكناية، والتعريض واضحٌ: في الكناية: أن تذكر الشيء بغير لفظه، الموضوع له، كقولك: طويل النِّجاد، والحمائل لطويل القامة. وكثير الرَّماد، وجبان الكلب، ومهزول الفصيل؛ للمضياف. والتَّعريض: أن تذكر شيئاً تدل به على شيءٍ، لم تذكره، كما يقول المحتاج للمحتاج إليه: جئتك؛ لأسلِّم عليك، ولأنظر إلى وجهك الكريم. ولذا قالوا: [الطويل]

وحَسْبُكَ بالتَّسليم منِّي تَقَاضِيَا

وكأنه إمالة الكلام إلى عرض، يدل على العرض، ويُسمَّى التلويح؛ لأنه يلوح منه ما يريده. ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾: لا محالة، ولا تنفكُّون عن النُّطق برغبتكم فيهنَّ، ولا تصبرون عنه، وفيه طرفٌ من التَّوبيخ، مثل قوله تعالى: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾. هذا؛ وشهوة النفس، والتَّمني، لا يخلو منها أحد، فلمَّا كان هذا الخاطر كالشَّيء السَّاقط؛ أسقط عنه الحرج.

﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ : اختلفوا في هذا السِّر المنهي عنه، فقيل: هو الزِّنى؛ كان الرجل يدخل على المرأة يعرِّض بالنِّكاح، ومراده الزِّنى، ويقول لها: عديني، فإذا انقضت عدَّتُك؛ أظهرت نكاحك. ومنه قول الأعشى مِنْ قصيدته الَّتي مدح بها النَّبيَّ ﷺ: [الطويل]

فَـلا تَـقْـرَبَـنَّ جَـارَةً إنَّ سِـرَّهَـا عَـلَـيْـكَ حَـرَامٌ فَـانْـكِـحَـنْ أَوْ تَـأَبَّـدا

وقال الحطيئة: [الوافر]

وَيَـحْـرُمُ سِـرُّ جَـارَتِـهِـمْ عَـلَـيْـهِـمْ وَيَـأْكُـلُ جَـارُهُـمْ أَنْـفَ الْـقِـصَـاعِ

وقيل: السرُّ: الجماع؛ أي: لا تصفوا أنفسكم لهن بكثرة الجماع ترغيباً لهن في النِّكاح، فإنَّ ذكر الجماع مع غير الزَّوجة فحشٌ. وهذا قول الشَّافعي، رضي الله عنه. وقال امرؤ القيس: [الطويل]

أَلا زَعَـمَـتْ بَـسْـبَـاسَـةُ الْـيَـوْمَ أَنَّـنِـي كَـبِـرْتُ وَأَلَّا يُـحْـسِـنَ الـسِّـرَّ أَمْـثَـالِـي

﴿إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾: هو ما ذكر من التعريض بالخطبة من غير تصريح بذلك، و﴿إِلَّآ﴾ متعلِّق. ﴿لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ﴾ أي: لا تواعدوهن مواعدةً قطُّ إلا مواعدةً معروفةً غير منكرةٍ.

﴿وَلَا تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ﴾ أي: لا تعقدوا عقد النكاح على معتدة الوفاة، أو غيرها حتَّى تنتهي عدَّتها المفروضة عليها. وعزم على الشيء: قرر، وصمَّم على فعله، وذكر العزم للمبالغة في النَّهي عن مباشرة النكاح، فإذا نهى عنه؛ كان النهي عن الفعل من باب أولى. هذا؛ وسمَّى الله العدَّة، وانتهاءَها: كتاباً؛ لأنها فُرِضت به، وهو كقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ و﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ﴾.

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ...﴾ إلخ؛ أي: اعتقدوا، وأيقنوا: أنَّ الله يعلم ما تُخفون في أنفسكم، وما تُظهرون من أقوالكم، وأعمالكم، ﴿فَٱحْذَرُوهُ﴾: خافوا حسابه، وعقابه، ففيه تهديدٌ، ووعيدٌ لمن يخالف الشَّرع الشَّريف في هذه الأحكام، أو بعضها. ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾: لا يعجل بالعقوبة على مَنْ عصاه، بل يستر عليه. هذا؛ واختلفوا فيمن تزوَّج امرأة في عدَّتها، فدخل بها، فإنه يفرَّق بينهما، ويجب عليها عدَّتان: إتمام عدة الأول، واستئناف عدَّة الثاني، وهل تحرم عليه أبداً؟ قولان: الجمهور على أنَّها لا تحرم عليه، بل له أن يخطبها إذا انقضت عدتها. وذهب الإمام مالك ـ رحمه الله تعالى ـ إلى أنَّها تحرم عليه على التأبيد، ومأخذ هذا أنَّ الزَّوج لما استعجل ما أجَّل الله؛ عوقب بنقيض قصده، فحرمت عليه على التأبيد. كالقاتل لمورثه يُحرم من الميراث. ومن طلب شيئاً قبل أوانه؛ عوقب بحرمانه.

تنبيه: عدَّة الوفاة عدَّة تفجُّع مهما كان عمر المرأة، وأمَّا عدَّة الطلاق؛ فالغالب: أنها لبراءة الرَّحم من الحمل، وقد تكون تعبُّديّاً، كطلاق الآيسة، والصَّغيرة؛ التَّي لم تَحِضْ. والله أعلم بمراده، وأسراره.

الإعراب: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ﴾: انظر إعراب مثل هذا الكلام في الآية السابقة. ﴿مِنْ خِطْبَةِ﴾: متعلقان بمحذوف حال من الضمير المجرور محلّاً بالباء، والعامل الفعل. ﴿عَرَّضْتُم﴾، أو بمحذوف حال من (ما)، وتكون (مِنْ) بياناً لما أبهم في (ما) والعامل هو الاستقرار المحذوف. و﴿خِطْبَةِ﴾ مضاف، و﴿ٱلنِّسَآءِ﴾ مضاف إليه، من إضافة المصدر لمفعوله، وفاعله محذوف. وجملة: ﴿وَلَا جُنَاحَ...﴾ إلخ معطوفة على مثلها في الآية السابقة. ﴿أَوْ﴾: حرف عطف. ﴿أَكْنَنتُمْ﴾: فعل، وفاعل، ومفعوله محذوف، انظر تقديره في الشَّرح. ﴿فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾: متعلّقان بما قبلهما، والكاف في محل جرٍّ بالإضافة، والجملة الفعلية معطوفة على جملة: ﴿عَرَّضْتُم...﴾ إلخ. ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ﴾: فعل ماض، وفاعله.

﴿أَنَّكُمْ﴾: حرف مشبه بالفعل، والكاف اسمها. ﴿سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾: السين: حرف استقبال. (تذكرونهن): فعل مضارع مرفوع... إلخ، والواو فاعله، والهاء مفعول به، والنون حرف دال على جماعة الإناث، والجملة الفعلية في محل رفع خبر (أنَّ)، و(أنَّ) واسمها، وخبرها في تأويل مصدر في محل نصب سدَّ مسدَّ مفعولي (علم)، والجملة الفعلية مفيدة للتعليل، لا محل لها، وإنِ اعتبرتها في محلٍّ نصبٍ حال من تاء الفاعل؛ فالرابط الضَّمير فقط، ويجب تقدير: «قد» قبلها، ويكون المعنى: حالة كونكم معلومين عند الله.

﴿وَلَٰكِن﴾: الواو: حرف عطف. (لكن): حرف استدراك مهمل، لا عمل له، ﴿لَّا﴾: ناهية جازمة. ﴿تُوَاعِدُوهُنَّ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ ﴿لَّا﴾ وعلامة جزمه حذف النون، والواو فاعله، والهاء مفعوله، والنون حرف دال على جماعة الإناث. ﴿سِرًّا﴾: مفعول به ثان، وقيل: هو حال بمعنى: مستسرين، فيكون المفعول الثاني محذوفاً. وقيل: هو صفة لمصدر محذوف، التقدير: مواعدةً سرّاً. وقيل: التقدير: في سرِّه، فيكون ظرفاً، أو هو منصوب بنزع الخافض، وجملة: ﴿لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ...﴾ إلخ معطوفة على محذوف، التقدير: وإذا كان ذلك حاصلاً؛ فاذكروهن، ولكن... إلخ.

﴿إِلَّآ﴾: حرف استثناء منقطع. ﴿أَن﴾: حرف مصدري، ونصب. ﴿تَقُولُوا۟﴾: فعل مضارع منصوب بـ ﴿أَن﴾ وعلامة نصبه حذف النُّون، والواو فاعله، والألف للتَّفريق. ﴿قَوْلًا﴾ مفعول مطلق. ﴿مَّعْرُوفًا﴾: صفة له، وجملة: ﴿أَن تَقُولُوا۟﴾ في تأويل مصدر في محل نصب على الاستثناء المنقطع، والمستثنى منه محذوف، وتقدير الكلام: لا تواعدوهن مواعدةً إلا مواعدةً معروفةً، أو: إلا مواعدة بقولٍ معروف، فيكون مجروراً بحرف جرٍّ محذوف، ومتعلقاً بالمستثنى. ﴿وَلَا تَعْزِمُوا۟﴾: إعرابه مثل إعراب سابقه. ﴿عُقْدَةَ﴾: منصوب على نزع الخافض، التقدير: على عقدة، والجار والمجرور متعلقان بما قبلهما، والجملة الفعلية معطوفة على جملة: ﴿لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ...﴾ إلخ، لا محل لها مثلها، و﴿عُقْدَةَ﴾ مضاف، و﴿ٱلنِّكَاحِ﴾ مضاف

إليه. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف غاية وجر. بعدها «أن» مضمرة. ﴿يَبْلُغَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ«أن» المضمرة بعد ﴿حَتَّىٰ﴾. ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾: فاعله. ﴿أَجَلَهُۥ﴾: مفعول به، والهاء في محل جر بالإضافة، و«أن» المضمرة والفعل ﴿يَبْلُغَ﴾ في تأويل مصدر في محل جر بـ: ﴿حَتَّىٰ﴾، والجار والمجرور متعلقان بالفعل: ﴿تَعْزِمُوا۟﴾.

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟﴾: الواو: حرف عطف. (اعلموا): فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿أَنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿يَعْلَمُ﴾ فعل مضارع، والفاعل يعود إلى (الله)، والجملة الفعلية في محل رفع خبر ﴿أَنَّ﴾. ﴿مَا﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل نصب مفعول به. ﴿فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾: متعلقان بمحذوف صلة الموصول، والكاف في محل جرٍّ بالإضافة، و﴿أَنَّ﴾ واسمها وخبرها في تأويل مصدر في محل نصبٍ سدَّ مسدَّ مفعولي (اعلموا) والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها لا محل لها، وجملة: ﴿فَٱحْذَرُوهُ﴾ معطوفة على ما قبلها، ولا يخفى عليك إعراب: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾﴾

الشرح: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ...﴾ إلخ: لا إثم، ولا مؤاخذة، ولا تبعة في طلاق النساء اللَّاتي لم يدخل بهن الأزواج بعد إجراء العقد عليهنَّ، ولم يسمِّ الأزواج لهنَّ مهراً أيضاً، فهؤلاء يجب على الأزواج أن يعطوهنَّ شيئاً من المال تطييباً لخاطرهنَّ، وما يُعطى لهنَّ على سبيل الهدية يسمَّى متعةً ماليّةً، وهذا القدر المالي يختلف باختلاف حال الزّوج المالي المادِّي.

ومعنى ﴿تَمَسُّوهُنَّ﴾: تجامعوهنَّ، فيعلِّمنا ربُّنا أن نتحاشى الألفاظ الفاحشة في الكلام، ومثل هذا الأدب كثيرٌ في القرآن الكريم، وقرئ: (تَماسُّوهنَّ) من المفاعلة؛ لأن الوطء يتم بها. ﴿فَرِيضَةً﴾: المراد بها ما يسمَّى من المهر للمرأة. ﴿ٱلْمُوسِعِ﴾: الغني. ﴿ٱلْمُقْتِرِ﴾: الفقير الضيق الحال. وهو بفتح القاف، وتشديد التاء: البخيل الشحيح.

هذا؛ ويفهم من نصِّ الآية الكريمة: أنه لا يشترط تسمية المهر في العقد، وإنَّما التسمية سنَّةٌ، وبعد العقد، وبعد الدخول إن اتَّفقا على مهرٍ؛ وإلا؛ فلها مهر مِثْلِها.

تنبيه: المطلَّقات أربعٌ: مطلقةٌ مدخولٌ بها، ومفروضٌ لها، وقد ذكر حكمها قبل هذه الآية: أنَّه لا يسترد منها شيءٌ من المهر، وأنَّ عدَّتها ثلاثة قروء. ومطلقة غير مفروضٍ لها، ولا مدخولٍ بها، فهذه الآية في شأنها، ولا مهر لها، بل أمر الله تعالى بإمتاعها. وبيَّن الله تعالى في سورة (الأحزاب) رقم [٤٩] أنَّ غير المدخول بها إذا طلقت فلا عدَّة عليها، وطلاقها لا يوصف

بسنِّيٍّ، ولا بدعيٍّ. ومطلقة مفروضٌ لها، غير مدخولٍ بها ذكرها الله تعالى في الآية التالية. ومطلقةٌ مدخولٌ بها، غير مفروضٍ لها، ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ رقم [٢٤] من سورة (النساء). فذكر الله تعالى في هذه الآية، والتي بعدها مطلقة قبل المسيس، وقبل الفرض، ومطلقة قبل المسيس، وبعد الفرض، فجعل للأولى المتعة، وجعل للثانية نصف الصَّداق؛ لما لحق الزَّوجة من دحض العقد، وَوَصْم الحلِّ الحاصل للزوج بالعقد، وقابل المسيس بالمهر الواجب. انتهى. قرطبي بتصرف.

وإن وقع الموت قبل الفرض، فخذه بما يلي: عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: أنَّه سئل عن رجلٍ تزوَّج امرأةً لم يفرض لها، ولم يدخل بها؛ حتَّى مات. فقال: لها مثل صداق نسائها، لا وكس، ولا شطط، وعليها العدَّة، ولها الميراث. فقام معقل بن سنان الأشجعي ـ رضي الله عنه ـ، فقال: قضى رسول الله ﷺ في بَرْوَعَ بنت واشق امرأة منَّا، مثل الذي قضيت، ففرح بها ابن مسعود، رضي الله عنه. وقال عليٌّ، وزيدُ بن ثابت، وابن عباس، وابن عمر ـ رضي الله عنهم ـ: لها الميراث، ولا صداق لها، وعليها العدَّة. وهو قول الشَّافعيِّ. وروي عنه: أنَّه رجع بمصر عن هذا القول.

هذا؛ واختلف في المتعة، هل هي واجبةٌ لكل مطلَّقة، أم هي على سبيل النَّدب؟ والمعتمد الوجوب؛ فقد روى الثعلبيُّ: أنَّ رجلاً من الأنصار، عقد على امرأةٍ من بني حنيفة، ولم يسمِّ لها مهراً، ثم طلَّقها قبل أن يمسَّها، فنزلت الآية الكريمة، فقال له النبيُّ ﷺ: «**مَتِّعْهَا؛ وَلَوْ بِقَلَنسُوَتِك**». وروى الدَّارقطنيُّ عن سويد بن غفلة، قالت: كانت عائشة الخثعمية عند الحسن بن عليٍّ ـ رضي الله عنهما ـ فلمَّا أصيب عليٌّ، وبويع الحسن بالخلافة، قالت: لِتَهْنِك الخلافة يا أمير المؤمنين! فقال: يُقتل عليٌّ، وتُظهرين الشماتة؟! اذهبي فأنت طالق ثلاثاً! قال: فتلفَّعَتْ بساجها، وقعدت؛ حتَّى انقضت عدَّتها، فبعث إليها بعشرة آلاف متعةً، وبقيَّة ما بقي لها مِنْ صداقها، فقالت: [الطويل]

مَتَاعٌ قَلِيلٌ مِنْ حَبِيبٍ مُفَارِقِ

فلمَّا بلغه قولُها؛ بكى، وقال: لولا أني سمعتُ جدِّي ـ أو: حدثني أبي: أنه سمع جدي ـ يقول: «**أيُّما رجلٍ طلّق امرأته ثلاثاً مبهمةً، أو ثلاثاً عند الأَقْرَاء؛ لم تحلَّ له حتى تنكح زوجاً غيره؛ لراجعتها**». وخاب الَّذين يقولون: لفظ الثلاث لا يقع إلا واحدةً!.

الإعراب: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾: انظر إعراب هذه الجملة فيما تقدَّم. ﴿إِن﴾: حرف شرط جازم. ﴿طَلَّقْتُمُ﴾: فعل ماض مبني على السكون في محل جزم فعل الشرط، والتاء فاعله. ﴿ٱلنِّسَآءَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنها ابتدائية، ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفي. ﴿مَا﴾: مصدرية ظرفية زمانية تؤوَّل مع الفعل بعدها بمصدر، التقدير: زمن عدم المسيس، والفرض، وقيل: هي شرطية مقدَّرة بـ «إن» فتكون من باب اعتراض الشرط على

الشرط، ويكون الثاني قيداً في الأول، كما في قولك: إن تأتني، إن تحسن إليَّ؛ أكرمك. أي: إن تأتني محسناً إليَّ. والمعنى: إن طلقتموهن غير ماسِّين لهنَّ. وهذا المعنى أقعد من الأوَّل. انتهى جمل بتصُّرف.

هذا؛ ويظهر لي وجه بعيد: أنَّ ﴿مَا﴾ اسم موصول بمعنى «اللاتي» واستعمال: ﴿مَا﴾ للعاقلات هنا لمعنى دقيق لطيف، وهو أنَّ المرأة ملك الرَّجل، كسائر ما يملك من غير العاقلين؛ لسببين: الأوَّل: أنَّ للرجل قوامة على المرأة بسبب الإنفاق عليها، قال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ رقم [٣٤] من سورة (النساء) والثاني: أنَّ الرَّجل يملك رقبة المرأة بعقدة النكاح التي بينهما، كما ستراه في الآية التالية، وخذ قوله تعالى في سورة (النساء) رقم [٣]: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ...﴾ إلخ.

﴿لَمْ﴾: حرف نفي، وقلب، وجزم. ﴿تَمَسُّوهُنَّ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ ﴿لَمْ﴾، وعلامة جزمه حذف النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والهاء مفعوله، والنون في الجميع حرفٌ دالٌّ على جماعة الإناث، والجملة الفعلية محلُّها بحسب معنى (ما). ﴿أَوْ﴾: حرف عطف. ﴿تَفْرِضُواْ﴾: مضارع معطوف على ما قبله، فهو مجزوم مثله، والواو فاعله. هذا، واعتبره البيضاوي تبعاً للزمخشري: أنَّ الفعل منصوب بـ«أن» مضمرة بعد (أو). وأنَّ المعنى: إلا أن تفرضوا. أو: حتى تفرضوا، وعليه ينتفي الجناح عن المطلّق على الأوَّل بانتفاء الجماع، أو الفرض، وعلى الثاني بإنتفاء الجماع فقط؛ إذ لومسَّ، أو فرض؛ لزم الكلُّ، أو النصف. انتهى جمل نقلاً عن كرخي. ﴿لَهُنَّ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿فَرِيضَةً﴾: مفعول به، وقيل: مفعول مطلق.

﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والهاء مفعول به، والجملة الفعلية معطوفة على جملة محذوفة، واقعة جواباً لشرط غير جازم، وتقدير الكلام: إذا طلقتم النساء قبل المسيس، والفرض؛ فلا تعطوهنَّ المهر، ومتعوهنَّ. ﴿عَلَى ٱلْمُوسِعِ﴾: متعلقان بمحذوف خبر مقدَّم. ﴿قَدَرُهُۥ﴾: مبتدأ مؤخر، والهاء في محل جر بالإضافة، والجملة الاسمية، قيل: مستأنفة، وقيل: في محل نصب حال، وعليه: فتحتاج إلى تقدير رابط؛ أي: على الموسع منكم قدره، والجملة الثانية: ﴿وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ﴾ معطوفة عليها. ﴿مَتَٰعًا﴾: مفعول مطلق لفعل محذوف، أو للفعل المذكور.

﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾: متعلقان بـ ﴿مَتَٰعًا﴾. ﴿حَقًّا﴾: صفة: ﴿مَتَٰعًا﴾، وقيل: مفعول مطلق لفعل محذوف، وهو أولى. ﴿عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ متعلقان بـ﴿حَقًّا﴾ أو بمحذوف صفة له، وعلامة الجر الياء نيابةً عن الكسرة؛ لأنه جمع مذكر سالم، والنون عوض عن التنوين في الاسم المفرد.

تأمل، وتدبر، وربك أعلم، وأجلُّ، وأكرم.

﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾.

الشرح: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ...﴾ إلخ: لمَّا ذكر الله تعالى حكم المفوضة في الآية السَّابقة، وهي التي لم يُسمَّ لها مهر حال العقد عليها، كما رأيت؛ أتبعه بحكم المسمَّى لها مهر. ومعنى: ﴿تَمَسُّوهُنَّ﴾: تجامعوهن. ﴿وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾: سمَّيتم لهن مهراً. ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ أي: فلهنَّ نصف المهر المسمَّى.

ومذهب الشافعي - رحمه الله تعالى -: أنَّ الخلوة من غير مسيس، لا توجب إلا نصف المهر المسمَّى؛ لأن المسيس، إمَّا حقيقةً في المسِّ باليد، أو جعل كناية عن الجماع، وأيُّهما كان فقد وجد الطلاق قبله. وقال أبو حنيفة - رحمه الله تعالى -: الخلوة الصحيحة تقرِّر المهر. ومعنى الخلوة الصحيحة: أن يخلو بها، وليس هناك مانع حسِّيٌّ، ولا شرعيٌّ، فالحسِّيُّ: نحو الرَّتق، والْقَرَن، أو يكون معهما ثالث. والشَّرعي: نحو الحيض، والنفاس، وصوم الفرض، وصلاة الفرض، والإحرام، سواءٌ كان فرضاً، أو نفلاً. والآية حجَّة لمذهب الشافعي.

قال شريح القاضي - رحمه الله تعالى -: لم أسمع: أنَّ الله تعالى ذكر في كتابه باباً، ولا ستراً، فإنْ زعم: أنَّه لم يمسَّها؛ فلها نصف الصَّداق. وقال ابن عباس - رضي الله عنهما -: إذا خلا بها، ولم يمسَّها؛ فلها نصف المهر. هذا؛ ولو مات أحد الزَّوجين بعد التَّسمية، وقبل المسيس، فلها المهر كاملاً، وعليها العدَّة، إن كان الزوج هو الميت بالاتفاق، وانظر الآية رقم [٢٠] من سورة (النساء).

﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ﴾ يعني: النساء المطلقات، والمعنى: إلا أن تترك المرأة المطلقة نصيبها من الصَّداق، فتهبه للزوج، فيعود جميع الصداق له، بشرط أن تكون العافيةُ بالغةً عاقلةً راشدةً، بخلاف التي في حجر أبٍ، أو وصيٍّ، فلا يجوز وضعها لشيء من صداقها، ولا خلاف فيه. ﴿أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾: فيه قولان: أحدهما: أنَّه ولي المرأة، وهو قول ابن عباس - رضي الله عنهما - وكثير من التَّابعين، وبه قال الشافعي في القديم، والإمام مالك قال به أيضاً. والقول الثاني: أنه الزَّوج، وهو قول عليٍّ، وابن عباس في الرواية الأخرى، وجبير بن مطعم - رضي الله عنهم - وكثير من التابعين، وهو قول أبي حنيفة، والشافعي في الجديد، وأحمد، وجمهور الفقهاء.

﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾: الخطاب للأزواج، والزَّوجات، وفيه تغليب الذكور على الإناث، ومثله ما بعده. ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾: المعروف، والإحسان لا تهملوه، بل

استعجلوه بينكم، قال مجاهد ـ رحمه الله تعالى ـ: الفضل: إتمام الرَّجل الصداق كلَّه، أو ترك المرأة النصف الَّذي لها. عن عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول الله ﷺ قال: «**لَيأْتِيَنَّ على النَّاسِ زَمَانٌ عَضُوضٌ، يَعَضُّ الْمُؤْمِنُ على ما في يديه**»؛ وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ «**شِرَارُ يبايعون كلَّ مُضْطَرٍّ**». رواه الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذيُّ. وقد نهى الرسول ﷺ عن بيع المضطر، وعن بيع الغرر، فإن كان عندك فضل؛ فَعُدْ به على أخيك، ولا تزده هلاكاً إلى هلاكه، فإنَّ المسلم أخو المسلم، لا يحزنه، ولا يحرمه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾: فيه وعد للمُحسن، ووعيد للمسيء؛ أي: لا يخفى عليه شيء من أموركم. وعن جبير بن مطعم ـ رضي الله عنه ـ: أنه تزوج امرأةً، ثمَّ طلقها قبل أن يدخل بها، فأكمل لها الصَّداق، وقال: أنا أحق بالعفو. وعنه: أنه دخل على سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ فعرض عليه بنتاً له، فتزوَّجها، فلمَّا خرج طلَّقها، وبعث إليها بالصَّداق كاملاً، فقيل له: لم تزوجتها؟ فقال: عرضها عليَّ، فكرهت ردَّه. قيل له: لم بعثت إليه بالصَّداق، قال: فأين الفضل؟ والمراد بالتزوج بالاثنتين: إجراء عقد النكاح. وفي هذه الأيام حدِّث ولا حرج عن ظُلم المرأة، وأكل حقوقها، وتعسُّفها، وامتهانها.

الإعراب: ﴿وَإِن﴾: الواو: حرف عطف. (إن): حرف شرط جازم. ﴿طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾: فعل ماض مبني على السكون في محل جزم فعل الشرط، والتاء فاعله، والميم علامة جمع الذكور، وحُرِّكت بالضم لتحسين اللفظ، فتولدت واو الإشباع، والهاء مفعول به، والنون فيه، وفيما بعده حرف دال على جماعة الإناث، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها ابتدائية، ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفي، ﴿مِن قَبْلِ﴾: متعلقان بما قبلهما.

﴿أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾: فعل مضارع منصوب بـ (أنْ)، وعلامة نصبه حذف النون، والواو فاعله، والهاء مفعوله، والمصدر المؤول منهما في محل جر بإضافة: ﴿قَبْلِ﴾ إليه. ﴿وَقَدْ﴾: الواو: واو الحال. (قد): حرف تحقيق يقرب الماضي من الحال. ﴿فَرِيضَةً﴾: مفعول به، وقيل: مفعول مطلق، والجملة الفعلية في محل نصب حال من واو الجماعة، أو من الهاء، والرابط: على الاعتبارين: الواو، والضمير. ﴿فَنِصْفُ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (نصف): مبتدأ خبره محذوف، التقدير: فعليكم، أو: فلهن نصف، أو هو خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: فالواجب نصف، وقرئ بالنَّصب على تقدير: فأدُّوا النصف، (نصف): مضاف، و(ما): اسم موصول، أو نكرة موصوفة مبني على السكون في محل جر بالإضافة.

﴿فَرَضْتُمْ﴾: فعل، وفاعل، والجملة الفعلية صلة (ما)، أو صفتها، والعائد أو الرابط محذوف، التقدير: نصف الذي، أو: شيء فرضتموه، والجملة الاسمية: ﴿فَنِصْفُ...﴾ إلخ: في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور، والدسوقي يقول: لا محل لها؛ لأنها لم تحل محل المفرد، والجملة الشرطية معطوفة على ما قبلها، أو هي مستأنفة لا محل لها.

﴿إِلَّآ﴾: حرف حصر، أو: استثناء. ﴿أَن﴾: حرف مصدري، ونصب. ﴿يَعْفُونَ﴾: فعل مضارع مبني على السكون لاتصاله بنون النسوة، التي هي فاعله، وهو في محل نصب بـ﴿أَن﴾ و﴿أَن﴾ والفعل في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر محذوف، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف في محل نصب حال مستثنى من عموم الأحوال، والتقدير: فنصف ما فرضتم إلا في حال عفوهنَّ، أو عفو الزوج، فلا تنصيف حينئذٍ.

﴿أَوْ﴾: حرف عطف. ﴿يَعْفُوَاْ﴾: معطوف على ما قبله، فهو منصوب تبعاً لمحلِّه، ومؤوَّل مثله بمصدر. ﴿ٱلَّذِى﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل رفع فاعله. ﴿بِيَدِهِۦ﴾: متعلقان بمحذوف خبر مقدم، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿عُقْدَةُ﴾: مبتدأ مؤخر، وهو مضاف، و﴿ٱلنِّكَاحِ﴾: مضاف إليه، والجملة الاسمية صلة الموصول، لا محل لها.

﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ﴾: الواو: واو الحال. ﴿تَعْفُوٓاْ﴾: مضارع منصوب بـ(أن) وعلامة نصبه حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق، والمصدر المؤول منهما في محل رفع مبتدأ.

﴿أَقْرَبُ﴾: خبره. ﴿لِلتَّقْوَىٰ﴾ متعلقان بـ﴿أَقْرَبُ﴾ وعلامة الجر كسرة مقدرة على الألف للتعذر، والجملة الاسمية في محل نصب حال ممَّا قبله؛ لأن الخطاب للأزواج، والزوجات على سبيل التغليب، والرابط: الواو، والضمير. ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف استئناف. ﴿تَنسَوُاْ﴾: فعل مضارع مجزوم بلا الناهية، وعلامة جزمه حذف النون، والواو فاعله.

﴿ٱلْفَضْلَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية مستأنفة لا محل لها. ﴿بَيْنَكُمْ﴾: ظرف مكان متعلق بالفعل قبله، أو هو متعلق بمحذوف حال من: ﴿ٱلْفَضْلَ﴾ والكاف في محل جر بالإضافة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾: انظر إعراب مثلهما فيما تقدم، وهي مفيدة للتعليل، أو هي مستأنفة.

﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾

الشرح: توسطت هاتان الآيتان الآمرتان بالمحافظة على الصلاة خلال الآيات الكريمة المتعلقة بأحكام الأسرة وعلاقات الزَّوجين عند الطَّلاق، أو الافتراق لحكمة عاليةٍ، وهي: أنَّ الله تعالى لمَّا أمر بالعفو، والتسامح، وعدم نسيان الفضل بعد الطَّلاق؛ بيَّن، بل وحثَّ على المحافظة على الصَّلاة؛ لأنَّها أعظم وسيلةٍ إلى نسيان هموم الدُّنيا، وأكدارها، ولهذا كان الرسول ﷺ إذا حزبه أمرٌ شديدٌ؛ فزع إلى الصَّلاة، وقال: **«أرِحْنا بِلَالُ، أرِحْنا بِلَالُ»**. فالطَّلاق، وما ينتج عنه يولِّد الشَّحناء، والبغضاء، والصَّلاة تدعو إلى الإحسان، والتَّسامح، وتنهى عن الفحشاء، والمنكر، وذلك أفضل وسيلةٍ لتربية النفس الإنسانيَّة، فلا ريب: أنَّها عماد الدين،

ورأس الإيمان، واليقين. هذا؛ وانظر ما ذكرته في آية الدُّعاء المقحمة بين آيات الصِّيام؛ تجد ما يَسُرُّك، ويثلج صدرك.

﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾ أي: الخمس، فيأمر الله تعالى بالمحافظة على الصلوات في أوقاتها، وحفظ حدودها، وإتمام ركوعها، وسجودها، وخشوعها، كما ثبت في الصَّحيحين عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: سألت رسول الله ﷺ، قلت: يا رسول الله! أيُّ العمل أفضل؟ قال: «**الصلاة على وقتها**». قلت: ثمَّ أي؟، قال: «**ثم بر الوالدين**». قلت: ثم أي؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله**». هذا؛ وقد قال تعالى في سورة (المعارج): ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ ثم ذكر ثماني صفات، وقال في العاشرة: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾. وقال أبو البقاء: في ﴿حَٰفِظُواْ﴾ معنى لا يوجد في: احفظوا، وهو تكرير الحفظ.

﴿وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾: تأنيث الأوسط، ووسط الشيء: أعدله، ومنه قوله تعالى في الآية رقم [١٤٣]: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ انظر شرحها هناك، فإنَّه جيد. والحمد لله!

وقال أعرابي يمدح النبي ﷺ: [البسيط]

يَا أَوْسَطَ النَّاسِ طُرّاً فِي مَفَاخِرِهِمْ وَأَكْرَمَ النَّاسِ أُمّاً بَرَّةً وَأَبا

وإفراد الصَّلاة الوسطى بالذِّكر، وقد دخلت في عموم الصَّلوات تشريفاً لها. واختلف فيها على عشرة أقوالٍ، والمعتمد: أنَّها صلاة العصر لأحاديث صحيحة وردت في ذلك، خرَّجها مسلمٌ، وأنصُّها حديث ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**الصَّلاةُ الْوُسْطى صَلاةُ الْعَصْرِ**». أخرجه الترمذيُّ. وعن عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ: أن النبي ﷺ قال يوم الأحزاب، وفي روايةٍ: يوم الخندق: «**مَلأَ اللهُ قُلُوبَهُمْ وَبُيُوتَهُمْ نَاراً، كَمَا شَغَلُونَا عَنِ الصَّلَاةِ الْوُسْطَى حَتَّى غَابَتِ الشَّمْسُ**». وفي روايةٍ أخرى: «**شَغَلُونَا عَنِ الصَّلَاةِ الوسطى؛ صلاة العصْرِ**». وزاد في أخرى: «**ثُمَّ صَلَّاهَا بين الْمَغْرِبِ، وَالْعِشَاءِ**». أخرجاه في الصَّحيحين، والإمام أحمد أخرجه كذلك.

وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ، قال: حبسَ المشركون رسولَ الله ﷺ عن صلاة العصر، حتى احمرَّت الشَّمس ـ أو: اصفرت ـ فقال رسول الله ﷺ: «**شغلونا عن الصلاة الوسطى، صلاة العصر، ملأ الله أجوافهم، وقبورهم ناراً**». أو: «**حشا الله أجوافهم وقبورهم نارا**». وقد خُصَّت صلاة العصر بمزيد من التأكيد، والأمر بالمحافظة عليها، والتغليظ لمن ضيَّعها، ويدلُّ على ذلك ما روي عن أبي المليح قال: كنا مع بريدة في غزوةٍ، فقال في يوم ذي غيم: بكِّروا بصلاة العصر. فإن النَّبيَّ ﷺ قال: «**مَنْ تَرَكَ صَلَاةَ الْعَصْرِ، فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ**». رواه البخاريُّ، وغيره. وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ، قال: «**الَّذِي تَفُوتُهُ صلاةُ العصر؛ فكأنَّما وُتِرَ**

أَهْلَهُ، وَمَالَهُ». رواه الستَّة، ومالك أيضاً. ومعنى وتر: أي: نقص، وسُلِب أهلَه، ومالَه. وقال ﷺ: «**إنها الصلاة التي شغل عنها سليمان بن داود حتى توارت بالحجاب**».

﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾: مطيعين خاضعين خاشعين في الصَّلاة، وغيرها. والقنوت: أن تذكر الله قائماً. والقنوت: طول القيام. قاله ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ وقرأ قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾. وقال النبي ﷺ: «**أَفْضَلُ الصَّلَاةِ طُولُ الْقُنُوتِ**». أخرجه مسلمٌ، وغيره، وقال الشاعر: [الرمل]

قَانِتاً لِلَّهِ يَدْعُو رَبَّهُ وَعَلَى عَمْدٍ مِنَ النَّاسِ اعْتَزَلْ

وقال السُّدِّيُّ ـ رحمه الله تعالى ـ: قانتين: ساكتين، دليله: أنَّ الآية نزلت في المنع من الكلام في الصَّلاة، وكان ذلك مباحاً في صدر الإسلام، وهذا هو الصحيح؛ لِمَا رواه مسلمٌ وغيره عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: كنا نسلم على رسول الله ﷺ، وهو في الصلاة، فيردُّ علينا، فلمَّا رجعنا من عند النَّجاشي؛ سلَّمنا عليه، فلم يردَّ علينا، فقلنا: يا رسول الله! إنَّا كنَّا نسلِّم عليك في الصلاة، فتردَّ علينا! فقال: «**إنَّ فِي الصَّلَاةِ لشُغْلاً**». وروى زيد بن أرقم؛ قال: كنَّا نتكلَّم في الصَّلاة يكلِّم الرَّجل صاحبه؛ وهو إلى جنبه في الصَّلاة، حتَّى نزلت: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ فأُمرنا بالسُّكوت، ونُهينا عن الكلام. ومن القنوت أيضاً: طول الرُّكوع، والسُّجود، وغضُّ البصر، والهدوء في الصَّلاة، وخفض الجناح، والخشوع فيها. وكان العلماء إذا قام: أحدُهم يصلِّي؛ يهاب الرَّحمن أن يلتفت، أو يقلِّب الحصى، أو يعبث بشيءٍ، أو يحدِّث نفسه بشيءٍ من أمور الدنيا إلا ناسياً. خازن.

الإعراب: ﴿حَٰفِظُواْ﴾: فعل أمر مبني على حذف النُّون، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾: متعلقان بما قبلهما، والآية معترضة كما بيَّنْتُه في الشرح.

﴿وَٱلصَّلَوٰةِ﴾: معطوف على ما قبله عطف خاص على عام. ﴿ٱلْوُسْطَىٰ﴾: صفة الصلاة مجرور مثله، وعلامة جره الكسرة المقدرة على الألف للتعذُّر. (قوموا): فعل أمر مثل سابقه. ﴿لِلَّهِ﴾: متعلِّقان بما قبلهما. ﴿قَٰنِتِينَ﴾ حال من واو الجماعة. هذا؛ وجوز تعليق ﴿لِلَّهِ﴾ بـ: ﴿قَٰنِتِينَ﴾ والمعنى لا يأباه.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾

الشرح: لما أمر الله تعالى عباده بالمحافظة على الصَّلوات، والقيام بحدودها، وشدَّد الأمر بتأكيدها؛ ذكر الحال التي يشتغل الشخص فيها عن أدائها على الوجه الأكمل، وهي حال القتال، والتحام الحرب. فقال جلَّ ذكره: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ...﴾ إلخ؛ المعنى: إن لم يمكنكم أن

تقوموا قانتين موفين حدود الصَّلاة من إتمام الركوع، والسجود، والخضوع، والخشوع؛ لخوف عدوٍّ، أو سيلٍ، أو خوف سَبُع؛ فصلُّوا مشاةً على أرجلكم، أو ركباناً على دوابِّكم، مستقبلي القبلة، وغير مستقبليها، ولا تهملوها أصلاً.

وصلاة الخوف قسمان، أو نوعان: أحدهما: أن يكون في حال القتال، وهو المراد بهذه الآية. والثاني في غير حال القتال، وهو المذكور في سورة النِّساء في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ رقم [١٠٢].

(رجالاً): جمع: راجل. ﴿أَوْ رُكْبَانًا﴾: جمع راكب، فإذا التحم القتال، ولم يكن لأحد تركه؛ فمذهب الشَّافعي: أنَّهم يصلون ركباناً على الدَّواب (على السَّيارات، والدَّبابات، والطَّيارات)، ومشاةً على الأرجل، والأقدام، إلى القبلة، وإلى غير القبلة، يومئون بالرُّكوع، والسُّجود، ويكون السجود أخفض من الرُّكوع، ويحترزون عن الصِّياح، فإنَّه لا حاجة إليه، وقال أبو حنيفة: لا يُصلِّي الماشي، بل يؤخر الصَّلاة، ويقضيها؛ لأنَّ النبي ﷺ أخَّر الصَّلاة يوم الخندق، فصلَّى الظُّهر، والعصر، والمغرب بعد ما غربت الشَّمس، فيجب علينا الاقتداء به في ذلك. واحتجَّ الشَّافعيُّ ـ رحمه الله تعالى ـ بهذه الآية، وأجيب عمَّا ذكر يوم الخندق بأنه لم يكن نزل حكم صلاة الخوف، فلمَّا نزلت الآية الكريمة لم يؤخر النَّبيُّ ﷺ بعد ذلك صلاةً قطُّ. هذا؛ ومالك يقول بقول الشَّافعي، وأمَّا الإمام أحمد ـ رحمه الله تعالى ـ فصلاة الخوف عنده تفعل في بعض الأحيان ركعةً واحدةً إذا تلاحم الجيشان، وعلى ذلك ينزل الحديث؛ الذي رواه مسلم عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: فرض الله الصلاة على لسان نبيكم ﷺ في الحضر أربعاً، وفي السَّفر ركعتين، وفي الخوف ركعةً، وتأوَّل الشَّافعيُّ هذا بأنَّ المراد به ركعة مع الإمام، وركعة أخرى يأتي بها منفرداً.

ولعلَّك تدرك معي أهميَّة الصَّلاة في الدِّين بأنَّها لم تسقط في عذرٍ من الأعذار، لا في السَّفر، ولا في المرض، وُجِد الماء، أم لم يوجد، ولا في شدَّة الحرب، فيجب أن تُصلَّى بأية كيفية كانت، وعلى أيَّة حالةٍ حصلت، وقد شدَّد النبيُّ ﷺ في طلبها، واعتبر مَنْ تركها عمداً كافراً. وخذ مايلي:

عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«بَيْنَ الرَّجُلِ وبين الكُفْرِ تَرْكُ الصَّلاة»**. رواه مسلم، وأحمد. وعن بريدة ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«العهدُ الّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُم الصَّلاةُ، فَمَنْ تَرَكَهَا؛ فَقَدْ كَفَرَ»**. رواه أحمد، وأبو داود، والنَّسائيُّ، والترمذيُّ. وغير ذلك كثير.

﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾أي: أقيموا الصَّلاة كما أُمرتم، فأتمُّوا لها ركوعها، وسجودها، وقيامها، وقعودها، وخشوعها. ﴿كَمَا عَلَّمَكُم...﴾ إلخ؛ أي: مثل ما أنعم الله عليكم، وهداكم

للإيمان، وعلَّمكم ما ينفعكم في الدُّنيا، والآخرة، فقابلوه بالشُّكر، والذِّكر، كقوله تعالى بعد ذكر صلاة الخوف في الآية رقم [١٠] من سورة (النساء): ﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ...﴾ إلخ. ﴿كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾: قال الزمخشري ـ رحمه الله تعالى ـ: فاشكروا الله على الأمن، واذكروه بالعبادة كما أحسن إليكم بما علَّمكم من الشَّرائع، وكيف تُصَلُّون في حال الخوف، وفي حال الأمن.

هذا؛ وبين ﴿خِفْتُمْ﴾ وبين: ﴿أَمِنتُمْ﴾ طباق، وهو من المحسنات البديعية. وقال أبو السُّعود ـ رحمه الله تعالى ـ: في إيراد هذه الشَّرطية بكلمة (إن) المنبئة عن عدم تحقُّق وقوع الخوف، وقلَّته، وإيراد الثانية بكلمة (إذا) المنبئة عن تحقُّق وقوع الأمن، وكثرته مع الإيجاز في جواب الأولى، والإطناب في جواب الثانية مِنَ الجزالة، ولطف الاعتبار ما فيه عبرةٌ لأولي الأبصار. انتهى جمل نقلاً منه.

هذا؛ وأشرحُ قوله، وأوضِّحه بما يلي: (إن) تفيد الشَّكَّ في المعنى، وتجزم في اللَّفظ، و(إذا) بالعكس تجزم في المعنى، ولا تجزم في اللفظ، ولذا ألغز بعضهم بقوله: [الكامل]

سَلِّمْ عَلَى شَيْخِ النُّحَاةِ وقُلْ لَهُ ... عِنْدِي سُؤَالٌ مَنْ يُجِبْهُ يُعَظَّمِ
أَنَا إِنْ شَكَكْتُ رأيْتُمُونِي جَازِماً ... وَإِذَا جَزَمْتُ فَإِنَّنِي لَمْ أَجْزُمِ

الإعراب: ﴿فَإِنْ﴾: الفاء: حرف استئناف. (إن) حرف شرط جازم. ﴿خِفْتُمْ﴾: فعل ماض مبني على السكون في محل جزم فعل الشرط، والتاء فاعله، ومفعوله محذوف، والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنَّها ابتدائية، ويقال: لأنَّها جملة شرط غير ظرفي. ﴿فَرِجَالًا﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (رجالاً): حال عامله محذوف، التقدير: فصلوا رجالاً. وهو جمع: راجل كما رأيت، فهو مشتق، وليس جامداً، والجملة المقدَّرة هذه في محل جزم جواب الشَّرط، و(إن) ومدخولها كلام مستأنف ومفرَّع عمَّا قبله، لا محل له.

﴿فَإِذَآ﴾: الفاء: حرف عطف. (إذا): ظرف لما يستقبل من الزمان، خافض لشرطه منصوب بجوابه، صالح لغير ذلك، مبني على السكون في محل نصب. ﴿أَمِنتُمْ﴾: فعل، وفاعل، ومتعلقه محذوف، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة: (إذا) إليها على المشهور المرجوح. ﴿فَٱذْكُرُواْ﴾: الفاء: واقعة في جواب (إذا). (اذكروا): فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿ٱللَّهَ﴾: منصوب على التَّعظيم، والجملة الفعلية جواب (إذا) لا محلَّ لها، و(إذا) ومدخولها كلام معطوف على ما قبله، لا محلَّ له مثله.

﴿كَمَا﴾: الكاف: حرف تشبيه وجر. (ما): تحتمل الموصولة، والمصدرية.

﴿عَلَّمَكُم﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى ﴿ٱللَّهَ﴾ والكاف مفعوله، فعلى اعتبار: (ما) موصولة فالجملة الفعلية صلتها، والعائد محذوف، التقدير: كالَّذي علَّمكم إيَّاه، وعلى اعتبارها

مصدرية تؤول مع الفعل بمصدر في محل جر بالكاف، والجار والمجرور على الاعتبارين متعلِّقان بمحذوف صفة لمصدر محذوف واقع مفعولاً مطلقاً.

التقدير: اذكروا الله ذكراً كائناً مثل الذي علمكموه. أو: كائناً مثل تعليمه إياكم.

وعلى التقدير الأوَّل ثبت المفعول الثاني. تأمَّل. هذا؛ وإن اعتبرت الكاف حرف تعليل؛ فالجار والمجرور متعلقان بالفعل قبلهما، ويكون التقدير: اذكرو الله لتعليمه إيَّاكم، فيكون مثل قوله تعالى في الآية رقم [١٩٨]: ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾. ﴿مَّا﴾: اسم موصول بدل من (ما) الأوَّل على اعتبارها موصولة، ومفعول ثانٍ للفعل (عَلَّم) على اعتبار الأولى مصدرية. ﴿لَمْ﴾: حرف نفي، وجزم. ﴿تَكُونُواْ﴾: مضارع ناقص مجزوم بلم، والواو اسمه، والألف للتفريق، وجملة: ﴿تَعْلَمُونَ﴾ مع المفعول المحذوف خبره، والجملة الفعلية صلة (ما)، والعائد محذوف، وهو مفعول: ﴿تَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾﴾

الشرح: ذهب جماعة من المفسِّرين في تأويل هذه الآية: أنَّ المتوفى عنها زوجها كانت تجلس في بيت المتوفى عنها حولاً، وينفق عليها من ماله ما لم تخرج من المنزل، فإن خرجت؛ لم يكن على الورثة جناح في قطع النفقة عنها، ثم نسخ الحول بالأربعة الأشهر، والعشر، ونسخت النفقة بالرُّبع، والثُّمن في سورة (النساء). قاله ابن عباس وغيره، قال البخاري: قال ابن الزبير ـ رضي الله عنه ـ: قلت لعثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ: هذه الآية في البقرة: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا...﴾ إلخ؛ قد نسختها الآية رقم [٢٣٤]، فَلِمَ تكتبُهَا، ولا تدعها؟! قال: يا بن أخي لا أغير شيئاً منه من مكانه. فأجابه بأنَّ هذا أمر توقيفي، لا يجوز تغييره، ولا إبداله. فأخزى الله الذين يقولون: إنَّ عثمان حرَّف القرآن، وغيَّر فيه!.

فإن قلت: كيف نسخت الآية المتقدِّمة المتأخرة؟ قلت: قد تكون الآية متقدِّمة في التلاوة، وهي متأخرة في التنزيل، كقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ رقم [١٤٢] مع قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ رقم [١٤٤]. انتهى كشاف.

﴿وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ﴾ أي: فيجب أن يعين لهنَّ ما يكفيهن نفقة عامٍ كامل من مال الزَّوج المتوفَّى. ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾: قال عطاء رحمه الله: إن شاءت؛ اعتدت في بيت زوجها، وسكنت في وصيتها، وإن شاءت؛ خرجت، ولا وصية لها، لقول الله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ

عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ﴾ فهي مخيَّرة، ولا تجبر على الخروج من بيت المتوفَّى عنها. ﴿مِن مَّعْرُوفٍۗ﴾ هو مثل قوله تعالى فيما سبق: ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ وهو الذي لا ينكره الشرع الشريف من التزيُّن، والتطيُّب، والتَّعرُّض للخطاب. ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾: قوي، وغالب، وقاهر، ينتقم ممَّن يخالف أوامره. ﴿حَكِيمٌ﴾: فيما دبَّر، وقضى، وحكم. ففيه وعيدٌ، وتهديدٌ، لا يصلح محلَّه: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ كما رأيت فيما تقدَّم.

الإعراب: ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: الواو: حرف عطف. (الذين): اسم موصول مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿يُتَوَفَّوْنَ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول مرفوع، والواو نائب فاعله، والجملة الفعلية صلة الموصول. ﴿مِنكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، أو هما متعلقان بمحذوف حال من واو الجماعة، وجملة: ﴿وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا﴾: معطوفة عليها، لا محل لها مثلها. ﴿وَصِيَّةً﴾: مفعول مطلق، عامله محذوف، التقدير: يوصون وصية، وقدَّر الجلال، فليوصوا وصية، وعليه فـ (وصية) مفعول به للمقدَّر. وعلى الاعتبارين فالجملة المقدرة في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها. هذا؛ ويقرأ: (وَصِيَّةٌ) بالرفع على أنَّها مبتدأ، والخبر محذوف، التقدير: عليهم وصيةٌ، أو على أنها خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: فالواجب وصيةٌ، وعلى الوجهين فالجملة الاسمية في محل رفع خبر المبتدأ: (الذي). ﴿لِّأَزْوَٰجِهِم﴾: متعلقان بمحذوف صفة وصية، أو هما متعلقان بها على اعتبارها مصدراً، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿مَّتَٰعًا﴾ بدل من (الوصية) أو صفة لها على نصبها، وقيل: حال من الضمير المجرور محلاً بالإضافة، أي: متمتِّعات. وقيل: مفعول ثان لفعل محذوف، التقدير: ويعطوهنَّ متاعاً، وهذه الجملة معطوفة على المقدَّرة قبلها. ﴿إِلَى ٱلْحَوْلِ﴾: متعلقان بـ﴿مَّتَٰعًا﴾ أو بمحذوف صفة له. ﴿غَيْرَ﴾: حال من (أزواجهم) أو صفة: ﴿مَّتَٰعًا﴾ أو بدل منه، وقيل: نائب مفعول مطلق، وهو ضعيف، ﴿غَيْرَ﴾ مضاف، و﴿إِخْرَاجٍ﴾: مضاف إليه. ﴿فَإِنْ﴾: الفاء: حرف تفريع. (إن خرجن. . .) إلخ: انظر إعراب مثل هذا الكلام في الآية رقم [٢٣٤]، مع ملاحظة أنَّ الشَّرط هنا هو (إنْ). ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾: هذه الجملة معترضة في آخر الكلام الغاية منها التَّهديد، والوعيد.

﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ٢٤١﴾

الشرح: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِۖ﴾: قد بيَّن الله في الآية رقم [٢٣٦] المتعة، وقدرها، وقد رأيت فيما سبق: أنَّ هذه المتعة إنَّما تتبع حال الزَّوج المطلِّق ضيقاً، وسَعةً، وهو تأويل قوله تعالى هنا: ﴿بِٱلْمَعْرُوفِۖ﴾، وقد فسَّر النسفي كلمة: ﴿مَتَٰعٌ﴾ بنفقة العدَّة. وهو غير مسلَّم له: فمتعة المطلقة زيادة على نفقة العدَّة. ﴿حَقًّا﴾ أي: وجبت وجوباً، وقد رأيت فيما سبق: أنَّها واجبة، وغير واجبة. هذا؛ وقد قال الخازن: لمَّا نزل قوله تعالى: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ...﴾ إلخ؛

قال رجلٌ من المسلمين: إذا فعلت أحسنت، وإن لم أرد لم أفعل، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ...﴾ إلخ، فجعل المتعة لهنَّ بلام التَّمليك. انتهى. فيكون المتأخر ناسخاً للسَّابق. هذا؛ وقال زيد بن أسلم: هو نسخٌ محضٌ. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ﴾: الواو: حرف عطف. (للمطلقات): متعلقان بمحذوف خبر مقدَّم.

﴿مَتَٰعٌۢ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها لا محل لها. ﴿حَقًّا﴾: مفعول مطلق لفعل محذوف، التقدير: حقَّ ذلك حقّاً، والجملة الفعلية هذه في محل رفع صفة ثانية لـ ﴿مَتَٰعٌۢ﴾، والصفة الأولى متعلّق بـ: (المعروف). ﴿عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾: متعلقان بـ﴿حَقًّا﴾ أو بمحذوف صفة له.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾

الشرح: ﴿كَذَٰلِكَ...﴾ إلخ: الإشارة إلى ما تقدَّم من أحكام المطلَّقات، والعِدَد.

﴿يُبَيِّنُ...﴾ إلخ: هذا وعد من العليم الحكيم بأنَّه سيبين لعباده من الدَّلائل، والأحكام ما يحتاجون إليه في دنياهم، وآخرتهم. ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾: تفهمون، وتتدبَّرون، فتستعملون العقل فيها.

الإعراب: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لمصدر محذوف، عامله الفعل الذي بعده، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب لا محلَّ له. ﴿يُبَيِّنُ﴾: فعل مضارع. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله. ﴿لَكُمْ﴾: متعلقان به. ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه الكسرة نيابةً عن الفتحة؛ لأنه جمع مؤنث سالم، وتقدير الكلام: يبيِّن الله لكم آياته تبييناً مثل هذا التبيين. والجملة الفعلية مستأنفة لا محل لها. ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: حرف مشبه بالفعل، والكاف اسمها. ﴿تَعْقِلُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله، والجملة الفعلية في محل رفع خبر (لعل)، والجملة الاسمية تعليلٌ للتبيين، لا محلَّ لها.

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾﴾

الشرح: مناسبة الآيات الآتية لما قبلها: لمَّا ذكر الله تعالى أحكام الأسرة بالتَّفصيل، والتَّنظيم التي تربط بين أفرادها، وذكر طرق إصلاحها باعتبار: أنَّها النواة، واللَّبنة؛ التي يشاد منها صرح المجتمع الفاضل؛ ذكر بعدها أحكام الجهاد، وذلك لحماية العقيدة، وصيانة

المقدَّسات، وتأمين البيئة الصَّالحة للأسرة المسلمة، التي تنشد الحياة الكريمة، فلا صلاح للأسرة إلا بصلاح المجتمع، ولا بقاء لها، ولا خلود إلا ببقاء الحقِّ، وأنصاره، ولهذا أمر الله تعالى بالقتال، وضرب عليه الأمثال بالأمم السَّابقة، وكيف جاهدت في سبيل الحق، وانتصرت القلَّة مع إيمانهم على الكثرة، والتزامهم له، وجهادهم في سبيله.

﴿أَلَمْ تَرَ...﴾ إلخ: الخطاب للنبي ﷺ، أو لكلِّ أحد، والاستفهام تعجُّبٌ، وتشويقٌ إلى استماع ما بعده؛ إن كان المخاطب لم يعلم بحال المذكورين، أو هو استفهام، وتقريرٌ؛ إن كان المخاطب يعلم بحالهم. ويجوز أن يخاطب به من لم ير، ولم يسمع؛ لأن هذا الكلام جرى مجرى المثل في معنى التعجُّب.

﴿وَهُمْ أُلُوفٌ﴾: جمع: ألف، وهو جمع كثرة، ويجمع أيضاً على آلاف، وهو جمع قلَّة. واختلف في عددهم، فقيل: هم سبعون ألفاً. وقيل غير ذلك. ﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾: خوف الموت، وفراراً منه. ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ﴾ فماتوا. ﴿ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ﴾: أعاد الله إليهم أرواحهم، بعد موتهم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ﴾: صاحب كرم، وجود، وإنعام؛ حيث يذكر لهم من القصص ما فيه عبرة لمن يعتبر، ويتذكَّر. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ فضل الله، وإنعامه.

تنبيه: المراد بما في الآية الكريمة أهل قرية «دَاوَردان» قرية قِبَل واسط، وقع فيها طاعون، فخرجوا هاربين، فأماتهم الله، ثمَّ أحياهم؛ ليعتبروا! ويتيقَّنوا: أنْ لا مفرَّ من قضاء الله تعالى، وقدره. أو هم قوم من بني إسرائيل، دعاهم ملكهم إلى الجهاد، ففرُّوا خوف الموت، فأماتهم الله ثمانية أيام، ثمَّ أحياهم بدعوة نبيهم حزقيل، وهو الخليفة الثالث من خلفاء موسى، على نبينا، وعليه ألف صلاة وألف سلام. ويقال له: ذو الكفل؛ لأنه تكفَّل سبعين نبيّاً، وأنجاهم من القتل، فقد مرَّ فيهم، وهم موتى، فتعجب من حالهم، فأوحى الله إليه أنْ نادِ: قوموا بإذن الله. فنادى، فقاموا يقولون: سبحانك اللهم، وبحمدك، لا إله إلا أنت. وفائدة القصَّة تشجيعُ المسلمين على الجهاد، والتَّعرُّضُ للشَّهادة، وحثُّهم على التوكُّل، والاستسلام للقضاء. انتهى. بيضاوي بتصرُّف. وانظر ما ذكرته في الآية رقم [٧٣] فإنَّه جيد. والحمد لله!.

وفي هذه القصَّة عبرةٌ، ودليلٌ على أنَّه لا يغني حذر مِنْ قدر، وأن لا ملجأ من الله إلا إليه، فإنَّ هؤلاء خرجوا فراراً من الوباء طلباً لطول الحياة، فعوملوا بنقيض قصدهم، ثمَّ أحياهم. وميتةُ العقوبةِ بعدها حياةٌ، وميتةُ الأجلِ لا حياة بعدها. وقال مجاهد: إنَّهم لما أُحيوا؛ رجعوا إلى قومهم، يَعرفون: أنَّهم كانوا موتى، سَحْنَةُ الموت على وجوههم، ولا يلبس أحد منهم ثوباً إلا عاد كفناً دَسِماً؛ حتى ماتوا لآجالهم؛ التي كتبت لهم. وفيه ردٌّ على مَنْ يقول: كيف أُميت هؤلاء مرَّتين في الدُّنيا، وقد قال الله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ الآية رقم [٥٦] من سورة (الدخان)؟ قيل: إن موتهم، وإحياءهم كان معجزة من معجزات ذلك النَّبيِّ،

ومعجزات الأنبياء خوارق للعادات. فلا يقاس عليها. وفي هذه الآية احتجاج على اليهود، ومعجزةٌ عظيمة لنبيِّنا ﷺ حيث أخبرهم بأمرٍ لم يشاهدوه، وهم يعلمون صحَّة ذلك.

هذا؛ وأخرج أبو عيسى الترمذيُّ عن عامر بن سعد، عن أسامة بن زيد ـ رضي الله عنهما ـ: أنَّ النبيَّ ﷺ ذكر الطَّاعون: فقال: «**بَقِيَّةُ رِجْزٍ، أَوْ عَذَابٍ أُرْسِلَ عَلَى طَائِفَةٍ مِنْ بني إِسْرَائِيْلَ، فَإِذَا وَقَعَ فِي أَرْضٍ؛ وَأَنْتُمْ فِيهَا؛ فَلا تَخْرُجُوا مِنْهَا، وَإِذَا وَقَع فِي أرْضٍ، وَلَسْتُمْ بها؛ فلا تهبطوا عليها**». وبمقتضى هذا عَمِل عمر، والصَّحابة ـ رضوان الله عليهم ـ لما رجعوا من «سرغ»ـ موضع في الشام ـ حين أخبرهم عبد الرحمن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ بالحديث على ما هو مشهور في الموطَّأ، وغيره، وقد قال عمر لأبي عبيدة محتجّاً عليه لمَّا قال له حين رجع عمر من فلسطين، وكان طاعون عمواس: أفِراراً من قدر الله؟! فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة! نعم نفرُّ مِنْ قدر الله إلى قدر الله.

المعنى: لا محيص للإنسان عمَّا قدَّره الله له، وعليه، لكن أمرنا الله تعالى بالتحرُّز من المخاوف، والمهلكات، وباستفراغ الوسع في التوقِّي من المكروهات. ثم قال له: أرأيت لو كانت لك إبلٌ، فهبطت وادياً، له عُدْوتان، إحداها خصبةٌ، والأخرى جَدبةٌ؟ أليس إن رعيْت الخصبة؛ رعيْتها بقدر الله، وإن رعيت الجدبة؛ رعيتها بقدر الله؟! ثم رجع ـ رضي الله عنه ـ من موضعه ذلك إلى المدينة المنورة.

الإعراب: ﴿أَلَمْ﴾: الهمزة: حرف استفهام، وانظر الشرح. (لم): حرف نفي، وقلب، وجزم. ﴿تَرَ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ(لم) وعلامة جزمه حذف حرف العلة، وهو الألف، والفتحة قبلها دليل عليها، والفاعل ضمير مستتر تقديره: أنت، وهو لازم؛ لأنَّه بمعنى: «تنظر» تعدى بحرف الجر. ﴿إِلَى الَّذِينَ﴾ متعلقان بالفعل قبلهما، وهما في محل نصب مفعول به. ﴿خَرَجُوا﴾: فعل ماض مبني على الضم، والواو فاعله، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها. ﴿مِن دِيَارِهِمْ﴾: متعلقان بما قبلهما، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿وَهُمْ أُلُوفٌ﴾: الواو: واو الحال. (هم ألوف): مبتدأ وخبر، والجملة الاسمية في محل نصب حال من واو الجماعة، والرابط: الواو، والضمير. ﴿حَذَرَ﴾: مفعول لأجله، وهو مضاف، و﴿الْمَوْتِ﴾: مضاف إليه، من: إضافة المصدر لمفعوله، وفاعله محذوف، والجملة الفعلية: ﴿أَلَمْ تَرَ...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها. (قال): فعل ماض. ﴿لَهُمُ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿اللَّهُ﴾: فاعله. ﴿مُوتُوا﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿فَقَالَ...﴾ إلخ معطوفة على جملة: ﴿خَرَجُوا﴾ لا محل لها مثلها. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿أَحْيَاهُمْ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف للتعذر، والفاعل يعود إلى ﴿اللَّهَ﴾ والهاء مفعول به، والجملة الفعلية معطوفة على جملة محذوفة، التقدير: فماتوا، فأحياهم.

﴿إِنَّ﴾ حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿لَذُو﴾: اللام: هي المزحلقة. (ذو): خبر ﴿إِنَّ﴾ مرفوع، وعلامة رفعه الواو، نيابة عن الضمة لأنه من الأسماء الخمسة، و(ذو) مضاف، و﴿فَضْلٍ﴾ مضاف إليه. ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾: متعلقان بـ﴿فَضْلٍ﴾ أو بمحذوف صفة له، والجملة الاسمية مستأنفة، أو مبتدأة لا محل لها. ﴿وَلَٰكِنَّ﴾: الواو: حرف عطف. (لكنَّ): حرف مشبه بالفعل. ﴿أَكْثَرَ﴾: اسمها، وهو مضاف، و﴿ٱلنَّاسِ﴾: مضاف إليه، وجملة: ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾: في محل رفع خبر (لكن)، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها، لا محلَّ لها مثلها.

﴿وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾﴾

الشرح: في هذه الآية خطاب لأمَّة محمد ﷺ بالقتال في سبيل الله، وهو الذي يُنوى به أن تكون كلمة الله هي العليا، وانظر ما ذكرته في الآية رقم [١٩٠] فإنَّه جيد والحمد لله! وقيل: الخطاب للذين أُحيوا من بني إسرائيل. ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ﴾: أيقنوا، واعتقدوا. ﴿سَمِيعٌ﴾: لأقوالكم. ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتكم وأحوالكم، فيجازيكم عليها. فيه وعد لمن بادر للجهاد في سبيل الله، ووعيد لمن تخلَّف عنه، والاسمان صيغتا مبالغة، كما لا يخفى، وكما أنَّ الحذر لا يغني من القدر؛ فكذلك الفرار من الجهاد لا يقرب أجلاً، ولا يبعده.

الإعراب: ﴿وَقَٰتِلُواْ﴾: الواو: حرف عطف. (قاتلوا): فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق، والمفعول محذوف، تقديره: الكفار ونحوه، والجملة الفعلية معطوفة على جملة محذوفة، التقدير: فأطيعوا الله، وقاتلوا... إلخ، والجملة المحذوفة تقع في التقدير جواباً لشرط محذوف، وتقدير الكلام: وإذا كان الموت واقعاً على كل حال؛ فأطيعوا الله، وقاتلوا... إلخ ﴿فِى سَبِيلِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، و﴿سَبِيلِ﴾: مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾ مضاف إليه. (اعلموا): فعل أمر وفاعله. ﴿أَنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾: خبران لها. و﴿أَنَّ﴾ واسمها، وخبرها في تأويل مصدر في محل نصب سدَّ مسد مفعولي (اعلموا). تأمَّل، وتدبَّر، وربك أعلم.

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾

الشرح: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ﴾: إقراض الله مثلٌ لتقديم العلم الذي يُطلب به ثوابه، والقرض: اسم لكل ما يلتمس عليه الجزاء، قال لبيد ـ رضي الله عنه ـ: [الرمل]

وَإِذَا جُوزِيتَ قَرضاً فَاجْزِهِ إِنَّمَا يَجْزِي الْفَتَى لَيْسَ الْجَمَلْ

وقال الزجَّاج: القرض في اللغة: البلاء الحسن، والبلاء السيئ. قال أميَّة بن أبي الصَّلت: [البسيط]

كُلُّ امْرِئٍ سَوْفَ يُجْزَى قَرْضَهُ حَسَناً أَوْ سَيِّئاً، ومَدِيناً مِثْلَ مَا دَانَا

وقال آخر: [المتقارب]

تُجَازَى الْقُرُوضُ بِأَمْثَالِهَا فَبِالْخَيْرِ خَيْراً وَبالشَّرِّ شَرَّا

وطلب القرض في هذه الآية وأمثالها إنَّما هو تأنيس، وتقريب للنَّاس بما يفهمون، والله هو الغنيُّ الحميد، لكنَّه تعالى شبَّه إعطاء المؤمنين المال، وإنفاقهم في الدُّنيا الذي يرجون ثوابه بالقرض، كما شبَّه إعطاء النفوس والأموال في أخذ الجنَّة بالبيع والشراء، كما ذكر الله بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ...﴾ إلخ الآية رقم [١١١] من سورة (التوبة)، وكما كنى الله سبحانه وتعالى عن الفقير بنفسه العلية المنزَّهة عن الحاجات ترغيباً في الصَّدقة، كما كنى عن المريض والجائع والعطشان بنفسه المقدَّسة عن النقائص والآلام، ففي صحيح الحديث إخباراً عن الله تعالى: «**يَا بْنَ آدمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي، اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعمني، اسْتسْقَيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِني، وقالَ: يَا رَبُّ كَيْفَ أَسْقِيكَ وَأَنْتَ رَبُّ العَالَمينَ؟ قَالَ: اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تَسْقِهِ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي**». أخرجه البخاريُّ، ومسلمٌ، وهذا كلُّه خرج مخرج التشريف لمن كنى عنه ترغيباً لمن خوطب به. ويجب على المستقرض ردُّ القرض؛ لأنَّ الله تعالى بيَّن: أنَّ من أنفق في سبيل الله لا يضيع عند الله، بل يردُّ الثواب قطعاً، وأبهم الجزاء، وقد بيَّن الله تعالى في الآية رقم [٢٦١] الآتية: أنَّ النفقة في سبيل الله تُضاعف إلى سبعمئة ضعف وأكثر، وقال ها هنا: ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ وهذا لا نهاية له.

وعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**رأيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي عَلَى بابِ الْجَنَّةِ مكتوباً: الصَّدَقَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، والْقَرْضُ بِثَمَانِيَةَ عَشَرَ، فَقُلْتُ لِجبريلَ: مَا بَالُ القرض أَفْضَلُ مِنَ الصَّدَقَة؟ قال: لأنَّ السَّائِلَ يَسأَلُ، وعِنْدَهُ مَا يَكْفِيهِ، والْمُستَقْرِضُ لَا يَستَقرِضُ إلَّا مِنْ حَاجَةٍ**». أخرجه ابن ماجه، وفي روايةٍ: «**مَا بَالُ القرضِ أفضلُ مِنَ الصَّدقَةِ، وَهُوَ يَعُودُ، والصَّدَقَةُ لَا تَعُودُ؟!**». ولكن في هذه الأيام القرض ضال إلا ما ردَّه الله، وذلك لسوء معاملة الناس.

هذا وقال العلماء في القرض بمعنى الصَّدقة: لا يكون القرض حسناً حتى تجتمع فيه أوصاف عشرة، وهي: أن يكون المال من الحلال، وأن يكون من أجلِّ المال، وأن تتصدق به وأنت محتاج إليه، وأن تصرف صدقتك إلى الأحوج إليها، وأن تكتم الصدقة ما أمكنك، وأن لا تتبعها بالمنِّ، والأذى، وأن تقصد بها وجه الله، ولا ترائي بها النَّاس، وأن تستحقر ما تعطي؛ وإن كان كثيراً، وأن يكون من أحبِّ أموالك إليك، وألا ترى عزَّ نفسك، وذلَّ الفقير، وخذ ما يلي:

عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ، قال: لمَّا نزلت ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ...﴾ إلخ قال أبو الدحداح ـ رضي الله عنه ـ: يا رسول الله! إن الله عزَّ وجلَّ ليريد منَّا القرض؟! قال: «**نَعَمْ يا أبا الدَّحْدَاحِ**». قال: أرني يدك يا رسول الله، قال: فناوله يده، قال: فإني قد أقرضت ربِّي عزَّ وجلَّ حائطي، قال: وحائطه فيه ستمئة نخلة، وأم الدَّحداح وعيالها فيه، قال: فجاء أبو الدَّحداح، فناداها: يا أمَّ الدَّحداح! قالت: لبيك! قال: اخرجي، فقد أقرضته ربِّي عزَّ، وجلَّ، فقالت الزَّوجة الصَّالحة: ربح بيعك، وبارك الله لك فيما اشتريت! فقال النبيُّ ﷺ: «**كَمْ مِنْ عِذْقٍ رَداح، وَدَارٍ فياح لأبي الدَّحْدَاح في الجنَّةِ**». هذا و﴿قَرْضًا﴾ مصدر جاء بخلاف المصدر، كقوله تعالى في سورة (نوح): ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾. ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾: كثرة لا يقدرها، ولا يعرفها إلا الله، و﴿أَضْعَافًا﴾ جمع: ضعف، وهو بكسر الضاد وسكون العين مثل الشَّيء، وضعفاه: مثلاه، وأضعافه: أمثاله، هذا هو الأصل في الضِّعف، ثم استعمل في المِثْل، وما زاد، وليس للزيادة حدٌّ، فيقال: هذا ضعف هذا، أي: مثله، أو مثلاه، أو ثلاثة أمثاله، وهكذا، ويقال: أضعفت الشيء، وضعَّفته، وضاعفته، فمعناه ضممت إليه مثله فصاعداً، وقال بعضهم: ضاعفت أبلغ من ضعَّفت، ولذا قرأ أكثرهم في سورة (الأحزاب) رقم [٣٠] ﴿يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾، وفي الآية رقم [٦٩] من سورة (الفرقان): ﴿يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ﴾ وفي الآية رقم [٤٠] من سورة (النساء): ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾ هذا وللضَّعْف بفتح الضاد والضِّعف بكسرها، والضُّعف بضمها معانٍ نظمها بعضهم بقوله: [الرجز]

فـي الـرَّأيِ والْـعَـقْـلِ يَـكُـونُ الـضَّـعْـفُ ... وَالْـوَهْـنُ فـي الْـجِـسْـمِ فـذَاكَ الـضِّـعْـفُ

زِيَـادَةُ الْـمِـثْـلِ كَـذَا والـضُّـعْـفُ ... جَـمْـعُ ضَـعِـيـفٍ، وَهْـوَ شَـاكِـي الـضُّـرِّ

﴿يَقْبِضُ﴾: يمسك الرزق عمَّن يشاء ابتلاءً، (يبسط): يوسِّعه لمن يشاء امتحاناً، وهو يقرأ بالسين والصاد، وبينهما طباق، وهو من المحسِّنات البديعيَّة.

الإعراب: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى﴾: ﴿مَّن﴾: اسم استفهام مبني على السكون في محل رفع مبتدأ، ﴿ذَا﴾: اسم إشارة مبني على السكون في محل رفع خبره. ﴿ٱلَّذِى﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل رفع صفة ﴿ذَا﴾ أو هو بدل منها. هذا؛ وجوز أن يكون ﴿مَّن ذَا﴾ اسماً مركباً مبنيّاً على السكون في محل رفع مبتدأ، و﴿ٱلَّذِى﴾ خبره. ﴿يُقْرِضُ﴾: فعل مضارع. والفاعل يعود إلى من ﴿ٱللَّهَ﴾ منصوب على التعظيم، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها. ﴿قَرْضًا﴾: مفعول مطلق، وقيل: مفعول به، ﴿حَسَنًا﴾: صفته. ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ﴾: الفاء: هي السببية. (يضاعفه): فعل مضارع منصوب بـ«أن» مضمرة بعد الفاء. والفاعل يعود إلى ﴿ٱللَّهَ﴾. ﴿لَهُۥٓ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿أَضْعَافًا﴾: حال، وقيل: مفعول مطلق، وقيل: مفعول ثان لتضمُّن المضاعفة معنى التصير. ﴿كَثِيرَةً﴾: صفة أضعافاً، و«أن» المضمرة والفعل المضارع

في تأويل مصدر معطوف بالفاء على مصدر متصيَّد من الفعل السابق، التقدير: من ذا الذي يحصل منه قرض لله، فمضاعفه له. هذا ويقرأ الفعل بالرَّفع، فيكون في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: فهو يضاعفه، والجملة الاسمية مستأنفة على حدِّ: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ في كثير من الآيات. (الله): مبتدأ. ﴿يَقْبِضُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى (الله)، والجملة الفعلية في محل رفع خبره. (يبسط): فعل مضارع، والفاعل يعود إلى (الله) أيضاً، ومفعوله محذوف مثل سابقه، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها. (إليه): جار ومجرور متعلقان بما بعدهما. ﴿تُرْجَعُونَ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول مرفوع، والواو نائب فاعله، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾﴾

الشرح: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾: انظر مثله في الآية رقم [٢٤٣] ﴿ٱلْمَلَإِ﴾: الجماعة الأشراف، والوجهاء، سمُّوا بذلك؛ لأنَّهم يملؤون القلوب مهابة، والعيون حسناً، وبهاءً، وهو اسم جمع لا واحد له من لفظه، مثل: رهط، ومعشر، ونفر. ﴿مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ﴾ أي: بزمنٍ طويل. ﴿إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ﴾: انظره فيما يأتي. ﴿ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا﴾: عيِّن لنا أميراً ينظِّم أمورنا، ونقاتل معه عدوَّنا. ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ...﴾ إلخ: المعنى: إني أتوقَّع جُبنكم في القتال؛ إنْ فُرض عليكم، وندبتم إليه، فأدخل ﴿هَلْ﴾ على فعل التوقُّع، مستفهماً عمَّا هو المتوقع عنده تقريراً، وتثبيتاً. ﴿تَوَلَّوْا۟﴾: هربوا، وولَّوا الأدبار: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ كانوا ثلاثمئة وثلاثة عشر بعدد أهل بدر. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾: هذا وعيد، وتهديد لهم على ظلمهم بترك الجهاد، وهذا شأن الأمم المتنعمة المائلة إلى الدَّعة، والرَّفاهية تتمنَّى الحرب أوقات الرَّاحة، فإذا حضرت؛ جبنت، وولَّت الأدبار، وعن هذا المعنى نهى النَّبيُّ ﷺ بقوله: «**لَا تَتَمَنَّوا لِقَاءَ العدوِّ، وَسَلُوا اللهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيْتُمُوهُمْ؛ فَاثبتُوا**». رواه الأئمة.

تنبيه: سبب طلب بني إسرائيل من نبيهم ما ذكر في الآية الكريمة: أنه مات موسى ـ على نبينا، وعليه ألف سلام ـ وخلَفَه يوشع بن نون، أقام فيهم أمر الله، وحكم بالتوراة، ثمَّ خلفه كالي بن يوقنا، ثمَّ حزقيل المذكور في الآية رقم [٢٤٣] ثم إلياس، ثم اليسع، ثم ظهر لهم

أعداؤهم العمالقة بزعامة جالوت، فقاتلوهم، وغلبوا على كثير من أرضهم، وسبوا كثيراً منهم، ولم يكن لهم إذ ذاك نبي يدبر أمورهم، وكان سبط النبوة قد هلكوا إلا امرأة حبلى فولدت غلاماً، فسمَّته شمويل، ومعناه بالعربية: إسماعيل، وعرف بابن العجوز، وإنَّما قيل له ذلك؛ لأن أمه كانت سألت الله الولد، وقد كبرت وعقمت، فوهبه الله تعالى لها، فلما كبر سلمته التوراة في بيت المقدس، وكفله شيخ من علمائهم، فلما كبر نبأه الله تعالى، وأرسله إليهم، فقالوا له: إن كنت صادقاً فابعث لنا ملكاً نقاتل معه في سبيل الله، وكان قوام بني إسرائيل بالاجتماع على الملوك، وطاعة أنبيائهم، فكان الملك هو يُسَيِّر الجموع، والنبي يرشده، ويقيم أمره. انتهى. خازن. بتصرف.

الإعراب: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ﴾: انظر إعراب هذه الجملة في الآية رقم [٢٤٣]. ﴿مِنۢ بَنِيٓ﴾: متعلقان بمحذوف حال من الملأ، وعلامة الجر الياء نيابةً عن الكسرة؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم، وحذفت النون للإضافة، و﴿بَنِيٓ﴾ مضاف، و﴿إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: مضاف إليه مجرور، وعلامة جره الفتحة نيابة عن الكسرة؛ لأنه ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة، ﴿مِنۢ بَعْدِ﴾: متعلقان بمحذوف حال من ﴿بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ فهي حال متداخلة، أو بمحذوف حال من ﴿ٱلْمَلَإِ﴾ فتكون حالاً متعدِّدة، و﴿بَعْدِ﴾ مضاف، و﴿مُوسَىٰٓ﴾: مضاف إليه مجرور، وعلامة جره كسرة مقدَّرة على الألف للتعذُّر. ﴿إِذْ﴾: قال أبو البقاء: بدل من ﴿بَعْدِ﴾ لأنهما زمانان، وأما الجمل تبعاً للجلال فعلَّقه بمحذوف مضاف إلى الملأ، وقدَّره: ألم تر إلى قصة الملأ. وهو قول ابن هشام في المغني، فهو على الأول مبني على السكون في محل جر، وعلى الثاني في محل نصب. ﴿قَالُوا۟﴾: فعل ماض وفاعله والألف للتفريق. ﴿لِنَبِيٍّ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿لَّهُمُ﴾: متعلقان بمحذوف صفة (نبي). ﴿ٱبْعَثْ﴾: فعل أمر والتماس، وفاعله: أنت. ﴿لَنَا﴾: متعلقان به. ﴿مَلِكًا﴾: مفعول به، وجملة: ﴿ٱبْعَثْ...﴾ إلخ في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قَالُوا۟...﴾ إلخ في محل جر بإضافة ﴿إِذْ﴾ إليها. ﴿نُّقَٰتِلْ﴾: فعل مضارع مجزوم لوقوعه جواباً للطلب، وجزمه عند الجمهور بشرط محذوف، وفاعله مستتر تقديره: نحن، وقد قرئ بالرفع والياء: (يُقَاتِلُ) على أن تكون جملته في محل نصب صفة ملكاً، كما قرئ بالرَّفع، والنون على الاستئناف. ﴿فِى سَبِيلِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، و﴿سَبِيلِ﴾: مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾: مضاف إليه.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى النبي. ﴿هَلْ﴾: حرف استفهام. ﴿عَسَيْتُمْ﴾: فعل ماض مفيد للترجي والتوقع، مبني على السكون، والتاء اسمه. ﴿إِن﴾: حرف شرط جازم. ﴿كُتِبَ﴾: فعل ماض مبني للمجهول مبني على الفتح في محل جزم فعل الشرط. ﴿عَلَيْكُمُ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿ٱلْقِتَالُ﴾: نائب فاعل ﴿كُتِبَ﴾، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها ابتدائية، ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفي، وجواب الشرط

محذوف، التَّقدير: إن كتب عليكم القتال؛ فلا تقاتلون. ﴿أَلَّا﴾: (أن) حرف مصدري ونصب. (لا) نافية. ﴿تُقَٰتِلُوا۟﴾: مضارع منصوب بـ«أن» وعلامة نصبه حذف النون، والواو فاعله، والمصدر المؤول من «أن» والفعل المضارع في محل نصب خبر ﴿عَسَيْتُمْ﴾، والجملة الشرطية معترضة بين اسم (عسى) وخبرها، وجملة: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ...﴾ إلخ في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قَالَ...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها.

﴿قَالُوا۟﴾: ماض وفاعله. ﴿وَمَا لَنَآ﴾: الواو: حرف عطف على محذوف، التقدير: أيُّ غرض لنا في ترك القتال، وقد عرض لنا ما يوجبه، ويحثُّ عليه. وهذا تقدير البيضاوي، وهو حلٌّ معنى كما ترى. وقال الجمل، وأبو البقاء: دخلت الواو لتدلَّ على ربط هذا بما قبله. (ما): اسم استفهام مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. (لنا): جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ. ﴿أَلَّا﴾: (أن): حرف مصدري ونصب. (لا): نافية. ﴿نُقَٰتِلَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ(أن) والفاعل تقديره نحن، والمصدر المؤول منهما في محل جر بحرف جر محذوف، التقدير: وما لنا في ترك القتال، والجار والمجرور متعلقان بـ(ما) لتضمنها معنى الفعل: «أستفهم». وقال أبو البقاء: متعلقان بالخبر المحذوف، الذي تعلَّق به ﴿لَنَآ﴾، وقال الأخفش: (أنْ) زائدة، والجملة حال، تقديره: وما لنا غير مقاتلين، مثل قوله تعالى حكاية على قول أولاد يعقوب لأبيهم: ﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا﴾، وقد أعمل (أنْ) وهي زائدة. انتهى. والكلام: ﴿وَمَا لَنَآ...﴾ إلخ كلُّه في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قَالُوا۟...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها؛ لأنَّها بمنزلة جواب عن الكلام السابق. ﴿وَقَدْ﴾ الواو: واو الحال. (قد): حرف تحقيق يقرب الماضي من الحال. ﴿أُخْرِجْنَا﴾: فعل ماض مبني للمجهول مبني على السكون، و(نا) في محل رفع نائب فاعله، والجملة الفعلية في محل نصب حال من فاعل ﴿نُقَٰتِلَ﴾ المستتر، والرابط الواو والضمير. ﴿مِن دِيَٰرِنَا﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿وَأَبْنَآئِنَا﴾: معطوف على ما قبله، و(نا) في محل جر بالإضافة، وهذا ظاهر الإعراب، وفي المعنى لابدَّ من تقدير فعل، أي: وأبعدنا من أبنائنا.

﴿فَلَمَّا﴾ الفاء: حرف استئناف. (لما): حرف وجود لوجود عند سيبويه، وبعضهم يقول: حرف وجوب لوجوب، وهي ظرف بمعنى «حين» عند ابن السراج، والفارسي، وابن جني، وجماعة، تتطلب جملتين مرتبطتين ببعضهما ارتباط فعل الشرط بجوابه، وصوَّب ابن هشام الأول، والمشهور الثاني. ﴿كُتِبَ﴾: فعل ماض مبني للمجهول. ﴿عَلَيْهِمُ﴾: جار ومجرور متعلقان به. ﴿ٱلْقِتَالُ﴾: نائب فاعله. والجملة الفعلية في محل جر بإضافة (لمَّا) إليها على اعتبارها ظرفاً، ولا محل لها على اعتبار (لمَّا) حرفاً. ﴿تَوَلَّوْا۟﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف المحذوفة لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة التي هي فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية لا محلَّ لها، و(لمَّا) ومدخولها كلام مستأنف لا محل له. ﴿إِلَّا﴾: أداة

استثناء. ﴿قَلِيلًا﴾: منصوب على الاستثناء. ﴿مِّنْهُمْ﴾: متعلقان بـ﴿قَلِيلًا﴾. ﴿وَاللَّهُ﴾: الواو: واو الاعتراض. (الله): مبتدأ. ﴿عَلِيمٌ﴾: خبره. ﴿بِالظَّالِمِينَ﴾: متعلقان بما قبله. والجملة الاسمية: ﴿وَاللَّهُ...﴾ إلخ استئنافية، الغرض منها الوعيد والتهديد كما رأيت.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧)﴾

الشرح: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ﴾: انظر الآية السابقة. ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ﴾: اختار لكم طالوت ملكاً. ﴿طَالُوتَ﴾: اسم أعجمي مثل: داود، وجالوت، وجمعها: طواليت، ودواويد، وجواليت، وهي ممنوعة من الصرف، ولو سمَّيت رجلاً بطاووس وراقود؛ لصرفت وإن كانا أعجميين، والفرق بين هذا وبين الأوَّل أنك تقول: الطاووس، فتدخل الألف واللام، فيمكَّن في العربية، ولا يمكَّن هذا في ذاك. وذلك: أنه لمَّا سأل اللهَ إرسال مَلِكٍ لهم، أرسل الله له عصاً، وقرناً فيه دهن القدس، وقيل له: إنَّ صاحبك الذي يكون ملكاً هو من يكون طوله طول هذه العصا، وانظر إلى القرن الذي فيه الدهن، فإذا دخل عليكم رجلٌ، فانتشر الدُّهن الذي في القرن، فهو مَلِكُ بني إسرائيل، فَادْهَنْ رأسَه بالدُّهن، وملِّكْه عليهم، واسمه: طالوت، فدخل طالوت. فوجد فيه ما ذكر، فقال له: أنت ملك بني إسرائيل الَّذي أمرني ربِّي أن أملكك عليهم. فقال: أو لم تعلم: أنَّ سبطي أدنى من سبط ملوك بني إسرائيل ؟! قال: بلى! والله يؤتي ملكه مَنْ يشاء.

﴿قَالُوا﴾: أي: بنو إسرائيل لمَّا قال لهم نبيهم: إنَّ ملكهم طالوت: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾ أي: كيف يملكنا ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ﴾؟! فهو استبعاد، واستغراب لما قال لهم النبي، وبيَّنوا له السبب؛ بأنَّه ليس من بيت الملوك، وبأنَّه فقير، وإنَّما قالوا ذلك؛ لأنَّ طالوت كان راعياً، أو سقاءً، أو دبَّاغاً. ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ﴾: اختاره لكم ملكاً، وليس الأمر لي. ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ أي: منحه قوَّةً في العلم الَّذي هو ملاك الإنسان، وقوَّة في الجسم الذي هو معينه في الحروب، وعدَّته عند اللِّقاء.

هذا؛ وقد كان طالوت من سبط بنيامين، ولم تكن فيهم النبوَّة والمُلك، وإنَّما كانت النبوة في أولاد لاوي بن يعقوب، والمُلك في أولاد يهوذا، وكان فيهم مِنَ السِّبطين خلق يومئذ. ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ...﴾ إلخ، لمَّا استبعدوا تملكه؛ ردَّ عَلَيْهِمْ نبيُّهم ذلك بأمور أربعة: **الأول**: أن الله هو الذي

اختاره ملكاً عليهم، وهو أعلم بالمصالح، **الثاني**: أنَّ الله منحه من العلم ما يجعله أهلاً لذلك؛ ليتمكَّن بالعلم من معرفة الأمور السياسيَّة، ومنحه من قوة الجسم، وطوله؛ ليكون أعظم خطراً في القلوب، وأقوى على مُكابدة الحروب، **الثالث**: أن الله تعالى مالك الملك على الإطلاق، فله أن يختصَّ بملكه من يشاء، **الرابع**: أن الله واسع الفضل يوسع على الفقير، ويغنيه، عليم بمن يليق بالملك. انتهى. بيضاوي بتصرُّف، وانظر شرح ﴿وَاسِعٌ﴾ في الآية رقم [١١٥].

الإعراب: ﴿وَقَالَ﴾: فعل ماض. ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان به، ﴿نَبِيُّهُمْ﴾: فاعله، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق يقرِّب الماضي من الحال، ﴿بَعَثَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى ﴿ٱللَّهَ﴾. ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان به. ﴿طَالُوتَ﴾: مفعول به. ﴿مَلِكًا﴾: حال من ﴿طَالُوتَ﴾ أو هو مفعول ثان على تضمين ﴿بَعَثَ﴾ معنى: أرسل، والجملة الفعلية في محل رفع خبر ﴿إِنَّ﴾، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول، وجملة: (قال...) إلخ معطوفة على ما قبلها.

﴿أَنَّىٰ﴾: اسم استفهام وتعجب، مبني على السكون في محل نصب حال، عامله ما بعده، وقال القرطبيُّ: في محل نصب على الظرف، ولا وجه له. ﴿يَكُونُ﴾: فعل مضارع ناقص. ﴿لَهُ﴾: متعلقان بمحذوف خبر مقدم، ﴿ٱلْمُلْكُ﴾: اسمه مؤخر. هذا؛ وجوز اعتبار ﴿يَكُونُ﴾ تامّاً، فيكون ﴿لَهُ﴾ متعلقين به، و﴿ٱلْمُلْكُ﴾ فاعله، ﴿عَلَيْنَا﴾: متعلقان بـ: ﴿ٱلْمُلْكُ﴾. وقال أبو البقاء: في محل نصب حال من ﴿ٱلْمُلْكُ﴾، والأول أقوى، وجملة: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ...﴾ إلخ في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قَالُوٓاْ...﴾ إلخ مستأنفة، لا محل لها. ﴿وَنَحْنُ﴾: الواو: واو الحال. (نحن): ضمير منفصل مبني على الضم في محل رفع مبتدأ. ﴿أَحَقُّ﴾: خبره، ﴿بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ﴾: كلاهما متعلقان بـ ﴿أَحَقُّ﴾ لأنه اسم تفضيل، والجملة اسمية في محل نصب حال من (نا) المجرورة بـ (على) والرابط الواو والضمير. ﴿وَلَمْ﴾: الواو: حرف عطف، (لم): حرف نفي وقلب وجزم، ﴿يُؤْتَ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول مجزوم بـ (لم) وعلامة جزمه حذف حرف العلة، وهو الألف، والفتحة قبلها دليل عليها، ونائب الفاعل يعود إلى ﴿طَالُوتَ﴾ وهو المفعول الأول. ﴿سَعَةً﴾: مفعول ثان. ﴿مِّنَ ٱلْمَالِ﴾: متعلقان بـ ﴿سَعَةً﴾ أو بمحذوف صفة له، والجملة الفعلية ﴿وَلَمْ يُؤْتَ...﴾ إلخ معطوفة على ما قبلها، فهي في محل نصب حال مثلها، وجملة: ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ...﴾ إلخ مستأنفة لا محلَّ لها.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى ﴿نَبِيُّهُمْ﴾. ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل، ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿ٱصْطَفَىٰهُ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف للتعذر، والفاعل يعود إلى ﴿ٱللَّهَ﴾، والهاء مفعول به. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: متعلقان به، والجملة الفعلية في محل رفع خبر ﴿إِنَّ﴾، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قَالَ...﴾ إلخ مستأنفة لا محل

لها. ﴿وَزَادَهُۥ﴾: الواو: حرف عطف. (زاده): فعل ماض والفاعل يعود إلى ﴿ٱللَّهَ﴾ والهاء مفعول به أول، ﴿بَسْطَةً﴾: مفعول به ثان، ﴿فِى ٱلْعِلْمِ﴾: متعلقان بـ ﴿بَسْطَةً﴾ أو بمحذوف صفة له. ﴿وَٱلْجِسْمِ﴾: معطوف على ما قبله، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، فهي في محل رفع مثلها.

﴿وَٱللَّهُ﴾: (الواو): حرف استئناف. (الله): مبتدأ. ﴿يُؤْتِى﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء، والفاعل يعود إلى (الله). ﴿مُلْكَهُۥ﴾: مفعول به أول، والهاء في محل جر بالإضافة، ﴿مَن﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل نصب مفعول به ثان. ﴿يَشَآءُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى (الله)، والجملة الفعلية صلة ﴿مَن﴾ أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف، التقدير: الذي، أو شخصاً يشاؤه، والجملة الفعلية: ﴿يُؤْتِى...﴾ إلخ في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها، وجملة: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾: معترضة في آخر الكلام، مؤكدة لما قبلها.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾

الشرح: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ﴾: بعد أن طلبوا علامةً دالة على ملك طالوت. ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ﴾ أي: علامة تمليك طالوت عليكم. ﴿أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾: كان من خشب الشِّمشاذ بكسر الشين، وهو الذي تُتخذ منه الأمشاط، وكان مموهاً بالذَّهب، طوله ثلاثة أذرع، وعرضه ذراعان، وكان عند آدم عليه السلام فيه صور جميع الأنبياء فقد رآها آدم كلها، ثم توارثه أولاده إلى أن وصل إلى موسى، على نبينا وعليه ألف صلاة وألف سلام، فكان يضع فيه التوراة، ومتاعه، وكان عنده إلى أن مات، ثم توارثه بنو إسرائيل بعده، وكانوا إذا اختلفوا في شيء؛ تحاكموا إليه، فيكلِّمهم، ويحكم بينهم، وكانوا إذا خرجوا للقتال؛ يقدِّمونه بين أيديهم، وكانوا مُعدِّين جماعة لحمله، ثم يقاتلون العدو، فإذا سمعوا صيحة استيقنوا بالنَّصر، فلما عصوا الله، وأفسدوا في الأرض؛ سلَّط الله عليهم العمالقة، فغلبوهم على التابوت، وسلبوه، وجعلوه في موضع البول، والغائط، فلمَّا أراد الله أن يملك طالوت؛ سلط الله عليهم البلاء، حتى إنَّ كلَّ من بال عنده ابتُلي بالبواسير، وهلكت من بلادهم خمس مدائن، فعلم الكفار: أن ذلك بسبب استهانتهم بالتَّابوت، فأخرجوه، فاحتملته الملائكة، وأتت به بني إسرائيل، كما ذكرت الآية الكريمة.

﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾: طمأنينة لقلوبكم بسببه، فيما اختلفتم فيه من أمر طالوت.

ونظيره قوله تعالى في سورة (التوبة) رقم [٤٠]: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ﴾ أي: أنزل عليه ما سكن به قلبه، وقال وهب بن منبه: السكينة: روح من الله تتكلَّم، فكانوا إذا اختلفوا في أمر نطقت ببيان ما يريدون، وإذا صاحت في الحرب كان الظفر لهم، ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ...﴾ إلخ: وهي نعل موسى وعصاه، وعمامة هارون، وقفيز من المن الذي كان ينزل عليهم، ورضاض ألواح التوراة التي تكسَّرت حين ألقاها موسى عند عودته من جبل الطور، ورأى قومه قد عبدوا العجل، فغضب، وألقى ألواح التوراة، فتكسرت، فنزع منها ما كان صحيحاً، وأخذ رضاض ما تكسر، فجعله في التابوت. ولفظ (آل) مقحم، فإن المراد موسى وهارون أنفسهما، وقيل: بل المراد أنبياء بني إسرائيل من بعدهما، والأول أقوى، ومثله في آل عمران رقم [٣٣].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً...﴾ إلخ: أي: في إتيان التابوت لعلامة واضحة على تمليك طالوت عليكم.

وهذا يحتمل أن يكون من تمام كلام النبي، وأن يكون ابتداء خطاب من الله تعالى.

فحملته الملائكة بين السماء والأرض، وهم ينظرون إليه حتى وضعته عند طالوت، فأقروا بملكه، وتسارعوا إلى الجهاد معه، فاختار من شبابهم سبعين ألفاً، وكان من جملتهم داود النبي قبل منحه النبوة، والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

الإعراب: (قال): فعل ماض. ﴿لَهُمۡ﴾: متعلِّقان به. ﴿نَبِيُّهُمۡ﴾: فاعله، والهاء في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها. ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ءَايَةَ﴾: اسمها، وهو مضاف، و﴿مُلۡكِهِۦٓ﴾: مضاف إليه، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿يَأۡتِيَكُمُ﴾: فعل مضارع منصوب بـ ﴿أَن﴾ والكاف مفعول به. ﴿ٱلتَّابُوتُ﴾: فاعله، واكتفى بمفعول واحد؛ لأنه بمعنى: يجيئكم، و﴿أَن﴾ والفعل المضارع في تأويل مصدر في محل رفع خبر ﴿إِنَّ﴾، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول، ﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم، ﴿سَكِينَةٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل نصب حال من ﴿ٱلتَّابُوتُ﴾. ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾: متعلقان بمحذوف صفة ﴿سَكِينَةٌ﴾، والكاف في محل جر بالإضافة من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. (بقية): معطوف على ﴿سَكِينَةٌ﴾. ﴿مِّمَّا﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة (بقية)، و(ما) تحتمل الموصولة، والموصوفة. ﴿تَرَكَ ءَالُ﴾: ماض وفاعله، و﴿ءَالُ﴾: مضاف، و﴿مُوسَىٰ﴾: مضاف إليه مجرور، وعلامة جره كسرة مقدرة على الألف للتعذر، والجملة الفعلية صلة (ما) أو صفتها، والعائد أو الرابط محذوف التقدير: مِنَ الذي، أو: مِنْ شيءٍ تركه آل موسى. ﴿ءَالُ﴾: معطوف على ما قبله، وهو مضاف، و﴿هَٰرُونَ﴾: مضاف إليه مجرور، وعلامة جره الفتحة نيابة عن الكسرة؛ لأنه ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة. ﴿تَحۡمِلُهُ﴾: فعل مضارع، والهاء مفعول به، ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾: فاعله، والجملة الفعلية في محل نصب حال ثانية من ﴿ٱلتَّابُوتُ﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر ﴿إِنَّ﴾ مقدم، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب لا محل له. ﴿لَآيَةً﴾: اللام: لام الابتداء، (آية): اسم ﴿إِنَّ﴾ مؤخر. ﴿لَّكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة (آية). والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها.

﴿إِن﴾: حرف شرط جازم. ﴿كُنتُم﴾: فعل ماض ناقص مبني على السكون في محل جزم فعل الشرط. والتاء اسمه. ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾: خبره منصوب وعلامة نصبه الياء... إلخ، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها ابتدائية، ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفي، وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه، التقدير: إن كنتم مؤمنين؛ فإن في ذلك... إلخ، والجملة الشرطية في محل نصب مقول القول.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩)﴾

الشرح: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ﴾: خرج من بلده بالشَّباب الَّذين اختارهم لقتال العمالقة، وكان الوقت قيظاً، فسلكوا مفازةً، وسألوا الله أن يجري لهم نهراً. ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم﴾: مختبركم. ﴿بِنَهَرٍ﴾: ليظهر منكم المطيع والعاصي، وهذا النهر ممتد بين فلسطين والأردن، ويسمَّى نهر الشريعة، ويقرأ بفتح الهاء، وسكونها، ويجمع على أَنْهُر، ونُهُر، ونهور.

﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ أي: مَنْ شرب من النهر فليس من أشياعي، وأتباعي. ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾: ومن لم يذقه؛ فإنه منِّي، أي: من أشياعي، وأتباعي، وإنَّما علم ذلك بالوحي إن كان نبياً، كما قيل، أو بإخبار النبيِّ شمويل، ولم يقل: ومن لم يشربه؛ لأنَّه من عادة العرب إذا كرروا شيئاً أن يكرِّروه بلفظ آخر، ولغة القرآن أفصح اللُّغات، فلا عبرة بقدح من يقول: لا يقال: طعمت الماء. هذا وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ رسول الله ﷺ، قال: «**مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلاحَ فَلَيْسَ مِنَّا، وَمَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا**». هذا وقال النابغة الذبياني يخاطب به عيينة بن حصن الفزاري: [الوافر]

إِذَا حَاوَلْتَ فِي أَسَدٍ فُجُوراً فَإِنِّي لَسْتُ مِنْكَ وَلَسْتَ مِنِّي

﴿إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ أي: اكتفى بِغُرفةٍ، وهذه الغرفة كفته، فلم يعطش بعدها، بخلاف الذي شرب كثيراً فإنه لم يرو. ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ أي: شرب أكثرهم كثيراً،

واكتفى القليل بغرفة. هذا؛ والاغتراف: الأخذ من الشيء باليد، وبآلة، ومنه الغرفة، ﴿غُرْفَةًۢ﴾: بضم الغين وفتحها قراءتان ولغتان، ورحم الله عمرو بن العلاء الذي كان يطلب دليلاً لغويّاً على قراءة الفتح، فوجده في قول أمية بن أبي الصَّلت، وهو الشاهد رقم [٥٥٣] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»: [الخفيف]

رُبَّمَا تَكْرَهُ النُّفوسُ مِنَ الأَمْـ ـرِ لَهُ فَرْجَةٌ كَحَلِّ الْعِقَالِ

بفتح فاء (فرجة) فقد روي: أنه ـ رحمه الله تعالى ـ هرب من الحجَّاج إلى اليمن، فسمع أعرابيّاً يوماً ينشد القصيدة التي منها هذا البيت، وقد فتح فاء (فَرْجَةً) فقال: ما وراءك يا أعرابي؟! قال: مات الحجَّاج، فقال ـ رحمه الله تعالى ـ: والله فلم أدر بأيهما أفرح؟ أبموت الحجَّاج أم بقوله (فَرْجَةً)؛ لأنِّي كنت أطلب شاهداً لاختياري القراءة في سورة البقرة: ﴿إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾ يريد فتح الغين مِنْ (غَرْفَة). كما فتحت الفاء في (فَرْجَة)، هذا، وقال عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ: الأكف أنظف الآنية، ومنه قول الحسن: [البسيط]

لَا يُدْلِفُونَ إِلَى مَاءٍ بِآنِيَةٍ إِلَّا اغْتِرافاً مِنَ الْغُدْرَانِ بِالرَّاحِ

وقال الرسول ﷺ: «**مَنْ شَرِبَ بِيَدِهِ، وَهُوَ يقدر عَلَى إِنَاءٍ، يُرِيدُ بِهِ التَّوَاضُعَ، كَتَبَ اللهُ لَهُ بِعَدَدِ أَصَابِعِهِ حَسَنَاتٍ، وهما إِنَاءُ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عليهما السَّلام؛ إِذْ طَرَحَ القَدَحَ، فَقَالَ: أُفٍّ هَذَا مع الدُّنْيَا**» أخرجه ابن ماجه، من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ أي: قطع النهر هو والذين اقتصروا على الغرفة. ﴿قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا...﴾ إلخ: لا قدرة لنا اليوم بجالوت وجنوده، فلم يقطعوا النهر معه، واسودت شفاههم، وغلبهم العطش، فلم يرووا، وجبنوا. ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ﴾: قال الذين شربوا قليلاً، وجاوزوا معه النهر، وامتلأت قلوبهم إيماناً، ويقيناً، وصرامةً، وشجاعةً؛ ﴿كَم مِّن فِئَةٍ...﴾ إلخ: كثير من الجماعات القليلة قد غلبت الكثيرة بإرادة الله ومشيئته، فليس النصر عن كثرة العدد، وإنَّما النَّصر من عند الله العزيز الحكيم، وفي قولهم هذا ـ رضوان الله عليهم ـ تحريض على القتال، واستشعارٌ للصبر، واقتداء بمن صدق ربَّه، ووثق به.

قال القرطبيُّ ـ رحمه الله تعالى ـ: هكذا يجب علينا نحن أن نفعل، لكن الأعمال القبيحة، والنيات الفاسدة منعت من ذلك حتى ينكسر العدد الكبير منا قدَّام اليسير من العدو، كما شاهدناه غير مرَّة، وذلك بما كسبت أيدينا، وقد قال الرسول ﷺ: «**هل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم؟!**» فالأعمال فاسدة، والضُّعفاء مهملون، والصَّبر قليل، والاعتماد ضعيف، والتقوى زائلة، قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ وقال: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ

ﵟٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓﵞ، وقال جلَّ ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الأنفال) رقم [٤٥]. فهذه أسباب النصر وشروطه، وهي غير موجودة فينا، فإنا لله، وإنا إليه راجعون على ما أصابنا، وحلَّ بنا، ولم يبق من الإسلام إلا اسمه، ولا من القرآن إلا رَسْمُهُ؛ لظهور الفساد، ولكثرة الطُّغيان، وقلَّة الرشاد، حتَّى استولى العدوُّ شرقاً وغرباً، برّاً، وبحراً، وعمَّت الفتن، وعظمت المِحَن، ولا عاصم إلا مَنْ رحم الله.

﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي: بالمعونة، أو الهداية، والتوفيق، والرعاية، والسَّداد، هذا، ومعية الله على نوعين: عامَّة، وخاصة، فالأولى لكل الناس، وهي معيَّة بالعلم، والقدرة، والإحاطة. والثانية للمؤمنين المتَّقين، والمحسنين، وهي الحفظ، والنصر، والتأييد، والمعونة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾، وقال جل ذكره: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

الإعراب: ﴿فَلَمَّا﴾: الفاء: حرف استئناف. (لمَّا): انظر الآية رقم [٢٤٦]. ﴿فَصَلَ طَالُوتُ﴾ ماض وفاعله، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة (لمَّا) إليها على اعتبار (لمَّا) ظرفاً.

﴿بِٱلْجُنُودِ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، والفاعل تقديره: هو، يعود إلى ﴿طَالُوتُ﴾. ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل، ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها، ﴿مُبْتَلِيكُم﴾: خبر. ﴿إِنَّ﴾ مرفوع، وعلامة رفعه ضمَّة مقدرة على الياء للثقل، والكاف في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله ضمير مستتر فيه يعود إلى ﴿ٱللَّهَ﴾. ﴿بِنَهَرٍ﴾: متعلقان باسم الفاعل، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول، جملة: ﴿قَالَ...﴾ إلخ جواب (لمَّا) لا محل لها، و(لما) ومدخولها كلام مستأنف لا محلَّ له.

﴿فَمَن﴾: الفاء: حرف تفريع، (من): اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ.

﴿شَرِبَ﴾: فعل ماض مبني على الفتح في محل جزم فعل الشرط، والفاعل يعود إلى (مَنْ) تقديره: هو. ﴿مِنْهُ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، وهما في الأصل صفة لمفعول به محذوف، التقدير: شرب ماءً منه. الفاء: واقعة في جواب الشَّرط. (ليس): فعل ماض ناقص، واسمه مستتر يعود إلى (من) أيضاً. ﴿مِنِّي﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر (ليس) والجملة في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور، والدُّسوقي يقول: لا محلَّ لها؛ لأنها لم تحل محل المفرد، وخبر المبتدأ الذي هو (مَنْ) مختلف فيه، فقيل: جملة الشرط، وقيل: جملة الجواب، وقيل: الجملتان، وهو المرجَّح لدى المعاصرين. هذا؛ وإن اعتبرت (مَنْ) اسماً موصولاً فهي مبتدأ، وجملة: ﴿شَرِبَ مِنْهُ﴾ صلته، وجملة: (ليس مني) في محل رفع خبره، ودخلت الفاء على الخبر؛ لأن الموصول يشبه الشرط في العموم، والجملة اسمية على الاعتبارين، وهي في محل نصب مقول القول أيضاً، ولا يخفى عليك إعراب ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ﴾ إفراداً، وجملةً، وهي معطوفة عليها فمحلُّها مثلها.

﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿مَنِ﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل نصب مستثنىً من (مَنْ) الأولى، وهو قول ابن هشام في «المغني». ﴿ٱغۡتَرَفَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى ﴿مَنِ﴾، تقديره: هو. ﴿غُرۡفَةَۢ﴾: مفعول مطلق، وقيل: مفعول به، والأول على قراءته بفتح الغين، والثاني على قراءته بضم الغين، قاله ابن هشام في «المغني». ﴿بِيَدِهِۦۚ﴾: متعلقان بـ (غرفة)، أو بمحذوف صفة لها، وجوز تعليقهما بالفعل قبلهما، وجملة ﴿ٱغۡتَرَفَ...﴾ إلخ صلة الموصول، لا محلَّ لها، وجملة: ﴿فَشَرِبُواْ مِنۡهُ﴾ معطوفة على ما قبلها، لا محلَّ لها مثلها. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿قَلِيلٗا﴾ مستثنىً بـ (إلا). ﴿مِّنۡهُمۡۚ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ ﴿قَلِيلٗا﴾، ﴿فَلَمَّا﴾: الفاء: حرف استئناف. (لمَّا): مثل ما قبلها. ﴿جَاوَزَهُۥ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى ﴿طَالُوتُ﴾ والهاء مفعول به. ﴿هُوَ﴾: ضمير منفصل مبني على الفتح في محل رفع توكيد للضمير المستتر. (الذين): اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع معطوف على الضمير المستتر. ﴿ءَامَنُواْ﴾: فعل ماض، وفاعله، والجملة الفعلية صلة الموصول لا محل لها. ﴿مَعَهُۥ﴾: ظرف مكان متعلق بالفعل قبله، والهاء في محل جر بالإضافة، وجملة ﴿جَاوَزَهُۥ...﴾ إلخ في محل جر بإضافة (لمَّا) إليها... إلخ. ﴿قَالُواْ﴾: ماض وفاعله، والألف للتفريق. ﴿لَا﴾: نافية للجنس تعمل عمل «إنَّ». ﴿طَاقَةَ﴾: اسم ﴿لَا﴾ مبني على الفتح في محل نصب. ﴿لَنَا﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر (لا). ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾: ظرف زمان متعلّق بالخبر المحذوف، أو بمحذوف خبر ثان. ﴿بِجَالُوتَ﴾ متعلِّقان بالخبر المحذوف، أو بخبر ثالث، فيكون الخبر قد تعدَّد، وهو شبه جملة، وعلامة الجر الفتحة نيابةً عن الكسرة؛ لأنه ممنوع من الصَّرف للعلمية والعجمة، ﴿وَجُنُودِهِۦۚ﴾: معطوف على ما قبله، والهاء في محل جر بالإضافة، وجملة: ﴿لَا طَاقَةَ...﴾ إلخ في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قَالُواْ...﴾ إلخ جواب (لمَّا) لا محل لها، و(لمَّا) ومدخولها كلام مستأنف لا محل له.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ﴾: ماض وفاعله. ﴿يَظُنُّونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها. ﴿أَنَّهُم﴾: حرف مشبه بالفعل، والهاء اسمها، والميم في الجميع حرف دال على جماعة الذكور. ﴿مُّلَٰقُواْ﴾: خبر (أنَّ) مرفوع، وعلامة رفعه الواو؛ لأنه جمع مذكر سالم، وحذفت النون للإضافة، وهو مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾: مضاف إليه، مِنْ إضافة اسم الفاعل لمفعوله. وفاعله مستتر فيه، و (أنَّ) واسمها، وخبرها في تأويل مصدر في محل نصب سدَّ مسدَّ مفعولي ﴿يَظُنُّونَ﴾، ﴿كَم﴾: خبرية بمعنى كثير، مبنية على السكون في محل رفع مبتدأ. وجوَّز البيضاوي اعتبارها استفهامية. ﴿مِّن﴾: حرف جر صلة، ﴿فِئَةٍ﴾: تمييز لـ: ﴿كَم﴾ منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على آخره، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد. ﴿قَلِيلَةٍ﴾: صفة ﴿فِئَةٍ﴾ على اللَّفظ. ﴿غَلَبَتۡ﴾: فعل ماض، والتاء

للتأنيث، والفاعل يعود إلى ﴿فِئَةٍ﴾، والجملة الفعلية في محل رفع خبر ﴿كَم﴾، والجملة الاسمية ﴿كَم...﴾ إلخ في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قَالَ...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها. ﴿فِئَةٍ﴾: مفعول به. ﴿كَثِيرَةً﴾: صفة ﴿فِئَةٍ﴾. ﴿بِإِذْنِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، وقيل: متعلقان بمحذوف حال، والأول أولى. ﴿وَٱللَّهُ﴾: الواو: حرف استئناف. (الله): مبتدأ. ﴿مَعَ﴾: ظرف مكان متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ، و﴿مَعَ﴾ مضاف، و﴿ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾: مضاف إليه، والجملة الاسمية مستأنفة إن كانت من كلام الله تعالى أخبر بها عن حال ﴿ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾، ومعطوفة على ما قبلها إن كانت من مقول (الذين آمنوا).

﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾﴾

الشرح: ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ﴾: ظهروا، ودَنَوا منهم، ومنه سمِّيت المبارزة في الحرب لظهور كلِّ قرنٍ إلى صاحبه. (جالوت): اسم ملك العمالقة، ويقال: إنَّ البربر من نسله. ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾: اصبب علينا، فيه استعارة تمثيلية، حيث شبَّه حالهم، والله تعالى يفيض عليهم، ويتكرَّم بالصَّبر بحال الماء يُصب، ويفرغ على الجسم، فيعمُّه كلَّه، ظاهره، وباطنه، فيلقي في القلب برداً، وسلاماً، وهدوءاً، واطمئناناً. هذا؛ وقد دعا أولئك القوم بثلاث دعوات، تفيد أسباب النَّصر، فقالوا: أولاً: ربنا أفض علينا صبراً يعمُّنا في جمعنا، وفي خاصَّة نفوسنا لنقوى على قتال أعدائك. ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ أي: ثبتنا في ميدان الحرب، ولا تجعل للفرار سبيلاً إلى قلوبنا. وهي الدَّعوة الثانية. ﴿وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ أي: انصرنا على مَنْ كفر بك، وكذَّب رسلَك، وهي الدعوة الثالثة.

وكان الرسول ﷺ إذا لقي العدو يقول: «**اللهم بك أصول، وأجول**». ويقول أيضاً عند لقاء الأعداء: «**اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شُرُورِهِمْ، وَأَجْعَلُكُ فِي نُحُورِهِمْ**».

الإعراب: ﴿وَلَمَّا﴾ الواو: حرف عطف. (لمَّا): انظر مثلها فيما تقدَّم. ﴿بَرَزُواْ﴾: فعل ماض وفاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية في محل جرٍّ بإضافة (لمَّا) إليها على اعتبارها ظرفاً، ولا محلَّ لها على اعتبار (لمَّا) حرفاً. ﴿لِجَالُوتَ﴾: متعلِّقان بالفعل قبلهما. وقيل: متعلقان بمحذوف حال من واو الجماعة، وهو ضعيف. وعلامة الجر الفتحة نيابة عن الكسرة؛ لأنه ممنوع من الصَّرف للعلمية، والعجمة. ﴿وَجُنُودِهِۦ﴾: معطوف عليه، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿قَالُواْ﴾: ماض، وفاعله. ﴿رَبَّنَآ﴾: منادى حذف منه أداة النداء، و(نا): في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿أَفْرِغْ﴾: فعل دعاء، وفاعله مستتر، تقديره: أنت. ﴿عَلَيْنَا﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿صَبْرًا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في

محلِّ نصب مقول القول، وجملة: ﴿قَالُوا...﴾ إلخ جواب (لمَّا) لا محل لها، و(لمَّا) ومدخولها معطوف على ما قبله. (ثبِّتْ): فعل دعاء، وفاعله تقديره: أنت. والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها. ﴿أَقْدَامَنَا﴾: مفعول به، و(نا) في محل جر بالإضافة. (انصرنا): فعل دعاء. وفاعله مستتر فيه، و(نا) مفعول به، والجملة معطوفة على ما قبلها. ﴿عَلَى الْقَوْمِ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿الْكَافِرِينَ﴾: صفة ﴿الْقَوْمِ﴾ مجرور مثله... إلخ.

﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١)﴾

الشرح: ﴿فَهَزَمُوهُم﴾: غلب جيش طالوت جيش العمالقة، وانتصروا عليهم بأمر الله تعالى وإرادته، ومعونته. ﴿دَاوُودُ﴾ ابن إيشا، وكان من سبط يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، على نبينا وعليهم ألف صلاة وألف سلام. وهو من أهل بيت المقدس، وكان إيشا أبو داود في عسكر طالوت مع ستَّةٍ من بنيه، وكان داود سابعهم، وهو صغير يرعى الغنم، فأوحى الله إلى شمويل أنَّ داود بن إيشا هو الذي يقتل جالوت، فطلبه من أبيه، فجاء وقد مرَّ في طريقه بثلاثة أحجار، دعاه كلٌّ واحد منها أن يحمله، وقالت له: إنَّك تقتل بنا جالوت، فحملها في مخلاته، ورمى بها جالوت، فقتله، وزوَّجه طالوت ابنته، وروي: أنَّه حسده، وأراد قتله، ثمَّ تاب. ﴿جَالُوتَ﴾: هو جبار العمالقة، مِنْ أولاد عمليق بن عاد، وكانت بيضتُه فيها ثلاثمئة رطل.

﴿وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ﴾ أي: جمع الله لداود الملك بعد طالوت والنبوة بعد شمويل، ولم يجتمعا لغير داود، وابنه سليمان، على نبينا، وعليهما ألف صلاة، وألف سلام. ﴿وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾: من صنعة الدُّروع، وكلام الطَّير، والدَّواب وغير ذلك، وقد دام ملك طالوت أربعين سنة، وكانت مدَّة ملك داود بعد طالوت سبع سنين، وقد ألان الله لداود الحديد حتَّى صار في يده كالعجين، كما ذكر الله في سورة (سبأ) كما علَّمه الله فهم منطق الطير، والبهائم على جميع أشكالها، وأصنافها، وسخَّر له الجبال يُسَبِّحن معه بالعشي والإشراق. ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ...﴾ إلخ: في هذا الكلام تأويلات، وتفسيرات، خذها فيما يلي:

الأول: عام، وهو: أنَّ الله يدفع الناس بتولية بعضهم البعض الآخر؛ أي: يجعل البعض حكاماً، والبعض الآخر محكومين، فالحاكم ينصف المظلوم من الظَّالم، ويكبح جماح الأشرار، والمعتدين، ويعطي لكلِّ ذي حقٍّ حقَّه، وهذا ما نراه في الحكومات القائمة في كلِّ زمانٍ، ومكان، ولا سيَّما في الحكومات الديمقراطية الَّتي لا تَسَلُّط للفرد فيها على الجماعة؛ حتى ولو كانت كافرةً، وهو كثيرٌ، ومشاهدٌ في زمننا هذا.

الثاني: وهو معزيٌّ لابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، وهو أنَّ الله تعالى يدفع المشركين بجنود المسلمين. ولولا وجود مسلمين مجاهدين؛ لغلب المشركون على الأرض، فقتلوا المؤمنين، وخرَّبوا المساجد والبلاد، وأهلكوا العباد، ونشروا في الأرض الفساد، وهذا أيضاً كثيرٌ ومشاهد في زمننا هذا وفي الأزمان الغابرة، وهو كقوله تعالى في سورة (الحج): ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾.

الثالث: وهو خاصٌّ، وهو معنويٌّ غير مشاهد، ولا محسوس، وهو: أنَّ الله يدفع بالمؤمنين، والأبرار البلاء عن الفُسَّاق، والفجَّار. ومعنى ﴿لَفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾: لهلك من فيها بنزول البلاء عاجلاً. روى الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله تعالى ـ عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَيَدْفَعُ بِالْمُسْلِمِ الصَّالِحِ عَنْ مِئَةِ أَهْلِ بَيْتٍ مِنْ جِيرانِهِ الْبَلَاءَ**»، ثمَّ قرأ الآية الكريمة التي نحن بصدد شرحها، وروي عن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ للهِ ملائكةً تُنَادِي كُلَّ يَوْمٍ: لَوْلَا عِبَادٌ رُكَّعٌ، وَأَطْفَالٌ رُضَّعٌ، وَبَهَائِمُ رُتَّعٌ؛ لَصُبَّ عليكم الْعَذَابُ صَبّاً**» أخذ بعضهم المعنى، فقال: [الرجز]

لَوْلَا عِبَادٌ لِلإِلٰهِ رُكَّعُ ... وَصِبْيَةٌ مِنَ الْيَتَامَى رُضَّعُ
وَمُهْمَلَاتٌ فِي الْفَلَاةِ رُتَّعُ ... صُبَّ عَلَيْكُمُ الْعَذَابُ الأَوْجَعُ

هذا، وقال القرطبيُّ ـ رحمه الله تعالى ـ: واختلف العلماء في الناس المدفوع بهم الفساد مَنْ هم؟ فقيل: هم الأبدال، وهم أربعون رجلاً كلَّما مات واحد بدَّل الله آخر، فإذا كان عند القيامة ماتوا كلهم، اثنان وعشرون منهم بالشام وثمانية عشر بالعراق، وروي عن عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّ الأَبْدَالَ يَكُونُونَ بالشَّامِ، وَهُمْ أَرْبَعُونَ رَجُلاً، كُلَّمَا مَاتَ مِنْهُمْ رَجُلٌ، أَبْدَلَ اللهُ مَكَانَهُ رَجُلاً، يُسْقَى بِهِمُ الْغَيْث، وَيُنْصَرُ بِهِمْ عَلَى الأَعْدَاءِ، وَيُصْرَفُ بِهِمْ عَنْ أَهْلِ الأَرْضِ الْبَلَاءُ**». ذكره التِّرمذي الحكيم في نوادر الأصول.

وخرج أيضاً عن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ، قال: إنَّ الأنبياءَ كانوا أوتاداً للأرض، فلمَّا انقطعت النُّبوَّةُ؛ أبدلَ اللهُ مكانهم قوماً من أمَّة محمد ﷺ، يقال لهم: الأبدالُ، لم يفضلوا الناس بكثرة صوم، ولا صلاةٍ، ولكن بحسن الخلُق، وصِدْقِ الوَرَع، وحسن النِّيَّة، وسلامة القلوب لجميع المسلمين، والنَّصيحة لهم، ابتغاء مرضاة الله، بصبرٍ، وحلمٍ، ولبٍّ، وتواضعٍ في غير مذلَّةٍ، فهم خلفاء الأنبياء، قومٌ اصطفاهم الله لنفسه، واستخلصهم بعلمه لنفسه، وهم أربعون صدِّيقاً، منهم ثلاثون رجلاً على مثل يقين إبراهيم، خليل الرَّحمن، يدفع الله بهم المكاره عن أهل الأرض، والبلايا عن النَّاس، وبهم يُمطرون. وبهم يُرزقون، ولا يموت الرجل منهم حتَّى يكون قد أنشأ مَنْ يخلُفه. انتهى. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿فَهَزَمُوهُم﴾: الفاء: حرف عطف. (هزموهم): فعل ماض، وفاعله، ومفعوله. ﴿بِإِذْنِ﴾: متعلقان بما قبلهما، وقيل: متعلقان بمحذوف حال من واو الجماعة، و(إذن) مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾ مضاف إليه، من إضافة المصدر لفاعله، والجملة الفعلية معطوفة على الجملة الواقعة جواباً لـ: (لمَّا) في الآية قبل السابقة، لا محل لها مثلها. ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾: ماض، وفاعله، ومفعوله، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محلَّ لها أيضاً، ﴿وَءَاتَىٰهُ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف للتعذر، والهاء مفعول به أول، ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله، ﴿ٱلْمُلْكَ﴾: مفعول به ثان، ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾: معطوف على ما قبله، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها أيضاً. ﴿وَعَلَّمَهُۥ﴾: فعل ماض ومفعوله، والفاعل يعود إلى ﴿ٱللَّهِ﴾، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، ﴿مِمَّا﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، وهما في محل نصب مفعوله الثاني، و(ما) تحتمل الموصولة والموصوفة. ﴿يَشَآءُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى ﴿ٱللَّهِ﴾ أيضاً، والجملة الفعلية صلة (ما) أو صفتها، والعائد أو الرابط محذوف، التقدير: مِنَ الذي، أو: مِنْ شيءٍ يشاؤه.

﴿وَلَوْلَا﴾: الواو: حرف استئناف. (لولا): حرف امتناع لوجود. ﴿دَفْعُ﴾: مبتدأ، وهو مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾ مضاف إليه، مِنْ إضافة المصدر لفاعله. ﴿ٱلنَّاسَ﴾: مفعول به للمصدر، ﴿بَعْضَهُم﴾: بدل من الناس بدل بعض من كل، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿بِبَعْضٍ﴾: متعلقان بالمصدر ﴿دَفْعُ﴾ على أنهما مفعوله الثاني، أفاده أبو البقاء، وخبر المبتدأ محذوف، تقديره: موجود، والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها. ﴿لَّفَسَدَتِ﴾: اللام: واقعة في جواب (لولا)، (فسدت): فعل ماض، والتاء للتأنيث. ﴿ٱلْأَرْضُ﴾: فاعله، والجملة الفعلية جواب (لولا) لا محلَّ لها، و(لولا) ومدخولها كلام مستأنف لا محلَّ له. ﴿وَلَٰكِنَّ﴾: الواو: حرف عطف، (لكن): حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿ذُو﴾: خبرها مرفوع، وعلامة رفعه الواو نيابة عن الضمة؛ لأنه من الأسماء الخمسة، و﴿ذُو﴾ مضاف، و﴿فَضْلٍ﴾ مضاف إليه. ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: متعلقان بمحذوف صفة ﴿فَضْلٍ﴾، وعلامة الجر الياء نيابة عن الكسرة؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم، والنون عوض عن التنوين في الاسم المفرد، والجملة الاسمية: ﴿وَلَٰكِنَّ...﴾ إلخ معطوفة على (لولا) ومدخولها، لا محلَّ لها مثله.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾

الشرح: ﴿تِلْكَ...﴾ إلخ: الإشارة إلى ما تقدَّم ذكره من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا﴾ إلى هنا، والمعنى: إنَّ ما قصصنا عليك يا محمد من الأمور الغريبة، والقصص العجيبة، الَّتي وقعت في بني إسرائيل، هي من آيات الله، وأخباره المغيبة، التي أوحاها إليك

بالحق بواسطة جبريل الأمين. ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾: في هذه الجملة ثلاثة مؤكّدات: واو الحال، وإنَّ، ولام الابتداء، تؤكّد للرّسول ﷺ: أنَّه من جملة المرسلين، والدَّليل هو إخباره الناس بهذه القصص القديمة من غير أن يعرفها بقراءة كتب، ولا استماع أخبار من إذاعات، وغيرها، ومن غير أن يدرس في الجامعات، ويحمل الإجازات والدكتورات.

الإعراب: ﴿تِلْكَ﴾: اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب لا محل له. ﴿ءَايَٰتُ﴾: خبر المبتدأ، و﴿ءَايَٰتُ﴾: مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾: مضاف إليه، ﴿نَتْلُوهَا﴾: فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ضمة مقدَّرة على الواو للثقل، والفاعل ضمير مستتر تقديره: نحن، و(ها): مفعول به، والجملة الفعلية في محل نصب حال من ﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ والعامل في الحال اسم الإشارة لما فيها من معنى الفعل، والرابط: الضمير فقط. هذا؛ وأجيز اعتبار ﴿ءَايَٰتُ﴾ بدلاً من اسم الإشارة، واعتبار الجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والأول أقوى؛ لأنَّ إبدال الاسم من اسم الإشارة يجب أن يكون مقروناً بأل كما هو معروف، ويؤيد الوجه الأول قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا﴾، ﴿وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا﴾. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: متعلقان بمحذوف حال من الفاعل، أو من المفعول، وهذا يعني: أنها حال متداخلة. ﴿وَإِنَّكَ﴾: الواو: واو الحال. (إنك): حرف مشبه بالفعل، والكاف اسمه. ﴿لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾: اللام: لام الابتداء زحلقت إلى الخبر كراهة توالي مؤكّدين. هذا؛ وإنَّ (من المرسلين) متعلقان بمحذوف خبر إن وعلامة الجر الياء... إلخ، والجملة الاسمية في محل نصب حال من الكاف في ﴿عَلَيْكَ﴾ والرابط الواو والضمير، وهذا يعني: أنَّها حال متكررة.

الجزء ٣ ﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾

الشرح: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ﴾: لم يقل: «ذلك» مراعاةً لتأنيث لفظ الجماعة. ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: خصصنا بمنقبةٍ ليست لغيره. ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ أي: كلمه الله بغير واسطة كموسى؛ حيث كلّمه ربه على جبل الطور، وكمحمد ﷺ حين كلَّمه ربُّه في ليلة الإسراء، والمعراج، وهذا تفصيل للتفضيل، ويسمى في البلاغة التقسيم. ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾: المراد به سيِّد الخلق، وحبيب الحق، نبينا المعظم ﷺ؛ حيث رفعه درجات على غيره، بعموم الدَّعوة، وختم النبوة، وتفضيل أمته على سائر الأمم، والمعجزات الكثيرة، التي من أهمِّها القرآن الكريم

المعجزة الخالدة، ولم يصرِّح باسمه الكريم لتفخيم شأنه، كأنه العَلَمُ المتعيِّن لهذا الوصف، المستغني عن التعيين، ولا تنس ما في الآية من الالتفات الذي أذكره، وخذ ما يلي: فعن أبي هريرة - رضي الله عنه -، قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا مِنْ نَبيٍّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ إِلَّا وَقَدْ أُعْطِيَ مِنَ الآيَاتِ، مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذي أُوتيتهُ وحياً أَوحَاهُ اللهُ إِلَيَّ، فأَرْجُوْ أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعاً يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» متَّفق عليه.

وعن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما -، قال: قال رسول الله ﷺ: «**أُعْطِيتُ خَمْساً لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لي الأَرْضُ مَسْجِداً وَطَهُوراً، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاةُ، فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ، وَلَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً**». متَّفق عليه.

﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: الحجج الدَّامغات، والمعجزات الباهرات، وهي: إبراء الأكمه، والأبرص، وإحياء الميِّت، وغير ذلك ممَّا ذكر في آل عمران، وسورة المائدة.

﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾: قوَّيناه بجبريل عليه السلام، رواه أبو مالك، وأبو صلاح عن ابن عباس - رضي الله عنهما -، ومعمر بن قتادة، وقال حسَّان - رضي الله عنه -: [الوافر]

وَجِبْرِيلٌ رسُولُ اللهِ فِينَا ... وَرُوحُ الْقُدْسِ لَيْسَ بِهِ خَفَاءُ

قال الحسن البصري - رحمه الله تعالى -: إنَّما سمِّي جبريل: روح القُدُس؛ لأنَّ القدس هو الله، وروحه جبريل، فالإضافة للتشريف، وقال الرَّازي - رحمه الله تعالى -: وما يدلُّ على أنَّ روح القدس جبريل، قوله تعالى في سورة (النَّحل): ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ وقال النَّحاس - رحمه الله تعالى -: سمِّي جبريل روحاً، وأضيف إلى القُدُس؛ لأنه كان بتكوين الله عزَّ وجلَّ له روحاً من غير ولادة والد ولده، وكذلك سمِّي عيسى روحاً لهذا. هذا؛ والقدس: الطُّهر، وعيسى مأخوذ من العَيْس، وهو بياض يخالطه شقرةٌ، قاله أبو البقاء، أما مريم فهي بالعبرية بمعنى الخادم، ثمَّ سمِّي به كثير من النِّساء، ومريم في لسان العرب هي الَّتي تكره مخالطة الرِّجال، ولم تذكر امرأة باسمها صريحاً في القرآن الكريم إلا مريم ابنة عمران، وقد ذكرت فيه في ثلاثين موضعاً. هذا؛ وفي القاموس المحيط: المريم هي التي تحبُّ مخالطة الرجال، ولا تَفْجُر، وهذا يناقض ما قبله، قال الشاعر: [الطويل]

وَزَائِرةٍ لَيْلاً كَمَا لاحَ بَارِقٌ ... تَضَوَّعَ مِنْهَا لِلْكِسَاءِ عَبِيرُ

فَقُلْتُ لَهَا أَهْلاً وسَهْلاً أَمَرْيَمٌ؟ ... فَقَالَتْ: نَعَمْ مَنْ أَنْتَ؟ قُلْتُ لَهَا: زِيرُ

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم﴾: المراد به ما وقع ويقع بين أتباع الرُّسل من الاختلافات، والمنازعات التي تؤدِّي في كثير من الأحيان إلى الحروب الطَّاحنة، وبيَّن ربنا جلَّت

قدرتُه، وتعالت حكمته: أن ما يقع إنَّما هو بمشيئته، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾، ﴿لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾. ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ﴾: بالله، ورسله، وكتبه، وملائكته، ﴿وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ أي: بعد نبيه حيث ترك تعاليمه، وخالف أمره، كما فعل اليهود، والنصارى بعد موسى، وعيسى، وغيرهما، وكما فعل كثير من المسلمين، ويفعلون.

وفي قوله: ﴿فَمِنْهُم﴾ تفصيل للاختلاف، مثل سابقه، وبين ﴿ءَامَنَ﴾ و﴿كَفَرَ﴾ طباق. ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾: كرره للتأكيد، أي: لو شاء الله ألا يقتتلوا؛ لم يقتتلوا؛ إذ لا يجري في ملكه إلا ما يوافق مشيئته، وهذا يبطل قول المعتزلة، فإنَّهم يقولون: شاء أن لا يقتتلوا، فاقتتلوا، وقد صفع ابنُ المنير الزَّمخشريَّ صفعة لطيفة على حيله، وتحيله. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾: أثبت الله لنفسه الإرادة، كما هو مذهب أهل السنة، يعني: أنَّ الله تعالى يوفق من يشاء لطاعته والإيمان به فضلاً منه، ورحمةً، ويَخْذُل مَنْ يشاء عدلاً منه، لا اعتراض عليه في ملكه، وفعله.

سأل رجل عليّاً ـ رضي الله عنه ـ عن القدر، فقال: طريقٌ مظلم، فلا تسلكه، فأعاد السؤال، فقال: بحرٌ عميق، فلا تلجه، فأعاد السؤال، فقال: سرٌّ الله قد خفي عليك، فلا تفتشه.

تنبيه: أثبتت الآية الكريمة التفاضل بين الرُّسل، كما أثبته الله في سورة (الإسراء) بقوله: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾، وهذا مشكل، والأحاديث الثابتة بأنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**لا تُخَيِّرُوا بَيْنَ الأَنْبِيَاءِ**» و«**لا تُفَضِّلُوا بَيْنَ أَنبياءِ اللهِ**». رواه الشَّيخان عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ بلفظ: استبَّ رجلٌ من المسلمين، ورجلٌ من اليهود، فقال اليهوديُّ: لا والذي اصطفى موسى على العالمين، فلطم المسلم بيده وجه اليهودي... إلخ، وفي ذلك أجوبة:

الأول: أن هذا كان قبل أن يوحى إليه بالتَّفضيل.

القول الثاني: أن الرسول ﷺ بين أنه سيد ولد آدم، وأنَّ القرآن ناسخٌ للمنع من التفضيل.

القول الثالث: أنَّ الرسول ﷺ أراد بقوله: «**لا تُخَيِّرونِي عَلَى موسَى**» وقوله: «**لا يَقُلْ أَحَدٌ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بن مَتَّى**» التواضع.

القول الرابع: أنَّ النبي ﷺ نهى عن الخوض في ذلك؛ لأنَّه يؤدِّي إلى الجدال، وذلك يؤدي إلى أن يذكر منهم ما لا ينبغي أن يذكر، ويقلُّ احترامهم لبعض الأنبياء عند المماراة.

القول الخامس: أن التفضيل تابع للتفاوت في الفضائل النَّفسانية التي وهبها الله لكلِّ واحدٍ، ولهذا اشتهر منهم أولو العزم، الَّذين تحمَّلوا المتاعب، والمصاعب فما وهنوا، وما استكانوا لما أصابهم في سبيل الله، وعلى ما تقدَّم فلا تفاضل من جهة النُّبوة، التي هي خصلةٌ واحدة لا تفاضل فيها.

وهكذا القول في الصَّحابة إن شاء الله الذين اشتركوا في الصُّحبة، ثم تباينوا في الفضائل بما منحهم الله من المواهب، والوسائل، فهم متفاضلون بتلك مع أن الكلّ شملتهم الصُّحبة،

والعدالة، والثَّناء عليهم، ما عدا الَّذين برز نفاقهم، فهم مغضوب عليهم، محرومون من رحمة الله، ورضوانه، ويكونون في أعمق وادٍ من أودية جهنَّم.

تنبيه: في الآية الكريمة التفاتاتٌ كثيرةٌ: منها: التفات من التكلُّم بقوله: ﴿فَضَّلْنَا﴾ إلى الغيبة بقوله: ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾، ثم منه إلى التكلُّم بقوله: ﴿وَءَاتَيْنَا﴾، ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ﴾ ثمَّ منه إلى الغيبة بقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ...﴾ إلخ، وللالتفات فوائد كثيرة: منها تطرية الكلام، وصيانة السَّمع عن الضَّجر، والملال؛ لما جبلت عليه النُّفوس من حبِّ التنقُّلات، والسآمة من الاستمرار على منوالٍ واحد هذه فوائده العامَّة، ويختصُّ كلُّ موضعٍ بنكتٍ، ولطائف باختلاف محلِّه، كما هو مقرر في علم البديع، ووجهه حيث السَّامع، وبعثه على الاستماع؛ حيث أقبل المتكلِّم عليه، وأعطاه فضل عنايته، وخصَّصه بالمواجهة.

الإعراب: ﴿تِلْكَ﴾: اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب لا محل له. ﴿ٱلرُّسُلُ﴾: بدل من اسم الإشارة، أو عطف بيان عليه.

﴿فَضَّلْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محلِّ رفع خبر المبتدأ. ﴿بَعْضَهُمْ﴾: مفعول به، والهاء في محل جرٍّ بالإضافة، ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ. هذا؛ وجوَّز السفاقسي، وأبو البقاء اعتبار ﴿ٱلرُّسُلُ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الفعلية في محل نصب حال من ﴿ٱلرُّسُلُ﴾، والعامل في الحال اسم الإشارة، وهذا غير متعارفٍ عليه في مثل هذا التَّركيب.

﴿مِّنْهُم﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم. ﴿مَّن﴾: اسم موصول، أو نكرة موصوفة مبنية على السُّكون في محلِّ رفع مبتدأ مؤخر. ﴿كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾: فعل ماض، وفاعله، والجملة الفعلية صلة ﴿مَّن﴾ أو صفتها، والعائد أو الرابط محذوف، التقدير: منهم الذي، أو: شخص كلَّمه الله، وهذا الإعراب هو المتعارف عليه والمشهور في مثل هذه الجملة، ولا أعتمده، والأصحُّ: أنَّ مضمون الجار والمجرور مبتدأ، و﴿مَّن﴾: هي الخبر؛ لأنَّ (مِنْ) الجارة دالة على التبعيض؛ أي: وبعضهم مَنْ كلمه الله، وجمع الضمير يؤيِّده، ويؤيده قوله تعالى في سورة (آل عمران) رقم [١١٠]: ﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾، فـ (أكثرهم) معطوف على مضمون ﴿مِّنْهُمُ﴾، وقوله تعالى في سورة (المائدة) [٦٦]: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾؛ فـ (كثير) معطوف على مضمون ﴿مِّنْهُمْ﴾ وخذ قول الحماسي: [الكامل]

مِنْهُمْ لُيُوثٌ لَا تُرَامُ وَبَعْضُهُمْ ... مِمَّا قَمِشْتَ، وضَمَّ حَبْلُ الحَاطِبِ

هذا؛ وليوث: جمع: ليث، وهو السَّبُع، لا ترام: لا تُقصد، قمشت: جمعت مِنْ هنا وهناك، والمراد: رذالة الناس، والقمش: الرديء من كلِّ شيء، والجملة الاسمية: ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾: هذه تحتمل أن تكون مستأنفة لا محلَّ لها، وأن تكون بدلاً من جملة ﴿فَضَّلْنَا...﴾

إلخ، قال بعض المتأخرين: هذا مردود؛ لأنَّ الاسمية لا تبدل من الفعلية، قال ابن هشام: ولم يقم دليلٌ على امتناع ذلك. (رفع): فعل ماض، والفاعل يعود إلى ﴿ٱللَّهُ﴾. ﴿بَعْضَهُمْ﴾: مفعول به، ﴿دَرَجَٰتٍ﴾: مفعول به ثان، وكان في الأصل مجروراً بحرف جر، فلمَّا حذف الجار وصل إليه الفعل بنفسه، ويسمَّى مثل ذلك منصوباً بنزع الخافض، وقيل: هو حال، ولا وجه له، وقيل: هو مفعول مطلق وهو غريب، وجملة: (رفع...) إلخ معطوفة على ما قبلها. (آتينا): فعل وفاعل. ﴿عِيسَى﴾: مفعول به أول منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على الألف للتعذر. ﴿ٱبْنَ﴾: صفة عيسى، أو بدل منه. و﴿ٱبْنَ﴾ مضاف، و﴿مَرْيَمَ﴾ مضاف إليه مجرور، وعلامة جره الفتحة نيابة عن الكسرة؛ لأنه ممنوع من الصرف للعلمية، والتأنيث المعنوي ﴿ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: مفعول به ثان منصوب، وعلامة نصبه الكسرة نيابة عن الفتحة؛ لأنه جمع مؤنث سالم، وجملة: ﴿وَءَاتَيْنَا...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها، وهو أولى من العطف على ما قبلها. (أيدناه): فعل، وفاعل، ومفعول به، ﴿بِرُوحِ﴾: متعلقان بما قبلهما، و(روح) مضاف، و﴿ٱلْقُدُسِ﴾ مضاف إليه، وجملة: ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ...﴾ إلخ معطوفة على ما قبلها، لا محلَّ لها مثلها.

﴿وَلَوْ﴾: الواو: حرف استئناف، (لو): حرف لما كان سيقع لوقوع غيره. ﴿شَآءَ ٱللَّهُ﴾: فعل ماض وفاعله، ومفعوله محذوف، التقدير: ألا يقتتلوا، ونحوه، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها ابتدائية، ويقال: لأنَّها جملة شرط غير ظرفي. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل ماض وفاعله، والجملة الفعلية جواب (لو) لا محل لها، و(لو) ومدخولها كلام مستأنف لا محل له. ﴿مِنۢ بَعْدِهِم﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿مِّنۢ بَعْدِ﴾: يجوز أن يكونا متعلقين بالفعل قبلهما، ويجوز اعتبارهما بدلاً ممَّا قبلهما بإعادة حرف الجر. ﴿مَا﴾: مصدرية. ﴿جَآءَتْهُمُ﴾: فعل ماض، والتاء للتأنيث، والهاء مفعول به. ﴿ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾: فاعله، و﴿مَا﴾ والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بإضافة ﴿بَعْدِ﴾ إليه. والتقدير: من بعد مجيئهم البينات. ﴿وَلَٰكِنِ﴾: الواو: حرف عطف. (لكن): حرف استدراك مهمل لا عمل له. ﴿ٱخْتَلَفُوا۟﴾: فعل ماض مبني على الضم، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية معطوفة على جواب (لو) لا محلَّ لها مثله.

﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ﴾: الفاء: حرف استئناف، وتفريع. (منهم من آمن) إعراب هذه الجملة مثل إعراب الجملة السابقة، والتي بعدها مثلها أيضاً، والجملتان الاسميتان مستأنفتان لا محل لهما ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾: مثل إعراب سابقتها بلا فارق بينهما. ﴿وَلَٰكِنَّ﴾: الواو: حرف عطف. (لكنّ) حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿يَفْعَلُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى ﴿ٱللَّهَ﴾. ﴿مَا﴾: اسم موصول، أو نكرة موصولة مبنية على السكون في محل نصب مفعول به. ﴿يُرِيدُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى ﴿ٱللَّهَ﴾، والجملة الفعلية صلة (ما) أو صفتها، والعائد

أو الرابط محذوف، التقدير: يفعل الذي، أو: شيئاً يريده، وجملة: ﴿يَفْعَلُ...﴾ إلخ في محل رفع خبر (لكنَّ)، والجملة الاسمية معطوفة على جواب (لو) لا محل لها مثله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾

الشرح: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾: نادى الله عباده المؤمنين في هذه الآية بأكرم وصف، وألطف عبارة؛ أي: يا مَنْ صدقتم الله ورسوله، وتحلَّيتم بالإيمان؛ الذي هو زينة الإنسان، وقد خاطب الله عباده المؤمنين بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ في ثمانية وثمانين موضعاً من القرآن، ونداء المخاطبين باسم المؤمنين يذكرهم بأنَّ الإيمان يقتضي من صاحبه أن يتلقَّى أوامر الله ونواهيه بحسن الطاعة والامتثال، وإنَّما خصَّهم الله بالنِّداء؛ لأنهم هم المستجيبون لأمره، المنتهون عما نهى عنه؛ إذ الغالب أن يتبع هذا النداء بأمرٍ، أو نهيٍ.

﴿أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم﴾: الإنفاق: بذل المال، وهو يشمل الواجب، مثل الزكاة، والكفارات على جميع أنواعها، واختلاف مراتبها، والمندوب؛ أي: صدقات التطوُّع، قال ابن جريج، وسعيد بن جبير ـ رحمهما الله تعالى ـ: هذه الآية تجمع الزَّكاة المفروضة، والتطوُّع. هذا؛ والفعل الماضي: أنفق، وهو رباعي الحروف، مضارعه: يؤنفق، ويكون ثلاثيّاً: نفق، قاله الزَّمخشري ـ رحمه الله تعالى ـ: ﴿مِمَّا رَزَقْنَٰكُم﴾: صريح بأنَّ المال الذي بيد العبد إنَّما هو من فضله تعالى، وكرمه، وجوده، والعبد موكل على المال وكالة، كما قال تعالى في سورة (الحديد): ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾.

﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ﴾: المراد به يوم القيامة. ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ﴾ أي: ولا شراء، والمعنى لا يباع أحد من نفسه، ولا يُفادى بمال، ولو بذله، ولو جاء بملء الأرض ذهباً، لا يقبل. ﴿وَلَا خُلَّةٌ﴾: ولا صداقة، ولا مودة، وهي بضم الخاء، وهي أيضاً ما خلا من النبات، يقال: الخلة خبز الإبل، والحمض فاكهتها، والخلة بالفتح: الفقر، والحاجة، وهي أيضاً الخمرة الحامضة، وهي بكسر الخاء نباتٌ معروف، تنظف به الأسنان من آثار الطَّعام، وهي أيضاً ما يبقى بين الأسنان.

هذا؛ والخلَّة بالضم: الخليل، يستوي فيه المذكر والمؤنث؛ لأنَّه في الأصل مصدر قولك: خليلٌ بَيِّنُ الخلَّة. هذا، والخليل هو الصَّديق الَّذي صفت مودَّته، فتجد من خلاله مثل ما يجد من خلالك، ويسعى لمصلحتك، كما يسعى لمصلحته، بل قد يُؤْثِرك على نفسه، ويبذل روحه من أجلك، كما قال ربيعة بن مقروم الضِّبيُّ: [الوافر]

أَخُوكَ أَخُوكَ مَنْ تَدْنُو وَتَرْجُو ... مَوَدَّتَهُ، وَإِنْ دُعِيَ اسْتَجَابَا

إِذَا حَارَبْتَ حَارَبَ مَنْ تُعَادِي ... وَزَادَ سِلَاحُهُ مِنْكَ اقْتِرَابَا

وهو معدوم في هذا الزّمن؛ الذي فسد أهله، وصاروا خَلّاً ودوداً، كما قال القائل: [الوافر]

سَأَلْتُ النَّاسَ عَنْ خِلٍّ وَدُودٍ فَقَالُوا: النَّاسُ مِنْ خَلٍّ وَدُودِ
فَقُلْتُ: أَلَيْسَ فِيهِمْ ذُو وَفَاءٍ؟ فَقَالُوا: كَانَ ذَلِكَ فِي الجُدُودِ

احفظ البيتين، ولا تنس ما فيهما من الجناس التام، لذا فإنه لا وجود للصديق بالمعنى الحقيقي، بل صار وجوده مستحيلاً، كما قال: [الكامل]

قَدْ قِيلَ: إِنَّ الْمُسْتَحِيلَ ثَلَاثَةٌ أَلْغُولُ وَالْعَنْقَاءُ وَالخِلُّ الْوَفِي

وقال الآخر: [الوافر]

سَأَلْتُ النَّاسَ عَنْ خِلٍّ وَفِيٍّ فَقَالُوا مَا إِلَى هَذَا سَبِيلُ
تَمَسَّكْ إِنْ ظَفِرْتَ بِذَيْلِ حُرٍّ فَإِنَّ الْحُرَّ فِي الدُّنْيَا قَلِيلُ

وممَّا هو جدير بالذكر: أنَّ كل صداقة لا تكون على أساس من التَّقوى تنقلب عداوة في الدنيا والآخرة، خذ قوله تعالى في سورة (الزخرف): ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ وانظر نتيجة صداقة إبليس اللَّعين في سورة (إبراهيم) رقم [٢٢] وفي سورة (قّ) أيضاً. وفي مصنَّف أبي داود عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ النبي ﷺ قال: «**الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ**» ولقد أحسن مَنْ قال: [السريع]

مَنْ لَمْ تَكُنْ فِي اللهِ خُلَّتُهُ فَخَلِيلُهُ مِنْهُ عَلَى خَطَرِ

﴿وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ أي: ولا يقبل منها شفاعة، كما في الآية رقم [٤٨]. والشَّفاعة: التوسُّل، وابتغاء الخير، والذي يكون منه التوسُّل يسمَّى الشَّفيع، والشفاعة في الدُّنيا تكون حسنةً، وتكون سيئةً، فالأولى هي التي روعي فيها حقُّ مسلم، أو دفع بها عنه شر، أو جلب إليه خير، وابتغي بها وجه الله، ولم تؤخذ عليها رشوةٌ، وكانت في أمرٍ جائزٍ، لا في حدٍّ من الحدود، ولا في حق من حقوق العباد، والسيئة ما كانت بخلاف ذلك، وقيل: الشفاعة الحسنة هي الدَّعوة للمسلم؛ لأنَّها بمعنى الشَّفاعة إلى الله تعالى، فعن النبي ﷺ قال: «**مَنْ دَعَا لأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ، اسْتُجِيبَ لَهُ، وَقَالَ لَهُ المَلَكُ: وَلَكَ مِثْلُ ذَلِكَ**» فذلك النصيب الذي ذكر الله بقوله: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ﴾ رقم [٨٥] من سورة (النساء)، وروى مسلم عن أمِّ الدَّرداء ـ رضي الله عنهما ـ، قالت: حدَّثني سيِّدي: أنَّه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**إِذَا دَعَا الرَّجُلُ لأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ. قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: وَلَكَ بِمِثْلِهِ**».

ولا ريب: أنَّ المراد بالشفاعة في هذه الآية الشَّفاعة يوم القيامة، والشَّفاعة العظمى مختصةٌ بنبينا ﷺ ثمَّ يتلوها شفاعاتٌ أخر، كما هو معلومٌ من الدين، وأحكامه، وهو مذهب أهل الحقِّ، والسُّنَّة، والجماعة.

وأنكر المعتزلة الشَّفاعة، وخلَّدوا أهل الكبائر من المسلمين الَّذين دخلوا النار في العذاب، والأخبار متظاهرةٌ بأنَّ مَنْ كان من العصاة المذنبين الموحِّدين من أمم النبيين هم الَّذين تنالهم شفاعة الشَّافعين من الملائكة، والنبيين، والشهداء، والصالحين، قال ابن المنير المعلِّق على الكشَّاف: أما مَنْ جحد الشفاعة؛ فهو جدير ألا ينالها، وأمَّا من آمن بها، وصدَّقها، وهم أهل السُّنَّة، والجماعة؛ فأولئك يرجون رحمة الله، ومعتقدهم: أنها تنال العصاة من المذنبين، وإنَّما ادُّخرت لهم في الآخرة.

أقول: والأحاديث في الشَّفاعة كثيرةٌ مشهورةٌ، وفي كتب الأحاديث مسطورة، والدَّليل القرآنيُّ يوحي بأنَّ أقواماً تنالهم الشَّفاعة، كما أنَّه يصرِّح بأن أقواماً لا تنالهم بكفرهم، وعظيم جرائمهم، وهو كثير.

قال القرطبيُّ ـ رحمه الله تعالى ـ: فإن قالوا: قد وردت نصوص من الكتاب بما يوجب ردَّ هذه الأخبار، مثل قوله تعالى في سورة (غافر): ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾، وفي الآية رقم [٤٨]: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ﴾، قلنا: ليست هذه الآية عامة في كلِّ ظالم، والعموم لا صيغة له، فلا تعمُّ هذه الآيات كلَّ مَنْ يعمل سوءاً، وكلَّ نفس، وإنَّما المُراد بها الكافرون دون المؤمنين بدليل الأخبار الواردة في ذلك، وانظر قوله تعالى في سورة (الإسراء) رقم [٧٩]: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ تجد ما يسرك ويثلج صدرك، وقد أجمع المفسِّرون على أنَّ المراد بـ ﴿نَفْسٌ﴾في الآية رقم [٤٨] النَّفس الكافرة، لا كلَّ نفس. انتهى بتصرف.

بعد هذا؛ المعنى للآية الكريمة: أنفقوا من المال الَّذي رزقناكموه من قبل أن يأتي يوم لا تقدرون فيه على تدارك ما فرَّطتم، والخلاص من عذابه؛ إذ لا بيع فيه؛ فتحصِّلون ما تنفقون، أو تفتدون به من العذاب، ولا خلَّة؛ حتَّى يعينكم عليه أخلَّاؤكم، أو يسامحوكم به، ولا شفاعة إلا لمن أذن له الرَّحمن ورضي له قولاً؛ حتَّى تتكلوا على شفعاء تشفع لكم في حطِّ ما في ذممكم، والمراد بـ: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ﴾: المانعون للزَّكاة، كما في قوله تعالى في سورة (آل عمران) رقم [٩٧]: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ مكان من لم يحج؛ وإيذاناً بأن ترك الزكاة من صفات الكفار بقوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ رقم [٦ ـ ٧] سورة (فصلت). انتهى. بيضاوي بتصرف كبير، فلم يبق لما قاله عطاء بن دينار، والحمد لله الذي قال: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، ولم يقل: والظالمون هم الكافرون، فلم يبق لقوله معنىً، ولا فائدةً.

الإعراب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾: (يا): أداة نداء تنوب مناب: أدعو. (أيها) منادى نكرة مقصودة مبنية على الضم في محل نصب بـ (يا) وها: حرف تنبيه، لا محل له من الإعراب، وأقحم للتوكيد، وهو عوض من المضاف إليه، ولا يقال: ضمير في محل جر بالإضافة؛ لأنه حينئذ يجب نصب

المنادى. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محلٍّ رفع بدلاً من (أيُّ) أو عطف بيان عليه. ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾: فعل ماض مبني على الضم، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية مع المتعلِّق المحذوف صلة الموصول، لا محلَّ لها؛ ﴿أَنفِقُواْ﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو: فاعله، والجملة فعلية لا محل لها؛ لأنَّها ابتدائية كالجملة الندائية قبلها. ﴿مِمَّا﴾: جار ومجرور متعلِّقان بمحذوف صفة لمفعول به محذوف، التَّقدير: أنفقوا شيئاً كائناً ممَّا... إلخ، أو هما متعلقان بالفعل قبلهما على أنَّهما مفعول به؛ لأنَّ (مِنْ) للتبعيض، و(ما) تحتمل الموصولة، والموصوفة. ﴿رَزَقْنَٰكُم﴾: فعل ماض، وفاعله، ومفعوله، والجملة الفعلية صلة (ما)، أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف؛ إذ التقدير: أنفقوا من الذي، أو من شيءٍ رزقناكموه. ﴿مِّن قَبْلِ﴾: متعلقان بالفعل ﴿أَنفِقُواْ﴾ أيضاً. ﴿أَن يَأْتِيَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ ﴿أَن﴾ والمصدر المؤول منهما في محل جر بإضافة ﴿قَبْلِ﴾ إليه. ﴿يَوْمٌ﴾: فاعل ﴿يَأْتِيَ﴾. ﴿لَّا﴾: نافية حجازية تعمل عمل «ليس». ﴿بَيْعٌ﴾: اسم ﴿لَّا﴾. ﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر ﴿لَّا﴾. ﴿لَّا﴾: صلة في الموضعين، و﴿خُلَّةٌ﴾ و﴿شَفَٰعَةٌ﴾: معطوفان على ﴿بَيْعٌ﴾ عطف مفرد على مفرد، وإن اعتبرت (لا) عاملة فيهما، فخبرها محذوف في الموضعين لدلالة خبر الأولى عليه. هذا؛ وإن اعتبرت (لا) مهملة لا محل لها فـ: ﴿بَيْعٌ﴾ يكون مبتدأ، خبره: الجار والمجرور: ﴿فِيهِ﴾، ويجوز فيهما بعده الوجهان اللَّذان ذكرتهما في حال عمل (لا) عمل «ليس» وهما عطف ﴿خُلَّةٌ﴾ و﴿شَفَٰعَةٌ﴾ عطف مفرد على مفرد، أو هما مبتدآن، وخبرهما محذوف لدلالة خبر الأول عليه، كما أجيز إعمال (لا) فيهما عمل «ليس» فهذه ثلاثة أوجه في ﴿خُلَّةٌ﴾ و﴿شَفَٰعَةٌ﴾ على رفع بيع، ومثل الآية الكريمة قول عبيد بن حصين الرَّاعي النُّميري، وهو الشَّاهد رقم [٣٠١] من كتابنا: «فتح رب البريَّة»: [البسيط]

وَمَا هَجَرْتُكِ حَتَّى قُلْتِ مُعْلِنَةً لا نَاقَةٌ لِيَ فِي هَذَا، وَلَا جَمَلُ

هذا؛ وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو الأسماء الثلاثة بالفتح من غير تنوين، وخرجت هذه القراءة على إعمال ﴿لَّا﴾ الأولى عمل «إنَّ». و﴿بَيْعٌ﴾: اسمها مبني على الفتح في محل نصب، و﴿فِيهِ﴾ متعلقين بمحذوف خبرها، والواو حرف عطف، و﴿لَّا﴾: صلة لتأكيد النفي في الموضعين، و﴿خُلَّةٌ﴾ و﴿شَفَٰعَةٌ﴾: معطوفان على بيع، ويجوز اعتبار ﴿لَّا﴾ عاملة في الثلاثة، والجار والمجرور: ﴿فِيهِ﴾ متعلقان بمحذوف خبر الأولى، وخبر الثانية والثالثة محذوفان؛ لدلالة خبر الأولى عليهما. هذا؛ ويجوز في غير القرآن: لا بيع فيه ولا خلةٌ؛ ببناء الأول على الفتح، ورفع الثاني، وشواهده في كتب النَّحو قول الشَّاعر، وهو الشاهد رقم [٣٠٢] من كتابنا فتح رب البريَّة: [الكامل]

هَذَا ـ لَعَمْرُكُم ـ الصَّغَارُ بِعَينِهِ لَا أُمَّ لِي، إنْ كَانَ ذَاكَ وَلَا أَبُ

ويجوز أن تبني الأول، وتنصب الثاني؛ وتنوِّنه، وشواهده في كتب النَّحو قول الآخر، وهو الشَّاهد رقم [٣٠٤] من كتابنا فتح ربِّ البريَّة: [السريع]

لَا نَسَبَ الْيَوْمَ، وَلَا خُلَّةً اتَّسَعَ الخَرْقُ عَلَى الرَّاقِعِ

ويجوز في غير القرآن أيضاً أن ترفع الأول، وتبني الثاني، وشواهده في كتب النحو قول أميَّة ابن أبي الصَّلت، وهو الشاهد رقم [٣٠٣] من كتابنا المذكور: [الوافر]

فَلَا لَغْوٌ وَلَا تَأْثِيمَ فِيهَا وَمَا فَاهُوا بِهِ أَبَداً مُقِيمُ

وهذه الأوجه كلُّها تجري في الجملة: «**لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم**». وخذ قول ابن مالك رحمه الله في ألفيته مقرِّراً جميع الوجوه الَّتي ذكرتُها، وزيادة: [الرجز]

وَرَكِّبِ الْمُفْرَدَ فَاتِحاً كَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ، والثَّانِي اجْعَلَا

مرفوعاً أو منصوباً، أو مركَّباً وَإِنْ رَفَعْتَ أَوَّلاً لَا تَنْصِبَا

بعد هذا فجملة: ﴿لَّا بَيْعٌ...﴾ إلخ في محل رفع صفة ﴿يَوْمٌ﴾، والرابط: الضمير المجرور بـ (في) وما بعدها معطوف عليها، إما جملةً، أو إفراداً، كما رأيت تفصيله. (الكافرون): مبتدأ مرفوع، وعلامة رفعه الواو... إلخ. ﴿هُمُ﴾: ضمير منفصل مبني على السكون في محل رفع مبتدأ ثان. ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل رفع خبر الأول. هذا؛ وإن اعتبرت الضمير فصلاً لا محل له، ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ خبر (الكافرون) وعلى الاعتبارين فالجملة الاسمية معترضة في آخر الكلام أفادت التهديد والوعيد لمانعي الزَّكاة، والصدقات.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾

الشرح: هذه الآية سيدة آي القرآن، وأعظم آية، نزلت ليلاً، ودعا النَّبيُّ ﷺ زيد بن ثابت - رضي الله عنه -، فكتبها، وقد ورد في فضلها أحاديثُ كثيرة، ترغِّب في قراءتها في جميع الأحوال، في دبر الصَّلوات الخمس، وعند النَّوم، وفي الصَّباح، والمساء، وهي حفظ من الشياطين، والمردة، والسحرة، والمعتدين، والظَّالمين، أكتفي بما يلي:

عن أُبيِّ بن كعب - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «**يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِي أَيّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟**» قال: قلت: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ فضرب في صدري،

وقال: «**لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ يَا أَبَا الْمُنْذِرِ**» أخرجه مسلم، وغيره، وزاد الترمذيُّ الحكيم في روايته: «**فوالَّذِي نَفْسِي بيَدِهِ إنَّ لِهَذِهِ الآية لِساناً، وشَفَتَيْنِ تُقَدِّسُ المَلِكَ عِنْدَ سَاقِ الْعَرْشِ**».

ومن حديث أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ الطويل، قال: سألت رسول الله ﷺ: أيُّ آية أنزل الله عليك من القرآن أعظم؟ ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ...﴾ إلخ.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أشرف آية في القرآن آية الكرسيِّ، قال بعض العلماء: لأنَّه يكرَّر فيها اسم الله تعالى بين مضمرٍ، وظاهرٍ ثماني عشرة مرَّة.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: إخبار بأنَّه سبحانه المنفرد بالإلٰهية لجميع الخلائق. ﴿ٱللَّهُ﴾: علمٌ على الذَّات الواجب الوجود المستحق لجميع المحامد، وهو اسم الله الأعظم، الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى، وإنما تخلفت الإجابة في بعض الأحيان عند الدعاء به لتخلُّف شروط الإجابة، الَّتي أعظمُها أكلُ الحلال. ولم يسمَّ به أحدٌ سواه، قال تعالى في سورة (مريم) رقم [٦٥]: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ أي: هل تسمَّى أحدٌ (الله) غير (الله)؟ وقد ذكر في القرآن الكريم في ألفين، وثلاثمئة وستين موضعاً، علماً بأنَّه لم يذكر في سورتي الرَّحمن، والواقعة. ﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ أي: الحيُّ في نفسه؛ الذي لا يموت أبداً، القيِّم لغيره، فجميع الموجودات مفتقرة إليه، وهو غنيٌّ عنها، ولا قوام لها بدون أمره، وهما اسمان من أسماء الله الحسنى، وأصل ﴿ٱلۡحَيُّ﴾: الحيي بياءين متحركتين، فسكنت الأولى، ثمَّ أدغمت في الثانية، وأصل ﴿ٱلۡقَيُّومُۚ﴾: الْقَيْوُوم؛ لأنَّه من: قام بالأمر يقوم، فاجتمعت الواو والياء، وسبقت إحداهما بالسكون، فقلبت الواو ياءً، وأدغمت الياء في الياء، قال الشَّاعر: [الخفيف]

إنَّ ذَا الْعَرْشِ لَلَّذِي يَرْزُقُ النَّا … سَ وَحَيٌّ عَلَيْهِمُ قَيُّومُ

﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾ أي: لا يعتريه نقص، ولا غفلةٌ، ولا ذهولٌ عن خلقه، بل هو قائمٌ على كلِّ نفس بما كسبت، شهيدٌ على كلِّ شيءٍ، لا يغيب عن علمه شيءٌ في الأرض، ولا في السَّماء، وهو السَّميع العليم، و(السِّنة) بكسر السين: النُّعاس في قول الجميع، قال عديُّ بن الرقاع العاملي: [الكامل]

وَسْنَانُ أَقْصَدَهُ النُّعَاسُ فَرَنَّقَتْ … فِي عَيْنِهِ سِنَةٌ، وَلَيْسَ بِنَائِمِ

وفرَّق المفضل بينهما، فقال: السِّنة في الرأس، والنُّعاس في العين، والنَّوم في القلب، وبالجملة: السِّنة والنعاس فتور يعتري الإنسان، ولا يفقد معه عقله، والمُراد بهذه الآية: أنَّ الله تعالى لا يدركه خلل، ولا يلحقه ملل بحالٍ من الأحوال، والأصل في ﴿سِنَةٞ﴾ وَسْنَةٌ؛ حذفت الواو، كما حذفت من يَسِن الماء والأصل: وسِن، يَسِن؛ مثل: وعد، يعد. هذا؛ والوَسَن أيضاً النُّعاس، قال المتنبيّ أبو الطَّيب: [البسيط]

أَبْلَى الْهَوَى أَسَفاً يَوْمَ النَّوَى بَدَنِي … وَفَرَّقَ الْهَجْرُ بَيْنَ الْجَفْنِ وَالْوَسَنِ

وهذا هو الشاهد رقم [٩٦٦] من كتابنا: «فتح القريب المجيب».

هذا؛ والنَّوم قسمان: نوم العين، ونوم القلب، فنوم العين: فترةٌ طبيعية، تعتري الإنسان، وتتعطَّل حواسُّه بها، وأمَّا نوم القلب؛ فهو تعطيل القوى المُدركة، والثَّاني لم يقع منه ﷺ؛ لأنَّ قلبه لا ينام، كما في حديث الصَّحيحين عنه ﷺ: أنه قال: «**إنَّ عَيْنَيَّ تَنَامَانِ، وَلَا يَنَامُ قَلْبي**» ورحم الله البوصيري؛ إذ يقول: [البسيط]

لَا تُـنْـكِـرِ الْـوَحْـيَ مِـنْ رُؤْيَـاهُ إنَّ لَـهُ قَـلْـبـاً إِذَا نَـامَـتِ الْـعَـيْـنَـانِ لَـمْ يَـنَـمِ

وهذا، والمنام مصدر بمعنى النَّوم، أو اسم مكان بمعنى موضعه، أو اسم زمان بمعنى زمانه؛ لأنَّ مفعلاً يصلح لهذا كلِّه. هذا وقدمت السِّنة بالذِّكر؛ لأنَّها سابقة في الوجود على النَّوم، قال القرطبيُّ ـ رحمه الله تعالى ـ: والنَّاس يذكرون في هذا الباب عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يحكي عن موسى على المنبر، قال: وقع في نفس موسى: هل ينام الله جلَّ ثناؤه، فأرسل الله إليه ملكاً. فأرَّقَه ثلاثاً، ثمَّ أعطاه قارورتين في كلِّ يدٍ قارورة، وأمره أن يحتفظ بهما، قال: فجعل ينام، وتكاد يداه تلتقيان، ثم يستيقظ، فيُنحِّي إحداهما عن الأخرى حتى نام نومةً، فاصطفقت يداه، فانكسرت القارورتان، قال: ضرب الله له مثلاً: أن لو كان ينام؛ لم تمتسك السَّماء والأرض، ولا يصحُّ هذا الحديث، ضعفه غير واحدٍ، منهم البيهقيُّ. انتهى. قرطبي.

وفي مختصر ابن كثير عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أنَّ بني إسرائيل، قالوا: يا موسى! هل ينام ربك؟ قال: اتقوا الله! فناداه ربُّه عز وجل: يا موسى! سألوك هل ينام ربُّك؟ خذ زجاجتين في يديك، فقم الليلة، ففعل موسى، فلمَّا ذهب من الليل ثلث نعس، فوقع لركبتيه، ثم انتعش، فضبطهما حتَّى إذا كان آخر الليل؛ نَعِسَ، فسقطت الزُّجاجتان، فانكسرتا، فقال: يا موسى لو كنت أنام؛ لسقطت السَّموات والأرض، فهلكت، كما هلكت الزُّجاجتان في يديك، فأنزل الله عز وجل على نبيه ﷺ آية الكرسي، رواه ابن أبي حاتم.

أقول: خذ قوله تعالى في سورة (فاطر) رقم [٤١]: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ انظر شرحها هناك؛ فإنَّه جيد، والحمد لله!.

﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾: ﴿لَّهُۥ﴾: أي: بالمُلك التام، الجميع خلقاً، وعبيداً في قهره، وتحت سلطانه، وقد ذكر ما فيهما دونهما للردِّ على المشركين العابدين لبعض الكواكب، الَّتي في السَّماء، والأصنام الَّتي في الأرض، يعني: فلا تصلح أن تُعبد؛ لأنها مملوكةٌ لله، مخلوقةٌ له، والتعبير بـ ﴿مَا﴾ التي لغير العاقل، للتغليب وفيه ردٌّ على المشركين الذين قالوا عن الأصنام ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾.

﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾: الاستفهام معناه النفي، وفيه ردٌّ لزعم المشركين: أنَّ الأصنام تشفع لهم، وهو كقوله تعالى في سورة (النَّجم): ﴿۞وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي

شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾، وكقوله تعالى في سورة (الأنبياء): ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ وهذا من عظمة الله، وجلاله، وكبريائه عزَّ وجلَّ؛ حيث لا يجرؤ أحد على أن يشفع لأحدٍ عنده إلا بإذنه له في الشفاعة، كما في قول النبيِّ ﷺ في حديث الشَّفاعة: **«آتِي تَحْتَ الْعَرْشِ، فَأَخِرُّ سَاجِداً فَيَدَعني مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَدَعني، ثُمَّ يقالُ: ارْفَعْ رَأْسَكَ، وقل تُسْمَع، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ»**.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾: الضمير يعود إلى الخلق المعبَّر عنهم بـ ﴿مَا﴾؛ والمعنى: يعلم الله ما هو حاضر، وشاهد لهم، وهو الدُّنيا وما فيها، وما خلفهم، أي: أمامهم من أمر الآخرة، ويجوز أن يكون المعنى ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾: أمر الآخرة، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾: أمر الدُّنيا؛ لأنَّ الإنسان مستقبلٌ للآخرة، مستدبرٌ للدنيا، فهو دليل قاطع على إحاطة علمه عز وجل بجميع الكائنات، ماضيها، وحاضرها، ومستقبلها.

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ أي: لا يعلمون شيئاً من معلوماته إلا بما أعلمهم الله إياه على ألسنة الرُّسل، أو المراد: لا يطلعون على شيءٍ من علم ذاته، وصفاته إلا بما أطلعهم الله عليه، كقوله تعالى في سورة (طه): ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾.

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾: يقال: فلان وسع الشيء سَعَةً: إذا احتمله، وأطاقه، وأمكنه القيام به، وأصل الكرسيِّ في اللغة: مِنْ تركُّب الشيء بعضه على بعض، ومنه الكرّاسة لتركيب بعض أوراقها على بعض، والكرسيُّ في العرف: اسم لما يقعد عليه، وسمِّي به لتركيب خشباته بعضها على بعض، واختلفوا في الكرسيِّ هنا على أربعة أقوال:

أحدها: أنَّ الكرسيَّ هو العرش نفسه، قاله الحسن البصري؛ لأنَّ العرش، والكرسي اسم للسَّرير؛ الذي يصحُّ التمكُّن عليه.

الثاني: أنَّ الكرسيَّ غير العرش، وهو أمامه، وهو فوق السَّموات السَّبع، ودون العرش، قال السُّدِّي رحمه الله تعالى: إنَّ السموات والأرض في جوف الكرسيِّ كحلقة ملقاةٍ في فلاة، والكرسيُّ في جنب العرش كحلقة في فلاة، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ : إنَّ السموات السَّبع في الكرسيِّ كدراهم سبعة ألقيت في ترسٍ.

القول الثالث: إنَّ الكرسي هو الاسم الأعظم؛ لأنَّ العلم يعتمد عليه، كما أنَّ الكرسي يعتمد عليه، وقال ابن عباسٍ: كرسيُّه: علمه، وهو قول ثانٍ له، ورجَّحه الطبري، قال: ومنه الكرَّاسة التي تضمُّ العلم، ومنه قيل للعلماء: كراسي؛ لأنَّهم يُعتمد عليهم، كما يقال: أوتاد الأرض، قال الشاعر: [الطويل]

يَحُفُّ بِهِمْ بِيضُ الوُجُوهِ وَعُصْبَةٌ كَرَاسِيُّ بِالأَحْدَاثِ حِينَ تَنُوبُ

أي: علماء بحوادث الأمور.

القول الرابع: المراد بالكرسيِّ: المُلك، والسُّلطان، والقُدرة؛ لأنَّ الكرسيَّ موضع السلطان، والملك، فلا يبعد أن يكنى عن المُلك بالكرسيِّ على سبيل المجاز. انتهى. خازن.

هذا وقد قال الرسول ﷺ: «**ما السَّمواتُ السَّبْعُ في الكرسيِّ إِلَّا كَدَرَاهِمَ سَبْعَةٍ أُلْقِيَتْ فِي تُرْسٍ**»، وروى أبو إدريس الخولاني عن أبي ذرٍّ ـ رضي الله عنه ـ، قال: قُلت: يا رسول الله! أيُّ ما أنزل الله عليك أعظم؟ قال: «**آية الكرسي**». ثمّ قال: «**يا أبا ذرٍّ ما السَّمواتُ السبعُ مع الكرسيِّ إلا كحلْقةٍ ملقاةٍ في أرض فلَاةٍ، وفضلُ العرشِ على الكرسيِّ كفَضْلِ الفلَاةِ على الحلقة**». أخرجه البيهقيُّ، وغيره، وذكر: أنَّه صحيحٌ، وهذا من الأمور المغيَّبة، التي يجب على المسلم الإيمان بها، والتَّسليم بحقائقها، ولا مجال للعقل فيها، والسُّؤال عن ذلك بـ «كيف» ونحوها يحدث بلبلةً في عقله، واضطراباً في إيمانه.

﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾: ولا يثقل عليه، ولا يصعب حفظهما، ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾: المتعالي عن الصفات التي لا تليق به. ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾: بمعنى عظيم القدر، والخطر، والشرف، وقيل: هو بمعنى المعظم، وأنكره بعضهم، فقالوا: لو كان بمعنى معظم؛ لوجب أن لا يكون عظيماً قبل أن يخلق الخلق، وبعد فنائهم؛ إذ لا معظِّم له حينئذٍ.

قال الزَّمخشري في كشافه: فإن قلت: لم فُضِّلت هذه الآية؛ حتى ورد فيها ما ورد، منه قوله ﷺ: «**مَا قُرِئَتْ هذه الآية في دارٍ إلا هجرتها الشياطين ثلاثين يوماً، ولا يدخلُها ساحرٌ، ولا ساحرةٌ أربعينَ ليلةً، يا عليُّ علِّمْهَا ولدَكَ، وأهلك، وجيرانَكَ، فما نزلت آية أعظمُ منها**».

وعن عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ: سمعتُ نبيَّكم ﷺ على أعواد هذا المنبر، وهو يقول: «**مَنْ قَرَأَ آيَةَ الكرْسِيِّ في دُبُرِ كُلِّ صَلَاة مكتوبَةٍ، لم يَمْنَعْهُ من دخُولِ الْجنَّةِ إلا الْمَوْتُ، ولا يواظِبُ عَلَيْهَا إِلَّا صِدِّيقٌ، أَوْ عَابِدٌ، وَمَنْ قَرَأَها إذا أَخذَ مَضْجَعهُ، أَمَّنَهُ اللهُ على نَفسِهِ، وجارِهِ، وجارِ جارِهِ، والأبياتِ حولهُ**».

وتذاكر الصَّحابة ـ رضوان الله عليهم ـ أفضل ما في القرآن، فقال لهم عليٌّ كرَّم الله وجهه: أين أنتم من آية الكرسيِّ؟! ثم قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**يا عليُّ! سَيِّد الْبَشَر آدمُ، وسيدُ العربِ محمَّدٌ، ولَا فَخْرَ، وسيدُ الْفُرْسِ سَلْمَانُ، وسيِّدُ الرُّوم صُهَيبٌ، وَسيِّد الْحَبَشَةِ بِلالٌ، وَسيِّدُ الجبالِ الطُّورُ، وسَيِّد الأيامِ الجمعةُ، وَسيِّدُ الْكَلامِ القرآنُ، وَسيِّد القرآنِ البقرةُ، وسَيد البقرةِ آية الكُرسيِّ**».

قلت: كما فضلت سورة الإخلاص من اشتمالها على توحيد الله تعالى، وتعظيمه؛ وتمجيده، وصفاته العظمى، ولا مذكور أعظم من ربِّ العزة، فما كان ذكراً له، كان أفضل من سائر الأذكار، وبهذا يُعلم: أن شرف العلوم، وأعلاها عند الله منزلةً علم أهل العدل، والتوحيد، ولا يغرنَّك عنه كثرة أعدائه، قال الشاعر: [البسيط]

إِنَّ الْعَرَانِينَ تَلْقَاهَا مُحَسَّدَةً وَلَنْ تَرَى لِلِئَامِ النَّاسِ حُسَّادا

فهو يعني: علم أهل العدل، والتوحيد: علم الاعتزال، ويعني بالعرانين: شيعة المعتزلة، كما هو دأبه في نصرة مذهبهم، ويروى: أنَّه رجع عن هذا المذهب قبل وفاته، وترك نصرته عفا الله عنا، وعنه.

الإعراب: ﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿لَآ﴾: نافية للجنس تعمل عمل «إن». ﴿إِلَٰهَ﴾: اسمها مبني على الفتح في محل نصب، والخبر محذوف تقديره: موجود. ﴿إِلَّا﴾: حرف حصر لا محل له. ﴿هُوَ﴾: فيه ثلاثة أوجه: الأول: كونه بدلاً من اسم ﴿لَآ﴾ على المحل؛ إذ محله الرفع على الابتداء، والثاني: كونه بدلاً من ﴿لَآ﴾ وما عملت فيه؛ لأنها وما بعدها في محل رفع بالابتداء، والثالث: كونه بدلاً من الضمير المستكن في الخبر المحذوف، وهو الأقوى. ﴿ٱلْحَيُّ﴾ يجوز فيه أربعة أوجه: أحدها: أن يكون بدلاً مِنْ ﴿هُوَ﴾ بدل ظاهر من مضمر، الثاني: أن يكون خبر مبتدأ محذوف، أي هو الحيُّ، وحسَّن حذفه توالي اللفظ بـ ﴿هُوَ﴾ مرَّتين، الثالث: أن يكون خبراً ثانياً، لقوله: ﴿ٱللَّهُ﴾ أخبر عنه أولاً بقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وذلك عند من يرى تعدُّد الخبر مختلفاً في الإفراد، والجملة، الرابع: أن يكون صفة للضمير، وذلك عند الكسائيِّ، فإنَّه يجيز وصف الضمير الغائب بصفة مدح، فهو يشترط هذين الشَّرطين: أن يكون غائباً، وأن تكون الصفة صفة مدح. ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾: يجري فيه ما جرى في سابقه، وإن اعتبرته بدلاً من ﴿ٱلْحَيُّ﴾ فلست مفنداً، بل هو الأقوى؛ لأنهما اسمان كريمان من أسماء الله الحسنى على المعتمد. والله أعلم، وأجلُّ، وأكرم، والجملة الاسمية ﴿ٱللَّهُ...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها.

﴿لَا﴾: نافية. ﴿تَأْخُذُهُۥ﴾: فعل مضارع، والهاء مفعول به. ﴿سِنَةٌ﴾: فاعله. ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. ﴿لَا﴾ صلة لتأكيد النفي. ﴿نَوْمٌ﴾: معطوف على ﴿سِنَةٌ﴾، والجملة الفعلية تحتمل ثلاثة أوجه: أن تكون في محلٍّ رفع خبر ثالث للمبتدأ، وأن تكون في محلِّ نصبٍ حال من الضمير المستتر في ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾، وأن تكون مستأنفة لا محلَّ لها. ﴿لَّهُۥ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدَّم. ﴿مَا﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل رفع مبتدأ مؤخر. ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: متعلقان بمحذوف صلة الموصول. ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى﴾: ﴿مَن﴾: اسم استفهام مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿ذَا﴾: اسم إشارة مبني على السكون في محل رفع خبره.

﴿ٱلَّذِى﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل رفع صفة ﴿ذَا﴾، أو هو بدل منها. هذا؛ وجوز أن يكون ﴿مَن ذَا﴾ اسماً مركباً مبنيّاً على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿يَشْفَعُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى ﴿مَن﴾، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها. ﴿عِندَهُۥٓ﴾: ظرف مكان متعلق بالفعل قبله، والهاء في محل جر بالإضافة، وقيل: الظرف متعلق بمحذوف حال من فاعل ﴿يَشْفَعُ﴾ المستتر. ﴿إِلَّا﴾: حرف حصر، ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾: متعلقان بمحذوف حال مستثنىً من عموم الأحوال، والهاء في محل جرٍّ بالإضافة.

﴿يَعۡلَمُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى ﴿ٱللَّهُ﴾. ﴿مَا﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل نصب مفعول به. ﴿بَيۡنَ﴾: ظرف مكان متعلق بمحذوف صلة الموصول، و﴿بَيۡنَ﴾ مضاف، و﴿أَيۡدِيهِمۡ﴾: مضاف إليه مجرور، وعلامة جره كسرة مقدرة على الياء للثقل، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿مَا﴾: اسم موصول معطوف على ما قبله. ﴿خَلۡفَهُمۡۖ﴾: ظرف مكان متعلق بمحذوف صلة الموصول، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): نافية. ﴿يُحِيطُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله. ﴿بِشَيۡءٖ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، أو هما متعلقان بمحذوف صفة (شيء)، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿إِلَّا﴾: حرف حصر، ﴿بِمَا﴾: بدل من قوله: ﴿بِشَيۡءٖ﴾ كما تقول: ما مررت بأحد إلا بزيد، و(ما) تحتمل الموصولة والموصوفة. ﴿شَآءَۚ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة الفعلية صلة (ما) أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف، التقدير: إلا بالذي، أو: بشيء شاءه، وجملة: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ...﴾ إلخ معطوفة على ما قبلها.

﴿وَسِعَ﴾: فعل ماض. ﴿كُرۡسِيُّهُ﴾: فاعله، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه الكسرة نيابة عن الفتحة لأنه ملحق بجمع المؤنث السالم، ﴿وَٱلۡأَرۡضَۖ﴾: معطوف على ما قبله، وجملة: ﴿وَسِعَ...﴾ إلخ تحتمل ما ذكرت من أوجه. ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): نافية. ﴿يَـُٔودُهُۥ﴾: فعل مضارع، والهاء مفعوله. ﴿حِفۡظُهُمَاۚ﴾: فاعله، والهاء في محل جر بالإضافة، والميم والألف حرفان دالان على التثنية، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، (هو): ضمير منفصل مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ. ﴿ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾: خبران للمبتدأ، والجملة الاسمية تحتمل الأوجه الثلاثة التي ذكرت فيما مضى قبلها، بعد هذا ينبغي أن تعلم: أنَّ كل جملة في الآية الكريمة مستقلةٌ، ويجوز الوقف على آخرها.

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٥٦﴾

الشرح: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ...﴾ إلخ المعنى: لا تكرهوا أحداً على الدُّخول في دين الإسلام، فإنَّه بيِّنٌ واضح، وجليٌّ؛ دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يُكرَه أحدٌ على الدخول فيه، بل مَنْ هداه الله للإسلام، وشرح صدره، ونوَّر بصيرته؛ دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه، وختم على سمعه، وبصره، فإنَّه لا يفيده الدخول في الدين مكرهاً مقسوراً. هذا، والدِّين اسم لجميع ما يُتعبَّد به الله تعالى. هذا، والدِّين يطلق على العادة، والشأن، والحال، كما في قول امرئ القيس في معلقته رقم [١٠]: [الطويل]

كَدِيْنِكَ مِنْ أُمِّ الْحُوَيْرِثِ قَبْلَهَا وَجَارَتِهَا أُمِّ الرَّبَابِ بِمَأْسَلِ

هذا، والدِّين أيضاً: الملَّة، والشريعة، ومنه قوله تعالى في سورة (يوسف) رقم [٧٦]: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾، ويوم الدين: يوم الجزاء والحساب، ومنه: كما تدين تدان، أي: كما تفعل تُجازَى. هذا؛ والدَّين بفتح الدال القرض المؤجَّل، وجمع الأول: أديان: وجمع الثاني: ديون وأَدْيُن. هذا؛ والدَّينونة: القضاء، والحساب. والدِّيانة: اسم لجميع ما يُتعبد به الله تعالى. ﴿قَد تَّبَيَّنَ﴾: يقال: تبين الشيء وبان، وأبان، واستبان كلُّه بمعنى واحد، وهو لازم. وقد يستعمل بعضها متعدِّياً، ﴿ٱلرُّشْدُ﴾: الاهتداء، والاستقامة على طريق الحقِّ، وضدُّه: الغيُّ، والضَّلال، يقال: رَشَد، يرشُد، رُشْداً، ورَشِدَ، يَرْشَد، رشَدَاً، فالأول من الباب الأول، والثاني من الباب الرَّابع.

﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾: هو الأصنام، أو الشيطان، أو الكاهن، وكلُّ رأس في الضلالة وداعٍ إليه، وهو يُطلق على المفرد، والجمع، والمذكر، والمؤنث، واشتقاقه من: طغى، يطغى، أو من: طغا يطغو: إذا تجاوز الحدَّ، ومنه قوله تعالى في سورة (الحاقة): ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِي ٱلْجَارِيَةِ﴾، ويجمع على: طواغيت، ولم يرد في القرآن الكريم بلفظ الجمع، والكفر بالطاغوت: عدم الرضا به، وعدم الانقياد له. ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ أي: فقد تمسَّك بالدِّين بأقوى سبب، والعروة في الأصل موضع شدِّ اليد، وأصل المادة تدل على التعلُّق، ومنه: عروته إذا أَلْمَمْتُ به متعلقاً به، واعتراه الهمُّ تعلَّق به. ﴿ٱلْوُثْقَىٰ﴾: تأنيث الأوثق، وهي للتفضيل، كفضلى تأنيث الأفضل، وجمع الوثقى: الوُثُق، مثل: الفضلى، والفضُل، وفي الآية تشبيه، والمشبه به: الإيمان، وقيل: استعارة تمثيلية؛ حيث شبه المستمسك بدين الإسلام بالمستمسك بالحبل المحكم، وعدم الانفصام ترشيح.

﴿لَا ٱنفِصَامَ﴾: لا انقطاع لها، والانفصام في اللغة: الانكسار من غير بينونة، والفصم: كسر مع بينونة، وفي صحيح الحديث عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «**فَيَفْصِمُ عَنْهُ ـ ﷺ ـ الوحيُ؛ وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عرقاً**». وخذ قوله تعالى في سورة (لقمان): ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰۗ﴾. هذا؛ ولما كان الكفر بالطَّاغوت، والإيمان بالله ما ينطق به اللسان، ويعتقده القلب؛ حَسُن قوله تعالى: ﴿سَمِيعٌ﴾ من أجل النُّطق، ﴿عَلِيمٌ﴾: من أجل المعتقد.

تنبيه: خذ سبب الآية الكريمة فيما يُروى عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: كانت المرأة من الأنصار قبل الإسلام لا يعيش لها ولد، فكانت تنذر: لئن عاش لها ولد؛ لتهوِّدنَّهُ، فإذا عاش جعلته في اليهود، فجاء الإسلام، وفيهم منهم، فلمَّا أجليت بنو النضير، كان فيهم عدد من أولاد الأنصار، فأرادوا استردادهم، وقالوا: هم أبناؤنا، وإخواننا، فنزلت الآية الكريمة، فقال رسول الله ﷺ: «**قَدْ خُيِّرَ أصحابُكُمْ فإنْ اختارُوكُمْ؛ فَهُمْ مِنْكُمْ، وَإِنْ اخْتَارُوهُمْ؛ فَأَجْلُوهُمْ مَعَهُمْ**».

وقيل: كان لرجلٍ من الأنصار، يقال له: أبو الحصين ابنان متنصِّران قبل الإسلام، ثم قدما المدينة المنوَّرة في نفر من النَّصارى يحملون الزيت. فلزمهما أبوهما، وقال: لا أدعكما حتَّى

تسلما، فاختصموا إلى النبي ﷺ، فقال الأب: يا رسول الله! أيدخل بعضي النار؛ وأنا أنظر إليه؟! فنزلت الآية الكريمة، فخلّى سبيلهما، وقيل: نزلت في أهل الكتاب؛ إذا قبلوا بذل الجزية، لم يُكرهوا على الإسلام. انتهى. خازن.

هذا واختلف في هذه الآية، فقيل: إنَّها منسوخة؛ لأنَّ النبي ﷺ أكره العرب على الإسلام، وقاتلهم، ولم يرض منهم إلا الإسلام، فنسختها الآية في سورة التَّوبة، وفي سورة التَّحريم، وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، وقال الرسول ﷺ: **«أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ؛ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا الله، فإذَا قَالُوهَا؛ عَصَمُوا مِنّي دِمَاءهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ. . .»**.

وقيل: إنَّها ليست بمنسوخة، وإنَّما نزلت في أهل الكتاب خاصَّةً، وأنَّهم لا يُكرهون على الإسلام إذا أدَّوا الجزية، والذين يُكرهون: أهلُ الأوثان، فلا يقبل منهم إلا الإسلام، فهم الَّذين نزل فيهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ﴾ والحجَّة لهذا القول ما رواه زيد بن أسلم عن أبيه، قال: سمعت عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يقول لعجوز نصرانيَّة: أسلمي أيتها العجوز؛ تسلمي، إنَّ الله بعث محمداً بالحقِّ، قالت: أنا عجوز، والموت إلَيَّ قريب، فقال عمر: اللهم اشهد، وتلا ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ...﴾ إلخ، والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿لَآ﴾: نافية للجنس تعمل عمل «إنَّ». ﴿إِكْرَاهَ﴾: اسمها مبني على الفتح في محل نصب. ﴿فِي ٱلدِّينِ﴾: متعلقان بمحذوف خبر ﴿لَآ﴾، والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها. ﴿قَد﴾: حرف تحقيق يقرب الماضي من الحال. ﴿تَّبَيَّنَ﴾: فعل ماض. ﴿ٱلرُّشْدُ﴾: فاعله. ﴿مِنَ ٱلْغَيِّ﴾: متعلقان بالفعل: ﴿تَّبَيَّنَ﴾، وهما في محل نصب مفعول به، أو هما متعلقان بمحذوف حال من ﴿ٱلرُّشْدُ﴾ والجملة الفعلية مفيدة للتعليل، لا محل لها، ﴿فَمَن﴾: الفاء: حرف استئناف، (من): اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿يَكْفُرْ﴾: فعل مضارع فعل الشرط، والفاعل يعود إلى (من). ﴿بِٱلطَّٰغُوتِ﴾: متعلقان به. ﴿وَيُؤْمِنۢ﴾: معطوف على ما قبله مجزوم مثله والفاعل يعود إلى (من) أيضاً. ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلقان به، ﴿فَقَدِ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (قد): حرف تحقيق مثل سابقه. ﴿ٱسْتَمْسَكَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى (مَنْ) أيضاً، والجملة الفعلية في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور، والدسوقي يقول: لا محل لها؛ لأنها لم تحلَّ محل المفرد. ﴿بِٱلْعُرْوَةِ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿ٱلْوُثْقَىٰ﴾: صفة (العروة) مجرورة مثله، وعلامة جره كسرة مقدرة على الألف للتعذُّر، وخبر المبتدأ الذي هو (مَنْ) مختلف فيه، فقيل: هو جملة الشرط، وقيل: هو جملة الجواب، وقيل: هو الجملتان، وهو المرجَّح لدى المعاصرين، والجملة الاسمية مستأنفة، لا محل لها. ﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾: إعراب هذه الجملة مثل إعراب ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾، وهي في محل جر صفة ثانية لـ (عروة)، أو في محل نصب حال منها بعد وصفها بما تقدَّم، والرابط على الاعتبارين الضمير، والجملة الاسمية: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾: معترضة في آخر الكلام، أو هي مستأنفة لا محل لها على الاعتبارين.

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥٧)﴾

الشرح: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾: أي: متولِّي أمورهم، وناصرهم على أعدائهم. هذا؛ ويكثر قوله تعالى: ﴿مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ فالولي: مَنْ يتولَّى شؤون غيره، والنَّصير: المعين والمساعد، والفرق بينهما أنَّ الولي قد يضعف عن النُّصرة، والمعاونة، والنَّصير قد يكون أجنبيّاً من المنصور، فبينهما عمومٌ، وخصوصٌ من وجه. هذا؛ والولي لله: العارف بالله تعالى على حسب ما يمكن المواظبة على الطَّاعات، المعرض على الانهماك في اللَّذات والشَّهوات. وفيه وجهان: **أحدهما**: أنَّه فعيل بمعنى مفعول، كقتيل بمعنى مقتول، وجريح بمعنى مجروح، فعلى هذا هو مَنْ يتولَّى الله حفظَه، ورعايته، فلا يكله إلى غيره، ونفسه طرفة عين، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾، **والوجه الثاني**: أنَّه فعيل مبالغة من فاعل، كرحيم، وعليم، بمعنى: راحم، وعالم، فعلى هذا هو مَنْ يتولَّى عبادة الله تعالى، من غير أن يتخلَّلها عصيان، أو فتور، وكلا المعنيين شرط في الولاية، فَمِنْ شرط الولي أن يكون محفوظاً، كما أنَّه من شرط النَّبيِّ أن يكون معصوماً، فكلُّ من كان للشرع عليه اعتراض؛ فليس بوليٍّ، بل هو مغرور مخادع، ذكره الإمام أبو القاسم القشيري، وغيره من أئمة الطَّريقة، رحمهم الله تعالى من شرح ألفاظ الزبد للشَّيخ أحمد بن حجازي الفشني، رحمه الله تعالى، وربنا يقول في الحديث القدسيِّ: **«مَنْ عَادَى لِي وَلِيّاً فقدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرِبِ»** انظر الآية رقم [٢٧٩] الآتية.

﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾: الظلمات: جمع ظلمة، وهي الكفر، والجهل، والظلم، ونحو ذلك، وإنَّما جمعها لتعدُّد فنون الضَّلال، والمعاصي. ﴿النُّورِ﴾: الهدى، والإيمان، وإنَّما لم يجمع؛ لأن الإيمان واحد لا يتعدَّد بخلاف الضَّلال، قال تعالى في سورة (الأنعام) رقم [١٥٣]: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ﴾.

وقال الشاعر الحكيم: [البسيط]

الطُّرْقُ شَتَّى وَطُرْقُ الْحَقِّ مُفْرَدَةٌ ... وَالسَّالِكُونَ طَرِيقَ الْحَقِّ أَفْرَادُ

لَا يُعْرَفُونَ وَلَا تُدْرَى مَقَاصِدُهُمْ ... فَهُمْ عَلَى مَهَلٍ يَمْشُونَ قُصَّادُ

وَالنَّاسُ فِي غَفْلَةٍ عَمَّا يُرَادُ بِهِمْ ... فَجُلُّهُمْ عَنْ سَبِيلِ الْحَقِّ رُقَّادُ

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾ المراد به الجمع، ولذا قرئ: (الطَّواغيت)، وفسر بكعب بن الأشرف، وحيي بن أخطب، وسائر رؤوس الضَّلالة في كلِّ زمانٍ، ومكان.

﴿يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾: في معنى هذا الإخراج قولان: إما في مقابلة الأول، أو فيمن آمن من اليهود بالنَّبي ﷺ قبل وجوده، وبعثته، كما رأيته فيما سبق في الآية رقم [٨٩] ثمَّ كفر به بعد بزوغ فجر الإسلام. هذا؛ وإنَّ في الكلام استعارة؛ حيث استعير لفظ الظُّلمات للكفر، وما يتعلق به، والجامع بينهما عدم الاهتداء، واستعير لفظ النُّور للإيمان بجامع الاهتداء في كلٍّ منهما. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾: جعل الله الكفار أصحاب النار، بمعنى مالكيها بملازمتهم لها، وعدم انفكاكهم عنها، وقل مثله في ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ﴾. ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾: مقيمون، ماكثون، لا محيد لهم عنها، ولا محيص، قال رسول الله ﷺ: «**أَمَّا أَهْلُ النَّارِ، الذينَ هُمْ أَهْلُهَا، فَلَا يَمُوتُونَ فِيهَا، وَلَا يَحْيَوْنَ، وَلَكِنْ أَقْوَامٌ أَصَابَتْهُمُ النَّارُ بخطاياهمْ، فَأَمَاتَتْهُمْ إِمَاتَةً حَتَّى إِذَا صَارُوا فَحْماً أُذِنَ لَهمْ فِي الشَّفاعةِ**» رواه مسلم من حديث شعبة عن أبي سلمة ـ رضي الله عنه ـ، والمذكورون في آخر الحديث هم عصاة المسلمين يدخلون النار، ويعذَّبون على حسب جرائمهم، ثمَّ يخرجون منها حمماً ثمَّ يدخلون الجنة.

هذا و﴿أَصْحَٰبُ﴾ جمع: صاحب، ويكون بمعنى المالك كما هنا، ويكون بمعنى الصَّديق، ويجمع أيضاً على صحب، وصِحاب، وصَحابة، وصُحبة، وصُحبان، ثم يجمع أصحاب على أصاحيب، والصَّحابيُّ: هو من اجتمع مع الرَّسول ﷺ في حياته ولو ساعة بشرط أن يكون مسلماً موحِّداً، فإن اجتمع بالنبي ﷺ وجالسه في حياته وهو غير مؤمن ثمَّ آمن به بعد وفاته، مثل كعب الأحبار؛ فيقال عنه: تابعي.

الإعراب: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ﴾: مبتدأ، وخبر، و﴿وَلِيُّ﴾ مضاف، و﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿ءَامَنُواْ﴾: فعل ماض مبني على الضم، والواو فاعله، والألف للتفريق، والمتعلَّق محذوف، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محلَّ لها. ﴿يُخْرِجُهُم﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى ﴿ٱللَّهُ﴾، والهاء مفعول به، والجملة الفعلية في محل رفع خبر ثان للمبتدأ، أو في محل نصب حال من واو الجماعة، والرابط: الضمير فقط، وجوز الاستئناف، وهو ضعيف. ﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾: كلاهما متعلقان بالفعل ﴿يُخْرِجُهُم﴾. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ أول، وجملة: ﴿كَفَرُوٓاْ...﴾ إلخ مع المتعلق المحذوف صلته، ﴿أَوْلِيَآؤُهُمُ﴾: مبتدأ ثان، والهاء في محل جر بالإضافة من إضافة جمع اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿ٱلطَّٰغُوتُ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل رفع خبر ﴿ٱلَّذِينَ﴾، والجملة الاسمية هذه معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها، الأولى بالاستئناف، والثانية بالإتباع. ﴿يُخْرِجُونَهُم﴾: فعل مضارع مرفوع، وفاعله ومفعوله، والجملة الفعلية يجوز فيها ما جاز بسابقتها. ﴿مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾: كلاهما متعلقان بالفعل قبلهما.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ، والكاف حرف خطاب، لا محل لها، ﴿أَصْحَٰبُ﴾: خبره، وهو مضاف، و﴿ٱلنَّارِۖ﴾: مضاف إليه من إضافة جمع اسم

الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها. ﴿هُمْ﴾: ضمير منفصل مبني على السكون في محل رفع مبتدأ، ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور متعلقان بما بعدهما. ﴿خَٰلِدُونَ﴾: خبر المبتدأ مرفوع، وعلامة رفعه الواو... إلخ، والجملة الاسمية هذه في محل نصب حال من ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾، والعامل في الحال اسم الإشارة لما فيه من معنى الفعل، والرابط: الضمير فقط، وجوز اعتبارها خبراً ثانياً لـ ﴿أُولَٰٓئِكَ﴾، والأول أقوى؛ لأنَّ لها نظائر مثل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾

الشرح: لما ذكر الله تعالى الإيمان بالله وصفاته القدسية العلية، وذكر ولايته للمؤمنين، وولاية الطاغوت للكافرين؛ ذكر هنا نموذجاً عن تحكم الطغيان في نفوس الكفرة المعاندين، ومجادلتهم في وحدانية الله، فذكرها هنا قصصاً ثلاثة: الأولى في بيان إثبات الخالق الحكيم، والثانية، والثالثة في إثبات الحشر، والبعث بعد الفناء.

﴿أَلَمْ تَرَ...﴾ إلخ: الخطاب للنبي ﷺ أو لكل أحدٍ، والاستفهام تعجب وتشويق إلى استماع ما بعده إن كان المخاطب لم يعلم بحال المذكورين، أو استفهام تقرير إن كان المخاطب يعلم بحال المذكورين، ويجوز أن يخاطب به من لم ير، ولم يسمع؛ لأن هذا الكلام جرى مجرى المثل في معنى التعجب.

﴿إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾: هو النُّمرود بن كوش، بن كنعان، بن سام، بن نوح النبي، على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام، كان ملكَ زمانه، وهو أوَّل من وضع التاج على رأسه، وتجبَّر في الأرض، وادَّعى الرُّبوبية، وهو صاحب النَّار، والبعوضة، وكان هلاكه كما يلي:

طلب المحاربة مع الله تعالى، ففتح الله عليه باباً من البعوض، فستروا عين الشَّمس، وأكلوا عسكره، ولم يتركوا إلا العظام بعد أن أكلوا لحومهم، وشربوا دماءهم، ودخلت واحدة منها في دماغه، فأكلته؛ حتَّى صارت مثل الفأرة، فكان أرحم الناس به من يجمع له يديه، ثمَّ يضرب بهما رأسه، فبقي في ذلك أربعين يوماً، وقيل: أربعين سنة، ثم انفجر رأسُه وخرجت، وهي تقول: هذا جزاء مَنْ يحارب الله، وكان مُلْكُه فيما ذكروا أربعمئة عام.

وفي قصص هذه المحاجة روايتان:

إحداهما: أنَّهم خرجوا إلى عيدٍ لهم، فتخلف إبراهيم ودخل على أصنامهم، فكسرها، فلما رجعوا، وتساءلوا مَنْ كسرها؟ قال لهم: ﴿أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ﴾؟! فقالوا: فمن تعبد؟ قال: أعبد ربِّي الذي يحي ويميت.

والثانية: أن نمرود كان يحتكر الطَّعام، فكان إذا أتى أحد يمتار سأله: مَنْ ربُّك؟ فيقول: أنت، فيميره، فخرج إبراهيم عليه السلام إليه ليميره الطَّعام لأهله، فقال له: من ربك؟ قال: ربي الَّذي يحيي، ويميت... إلخ، فردَّه بغير طعام، فرجع إبراهيم إلى أهله، فمرَّ على كثيب رملٍ أعفر، فملأ غرارتين منه تطييباً لقلوب أهله إذا دخل عليهم، فلمَّا أتى أهله؛ وضع متاعه، فنام، فقامت زوجتُه سارة عليها السلام إلى رحله، ففتحته، فإذا هو طعام أجود ما رآه أحدٌ، فصنعت منه خبزاً، فلما استيقظ قرَّبته إليه، فقال لها عليه السلام: من أين هذا؟ قالت: من الطعام الذي جئت به، فعلم: أن الله قد رزقه ذلك بقلب الرَّمل قمحاً، فحمد الله تعالى.

﴿أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ﴾ أي: طغى، وتجبَّر؛ لأنَّ الله آتاه الملك، وكان الأحرى به أن يشكر الله، ويعبده، قال مجاهد ـ رحمه الله تعالى ـ: ملك الأرض أربعةٌ: مؤمنان، وكافران؛ فأمَّا المؤمنان؛ فسليمان بن داود وإسكندر ذو القرنين، وأما الكافران؛ فنمرود، وبختنصر. وقيل: كلاهما ولد زنىٰ، وُجِدا لقيطين عند الأصنام، فبختنصر حقيقة لقيط، فاسمه مركب من: بخ: بمعنى ابن بالفارسية، وتُنُصَّر: اسم الصَّنم، فمعناه: ابن الصنم.

﴿إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾: هذا الكلام كان جواباً للنمرود اللَّعين لمَّا قال له: مَنْ تعبد؟ ﴿قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ﴾ أي: بالقتل، والعفو، فدعا برجلين، فقتل أحدهما، وترك الآخر. ﴿قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ﴾: هذا من إبراهيم عليه الصلاة والسلام انتقال إلى حجة أوضح، فإنَّه لمَّا رآه غبيّاً أحمق؛ قال له هذا الكلام، والمعنى: إذا كنت كما تدَّعي من أنك تحيي، وتميت، فالَّذي يحيي، ويميت هو الَّذي يتصرف بالوجود، في خلق ذراته، وتسخير كواكبه، وحركاته، فهذه الشمس تبدو كلَّ يوم من المشرق، فإن كنت إلهاً كما ادعيت تحيي وتميت، فائتِ بها من المغرب؟.

﴿فَبُهِتَ﴾: أفحم، وأخرس، وتحيَّر، ودُهِشَ، وهذا الفعل من الأفعال التي جاءت على صورة المبني للمجهول، والمعنى فيها للمعلوم. هذا؛ ويقال: بَهُتَ الرَّجل، وبَهِت، وبُهِت، إذا انقطع، وسكت متحيِّراً، وورد في الخبر: «**أنَّ الله تعالى قال: وعزَّتي، وجلالي! لا تقوم الساعة حتى آتي بالشمس من المغرب ليُعْلَمَ أنِّي القادر على ذلك**». هذا وبين ﴿يُحۡيِۦ﴾ و(يميت) وبين ﴿ٱلۡمَشۡرِقِ﴾ و﴿ٱلۡمَغۡرِبِ﴾ طباق، وهو من المحسِّنات البديعيَّة.

هذا؛ و﴿ٱلۡمَشۡرِقِ﴾: موضع شروق الشمس، و﴿ٱلۡمَغۡرِبِ﴾: موضع غروبها، وفي سورة (الرحمن): ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ﴾ أي: مشرقي الشِّتاء، والصيف، ومغربيهما، وفي سورة

(المعارج): ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾ فقد جمع المشرق والمغرب، كما ترى باعتبار مشارق الشَّمس ومغاربها في السَّنة، وهي ثلاثمئة وستون، تشرق كلَّ يوم في واحدٍ منها، وكذا تَغْرُب في واحدٍ منها. هذا؛ وفي تقديم المشرق على المغرب في جميع حالاته يوحي بأفضليته عليه، وكان من حقِّ المشرق والمغرب، فتح العين، وهي الراء فيهما؛ لأن المصدر الميمي، واسمي الزمان، والمكان إذا أخذ أحدهما من فعل ثلاثي مفتوح العين، أو مضمومها في المضارع أن يكون بفتح العين قياساً، ولكن التلاوة جاءت بكسرها، وأيضاً جاء كثير بكسر العين، وهو مذكور في كتب اللغة، والنحو، من ذلك: المسجد والمنبت، والمسقط، والمرفق، والمنخر، والمجزِر، والتحقيق أنها أسماء نوعية غير جارية على فعلها، وإلا فلا مانع من الفتح.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: لا يرشدهم، ولا يوفقهم إلى حجَّة يدحضون بها حجج أهل الحق عند المحاجَّة، والمخاصمة، وفي الآية الكريمة دليلٌ على جواز مناظرة الكفار، والملحدين؛ لإظهار الحقِّ، وفي القرآن الكريم، والسُّنة المطهَّرة مِنْ هذا كثير لِمَنْ تأمَّله، انظر آية المباهلة في سورة (آل عمران) رقم [٦١].

الإعراب: ﴿أَلَمۡ﴾: الهمزة: حرف استفهام، وانظر الشرح. (لم): حرف نفي، وقلب، وجزم. ﴿تَرَ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ (لم) وعلامة جزمه حذف حرف العلة من آخره، وهو الألف، والفتحة قبلها دليل عليها، والفاعل ضمير مستتر تقديره: أنت، وهو لازم لأنَّه بمعنى تنظر، تعدَّى بحرف الجر. ﴿إِلَى ٱلَّذِي﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، وهما في محل نصب مفعول به. ﴿حَآجَّ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى النمرود، وهو غير مذكور، ولكنَّه مفهوم من المقام، كما في قوله تعالى في سورة (الواقعة): ﴿فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ﴾، وفي سورة (القيامة): ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ۝٢٦ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ﴾ فإن الفاعل في الآيتين الرُّوح، ولم يتقدَّم لها ذكر، وأيضاً قوله تعالى في سورة (هود) على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام: ﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ﴾ ومثل هذه الآيات في الشِّعر كثير، أكتفي بقول حاتم الطَّائي: [الطويل]

لَعَمْرُكَ مَا يُغْنِي الثَّراءُ عَنِ امْرِئٍ ... إِذَا حَشْرَجَتْ يَوْماً وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ

﴿إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾: مفعول به. ﴿فِي رَبِّهِۦٓ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، والهاء في محل جرٍّ بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه، وجملة: ﴿حَآجَّ...﴾ إلخ صلة الموصول، لا محل لها، والجملة الفعلية: ﴿أَلَمۡ تَرَ...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها. ﴿أَنۡ﴾: حرف مصدري ونصب. ﴿ءَاتَىٰهُ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف للتعذر، وهو في محل نصب بـ ﴿أَنۡ﴾، والهاء في محل نصب مفعول به أول. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله. ﴿ٱلۡمُلۡكَ﴾: مفعول به ثان: و﴿أَنۡ﴾ والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر محذوف عند الخليل، التقدير: لإتيانه الملك، والجار والمجرور متعلقان بالفعل ﴿حَآجَّ﴾، وفي محل نصب بنزع الخافض عند

سيبويه. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان، مبني على السكون في محل نصب متعلق بـ ﴿حَآجَّ﴾ أو بـ (أتى)، وقيل: بدل من المصدر المؤول، وليس بشيء؛ لأنَّ الظرف غير المصدر، إلا أن تقدر ﴿إِذْ﴾ بمعنى «أن» المصدرية. انتهى. عكبري. وقال الجلال: بدل من ﴿حَآجَّ﴾ بدل اشتمال؛ لأنَّ وقت القول المذكور يشتمل على المحاجَّة، وعلى غيرها؛ لأنَّه أوسع منها. انتهى. جمل.

﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ﴾: ماض، وفاعله. ﴿فَإِنَّ﴾ الفاء: صلة، وقال الجمل: والفاء في جواب شرط مقدر، أي: إن كنت قادراً كقدرة الله؛ فإنَّ الله... إلخ، وقال أبو البقاء ـ رحمه الله تعالى ـ: أو دخلت الفاء إيذاناً بتعلُّق هذا الكلام بما قبله، والمعنى: إذا ادعيت الإحياء، والإماتة، ولم تفهم؛ فالحجَّة أنَّ الله يأتي بالشَّمس، هذا هو المعنى. أقول: اعتبار الفاء الأولى صلة، والثانية الفصيحة هو الأولى، والأقوى. (إن): حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿يَأْتِي﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء للثقل، والفاعل يعود إلى ﴿ٱللَّهَ﴾. ﴿بِٱلشَّمْسِ﴾: متعلقان به، والجملة الفعلية في محل رفع خبر (إنَّ)، والجملة الاسمية في محل جزم، إن كان الشرط المقدر «إنْ» ولا محل لها إن كان الشرط المقدر «إذا». ﴿مِنَ ٱلْمَشْرِقِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿فَأْتِ﴾: الفاء: هي الفصيحة على المعتمد. (ائت): فعل أمر مبني على حذف حرف العلَّة من آخره، وهو الياء، والكسرة قبلها دليل عليها، والفاعل مستتر تقديره: أنت. بها: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾: متعلقان به أيضاً، والجملة الفعلية لا محل لها كما رأيت، وهي من جملة مقول القول.

﴿فَبُهِتَ﴾: الفاء: حرف استئناف. (بهت): فعل ماض مبني للمجهول. ﴿ٱلَّذِى﴾: نائب فاعله، والجملة الفعلية مستأنفة لا محلَّ لها. ﴿كَفَرَ﴾: فعل ماض، وفاعله يعود إلى ﴿ٱلَّذِى﴾ وهو العائد، والجملة صلته، لا محل لها. ﴿وَٱللَّهُ﴾: الواو: واو الاعتراض. (الله): مبتدأ. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَهْدِى﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء للثقل، والفاعل يعود إلى (الله) والجملة في محل رفع خبر المبتدأ، ﴿ٱلْقَوْمَ﴾: مفعول به. ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: صفة ﴿ٱلْقَوْمَ﴾ منصوب مثله، والجملة الاسمية معترضة في آخر الكلام، أو مستأنفة لا محلَّ لها على الاعتبارين.

تنبيه: ذكرت لك في الإعراب: أنَّ مفعول ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ و﴿أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾ محذوف، وفيه وفي أمثاله قال ابن هشام في المغني: إذا تعلق الإعلام بمجرد إيقاع الفاعل للفعل، فيقتصر عليهما، ولا يذكر المفعول ولا يُنْوَى؛ إذ المنوِيُّ كالثَّابت، ولا يسمَّى محذوفاً؛ لأنَّ الفعل ينزل لهذا القصد منزلة ما لا مفعول له، ومنه ما ذكر في هذه الآية، وقوله تعالى في سورة (الزمر) رقم [٩]: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وقوله تعالى في الآية رقم [١٨٧] في هذه السورة وفي سورة (الأعراف) رقم [٣١]: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟...﴾ إلخ، وقوله تعالى في سورة (الدَّهر): ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ﴾.

﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾

الشرح: ﴿أَوْ كَالَّذِى...﴾ إلخ: التقدير عند الكسائي، والفراء: هل رأيت كالَّذي حاجَّ إبراهيم في ربه؟ أو كالذي مر على قرية؟ وقال المبرد: المعنى: ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه، ألم تر من هو كالذي مرَّ على قريةٍ؟ فأضمر في الكلام: مَنْ هو. انتهى. قرطبي. وقيل: الكاف مزيدة، وتقدير الكلام: ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم، أو الذي مرَّ على قرية؟. انتهى. بيضاوي. وهو فحوى قول الزَّمخشري: ويجوز أن يحمل على المعنى دون اللفظ، كأنه قيل: أرأيت كالَّذي حاجَّ إبراهيم؟ أو كالذي مرَّ على قرية؟ وتخصيص الكلام بحرف التشبيه؛ لأن المُنكر للإحياء كثيرٌ، والجاهر بكيفيته أكثر من أن يُحصى بخلاف مدَّعي الرُّبوبية.

والذي مرَّ هو عزير بن شرخيا، وهو مِنْ سبط هارون بن عمران. ﴿عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾: هي بيت المقدس حين خرَّبه بختنصر بعد سليمان بن داود، على نبينا، وعليهما ألف صلاة، وألف سلام، وانظر ما ذكرته في أول سورة (الإسراء). وقيل: هي القرية التي خرج منها الألوف المذكورون في الآية رقم [٢٤٣]، وليس بشيء. هذا؛ والقرية اسم للمكان الذي يجتمع فيه القوم، وهو يطلق على المدينة الكبيرة وعلى غيرها، كيف لا؟ وقد جعل الله جل ذكره مكة المكرمة أم القرى في قوله تعالى شأنه في الآية رقم [٩٢] من سورة (الأنعام): ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ﴾، كما تطلق على الضَّيعة الصغيرة، وهي مأخوذة من: قريت الماء في المكان: جمعته، وفي القاموس المحيط: القرية بكسر القاف وفتحها، والنسبة إليها قَرَوِيٌّ، وقَرَئِيٌّ، والفتح أقوى.

﴿وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾: خالية، ساقطةٌ حيطانها على سقوفها، فوقف متنكراً فيما آل إليه أمرها بعد العمارة العظيمة، والزخرفة الجميلة؛ التي صنعها سليمان فيها. ﴿قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ﴾: وذلك لما رأى من دثورها، وشدَّة خرابها، وإحياؤها إنما هو بعمارتها، وتشييدها، ووجود السكان فيها، وخوت الدار، وخويت: لا سكان فيها، ومنه قوله تعالى في سورة (النمل) رقم [٥٢]: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ﴾، وقوله هذا تلهُّفٌ على مدينته التي عهد فيها أهله، وأحبته، ثمَّ رآها خراباً يباباً، وعلى كلٍّ فموت القرية هو موت سكانها، فهو مجاز مرسل من قبيل إطلاق المحل، وإرادة الحال.

﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِائَةَ عَامٍ﴾: قبض روحه، وتركه جثَّةً هامدة لا حراك فيها، والعام: السنة، والحول، وجمعه: أعوام. ﴿ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾: أحياه بردِّ روحه إليه. ويحكى في قصص هذه الآية: أنَّ الله تعالى بعث لها مَلِكاً من المُلوك يعمرها، ويجدُّ في ذلك حتَّى كان كمال عمارتها بعث القائل، وعمرت البلدة بعد مضي سبعين سنة من موته، ورجع بنو إسرائيل إليها، فلمَّا أحياه الله، فكان أوَّل شيءٍ أحياه فيه عيناه لينظر بها إلى صنع الله، كيف يحيي الله بدنه، فلمَّا استوى قائماً سويّاً، قال الله له بواسطة المَلك: ﴿كَمْ لَبِثْتَ﴾: كم نمت، ومكثت في هذه الحال؟ قال: لبثت يوماً أو بعض يوم؛ وذلك أنَّه مات أوَّل النهار، ثم بعثه في آخر النَّهار. فلما رأى الشمس عصراً ظنَّ: أنها شمس ذلك اليوم، ومثله ما ذكر الله في شأن أهل الكهف: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾. ﴿قَالَ﴾: أي المَلَكُ لعزير. ﴿بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾ أي: مكثت ميتاً مئة عام كاملة. ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ أي: إن شككت في ذلك؛ فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتغيَّر بمرور الزمن، وكان معه عنب، وتين، وعصير، فوجدها على حالها لم تفسد، والهاء في ﴿يَتَسَنَّهْ﴾ أصلية، أو هاء السكت، واشتقاقه من السَّنَه على الوجهين؛ لأنَّ لامها هاء؛ لأن الأصل سَنَهَة، والفعل سانهتُ، يقال: سانهتُ فلاناً، أي: عاملته سنةً، أو واو لأن الأصل سنوةٌ، والفعل سانيْتُ. قال النَّحاس: أصح ما قيل فيه: أنه من السَّنة، أي لم تغيره السِّنون، ويحتمل أن يكون من السَّنة، وهي الجدب، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ وانظر الإعراب. هذا؛ ولم يُثَنَّ فاعله مع كونه عائداً على الطعام والشراب؛ لأحد أمرين: إما لكونهما متلازمين، فصارت كالشيء الواحد، وهو الغذاء، وإما لأنَّ الضمير يعود إلى الشراب فقط، وثمَّ جملة أخرى مقدرة حذفت لدلالة هذه عليها، والتقدير: انظر إلى طعامك لم يتسنه، وإلى شرابك لم يتسنه. انتهى. ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي: دليلاً على البعث، والحشر، والنشور بعد الموت.

﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾: نحييها، أو نرفع بعضها فوق بعض، ونركبه عليه، والنشز: المرتفع من الأرض، والارتفاع، ومنه المرأة النشوز، والناشز: وهي المرتفعة عن موافقة زوجها، قال تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾، ومنه قوله تعالى في سورة (المجادلة): ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟﴾، وقال الشاعر: [الطويل]

تَرَى الثَّعْلَبَ الْحَوْلِيَّ فِيهَا كَأَنَّهُ ... إذا مَا عَلَا نَشْزاً حِصَانٌ مُجَلَّلُ

﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾: الكسوة ما وارى الجسد من الثياب، واستعيرت هنا لما أنشئ من اللحم الذي غطى العظم، وهي استعارة جيدة، وحسنة. ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ﴾: لمَّا اتضح له عياناً ما كان مستنكراً في قدرة الله عنده قبل عيانه، ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ...﴾ إلخ: قال: أيقنت وعلمت علم مشاهدة أنَّ الله قادرٌ، ومقتدر لا يعجزه شيء.

هذا والحمار معروف، يكون وحشيّاً، ويكون أهليّاً، وأنثاه: أتان، ويقال: حمارة أيضاً، ويجمع على حمير، وحمر، وحمور، وحمرات، وكلُّها للكثرة، ويجمع جمع قلَّة على أحمرة، قال الرَّاعي النّميري، أو القتال الكلابي، وهو الشَّاهد رقم [٣٢] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»: [البسيط]

هُنَّ الْحَرَائِرُ، لَا رَبَّاتُ أَحْمِرَةٍ سُودُ الْمَحَاجِرِ، لَا يَقْرأنَ بِالسُّوَرِ

ولفظ ﴿ٱلْحَمِيرِ﴾ ورد في سورة (النَّحل)، وفي سورة (لقمان) ولفظ ﴿حُمُرٌ﴾ ورد في سورة (المدثِّر)، ولفظ المفرد ذكر في هذه السورة والحمار الأهلي يوصف بالهداية إلى سلوك الطرقات التي مشى فيها، ولو مرَّةً واحدةً، وبحدَّة السمع، وللناس في مدحه وذمِّه أقوال متباينة، وقد أطال الدَّميري الكلام فيه.

بعد هذا أذكر: أن بني إسرائيل لمَّا بالغوا في الفساد؛ سلَّط الله عليهم بختنصر البابلي ملك الفرس، فسار إليهم في ستمئة ألف راية، فخرَّب بيت المقدس الذي بناه سليمان على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام، وجعل بني إسرائيل أثلاثاً: ثلثاً قتله، وثلثاً أقرَّه بالشام، وثلثاً سباه، وكان هذا الثلث مئة ألف فقسمه بين الملوك الذين كانوا معه، وكان عُزير من جملة السَّبي، فلمَّا خلص من السبي، وجاء إلى بيت المقدس، ورآها على تلك الحالة، قال: أنَّى يحيي هذه الله بعد موتها؟ وكان راكباً على حمارٍ، دخلها، وطاف بها فلم ير أحداً، وكان إذ ذاك غالب أشجارها حاملاً ثمره، فأكل من الفاكهة، واعتصر من العنب، فشرب منه، وجعل فضل الفاكهة في سلَّة، وفضل العصير في زقٍّ أو ركوة، ثم ربط حماره بحبل قوي وثيق، وألقى الله عليه النوم، فلمَّا نام نزع روحه، وأمات حماره، وبقي عصيره وتينه المعبَّر عنه بالطعام عنده، وذلك ضحىً، ومنع لحمه من السِّباع، والطير.

فلما مضى من وقت موته سبعون سنة أرسل الله مَلكاً من الملائكة إلى ملك من ملوك فارس، يقال له: بوشك، وكان صالحاً، وقال له: إن الله يأمرك أن تنفر بقومك، فتعمرَ بيت المقدس، حتى يعود كما كان، فسار بجنوده حتى أتاه، فعمره، وصار أحسن ما كان، ورد الله من بقي من بني إسرائيل إلى بيت المقدس ونواحيه، فعمروه في ثلاثين سنة، وكثروا أحسن ممَّا كانوا، وأعمى الله العيون عن العُزير هذه المدَّة، فلم يره أحد، فلما مضت المئة أحيا الله تعالى منه عينيه، وسائر جسده ميت، ثمَّ أحيا الله تعالى جسده، وهو ينظر، ثم نظر إلى حماره، وعظامه بيض متفرقة، فسمع صوتاً من السَّماء: أيتها العظام البالية! إنَّ الله يأمرك أن تجتمعي، فاجتمع بعضها إلى بعض، ثم نودي: إنَّ الله يأمرك أن تكتسي لحماً وجلداً، فكان كذلك، ثم نودي: إنَّ الله يأمرك أن تحيا، فقام الحمار بإذن الله، ثم نهق. انتهى. خازن.

هذا وقال الأعمش: جعل الله عزيراً موضع آية: أنَّه جاء شابّاً على حاله يوم مات، فوجد الأبناء والحفدة شيوخاً، وروي عن عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ عزيراً خرج من أهله، وخلَّف امرأته

حاملاً، وله خمسون سنة، فأماته الله مئة عام، ثم بعثه، فرجع إلى أهله، وهو ابن خمسين سنة، وله ولد من مئة سنة، فكان ابنه أكبر منه بخمسين سنة، وروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أنه قال: لمَّا أحيا الله عزيراً ركب حماره، فأتى محلَّته، فأنكر الناس، وأنكروه، فوجد في منزله عجوزاً عمياء كانت أمةً لهم، خرج عنهم عزير، وهي بنت عشرين سنة، فقال لها: هذا منزل عزير؟ فقالت: نعم، ثمَّ بكت، وقالت: فارقنا عزير منذ كذا، وكذا سنة، قال: فأنا عزير، قالت: إن عزيراً فقدناه منذ مئة سنة، قال: فالله أماتني مئة سنة، ثم بعثني، قالت: فعزير كان مستجاب الدَّعوة للمريض، وصاحب البلاء، فيفيق، فادع الله يرد عليَّ بصري! فدعا الله، ومسح على عينيها بيده، فصحَّت مكانها كأنَّها نشطت من عقال: قالت: أشهد أنَّك عزيز، ثم انطلقت إلى بني إسرائيل، وفيهم ابن العزير شيخ ابن مئة وثمانية وعشرين سنة، وبنو بنيه شيوخ، فقالت: يا قوم! هذا عزير: فأقبل إليه ابنه مع الناس، وقال: كان لأبي شامة سوداء مثل الهلال بين كتفيه، فنظرها فإذا هو عزير.

وقيل: لما رجع عزير إلى قريته، وكان بختنصر قد أحرق التَّوراة، فكان يحفظها في صدره، فلمَّا قال لهم: أنا عزير، فلم يصدقوه، فقال: أنا عزير، وقد بعثني الله إليكم لأجدِّد لكم توراتكم، قالوا: فأمْلِهَا علينا، فأملاها عليهم مِنْ ظهر قلبه، فقالوا: ما جعل الله التوراة في قلب رجل بعدما ذهبت إلا أنَّه ابنُه، وانظر ما ذكرته في سورة (التوبة) رقم [٣٠].

تنبيه: قاتل الله اليهود أنى يؤفكون، فقد حدثهم النبي ﷺ بأحاديث ما هو من صميم عقائدهم، وبأمور من تاريخهم، وبأشياء كثيرة من مفاسدهم، لا يعلم ذلك إلا المهرة فيهم، والنبي ﷺ كان أميّاً لا يقرأ ولا يكتب، ولم يتصل بواحد من علمائهم، فمن أين أتى بذلك؟ إن هو إلا وحي يوحى.

خاتمة بل فائدة: لم يحفظ التوراة غيباً سوى أربعة: موسى وهارون، ويوشع بن نون وعزير، بينما يوجد من أمة محمد ﷺ في كل زمان الألوف من حفظة القرآن غيباً والحمد لله!.

الإعراب: ﴿أَوْ﴾: حرف عطف. ﴿كَالَّذِي﴾: الكاف اسم بمعنى «مثل» مبني على الفتح في محل نصب، انظر تقديره في الشرح، والكاف مضاف، و(الذي): اسم موصول مبني على السكون في محل جر بالإضافة، وقيل: الكاف صلة، و(الذي) معطوف على مثله في الآية السابقة، انظر الشرح أيضاً. ﴿مَرَّ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى (الذي) وهو العائد، والجملة الفعلية صلته، لا محل لها، ﴿عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿وَهِيَ﴾: الواو: واو الحال. (هي): ضمير منفصل مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ. ﴿خَاوِيَةٌ﴾: خبر المبتدأ، وفاعله مستتر فيه. ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾: متعلقان بـ ﴿خَاوِيَةٌ﴾، و(ها) في محل جر بالإضافة، والجملة الاسمية في محل نصب حال من ﴿قَرْيَةٍ﴾، وهي نكرة، وكان الواجب أن تكون صفة على القاعدة: «الجمل بعد النكرات صفات، وبعد المعارف أحوال» والمعارض في ذلك الواو، فإنَّها لا تعترض بين الصِّفة والموصوف، خلافاً للزمخشري وأبي البقاء، وإنما توسَّطت الواو في رأي الزمخشري لتأكيد لصوق

الصِّفة بالموصوف، وهذا الذي أجازه أبو البقاء هنا، والزَّمخشري في الآية الكريمة: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ رقم [٤] من سورة (الحجر) هو رأي ابن خَيْران وسائر النحويين يخالفونه، ومثل هذه الآية رقم [٢١] والشاهد على هذه المسألة في مغني اللبيب قول قيس بن ذريح، وهو الشاهد رقم [٧٩٦] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»: [الطويل]

مضَى زَمَنٌ، وَالنَّاسُ يَسْتَشْفِعُونَ بِي فَهَلْ لِي إِلَى لَيْلَى الْغَدَاةَ شَفِيعُ؟

وقد أغرب الجَمَل في اعتبارها حالاً من فاعل ﴿مَرَّ﴾، كما أغرب أبو البقاء كلَّ الغرابة باعتبار الجار والمجرور بدلاً من ﴿عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾، وقدَّر تقديرات لا وجه لها بعد أن ذكر تعليقهما بـ ﴿خَاوِيَةٌ﴾ وهو الوجه الصحيح لا غير. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى عُزير المعبر عنه بـ: (الذي مر). ﴿أَنَّىٰ﴾: اسم استفهام مبني على السكون في محل نصب على الظرفية الزَّمانية متعلق بالفعل بعده، وهو بمعنى: متى، أو هو في محل نصب حال من ﴿هَٰذِهِ﴾ إن كان بمعنى: كيف. ﴿يُحْيِۦ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء للثقل. ﴿هَٰذِهِ﴾: الهاء: حرف تنبيه لا محل له. (ذه): اسم إشارة مبني على الكسر في محل نصب مفعول به.

﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله. ﴿بَعْدَ﴾: ظرف زمان متعلق بالفعل قبله، ويحتمل تعليقه بمحذوف حال من ﴿هَٰذِهِ﴾، و﴿بَعْدَ﴾ مضاف، و﴿مَوْتِهَا﴾: مضاف إليه، والهاء في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قَالَ...﴾ إلخ مستأنفة لا محلَّ لها؛ لأنَّها بمنزلة جواب لسؤال مقدر. ﴿فَأَمَاتَهُ﴾: الفاء: حرف عطف. (أماته): فعل ماض، والهاء مفعول به. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله، والجملة الفعلية معطوفة على جملة: ﴿قَالَ...﴾ إلخ، لا محلَّ لها مثلها ﴿مِاْئَةَ﴾ ظرف زمان متعلق بما قبله، وقيل: متعلق بفعل محذوف، تقديره: فأماته، فلبث مئة عام؛ لأنَّ الإماتة سلب الحياة، وهي لا تمتدُّ. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿بَعَثَهُۥ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى الله، والهاء مفعول به، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها أيضاً.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى ﴿ٱللَّهُ﴾ أو إلى المَلَكِ. ﴿كَمْ﴾: اسم استفهام مبني على السكون في محل نصب على الظرفية الزمانية متعلق بالفعل بعده، وتمييزه محذوف التقدير: كم يوماً، كم شهراً... إلخ. ﴿لَبِثْتَ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ﴾ مستأنفة لا محل لها أيضاً. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى عُزير. ﴿لَبِثْتُ﴾: فعل وفاعل. ﴿يَوْمًا﴾: ظرف زمان متعلق بالفعل قبله. ﴿أَوْ﴾: حرف عطف. ﴿بَعْضَ﴾: معطوف على ما قبله، فهو ظرف مثله، و﴿بَعْضَ﴾ مضاف، و﴿يَوْمٍ﴾: مضاف إليه، وجملة: ﴿لَبِثْتُ...﴾ إلخ في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قَالَ...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى ﴿ٱللَّهُ﴾ أو إلى المَلك. ﴿بَل﴾: حرف عطف. ﴿لَّبِثْتَ﴾: فعل وفاعل، ﴿مِاْئَةَ﴾: ظرف زمان متعلق بما قبله، وهو مضاف، و﴿عَامٍ﴾:

مضاف إليه، والجملة الفعلية معطوفة على جملة محذوفة، التقدير: ما لبثتَ يوماً أو بعض يوم، بل لبثتَ مئة عام، وهذا الكلام كله في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قَالَ...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها. ﴿فَٱنظُرْ﴾: الفاء: هي الفصيحة. (انظر): فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: أنت. ﴿إِلَىٰ طَعَامِكَ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿وَشَرَابِكَ﴾: معطوف على ما قبله، والكاف في محل جر بالإضافة. ﴿لَمْ﴾: حرف نفي وقلب وجزم. ﴿يَتَسَنَّهْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ ﴿لَمْ﴾ وعلامة جزمه السكون، أو حذف حرف العلة، وهو الألف، والهاء للسكت، وانظر الشرح، والفاعل تقديره: هو، وانظر الشرح أيضاً، والجملة الفعلية في محل نصب حال من (شرابك)، وجملة: (انظر. . .) إلخ لا محل لها؛ لأنها جواب لشرط مقدر، التقدير: إذا لم يحصل لك طمأنينة في أمر البعث؛ فانظر، والشرط المقدر، ومدخوله في محل نصب مقول القول، وجملة: (انظر إلى حمارك) معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها، وهي من جملة مقول القول.

﴿وَلِنَجْعَلَكَ﴾: الواو: حرف عطف. (لنجعلك): فعل مضارع منصوب بـ «أن» مضمرة بعد لام التعليل، والفاعل مستتر، تقديره: نحن، والكاف مفعول به أول. ﴿ءَايَةً﴾: مفعول به ثان. ﴿لِّلنَّاسِ﴾: متعلقان بمحذوف صفة ﴿ءَايَةً﴾، و«أن» المضمرة والفعل المضارع في تأويل مصدر في محل جرٍّ باللام، والجار والمجرور معطوفان على محذوف، والمحذوف متعلق بمحذوف، وتقدير الكلام: فعلنا ما فعلنا من إحيائك بعدما ذكر لتعاين ما استبعدته من الإحياء بعد دهرٍ طويل، ولنجعلك. . . إلخ، والكلام كلُّه معترض بين الجُمل المتعاطفة؛ لا محلَّ له. والجملة: ﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ﴾ معطوفة على ما قبلها، فهي من جملة مقول القول أيضاً. ﴿كَيْفَ﴾: اسم استفهام مبني على الفتح في محل نصب حال من الهاء الواقعة مفعولاً به. ﴿نُنشِزُهَا﴾: فعل مضارع، والفاعل تقديره: نحن، و(ها) مفعول به، والجملة الفعلية في محل جر بدل اشتمال من ﴿ٱلْعِظَامِ﴾، التقدير: انظر إلى العظام كيفية نشزها، وهو إعراب ابن هشام في مغني اللبيب، وبعضهم يعتبر الجملة الفعلية في محل نصب سدَّت مسدَّ المفعول به للفعل (انظر) المعلَّق عن العمل لفظاً بسبب الاستفهام، ومثل هذه الآية كثير في القرآن الكريم، كما في سورة (الفرقان) رقم [٤٥]، وفي سورة الغاشية، ومثل ذلك قول الفرزدق، وهو الشاهد رقم [٣٧٣] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»: [الطويل]

إِلَـى اللهِ أَشْكُـو بِـالْـمَـدِينَـةِ حَـاجَـةً وَبِـالـشَّـامِ أُخْـرَى كَـيْـفَ يَـلْـتَـقِـيَـانِ

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿نَكْسُوهَا﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدَّرة على الواو للثقل، والفاعل مستتر تقديره: نحن، و(ها) مفعول به أول. ﴿لَحْمًا﴾: مفعول به ثان: والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، فهي مثلها في التركيب، والتأويل.

﴿فَلَمَّا﴾: الفاء: حرف استئناف. (لمَّا): حرف وجود لوجود عند سيبويه، وبعضهم يقول: حرف وجوب لوجوب، وهي ظرف بمعنى «حين» عند ابن السراج، والفارسي، وابن جنِّي،

وجماعةٍ، تتطلب جملتين مرتبطتين ببعضهما ارتباط فعل الشرط بجوابه، وصوَّب ابن هشام الأول، والمشهور الثاني. ﴿تَبَيَّنَ﴾: فعل ماض، والفاعل ضمير يعود إلى الإحياء، التقدير: فلمَّا تبيَّن له ذلك، وانظر ما يأتي. ﴿لَهُۥ﴾: متعلقان بالفعل ﴿تَبَيَّنَ﴾، والجملة الفعلية لا محلَّ لها على اعتبار (لمَّا) حرفاً، وفي محل جر بإضافة (لمَّا) إليها على اعتبارها ظرفاً. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى عزير. ﴿أَعْلَمُ﴾: فعل مضارع، والفاعل مستتر تقديره: أنا. ﴿أَنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿عَلَىٰ كُلِّ﴾: متعلقان بـ ﴿قَدِيرٌ﴾ بعدهما، و﴿كُلِّ﴾ مضاف، و﴿شَىْءٍ﴾: مضاف إليه.

﴿قَدِيرٌ﴾: خبر ﴿أَنَّ﴾، و﴿أَنَّ﴾ واسمها، وخبرها في تأويل مصدر في محل نصب سدَّ مسدَّ مفعولي ﴿أَعْلَمُ...﴾ إلخ في محلِّ نصب مقول القول، وجملة: ﴿قَالَ...﴾ إلخ جواب (لمَّا) لا محل لها، و(لمَّا) ومدخولها كلام مستأنف لا محل له. وقال الجمل: معطوف على مقدر يستدعيه المقام، كأنَّه قيل: فأنشزها الله تعالى، وكساها لحماً، فنظر إليها، فتبيَّن له كيفية الإحياء، فلمَّا تبين له ذلك؛ قال... إلخ، وهذا كما ترى حلُّ معنى، بعد هذا؛ قال الزمخشري ـ رحمه الله تعالى ـ: اعتبر الكلام من باب التنازع، حيث قال: وفاعل ﴿تَبَيَّنَ﴾ مضمر، تقديره: فلمَّا تبين له: أن الله على كل شيء قدير؛ قال: أعلم أنَّ الله على كل شيءٍ قدير. فحذف الأول لدلالة الثاني عليه، كما في قولهم: ضربني، وضربت زيداً، وشرحه: أن الفعل ﴿تَبَيَّنَ﴾ يطلب فاعلاً، و﴿أَعْلَمُ﴾ يطلب مفعولاً، وكلاهما تنازعا المصدر المؤول، ويصلح أن يكون فاعلاً لـ: ﴿تَبَيَّنَ﴾ ومفعولاً لـ ﴿أَعْلَمُ﴾، وعبارة السمين: وفي فاعل ﴿تَبَيَّنَ﴾ قولان: أحدهما مضمر يفسره سياق الكلام، تقديره: فلمَّا تبين له كيفيةُ الإحياء، التي استغربها، وقدَّره الزمخشري: فلمَّا تبين له ما أشكل عليه؛ يعني: من أمر الإحياء، والأول أولى؛ لأن قوة الكلام تدلُّ عليه بخلاف الثاني، والثاني ـ وبه بدأ الزمخشري ـ: أن تكون المسألة من باب التنازع، وشرحها ما قدَّمته، والله وليُّ التوفيق، ولم يرتض ابن هشام هذا التَّنازع، فقد قال: الصَّواب: أنَّ فاعل ﴿تَبَيَّنَ﴾ ضمير مستتر، إمَّا للمصدر، أي: فلمَّا تبين له تبينٌ، أو لشيء دلَّ عليه الكلام؛ أي: فلمَّا تبيَّن له الأمر، أو: ما أشكل عليه.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾

الشرح: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾: اختلفوا في سبب هذا السُّؤال من إبراهيم ـ على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ فقيل: إنَّه مرَّ على دابَّةٍ ميتة، وهي جيفة

حمار، وقيل: بل كانت حوتاً ميتاً بساحل البحر، فرآها وقد توزَّعها دواب البحر والبر، فإذا مدَّ البحر جاءت الحيتان، فأكلت منها، وإذا جزر البحر جاءت السِّباع، فأكلت منها، فإذا ذهبت السِّباع جاءت الطَّير، فأكلت منها، فلما رأى إبراهيم عليه السَّلام ذلك تعجَّب منها، وقال: يا ربِّ إني قد علمت: أنَّك تجمعها من بطون السِّباع، وحواصل الطَّير، وأجواف الدَّواب، فأرني كيف تحييها؛ لأعاين ذلك، فأزداد يقيناً! فعاتبه ربه بقوله: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنۖ﴾ أي: توقن، وتصدِّق بقدرتي.

﴿قَالَ بَلَىٰ﴾ أي: يا ربِّ قد علمت، وصدَّقت، وآمنت. هذا؛ و﴿بَلَىٰ﴾ حرف جواب كـ «نعم» و«جير» و«أجل» و«جلل» و«إي» إلا أنَّ «بلى» جواب لنفي متقدِّم وإبطال ونقض وإيجاب له، سواء دخله الاستفهام أم لا، فتكون إيجاباً له، نحو قول القائل: ما قام زيد؟ فتقول: بلى قد قام، وقوله: أليس زيد قائماً؟ فتقول: بلى، أي: هو قائم، قال تعالى في سورة الأعراف رقم [١٧٢]: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰۛ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لو قالوا: نعم؛ لكفروا.

﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِيۖ﴾ أي: سألتك ليسكن قلبي، ويستقرَّ عند المعاينة، والمشاهدة، ولهذا قال الرسول ﷺ: «**لَيْسَ الخبرُ كَالْمعَايَنَةِ**» رواه ابن عباس، ـ رضي الله عنهما ـ. وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول الله ﷺ قال: «**نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إبراهيمَ، إِذْ قَالَ**: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِيۖ﴾ **ويرحمُ الله لوطاً، لقد كان يأوي إلى ركن شديدٍ، ولو لبثت في السجن ما لبِثَ يوسفُ لأجبتُ الدَّاعي**». رواه البخاريُّ، ومسلم. فمعناه: لو كان شاكاً لكنَّا أحقَّ بالشكِّ منه، ونحن لا نشكُّ، فإبراهيم عليه السلام أحرى ألا يشك. والسؤال كان عن حالة الإحياء؛ لأنَّ السؤال بـ «كيف» إنَّما يكون عن حالة شيء موجود متقرِّر الوجود عند السَّائل، والمسؤول، فأراد إبراهيم عليه السلام بهذا السؤال أن يترقَّى من علم اليقين إلى عين اليقين، والهمزة في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنۖ﴾ ليست للاستفهام، وإنَّما هي ألف إيجاب، وتقرير، مثل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾، ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾، وقال جرير في مدح بني أميَّة، وهو الشاهد رقم [١١] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»: [الوافر]

أَلَـسْـتُـمْ خَـيْـرَ مَـنْ رَكِـبَ الْـمَـطَـايَـا وَأَنْـدَى الْـعَـالَـمِـيـنَ بُـطُـونَ رَاحِ؟

﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ﴾: يقرأ بكسر الصَّاد، ومعناه: قطِّعهنَّ، ومزِّقْهُنَّ، وقرئ بضمِّها، ومعناه: أملهنَّ، واضممهنَّ. وقد قرئ بضم الصَّاد وتشديد الرَّاء مضمومة، ومفتوحة، والمعنى: اجمعهن إليك لتتأمَّلهُنَّ، وتعرف صفاتهنَّ، لئلا يلتبس عليك أمرهنَّ بعد الإحياء، فأخذ طاووساً، وديكاً، وغراباً، وحمامةً ـ ومنهم من ذكر النَّسر بدل الحمامة ـ فذبحهنَّ، وقطَّعهنَّ، وخلط لحمهنَّ، وجعلهنَّ على أربعة جبال، وقيل: سبعة، وأمسك رؤوسهنَّ بيده، وقال لهنَّ: تعالين بإذن الله، فجعل كلُّ جزء يطير إلى الآخر، حتَّى صارت جثثاً، ثم أقبلن نحوه، فانضممن إلى رؤوسهن، وإبراهيم عليه السلام ينظر إليهنَّ.

قيل: إنَّما أخذ إبراهيم ـ على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ الطيور الأربعة دون غيرها، ولم يعينها له ربُّه؛ لأنَّ في الطاووس إشارةً إلى ما في الإنسان من حبِّ الزينة والجاه، وفي النِّسر: إشارةٌ إلى شدَّة الشَّغف بالأكل، وفي الدِّيك إشارةٌ إلى شدَّة الشغف بحب السِّفاد، وفي الغراب إشارةٌ إلى شدَّة الحرص، ففي هذه الطُّيور مشابهةٌ لما في الإنسان من جميع هذه الأوصاف، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الإنسان إذا ترك هذه الصفات الذَّميمة؛ ارتقى أعلى الدرجات في الجنَّة، وفاز بما يتمنَّاه فيها.

﴿ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾: مسرعات مشياً، أو طيراناً، ﴿وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾: قويٌّ لا يغلبه شيء، ولا يمتنع منه شيء، فما شاء كان بلا مانع؛ لأنَّه القاهر لكلِّ شيء، وما لم يشأ لم يكن. ﴿حَكِيمٌ﴾ في أفعاله، وأحكامه، وقضائه، وقدره. بعد هذا: أما ﴿ٱلطَّيْرِ﴾ فهو اسم جنس جمعي، مثل: خيل، وغنم، وقيل: بل هو جمع طائر، مثل: صحب، وصاحب، ويصحُّ إطلاقه على المفرد، والمثنَّى، والجمع، والمذكَّر، والمؤنَّث، وجمع الطير: طيور، وأطيار، مثل: فرخ، وفروخ، وأفراخ. وقال قطرب، وأبو عبيدة: قد يقع الطَّير على الواحد، كما في قوله تعالى في سورة (آل عمران) رقم [٤٩]: ﴿فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، وطائر الإنسان: عملُه الذي قُلِّدَه، قال تعالى في سورة (الإسراء) رقم [١٣]: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾، والطير أيضاً: الاسم من التطيُّر، ومنه قولهم: لا طير إلَّا طيرُ اللهِ، كما يقالُ: لا أَمْرَ إلا أَمْرُ اللهِ. انتهى مختار الصِّحاح.

الإعراب: ﴿وَإِذْ﴾: الواو: حرف عطف. (إذ): ظرف زمان مبني على السكون في محل نصب متعلِّق بفعلٍ محذوف، تقديره: اذكر، وقيل: مفعول به لهذا الفعل المحذوف. ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ﴾: ماض، وفاعله، والجملة الفعلية في محلِّ جرٍّ بإضافة (إذ) إليها. ﴿رَبِّ﴾ منادىً حذف منه حرف النداء منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلِّم المحذوفة للتَّخفيف، منع من ظهورها اشتغال المحل بالحركة المناسبة، وياء المتكلِّم المحذوفة في محلِّ جرٍّ بالإضافة، وفي مثل هذا المنادى لغات أخرى: فتح الباء مع حذف الياء: (ربَّ)، وإثبات الياء وإسكانها: (يا ربِّيْ)، وإثبات الياء وفتحها: (يا ربِّيَ)، وإثبات الياء وقلبها ألفاً: (يا ربَّا). قال ابن مالك رحمه الله تعالى في ألفيته: [الرجز]

وَاجْعَلْ مُنَادىً صَحَّ إنْ يُضَفْ لِيَا كَعَبْدِ عَبْدِيْ عَبْدَ عَبْدَا عَبْدِيَا

وهناك لغة سادسة: بضم الباء والقطع عن الإضافة (يا رَبُّ)، وبها قرئ قوله تعالى حكايةً عن قول يوسف ـ على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ: (قال: ربُّ السجن أحب إليَّ). ﴿أَرِنِى﴾: فعل دعاء مبني على حذف حرف العلة من آخره، وهو الياء، والكسرة قبلها دليل عليها، والفاعل مستتر تقديره: أنت، والنون للوقاية، وياء المتكلم مفعول به. ﴿كَيْفَ﴾: اسم استفهام مبني على الفتح في محلِّ نصب حال من الموتى، والعامل الفعل ﴿تُحْىِ﴾، وهو فعل

مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء للثقل، والفاعل تقديره: أنت. ﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدَّرة على الألف للتعذر، والجملة الفعلية في محل نصب مفعول به ثان للفعل قبلها، التقدير: أرني كيفيَّة إحياء الموتى، وقد عُلِّق الفعل عن العمل بها بسبب الاستفهام، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول، والكلام: ﴿وَإِذْ قَالَ...﴾ إلخ معطوف على ما قبله في الآية السابقة، فهو يتضمَّن عطف قصَّة على قصَّة كما هو ظاهر.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى الله، ﴿أَوَلَمْ﴾: الهمزة: حرف استفهام، وعتاب. الواو: حرف عطف على محذوف، التقدير: أشككت، ولم تؤمن؟. (لم): حرف نفي، وقلب، وجزم. ﴿تُؤْمِن﴾: فعل مضارع مجزوم بـ (لم) والفاعل تقديره: أنت، والمتعلق محذوف، التقدير: بي، وبقدرتي، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قَالَ...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى ﴿إِبْرَٰهِـۧمُ﴾. ﴿بَلَىٰ﴾: حرف جواب في محل نصب مقول القول، وبعدها جملة محذوفة انظر الشرح. ﴿وَلَـٰكِن﴾: الواو: حرف عطف، (لكن): حرف استدراك مهمل لا عمل له. ﴿لِّيَطْمَئِنَّ﴾: فعل مضارع منصوب بـ «أن» مضمرة بعد لام التعليل. ﴿قَلْبِى﴾: فاعله مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدَّرة على ما قبل ياء المتكلم، منع من ظهورها اشتغال المحل بالحركة المناسبة، والياء في محل جر بالإضافة، و«أن» المضمرة، والفعل (يطمئن) في تأويل مصدر في محل جرٍّ باللام، والجار والمجرور متعلقان بفعل محذوف، التقدير: سألتك ذلك لاطمئنان قلبي، وهذه الجملة معطوفة على ما قبلها المقدَّرة بعد ﴿بَلَىٰ﴾، والكلام كلُّه في محل نصب مقول القول، وجملة (قال...) إلخ مستأنفة لا محل لها. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى الله، ﴿فَخُذْ﴾: الفاء: هي الفصيحة. (خذ): فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: أنت. ﴿أَرْبَعَةً﴾: مفعول به. ﴿مِّنَ ٱلطَّيْرِ﴾: متعلقان بمحذوف صفة ﴿أَرْبَعَةً﴾، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها جواب لشرط غير جازم، التقدير: إذا أردت مشاهدة ذلك؛ فخذ أربعة من الطير، والكلام كله في محل نصب مقول القول، وجملة ﴿قَالَ...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها. ﴿فَصُرْهُنَّ﴾: الفاء: حرف عطف. (صرهنَّ): فعل أمر، وفاعله تقديره: أنت، والهاء مفعول به، والنون حرف دال على جماعة الإناث. ﴿إِلَيْكَ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. قال ابن هشام: وهذا لا يصحُّ إذا فسر (صرهن) بـ «قطعهنَّ» وإنَّما تعلقه بـ «خذ»، وأمَّا إن فسر بـ «أملهنَّ» فالتعلق به، وعلى الوجهين يجب تقدير مضاف، أي: إلى نفسك، وانظر التنبيه الآتي، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿ٱجْعَلْ﴾: فعل أمر، وفاعله: أنت. ﴿عَلَىٰ كُلِّ﴾: متعلقان بما قبلهما. و﴿كُلِّ﴾ مضاف، و﴿جَبَلٍ﴾: مضاف إليه. ﴿مِّنْهُنَّ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال من ﴿جُزْءًا﴾، كان صفةً له، فلما قدِّم عليه صار حالاً على القاعدة: «نعت النكرة إذا تقدم عليها صار حالاً». ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿ٱدْعُهُنَّ﴾: فعل أمر

مبني على حذف حرف العلة، وهو الواو، والضمة قبلها دليل عليها، والفاعل تقديره: أنت، والهاء مفعول به، والنون حرف دال على جماعة الإناث، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها. ﴿يَأْتِينَكَ﴾: فعل مضارع مبني على السكون، وهو في محل جزم جواب الأمر، ونون النسوة فاعله، والكاف مفعول به. ﴿سَعْيًا﴾: حال بمعنى: ساعيات، وقيل: مفعول مطلق للفعل قبله؛ لأنَّ السعي، والإتيان متقاربان، فكأنَّه قال: يأتينك إيتاءً. ﴿وَاعْلَمْ﴾: الواو: حرف عطف. (اعلم): فعل أمر، وفاعله تقديره: أنت. ﴿أَنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿اللَّهَ﴾: اسمها. ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾: خبران لـ ﴿أَنَّ﴾، و﴿أَنَّ﴾ واسمها وخبرها في تأويل مصدر في محل نصب سدَّ مسد مفعولي (اعلم)، والكلام كله في محل نصب مقول القول.

تنبيه: قوله تعالى في هذه الآية: ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾، وقوله تعالى في سورة (مريم): ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ...﴾ إلخ وقوله في سورة (القصص): ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾، وقوله تعالى في سورة (الأحزاب): ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾، فقال ابن هشام ـ طيَّب الله ثراه ـ في هذه الآيات: وهذا كلُّه يتخرَّج على التعلُّق بمحذوف، كما قيل في اللام في: «سعياً لَك»، وإما على حذف مضاف، التقدير: فصرهنَّ إلى نفسك، واضمم إلى نفسك جناحك... إلخ، وذلك لأنَّه لا يتعدَّى فعل المضمر إلى ضميره المتَّصل إلا في باب «ظنَّ» وأورد قول الأعور الشنِّي، وهو الشاهد رقم [٢٥٧] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»: [المتقارب]

هَوِّنْ عَلَيْكَ فَإِنَّ الأُمُورَ ... بِكَفِّ الإِلَهِ مَقَادِيرُهَا
فَلَيْسَ بِآتِيكَ مَنْهِيُّهَا ... وَلَا قَاصِرٍ عَنْكَ مَأْمُورُهَا

وأيضاً الشاهد رقم [٢٦٧] و [٢٦٨] من كتابنا المذكور.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾

الشرح: لمَّا ذكر الله تعالى في الآيات السابقة: أنَّ الناس فريقان: أولياء الله، وهم المؤمنون، وأولياء الطَّاغوت، وهم الكافرون، ثُمَّ أعقبه بذكر نموذج للإيمان، ونموذج للطغيان؛ ذكر هنا ما يرغب في الإنفاق في سبيل الله، وخاصَّةً في أمر الجهاد لأعداء الله.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ...﴾ إلخ هو على حذف مضاف، التَّقدير: مثل نفقة الذين ينفقون ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: في طاعة الله، وفي وجوه الخير التي يحبُّها، ويرضاها، والمراد هنا: الجهاد؛ إذ لا يذكر في القرآن لفظ القتال أو الجهاد إلا ويقرن بكلمة ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، وفي ذلك دلالة واضحة على أنَّ الغاية من الجهاد بالنفس، والمال غايةٌ شريفةٌ نبيلةٌ، هي إعلاء كلمة الله، لا حبُّ السيطرة، أو المغنم، أو الاستعلاء في الأرض، أو غير ذلك من الغايات الدنيئة. ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾: الحبة

اسم جنس لكلِّ ما يزرعه ابن آدم، ويقتاته، وأشهر ذلك البُرُّ، فكثيراً ما يراد بالحبِّ، ومنه قول المتلمِّس، وهو الشاهد رقم [١٤٩] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»: [البسيط]

آلَيْتُ حَبَّ الْعِرَاقِ الدَّهْرَ أَطْعَمُهُ والحَبُّ يَأكُلُهُ في الْقَرِيَةِ السُّوسُ

وحبَّة القلب: سويداؤه، والحِبَّة بكسر الحاء: بذور البقول ما ليس بقوت، والحُبَّة بضم الحاء: الحبُّ والمحبَّة، يقال: نَعَمْ، وحُبّاً، وكرامةً، والحِبُّ بكسر الحاء: الحبيب. ﴿أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ﴾ أي: أخرجت ساقاً تشعب منه سبع شعب في كلِّ واحدةٍ منها سنبلة، وهذا مُشاهد في الذُّرة، والدّخن، وفي القمح في الأراضي الخصْبة، والسُّنبلة، والسَّبلة بمعنى واحد. وأسند الله تعالى الإنبات إلى الحبَّة، لمَّا كانت من الأسباب، كما يسند إلى الأرض والماء، والمنبت في الحقيقة هو الله تعالى، فهو إسناد مجازي، ويسمَّى المجاز العقلي، وفي الآية تشبيه مرسل مجمل لذكر أداة التشبيه وحذف وجه الشبه.

﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ أي: يزيد على سبعمئة، فيكون مَثَلُ المتصدِّق مثل الزَّارع، إن كان حاذقاً في عمله، والبذر جيداً، والأرض خِصبة يكون الزَّرع أكثر، فكذلك المتصدِّق إذا كان صالحاً، مخلصاً، والمال من حلال، ووضعه عند المستحقِّ، فيصير الثواب أكثر، والأجر أعظم، وخذ ما يلي:

فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ تَصَدَّقَ بِعِدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، ولَا يَقْبَلُ اللهُ إلَّا الطَّيِّب، فَإِنَّ الله يَقْبَلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيها لِصَاحِبِهَا كَمَا يُرَبِّي أحَدُكُم فُلُوَّهُ حَتَّى تكونَ مِثْلَ الْجَبَل**» رواه الشيخان، وقال تعالى في سورة (النساء) رقم [٤٠] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾.

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾: يسع خلقه كلهم بالكفاية والرزق والجود والعطاء، وهو واسع الفضل والرحمة، وقيل: واسع القدرة، والعلم، والرزق. وقيل: هو الغني الَّذي وسع جميع مخلوقاته غناه. ﴿عَلِيمٌ﴾: بأفعال عباده، ما يغيب عنه منها شيء، قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا﴾.

تنبيه: استدل بهذه الآية على أن اتِّخاذ الزرع مِنْ أجَلِّ الحرف التي يتخذها الناس، والمكاسب التي يشتغل بها العمال، ولذلك ضرب الله بها المثل لنفقة المؤمن في سبيل الله، فقال جل ذكره: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ...﴾ إلخ، وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْساً أو يَزرَعُ زَرْعاً، فيأكُل مِنْهُ طيرٌ أو بهيمةٌ، أَوْ إِنْسَانٌ إلا كَانَ لَهُ صَدَقَةٌ**» والزراعة من فروض الكفاية، فيجب على الإمام أن يُجبر الناس عليها، وما كان في معناها من غرس الأشجار، حُكي عن المعتضد العباسي: أنه قال: رأيت عليَّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ في المنام، فناولني المِسْحاة، وقال: خذها فإنَّها مفاتيح خزائن الأرض، وروت عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن النبي ﷺ قال: «**التَمِسُوا الرِّزْقَ في خَبَايَا الأَرْضِ**».

تنبيه: نزلت الآية الكريمة في عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف ـ رضي الله عنهما ـ، وذلك: أنَّ رسول الله ﷺ لمَّا حثَّ على الصَّدقة حين أراد الخروج إلى غزوة تبوك؛ جاءه عبد الرحمن بأربعة آلاف درهم، وقال: يا رسول الله! كانت لي ثمانية آلاف فأمسكت لنفسي ولعيالي أربعة آلاف، وأربعة آلاف أقرضتها لربِّي، فقال له رسول الله ﷺ: «**بَارَكَ اللهُ لكَ فِيمَا أَمْسَكْتَ، وَفِيمَا أَعْطَيْتَ!**» وقال عثمان ـ رضي الله عنه ـ: يا رسول الله! عليَّ جهَاز مَنْ لا جَهاز له، وجاء بمالٍ كثير، فقال الرسول ﷺ: «**اللهُمَّ ارْضَ عَنْ عُثمانَ، فإنِّي عَنْهُ راضٍ!**».

الإعراب: ﴿مَّثَلُ﴾: مبتدأ، وهو مضاف، و﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محلِّ جرٍّ بالإضافة، وهناك مضاف محذوف، انظر تقديره في الشرح. ﴿يُنفِقُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون والواو فاعله، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محلَّ لها، ﴿أَمْوَٰلَهُمْ﴾: مفعول به، والهاء في محل جرٍّ بالإضافة، ﴿فِى سَبِيلِ﴾: متعلقان بما قبلهما، و﴿سَبِيلِ﴾: مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾: مضاف إليه، ﴿كَمَثَلِ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ، و(مثل): مضاف، و﴿حَبَّةٍ﴾ مضاف إليه. ﴿أَنۢبَتَتْ﴾: فعل ماض، والتاء للتأنيث، والفاعل يعود إلى ﴿حَبَّةٍ﴾ والجملة الفعلية صفة ﴿حَبَّةٍ﴾. ﴿سَبْعَ﴾: مفعول به، وهو مضاف، و﴿سَنَابِلَ﴾: مضاف إليه مجرور، وعلامة جره الفتحة نيابة عن الكسرة؛ لأنه ممنوع من الصرف لصيغة منتهى المجموع، وهي علَّة تقوم مقام علتين من موانع الصَّرف. ﴿فِى كُلِّ﴾: متعلقان بمحذوف خبر مقدَّم، و﴿كُلِّ﴾ مضاف، و﴿سُنۢبُلَةٍ﴾: مضاف إليه، ﴿مِّاْئَةُ﴾: مبتدأ مؤخر، وهو مضاف، و﴿حَبَّةٍ﴾: مضاف إليه، والجملة الاسمية في محل جر صفة ﴿سَنَابِلَ﴾. هذا؛ وجوز اعتبار الجار والمجرور متعلقين بمحذوف صفة ﴿سَنَابِلَ﴾ و﴿مِّاْئَةُ﴾ فاعلاً بالجار والمجرور، ولكن الأوَّل أشهر.

﴿وَٱللَّهُ﴾: الواو: حرف استئناف. (الله): مبتدأ. ﴿يُضَٰعِفُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى (الله)، والمفعول محذوف، التقدير: الأجر والثواب، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها. ﴿لِمَن﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، و(مَنْ) تحتمل الموصولة، والموصوفة. ﴿يَشَآءُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى (الله)، والجملة صلة الموصول، أو صفتها، والعائد أو الرابط محذوف، التقدير: للذي، أو: لشخص يشاؤه، والجملة الاسمية: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾

الشرح: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: ذكرتُ لك في الآية السابقة: أنَّ الآيات نزلت في عثمان، وعبد الرحمن بن عوف ـ رضي الله عنهما ـ. ﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا﴾: المنُّ

هو: ذكر الصَّنيعة، وتعداد النِّعمة، والمنَّان من بني آدم، هو الذي يعطي العطاء، ثم يذكِّر مَنْ أعطاه، ويعدِّد له ما فعله من الخير، مثل أن يقول له: أعطيتُك كذا، وفعلتُ لك كذا، وصنعتُ معك كذا، وهو تكدير، وتعيير تنكسر منه القلوب، لذا كان مذموماً، يمحق الثواب، ويبطله، بل ويغضب الله تعالى، كما بيَّنت الآية الكريمة، التي نحن بصدد شرحها، قال عبد الرحمن بن زيد: كان أبي يقول: إذا أعطيت رجلاً شيئاً، ورأيت أنَّ سلامك يثقل عليه؛ فلا تسلِّم عليه، والعرب تمدح بترك المنِّ، وكتم المعروف، وتذمُّ على إظهاره، والمنِّ به، قال قائلهم في المدح بترك المنِّ: [الرمل]

زَادَ مَعْرُوفُكَ عِنْدِي عِظَمَا ... أَنَّهُ عِنْدَكَ مَسْتُورٌ حَقِيرْ

تَتَنَاسَاهُ كَأَنْ لَمْ تَأْتِهِ ... وَهْوَ فِي الْعَالَمِ مَشْهُورٌ كَبِيرْ

وقال قائلهم يذم المنَّان بالعطاء: [الطويل]

أَتَيْتَ قَلِيلاً ثم أَسْرَعْتَ مِنَّةً ... فَنَيْلُكَ مَمْنُونٌ لِذَاكَ قَلِيلُ

وقال آخر: [الطويل]

وَإِنَّ امْرَأً أَسْدَى إِلَيَّ صَنِيعَةً ... وَذَكَّرَنِيهَا مَرَّةً لَلَئِيمُ

وقال آخر: [البسيط]

أَفسَدْتَ بِالْمَنِّ مَا أَسْدَيْتَ مِنْ حَسَنٍ ... لَيْسَ الْكَرِيمُ إِذَا أَسْدَى بِمَنَّانِ

وفي نوابغ الكلم: صنوان: مَنْ منح سائله ومَنَّ، ومَنْ منع نائله وضَنَّ، وفيها: طعم الآلاء أحلى من المنِّ، وهو أَمرُّ من اللأواء مع المنِّ، والمنُّ لا يليق إلا في جانب الله تعالى؛ لأنه المتفضل بما يملكه حقيقة، وغيره لا ملك له حقيقة، فلا يليق به المنُّ، كيف لا؟ وقد سمَّى نفسه سبحانه: المنان.

﴿أَذًى﴾: هو أن يشكو منهم بسبب ما أعطاهم، أو يسمعهم كلاماً يجرح به كرامتهم.

﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ﴾: ثواب أعمالهم، ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾: العنديَّة عنديَّة تشريف، لا عنديَّة مكان. ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾: في الآخرة، ولا فيما يستقبلونه من أهوال يوم القيامة. ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾: على ما خلفوه من الأموال والأولاد؟ ولا على ما فاتهم من الحياة الدنيا، وزهرتها، فلا يأسفون عليها؛ لأنهم صاروا إلى نعيم دائم لا يزول.

تنبيه (بل فائدة): لم يقترن قوله تعالى: ﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ هنا بالفاء، واقترن بها في الآية رقم [٢٧٤] الآتية، وأيضاً في الآية رقم [٦٢]، والفرق بينهما: أنَّ الموصول هنا لم يضمَّن معنى الشرط بخلافه ثَمَّةَ، والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ. ﴿يُنفِقُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله. ﴿أَمْوَٰلَهُمْ﴾: مفعول به، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿فِى سَبِيلِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، و﴿سَبِيلِ﴾ مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾ مضاف إليه، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يُتْبِعُونَ﴾: مضارع، وفاعله، ﴿مَآ﴾: اسم موصول، أو نكرة موصوفة مبنية على السكون في محل نصب مفعول به أول. ﴿أَنفَقُواْ﴾: فعل ماض مبني على الضم، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية صلة ﴿مَآ﴾ أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف، التقدير: الَّذي، أو: شيئاً أنفقوه، وإن اعتبرت ﴿مَآ﴾ مصدرية تؤول مع الفعل بعدها بمصدر في محل نصب مفعول به، التقدير: ثم لا يتبعون إنفاقهم، والجملة الفعلية معطوفة على جملة الصلة، لا محل لها مثلها. ﴿مَنًّا﴾ مفعول به ثان. ﴿وَلَآ﴾: الواو: حرف عطف. (لا): صلة لتأكيد النفي. ﴿أَذًى﴾: معطوف على ما قبله منصوب مثله، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين، والألف الثابتة دليلٌ عليها، وليست عينها.

﴿لَّهُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم، ﴿أَجْرُهُمْ﴾: مبتدأ مؤخر، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿عِندَ﴾: ظرف مكان متعلق بمحذوف، أو بـ ﴿أَجْرُهُمْ﴾ لأنه مصدر، وقال أبو البقاء: ويجوز أن يكون في موضع الحال من المبتدأ، التقدير: فلهم أجرهم ثابتاً عند ربهم، وهو غير مسلَّم له؛ لأن مجيء الحال من المبتدأ لا يُجيزه كثير من النحاة، وعلى رأسهم سيبويه؛ لأن الحال تبين هيئة الفاعل، أو المفعول، ولو قال: متعلِّق بمحذوف خبر ثان للمبتدأ، لسلم له و﴿عِندَ﴾ مضاف، و﴿رَبِّهِمْ﴾: مضاف إليه، والهاء في محل جر بالإضافة، من إضافة المصدر لمفعوله، وفاعله مستتر فيه، والجملة الاسمية: ﴿لَّهُمْ...﴾ إلخ في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: ﴿ٱلَّذِينَ...﴾ إلخ مستأنفة، أو مبتدأة لا محل لها على الاعتبارين، ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): نافية مهملة، أو هي صلة لتأكيد النفي، ولا يجوز إعمالها إعمال ليس؛ لأنها تكرَّرت ﴿خَوْفٌ﴾: مبتدأ. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبره، ويجوز تعليقهما بـ ﴿خَوْفٌ﴾ لأنه مصدر، أو بمحذوف صفة له، وعليهما فالخبر محذوف، تقديره: حاصل، أو موجود، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها على الوجهين فيها، فهي في محل رفع مثلها. ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): مهملة مثل ما قبلها. ﴿هُمْ﴾: مبتدأ. ﴿يَحْزَنُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، وفاعله، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها، فهي في محل رفع أيضاً. هذا؛ وقرأ جماعة: (فلا خوف) بفتح الفاء على اعتبار (لا) عاملة عمل «إنَّ» التي لنفي الجنس، والاختيار عند النحويين الرفع، والتنوين على الابتداء؛ لأنَّ الثاني معرفة، لا يكون فيه إلا الرَّفع؛ لأنَّ (لا) لا تعمل في معرفة فاختاروا في الأول الرفع أيضاً، ليكون الكلام من وجهٍ واحدٍ، ويجوز أن تكون (لا) في قولك:

(فلا خوف) بمعنى ليس. انتهى. قرطبي. وقد ذكرت لك: أنها إذا تكررت؛ أهملت، أي: لا تعمل عمل «ليس»، تأمَّل، وتدبر، وربك أعلم، وأجلُّ، وأكرم.

﴿۞قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًىۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾﴾

الشرح: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾: كلامٌ حسن، وردٌّ على السائل جميل، وقيل: عِدَةٌ حسنةٌ تعدُه بها. ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ أي: تستر عليه خلَّته، وفقره، ولا تهتك ستره، وقيل: هو أن يتجاوز عن الفقير إذا استطال عليه حال ردِّه، وقد قال الرَّسول ﷺ: «**الكَلِمَةُ الطيِّبةُ صَدَقَةٌ، وَإِنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ أَنْ تَلقى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ**». أخرجه مسلم، فيتلقَّى السَّائل بالبشر، والتَّرحيب، ويقابله بالطلاقة، والتقريب؛ ليكون مشكوراً؛ إن أعطى، ومعذوراً؛ إن منع. وقد قال بعض الحكماء: اِلْقَ صاحب الحاجة بالبشر، فإن عَدِمْتَ شكره؛ لم تعدم عوزه، وحكى ابن لنكك: أن أبا بكر بن دُرَيد قصد بعض الوزراء في حاجةٍ لم يقضها، وظهر له ضجر، فقال: [الكامل]

لَا تَدْخُلَنَّكَ ضَجْرَةٌ مِنْ سَائِلٍ فَلَخَيْرُ دَهْرِكَ أَنْ تُرَى مَسْؤولَا
لَا تَجْبَهَنْ بِالرَّدِّ وَجْهَ مُؤَمِّلٍ فَبَقَاءُ عِزِّكَ أَنْ تُرَى مَأْمُولَا
تَلْقَى الْكَرِيْمَ فَتَسْتَدِلُّ بِبِشْرِهِ وَتَرَى الْعُبُوْسَ عَلَى اللَّئِيمِ دَلِيلَا
وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ عَنْ قَلِيلٍ صَائِرٌ خَبَراً فَكُنْ خَبَراً يروقُ جَمِيلَا

﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾: المغفرة هنا السَّتر لِلْخَلَّة، وسوء حالة المحتاج، ومن هذا قول الأعرابي، وقد سأل قوماً بكلامٍ فصيح، فقال له قائل: مِمَّن الرَّجل؟ فقال له: اللَّهُمَّ غفراً، سوء الاكتساب يمنع من الانتساب. وقيل: المعنى: تجاوزٌ عن السَّائل إذا ألحَّ، وأغلظ، وجفى خير من التصدُّق عليه مع المنِّ والأذى، ويجوز أن يكون المعنى: وغفران الله خير من صدقتكم هذه التي تمنُّون بها على النَّاس.

﴿يَتْبَعُهَآ أَذًىۗ﴾: بالمنِّ، والتعيير، أو بالكلام الجافي القاسي، ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ﴾ أي: مستغنٍ عن صدقة العباد، وهو الغني الكامل الغنى الذي لا يحتاج إلى أحد. ﴿حَلِيمٌ﴾: أي: يحلم، ويغفر، ويصفح، ويتجاوز عن المنَّان بعطيته، والمؤذي للسَّائل بقوله، وفعله، حيث لم يعاجلهم بالعقوبة، قال الحليمي ـ رحمه الله تعالى ـ في معنى (الحليم): إنَّه الذي لا يحبس إنعامه وإفضاله عن عباده لأجل ذنوبهم، ولكنَّه يرزق العاصي، كما يرزق المطيع، ويبقيه وهو منهمك في معاصيه، كما يبقي البرَّ المُتَّقي، وقد يقيه الآفات، والبلايا، وهو غافلٌ، لا يذكره، فضلاً عن أن يدعوه، كما يقيها الناسك الذي يدعوه، ويسأله، وقال أبو سليمان الخطَّابي: (الحليم): ذو الصَّفح، والأناة؛ الذي لا يستفزُّه غضبٌ، ولا يستخفُّه جهل جاهلٍ، ولا عصيان عاصٍ، ولا

يستحقُّ الصَّافح من العجز اسم (الحليم)، إنَّما (الحليم) الصَّفوح مع القدرة على الانتقام، المتأنِّي الَّذي لا يعجِّل بالعقوبة.

الإعراب: ﴿قَوْلٌ﴾: مبتدأ. ﴿مَّعْرُوفٌ﴾: صفة له. ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾: معطوف على ما قبله. ﴿خَيْرٌ﴾: خبر المبتدأ، ﴿مِّن صَدَقَةٍ﴾: متعلقان بـ ﴿خَيْرٌ﴾. ﴿يَتْبَعُهَآ﴾: فعل مضارع. و (ها): مفعول به. ﴿أَذًى﴾: فاعله مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدَّرة على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين، والألف الثابتة دليلٌ عليها، وليست عينها، (الله) مبتدأ. ﴿غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾: خبران له، والجملة الاسمية مستأنفة، أو معترضة في آخر الكلام لا محلَّ لها.

هذا؛ وقال أبو البقاء، والقرطبي، ومكِّي أوجهاً أخر في الإعراب: منها اعتبار خبر ﴿قَوْلٌ﴾ محذوفاً، التقدير: قول معروف أولى، أو أمثل من غيره. وقال القرطبيُّ: قال النحاس: ويجوز أن يكون ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ خبر ابتداء محذوف، أي: الذي أمرتم به قولٌ معروف، وعليه فـ ﴿وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ...﴾ إلخ: مبتدأ، وخبر، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها، وما قدَّمته من الإعراب أقوى، وأولى، وهو ما في شرح ابن عقيل، والله وليُّ التوفيق، وبه أستعين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾

الشرح: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم...﴾ إلخ: المراد: ثواب صدقاتكم. قال جمهور العلماء في هذه الآية: إنَّ الصدقة التي يعلم الله من صاحبها: أنَّه يمنُّ ويؤذي بها؛ فإنها لا تقبل. وقيل: بل قد جعل الله لِلْمَلَكِ عليها أمارةً، فهو لا يكتبها، وقال بعض البلغاء: مَنْ مَنَّ بمعروفه؛ سقط شكرُه، ومن أُعجِب بعمله؛ حَبِط أجرُه. قال أبو بكر الورَّاق، فأحسن: [مجزوء الرجز]

أَحْسَنُ مِنْ كُلِّ حَسَنْ ... فِي كُلِّ وَقْتٍ وَزَمَنْ

صَنِيعَةٌ مَرْبُوبَةٌ ... خَالِيَةٌ مِنَ الْمِنَنْ

وقد وردت أحاديثُ شريفةٌ بالنهي عن المنِّ في الصَّدقة، ففي صحيح مسلم عن أبي ذرٍّ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثةٌ لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذابٌ أليمٌ: المنَّان بما أعطى، والمسبل إزاره، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب**». وعن أبي الدَّرداء ـ رضي الله عنه ـ، عن النبي ﷺ قال: «**لا يدخل الجنَّة عاقٌّ، ولا منَّانٌ، ولا مدمن خمرٍ، ولا مكذِّبٌ بقدرٍ**». رواه ابن مردويه، وأخرجه أحمد، وابن ماجه.

﴿كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ﴾: مثَّل الله تعالى الَّذي يمنُّ، ويؤذي بصدقته بالذي ينفق ماله رئاء الناس لا لوجه الله تعالى، وبالكافر الذي ينفق؛ ليقال: جواد، وليثنى عليه بأنواع الثناء، والرِّياء: شرك كما صرحت به الأحاديث الشَّريفة الكثيرة، وخذ ما يلي:

عن شدّاد بن أوس ـ رضي الله عنه ـ: أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**مَنْ صَامَ يُرَائِي؛ فَقَدْ أَشْرَكَ، وَمَنْ صَلَّى يُرائي؛ فقدْ أَشْرَكَ، وَمَنْ تَصَدَّقَ يُرَائِي؛ فَقَدْ أَشْرَكَ**». رواه البيهقيُّ.

وعن محمود بن لبيد ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ أَخْوَفَ ما أخافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الأَصْغَرُ**» قالوا: ما الشرك الأصغر؟ يا رسول الله! قال: «**الرِّياء، يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ إذا جَزَى النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ: اذْهَبُوا إِلَى الذينَ كُنْتُمْ تُرَاؤُونَ في الدُّنيَا، فَانْظُرُوا: هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً**». رواه الإمام أحمد، والبيهقيُّ.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**قَالَ اللهُ تباركَ وتعالى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَملاً أَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِي؛ تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**». أخرجه مسلم.

﴿وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ أي: الإيمان الحقيقي. ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾: هو آخر أيام الدُّنيا، فيه الحشر، والنشر، والحساب، والجزاء، ودخول أهل الجنَّة الجنَّةَ بالفضل الإلٰهيِّ، ودخول أهل النَّار النَّارَ بالعدل الربَّانيِّ.

﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾: الصَّفوان: الحجر الأملس الكبير، قال الأخفش: وهو جمع، واحده: صفوانة، وقيل: هو اسم جنس كالحجر، وجمعه: صفي، ففيه تشبيه تمثيلي؛ لأنَّ وجه الشبه منتزع من متعدِّد. ﴿عَلَيْهِ تُرَابٌ﴾: على ذلك الصَّفوان تراب يستره، ويغطيه. ﴿فَأَصَابَهُ وَابِلٌ﴾: مطر شديد نزل عليه. ﴿فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾: أملس، لا شيء عليه من ذلك التراب، فهذا مثلٌ ضربه الله تعالى لنفقة المنافق، والمرائي، والمنَّان بصدقته، يؤذي النَّاس بمنِّه، وتعييره، فيرى الناس: أن لهؤلاء أعمالاً في الظاهر، كما يُرى التُّراب على الصَّفوان، فإذا جاء المطر الشَّديد؛ أذهبه، وأزاله، وكذلك حال هؤلاء يوم القيامة، تبطل أعمالهم، وتضمحلُّ لأنَّها لم تكن لله تعالى، كما أذهب المطرُ ما على الصَّفوان من التُّراب. هذا؛ والمطر أوَّله رشٌّ، ثمَّ طشٌّ، ثمَّ طلٌّ، ثم هطلٌ، ثم وابلٌ، ثمَّ جَوْدٌ، والوابل: المطر الشديد الغزير، قال النَّابغة الذبياني: [الطويل]

فَلَا زَالَ قَبْرٌ بَيْنَ بصرى وجَاسِمٍ ... عَلَيْهِ مِنَ الوَسْمِيِّ جَوْدٌ وَوَابِلُ

فَيَنْبُتُ حَوْذَاناً وَعَوْقاً مُنَوِّراً ... سَأُتْبِعُهُ مِنْ خَيْرِ مَا قَالَ قَائِلُ

﴿لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ أي: لا يقدرون على ثواب شيء ممَّا عملوا في الدنيا، وواو الجماعة عائدة على المنَّان، والمؤذي، والمرائي، وقيل: عائدة على (الَّذي)، وجمع الضمير، كما في قوله تعالى: ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ الآية رقم [٦٩] من سورة

(التوبة)؛ لأن المراد به الجنس، أو الجمع، أو الفريق، كما أنَّ الضمائر الأربعة السَّابقة له باعتبار اللفظ، ومثل هذه الآية الكريمة الآية رقم [١٧] من هذه السُّورة، ومثل الآيات قول الأشهب بن زميلة النَّهشلي، وهو الشَّاهد رقم [٣٤٦] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»، والمكرَّر برقم [٩٥٦] لكلامٍ فيه، وهو: [الطويل]

وَإِنَّ الَّذِي حَانَتْ بِفَلْجٍ دِمَاؤُهُمْ هُمُ الْقَوْمُ كُلُّ الْقَوْمِ يَا أُمَّ خَالِدِ

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ إلى الخير، والهدى، والرشاد، وفيه تعريض بأنَّ الرِّياء، والمنَّ، والأذى مع إنفاق المال من صفات الكفَّار، ولا بدَّ للمؤمن إن أراد النَّجاة من غضب الله أن يتجنَّب هذه الصفات الذَّميمة، والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: (يا): أداة نداء تنوب مناب أدعو. (أيها): منادى نكرة مقصودة مبنية على الضم في محل نصب بـ (يا)، و(ها): حرف تنبيه، لا محل له من الإعراب، وأُقحم للتوكيد، وهو عوض من المضاف إليه، ولا يقال: ضمير في محل جر بالإضافة؛ لأنَّه حينئذٍ يجب نصب المنادى. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع بدلاً من (أيُّ)، أو عطف بيان عليه. ﴿ءَامَنُوا۟﴾: فعل ماض مبني على الضم، والواو فاعله، والألف للتفريق، والمتعلق محذوف، والجملة الفعلية صلة الموصول لا محلَّ لها. ﴿لَا﴾: ناهية جازمة. ﴿تُبْطِلُوا۟﴾: فعل مضارع مجزوم بـ ﴿لَا﴾، وعلامة جزمه حذف النون لأنه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿صَدَقَٰتِكُم﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه الكسرة نيابة عن الفتحة؛ لأنه جمع مؤنث سالم، والكاف في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها ابتدائية كالجملة الندائية قبلها، ﴿بِٱلْمَنِّ﴾: متعلِّقان بالفعل قبلهما. ﴿وَٱلْأَذَىٰ﴾: معطوف على ما قبله مجرور مثله، وعلامة جره كسرة مقدَّرة على الألف للتعذُّر. ﴿كَٱلَّذِى﴾: جار ومجرور متعلِّقان بمحذوف صفة لمصدر محذوف، واقع مفعولاً مطلقاً للفعل قبله، التقدير: لا تبطلوا... إبطالاً مثل الذي، وهذا ليس مذهب سيبويه، رحمه الله تعالى، وإنَّما مذهبه في مثل هذا التركيب أن يكون منصوباً على الحال من المصدر المضمر المفهوم من الفعل السابق، وإنما أحوج سيبويه إلى هذا؛ لأنَّ حذف الموصوف، وإقامة الصِّفة مقامه لا يجوز إلا في مواضع محصورة، وليس هذا منها، ومثله في مغني اللَّبيب لابن هشام، لذا فالتقدير: لا تبطلوا صدقاتكم مشبهين الَّذي... إلخ، فهذا التقدير لا حذف فيه. ﴿يُنفِقُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى الَّذي، وهو العائد، والجملة الفعلية صلةٌ له، لا محلَّ لها. ﴿مَالَهُۥ﴾: مفعول به، والهاء في محل جر بالإضافة، ﴿رِئَآءَ﴾: فيه ثلاثة أوجه: اعتباره صفة لمصدر محذوف، التقدير: إنفاقاً رئاء النَّاس، ومفعولاً لأجله، وحالاً، التقدير: مرائياً الناس، والأوَّل ضعيف، و﴿رِئَآءَ﴾: مضاف، و﴿ٱلنَّاسِ﴾: مضاف إليه، من إضافة المصدر لمفعوله، وفاعله محذوف. ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): نافية. ﴿يُؤْمِنُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى

(الذي) أيضاً، والجملة الفعلية معطوفة على جملة الصلة، لا محل لها مثلها. ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلقان بما قبلهما، ﴿وَٱلۡيَوۡمِ﴾: معطوف على ما قبله. ﴿ٱلۡأٓخِرِۖ﴾: صفة له.

﴿فَمَثَلُهُۥ﴾: الفاء: حرف استئناف، (مثله): مبتدأ، والهاء في محل جرٍّ بالإضافة. ﴿كَمَثَلِ﴾: متعلِّقان بمحذوف خبره، والجملة الاسمية مستأنفة لا محلَّ لها، وقيل: معطوفة على جملة الصِّلة، فلا محل لها أيضاً. ﴿عَلَيۡهِ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم. ﴿تُرَابٞ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل جر صفة ﴿صَفۡوَانٍ﴾. هذا؛ وإن اعتبرت الجار والمجرور متعلِّقين بمحذوف صفة ﴿صَفۡوَانٍ﴾ و﴿تُرَابٞ﴾ فاعلاً بمتعلِّقه، فهو وجه جيِّد لا غبار عليه.

(أصابه): فعل ماض، والهاء في محل نصب مفعول به. ﴿وَابِلٞ﴾: فاعله، والجملة الفعلية معطوفة على الجملة الاسمية قبلها، فهي في محلِّ جرٍّ مثلها. (تركه): فعل ماض، والفاعل يعود إلى ﴿وَابِلٞ﴾، والهاء مفعول به أوَّل. ﴿صَلۡدٗاۖ﴾: مفعول به ثان، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، فهي في محل جر أيضاً. ﴿لَّا﴾: نافية. ﴿يَقۡدِرُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله، والجملة الفعلية مستأنفة لا محل لها. ﴿عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿مِّمَّا﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة ﴿شَيۡءٖ﴾، و(ما): تحتمل الموصولة، والموصوفة، والمصدرية. وجملة: ﴿كَسَبُواْۗ﴾: مع المتعلق المحذوف صلة (ما) أو صفتها، والعائد أو الرابط محذوف، التقدير: على شيءٍ من الَّذي، أو: من شيء كسبوه من الأعمال، وعلى اعتبار (ما) مصدرية تؤول مع ما بعدها بمصدر في محلِّ جرٍّ بـ (من)، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف صفة ﴿شَيۡءٖ﴾ التقدير: من كسبهم. ﴿وَٱللَّهُ﴾: الواو: حرف استئناف. (الله): مبتدأ، ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَهۡدِي﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء للثِّقل، والفاعل يعود إلى (الله). ﴿ٱلۡقَوۡمَ﴾: مفعول به. ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾: صفة له منصوب مثله، وعلامة نصبه الياء... إلخ، والجملة الفعلية في محلِّ رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، أو معترضة في آخر الكلام لا محلَّ لها.

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٢٦٥﴾

الشرح: ﴿وَمَثَلُ...﴾ إلخ: وهذا مثلٌ آخر ضربه الله لنفقة المؤمن الكامل الإيمان، المنفق ماله ابتغاء مرضاة الله، وطلباً لرحمته، وكرمه، وجوده، ﴿وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ أي: تصديقاً، ويقيناً، قاله ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، وقال مجاهد، والحسن البصري: معناه: وأنهم يتثبَّتون أين يضعون صدقاتهم، وقال الحسن: كان الرجل إذا همَّ بصدقةٍ تثبَّت، فإن كان ذلك لله؛ أمضاه، وإن خالطه شكٌّ؛ أمسك، أقول: وينبغي أن يخص بصدقته الأبرار المتَّقين، ويبحث عن الفقراء المتعفِّفين، ويخصَّ أرحامه الفقراء بشيءٍ من صدقاته، فقد قال الرسول ﷺ: «**الصدقة**

على المسكين صدقةٌ، وعلى ذي الرحم ثنتان: صدقةٌ، وصلةٌ» أخرجه النَّسائيُّ، والترمذيُّ عن سليمان بن عامر ـ رضي الله عنه ـ.

وروي: أنَّ أم المؤمنين ميمونة ـ رضي الله عنها ـ أعتقت جارية في سبيل الله، فقال لها سيِّد الخلق، الناطق بالصِّدق ﷺ: **«أَمَا إِنَّكِ لَوْ أَعْطَيْتِهَا أَخْوَالَكِ كَانَ أَعْظَمَ لأَجْرِكِ»**.

وعن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«أَيُّمَا رَجُلٍ أَتَاهُ ابْنُ عَمِّهِ يَسْأَلُهُ مِنْ فَضْلِهِ، فَمنعَهُ، مَنَعَهُ اللهُ فَضْلَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ»** أخرجه الطَّبرانيُّ. هذا؛ وقد قال تعالى في سورتي (الإسراء) و(الروم): ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾، وقال زهير في معلَّقته، انظر شرحها وإعرابها في كتابنا: «فتح الكبير المتعال»: [الطويل]

وَمَنْ يَكُ ذَا فَضْلٍ فَيَبْخَلْ بِفَضْلِهِ عَلَى قَوْمِهِ يُسْتَغْنَ عَنْهُ وَيُذْمَمِ

﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ﴾: الجنَّة: البستان، وهي قطعة أرض تنبت فيها الأشجار الكثيفة حتى تغطِّيها، وتستر ما فيها، فهي مأخوذةٌ من لفظ: الجِنِّ، والجنين، لاستتارهم. ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾: نزل عليها مطر شديد، والرَّبوة: المكان المرتفع عن الأرض؛ لأنَّ ما ارتفع من الأرض عن سيل الماء والأودية؛ كان ثمرها أحسن، وأزكى، إذا كان لها من الماء ما يرويها، فإذا كانت الأرض بهذه الصِّفة؛ كثر ريعُها، وحملت أشجارُها. قال الأعشى في معلَّقته رقم [١٢] انظر شرحها وإعرابها في كتابنا فتح الكبير المتعال: [البسيط]

مَا رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْحَزْنِ مُعْشِبَةٌ خَضْرَاءُ جَادَ عَلَيْهَا مُسْبِلٌ هَطِلُ

أراد بالحَزْن: ما غلظ، وارتفع من الأرض. ﴿فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾ أي: فأعطت ثمرتها مثلين، قيل: إنَّها حملت في سنةٍ من الرَّيع ما يحمله غيرها في سنتين. ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾: تأكيد منه تعالى لمدح هذه الرَّبوة، فإنها إن لم يصبها وابلٌ فإنَّ الطلَّ يكفيها، وينوب مناب الوابل في إخراج الثَّمرة ضعفين، وذلك لكرم الأرض، وطيبها، والطَّلُّ: المطر الضعيف المستدق من القطر الخفيف، وقال قومٌ، منهم مجاهد: الطَّلُّ: النَّدى، فشبَّه الله نموَّ نفقات هؤلاء المخلصين الَّذين يربِّي الله لهم صدقاتهم كتربية الفلو والفصيل، بنمو نبات الحبة بالرَّبوة الموصوفة، بخلاف الصَّفوان الذي ينكشف عنه ترابه، فيبقى صلداً.

وخرَّج مسلمٌ، وغيره عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: **«من تصدَّق بعدل تمرةٍ من كسب طَيِّبٍ ـ ولا يقبل الله إلا الطَّيِّب ـ فإنَّ اللهَ يقبلها بيمينه، ثمَّ يربيها لصاحبها، كما يربي أحدكم فلوَّه حتى تكون مثل الجبل»**. ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾: تحذير من الرياء، وترغيب في الإخلاص؛ أي: فإنَّ الله تعالى لا تخفى عليه خافية، فيجازي كلَّ إنسان بما يستحق. وقرئ الفعل بالياء أيضاً، كأنَّه يريد به الناس أجمع، أو يريد المنفقين فقط، فهو وعدٌ محضٌ.

هذا وفي قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ﴾: تشبيه تمثيليٌّ؛ لأنَّ وجه الشبه منتزع من متعدِّد، كما في قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾.

هذا و (مَثَلُ) بفتح الميم والثاء بمعنى: مِثْل، ومَثيل، وشِبْه، وشَبِيه. ومثل: اسم متوغِّل في الإبهام، لا يتعرَّف بإضافته إلى الضَّمير، وغيره من المعارف، ولذلك نعتت به النَّكرة في قوله تعالى حكاية عن قول فرعون وقومه: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ الآية رقم [٤٧] من سورة (المؤمنون)، ويوصف به المفرد، والمثنى، والجمع، تذكيراً، وتأنيثاً، كما في الآية الكريمة، وتستعمل على ثلاثة أوجه: الأول: بمعنى الشبيه، كما في الآية الكريمة، والثاني: بمعنى نفس الشيء، وذاته، كما في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ رقم [١١] من سورة (الشورى)، والثالث: زائدة، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ﴾ الآية رقم [١٣٧] من هذه السورة، أي: بما آمنتم.

وأما المَثَل في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ الآية رقم [٢٤] من سورة (إبراهيم) ـ على نبينا، وحبيبنا، وعليه ألف صلاة وألف سلام ـ فهو القول السائر بين الناس، والذي فيه غرابة من بعض الوجوه، والممثل بمضربه؛ أي: الحالة الأصلية التي ورد الكلام فيها، وما أكثر الأمثال في اللُّغة العربية، علماً بأنَّ الأمثال لا تغيَّر، تذكيراً، وتأنيثاً، إفراداً، وتثنيةً، وجمعاً، بل ينظر فيها دائماً إلى مورد المثل، أي: أصله، مثل (الصَّيف ضيَّعت اللَّبن) فإنَّه يضرب لكلِّ مَنْ فرَّط في تحصيل شيء في أوانه، ثم طلبه بعد فواته.

هذا؛ وأصاب فلاناً البلاء: وقع عليه، وأصابهم المطر: نزل عليهم، كما في هذه الآية وسابقتها، وتقول: أصاب السَّهم، يصيب، فلم يخطئ هدفه، وأصاب الرجل في قوله، أو في رأيه: أتى الصواب. ويأتي «أصاب» بمعنى: قصد، وأراد، قال تعالى في حق سليمان ـ على نبينا وحبيبنا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾.

قال الشاعر: [المتقارب]

أَصَابَ الْكَلامِ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ ... فَأَخْطَا الْجَوابَ لَدَى الْمَفْصِلِ

فائدة: قال مكيُّ بن أبي طالب القيسيُّ ـ رحمه الله تعالى ـ في التركيب ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا﴾ ونحوه: دخلت (إنْ) على (لَمْ) ليرتدَّ الفعل إلى أصله في لفظه، وهو الاستقبال؛ لأنَّ «لَمْ» تردُّ لفظ المستقبل إلى معنى المضي، و«إنْ» ترد الماضي إلى معنى الاستقبال، فلمَّا صارت «لَمْ» ولفظ المستقبل بعدها بمعنى الماضي؛ ردتها «إنْ» إلى الاستقبال؛ لأن «إنْ» ترد الماضي إلى معنى الاستقبال. انتهى.

الإعراب: (مثل): مبتدأ، وهو مضاف، و ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل جر بالإضافة، وهناك مضاف محذوف؛ إذ التقدير: ومثل نفقة الذين. و﴿يُنفِقُونَ﴾: فعل مضارع

مرفوع، والواو فاعله، والجملة الفعلية صلة الموصول لا محل لها. ﴿أَمْوَٰلَهُمُ﴾: مفعول به، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿ٱبْتِغَآءَ﴾: مفعول لأجله، وقيل: هو مصدر في موضع الحال، واستحسن لعطف (تثبيتاً) عليه، و ﴿ٱبْتِغَآءَ﴾ مضاف، و﴿مَرْضَاتِ﴾ مضاف إليه من إضافة المصدر لمفعوله، وفاعله محذوف، و﴿مَرْضَاتِ﴾ مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾: مضاف إليه، من إضافة المصدر لفاعله، ﴿وَتَثْبِيتًا﴾: معطوف على ما قبله، ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾: متعلقان بـ (تثبيتاً) والهاء في محل جر بالإضافة، كمثل: متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ، و(مثل) مضاف، و﴿جَنَّةٍ﴾: مضاف إليه. ﴿بِرَبْوَةٍ﴾: متعلقان بمحذوف صفة (جنَّة)، والجملة الاسمية: (مثل...) إلخ معطوفة على ما قبلها.

﴿أَصَابَهَا﴾: فعل ماض، و(ها): مفعول به، ﴿وَابِلٌ﴾: فاعله، والجملة الفعلية في محل جر صفة ثانية لـ﴿جَنَّةٍ﴾ أو صفة (ربوة)؛ لأنَّ الجنة بعض الرَّبوة، ويجوز أن تكون في محل نصب حال من ﴿جَنَّةٍ﴾ يعد وصفها بما تقدَّم. (آتت): فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف للتعذر، وهي محذوفة لالتقائها ساكنة مع تاء التأنيث الساكنة، والفاعل يعود إلى (الجنَّة)، والمفعول الأول محذوف، التقدير: فآتت صاحبها. ﴿أُكُلَهَا﴾: مفعول به ثان، و(ها): في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها على الوجهين المعتبرين فيها. ﴿ضِعْفَيْنِ﴾ حال من ﴿أُكُلَهَا﴾ منصوب، وعلامة نصبه الياء نيابة عن الفتحة؛ لأنَّه مثنَّى، والنون عوض عن التنوين في الاسم المفرد.

﴿فَإِن﴾: الفاء: حرف تفريع، واستئناف. (إن): حرف شرط جازم. ﴿لَّمْ﴾: حرف نفي، وقلب، وجزم. ﴿يُصِبْهَا﴾: فعل مضارع مجزوم بـ ﴿لَّمْ﴾ وهو في محل جزم فعل الشرط، و(ها): مفعول به. ﴿وَابِلٌ﴾: فاعله، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها ابتدائية، ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفية. ﴿فَطَلٌّ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشَّرط، (طلٌّ): مبتدأ، خبره محذوف، التقدير: فَطَلٌّ يكفيها، أو خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: فالذي يصيبها طَلٌّ، وعلى الوجهين فالجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور، والدسوقي يقول: لا محلَّ لها؛ لأنها لم تحلَّ محل المفرد، و(إنْ) ومدخولها كلام مستأنف لا محل له.

﴿وَٱللَّهُ﴾: الواو: حرف استئناف. (الله): مبتدأ. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلقان بـ ﴿بَصِيرٌ﴾ الآتي، و(ما): تحتمل الموصولة، والموصوفة، والمصدرية. ﴿تَعْمَلُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو وفاعله، والجملة الفعلية صلة (ما) أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف، التقدير: بالذي، أو: بشيء تعملونه بصير، وعلى اعتبار (ما) مصدرية تؤول مع الفعل بعدها بمصدر، التقدير: بعملكم بصير. ﴿بَصِيرٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، أو معترضة في آخر الكلام لا محلَّ لها، الغرض منها: التَّهديد، والوعيد.

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾

الشرح: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ﴾: الخطاب لكلِّ عاقلٍ يتأتَّى له التفكُّر، والاعتبار، والاتعاظ، والمعنى: أيحبُّ، ويتمنَّى أحدُكم مثل ما ذكر في هذه الآية الكريمة: ﴿أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ﴾: بستان فيه الأشجار المختلفة، التي من جملتها النَّخيل، والأعناب، وخصَّ الله هذين النَّوعين بالذِّكر لشرفهما، وكثرة منافعهما، و﴿نَّخِيلٍ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنَّه اسم جمع، واحده: نخلة، والثاني: جمع: نخل؛ الذي هو اسم جنس، و(أعناب) جمع: عنب؛ الذي هو اسم جنس جمعي، مثل: تمر، ويفرَّق بينه وبين واحده بالتاء، وهي عنبة، وتمرة.

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي: من تحت أشجار النَّخيل، والعنب، وكذلك من تحت القصور. ﴿لَهُۥ﴾ أي: لأحدكم. ﴿فِيهَا﴾: في الجنة المذكورة. ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾: من كل أنواع الثِّمار غير النخيل، والأعناب، وهذا يدلُّ على أنَّ تلك الجنَّة احتوت على سائر أنواع الأشجار، والثمار، ﴿وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ﴾: أدركه الشيخوخة، والعجز، والهرم. ﴿وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ﴾: أولاد صغار لا يقدرون على الكسب لضعفهم، وعجزهم. ﴿فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ﴾: رياح شديدة عاتية. ﴿فِيهِ نَارٌ﴾: ملتهبة شديدة. ﴿فَٱحْتَرَقَتْ﴾ أي: أحرقت النار تلك الجنَّة بما فيها.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ...﴾ إلخ: أي: مثل هذا البيان الواضح في هذا المثل الرائع الحكيم يبين الله لكم دلائل قدرته في كتابه الحكيم؛ لكي تتفكروا، وتتدبَّروا بما فيها من العبر والعظات، وتنزلونها على المراد منها، كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ رقم [٤٣] من سورة (العنكبوت)، وفي الآية الكريمة استعارة تمثيلية، وهي تشبيه حال بحال لم يذكر فيه سوى المشبه به فقط، وقامت قرائن تدلُّ على إرادة التشبيه، وانظر التفكر في (آل عمران) رقم [١٩١]. بعد هذا: في الآية الكريمة مَثَلٌ ضربه الله تعالى لعمل المنافق، والمرائي، والمنَّان، يقول: مثل عمل هؤلاء في حسنه كحسن جنَّة، ينتفع بها صاحبها، فلما كبر، وضعف، وصار له أولاد صغار ضعاف أصاب جنته إعصارٌ شديدٌ، فيه نارٌ، فأحرقتها، وهو أحوج ما يكون إليها، فحصل في قلبه من الغمِّ، والحسرة ما لا يعلمه إلا الله تعالى؛ لكبره، وضعفه، وضعف أولاده، فهو لا يجد ما يعود به على أولاده، وهم لا يجدون ما يعودون به عليه، فبقوا جميعاً متحسِّرين، عجزة، لا حيلة لهم، فكذلك حال من أتى يوم القيامة بأعمال حسنة، ولم يقصد بها وجه الله تعالى، فيبطلها الله؛ وهو في غاية الحاجة إليها، حين لا مستعتب له، ولا توبة، وخذ ما يلي: فعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ:

«يُؤْتَى يَوْمَ القِيامَةِ بِصُحُفٍ مُخَتَّمةٍ، فَتُنْصَبُ بَيْنَ يَدَي اللهِ تَعَالى، فيقولُ اللهُ تباركَ وتعالى: أَلْقُوا هَذِهِ، وَاقْبَلُوا هَذِهِ، فتقولُ الملائِكَةُ: وَعِزَّتِكَ وَجَلَالِكَ مَا رَأَيْنَا إِلَّا خَيْراً، فيقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: إِنَّ هَذَا كَانَ لِغَيْرِ وَجْهِي، وَإِنِّي لا أَقْبَلُ إِلَّا ما ابْتُغِيَ بِهِ وَجْهِي» رواه الطبرانيُّ، والبيهقيُّ، والبزار.

وقال عبيد بن عميرة: قال عمر ـ رضي الله عنه ـ يوماً لأصحاب رسول الله ﷺ: فيمن ترون نزلت هذه الآية: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ...﴾ إلخ؟ قالوا: الله أعلم، فغضب عمر ـ رضي الله عنه ـ، وقال: قولوا: نعلم، أو: لا نعلم، فقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين! فقال عمر: قل يا بن أخي، ولا تحقر نفسك، فقال: ضرب الله مثلاً لعملٍ، قال: لأيِّ عمل؟ قال: لرجل غني يعمل بطاعة الله، ثم بعث الله له الشَّيطان، فعمل بالمعاصي؛ حتَّى أحرق أعمالَه كلَّها، أخرجه البخاري. انتهى. خازن.

الإعراب: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ﴾: الهمزة: حرف استفهام، وإنكار (يودُّ أحدكم): مضارع، وفاعله، والكاف في محل جرٍّ بالإضافة. ﴿أَن﴾: حرف مصدري، ونصب. ﴿تَكُونَ﴾: فعل مضارع ناقص منصوب بـ (أن). ﴿لَهُۥ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدَّم على نقصانه، ومتعلقان به على تمامه.

﴿جَنَّةٌ﴾ اسم ﴿تَكُونَ﴾ مؤخَّر، أو فاعل به، والمصدر المؤوَّل: من: ﴿أَن تَكُونَ...﴾ إلخ في محل نصب مفعول به، والجملة الفعلية: ﴿أَيَوَدُّ...﴾ إلخ مستأنفة في الإعراب، ومتَّصلة بما قبلها في المعنى. ﴿مِّن نَّخِيلٍ﴾: متعلقان بمحذوف صفة جنة. ﴿وَأَعْنَابٍ﴾: معطوف على ما قبله. ﴿تَجْرِي﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء للثقل. ﴿مِن تَحْتِهَا﴾: متعلقان به. و(ها) في محل جر بالإضافة. ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: فاعل ﴿تَجْرِي﴾ والجملة الفعلية في محل رفع صفة ثانية لـ ﴿جَنَّةٌ﴾ أو في محل نصب حال منها بعد وصفها بما تقدَّم، وأجاز مكيٌّ اعتبارها في محل نصب خبر ﴿تَكُونَ﴾. ﴿لَهُۥ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدَّم. ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور متعلقان بالخبر المحذوف. أو هما متعلقان بمحذوف حال من الضمير المستتر في الخبر المحذوف. هذا؛ والمبتدأ محذوف والجار والمجرور: ﴿مِن كُلِّ﴾ متعلقان بمحذوف صفة، وتقدير الكلام: له فيها ثمر، أو: رزق كائن من كل الثمرات، والجملة الاسمية يجوز فيها ما جاز في الجملة الفعلية التي قبلها من اعتبارات، و﴿كُلِّ﴾ مضاف، و﴿ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ مضاف إليه.

﴿وَأَصَابَهُ﴾ الواو: واو الحال. (أصابه): فعل ماض، والهاء مفعوله. ﴿ٱلْكِبَرُ﴾: فاعله، والجملة الفعلية في محل نصب حال من الضمير المجرور محلاً باللَّام، وهي على تقدير «قد» قبلها، والرابط الواو، والضمير، وهي حالٌ متداخلةٌ. (له): جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدَّم. ﴿ذُرِّيَّةٌ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿ضُعَفَآءُ﴾: صفة له، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة الفعلية قبلها، فهي في محل نصب حال مثلها، وقال الجمل: هي حال من الضمير المنصوب،

فتكون حالاً متداخلة أيضاً، وجملة: ﴿فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ﴾ معطوفة على صفة الجنَّة، قاله أبو البقاء، يعني: على قوله: ﴿مِّن نَّخِيلٍ﴾ وما بعده. ﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدَّم. ﴿نَارٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية صفة ﴿إِعْصَارٌ﴾. هذا؛ ويجوز اعتبار الجار والمجرور متعلِّقين بمحذوف صفة ﴿إِعْصَارٌ﴾، واعتبار ﴿نَارٌ﴾ فاعلاً في الجار والمجرور. ﴿فَٱحْتَرَقَتْ﴾: فعل ماض، والتاء للتأنيث، والفاعل يعود إلى ﴿نَارٌ﴾، والجملة الفعلية معطوفة على جملة: (أصابها إعصار) فهي من جملة صفة (جنّة) أيضاً.

﴿كَذَٰلِكَ﴾: الكاف: حرف تشبيه، وجر. و(ذا): اسم إشارة مبني على السكون في محل جر بالكاف، والجار والمجرور متعلِّقان بمحذوف صفة لمفعول مطلق محذوف، عامله الفعل الذي بعده، التقدير: يبين الله دلائل قدرته، وفوائد حكمته تبييناً مثل تبيينه حال أعمال المنافقين والمرائين والمنَّانين، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب لا محلَّ له. ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ﴾: مضارع وفاعله، والجملة الفعلية مستأنفة لا محلَّ لها. ﴿لَكُمُ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿ٱلْأَيَٰتِ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه الكسرة نيابة عن الفتحة؛ لأنه جمع مؤنث سالم. ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: حرف مشبه بالفعل، والكاف اسمها. ﴿تَتَفَكَّرُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله، والجملة في محل رفع خبر: (لعلَّ) والجملة الاسمية في محل نصب حال من ضمير الخطاب، والرابط: الضمير فقط، وبعضهم يعتبرها للتعليل لا محل لها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾﴾

الشرح: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ...﴾ إلخ انظر الآية رقم [٢٥٤]، وهو خطاب لجميع أمة محمد ﷺ، وإن كان سبب النزول خاصّاً كما ستعرفه. ﴿أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾: المراد به الحلال كما في قوله تعالى في سورة (آل عمران) رقم [٩٢]: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ هذا وظاهر الآية يدل على وجوب الزكاة في كل ما يكتسبه الإنسان، فيدخل فيه زكاة الذهب، والفضة، وعروض التجارة؛ لأنَّ ذلك يوصف بأنَّه مكتسب، وجمهور العلماء على وجوب الزكاة في مال التِّجارة، دليل ذلك ما روي عن سمرة بن جندب ـ رضي الله عنه ـ، قال: كان رسول الله ﷺ يأمرنا بإخراج الصدقة من الذي يعدُّ للبيع. أخرجه أبو داود.

وعن أبي عمرو بن خماس: أن أباه، قال: مررت بعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ، وعلى عنقي أدمةٌ أحملها، فقال عمر: ألا تؤدي زكاتك يا خماس؟ فقلت: ما لي غير هذا، وأُهْبٌ في القرظ، قال: ذاك مالٌ فضع، فوضعتها، فحسبها، فأخذ منها الزكاة.

فإذا حال الحول على عروض التِّجارة، قُوِّمَتْ، فإن بلغت قيمتها النِّصاب أخرج منها ربع العشر. وخذ ما يلي:

عن المقدام ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَاماً قَطُّ خَيْراً مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نبيَّ الله، دَاوَدَ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ**» أخرجه البخاريُّ.

وعن عائشة: أن رسول الله ﷺ، قال: «**إِنَّ أَطْيَبَ مَا أَكَلْتُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ، وَإِنَّ أَوْلَادَكُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ**» أخرجه الترمذيُّ، والنسائي.

﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾: ظاهر الآية يدلُّ على وجوب الزَّكاة في كل ما خرج من الأرض من النبات، ممَّا يزرع الآدميون، لكن جمهور العلماء خصَّصوا هذا العموم، فأوجبوا الزكاة في النَّخيل والكروم، وفيما يقتات، ويُدَّخر من الحبوب، وأوجب أبو حنيفة رضي الله عنه الزكاة في كلِّ ما يقصد من نبات الأرض، كالفواكه، والبقول، والخضراوات، كالبطيخ، والقثاء، والخيار، ونحو ذلك، دليل الجمهور ما روي عن معاذ ـ رضي الله عنه ـ: أنَّه كتب إلى النبي ﷺ يسأله عن الخضروات، وهي البقول: فقال: «**لَيْسَ فِيهَا شيء**» أخرجه الترمذيُّ، وقال الزهريُّ، والأوزاعيُّ، ومالك: تجب الزكاة في الزَّيتون، وتجب في الثِّمار عند بُدُوِّ الصلاح، وهو أن يحمرَّ البُسْرُ، ويصفرَّ وقت الإخراج بعد الاجتناء، والجفاف، وفي الحبوب عند الاشتداد، ووقت الإخراج بعد الدراس، والتصفية.

﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ أي: ولا تقصدوا الرديء من أموالكم. ﴿مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ أي: من الخبيث، عن البراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ قال: نزلت الآية فينا معشر الأنصار؛ كنا أصحاب نخل، فكان الرجل يأتي من نخله على قدر كثرته وقلته، وكان الرجل يأتي بالقِنو والقنوين، فيعلقه في المسجد، وكان أهل الصفة ليس لهم طعام، فكان أحدهم إذا جاع؛ أتى القنو، فضربه بعصاه، فسقط البسر، أو التمر، فيأكل، وكان الناس ممَّن لا يرغب في الخير، فيأتي بالقِنْوِ، فيه الشِّيص، والحشف، وبالقِنْوِ قد انكسر، فيعلقه، فأنزل الله تعالى الآية.

﴿وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ﴾ أي: لو أنَّ أحدكم أُهدي إليه مثلَ ما أَعْطى؛ لم يأخذه إلا على إغماض، وحياء؛ فكيف تؤدُّون منه حق الله تعالى؟! قال البراء ـ رضي الله عنه ـ: فكنا بعد ذلك يأتي أحدُنا بصالح ما عنده، أخرجه الترمذي. هذا؛ والإغماض في اللغة: غض البصر، وإطباق الجفن، والمراد به هنا: التجوُّز والمساهلة؛ لأنَّ الإنسان إذا رأى ما يكره؛ أغمض عينيه؛ لئلا يرى ذلك، ففي الكلام مجاز مرسل، أو استعارة، ومن ذلك قول الطرماح: [الخفيف]

لَمْ يَفُتْنَا بِالْوِتْرِ قَوْمٌ ولِلذُّ ... لِّ أَنَاسٌ يَرْضَوْنَ بِالإِغْمَاضِ

وقد يحتمل أن يكون منتزعاً من تغميض العين؛ لأنَّ الذي يريد الصبر على مكروه يغمض عينيه، قال الشاعر: [الطويل]

إلَى كَمْ وَكَمْ أَشْيَاءُ مِنْكَ تُرِيبُنِي؟ أُغَمِّضُ عَنْهَا العينَ ليستُ بِذِي عَمَى

وإمَّا من قول العرب: أغمض الرجل: إذا أتى غامضاً من الأمر. هذا ﴿وَلَسْتُم﴾: حُذفت عينه لالتقاء الساكنين: الياء والسين، إذ أصله: لَيِسَ: بكسر الياء، ثم سكنت الياء للتخفيف، ولم تقلب ألفاً على القياس؛ لأنَّ التخفيف بالتَّسكين في الجامد أسهل من القلب، فلمَّا اتصل بضمير رفع متحرك؛ سكنت العين، فالتقى ساكنان: الياء والسين فحذفت الياء لالتقاء الساكنين، ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ أيقنوا: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ﴾: عن نفقاتكم، فلم يأمركم بها لاحتياجه إليها، بل لنفعكم بها، واحتياجكم لثوابها، فينبغي لكم أن تتحروا فيها الطيب، والرسول ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّباً**...» إلخ الحديث أخرجه مسلم ـ رحمه الله تعالى ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، ويراد بالطيب في هذه الحديث الحلال، كما يراد منه الجيد، وذكرت لك في الآية رقم [٢٦٥] قوله ﷺ: «**مَنْ تَصَدَّقَ بِعِدْلِ تَمْرةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ**...» إلخ. ﴿حَمِيدٌ﴾: محمود على أفعاله، وعلى كلِّ حال من التعذيب، والإثابة، والخير، والشر، وهو سبحانه مستحقٌّ للحمد في ذاته، محمودٌ، تحمده الملائكة، وتنطق بحمده ذرات المخلوقات.

الإعراب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ﴾: انظر إعراب مثل هذه الكلمات في الآية رقم [٢٦٤]. ﴿مِن طَيِّبَٰتِ﴾: متعلقان بمحذوف صفة لموصوف محذوف، التقدير: أنفقوا شيئاً كائناً من طيبات، أو هما متعلقان بالفعل قبلهما على أنهما مفعول به؛ لأن ﴿مِن﴾ للتبعيض، و﴿طَيِّبَٰتِ﴾: مضاف، و﴿مَا﴾ في محل جر بالإضافة، وهي تحتمل الموصولة، والموصوفة، والمصدرية. ﴿كَسَبۡتُمۡ﴾: فعل، وفاعل، والجملة صلة ﴿مَا﴾ أو صفتها، والعائد أو الرابط محذوف، التقدير: طيبات الذي، أو: طيبات شيء كسبتموه، وعلى اعتبار ﴿مَا﴾ مصدرية تؤول مع الفعل بعدها بمصدر في محل جر بالإضافة، التقدير: طيبات كسبكم. ﴿وَمِمَّآ﴾: الواو: حرف عطف. (مما): جار ومجرور معطوفان على ما قبلهما، وهناك محذوف، تقديره: ومن طيبات ما أخرجنا، و(ما) تحتمل الموصولة والموصوفة، وهي في محل جر بإضافة ذلك المحذوف إليها. ﴿أَخۡرَجۡنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿لَكُم﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، والجملة الفعلية صلة (ما) أو صفتها، والعائد أو الرابط محذوف، وتقدير الكلام: ومن طيبات الذي، أو: شيء أخرجناه لكم. ﴿مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، أو هما متعلقان بمحذوف حال من الضمير المقدر الواقع مفعولاً به.

﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): ناهية جازمة. ﴿تَيَمَّمُواْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ (لا) وعلامة جزمه حذف النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿ٱلۡخَبِيثَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية معطوفة على جملة: ﴿أَنفِقُواْ...﴾ إلخ لا محل لها مثلها، الأولى بالابتداء، والثانية بالإتباع. ﴿مِنۡهُ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل بعدهما. وأجيز

تعليقهما بـ ﴿ٱلْخَبِيثَ﴾ أو بمحذوف حال منه، والأول أقوى. ﴿تُنفِقُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله، والجملة الفعلية في محل نصب حال من ﴿ٱلْخَبِيثَ﴾، والرابط: الضمير المجرور محلاً بـ (مِنْ) وهو مما يقوي التعليق به، وعلى التعليق بـ ﴿ٱلْخَبِيثَ﴾ فتحتاج الجملة إلى تقدير رابط، التقدير: تنفقونه.

﴿وَلَسْتُم﴾: الواو: واو الحال. (لستم): فعل ماض ناقص مبني على السكون، والتاء اسمه، والميم في الكل حرف دال على جماعة الذكور، ﴿بِـَٔاخِذِيهِ﴾: الباء: حرف جر صلة. (آخذيه): خبر (ليس) مجرور لفظاً منصوب محلاً، وعلامة الجر اللفظي، والنصب المحلي الياء نيابة عن الكسرة، والفتحة؛ لأنه جمع مذكر سالم، وحذفت النون للإضافة، والهاء في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه، وجملة: (لستم...) إلخ في محل نصب حال من واو الجماعة، والرابط الواو، والضمير ﴿إِلَّآ﴾: حرف حصر. ﴿أَن﴾: حرف مصدري، ونصب، واستقبال. ﴿تُغْمِضُوا۟﴾: فعل مضارع منصوب بـ ﴿أَن﴾ وعلامة نصبه حذف النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والألف للتفريق، والمصدر المؤول في محل جر بحرف جر محذوف، التقدير: إلا بإغماضكم، والجار والمجرور متعلقان بـ (آخذيه) وأجاز أبو البقاء اعتبار المصدر المؤول في محل نصب على الحال، والعامل فيه (آخذيه) والمعنى: لستم بآخذيه في حالٍ من الأحوال إلا في حال الإغماض. ﴿فِيهِ﴾: متعلقان بما قبلهما، وجملة: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟...﴾ إلخ معطوفة على جملة: ﴿أَنفِقُوا۟...﴾ إلخ وما عطف عليها، والاستئناف ممكن بالإعراض عمَّا قبلها.

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾

الشرح: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ﴾: يخوِّفكم من الفقر، وانظر الآية رقم [٢٧١] الآتية. هذا؛ والوعد في كلام العرب إذا أطلق فهو في الخير، وإذا قيِّد بالموعد ما هو، فقد يقدر بالخير، وبالشرِّ، كالبشارة، لكنَّ الوعيد لا يكون إلا بالشرِّ. هذا و(يعد) أصله: يوعِد فحذفت الواو لوقوعها بين عدوَّتيها، وهما الياء والكسرة في مضارع الغائب، وتحذف من مضارع المتكلِّم، والمخاطب قياساً عليه. ﴿وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾: بالبخل، ومنع الزَّكاة، والصَّدقة. قال الكلبيُّ: كلُّ فحشاء في القرآن فهي الزنى إلا هذا الموضع، وفي هذه الآية لطيفة، وهي أن البخل صفةٌ مذمومةٌ عند كلِّ أحد، فلا يستطيع الشَّيطان أن يحسِّن له البخل إلا بتلك المقدِّمة، وهي التخويف من الفقر، فلهذا قال تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ...﴾ إلخ. هذا والفعل (يأمركم) وما فيه «أمر» يتعدَّى لمفعولين، تارةً بنفسه، كما في قولك: أمرْتُكَ الخير، وقال عمرو بن معدي كرب الزَّبيدي

ـ رضي الله عنه ـ، وهو الشاهد رقم [٥٩٧] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» رقم [٤٨٥] من كتابنا: «فتح رب البرية»: [البسيط]

أَمَرْتُكَ الخَيْرَ، فَافْعَلْ مَا أُمِرْتَ بِهِ فَقَدْ تَرَكْتُكَ ذَا مَالٍ وَذَا نَشَبِ

وتارةً يتعدَّى إلى الثاني بحرف الجر، كما في قولك: أمرتُك بالخير، ومثله: استغفر، واختار، وكنى، وسمَّى، ودعا، وصدَّق، وزوَّج، وكان، ووزن، قال الشاعر: وهو الشَّاهد رقم [٤٨٦] من كتابنا فتح ربِّ البرية: [البسيط]

أَسْتَغْفِرُ اللهَ ذَنْباً لَسْتُ مُحْصِيَهُ رَبَّ الْعِبَادِ، إِلَيْهِ الْوَجْهُ وَالْقَبَلُ

وقد تحذف الهمزة مِنْ أَمْرِهِ، فتقول: مُرْ، كما تحذف من أَمْرِ: أخذ، يأخذ، فتقول: خذ، وتحذف من أَمْرِ: أكل يأكلُ، فتقول: كُلْ، والأصل: أُؤْمُرْ، وَأُؤْخُذْ، وَأُؤْكُلْ، فحذفت الهمزتان من الأفعال الثلاثة لاجتماع الضَّمَّات، وقد قالوا: أُؤْمُر أُؤْخَذ، فاستعمل على الأصل، ومنه أْأْمُر في الآية رقم [١٤٥] من سورة (الأعراف)، وفي الآية رقم [١٣٢] من سورة (طه)، والآية رقم [١٧] من سورة (لقمان).

﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ﴾: لذنوبكم، وستراً لعيوبكم، وخلفاً لما تنفقون زائداً عن الأصل، ورزقاً حسناً. ﴿وَفَضْلًا﴾: كرماً، وجوداً منه تعالى، فالمغفرة إشارة إلى منافع الآخرة، والفضل إشارة إلى منافع الدنيا، وما يحصل من الرِّزق، والخلف. ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾: انظر الآية رقم [٢٦١] ففيها الكفاية، وخذ ما يلي:

فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ لِلشَّيْطَانِ لَمَّةً بِابْنِ آدَمَ، وَلِلمَلَكِ لَمَّةٌ، فَأمَّا لَمَّةُ الشَّيْطَانِ فَإِيعَادٌ بالشرِّ، وَتَكْذِيبٌ بِالْحَقِّ، وَأَمَّا لَمَّةُ الملَكِ فَإِيعَادٌ بِالخيْرِ، وَتَصْدِيقٌ بالْحقِّ، فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ؛ فَلْيَعْلَمْ: أَنَّهُ مِنَ اللهِ تَعَالَى، فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ الأُخْرى؛ فَلْيَتَعوَّذْ باللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ، ثُمَّ قرأَ**: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ...﴾ إلخ». أخرجه الترمذيُّ، والنَّسائي، وغيرهما.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ رسول الله ﷺ: «**لَا يُخْرِجُ رَجُلٌ شَيْئاً من الصَّدَقَةِ حَتَّى يَفُكَّ عَنْهَا لَحْيَيْ سَبْعِينَ شَيْطَاناً**». أخرجه الإمام أحمد.

طرفة: يروى: أنَّ واعظاً ذكر هذا الحديث في مجلس وعظه. فتحمَّس أحد السَّامعين، وقال: أنا أفك لَحْيَيْ سبعين شيطاناً السَّاعة، فذهب إلى بيته، فملأ ذيله من القمح، أو الشعير، فتعلَّقت به زوجته، وأخذت تتلتله، وتقول له: الله يساعدُنا نحن كذا.. نحن كذا حتى ألقت ما في ذيله في العتبة، فرجع خائباً، فقال له الواعظ: ما لك؟ فقال: غلبتُ سبعين شيطاناً، فجاءت أمُّهم، فغلبتني.

هذا؛ والشيطان: اسم يطلق على عدو الله إبليس، وقد يطلق على كلِّ نفس عاتية خبيثة، خارجة عن الصراط المستقيم من الإنس، والجن، والحيوان، وما أكثر الشيطان بهذا المعنى من بني آدم، قال تعالى في سورة (الأنعام) رقم [١١٢]: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي

﴿بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ انظر شرحها هناك، وقال الرسول ﷺ لأبي ذرٍّ الغفاري ـ رضي الله عنه ـ: «**يَا أَبا ذَرٍّ تَعوَّذْ بِاللهِ مِنْ شَيَاطِينِ الإِنْسِ وَالْجِنِّ**». قال: أو للإنس شياطين؟ قال: «**نَعَمْ**». ولا تنس أنَّ لكلِّ واحدٍ من بني آدم شيطاناً بدليل قول النبي ﷺ لعائشة ـ رضي الله عنها ـ، وقد رآها غضبى: «**أَجَاءَكِ شَيْطَانُكِ؟**» قالت: أولي شيطان؟ قال: «**نَعَمْ؛ مَا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَلَهُ شَيْطَانٌ**» قالت: وأنت يا رسول الله؟ قال: «**وَأَنَا؛ إِلَّا أَنِّي أَعَانني اللهُ عَلَيْهِ فَأَسْلَم، فَلَا يَأْمُرُ إِلَّا بِخَيْرٍ**». يروى بضم الميم وفتحها. هذا والشيطان: واحد الشياطين، مأخوذ من: شطن: إذا بعد، والنُّون أصلية، فهو مصروف على هذا، وسمِّي الشَّيطان شيطاناً لبعده عن الحقِّ، وتمرُّده عليه، قال جرير: [البسيط]

أَيَّامَ يَدْعُونَنِي الشَّيْطَانُ مِنْ غَزَلٍ وَهُنَّ يَهْوِينَنِي إِذْ كُنْتُ شَيْطَانا

وقيل: مأخوذ من شاط: إذا احترق، وشاط: بطل، فالنون زائدة، وعليه فهو غير مصروف، و«شطن» من باب: قعد، و«شاط» من باب: ضرب. هذا؛ واشتاط الرَّجل: إذا احتد غضباً، واشتاط: إذا هلك، قال الأعشى في معلقته رقم [٦٤]: [البسيط]

قَدْ نَخْضِبُ الْعَيْرَ فِي مَكْنُونِ فَائِلِهِ وَقَدْ يَشِيطُ عَلَى أَرْمَاحِنَا الْبَطَلُ

ويقوي الاعتبار الأول، ويضعف الثاني: أنَّ سيبويه ـ رحمه الله تعالى ـ حكى: أنَّ العرب تقول: تشيطن فلان: إذا فعل أفعال الشياطين، فهذا بيَّن أنه تَفَيْعَل مِنْ: شَطَنَ، ولو كان من شاط؛ لقالوا: تشيَّط.

الإعراب: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: مبتدأ. ﴿يَعِدُكُمُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾، والكاف مفعول به أول. ﴿ٱلْفَقْرَ﴾: مفعول به ثان، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مبتدأة، أو مستأنفة لا محل لها على الاعتبارين. ﴿وَيَأْمُرُكُم﴾: الواو: حرف عطف. (يأمركم): فعل مضارع، والفاعل يعود إلى ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾، والكاف مفعول به. ﴿بِٱلْفَحْشَآءِ﴾: متعلقان به، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، فهي في محل رفع مثلها، والجملة الاسمية: (الله يعدكم مغفرةً): معطوفة على سابقتها، وإعرابها مثلها بلا فارق. ﴿مِّنْهُ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ ﴿مَّغْفِرَةً﴾. ﴿وَفَضْلًا﴾: معطوف على ﴿مَّغْفِرَةً﴾، وقد حذف متعلقه لدلالة ما قبله عليه، والجملة الاسمية: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ معطوفة على ما قبلها، أو مستأنفة، لا محل لها على الاعتبارين.

﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾

الشرح: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ﴾: قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يعني: المعرفة بالقرآن ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرامه، وأمثاله، وقال مجاهد

رحمه الله تعالى: الحكمة ليست بالنبوة، ولكنَّه العلم، والفقه، والقرآن، وقال أبو العالية ـ رحمه الله تعالى ـ: الحكمة: خشية الله، فإن خشية الله رأس كل حكمة. وقد روى ابن مردويه عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ، مرفوعاً عن أنس قال ﷺ: «**رَأْسُ الْحِكْمَةِ مَخَافَةُ اللهِ**». وانظر ما ذكرته في الآية رقم [١٢٩] فإنَّه جيد، والحمد لله!.

﴿مَن يَشَآءُ﴾ أي: يريد الله من عباده ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ...﴾ إلخ، أي: من أعطي، ومنح الحكمة؛ فقد أعطي الخير الكثير لمصير صاحبها إلى السَّعادة الأبدية، لذا فأصل الحكمة: المنع، ومنه: حكمة الدابة؛ لأنها تمنعها من النفور، والجماح، قال الشاعر: [الكامل]

أَبَنِـيْ حَنِـيْـفَـةَ أَحْـكِـمُـوا سُـفَـهَـاءَكُـمْ

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ أي: وما يتَّعظ، وينتفع بما وعظه الله، وأصل الفعل: يتذكر، فقلبت التاء ذالاً، ثمَّ أدغمتا. ﴿إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: أصحاب العقول السليمة والقلوب الفاهمة، ولا واحد له من لفظه، وإنَّما واحدهُ «ذي» المضاف إن كان مجروراً، و«ذا» المضاف إن كان منصوباً، و«ذو» المضاف إن كان مرفوعاً، و﴿ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ جمع: لب، وهو العقل الخالي من الهوى، سمِّي بذلك لأحد وجهين: إمَّا لبنائه من: لبَّ بالمكان: أقام به، وإمَّا مِن: اللُّباب، وهو الخالص من كلِّ شائبة. هذا؛ واللبيب: العاقل الفاهم، والجمع: ألباء، والأنثى: لبيبة، وجمعها: لبيبات، ولبائب، واللُّب: خالص كلِّ شيء.

الإعراب: ﴿يُؤْتِي﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمَّة مقدرة على الياء للثقل، والفاعل يعود إلى (الله). ﴿ٱلْحِكْمَةَ﴾: مفعول به أول. ﴿مَن﴾: اسم موصول، أو نكرة موصوفة مبني على السُّكون في محلِّ نصبٍ مفعول به. ﴿يَشَآءُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى (الله)، والجملة الفعلية صلة ﴿مَن﴾ أو صفته، والعائد أو الرابط محذوف، إذ التقدير: الذي، أو شخصاً يشاؤه، والجملة الفعلية: ﴿يُؤْتِي...﴾ إلخ: في محل نصب حال من لفظ الجلالة في الآية السابقة، وإن اعتبرتها مستأنفة؛ فلا محل لها. ﴿وَمَن﴾: الواو: واو الحال، ﴿مَن﴾: اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿يُؤْتَ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول فعل الشرط مجزوم وعلامة جزمه حذف حرف العلة مِنْ آخره، وهو الألف، والفتحة قبلها دليل عليها، ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره: هو يعود إلى ﴿مَن﴾ وهو المفعول الأول.

﴿ٱلْحِكْمَةَ﴾: مفعول به ثان. ﴿فَقَدْ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط «قد»: حرف تحقيق يقرب الماضي من الحال. ﴿أُوتِيَ﴾: فعل ماض مبني للمجهول، ونائب الفاعل تقديره (هو) يعود إلى ﴿مَن﴾ أيضاً، وهو المفعول الأول. ﴿خَيْرًا﴾: مفعول به ثان. ﴿كَثِيرًا﴾: صفة له، وخبر المبتدأ الذي هو ﴿مَن﴾ مختلف فيه، فقيل: هو جملة الشَّرط، وقيل: هو جملة الجواب، وقيل: الجملتان، وهو المرجح لدى المعاصرين، والجملة الاسمية: ﴿وَمَن...﴾ إلخ في محل نصب حال من مفعول ﴿يَشَآءُ﴾ المحذوف، والرابط: الواو فقط، وإن اعتبرتها مستأنفة؛ فلا محل لها.

﴿وَمَا﴾: الواو: حرف عطف. (ما): نافية. ﴿يَذَّكَّرُ﴾: فعل مضارع. ﴿إِلَّآ﴾: حرف حصر. ﴿أُوْلُواْ﴾: فاعل مرفوع، وعلامة رفعه الواو نيابة عن الضمَّة؛ لأنَّه ملحق بجمع المذكر السالم. و﴿أُوْلُواْ﴾ مضاف، و﴿ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ مضاف إليه، والجملة الفعلية معطوفة على الجملة السابقة على الوجهين المعتبرين فيها، أو هي مستأنفة، أو معترضة في آخر الكلام. لا محلَّ لها على الاعتبارين.

﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوۡ نَذَرۡتُم مِّن نَّذۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُهُۥۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٍ ٢٧٠﴾

الشرح: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن نَّفَقَةٍ﴾: قليلة، أو كثيرة، طاعةً، أو معصيةً، سرّاً، وعلانيةً، واجبةً كالزَّكاة، والكفَّارات على اختلاف أنواعها، أو غيرَ واجبةٍ كصدقة التَّطوُّع. ﴿أَوۡ نَذَرۡتُم مِّن نَّذۡرٖ﴾: بشرط، أو بغير شرط، في طاعةٍ، أو في معصيةٍ، وفَّيتم به، أم لم توفُّوا به. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُهُۥۗ﴾: لا يخفى عليه، وهو مجازيكم به، وإنَّما وحَّد الضمير مع أنَّه عائد على النَّفقة، والمُنذِر، أي: فلم يقل: يعلمهما؛ لأنَّ ردَّ الضمير على الثاني منهما، فهو كقوله تعالى في سورة (النساء) رقم [١١٢]: ﴿وَمَن يَكۡسِبۡ خَطِيٓـَٔةً أَوۡ إِثۡمٗا ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ بَرِيٓـٔٗا﴾ وقوله تعالى في سورة (التوبة) رقم [٦٢]: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾، وقيل: إن الكناية عادت على ما في قوله: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم﴾؛ لأنَّها اسم، فهو كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ﴾ رقم [٢٣١]، كما أنشد سيبويه لامرئ القيس وهو في معلقته: [الطويل]

فَتُوضِحَ فالْمِقْرَاةِ لَمْ يَعْفُ رَسْمُها ... لِمَا نَسَجَتْها مِنْ جَنُوبٍ وشَمْأَلِ

قال ابن عطية رحمه الله تعالى: ووحد الضمير في ﴿يَعۡلَمُهُۥۗ﴾، وقد ذكر شيئين من حيث أراد: ما ذُكر، أو نصَّ. ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: الواضعين الصدقة في غير موضعها، وقيل: الذين يريدون بصدقاتهم الرياء، والسمعة، وقيل: هم الذين يتصدَّقون بالمال الحرام، وقيل: لمن منع الزكاة، أو صرف المال في معاصي الله. ﴿مِنۡ أَنصَارٍ﴾: من أعوان يدفعون عنهم عذاب الله تعالى، ففيه وعيدٌ شديد، وتهديدٌ عظيم، وخذ ما يلي:

فعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللهَ؛ فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللهَ؛ فَلَا يَعْصِهِ**». أخرجه البخاري.

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أن رسول الله ﷺ قال: «**من نذر نذراً لَمْ يُسَمِّهِ؛ فكفارتُهُ كفارةُ يمينٍ، وَمَنْ نَذَرَ نذراً في مَعْصِيَةٍ؛ فكفارتُهُ كفارةُ يمينٍ، ومن نَذَرَ نذْراً لا يُطيقُهُ؛ فكفارتُهُ كفارةُ يمينٍ، وَمَنْ نَذَرَ نذْراً، فأطاقَهُ فَلْيَفِ بِهِ**» أخرجه أبو داود.

وعن عمران بن حصين ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَا نَذْرَ فِي مَعْصِيَةٍ، وَلَا فِيمَا لَا يَمْلِكُ ابنُ آدَمَ**». أخرجه النَّسائيُّ.

وعن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما -: أنَّ رسول الله ﷺ نهى عن النذر، وقال: «**إِنَّهُ لَا يَأْتِي بِخَيْرٍ، وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنَ الْبَخِيْلِ**» متفق عليه.

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه -: أن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ النَّذْرَ لا يُقَرِّبُ من ابْنِ آدمَ شَيْئاً لَمْ يَكُنِ اللهُ قَدَّرَهُ لَهُ، وَلَكِنِ النَّذْرُ يُوَافِقُ القَدَرَ فَيُخْرَجُ بِذَلك مِنَ البَخِيْلِ مَا لَمْ يَكُنْ البخِيلُ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَ**». أخرجه مسلم.

قال بعض العلماء: يحتمل أن يكون سبب النَّهي عن النذر كون الناذر يصير ملتزماً مالاً، فيأتي به تكلُّفاً من غير نشاطٍ، أو يكون سببه كونه يأتي على سبيل المعاوضة عن الأمر الَّذي طلبه، فينقص أجره، وشأن العبادة أن تكون متمحِّضة لله تعالى، وقال بعضهم: يحتمل أن يكون النَّهي؛ لكونه قد يظنُّ بعض الجهلة أنَّ النذر يردُّ القَدَرَ، أو يمنع من حصول المقدور، فنُهِيَ عنه خوفاً من اعتقاد ذلك، وسياق الحديث يؤكِّد هذا.

وقوله في بعض روايات الحديث: «**إنَّه لا يأتي بخير**»، «**إنه لا يردُّ شيئاً من القَدَر**» وقوله: «**فيخرجُ بذلك من البخيل، ما لَمْ يَكُنِ البخيلُ يُرِيدُ أن يُخْرِجَ**» معناه: أنَّه لا يأتي بهذه القربة تطوعاً محضاً مبتدأ، وإنَّما يأتي بها في مقابلة شيءٍ يريده، كقوله: إنْ شَفَى الله مريضي؛ فَلِلَّه عليَّ كذا، ونحو ذلك ممَّا يحصل بالنَّذر، والله أعلم! انتهى. خازن.

الإعراب: ﴿وَمَآ﴾: الواو: حرف استئناف. (ما): اسم شرط جازم مبني على السكون في محلِّ نصبٍ مفعول به مقدَّم لفعل شرطه. ﴿أَنفَقْتُم﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية ابتدائية لا محل لها من الإعراب. ﴿مِّن نَّفَقَةٍ﴾: متعلقان بمحذوف حال من (ما). و﴿مِّن﴾: بيان لما أبهم فيها.

﴿مِّن نَّذْرٍ﴾: متعلقان بما قبلهما، والجملة الفعلية معطوفة بـ ﴿أَوْ﴾ على ما قبلها، لا محلَّ لها مثلها. ﴿فَإِنَّ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشَّرط. (إن): حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿يَعْلَمُهُۥ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى ﴿ٱللَّهَ﴾ والهاء مفعول به، والجملة الفعلية في محل رفع خبر (إنَّ)، والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط، والشرط ومدخوله كلام مستأنف لا محل له.

هذا وجوز اعتبار (ما) موصولة مبنية على السكون في محلِّ رفعِ مبتدأ، والجملة بعدها صلتها، والعائد محذوف، التقدير: الذي أنفقتموه، والجار والمجرور ﴿مِّن نَّفَقَةٍ﴾: متعلقان بمحذوف من العائد المحذوف، العائد على (ما)، والجملة الاسمية: (إن...) إلخ في محل رفع خبر المبتدأ، ودخلت الفاء في الخبر؛ لأن الموصول يشبه الشرط في العموم، والجملة الاسمية على هذا الاعتبار مستأنفة، لا محل لها، كما في الوجه الأول.

﴿وَمَا﴾: الواو: واو الحال. (ما): نافية. ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدَّم. ﴿مِنْ﴾: حرف جر صلة. ﴿أَنصَارٍ﴾: مبتدأ مؤخر مرفوع، وعلامة رفعه ضمَّةٌ مقدرة

على آخره، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجرِّ الزائد. هذا؛ وهناك مَنْ يجيز اعتبار ﴿أَنصَارٍ﴾ فاعلاً بالجار والمجرور قبله لاعتماده على النفي، ولم يذكر تعليق الجار والمجرور، فهما متعلقان بفعل محذوف، تقديره: وما يوجد للظالمين أنصارٌ. هذا؛ وإن اعتبرت (ما) نافية حجازية تعمل عمل ليس، فالجار والمجرور متعلقان بمحذوف في محل نصب خبرها مقدَّماً، و﴿أَنصَارٍ﴾ اسمها مؤخرٌ، وعلى الوجهين فالجملة اسمية، وهي في محلٍّ نصب حال من الضمير الواقع مفعولاً به، والرابط: الواو فقط، أو هي مستأنفة، أو معترضة اعتراضاً تذييليّاً في آخر الكلام، لا محلَّ لها على الوجهين.

﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾

الشرح: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ أي: تجهروا بها، وتظهروها، والصَّدقة: ما يخرجه المسلم من ماله على وجه القُربة، فيدخل فيه الزَّكاة الواجبة، وصدقة التطوُّع. ﴿فَنِعِمَّا هِيَ﴾ أي: فنعمت الخصلة هي، فهذا ثناءٌ على الجهر بها، وإظهارها. ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾: فهذا حكم على أنَّ الإخفاء خير من الجهر بها، ولذلك قال بعض الحكماء: إذا اصطنعت المعروف؛ فاستره، وإذا اصْطُنِع إليكم فانشروه. قال دعبل الخزاعي في ممدوحيه: [المتقارب]

إِذَا انْـتَـقَـمُـوا أَعْـلَـنُـوا أَمْـرَهُـمْ وَإِنْ أَنْـعَـمُـوا أَنْـعَـمُـوا بِـاكْـتِـتَـامِ

وقال سهل بن هارون: [البسيط]

خِـلٌّ إِذَا جِـئْـتَـهُ يَـوْمـاً لِـتَـسْـأَلَـهُ أَعْـطَـاكَ مَـا مَـلَـكَـتْ كَـفَّـاهُ وَاعْـتَـذَرَا
يُـخْـفِـي صَـنَـائِـعَـهُ، وَاللهُ يُـظْـهِـرُهَـا إِنَّ الـجَـمِـيـلَ إِذَا أَخْـفَـيْـتَـهُ ظَـهَـرَا

وقال العبَّاس عم النبي ﷺ ـ رضي الله عنه ـ: لا يتمُّ المعروف إلا بثلاث خصال: تعجيله، وتصغيره، وستره، فإذا عجَّلته؛ هنيته، وإذا صغَّرته؛ عظَّمته، وإذا سترته؛ أتممته، وقال بعض الشعراء، فأحسن: [الرمل]

زَادَ مَـعْـرُوفُـكَ عِـنْـدِي عِـظَـمـاً أَنَّـهُ عِـنْـدَكَ مَـسْـتُـورٌ حَـقِـيـرْ
تَـتَـنَـاسَـاهُ كَـأَنْ لَـمْ تَـأْتِـهِ وَهْـوَ عِـنْـدَ الـنَّـاسِ مَـشْـهُـورٌ خَـطِـيـرْ

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: جعل الله صدقة السرِّ في التطوُّع تفضل علانيتها، يقال: بسبعين ضعفاً، وجعل صدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرِّها، يقال: بخمسة وعشرين ضعفاً، قال: وكذلك جميع الفرائض، والنَّوافل في الأشياء كلِّها، أي: في الصَّلاة، والصَّوم، وغيرهما.

هذا واتَّفق العلماء على أنَّ كتمان صدقة التطوع أفضل، وإخفاؤها خير من إظهارها؛ لأنَّ ذلك أبعد من الرياء، وأقرب إلى الإخلاص، وفي صدقة السرِّ أيضاً فائدة ترجع إلى الفقير الآخذ، وهي: أنَّه إذا أُعطي في السر؛ زال عنه الذل والانكسار، وإذا أُعطي في العلانية يحصل له الذلُّ والانكسار، ويدلُّ على أن صدقة السرِّ أفضل ما روي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ في ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي طَاعَةِ اللهِ تَعالى، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلَان تَحَابَّا فِي اللهِ تعالَى، اجْتَمَعَا عَلَى ذَلِكَ، وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِياً، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ، وَرجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ، وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ، فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ**». أخرجاه في الصَّحيحين، وفي الحديث أيضاً: «**صَدَقَةُ السِّرِّ تُطْفِئُ غَضَبَ الربِّ عزَّ وجلَّ**».

وأما الزَّكاة الواجبة فالجهر بها أفضل من الإسرار لأمرين: أولهما: لِيُقتَدَى بفاعلها، وثانيهما: لئلا يُتَّهم بمنعها، ولا سيما إنْ كان ظاهر الغنى.

﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ﴾: يمحو، ويزيل، أو يعفو، ويصفح، وأصل التكفير في اللغة: التغطية، والسَّتر، ويقرأ الفعل بالياء والنون، وبالرَّفع وبالجزم عطفاً على جملة جواب الشرط، والسيئات: هي المعاصي، والمخالفات التي يفعلها العبد، ومفردها: سيئة. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ يعني: لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، والخبير من أسماء الله الحسنى، وهو العالم بكنه الشيء وحقيقته من غير شك، والخبير في صفة المخلوقين إنَّما يستعمل في نوع من العلم، وهو الَّذي يوصل إليه بالاجتهاد، والفكر، والله تعالى منزَّه عن ذلك كلِّه.

هذا؛ و«نِعْمَ» فعل ماض لإنشاء المدح، و«بئس» فعل ماض لإنشاء الذم، قال في المُختار: نِعْمَ: منقول مِنْ: نَعِمَ فلان ـ بفتح النون وكسر العين ـ: إذا أصاب النِّعمة، و«بِئْس» منقول من: «بَئِس» بفتح الباء، وكسر الهمزة: إذا أصاب بؤساً، فنقلا إلى المدح، والذم، فشابها الحروف، فلم يتصرَّفا، وفيهما أربع لغات: «نعم، وبِئْس» بكسرٍ، وسكون، وهي أفصحهن، ثم «نِعِم، وبِئِس» بكسر أولهما، وثانيهما، غير أن الغالب في (نعم) أن يتصل بها (ما) كما في الآية التي نحن بصدد شرحها، وكما في قوله تعالى في الآية رقم [٥٨] من سورة (النساء): ﴿نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ و«بئس» اتصلت بها (ما) على اللغة الفصحى، كما في قوله تعالى في الآية رقم [٩٠]: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ...﴾ إلخ، والآية رقم [٩٣]: ﴿بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ...﴾ إلخ، والآية رقم [١٥٠] من سورة الأعراف: ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى...﴾ إلخ، واللغة الثالثة: «نعم، وبأْسَ» بفتح، وسكون، والرابعة: (نَعِم، وَبَئِس) بفتح وكسر، وهي الأصل فيهما، ولا بدَّ لهما من شيئين: فاعل، ومخصوص بالمدح، أو الذم، قال ابن مالك رحمه الله تعالى في ألفيته: [الرجز]

فِعْلَانِ غَيْرُ مُتَصَرِّفَيْنِ نِعْمَ وَبِئْسَ رَافِعَانِ اسْمَيْنِ

مُقَارِنَيْ أَلْ أَوْ مُضَافَيْنِ لِمَا قَارَنَهُمَا كَنِعْمَ عُقْبَى الْكُرَمَا
وَيَرْفَعَانِ مُضْمَراً يُفَسِّرُهْ مُمَيِّزٌ كَنِعْمَ قوماً مَعْشَرُهْ

والقول بفعليتهما إنَّما هو قول البصريِّين، والكسائي، بدليل دخول تاء التأنيث عليهما في قول النبيِّ ﷺ: «**مَنْ تَوَضَّأَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَبِهَا وَنِعْمَتْ، وَمَنِ اغْتَسَلَ فَالْغُسْلُ أَفْضَلُ**» وقال الكوفيون إلا الكسائيَّ: هما اسمان، بدليل دخول حرف الجر عليهما في قول أعرابي، وقد أخبر بأنَّ امرأته ولدت بنتاً له: واللهِ مَا هِيَ بِنِعْمَ الْوَلَدُ، نَصْرُهَا بُكَاءٌ، وَبِرُّهَا سَرِقَةٌ، وقول آخر: نِعْمَ السَّيْرُ عَلَى بِئْسَ الْعَيْر، وأوَّله البصريون على حذف كلام مقدَّر، التقدير: واللهِ مَا هِيَ بولدٍ مقولٍ فيه: نِعْمَ الْوَلَدُ، ونِعْمَ السَّيْرُ عَلَى عَيْرٍ مقولٍ فيه: بِئْسَ الْعَيْرُ، والمعتمد في ذلك قول البصريِّين.

هذا ويجب في فاعلهما أن يكون مقترناً بأل، أو مضافاً لمقترن بها، أو ضميراً مميزاً بنكرة، أو كلمة «ما» فالأول: كما في قوله تعالى: ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾، والثاني: نحو قوله تعالى: ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾، والثالث: مثل قوله تعالى: ﴿بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا﴾، والرابع: كما في الآية التي بين أيدينا، وهذا شرح لأبيات ابن مالك.

الإعراب: ﴿إِن﴾: حرف شرط جازم. ﴿تُبْدُواْ﴾: فعل مضارع فعل الشرط مجزوم، وعلامة جزمه حذف النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والألف للتفريق.

﴿ٱلصَّدَقَـٰتِ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه الكسرة نيابة عن الفتحة؛ لأنه جمع مؤنث سالم، والجملة الفعلية لا محل؛ لأنها ابتدائية، ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفي، ﴿فَنِعِمَّا﴾: الفاء: واقعة في جواب الشَّرط، (نعم): فعل ماض جامد دال على إنشاء المدح، وفاعله ضمير مستتر، و(ما): نكرة تامَّة بمعنى شيء مبنية على السكون في محل نصب على التمييز، والجملة الفعلية في محل رفع خبر مقدَّم، و﴿هِىَ﴾: مبتدأ مؤخر، ويجوز أن تكون خبراً لمبتدأ محذوف، التقدير: الممدوحة هي، والجملة: (نعما هي) سواء أكانت اسمية، أم فعلية في محل جزم جواب الشَّرط عند الجمهور، والدُّسوقي يقول: لا محلَّ لها؛ لأنَّها لم تحل محلَّ المفرد.

﴿وَإِن﴾: الواو: حرف عطف. (إن): حرف شرط جازم، ﴿تُخْفُوهَا﴾: فعل مضارع فعل الشرط، والواو فاعله، و(ها) مفعول به. ﴿وَتُؤْتُوهَا﴾: معطوف على ما قبله مجزوم مثله، وعلامةُ الجزم فيهما حذف النُّون، والواو فاعله، و(ها) مفعول به أوَّل. ﴿ٱلْفُقَرَآءَ﴾: مفعول به ثان، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها لا محلَّ لها مثلها على نحو ما سبق. هذا؛ ويجوز اعتبار (تؤتوها): منصوباً بـ «أن» مضمرة بعد الواو. على القاعدة: «وإذا» عطف مضارع على فعل الشرط بالواو، أو بالفاء، يجوز اعتباره مجزوماً، أو منصوباً بـ «أن» مضمرة بعد الواو ﴿فَهُوَ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (هو): ضمير منفصل مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ. ﴿خَيْرٌ﴾: خبره. ﴿لَّكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ ﴿خَيْرٌ﴾ والجملة الاسمية في محل جزم

جواب الشرط عند الجمهور. . . إلخ. و(يكفر): فعل مضارع، وفاعله يعود إلى (الله) فعلى قراءته بالجزم معطوف على جواب الشرط، وعلى قراءته بالرَّفع، فهو مع فاعله في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: فهو يكفر. أو: فنحن نكفر، والجملة الاسمية هذه مستأنفة لا محل لها وانظر ما أذكره في الآية رقم [٢٨٥] الآتية. ﴿عَنكُم﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْۗ﴾: قيل: ﴿مِّن﴾ زائد في الإيجاب، و﴿سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾: مفعول به، وهذا على مذهب الأخفش، وعند سيبويه المفعول محذوف، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف صفة له، التقدير: يكفر شيئاً كائناً من سيئاتكم. وقيل: متعلقان بالفعل قبلهما على أن ﴿مِّن﴾: للتبعيض، والكاف في محل جر بالإضافة.

﴿وَٱللَّهُ﴾: الواو: حرف استئناف. (الله): مبتدأ. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلقان بـ ﴿خَبِيرٌ﴾ بعدهما، و(ما) تحتمل الموصولة، والموصوفة، والمصدرية. ﴿تَعْمَلُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون، والواو فاعله، والجملة صلة (ما)، أو صفتها، والعائد أو الرابط محذوف، التقدير: بالذي، أو: بشيءٍ تعملونه، وعلى اعتبار (ما) مصدرية تؤوَّل مع الفعل بمصدر في محل جرٍّ بالباء، التقدير: بعملكم. ﴿خَبِيرٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: (الله. . .) إلخ مستأنفة، أو معترضة في آخر الكلام، الغرض منها الحثُّ على الصّدقات، والتَّرغيب في الإخلاص.

﴿۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾﴾

الشرح: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾: الخطاب للنَّبي ﷺ، ويعمُّ كلَّ مسلم، والمعنى: لا يجب عليك أن تجعل الناس مؤمنين مهديين، وإنَّما عليك الإرشاد، والنُّصح بالمعروف، والحث على محاسن الأعمال، والنَّهي عن القبائح. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُۗ﴾: فهذا تصريحٌ بأن الهداية من الله تعالى، يخصُّ بها من يشاء من عباده، وفيه ردٌّ على القَدرِيَّة، وطوائف من المعتزلة كما تقدَّم.

هذا وروى سعيد بن جبير ـ رضي الله عنه ـ مرسلاً عن النبي ﷺ في سبب نزول الآية الكريمة: أنَّ المسلمين كانوا يتصدَّقون على فقراء أهل الذمَّة، فلمَّا كثر فقراء المسلمين، قال رسول الله ﷺ: «**لَا تَتَصَدَّقُوا إِلَّا عَلَى أَهْلِ دِينِكُمْ**»، فنزلت الآية الكريمة مبيحةً للصَّدقة على مَنْ ليس من دين الإسلام، فأمر ﷺ بعدها بالصَّدقة على كلِّ سائلٍ مِنْ أيِّ دين. رواه ابن أبي حاتم.

وروى ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أنَّه قال: كان ناسٌ من الأنصار لهم قراباتٌ من المشركين، وكانوا لا يتصدقون عليهم رغبة منهم في أن يسلموا إذا احتاجوا، فنزلت الآية. رواه

النَّسائيُّ. هذا، والمعتمد: أنَّ هذه الصَّدقة التي أبيح إعطاؤها لغير المسلمين، إنَّما هي صدقة التطوُّع، وأما المفروضة؛ فلا يجزئ دفعها لكافرٍ، لقول النبي ﷺ: «**أُمِرْتُ أَنْ آخُذَ الصَّدَقَةَ مِنْ أغنيائكمْ، وَأَرُدَّهَا في فُقَرائِكُمْ**». وقال الرَّسول ﷺ لمعاذ ـ رضي الله عنه ـ: «**خُذِ الصَّدَقَةَ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ، وَرُدَّهَا عَلَى فُقَرائِهِمْ**».

هذا وقال ابن العربي: فأمَّا المسلم العاصي؛ فلا خلاف: أنَّ صدقة الفطر تُصرف إليه إلا إذا كان يترك أركان الإسلام من الصَّلاة، والصِّيام، فلا تدفع إليه الصَّدقة؛ حتَّى يتوب، وسائر أهل المعاصي تصرف الصدقة إلى مرتكبيها؛ لدخولهم في اسم المسلمين.

﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ﴾ أي: الأجر، والثواب لكم، فلا تَمُنُّوا على أحد، ولا تنفقوا الخبيث من أموالكم، فهو مثل قوله تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾، وعن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَيُّكُمْ مَالُ وَارِثِهِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ؟**» قالوا: يا رسولَ الله! مَا مِنَّا أَحَدٌ إِلَّا مَالُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ! قَالَ: «**فَإِنَّ مَالَهُ مَا قَدَّمَ، ومَالُ وَارِثِهِ مَا أَخَّرَ**». أخرجه البخاريُّ.

هذا وقد حكي: أنَّ بعض العلماء كان يصنع كثيراً من المعروف، ثمَّ يحلف: أنَّه ما فعل مع أحد خيراً، فقيل له في ذلك، فيقول: إنَّما فعلت مع نفسي، ويتلو: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ﴾. وخذ قوله تعالى في آخر سورة (المزمِّل): ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾.

هذا؛ والمراد بـ: ﴿خَيْرٍ﴾ في هذه الآية في الموضعين: المال، قال تعالى في سورة العاديات: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾، ويكون الخير بمعنى: الطَّعام، كما في قوله تعالى حكاية عن قول موسى ـ على نبينا وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ في سورة (القصص) رقم [٢٤]: ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾، ويكون بمعنى القوَّة، كما في قوله تعالى في سورة (الدخان) رقم [٣٧]: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ ويكون بمعنى العبادة والطاعة، كما في قوله تعالى في سورة (الأنبياء) رقم [٧٣]: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ ويكون بمعنى الوحي، كما في قوله تعالى في الآية رقم [١٠٥] من هذه السُّورة: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾. وأخيراً: يكون بمعنى المطر، قال الشَّاعر ـ وهو الشَّاهد رقم [٢٠٢] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [البسيط]

سَقَى الْحَيَا الأَرْضَ حَتَّى أَمْكُنٍ عُزِيَتْ ... لَهُمْ فَلَا زَالَ عَنْهَا الخَيْرُ مَجْدُودَا

﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ﴾: طلب مرضاته تعالى، ورضوانه، قال عطاء الخراساني: يعني إذا أعطيت لوجه الله؛ فلا عليك ما كان عمله، والمعنى: أنَّ المتصدق إذا تصدَّق ابتغاء وجه الله؛ فقد وقع أجره على الله، ولا عليه في نفس الأمر لِمَنْ أصاب: أَلبرٍّ أو فاجرٍ، أو مستحقٍّ، أو غيره؟ وهو مثابٌ على قصده، ومستند هذا تمام الآية، والحديث المخرَّج

في الصحيحين، عن أبي هريرة - رضي الله عنه -، قال: قال رسول الله ﷺ: «**قالَ رجلٌ لأَتصدقَنَّ اللَيْلَةَ بصَدَقَةٍ، فَخَرجَ بِصَدَقَتِهِ، فوضَعَهَا في يدِ زَانيةٍ، فأصبحَ النَّاسُ يتحدَّثونَ: تُصُدِّقَ الليلةَ على زانيةٍ! فقال: اللهمَّ لكَ الحمدُ على زانيةٍ! لأتصدقنَّ الليلةَ بصدقةٍ، فوضَعها في يد غنيٍّ، فأصبحُوا يتحدَّثون: تُصُدِّقَ اللَّيلة على غنيٍّ! فقال: اللهمَّ لكَ الحمدُ عَلَى غَنيٍّ! لأتصدقَنَّ الليلةَ بصدَقَةٍ، فخرَج فوضعَهَا في يدِ سَارِقٍ، فأصْبَحُوا يَتحدثونَ: تُصُدِّق الليلةَ على سارق! فقالَ: اللهمَّ لكَ الحمدُ على زانيةٍ! وعلى غنيٍّ، وعَلَى سارقٍ، فَأُتِيَ (في المنام) فقيلَ له: أَمَّا صدقَتُكَ فقدْ قُبِلَتْ، أما الزَّانِيةُ فلعلَّها أن تَسْتَعْفِفَ عَنْ زِناها، وأمَّا الغنيُّ فلعلَّه يَعْتَبِرُ، فينفق ما أعطاهُ اللهُ، وأمَّا السَّارقُ فلعلَّه يسْتَعفِفُ عن سَرِقَتِهِ**».

﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾: فهذه الجملة تأكيدٌ، وبيانٌ لما قبلها، وهي تفيد فائدةً زائدةً، وهي: أنَّ ثواب الإنفاق يُدَّخر للمنفقين يوم القيامة، ولا يُبْخسون منه شيئاً، فيكون ذلك البخس ظلماً لهم، ومثل هذا يُسمَّى في علم المعاني إطناباً، والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿لَّيْسَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿عَلَيْكَ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر ﴿لَّيْسَ﴾ مقدَّم. ﴿هُدَىٰهُمْ﴾: اسمها مؤخر مرفوع وعلامة رفعه ضمَّةٌ مقدَّرة على الألف للتعذُّر، والهاء في محل جرٍّ بالإضافة، من إضافة المصدر لفاعله، فيكون المفعول محذوفاً، أو لمفعوله، فيكون الفاعل محذوفاً، وهو أقوى، والجملة الفعلية مستأنفةٌ، لا محل لها. ﴿وَلَٰكِنَّ﴾: الواو: حرف عطف. (لكن): حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿يَهْدِى﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء للثقل، والفاعل يعود إلى ﴿ٱللَّهَ﴾، والجملة الفعلية في محلِّ رفعِ خبر (لكن) والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها. ﴿مَن﴾: اسم موصولٌ، أو نكرة موصوفة مبنية على السكون في محل نصب مفعول به. ﴿يَشَآءُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى ﴿ٱللَّهَ﴾، والجملة الفعلية صلة ﴿مَن﴾ أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف، التقدير: يهدي الذي، أو: شخصاً يشاء هدايته.

(ما): اسم شرط مبني على السكون في محل نصب مفعول به مقدَّم. ﴿تُنفِقُواْ﴾: فعل مضارع فعل الشرط مجزوم، وعلامة جزمه حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾: متعلقان بمحذوف حال مِنْ (ما)، و﴿مِنْ﴾ بيان لما أبهم فيها. ﴿فَلِأَنفُسِكُمْ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (لأنفسكم): جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: فهو لأنفسكم، والجملة الاسمية هذه في محل جزم جواب الشرط، والجملة الشرطية: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ...﴾ إلخ معطوفة على ما قبلها، لا محل لها أيضاً، ﴿وَمَا﴾: الواو: واو الاعتراض. (ما): نافية. ﴿تُنفِقُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، و الواو فاعله، والمفعول محذوف يدل عليه المقام، والجملة الفعلية معترضة بين المتعاطفتين لا محل لها، وقال البيضاوي: حال، أو عطف على ما قبله، والأول لا وجه له، والثاني لا يصحُّ إلا على قول مَنْ يعتبر النفي بمعنى النَّهي.

﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء، أو حرف حصر. ﴿ٱبْتِغَآءَ﴾ قال الجمل: هو استثناء من أعمِّ العلل؛ أي: والمعنى: لا تنفقوا أموالكم لِغَرضٍ إلا لهذا الغرض. انتهى. و﴿ٱبْتِغَآءَ﴾ مضاف، و﴿وَجْهِ﴾: مضاف إليه، مِنْ إضافة المصدر لمفعوله، وفاعله محذوف، و﴿وَجْهِ﴾: مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾: مضاف إليه.

﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ﴾: انظر ما قبله، فهو مثله. ﴿يُوَفَّ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول جواب الشرط مجزوم، وعلامة جزمه حذف حرف العلة من آخره، وهو الألف، والفتحة قبلها دليل عليها، ونائب الفاعل، تقديره: (هو) يعود إلى ﴿خَيْرٍ﴾. ﴿إِلَيْكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان به، وهما في محل نصب مفعوله الثاني، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها جملة جواب الشرط، ولم تقترن بالفاء، ولا بـ «إذا» الفجائية، والجملة الشرطية معطوفة على ما قبلها ومؤكدة لها. ﴿وَأَنتُمْ﴾: الواو: واو الحال. (أنتم): ضمير منفصل مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿تُظْلَمُونَ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون، والواو نائب فاعله، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل نصب حال من واو الجماعة، والرابط: الواو، والضمير، والاستئناف ممكنٌ بالإعراض عمَّا قبلها.

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾﴾

الشرح: ﴿لِلْفُقَرَآءِ...﴾ إلخ: قال السّدي ـ رحمه الله تعالى ـ: المراد بهم فقراء المهاجرين من قريش، وغيرهم، وكانوا نحواً من أربعمئة رجل، لم يكن لهم في المدينة مسَاكِن ولا عشائر، وكانوا يأوون إلى صُفَّةٍ في المسجد، قال أبو ذرٍّ ـ رضي الله عنه ـ: كنت من أهل الصُّفَّة، وكنا إذا أمسينا حضرنا باب رسول الله ﷺ، فيأمر كل رجل فينصرف برجل، ويبقى مَنْ بقي من أهل الصُّفة، عشرة، أو أقل، فَيُؤتى النَّبيُّ ﷺ بِعَشائه، فنتعشى معه، فإذا فرغنا قال رسول الله ﷺ: ناموا في المسجد، وانظر في الآية [٢٦٧] ما ذكره البراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ، وكانوا رضوان الله عليهم في المسجد ضرورة، وكانوا يأكلون من الصدقة ضرورة، فلما فتح الله على المسلمين؛ استغنوا عن تلك الحال، فخرجوا، ثمَّ ملكوا، وتأمَّروا، ثم ذكر الله من أحوال أولئك الفقراء المهاجرين ما يوجب العطف، والشفقة عليهم، فقال جل ذكره: ﴿ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: حبسوا، ومنعوا عن التصرف في معايشهم خوف العدو، لكون البلاد كلها كفراً مطبقاً، وهذا في صدر الإسلام، فقِلَّتهم وضعفهم يمنعان من الاكتساب بالجهاد، وإنكار الكفار عليهم

إسلامهم يمنع من التصرف في التجارة، فبقوا فقراء، وهو فحوى قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يعني: سفراً للتسبب في طلب المعاش، والضرب في الأرض: هو السَّفر، قال تعالى في سورة (النساء) رقم [١٠١]: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾، وقال جلَّ ذكره في سورة (المزمل): ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾.

هذا والحصر: المنع، والحبس، قال تعالى: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ وهو يحتمل أن يكون من الرباعي «أحصر» ومن الثلاثي «حُصِر» وقال أبو عبيدة، والكسائي: أُحْصِر بالمرض، وحُصِر بالعدو، وفي المجمل لابن فارس على العكس؛ فحُصِرَ بالمرض، وأُحْصِرَ بالعدو، وقالت طائفة: يقال: أُحْصِر فيهما جميعاً من الرباعي، حكاه أبو عمر، والصحيح أنهما يستعملان فيهما، وهو ما قدمته أولاً، قال القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ: الأكثر من أهل اللغة على أن حُصِر في العدو، وأُحْصِر في المرض، وأصل الكلمة من الحبس، ومنه: الحصير للذي يحبس نفسه على البوح بسره، والحصير الذي يجلس عليه لانضمام بعض طاقات القش إلى بعض، هذا، ويقال: ألحف، وأحنى، وألَحَّ في المسألة سواء، قال بشار بن برد الأعمى: [الرجز]

الْحرُّ يُلْحَى، والعَصَا لِلْعَبْدِ ... وَلَيْسَ لِلْمُلْحِفِ مِثْلُ الرَّدِّ

واشتقاق الإلحاف من اللِّحاف، سمي بذلك لاشتماله على وجود الطَّلب في المسألة، كاشتمال اللحاف من التغطية، أي: هذا السائل يعمُّ الناس بسؤاله، فيلحفهم بذلك، ومنه قول ابن أحمر: [الوافر]

فَظَلَّ يَحُفُّهُنَّ بِقَفْقَفَيْهِ ... وَيَلْحَفُهُنَّ هَفْهَافاً ثَخِينَا

يصف ذكر النعام، يحضن بيضه بجناحيه، ويجعل جناحه لها كاللحاف، وهو رقيق مع ثخنه.

هذا والحصير: المَلَك؛ لأنه كالمحبوس من وراء حجاب، قال لبيد ـ رضي الله عنه ـ: [الكامل]

وقماقِمٍ غُلْبِ الرِّقَابِ كَأَنَّهُمْ ... جِنٌّ لَدَى بَابِ الْحَصِيرِ قِيَامُ

والإلحاف في المسألة مع الغنى عنها حرام، لا يحلُّ، فقد روى أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ، عن النبي ﷺ قال: «**مَنْ سأَلَ النَّاسَ أَمْوَالَهُمْ تَكَثُّراً، فَإِنَّمَا يَسْأَلُ جَمْراً، فَلْيَسْتَقِلَّ أو لِيَسْتَكْثِرْ**» أخرجه مسلم.

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: أن النبي ﷺ قال: «**لَا تَزَالُ الْمَسْأَلَةُ بِأَحَدِكُمْ حتَّى يَلْقَى اللهَ وَلَيْسَ فِي وَجهِهِ مُزْعَةُ لَحْمٍ**» أخرجه البخاريُّ، ومسلم.

﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ﴾ أي: بحالهم. ﴿أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ أي: إنَّهم مِنْ تركهم السؤال، والتوكل على الله، والقناعة، والرضا بقضاء الله، وقدره يظنُّهم الجاهل بحالهم أغنياء. هذا؛

والفعل: حَسِب، يَحْسَب من باب: تعب في لغة جميع العرب، إلا بني كنانة، فإنهم يكسرون السين في المضارع، ومع الماضي أيضاً على غير قياس، وقد قرئ المضارع بفتح السين وكسرها من البابين: الرابع، والسادس، والمصدر: الحِسْبان بكسر الحاء. وَحَسَبْتُ المال حَسْباً من باب قتل بمعنى: أحصيته عدداً.

﴿تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ﴾: السِّيما بالقصر: العلامة، وقد تمدُّ، فيقال: السيماء، والسِّمة أيضاً: العلامة التي يعرف بها الشيء، واختلفوا في معناها، فقيل: هي الخضوع، والتواضع. وقيل: هي أثر الجهد من الحاجة، والفقر. وقيل: هي صفرة ألوانهم من الجوع، ورثاثة ثيابهم من الضرِّ، وسوء الحال. ﴿لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗاۗ﴾ أي: لا يسألون الناس أبداً، وقيل: إن سألوا لا يُلِحُّون بالسؤال، وإنما يسألون برفق وتلطف، ولا يكلِّفون الناس ما لا يحتاجون إليه، فإن مَنْ سأل، وله ما يُغنيه عن المسألة؛ فقد ألحف في المسألة، والخطاب للرسول ﷺ، أو لكلِّ أحدٍ، وخذ ما يلي:

فعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: وقف رسول الله ﷺ يوماً على أصحاب الصُّفَّة، فرأى فقرَهم، وجهدَهم، وطيبَ قلوبهم، فقال: «**أَبْشِرُوا يا أَصْحابَ الصُّفة! فَمَنْ بقي من أمَّتي على العَنَتِ الذي أنتم عليه، راضياً بما فيه، فإنَّه مِنْ رفقائي في الجنَّة**»، وقال ﷺ: «**إنَّ اللهَ يُحِبُّ الْحييَّ الْحَليمَ الْمُتَعَفِّفَ، وَيُبْغِضُ الْبَذِيءَ السَّائل الْمُلْحِفَ**». وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**ليسَ الْمِسْكِينُ الَّذِي تَرُدُّهُ اللُّقْمةُ وَاللُّقْمَتَانِ، وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ، وَلَكِن الْمِسْكِينُ الَّذِي لا يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ، وَلَا يُفْطَنُ لَهُ فَيُتَصَدَّقَ عَلَيْهِ، وَلَا يَقُومُ فَيَسأَلَ النَّاسَ**» رواه البخاريُّ ومسلم، وغيرهما، وعنه أيضاً: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لَيْسَ الغِنَى عَنْ كَثْرةِ الْمَالِ وَالْعَرَضِ، وَلَكِنِ الغِنَى غِنَى النَّفْسِ**» متفق عليه.

وقال الإمام أحمد عن رجل من مزينة: أنه قالت له أمُّه: ألا تنطلق، فتَسأل رسول الله ﷺ، كما يَسْأَلُهُ النَّاسُ! قال: فانطلقتُ أسأله، فوجدته قائماً يخطب، وهو يقول: «**وَمَنِ اسْتَعَفَّ أَعَفَّهُ اللهُ، وَمَنِ اسْتَغْنَى أَغْنَاهُ اللهُ، وَمَنْ يَسْأَلِ النَّاسَ، وَلَهُ عِدْلُ خَمْسِ أَوَاقٍ؛ فَقَدْ سَأَلَ النَّاسَ إِلْحَافاً**» فقلت بيني وبين نفسي: لنا ناقةٌ لهي خير مِنْ خمس أواق، ولغلامي ناقة أخرى، فهي خير من خمس أواق، فرجعت، ولم أسأل.

وعن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ سَأَلَ، وَلَهُ مَا يُغْنِيهِ جَاءَتْ مَسْأَلَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خُدُوشَاً، أَوْ خُمُوشاً، أَوْ كُدُوْحَاً فِي وَجْهِهِ**» قالوا: يا رسول الله! وما غناه؟ قال: «**خَمْسُونَ دِرْهَمَاً أَوْ حِسَابُهَا مِنَ الذَّهَبِ**»، أخرجه أبو داود، والترمذي، والنَّسائي، والإمام أحمد.

فالرَّسول ﷺ يريد من المسلم أن يكون عزيز النفس، مرفوعها، لذا نفَّر من السُّؤال، والمسألة، ورغَّب في العمل، فعن الزبير بن العوام ـ رضي الله عنه ـ، قال: قال رسول الله ﷺ:

«لأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ أَحْبُلَهُ، فَيَأْتِيَ بِحُزْمَةٍ مِنْ حَطَبٍ عَلَى ظَهْرِهِ، فَيَبِيْعَهَا، فَيَكُفَّ بِهَا وَجْهَهُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ، أَعْطوهُ، أَمْ مَنَعوهُ» رواه البخاريُّ، وغير ذلك كثير، وخذ ما يلي:

عن الأصمعي ـ رحمه الله تعالى ـ قال: مررتُ في بعض سكك الكوفة، فإذا برجلٍ قد خرج من حشٍّ، على كتفه جرَّةٌ، وهو يقول: [الطويل]

وَأُكْـرِمُ نَـفْـسِـي إِنَّـنـي إِنْ أَهَـنْـتُـهَـا ... وَحَـقِّـكَ لَـمْ تُـكْـرَمْ عَـلَـى أَحَـدٍ بَـعْـدِي

[الوافر]

لَـنَـقْـلُ الـصَّـخْـرِ مِـنْ قُـلَـلِ الْـجِـبَـالِ ... أَحَـبُّ إِلَـيَّ مِـنْ مِـنَـنِ الـرِّجَـالِ

يَـقُـولُ الـنَّـاسُ: كَـسْـبٌ فِـيـهِ عَـارٌ ... وَكُـلُّ الْـعَـارِ فِـي ذُلِّ الـسُّـؤَالِ

فقلت له: إكرامها بمثل هذا؟! قال: نعم، واشفني عن سؤلي، فقلت: إذا سألته، ثم قال: صنع الله بك، وترك، فقلت: قد عرفني، فأسرعت فصاح بي وأنشد: [الطويل]

وَأُكْـرِمُ نَـفْـسِـي إِنَّـنِـي إِنْ أَهَـنْـتُـهَـا ... وَجَـدِّكَ لَـمْ تُـكْـرَمْ عَـلَـى أَحَـدٍ بَـعْـدِي

بقي أن تعرف: لو أُعطِيَ الإنسَانُ شيئاً لم يسأله ماذا يفعل؟ فخذ الجواب مما يلي:

فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ: **«مَنْ آتَاهُ اللهُ شَيْئاً مِنْ هَذَا الْمَالِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسْأَلَهُ، فَلْيَقْبَلْهُ فإنما هُوَ رِزْقٌ سَاقَهُ اللهُ إِلَيْهِ»**. ورواته محتج بهم في الصحيح.

وعن عابد بن عمرو ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ، قال: **«مَنْ عَرَضَ لَهُ مِنْ هَذَا الرِّزْقِ شيءٌ مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ، وَلَا إِشْرَاف نَفْسٍ، فَلْيَتَوسَّعْ بِهِ فِي رِزْقِهِ، فَإِنْ كَانَ غَنِيّاً، فليُوَجِّهْهُ إِلَى مَنْ هُوَ أَحْوَجُ إِلَيْهِ مِنْهُ»**. رواه أحمد، والطبراني، والله أعلم، وأجلُّ، وأكرم.

الإعراب: ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾: متعلقان بمحذوف في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: الصدقات للفقراء، أو هما متعلقان بفعل محذوف، التقدير: أدوا زكاة أموالكم للفقراء، وقيل: متعلقان بقوله: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ﴾ في الآية السابقة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل جر صفة (الفقراء) أو بدل منه، ويجوز اعتباره مفعولاً به لفعل محذوف، التقدير: أعني الذين، كما يجوز اعتباره خبراً لمبتدأ محذوف، التقدير: هم الذين، وهذان الاعتباران على القطع. ﴿أُحْصِرُواْ﴾: فعل ماض مبني للمجهول مبني على الضم، والواو نائب فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها. ﴿فِي سَبِيلِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، أو هما متعلقان بمحذوف حال من واو الجماعة، التقدير: مجاهدين في سبيل، و﴿سَبِيلِ﴾: مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾ مضاف إليه. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَسْتَطِيعُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله، ﴿ضَرْبًا﴾: مفعول به. ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، والجملة الفعلية في محل نصب حال من واو الجماعة، والرابط: الضمير فقط، وقيل: مستأنفة وهو ضعيف.

﴿يَحْسَبُهُمُ﴾: فعل مضارع، والهاء مفعول به. ﴿ٱلْجَاهِلُ﴾: فاعله. ﴿أَغْنِيَآءَ﴾: مفعول به ثان. ﴿مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، والجملة الفعلية قل فيها مثل سابقتها. ﴿تَعْرِفُهُم﴾: فعل مضارع، والفاعل تقديره: أنت، والهاء مفعول به. ﴿بِسِيمَٰهُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، وعلامة الجر كسرة مقدَّرة على الألف للتعذُّر، والهاء في محل جر بالإضافة. وقل في الجملة مثل ما قبلها. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَسْـَٔلُونَ﴾: فعل مضارع، والواو فاعله، ﴿ٱلنَّاسَ﴾: مفعول به أول، والمفعول الثاني محذوف، التقدير: لا يسألون الناسَ شيئاً، وقل في الجملة الفعلية مثل ما قبلها.

﴿إِلْحَافًا﴾: فيه ثلاثة أوجه: مفعول مطلق لفعل محذوف، التقدير: يلحفون إلحافاً، والجملة الفعلية هذه في محل نصب حال من واو الجماعة، ومفعول لأجله، أي لا يسألون الناس لأجل الإلحاف، وحال، تقديره: لا يسألون ملحفين. انتهى. نقلاً من السمين. ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ﴾: انظر إعرابه في الآية السابقة، مع ملاحظة: أنَّ جواب الشرط محذوف، التقدير: فهو يجازيكم به، والجملة الشرطية بكاملها تحتمل العطف على ما في الآية السابقة، والاستئناف، والاعتراض في آخر الكلام الغرض منه الترغيب في الإنفاق، وخصوصاً على المتعفِّفين الذين لا يسألون الناس. ﴿فَإِنَّ﴾: الفاء: حرف تعليل. (إنَّ): حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ ﴿عَلِيمٌ﴾ بعدهما. ﴿عَلِيمٌ﴾: خبر (إنَّ)، والجملة الاسمية تعليلية لا محل لها، وهذا أولى من اعتبارها جواباً للشرط المتقدِّم.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾

الشرح: نزلت الآية الكريمة في أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ حين تصدَّق بأربعين ألف درهم: عشرة في الليل، وعشرة في النَّهار، وعشرة بالسرِّ، وعشرة بالعلانية، وقيل: نزلت في عليٍّ كرم الله وجهه تصدق بأربعة دراهم، ولم يكن يملك غيرها، تصدَّق بدرهمٍ ليلاً، وبدرهمٍ نهاراً، وبدرهم سرّاً، وبدرهمٍ جهراً، وكون ما ذكر سبباً لنزولها لا يقتضي خصوصَ الحكم به، بل العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب، وهذا يقال في كلِّ الآيات القرآنية، التي نزلت بسبب ما.

وروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أنَّها نزلت في علف الخيل المربوطة في سبيل الله، وروي أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**هُمْ أَصْحَابُ الخيْلِ**»، وقد ذكر الله ذلك صراحة في قوله: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ الآية رقم [٦٠] من سورة (الأنفال) انظر شرحها هناك تجد ما يسرك ويثلج صدرك، ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ...﴾ إلخ: انظر الآية رقم [٢٦٢] ففيها الكفاية.

هذا وفي الآية إشارة إلى أنَّ صدقة السرِّ أفضل من صدقة العلانية؛ لأنَّه تعالى قدم نفقة الليل على نفقة النهار، وقدَّم السرَّ على العلانية، انظر ما ذكرته في الآية رقم [٢٧١].

والجملة في الآية الكريمة مدحٌ منه تعالى للمنفقين في سبيله، وابتغاءَ مرضاته في جميع الأوقات؛ حتَّى إنَّ النفقة على الأهل تدخل في ذلك، فعن سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ رسول الله ﷺ، قال له: «**وَإِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللهِ إِلَّا أُجِرْتَ عَلَيْهَا حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فِي امرأَتِكَ**» رواه البخاريُّ، ومسلم. وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ، عن النَّبيِّ ﷺ، قال: «**إِذَا أَنْفَقَ الرَّجُلُ عَلَى أَهْلِهِ نَفَقَةً، وَهُوَ يَحْتَسِبُهَا؛ كَانَتْ لَهُ صَدَقَةً**»، رواه البخاريُّ، ومسلمٌ، والترمذيُّ، والنسائيُّ. هذا؛ وبين الليل والنَّهار، وبين السرِّ والعلانية طباقٌ لفظيٌّ، وهو من المحسِّنات البديعية.

هذا؛ و﴿يُنفِقُونَ﴾ ماضيه: نفق، قال الزمخشري رحمه الله تعالى: إنَّ كلَّ ما فاؤه نون وعينه فاء، يدلُّ على معنى الخروج والذَّهاب، مثل: نفق، ونفخ، ونفذ، ونفش... إلخ.

هذا، والمال قال فيه ابن الأثير: المال في الأصل: ما يُملك من الذَّهب، والفضة، ثم أطلق على كلِّ ما يُقتنى، ويُملك من الأعيان، وأكثر ما يطلق المال عند العرب على الإبل؛ لأنَّها كانت أكثر أموالهم، وقال الجوهري: ذكر بعضهم: أنَّ المال يؤنث، وأنشد لحسَّان ـ رضي الله عنه ـ: [البسيط]

الْمَالُ تُزْرِي بِأقوامٍ ذَوِي حَسَبٍ ... وَقَدْ تُسَوِّدُ غَيْرَ السَّيِّدِ الْمَالُ

وعن الفضل الضَّبيِّ: المال عند العرب الصَّامت، والناطق، فالصَّامت: الذهب، والفضة، والجواهر، والناطق: البعير، والبقرة، والشاة فإذا قلت عن بدوي: كثر ماله؛ فهو النَّاطق، وإذا قلت عن حضريٍّ: كثر ماله؛ فهو الصامت. هذا؛ والنَّشَبُ يطلق على المال الثابت، كالضياع، والدور، وقد قال عمرو بن معدي كرب الزَّبيدي ـ رضي الله عنه ـ في ذلك: [البسيط]

أَمَرْتُكَ الخَيْرَ فَافْعَلْ مَا أُمِرْتَ بِهِ ... فَقَدْ تَرَكْتُكَ ذَا مَالٍ وَذَا نَشَبِ

هذا، و(اللَّيل) فهو واحد بمعنى الجمع، واحدته: ليلة، مثل: تمر، وتمرة، وقد جمع على: ليالٍ، فزادوا فيه الياء على غير قياس، ونظيره: أهل، وأهال، وشبه، ومشابه، وحاجة، وحوائج، وذكر، ومذاكر، وكأنَّ: ليلى في القياس جمع ليلاة، وقد استعملوا ذلك في الشِّعر، وأنشد ابن الأعرابي، وهو الشاهد رقم [٦٦] من كتاب: «فتح القريب المجيب»: [الرجز]

يَا ويحه مِنْ جَمَلٍ مَا أَشْقَاهُ ... فِي كُلِّ مَا يَوْمٍ وَكُلِّ لَيْلَاه

واللَّيل الشرعي: من غروب الشمس إلى طلوع الفجر، وهو أحد قولين في اللغة، والقول الآخر: هو من غروب الشمس إلى طلوعها، والنَّهار ضد الليل، وهو لا يجمع كما لا يجمع

العذاب، والسَّراب، فإن جمعته قلت في الكثير: نُهُر ـ بضمتين ـ كسحاب، وسُحُب، وفي القليل: أنهُر، وقال ابن فارس: النَّهر معروف، والجمع: أنهر، وأنهار، ويقال: إنَّ النهار يجمع على نُهُر، قال الشاعر: [الرجز]

لَوْلَا الثَّرِيدَانِ هَلَكْنَا بِالضُّمُرْ ثَرِيدُ لَيْلٍ وَثَرِيدٌ بِالنُّهُرْ

والنَّهار: من طلوع الفجر، أو: من طلوع الشمس على ما تقدَّم في نهاية اللَّيل إلى غروب الشمس، وقد يُطلق عليهما اسم اليوم، كما تراه في الآية رقم [٢٠٣] هذا والليل يطلق على الحُبارى، أو فرخها، وفرخ الكروان، والنَّهار يُطلق على فرخ القطا. انتهى. قاموس، وقد ألغز بعضُهم بقوله: [الوافر]

إِذَا شَهْرُ الصِّيَامِ إِلَيْكَ وَافَى فَكُلْ مَا شِئْتَ لَيْلاً أَوْ نَهَارَا

الإعراب: الذين ينفقون أموالهم: انظر الآية رقم [٢٦٢]. ﴿بِٱلَّيۡلِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿وَٱلنَّهَارِ﴾: معطوف على ما قبله. ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾: حال بمعنى مسرِّين ومعلنين، قال أبو البقاء: وهما مصدران في موضع الحال، وقد أغرب البيضاوي ـ رحمه الله تعالى ـ في قوله: وقيل: الفاء للعطف، والخبر محذوف؛ أي: ومنهم الذين، ولذلك جوَّز الوقف على ﴿وَعَلَانِيَةً﴾، (لهم أجرهم...) إلخ: انظر الآية رقم [٢٦٢] ففيها الكفاية، والجملة الاسمية في محل رفع خبر المبتدأ، ودخلت الفاء على الخبر؛ لأن الموصول يشبه الشرط في العموم، والجملة الاسمية: ﴿ٱلَّذِينَ...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها.

﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٧٥﴾

الشرح: لمَّا ذكر تعالى الأبرار المؤدِّين النفقات، المخرجين الزَّكوات، المتفضِّلين بالبرِّ، والصدقات لذوي الحاجات، والقرابات في جميع الأحوال، والأوقات، وحضَّهم على أن يكون ما يتصدَّقون به، من الكسب الطَّيب؛ ذكر هنا ما يقابل ذلك، وهو الرِّبا: الكسب الخبيث، الَّذي هو شحٌّ، ودنس، بينما الصَّدقة عطاءٌ، وسماحةٌ، وطهارةٌ، يظهر الفارق بوضوح بين الكسب الطيب وثمرته، وبين الكسب الخبيث ونتيجته، فكما قيل: وبضدها تتميز الأشياء، فقال تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ أي: الآخذون الرِّبا، وإنَّما ذكر الله الأكل؛ لأنه أعظم منافع المال؛ لأنَّ المال لا يؤكل، إنَّما يصرف في المأكول، ثمَّ يؤكل، ولأنه دالٌّ على الجشع، وهو

أشد الحرص، ويلحق به اللباس، والكسوة، والادِّخار، والإنفاق على العيال، وجميع منافعه. والرِّبا في اللغة: الزيادة، يقال: ربا الشَّيء يربو: إذا زاد، وكثر، ونما، قال تعالى في سورة (الحجِّ) رقم [٥]: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾. وفي الشرع: مقابلة عوضٍ بآخرَ مجهول التَّماثل في معيار الشَّرع حالة العقد، أو مع تأخيرٍ في العوضين، أو أحدهما، وهو حرامٌ قطعاً بجميع أنواعه.

﴿لَا يَقُومُونَ﴾: يعني من قبورهم يوم القيامة، ﴿إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: يصرعه، وأصل الخبط: الضرب، والوطء على غير هدىً، واستواء، يقال: ناقة خبوط، التي تضرب الأرض بقوائمها، وتطأ الناس بأخفافها، ومنه قولهم: يخبط خبط عشواء؛ للرَّجل الذي يتصرَّف في الأمور على غير اهتداءٍ، وتمييز وتدبُّرٍ، قال زهير في معلَّقته: [الطويل]

رَأَيْتُ الْمَنَايَا خَبْطَ عَشْوَاءَ مَنْ تُصِبْ تُمِتْهُ، وَمَنْ تُخْطِئْ يُعَمَّرْ، فَيَهْرَمِ

﴿مِنَ ٱلْمَسِّ﴾: من الجنون، يقال: مُسَّ الرَّجل، فهو ممسوس: إذا كان به جنون، قال القرطبيُّ - رحمه الله تعالى -: في هذه الآية دليل على فساد إنكار من أنكر الصَّرع من جهة الجنِّ، وزعم: أنَّه من فعل الطبائع، وأن الشيطان لا يسلك في الإنسان، ولا يكون منه مَسٌّ.

وقد روى النَّسائيُّ عن أبي اليَسَر - رضي الله عنه - قال: كان رسول الله ﷺ يدعو، فيقول: «**اللَّهُمَّ إنِّي أعُوذُ بك مِنَ التردِّي، والْهَدْمِ، وَالْغَرَقِ، وَالْحرِيقِ، وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ يَتَخَبَّطني الشَّيْطَانُ عِنْدَ الْمَوْتِ، وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ أَمُوتَ مُدْبِراً، وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ أَمُوتَ لَدِيغاً!**» وعن أنسٍ - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ: أنَّه كان يقول: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُنُونِ، وَالْجُذَامِ، وَالْبَرَصِ، وسيِّئ الأَسْقَامِ، وَالْمَسِّ، وَالْجُنُونِ!**» رواه أبو داود.

وروي في حديث الإسراء: «**فانطلق بي جبريل، فمررت برجالٍ كثير، كلُّ رجلٍ منهم بطنُه مثل البيت الضخم، مُنَضَّدين على سابلة آل فرعون، وآل فرعون يُعرضون على النار بكرةً وعشيّاً، فيُقبلون مثل الإبل الْمَهْيُومَة، فيتخبَّطون الحجارة، والشَّجر، لا يسمعون، ولا يعقلون، فإذا أحسَّ بهم أصحاب تلك البطون؛ قاموا، فتميل بهم بطونُهم، فيُصرعون، ثم يقوم أحدهم، فيميل به بطنُه، فيُصرع، فلا يستطيعون، براحاً؛ حتى يغشاهم آل فرعون، فيطؤونهم مقبلين، ومدبرين، فذلك عذابهم في البرزخ بين الدُّنيا والآخرة، وآل فرعون يقولون: اللهم لا تُقِم السَّاعة أبداً، فإنَّ الله تعالى يقول:** ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ **قلت: يا جبريلُ! مَنْ هؤلاء؟ قال: هؤلاءِ الذين يأكلون الرِّبا** ﴿لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾». أخرجه البغويُّ بسند الثعلبي عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه -.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: العذاب الذي نزل بهم بسبب قولهم في الدُّنيا: ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ أي: بالحلِّ، والإباحة، وذلك: أنَّ أهل الجاهلية، كان أحدُهم إذا حل أجلُ دينه على غريمه يُطالبه

به، فيقول الغريم لصاحب الحقِّ: زدني في الأجل، حتَّى أزيدَكَ في المال، فيفعلان ذلك، وكانوا يقولون: سواءٌ علينا الزيادة في أوَّل البيع بالرِّبح، أو عند المحلِّ لأجل التأخير، فكذَّبهم الله تعالى، وردَّ عليهم بقوله: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾. هذا؛ ولم يقل: إنَّما الرِّبا مثل البيع، مع أن الكلام في الرِّبا لا في البيع؛ لأنَّه جيء به على طريقة المبالغة، ويسمَّى التشبيه المقلوب، وهو أعلى مراتب التشبيه؛ حيث يجعل المشبَّه مكان المشبَّه به، والأصل في الآية أن يقال: الربا مثل البيع، ولكنَّه بلغ من اعتقادهم في حل الرِّبا أن جعلوه أصلاً يقاس عليه، فشبهوا به البيع، والتشبيه المقلوب بابٌ واسعٌ من أبواب النَّحو، انظر كتابنا: «فتح القريب المجيب»، وخذ منه قول رؤبة بن العجَّاج وهو الشاهد رقم [١١٨٧] منه: [الرجز]

وَمَهْمَهٍ مُغْبَرَّةٍ أرجَاؤُهُ كَأَنَّ لَوْنَ أَرْضِهِ سَمَاؤُهُ

﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾: أي: وأحل الله لكم الأرباح في التِّجارة بالبيع، والتجارة، وحرَّم الرِّبا الذي هو زيادة المال لأجل تأخير الأجل، وذلك لأنَّ الله تعالى خلق الخلق فهم عبيده، وهو مالكهم يحكم فيهم بما شاء، ويستعبدهم بما يريد، وليس لأحد أن يعترض عليه في شيءٍ ممَّا أحلَّ، أو حرَّم، وإنما على كافة الخلق الطَّاعة، والتسليم لحكمه، وأمره، ونهيه.

﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي: فمن بلغه وعظٌ من الله، وزجر بالنَّهي عن الرِّبا، وإنما ذكر الفعل؛ لأنَّ الموعظة من المؤنث المجازي، ولأنَّ الوعظ، والموعظة شيءٌ واحد. ﴿فَٱنتَهَىٰ﴾: عن أكل الربا. ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾: تقدَّم أخذه قبل التحريم، لا يسترد منه ما أخذه بعقد الربا. ﴿وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يعني: بعد النَّهي، إن شاء عصمه؛ حتى يثبت على الانتهاء، وإن شاء خذله؛ حتى يعود إلى أكل الرِّبا. وقيل: معناه: وأمره إلى الله فيما يأمره، وينهاه، ويحلُّ له، ويحرم عليه، وليس له من أمر نفسه شيء، والمعنى في حق المسلم: فأمره إلى الله إن شاء عفا عنه، وإن شاء عذبه. ﴿وَمَنْ عَادَ﴾: إلى أكل الرِّبا بعد التَّحريم، والنَّهي. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، والآية تفيد تخليد آكل الرِّبا في النار، وهذا مع الاستحلال؛ لأنَّهم بالاستحلال صاروا كافرين؛ لأن منْ أحلَّ ما حرَّم الله ـ عز وجل ـ فهو كافر، فلذا استحقَّ الخلود، وبهذا تبيَّن: أنَّه لا تعلق للمعتزلة بهذه الآية في تخليد الفاسقين في النَّار.

هذا وبين (أحلَّ) و(حرَّم) طباق، وهو من المحسِّنات البديعية؛ أما الحرام في الأصل فهو كلُّ ممنوع، والحرمات كلُّ ممنوع منك ممَّا بينك وبين غيرك. وقولهم: لفلان بي حرمة؛ أي: أنا ممتنعٌ من مكروهه، وحرمة الرَّجل محظورة به من غيره، وقوله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ فالمحروم: هو الممنوع من المال، والتلذُّذ به، والإحرام بالحجِّ، والعمرة: هو المنع من أمورٍ معروفةٍ في الفقه الإسلاميِّ.

هذا وروى أبو داود ـ رحمه الله تعالى ـ عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا تبايعتم بالعِيْنة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزَّرع، وتركتم الجهاد في سبيل الله؛ سلَّط الله عليكم ذلّاً، لا ينزعه عنكم؛ حتى ترجعوا إلى دينكم**».

وفسر أبو عبيدة الهرويُّ «**العِيْنَة**» فقال: هي أن يبيع مِنْ رجل سلعةً بثمنٍ معلوم إلى أجلٍ مسمًّى، ثم يشتريها منه بأقلَّ من الثمن الَّذي باعها به، وسمِّيت: عِيْنَةً لحضور النقد لصاحب العينة، وذلك: أنَّ العَيْن هو المال الحاضر، والمشتري إنَّما يشتريها ليبيعها بِعَيْن حاضر يصل إليه من فوره. انتهى. قرطبي. وهي مذمومة، وحيلة لأكل الرِّبا، ولذلك اعتبرها الرَّسول ﷺ من الأمور الَّتي تغضب الله تعالى، وتكون سبباً لتسليط الذُّلِّ على المسلمين وإهانتهم حتى يتوبوا، ويرجعوا إلى دينهم.

الإعراب: ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ. ﴿يَأْكُلُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون، والواو فاعله. ﴿ٱلرِّبَوٰاْ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على الألف للتعذر، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَقُومُونَ﴾: مضارع وفاعله، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: ﴿ٱلَّذِينَ...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها. ﴿إِلَّا﴾: حرف حصر. ﴿كَمَا﴾ الكاف: حرف تشبيه وجر. (ما): مصدرية. ﴿يَقُومُ﴾: فعل مضارع. ﴿ٱلَّذِى﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل رفع فاعل. ﴿يَتَخَبَّطُهُ﴾: فعل مضارع. ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: فاعله. ﴿مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ متعلقان بـ ﴿لَا يَقُومُونَ﴾، وقال أبو البقاء: متعلقان بالفعل ﴿يَتَخَبَّطُهُ﴾ والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها، و(ما) المصدرية والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بالكاف، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف صفة لمصدر محذوف واقع مفعولاً مطلقاً، وتقدير الكلام: لا يقومون إلا قياماً مشابهاً قيام الَّذي... إلخ.

﴿ذَٰلِكَ﴾: اسم إشارة مبني على السكون في محل رفع مبتدأ، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب لا محل له. ﴿بِأَنَّهُمْ﴾: الباء: حرف جر. (أنهم): حرف مشبه بالفعل، والهاء اسمها. ﴿قَالُوٓاْ﴾: فعل ماض مبني على الضم، والواو فاعله، والألف للتَّفريق. ﴿إِنَّمَا﴾: كافة، ومكفوفة. ﴿ٱلْبَيْعُ﴾: مبتدأ. ﴿مِثْلُ﴾: خبره، وهو مضاف، و﴿ٱلرِّبَوٰاْ﴾ مضاف إليه مجرور، وعلامة جره كسرة مقدرة على الألف للتعذر، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قَالُوٓاْ...﴾ إلخ في محل رفع خبر (أنَّ)، و(أنَّ) واسمها وخبرها في تأويل مصدر في محل جرٍّ بالباء، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ، والجملة: ﴿ذَٰلِكَ...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها.

﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ﴾: الواو: واو الحال. (أحل الله البيع): فعل، وفاعل، ومفعول به، والجملة الفعلية في محل نصب حال من ﴿ٱلْبَيْعَ﴾، والرابط: الواو. وإعادة (البيع) بلفظه للبيان،

والوضوح، وهي على تقدير «قد» قبلها، والتي بعدها معطوفة عليها، وهي في محل نصب حال من ﴿ٱلرِّبَوٰاْ﴾ والرابط: الواو. وإعادة ﴿ٱلرِّبَوٰاْ﴾ بلفظه للبيان، والوضوح أيضاً.

﴿فَمَن﴾: الفاء: حرف تفريع واستئناف. (مَنْ): اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿جَآءَهُۥ﴾: فعل ماض مبني على الفتح في محل جزم فعل الشرط، والفاعل يعود إلى (مَنْ) تقديره: هو، والهاء مفعول به. ﴿مَوۡعِظَةٞ﴾: فاعله. ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾: متعلقان بـ ﴿مَوۡعِظَةٞ﴾، أو بمحذوف صفة له، والهاء في محل جر بالإضافة، مِنْ إضافة اسم الفاعل لمفعوله، والفاعل يعود إلى (مَنْ) أيضاً، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها. ﴿فَلَهُۥ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (له): جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم. ﴿مَا﴾: اسم موصول، أو نكرة موصوفة مبنية على السكون في محل رفع مبتدأ مؤخر. ﴿سَلَفَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى ﴿مَا﴾ وهو العائد، أو الرابط، والجملة الاسمية: (له ما سلف) في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور، والدُّسوقي يقول: لا محل لها؛ لأنها لم تحلَّ محلَّ المفرد، وخبر المبتدأ الذي هو (مَنْ) مختلف فيه، فقيل: هو جملة الشرط، وقيل: هو جملة الجواب، وقيل: الجملتان، وهو المرجَّح عند المعاصرين. هذا؛ وإن اعتبرت (مَنْ) اسماً موصولاً مبتدأً، فجملة: ﴿جَآءَهُۥ...﴾ إلخ صلته، والجملة الاسمية: (له ما سلف) في محل رفع خبره، ودخلت الفاء على الخبر؛ لأن الموصول يشبه الشرط في العموم، والجملة الاسمية على الاعتبارين مستأنفة لا محل لها. ﴿وَأَمۡرُهُۥٓ﴾: الواو: حرف عطف. (أمره): مبتدأ، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿إِلَى ٱللَّهِۖ﴾: متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها، فهي في محل جزم مثلها.

﴿وَمَنۡ عَادَ﴾: الواو: حرف عطف. (مَنْ عاد): إعراب الكلمتين مثل ما قبلهما. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (أولئك): اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ، والكاف حرف خطاب لا محل له. ﴿أَصۡحَٰبُ﴾: خبره، وهو مضاف، و﴿ٱلنَّارِۖ﴾: مضاف إليه، والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط، وعلى اعتبار (مَنْ) موصولاً؛ فهي في محل رفع خبره، والجملة الاسمية على الاعتبارين معطوفة على ما قبلها، لا محلَّ لها مثلها. ﴿هُمۡ﴾: ضمير منفصل مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور متعلقان بما بعدهما. ﴿خَٰلِدُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل نصب حال من ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾ والعامل في الحال اسم الإشارة، لما فيه من معنى الفعل، والرابط: الضمير فقط، وجوز اعتبارها خبراً ثانياً لـ (أولئك)، والأول أقوى.

﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ٢٧٦﴾

الشرح: ﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ أي: ينقصه، ويهلكه، ويذهب ببركته، قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: لا يقبل الله منه صدقةً، ولا حجّاً، ولا جهاداً، ولا صلة رحم، بل ويعاقبه عليه،

قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾، وقال أيضاً: ﴿وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ﴾ وقال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: «**الرِّبَا وإن كثر فإنَّ عاقبته إلى قُلٍّ**». وفي مسند الإمام أحمد يرويه ابن مسعود عن النبي ﷺ.

﴿وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾: يزيدها، ويكاثرها، ويضاعفها، ويبارك فيها، فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما تصدق أَحَدٌ بصدقةٍ من كسبٍ طيبٍ، ولا يقبلُ اللهُ إِلَّا الطيبَ، إلا أَخَذَها الرَّحمنُ بيمينِهِ، وَإِنْ كَانَتْ تمرةً، فَتَرْبُو في كَفِّ الرَّحمنِ حتَّى تكونَ أعظمَ مِنَ الجبلِ، كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ، أَوْ فَصِيلَهُ**» أخرجه مسلم، وتقدَّم ما يشبهه برواية البخاريِّ.

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ يعني: كلَّ مصرٍّ على كفره، مقيم عليه، مستحلٍّ لأكل الرِّبا، ﴿أَثِيمٍ﴾: متمادٍ في الإثم، وقيل: المراد: الكفار ويحتمل أن يكون راجعاً إلى مستحل الرِّبا، و(الأثيم): يرجع إلى مَنْ يفعله مع اعتقاد التَّحريم، فتكون الآية جامعةً للفريقين، وخذ ما يلي:

فعن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ قال: «**لعن رسول الله ﷺ: آكِلَ الرِّبَا، وَمُوكِلَهُ، وَكَاتِبَهُ، وَشَاهِدَيْهِ، وقالَ: هُمْ سَوَاءٌ**»، رواه أحمد، وغيره، وعدَّ الرسولُ ﷺ أكل الرِّبَا من الكبائر السَّبع، والسَّبع الموبقات، والأحاديث المنفرة من الرِّبا كثيرةٌ مشهورةٌ، ومسطورةٌ، وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَيَأتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ، لا يَبْقَى مِنْهُمْ أَحَدٌ إلَّا آكل الرِّبَا، فَإِنْ لَمْ يَأْكلْهُ؛ أَصَابَهُ مِنْ غُبَارِهِ**» رواه أبو داود، وابن ماجه.

تنبيه: في الآية الكريمة مسألة بيانية، لم يتعرَّض لها المفسرون، وهي ما إذا وقعت «كلُّ» في حيز النفي؛ كان النفي موجهاً إلى الشُّمول خاصَّةً، وأفاد بمفهومه ثبوت الفعل لبعض الأفراد، كقولك: (مَا جَاءَ كُلُّ الْقَوْمِ وَلَمْ آخُذْ كُلَّ الدَّرَاهِمِ، وَكُلَّ الدَّرَاهِمِ لَمْ آخُذْ) وإن وقع النفي في حيزها، اقتضى السَّلب عن كلِّ فرد، كقول النبي ﷺ لمَّا قال له ذو اليدين: أنسيتَ أم قصرتِ الصلاةُ يا رسولَ الله؟!: «**كُلُّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ**». وقد يشكل على قولهم في القسم الأول قوله تعالى في سورة (لقمان) رقم [١٨]: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾، ومثلها في سورة (الحديد) رقم [٢٣]، وقوله تعالى في سورة (ن): ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾، وما في الآية التي نحن بصدد شرحها حيث وقعت ﴿كُلَّ﴾ في حيز النفي، فتفيد: أن المنفي الشُّمول، وأنَّ البعض ثابت له المحبَّة من الله. والجواب عن الآيات: أن دلالة المفهوم إنَّما يعوَّل عليها عند عدم المُعارض، وهو موجودٌ هنا؛ إذ دلَّ الدَّليل، والإجماع على تحريم الاختيال، والفخر، والحلف، والكفر مطلقاً، ومستند هذا الإجماع الأحاديث الشَّريفة الكثيرة، والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿يَمْحَقُ﴾: فعل مضارع. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله. ﴿ٱلرِّبَوٰا﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على الألف للتعذر. والجملة الفعلية مستأنفة لا محل لها. ﴿وَيُرْبِى﴾: الواو: حرف عطف. (يربي): فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء للثقل، والفاعل

يعود إلى ﴿ٱللَّهُ﴾ والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محلَّ لها مثلها. ﴿ٱلصَّدَقَٰتِۗ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه الكسرة نيابة عن الفتحة؛ لأنه جمع مؤنث سالم. (الله): مبتدأ. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يُحِبُّ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى (الله) والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ. ﴿كُلَّ﴾: مفعول به، وهو مضاف، و﴿كَفَّارٍ﴾: مضاف إليه، وهو صفة لموصوف محذوف، التقدير: كلَّ شخص كفَّار. ﴿أَثِيمٍ﴾: صفة ثانية للموصوف المحذوف، والجملة الاسمية تحتمل العطف على ما قبلها، والاستئناف، والحالية، من لفظ الجلالة، وهو الأقوى، والرابط: الواو، وإعادة اسم الجلالة بلفظه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾

الشرح: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: بالله، ورسوله، واليوم الآخر... إلخ. ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: على اختلاف درجاتها، وتفاوت مراتبها، والتي منها تحريم الرِّبا بأنواعه. هذا؛ وعطف العمل الصالح على الإيمان في الآية الكريمة وغيرها يوحي بأنَّ العمل قرين الإيمان، وقد لا يُجدي الإيمان بدون عمل، وهو ما أفاده قول الرَّسول ﷺ: «**الإيمانُ والعملُ قرينانِ، لَا يَقْبَلُ اللهُ أَحَدَهُمَا بِدُونِ صَاحِبِهِ**» كما أنَّ الإيمان مشروطٌ لقبول العمل الصالح، ويسمَّى مثل هذا في علم المعاني: احتراساً.

﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: خصَّ الصَّلاة والزكاة بالذِّكر، وقد تضمَّنها عمل الصَّالحات تشريفاً لهما، وتنبيهاً على قدرهما؛ إذ هما رأس الأعمال: الصَّلاة في أعمال البدن، والزكاة في أعمال المال.

ومعنى (أقاموا الصلاة): أدَّوها في أوقاتها، وحافظوا على طهارتها، وأتمُّوا لها ركوعها، وسجودها، وخشوعها، ومن لم يؤدِّها على الوجه الأكمل، يقال عنه: صلَّى، ولا يقال: أقام الصَّلاة. هذا؛ والصَّلاة في اللُّغة: الدعاء والتَّضرُّع، وهي في الشرع: أقوالٌ، وأفعالٌ مخصوصةٌ، مبتدأةٌ بالتكبير، مختتمة بالتَّسليم، ولها شروط، وأركان، ومبطلات، ومكروهات، ومندوبات مذكورة في الفقه الإسلامي. هذا؛ وبيَّن الله تعالى: أنَّ أجود ما يُستعان به على تحمُّل المتاعب، والمصائب الصَّبرُ، والصَّلاةُ، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ الآية رقم [١٥٣]، وكان الرسول ﷺ إذا حزبه أمرٌ؛ فزع إلى الصلاة؛ هذا؛ والصلاة من العبد معناها: التضرُّع والدُّعاء، ومن الملائكة على العبد معناها: الاستغفار، وطلب الرَّحمة له، ومن الله على عباده معناها: الرَّحمة، وإنزال البركات.

وقد جُمِعت الأنواع الثلاثة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ الآية رقم [٥٦] من سورة (الأحزاب).

﴿وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أدُّوها، والإيتاء: الإعطاء، يقال: آتيته: أعطيته، قال الله تعالى، حكاية عن قول المنافق في سورة (التَّوبة) رقم [٧٥]: ﴿لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾، وأتيته بالقصر من غير مد بمعنى: جئته، فإذا كان المجيء بمعنى الاستقبال مُدَّ، ومنه الحديث ولآتِيَنَّ رسول الله ﷺ فَلأُخْبِرَنَّهُ. هذا؛ وأصل آتَوْا «آتَـيُوا» فاستثقلت الضمة على الياء، فحذفت، فالتقى ساكنان: الياء والواو، فحذفت الياء لعلة الالتقاء، فصار «آتَـوْا». ويقال في إعلاله أيضاً: تحركت الياء وانفتح ما قبلها، فقلبت ألفاً، فصار: (آتَاوْا) فاجتمع ساكنان: الألف والواو، فحذفت الألف لالتقاء الساكنين، فصار: آتَوْا، وبقيت الفتحة على التاء دليلاً على الألف المحذوفة، وما ذكرته يجري في إعلال كلِّ فعلٍ ناقصٍ، مثل: نجا، ورمى، وسعى، ودعا، وغزَا، هذا، وتحرك واو الجماعة بالضَّمة إذا لقيها ساكن، كما في هذه الآية (آتَوْا) ولم تحرك بالكسرة؛ لأنَّ الكسرة لا تناسبها، وقيل: حركت بالضم دون غيره؛ ليفرق بين الواو الأصلية وبين واو الجماعة في نحو قولك: «لو اجتهدتَ؛ لنجحتَ». وقيل: حركت بحركة الياء المحذوفة، وقيل: ضمت؛ لأنَّ الضَّمة هنا أخفُّ من الكسرة؛ لأنها من جنس الواو، وقيل: غير ذلك.

هذا والزكاة في اللغة التطهير والإصلاح والنماء والمدح، يقال: زكا الزرع والمال، يزكو، إذا كثر وزاد، وسمي الإخراج من المال زكاة، وهو نقص منه حيث ينمو بالبركة، قال تعالى في سورة سبأ رقم [٣٩]: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ كما يقال: زكا فلان أي طهر من دنس الجرحة والإغفال، فكأن الخارج من المال يطهره من تبعة الحق، الذي جعل الله فيه للمساكين، ألا ترى أن النبي ﷺ سمى ما يخرج من الزكاة أوساخ الناس، وقد قال تعالى في سورة التوبة رقم [١٠٣] ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾.

والزكاة في الشرع: اسم لما يُخرج من مالٍ، أو بدنٍ على وجهٍ مخصوصٍ، وهي أحد أركان الإسلام الخمسة الَّتي بُني عليها الإسلام، ومن ثَمَّ يكفر جاحدها على الإطلاق، أو في القدر المجمع عليه، ويقاتل الممتنع عن أدائها، وتؤخذ منه قهراً، كما فعل الصدِّيق ـ رضي الله عنه ـ، وتدفع الزكاة لأشخاص معلومين مذكورين في الآية رقم [٦٠] من سورة (التوبة)، وزكاة الفطر لا يوجد نصٌّ صريح في القرآن عليها، إلا ما تأوَّله بعض المفسرين في قوله تعالى في سورة الأعلى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾، وتحدَّثْتُ عنها بعونه تعالى عند الكلام على آي الصيام.

هذا وأضيف: أنَّ الزكاة قرينة الصَّلاة، فقد روي: أنَّ أعرابيّاً جاء إلى ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، فقال له: يا بن عباس! أنت حَبْرُ الأمة، وترجمان القرآن، علَّمك الله أسرار الكتاب، وفقَّهك في الدِّين، فقل لي بربك: لماذا قرن الله الصَّلاة إلى الزَّكاة في القرآن في أكثر من ثلاثين آية؟ فقال ابن عبَّاس ـ رضي الله عنهما ـ: ذلك لتعلم أنَّ الصلاة، والزَّكاة توءمان، لا يقبل الله إحداهما بدون الأخرى، تلك حقُّ الله، وهذه حقُّ الناس، ورضي الله عن الصدِّيق الذي سوَّى

بين المرتدِّين ومانعي الزكاة في المحاربة، والقتال، كما هو معلومٌ ومشهور، وخذ قول أبي العتاهية الصُّوفي، رحمه الله: [الكامل]

أَقِمِ الصَّلَاةَ لِوَقْتِهَا بِشُرُوطِهَا ... فَمِنَ الضَّلَالِ تَفَاوُتُ الْمِيقَاتِ

وَإِذَا اتَّسَعْتَ بِرِزْقِ رَبِّكَ فَاجْعَلَنْ ... مِنْهُ الأَجَلَّ لأَوْجُهِ الصَّدَقَاتِ

فِي الأَقْرَبِينَ وَفِي الأَبَاعِدِ تَارَةً ... إِنَّ الزَّكَاةَ قَرِينَةُ الصَّلَوَاتِ

هذا؛ وقال القرطبيُّ ـ رحمه الله تعالى في غير هذا الموضع ـ: وفي حديثٍ: أنَّ النبي ﷺ قال: «**مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ ثَلَاثٍ، فَرَّقَ اللهُ بَيْنَهُ وبَيْنَ رَحْمَتِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ، مَنْ قال: أطيعُ اللهَ ولا أطيعُ الرسولَ، واللهُ يقول:** ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾، **وَمَنْ قَالَ: أُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَلَا أُوتِي الزكاة، واللهُ يَقُولُ:** ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ **ومَنْ فَرَّقَ بَيْنَ شُكْرِ اللهِ وشكرِ وَالِدَيْهِ، واللهُ عزَّ وجلَّ يقولُ:** ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾». انتهى. ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ...﴾ إلخ: انظر الآية رقم [٢٦٢] ففيها الكفاية.

الإعراب: ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل نصب اسمها، وجملة: ﴿ءَامَنُوا۟﴾ مع المتعلق المحذوف صلة الموصول، لا محل لها. ﴿وَعَمِلُوا۟﴾: فعل ماض مبني على الضم، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها، والجملتان بعدها معطوفتان عليها، لا محل لهما أيضاً. ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه الكسرة نيابة عن الفتحة؛ لأنَّه جمع مؤنث سالم، وهو صفة لموصول محذوف. ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ...﴾ إلخ: انظر الآية رقم [٢٦٢] ففيها الكفاية، والجملة الاسمية في محل رفع خبر ﴿إِنَّ﴾، والجملة الاسمية مبتدأة، أو مستأنفة لا محلَّ لها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾

الشرح: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: انظر الآية رقم [٢٥٤] ففيها الكفاية، فالله يأمر عباده المؤمنين بتقواه، وينهاهم عمَّا يُقرِّبهم إلى سخطه، ويبعدهم عن رضاه، والمعنى: خافوا الله، وراقبوه فيما تفعلون، ﴿وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟﴾ أي: اتركوا ما لكم على الناس من الزيادة على رؤوس الأموال بعد هذا الإنذار. ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾: مصدقين بما شرع الله لكم من تحليل البيع، وتحريم الربا، وغير ذلك.

وقد ذكروا: أنَّ هذه الآية نزلت في بني عمرو بن عمير، من ثقيف، وبني المغيرة من بني مخزوم، كان بينهم رِباً في الجاهلية، فلمَّا جاء الإسلام، ودخلوا جميعاً في الإسلام؛ طلبت ثقيف أن تأخذه منهم. فتشاوروا، وقالت بنو المغيرة: لا نؤدِّي الربا في الإسلام، فكتب عتَّاب ابن أسيد والي مكة بعد فتحها إلى رسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآية، فكتب بها رسول الله ﷺ،

فقالوا: نتوب إلى الله، ونذر ما بقي من الرِّبا، فتركوه كلُّهم. ذكره ابن جُريج، ومقاتل، والسدِّيُّ. وخذ ما يلي:

فعن عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**الذَّهَبُ بالذَّهَبِ، والفِضَّةُ بالفِضَّةِ، والبُرُّ بالبُرِّ، والشَّعيرُ بالشَّعيرِ، والتَّمرُ بالتَّمرِ، والمِلْحُ بالملحِ، مِثْلاً بمثلٍ، سواءً بسواءٍ، يداً بيدٍ، فإذا اختلفتْ هذهِ الأصنافُ، فَبيعُوا كَيْفَ شِئْتُمْ، إذا كانَ يداً بيدٍ**». أخرجه مسلم، رحمه الله تعالى. فنصَّ رسول الله ﷺ على جريان الرِّبا في هذه الأشياء الستَّة.

هذا وأما (ذَرْ) فهو بمعنى: أَعْرِضْ، واترك، والمستعمَل من هذه المادة: المضارع، والأمر فقط، ومثله: (دَعْ) ومضارعه: يدعُ، فكلا المادتين ناقص التصرُّف، وهما بمعنى الترك والإعراض، وقد سُمِع سماعاً نادراً الماضي منهما. فقالوا: وَدَعَ ووذَرَ بوزن وضع، إلا أن ذلك شاذ في الاستعمال؛ لأن العرب كلهم إلا قليلاً منهم أُميت هذا الماضي من لغاتهم، وليس المعنى: أنهم لم يتكلموا به البتة، بل تكلموا به دهراً، ثمَّ أماتوه بإهمالهم استعماله، فلمَّا جمع العلماء ما وصل إليهم من لغات العرب؛ وجدوه مماتاً، إلا ما سُمع منه سماعاً نادراً، فقد قرئ قوله تعالى في سورة (الضُّحى): (ما وَدَعَكَ ربُّك وما قلى) بالتَّخفيف، وقال الشاعر: [الطويل]

وَثَــمَّ وَدَعْــنَــا آلَ عــمْــرو وَعَــامِــرٍ   فَــرَائِــسَ أَطْــرَاءِ الْــمُــثَــقَّــفَــةِ الــسُّــمْــرِ

وقال آخر: [الرمل]

لَـيْـتَ شِـعْـرِي يَـا خَـلِـيـلـي مَـا الَّـذِي   نَـمَـا لَـهُ فِـي الْـحُـبِّ حَـتَّـى وَدَعَـهْ

وقال الرسول ﷺ: «**دَعُوا الْحَبَشَةَ مَا وَدَعُوكُمْ**». وسُمع المصدر منه في قوله ﷺ: «**لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ عَنْ وَدْعِهِمُ الْجُمُعَاتِ، أَوْ لأُحَرِّقَنَّ عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُمْ**» أي: عن تركهم إيَّاها، وسُمِع منه اسم الفاعل، واسم المفعول في أبيات من الشعر، قال خفاف بن نُدْبة ـ رضي الله عنه ـ: [الطويل]

إِذَا مـا اسْـتَـحَـمَّـتْ أَرْضُـهُ مِـنْ سَـمَـائِـهِ   جَـرَى وَهْـوَ مَـوْدُوعٌ وواعِـدٌ مُـصَـدَّقِ

هذا رأي أكثر النُّحاة. وقال محبُّ الدين الخطيب شارح شواهد الكشَّاف ـ رحمه الله تعالى ـ: فقد رُويت هذه الكلمة، أي: (دَعْ) عن أفصح العرب ـ يقصد النَّبيَّ ﷺ ـ ونقلت عن طريق القراء، فكيف تكون إماتة؟ وقد جاء الماضي في بعض الأشعار، وما هذه سبيله، فيجوز القول بقلَّة الاستعمال، ولا يجوز القول بالإماتة، وأضيفُ: إن كثيراً من النُّحاة يقولون في ماضي: (عِمْ وَيَعِمُ) ما قيل في ماضي (دَعْ، وذَرْ) وخذ قول امرئ القيس وهو الشاهد رقم [٣٠٨] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»، والشاهد رقم [٨٥] من كتابنا فتح ربِّ البرية: [الطويل]

أَلَا عِـمْ صَـبَـاحَـاً أَيُّـهَـا الـطَّـلَـلُ الْـبَـالِـي   وَهَـلْ يَـعِـمَـنْ مَـنْ كَـانَ فِـي الْـعُـصُـرِ الـخالِـي؟

وَهَـلْ يَـعِـمَـنْ مَـنْ كَـانَ أَحْـدَثُ عَـهْـدِهِ   ثَـلاثِـيـنَ شَـهْـرَاً فِـي ثَـلاثَـةِ أَحْـوَالِ؟

الإعراب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾: (يا): أداة نداء تنوب مناب: أدعو. (أيها): منادى نكرة مقصودة مبنية على الضم في محل نصب ب (يا)، و(ها): حرف تنبيه لا محلَّ له من الإعراب، وأقحم للتوكيد، وهو عوض من المضاف إليه ولا يقال ضمير في محل جر بالإضافة؛ لأنَّه حينئذٍ يجب نصب المنادى. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع بدلاً من (أيُّ) أو عطف بيان عليه. ﴿ءَامَنُواْ﴾: فعل ماض مبني على الضم، والواو فاعله، والألف للتفريق، والمتعلق محذوف، والجملة الفعلية صلة الموصول لا محلَّ لها. ﴿ٱتَّقُواْ﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿ٱللَّهَ﴾: منصوب على التعظيم، والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنها ابتدائية كالجملة الندائية قبلها، والجملة بعدها معطوفة عليها. ﴿مَا﴾: اسم موصول أو نكرة موصوفة مبنية على السكون في محل نصب مفعول به. ﴿بَقِيَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى ﴿مَا﴾ وهو العائد أو الرابط، والجملة الفعلية صلة ﴿مَا﴾ أو صفتها، ﴿مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، وقيل: متعلقان بمحذوف حال من الفاعل المستتر. و﴿مِنَ﴾ بيان لما أبهم في ﴿مَا﴾، ﴿إِن﴾: حرف شرط جازم. ﴿كُنتُم﴾: فعل ماض ناقص مبني على السكون في محل جزم فعل الشرط، والتاء اسمها. ﴿مُّؤۡمِنِينَ﴾: خبر ﴿كُنتُم﴾: منصوب، وعلامة نصبه الياء؛ لأنَّه جمع مذكر سالم، والنون عوض عن التنوين في الاسم المفرد، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها ابتدائية، ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفي، وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه، التقدير: إن كنتم مؤمنين؛ فاتقوا الله وذروا... إلخ، والجملة الشرطية لا محل لها كالجمل الَّتي قبلها.

﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ٢٧٩﴾

الشرح: بالإضافة لما ذكرته من سبب نزول الآيات، قيل: نزلت في العباس، وعثمان ـ رضي الله عنهما ـ، وكانا قد أسلفا في التَّمر، فلما كان وقت الجَذاذ؛ قال صاحب التَّمر لهما: إن أنتما أخذتما حقَّكما لم يبق ما يكفي عيالي، فهل لكما أن تأخذا النِّصف، وتؤخرا النصف، وأضعف لكما، ففعلا، فلمَّا حلَّ الأجل طلبا منه الزِّيادة، فبلغ ذلك النَّبي ﷺ، فنهاهما، وأنزل الله هذه الآيات، فسمعا، وأطاعا. وأخذا رؤوس أموالهما، وقال الرسول ﷺ في حجَّة الوداع فيما رواه جابر ـ رضي الله عنه ـ من إفراد مسلم رحمه الله تعالى: «**ألَا كُلُّ شَيءٍ مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ تحت قدميَّ موضوعٌ، ودماء الجاهلية موضوعةٌ، وإنَّ أوَّل دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث، كان مسترضعاً في بني سعد، فقتله بنو هذيل. وربا الجاهلية موضوعٌ، وأوَّل رباً أَضَعُ رِبانا؛ ربا عبَّاس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كلُّه**».

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ﴾: فإن لم تتركوا الرِّبا، وتمتثلوا أمر الله، وأمر رسوله بذلك، وانظر ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا﴾ في الآية رقم [٢٦٥]. ﴿فَأْذَنُواْ﴾: فاعلموا، وأيقنوا، ويقرأ: (فآذِنوا) بمد الهمزة وكسر الذال، ومعناه: فأعلموا غيركم. والفعل على القراءتين مأخوذ من الأذان، وهو الإعلام في اللُّغة. ﴿بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾: محاربة الله للمرابي في النار يوم القيامة، فعن ابن عبَّاسٍ ـ رضي الله عنهما ـ. قال: يقال لآكل الرِّبا يوم القيامة: خذ سلاحك للحرب، ومحاربة الرَّسول ﷺ له بالسَّيف في الدُّنيا، وهذا يقتضي أن يقاتل المُرابي حتَّى ينتهي عن الرِّبا، ويعلن توبته، وقتاله كقتال البُغاة. يروى: أن أصحاب الرِّبا حين نزلت الآية الكريمة؛ قالوا: لا طاقة لنا بحرب الله ورسوله، واكتفوا برؤوس أموالهم، وأعلنوا توبتهم. ﴿لَا تَظْلِمُونَ﴾: غرماءكم بأخذ الزيادة على رأس المال. ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾: أنتم مِنْ قبلهم بالمطل، والنقصان، ويفهم منه: أنهم إن لم يتوبوا؛ فليس لهم رأس مالهم، وهو سديد على ما قلناه؛ إذ المصرُّ على التَّحليل مرتدٌّ، ومالُه فَيءٌ. انتهى. بيضاوي.

تنبيه: لم يؤذن الله أحداً بالمحاربة غير آكل الرِّبا، والمؤذي لأولياء الله الصَّالحين، وخذ ما يلي: فقد روى البخاريُّ ـ رحمه الله تعالى ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ تعالى قَالَ: مَنْ عادى لِي وَلِيّاً، فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ... إلخ**». هذا والولي: هو الذي لم يفعل كبيرة، ولم يصرَّ على صغيرةٍ. هذا؛ ويقرأ الفعل: (ما بقيْ) بسكون الياء، ومثل هذا يرد في الشعر العربي، قال جرير في عبد الملك بن مروان، وهو الشاهد رقم [١١٣٢] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»: [البسيط]

هُوَ الخَلِيفَةُ فَارْضَوا مَا رَضِيْ لَكُمُو مَاضِيْ الْعَزِيمَةِ مَا فِي حُكْمِهِ جَنَفُ

وقال عمر بن أبي ربيعة، وهو الشاهد رقم [٣٤٧] من الكتاب المذكور: [البسيط]

كَمْ قَدْ ذَكَرْتُكِ لَوْ أُجْزَى بِذِكْرِكُمُو يَا أَشْبَهَ النَّاسِ كُلِّ النَّاسِ بِالْقَمَرِ

إِنِّي لأجذلُ أَنْ أُمْسِيْ مُقَابِلَهُ حُبّاً لرؤيةِ مَنْ أَشْبَهْتِ فِي الصُّوَرِ

الشاهد فيهما تسكين ياء (رضِي) وياء (أُمْسِي) مع أنَّ الواجب تحريكها بالفتحة. هذا؛ وقرأ الحسن: (ما بَقَى) بالألف، وهي لغة طيِّئ، ومنه قول الشاعر: [الطويل]

لَعَمْرُكَ لَا أَخْشَى التَّصَعْلُكَ مَا بَقَى عَلَى الأَرْضِ قَيْسِيٌّ يَسُوقُ الأَبَاعِرَا

الإعراب: ﴿فَإِن﴾: الفاء: حرف استئناف، وقيل: حرف عطف. (إن): حرف شرط جازم. ﴿لَّمْ﴾: حرف نفي، وقلب، وجزم. ﴿تَفْعَلُواْ﴾: فعل مضارع مجزوم بلم، وعلامة جزمه حذف النون... إلخ وهو في محل جزم فعل الشرط، والواو فاعله، والألف للتفريق، والمفعول محذوف، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها ابتدائية، ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفي.

﴿فَأْذَنُواْ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشَّرط. (ائذنوا): فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية في محل جزم جواب الشرط، والجملة الشرطية مستأنفة لا محلَّ لها. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾: معطوف على ما قبله، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿وَإِن﴾: الواو: حرف عطف. (إن): حرف شرط جازم. ﴿تُبْتُمْ﴾: فعل ماض مبني على السكون في محل جزم فعل الشرط، والتاء فاعله، والجملة الفعلية لا محلَّ لها... إلخ، والمتعلَّق محذوف. ﴿فَلَكُمْ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط، (لكم): جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدَّم. ﴿رُءُوسُ﴾: مبتدأ مؤخر، وهو مضاف، و﴿أَمْوَٰلِكُمْ﴾: مضاف إليه، والكاف في محل جر بالإضافة، والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور، والدسوقي يقول: لا محل لها؛ لأنها لم تحل محل المفرد، والجملة الشرطية معطوفة على ما قبلها. ﴿لَا﴾: نافية، ﴿تَظْلِمُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله، والمفعول محذوف، والجملة الفعلية في محل نصب حال من كاف الخطاب، والرابط: الضمير فقط. ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿تُظْلَمُونَ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون، والواو نائب فاعل، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها.

﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾﴾

الشرح: ﴿وَإِن كَانَ...﴾ إلخ: بعد خضوع أصحاب الدُّيون لأمر الله، وأمر رسوله، حيث رضوا برؤوس أموالهم، وتجاوزوا عن الرِّبا، كما رأيت في الآية السابقة؛ طالبوا المدينين برؤوس أموالهم، وألحُّوا في الطَّلب، فشكا المدِينون الإعسار، وطلبوا الإمهال، والإنظار، فأبوْا، فنزلت الآية الكريمة الَّتي توجب الإنظار إلى اليسار، والسَّعة، وتحثُّ على الصدقة بإسقاط بعض الدُّيون عن المُعسرين، أو بإبرائهم منها، والإسقاط، أو الإبراء سنَّةٌ، وهو أفضل من الإمهال، وهو واجبٌ، وهذا من المستثنيات من قاعدة: «الواجب أفضل من المندوب»، ومنه ابتداء السَّلام سنَّةٌ، وهو أفضل من الردِّ مع كونه واجباً، هذا، وفي الكلام التفات من الغيبة إلى الخطاب، انظر الالتفات في الآية رقم [٢٥٣].

هذا والعُسرة: الضيق المالي، والفقر، والحاجة. والنَّظِرَةُ: الإمهال، والانتظار، ومنه قوله تعالى في الآية رقم [١٠٤]: ﴿وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا﴾، وقال علقمة الفحل: [الطويل]

فَإِنَّكُمَا إِنْ تُنْظِرَانِيَ سَاعَةً ... مِنَ الدَّهْرِ يَنْفَعْنِي لَدَى أُمِّ جُنْدُبِ

وقال عمرو بن كلثوم في معلَّقته رقم [٢٠]: [الوافر]

أَبَا هِنْدٍ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْنَا وَأَنْظِرْنَا نُخَبِّرْكَ الْيَقِينَا

﴿إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾: إلى زمن اليسار، وهو ضدُّ الإعسار، وهو وجدان المال الذي يؤديه في دينه. ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: وأن تصدقوا على المُعْسِر بما عليه من الدَّين، فتتركوا رؤوس أموالكم للمُعسر خيرٌ لكم. ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: أنَّ التصدق خير لكم وأفضل؛ لأنَّ فيه الثناء الجميل في الدُّنيا، والثَّواب الجزيل في العُقبى، وخذ ما يلي:

عن أبي قتادة ـ رضي الله عنه ـ: أنه طلب غريماً له، فتوارى عنه، ثمَّ وجده، فقال: إنِّي معسر، قال: فإنِّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُنْجيَه اللهُ مِنْ كُرَب يَوْمِ الْقِيَامَةِ؛ فَلْيُنَفِّسْ عَنْ مُعْسِرٍ، أَوْ يَضَعْ عَنْهُ**»، أخرجه مسلم.

وعن أبي اليسر ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت من رسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِراً، أَوْ وَضَعَ عَنْهُ؛ أَظَلَّهُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ**» أخرجه مسلم.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**كَانَ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ تَاجرٌ يُدَاينُ النَّاسَ، فَإِنْ رَأَى مُعْسِراً؛ قَالَ لِفِتْيَانِهِ: تَجَاوَزُوا عَنْهُ؛ لَعَلَّ اللهَ أَنْ يَتَجَاوَزَ عَنَّا، فَتَجَاوَزَ اللهُ عَنْهُ**» متَّفق عليه.

الإعراب: ﴿وَإِن﴾: الواو: حرف استئناف. (إن): حرف شرط جازم. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض تام بمعنى: وجد، وحدث، مبني على الفتح في محل جزم فعل الشرط. ﴿ذُو﴾: فاعله مرفوع، وعلامة رفعه الواو نيابة عن الضمة؛ لأنه من الأسماء الخمسة، وهو مضاف، و﴿عُسْرَةٍ﴾: مضاف إليه. هذا؛ وقيل: ﴿كَانَ﴾ ناقصة، وتكلف تقدير خبر لها، ولا داعي لهذا التكلُّف. وقرئ: (كان ذا عسرةٍ) وعليه فهي ناقصة، واسمها محذوف، التقدير: كان المدين ذا عسرة، و(ذا) خبرها منصوب، وعلامة نصبه الألف نيابة عن الفتحة؛ لأنه من الأسماء الخمسة، وعلى كلٍّ فجملة: ﴿كَانَ...﴾ إلخ لا محل لها لأنها ابتدائية، ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفي. هذا؛ ومن ورود «كان» تامة في الشِّعر العربي قول الشاعر: [الطويل]

فِدىً لِبَنِي ذُهْلِ بْنِ شَيْبَانَ نَاقَتِي إِذَا كَانَ يَوْمٌ ذُو كَوَاكِبَ أَشْهَبُ

﴿فَنَظِرَةٌ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (نظرة): خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: فالواجب نظرة، أو مبتدأ خبره محذوف، التقدير: فعليكم نظرة، وعلى الوجهين فالجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور، والدسوقي يقول: لا محلَّ لها؛ لأنها لم تحلَّ محل المفرد، و(إن) ومدخولها كلام مستأنف، أو معطوف على ما قبله لا محلَّ له مثله. ﴿إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة (نظرة)، أو بـ (نظرة). ﴿وَأَن﴾: الواو: واو الحال، (أن): حرف مصدري ونصب. ﴿تَصَدَّقُوا۟﴾: فعل مضارع منصوب بـ (أن) و علامة نصبه حذف النون لأنه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والألف للتفريق، و﴿وَأَن تَصَدَّقُوا۟﴾: في تأويل مصدر في محل رفع مبتدأ. ﴿خَيْرٌ﴾: خبره. ﴿لَّكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ ﴿خَيْرٌ﴾

وتقدير الكلام: صدقاتكم، أو تصدقكم خير لكم، والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها، وإن اعتبرتها في محل نصب حال من تاء الفاعل في الآية السابقة، فلست مفنداً، وهي حال مقدرة، والرابط: الواو والضمير، ويكون ما بينهما كلاماً معترضاً بين الحال وصاحبها. ﴿إِن﴾: حرف شرط جازم. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ماض ناقص مبني على السكون في محل جزم فعل الشرط، والتاء اسمه. ﴿تَعْلَمُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله، والمفعول محذوف للتعميم، التقدير: تعلمون: أنه خير، والجملة الفعلية في محل نصب خبر ﴿كُنتُمْ﴾ والجملة الفعلية لا محل لها لأنها ابتدائية، ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفي، وجواب الشرط محذوف، التقدير: إن كنتم تعلمون: أنه خير؛ فافعلوه، ونحو ذلك، والجملة الشرطية معترضة في آخر الكلام لا محل لها، الغرض منها الحثُّ على الصَّدقة، والتصدُّق.

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾

الشرح: ﴿وَاتَّقُوا﴾: خافوا، واحذروا، وأصله: اتَّوْقِيُوا، فأبدل من الواو تاء، ثمَّ أدغمت التاء في التاء، وسكنت الياء بعد حذف ضمتها، ثم حذفت لالتقاء الساكنين، فصار (اتّقِوْا) ثم قلبت الكسرة ضمة لمناسبة الواو. ﴿يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾: هو يوم القيامة الذي يحاسب الله فيه الناس على أعمالهم. ﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾: تُجزى كلُّ نفس جزاء عملها. ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: بنقص حسنةٍ، أو زيادة سيِّئةٍ، وهذه الجملة تأكيد لما قبلها.

روي عن ابن عبَّاسٍ ـ رضي الله عنهما ـ: أنَّها آخر آية نزل بها جبريل عليه السلام، وقال للرَّسول ﷺ: ضعْها في رأس المئتين والثَّمانين من سورة البقرة، وعاش بعدها أحداً وعشرين يوماً. وقيل: أحداً وثمانين، وقيل: سبعة أيام، ثُمَّ توفي يوم الإثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة الشَّريفة، والآية تتضمَّن الوعيد، والتهديد؛ ليستعدَّ المؤمن ليوم الرَّحيل من هذه الدُّنيا الفانية.

الإعراب: ﴿وَاتَّقُوا﴾: الواو: حرف عطف. (اتقوا): فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿يَوْمًا﴾: مفعول به. ﴿تُرْجَعُونَ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون والواو نائب فاعله. ﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور متعلقان به، والجملة الفعلية في محل نصب صفة ﴿يَوْمًا﴾، والرابط الضمير المجرور محلاً بـ (في). ﴿إِلَى اللَّهِ﴾: متعلقان بـ ﴿تُرْجَعُونَ﴾، وجملة: (اتقوا...) إلخ معطوفة على مثلها في الآية رقم [٢٧٨] لا محل لها مثلها. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿تُوَفَّى﴾: فعل مضارع مبني للمجهول مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف للتعذر. ﴿كُلُّ﴾: نائب فاعله، وهو المفعول الأول، وهو مضاف، و﴿نَفْسٍ﴾ مضاف إليه. ﴿مَا﴾: تحتمل الموصولة، والموصوفة مبنية على السكون في محل نصب مفعول به

ثان. ﴿كَسَبَتْ﴾: فعل ماض، والتاء للتأنيث، والفاعل يعود إلى ﴿نَفْسٍ﴾ والجملة الفعلية صلة ﴿مَّا﴾ أو صفتها، والعائد أو الرابط محذوف، التقدير: الذي، أو: شيئاً كسبته، وإن اعتبرت (ما) مصدرية تؤوَّل مع الفعل بعدها بمصدر في محل نصب مفعول به ثان، التقدير: توفى كلُّ نفسٍ كسبها، والجملة الفعلية معطوفة على جملة: ﴿تُرْجَعُونَ...﴾ إلخ فهي في محل نصب مثلها. ﴿وَهُمْ﴾: الواو: واو الحال. (هم): ضمير منفصل مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يُظْلَمُونَ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول مرفوع . . . إلخ، والواو نائب فاعله، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل نصب حال من ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾، وجمع الضمير لعوده على ﴿كُلُّ﴾، والرابط: الواو والضمير، وإن اعتبرتها مستأنفة؛ فلا محل لها. تأملْ، وتدبر، وربك أعلم، وأجل، وأكرم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾﴾

الشرح: لمَّا ذكر الله تعالى الربا، وبيَّن ما فيه من قبحٍ وشناعةٍ؛ لأنَّه زيادة مقتطعة من عرق المدين، ولحمه، وهو كسبٌ خبيث يمقته الإسلام، ويحرمه؛ أعقبه بذكر القرض الحسن بلا فائدة. وذكر الأحكام الخاصة بالدَّين، والتِّجارة والرَّهن، وكلُّها طريقة شريفةٌ لتنمية المال، وزيادته بما فيه صلاح الفرد، والمجتمع.

وآية الدين أطول آيات القرآن على الإطلاق مما يدلُّ على عناية الإسلام بالنُّظم الاقتصادية، وقد قال ابن جرير الطَّبري عن سعيد بن المسيب: أنه بلغه: أن أحدث القرآن بالعرش آية الدَّين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ﴾: قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لمَّا حرم الله الرِّبا؛ أباح السَّلم، وقال: أشهد أن السَّلف المضمون إلى أجل مسمًّى، قد أحلَّه الله في كتابه، وأذِن فيه. هذا وهي تتناول جميع المداينات إجماعاً، وقال خُوَيز مَنْداد: إنَّها تضمنت ثلاثين حكماً. ﴿بِدَيۡنٍ﴾: تأكيد مثل قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾، وحقيقة الدَّين عبارة عن كل معاملة، كان أحد العوضين فيها نقداً، والآخر في الذِّمَّة نسيئةً، فإن العين عند العرب ما كان حاضراً، والدَّين ما كان غائباً، قال الشاعر: [الوافر]

لِتَرْمِ بِيَ الْمَنَايَا حَيْثُ شَاءَتْ ... إِذَا لَمْ تَرْمِنِي فِي الْحُفْرَتَيْنِ
إِذَا مَا أَوْقَدُوا حَطَباً وَنَاراً ... فَذَاكَ الْمَوْتُ نَقداً غَيْرَ دَيْنِ

﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾أي: معين معلوم، قال ابن المنذر: دلَّ قولُه تعالى على أنَّ السَّلم إلى الأجل المجهول غير جائزٍ، ودلَّت السُّنَّة على مثل معنى كتاب الله، فقد ثبت: أن رسول الله ﷺ قَدِم المدينة، وهم يستلفون في الثِّمار السَّنتين، والثلاث، فقال رسول الله ﷺ: «**مَنْ أَسْلَفَ فِي تَمْرٍ، فَلْيُسْلِفْ فِي كَيْلٍ مَعْلُومٍ، وَوَزْنٍ مَعْلُومٍ، إِلَى أَجَلٍ مَعْلُومٍ**». رواه البخاريُّ، ومسلم، وغيرهما عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ. وجوز المالكية السَّلم إلى الحصاد، والجذاذ؛ لأن ذلك يختصُّ بوقتٍ، وزمنٍ معلوم.

﴿فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾: أمر منه تعالى بالكتابة للتوثقة، والحفظ، فأمر العباد أمر إرشاد لا أمر إيجاب، كما ذهب إليه بعضهم، قال ابن جُريج ـ رحمه الله تعالى ـ: من ادَّان فليكتب، ومن ابتاع، فليشهد؛ فقد روى الإمامان: الحافظ ابن مردويه، والحاكم في مستدركه عن النبي ﷺ، قال: «**ثَلاثَةٌ يَدْعُونَ اللهَ فَلا يُسْتَجَابُ لَهُمْ: رَجُلٌ لَهُ امْرَأَةٌ سَيِّئَةُ الخلقِ فَلَمْ يُطَلِّقْهَا، وَرَجُلٌ دَفَعَ مَالَ يَتيمٍ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ، وَرَجُلٌ أَقْرَضَ رَجُلاً مَالاً، فَلَمْ يُشْهِدْ**» قال الحاكم: صحيح الإسناد على شرط الشيخين، وقال قتادة ـ رحمه الله ـ ذُكِرَ لنا أنَّ أبا سليمان المرعشي، كان رجلاً صحب كعباً، فقال ذات يوم لأصحابه: هل تعلمون مظلوماً دعا ربه فَلَمْ يُستجب له؟ فقالوا: وكيف يكون ذلك؟ قال: رجل باع بيعاً إلى أجلٍ، فلم يُشْهِدْ، ولم يكتب، فلما حلَّ مالُه جحده صاحبه، فدعا ربَّه، فلم يُسْتجب له؛ لأنه قد عصى ربَّه.

﴿وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ أي: بالقسط، والحق، ولا يَجُرْ في كتابته على أحد، ولا يكتب إلا ما اتفقوا عليه من غير زيادة، ولا نقصان، ومن غير تقديم أجلٍ، أو تأخيره. قال الإمام مالك رحمه الله تعالى: لا يكتب الوثائق بين الناس إلا عارف بها، عدل في نفسه مأمون.

﴿وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ﴾: ولا يمتنع كاتب من كتابة وثيقة بين المتداينين. واختلف في وجوب الكتابة على الكاتب، والشهادة على الشاهد، فأحسن ما قيل: إنه فرض

كفاية، وهو قول الشَّعبي، فإن لم يوجد إلا واحدٌ، وجب عليه ذلك، وقيل: هو على النَّدب، والاستحباب، وذلك؛ لأن الله تعالى لمَّا علمه الكتابة، وشرَّفه بها، استُحِبَّ له أن يكتب ليقضي حاجة أخيه المسلم، ويشكر تلك النعمة التي أنعم الله بها عليه، وهو المعتمد، ودليل ذلك: أنه يجوز له أن يتقاضى أجراً على كتابته، ولو كانت واجبةً؛ لا يجوز له أخذ الأجرة عليها.

هذا؛ و﴿يَأْبَ﴾: من الإباء، وهو الامتناع، أو أشدُّه، وإباء الله: قضاؤه ألا يكون الأمر، أو عدم قضائه أن يكون، قال تعالى في سورة (التَّوبة) رقم [٣٢]: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾. ويكون متعدِّياً إن كان بمعنى: كره، ولازماً إن كان بمعنى: امتنع، وهذا الفعل يتضمَّن النفي، والإيجاب؛ لأنه بمعنى: لا يقبل إلا . . . إلخ. هذا؛ وأبى، يأبى من الباب الثالث شاذٌّ؛ لأنه لم يكن عينه أو لامه حرفاً من حروف الحلق، ولم يجئ منه إلا قلى، يقلى، وغسى، يغسَىٰ، وجبى، يجبى، وعسى، يعسى.

﴿وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾ أي: يلقي الذي عليه الحق، ويقرُّ على نفسه بلسانه ليعلم ما عليه من الحقِّ، فيذكر قدره، وجنسه، وصفة الأجل، ونحو ذلك. والإملال، والإملاء: لغتان فصيحتان معناهما واحد، تقول: أمللت، وأمليت. وجاء القرآن باللُّغتين. ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ أي: وليخف ربَّه في إملائه على الكاتب. ﴿وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ أي: ولا ينقص من الحقِّ الذي عليه شيئاً في الإملاء، فيكون جحوداً لبعض حقِّه.

﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا﴾ أي: جاهلاً بالإملاء، وقيل: هو الطفل الصغير. وقال الشافعي رحمه الله تعالى: السفيه: هو المبذر، المُفسد لماله، ودينه. هذا، والسَّفه: سخافة العقل. ومن ركب متن الباطل كان سفيهاً، فكل هذه المعاني يجوز إطلاقها على السَّفه، والسَّفيه. وانظر (سَفِهَ) في الآية رقم [١٣٠]. ﴿أَوْ ضَعِيفًا﴾: صبيّاً، أو شيخاً عاجزاً. هذا؛ والبذيء اللسان يسمى: سفيهاً؛ لأنه لا تكاد تتفق البذاءة إلا في جُهَّال الناس، وأصحاب العقول الخفيفة، والعرب تطلق السَّفه على ضعف العقل تارةً، وعلى ضعف البدن أخرى، قال الشاعر: [السريع]

نَخَافُ أَنْ تَسْفَهَ أَحْلامُنَا ... وَيَجْهَلَ الدَّهْرُ مَعَ الْحَالِمِ

وقال ذو الرُّمَّة: [الطويل]

مَشَيْنَ كَمَا اهْتَزَّتْ رِمَاحٌ تَسَفَّهَتْ ... أَعَالِيَهَا مَرُّ الرِّيَاحِ النَّوَاسِمِ

﴿أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ﴾ أي: لا يقدر على الإملاء لخرسٍ، أو جهلٍ باللغة، أو لِعَيِّه، أو جهله بأداء الكلام، أو غيبة لا يمكنه الحضور عند الكاتب، أو يجهل بما له، أو عليه، فهؤلاء كلُّهم لا يصحُّ إقرارهم وإملاؤهم، فلا بدَّ من أن يقوم غيرهم مقامهم، وهو قوله تعالى: ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ﴾ أي: ولي كلِّ واحدٍ من هؤلاء المحجور عليهم؛ لأنَّه يقوم مقامه في صحة الإقرار،

والإملاء؛ وقال ابن عباس رضي الله عنهما: المراد بالوليِّ صاحب الدين، يعني إن عجز الذي عليه الحق من الإملاء فليملل صاحب الحقِّ؛ لأنه أعلم بحقه. ﴿وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾: الاستشهاد: طلبُ الشهادة، وهي سنَّةٌ على المعتمد، رتب الله سبحانه الشهادة بحكمته في الحقوق المالية، والبدنية، والحدود، وجعل في كلِّ فنٍّ شهيدين إلا في الزنى فإنَّهم أربعة. و(شهيد) بناء مبالغة، وقوله: (رجالكم) نصٌّ في رفض شهادة الكفَّار والصِّبيان، والنِّساء.

والكفار يشهد بعضهم لبعضٍ، وعلى بعض. وأمر الله بالاستشهاد مع الكتابة لزيادة التوثقة. ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ﴾: فشهادة المرأتين تقوم مقام شهادة الرجل الواحد، وهذا إنَّما يكون في الأموال، وما يقصد به المال عند الشافعي، وبما عدا الحدود، والقصاص عند أبي حنيفة، وأما الأمور التي لا يطلع عليها إلا النساء فتكفي شهادة أربع نسوة، وقد بين الله سبحانه السَّبب بجعل شهادة المرأتين مقابل شهادة الرجل الواحد بقوله: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾: فالمرأة يغلب عليها النسيان، حتى لو نسيت إحداهما ذكرتها الأخرى، فتقول: حضرنا مجلس كذا، وسمعنا كذا، فيحصل بذلك الذكرى، وقد جعل ذلك من نقص العقل، كما قال مسلم رحمه الله تعالى عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ: أنه قال: «**يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ! تَصَدَّقْنَ وَأَكْثِرنَ الاسْتِغْفَارَ، فَإِنِّي رَأَيْتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ**». فقالت امرأة منهنَّ جزلةٌ: ومالنا يا رسول الله أكثر أهل النار؟ قال: «**تُكْثِرنَ اللَّعْنَ، وَتَكفُرنَ الْعَشِيرَ، مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ، وَدِينٍ أَغْلَبَ لِذِي لُبٍّ مِنكُنَّ**» قالت: يا رسول الله ما نقصان العقل والدِّين؟ قال: «**أَمَّا نُقْصَانُ الْعَقْلِ فَشَهَادَةُ امْرَأَتَيْنِ تعدلُ شَهَادَةَ رَجُلٍ، فَهَذَا نُقْصَانُ الْعَقْلِ، وَتَمْكُثُ اللَّيَالِيَ لا تُصَلِّي، وتُفْطِرُ فِي رَمَضَانَ، فَهَذَا نُقْصَانُ الدِّينِ**».

وعن أبي سعيد ـ رضي الله عنه ـ، قال: خرج علينا رسول الله ﷺ في أضحى، أو في فطر. فمرَّ على النساء، فقال: «**يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ! تَصَدَّقْنَ، فَإِنِّي أُرِيتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ**» فقلن: وبم يا رسول الله؟ قال: «**تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ، وَتَكفُرْنَ الْعَشِيرَ، مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ ودِينٍ أذهب لِلُبِّ الرجلِ الْحازمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ**» قلن: وما نقصان عقلنا، وديننا يا رسول الله؟ قال: «**أَلَيْسَ شَهَادَةُ الْمَرْأَةِ مِثْلَ نِصْفِ شَهَادَةِ الرَّجُلِ؟**» قلن: بلى! قال: «**فَذَلِكَ مِنْ نُقْصَانِ عَقْلِهَا. أَلَيْسَ إِذَا حَاضَتْ لَمْ تُصَلِّ، وَلَمْ تَصُمْ؟**» قلن: بلى! قال: «**فَذَلِكَ مِنْ نُقْصَانِ دينِها**».

ومن قول علي ـ رضي الله عنه ـ في وصف النِّساء: يتظلَّمن، وهنَّ الظَّالمات، ويتمنَّعنَ وهنَّ الراغبات، لو صنعت مع إحداهنَّ الخير الدَّهر كلَّه، ثم رأت ما يغير خاطرها، تقول: ما رأيت خيراً قطُّ، وهذا تفسير لقول الرسول ﷺ: «**تكفُرْنَ الْعَشِيرَ**».

﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ﴾ أي: لا يمتنع الشهداء عن تحمُّل الشَّهادة إذا دعوا إلى تحمُّلها، وذكرت آنفاً: أن تحمُّل الشهادة فرض كفاية. هذا، وفسر قوله تعالى: ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ

﴿ٱلشُّهَدَآءِ﴾ أي: ممن ترضون دينه، وخلقه، وأمانته، وهو ما يعبر عنه بالعدالة، وهي الاعتدال في الأحوال الدينية، وذلك يتمُّ بأن يكون مجتنباً للكبائر، محافظاً على مروءته، وغير مصرٍّ على الصغائر، ظاهر الأمانة غير مغفل هذا، وإذ قد شرط الله تعالى الرضا، والعدالة في المداينة، فاشتراطها عند الأئمَّة في النِّكاح أولى، خلافاً لأبي حنيفة حيث قال: إنَّ النِّكاح ينعقد بشهادة فاسقين.

﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ﴾ أي: لا تملُّوا أن تكتبوا الحقَّ على أيِّ حال كان من القلَّة، والكثرة إلى أجله، قال الأخفش: يقال: سئمت، أسأمُ، سَأْماً، وَسَآمَةً وسَآماً، وسأمةً وَسَأَماً، قال زهير في معلقته رقم [٥٨]: [الطويل]

سَئِمْتُ تكالِيفَ الْحَيَاةِ، وَمَنْ يَعِشْ ثَمَانِينَ حَوْلاً ـ لَا أَبَا لَكَ ـ يَسْأَمِ

﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾: أعدل. ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ﴾: أصح، وأحفظ. ﴿وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ﴾: وأقرب إلى اليقين وعدم الريبة؛ لأنكم ترجعون عند التنازع إلى الكتاب الذي كتبتموه، فيفصل بينكم. ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً...﴾ إلخ؛ أي: إذا كان البيع الحاضر يداً بيدٍ؛ فلا حاجة إلى الكتابة لانتفاء المحذور، وهو التنازع، ومعنى ﴿تُدِيرُونَهَا﴾: تعاطيها يداً بيد. ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ...﴾ إلخ: فلا بأس ولا مؤاخذة. ﴿وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْۚ﴾: أمر بالإشهاد على التبايع مطلقاً، ناجزاً، أو كالئاً؛ لأنه أبعد من وقوع الاختلاف، وهو أمر ندب بلا شكٍّ، ولم يُحكَ عن أحدٍ ممن قال بالوجوب إلا الضَّحاك. قال: وقد باع النبي ﷺ وكتب، وقد باع ولم يشهد، واشترى، ورهن درعه عند يهودي، ولم يشهد، ولو كان الإشهاد واجباً؛ لوجب مع الرهن لخوف المنازعة.

﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌۚ﴾: يحتمل الفعل البناء للفاعل، والبناء للمفعول، فالمعنى على الأول: لا يُدخل الكاتب، والشاهد الضَّرر على صاحب الحق، والمدين بزيادةٍ أو نقصٍ. وعلى الثاني: لا يدخل الضرر من صاحب الحق والمدين على الكاتب، والشهيد، بأن يُدْعى الشَّاهد إلى الشهادة، والكاتب إلى الكتابة، وهما مشغولان؛ فإن اعتذرا بعذرهما؛ أخرجهما وآذاهما، وقال: خالفتما أمر الله. ونحو هذا من القول الفظ، فيضربهما. هذا؛ وعلى الأول فأصل الفعل: (يُضَارِر) وعلى الثاني، فأصله: (يُضارَر) بفتح الراء الأولى، والأول بكسرها، ومثله قوله تعالى في الآية رقم [٢٣٣]: ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا﴾.

(إن تفعلوا) يعني: المضارَّة ﴿فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْۗ﴾ أي: معصية. فعن سفيان الثوري ـ رحمه الله تعالى ـ قال: فالكاتب، والشاهد يعصيان بالزيادة، والنقصان، وذلك في الكذب المؤذي في الأموال، والأبدان، وفيه إبطال الحق، وكذلك إذايتهما إذا كانا مشغولين معصية، وخروج عن الصَّواب من حيث المخالفة لأمر الله.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ...﴾ إلخ: وعد من الله تعالى بأن من اتقاه علَّمه، أي: يجعل في قلبه نوراً يفهم به ما يُلقى إليه، وقد يجعل الله في قلبه فرقاناً؛ أي: فيصلاً يفصل به بين الحق والباطل، ومنه قوله تعالى في سورة (الأنفال) رقم [٢٩]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا...﴾ إلخ. هذا وكرَّر لفظ الجلالة في الجمل الثلاث؛ لإدخال الرَّوعة في القلوب، وتربية المهابة في النفوس.

فائدة: العلم نوعان: كسبيٌّ، ووهبيٌّ، أما الأول؛ فيكون تحصيله بالاجتهاد، والمثابرة والمذاكرة، وأما الثاني؛ فطريقه: تقوى الله، والعمل الصالح، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾. وهذا العلم يسمَّى العلم اللَّدنِّي، قال تعالى في سورة (الكهف) رقم [٦٦]: ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا﴾، وهو العلم النافع الذي يهبه الله لمن يشاء من عباده المتقين، وإليه أشار الإمام الشَّافعي رحمه الله تعالى بقوله: [الوافر]

شَكَوْتُ إِلَى وَكِيعٍ سُوْءَ حِفْظِي ... فَأَرْشَدَنِي إِلَى تَرْكِ الْمَعَاصِي
وَأَخْبَرَنِي بِأَنَّ الْعِلْمَ نُورٌ ... وَنُورُ اللهِ لَا يُهْدَى لِعَاصِي

تنبيه: الآية الكريمة في بيع السَّلم، أو السَّلف عبارتان في معنىً واحد، وقد جاء في حديث النبي ﷺ، غير أن الاسم الخاص بهذا الباب: السَّلم؛ لأن السَّلف يقال على القرض، والسَّلم بيع من البيوع الجائزة بالاتفاق، مستثنىً من نهي النبي ﷺ عن بيع ما ليس عندك، وأرخص ﷺ فيه؛ لأنه لمَّا كان بيع معلوم في الذمَّة، كان بيع غائب تدعو إليه ضرورة واحد من المتبايعين، فإن صاحب رأس المال محتاجٌ إلى أن يشتري الثَّمرة، وصاحب الثمرة محتاجٌ إلى ثمنها قبل إبَّانها لينفقه عليها، فظهر: أن بيع السلم من المصالح الحاجيَّة، وقد سمَّاه الفقهاء: بيع المحاويج، وللسَّلم شروط متفق عليها، ومختلفٌ فيها، وهي تسعةٌ، ستَّةٌ في المسلم فيه، وثلاثةٌ في رأس مال السَّلم.

أما الستة التي في المسلم فيه؛ فأن يكون في الذمَّة، وأن يكون موصوفاً، وأن يكون مقدَّراً، وأن يكون مؤجَّلاً، وأن يكون الأجل معلوماً، وأن يكون موجوداً عند محل الأجل، وأما الثلاثة التي في رأس مال السلم فأن يكون معلوم الجنس، وأن يكون مقدَّراً، وأن يكون نقداً. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

وهذه الشروط في المذهب المالكي، وخذها في المذهب الشافعي، وهي ما يلي: قال أبو شجاع رحمه الله تعالى: ويصحُّ السَّلم حالاً، ومؤجَّلاً فيما تكامل فيه خمسة شرائط: أن يكون مضبوطاً بالصِّفة، وأن يكون جنساً لم يختلط فيه غيره، ولم تدخله النار لإحالته، وأن لا يكون معيناً، ولا من معين. ثمَّ لصحة المُسلَمِ فيه ثمانيةُ شرائط، وهو أن يصفه بعد ذكر جنسه، ونوعه

بالصفات؛ التي يختلف بها الثَّمن، وأن يذكر قدره بما ينفي الجهالة وإن كان مؤجَّلاً ذكر وقت محله، وأن يكون موجوداً عند الاستحقاق في الغالب عنه، وإن يذكر موضع قبضه، وأن يكون الثمن معلوماً، وأن يتقابضا قبل التفرق، وأن يكون عقد السَّلم ناجزاً، لا يدخله خيار الشرط.

الإعراب: ﴿يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ انظر الآية رقم [٢٧٨] فإعرابها مثله. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، خافض لشرطه، منصوب بجوابه، صالح لغير ذلك، مبني على السكون في محل نصب. ﴿تَدَايَنتُم﴾: فعل وفاعل. ﴿بِدَيْنٍ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ﴾: متعلقان به أيضاً، وقيل: متعلقان بمحذوف صفة (دين)، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة (إذا) إليها على المشهور المرجوح. ﴿مُّسَمًّى﴾: صفة ﴿أَجَلٍ﴾ مجرور مثله، وعلامة جره كسرة مقدرة على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين، والألف الثابتة دليل عليها، وليست عينها، ﴿فَٱكْتُبُوهُ﴾: الفاء: واقعة في جواب ﴿إِذَا﴾، (اكتبوه): فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله. والهاء مفعوله، والجملة الفعلية جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها، و﴿إِذَا﴾ ومدخولها كلام لا محل له؛ لأنه مبتدأ كالجملة الندائية قبله، ﴿وَلْيَكْتُب﴾: فعل مضارع مجزوم بلام الأمر. ﴿بَّيْنَكُمْ﴾: ظرف مكان متعلق بالفعل قبله، والكاف في محل جر بالإضافة. ﴿كَاتِبٌۢ﴾: فاعله. ﴿بِٱلْعَدْلِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، وقيل: متعلقان بـ ﴿كَاتِبٌۢ﴾: أو بمحذوف صفة له، وقيل: الباء زائدة، و(العدل) مفعول به، والأول أولى بالاعتبار، والجملة الفعلية: ﴿وَلْيَكْتُب...﴾ إلخ معطوفة على جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها مثله.

﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): ناهية جازمة. ﴿يَأْبَ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ (لا) وعلامة جزمه حذف حرف العلة من آخره، وهو الألف، والفتحة قبلها دليل عليها. ﴿كَاتِبٌ﴾: فاعله. ﴿أَن يَكْتُبَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ ﴿أَن﴾ والفاعل يعود إلى ﴿كَاتِبٌ﴾، و﴿أَن يَكْتُبَ﴾: في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به، إن كان ﴿يَأْبَ﴾ بمعنى يكره؛ أي: يكره الكتابة، وفي محل نصب بنزع الخافض إن كان بمعنى: يمتنع؛ أي: يمتنع من الكتابة، وجملة: ﴿وَلَا يَأْبَ...﴾ إلخ معطوفة على ما قبلها، لا محل لها أيضاً. ﴿كَمَا﴾ الكاف: حرف تشبيه وجر. (ما): مصدرية. ﴿عَلَّمَهُ﴾: فعل ماض، والهاء مفعول به أول، والمفعول الثاني محذوف. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعل. و(ما) والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بالكاف، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف صفة لمصدر محذوف، واقع مفعولاً مطلقاً، التقدير: أن يكتب كتابة كائنة مثل تعليم الله له، ويجوز اعتبار (ما) اسماً موصولاً مجروراً بالكاف، ويكون التقدير أن يكتب كتابة كائنة مثل الَّتي علمه الله إيَّاها، وهذا ليس مذهب سيبويه، وإنما مذهبه في مثل هذا التركيب أن يكون منصوباً على الحال من المصدر المضمر المفهوم من الفعل المتقدِّم، وإنما أُحْوِج سيبويه إلى هذا؛ لأن حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه لا يجوز إلا في مواضع محصورة، وليس هذا منها.

﴿فَلْيَكْتُبْ﴾: الفاء: حرف عطف. (ليكتب): فعل مضارع مجزوم بلام الأمر، والفاعل يعود إلى ﴿كَاتِبٌ﴾، ومفعوله محذوف، والجملة الفعلية معطوفة على جملة: (ليكتب...) إلخ، وهي مؤكدة لها. ﴿وَلْيُمْلِلِ﴾: فعل مضارع مجزوم بلام الأمر. ﴿ٱلَّذِى﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل رفع فاعله، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها لا محل لها أيضاً. ﴿عَلَيْهِ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم. ﴿ٱلْحَقُّ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية صلة، لا محل لها. هذا؛ ويجوز اعتبار الجار والمجرور متعلقين بمحذوف صلة الموصول، و﴿ٱلْحَقُّ﴾: فاعلاً بالجار والمجرور؛ أي: بمتعلقه، التقدير: ليملل الَّذي استقر عليه الحق. ﴿وَلْيَتَّقِ﴾: فعل مضارع مجزوم بلام الأمر، وعلامة جزمه حذف حرف العلة من آخره، وهو الياء، والكسرة قبلها دليل عليها، والفاعل يعود إلى الَّذين. ﴿ٱللَّهَ﴾: منصوب على التعظيم. ﴿رَبَّهُۥ﴾: بدل منه، أو عطف بيان عليه، والهاء في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها أيضاً. ﴿وَلَا يَبْخَسْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ (لا) الناهية، والفاعل يعود إلى ﴿ٱلَّذِى﴾ أيضاً. (منه): جار ومجرور متعلقان به. ﴿شَيْـًٔا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها أيضاً. هذا؛ ويجوز تعليق الجار والمجرور ﴿مِنْهُ﴾ بمحذوف حال من ﴿شَيْـًٔا﴾ كان صفة له، فلما قدم عليه صار حالاً على القاعدة: «نعت النكرة إذا تقدم عليها صار حالاً».

﴿فَإِن﴾: الفاء: حرف عطف وتفريع. (إن): حرف شرط جازم. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص مبني على الفتح في محل جزم فعل الشرط. ﴿ٱلَّذِى﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل رفع اسم ﴿كَانَ﴾. ﴿عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾: مثل سابقه بلا فارق. ﴿سَفِيهًا﴾: خبر ﴿كَانَ﴾. ﴿أَوْ ضَعِيفًا﴾: معطوف على ما قبله، وجملة: ﴿كَانَ...﴾ إلخ لا محل لها؛ لأنها ابتدائية، ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفي. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَسْتَطِيعُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى الذي، والجملة الفعلية معطوفة على ﴿سَفِيهًا﴾، التقدير: أو كان غير مستطيع. ﴿أَن يُمِلَّ﴾: فعل مضارع منصوب بـ ﴿أَن﴾ والفاعل يعود إلى الذي. ﴿هُوَ﴾: ضمير منفصل مبني على الفتح في محل رفع توكيد للفاعل المستتر، والمصدر المؤول في محل نصب مفعول به. ﴿فَلْيُمْلِلْ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (ليملل): فعل مضارع مجزوم بلام الأمر. ﴿وَلِيُّهُۥ﴾: فاعله، والهاء في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل، أو إضافة الصفة المشبهة للمفعول، والفاعل مستتر تقديره: هو. ﴿بِٱلْعَدْلِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، وجوز اعتبار الباء زائدة، فيكون العدل مفعولاً به مجروراً لفظاً، منصوباً محلاً، والجملة الفعلية في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور، والدسوقي يقول: لا محل لها؛ لأنها لم تحلَّ محلَّ المفرد، والجملة الشرطية مفرعة، ومعطوفة على ما قبلها لا محلَّ لها أيضاً.

﴿وَٱسْتَشْهِدُواْ﴾: الواو: حرف عطف. (استشهدوا): فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿شَهِيدَيْنِ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه الياء نيابة عن الفتحة لأنه مثنى، والنون عوض عن التنوين في الاسم المفرد. ﴿مِن رِّجَالِكُمْ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، وجوز تعليقهما بمحذوف صفة ﴿شَهِيدَيْنِ﴾، والأولى تعليقهما بـ﴿شَهِيدَيْنِ﴾؛ لأنه مبالغة اسم فاعل، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محلَّ لها أيضاً. ﴿فَإِن﴾: الفاء: حرف عطف وتفريع. (إنْ): حرف شرط جازم. ﴿لَّمْ﴾: حرف نفي، وقلب، وجزم. ﴿يَكُونَا﴾: فعل مضارع ناقص مجزوم بـ ﴿لَّمْ﴾، وهو في محل جزم فعل الشرط، وعلامة جزمه حذف النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، وألف الاثنين اسمه. ﴿رَجُلَيْنِ﴾: خبره منصوب... إلخ، والجملة الفعلية لا محل لها مثل ما تقدَّم. ﴿فَرَجُلٌ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (رجل): مبتدأ. ﴿وَٱمْرَأَتَانِ﴾: معطوف عليه مرفوع مثله، وعلامة رفعه الألف نيابة عن الضمة؛ لأنه مثنى، والنون عوض عن التنوين في الاسم المفرد. ﴿مِمَّن﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة (رجل وامرأتان) أي: كائنون مِنْ، والجملة الفعلية صلة الموصول لا محل لها، والعائد محذوف، التقدير: مِنَ الذين ترضونهم. ﴿مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، أو هما متعلقان بمحذوف حال من الضمير المحذوف الواقع مفعولاً به. هذا؛ وخبر المبتدأ محذوف؛ إذ التقدير: يشهدون. هذا؛ وجوز اعتبار (رجل وامرأتان) خبراً لمبتدأ محذوف، التقدير: فالمستشهد رجلٌ ... إلخ، وعلى الوجهين فالجملة اسمية، وهي في محل جزم جواب الشرط... إلخ، وعليه فالجملة الجوابية فعلية. تأمَّل. و(إن) ومدخولها كلام معطوف ومفرع عما قبله، لا محل لها من الإعراب. ﴿تَضِلَّ﴾: فعل مضارع منصوب بـ ﴿أَن﴾، والمصدر المؤول منهما في محل جر بحرف جر محذوف، التقدير: بضلال، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: وتعدُّد النساء لأجل ضلال إحداهما، وهذا كلام محمول على المعنى، التقدير: وتعدُّد النساء لأن تذكر إحداهما الأخرى إذا ضلَّت. أو لضلالها. انتهى عكبري بتصرف كبير. أقول: ولا مانع من اعتبار تعدُّد المقدَّر فعلاً ماضياً، والنِّساء المقدَّر أيضاً فاعلاً به، والجار والمجرور «لضلال» متعلقين بالفعل الماضي، فتكون الجملة فعلية. هذا؛ وقال مكي: الجار والمجرور متعلقان بالفعل «يشهدون» المقدَّر خبراً، واعتبر اللام المقدرة للعاقبة مثل قوله عبد الله بن الزِّبَعْرىٰ: وهو الشاهد رقم [٣٨٨] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»: [المتقارب]

فَإِنْ يَكُنِ الْمَوْتُ أَفْنَاهُمُ ... فَلِلْمَوْتِ مَا تَلِدُ الْوَالِدَهْ

وأرى أن لا وجه له. ﴿إِحْدَىٰهُمَا﴾: فاعل ﴿تَضِلَّ﴾ مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف للتعذر، والهاء في محل جر بالإضافة، والميم والألف حرفان دالان على التثنية.

﴿فَتُذَكِّرَ﴾: معطوف على ﴿تَضِلَّ﴾ منصوب مثله. ﴿إِحْدَىٰهُمَا﴾: فاعله. ﴿ٱلْأُخْرَىٰ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على الألف للتعذر. هذا؛ وقرئ: (إنْ) بكسر الهمزة على أنها حرف شرط جازم، ويكون ﴿تَضِلَّ﴾ فعل الشرط مجزوماً، وحرك بالفتحة على قاعدة المضعَّف، كما يقرأ (تذكرُ) بالرفع على أن الجملة الفعلية في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: فهي تذكر، والجملة الاسمية هذه في محل جزم جواب الشرط، على حد قوله تعالى في سورة (المائدة) رقم [٩٥]: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ﴾، والجملة الشرطية: ﴿أَن تَضِلَّ...﴾ إلخ فيها معنى التعليل. وقال القرطبيُّ، ومكيُّ: في محل رفع صفة (امرأتان). هذا؛ وأقول: إن معنى القراءتين يختلف فالفتح على معنى التعليل، والكسر على معنى: إنْ وقع ضلالٌ فالضلال منتظر. ومثل ذلك قول الفرزدق، وهو الشاهد رقم [٢٩] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» حيث يروى بفتح الهمزة وكسرها، وخذه: [الطويل]

أَتَغْضَبُ إِنْ أُذْنَا قُتَيْبَةَ حُزَّتَا جِهَاراً، وَلَمْ تَغْضَبْ بِقَتْلِ ابْنِ حَازِمِ؟

﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ﴾: انظر مثله فيما تقدَّم، والجملة الفعلية معطوفة على ما تقدَّم. ﴿إِذَا﴾: انظر إعرابها في أول الآية. ﴿مَا﴾: صلة. ﴿دُعُوا۟﴾: فعل ماض مبني للمجهول مبني على الضم، والواو نائب فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها، على المشهور المرجوح، وجواب ﴿إِذَا﴾ محذوف لدلالة ما قبله عليه، التقدير: إذا ما دعوا للشهادة فلا يأبوا تحملها. هذا؛ وإن اعتبرت ﴿إِذَا﴾ مجردة من الشرطية فتكون ظرفاً متعلقاً بالفعل قبلها، ولا تحتاج إلى جواب.

﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟﴾: فعل مضارع مجزوم بـ (لا) الناهية، وعلامة جزمه حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها. ﴿أَن تَكْتُبُوهُ﴾: فعل مضارع منصوب بـ ﴿أَن﴾ وعلامة نصبه حذف النون، والواو فاعله، والهاء مفعوله، والمصدر المؤول في محل نصب مفعول به. ﴿صَغِيرًا﴾: حال من الضمير المنصوب، وقيل: خبر لـ «**كان**» محذوفة، وليس بشيء. ﴿كَبِيرًا﴾: معطوف عليه. ﴿إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ﴾ متعلقان بمحذوف حال من الضمير المنصوب، أي: مستقرّاً في ذمّة المدين إلى وقت حلوله، وقيل: متعلقان بالفعل قبلهما، ولا وجه له لعدم استمرار الكتابة إلى أجله؛ إذ تنتهي في زمنٍ يسير، قاله أبو حيان، وهو في مغني اللَّبيب، والهاء في محل جر بالإضافة.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾: اسم إشارة مبني على السكون في محل رفع مبتدأ، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب لا محل له. ﴿أَقْسَطُ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها. ﴿عِندَ﴾: ظرف مكان متعلق بـ ﴿أَقْسَطُ﴾، و﴿عِندَ﴾ مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾: مضاف إليه. ﴿وَأَقْوَمُ﴾ معطوف على ما قبله. ﴿لِلشَّهَٰدَةِ﴾: متعلقان بـ (أقوم)، وفيه وفي سابقه ضمير مستتر هو فاعل لهما.

﴿وَأَدْنَىٰٓ﴾: معطوف على (أقوم) مرفوع مثله، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف للتعذُّر. ﴿أَلَّا﴾: (أن) حرف ناصب. (لا): نافية. ﴿تَرْتَابُوٓاْ﴾: فعل مضارع منصوب بـ (أن)، وعلامة نصبه حذف النون. . . إلخ، والواو فاعله، والألف للتفريق، والمصدر المؤول في محل جر بحرف جر محذوف، التقدير: أدنى في عدم الرَّيب والشَّكِّ. ﴿إِلَّآ﴾: حرف حصر. ﴿أَن تَكُونَ﴾: فعل مضارع ناقص منصوب بـ﴿أَن﴾، واسمه محذوف لعلمه من المقام؛ إذ التقدير: إلا أن تكون المعاملة تجارةً حاضرة.

وقال الزمخشري رحمه الله تعالى: التقدير: إلا أن تكون التجارة تجارةً حاضرةً كبيت الكتاب: [الطويل]

بَنِي أَسَدٍ هَلْ تَعْلَمُونَ بَلاءَنَا؟ إذا كَانَ يَوْمَاً ذَا كَوَاكِبَ أَشْفَعَا

أي: إذا كان اليوم يوماً. هذا؛ ويقرأ برفع (تجارة) على أنَّ ﴿تَكُونَ﴾ تام بمعنى تحصل، أو تقع، و(تجارة) فاعله، و(حاضرة) صفة تجارة، والمصدر من (أن تكون) في محل نصب على الاستثناء من الجنس؛ لأنه أمر بالكتابة في كل معاملة، واستثنى منها التجارة الحاضرة، والتقدير: إلا في حال حضور التجارة، وقال مكيٌّ ـ رحمه الله تعالى ـ: المصدر المؤول في موضع نصب على الاستثناء المنقطع، والأول أصوب. ﴿تُدِيرُونَهَا﴾: فعل مضارع، وفاعله ومفعوله، والجملة الفعلية في محل نصب، أو في محل رفع صفة ثانية لـ﴿تِجَٰرَةً﴾ ويجوز أن تكون في محل نصب حال منها بعد وصفها بما تقدَّم. هذا؛ وقيل: الجملة في محل نصب خبر ﴿تَكُونَ﴾ على رفع (تجارةٌ) واعتبار الفعل ناقصاً. ﴿بَيْنَكُمْ﴾: ظرف مكان متعلق بالفعل قبله، والكاف في محل جر بالإضافة. ﴿فَلَيْسَ﴾: الفاء: حرف عطف. (ليس): فعل ماض ناقص. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر (ليس) مقدم. ﴿جُنَاحٌ﴾: اسمها مؤخر. ﴿أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾: إعرابه مثل: ﴿أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ﴾ والمصدر المؤول في محل جر بحرف جر محذوف، التقدير: في عدم الكتابة، والجار والمجرور متعلقان بـ﴿جُنَاحٌ﴾ أو بمحذوف صفة له. وجملة: ﴿فَلَيْسَ...﴾ إلخ معطوفة على الجملة من قوله: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً...﴾ إلخ، والسببية فيها واضحة، أفاده سليمان الجمل، أي: تسبب عن ذلك رفع الجناح في عدم الكتابة. ﴿وَأَشْهِدُوٓاْ﴾: فعل أمر، وفاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها. ﴿إِذَا﴾: انظر مثلها في أول الآية ﴿تَبَايَعْتُمْ﴾: فعل، وفاعل، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها، والجواب محذوف لدلالة ما قبله عليه، التقدير: إذا تبايعتم؛ فأشهدوا، ويجوز أن تكون ظرفاً مجرداً عن الشرطية، فلا تحتاج إلى جواب، ويكون المعنى: افعلوا الشهادة وقت التبايع. ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): ناهية جازمة. ﴿يُضَآرَّ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ (لا) وحركت الراء بالفتحة للخفَّة. ﴿كَاتِبٌ﴾: فاعله، والمفعول محذوف، التقدير: لا يضار كاتبٌ أحَدَ المتداينين، وهذا على اعتبار الفعل مبنيّاً

للمعلوم، وعلى اعتباره مبنياً للمجهول، ف ﴿كَاتِبٌ﴾: نائب فاعله، وعلى فك الفعل فالجزم ظاهر، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها. ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): معطوفة على ما قبلها. ﴿شَهِيدٌ﴾: معطوف على ﴿كَاتِبٌ﴾. ﴿وَإِن﴾: الواو: حرف عطف. (إن): حرف شرط جازم. ﴿تَفْعَلُوا﴾: فعل مضارع فعل الشرط مجزوم، وعلامة جزمه حذف النون، والواو فاعله، والمفعول محذوف، التقدير: المضارة، والجملة الفعلية لا محل لها... إلخ. ﴿فَإِنَّهُ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (إنه): حرف مشبه بالفعل، والهاء اسمه. ﴿فُسُوقٌ﴾: خبر (إنَّ). ﴿بِكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ (فسوق)، والجملة الاسمية: ﴿فَإِنَّهُ فُسُوقٌ﴾ في محل جزم جواب الشرط، و(إنَّ) ومدخولها كلام معطوف على ما قبله. ﴿وَاتَّقُوا﴾: فعل أمر وفاعله. (الله) منصوب على التعظيم، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها. ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى الله والكاف مفعول به، والجملة الفعلية في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: وهو يعلمكم الله، والجملة الاسمية في محل نصب حال من لفظ الجلالة. هذا ورُجِّح الاستئناف على الحالية. ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾: هذه الجملة معطوفة على ما قبلها، وإعرابها واضحٌ إن شاء الله تعالى.

﴿۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ ءَاثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾

الشرح: لما ذكر الله تعالى النَّدب إلى الإشهاد، والكَتْبِ لمصلحة حفظ الأموال والأديان؛ عقَّب ذلك بذكر حال الأعذار المانعة من الكَتْبِ، وجعل لها الرَّهن، ونصَّ من أحوال العذر على السَّفر الذي هو غالب الأعذار، لا سيَّما في ذلك الوقت لكثرة الغزو. ويدخل في ذلك بالمعنى كلُّ عذرٍ، فربَّ وقتٍ يتعذَّر فيه الكاتب في الحَضَرِ، كأوقات أشغال الناس، وباللَّيل، وأيضاً فالخوف على خراب ذمَّةِ الغريم عذرٌ، يوجب طلب الرهن، ولا سيما في هذا الزمن. وقد رهن النَّبيُّ ﷺ درعه عند يهوديٍّ طلب منه سلف الشَّعير، فقال: إنما يريد محمد أن يذهب بمالي، فقال ﷺ: «**كَذَبَ إنِّي لأَمِينٌ فِي الأرضِ، أَمِينٌ فِي السَّمَاءِ، وَلَوِ ائْتَمَنَنِي لأَدَّيْتُ، اذْهَبُوا إِلَيْهِ بِدِرْعِي**» فمات، ودرعه ﷺ مرهونةٌ عند اليهوديِّ بثلاثين صاعاً من شعيرٍ لأهله. أخرجه النَّسائيُّ من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، وفي الصحيحين عن عائشة، وأنس ما يشبه ذلك، واسم اليهودي: أبو الشَّحم.

هذا وفي النَّفس مِنْ هذا الرَّهن شيءٌ، ما الذي ألجأ الرَّسول ﷺ إلى ذلك، والمسلمون فدوه بأرواحهم، وأموالهم، وعند وفاته ﷺ كان بعض المسلمين أثرياء، كعثمان وعبد الرحمن بن

عوف، وكثير من الأنصار كانوا على جانبٍ عظيم من الثَّراء. فكيف رضي المسلمون بهذا الرَّهن، ولا سيَّما بعد أن تفوه اليهوديُّ بما تفوَّه به، لا أجد تفسيراً لذلك؛ إلا أن النبي ﷺ أراد أن يضرب مثلاً لِحلِّ معاملة أهل الكتاب بالبيع، والشِّراء، والرَّهن، وغير ذلك من أنواع المعاملات. والله أعلم.

هذا؛ والرهن: احتباس العين وثيقةً بالحقِّ، ليُستوفى الحقُّ من ثمنها، أو من ثمن منافعها عند تعذُّر أخذه من الغريم. وهو في اللُّغة بمعنى الدَّوام، والثبوت، والاستمرار.

هذا؛ وبما أن الرَّهن وثيقةٌ لوفاء الدَّين، لا يجوز للمرتهن الانتفاع بالمرهون، فقد أخرج الدَّارقطني عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يَغْلَقُ الرَّهْنُ، وَلِصَاحِبِهِ غُنْمُهُ وعَلَيْهِ غُرْمُهُ**»، المعنى: لصاحبه منفعته، وعليه نفقته، ومصروفه. قال ابن عبد البر: وقد أجمعوا: أنَّ لبن الرهن، وظهره للرَّاهن. هذا وَغَلِق الرَّهن في يد مرتهنه: إذا لم يُفْتَكَّ. قال الشاعر: [الطويل]

أَجَارَتَنَا مَنْ يَجْتَمِع يَتَفَرَّقِ ... وَمَنْ يَكُ رَهْنَاً لِلْحَوادِثِ يُغْلَقِ

وقال زهير بن أبي سلمى: [البسيط]

وَفَارَقَتْكَ بِرَهْنٍ لافِكَاكَ لَهُ ... يَوْمَ الْوَدَاعِ فَأَمْسَى الرَّهْنُ قَدْ غَلِقَا

﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي: فإن كان الَّذي عليه الحقُّ أميناً عند صاحب الحقِّ، ولم يرتهن منه شيئاً لحسن ظنه به. ﴿فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ﴾ المعنى: فليؤد المدين الّذي عليه الحقُّ، والذي كان أيضاً في ظنِّ الدَّائن، الذي هو صاحب الحقِّ أميناً، ﴿أَمَٰنَتَهُۥ﴾ أي: حقَّه، وسمى الدَّين: أمانة ـ وإن كان مضموناً ـ لائتمانه عليه؛ حيث أَمِنَ مِنْ جحوده، فلم يكتب، ولم يُشهد عليه، ولم يأخذ منه رهناً، وهذا حثٌّ للمدين على أن يكون عند حسن ظنِّ الدائن الذي ائتمنه، وأن يؤدي إليه حقَّه، الذي ائتمنه عليه.

﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ أي: المدين في أداء الحقِّ عند حلول الأجل من غير مماطلة، ولا جحود، بل يعامله معاملة حسنةً، كما أحسن ظنَّه فيه، وخذ ما يلي:

فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ، يُرِيدُ أَدَاءَهَا؛ أَدَّى اللهُ عَنْهُ، وَمَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يُرِيدُ إِتْلافَهَا؛ أَتْلَفَهُ اللهُ**». رواه البخاريُّ، وغيره.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ رسول الله ﷺ ذكر رجلاً من بني إسرائيل سأَلَ بعضَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَن يُسْلِفَهُ أَلفَ دِينَارٍ، فقال: ائتني بالشُّهداءِ أُشْهِدهُمْ، فقالَ: كفَى باللهِ شَهيداً!.

قالَ: فَائْتِني بالكفيلِ، قَالَ: كَفَى بِاللهِ وَكِيلاً! قَالَ: صَدَقْتَ، فدفعَها إِليهِ إِلَى أَجلٍ مسمَّىً، فخرَجَ فِي البحْرِ، فقضى حَاجَتَهُ، ثم التَمَسَ مَرْكَباً يَرْكَبُهُ يَقْدَمُ عَلَيْهِ لِلأجلِ الذِي أَجَّلهُ، فَلَمْ يجدْ

مركباً، فَأَخذَ خشبَةً، فنقرها، فأدخلَ فِيها ألفَ دِينارٍ، وَصَحِيفةً مِنْهُ إِلَى صَاحِبِهَا، ثُمَّ زجَّجَ موضَعها، ثمَّ أتى بِهَا البحرَ، فقالَ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي تسلفْتُ فلاناً أَلْفَ دِينارٍ، فَسَأَلَنِي كَفِيلاً، فَقُلْتُ: كَفَى باللهِ كَفِيلاً! فرضيَ بكَ، وَسَأَلَنِي شَهِيداً، فقلْتُ: كَفَى باللهِ شَهيداً! فرضِيَ بِكَ، وإِنِّي جَهَدْتُ أَن أَجِدَ مَرْكَباً أَبْعَثُ إِلَيْهِ الذِي لَهُ، فَلَمْ أَقْدِرْ، وَإِنِّي أستودعكها! فرمى بها في البحرِ؛ حتَّى وَلَجَتْ فِيهِ، ثمَّ انصرفَ، وَهُوَ فِي ذَلِكَ يَلْتَمِسُ مركباً يَخْرجُ إِلى بَلدِهِ، فخرجَ الذِي كانَ أَسْلَفَهُ ينظر لعلَّ مَرْكَباً قَدْ جَاءَ بمالِهِ، فَإِذَا الخشَبَةُ الَّتِي فِيهَا الْمَالُ، فَأَخَذَها حَطباً لأَهْلِهِ، فلمَّا نَشَرَهَا وجَدَ الْمَالَ والصَّحِيفةَ، ثُمَّ قَدِمَ الذِي كَانَ أَسْلَفَهُ، وَأَتَى بِالأَلْفِ دينارٍ، فَقَالَ: واللهِ ما زلتُ جاهِداً في طَلَب مركبٍ لآتيكَ بِمَالِكَ، فَمَا وَجَدْتُ مَركَباً قَبْلَ الذي جئْتُ فِيهِ، قال: هَلْ كُنْتَ بعثتَ إِليَّ بشيء؟ قالَ: أُخبركَ أَنِّي لَمْ أَجِدْ مركباً قبلَ الذِي جِئْتُ فِيه! قالَ: فَإِنَّ اللهَ قَدْ أَدَّى عنكَ الذِي بعثْتَهُ فِي الخشَبَةِ، فَانْصَرِفْ بالأَلْف الدينارِ راشداً»، رواه البخاريُّ معلقاً مجزوماً، والنَّسائي، وغيره مسنداً.

﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ﴾ أي: إذا دعيتم إلى إقامتها، وأدائها، وذلك لأنَّ الشاهد متى امتنع من إقامة الشَّهادة، وكتمها؛ فقد أبطل بذلك حقَّ صاحب الحقِّ، فلهذا نهى عن كتمان الشهادة! وبالغ في الوعيد عليه، فقال تعالى: ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ أي: فاجر قلبه، وإنما أضيف الإثم إلى القلب؛ لأن الأفعال من الدَّواعي، والصَّوارف إنما تحدث في القلب، فلمَّا كان الأمر كذلك؛ أضيف الإثم إلى القلب، قيل: ما أوعد الله على شيء كإيعاده على كتمان الشَّهادة، فإنَّه تعالى، قال: ﴿فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ وأراد به مسخ القلب، نعوذ بالله من ذلك! انتهى. خازن.

وقال النسفي ـ رحمه الله تعالى ـ: وإنَّما أسند إلى القلب، والجملة هي الآثمة لا القلب وحدَه؛ لأنَّ كتمان الشهادة إنَّما يضمرها في القلب، ولا يتكلَّم بها، فلمَّا كان إثماً مقترفاً مكتسباً بالقلب؛ أُسنِدَ إليه؛ لأن إسناد الفعل إلى الجارحة التي يُعمل بها أبلغ، كَمَا تقول: هذا مما أبصرته عيني، وممَّا سمعته أذني، وممَّا عرفه قلبي، ولأن القلب رئيس الأعضاء، والمُضغة التي إنْ صلحت؛ صلَح الجسدُ كلُّه، وإن فسدت؛ فسد الجسد كلُّه، فكأنه قيل: فقد تمكَّن الإثم في أصل نفسه، وملك أشرف مكان منه، ولأنَّ أفعال القلوب أعظم من أفعال سائر الجوارح، ألا ترى أنَّ أصل الحسنات والسَّيئات، الإيمان، والكفر، وهما من أفعال القلوب؟! وإذا جعل كتمان الشهادة من آثام القلوب؛ فقد شهد له بأنه من معاظم الذنوب، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: أكبر الكبائر: الإشراك بالله، وشهادة الزُّور، وكتمان الشَّهادة، وهو مأخوذ من قول الرسول ﷺ وهو ما يلي:

فعن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**مَنْ كَتَمَ شَهَادَةً إِذَا دُعِيَ إِلَيْهَا، كَانَ كَمَنْ شَهِدَ بالزُّورِ**» رواه البخاريُّ.

وعن أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ، قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: «**أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟ (ثلاثاً): الإشراكُ باللهِ، وعقوقُ الوالدينِ، وشهادةُ الزُّورِ، أَلَا وشَهَادَةُ الزُّورِ، وَقولُ الزورِ، وَكَانَ مُتكِئاً فَجَلَسَ، فَمَا زَالَ يُكرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ!**» رواه البخاريُّ، ومسلم، والترمذيُّ.

هذا وقال تعالى حكاية عن قول الشَّاهدين العدلين: ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَـٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْأَثِمِينَ﴾ رقم [١٠٦] من سورة (المائدة). هذا؛ ولا تنس: أنَّ الله تعالى قد قرن شهادة الزور بعبادة الأوثان، والأصنام، قال جلَّ ذكره في سورة الحج رقم [٣٠]: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾. ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾: فيه تهديدٌ، ووعيدٌ للذين لا يقومون بأداء الشَّهادة على وجهها.

الإعراب: (إن): حرف شرط جازم. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ماض ناقص مبني على السكون في محل جزم فعل الشرط، والتاء اسمه. ﴿عَلَىٰ سَفَرٍ﴾: متعلقان بمحذوف خبر (كان)، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها ابتدائية، ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفي. (لم): حرف نفي، وقلب، وجزم. ﴿تَجِدُوا۟﴾: فعل مضارع مجزوم بـ (لم) وعلامة جزمه حذف النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿كَاتِبًا﴾: مفعول به، وفي الجملة الفعلية ثلاثة أوجه: أحدها: أنها معطوفة على جملة فعل الشرط، الثاني: أنها عطف على خبر (كان)، الثالث: أنها في محل نصب حال من الضمير المستتر في الخبر المحذوف، وأضعفها أولها، وأقواها ثانيها. ﴿فَرِهَـٰنٌ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (رهان): خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: فالوثيقة رهان، أو هو مبتدأ، والخبر محذوف، التقدير: فرهان مقبوضة تستوثقون بها، وعلى الوجهين فالجملة اسمية، وهي في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور، والدسوقي يقول: لا محلَّ لها؛ لأنَّها لم تحلَّ محلَّ المفرد. و(إن) ومدخولها كلامٌ معطوف على ما في الآية السابقة. (إن): حرف شرط جازم. ﴿أَمِنَ﴾: فعل ماض مبني على الفتح في محل جزم فعل الشرط. ﴿بَعْضُكُم﴾: فاعله، والكاف في محل جر بالإضافة. ﴿بَعْضًا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية لا محلَّ لها. . . إلخ، ﴿فَلْيُؤَدِّ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (ليؤد): فعل مضارع مجزوم بلام الأمر، وعلامة جزمه حذف حرف العلَّة من آخره، وهو الياء، والكسرة قبلها دليلٌ عليها. ﴿ٱلَّذِى﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل رفع فاعله. ﴿ٱؤْتُمِنَ﴾: فعل ماض مبني للمجهول، ونائب الفاعل يعود إلى ﴿ٱلَّذِى﴾ وهو العائد، والجملة الفعلية صلته، لا محل لها. ﴿أَمَـٰنَتَهُۥ﴾: مفعول به، والهاء في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية: (ليؤد. . .) إلخ في محل جزم جواب الشرط. . . إلخ، و(إن) ومدخولها معطوف على ما قبله، أو هو مستأنف، لا محل له على الاعتبارين، وجملة: ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ معطوفة على ما قبلها، وإعرابها مثلها بلا فارق. ﴿رَبَّهُۥ﴾: بدل مطابق من لفظ الجلالة، أو عطف بيان عليه، والهاء في محل جر بالإضافة مِنْ إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه.

﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): ناهية جازمة. ﴿تَكۡتُمُواْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ (لا) وعلامة جزمه حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿ٱلشَّهَٰدَةَۚ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، ﴿وَمَن﴾: الواو: حرف استئناف. (من): اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿يَكۡتُمۡهَا﴾: فعل مضارع فعل الشرط، والفاعل يعود إلى (مَنْ)، والهاء مفعول به. ﴿فَإِنَّهُۥٓ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (إنه): حرف مشبه بالفعل، والهاء اسمه. ﴿ءَاثِمٞ﴾: خبر (إنَّ). ﴿قَلۡبُهُۥۗ﴾: فاعل بـ ﴿ءَاثِمٞ﴾ والهاء في محل جر بالإضافة، وجوز اعتبار ﴿ءَاثِمٞ﴾ خبراً مقدماً، و﴿قَلۡبُهُۥۗ﴾: مبتدأً مؤخراً، والجملة الاسمية في محل رفع خبر (إنَّ). هذا؛ وجوز اعتبار ﴿ءَاثِمٞ﴾ مبتدأ، و﴿قَلۡبُهُۥۗ﴾ فاعلاً ساداً مسد خبره، ويحصل جملةٌ في محل رفع خبر (إنَّ)، كما جوز اعتبار ﴿قَلۡبُهُۥۗ﴾ بدلاً من ﴿ءَاثِمٞ﴾، بدل البعض من الكل، أو بدلاً من الضمير المستتر في ﴿ءَاثِمٞ﴾، وهذان ضعيفان. هذا؛ وقرئ بنصب: (قلبَه) على أنَّه مفعول بـ ﴿ءَاثِمٞ﴾ وقال ابن هشام في المغني: والصَّواب: أنه مشبه بالمفعول به لحسن وجهه أو بدل من اسم (إنَّ) وعلى جميع الوجوه فجملة: (إنه...) إلخ في محل جزم جواب الشرط، وخبر المبتدأ الذي هو (من) مختلف فيه، فقيل: جملة الشرط، وقيل: جملة الجواب، وقيل: الجملتان، وهو المرجَّح عند المعاصرين، والجملة الاسمية: ﴿وَمَن...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها، و﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾: انظر إعراب مثلها في الآية رقم [٢٧١].

خاتمة: قال القرطبيُّ رحمه الله تعالى: لمَّا أمر الله تعالى بالكَتْبِ والإشهاد، وأخذ الرِّهان؛ كان ذلك نصّاً قاطعاً على مراعاة حفظ الأموال، وتنميتها، وردّاً على الجهلة المتصوفة، ورِعاعها الَّذين لا يرون ذلك، فيخرجون عن جميع أموالهم، ولا يتركون كفاية لأنفسهم، وعيالهم، ثمَّ إذا احتاج، وافتقر عيالُه؛ فهو إما أن يتعرَّض لمنن الإخوان، أو لصدقاتهم، أو أن يأخذ من أرباب الدُّنيا، وظَلَمتهم، وهذا الفعل مذمومٌ منهيٌّ عنه، قال أبو الفرج الجوزي: ولست أعجب من المتزهدين الَّذين فعلوا هذا مع قلَّة علمهم، إنما أتعجب من أقوام لهم علمٌ، وعقل: كيف حثُّوا على هذا، وأمروا به مع مضادَّته للشَّرع، والعقل، وممَّا يدل على حفظ الأموال ومراعاتها إباحة القتال دونها وعليها، قال ﷺ: «**مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ... إلخ**» الحديث بطوله أخرجه أبو داود، وغيره عن سعيد بن زيد ـ رضي الله عنه ـ.

أقول: وليت متصوفة هذه الأيام يفعلون ما فعل أولئك، ولكنَّهم بالعكس؛ انكبُّوا على الدنيا، وأخذوا يسلبون، وينهبون، ويَجْرُون في ركاب الظَّالمين. ويتكلَّمون باسم الدِّين الحنيف، يحسِّنون القبيح، ويقبِّحون الحسن. واتخذوا اللِّحى، والعمائم مصيدةً للدُّنيا، إلا مَنْ رحم ربُّك، وحفظه وتولاه، ولا حول، ولا قوة إلا بالله!.

﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٢٨٤﴾

الشرح: ﴿لِلَّهِ مَا فِي...﴾ إلخ؛ أي: كلُّ ما فيهما مُلْكٌ لله تعالى خلقاً، وعبيداً، وفي ﴿مَا﴾ تغليب غير العاقل على العاقل؛ لأنَّهم أكثر، وقال الجمل: في هذه الآية استدلال على قوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾، فاستدلَّ بسعة ملكه على سعة علمه. ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾: تظهروا ما في أنفسكم من السُّوء، والعزم عليه. ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾: تُسِرُّوه في قلوبكم، وضمائركم. هذا؛ وما يخطر على البال، وتتحدَّث به النفس له مراتب خمسة: القصد، والهاجس، والخاطر، وهمٌّ، وعزم، فنظمها بعضُهم في قوله: [البسيط]

مَرَاتِبُ الْقَصْدِ خَمْسٌ هَاجِسٌ ذَكَرُوا ... وَخَاطِرٌ فَحَدِيثُ النَّفْسِ فَاسْتَمِعَا
يَلِيهِ هَمٌّ فَعَزْمٌ كَلُّهَا رُفِعَتْ ... سِوَى الأَخِيرِ، فَفِيهِ الأَخْذُ قَدْ وَقَعَا

في الآية الكريمة أقوال كثيرة، أكتفي بقولين:

الأوَّل: أنها منسوخةٌ بالآية التالية قاله كثيرٌ من الصحابة والتابعين، وذلك: أنَّه لمَّا نزلت اشتد ذلك على الصَّحابة، فأتوا رسول الله ﷺ، ثم جَثَوْا على الرُّكب، وقالوا: يا رسول الله! كُلِّفنا من الأعمال ما نطيق: الصَّلاة، والصِّيام، والجهاد، والصَّدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية، ولا نُطيقها، فقال رسول الله ﷺ: «**أتُريدُونَ أَنْ تَقُولُوا، كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ: سَمِعْنَا، وَعَصَيْنَا؟! بَلْ قُولُوا: سَمِعْنَا، وَأَطَعْنَا، غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ**» فَلَمَّا أقرَّ بها القوم، وذلَّت بها ألسنتهم؛ أنزل الله في أثرها: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ...﴾ إلخ، فلمَّا فعلوا ذلك نسخها الله، فأنزل الله قوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾.

القول الثاني: أنَّها محكمة غير منسوخةٍ، والله يحاسب خلقه على ما عملوا من عملٍ، وعلى ما لم يعملوه ممَّا ثبت في نفوسهم، وأضمروه، ونَوَوْه، وأرادوه، فيغفر للمؤمنين، ويأخذ به أهل الكفر، والنِّفاق، ذكره الطَّبريُّ عن قومٍ، فقد روي عن عليِّ بن أبي طلحة عن ابن عبَّاس - رضي الله عنهما -: أنه قال: لم تُنْسَخْ، ولكن إذا جمع الله الخلائق يقول: «إني أخبركم بما أكننتم في أنفسكم، فأمَّا المؤمنون، فيخبرهم، ثمَّ يغفر لهم، وأمَّا أهل الشَّكِّ والرَّيب؛ فيخبرهم بما أخفوه من التكذيب، فذلك قوله: ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ...﴾ إلخ، وهو قوله عز وجل: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْۗ﴾ من الشكِّ، والنِّفاق، وقال الضحاك: يُعْلِمُه الله يوم القيامة بما كان يُسِرُّه؛ ليعلم: أنَّه لم يَخْفَ عليه، وفي الخبر: «**إنَّ الله تعالى يقول يوم القيامة: هذا يوم تُبْلَى فِيهِ**

السَّرَائِرُ، وتخرجُ الضمائرُ، وأَن كُتَّابِي لم يكتبُوا إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْ أَعْمَالِكُمْ، وَأَنَا المُطَّلِعُ على مَا لَمْ يَطَّلِعُوا، ولم يخبروهُ، ولم يكتبُوهُ، فَأَنَا أُخْبِرُكُمْ بِهِ، وَأُحَاسِبُكُمْ عليهِ، فَأَغْفِرُ لِمَنْ أَشَاءُ، وَأُعذِّبُ مَنْ أَشَاءُ، فيغفرُ للمؤمنينَ، ويعذبُ الكافرين». وهذا أصحُّ ما في الباب. انتهى قرطبي.

وروى ابن جرير عن مجاهد، والضحاك: أنه قال: هي محكمةٌ، لم تنسخ، واختار ابن جرير ذلك، واحتجَّ على أنَّه لا يلزم من المُحاسبة المُعاقبةُ، وأنَّه تعالى قد يُحاسب، ويغفر، وقد يحاسب، ويعاقب بالحديث الذي رواه قتادة عن صفوان بن محرز ـ رضي الله عنه ـ، قال: بينما نحن نطوف بالبيت مع عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ، وهو يطوف؛ إذ عَرَضَ له رجلٌ، فقال: يا بن عمر! ما سمعت رسول الله ﷺ يقول في النَّجوى؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يَدْنُو المؤمنُ مِنْ رَبِّهِ عزَّ وجلَّ حتَّى يضعَ عَلَيْهِ كَنَفَهُ، فَيُقَرِّرهُ بذنُوبِهِ، فيقولُ لَهُ: هلْ تَعْرِفُ كَذَا؟ فيقولُ: رَبِّ أعرفُ ـ مرَّتَيْنِ ـ حتَّى إذا بلغ به ما شَاءَ اللهُ أَنْ يَبْلُغَ. قالَ: فَإِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيا، وَإِنِّي أَغْفِرُهَا لكَ اليومَ**» قال: فيعطى صحيفة حسناتِهِ، أو كتابه بيمينه، وأمَّا الكفار، والمنافقون، فينادَى بهم على رؤوس الأشهاد: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ رواه مسلم رحمه الله تعالى. هذا؛ وبين ﴿تُبۡدُواْ﴾ و﴿تُخۡفُوهُ﴾ وبين (يغفر) و(يعذب) طباق، وهو من المحسِّنات البديعية.

الإعراب: ﴿لِّلَّهِ﴾: متعلقان بمحذوف في محل رفع خبر مقدم. ﴿مَا﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل رفع مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها. ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: متعلقان بمحذوف صلة الموصول، التقدير: الذي وُجِدَ، أو سيوجد. ﴿وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾: معطوف على ما قبله، وهو مثله في إعرابه، وتقديره. ﴿وَإِن﴾: الواو: حرف عطف، أو حرف استئناف. (إن): حرف شرط جازم. ﴿تُبۡدُواْ﴾: فعل مضارع فعل الشرط مجزوم، وعلامة جزمه حذف النون نيابة عن السُّكون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والألف للتَّفريق، والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنها ابتدائية، ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفي. ﴿مَا﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل نصب مفعول به. ﴿فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾: متعلقان بمحذوف صلة الموصول، التقدير: الذي يوجد في أنفسكم، والكاف في محل جر بالإضافة. ﴿أَوۡ﴾: حرف عطف. ﴿تُخۡفُوهُ﴾: فعل مضارع معطوف على ما قبله مجزوم مثله... إلخ، والهاء مفعول به. ﴿يُحَاسِبۡكُم﴾: فعل مضارع جواب الشرط مجزوم، والكاف مفعول به. ﴿بِهِ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿ٱللَّهُۖ﴾: فاعله، والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنها جملة جواب الشرط، ولم تقترن بالفاء ولا بـ «إذا» الفجائية.

﴿فَيَغۡفِرُ﴾: يقرأ هذا الفعل بالجزم، والنَّصب، والرفع، فالجزم بالعطف على جواب الشرط، والنصب على إضمار «أن» بعد الفاء على اعتبارها للسَّببية، وعليه، فتؤوَّل «أن» المضمرة مع الفعل بمصدر معطوف بالفاء على مصدر متصيَّد من الفاعل السَّابق، والرفع على الاستئناف؛

أي: على اعتبار الجملة الفعلية في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: فهو يغفر، والجملة الاسمية هذه مستأنفة لا محل لها، وفاعل (يغفر) على جميع الاعتبارات يعود إلى ﴿ٱللَّهُ﴾، وما ذكرته في الآية الكريمة من وجوه الإعراب مقرَّر في القواعد النَّحوية كما يلي: «إذا عُطِف مضارع بالواو أو بالفاء على فعل الشرط يجوز جزمه، ونصبه، وإذا عطف على الجواب مضارعٌ بالواو، أو بالفاء يجوز جزمه، ونصبه، ورفعه»، وخذ قول ابن مالك رحمه الله تعالى في ألفيته: [الرجز]

وَالْفِعْلُ مِنْ بَعْدِ الْجَزَا إِنْ يَقْتَرِنْ ... بِالْفَا أَوِ الْوَاوِ بِتَثْلِيثٍ قَمِنْ
وَجَزْمٌ اَوْ نَصْبٌ لِفِعْلٍ إِثْرَ فَا ... أَوْ وَاوٍ اَنْ بِالْجُمْلَتَيْنِ اكْتَنَفَا

ومن شواهده الشِّعرية قول الشَّاعر: [الوافر]

فَإِنْ يَهْلِكْ أَبُو قَابُوسَ يَهْلِكْ ... رَبِيعُ النَّاسِ وَالشَّهْرُ الْحَرَامُ
وَتَأْخُذ بَعْدَهُ بِذِنَابِ عَيْشٍ ... أَجَبَّ الظَّهْرِ، لَيْسَ لَهُ سَنَامُ

﴿لِمَن﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، و(من): تحتمل الموصولة، والموصوفة. ﴿يَشَآءُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة الفعلية صلة (مَنْ) أو صفتها، والعائد أو الرابط محذوف، التقدير: للذي، أو: لشخص يشاؤه. ﴿وَيُعَذِّبُ﴾: معطوف على (يغفر) رفعاً، ونصباً، وجزماً، وباقي الإعراب مثل سابقه، ﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ، ﴿عَلَىٰ كُلِّ﴾: متعلقان بـ ﴿قَدِيرٌ﴾ بعدهما، و﴿كُلِّ﴾ مضاف، و﴿شَيْءٍ﴾: مضاف إليه. ﴿قَدِيرٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معترضة في آخر الكلام مبينة لكمال قدرته جلَّ علاه، لا محلَّ لها.

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾

الشرح: ﴿ءَامَنَ﴾: صدق. ﴿ٱلرَّسُولُ﴾: محمَّد ﷺ. ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾: أي: من القرآن، وتعاليم السَّماء النازل بها الوحي. ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: آمنوا بما آمن به محمَّد ﷺ. ﴿كُلٌّ﴾: أي: كلُّهم. ﴿ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾: بأنَّه واحدٌ أحد، فردٌ صمد، ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ لا إله غيره، ولا رب سواه.

﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾: أي بوجودهم، وأنَّهم معصومون مطهَّرون، وأنَّهم السَّفرة الكرام البررة، وأنَّهم الوسائط بين الله وبين رسله. ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾: أي: بأنَّ الكتب المنزلة من عند الله هي وحي من الله إلى رسله، وأنَّها حقٌّ، وصدقٌ من عند الله من غير شكٍّ، ولا ارتياب، وأنَّ القرآن لم

يُحرَّف، ولم يبدَّل، ولم يغيَّر، وأنَّه مشتملٌ على المُحْكم، والمتشابه، وأنَّ محكمه يكشف عن متشابهه. ﴿وَرُسُلِهِۦ﴾: بأنَّهم رسل الله إلى عباده، وأمناؤه على وحيه، وأنَّهم معصومون، وأنَّهم أفضل الخلق، وأنَّ بعضهم أفضل من بعضٍ بدليل قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ الآية رقم [٢٥٣].

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾: كما فعل اليهود والنَّصارى حيث أنكر اليهود نبوَّة عيسى عليه السلام، ثم أنكروا مع النَّصارى نبوَّة محمد ﷺ، أمَّا نحن؛ فنؤمن بجميع الرُّسل من لدن آدم إلى عهد حبيبنا، وشفيعنا محمَّدٍ ﷺ. ﴿وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا﴾ أي: سماع قبول فيما يأمرنا الله به.

﴿وَأَطَعْنَا﴾ أي: وأطعناه فيما ألزمنا به من فرائضه، واستعبدنا به مِنْ طاعته، وسلَّمنا لله فيما أمرنا به، ونهانا عنه. ﴿غُفْرَانَكَ﴾ أي: نسألك غفرانك يا ربنا! ﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: قالوا: إليك يا ربنا مرجعُنا، ومآلُنا، ومعادُنا، فاغفر لنا ذنوبنا، وإسرافنا في أمرنا، ففيه إقرار بالبعث والجزاء.

فقد روى البغويُّ بغير سندٍ عن حكيم بن جابر: أنَّ جبريل الأمين عليه السلام، قال للنَّبيِّ ﷺ: «**إنَّ الله عَزَّ وَجلَّ أثْنَى عَلَيْكَ، وعَلَى أُمَّتِكَ، فسلْ تُعْطَهُ!**» فسأل... إلى آخر السُّورة.

الإعراب: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ﴾: ماض، وفاعله. ﴿بِمَآ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، و(ما) تحتمل الموصولة، والموصوفة، ﴿أُنزِلَ﴾: فعل ماض مبني للمجهول، ونائب الفاعل يعود إلى (ما) وهو العائد، أو الرابط، والجملة الفعلية صلتها، أو صفتها. ﴿إِلَيْهِ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، ﴿مِن رَّبِّهِۦ﴾: متعلقان بمحذوف حال من نائب الفاعل العائد إلى (ما)، و﴿مِن﴾ بيان لما أبهم فيها، والهاء في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه، ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: يحتمل أن يكون معطوفاً على الرسول، والوقف عليه، وأن يكون مبتدأ، والوقف على ﴿رَّبِّهِۦ﴾ فهو مرفوع، وعلامة رفعه الواو نيابة عن الضمة لأنه جمع مذكر سالم، والنون عوض عن التنوين في الاسم المفرد. ﴿كُلٌّ﴾: مبتدأ، والمضاف إليه محذوف، التقدير: كلهم. ﴿ءَامَنَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى ﴿كُلٌّ﴾ باعتبار لفظه، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ﴾: مستأنفة على اعتبار المؤمنون معطوفاً على ما قبله، وهي في محل رفع خبره على اعتباره مبتدأ، والرابط الضمير الذي قدرته. ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ هذه الأسماء معطوفة على لفظ الجلالة، والهاء ضمير متصل في محل جر بالإضافة.

﴿لَا﴾: نافية. ﴿نُفَرِّقُ﴾: فعل مضارع، والفاعل مستتر تقديره: نحن، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول لفعل محذوف، التقدير: يقول، أو يقولون، وهذه الجملة في محل نصب حال من ﴿كُلٌّ﴾. ﴿بَيْنَ﴾: ظرف مكان متعلق بما قبله. ﴿بَيْنَ﴾: مضاف، و﴿أَحَدٍ﴾: مضاف إليه ﴿مِّن رُّسُلِهِۦ﴾: متعلقان بمحذوف صفة ﴿أَحَدٍ﴾. (قالوا): ماض مبني على الضم،

والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿سَمِعْنَا﴾: فعل وفاعل، والمفعول محذوف، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول. ﴿وَأَطَعْنَا﴾: فعل، وفاعل، والمفعول محذوف أيضاً، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، فهي في محل نصب مقول القول مثلها. وجملة: ﴿وَقَالُوا...﴾ إلخ معطوفة على جملة: ﴿ءَامَنَ...﴾ إلخ.

﴿غُفْرَانَكَ﴾: مفعول مطلق لفعل محذوف، التقدير: اغفر غفرانك، أو هو مفعول به ثان لفعل محذوف، التقدير: نسألك غفرانك، والكاف في محل جر بالإضافة، من إضافة المصدر لفاعله، والجملة الفعلية على الوجهين في محل نصب مقول القول. ﴿رَبَّنَا﴾: منادى حذف منه أداة النداء. (ونا): ضمير متصل في محل جر بالإضافة، مِنْ إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه، والجملة الندائية في محل نصب مقول القول أيضاً. (إليك): جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم. ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية معطوفة على محذوف، التقدير: منك المبتدأ، وإليك المصير، والكلام كلُّه في محل نصب مقول القول.

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾

الشرح: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾: التكليف: ما فيه كلفة، وقد يكون فيه مشقَّة، وتكلَّفت الأمر: تجشمته، وهذا نصٌّ على أنَّ الله تعالى لا يكلف العباد من وقت نزول الآية عبادةً من أعمال القلوب، أو الجوارح إلا وهي في وسع المكلَّف، وفي مقتضى إدراكه، ومقدوره، وبهذا انكشفت الكُربة عن المسلمين في تأولهم أَمْرَ الخواطر، وفي معنى هذه الآية ما حكاه أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: ما وَدِدْتُ: أنَّ أحداً ولدتني أمُّه إلا جعفر بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ، فإنِّي تبعتُه يوماً، وأنا جائع، فلمَّا بلغ منزله؛ لم يجد فيه سوى نِحْي سَمْنٍ قد بقي فيه أثارةٌ، فشقَّه بين أيدينا، فجعلنا نلعق ما فيه من السَّمن، والرُّبِّ (دبس التمر إذا طُبِخ) وهو يقول: [البسيط]

مَا كَلَّفَ اللهُ نَفْساً فوْقَ طَاقَتِهَا ... وَلَا تَجُودُ يَدٌ إِلَّا بِمَا تَجِدُ

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في روايةٍ عنه: هم المؤمنون خاصَّةً، وسَّع الله عليهم أمر دينهم، ولم يكلفهم ما لا يستطيعون، كما قال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾، وهذا من لطفه تعالى بخلقه، ورأفته

بهم، وإحسانه إليهم، وهذه هي الناسخة الرافعة لما كان أشفق منه الصَّحابة في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ أي: هو وإن حاسب، وسأل؛ لكن لا يعذب إلا بما يملك الشَّخص دفعه، فأمَّا ما لا يملك دفعه من وسوسة النَّفس، وحديثها؛ فهذا لا يكلَّف به الإنسان، وكراهيةُ الوسوسة السَّيئة من الإيمان.

فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: جاء ناس من أصحاب رسول الله ﷺ، فسألوه، فقالوا: إنا نجدُ في أنفسنا ما يتعاظم أحدُنا أن يتكلَّم به، قال: «**وَقَدْ وَجدتُموهُ؟!**» قالوا: نعم، قال: «**ذَاكَ صَرِيحُ الإِيْمَانِ**» أخرجه مسلم، وسئل رسول الله ﷺ عن الوسوسة، قال: «**تِلْكَ صَرِيحُ الإيمانِ**» أخرجه مسلم أيضاً.

هذا وذكرت الجملة: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾ في سورة (الأنعام) رقم [١٥٢] بعد نهي، وأمرين، وذكرت في سورة (الأعراف) رقم [٤١] بعد ذكر الإيمان، والعمل الصالح؛ ليبين الله: أن المطلوب من التكاليف والأعمال الصالحة ما سهل فعله، وما فيه عسر، ومشقَّةٌ فلسنا مكلَّفين بفعله، وغير مؤاخذين بتركه، والوسع: الطاقة، والقدرة.

﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾: الضمير يعود إلى النفس. و﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ من الخير ﴿وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ أي: من الشر، أي: لا ينتفع بطاعتها أحدٌ غيرها، ولا يتضرَّر بمعاصيها غيرها، وتخصيص الكسب بالخير، والاكتساب بالشَّرِّ؛ لأن الاكتساب فيه اعتمال، والشر تشتهيه النفس، وتنجذب إليه، فكانت أجدَّ في تحصيله، بخلاف الخير. انتهى. بيضاوي. وقال القرطبيُّ ـ رحمه الله تعالى ـ: وجاءت العبارة في الحسنات بـ ﴿لَهَا﴾ من حيث هي بما يفرح المرء بكسبه، ويسرُّ بها، فتضاف إلى ملكه، وجاءت السَّيئات بـ (عليها) من حيث هي أثقال، وأوزار، ومتحمَّلات صعبة، وهذا كما تقول: لي مال، وعليَّ دين، وكرَّر فعل الكسب، فخالف بين التصريف حُسْناً لنمط الكلام، كما قال تعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ قال ابن عطيَّة ـ رحمه الله تعالى ـ: ويظهر لي في هذا أن الحسنات هي ما تكتسب دون تكلُّف بها؛ إذ كاسبها على جادة أمر الله تعالى، ورَسْم شرعه، والسيئات تكتسب ببناء المبالغة؛ إذ كاسبها يتكلَّف في أمرها خرق حجاب نهي الله تعالى، ويتخطَّاه إليها، فيحسن في الآية مجيء التصريفين إحرازاً لهذا المعنى، وفي الجملتين ما يُسمَّى بالطباق المعنوي، وهو من المحسِّنات البديعيَّة.

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ أي: لا تؤاخذنا؛ إن حصل منا تفريط، أو تقصير بحقِّك بسبب نسيان، أو خطأ، لا عن عمدٍ، كما آخذت غيرنا، وقد تكرَّم الله على هذه الأمة؛ حيث رفع عنها ذلك؛ فعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ وضَعَ عَنْ أُمَّتِي الخطَأَ، وَالنِّسْيَانَ، وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيهِ**» رواه ابن ماجه، وابن حبان، وعن أمِّ الدرداء ـ رضي الله عنها ـ عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ لأُمَّتي عن ثلاثٍ: عن الخطأ، والنِّسيان،**

والاستكراه» وطلبُ رفع المؤاخذة اعترافٌ بنعمة الله علينا، وقد كانت الأمم السابقة تؤاخذ بالخطأ، والنِّسيان. ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا...﴾ إلخ: الإصر: الأمر الغليظ الصعب، ومنه قول النابغة: [البسيط]

يَا مَانِعَ الضَّيْمِ أَنْ يغْشَى سَرَاتَهُمُ وَالْحَامِلَ الإِصْرِ عَنْهُمْ بَعْدَ مَا عَرَفُوا

هذا وسميت التكاليف الشَّاقَّة إصراً؛ لأنَّها تثقل كاهل صاحبها، ومنه قوله تعالى في سورة (الأعراف) رقم [١٥٧] ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾، كما يسمى العهد والميثاق إصراً؛ لأنَّه ثقيل، ومنه قوله تعالى في سورة (آل عمران) رقم [٨١]: ﴿قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى﴾. ﴿كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾: المراد به ما كلِّف به بني إسرائيل من قتل النفس في التَّوبة، وإخراج رُبْع المال في الزَّكاة، وقَرْضِ موضع النَّجاسة، ومن أصاب ذنباً أصبح؛ وذنبه مكتوبٌ على باب داره، ونحو ذلك من الأثقال، والآصار الَّتي فُرضت عليهم: كانوا يبتعدون عن المرأة في أيام حيضها، وإذا جمعوا الغنائم لم يأكلوها، بل تنزل نارٌ من السَّماء، فتأكلها، لذا دعاهم الله إلى الإيمان بمحمَّد ﷺ؛ ليخفِّف عنهم هذه الأحكام الشَّاقة، قال تعالى في سورة (الأعراف) رقم [١٥٧]: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾. هذا؛ والإصرار: العهد، قال تعالى في سورة (آل عمران) رقم [٨١] : ﴿قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى﴾.

﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ أي: من التَّكاليف الشَّاقَّة، أو من العقوبات، والمصائب، والشَّدائد التي لا نستطيع حملها، وقيل: هيجان الغُلْمة، والعزوبة، وقيل: هو الفرقة، والقطيعة، وقيل: هو حديث النفس، والوسوسة، كما تقدم. ﴿وَٱعْفُ عَنَّا﴾ أي: تجاوز عن ذنوبنا، وسيئاتنا. ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا﴾: استر علينا ذنوبنا، ولا تفضحنا، والغفر: الستر. ﴿وَٱرْحَمْنَآ﴾: تغمَّدنا برحمتك التي تنجِّينا بها من عقابك، فإنه ليس بناجٍ من عقابك، وسخطك إلا مَنْ رحمته، وأصل الرَّحمة: رقَّة تقتضي الإحسان إلى المرحوم، ولهذا وصف بها الله تعالى، فليس يراد إلا الإحسان المجرد، والتفضُّل على العباد دون الرقَّة، وقيل: إنَّ طلب العفو هو أن يسقط عنه عقاب ذنوبه، وطلب المغفرة هو أن يستر عليه صوناً له من الفضيحة، كأن العبد يقول: أطلب منك العفو، وإذا عفوت عنِّي، فاستره عليَّ، فإذا عفا الله عن العبد، وستره، وتعطَّف عليه بالرَّحمة ـ التي هي الإنعام والإحسان ـ فإنه يفوز بالنعيم والثواب. ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾: ولينا، وناصرنا، ومتولِّي أمورنا. ﴿فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: الجاحدين؛ الذين عبدوا غيرك، وجحدوا وحدانيتك، وكذَّبوا برسالة نبيك ﷺ.

تنبيه: ورد في فضل سورة البقرة أحاديث ترغِّب في قراءتها، وتنوِّه بشأنها، وهناك أحاديث تخصُّ آية الكرسي بمزيدٍ من الفضل، وأحاديث تنوِّه بشأن هاتين الآيتين اللتين ختم الله بهما هذه السورة الكريمة، أذكر منها ما رواه عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ، قال: سمعت رسول الله ﷺ

يقول: «**أَنْزَلَ اللهُ عَلَيَّ آيَتَيْنِ مِنْ كُنُوزِ الجَنَّةِ، ختمَ بِهِمَا سورةَ البقرةِ، مَنْ قَرَأَهُمَا بَعْدَ الْعِشَاء مَرَّتَيْنِ أَجْزَأَتَاهُ عن قيامِ اللَّيْلِ**»، وقيلَ: «**كَفَتَاهُ مِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ، فَلَا يَكُونُ لَهُ عَلَيْهِ سُلطَانٌ**» رواه مسلم.

وعن أبي ذرٍّ ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ ختمَ سُورَةَ الْبَقَرةِ بآيتيْنِ أَعْطَانِيهِمَا مِنْ كَنْزِهِ؛ الَّذِي تَحْتَ الْعَرْشِ، فتعلَّمُوهُنَّ، وعَلِّمُوهُنَّ نِسَاءَكُمْ، وأَبْنَاءَكُمْ، فإِنَّهُمَا صَلَاةٌ، وقُرآنٌ، وَدُعَاءٌ**» رواه الحاكم، وقال: صحيح على شرط البخاريِّ، وقال الإمام عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ: ما أظنُّ أنَّ أحداً عقل، وأدرك الإسلام ينام حتَّى يقرأهما، وروي عن النبي ﷺ قال: «**أُوتِيْتُ هَذِهِ الآيَاتِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرةِ مِنْ كَنْزٍ، تَحْتَ الْعَرْشِ، لَمْ يُؤْتَهُنَّ نَبِيٌّ قَبْلِي**».

الإعراب: ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يُكَلِّفُ﴾: فعل مضارع. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله. ﴿نَفۡسًا﴾: مفعول به أوّل. ﴿إِلَّا﴾: حرف حصر. ﴿وُسۡعَهَاۚ﴾: مفعول به ثان، وقيل: المفعول الثاني محذوف، التقدير: لا يكلف الله نفساً عبادةً، وعليه فـ ﴿وُسۡعَهَاۚ﴾ منصوب بنزع الخافض، التقدير: إلا بوسعها، والأول أقوى، والجملة الفعلية مستأنفة لا محل لها. ﴿لَهَا﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم. ﴿مَا﴾: تحتمل الموصولة، والموصوفة والمصدرية، فعلى الأولين مبنية على السكون في محل رفع مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية مستأنفة لا محل له. ﴿كَسَبَتۡ﴾: فعل ماض، والتاء للتأنيث، والفاعل يعود إلى ﴿نَفۡسًا﴾، والجملة الفعلية صلة ﴿مَا﴾ أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف، التقدير: الذي، أو: شيء كسبته، وعلى اعتبار (ما) مصدرية تؤول مع الفعل بعدها بمصدر في محل رفع مبتدأ مؤخَّر، التقدير: لها كسبُها، وهي مستأنفةٌ كما رأيت، واعتبارها صفة ﴿نَفۡسًا﴾ بعيد. ﴿وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ﴾: إعرابها مثل إعراب سابقتها، وهي معطوفة عليها لا محلَّ لها مثلها.

﴿رَبَّنَا﴾: منادىً حذف منه أداة النداء، و(نا) في محل جر بالإضافة من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿لَا﴾: دعائية. ﴿تُؤَاخِذۡنَآ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ ﴿لَا﴾ والفاعل مستتر تقديره: أنت، و(نا) مفعول به، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها ابتدائية كالجملة الندائية قبلها. ﴿إِن﴾: حرف شرط جازم. ﴿نَّسِينَآ﴾: فعل ماض مبني على السكون في محل جزم فعل الشرط. و(نا) فاعله، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها ابتدائية، ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفي، وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه، التقدير: إن نسينا؛ فلا تؤاخذنا، وجملة: ﴿أَخۡطَأۡنَاۚ﴾ معطوفة على ما قبلها، وهي مثلها في إعرابها، و﴿إِن﴾ ومدخولها كلام لا محل له كالجملة الندائية. هذا؛ ويستشهد بهذا الكلام على مجيء (نا) مشتركة بين الرفع، والنصب، والجر.

﴿رَبَّنَا﴾: هذه الجملة الندائية معترضة بين الجمل المتعاطفة لإظهار مزيد الضراعة، والالتجاء إلى الربِّ الكريم، وقل مثل ذلك في الثالثة، وجملة: ﴿وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرًا﴾ معطوفة على جملة: ﴿لَا تُؤَاخِذۡنَآ﴾ وهي مثلها في محلِّها، وإعرابها، ﴿كَمَا﴾: الكاف: حرف تشبيه. وجر.

(ما): مصدرية. ﴿حَمَلْتَهُۥ﴾: فعل وفاعل ومفعول به. ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿مِن قَبْلِنَا﴾: متعلقان بمحذوف صلة الموصول، التقدير: على الذين وجدوا مِنْ قبلنا. (ونا) في محل جر بالإضافة، و(ما) المصدرية والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بالكاف، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف صفة لمصدر محذوف واقع مفعولاً مطلقاً، التقدير: ولا تحمل علينا إصراً حملاً كائناً مثل حمله. هذا؛ ويجوز اعتبار ﴿مَا﴾ موصولة مجرورة بالكاف، وجملة: ﴿حَمَلْتَهُۥ﴾ صلته، ويكون التقدير: مثل الذي حملته، وهذا ليس مذهب سيبويه ـ رحمه الله تعالى ـ وإنما مذهبه في مثل هذا التركيب أن يكون منصوباً على الحال من المصدر المضمر المفهوم من الفعل السَّابق، وإنَّما أحوج سيبويه إلى هذا؛ لأنَّ حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه لا يجوز إلا في مواضع محصورة. وليس هذا منها، ومثله في المُغني لابن هشام.

﴿رَبَّنَا﴾: مثل سابقتها، ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): دعائية. ﴿تُحَمِّلْنَا﴾: فعل مضارع مجزوم بلا، والفاعل تقديره: أنت، و(نا) مفعول به أول. ﴿مَا﴾: اسم موصول، أو نكرة موصوفة مبنية على السكون في محل نصب مفعول به ثان. ﴿لَا﴾: نافية للجنس تعمل عمل «إنَّ». ﴿طَاقَةَ﴾: اسمها مبني على الفتح في محل نصب. ﴿لَنَا﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال من الضمير المستتر في متعلق ﴿لَنَا﴾، أو متعلقان بمحذوف خبر ثان. (اعف): فعل دعاء مبني على حذف حرف العلة من آخره، وهو الواو، والضمة قبلها دليل عليها، والفاعل مستتر تقديره أنت. ﴿عَنَّا﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، ومثلها ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ﴾.

﴿أَنتَ﴾: ضمير منفصل مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ، ﴿مَوْلَىٰنَا﴾: خبره مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف للتعذر. و(نا): ضمير متصل في محل جر بالإضافة، من: إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه، والجملة الاسمية معترضة بين المتعاطفين لا محل لها، وإن اعتبرتها مفيدة للتعليل؛ فتكون الفاء بعدها مفيدة للسببية المحضة، وهي عاطفة على رأي ابن هشام، وعلى رأي مَنْ يجيز عطف الإنشاء على الخبر، وأرى: أنها الفصيحة؛ لأنها تفصح عن شرط مقدَّر، التقدير: وإذا كنت مولانا، فانصرنا... إلخ، واعتبار الفاء للسببية هو مفاد كلام الجمل، نقلاً عن السَّمين.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

انتهت سورة البقرة بعون الله تعالى وتوفيقه شرحاً وإعراباً

والحمد لله ربِّ العالمين

فهرس